فلا تجعلوا لله أندادًا

بقلم / عبد العزيز السيد عيد

لقد خلق الله الانس والجن لعبادته « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » (٥٦ الذاريات) • ومن أجل ذلك أنزل الله الكتب وأرسل الرسل • ولذا كان الأمر الأول فى كتاب الله هو عبادة الله عز وجل حيث يقول سبحانه « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (٢١ البقرة) • ولا تكون العبودية تامة وخالصة لله رب العالمين الا بترك الأنداد التى يتخذها البعض من دون الله مع أنها لا تملك من أمر نفسها شيئا فضلا عن غيرها • ولذلك قال الله تعالى « فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون » (٢٢ البقرة) •

كيف يتأتى لعاقل يعلم أن الله سبحانه هو الذى يخلق ويرزق وبيده ملكوت السموات والأرض وأمر الدنيا والآخرة ثم يتخذ من دونه أندادا « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين » (٩ فصلت) •

وقد أعلنها القرآن صريحة مدوية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال تعالى « قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين • وأمرت لأن أكون أول المسلمين قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم • قل الله أعبد مخلصا له دينى » (١١ — ١٤ الزمر) •

واذا كان من الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم

كحب اللـــه فان الـــذين آمنوا الايمان الصادق أشـــد حبـــا للـــه كمـــا قال تعالى : « ومن النـــاس من يتخـــذ من دون اللـــه أنـــدادا يحبونهم كحب اللـــه • والـــذين آمنوا أشـــد حبا للـــه » (١٦٥ البقرة) •

واذا كان هؤلاء الـــذين يتخـــذون الأنـــداد من دون اللـــه فى غفلة وعمى فيوم القيامة يلقون جزاءهم وساعتها لا ينفـــع الندم « ••• ولو يرى الـــذين ظلموا اذ يرون العـــذاب أن القوة للـــه جميعا وأن اللـــه شديد العـــذاب • اذ تبرأ الـــذين اتبعوا من الـــذين اتبعـــوا ورأوا العـــذاب وتقطعت بهم الأسباب • وقال الذين اتبعوا لو أن لنـــا كـــرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منـــا • كذلك يريهم اللـــه أعمالهم حسرات عليهم ومـــا هم بخارجين من النـــار » (١٦٥ ــ ١٦٧ البقرة) •

هكـــذا يكون مصير السادة والأتباع • الكل فى النار يصطلى بهـــا ويصطرخ فيها • وكل فريق يتبرأ من الآخر • واماممهم الكبير الشيطان قد أعلن البراءة منهم بعـــد أن قادهم الى النـــار التى لا يملكون لأنفسهم منهـــا فـــرارا •

واذا كان أمـــر الأنـــداد على هـــذه الخطورة ولا يكون اخلاص العبودية للـــه الا بالتخلص من الأنـــداد ••• فلنـــا أن نتساءل مـــا هى الأنـــداد التى حذرنا اللـــه من اتخاذها ؟ ونستطيع أن نستخرجها من القرآن الكريم كما يـــلى :

١ ــ الشيطان « ألـــم أعهـــد اليكم يا بنى آدم ألا تعبـــدوا الشيطان » • (٦٠ يس) •

٢ ــ الهوى « أفرأيت من اتخـــذ الهه هواه » (٢٣ الجاثية) •

٣ ، ٤ ــ الأحبـــار والرهبان ومن على شاكلتهم « اتخـــذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون اللـــه » (٣١ التوبة) •

٥ ــ الموتى ونصبهم من الحجارة وغيرها « ان الذين تدعون من

دون اللـــه عبـــاد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم ان كنتم صادقين » (١٩٤ الأعراف) .

من ٦ الى ١٣ ــ الآباء والأبناء والاخوان والأزواج والعشـــيرة والأموال والتجارة والمساكن « قـــل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من اللـــه ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى اللـــه بأمره واللـــه لا يهـــدى القوم الفاسقين » (٢٤ التوبة) .

هـــذه جملة من الأنـــداد ذكرها القرآن الكريم ليحذرها المســـلم اذا أراد أن تكون عبوديته خالصـــة للـــه وحـــده .

واذا كان النـــد فى اللغـــة هو الشبيه والمثيـــل وفى الشرع كل مـــا يصرف عن ذكر اللـــه وطاعته . فان اتخاذ هـــذه الأنـــداد يتفاوت من معصية الى معصية ومن كفـــر الى كفـــر ومن شرك الى شرك . فطاعة الشيطان مثلا نتيجتها الوقوع فى المعـــاصى صغيرة كانت أو كبـــيرة ويظل الشيطان يستدرج الانسان الى أن يوقعه فى الشرك الأكبر ان استطاع . وكذلك اتباع الهوى قـــد يصل بصاحبه الى أن يصم أذنيه عن كل حق . وطاعة الأحبـــار والرهبان ومن على شاكلتهم تصـــل بصاحبها الى تبديل شرع اللـــه وقـــد تصل بـــه الى الاستهزاء أو الكفر بهـــذا الشرع . أما دعاء الموتى واللجوء اليهم فى تفريج الكروب فهـــذا شرك صريح .

وكذلك الحال بالنسبة لباقى الأنـــداد امـــا أن تصـــل بصاحبها الى المعصية واما أن تصل به الى الكفر أو الشرك .

نسأل اللـــه لنا ولكم العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة .

عبد الرازق السيد عيـــد

هل نغير ديننا..؟

بقلم: عبد الرازق السيد عيد

« الدين ثابت والحياة تتغير ولابد أن يخضع الثابت للمتغير »

هذا ما طالعتنا به جريدة اللواء الاسلامى على لسان العلمانيين فى عددها الصادر فى ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٤٠٧هـ • وهكذا كشفوا عن نواياهم الخبيثة وحقدهم الدفين على الاسلام والمسلمين وما أشبه تصرف هؤلاء العلمانيين بما كان يفعله السوفسطائيون قديما من جدل عقيم حيث يقرون بالرأى ونقيضه فى آن واحد يبررون ما يريدون من اتباع للهوى وحب للشهوات • ولكن للحق والصدق نقول أن هؤلاء القدامى كانوا أوضح من العلمانيين فى عصرنا هذا لأنهم (القدامى) أنكروا وجود الله جملة وتفصيلا وكانوا يؤلهون هواهم صراحة بغير مواربة • أما العلمانيون اليوم ليست عندهم هذه الشجاعة الأدبية فى التصريح بانكار وجود الله أو انكار أن القرآن من عند الله وأن محمدا خاتم النبيين رسول الله • ولو فعلوا ذلك لأراحوا واستراحوا • ولكنهم للأسف مع ما قالوه مازالوا يقرون أنه لا اله الا الله وهذا الذى جعلنا نحاول الرد عليهم اليوم على اعتبار أنهم ينتسبون الى الاسلام ولنقبل منهم علانيتهم ثم نبين خطر هذه المقولة التى صدرت منهم • لكن فى أى نقاش عقلى يهدف الى الوصول الى الحقيقة لابد من التسليم ببدهيات أو مسلمات محددة لا تقبل المناقشة • فهل تسلمون معنا بالأمور الآتية :

١ ــ أن الله جل شأنه هو الخالق لهذا الكون بما فيه من عوالم والمهيمن على أمره صغيره وكبيره •

٢ ــ وهل تنزهون الله عز وجل فى ذاته وصفاته عن كل نقص وتثبتون له الكمال المطلق فى الذات والصفات والأسماء وبالتالى فى كل

ما يصدر عنه سبحانه وتعالى من تشريع •

٣ ــ وهل تؤمنون أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى المنزل على رسوله الأمين محمد ﷺ •

٤ ــ وأن القرآن والسنة توأمان لا يفترقان وأنه لابد من السنة الصحيحة الثابتة لفهم القرآن والعمل بما فيه •

اذا أقررنا بهذه الأمور التى يجب ألا ينكرها أو أحدها مسلم يمكننا أن نناقش العبارة التى ذكرتموها مناقشة بحتة وعقلية فنقول أولا ماذا تقصدون بالثبات والتغير ؟ وحتى لا يطول الجدل حول تعريفات نعفى القارىء الكريم منها نقول بسرعة ان التغير قد يكون للأفضل أوَ للاسوأ وهذا أمر واقع ومشاهد فى حياتنا المادية فان جاز هذا الأمر للماديات وللحياة التى نعيشها فانه لا يجوز على الله سبحانه عقلا أو شرعا لأن الله له الكمال المطلق ومحال عليه أن يتغير الى النقص • فاذا كان الأمر كذلك بمنطق العقل فان هذا المنطق نفسه يقول ان الثبات فى حق الله واجب لله وميزة وليس عيبا وأنه سبحانه وتعالى الذى يغير ولا يتغير وهوَ الذى يغير كيف شاء وبما شاء • واذا سلمنا بهذا لله من منطلق اعتقادنا فى البدهية الأولى والثانية لابد أن نسلم بذلك لشرع الله لأن الشرع من عند الله الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى • والشرع يستمد كماله من كمال الله تعالى وتنزهه عن النقص من تنزيه الله فى ذاته وصفاته حيث لا انفصام بين العقيدة والشريعة اذا كنا نعتقد أن الله سميع عليم عزيز حكيم • ثم من الذى له حق أن يغير الشرع ؟ أليس هوَ المشرع ؟ اذن فالله سبحانه وتعالى وحده هو الذى له حق التغيير من عدمه • وقد رد القرآن الكريم على نفس المقولة قديما حين طلب المشركون من رسول الله ﷺ تغيير القرآن وقالوا كما نص القرآن « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله • قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا ما يوحى الى • انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم » الآية ١٥ من سورة يونس •

البقية صفحة (٤٢)

هكذا بين القرآن الكريم أن التغيير من حق الله وحده سبحانه وحتى رسول الله ﷺ لا يملك الا الاتباع • واذا سلمنا بهذا الحق لله وحده فان الله سبحانه وتعالى غير الشرائع على مر التاريخ بما يناسب أحوال المخاطبين فكانت العقيدة واحدة مع كل رسول والشريعة تتغير بتغير الزمان والمكان حتى أخبرنا الله عز وجل فى كتابه الكريم أنه أتم لنا النعمة وأكمل لنا الدين ورضى لنا الاسلام دينا فقال عز وجل « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » الآية ٣ من سورة المائدة • فالدين قد كمل ببعثة رسول الله ﷺ وبنزول القرآن الكريم • والشرائع قد تمت بشريعة الاسلام حيث لا نبى بعد رسول الله ولا قرآن بعد القرآن فلا يسعنا الا اتباع شرع الله ان كنا لا نشك أنه من عند الله تعالى •

هل نريد اخضاع شرع الله الخالق لعقولنا المخلوقة ؟ أم هل عندنا الشجاعة أن نقول نريدها فوضى بغير دين ؟ ان شرع الله عز وجل يستوعب الزمان والمكان لأنه من عند خالق الزمان والمكان وقد خصه الله بخصائص تكفل له البقاء والاستمرار •

عبد الرازق السيد ابراهيم عيد

إن الدين عند الله الإسلام

بقلم : عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذى له أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون • والصلاة والسلام على نبيه ورسوله محمد ﷺ الذى قاد أمته بالاسلام الكامل لله رب العالمين • وبعد : فقد تلاحظ لدينا من خلال متابعة ما يكتب فى الصحف السيارة والمجلات الدورية أن كثيرا من الكتاب الذين يتعرضون للكلام عن الاسلام وأحيانا يوصفون بالمفكرين الاسلاميين — تلاحظ أن هؤلاء وغيرهم كثير ، يخلطون فى فهم دينهم الذى ينتسبون اليه مع الأسف ولم تتضح أمامهم الرؤية كاملة فى فهم قوله تعالى « ان الدين عند الله الاسلام » ١٩ آل عمران ، وقوله تعالى « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » ٨٥ آل عمران • والحقيقة أنه لم يغب عنهم فهم هاتين الآيتين فقط بل فهم الاسلام عموما • وللأسف ينصب هؤلاء أنفسهم مناصب المفتين والمجتهدين فى دين الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير أو ينصبون اتباعا للهوى وذلك هو الضلال المبين •

أما عن الاسلام فهو الدين الذى رضيه الله لعباده وأرسل به جميع رسله صلوات الله عليهم أجمعين • فهذا نوح عليه السلام أول رسول من أولى العزم يأتى بالاسلام ويدعو قومه اليه • قال تعالى مخبرا عن نوح « فان توليتم فما سألتكم من أجر ان أجرى الا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين » ٧٢ يونس • وهذا ابراهيم عليه السلام ثانى الأنبياء والرسل من أولى العزم يعلن اسلامه لله رب العالمين فيما أخبر الله تعالى عنه « ومن يرغب عن ملة ابراهيم الا من سفه نفسه • ولقد اصطفيناه فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين • اذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين » ١٣٠ — ١٣١ آل عمران • وها هو موسى عليه السلام ثالث الرسل أولى العزم يسلم قياده لربه ويدعو قومه للاسلام :

قال تعالى : « وقال موسى يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين » ٨٤ يونس • وها هم أتباع عيسى يقرون باسلامهم • قال تعالى « واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » ١١١ المائدة • ثم يأتى خامس الرسل من أولى العزم وخاتمهم وخاتم النبيين محمد ﷺ لم يأت بدعا من الرسل بل جاء على ملة أبيه ابراهيم وعلى طريق اخوانه الأنبياء والمرسلين « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين • قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين • لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » ١٦١—١٦٣ الانعام فها هو رسولنا عليه السلام يأتى بالاسلام الذى جاء به الأنبياء جميعا لأن الذى أرسله هو الذى أرسل من سبقه من الرسل • وقال تعالى : « انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا » ١٦٣ النساء • وقال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه •• » ١٣ الشورى •

هذا هو الاسلام الذى رضيه الله لعباده ولن يقبل من أحد دينا سواه • وهذا الدين قد أكمله الله ببعثه محمد ﷺ ورضيه لأمته وسجل هذا فى كتابه الكريم : « ••• اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » ٣ المائدة •

واذا كان الله لا يقبل من عباده الا الاسلام فانه لا يقبل الا الاسلام الذى جاء به محمد ﷺ ولذلك طلب الله سبحانه وتعالى من اليهود والنصارى الذين عاصروه ومن بعدهم أن يتبعوا هذا النبى الأمى • فقال تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم • فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى

أنزل معـــه أولئـــك هم المفلحون » ١٥٧ الأعراف .

وكثير من اليهود والنصارى اتبعوا محمدا ﷺ لما عرفوه وصدقت عقيدتهم مع الله وكثير منهم أيضا كتم الحق وكذب على الله ورســـوله وأصر على ضلاله . وسجل الله ذلك عليهم فى كتابه العزيز « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يســـتفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة اللـــه على الكافرين » ٨٩ البقرة . ولما كانت دعوة محمد ﷺ هى دعوة الأنبياء والخروج عنها كفر بالله وكتبه ورسله أمر الله رسوله أن يوجه الدعوة الى أهل الكتـــاب (اليهود والنصارى) وأن يقيم الحجة عليهم حتى يحيا من حى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة فقال تعالى : « قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضـــنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشـــهدوا بأنا مســـلمون » ٦٤ آل عمـــــران .

ولما أصر اليهود والنصارى على الكفر بمحمد وبكتابه وتصوروا مع ذلك أنهم على الحق وأنهم على دين ابراهيم عليه السلام ، فضح الله بهتانهم وضلالهم فى آيات كثيرة من كتابه الكريم نذكر منها على سبيل المثال وليس الحصر : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا . قل بـــل ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين » ١٣٥ البقرة . ثم يؤكد القرآن الكريم فى صراحة ووضوح « ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » ١٦٧ آل عمران . واستنكر الله عليهم استمرارهم على المخالفة والخروج عن طريق الأنبياء وهو دين محمد وأتباعه « أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها واليه يرجعون » ٨٣ آل عمران . هذا هو الاسلام دين اللـــه الذى رضيه لعباده من لدن آدم وأكمله ورضيه لرسوله محمد وأمتـــه ولا يقبل من عباده الا هذا الدين . وما يسمع بمحمـــد كائن من كان يهوديا أو نصرانيا ولا يؤمن به الا دخل النار خالدا فيها فهل قـــدر مسلمو اليوم هذه النعمة العظيمة التى امتن الله عليهم بها حيث بوأهم مكان القيادة للأمم الأخرى والشهادة عليهم يوم القيـــامة ؟ أم مازال

البعض يتصورا أنه لا فرق بين الاسلام وبين اليهودية والنصرانية ؟ بل والبعض الآخر يؤثر الهوى على الاسلام • وهل تكون القيادة والريادة لقوم آمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض ولم يقدروا نعمة الله عليهم حيث فقدوا نعمة التمييز بين الحق الذى حباهم الله به وبين الباطل الذى عليه غيرهم ؟ وهل تكون القيادة والريادة لقوم تنكبوا سنة رسولهم وخالفوا هدى أسلافهم ؟ لا والله لا تكون الا اذا تمسكنا بأهداب ديننا ، وخشعنا فى صلاتنا لربنا والتزمنا هدى رسولنا وصحبه الأبرار حيث نزل فيهم قول العزيز الغفار « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ••• » ١١٠ آل عمران • والله سبحانه بين لنا فى كتابه طريق الفلاح فقال جل ذكره : « يأيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا وافعلوا الخير لعلكم تفلحون • وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير » ٧٧ ، ٧٨ الحج •

عبد الرازق السيد عيد

تجديد الاشتراكات

تذكر مجلة التوحيد الاخوة المشتركين فى المجلة فى مصر والخارج الذين انتهت اشتراكاتهم أو قاربت على الانتهاء أن يجددوا اشتراكاتهم حتى يمكننا مواصلة ارسال المجلة اليهم • وترسل جميع الشيكات والحوالات الخاصة بالاشتراكات باسم (مجلة التوحيد) •

والله الموفق لما يحب ويرضى

التطاول على الإسلام

بقلم : عبد الرازق السيد عيد

« حسبنا الله ونعم الوكيل » بعض الناس يبحث عن الشهرة بالباطل ولو على حساب دينه وشرفه ، ويهوى التسلق على أكتاف الآخرين . لقد تداعت الى ذهنى هذه المعانى وأنا أقرأ مقالا لأحد العلمانيين الجدد الذى يبدو من جرأته على الحق وفحش لسانه فى القول وتهكمه على الأئمة والعلماء والدعاة واتهامه للأبرياء ومن تطاوله على الاسلام والمسلمين ... يبدو من ذلك كله أنه ماركسى حاقد يريد الحظوة عند سادته فى الكرملين . ولعل ذلك الكاتب المغمور المغرور يريد أن يتربع على عرش أستاذه الهالك الذى كان أمكر منه قلما وأمهر أسلوبا وأشد دهاء . وعلى كل .. لو دامت لأستاذه أو لغيره ما وصلت اليه .

لقد ملأ الحقد والغيظ قلب الكاتب على الصحوة الاسلامية فوصفها (بالانتحار) وعلى الشباب المسلم فوصفه بالجهل والتطرف .. ولم يسلم من قلمه هؤلاء الذين هداهم الله وعرفوا طريق الحق فوصفهم بركوب الموجة والعمالة والنفاق ، وسخر منهم وتهكم عليهم وعلى العلماء والأئمة بأسلوب مفضوح ، وتجرأ على أحكام الدين وعلى آيات القرآن. ولم يقف عند هذا الحد بل أخذ يفتى بغير علم ويضع نفسه فى عداد أهل الفتوى فى حين أنه هو فى مقاله هاجم أصحاب الاختصاص وعلماء الدين واتهمهم بالتصدى للفتوى بغير علم ، فوقع فيما حذر منه . وهذه حالة نفسية يرى فيها المريض الناس من خلال نفسه بكل عيوبها ، ويفقد القدرة على التمييز ، ويهذى بما لا يعرف ، ويتهم الناس بالباطل ، فلأنه نفعى مادى يظن الناس كذلك لا يتحركون فى حياتهم الا بدوافع من غرائزهم المادية .

فهذا الذى يتجنى على خلق الله دون مبرر ، ويتعجب من توبة

التائبين ، ألا يكون بذلك قد ضيق ما وسعه الله وصد الناس عن رحمة الله ؟ ويتصدى مفتى الفتنة للفتوى فيقول « وهل نكون جادين اذا قلنا مثلا : ان الرقص ليس فنا وان الباليه يثير الغرائز وانه أسوأ من الرقص الشرقى » هذا النقد للرقص قاله واحد من مشاهير مشايخنا فاتهمه العلمانى الجديد بأنه ليس جادا فى قوله لأن الرقص فن عظيم رفيع يسمو بالنفس ويرتفع بالروح الى مصاف الملائكة • نعم هكذا يقول « ان الرقص مغالبة للغريزة وتحرر من الأرض والجاذبية » ثم يسوق كلاما لغيره يستشهد به فى هذا المجال « لو كان للرقص سماء اذن لكان الراقصون والراقصات هم الأبرار المقربون وهم الملائكة الكروبيون » ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، عشنا حتى رأينا من يرفع الراقصين والراقصات الى مصاف الملائكة ، والله أعلم بما سيأتى بعد ذلك من فتن •

وان أردت أيها القارىء الكريم أن تعرف مدى تقدير هذا العلمانى وأمثاله للاسلام فاليك بعض ما كتبه فى مقاله عن الفن « أما تحليله وتحريمه فغير مقبول حتى من وجهة نظر دينية مستنيرة لأن الفن ليس أمرا من أمور الدين وان لم يتناقض معه اذ هو أيضا — أى الفن — نشاط روحى له قوانينه التى تنظمه بعيدا عن الدين كما أن للعلم قوانينه وللطب قوانينه فليس لعلماء الدين سلطة على الفن كما لا سلطة لهم على العلم » الى آخر ما كتبه وكرره كثيرا فى مقاله بما يؤكد أن الفن لا ينظر اليه بمقياس الحلال والحرام •

هذه الأقوال الغريبة ألا تعد دعوة صريحة للتحلل من كل قيم الاسلام ، ودعوة لكف يد الاسلام عن مجرد القول فى أى أمر ، وترك الأمور كلها لأهواء هؤلاء وشهواتهم يحكمون ويتحكمون كما يشاءون ، ويرقصون ويغنون ويشربون بلا رادع من شرع ولا وازع من دين ؟ انها اذن الجاهلية تطل برأسها من جديد مهما تغيرت أثوابها •

والحمد لله أن فضح هذه الشرذمة على لسان واحد من زبانيتها حتى يبطل بلسانه دعوى الجمع بين الماركسية والاسلام ، لأن الشيوعيين

بكل طوائفهم يؤلهون المادة والهوى وها نحن قد رأينا وسمعنا كلامهم انهم يؤلهون كل شيء الا الله .

ونحن نرد عليهم بما علمنا الله في كتابه الكريم حين أمر نبينا محمدا ﷺ بقوله تعالى « قل انى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين ، قل انى أخاف ان عصيت ربى عذاب يوم عظيم ، قل الله أعبد مخلصا له دينى ، فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين » ١١ ــ ١٥ الزمر .

عبد الرازق السيد عيد

أنجعل العقل ندا لله

بقلم : عبد الرازق السيد إبراهيم عيد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد فاستكمالا لمقال سبق دحضا لمزاعم الدكتور أحمد خلف الله وقد كان من جملة مازعمه أن "العقل يفوق الإسلام عند تقديم الحلول لمشكلات الحياة اليومية". والدكتورحين يزعم ذلك يتجاهل حقائق تاريخية ودينية بديهية وواضحة. يتجاهل من حقائق التاريخ أن العرب كانوا أمة بلا حضارة فجاء الإسلام ليصنع بهم حضارة راسخة الأركان باسقة الذرى امتد أثرها شرقا وغربا حتى غدا طلاب العلم من أوروبا تلامذة على أيدى العلماء المسلمين بالأندلس ينهلون من معين العلم فى شتى فروعه (طب، كمياء ، هندسة وغير ذلك) وبشهادة الأوربيين أنفسهم أن أوربا مدينة لحضارة المسلمين إبان نشأتها فبينما كانت أوربا تغط فى ليلها البهيم كان الشرق قد استيقظ على شمس الإسلام المشرقة والتى راح ينتشر سنا ضوئها إلى أوربا ذاتها .

فمن الذى أيقظ عقول العرب والمسلمين من شتى الأجناس من سباتها؟ أليس هو الإسلام ؟ كيف تتجاهل هذه الحضارة العريقة التى ظلت قرونا طويلة ؟ أليس الذى صاغها فى كل مجالاتها هو العقل المسلم بتوجيه من القرآن والسنة ؟ والدكتور كذلك يتجاهل الحقيقة التاريخية التي تثبت أن أوربالم تتقدم فى مجال الحضارة المادية إلا حينما رفضت المسيحية أو بالأحرى رفضت قيد الكنيسة على العقول والأفكار ، وهذا أمر طبيعى كان لابد أن يحدث ، فالمسيحية التى صنعها " بولس " وغيره كانت حجر عثرة أمام أى تقدم مادى للأوربيين ، كانت تدعوهم إلى الرهبنة واعتزال الحياة ، وترك ضوضاء المجتمع البشرى ، واللجوء إلى الكهوف والمغارات فى الجبال. إذا أراد المسيحى

الرقى الروحى فعليه أن يفعل ذلك وأن يعتزل الحياة العائلية وليضرب بها عرض الحائط ، وليعتزل المرأة ، وليتجنب ظلها. فكان لابد أن يحدث الصدام والصراع لأن هذه التعاليم تخالف الفطرة الإنسانية لأنها ليست من عند الله ولكنها من صنع القساوسة والرهبان. فإذا كانت أوربا لم تتقدم إلا على أشلاء الكنيسة ، فإن العكس حدث فى العالم الإسلامى فإنه بدأ ينهار يوم بدأ يتخلى عن إسلامه لأنه الإسلام كما أسلفنا هو سر تقدمه ، ذلك لأن الإسلام مُنَزَّلٌ من رب العالمين الذى خلق الإنس والجن وخلق العقل وأمده بقدراته المختلفة . فهل تجعل يادكتور العقل ندا لله ؟ هل المخلوق ند للخالق ؟ أو هل ترى أن هناك تناقضا بين الإسلام والعقل؟ كيف يكون ذلك ومعجزة الإسلام الأساسية هى القرآن لم تكن معجزة حسية كناقة صالح أو عصا موسى أو معجزات عيسى الخارقة للعادة . إن معجزة الإسلام التى تحدى الله بها الإنس والجن هى القرآن . إن ذلك فى حد ذاته ودحض لافتراء أو جهل من يقولون إن الإسلام يحجر على العقل بل على العكس فالقرآن وجه خطابه لأولى الألباب ، والقرآن زكّى أصحاب العقول وأعلى من ذكرهم (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) ١٩٠ آل عمران وأن القرآن نعى على الكافرين استخدام عقولهم لمعرفة الحق " وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير "١٠ الملك ، وأن أول آيات القرآن الكريم نزولا : " إقرأ ، " ن والقلم ومايسطرون " وأن الله أثنى على العلماءفى أكثر من موضع فى كتابه الكريم .ومعلوم أن القراءة وثيقة الصلة بالعقل، وإذا أردنا التوسع فى ذكر الأمثلة من الكتاب والسنة التى تؤكد احترام الإسلام للعقل وتقديره لدوره فى الحياة بل جعله طريق الإيمان ما وسعنا المجال . لكن المشكلة ليست فى ذلك وأعتقد جازما أن الدكتور خلف الله لا يجهل ذلك ، وإنما يتجاهله لأنه تلميذ وفىّ لمدرسة الاستشراق الأولى التى أسسها القس البريطانى (دنلوب) فى زمن (اللورد كرومر) أول مندوب بريطانى على مصر . تلك المدرسة التى أحكمت قبضتها على نظام التعليم والإعلام فى مصر آنذاك بهدف اقتلاع الإسلام من قلوب المسلمين وتخريج أجيال من المتعالمين من أبناء

مصر ينفّذون خطة الاستعمار وعلى المدى البعيد وبأيد مصرية مسلمة . لقد تعلم الدكتور خلف الله وأمثاله من مدرسة المبشرين الأوائل (أن سبب تخلف المسلمين هو الإسلام) وتلقنوا كذلك (أن على المسلمين لكى يتقدموا التخلص من إسلامهم كما فعلت أوربا وتحررت من قبضة الكنيسة) (وأن على المسلمين ألا يفكروا بعقلية القرون الوسطى التى كانت تعتبر الدين أساس الحياة . وأساس الحياة اليوم هو العلم وليس الدين) بهذه العقلية يفكر الدكتور وكل من سار سيره إنهم يريدون صبغ الحياة فى مصر بل فى العالم الإسلامى بالصبغة الأوربية ومحو كل أثر للإسلام من واقع الناس كما ذكر طه حسين فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) وكما هى الخطة التى استقدم لها كرومر دنلوب خصيصا . إن الدكتور وأمثاله لايريدون أن يفرقوا بين الباطل والحق بين دين صاغته أيدى البشر ولم يتقدم أهله إلا بالثورة عليه ، وبين دين تخلف أهله يوم تخلفوا عن التمسك بأهدابه .. بين ما هو من عند الناس وبين ما هو من عند الله .

إن حضارة الغرب بهرتْهمُ إلى حد جعلهم يتغافلون عن مساوئها التى لاحصر لها . وهكذا كل حضارة تقوم على الجانب المادى وحده . (ونحن فى غنى عن ذكر الأمثلة فالواقع يكفى) .

يريد الدكتور أن يحمّل الإسلام أخطاء المسلمين ، ويتغافل عن حضارة الإسلام التى أقامها المسلمون فى كل أرجاء الحياة على أساس من العقيدة الصحيحة والعدل الشامل. لايريد أن يعترف بما تميز به الإسلام عن غيره من خصائص تضمن له البقاء والاستمرار فى توجيه دفة الحياة لأنه يستمد خصائصه من الله الحى القيوم العليم بما يصلح عباده فى كل مكان وزمان . يريد منا الدكتور وأمثاله أن نحتكم إلى العقل المخلوق ونترك الأحكام لله الخالق سبحانه .

إلا إذا كان الدكتور يرى أن مع الله آلهة أحرى ومنها (العقل) ولكن المسلمين لا يعرفون إلا إلها واحدا خلق فسوى وقدر فهدى وله الحكم والأمر .

عبد الرازق السيد ابراهيم عيد

الأخذ بأحاديث الآحاد

فى أمور التشريع والاعتقاد

بقلم: عبد الرازق السيد ابراهيم عيد

مضت قرون الخير الثلاثة : قرن الرسول والصحابة، وقرن التابعين وتابعيهم ولم تثر قضية أحاديث الآحاد لامن بعيد ولامن قريب .

فكان الأمر على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمن صحابته الكرام على قبول خبر الواحد العدل دون تردد والعمل به فى سائر أمور الدين. بهذا نطق القرآن وبلغت السنة المطهرة وعمل الصحابة البررة. وهذه بعض النماذج :

أولاً: من القرآن الكريم:

(أ) «يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا» ٦ الحجرات فهنا يأمر سبحانه المؤمنين بالتثبت فى قبول خبر الواحد الفاسق، فيفهم فى المقابل أنها تفيد قبول خبر الواحد العدل دون تردد.

(ب) «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون» ٥٩ البقرة. وقوله تعالى «واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ...» ٣٤ الأحزاب.

استدل الإمام القرطبى بهما على قبول خبر الواحد من الرجال ومن النساء أيضا.

ثانيا: من السنة المطهرة:

١ - حديث «بلغوا عنى ولو آية» الحديث رواه البخارى وأحمد وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، وقال أهل العلم: إن الأمر بالتبليغ هنا يشمل الواحد فما فوقه.

٢ - وحديث «نضر الله امرءا سمع منا شيئا فبلغه ...» رواه

أحمد وأبو داود وقال: حديث حسن صحيح. وقد جاء هذا الحديث بروايات متعددة عن زيد بن ثابت ، وأنس، وجبير بن مطعم، والنعمان بن بشير رضى الله عنهم وجاء عن غيرهم أيضا والحديث واضح الدلالة على قبول خبر الواحد.

٣ - وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يبعث رسله آحادا ويرسل كتبه مع الآحاد ولم يكن المرسل إليهم يقولون: لانقبل أخبارهم لأنهم آحاد.

ثالثا: - «لما تحولت القبلة إلى الكعبة خرج رجل ممن صلى مع النبى ﷺ فمر على أهل قباء وهم يصلون فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل عليه قرآن، وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا الى الكعبة» متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما. فهؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ لم يترددوا فى قبول خبر الواحد وأداروا وجوههم فور سماعهم الخبر.

ومثل هذا يقال فى الآيات التى نزلت فى تحريم الخمر وغيرها كثير لو تتبعناه فى سيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يدل على أنهم رضى الله عنهم لم يكونوا يترددون فى قبول خبر الواحد العدل والعمل به، وعلى هذا سارت الأمة سلفا وخلفا: الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان من الأئمة الأربعة وأهل الحديث قاطبة، ولم تظهر بدعة التردد فى العمل بأحاديث الآحاد الا فى عصور الضعف وعند ظهور الفرق وبخاصة المعتزلة وقد تفشى هذا الأمر فى العصور الأخيرة وأصبح له أنصار ومروجون له فى معاهدنا العلمية المختلفة وحجتهم الواهية هى أن حديث الآحاد لايفيد العلم القطعى بل يفيد العلم الظنى. وهذه حجة عقلية يخالفون بها سيرة السلف الصالح وجمهور أهل الحديث.

وقد ترتب على هذا الموقف من أصحابنا المصابين بعقدة رفض العمل بأحاديث الآحاد الصحيحة أقول ترتب على ذلك مفاسد جمة منها : -

١ - أنهم يرفضون كثيرا من أمور العقيدة التى تلقتها الأمة بالقبول منها على سبيل المثال : -

(أ) إنكار نزول عيسى، وظهور الدجال (ب) إنكار شفاعة النبيﷺ (جـ) إنكار عذاب القبر (د) إنكار دخول سبعين ألفا الجنة بغير حساب على الرغم من وجود الحديث فى البخارى ومسلم (هـ) وإنكار كثير من أمور يوم القيامة

٢ - تطرق الأمر الى إباحة كثير من المحرمات مثل الموسيقى، والغناء وغيرهما.

٣ - وتجرأ البعض وأنكر حد الردة استنادا الى هذه الدعوى الباطلة.

٤ - استهانة الكثير ممن لاحظّ لهم فى العلم بالسنة النبوية المطهرة فأخذوا يقبلون ويرفضون الأحاديث حسبما تملى عليهم أهواؤهم فقط حتي ظهر من أطلقوا على أنفسهم القرآنيين، ويرفضون العمل بأحاديث رسول الله ﷺ وللأسف كان زعيمهم من الحاصلين على الدكتوراة من الأزهر.

وخلاصة القول أن توهين العمل بأحاديث الآحاد الصحيحة قد فتح بابا بل أبوابا من الفتن لا مخرج منها الا بالعودة لما كان عليه الرسول وأصحابه وسلف الأمة الصالح وترك تحكيم الأهواء فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونحن نتساءل لماذا لايسعنا ما وسع أسلافنا وما كان عليه أئمتنا المعتبرون ؟ فحديث الآحاد مادام صحيحا فهو يفيد العلم ويعمل به فى كل أمور الدين من عقيدة وعبادة وشريعة، بهذا قال جماهير العلماء من السلف والخلف. وبهذا قال جمهور المصنفين: كالسرخى، وغيره من أتباع أبى حنيفة، والقاضى عبد الوهاب وأمثاله من المالكية، وأبى حامد الاسفارينى، والقاضى أبى الطيب الطبرى وأبى اسحق الشيرازى وغيرهم من المصنفين فى أصول فقه المذهب الشافعى وأبى عبد الله بن حامد وابى يعلى وأبى الخطاب وغيرهم من الحنابلة . ومن أراد الاستزادة فى هذا الموضوع فليراجع ماكتبه أهل العلم فى ذلك من أمثال ابن حجر وابن تيمية وابن القيم وغيرهم رحمة الله عليهم أجمعين .

أسأل الله أن يلهمنا جميعا رشدنا وأن يهدينا إلى سواء السبيل .

عبد الرازق السيد ابراهيم عيد

خطر مدارس اللغات على لغة القرآن

بقلم: عبد الرازق السيد إبراهيم عيد

الحمد لله الذى اختار رسوله من بين العرب وجعله للناس كافة بشيرا ونذيرا وأنزل عليه القرآن بلسان عربى مبين، وجعله محفوظا بحفظه إلى يوم الدين.وبعد

فقد أشارت مجلة التوحيد فى عددها الصادر فى جمادى الآخرة لسنة ١٤٠٩ إلى ذلك المخطط الرهيب المتخفىّ وراء مدارس اللغات، والذى يهدف إلى ضرب الأمة الإسلامية فى أعز ما تملك - فى دينها ونشئها - وهذا المخطط ليس إلا امتداد لمخطط القسّ البريطانى دنلوب الذى وضع نظام التعليم بوزارة المعارف المصرية فى زمن اللورد كرومر أيام كان مندوبا على مصر والتى تهدف فى النهاية إلى عزل الجيل المسلم عن دينه وتشويه صورة الإسلام فى نفوس أبنائه حتى تنشأ أجيال مبتوتة الصلة بربها، بعيدة عن التأسى بنبيها والاقتداء به، معزولة عن تراثها. هذا هو الهدف الأساسى لكل أعداء الإسلام مهما اختلف أسلوبهم وتنوعت وسائلهم . وقد أشار الأخ الأستاذ رئيس التحرير فى مقاله فى العدد المشار إليه إلى نموذجين من نماذج تشويه الإسلام فى نفوس أبنائه: الأول يتصل بالعقيدة والثانى يتصل بزوجات النبى ﷺ، والنموذجان من مدارس اللغات بمصر ويمكن لمن أراد التفصيل العودة إلى العدد المذكور من المجلة.

لكنى اليوم أريد أن أضع أمام كل غيور على دينه جانبا آخر من جوانب الخطر لايقل عن سابقه بل هو أخطر لأن خطره ليس واضحا جليا لأول وهلة، وربما قُدّم مغلفا لأولياء الأمور فى غلاف جميل يغير من صورته أمام الناظرين، ولأنه مستورد.

والجانب الذى أريد توضيحه فى هذا المقال بصورة سريعة هو خطر تلك المدارس على اللغة العربية - لغة القرآن ولغة حديث النبى عليه الصلاة والسلام - ويتمثل ذلك فى أن هذه المدارس تقوم بتدريس المواد العلميةباللغة الإنجليزية من المرحلة الابتدائية. وقد يعترض معترض قائلا وماذا فى ذلك إن هذا يؤدى إلى رفع مستوى الطالب فى اللغة الانجليزية ونجيب على ذلك الاعتراض الموجود فى أذهان الكثيرين: لا مانع إطلاقا من رفع مستوى الطلاب فى اللغة الانجليزية . لكن ليس على حساب لغتهم الأم فيكفى الطالب أنه يدرس اللغة الانجليزية بجانب العربية منذ المرحلة الابتدائية. يكفى جدا أنه يدرس لغة أجنبية جنبا إلى جنب مع لغته الأم ومع أن هذا لايحدث فى أى من بلاد العالم إلا البلاد المغلوبة على أمرها والتى رزحت تحت نير الاستعمار سنوات طويلة ولاتزال تخضع لثقافته منذ قرون . إن تدريس المواد العلمية بلغة أجنبية سيؤدى إلى أمرين - كلاهما خطره شديد:

الأول: أن صلة التلميذ بلغته الفصحى ستتقلص حتى تصبح مقصورة على الدرس التقليدى الذى ستستوى فيه العربية مع الأجنبية. أما لغة العلم والتطبيق لغة الحياة فهى اللغة الأجنبية. وإذا كنا نعانى من ضعف مستوى الطلاب فى لغتهم الفصحى فإن طلاب مدارس اللغات سيزداد بعدهم عن الفصحى، ونحن نعلم أن لغة الدرس إن لم يقابلها تطبيق فى الواقع لاتستقر فى ذهن الطالب، وتعلم اللغة ليس غاية فى حد ذاته إنما هو وسيلة لتقويم ألسنة الطلاب. والأهم من ذلك هو وسيلة لربط الطلاب بقرآنهم وبحديث رسولهم صلى الله عليه وسلم وبأمتهم العربية. ولعل اللغة هى من أبرز الروابط فى وقتنا الحالى بعد العقيدة.

فإذا بعدت الشقة بين الطلاب وبين لغتهم عن طريق عزلها بهذا الأسلوب من حجرات الدرس فلم يعد أمام الطلاب إلا ما يلتقطونه من هنا ومن هناك، وتصبح اللغة الفصحى غريبة عليهم وبالتالى يصبحون وقد عُزِلوا بهذا الأسلوب عن دينهم وقرآنهم وتراثهم.

والأمر الثانى: أن إبعاد اللغة العربية عن تدريس المواد العلمية له آثار نفسية خطيرة يشعر معه الطالب باحتقار لغته وبأنها غير جديرة بأن تكون وعاء للعلوم الحديثة. وإلا فما هو الهدف من إقصاء اللغة العربية من تدريس المواد العلمية؟

ورحم الله حافظا يوم واجه نفس المخطط منذ قرابة قرن من الزمان وسجل ذلك فى أبيات من الشعر لم ينسها له التاريخ متحدثا على لسان اللغة العربية التى تشكو ظلمها حتى من أهلها.

رجعت لنفسى اتهمت حصاتى ... ونديت قومى فاحتسبت حياتى

رَمَوْنى بعقم فى الشباب وليتنى ... عَقِمتُ فلم أجزع لقول عداتى

وسعت كتاب الله لفظا وغاية ... وماضقت عن آى به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتى

إلى آخر ما قال فى هذا الموقف. والتاريخ يعيد نفسه ويتوشح أعداء الإسلام بأردية مختلفة. وبالله أسأل كل صاحب لب سليم عن أثر هذا الموقف على أبنائنا وهم فى سن الطفولة. ألا يشعرون بانتقاص بل وباحتقار للغتهم؟ وإذا كانت هذه اللغة هى لغة الإسلام لغة القرآن والحديث ألا ينعكس أثر ذلك على دينه؟ وهذا فى النهاية هو مراد أعداء الإسلام ووزارة التعليم ترى كل ذلك وتباركه بل وأصبحت هى الأخرى منافسة فى إنشاء مدارس اللغات. وأولياء الأمور فى غفلة عما يكاد لدينهم أو فى حيرة من أمرهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

عبد الرازق السيد إبراهيم

الخشـــوع فـــى الصـــلاة

بقلم : عبد الرازق السيد ابراهيم

- ٢ -

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله،

وبعد: فقد ذكرنا فى مقال سابق ما ملخصه أن العبد فى صلاته إنما هو فى مناجاة مع الله سبحانه وتعالى، وأن الله يقبل بوجهه على العبد فى صلاته ما لم يلتفت فإذا التفت ـ أى شَغَل قلبه أو جوارحه بغير الصلاة. انصرف الله عنه. وقد كان سلفنا الصالح حريصين على تأكيد هذه المعانى وترسيخها فقد أخرج المروزى فى كتابه (تعظيم قدر الصلاة) عن إسحاق عن الحسن قال: «إذا قمت إلى الصلاة، فقم قانتا كما أمرك الله، وإياك والسهو، والالتفات. أن ينظر الله اليك، وتنظر الى غيره، تسأل الله الجنة، وتعوذ به من النار وقلبك ساه ولا تدرى ما تقول بلسانك. وذكر أيضا أن ابا هريرة قال: (الصلاة قربان، إنما مثل الصلاة كمثل رجل أراد من إمام حاجة فأهدى له هدية، إذا قام الرجل الى الصلاة، فإنه فى مقام عظيم، واقف فيه على الله يناجيه ويرضاه قائما بين يدى الرحمن، يسمع لقيله، ويرى عمله، ويعلم ما يوسوس به نفسه، فليقبل على الله بقلبه وجسده، ثم ليرم ببصره قصد وجهه خاشعا أو ليخفضه فهو أقل لسهوه، ولا يلتفت ولا يحرك شيئا بيده، ولا برجليه، ولا لشئ من جوارحه حتى يفرغ من صلاته وليبشر من فعل هذا ولا قوه إلا بالله.)

وإنما ذكرنا الأثر السابق وهو من كلام صحابى جليل من خيرة من تربى على يدى رسول الله ﷺ وذكرناه بتمامه رغم طوله لما فيه من فوائد فتأمله رحمك الله.

أما عن الخشوع فقد أخرج عبد الرزاق بإسناد صحيح عن الزهرى فى قوله تعالى «الذين هم فى صلاتهم خاشعون» قال: هو السكون فى الصلاة . وأخرج ابن المبارك وابن المروزى عن عطاء عن على رضى الله عنه فى تفسير الآية السابقة قال: «الخشوع خشوع القلب وأن لا يلتفت يمينا ولا شمالا».

ولخص ابن رجب الكلام فى هذا الموضوع فقال: (الخشوع لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه، وانكساره، وحرقته. فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء لأنها تابعة له) الخشوع فى الصلاة لابن رجب الحنبلى .

يظهر لنا مما سبق أن أصل الخشوع يكون فى القلب ثم ينعكس تبعا لذلك على الجوارح. وإنما يخشع القلب أساسا بمعرفة الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ٢٨ فاطر (فاعلم أنه لا إله إلا الله) ١٩ محمد. فليس مَنْ عرف ربه كمن لا يعرفه ليس من عبَدَ ربه على علم وبصيرة كمن عبده على جهل وعمى .

ولكى يخشع القلب كذلك لابد أن يدرك المرء موقفه فى صلاته بين يد من يقف؟ إنه وهو العبد الضعيف يقف أمام القوى سبحانه ، هو الفقير يقف أمام الغنى، هو العبد يقف أمام سيده أمام خالقه أمام رازقه أمام ذى العظمة والكبرياء والجبروت والملكوت أمام الذى يعلم سره وجهره ولا يخفى عليه شىء من أمره ومن لا تخفى عليه خافية. إن القلب يخشع إذا علم ذلك وإذا عاش مع أذكار صلاته وسمع آيات الله فى الصلاة أو تلاها، ولقد مدح الله المؤمنين الصادقين بذلك فقال جل ذكره (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون) (٢ الأنفال) هذا شأن قلوب المؤمنين الخاشعين عرفوا ربهم فأخبتوا له ووقفوا أمامه فى صلاتهم فخشعوا له واستمعوا إلى آياته فازدادوا إيماناً وهؤلاء هم المؤمنون حقاً .

وما أحسن ما قاله ابن قيم الجوزية رحمه الله فى هذا المجال (وليس حظ القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه من الصلاة كحظ القلب الخالى الخراب من ذلك. فإذا وقف الإثنان بين يدى الله فى الصلاة وقف هذا بقلب مخبت خاشع له سبحانه قريب منه سليم من معارضات السوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة وسطع فيه نور الإيمان، وكشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات، فيرتفع فى رياض معانى القرآن وخالط قلبه بشاشة الإيمان بحقائق الأسماء والصفات وعلوها وجمالها وكمالها الأعظم). فتخير لنفسك عبد الله القرب من الله والسعادة بمناجاته أم الغفلة والتفات القلب والجوارح عن الله ؟ وفقنا الله وإياك إلى ذكره وشكره وحسن عبادته . وللحديث بقية إن شاء الله .

عبد الرازق السيد ابراهيم عيد

الخشوع فى الصلاة

بقلم: عبد الرازق السيد

-٣-

الناس فى الصلاة رجلان رجل يدخل الصلاة وهو يعلم أنَّه يؤدى عبادة من أشرف العبادات وأنه يناجى ربَّ الأرض والسموات، خشع قلبه واطمأنت جوارحه فى أداء الأركان. ورجل يدخل الصلاة باعتبارها عادة فهو غافل ساه انصرف بقلبه عن صلاته ويؤدى بجوارحه حركات اعتاد عليها ينقرها نقرا تفْتَقِرُ إلى الخشوع وينقصها التمام. وفرق كبير بين من يؤدى الصلاة عبادة ومن يؤديها عادة. والصلاة عبادة يجب أن تُؤدّى كما شرعها الله، وكما فعل رسول الله. والمتتبع لآى القرآن الكريم وهى تأمر بالصلاة يلاحظ أن الأمر جاء بإقامتها وليس بتأديتها، نذكر على سبيل المثال لا الحصر (وأقيموا الصلاة) (٥٦) النور، (الذين يقيمون الصلاة) (٣) الأنفال، (وأقم الصلاة) ١١٤ هود. والإقامة كما أجمع على معناها أهل العلم هى إقامة الصلاة تامة القيام والركوع والسجود، والأذكار بالقلب والجوارح واللسان. هذا وقد ذكر الله ستاً من أوصاف المنافقين كلها تتعلق بالصلاة: ١- الكسل عند القيام إليها -٢ الرياء عند فعلها - ٣ - تأخيرها عن وقتها - ٤ - التخلف عن جماعتها - ٥ - نقرها كنقر الديكة - ٦ - قلة ذكر الله عند فعلها. قال تعالى:- (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) (١٤٢) النساء. وماذكرت صفات المنافقين إلا ليتجنبها المؤمنون فيقيموا الصلاة على وجهها التام قد توفَّر فيها الإخلاص ومتابعة رسول الله ﷺ وإلا فهى لا تُرفع فوق رأس صاحبها ولا تنفعه فى الدنيا والآخرة ففى الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ دخل المسجد فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلَّم على النبى فرد عليه السلام فقال: «ارجع فصل فإنك لم تصل» (ثلاثا)، فقال:

والذى بعثك بالحق ما أحسن غير هذا فعلمنى. قال «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعا، ثم ارفع حتى تعتدل قائما، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا ثم ارفع حتى تطمئن جالسا ثم اسجد حتى تطمئن ساجدا» وهذا لفظ البخارى وهذا الحديث أصل عظيم فى كيفية الصلاة، وقد استنبط منه العلماء فوائد كثيرة من أهمها الطمأنينة المصاحبة لجميع الأركان مع الركوع والسجود والرفع منهما حتى اعتبر كثير من أهل العلم الطمأنينة ركن الأركان، وهذه الطمأنينة هى ثمرة خشوع القلب وهى المظهر الدال عليه وهى خشوع الجوارح وهى شرط فى صحة الصلاة وقبولها فتأمل معى رحمك الله كيف أمر الرسول ﷺ الرجل بإعادة الصلاة وكيف قال له (ارجع فصل فإنك لم تصل) وقد صح عنه ﷺ من حديث أبى مسعود البدرى أن النبى ﷺ قال: «لا تجزئ صلاة لا يقيم الرجل فيها صلبه بين الركوع والسجود» (رواه الخمسة) وفى رواية للإمام أحمد عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لا ينظر الله إلى صلاة رجل لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده». وعن عبد الله الأشعرى قال: صلى رسول الله ﷺ بأصحابه ثم جلس فى طائفة منهم، فدخل رجل منهم فقام يصلى فجعل يركع وينقر فى سجوده، ورسول الله ﷺ ينظر إليه فقال: «ترون هذا لو مات مات على غير ملة محمد: ينقر صلاته كما ينقر الغراب الدم. إنما مثل الذى يصلى ولا يركع فى سجوده [1] كا لجائع لا يأكل إلا تمرة أو تمرتين فما يغنيان عنه، فأسبغوا الوضوء، وويل للأعقاب من النار فأتموا الركوع والسجود» رواه ابن خزيمة فى صحيحه.

ولذلك روى البخارى عن حذيفة - رضى الله عنه - أنه رأى رجلاً لا يتم الركوع والسجود فقال له: (ماصليت، ولو متَّ متَّ على غير الفطرة [2] التى فطر الله عليها محمدا ﷺ»

١- المقصود والله أعلم: صلاته وعبّر عنها بالسجود لأهميته. (وهذا من قبيل التعبير بالجزء عن الكل)

٢- الفطرة: الدين والمقصود هنا دين الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ

وهكذا يكون خشوع القلب باستحضاره عظمة الله سبحانه وتعظيمه لمولاه عز وجل وسكونه وخوفه من مقام ربه وفرحه وسعادته بمناجاة إلهه ومعبوده، وينشأ عن ذلك خشوع الجوارح وسكونها فاللسان يطمئن فى القراءة والذكر لأن القلب يريد أن يفقه ما يقوله اللسان، وجميع الجوارح مطمئنة ساكنة خاشعة فى أداء الأركان. تفرّغ العبد بكليته لمناجاة سيده وخالقه ورازقه فطرح الدنيا خلفه فى لحظة معراجه. وعلى ذلك الأمر كان ﷺ وصحبه الأبرار وسلف الأمة الأخيار. ثم خلفت من بعدهم خلوف الله أعلم بما لهم، منهم من أضاع أصل الصلاة ومنهم من اكتفى بأن يبقى على شكلها الظاهر إلا من رحم الله – روى البخارى من حديث الزهرى قال: دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكى، فقلت له: مايبكيك فقال: «لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة، وهذه الصلاة قد ضُيعت». فإذا كان أنس رضى الله عنه وهو فى القرن الأول قد أنكر على الناس ما خالفوا فيه هدى رسول الله من إضاعة أركان الصلاة وأوقاتها وتسبيحها فى الركوع والسجود وإتمام تكبيرات الاعتدال منهما فكيف به لو عاش حتى عصرنا هذا ورأى من يبيع ويشترى فى صلاته، ويتزوج ويطلق، انشغل قلبه بكل شىء إلا الصلاة ثم هو ينقر الصلاة نقرا لا يكاد يكبر تكبيرة الإحرام حتى يركع ولا يكاد يركع حتى يسجد لا يعقل ما يقول ولا ما يفعل وبخاصة إذا صلى منفردا. أما إذا كان مأموما فهو يشعر كأنه فى سجن ينتظر متى يُفرج عنه، يتألم ويتأفّف ويتبرّم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

عبد الرازق السيد إبراهيم عيد

أمور تساعد على الخشوع فى الصلاة

بقلم: عبد الرازق السيد إبراهيم عيد

(١)

الحمد لله الذى امتن على المؤمنين بتشريع الصلاة عبادة وصلة وإصلاحاً وجعل الخشوع فيها أساس القبول وأصل الفلاح وبعد

أوضحنا فيما سبق من مقالات أن أصل الخشوع يكون فى القلب وينعكس بالتالى على الجوارح اطمئنانا وسكينة ووعيا. وهذه أمور رأيت أن لها صلة بموضوع الخشوع وتساعد عليه لم أتعرض فيها لأحكام فقهية بالدرجة الأولى وإنما توخيت منها ما يتعلق قدر الإمكان بتوجيه القلب إلى معبوده ومولاه، ويسوق الجوارح مستسلمة لعظمة الله. وأستعين بالله مقسِّما هذه الأمور إلى قسمين: الأول يتعلق بأمور قبل الدخول فى الصلاة. والثانى يتعلق بأمور بعد الدخول فيها والانتهاء منها ونبدأ بالحديث عن تلك الأمور التى قبل الصلاة ونجملها فى خمسة أمور كما يلى:

١ - انتظار الصلاة والاستعداد لها
٢ - إخلاء الأعضاء مما يشغلها
٣ - المشى إليها
٤ - إسباغ الوضوء على المكاره
٥ - السواك والطيب

وقبل الحديث عن هذه الأمور بشىء من التفصيل أحب الإشارة إلى سلبيات يقع فيها كثير من المصلين مع الأسف. فبعض المصلين لا يحضِّر نفسه للصلاة تحضيرا كافيا قبل حلول وقتها مما يقلل عنده حضور القلب ويجعله يأتى إلى الصلاة معتادا عليها فاقدا الشوق إليها غير معظِّم أمرها. ومنهم من يمشى إليها وهو لا يقدر قيمة خطواته هذه وما ينتظره من أجر وفضل وما يُحط عنه من وزر. فيأتى وهو غافل عن ذكر الله وبعضهم قد يمتد نظره فى طريقة إلى ما نهى عنه الله أو قد يتكلم بما يغضب الله فيحرم نفسه من الأجر ويضع عليها وزرا بعد وزر. وهناك من يأتى إلى الصلاة مثلا والسيجارة فى يده ويلقيها على باب المسجد

ويدخل مؤذيا عباد الله من الملائكة والمصلين برائحة دخانه من سيجارته أو شيشته التى فرغ منها لتوه قبل حضوره إلى الصلاة أو يؤذى المصلين والملائكة برائحة الثوم أو البصل.

وهناك من يمشى إلى الصلاة مسرعا بغير سكينة ووقار بل هناك من لا يمشى إليها أصلاً بل يكتفى بالصلاة فى بيته كما يفعل النساء. وهناك من يؤخر الصلاة حتى يخرج وقتها ولا حول ولا قوة إلا بالله. وإنى أسأل الجميع بالذى أنفس العباد بيده ماذا هم فاعلون لو دعاهم ملك إلى مكرُمَة فى حفل بهيج؟ ماذا سيكون حالهم واستعدادهم؟ فأى اجتماع ذلك الذى يقارن بحفل تحفُّه الملائكة وتنتزل عليه رحمات ملك الملوك سبحانه وتعالى؟ ولكن الغافلين لا يعلمون ولا يفقهون ويا ليت قومى يعلمون. جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (من غدا إلى المسجد أو راح أعدّ الله له فى الجنَّة نزلا كلما غدا أو راح) وجاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال (من تطهر فى بيته ثم مضى إلى بيت من بيوت الله، ليقضى فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداها تحط خطيئة والأخرى ترفع درجة).

فإذا كان هذا جانبا من فضل السعى إلى الصلاة والمشى إليها فما بالُنا بفضل الصلاة نفسها وعظمة المثول بين يدى من بيده مقاليد السموات والأرض سبحانه وتعالى (اللهم ألهمنا رشدنا وفقهنا فى ديننا وأعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) ونعود للأمور التى أجملناها قبل الدخول فى الصلاة:

١ - انتظار الصلاة والاستعداد لها.

ويقصد بذلك تهيئة النفس والبدن للصلاة باستحضار عظمة الله والتهيؤ للقائه سبحانه، والشوق للوقوف بين يديه. فأنت إذا كنت على موعد مع ملك أو رئيس أو شخص عزيز عليك فانظر ماذا تفعل؟ وكم تستعد قبل حلول الوقت المنتظر؟ وكيف تحضِّر الكلمات التى ستقولها فى هذا اللقاء؟ وكيف تقضى الساعات السابقة على ذلك اللقاء؟ فما ظنُّك بلقاء مع عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال؟ روى المروزى بسنده أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال:

(لا تنتظروا بالصلاة أن ينادى بها ولكن تأهبوا لها فأتوها وعليكم السكينة والوقار). وروى أيضا عن عدى بن حاتم قال: (ما دخل وقت صلاة قط حتى أشتاق إليها) فرق كبير بين من يأتى إلى الصلاة كيفما اتفق فاقد الاستعداد والشوق إليها وبين من يأتيها قد تحرّى وقتها واستعد لها مشتاقا إليها وهذا هو حال الصحابة عليهم رضوان الله وحال الذين يقدِّرون الصلاة حق قدرها من عباد الله الصالحين فى كل زمان ومكان.

ويدخل فى باب الاستعداد للصلاة أن يلبس المرء أفضل ما عنده من ثياب بغير إسراف ولا مخيلة مراعيا أحكام الشرع فى ثوبه.

٢ - إخلاء الأعضاء مما يشغلها:

المسلم وهو مقبل على صلاته لابد وأن يكون قد تخلص من كل ما من شأنه أن يقلل خشوعه فى صلاته من دواعى القلب أو البدن. ومن ذلك ما رواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا يصلى أحد يحضره الطعام ولا وهو يدافعه الأخبثان) والحديث هنا يراعى فطرة الله فى الإنسان الجائع وأمامه الطعام أو الحاقن ببول أو غائط فإنه لا يكون كامل الخشوع لذا عليه أن يشبع حاجته من الطعام الحاضر ويتخلص من مدافعة الأخبثين له قبل إقدامه على صلاته فذلك أدعى لخشوعه. ويقاس على ذلك كل ما يشغل الإنسان فى بيته أو عمله أو أثناء صلاته من رسوم ونقوش وخلافه. ولا يفهم أحد من ذلك أنه يباح له تأخير الصلاة عن وقتها بحجة الطعام أو قضاء الحاجة أو يؤخر الصلاة عن جماعة المسلمين ولكن إذا اهتم المسلم بالنقطة السابقة وهى الاستعداد للصلاة لن يجد مشكلة فى النقطة الثانية فإنه سيستعد ويخلى أعضاءه قبل الصلاة بوقت كاف.

٣ - المشى إلى الصلاة:

الذى يليق بالمسلم المصلى وهو فى طريقة إلى لقاء ربه أن يمشى وعليه السكينة والوقار مستحضرا جلال الموقف الذى هو قادم عليه. جاء فيما رواه أبو دواود من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: (إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وأتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا) وعلى المسلم أن يلتزم بآداب الطريق من إفشاء السلام وردِّه وغض البصر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وأن يشغل نفسه بذكر الله.

٤ - إسباغ الوضوء على المكاره:

الوضوء عبادة وهو مفتاح الصلاة ولا يقبل الله صلاة العبد بغير وضوء. والمقصود بالإسباغ إسالة الماء على أعضاء الوضوء حتى يشمل جميع العضو المراد غسله ومسح ما يجب مسحه.

٥ - السواك والطيب:

السواك مطهرة للفم مرضاة للرب كما جاء فى مسند أحمد من حديث عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ قال: (السواك مطهرة للفم مرضاة للرب) فإذا كان السواك كذلك ألا يستحب للمصلى أن يجعله قبل بداية صلاته؟ ولذلك جاء فى الحديث المتفق عليه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة).

وقد رغّب ﷺ فى الطيب فيما صح من حديث أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: (غسل الجمعة على كل محتلم وسواك وشىء من الطيب ما قدر عليه) وكان من هديه ﷺ مسّ الطيب وذلك أن الطيب يسر النفس، ويشرح الصدر، ويبعث فى البدن نشاطا وقوة. وتلك الصفات تساعد على حضور القلب والنشاط فى الصلاة وبالتالى الخشوع فيها. ومن هنا نلاحظ حكمة الشرع فى نهى المسلم عن الروائح الخبيثة عند الصلاة مثل رائحة الثوم والبصل أو رائحة الدخان وما شابه ذلك لما لها من عوامل عكسية حيث تبعث على الخمول والكسل والنفور وبالتالى تعرقل الخشوع فإن لم يتمكن المسلم من الطيب فعلى الأقل أن يكف عن المصلين الروائح الخبيثة. والله المستعان

عبد الرازق السيد

أمور تساعد على الخشوع في الصلاة

بقلم: عبد الرازق السيد إبراهيم عيد

(٢)

نكرر القول أن الخشوع فى الصلاة هو أساس الفلاح وأن أصل هذا الخشوع يكون أساسا فى القلب كما سبق أن أوضحنا فى مقالات سابقة ثم ذكرنا أمورا تساعد المصلى على الخشوع فى صلاته وهذه الأمور قد تكون معروفة للكثيرين لأن معظمها من واجبات الصلاة أو سننها لكنَّا حاولنا إلقاء الضوء عليها والتنبيه إليها فقد يغفلها البعض أو يؤديها بطريقة معتادة بعيدة عن الخشوع المطلوب.

وفى مقال سابق ذكرنا أمورا تتعلق بالخشوع قبل الدخول فى الصلاة واليوم نتحدث عن تلك الأمور التى تساعد على الخشوع بعد الدخول فى الصلاة والانتهاء منها وجدير بنا أن نسأل أنفسنا ونحن مقبلون على الله إلى أين نحن متجهون وأمام من سنقف. نعم يسأل كل مسلم نفسه وهو قادم على الصلاة ذلك السؤال الذى صيغته: (من أنا وأمام من أقف)؟

والإجابة على ذلك السؤال متروكة لكل مصل ويتوقف على صدقها صدق المصلى. ومما يؤسف له أن كثيرا من المصلين إلا من رحم الله لا يدرك صدق الإجابة عن ذلك السؤال. وبالتالى لا يدرك عظمة موقفه، ولا يدرك كم هو فقير وكم هو ضعيف، ويقف أمام الغنى وأمام القوى الذى يسمع سره وجهره ويرى مكانه. ولهذا فإنك تلاحظ كثيرا من المصلين يقفون فى الصلاة وقد شغلوا أنفسهم بأمور تافهة فمنهم من ينشغل بإصلاح ثوبه مرة بعد مرة أو ينظر فى ساعته كثيرا أو ينظر إلى نفسه أو يرسل يده من على صدره ثم يضعها فى حركة عشوائية لا مبرر لها. ولولا أنه خلف الإمام لترك الصلاة وانصرف. وقد يصلى مع الجماعة وهو لا يدرك كم صلى ولا يدرك أن الصلاة انتهت إلا إذا سلم الإمام، وناهيك عن وصف صلاة مثل هذا إذا كان يصلى وحده فإنه لا يصدق عليها وصف الصلاة مطلقا ولكنها حركات لا معنى لها يصدق عليها أى وصف إلا الصلاة.

وندخل فى الحديث عن الأمور التى نعنيها الآن:

١- رفع اليدين حذو المنكبين:-

يرفع المصلى يديه حذو منكبيه بحيث تكون أصابع اليد موازية لشحمتى الأذنين فى أربعة مواضع: الأول: مع تكبيرة الإحرام، والثانى والثالث عند الركوع والرفع منه والرابع عند القيام إلى الركعة الثالثة وهذا الرفع بكيفياته وتوقيته له تأثير فى تعظيم المصلى لربه ودليل على حرصه على متابعة رسول الله. وهذا أصل الخشوع.

٢- وضع اليمنى على اليسرى:-

يضع المصلى يده اليمنى على يده اليسرى فى الصلاة وقد تواترت الأخبار فى ذلك عن رسول الله ﷺ: نذكر منها على سبيل المثال ما أخرجه أحمد عن جابر رضى الله عنه (أن النبى ﷺ مر برجل وهو يصلى قد وضع يده اليسرى على اليمنى فانتزعها ووضع اليمنى على اليسرى) ويكفى المصلى فى ذلك أنه يتأسى برسول الله ﷺ وفى ذلك ما فيه من الحكمة. وكذلك استقرار اليدين فى هذا الوضع من شأنه ألا يشتت ذهن المصلى ويساعد على حضوره بجميع جوارحه فى الصلاة.

٣- توجيه نظر المصلى فى الصلاة:

من المهم جدا أن يعرف المصلى أين يضع نظره فى صلاته لأهمية ذلك لخشوعه وخاصة قد جاء النهى عن صرف البصر إلى جهات معينة ومن ذلك ما رواه مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (لينتهين أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء فى الصلاة أو لتخطفنّ أبصارهم) وكره ابن القيم تغميض العينين فى الصلاة وكرهه كذلك جمع من أهل العلم واستدلوا بفعله ﷺ فى صلاته وأنسب ما يكون نظر المصلى فى صلاته أن يكون فى موضع سجوده فذلك أدعى لخشوعه وأجمع لانتباهه فى صلاته وقد جاء فى ذلك آثار نذكر منها ما رواه المروزى بسنده أن ابن سيرين قال: (كانوا يستحبون أن ينظر الرجل فى صلاته إلى موضع سجوده) ومثل ذلك رواه المروزى أيضا وعبد الرزاق عن ابن يسار. وهذه الآثار عن التابعين تدل على أن ما كان عليه الصحابة هو توجيه النظر فى موضع السجود.

٤- الاستعاذة بالله:-

يندب للمصلى أن يستعيذ بالله من الشيطان فى أول صلاته وذلك بعد تكبيرة الإحرام ودعاء الاستفتاح وقبل قراءة الفاتحة وتكون بإحدى صيغها الواردة ومن أصح ما جاء فيها ما رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ أنه كان يقول (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه). وقال ابن كثير: (معنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: أى أستجير بجناب الله من الشيطان أن يضرنى فى دينى أو دنياى أو يصدنى عن فعل ما أُمرت به) ثم قال ابن كثير: (ومن لطائف الاستعاذة أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطييب له وهو يستعد لتلاوة كلام الله وهى استعانة بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطن) وقد أغنانا كلام ابن كثير عن بيان أهمية الاستعاذة للمصلى وأهميتها لخشوعه لذلك حرصت على إيراده هنا. وتكون الاستعاذة من الإمام والمأموم على حد سواء كما ذكرنا فى بداية الصلاة بعد تكبيرة الإحرام ودعاء الاستفتاح وقبل بداية القراءة.

٥- إتمام الركوع والسجود:

من أبرز العوامل المساعدة على الخشوع اطمئنان المصلى فى ركوعه وسجوده وإتمامه كما يجب. وكثيرا ما ترى بعض المصلين إذا كان يصلى منفردا يركع فيرفع من ركوعه قبل تمام ركوعه، ويرفع فلا يستقيم صلبه واقفا فيهوى إلى السجود، ويفعل الشىء نفسه فى سجوده، ومثل هذا لا تجزئ صلاته. قال ابن القيم فى الزاد (وكان ﷺ إذا فرغ من القراءة سكت بقدر ما يترادّ إليه نفسه ثم يرفع يديه ويكبر راكعا ويضع كفيه على ركبتيه قابضا عليها، ووتر يديه ونحاهما عن جانبيه، وبسط ظهره، ومدّه، واعتدل ولم ينصب رأسه ولم يخفضه بل يجعله حيال ظهره معادلا له. وكان إذا سجد مكن جبهته وأنفه من الأرض، ونحىّ يديه عن جانبيه وجافى بهما حتى يُرى بياض إبطية وكان يضع يديه حذو منكبيه وأذنيه وكان دائما يقيم صلبه إذا رفع من الركوع وبين السجدتين، ويقول: لا تجزى صلاة لا يقيم فيها الرجل صلبه فى الركوع والسجود) أرأينا كيف كان ركوع وسجود رسول الله ﷺ وكيف حذّر من الصلاة التى لا يقيم فيها الرجل صلبه ومع ذلك فالكثير لا يتحرى ذلك فتراه يركع خافضا رأسه أكثر من اللازم مقوسا ظهره أو رافعا رأسه عن ظهره رافعا مقدمة ظهره خافضا عجزه والصحيح أن يكون ظهره

على استقامة واحدة موازيا لرأسه وكذلك فى السجود نرى الكثير لا يهتم بتمكين جبهته من الأرض حتى يستقر أنفه عليها راغما أنفه لربه سبحانه، والبعض قد يرفع قدميه عن الأرض أثناء سجوده مخلا ذلك بركن من أركان السجود.

أما الرفع من الركوع ومن السجود فهذا الركن الذى أضاعه كثير من الناس مع أن الثابت فى ذلك إعطاء هذا الركن حقه بمقدار الركوع أو السجود لكن الكثير اليوم لا يقيم صلبه فى الرفع منهما وهذا إن دل على شىء إنما يدل على فقدان الخشوع.

٦- متابعة الإمام والعمل بعده:

على المأموم أن يتابع إمامه فى الصلاة وأن يحذر من مسابقته أو مساواته وبهذا جاءت الأحاديث الصحيحة نذكر منها ما جاء فى الصحيحين عن البراء ابن عازب قال: (كنا نصلى خلف النبى ﷺ فإذا قال: «سمع الله لمن حمده» لم يحن أحد منا ظهره حتى يضع النبى جبهته على الأرض) أى إذا رفع الرسول ﷺ من الركوع واعتدل واعتدلوا خلفه لا يهوون إلى السجود حتى يضع النبى جبهته على الأرض، وفى الحديث دليل واضح على عمل الصحابة بعد رسول الله وليس معه ولا قبله. إذ كيف يفعلون وهم يستمعون إلى النذير من ذلك فى أحاديث كثيرة نذكر منها ما جاء أيضاً فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار».

٧- الاستغفار والذكر بعد الصلاة:-

جاء فى صحيح مسلم عن ثوبان رضى الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر الله ثلاثا وقال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام» قال الوليد: فقلت للأوزاعى: كيف الاستغفار؟ قال: يقول: أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله.

هذا وهناك أذكار كثيرة واردة بعد الصلاة فليرجع إليها من شاء لكنى هنا أردت بيان رحمة رسول الله بأمته فى تشريع ذلك لهم بعد الصلاة حيث تكون هذه الأذكار وهذا الاستغفار جبرا لبعض اختلاسات الشيطان وتخليصا للصلاة مما شابها من ذلك، نسأل الله سبحانه أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته بما يرضيه عنا إنه نعم المولى ونعم النصير.

عبد الرازق السيد إبراهيم عيد

موضوع
العدد :

تأملات فى أحوال الحجاج والمعتمرين

كلما طاف المرء حول بيت الله بمكة المكرمة أو زار مسجد رسوله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة وتأمَّل أحوال الطائفين والزائرين يرى منهم عجباً .

وناهيك أخى القارىء عن كثرة ما يقع منهم من أخطاء فى مناسك الحج والعمرة وناهيك عن اختلافاتهم فرقاً وأحزاباً كثيرة فلن يكون حديثنا اليوم عن هذين الأمرين . ولكن ما سأكتب عنه اليوم هى أمور يقع فيها الكثير وهم قد يظنون أنهم قد أحسنوا صنعاً ، والبعضُ قد لايَفْطِنُ إلى خطورتها وهى تتعارض مع مضمون الحج وأهدافِه ، وقد يجدون من يبرِّرُها لهم وهى قد تصل أحياناً إلى حدّ التناقض مع مقاصِد الإسلام وأهدافه العليا .

وقد يحسبُها البعضُ هَينةً وهى عند الله عظيمة وهذا ما دعانى للحديث عنها : ويحسن بنا تقسيم هذه المتناقضات إلى ما يلى :

أولاً : فيما يتعلق بالعقيدة :

إنك قد ترى أخى المسلم - رزقنى الله وإياك صدق التوحيد - أقول : قد ترى من يطوف بالبيت وقد اجتهد فى الدعاء والطلب وربما بكى وهو يدعو بينما هو من المتضرعين بالدعاء أيضاً حول قبور الموتى من البشر وهو كذلك من المتوسلين بالمخلوقين إلى الخالق والمعتقدين فى شفاعة أصحاب القبور ، ويظهر ذلك عندما يذهب هذا الصنف إلى مسجد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتراه يذهب قاصداً القبر متوجهاً بالدعاء لصاحبه مع أنه عليه الصلاة والسلام تبرأ من ذلك إلى يوم الدين ، ولولا ما يقوم به رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لرأينا العجب العجاب من عُبَّاد القبور ، وأقول لهذا الصنف ومن كان على شاكلته : هل تتوقعون أن يقبل الله منكم الدعاء والعمل

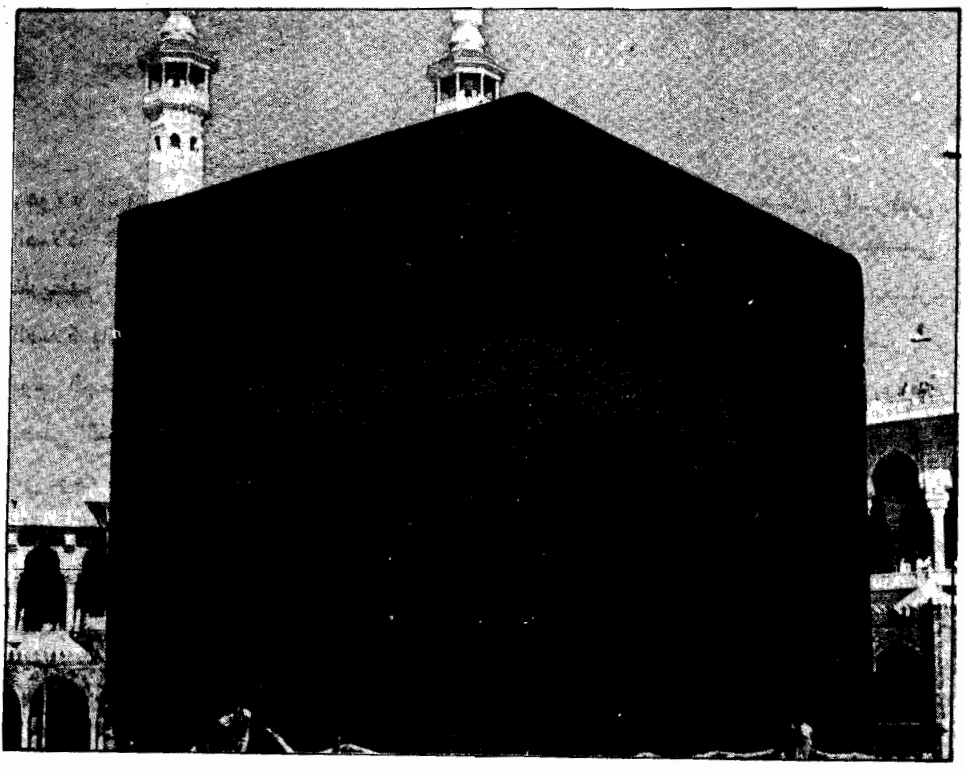

وقد شاب عقيدتكم ما يحبط العمل ويرد الدعاء ؟ بل وربما يورث الخلود فى النار ونعوذ بالله من ذلك . إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً .

ثانياً : حجاج وعمار أضاعوا الصلاة :-

كثير من الحجاج والعُمَّار قبل أن يأتوا من بلادهم وبعد أن يعودوا إليها لا يحرصون على إقامة الصلاة وهى من

عبد الرزاق السيد عيد

أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وقد يسقط الحج والعمرة عن صاحبها لعدم القدرة المالية أو البدنية أو لأسباب أخرى ، أما الصلاة فليس لأحد عذر من تأخيرها إلا أن يكون مجنوناً أو مغيَّباً عن الوعى .

فالمريض والمسافر والمجاهد كل هؤلاء وغيرهم من أصحاب الأعذار مطالبون بالصلاة حسب استطاعتهم . ومع ذلك نرى الكثير من الحجاج والعمار يحرصون على أداء الحج والعمرة ربما كل عام ولا يحرصون على إقامة الصلاة فى اليوم خمس مرات فما أعجب هذا الأمر

وهؤلاء المقصّرون فى حق الصلاة على درجات فى تفريطهم : فمنهم من يهمل الصلاة بالكلية ولا يصلى إلا يوم الجمعة ، ومنهم من يصلى الصبح عندما يصحو من نومه حسبما شاء ثم يهمل باقى الفروض وقد يصليها مجتمعة عندما يعود لبيته آخر النهار أو قبل أن ينام .

ومنهم من يصلى يوماً ويترك يوماً ، ومنهم من يصلى فى بيته ويترك الجماعة ، فكيف بالله عليك تهتم بالركن الخامس من أركان الإسلام وتترك الركن الثانى ، تحرص على تكرار الحج مع أنه يكفيك مرة وتهمل فيما أوجبه الله عليك يومياً ، تحرص على تكرار ما قد يسقط عنك بالعذر وعدم المقدرة وتهمل عما لا يسقطه عنك لا الفقر ولا المرض ولا الجهاد ، إن هذا لأمر عجاب .

ثالثاً : ينفق فى الحج ويبخل فى غيره :

وبعض هؤلاء الذين يكثرون من الحج والعمرة قد لا يؤدى زكاة ماله أو قد يؤديها ولكنه يبخل بالمال فى وجوه البِّر الأخرى فعلى الرغم من إنفاقه الآلاف فى رحلتى الحج والعمرة يبخل بالآحاد أو العشرات فى إعانة محتاج أو سد ثغرة من ثغرات المسلمين هنا أو هناك . وهذا الصنف من الناس يغضب لو ناديته باسمه المجرد بل لا بد أن تناديه بلقب الحاج [فلان] .

رابعاً : بعض الحجاج والمعتمرين لا يتحرى الحلال :-

فأنت تراه قد جاء يدعو مخلصاً فى الدعاء وقد أكل من حرام وشرب من حرام ولبس من حرام فأنى يستجاب له . وأكل الحرام له صور متعددة :

(أ) فقد يكون من عمل غير مشروع مثل : الرقص ، والغناء ، والموسيقى ، والتمثيل ، الذى يحارب شرع الله . أو من القمار ، أو العمل فى أماكن اللهو والقمار وتقديم الخمور .

(ب) أو يكون العمل قد شابته شائبة الحرام كالعمل فى البنوك الربوية وما شابهها .

(ج) أو يكون الكسب من تجارة محرمة كتجارة الخمور والمخدرات أو تجارة الدخان بأنواعه أو أى تجارة أخرى حرّمها الله ورسوله .

هل علم هؤلاء خطورة الكسب الحرام فى رد الدعاء وإحباط العمل ، وهل علموا الآيات والأحاديث التى وردت فى ذلك ؟ وأسوق إليهم وإلى أمثالهم من باب الذكرى واحداً من الأحاديث الواردة فى هذا الباب . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم ﴾ وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ثم ذَكَرَ الرجل يطيل السَّفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يارب . يارب ، ومطعمه حَرَام ، ومشربه حَرَام ، وملبسه حَرَام ، وغذى بالحرام فأنَّى يُستَجابُ لذلك ؟ » . رواه مسلم .

فهؤلاء الذين يتكسبون من الحرام بأى صورة من الصور السابقة أو غيرها ليتهم ما كسبوا هذا المكسب وليتهم ما حجوا لأنهم يعودون محمَّلين بالأوزار .

خامساً : مخالفة هدى رسول الله :

وترى كثيراً من هؤلاء

الحج المقبول ليس فيه بدعة ولا معصية ولا مال حرام !

المتزاحمين أمام قبر رسول الله وفى الروضة الشريفة وهم يظنون أنهم قد حققوا بذلك فوز الدنيا والآخرة بينما هم أبعد الناس عن هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عباداتهم ومعاملاتهم . فبعضهم قد يكون صاحب بدعة فى دين الله داعياً إلى بدعته بشتى الوسائل ، وبعضهم من أتباع المبتدعة لا يتحرى السنة فى عبادته أو معاملته ويقلد مشايخه من أرباب الطُّرق وأصحاب الفِرق ويقدِّم قولهم وفعلهم على قول وفعل رسول الله الذى ذهب يبكى أمام قبره ويتمرغ فى روضة مسجده ويتزاحم أمام منبره فما أعجب هذا التناقض . وترى من هؤلاء من تظهر عليه آثار المعصية والمخالفة واضحة فهو حليق اللحية مسبلاً إزاره متختماً بالذهب مدخناً مقلداً المشركين فى مناسباتهم ومجارياً لهم فى عاداتهم لا فَرْق بين مظهره العام ومظهر المشركين ولا فرق بين بيته وبيوت المشركين .

ولو تأملنا مرة أخرى فى تلك المظاهر وجدنا أنها انعكاس واضح لما يحدث فى بلاد المسلمين فهؤلاء الحجاج على اختلاف مشاربهم جاءوا من بلاد تعلن أن دينها الرسمى الإسلام بينما هى لا تحتكم إلى الإسلام لا فى قوانينها ولا فى نظمها الاقتصادية أو السياسية

ولا تستهدى بهداية الإسلام لا فى تعليمها ولا إعلامها ، ولا تستقى عاداتها وتقاليدها من تعاليم دينها . معظم هؤلاء الحجاج جاءوا من بلاد تحارب الإسلام سرّاً أو جهراً بينما هى تعلن أنها مسلمة وتغلق باب الدعوة أمام دعاة الإسلام الصحيح بينما تفسح جميع مجالات الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة أمام دعاة التغريب أو التشريق من الماركسيين والبعثيين والعلمانيين ومن على شاكلتهم فهؤلاء جميعاً أبواق لتحقيق أهداف أعداء المسلمين فى إبعاد المسلمين عن دينهم وإبعاد الإسلام عن توجيه طاقات المسلمين . ولقد أدت هذه المعاول الهدامة أثرها الذى ظهر واضحاً فى نماذج من التناقضات التى ظهرت فى سلوك المسلمين كما أوضحنا وغيرها كثير والأعجب من ذلك أن تسمع من يحاول تبرير هذه التناقضات ورمى من يتحدث عنها بالتعصب . انظر كيف أصبح الحق باطلاً والباطل حقاً ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . ونسأل الله أن يرينا والمسلمين الحق حقاً وأن يرزقنا اتباعه ، وأن يرينا الباطل باطلاً وأن يرزقنا اجتنابه ونسأله سبحانه أن يبرم لأمة المسلمين أمر رشد يعز فيه دينه ويحكم فيه بكتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

عبد الرازق السيد إبراهيم عيد
المدينة المنورة فى
١٤١١/١٠/٢٠هـ
ثانوية زيد بن الخطاب - المسيجيد

« ليس المؤمنُ بالطعّان ولا اللعّان ولا الفاحش ولا البذيء » . [رواه مسلم]

« مَن حملَ علينا السلاح فليس منا » . [رواه مسلم]

« ومن غشّ فليس مِنا » [صحيح رواه الترمذي]

« مَنْ يُحرَم الرفقَ يُحرم الخير » . [رواه مسلم]

« من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مُؤنة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله ، وكله الله إلى الناس » .

(وكلَه : تركه) . [صحيح رواه الترمذي]

« لا تطروني كما أطْرَتِ النصارى ابنَ مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبدُ الله ورسوله » [رواه البخاري]

(لا تطروني : لا تزيدوا في مدحي) .

أخطاء الناسك فيما يؤدى من المناسك

بقلم الشيخ عبد الرازق السيد إبراهيم عيد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد .

فهذه مجموعة من الأخطاء لاحظتها على بعض الحجّاج أو المعتمرين وهذه الأخطاء ليست على سبيل الحصر بل فقط بعض ما أتيح لى رؤيته ، وقد يكون هناك من الأخطاء ما هو أكبر من ذلك أو أصغر يقع فيه الحاج والمعتمر وقد نبَّه إخواننا فى هذه المجلة على جملة منها - جزاهم الله خيرا -

وعلى المسلم الذى ينوى الحج والعمرة أن يتحرى الصواب فى أمر نُسُكه وأن يسأل أهل العلم عمَّا لا يعلمه حتى يكون حجه وعمرته موافقان للكتاب والسنّة وبذلك يُقْبَل عملُه إن شاء الله بعد إخلاص النّية . فهذان شرطان أساسيان لقبول العبادة إخلاص النيّة لله رب العالمين وإخلاص المتابعة لخاتم النبيِّن ، على المسلم أن يتحرى ذلك فى كل عبادة وبخاصة فى الحج والعمرة لأنهما قد لا يتيسران لكثير من الناس فى العمر إلا مرة واحد وهناك من يموت وهو يتمنَّى الحج أو العمرة وقد لا يتحقق له ذلك فى الدنيا . هذا بالإضافة إلى ما يتكلّفه المرء فيهما من جهد بدنى ومادى فجدير بالمسلم أن يتحرى فيهما الصواب حتى لايتبدد أو شئ منه هباء والآن إليك عزيزى القارئ بعض الأخطاء التى يجب علينا الحذر منها حتى لا يفوتنا شئ من الأجْر إن شاء الله أو نقَع فى شئ من الوزْرِ بتقْصيرِنا .

أولاً : فى الإحرام وميقاته :

١ - البعض يفهم أنّ الإحرام هو فى ارتداء ملابس الإحرام ،

والصحيح أنَّ أصل الإحرام هو النِّية التى يعقُبُها الإهلال بالحج أو العمرة أو بهما معا ثم التلبية .

٢ - الكثير من ركَّاب الطائرات أو البواخر يمرُّون على الميقات دون إحرام ثم يُحرِمُون من جدّة مع أنه فى هذه الحالة يلزمه دمّ (أى ذَبح شاة) أو يعود ليُحرمَ من الميقات . أو يتحرَّى الصواب أولاً بإحرامه من الميقات . وغنىٌ عن القول أن ارتداء ملابس الإحرام جزء من إحرام الرجل وهناك محظوراتٌ ومباحاتٌ تتعلق بالإحرام ليس هذا مجالها .

ثانياً : فى الطواف :

١ - نقطة بدء الطواف هى الحجر الأسود وهى نقطة النهاية فى نهاية الشوط السابع ، لكن البعض لا يبدأ من هذه النقطة ويبدأ من الركن اليمانى مثلاً .

٢ - مَسُّ الحجر الأسود وتقبيله مِن سنن الطواف بل ويرى البعض أنه لا بأس من المزاحمة على ذلك مالم يكن هناك إيذاء لعباد الله ، لكن الذى يحدث عِنْد الحجرِ الأسودِ هذه الأيام وبخاصة فى أيام المواسم (يحدث) قتالٌ عنيفٌ . نعم يحدث قتال بمعنى الكلمة فيه دفع وركل صوت ومزاحمة فيها اختلاط بين الرجال والنساء ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

يا عباد الله إربعوا على أنفسكم رحمة بها ورحمة بالمسلمين فى هذا الموطن والأمر فيه سعة ويسر ، ولسنا مطالبين بارتكاب معصية فى سبيل تحقيق سنة ولا سيما أنَّ هذا التوجيه النَّبوى الكريم فى هذا الموطن توقياً للوقوع فى المحظور انظروا رحمكم الله إلى قول رسول الله لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : « يا أبا حفص إنك رجل قوى فلا تزاحم على الركن ، فإنك تؤذى الضعيف » . « ولكن إن وجدت خلوة فاستلم ، وإلا فكبر وامض »[1] لماذا لا نجعل هذا الأدب النبوى الرفيع نصب أعيننا ، فإذا وجدنا خلوة استلمنا وقبلنا وإلا كبَّرنا - قلنا الله أكبر - ومضينا . حتى لا نكلف أنفسنا عَنتاً ولا شَططا ولا نجر على أنفسنا سوءاً أو على مسلم . لا شك أنَّ فى اتباع السنّة اليسر والراحة والسعادة وكل مشقة وتعب وشقاء إنما يأتى مِنْ مخالفة السنّة .

٣ - البعض أثناء الطواف يحمل كتيبات صغيرة فيها أدعية لكل شوط على حدة وبعضهم يُخطىء فى قراءتها خطأ يحرِّفُها عن معناها . هذا فضلاً عن عدم ورودِ السنَّة بهذا التخصيص لكل شوط فإن كان الطَّائف يحفظ شيئا من حديث رسول الله ﷺ مثل قوله ﷺ « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » رواه ابن ماجه كان يقوله إذا أخذ فى الطواف .

وكان إذا انتهى إلى الركن اليمانى دعا فقال : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة ، وفى الآخرة حسنةً وَقِنا عذاب النار » رواه أبو داود .

فإذا لم يكن المسلم يحفظ شيئا من ذلك فله أن يدعو ربَّه بما شاء من خيرىْ الدنيا والآخرة له ولإخوانِه .

ثالثا : فى السعى :

١ - البعض يخطىء فى حساب الأشواط فيعتبرُ الذهاب والإياب شوطا واحدا والصحيح أن الشوط يبدأ بالصفا وينتهى بالمروة . ويندب السَّعى للرجال أى الإسراع فى المشى بين الميلين وهما معروفان بعلامات ضوئية خضراء تميزهما عن باقى المسعى ، ولكن يلاحظ أن بعض النساء يسعين وقد روى الشافعى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت - وقد رأت نساء يسعين « أما لكن فينا أسوة ؟ ليس عليكن سعى » أى ليس عليكن أيها النساء ما على الرجال من الإسراع فى المشى عند الميلين

أثناء السعى بين الصفا والمروة ، وعليكن المشى العادى فى طول الشوط ذهابا وإيابا وكثير من الرجال يعد انتهاء السعى وعند الحلق أو التقصير يكتفى بأخذ بعض شعيرات من رأسه من هنا ومن هناك والصحيح أن التقصير يجب أن يشمل جميع شعر الرأس .

رابعاً : فى المبيت بمنى :

المبيت فى منى ليلة الحادى عشر ، والثانى عشر ، والثالث عشر لمن لم يتعجل أو الحادى عشر والثانى عشر لمن تعجَّل ، وحكمهُ واجب يجبرُ بدم .

ولكن البعض يتساهل ويبيت خارج حدود منى مع وجوده فى المنطقة حيث تنتهى حدود منى من ناحية مكة بانتهاء حدود جمرة العقبة ، والكثير يبيت فى هذه المساحة الواقعة ما بين جمرة العقبة ومنطقة الشُّشَة ، بل والبعض يبيت فى الشُّشَة نفسها وفى شارع الحج . هذا بالرغم من التنبيهات والإرشادات المتكررة على ذلك وهناك من يتساهل ولا يفكر فى هذا الواجب أصلا فينصرفون صباح يوم العاشر ويعودون إلى ديارهم معتقدين أن الحج قد انتهى محتجين بحديث « الحج عرفة » والحديث صحيح لكنه ليس فى حجة لهؤلاء فالحديث فيه دليل على أهمية يوم عرفة وهذا معلوم لكل من فهم لغة العرب وفهم الشَّرْع فهما صحيحا ولأن قائل هذا وهو ﷺ قد بيَّن أركان الحج وواجباته قولا وعملا وقال « خذوا عنى مناسككم » . فإذا كان الحج عرفة فقط كما قال أصحاب هذا الفهم السقيم : فأين يذهب الطواف ، والسعى وغيرهما من الأركان والواجبات التى تواترت بها الأخبار عن رسول الله وعن الصحابة والتابعين ؟ وهذا الأمر لا يحتاج منَّا مزيدا من بيان بطلانه فهو باطل من أساسه والله المستعان .

خامساً : فى رمى الجمرات :-

١ - هناك من يغلو فى هذا الأمر غلوا شديدا بحرصه الشديد على الرمى بعد الزوال مباشرة رغم الزحام والحرَ ، وهناك من يجمع بين الغلو والجهل فيرمى بقطع كبيرة من الحجارة أو بأى شىء فى يده أو يخلع نعله ويرمى به ، وهناك من يزاحم ويدفع الناس بقوة وقسوة ، وينس أنه فى موقف عبادة وطاعة .

وهناك من يفرِّط فيرمى قبل الزوال والوسطية هو ابتداء الرمى مع الزوال وامتداده حتى الليل فهناك فى الأمر سعة والحمد لله لو فقهها الناس ما وقعوا فى الغلو ولا فى التفريط .

٢ - هناك من يتوسَّع فى موضوع الإنابة فيُنيبُ عنه وهو ليس من أصحاب الأعذار وكل عذره أنه رجل أعمال وعنده مواعيد وهؤلاء الذين أشرنا إليهم آنفا والقائلين بأن الحج عرفة ثم ينصرفون صباح العاشر وقد تركوا المبيت فى منى وأنابوا من يرمى عنهم وقد حذر العلماء من هذا المسلك وبخاصة إذا كان فى حج الفريضة هذا وأسأل الله التوفيق والسداد لنا ولجميع العباد فى المعاش والمعاد .

« لعن الله النامصات والمتنمِّصَات المغيِّرات لخلق الله » .
(كنتف شعر الحواجب والوجه) [متفق عليه]

- « ونساء كاسياتٌ عاريات مميلات مائلات رؤوسهنَّ كأسنمَة البُخت المائلة لا يدخلن الجنة ، ولا يجدن ريحها » . [رواه مسلم]

عندما يتردى العقل البشرى

بقلم الأستاذ
عبد الرازق السيد عيد
المدينة المنورة

عندما يتردى العقل البشرى ويضلُّ نرى من حُمْقه عجباً فسيعبدُ ما يصنَعُ ويقدِّسُ الحيوانات والحشرات والنباتات ويتركُ عبادةَ ربِّ الأرض والسماوات ؛ عندما يتردى العقلُ فإنه يقدِّس بقرةً ويذبَحُ مسلماً ويعبدُ صنماً ويهدِمُ مسجداً . عندما يتردَّى العقل فإنّه يذْبَح ولده قرباناً لصنمه المعبود !!!

لا تتعجب أخى القارىء فليس هذا الكلام خيالاً ولكنّه حقيقة وواقعاً ولم يحدث فى أزمنة ما قبل التاريخ لكنّه يحدث الآن ونحن على مشارفِ القرنِ الحادى والعشرين ، إنه يقَعُ الآن وبالتحديد فى الهند وما اعتداءُ الهندوسِ على المسلمين وعلى مساجدِهم عنَّا ببعيد !! إن الشىء بالشىء يُذكر وإننى عندما ترامت إلى مسامعى تلك الأخبار - أخبار اعتداءات الهندوس الوثنيين على المسلمين فى الهند وعلى أكبر مسجد أثرىٍّ هناك - تدَاعَتْ إلى ذِهْنى قِصةٌ قرأتُها يوماً ولم أصدِّق نفسى والقصَّة نشرَتْها جريدةُ (عكاظ) فى عدد الجمعة ١٤١٢/١٠/١٦ وأنا أستميحكم عُذْراً فى سرْدِ تفاصيل القصة كما جاءت : « نظر الحفيظ الندوى - دلهى » : فى قرية (مالى بارى) بمديرية بنغال الغربية بالهند قام رجل يدعى (دبهيشن) بذبْح طفلَه الرضيع والوحيد البالغ من العمر عشرة شهور قرباناً لآلهته . وتقول مصادر الشرطة بأن القاتل ليس جاهلاً ولا مجنوناً لكنه مثقف وهندوسى متعصب وكان (دبهيشن) قد تزوج قبل سنتين ونصف ونذر قبل زواجه بأنه إذا رُزِقَ بولدٍ فسوف يذهب به قرباناً لآلهته . وبعد مرور عشرة أشهر على ولادة ولدِهِ الوحيد احتضن طفله ذات ليلة وهو نائم مع أمه وانسلَّ نحو المعبد وذبح طفله بسكين حادة وفصل رأسه عن جسده وقام بنضح الدم على التمثال المنصوب . انتهت القصة كما نشرتها (عكاظ) وقد نشرت بجانبها صورة الطفل

وهو غارق فى دمائه وقد فُصِلَتْ رأسه عن جسده .

وإنى أعلم الكثير عن الهندوس وضلالهم ، أعرف أنهم يعبدون آلهة متعددة فعندهم لكل ظاهرة طبيعية ضارة أو نافعة إلهاً فهم يعبدون كثيراً من الحيوانات منها البقرة وبعضُ الثعابين وحتى الأعضاء التناسلية في الذكرِ والأنثى ينحتونها فى معابدهم ويطوفون حولها .

ومع ذلك لم أكن أتصور أن يصل بأحدِهم الضلال إلى هذا الحد الذى يذبح معه ولده هكذا !! ولكن زال عجبى بعد عودتى لكتاب ربى تبارك وتعالى لأطالع قوله عز وجل : ﴿ ... وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً * إِن يَّدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِن يَّدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَّرِيداً ﴾ [النساء : ١١٦ - ١١٧] . وقوله تعالى : ﴿ .. وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] .

تأمل كيف صور الله حالة التردى والانحطاط التى تصيب المشرك ، حقاً إن العقلَ البشرى عندما يبتعد عن هداية الله يضل ضلالاً مبيناً واضحاً ويتردى فى حمئة الرذيلة إلى أبعدِ حد فهو يؤلِّهُ البشر من دون الله ويتخذُ من الشمس والقمر والأشجار وغيرها آلهة . وهو أيضاً لا يعرف معروفاً ولا ينكِر منكراً إلا ما أُشْرِبَ من هواهُ ، وليس أمام العقل البشرى حتى يستعيد رشده ويسترد عافيته إلا أن يهتدى بهداية الله ولا سبيل له إلا ذلك مهما بلغ من العلم المادى مبلغاً وهذا الهندوسى الذى ذبح ولده خير مثال فهو مثقف خريج الجامعة والهندوس يقيمون معابدهم الوثنية فى أرقى الجامعات العلمية ولم يمنعهم التقدم العلمى من التردِّى فى حَمئة الوثنية القبيحة ذلك أن الهندوسية من أولها إلى آخرها مِنْ وَضْع البشر . فالبراهمة هم المتسبون للآلهة عند الهندوس وقد خلقهم الإله من فمه كما تصوّر لهم تعاليم « منو » التى وضعت فى القرن الثالث قبل الميلاد . وما زالوا يسيرون عليها حتى الآن . والبراهمة منهم القاضى والكاهن ومنهم الذى يكتب الكتاب المقدس . ولعلك أخى القارىء قد وقفت على أهم عوامل الضلال ألا وهى ابتعاد العقل البشرى عن منهج الله سبحانه وتعالى واتخاذه أنداداً من البشر .

وعود إلى موضوع اعتداءات الهندوس على

المسلمين ، هذا الهندوسى ، الذى لم يتورّع عن قتل ولده هل سيتورّع عن قتل مسلم ؟ لا . بل سيقتل المسلمين جميعاً إن استطاع . وليست هذه أول مرة يعتدى فيها الهندوس على المسلمين ولن تكون الأخيرة وكم سمعنا عن قتل أبرياء وحرق بيوت بمن فيها والله وحده الذى يعلم ماذا سيحدث فى المستقبل . فالصراع بين الحق والباطل قائم إلى يوم القيامة والهندوسى بحسب اعتقاده الباطل يرى أن المسلم يستهين بآلهته ويذبحها والمسلم يمارس حياته العادية كما أحل الله له فيأكل لحم البقر وغيرها من الحيوانات التى يقدسها الهندوسى ،

ومن هنا فالموقف خطير والمسلمون فى الهند يمثلون أقلية بالنسبة للهندوس . والمطلوب حماية المسلمين من ظلم الهندوس .. وجهل الهندوس .. وضلال الهندوس .. ولم يكن الهندوس يستطيعون فعل ما فعلوه لو كان المسلمون يداً على من عاداهم ويسعى بذمتهم أدناهم !!! لقد كان ذلك عندما كان المسلمون أعزة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وطاعة الله ورسوله وكم تجردت من سيوف وزحفت جيوش حماية لعرض ودفعاً لظلم ونصراً لحق ونشراً لكلمة التوحيد لكن لما أهان المسلمون أنفسهم بالابتعاد عن شرع ربهم أهانهم الله فى مشارق الأرض ومغاربها فدماء المسلمين مراقة فوق كل أرض وأعراضهم مستباحة من كل وَغْدٍ .

يقول الشاعر : محمد الماحى :

إن العقيدة بُدَّ للحياةِ فإن
ضاعتْ فكل حياةٍ بعدها عدمُ

ومن لم يتحرك قلبه كمداً وتتحسر نفسه ألماً لما يقع لإخوانه المسلمين في الهند ، وكشمير ، وفلسطين ، والبوسنة والهرسك وبورما ، والفلبين وفى كل مكان ... أقول من لم يتحرك قلبه ألماً وأسفاً وحزناً ومن لم ينزف بدل الدموع الدم فعليه مراجعة إيمانه . وكل مسلم عليه واجبُ المشاركة بما يستطيع ، إن لم يستطع بنفسه وماله فبلسانه ، كلمة حق يقولها لوجه الله مسموعة أو مقروءة ، بدعوة فى السَّحَرِ . لقد ضحى المسلمون الأوائل بالنفس والمال لنشر هذا الدين فبلغ ما بلغ بفضل الله ثم بفضل جهودهم المخلصة فأين نحن اليوم ؟ هم كانوا رهباناً بالليل ، فرساناً بالنهار ؟ فماذا نحن اليوم ؟ لا سبيل أمام المسلمين

لاستعادة مجدهم إلا بالتمسك بأهداب كتاب ربهم والصدق فى اتباع سنة نبيهم وتتبع خطى السلف الصالحين ، وما أصدق الشاعر محمد مصطفى الماحى حين قال :

١ - فهل تعود إلى الإسلام قوته
ويحزم المسلمون اليوم أمرهم
٢ - ويجعلون كتاب الله قبلتهم
فإنه الفيصل الماضى إذا احتكموا
٣ - ويجمعون على الحسنى شتاتهم
فتطهر النفس والأغراض والشيم
٤ - أما كفى الناس أن باتوا على حرب
تغشاهم ظلم من فوقها ظلم
٥ - فى البر فى البحر فى جو السماء
نرى رسل المنية تلقاهم فتلتهم
٦ - لم يق فى الأرض شبر لا يهدده
شتى المهالك أو يجرى عليه دم
٧ - فليت من أسلموا للغى أمرهم
تمسكوا بكتاب الله واعتصموا
٨ - إذن لفازوا بما يرجون من نعم
وعز فى جنات الأرض شأنهم
٩ - ولأل يرعاهم المولى ويكلؤهم
فى مهبة شرها فى الكون محتدم

تعقيب بغير تثريب !

أستاذنا وأخونا الفاضل الشيخ صفوت الشرادفى . السلام عليكم ورحمة الله : أضرع إلى الله العلى القدير . أن يزيدكم توفيقاً وعوناً ، وأن يجعل عملنا جميعاً مطية إلى الآخرة ، وأن يجزل لكم الأجر والثواب . وحسبيكم الله الذى لا يضيع أجر المحسنين .

أكتب همسة فى أذن من أحب وأعتز بهم . محبة فى الله . وتعاوناً على البر والتقوى .

أخى الحبيب طالعت العدد الأخير من مجلتنا الحبيبة - مجلة التوحيد - نفع الله بها المسلمين . وتقبل منكم هذا الجهد . وجعله سعياً مشكوراً .

الهمسة : فى الصفحة رقم ٥٢ مقال الأكراد « عبارة : إننا نتمنى لو وجد مثله الآن ليعيد إلينا بيت المقدس . بيت العزة والكرامة - إننا نناجيه وهو فى قبره ونقول له : قم يا صلاح الدين طهر قدسنا - إلى آخره . لن أعلق فأنتم أكفأ وكنت أتمنى أن تعلق المجلة ولو بالهامش على عدم جواز ذلك من المناجاة وأن تكون الضراعة إلى الله وحده عز وجل . فهو حسبنا وهو نعم الوكيل والكفيل بعباده . هذه واحدة .

والثانية بصفحة ٥٧ - فى تجلى الله العلى العظيم فى كتابه الخالد . جاءت كلمة جلباب « فتارة يتجلى فى جلباب الهيبة والعظمة » وما أظن أنها تليق بذى الجلال والإكرام - والأجمل منها يتجلى فى جلال الهيبة والعظمة - وتعلمون أن كلمة جلباب وردت فى سورة الأحزاب عن ثوب المرأة المسلمة . وأعتقد أنها لم ترد ولا على لسان أحد من سلفنا الصالح . ولما كان التعبير فى إطار القرآن العظيم . فقد جاء فيه . ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ، ولا تعقيب لى أكثر من الهمس المقرون بالحب والود وفقنا الله جميعاً لما يحب ويرضى . والسلام عليكم ورحمة الله .

أخوكم أحمد طه نصر

* مجلة التوحيد تشكر لفضيلة الشيخ أحمد طه نصر هذه الملاحظات القيمة وتسأل الله أن ينفع به وأن يبارك فى عمره إنه ولى ذلك والقادر عليه .

بقلم فضيلة الشيخ

عبد الرازق السيد عيد

الخبيثة

الحمد لله الذى عَصَم عباده المؤمنين بوحيه على لسان رسله ، وزكاهم بدينه الذى ارتضاه لهم وأكمله وأتمَّه ببعثة خاتم النبيِّين محمد ﷺ . وبعد

كان مِنَ الأمور التى شغلت اهتمام الرئيس الأمريكى الجديد عند توليه مهام منصبه قضية السماح للشواذ جنسيا بدخول الجيش الأمريكى والانخراط فى صفوف القوات المسلحة الأمريكية[1] وقد أصدر الرئيس أوامره الفعْلية لتنفيذ ذلك الأمر . ولسنا هنا بصدد مناقشة الآثار التى ستترتب على ذلك فى مستقبل الجيش الأمريكى ، بل ومستقبل المجتمع الأمريكى ككل .

لكنا نريد أن نتساءل أولاً عن دوافع الرئيس الأمريكى فى اتخاذ تلك القرارات !! ولنْ نتعب كثيراً فى الوصول إلى إجابة شافية عى هذا التساؤل فالرئيس نفسه يعلن [أنه يريد الوفاء بوعده الذى قطعه على نفسه لهؤلاء الشواذ خلال حملته الانتخابية][2] .

ونصل من ذلك إلى أنّ هؤلاء الشواذ أصبحوا فى المجتمع الأمريكى من الكثرة بحيث يؤثّرون على صاحب القرار فى البيت الأبيض ، وكما تُذْكرّ إحصائيةُ لأحد الجمعيات التى تقوم على شئونهم وترعى مصالحهم أن نسبتهم تمثل صوتاً واحداً من كل سبعة أصوات

(١) الأهـــرام بتاريـــخ ٢٨ ، ٢٩ ، ١٩٩٣/١/٣٠ (٢) المصدر السابق .

انتخبت الرئيس الجديد . هذا الظاهر وما خفى كان أعظم .

إذن هذه القرارات التى أصدرها الرئيس هى ثمرة الديمقراطية التى أعطت لأمثال هؤلاء حرّية التصويت وبالتالى القدرة على التأثير فى القرار فهذه الحرية الخبيثة ثمرة لشجرة خبيثة ألا وهى الديمقراطية .

وكم فى الأرض من مخدوعين بهذا الباطل وبزخرف القول وبتلك الشعارات البرّاقة التى أطلقها اليهود وحرصُوا على تعهُّدها وانتشارها لا حباً فى الحرية ولا رغبة فى العدالة الاجتماعية بل للمكر السيّء ونشر الفساد فى الأرض ، وانظر بروتوكولاتهم : [كنّا أول من اخترع كلمات الحرية والمساواة والإخاء التى أخذ العميان يرددونها فى كل مكان دون تفكير أو وعى ، وهى كلمات جوفاء ، لم تلحظ الشعوب الجاهلة مدى الاختلاف بل التناقض الذى يشيع فى مدلولها .. إنّ شعار الحرية والمساواة والإخاء الذى أطلقناه قد جلب لنا أعواناً من جميع أنحاء الدنيا وبذلك نجحنا فى تحطيم ارستقراطية غير اليهود][3] وهكذا باعترافهم هم أرادوها حرية لنشر الرذيله والفساد وإعلان الحرب على الفضيلة والتسلل للتحكم فى مصائر الشعوب المخدوعة بتلك الشعارات وما أكثرها .

[إن حرية الإنسان فى أن يَفْسد هو ويفسد غيره مكفولة بقانون ، وهكذا استطاع أولئك الشواذ أن يدعموا موقفهم بقانون وأن يؤثروا على سلطه اتخاذ القرار فى أكبر دول العالم حالياً ، ومن قبل أقر البرلمان البريطانى حرّية العلاقات الجنسية الشاذة . بل وأعلن اسقف كانتربرى وهو رئيس الأساقفة فى بريطانيا مشروعية تلك العلاقة ، وقد عقد عقد زواج بين فتى وآخر من جنسه فى الكنيسة الهولندية منذ سنوات .][1] .

أما عن الإباحية المطلقة لممارسة ألوان العلاقات الجنسية دون حرج فهذه حدث عنها ولا حرج . هذه هى الحريّة وتلك الديمقراطية التى يراد لها أن تحكم العالم اليوم فهم لا شك يدافعون عن مكاسبهم تلك ولا يريدون أن يزاحمهم فيها أحد ولن تهدأ نفوسهم حتى يَرَوْا ذلك النظام العالمى وقد أطبق على البلاد قاصيها ودانيها ، وفى سبيل تحقيق أهدافهم الدنيئة تلك لن يتورعوا عن أى جرْم يرتكبونه وقد قصّ الله

(٣) انظر البروتوكول الأول من بروتوكولات حكماء صهيون .

(١) من كتاب واقعنا المعاصر مع بعض التصرف .

علينا فى محكم كتابه عن قوم لوط مثل ذلك التصرّف فلما أراد لوطٌ عليه السلام أن يثنيهم عن فاحشتهم وعن سوء استخدامهم لحريتهم قالوا له ﴿ .. لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴾ [١٦٧ : الشعراء] وقالوا ﴿ .. أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [٥٦ : النمل] هكذا أصبح الطهر والعفاف والاستقامة جريمة فى نظر أصحاب الفطر السقيمة الذين أساءوا استخدام حريتهم وصادروا حريات الآخرين ، ونحن نعلم من كتاب الله كيف كانت عاقبة قوم لوط ، وكيف دمّر الله عليهم قريتهم وجعل عاليها سافلها ، وجعلهم آية للناس إلى يومنا هذا فالبحر الميت الآن هو مكان قوم لوط فانظر كيف امتدت آثار معصيتهم إلى ماء البحر فجعلته لا مكان فيه للكائنات الحيّة .

ونحن والحمد لله نعلم أن مصير كل من سار سيرة قوم لوط سيكون نفس مصيرهم بصورة أو بأخرى ، ونحن كذلك لا نعجب من سلوك الغرب الذى يسلكونه . فهم قد فقدوا صلتهم بوحى السماء من زمن بعيد فهم فى ريبهم يتخبّطون ، وفى ضلالهم يتيهون ، وصدق الله القائل ﴿ .. فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ . وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا .. ﴾ [١٢٣ ، ١٢٤ : طه] فالذى وصل إليه الغرب فى أمريكا وأوربا من انتكاس للفطرة هو أمر طبيعى لبعدهم عن دين الله الإسلام الذى هو فطرة الله .

لكنا نعجب من قوم يتبعون كل ناعق يتركون الحق الذى أنزله الله ويحتكمون فى مزابل قوانين أوربا وأمريكا ، يتسمّون بأسماء المسلمين وقبلتهم إلى غير المسلمين . يتركون الاحتكام إلى دين رب العالمين ويريدون الاحتكام إلى قوانين أرسطو وأفلوطين إن الله سبحانه يردُّ على هؤلاء مزاعمهم الباطلة فيتساءل سبحانه مستنكراً وموبّخاً ومقرّعاً ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [٥٠ : المائدة].

نعم ليس هناك أحكمُ ولا أعْدَل مُن حكم الله لكن لا يعرفُ هذا إلا الذين يوقنون بالله حقَّ اليقين ويوقنون بيوم الدين .

والآية الكريمة تفصل فى القضية فصلاً واضحاً لا غموض فيه فكلُّ حكم بغير ما أنزل فهو تحكيمٌ للجاهلية بشتَّى صورها : القديمة والحديثة ولذلك

طلب الله من رسوله ﷺ فى الآية التى سبقتها أن يحرص على تحكيم كتاب الله فى كل شأن من الشئون وأن يحذَرَ من اتباع أهواء الضالين فإنها ضلال وفتنه وتؤدى إلى الهلاك فى الدنيا والآخرة قال الله تبارك وتعالى ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ واحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾ [٤٩ : المائدة] وتأمَّل كيف حذَّر الله رسوله من الفتنة عن بعض ما أنزل الله إليه ؟ فكيف بمَنْ يريدون فتنَة المسلمين عن كل ما أنزل الله إليهم .

وإنى لأعجب مرة أخرى بتمسُّك أهل الباطل بباطلهم ونصْرتهم له وذودِهم عنه ، وتخاذل أهل الحق عن حقِّهم وضعْفِهم دونه هذه هى الحقيقة التى يحاول الكثير تجاهلها وأسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يبصّرنا بعيوبنا وأن يردَّنا إلى دينه ردّاً حميداً . وصل اللهم وسلِّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

عبد الرازق السيد إبراهيم عيد

قال لقمان لابنه : يا بنى أكثر من ذكر الله عز وجل ، فإنَّ الله ذَاكرُ مَن ذَكَرَهُ ، قال جل وعلا وتقدس : ﴿ فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ ﴾ .

يا بُنَىَّ لتكُنْ ذُنوبُك بينَ عَينَيْك ، وعَمَلُك خلْفَ ظَهْرِك ، وفِرَّ مِن ذُنوبِك إلى الله ، ولا تَستَكْثِر عَمَلَك .

يا بُنَى إذَا رَأَيْتَ الخاطئَ فلا تُعَيِّرْهُ واذْكُرْ ذُنُوبَك فإنما تسأل عن عَملك .

يا بُنَىَّ أطِعْ الله فإنَّهُ من أطاعَ الله كفاهُ مَا أَهَمَّهُ وعَصَمَهُ مِن خَلْقِهِ .

يا بُنَىَّ لا تَرْكَنْ إلى الدنيا ولا تَشْغِلْ قَلبَك بحبها فإنك لم تُخلَقْ لها وما خَلَقَ الله خَلْقاً أهْوَنَ عليه منها لأنه لم يَجْعَلْ نِعْمَتَهَا ثواباً لِلْمُطِيعين ولم يَجْعَلْ بَلاهَا عُقُوبةً لِلْعَاصِين .

يا بُنَىَّ أدَاءُ صلاتِك التى فُرِضَتْ عَليك أفضلُ مِن كُلّ ما تعمل .

يا بُنَىَّ جَالِسْ قَوماً يَذْكُرونَ الله ، فإنْ كُنْتَ عَالِماً نَفَعَكَ عِلْمُك ، وإن كُنْتَ جَاهلاً عَلَّمُوكَ ، وإنْ نَزَلَتْ عليهم رحمةٌ أو رزْقٌ شَرَكتهم فيه .

يا بُنَىَّ لا تجالِسْ قوماً لا يذكرون الله ، فإن كنْتَ جَاهلاً زادُوك ، وإن كُنْتَ عالماً لم يَنْفَعْكَ عِلْمُك شيئاً ، وإن نَزَلَتْ عليهم لَعْنَةٌ أوْ سَخطٌ شَرَكْتَهُم فيها .

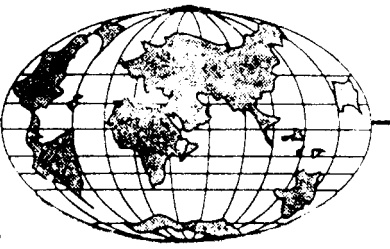

أكثر من مليوني شخص اضطروا الى ترك بيوتهم نتيجة الحرب الأهلية بين الجمهوريات اليوغوسلافية السابقة.

أبعاد المؤامرة الكبرى على البوسنة والهرسك

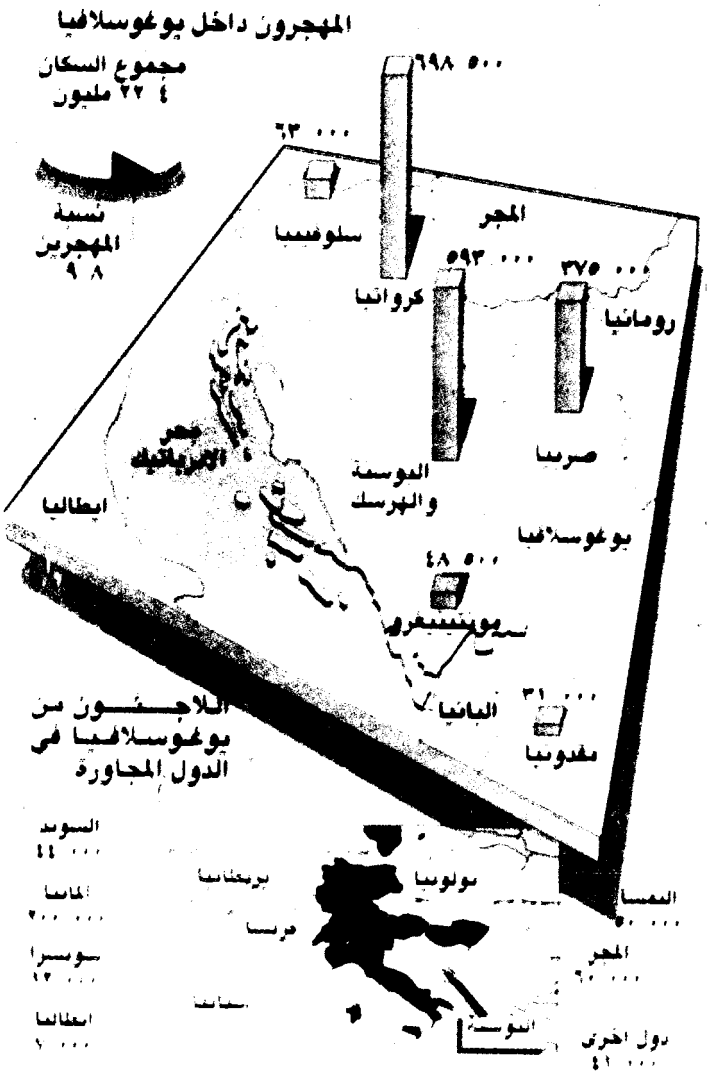

ملف العدد

البوسنة والهرسك

وسقطت جميع الأقنعة

بقلم فضيلة الشيخ

عبد الرازق السيد إبراهيم عيد

الحمد لله الموصوف بكل كمال وجلال ، الباقى وحده وجميع خلقه إلى زوال ، وبعد :- نعم لم تكن مذبحة المسلمين فى البوسنة والهرسك الدائرة الآن أول المذابح فجراح المسلمين تنزف منذ أمد بعيد فى مشارق الأرض ومغاربها لكن الذى يسمع أو يرى ما يحدث فى البوسنة والهرسك لا يصدقُ نفسه أنه يعيش فى القرن العشرين ، وعلى مشارف الحادى والعشرين . ولا يكاد يُصدِّق أن ما يحدث الآن يحدث فى ظِلّ نِظَام يَدَّعى أنَّه عالمى وفى ظِلّ حضارة تدّعى أنَّها لا تفرِّق بين الناس على أساس الجنس أو اللون أو الدّين .

لقد أجمَع المراقبون الدوليون ، وهم من كل جنْس ، على أنَّ الذى يحدثُ فى البوسة والهرسك (شىء لا يوصف) (شىء فظيع فَظِيع) هذه تعبيراتهم سَمِعها بأذُنَيه ، أو قرأها كلُّ من يتابع الأحداث ، ولِكَن نَقِف على جانبٍ مما يحدث ، نقرأ هذا التقرير لأحد الذين رأوه رأى عَين ، ألا وهو « شفارتز » عضو الحزب الديمقراطى المسيحى وعضو البرلمان الألمانى وقد جاء هـذا التقرير فى إحدى نشرات منظمة البِرِّ الدولية بتاريخ ١٤١٣/٧/١٦ تحت عنوان « رأيت بعينـى » فيقول :-

* - رأيت طفلاً لا يتجاوز عمره الثلاثة أشهر مقطوع الأذنين ، مجدوع الأنف !!

* - رأيت صُوَرَ الحَبَالَى وقد بُقِرَتْ بُطُونُهنَّ ومُثِّل بأجنَّتِهن !!

* - رأيت صور الشيوخ والرجال وقد ذُبحوا من الوريد إلى الوريد !!

* - رأيت الكثيرات ممن هتكت أعراضُهن ، ومنهن من تحمل العار ولم يبق لولادته سوى أسابيع .

*- رأيت صوراً لم أرها على أية شاشات تليفزيونية غربية أو شرقية ، وأتحدَّى إن كانت عند هؤلاء الجرأة والشجاعة لبثِّها . هذا ولا شك أن الذى رآه هذا العضو البرلمانى فى إحدى زياراته للبوسنة والهرسك قليل ، فإنه لم ير على سبيل المثال وحوش الصرب وهم يقومون بشوى طفل رضيع على النار أمام أبيه ، كما يُشوى اللحم ، ويأمرون الأب تحت تهديد الرصاص أن يأكل من لحم فلْذة كبده ، ثم أطلقوا عليه الرصاص بعد ذلك ، وهو لم ير عشرات الآلاف مِنَ القتلى وعشرات الآلاف من الجرحى ومثلهم من المعتقلين ، لم ير ما يزيد عن ستين ألف امرأة هتكت أعراضهن بطريقة لم يسبق لها مثيل ، وهو كذلك لم ير عشرات الآلاف من النازحين نساءً وأطفالاً وشيوخاً بلا وطن ولا مأوى ولا عائل بعد أن سُلِبُوا ذلك كله . والآن أصبح القاصى والدانى يعرف لماذا يقتُلُ الصربُ والكرواتُ المسلمينَ بعد أن سَقَطتْ جميعُ الأقنعة ، وبات واضحاً ما دبرَّه الصِّربُ والكرواتُ بليل لاقتسام أرض المسلمين فيما بينهم ، فجريمةُ المسلمين الأولى والأخيرة أنَّهم فكَّروا فى إقامة دولةٍ لهم فى نصيبهم من تِرْكة يوغسلافيا السابقة ، وعلى أرضهم التى عاشوا عليها منذ فجر التاريخ . إنّه العداءُ الأسودُ للإسلام دون ذنب جناه الإسلام والمسلمون ، وقد نَطَقَتْ كُتُبُ الغرب بذلك قديماً وحديثا ، وتحدث به ساستهُم فى كل مناسبة يقول المستشرق (كانتول سميث) فى كتابه « الإسلام فى التاريخ الحديث » : [إلى أنْ قام كارل ماركس وقامت الشيوعية كان النبى محمد هو التحدى الوحيد للحضارة الغربية الذى واجهته فى تاريخها كلِّه، وإنه لمن المهم أن نتذكر كم كان هذا التحدى حقيقيّاً، وكم كان يبدو فى بعض الأوقات تهديداً خطيراً حقاً] .

تأمل أخى القارىء كيف استخدم « سميث » ألفاظاً وعباراتٍ تُؤكِّد مَدَى حِنْقِه على الإسلام ، وإذا كان من الذين يدَّعون الاعتدال فما بالك بالمتطرِّفين منهمْ وقد جاءت مذابح البوسنة لتؤكد هذا الشعور العميق لدى الغرب من حقْد على الإسلام والمسلمين ، وخصوصاً أنها جاءت فى وقت سقطت فيه الشيوعية ، فعاد الشعور الذى كان سائدا قبلها تجاه المسلمين ، وأصبح الإسلام هو العدو الوحيد فى نظر أوربا . وقد شَهِدَ شاهِدٌ مِنْهم بهذه الحقيقة المؤلمة بعد ما هاله ما رأى وما سمع فى البوسنة والهرسك، وشاهِدُنا فى هذه القضية هو القِسُّ الأمريكى جورج جروسى فى مقال نشرته

صحيفة التورنتستار بتاريخ ١٩٩٣/٣/٣١ قال فيه :

« إنَّ مـــا يحصل للمسلمين فى البوسنة هو تكرار للشر المظلم فى الحضارة النصرانية .. وأنَّه يعيد ذكرى المذبحة التى ارتكبها النصارى فى مدينة أخرى هى القدس[1] ثم يستطرِد قائلاً : [إنّ عبارة « التطهير العرقى » اسم على غير مُسمَّى ، فالمسلمون البوسنيون عنصرهم كعنصر الصِّرب وشعرهم كشعرِهم، وأعينُهم كأعينهم لأنهم جميعاً ينتمون إلى العنصر السلافى، ولذلك فإن ما يحدث هو حرْبٌ دينيةٌ وليست تطهيراً عرقياً » .

وهذه كلمة حق أطلقها هذا الراهب فى عالم ساده الكذِب وضمير حىٌّ فى مجتمع أماتته المادة العمياء . وإلا فأين تلك الحضارة الإنسانية أمام وحشية ما يحدُث ؟ وأين حقـوق الإنسان أمـام هـذه الانتهاكات ؟ فى أى نظام يُمنَع المُعْتَدى عليه من الدِّفاع عن نفسه ، ويُحظر عليه السلاح، بل ويُطلَب منه تسليم البنادق المتهالكة التى بقيت مع بعض أفراده بينما يتمتع المعتدِى بدباباته وطائراته، وصواريخه وكامل عتاده، أين ذلك النظام الدولى الجديد الذى يدَّعى القوامة على العالم ؟ إلا أن يكون هذا النظام أقيم خصِّيصاً لمواجهة الإسلام والمسلمين !! أين التدخل السريع الحاسم فى العراق والصومال من هذا التباطؤ، بل التآمر القاتل فى البوسنة والهرسك، والتعامى والتغافل عما يحدث فى كشمير والهند وفلسطين وغيرها .

وصدق الله وهو القائل : ﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠] والآيات فى هذا أكثر من أن تُحصىٰ ، لكن قوماً من المنتسبين إلى الدعوة أفْرطوا فى حُسْنِ الظن بحضارة الغـرب، ووصفوهـا بالإنسانية ، ونحن اليوم نسألهم هل ما زلتم تحسنون الظنّ بعد هذا الواقع الأليم ، أمَّـا المخدوعين بحضارته المبهورين بها فنقول لهم : هلّا انتبهتم من غَفْلتكم كما انتبه القسُّ الأمريكى ؟.

أمَّا الموالين للغرب الذين يتكلمون بلسانه، ويخدعون أنفسهم وشعوبَهم فنحن نقول لهم: إن هذا الدِّين لله الذى أهلك القـرون الأولى ، وهو القاهر فوق عباده ، فبادروا بتوبةٍ من قبل أن يأتى يوم لا مردّ له من الله . ﴿ .. وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف:٢١].

فنحن واثقون مِـنْ نصر الله لدينهِ الذى ارتضاه لنفْسه وللناس ، ونصر به رسوله محمداً ﷺ حين بعثه فى قومه وحيداً فريداً، فجمَع القلوبَ على الحق الذى جاء به ﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا واللهُ

عزيز حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠] وأنتم فيما تثقون ؟ تثقون فى أمريكا والغرب، لم يعد لكم مبرِّر بعد الذى حدث وظهر عداؤهم للإسلام كالحاً ، أقول للإسلام وليس كما يدعون للأصوليين أو للإرهابيين، وأيضاً هذا الغطاء قد انكشف انكشافاً واضحاً، فلم يكن أهلُ البوسنة من الأصوليين ولا يستطيع أحدٌ أنْ يَزْعُم أنهم من الإرهابيين ، إنّهم لم يكونوا يحملون من الإسلام إلا اسمه، ودرس عنهم جميع رسمه، فليس بينهم وبين الصرب أو الكروات كبير فرق . ومع ذلك حين أرادوا استرجاع الاسم كان لهم ما كان . وإذا كانت تخيفكم قوة أمريكا والغرب فإن الذى أذن بزوال قوة الاتحاد السوفيتى قادر على إزالة الصرب ، بل قادر على إزالة العالم بأسره علويه وسفليه ، فإن كنتم ترون ما يراه المؤمنون الصادقون بربهم ، وتثقون فيما يثقون فأعلنوها توبة نصوحاً صادقة ، وإلا فأعلنوها ردَّة واضحة ولا داعى للمراوغة وخداع الناس بأساليب شتى ؛ فتارة تهاجمون الدعاة إلى الله والعلماء والشباب المستقيم على دين الله تحت ستار مواجهة الإرهاب والتطرّف ، وتارة أخرى تهاجمون الإسلام ذاته تحت ستار ما يُسمى بالبحث العلمى أو حريّة النقد أو حرية الرأى ، وكل هذه مسميات من صنع المستشرقين أساساً لينفذوا منها للطعن فى دين الله ، فإن كنتم تعملون ذلك عن جهل، فباب العلم الصحيح مفتوح ، فلا تهاجموا العلماء ، وتأدبوا فى طلب العلم . وإن كنتم تفعلونه عن قصد، فباب التوبة مفتوح ، وأذكِّركم ونفسى بالله : ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [سورة غافر : ٣] . وآخر دَعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(١) أشرنا إلى هذه الحادثة فى مقال بعنوان الإرهاب الذى لم ينكره المنكرون .

قال حذيفة المرعشى : إنما هى أَرْبَعَةٌ : عيناك ولسانك وهواك وقلبك فانظر عَيْنَيْكَ لا تنظر بها إلى ما لا يحل لك وانظر لسانك لا تقل به شيئاً يعلم الله خلافهَ مِن قلبك وانظر قَلْبَكَ لا يكن فيه غِلٌّ على أحد من المسلمين وانظر هواكَ لا تهوى شيئاً . أى مُخالفاً لما جاء به النبى ﷺ .

دليل جديد للمؤامرة الغربية على البوسنة والهرسك

نص الخطاب الذى أرسله جون ميجور رئيس وزراء انجلترا إلى دوجلاس هوج رئيس مكتب الأجانب والكومنولث برئاسة الوزارة والذى نشرته جريدة ليلسان البوسنوية بتاريخ ١٩٩٣/٦/٧

من رئيس الوزراء إلى دوجلاس هوج
مكتب الأجانب والكومنولث

عزيزى دوجلاس :

شكراً على تقريركم الوافى حول الوضع الحالى الماضى فى منطقة البوسنة والهرسك فى يوغوسلافيا السابقة .

وكما تعلمون من المناقشات السابقة أن كلاً من مجلس الوزراء وحكومة جلالتها لم تغير موقفها من أى من السياسات التالية :

١ - نحن لا نوافق الآن ولا مستقبلاً على تسليح أو تدريب للمسلمين فى البوسنة والهرسك .

٢ - سوف نستمر فى إلزام وإرغام الأمم المتحدة على حظر السلاح إلى منطقة البوسنة والهرسك ، بينما نعلم جيداً أن اليونان وروسيا وبلغاريا يمدون صربيا بالسلاح ، كما أن ألمانيا والنمسا وسلوفينيا وحتى الفاتيكان يقومون بنفس المجهودات لصالح الكروات فى المنطقة ، مع التأكد من عدم نجاح الدول والجماعات الإسلامية فى توصيل المساعدات إلى المسلمين فى البوسنة .

وسوف نستمر فى اتباع هذه السياسة حتى يتم تقسيم البوسنة والهرسك وتدميرها كدولة إسلامية متوقعة داخل أوربا - الأمر الذى لا يُحتمل - ولا نريد أن نكرر خطأ تسليح وتدريب المجاهدين الأفغان ضد قوات الاتحاد السوفيتى السابق ، وتحولهم لما يسمى بالمجاهدين المسلمين الأمر الذى يؤدى إلى

وزع في مسجد الأزهر يوم الجمعة الموافقة ١٤١٤/١/٥
بمناسبة مؤتمر عن البوسنة والهرسك ١٩٩٣/٦/٢٥.

مشاكل خطيرة فى المستقبل بين التجمعات المسلمة المهاجرة فى المجموعة الأوربية وأمريكا الشمالية .

إن هناك اهتماماً خاصاً من قبل أجهزة الأمن الداخلى سوف يتخذ تجاه التجمعات الإسلامية فى أوربا ، خاصة هنا فى المملكة المتحدة .

٣ - وحتى يستقر الوضع فى يوغوسلافيا القديمة ، يجب علينا مهما كلفنا الأمر ، أن نتأكد من أنه لا يمكن لدولة تعتبر إسلامية أن تقوم فى المنطقة ، وعليه فإنه من الضرورى أن نستمر فى المحادثات الصورية لفانس - أوين للسلام بهدف تأخير أى تحركات ممكنة ، حتى لا يعود هناك أى وجود للبوسنة والهرسك ، ويزاح التجمع الإسلامى تماماً من أرضه .

هذه الرؤية يجب أن تعرف أنها السائدة فى كل حكومات أوربا وأمريكا الشمالية ، وعليه ، فإننا لن نتدخل فى هذه المنطقة لحماية التجمعات الإسلامية ، أو ندفع إلى رفع حظر السلاح عنهم .

إن المسلمين يجب أن يعلموا أنهم لا يمكن أن يعترضوا رؤيتنا للعالم فى ظل النظام العالمى الجديد ، وفى ظل جمود ما يسمى « بالحكومات الإسلامية » ، وفى ظل عجزهم عن فعل أى شيء لمنع القضاء على المسلمين فى البوسنة والهرسك ، وعدم جدوى فعل أى شيء لتحقيق وعودهم بعد مؤتمر « منظمة المؤتمر الإسلامى » بتاريخ ٩٣/١/١٥ ، فإنهم جميعاً ليس لديهم قوة لاعتراضنا ، إذ أننا نتحكم فى حكوماتهم ، إننى أعلم تماماً أنك لا تشعر بالذى أشعر به ويشعر به وزير الدفاع - بريطانيا - حول هذه القضية ، ومن المهم أن نعرض جميعاً وجهة نظر موحدة فى البرلمان حول هذه القضية ، خاصة بعد الهجوم القوى على هذه السياسة من رئيسة الوزراء السابقة .

إننى أتوقع من كل هؤلاء الذين يخدمون الحكومة أن يحترموا مسئولية مجلس الوزراء[ ] .

( ) ملحوظة : تم إرسال هذا الخطاب إلى الحكومة البوسنوية وموقع بتوقيع : مخلص ، وكان مكتوب أعلى الوثيقة سرى للغاية .

وقفات مع القصة في كتاب الله

دروس..

الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلًا ما تشكرون . وبعد .

فالقصة في كتاب الله لم تأت لغوًا ولا حشوًا - تعالى الله عن ذلك - ولم تأت لمجرد الحكاية والتسلية لقطع الوقت فيما لا يفيد كما هو الحال في غالب حكايات البشر ، ولم تأت القصة في كتاب الله لنشر مذاهب هدَّامة تحارب الفضيلة ، وتنشر الرذيلة ، كلا بل جاءت القصة في كتاب الله لمقاصد سامية وأهداف عالية أجْملها الله سبحانه في قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلِكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَينَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] .

فالقصة القرآنية نبعٌ من الحكمة لا ينضب ، وبحر زاخر بالدروس والعبر تستحق من أولي الألباب التأمّل والنّظر ، خبرها الصدق ، وقولها الحق تهدي من اعتبر إلى صراط الله المستقيم ، وتصدّق مسيرة المرسلين من لدن آدم ومرورًا بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وتصلُهم جميعًا بخاتم النبيين محمد عبد الله ورسوله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله للعالمين مبشرين ومنذرين ودعاة إلى توحيد رب العالمين .

ذلك أنها ليست من نسج خيال البشر ، ولا من نتاج عقولهم أو تسطير أقلامهم ولكنها تنْزيل من حكيم حميد .

فضيلة الشيخ
عبد الرازق السيد عيد

من قصة آدم عليه السلام

قال الله تعالى مخاطبًا نبيَّه ورسوله محمدًا ﷺ: ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] .

وفي محاولة متواضعة نلجُ هذا المَوْلج نتلمَّس الهداية ونستظل بأسباب الرحمة ونبحث عن مواطن العبرة في القصة القرآنية سائلين الله التوفيق والسداد ، والهداية والرشاد في الحياة الدنيا ويوم المعاد .

ونبدأ بقصة الإنسانية متمثلة في قصة أبيها الأول آدم عليه السلام ، قصة التكريم الإلهي لآدم وذريته ، قصة الصراع الأبدي بين الإنسان والشيطان من خلالها يتعرف الإنسان على أصل نشأته ، ويعرف لماذا خلقه الله ؟

وما علاقة الإنسان بالأرض التي يعيش عليها ؟ وما علاقته بالكون من حوله علويه وسفليه ؟ وما مصير الإنسان بعد موته ؟ وهذه الأسئلة الخطيرة التي تُحدِّدُ دَوْرَ الإنسان على هذه الأرض قد حارت العقول فيها قديمًا وحديثًا ولم تستطع الإجابة الصحيحة عليها ، ولم تجد إلا أوهامًا أو تخرُّصات ، ذلك أنها لن تجد الإجابة الصحيحة على هذه الأسئلة إلا عن طريق الوحي المعصوم المنزَّل من لدن الحي القيوم ، والسبب بسيط جدًّا فالعقول مخلوقة وليست خالقة ، ولم تشهد خلق السماوات والأرض ولم تُساعد الله في خلقها ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ، وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١] .

فإذا كان الإنسان لم يشهد خلْق نفسه ولا خلْق غيره ، ولم يشهد خلق السماوات والأرض عندما خلقها الله[1] فهل يستطيع أن يعرف الحكمة إلا عن طريق الحكيم العليم الذي خلق فسوى والذي قدَّر

فهدى . وأي محاولة لمعرفة الحق في هذه الأمور بعيدًا عن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وبعيدًا عن سنة رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى ، تبوء بالفشل وترجع الضلال ، وسنمسك الآن عن الخوض في هذه الضلالات التي وقعت فيها البشرية عندما انحرفت عن هداية الله في هذا السبيل حتى لا يتشعَّب بنا البحث ، ويكفينا في هذا الموطن تقرير الحق الذي أنزله الله وبيانه ، لكن هذا لا يمنعنا من ذكر بعض من تلك الضلالات لمقارنة الحق والباطل وبيان نور الحق وزيف الباطل وذلك في موضعه من الدروس إن شاء الله تعالى ، ولنشرع فيما قصدناه والله من وراء القصد .

الدرس الأول : استخلاف آدم في الأرض

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] .

هذا إخبار من الله سبحانه وتعالى لملائكته أنه عز وجل خالق خلقًا يستعمرهم في الأرض ويجعل بعضهم يخلُف بعضًا فيها وهذا هو المعنى الذي قرَّره الله في مواضع أخرى من كتابه حيث قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢] . ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ [فاطر : ٣٩] وإذا تقرر بوضوح أن مهمة آدم وذريته في الأرض هي عمارتها يتعاقبون على هذه العمارة جيلًا بعد جيل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٥٥] ومن رحمة الله ولطفه بآدم أنه لم يتركه يتخبط في الأرض حيران بل هداه سبحانه إلى ما يستقيم به أمره وهداه إلى مايصلح به شأنه قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] قال أهل التفسير : علم الله آدم أسماء الدَّوَابِّ والنباتات والجمادات ، وهذه أسماء الأشياء الموجودة على الأرض تمهيدًا لقيام آدم وذريته بعمارة الأرض (صناعة ، وزراعة ، وتشييدًا) ، وهذا القدر من الهداية الفطرية ممنوح لكل إنسان مؤمن أو كافر سواء بسواء .

لكن لمَّا كانت أيام آدم وذريته على الأرض معدودة ، وخطواته عليها محسوبة ، وأعماله عند الله مكتوبة فإنَّ هذه العمارة المادية ليست مقصودة لذاتها ، وإنما هي وسيلة لغاية أكبر . فإن الإنسان وإن ولد على الأرض وعاش عليها إلا أنه سيموت ويبعث ويحاسب ، وهذه الدنيا ليست دار قرار ، إنها ممر ، وفي الآخرة المستقر ، وإنها لنار أبدًا ، أو جنة أبدًا هذا من جانب ، ومن جانب آخر لن تستقيم للإنسان حياته في هذه الدنيا إلا بهداية أخرى اختيارية تأتي على لسان رسل الله المبعوثين بالهداية في كل زمان ومكان ، فالإنسان وإن فُطِر على معرفة الأسماء لكنه لا يعرف الخير والشر[٢] .

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم

[illegible] ﴿ طه ١٢٣ - ١٢٤ ﴾ فالاعراض عن الذكر المقصود به الإعراض عن منهج رسل الله وهذا يؤدي إلى الضنك . اي الشدة والعنت . ولما كان الإنسان من طبعه النسيان بعث الله رسله للتذكير دائما بهذه الحقائق التي يتشاغل الناس عنها في رحمة الحياة . قال تعالى : ﴿ ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ [النحل : ٩٧] فالحياة الطيبة في الدنيا والجزاء الحسن في الآخرة هو بلا شك للذين آمنوا بالله ورسله واليوم الآخر ، وآمنوا بالقدر وآمنوا مما أنزل الله على ألسنة رسله . واستقاموا على ذلك عقيدة . وسلوكا .

فإذا استقر في خلد الإنسان أنه مخلوق على هذه الأرض لغاية محددة وأن مكانه الدائم ليس عليها وأن مكانه الصحيح في الجنة التي وعد الله عباده المتقين أو النار التي أعدت للكافرين . استقام سلوكه ولا شك على الجادة إن كان من العقلاء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ [illegible] ﴿ البينة ٦ ، ٨] فخير الخلق على الإطلاق هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وشر الخلق على الإطلاق هم الذين انحرفوا عن منهج الرسل .

وهنا يجدر بنا أن نسأل أنفسنا سؤالا مهمًّا ما هو البديل لمنهج الرسل ؟ حين يترك الناس طريق ربهم وخالقهم ما هو البديل ؟ لا بديل إلا أن يتخذ الناس بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله ، ويتبعون فلسفات عقلية عقيمة لم تأت بخير بل جاءت بكل شر « قد سمع الناس إلى المادية التاريخية فقالت إن الإنسان عملة اقتصادية في سوق الصناعة والتجارة ، تعلو وتهبط في طبقاتها بمعيار العرض والطلب واستمع الناس إلى الفاشية فقالت لهم : إن الإنسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود واستمع الناس إلى « العقلية »

فقال لهم قائل منها : إن « إنسانيته » كذلك شيء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان ، وأن الشيء الموجود حقًا هو الفرد الواحد! »[٣] وما الاشتراكية البائدة والرأسمالية السائدة - إلى حين - إلا امتداد لهذه الفلسفات الضالة المضلّة فالاشتراكية جعلت الإنسان كالترس في الآلة لا حرية له ولا اختيار ، والرأسمالية أطلقت له العنان في كل شيء بلا حدود ولا قيود إلا من نفسه التي امتلأت أنانية ، وغرورًا ، ورغبةً في السيطرة وما فعلته الاشتراكية (الشيوعية) بالناس لا يحتاج إلى مزيد بيان .

وما تفعله الرأسمالية اليوم ونظامها العالمي الجديد واضح للعيان .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾[الروم : ٤١] .

وبعد فليس أمام الإنسان إن أراد التوازن بين الدنيا والآخرة ، إن أراد السعادة في الدنيا والآخرة ، إن أراد الاستقامة في السلوك بينه وبين إخوانه من البشر ، بل إن أراد الاستقامة بينه وبين نفسه التي بين جنبيه إن أراد تحقيق ما أُنيط به من مهمة الاستخلاف في الأرض . أقول إن أراد الإنسان الاستقامة في كل ذلك فليس أمامه غير القرآن : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] وهنا كلام جيد للعقاد أذكره : (... ولا يستطيع ناصح أن ينصح أهل القرآن بعقيدة في الإنسان والإنسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التي يستوحونها من كتابهم الكريم ، إن القرآن لا يُلقي بالإنسان غريبًا منقطعًا ضال الطريق بل يضعه عِلمًا وديّنًا في موضعه الصحيح ، ويمدُّهُ من تعاليمه وأحكامه وحدوده وهداه بما يكفل له خير الحاضر والمستقبل ، وبما لا تستطيع عقيدة أخرى إمداده به)[٤] .

وإننا نؤمن بهذا ونحن على يقين منه لأن القرآن كلام الله أنزله على خاتم أنبيائه محمد بن عبد الله . والكون كله بما فيه الإنسان من خلق الله . ولا يعلمُ ما يُصلح الخلْق إلا الخالق سبحانه . وقد أنزل دلك في كتابه الكريم وأوضحه بطريقة لا يحيد عنها إلا هالك ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [تبارك : ١٤] بلى يعلم سبحانه ويعلم بواطن الأمور وظواهرها ، ويعلم دقائقها وعظائمها ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ، ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [**الأنعام: ١٠١-١٠٣**].

وإن المرء ليعجب من أهل القرآن حين يغفلون عن هداية القرآن ويذهبون يستجدون على موائد اللئام .

(١) هذا فضلًا عن كون الإنسان مخلوقًا وليس خالقًا .

(٢) نعم لا يستطيع الإنسان تحديد الخير المطلق أو الشر المطلق وإن عرف بعض ذلك فهو لا يملك حَمْلَ نفسه على الخير أو منعها من الشر وواقع العالم يشهد لما نقول فقد يباح المنكر بقانون بينما يحارب المعروف بنفس القانون .

(٣) من كتاب الإنسان في القرآن للعقاد .

(٤) الإنسان في القرآن مع بعض تصرف .

باب السيرة

بقلم
فضيلة الشيخ/
عبد الرازق السيد عيد

دروس من قصة

آدم.. عليه السلام

تكريم آدم..

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلَّمه البيان ، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ، وأدخله جنته تشريفًا له وتكريمًا ، وبيانًا وتعليمًا .

وبعد ؛ فقبل أن نبدأ في درسنا الجديد يحسُنُ بنا تلخيص ما استفدناه من درْسنا السابق فيما يلي :

١- القصة في القرآن الكريم نَبْعُ هداية ، ورحمة ، ومصدر استقامة لمن اعتبر بها .

٢ - فيها : إثبات وحدانية الله تعالى بأكثر من دليل ، وفيها : إثبات النبوَّة من لدُن آدم إلى خاتم النبيين : نبينا محمد ﷺ ، وإثبات مسيرتهم المباركة على طريق التوحيد ؛ فمصدرهم واحد ، ودعوتهم واحدة : إلى دين الله (الإسلام) الذي ارتضاه الله لنفسه ، وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلًا على يد رسوله محمد ﷺ .

٣ - لا سبيل لمعرفة الحكمة من خلق الإنسان وخلق السموات والأرض ، إلا عن طريق الخالق سبحانه ، من خلال كلامِه الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ .

٤ - خلق الله آدم

وذريته من الأرض واستعمرهم فيها جيلًا بعد جيل لينظر كيف يعملون .

٥ - للأرض عمارتان وللإنسان هدايتان : للأرض عمارة مادية ليست الغاية ؛ بل هي وسيلة ، وعمارة أخرى معنوية : بالإيمان والعمل الصالح وهي المقصودة ، وللإنسان هداية فطرية : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] ؛ وأخرى اختيارية : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى... ﴾ [البقرة : ٣٨] . الهداية الفطرية ممنوحة للمؤمن والكافر ، والهداية الاختيارية ليست إلا للمؤمن .

٦ - كل شقاء وشر في الأرض هو بسبب انحراف الناس عن منهج الرسل .

٧ - لا طريق لإصلاح ما ظهر من فساد على الأرض اليوم ، وفي كل يوم إلى قيام الساعة ، إلا بالعودة الصادقة إلى دين الله (الإسلام) ، الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ ، والاحتكام إليه في كل شؤون الحياة صغيرها وكبيرها . وكل تحكيم لغير شرع الله هو احتكام للمخلوق وليس للخالق ، وهل يستوي حكم الخالق ، وحكم المخلوق؟: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ . [النحل: ١٧].

فكما لا يستوى الخالق والمخلوق ، كذلك لا يستوي تشريع الخالق وتشريع المخلوق . لكن هذا الأمر لا يعرفه إلا أولو الألباب ، الذين سمعوا منادي الإيمان ؛ فآمنوا .

٨ - الله سبحانه وتعالى هو المتفرِّد بالخلق ، وهو المتفرد بالأمر ، وهو سبحانه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، وكل انحراف عن عبوديته سبحانه إفساد في الأرض بعد إصلاحها : ﴿ .. أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ . ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ . وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٣ ـ ٥٥] .

أما الدرس الذي نحن بصدده الآن ؛ فهو : عن تكريم الله لآدم : قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص : ٧١،٧٢] ثم قال تعالى : ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ... ﴾ [ص : ٧٥] .

فهذه ثلاث خصائص ، اختص الله بها آدم تكريمًا له وتشريفًا وهي:-

١- خلق الله آدم

بيديه .

٢ - نفخ فيه من روحه .

٣ - أمر الملائكة بالسجود له ، وهناك رابعة في سورة البقرة حيث علمه الأسماء كلها ، وقد أشار حديث الشفاعة إلى هذه الأربع مجتمعة حيث قال ﷺ- فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما-: «.. فيأتون آدم فيقولون : أنت آدم أبو البشر ، خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته وعلّمك أسماء كل شيء...» .

ومن مظاهر تكريم الله لآدم- أيضًا-: أن أسكنه الجنة: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾ [البقرة : ٣٥] ومن المعلوم أن هذه الكرامة تنسحب على ذرية آدم فتكريم الأصل والمنشأ تكريم للذرية ، ولقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى تكريم بني آدم- عمومًا- في غير ما موضع من كتابه الكريم ، نذكر منها- على سبيل المثال- قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

إذن هذا هو آدم الذي خلقه الله بيديه ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، وعلّمه من العلم ما شاء ، وأسكنه جنته .

فآدم ؛ وإن خُلِق من الأرض ؛ فإن له بالسماء سببًا وصلة ، وإن خُلق من طين ؛ فإن الله خلقه بيديه خلقًا مستقلًا ، تكريمًا له المخلوقات .

هو الإنسان الذي الله ، وكرَّم ذريته ، فليس بينه وبين القردة ، كما زعم الماديون ، مذهب النشوء والارتقاء [مذهب التطور]، وليس هو سليل الآلهة كما زعم أصحاب مذهب سلسلة الخلق العُظْمى ، حيث تبعوا في ذلك رائدهم الأكبر أفلاطون ، وهو أول قائل بوحدة الوجود ، حيث- في نظره- انبثق الخلق من الله ، وأن الإنسان يترقى حتى يصل إلى مرتبة الإلٰه ، وتوارث هذه الفلسفة أجيال وأجيال ، حتى انتقلت من الهند واليونان إلى العرب المسلمين، ومن أشهر القائلين بوحدة الوجود ابن عربي الصوفي .

وانتقلت هذه الفلسفات من متصوفة العرب إلى متصوفة أوربا عن طريق الأندلس ، وظهر أثرها واضحًا في أقوال القديس توما الأكويني وألبرت الكبير . فالإنسان ليس بينه وبين القردة نَسَبٌ ، كما زعم أصحاب دارون ، وليس سليل الآلهة كما زعم الفلاسفة ، وليس

ابن الله كما زعم اليهود .

والآن دعنا ننفض عنّا غبار تلك الفلسفات الضالة المضلّة ، ونعود إلى الحق ؛ الذي أخبرنا به ربنا سبحانه وتعالى ، الذي خلق آدم وخلق منه زوجه ، وخلق منهما جميع الخلق إلى يومنا هذا . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً. وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

فالنفس الواحدة هي آدم عليه السلام ، وخلق الله من آدم زوجه ، وهي حواء ، ومنها خلق الله رجالًا كثيرًا ونساءً ، ومن الرجال والنساء تناسلت الأجيال المتعاقبة ، وأمر الله أبناء آدم أن يتقوه ، فكلهم من آدم ، وآدم من تراب ، فليتق اللّهَ التـرابُ في الترابِ ، وليعلم أن شرفه ليس في التفاخر بالأنساب ؛ إنما في تقوى الله عز وجل ، ذلك هو ميزان الله ولا ميزان غيـره صحيـح ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

فالناس- جميع الناس- خلقهم الله من ذكر وأنثى ، والأنثى خلقها من الذكر ، الذي هو آدم عليه السلام ، فعاد الأصل له ، وكرامة المرء عند الله ليست بنَسَبه أو لَوْنه ؛ بل بإيمانه وعمله الصالح ، والإنسان هـو الذي يُحَدِّدُ لنفسه هذا المصير ؛ لأنه مكلف مختار : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف/٢٩] .

إن الله سبحانه خلق الإنسان في أحسن صورة جسدًا وروحًا ، وهداه إلى الخير ، وأرشده إليـه ، وأرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، فمن شاء أخذ بهداية الرسل ، ونفض عنه أغلال المادة ، التـي تربطـه بالأرض ، وزكّى نفسه ، وأصبح من أهـل الملإ الأعلى ، حتى إذا جاءت ساعة موته ؛ عاد إلى الجنة ، التي أعدّها الله له في أعلى عليين ، وإلا صارت روحه في أسفل سافلين في قعر الجحيم ، ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [التين : ٤-٦] .

ردّه الله إلى أسفل سافلين ، أو جعله في أعلى عليين ، بسبب ما قدّم في هذه الدنيا .

هذا هو آدم الإنسان المكـرَّم ، المكلـف ، المسئول ، خلقه الله قبضة من تراب ، ونَفْخة من روح ، ومنحه الله عزّ ﴿..اسْجُدُوا..﴾ ، وشرف

﴿.. وَعَلَّمَ آدَمَ ..﴾ وخصيصة ﴿.. لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. ثم أسكنه الجنَّة تكريمًا، وتعليمًا له ولذريته من بعده أنَّ العز الحقيقي، والشرف الحقيقي المستمر، هو: بالاستقامة على الطاعة، وهذا الدرس لخَّصه الله لآدم في جملتين ﴿.. وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥] هذا الأمر والنهي عليهما مدار العبودية؛ فمن أراد أن يسكن الجنة خالدًا فيها؛ فعليه بطاعة الله عز وجل، ومن أراد أسفل سافلين، هناك في قعر الجحيم، فله ما أراد بمخالفته رب العباد. ولن ينفعه حينئذ شرف العلم، ولا عز السجود لآدم، ولا خصيصة خلق آدم ولا غير ذلك؛ لأنه تدنى بنفسه إلى منزلة أحطَّ من البهائم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ويمكننا تلخيص ما سبق فيما يلي:-

١ - خلق الله آدم خلقًا مستقلًا عن سائر المخلوقات؛ قبضة من طين، ونفخة من روح.

٢ - الإنسان ليس حيوانًا، ولا من سلالة الحيوانات؛ وإن اشترك معها في بعض الخصائص.

٣ - الإنسان ليس من سلالة الآلهة، كما زعم الفلاسفة، وليس ابن الله كما زعم اليهود؛ بل هو المخلوق المتميز، الذي كرَّمه الله، وكلَّفه، وجعله مختارًا.

٤ - كل الناس لآدم، وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي، إلا بتقوى الله.

٥ - لا مجال للفخر بالجنس، ولا التعصب للون، فالشعوب؛ وإن اختلفت، أصلها واحد، ومصيرها واحد، وأكرمهم عند الله أتقاهم.

٦ - إثبات اليدَيْن لله حقيقة، دون تأويل، ولا تكييف، وقد جاء ذلك صريحًا في قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. وهذا الدليل قطع الحجة على أصحاب التأويل حيث أوَّلوا اليد بالقدرة. فما قولهم في هذه الآية هل يستطيعون أن يقولوا: إن لله قدرتين؟ إن قالوا: نعم، فذلك الكفر الصريح. وإن قالوا: لا، نقضوا تأويلهم.

٧ - أن الله سبحانه، وإن خلق آدم- ابتداء- في أحسن تقويم، إلا أنَّ الله جعله مختارًا، وجعل مفتاح استمرار الكرامة بيده، فله- بما شاء الله له من الاختيار

وقفات مع القصة في كتاب الله

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الأمين سيدنا محمد وسيد ولد آدم أجمعين . اللهم صلاة وسلامًا دائمين على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد .

فحديثنا اليوم عن الدروس المستفادة من المقارنة بين معصية إبليس اللعين ومعصية أبينا آدم عليه السلام .

بقلم فضيلة الشيخ
عبد الرازق السيد عيد

وأول سؤال يطالعنا في هذا الموقف نطرحه بهذه العبارة :

عصى إبليس ربَّه فطَرَده اللَّهُ من رحمته ، وحرَمَه من سُكْنى جنته ، وتوعده النار هو ومن كان على شاكلته . وعصى آدمُ ربَّه فغفر الله له ، ووعده بسُكْنى جنته . فما السر في ذلك ؟ وقبل أن نجيب على هذا التساؤل نذكر الآيات القرآنية الكريمة التي نزلت في هذا السياق لتكون شاهدًا لنا وهاديًا ودليلًا : قال تعالى [البقرة/٣٤] : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾

وقال تعالى [الأعراف/١١،١٢] : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ . قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ وقال سبحانه في سورة [ص/٧٣-٧٦] : ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ . قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ . قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ هذا بشأن معصية

دروس من قصة آدم عليه السلام

ثالثا

بين معصية الشيطان ومعصية الإنسان

إبليس ، أمَّا ما جاء بخصوص معصية آدم فقال تعالى [طه: ١١٥] : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ ... وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ وقال سبحانه في سورة [الأعراف : ٢٢-٢٣] : ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ . قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ الآيات وعلى ضوء ما تقدَّم من آيات بينات نستطيع الإجابة على السؤال المطروح كما يلي :-

أولًا : من حيث منبع المعصية وأصلها : فمعصية الشيطان منشؤها الكبر ، وأصلها الغرور ، وقد لاحظنا ذلك واضحًا في كل ما مر بنا من آيات ﴿ .. أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] ﴿ .. أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ .. ﴾ [الأعراف : ١٢] ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ .. ﴾ [ص : ٧٥] ، وهكذا نشأت معصية إبليس لربه من تكبّره وفخره بنفسه وحسده لآدم ، فردَّ أمر ربّه الواضح الصريح برأيه الفاسد القبيح ، ولما كان أصل معصية إبليس هو الكبر والغرور فإنَّه لم يعترف بها ولم يتب ولم يندم ولم يستغفر .

لكن معصية آدم منشؤها الضعف البشري والنسيان والغفلة ، ولذلك لما ذكَّره ربُّه تذكر ورجع تائبًا وأناب إلى ربّه معترفًا بذنبه راجيًا رحمة ربّه ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا

وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] فتقبل الله من آدم وزوجه توبتهما وغفر لهما ، وذكر ابن كثير في تفسيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن آدم عليه السلام قال لربّه : « أرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنّة ؟ قال : نعم » والحديث كما ذكر ابن كثير رواه الحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح الإسناد .

هذا من حيث أصل المعصية ومنشؤها ، أما من حيث درجة خطورتها فقد ذكر أهل العلم : أن ترك الأمر أعظم من ارتكاب النّهي ، وإبليس ترك مأمورًا في مواجهة الآمر – سبحانه – أما آدم فقد ارتكب محظورًا في غفلة وهو ساه ، وقد ذكر ابن القيم في هذه المسألة وجوهًا تزيد على عشرين وجهًا لمن أراد مراجعتها في كتابة المفيد (الفوائد) .

والدروس المستفادة من هذا الموقف كثيرة وبعضها يحتاج إلى وقفات مستقلة ، أول هذه الدروس : العداوة الأبدية بين الشيطان وذريته ، وآدم وذريته .

الثاني : أثر المعاصي وخطرها ، فإن معصية آدم على صغرها كانت سببًا في إخراجه من الجنّة . وفضّل التوبة والرجوع إلى الله وأن خير الخطائين التوابون .

الثالث : أن الذنوب لا تتوارث ولا تنتقل لعنتُها للذرية ، إذا تاب العبد منها واستغفر ، فإن الله غفور رحيم ، وقد عصى آدم ثم تاب فتاب الله عليه ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه : ١٢١] هكذا بوضوح واضح انتهى أمر معصية آدم بتوبته منها وتوبة الله عليه .

رابعًا : لا مجال على وجه الإطلاق لتلك المقولة التي تسمعها من بعض الناس ومضمونها (أنه لو لم يأكل أبونا آدم من الشجرة لمكثنا في الجنّة) فهذه المقولة خطأ ؛ لأن الله خلق آدم ابتداءً للأرض كما ذكرنا في الدرس الأول ، وإنما كان دخوله الجنّة للتكريم والابتلاء والتعليم له ولذريته من بعده .

خامسًا : هناك أقوالٌ تُنسبُ لأمّنا حواء الجُرْمَ وتُلْقي عليها بالتّبعة في كونها أغْوَت آدم بالأكل من الشجرة ، والبعض صور حواء بالحيّة ، وكذا كل بناتها وهذه أقوالٌ باطلة لا أصل لها في الكتاب ولا في السنة الصحيحة الثابتة .

سادسًا : كل مَنْ يعارض أمر الله الصريح برأيه الفاسد القبيح فله في الشيطان مثل .

سابعًا : هناك فرق بين من يقارف

المعصية عن ضَعْف بشري ونسيان جبلّي ثم يبادر بالتوبة والإنابة ، وبين مَنْ يقارفها عَنْ عَمْد وإصرار ، ويمضي سادرًا في غيّه لا يلوي على شيء، بل بعضهم قد يجاهر بمعصيته ، والبعض الآخر قد يتفاخر بها ، فالنوع الأول قدوته آدم ، والثاني قدوته إبليس .

ثامنًا : المتكبّر جاهل بنفسه جاهل بربّه سبحانه ، ولو عرف إبليس نفسه بالنّقائص والآفات ، وعرف ربّه بصفات الكمال ، ونعوت الجلال ما تكبّر على أمر ربّه وما رفض السجود لآدم . لكنّه جاهل بنفسه جاهل بمقام ربّه مهما ادعى لنفسه مِنَ الصفات ، وكذلك كل متكبّر إلى قيام الساعة .

تاسعًا : لا شك أنَّ في تقدير المعصية على آدم لطفًا ورحمة علم ذلك من عَلِمَه وجهله من جَهلَه . من ذلك :

(أ) إبطال دعوى القائلين بالجبر حيث أكل آدم من الشجرة مختارًا ، وكذلك كل مقترف للمعصية لا يجبره أحد عليها ، ولا يجبره أحد على تركها حين يتركها .

(ب) لولا تقدير الذنب على آدم لهلك من العجب ، ولكن من رحمة الله به أن قدّر عليه المعصية حتى يُلبسهُ خِلْعَةَ العبودية ، وقد ذكر بعض أهل العلم أنَّ آدم ما انتفع بشيء كما انتفع بذُل الإحساس بالذنب . لم ينفعه فخر ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر : ٢٩] ولا شرف ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] ، ولا عز ﴿ ٱسْجُدُواْ .. ﴾ بمثل ما انتفع بذل ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ... ﴾ [الأعراف : ٢٣] فمدار العبودية على الذل والانكسار والخضوع والتطامن لله رب العالمين .

(ج) معرفة العبد نفسه بصفات العجز ، والضعف ، ومعرفته ربّه بصفات الكمال والرحمة والمغفرة .

(د) من ذلك شعور آدم بتمام نعمة ربّه عليه حيث ما زال متقلبًا في نعم الله رغم تقصيره وعجزه عن شكرها ، وهذا لب العبودية ، وفي هذا يقتدي بآدم الصالحون من عباده ، وهذا مضمون قول النبي ﷺ : « أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي ... »[1] .

عاشرًا : ليس من الحكمة التساؤل عما سكت عنه القرآن الكريم، مثل اسم الشجرة التي أكل منها آدم، أو نوعها، أو السؤال عن كيفية وسوسة إبليس لأبينا آدم ، وإنما الحكمة في التماس مواطن العبرة والبحث عن أسباب الهداية ، والله الهادي إلى أقوم سبيل .

بقلم فضيلة الشيخ
عبد الرازق السيد عيد

وقفات مع القصة في كتاب الله

دروس من قصة آدم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، أما بعد :

فإن عداوة الشيطان لبني الإنسان قديمة ومستمرة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أما كونها قديمة : فمنذ خلق الله آدم وكرَّمه ، وأمر الملائكة - ومعهم إبليس بالسجود لآدم - منذ هذه اللحظة : دب الحسدُ في قلب إبليس ، وملأه غيظًا على آدم ، وَعَلِمَ الله ذلك من قبل أن يعلمه آدم ، ولذا حذر الله سبحانه آدم وزوجه من عدوِّه وعدوهما : ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه :١١٧] .

رابعًا : إنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ...

﴿ ... وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف:٢٢] .

أما كونها مستمرَّة : فهذا أمر مركوز في الفطرة لا يُنكره إلا من انتكست فِطَرُهم انتكاسًا شديدًا ، وقد صَرَّح به اللعين نفسه ، وتوعد وتهدد ، بعد أنْ باتَ مطرودًا من رحمة الله :

﴿ قَالَ : أَرَءَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

[الإسراء : ٦٢] .

انظر كيف بدت البغضاء في قوله ، وما يُخفي صدرُه أكبر ، وكيف

عبَّر بقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾، وفيها: إشارة إلى شدَّة كيْده، وكثرة انقياد بني آدم إلا قليلًا خلفه، كما تنقاد الدَّابة من خطامها خلف صاحبها. وقد عبَّر في موقع عن هذا فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧]، هكذا اشتعلت نار الحسد في قلب إبليس، وأعلن بوضوح تربُّصَه ليس بآدم وحده؛ بل بذريته جميعًا، وأنه سيدخُل عليهم من كل باب، ويأتيهم من كل طريق لصدِّهم عن دين الله، الحق المستقيم، ولخطر الشيطان، ودقة تلبيسه على الناس، وكثرة مداخله عليهم، حذَّرنا اللَّهُ منه، كما حذَّر أبانا من قبل: ﴿يَٰبَنِيٓ آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

فالعاقل من اعتبر بغيره، واتعظ بمنْ سبق، ومن هنا يلْفِتُ الله أنظارَنا أن نعتبر بما حدث لأبينا آدم مع الشيطان، وكيف استطاع اللعين أنْ يلبِّس الأمرَ على الأبوين - رغم تحذير الله لهما وقُرب العهد في ذلك - وكيف كَذَبَ عليهما متعمِّدًا، ودَخَل إليهما من نقْطَة الضَّعْف التي عَرفها فيهما.

وقد آن الأوان أن نتأمل الدرس، ونستخلص منه العبرة.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ، فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ...﴾ [الأعراف: ٢٠: ٢٢].

فتأمل - رحمك الله - كيف جاء الشيطان في ثوب الناصح الأمين، وهو العدو المبين، وكيف كذب على الله باتهام شرْعه، حيث أمر الله آدم ألا يأكل من الشجرة، فيأتي اللعين ويقول لآدم: لا؛ بل كُلْ من الشجرة، فإنَّ أكْلك منها هو: طريق الخلد، فكذب كذلك على الأبوين، وزيَّن لهما المعصية، ومخالفة أمر الله، وجعلها بابَ الملك والخلْد، في حين أن المعصية

طريق الذلِّ والتردِّي والهوان ، لكن هكذا الشيطان وأعوانه يضلُّون الناس ، ويزينون الباطل لهم ، ويسمونه بغير اسمه : (بِأَنْ سمى تلك الشجرة : شجرة الخلد ، فهذا أول الكيد والمكر ، ومنه ورَّث أتباعه تسمية الأمور المحرمة بالأسماء التي تحب النفوس مسمياتها ، فسموا الخمر : أم الأفراح - وهي أم الكبائر - ، وسموا أخاها - الحشيش والأفيون - : بلقيمة الراحة ، وسموا المكوس : بالحقوق السلطانية ، وسموا أقبح الظلم وأفحشه : شرع الديوان ، وسموا أبلغ الكفر وهو جحد صفات الرب سموه : تنزيهًا ، وسموا مجالس الفِسْق : المجالس الطيبة ، وسموا الربا : بالمعاملة) .

وهذا الذي كان في زمن ابن القيم - رحمه الله - وما زال الشيطان بأتباعه يزين لهم ، ويحدث لهم في كل وقت فتنة ، فسموا الخمور : بالمشروبات الروحية ، وسموا الخلاعة والمجون : بالفنِّ ، وسموا الخروج على شَرْع الله ، وتعطيل حكمه في الأرض بالتقدُّم والحريَّة وهكذا ، والشيطان في كل ما تقدَّم كاذب ، ويعلم أنه كاذب ، ولكنه شَامَ نفسَ الأبوين ، وآنس منهما ركونًا إلى الجنَّة ، والنَّعيم المقيم فيها ، فدخل عليهما من هذا الباب ، وهكذا يدخل الشيطان للنفس البشريَّة من المدخل المناسب ، وقليل من الناس من يفطِنُ لهذه النكتة ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف : ٢٧] وهذا مدخل من الشر عظيم دخل منه الشيطان إلى نفوس الكثيرين ، وباب من الفتنة ضلَّ بسببه طوائف شتى من الناس ، ومن تمام الفائدة أن نذكر هنا بعضًا مما أورده الإمام ابن قيم الجوزية بهذا الخصوص في إغاثة اللهفان، فهو جدير بالتأمُّل :

(ومن كيده العجيب : أنه يشام النفس ؛ حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها : قوة الإقدام والشجاعة ، أم قوة الانكفاف والمهانة ؟ فإن رأى الغالب على النفس : المهانة والإحجام أخذ في تثبيط صاحبها ، وإضعاف هِمَّته وإرادته عن المأمور به ، وثقَّلَه عليه ، فهوَّنَ عليه ترْكه حتى تركه جمْلَة ، أو يقصِّر فيه ويتهاون به .

وإذا رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلوَّ الهمَّة أخذ يقلِّلُ عنده المأمورَ به ، ويوهمُه أنَّه لا يكفيه ، وأنه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة ، فيقصِّر الشيطان بالأول ويتجاوز بالثاني ، كما

قال بعض السلف : ما أمر الله تعالى بأمر إلا والشيطان له فيه نزعتان إمَّا إلى تفريط وتقصير ، وإما مجاوزة وغلو . ولا يبالي الشيطان بأيهما ظفر) .

فالدين الحق وسط بين الأمرين : تفريط وإفراط، فكما أن الشيطان يفرح بالمفرِّط المقصِّر في دينه ، فهو كذلك يفرح بالغالي المتجاوز الحدّ ، وربما كان فرحه به أشد . ثم أخذ ابن القيم - رحمه الله - في بيان أمثلة من الذين استفزهم الشيطان، وأوقعهم في هذه الفتنة ، وجَنَح بهم ، إما إلى تفريط وإما إلى إفراط :

(وقد اقتطع الشيطان أكثر الناس - إلا أقل القليل - في هذين الواديين ، وادي التفريط ووادي الإفراط ، والقليل منهم الثابت على الصراط الذي كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين .

❋ فقصَّر الشيطان بقوم عن الإتيان بواجبات الطهارة ، وقوم تجاوز بهم الحد بالوساوس .

❋ وقصَّر بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتى قتلوهم ، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم .

❋ وقصَّر بقوم في خلطة الناس حتى اعتزلوهم في الجمعة والجماعات والجهاد وتعلم العلم ، وتجاوز بآخرين حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام .

❋ وقصَّر بقوم حتى منعهم من ذبح عصفور أو شاة ليأكلوها ، وتجاوز بهم حتى جرأهم على الدماء المعصومة . لا حظ هنا : أنه تجاوز بهم أنفسهم ، فالذين يحرِّمون المباح هم الذين يستحلون الدماء المعصومة .

❋ وقصَّر بقوم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم النافع ، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به .

❋ وقصَّر بقوم حتى جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح ، وأعرضوا عنهم ، ولم يقوموا بحقهم ، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله ، أي : بدعائهم من دون الله أو التوسل بهم إليه والتقرُّب إليهم .

❋ وكذلك قصَّر بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلية ، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما أحلُّوه ، والحرام ما حرَّموه ، وقدَّموا أقوالهم على سنة رسول الله الصحيحة الصريحة وهدي صحبه الكرام .

❋ وقصَّر بقوم حتى

قالوا : إن الله لا يقدر على أفعال العباد ولا شاءها منهم ، ولكنهم يعملونها دون مشيئته وقدرته ، وتجاوز بآخرين حتى قالوا : إنهم لا يفعلون شيئًا البتة ، وإنما الله هو فاعل تلك الأفعال حقيقة ، فتعالى الله عما يقول الفريقان علوًّا كبيرًا .

❋ وقصَّر بقوم حتى قالوا : إن رب العالمين ليس داخلًا في خلقه ، ولا بائنًا عنهم ، ولا هو فوقهم ، ولا تحتهم ، ولا خلفهم ، ولا أمامهم ، ولا عن أيمانهم ، ولا عن شمائلهم - ضيعوا ربَّهم - وتجاوز بآخرين حتى قالوا : هو في كل مكان بذاته كالهواء الذي هو داخل في كل مكان - وتعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا - فهو سبحانه فوق عرشه ، بائن عن خلقه ، معهم بعلمه وقدرته ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

❋ وقصَّر الشيطان بقوم حتى قالوا : إيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل فضلًا عن أبي بكر وعمر ، وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا من الإسلام صاحب الكبيرة الواحدة .

❋ وقصَّر بأقوام حتى نفوا حقائق أسماء الرب تعالى وصفاته ، وعطلوه منها ، وتجاوز بآخرين حتى شبهوه بخلقه ومثلوه - فسبحان الله .

❋ وقصَّر الشيطان بقوم حتى عادوا أهل بيت رسول الله ﷺ ، وقاتلوهم واستحلوا حرمتهم ، وتجاوز بآخرين حتى ادعَوْا فيهم خصائص النبوَّة : من العصمة وغيرها) .

وهذا باب يطول بيانه كما ذكر ابن القيم ، ونحن بدورنا لم نورد كل ما أورده ، بل اخترنا منه : والقصد بيان طرق تلبيسه على طوائف شتى من الناس ، وإيقاعهم في الباطل باسم الحق ، والدخول إليهم من نزعة التفريط أو الإفراط .

وخلاصة القول أوردها الله تعالى محذرًا ومنبِّهًا ومذكرًا ومعلمًا ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] .

فها هو ذا الشيطان - يا عباد الله - أعلن عداوته لكم منذ خلق الله أباكم ، وها هو ذا الشيطان يقعد لكم بكل طريق ، ويصدكم عن الصراط المستقيم ، ويدعوكم إلى كل طريق منحرف ، وها هو ذا الشيطان لا يفتأ عن التسلط علينا بأنواع متعدِّدة من الفتن والمكر والخديعة ، وها هو ذا الشيطان يستخف بمن يستطيع من

بني آدم ، ويدعوهم إلى باطله المتمثل في أصوات المزامير والأغاني وصور الملاهي وأنديتها وجمعياتها ، ومتسلط علينا بجميع جنوده : الركبان منهم والمشاة ، حشدهم جميعًا لإضلال بني آدم ، ومشاركتهم في الأموال بجمعها من حرام ، وإنفاقها في حرام ، وفي الأولاد بنزع البركة منهم ، وتزيين الزنا ، وتحسين الفجور ، وها هو ذا مستمر في التغرير بنا صباح مساء ، اقرءوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٤] .

قد اتخذ الشيطان آدم وذريته أعداءً له ، وهَدَفًا لحربه ، وميدانًا لكيده ومكره ، فهل اتخذناه نحن ﴿ عَدُوًّا ﴾ كما أمرنا الله في الآية السابقة وفي غيرها من الآيات ؟ هذا سؤال يحتاج إلى إجابة ، والإجابة يعلمها كلٌّ من نفسه .

ولكنه من المفيد هنا أن نَذْكُرَ أن الله عندما ابتلانا بهذا العدو اللعين لم يترُكْنا سدًى ، بل بيَّن لنا طُرُقَ الدفاع عن أنفسنا ، بل تحصينها من ذلك العدو ، بل الهجوم عليه ودَحْره حتى يتوارى ويتلاشى ، ويغدو ضعيفًا ذليلًا ، نعم كل ذلك في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ ، وفي سيرة سلفنا الكرام ، ونحن نشير إلى بعضها باختصار حتى لا يطول بنا الحديث .

﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٥] ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين في توحيده ، وفي الاستعانة به سبحانه ، وها هو ذا الشيطان يقرُّ ويعترف بذلك ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩، ٤٠] ، ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص : ٨٣] .

ويؤكد الله سبحانه هذه الحقيقة بقوله سبحانه : ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر : ٤١، ٤٢] .

وانظر - رحمك الله - إلى هذه التربية القرآنية الموجَّهة إلى الرسول ﷺ وإلى أمَّته : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ، إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ، إِنَّمَا

سُلْطَانُهُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل : ٩٨ : ١٠٠] .

فليس من شك أن أول الأسلحة الموجَّهة إلى الشيطان - والتي لا يستطيع معها مقاومة - سلاح الإخلاص لله : الإخلاص لله في الإيمان ، وفي التوكل ، وفي العلم ، وفي العمل، إخلاص أعمال القلوب وأعمال الجوارح .

❁ وفتن الشيطان المتنوعة تعود إلى أمرين :

١ - فتن الشبهات : وعلاجها العلم النافع من كتاب الله ومن سنة رسوله ﷺ بفهم الصحابة الأبرار ، وعلى منهج سلفنا الصالح الذي هو سبيل المؤمنين ، والإخلاص في ذلك والعمل به .

٢ - فتن الشهوات : وعلاجها الصبر على الطاعات ، والصبر عن المعصية ، والحصن الذي تتحصن به دائمًا : المواظبة على ذكر الله بقراءة القرآن والأذكار الواردة عن رسول الله ﷺ ، والمحافظة على الجماعة في المسجد : في الجمعة وجميع الصلوات ، وملازمة أهل الصلاح والتقى ، وترْك صحبة الأشرار ، فإنهم شياطين الإنس يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا .

وفي هذا القدر كفاية لمن أراد الهداية ، والله سبحانه أسأل أن يهدينا وإياكم وجميع المسلمين إلى صراطه المستقيم . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كلمة وفاء

أثناء طبع المجلة يوم الخميس ٢٥ ربيع الأول ١٤١٥هـ أحزننا نبأ وفاة شيخنا الجليل وأستاذنا الفاضل سماحة الشيخ عبد الرازق عفيفي عطية ، ثاني الرجال الذين تولوا رئاسة جماعة أنصار السنة المحمدية بعد وفاة مؤسسها الشيخ محمد حامد الفقي ، وقد كان نائبًا لرئيس الجماعة قبل ذلك ، ولم يبق بالجماعة رئيسًا سوى عام واحد فقط انتقل بعدها إلى المملكة العربية السعودية ، حيث اتسع نطاق خدمته للدعوة فشارك في تأسيس المعاهد العلمية ، ثم كلية الشريعة واللغة العربية ، ثم عمل مديرًا بالمعهد العالي للقضاء ، ثم نائبًا لرئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ونحن نضرع إلى الله تعالى العلي القدير أن يتغمد الشيخ بواسع رحمته ويسكنه فسيح جناته ، وأن ينفعنا بالعلم الذي تركه ، وأن يلحقنا به على الصالحات .

وقفات مع القصة في ...

كتاب الله ..

قصة نوح "عليه السلام"

بقلم فضيلة الشيخ
عبد الرازق السيد عيد

الأولى

"يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره .."

إن الحمد لله نحمده سبحانه ونشكره ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله .

تقدمة : —

تكتسبُ قصةُ نوح عليه السلام أهميةً خاصةً لسببين :

الأول : أن نوحًا عليه السلام واحد من خمسة رسل خصَّهم القرآن الكريم في موضعين منه بالذكر : الموضع الأول في سورة الأحزاب الآية رقم ٧ : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ .

والموضع الثاني في الشورى الآية ١٣ : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا

وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَىٰ ... ﴾ ، وهذا التَّخْصيص بالذكر استنبط منه العلماء أن هؤلاء الخمسة هم أولو العزم من الرسل وهم : نوح - وإبراهيم - وموسى - وعيسى - ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قال :

وخمسة منهم أولو العزم الأُلَى
في سورة الأحزاب والشورى تلا

فنوح عليه السلام من أولي العزم الذين صبروا على أذى أقوامهم ، فقد تحمَّل عليه السلام العَنتَ والسَّفَاهَةَ والتطاول والسُّخْرِيَة من قومه وصَبَر ، يدعوهم ليلًا ونهارًا وسرًّا وإعلانًا ألف سنة إلا خمسين عامًا .

الأمر الثاني :

أن نوحًا عليه السلام أول رسول إلى البشرية بعد انحرافها عن طريق الإسلام ، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : « كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام » فلما اختلف الناس وشرعوا في الضلالة والكفر وعبادة الأصنام بعثه الله رحمة لهم بدعوتهم إلى توحيده سبحانه وإعادتهم إلى صراط الله المستقيم .

كيف تسلَّل الانحراف إلى قوم نوح :

ظلَّت البشرية من عهد آدم عليه السلام إلى إدريس عليه السلام مستقيمة على دين الله حيث يتوارث الناس العلم عن الأنبياء جيلًا بعد جيل حتى إذا مات إدريس ومات الصالحون من بعده وارتفع العلم بموتهم وعمَّ الجهل جاء الشيطان إلى رءوسٍ جهَّالٍ فأوحى إليهم ضالًّا مضلًّا ، والقصة كما رواها البخاري وغيره في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٣] قال ابن عباس : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسمُّوها بأسمائهم ، ففعلوا فلم تُعبَد ، حتى إذا هلك أولئك وانتسخ العلم عُبدَت .

وهكذا قال عكرمة والضَّحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق .

وقال ابن جرير في تفسيره من رواية محمد بنَ قيس قال : كانوا قومًا صالحين بين آدم ونوح ، وكان لهم أتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم : لو صوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم ، فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس فقال : إنما كانوا

يعبدونهم وبهم يُسقَون المطر فعبدوهم .

وقد جمع ابن كثير رحمه الله في كتابه – قصص الأنبياء – بين الروايات الواردة وقال : (وذكِر أنَّه لما تطاولت العهود والأزمَان ، جعلوا تلك الصور ثماثيل مجسَّدة ليكون أثبت لها ، ثم عُبِدَتْ بعد ذلك من دون الله عز وجل) .

والآن ننظر كيف استدرج الشيطان أولياءَه من الجهَّال وبدأ بهم بتصوير الصالحين وتعليق الصور في أماكن العبادة ليكون كما ذكروا – أشوق لنا إلى العبادة – ثم نصبوا لهم تماثيل وجعلوها في كل بيت ، ثم جاءت المرحلة الأخيرة فعبدوهم وأصرُّوا على عبادتهم ﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ . وهكذا تدرَّج الشيطان معهم من التشوُّق بهم ، ثم إلى التوسل بهم ، ثم إلى عبادتهم من دون الله ، وهكذا يَفعلُ الشيطان بأوليائِه في كل زمان ومكان .

قال ابن عباس في رواية البخاري السابقة : (وصارت هذه الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد) وصارت في غيرهم بكيد الشياطين وأوليائهم في كل زمان ومكان ، ولعلَّ المتأمِّل الآن يدركُ سرَّ تشجيع الاستعمار للصوفية في البلاد التي ابتُلِيَت به قرونًا ، وكيف كان يقيس الإنجليز مدة بقائهم في مصر بكثرة عدد زوَّار السيد البدوي في طنطا وغيرِه من الأضرحة . فهذا التديُّن المنحرف أصل كل بلاء .

دعوة نوح عليه السلام :

رأينا كيف بدأ خطُّ الانحراف في تاريخ البشرية . بدأ بالانحراف في العقيدة ، ثم تبعه انحراف في السلوك وفي الأخلاق (لأن العقيدة الإسلامية ، هي أساس البناء التشريعي ، إذ لا يتم بناء ما لم يكن هناك أساس قوي يُبنى عليه هذا التشريع ، فلا يمكن أمر الناس بطاعة الله تعالى وعبادته ، إلا إذا اعترفوا بوجوده وألوهيته وعلمه ، وقدرته ، وإرادته ، وإنه لا بد من يوم يبعثون فيه يجازى فيه كل عامل على عمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر)[1] ، نعم كلما كانت العقيدة صحيحة وقوية كانت صلة العبد بربه ومعبوده قوية ، وكان العمل بمقتضاها تامًّا .

ولذلك كان توحيد الله عز وجل أول واجب على العباد يتحتم عليهم معرفته علمًا وسلوكًا .

والتوحيد هو أول الأمر وآخره ، وهو الذي خلق الله – عز وجل – الخلق من أجله وأخذ عليهم الميثاق به وأرسل به رسله

إليهم ، وأنزل به كتبه عليهم ، يقول الله تعالى مخاطبًا عبده ورسوله محمدًا ﷺ : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، ولما كان شأن التوحيد كذلك كان أول دعوة الرسل وأول منازل الطريق وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل ، ولذا كان التوحيد أساس دعوة نوح عليه السلام : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٥٩] ، وقال : ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود : ٢٦] ، ونلاحظ أن نوحًا عليه السلام لم يناقش قومه كثيرًا في قضية وجود الله وإثبات ربوبيته والإيمان بها ، وإن كان قد ذكّرهم بها - أيضًا - في قوله : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا . وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا . أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا . وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا . وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا . لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ نوح الآيات من ١٣ : ٢٠ .

لأن الإيمان بوجود الله أمر فطري لم يشذَّ عن ذلك إلا القليل من الدهريين . وهذا النوع يسميه العلماء توحيد الله بأفعاله - أي توحيد الربوبية بالاعتراف بأن الله سبحانه هو الذي خلق ورزق وسخَّر الشمس والقمر وسائر النعم ، وهذا النوع من التوحيد كما ذكرنا كان انحراف البشرية فيه قليل ، وإنما كان جلُّ انحرافهم في توحيد الألوهية ، وهو توحيد العبادة أي بصرْف جميع أنواع العبادة لله رب العالمين لا شريك له ، أي توحيد الله بأفعال العباد ، وكل هذه العبارات مضمونها واحد ألا وهو العمل بمقتضى التوحيد . وهكذا كانت دعوة نوح إلى قومه .

رأيناه يكرِّر هذه الدعوة في جميع المواقف التي تعرض لها القرآن الكريم بالذكر في سورة « الأعراف » ، وفي سورة « هود » ، « المؤمنون » ، « الشعراء » ، « نوح » وغيرها ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ - أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ﴾ .

فهذه دعوة صريحة كررها نوح عليه السلام لقومه، أن يعملوا بمقتضى : « لا إله

إلا الله » وبمقتضى علمهم أنه سبحانه خلقهم ورزقهم ، وخلق لهم السموات والأرض والشمس والقمر ، وجعل لهم الأرض قرارًا وجعل خلالها أنهارًا . فلا قيمة لهذا الإقرار إذ لم نعمل بمقتضاه ، ومن مقتضيات التوحيد الذي دعا نوح قومه إليه ، ومن لوازم العبودية الحقَّة تقوى الله سبحانه وتعالى بمراقبته في السرِّ والعلانية ، وخشيته في الغيب والشهادة ، وطاعة الرسول الذي جاء مبلغًا عن ربِّه ومتابعته .

وقد اجتمعت هذه الثلاث في آية من سورة نوح الآية (٣) .

﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ كما دعا نوح قومَه إلى التوبة والاستغفار وخوفهم من عذاب الله يوم القيامة ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ [نوح : ١٠] ، وقال : ﴿ .. إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ٥٩] ، وقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود : ٢٦] .

هذه دعوة نوح إلى قومه دعوة إلى توحيد الله - عز وجل - وإلى العمل بمقتضى هذا التوحيد ، وهذا الذي دعا إليه نوح قومه هو الذي جاء به (هود) وصالح وشعيب، وإبراهيم وموسى وعيسى وجميع الأنبياء حتى ختمهم الله بمحمد ﷺ وعلى سائر إخوانه المرسلين ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ .. ﴾ [الشورى : ١٣] فالذي شرعه الله لنوح عليه السلام شرعه لإبراهيم ولموسى وعيسى ومحمد ، وجميع الأنبياء ألا وهو إقامة دين الله في الأرض ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا . وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٣ ، ١٦٤] هذا دين الله الذي ارتضاه لعباده من لدن آدم مرورًا بنوح عليه السلام إلى أن ختم الله دينه وأكمله وأتمَّه بالنبي الذي لا نبي بعده محمد ﷺ وأمره أن يعلن ذلك للناس جميعًا في صراحة ووضوح : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] . فهذه دعوة الأنبياء ، وهذا طريقهم فليسلكه

من أراد الهداية ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [المائدة : ٤١] ، ومن خلال عرضنا السابق يمكن استخلاص النتائج التالية :

١ - أولو العزم من الرسل خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد صلى الله عليهم وسلم .

٢ - نوح عليه السلام أول رسول أرسله الله بعد انحراف البشرية عن دين الله الذي جاء به آدم وأبناؤه من بعده .

٣ - كل انحراف وقعت فيه البشرية سببه ابتعاد الناس عن منهج الأنبياء ، وغياب العلم الموروث عنهم بموت العلماء الربانيين وتفشي الجهل بالله واليوم الآخر .

٤ - أولى خطوات الانحراف تبدأ بانحرافٍ في العقيدة ، وكلما ازداد انحراف الناس عن العقيدة الصحيحة ازداد - بالتالي - انحرافهم في العبادات والأخلاق والمعاملات .

٥ - كل دعوة تريد الإصلاح ولا تبدأ بإصلاح العقيدة فقد جانبت الصواب وأوقعت نفسها في مخالفة طريق الأنبياء .

٦ - الحذر كل الحذر من التهاون بأمر من أمور العقيدة ولو خُيِّل للبعض أنَّه يَسِيرٌ ، فقد استدرج الشيطان قوم نوح وبدأ بهم بتعليق صور الصالحين حتى انتهى إلى عبادتهم إياهم .

٧ - لا يتصورنَّ اليوم أحدٌ أن البشرية بلغت سنّ الرشد ، وأنها في مأمن من كيد الشيطان لها . فأمْنُ البشرية وأمانُها في اتباع طريق الأنبياء .

٨ - دعوة الرسل جميعًا واحدة وطريقهم واحد ألا وهو توحيد الله .

٩ - التوحيد قسمان : توحيد الله بأفعاله ، وهو توحيد الربوبية . وتوحيد الله بأفعال العباد ، وهو توحيد الألوهية .

١٠ - وإنما يكون أكثر الضلال في توحيد الألوهية وهو الذي جعله الأنبياء محور دعوتهم وهدف رسالتهم وأصل كل إصلاح .

١١ - الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسل جميع الرسل من أولي العزم ومن غيرهم وأنزل عليهم الكتب هداية ، وإنما اختلف الناس من بعدهم بأهوائهم .

١٢ - أكمل الله دينه وأتمَّه بالنبي الأمي محمد ﷺ فمن تبعه فقد اتبع طريق الأنبياء والمرسلين ، ومن خالفه فقد خالف طريق الأنبياء والمرسلين .

١٣ - كل نبيٍّ كان يُبعثُ في قومه خاصة ، وبعث الله محمدًا للناس كافَّة .

هذا والله سبحانه وتعالى أسأل أن يهدينا والمسلمين إلى صراطه المستقيم

دروس من قصة نوح عليه السلام
٢ بين نوح وقومه

بقلم فضيلة الشيخ
عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي تُسبِّح له السموات والأرض ومن فيهن ، ويسبِّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . وبعد

فقد تعرَّفْنا في لقاء سابق على الأساس الذي قامت عليه دعوة نوح عليه السلام ، ألا وهو التوحيد الذي هو الغاية مِنْ خلق العبيد ، ولذا أرسل الله رُسله وأنزل كتبه في كل زمان ومكان .

وفي لقائنا اليوم نحاول الوقوف على الدروس المستفادة مما أورده القرآن الكريم من حوار بين نوح وقومه نتعرف من خلاله على طريقة نوح عليه السلام في دعوته وأسلوبه في مُحاجَّة قومه ، وكيف جابه صلَفهم وعزورهم وتكبُّرهم ، فالحاجة ماسَّة إلى تَلَمُّس منهج الرسل في دعوتهم فكيف دعا نوح قومه ؟ وبم قابل القومُ دعوةَ نبيهم ورسولهم ؟

لقد دعاهم صلوات الله وسلامه عليه إلى توحيد الله ، ودعاهم إلى التوبة والإنابة والرجوع إلى الله ، دعاهم إلى الخير والرحمة والمغفرة ، دعاهم إلى ما فيه مصلحتهم في الدنيا والآخرة ، دعاهم إلى الإسلام دين الله للبشرية جميعًا فكيف واجه قومُ نوح نبيَّهم ؟

هل شكروه على نصحه لهم وكافئوه وهو لا يريد منهم جزاءً ولا شكورًا ؟ إنهم لم يفعلوا شيئًا من ذلك ولا تركوا نوحًا ومن آمن معه سالمين بل قابلوا الإحسان بالإساءة والنصيحة بالأذى ، والدعوة بالتهكم والسخرية ، والتهديد والوعيد . اتهموا نوحًا بكل أنواع التهم . فكيف قابل نوح عَنَتَ قومِه ؟

سنحاول بعون الله في السطور القادمة استخلاص ما تيَسَّر من دروس تكون زادًا للدعاة إلى الله في كل زمان ومكان ، وعبرة لمن يعتبر .

وقد تعرض القرآن الكريم للحديث عن نوح وقومه في مواضع شتى منها ما جاء مُجملًا بليغًا ، ومنها ما جاء مفصَّلا بديعًا .

ومن أبلغ ما جاء مجملًا ما وَرَدَ في سورة العنكبوت الآية (١٤) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

فانظر – رحمك الله – كيف صَبَر نوحٌ على قومه حيث دعاهم هذه المدة الطويلة التي لا نعلَمُ فيما قصَّ الله علينا من أخبار الرسل مدَّةً أطول منها مكثها رسول يدعو قومه ، فطول المدة يدل على سعة صبْر نوحٍ عليه السلام ، ويدلُ في الوقت نفسه على شدَّة عَنَتِ قوْمِه وقَسْوَةِ طبْعِهم فرغم طولِ هذه المدة التي مكثها نوح بين ظَهْرَانيهم لم يؤمن معه إلا القليل ، ولذا جاء التعقيب : ﴿ .. فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ وناسب الطوفان كِبْرَهم وعَنَتهم حتى لا يُبقي منهم أحدًا . ونطالع هذا الموقف بشيء من التفصيل في سورة الأعراف : من ٥٩ : ٦٣ ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۞ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ .

إذا تأمَّلْنا الآيات السابقة نجد أن نوحًا عليه السلام جاء قومَه بدعوة الناصح المُشْفق عليهم الذي يرجو لهم الخير ، يدعوهم إلى عبادة الله حتى يكونوا أهلًا للنجاة من عذابه . فبِمَ قابلوا هذه الدعوة الكريمة ؟ ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ قال الملأ : والملأ : هم أشرافُ القومِ وسادتهم ، هم العِلْيَةُ من القوم والأغنياء وأصحاب النفوذ والسلطان – قالوا : يا نوح إنا لَنراك في ضلال مبين . اتهموا نوحًا بالضلال وأكَّدوا هذه التهمة تأكيدًا حيث استخدموا في تعبيرهم « إنَّ » المؤكدة ، واللام الواقعة في خبرها ، ثم بعد ذلك وصفوا ضلال نوح

بأنه مبين أي : واضح لا شك فيه ، وهكذا قطعوا الأمر واتهموا الرسول الذي جاءهم بالهداية من الله رب العالمين ، اتهموه بالضلال الواضح . فماذا فعل نوح وهو صاحب الحق المبين ، وهو على بيّنة من ربّه هل وجّه إليهم تهمة مماثلة يكون محقًّا فيها وهم مبْطلون ؟

كلا لم يفعل ذلك بل قال : ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ .. إلى آخر قوله المذكور في الآيات آنفًا .

لم يزد نوح – عليه السلام – على نَفْي التهمة عن نفْسه قال : ﴿ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ ثم أثبت الحق الذي جاء به من الله رب العالمين . ثم قال لهم في لهجة الحريص عليهم لماذا تعجبون من رسول جاءكم من الله يُنذركم عذابه ويدعوكم إلى رحمته ؟ وهذه غاية الحكمة من نوح عليه السلام في مواجهة غاية الظلم والطغيان . نعم لقد بلغ قومُ نوح الغاية في ظلمهم وطغيانهم اقرأ قوله تعالى : ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ [النجم : ٥٢] ، إنهم كانوا أظلم وأطغى من عادٍ التي لم يُخلق مثلها في البلاد ومن ثمود الذين جابوا الصَّخر بالوادي .

ولم تقف هذه الحملة الشرسة التي قادَها الملأ أصحاب النفوذ والسلطان ضد نوح عند اتهامه بالضلال المبين بل تعدته إلى مراحل أخرى في تصعيد مستمر ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون : ٢٤، ٢٥] ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [الآية ٢٧ من سورة هود].

وهكذا استمر أصحاب المال الذين يخشونَ على مصالِحهم وعلى سلطانهم استمروا في توجيه التُّهمة بعد الأخرى لنوح وللقليل الذي آمن معه ، فاتهموا نوحًا بحب الزعامة والسيطرة في قولهم : ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ .. ﴾ ثم نصَّبُوا أنفسهم مُشرِّعينَ ومُفْتِينَ يُفْتون أتباعهم بغير حق ويقولون : ﴿ وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً ... ﴾ انظر كيف لبَّسوا على العوام من أتباعهم ما أرادوا أن يظهروا أمامَهم بمظهر الرفض التام للدين ولكنهم قالوا ليس الدين هو الذي جاء به نوح وإنما لو أراد الله لأنزل ملائكة ، إذن فنوح ليس رسولًا كما يزعم بل إنه مجنون بل هو كاذب ، وهؤلاء الذين آمنوا معه قلة لا رأْيَ لها وهم من الأرذلين .

وهكذا قاد عِلْيَةُ القومِ الحملة المضادَّة لنوح وقومه واتهموه بجميع التهم التي لا تنطبق إلا عليهم هم ، فهم في ضلال مبين واضح ، وهم الذين يتصدرون المجالس ويصدرون الأوامر ولا يريدون من أحد أن ينازعهم في ذلك ، وهم المستفيدون من الوضع القائم ، ولذلك لا يريدون تغييره وأوهموا العامة والأتباع أن دينهم الباطل الذي توارثوه عن الآباء هو الحق ويجب اتباعه ونبْذِ ما يَدْعو إليه نوح . وهذا كان يحدث دائمًا كلما حاول نوح - على مدى ألف سنة إلا خمسين عامًا - إقناعهم بالحق الذي جاء به وأنَّه لا يريد إلا مصلحتهم وأنه ناصح لهم أمين لا يريد منهم أجرًا ولا يريد مالًا ولا سلطانًا إنما هو مبلِّغ عن ربِّه وأجره من الله الذي أرسله ، كل ذلك في أسلوب هادىء مشفق عليهم يريد مصلحتهم ، وهم قد أعماهم الجاهُ والسلطانُ وطَمَس على قلوبهم حبُّ الدنيا فقالوا : ﴿ .. يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ [هود : ٣٢].

وهكذا أهل الباطل عندما يُحاصَرون بالحجَّة والبرهان من كل جانب حتى لا يستطيعوا لها دفعًا تضيق صدورهم ويطيش صوابُهم ، ويضعون حدًّا للحوار بأي وسيلة .

بل وصل بهم الأمر إلى أن وضعوا أصابعهم في آذانهم لا يريدون سماع دعوة نوح واستغشوا ثيابهم ولم يعودوا يطيقون رؤيته .

ولكن المشكلة لم تكن في الملأ أصحاب المصالح والنفوذ والسلطان بل تعدَّت إلى الجمهرة من قوم نوح حيث صاروا ذيولًا لسادتهم اتبعوهم في كل شيء وقلَّدوهم فيما يفعلون ، ومن هنا توجَّه نوح بالشكوى إلى ربِّه خالقه وفاطره ومرسله ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۞ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ۞ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[نوح : ٢١-٢٣] وهكذا مكَر أصحاب الكلمة والرأي بمن دونهم من الأتباع وأمروهم بالحرْص على عبادة الأصنام فود وسواع ويغوث ويعوق ونسر أسماء لأصنام عبدها القوم وتواصَوْا بها حرصًا على مصالحهم ومكتسباتهم المادية .

ولم يقف الأمر عند هذا الحدِّ بل طلب الملأ من نوح - عليه السلام - أن يكفَّ عن دعوته وإلا فالعذاب بالحجارة حتى القتل ، وهكذا وصل الأمر في تصعيده الأخير من قوم نوح إلى أحد أمرين : إما أن يكفَّ عن الدعوة تمامًا ، وإما أن يُقتَل شرَّ قِتْلة : رجما بالحجارة كما زعموا ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء : ١١٦] .

لم يجد أهل الباطل إلا هذا الطريق بعد ما عجزوا عن مقارعة الحجة بالحجة فاحتدم الصراع وأرادوا إسكات صوت الحق إما طواعية وإما قسْرًا ، وكان المتحدث هم سادة القوم أما الأتباع فلم يكن لهم رأي آخر غير ذلك فكانوا لسادتهم تَبَعًا إلا القلَّة القليلة التي آمنت وتأبَّتْ أن تكون هملًا . وأمام هذا الموقف ماذا فعل نوح عليه السلام ؟ إنه لا يمتلك قوة عسكرية يواجه بها القوم ويَقْمَعُ رءوس الفسادِ حتى يُخَلِّي بين الناس وبين اختيارهم بعيدًا عن التأثر بالحملة المضادة . ولم يكن أمام نوح عليه السلام إلا أن يلجأ إلى القويِّ القاهر إلى العزيز الحكيم فتوجَّه نوح في ضراعة إلى ربِّه ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ۞ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۞ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ۞ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الآيات من ١١٧ : ١٢٢ الشعراء] .

وهكذا كانت عاقبة المكذبين وقد جعلهم الله آية لمنْ جاء بعدهم فهذه سنةُ الله في خلْقه أن ينصر رسله والذين آمنوا معهم ، وأن يُهْلِكَ الظالمين المكذبين مهما بلغ بهم طغيانهم وعِتيهم فهو سبحانه العزيز الذي لا يُغْلَب ، الرحيم الذي من رحمته إنقاذ المؤمنين وإهلاك الظالمين . ومن رحمته سبحانه كذلك أن يجْعَلَ قصة نوح وغيرها عبرًا تتلى في كتابه الكريم حتى يعتبر اللاحقون بالسابقين .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۞ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ۞ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ ٱلسَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۞ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى ٱلْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۞ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۞ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۞ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ[1] ۞ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۞ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ[1] ﴾ .

هذا حديث موجَّه إلى قريش وإلى من جاء بعدهم أن يعتبروا بما جاء في قصة نوح . وإنَّ أعظم آية هي إهلاك الطغاة المكذبين الذين يؤذون رسُلَ الله ، ولا زالت هذه الآيات تتلى صباح مساء في كتاب الله فهل من مدَّكر ؟ فهؤلاء قوم نوح لم يغن عنهم ما كسبوا شيئًا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء .

وإلى درس آخر من دروس قصة نوح في لقاء قادم إن شاء الله . ونسأله سبحانه أنْ ينفعنا بما قلنا وأن يعفو عنا فيما أخطأنا إنَّه سميع مجيب .

من قصة نوح

ثالثا : بين نوح وابنه

الحمد لله الذي جعل الابتلاء سنة ماضية إلى يوم القيامة ، وجعل أشدَ الناس ابتلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . وبعد فى لقاء سابق تحدَثنا بما يسَر الله سبحانه عن دروس مستفادة مما دار بين نوح وقومه واليوم بعون الله نحاول الوقوف على بعض الفوائد مما دار بين نوح وابنه وقبل الشروع فى ذلك أرى من الأفضل أن نقف معا على ملخص للدروس المستفادة من اللقاء السابق والتي يُمكن إجمالها على النحو التالي :

- اليقين فيما عند الله وعدم استعجال النتائج فهذا نوح عليه السلام دعا قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ولم ييأس ، ولم يستبطىء يوماً نصر الله .
- على الدعاة إلى الله أن يتخلَّقوا بخُلق الصَّبر وأن يترفَّعوا عن سفاسف الأخلاق في مواجهة مخالفيهم فهذا نوح صبر على أذى قومه مدَّة دعوته لهم ولم يقابل مكرهم وكيدهم وأذاهم الشديد إلا بكل حلم وصبر وتعقل على الرغم من طول الأمد .
- نصرُ الله لأوليائه أمر محقق مهما طال الأمد ، وهزيمة الله لأعدائه وأعداء رسله لاشك في وقوعها ، وعندها لن ينفعَ الظالمين ما كسبوا في الدنيا ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء .
- إذا جاء أمر الله لا ينفع أعداء الله شيء مهما كانت قوتهم ، ولايمنعهم من أمر الله مانع .
- على الدعاة إلى الله أن يتَّقوا الله فيما يملكون من وسائل وأنْ يُفَوِّضُوا الأمرَ لله

بقلم فضيلة الشيخ

* عبد الرازق السيد إبراهيم عيد

فيما لا يملكون ، فقد انتهى بهم التكليف إلى ما يملكون ولا يكلِّفوا أنفسهم شططا ، وبعد هذا الإجمال لما سبق يمكننا الشروع فيما نريد الحديث عنه الآن :

لقد ابتلى الله نوحاً بابتلاءات متعددة مع قومه ، وإنها جميعاً لتهون أمام ابتلائه عليه السلام في ولده فلذة كبده وفي زوجه ، أما زوجُه فقد أشار القرآن إليها إشارة عابرة نشير إليها كذلك من الآية ١٠ من سورة التحريم ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ هذه الإشارة القرآنية البليغة نستفيد منها عدم انتفاع الإنسان إلا بما قدَّم من إيمان وعمل صالح فهاتان المرأتان امرأةُ نوح وامرأةُ لوط لم تُغن عنهما قرابتهما وصلتهما بنوح ولوط مع كفرهما بهما وعدم اتباعهما ما جاء به رسل الله . فلما كانتا من الكافرين لم تغن عنهما من الله شيئاً صلتهما بنوح ولوط ، ودخلا النار مع من دخلها من المكذبين الضالين فهذا المكان المناسب لهما فإنهما كانتا مع الكافرين في الدنيا اعتقاداً وعملاً ، وإن كانتا تحت نوح ولوط جسدا . وإنا بعد فراغنا من هذه الإشارة العابرة نعود للحديث عن قصة نوح وابنه كما أوردتها سورة (هود) .

المشهد الأول :

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ الآيات [سورة هود ٤٢ ، ٤٣] .

المشهد الثاني :

وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ۝ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فهذان الموقفان اللذان وردا في كتاب الله عن قصة نوح وولده (يام) وقيل اسمه (كنعان) ففي المشهد الأول ونقول مشهد لأن القرآن الكريم صوَّر الموقف كأننا نراه رأي عين ، فهذه سفينة النجاة التي صنعها نوح بأمر الله ، وهي تُقِلُّ نوحاً ومن آمن معه تجري بهم بين موج شديد متلاطم كالجبال

شِدَّةً وارتفاعاً وابن نوح (يام) ينحاز إلى معسكر الكفر ويحاول النجاة من الطوفان المهلك الذي أرسلَه الله تطهيراً للأرض من رجس الكافرين من قوم نوح ، وفي تلك اللحظات يرى نوح ابنه فتتحرك عاطفة الأبوةِ بداخله مقرونةً بعاطفة الرحمة التي جعلها الله في قلوب الأنبياء وينادي نوح ولده ﴿ يَابُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الكَافِرِينَ ﴾ وكأنه عليه السلام أراد أن يوجه لولده هذا النداء الأخير في هذه اللحظات الحاسمة علَّه يتوب ويرجع ويدخل في دين الإسلام مع أبيه ومع المؤمنين ، وهذا الموقف يذكّرنا بما فعله الرسول ﷺ مع عمِّه أبي طالب عندما حضرته الوفاة فكان ﷺ يرجو عمَّه أن يقول كلمة التوحيد قبل موته علَّها تشفع له عند الله . هذا وقيل إن (يام) ابن نوح كان كافراً في الباطن مُظهراً الإيمان أمام أبيه ، فعامله الله بحقيقته التي أبْطَنَها في نفسه من النفاق ومنعه من الانحياز إلى معسكر الإيمان ومِن هُنَا كان نداءُ نوح لابنه أن يركب معهم ولا يكن مع الكافرين . فأجاب الولدُ والده قائلاً : ﴿ قَالَ سَئَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَآءِ ﴾ وهذا جواب جاهل بالله لا يعرف ربَّه ولا يقدِّره حق قدره . لذلك صحَّح له أبوه العلم فقال : ﴿ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَ مَن رَّحِمَ ﴾ لا عاصم من أمر الله إذا جاء إلا الذي رحمه الله ، ودخل في المستحقين لرحمة الله من المؤمنين الصادقين .

المشهد الثاني :

وتأتي موجةٌ من الماء عاليةٌ لتضعَ حداً لهذا الحوار بين نوح وابنه وليصبح ابنه من المُغرقين وهنا تجتاح نفسُ نوح موجةٌ عاطفية حادة تفيض بحَنَانِ الأبوّةِ الدَّافق لتضْمرَ قلبَ نوحٍ ونفْسَه حزناً وأسى على ابنه الذي صار في عداد المُهْلَكينَ .

وكأنّي بهذه الموجة العاطفية الحادة تطغى على نفس نوح فتجعله ينس وعد الله السابق له حيث وعده الله بنجاة « من آمن معه »[1] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾

ونوح عليه السلام يوجِّه هذا النداء متسائلاً مستعلماً لا معترضاً . وقلنا لعلَّه نسى في زحمة الشعُور العاطفي أو لعلَّه كان يظنُّ أن ابنه مؤمناً حيث قيل إنَّه كان يُعلن الإيمان ويُبطن الكفر ، وعلى أي حال جاءه الخبر الصادق من أحكم الحاكمين ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فهذا هو القول الفصل من الله رب العالمين حيث ذَكَّرَ نوحاً بما أنسيه فأصبح في عداد الجاهلين به ، وليعلِمَه بما قد يخفي عليه فقال الله لنوح إن ابنك هذا ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم لأنه ليس من المؤمنين الذين عملوا الصالحات ﴿ إِنَّهُ عَمِلَ غَيرَ صَالِحٍ ﴾ بها قرأ ابن عباس وعروة ، وعكرمة ، ويعقوب ، والكسائي وهذه القراءة تفسِّر القراءة الأخرى التي جاءت بالرفع ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيرُ صَالِحٍ ﴾ أي إنّه من الكافرين وإنْ انتسب إليك من حيث النسب فإنه لم ينتسب إليك من حيث الإيمان ولا قيمة لرباط

النسب مهما قَرُبَ إن ضاع نسبُ الإيمان الذي هو أساس النجاة في الدنيا والآخرة . وهنا نذكّر نوح عليه السلام ما قد كان أنسيه ، وعلم من الله ما لم يكن يعلم فعادَ يُناجي ربه بلهجة المؤمن الصادق قائلا : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَالَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الخَاسِرِينَ ﴾ فجاء النداء من أحكم الحاكمين ﴿ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُم ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود : ٤٨] ، وهكذا خُتمت قصة نوح عليه السلام لتبدأ قصّة البشرية في طورها الجديد أمم مؤمنة عليها من الله السلام والبركة إلى يوم الدين ، وأمم كافرة تعيش للدنيا فحسب تأخذ من الدنيا ما كتبَه الله لها ثم يكونُ مصيرها جهنَّم وبئس المصير ، ويستمر الصراع بين الحق والباطل قائماً بين أبناء نوح ، فكل من في الأرض الآن سواء كان مؤمناً أو كافراً يعود أصله إلى نوح ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾ [الإسراء : ٣] ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ [الصافات : ٧٧] .

ومن المفيد الآن أن نلخّص الدروس المستفادة من قصة نوح عليه السلام وابنه ويمكن إجمالها على الوجه التالي :

١ ــ لا نجاة في الدنيا والآخرة إلا بالإيمان الصادق والعمل الصالح .

٢ ــ رابطة الإيمان والتقوى أقوى من رابطة النسب مهما بلغت وذلك على مرّ التاريخ لا يتغير بتغيُّر الزمان والمكان ، ولذلك قاتل أصحابُ رسول الله آباءهم وأبناءهم وإخوانهم وعشيرتهم من المشركين في بدر ، ونزل في حقّهم قرآنٌ يمدحهم بذلك ويثني عليهم ويبشرهم ﴿ لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

٣ ــ من خصائص الله سبحانه التي لا ينازعه فيها أحد علمه الغيب ، ويُطْلِع من رسله من يشاء على بعض غيبه بالقدر المناسب في الوقت المناسب .

٤ ــ معرفة حقيقة ما في القلوب لا يعلمه إلا علام الغيوب .

٥ ــ عدل الله المطلق في التعامل مع عباده فابن نوح عليه السلام لما كفر لم تنفعه صلته لأبيه

٦ ــ إذا أخطأ العبد أو نسي شيئاً أو جهله ثم ذُكّر يتذكر ويعود ، وهكذا فعل نبي الله نوح كما فعل أبوه آدم من قبل ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣]

٧ ــ ضرورة اللجوء إلى الله على كل حال والاحتكام إليه في كل أمر والحذر مِنْ تحكيم العاطفة .

هذا ما تيسر تناوله من دروس في قصة نوح عليه السلام والله حسبنا ونعم الوكيل

فضيلة الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

دروس من قصة شعيب عليه السلام الأولى

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد :

١- مقتضى التوحيد :

من المعلوم أن دعوة الرسل أساسها التوحيد ، وبرزت مقتضيات التوحيد إجمالًا في دعوتهم لأقوامهم ، حيث أمروهم بتقوى الله ، وطاعة الرسول ، وإذا تتبعنا ذلك نجده واضحًا في دعوة نوح عليه السلام ، إذ قال لقومه : ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ [نوح : ٣] وهي دعوة هود عليه السلام لقومه : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : ١٢٤ - ١٢٦] .

وكذلك قال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : ١٤٥] .

وقالها لوط عليه السلام لقومه : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : ١٦٤] .

وقال ذلك أيضًا شعيب عليه السلام لقومه : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : ١٧٩] وطاعة الرسول وتقوى الله عز وجل هما لب التوحيد وخلاصته ، ولذلك وجدناهما في دعوة كل نبي، فلا توحيد صادق إلَّا بمراقبة الله سبحانه ، وطاعته فيما أمر ، والاجتناب لما عنه نهى وزجر ، وطاعة رسوله فيما أمر ، واجتناب ما عنه نهى وزجر .

وهذان الأصلان ينتظمان حياة الناس عبادة وأخلاقًا ومعاملة ، وإن لم يأت تفصيل لذلك في قصة نوح ولا هود ولا صالح عليهم السلام ، لكن جاء في قصة لوط عليه السلام التركيز على الفاحشة التي ارتجت لها الأرض والسموات ، وهي التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، وكذلك جاءت الإشارة إجمالًا إلى أنواع من الفساد كانوا يمارسونها في ناديهم ، طلب منهم لوط عليه السلام أن يتركوها .

وهنا قصة شعيب عليه السلام نلاحظ أنه أمرهم بتقوى الله ، وطاعة الرسول إجمالًا ، ثم أمرهم بأمور أخرى ، ونهاهم عن أمور ، وذلك من مقتضيات التوحيد تفصيلًا ، فقال - عليه السلام : ﴿ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا

تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ﴾ الآيات [الأعراف : ٨٥ ، ٨٦] . فأنت تلاحظ أن شعيبًا عليه السلام أمر قومه بالعدل في المعاملة ، ومن صور ذلك : استيفاء الكيل والميزان ، ونهاهم عن الظلم ، ومن صوره : (بخس الناس أشياءهم) ، والعدل أصل من أصول الإصلاح في الأرض ، والظلم أصل من أصول الإفساد فيها .

ومن عوامل الإفساد في الأرض التي نهاهم عنها شعيب عليه السلام ﴿ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ ﴾ [الأعراف : ٨٦] نهاهم هنا عن الصد عن سبيل الله ، الذي كانوا يمارسونه ضد المؤمنين ، فيستخدمون معهم أنواعًا من الفتنة ، لصدِّهم عن الإيمان بالله ، والتصديق بالنبي شعيب ، وهكذا فعل المكذبون بالرسل من قبل ، ويفعلون في كل زمان ومكان ؛ لأنهم يكرهون الاستقامة على الصراط المستقيم ، يريدونها معوجة منحرفة عن سبيل الله إلى سبيل الشيطان . ويحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع ، ويدعون الناس إليها . فهل بعد ذلك من فساد ؟!

٢- الرغبة في الإصلاح والقدوة الحسنة :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] قال ابن كثير رحمه الله : كان بعض السلف يسمي شعيبًا (خطيب الأنبياء) وذلك لفصاحته ، وعلو عبارته ، وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته ، ونُقِل حديث عن ابن إسحاق بن بشر عن جوبير ومقاتل ، عن الضحاك عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيبًا قال : « ذاك خطيب الأنبياء » فانظر عبارته البليغة وحجته القوية في محاجة قومه .

يقول لهم : إني أول المنفذين لما آمركم به ، وهذه دعوة عملية ، وهي أبلغ من الدعوة النظرية المجردة ، وهكذا دأب الأنبياء والمرسلين هم أول من يعمل بما يدعون الناس إليه ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣] وذلك حتى يكون الرسول أسوة لقومه ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .

وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة ، وضدها هي المردودة الذميمة ، وقد تلبس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم ، وخطباؤهم الجاهلون ، لذا ذمَّهم الله تعالى في قوله : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] وهذا وإن كان خطابًا لعلماء بني إسرائيل ابتداءً لكنه يشمل كلَّ من سار سيرتهم من

علماء السوء في كل زمان ، وما أكثرهم في زماننا ! ثم يعلن عليه السلام رغبته الصادقة في الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلًا ، لا يريد مزاحمتهم في ملك ولا سلطان ولا دنيا يصيبها ، وهو من قبل ومن بعد يستمد توفيقه من الله سبحانه ، ولا يركن إلى سواه بل عليه سبحانه وتعالى ، وإليه يرجع ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : ٨٨] هكذا مسلك الأنبياء يبرزه هنا شعيب عليه السلام في الإخلاص إلى الله والتجرد للإصلاح ، والثقة التامة في الله وحده والاعتماد عليه ، وهكذا يجب أن يكون الدعاة إن أرادوا صدقًا في دعوتهم .

٣- غباء أهل الباطل :

وعظ شعيب قومه ، وأمرهم ونهاهم ، ورغبهم في رحمة الله ، وحذرهم من عقابه إن هم خالفوا أمره ، وذكرهم بمصير من سبقهم قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ثم قال لهم : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ [هود : ٨٩] أي : أن ما أصاب هذه الأقوام قد يصيبكم بسبب تكذيبكم ، فاعتبروا بمن سبقكم وبخاصة وأنتم قريبو عهد بقوم لوط ، وتعلمون جيدًا ما أصابهم ﴿ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ [هود : ٩١] .

هكذا بمنتهى الصلف والغرور أعلنوا رفضهم لدعوة شعيب عليه السلام ، واحتجوا بعدم الفقه لما يقول ، وهذا عين ما قالته قريش ردًّا لدعوة خاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ قالوا : ﴿ قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ [فصلت : ٥] .

وهكذا عندما يفقد أهل الباطل حجتهم أمام حجة الحق القوية يدَّعون هذا الادعاء ، ومن غباء قوم شعيب أيضًا أنهم لم يقدِّروا الله حق قدره ، ويزنون الأمور بالموازين المادية فقط ، ولا يقيمون وزنًا لقوة الله المهيمنة على مقاليد السموات والأرض ، فقالوا : ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ [هود : ٩١] أي : لولا قبيلتك التي تنتسب إليها وقومك الذين قد يطالبون بدمك لقتلناك . هذه حساباتهم ، وهذه موازينهم المادية وأنَّى لهم غير ذلك ، فهم لم يؤمنوا ، ولو آمنوا لتبدل حالهم إلى أحسن حال ، لكن شعيبًا عليه السلام لم يتركهم بهذا الغباء ، بل رد عليهم موضحًا ومصححًا لهم ، ولم يأتِ بعدهم ممن يسمع كلام الله في كل زمان ومكان : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود : ٩٢] .

كان من الأولى بقوم شعيب أن يخافوا الله ، الذي يحيط بهم علمًا وقدرة ، لكنهم لكفرهم الذي أورثهم الغباء والجهل لا ينظرون إلَّا تحت أقدامهم ، ولا يرون إلا ما تقع عليه أعينهم ، وهذه سمات الذين لا يؤمنون .

٤- أهل الباطل لا يطيقون رؤية أهل الحق :

هذه حقيقة ثابتة على مرِّ الدهور أن أهل الباطل لا يطيقون رؤية أهل الحق ولا مساكنتهم ، حتى ولو كانوا ضعافًا مسالمين .

رأينا هذا فيما سبق بوضوح فيما قصصنا من قصص نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام ، ويبرز هنا بوضوح : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ

ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ۞ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا ٱللَّهُ مِنْهَا ... ﴾ [الأعراف : ٨٨ ، ٨٩] وهكذا لم يقبل أهل الباطل مسالمة أهل الحق، نعم لا يقبل أهل الباطل من أهل الحق إلا أن يخوضوا معهم في باطلهم ، ويتركوا ما هم عليه من حق ، وإلا يخرجونهم من قريتهم ، وهكذا قال قوم لوط : ﴿ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] أما قوم ثمود فبيتوا قتل صالح ومن معه ، وهكذا الكفر أو القتل أو الإخراج نصيب أهل الحق من أهل الباطل جزاء إيمانهم ﴿ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۞ ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [البروج : ٨ ، ٩] .

٥- الثقة بالله واللجوء إليه :

﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٩] هكذا توجه شعيب بالدعاء إلى ربّه ، وهو سلاح من أقوى أسلحة الأنبياء وأتباعهم .

٦- إصرار على الباطل :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٠]

هكذا أصر أهل الكفر على كفرهم ، ووزنوا بميزان بخس دعوة الأنبياء .

٧- الخاسرون حقًّا :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۞ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٩١ ، ٩٢] .

فالخسارة الحقيقية لمن كذب بالرسل ، وهي خسارة للدنيا وللآخرة ، والحمد لله رب العالمين .

الأنصار - رضي الله عنهم - يوم حُنَيْن

البخاري : عن أنس - رضي الله عنه - قال : لما كان يوم حنين . التقى هوازن مع النبي ﷺ . ومع النبي ﷺ عشرة آلافٍ والطُلقاءُ . فأدبروا . قال : « يا معشر الأنصار » قالوا : لبيك يا رسول الله وسعديك . لبّيك نحن بين يديك . فنزل النبيُّ ﷺ فقال : « أنا عبد الله ورسوله » فانهزم المشركون فأعطى الطلقاءَ والمهاجرين . ولم يُعْطِ الأنصار شيئًا فقالوا . فدعاهم فأدخلهم من قبة فقال : « أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله ﷺ » . ثم قال ﷺ : « لو سلك الناس واديًا . وسلكت الأنصار شِعْبًا . لأخذتُ شِعْبَ الأنصار » .

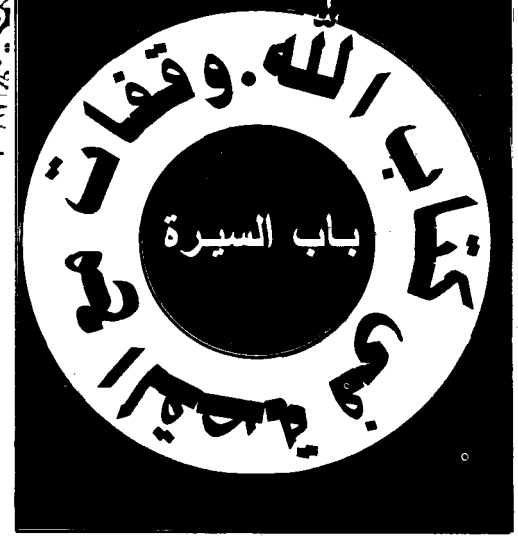

فضيلة الشيخ / عبد الرزاق السيد عيد

دعوة لوط عليه السلام لقومه

الحمد لله الذي حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والصلاة والسلام على خير البشر سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وصلاة وسلامًا على إخوانه الأنبياء والمرسلين . وبعد .

قال الله تعالى : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٠ ، ٨١] .

اذكر يا محمد ما نقصُّ عليك من خبرِ لوط مع قومه إذ أنكر عليهم ما ابتدعوه من فاحشة لم يسبقهم إليها أحد ، وتلك الفاحشة المنكرة هي إتيان الرجال شهوة من دون النساء ، وهذا دليل على تجاوزهم الحد في المعصية .

ولوط نبي الله عليه السلام هو لوط بن هاران بن تارح ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل ، وكان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره وإذنه ، فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر . ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوئهم طوية ، وكانوا كذلك من أردأ الناس سريرة وسيرة ، يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر ، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون .

ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم ، وهي إتيانُ الذكران شهوة ، مخالفين بذلك فطرة الله التي فطر الناس عليها ، تاركين ما خلق الله لهم من النساء ، ولغرابة هذا الأمر وشذوذه ، اهتم به لوط عليه السلام ، وخصَّه القرآن بالذكر ، وإلا فإن لوطًا عليه السلام دعاهم بدعوة إخوانه من الأنبياء والمرسلين ألا وهي عبـاده الله وتقواه ، واتباع منهج الرسول .

قال تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٠ - ١٦٤] .

ولكن قوم لوط وافقوا إخوانهم قوم نوح وقوم هود وقوم صالح في التكذيب بالرسل، والانحراف عن منهج الله في العقيدة والسلوك، وضموا إلى ذلك ما ابتدعوه من فاحشة، لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، فجاءوا بأمر شاذ غريب، لذا قال لهم نبيهم: ﴿.. أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ ۝ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقال: ﴿.. أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٤، ٥٥]، وقال: ﴿.. إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨] انظر كيف استنكر عليهم نبيهم هذا الأمر المستقبح الذي ابتدعوه، وبئس ما ابتدعوا، وقد وصفهم مع تلك الفاحشة بالإسراف، وهو تجاوز الحدّ في المعصية، ووصفهم أيضًا بالعدوان والظلم، ووصفهم بالجهل، ووصفهم بالعمى، وجميع هذه الأوصاف مقرونة بهذه الفاحشة المهينة مما يدل على قُبحها ونفارة الطباع المستقيمة منها، ومما لا شك فيه أن عمل قوم لوط من أفسد المعاصي والذنوب.

ويرى جمهور الأمة من أهل العلم بالتفسير والفقه أنه ليس في المعاصي أعظم مفسدة من هذه المفسدة، وهي تلي مفسدة الكفر، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل والزنى، واستدلوا على ذلك بأمور:

❋ **إن** الله سبحانه وتعالى جعل حدَّ القاتل إلى خِيرَةِ الولي إن شاء قَتَل، وإن شاء عفا، وجعل قتل اللوطي حدًّا حتمًا، كما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ، ودلت عليه سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة التي لا معارض لها.

❋ **قتل** المفعول به خير له من وطئه، فإنه إذا وطئه قتله قتلًا لا ترجى الحياة معه، قتل فيه روح الرجولة إلى الأبد، وهو على كل حال مقتول، أما قتله بالسيف فإنه قد يكون مظلومًا شهيدًا ينتفع به في آخرته.

❋ **جاء** في الحديث الصحيح الذي رواه أهل السنن وصحَّحه ابن حبان وغيره، وإسناده على شرط البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به »، وثبت عنه ﷺ أنه قال: « لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط، لعن الله من عمل عمل قوم لوط ».

ولم يأت هذا اللعن بهذا التأكيد إلا في هذه الفاحشة، ولم يأت عنه ﷺ لعن الزاني ولا أصحاب الكبائر الأخرى هكذا ثلاث لعنات متتالية في حديث واحد، نعم جاء اللعن لعدد من أهل الكبائر لكن لم يتجاوز بهم اللعن مرة واحدة.

❋ **قال** الله عز وجل: ﴿ ولا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال تعالى في قوم لوط: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] والمتأمل في الآيتين يلاحظ تفاوت ما بينهما، وأن الله سبحانه نكَّر الفاحشة في الزنى، أي هو فاحشة من الفواحش وعرَّفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، فهي لظهور فحشها لا ينصرف الاسم إلى غيْرها، فقد اجتمعت فيها كل خصائص الفاحشة.

❋ **ثم** أكَّد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

❋ **اللواط** عمل تنفر منه الطباع المستقيمة أشد نفرة ، حتى الحيوان ينفر منه .

في اللواط مفسدة عظيمة تؤدي إلى تعطيل الفطرة التي فطر الله الناس عليها وإفسادها أيما إفساد ، وخلق الله لأجلها الأنثى من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع بين الزوجين بما أحلَّ الله ، وحصول المودة والرحمة ، وحصول النَّسل الذي به حفظ هذا النوع الذي كرَّمه الله واستخلفه في الأرض ليؤدي رسالة عظيمة خلقه الله لها ، وتحصين المرأة ، وقضاء وطرها ، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب ، وقيام الرجال على النساء ، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء وغير ذلك من مصالح النكاح ، فمفسدة اللواط تعطل ذلك كله وتقاومه .

ولما كانت هذه المفسدة فيها عكس للفطرة ، وقلب لنظامها التي خلقها الله عليه ، قلب الله سبحانه ديارهم عليهمْ فجعل عاليها سافلها ، وجمع عليهم سبحانه من أنواع العقوبات ما لم يجمعه على أحد .

فقلب عليهم ديارهم ، وخسف بهم ، ورجمهم بحجارة من السماء ، والمقصود بيانه أن مفسدة قوم لوط أعظم المفاسد ، بل ربما فاقت في خطرها وقبحها القتل والزنى على ما فيهما من مفاسد ، فإذا كان « زوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق » كما جاء في بعض السنن(١)

وإذا كانت مفسدة الزنى فيها ما فيها من المفاسد الخطيرة التي تؤدي إلى ضياع الأنساب وانتهاك الحرمات وتوقع العداوة والبغضاء بين الناس ، بسبب إفساد الأسر وخرابها وفي ذلك خراب العالم .

فإن جريمة قوم لوط تكاد الأرض تشكو إلى ربها تبارك وتعالى من أهلها ، وتكاد تتحرك من جوانبها ، إذا وقعت فيها هذه الجريمة ، وتهرب الملائكة إلى أقطار السماوات إذا شاهدوا تلك الجريمة النكراء ؛ خشية نزول العذاب على أهلها ، وتكاد الجبال الرواسي الشمُّ تزول من أماكنها من خطر تلك الفاحشة ، ومن هنا جمع الله على قوم لوط من أنواع العقوبة ما لم يجمعه على قوم قبلهم فقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۝ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : ٧٣ - ٧٦] .

خسف الله سبحانه بقرى قوم لوط جميعها ، وهي المعروفة بقرى سدوم وعمورة ، وهي القرى الواقعة في طريق مطروق بين الحجاز والشام ، وتعرف الآن ببحيرة لوط أو البحر الميت ، حيث صار هذا المكان أخفض مكان في العالم ، وامتلأ بالماء الآسن الذي لا حياة فيه ، ولا مكان فيه لكائن حي ليظل آية متجددة مع الزمن ، تشير إلى بشاعة صنيع قوم لوط ، وتحذر من سلوك مسلكهم .

وقد وصف الله قوم لوط بالعمى والجهل ، ومن جهلهم وسكرتهم أنهم استباحوا لأنفسهم ما هم فيه من منكر ، بل وعابوا على من أنكر عليهم ذلك ، واعتبروا دعوته إلى الطهر جريمة يستحق عليها الطرد والإبعاد ﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٧] ، أرادوا من لوط عليه السلام أن يسكت عن وعظهم وعن نهيهم عما هم فيه من منكر وإلا يكون من المطرودين . لماذا ؟ والجواب : ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ

قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٨٣] .

وهكذا لم يقبل أهل الفاحشة مجرَّد مساكنة نبي الله لوط لهم ولا حتى رؤيته ، وهكذا أهل الباطل في كل زمان ومكان لا يطيقون رؤية أهل الحق ، وإن كنت تعجب من منطق قوم لوط في غابر أيامهم ، حيث قلبوا الأمور ، وغيروا الحقائق ، واستباحوا لأنفسهم الفاحشة ، واعتبروا الدعوة إلى تركها جريمة ، فإن عجب الإنسان لا ينتهي اليوم عندما يرى أهل الغرب المظلم من كل قيمة معنوية ، قد استباحوا لأنفسهم ما استباحه قوم لوط من قبل ، فإن كان قوم لوط قد جاءوا إلى الدنيا بفاحشة لم يُسبقوا إليها ، فإن أهل الغرب اليوم لم يأتوا بجديد ، فهم يسيرون سيرة السابقين ، وينهجون نهجهم ، فإن قوم لوط أتوا الرجال من دون النساء ، وقطعوا السبيل وجاءوا في ناديهم بكل منكر ، وهذا ما فعله الغرب اليوم تمامًا مع فارق واحد ، هو أن الغرب يعتبر هذه المنكرات حضارة وديمقراطية وحريَّة ، وتلك مقومات النظام العالمي الجديد الذي يريد الغرب حمل الناس عليه في أقطار الدنيا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم .

لكن الذي نحب أن نشير إليه أن العقاب الذي وقع لقوم لوط ، ليس على أمثالهم من الظالمين ببعيد هكذا قضى ربُّك ، وقد رأينا ذلك واقعًا في صور شتى ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

مديرية الشئون الاجتماعية بالدقهلية
إدارة الجمعيات

شهادة

تشهد مديرية الشئون الاجتماعية بالدقهلية بأن جمعية أنصار السنة بالمنزلة دقهلية قد تم شهرها برقم ٧٧٢ بتاريخ ١٩٩٦/٢/٨م ، وذلك طبقًا للقانون ٣٢ لسنة ١٩٦٤ ولائحته التنفيذية .

تحريرًا في ١٩٩٦/٢/٨

مدير المديرية
وكيل الوزارة
عبد الله عبد الرازق المليجي

فضيلة الشيخ / عبد الرزاق السيد عيد

دروس من قصة صالح عليه السلام

أولاً : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ .. ﴾

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسوله الكريم سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

أخي القارئ الكريم : نتابع معًا مسيرة التاريخ البشري في إحدى حلقات الصراع بين الحق والباطل ، فالناس فريقان لا ثالث لهما : إما أتباع الرحمن ، وهم المتبعون لمنهج رسُل الله في كل زمان ومكان ، أو أتباع الشيطان ، وهم المنحرفون عن منهج الأنبياء في كل زمان ومكان .

وبعد أن وقفنا مع آدم – عليه السلام – ونوح وهود ، نقف اليوم مع نبي الله صالح عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين صلوات ربي وسلامه .

وصالح – عليه السلام هو نبي الله : صالح بن عبيد بن ماسح بن حادر بن ثمود بن عاثر بن إرم بن نوح ، أرسله الله إلى قومه (ثمود) ، وكانوا عربًا من العاربة يسكنون الحجر ، وهو مكان بين الحجاز وتبوك ، والذي يمرُّ الآن من المدينة المنورة إلى تبوك يمرُّ بمنطقة (العلا) ، وهناك يشاهد آثار ثمود : القصور التي نحتوها في الجبال وأقاموها في السهول ، ويرى كذلك الموضع الذي خرجت منه الناقةُ التي جعلها الله آية لهم ، فكذبوا بها فأخذهم العذاب : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُواْ ﴾ [النمل : ٥٢] ، تشهد على مصيرهم ، ومصير كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب .

وثمود استخلفهم الله في الأرض من بعد (عاد) وهيَّأ لهم سبل العيش الكريم ، والحياة الرغدة ، ومكَّنهم حتى من الجبال ينحتون منها البيوت ، وأجرى لهم العيون ، وأنبت لهم الجنات .

ولقد ذكَّرهم الله بهذه النِّعم على لسان نبيِّه صالح إذ قال لهم : ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٤] .

وقال لهم : ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَا ءَامِنِينَ ۝ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ[1] ﴾ [الشعراء : ١٤٦ - ١٤٩] . هذه الأرض مكّن الله قوم صالح منها ، وتلك الكنوز أخرجها لهم ، وطلب منهم أن يشكروا الله عليها بالإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها ، فقال تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٤] .

ولكن كيف يكون الإصلاح في الأرض ؟

يكون بأمرين :

الأول : عبادة الله وتقواه ، وطاعة الرسول .

الثاني : عدم طاعة المسرفين (مخالفة المسرفين) .

ومن هنا أمرهم الله بعبادته وتقواه ، وطاعة رسوله المبعوث لهم بالهدى ودين الحق ، فقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف : ٧٣] ، وقال تعالى : ﴿ .. ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا .. ﴾ [هود : ٦١] ، ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ

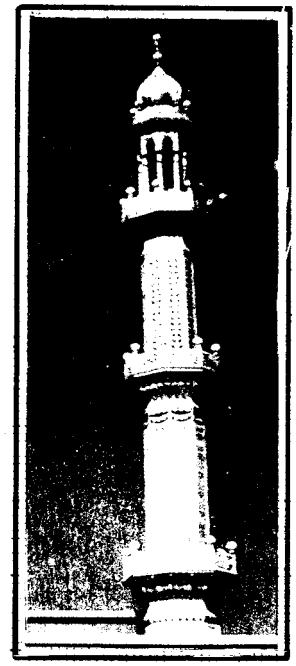

رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء : ١٤٢ - ١٤٤] .

وهذا هو العامل الأول لإصلاح الأرض .

ونهاهم سبحانه عن طاعة المسرفين ، وهم الملأ الذين استكبروا ، لأنهم أهل الفساد في الأرض : ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل : ٤٨] ، فقال سبحانه محذرًا من طاعتهم : ﴿ فَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [الشعراء : ١٥٠ - ١٥٢] .

فالمسرفون هم الملأ الذين استكبروا ، هم أصحاب النفوذ والسلطان في القوم ، هم حملة لواء التكذيب بالرسل ، هم قادة الفساد في الأرض وعدم الإصلاح ، لذلك نهى الله مَنْ آمن من قوم صالح عن اتباعهم .

ولقد تميزت قصة صالح عن قصة نوح وهود بأمرين :

الأول : المعجزة الحسيَّة : ﴿ .. قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ٧٣] ، وهذه الناقة نسبها الله إليه ، لأنها ناقة غير عادية ، فكل ناقة تولد من أمّها ، لكن هذه الناقة أخرجها الله من الصخر على هيئةٍ عظيمة ، آية على صدق نبيِّهم المبعوث من رب القوى والقُدر ، ونذير هلاكٍ لهم إن هم كذبوا ، قال تعالى : ﴿ .. وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

والأمر الثاني الذي تميزت به قصة صالح عمَّا سبقها :

انقسام قوم صالح إلى فريقين : فريق آمن ، وفريق كفر .

قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحًا أن اعبدوا الله

فإذا هم فريقان يختصمون .. ﴾ [النمل : ٤٥] .

وهناك علاقة وثيقة بين الأمرين ، والله أعلم ، وذلك أنه لما طلب قوم صالح منه آية محدَّدة ، وأجابهم لما طلبوا بإذن الله ، كان ذلك سببًا في إيمان من آمن معه ، وكفر من كفر .

قال ابن كثير رحمه الله :

(وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يومًا في ناديهم ، فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله ، وذكَّرهم وحذَّرهم ووعظهم وأمرهم ، فقالوا له : إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة - وأشاروا إلى صخرة هناك - ناقة عشراء طويلة من صفتها كذا وكذا ، فقال لهم النبي صالح - عليه السلام - : أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذي طلبتم ، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقوني فيما أُرسلت به ؟ قالوا : نعم ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك .

ثم قام إلى مصلاه فصلى لله - عز وجل - ما قدر له ، ثم دعا ربَّه أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله سبحانه تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء ، على الوجه الذي طلبوا ، فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا ومنظرًا هائلًا ، وقدرة باهرة ، ودليلًا قاطعًا ، وبرهانًا ساطعًا ، فآمن كثير منهم ، واستمرَّ أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم) . اهـ .

واستمر الملأ الذين استكبروا في عنادهم وكبرهم ، رغم قوة الحجة ووضوح البرهان ، وقابلوا دعوة صالح - عليه السلام - لهم بالسخرية والتهكم ، واتهموه بالجنون ، وشكُّوا في آيته وتعصَّبوا لما توارثوه من الباطل فقالوا : ﴿ ... يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ [هود : ٦٢] .

وعلى حدِّ زعمهم كان صالح - عليه السلام - فيهم راجح العقل ، ولما جاءهم بالتوحيد صار لا خير فيه ، فسبحان رب العالمين تتكرَّر دعاوى المبطلين في كل عصر ومصر ، حتى كأنهم يتكلمون بلسانٍ واحد ، وسار الزمن وجاءت قريش تتهم رسولها الأمين محمدًا ﷺ ، المبعوث لها وللناس كافة بالجنون ، فنزل الحق يدافع عنه ويدْفع عن كل نبي ورسول : ﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ [القلم : ٢] ، وكذلك جميع رسل الله أزكى أفئدة وأكمل عقولًا ، ورغم اتهام قوم صالح لنبيِّهم وشكِّهم وصَلَفِهم وغرورهم .

ردَّ عليهم بأدب النبوة : ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَـٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [هود : ٦٣] ، بيَّن لهم - عليه السلام - مهمته وواجبه في تبليغ رسالته ونشر رحمة ربِّه بينهم ، ومن هذه الرحمة إرشادهم إلى الحق ، وتحذيرهم من مغبَّة التكذيب ، فقال : ﴿ وَيَـٰقَوْمِ هَـٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾ [هود : ٦٤] ، وازداد غيظ المسرفين لرؤية المؤمنين من قوم صالح ، وحاولوا معهم بكل وسيلة لصرفهم عن الإيمان برسالة صالح - عليه السلام - : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَـٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِ كَـٰفِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٧٥ ، ٧٦] .

الملأ : هم أشراف القوم ورؤساؤهم ، فإذا اجتمع إلى الشرف والرياسة : الكبر فتلك الطامة : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ .. ﴾ [الأعراف : ٧٥] ، قالوا للذين آمنوا وغالبهم من المستضعفين ، وهكذا أتباع الرسل في كل زمان ومكان .

وهكذا حاول أصحاب النفوذ

والسلطان في القوم الضغط على المؤمنين الضعفاء وتشكيكهم في عقيدتهم ، لكن أنّى لهم ذلك ، فقد أعلن المؤمنون في عزّ ورفعة تمسكهم بعقيدتهم ، فقابلهم المستكبرون في تحدٍّ ظاهر بإصرارهم على الكفر ، وهنا أوشك الصراع من نهايته ، ففريق الإيمان بقيادة صالح – عليه السلام – يعلن اعتزازه بالحق وثباته عليه ، وفريق الكفر بقيادة أشراف القوم ورؤسائهم الذين استكبروا يعلنون استياءهم من ذلك : ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ [النمل : ٤٧] .

هكذا لا يطيق أهل الباطل حتى مجرد رؤية أهل الحق ، ويضيقون ذرعًا بالحق وأهله ، فأعلنوا عن عزمهم في التخلّص من أهل الحق : صالح – عليه السلام – والذين آمنوا معه : ﴿ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [النمل : ٤٩] ، وهكذا تحالف أهل الباطل على قتل نبي الله صالح والذين معه ، لكن الله القوي القاهر لم يمكنهم من ذلك وعاجلهم بعقوبة من عنده بأسرع مما تصوروا : ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [النمل : ٥٠ – ٥٣] .

وهكذا دبر المسرفون في الأرض قتل صالح والذين آمنوا معه ، دبروا ذلك وهم في غفلة تامة أن الله بما يعملون محيط وقادر على أن يقابل تدبيرهم بتدبير أشد ، وهكذا جاءهم العذاب من حيث لا يشعرون ، وذلك ببغيهم وظلمهم وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، ونجى الله صالحًا والذين آمنوا معه ، فهذه سنة الله التي لا تبدل ولا تتغير : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت : ١٧ ، ١٨] .

هدى الله ثمود فأرسل إليهم رسولًا يذكرهم بنعم الله عليهم ، ومن أعظمها إرسال الرسول ، وأخرج لهم آية واضحة على صدق الرسول .

هدى الله ثمود بأن ذكرهم على لسان نبيهم أن الله استخلفهم في الأرض من بعد عاد ، ومكنهم فيها ، وهذا التمكين مؤقت وليس بدائم لابتلائهم واختبارهم ، ودعاهم للاعتبار بما أصاب قوم عاد من هلاك

هداهم للإصلاح في الأرض وعدم الإفساد فيها ، وذلك بتقوى الله وطاعة الرسول .

لكنهم أصروا على الإفساد في الأرض واتباع المفسدين ، ومحاربة المصلحين من أتباع الرسل .

الهداية هنا متمثلة في اتباع منهج الرسول ، والعمى هو الإعراض عن منهج الرسول ، فاستحب قوم صالح العمى وهو الكفر والتكذيب والإعراض عن منهج الله الذي جاء به صالح – عليه السلام – فكانت النتيجة هلاك المكذبين الضالين المضلين ، ونجاة صالح وأتباعه من المؤمنين المتقين ، والحمد لله رب العالمين .

وللحديث بقية .

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

باب السيرة

وقفات مع القصة في كتاب الله

دروس وعبر

بقلم فضيلة الشيخ
عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله المهيمن على مقاليد كونه بسلطانه وقدرته المتصرِّف في شئون خلقه بأمره وقهره وعزته ، والمدبِّر لأحوال عباده وحكمته ، فجعل العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة لأهل طاعته ، والخزي والسوء والنَّكال على من كذَّب رسلَه وخالف شريعته .

أما بعد :

ففي لقائنا في أعداد سابقة من قصة هود عليه السلام عرضنا لدعوته قومه ، وكيف قابل القوم ما جاءهم به من علم نافع بجهل عقيم حملهم على تكذيب نبيهم والسخرية منه وإيذائه بصنوف من القول والعمل فواجه هود عليه السلام ذلك كله بثبات على الحق لا يعرف اللين ، ويقين لا يعرف الشك فى الله رب العالمين حتى سلط الله على عاد الريح العقيم فما تركت من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، فما أغنت عنهم دنياهم التى كانوا فيها مترفين .

﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد * إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ﴾ [هود : ١٠٢ ، ١٠٣] ولنا اليوم وقفات أُخَرْ نكمل فيها بقية الكلام ونتأمل فيها بعض صوارف الإيمان التي صدَّت قوم هود عن الإيمان برسولهم .

أولاً : التـــرف من أهم الصوارف عن الإيمان :

قال تعالى : ﴿ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقآء الآخرة وأترفنهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴾ [المؤمنون : ٣٣] يحكى الله لنا عن قوم هود ذلك القول حيث ردُّوا به دعوة نبيهم عليه السلام فقد كفروا وكذبوا بسبب ماهم فيه من ترف فى الحياة الدنيا .

من قصة هود عليه السلام

ولم يكن المترفون فى قوم هود هم حملة لواء التكذيب فحسب بل فى كل أمة من الأمم يحمل المترفون فيها لواء التكذيب بالرسل والصدّ عن سبيل الله . قال الله تعالى ﴿ وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون * وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولادا وما نحن بمعذبين ﴾ [سبأ : ٣٤ : ٣٥] ذلك أن الترف حالة من الانغماس فى شهوات الدنيا تجعل المترفين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ،ولايفكرون إلا فيما هم فيه من نعمة زائلة فلا يتكلمون إلا بها ولا يعملون إلا لها وهم غير مستعدين لسماع أى صوت آخر حتى ولو كان صوت رسول رب العالمين .بل ربما حملهم الخوف على ماهم فيه من متاع زائل على سرعة تكذيبه قال الله تعالى : ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ﴾ [هود : ١١٦].

مظاهر الترف فى قوم هود :

الإسراف ـ اللهو والعبث ـ البطش بقوه وتجبر ـ الكبر ـ الغفلة عن الآخرة ﴿ كذبت عاد المرسلين * إذا قال لهم أخوهم هود ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * واذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون * أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ [الشعراء : ١٢٣ : ١٣٥] .

إن الله سبحانه وتعالى وسع على عاد فى النعيم وأعطاهم من الأولاد والأموال والزروع والثمار ما لم يعط أحدا من العالمين . ولكنهم لم يعترفوا بالنعمة للمنعم ولم يشكروه عليها ، فاغتروا بها ، وأخذوا يتنافسون فيها ويتباهون بها ، ويقيمون المبانى الضخمة لا يقيمونها للسكن ولا للمصلحة العامة أو الخاصة بل يقيمونها للعبث واللهو فحسب . فهذه البنايات الضخمة التى يقيمونها على الأماكن المرتفعه عند التقاء الطرق . كم كانت تكلفهم من المال والجهد ، وليتهم كانوا يقيمونها لمصلحة ظاهرة كلا لم يكن هناك من هدفٍ وراء هذه المبانى الضخمة إلا التفاخر والغرور واظهار القوة .

وكانوا يتخذون المصانع والمصانع هى الأبراج العالية أو المساكن الضخمة أو أحواض المياه .ولم ينكر عليهم نبيهم اتخاذ هذه المصانع فى حد ذاته بل أنكر عليهم نزوعهم للخلود فى الأرض ،ونسيان الآخرة .

وكان الأحرى بقوم هود أن يتقوا الله الذى أمدهم بالأنعام والبنين والجنات والعيون ،والنعمة التى كانوا فيها فاكهين ،لكنهم وهذا حال المترفين تشاغلوا بالنعمة عن المنعم ، وتعلقوا بالوسائل وتركوا الهدف الذى خلقهم الله من أجله وأمدهم بما أمدهم من وسائل لتحقيقه ، وأرسل إليهم رسوله ليذكرهم به ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ [الأعراف : ٦٥] وهكذا يؤدى الترف بأصحابه فى كل زمان ومكان إلى الصد عن سبيل الله والتكبر على رسله والركون إلى الدنيا ونسيان الآخرة ، ولذا كان أصحاب رسول الله على ماهم فيه من شدة ومن ضيق ذات اليد يتورعون عن كثير من المباحات ولما سئل عمر رضى الله عنه فى ذلك كان يقول : إنى أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم وبخهم وقرعهم ﴿ أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ [الأحقاف : ٢٠]

وجدير بنا أن نسأل أنفسنا سؤالا مهما . لماذا يقود المترفون حرباً شعواء على رسل الله وأتباعهم فى كل زمان ومكان؟

لأن المترفين يعلمون أن عقيدة التوحيد التى يدعو إليها الرسل تَعنى الاعترافَ بالنِّعمة للمنعِم سبحانه وهذا الاعتراف يقتضى وَضْع النِّعمة فيما أراد المنعم سبحانه لا كما تريد شهواتهم ونزواتهم ، ولذا رأى المترفون فى اتباع الرسل تضييقاً عليهم بحسب زعمهم ، فهم يريدون أن ينطلقوا فى شهواتهم بغير حدود ، وقد رأينا كيف عاب هود عليه السلام على المترفين من قومه إسرافهم فى البناء بغير طائل، فهم ينفقون الملايين ويبنون الحصون والقلاع الضخمة لمجرّد العبث ، ولو طُلب منهم معشار ذلك للإنفاق فى مصالح العباد لرفضوا وبشدّة فمعبودهم هواهم، ولا يريدون الانصياع لشرع الله لذا نراهم فى كل أمة أعداء لما جاء به الرسل ، وهم سبب الهلاك والدّمار لأمتهم فى الدنيا قبل الآخرة قال الله تعالى : ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ فإذا كثّر المترفون فى قرية أو كانت لهم إمارة (قيادة) فهذا نذير هلاك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثانيا : ومن صوارف الناس عن منهج الرسل أيضاً ٠ التقليد) ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذَر ما كان يعبدُ آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ [الأعراف : ٧٠] . هذا نوع من التقليد وقع فيه القوم وهو تقليد الآباء على ما كانوا عليه حتى ولو كانوا على الباطل ، وقد وقع فى هذا الأمر خلق كثير وهو كذلك من سمات المترفين وقد عاب الله على مشركى قريش هذا المسلك الشائن ﴿ بل قالوا إنا وجدنا أباءنا على أمّة وإنا على أثارهم مهتدون.

وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا أباءنا على أمّة وانا على أثارهم مقتدون. قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم . قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ [الزخرف : الآيات من ٢٢ : ٢٤] . فانظر كيف أعمى القومَ التقليدُ عن اتباع الحق وأصرُّوا على الباطل رغم وضوح الحجة ، وهذه إحدى وسائل الشيطان الخبيثة لصدّ الناس عن دين الله وهي كذلك من وسائل شياطين الإنس لصرفْ الناس عن الدين واحياء نعرة العصبيات والقوميات الفانية ومحاولة بعثها من جديد رغم اندثارها ، وفي المقابل محاولات مستميتة لطمس معالم دين الله في الأرض .

وهناك نوع آخر من التقليد وقع فيه قوم عاد ألا وهو تقليد الكبراء والسادة .

﴿ وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربّهم وعصوا رسله واتّبعوا أمر كلّ جبار عنيد ﴾ [هود : ٥٩] من الآفات التي صدّت قوم عاد عن اتباع رسولهم عليه السلام أن الكثرة الكاثرة منهم قلّدوا القلّة المتحكمة المترفة التي لها الأمر والنهي على الأغلبية وهذه من المشاكل التي تواجه دعوة الرسل أنّ الدّهْمَاء والعوام يقلّدون القلّة المترفة أصحاب السلطان والنفوذ، وهذا الذي وقع فيه قوم عاد كان سبب لعنتهم وهلاكهم في الدنيا وعذابهم يوم القيامة .

﴿ واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربّهم إلا بعدا لعاد قوم هود ﴾ [هود : ٦٠] . وهذه سنة قائمة إلى قيام الساعة أن كلّ من عبد غير الله ومن أطاع غير الله كان ذلك سبب خزيه وعذابه في الدنيا والآخرة .

ثالثا : من كذّب برسول واحد فقد كذب بجميع الرسل في قوله تعالى ﴿ وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربّهم وعصوا رسله .... ﴾ [هود : ٥٩] فيه إشارة هامة تدلّ على أن دين الله واحد ، وهو الإسلام الذي ارتضاه للناس كافة والذي أساسه عبادة الله وحده لا شريك له ، وبهذا أرسل الله رسله فجميعهم على طريق واحد تجمعهم وحدة الدين وواحدانية المرسل سبحانه أولهم نوح وخاتمهم محمد ﷺ وعليهم جميعا .

فمن آمن بواحد من الرسل في أي حِقْبة من حِقَبِ الزّمن ومات على ذلك فهو مؤمن بهم جميعا ، ومن كفر برسول واحد منهم فكأنما كفر بهم جميعا لأنه كفر بدين الله بصرْف النظر عن الرسول الذي حَمَلَه وهذا المعنى واضح كلّ الوضوح في قوله تعالى ﴿ وعصوا رسله ﴾ فكيف عصت عاد رسل الله وهم قد عصوا رسول واحد وهو هود عليه السلام فهم وانْ كفروا بهود عليه السلام إلا أنهّم في الحقيقة كفروا بمنهج الله الذي حمله الرُسُلُ جميعا عليهم السلام . والحمد لله على نعمة الإسلام فنحن المسلمين نؤمن بالله وبجميع رسله من عرفنا منهم ومن لم نعرف ونحن نتلو قَوْل الله تعالى ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله ... ﴾ [البقرة :

٢٨٥] . نتلو قول الله تعالى السابق ونؤمن به ونسأل الله أن نموت على ذلك .

ونستطيع الآن إجمال ما ذكرنا من فوائد وعبَر في هذا المقال والذي قبله سائلين الله سبحانه أن ينفعنا بما كتبنا وينفع الإخوة القراء بها :

١ ـ إثبات وحدة الدين ووحدانية الله فهو سبحانه الذي أمر رسوله محمدا ﷺ خاتم النبيين، وأوحى إليه أن يقصّ على قومه من خبَرِ عادٍ التي ذهبت في الغابرين .

٢ ـ دعوة الرسل كلهم واحدة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له .

٣ ـ سبب الاسباب في الإعراض عن دعوة الرسل هو الجهل .

٤ ـ بلغت عاد في القوة ما لم يبلغه غيرهم ، ولكن قوتهم لم تعن عنهم شيئاً لما جاءهم أمر ربك ﴿ أولم يروا أن الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ .

٥ ـ الثقة في الله واليقين فيما عنده وصِدْق التوكّل عليه من أخلاق الأنبياء ، وهي من أهم أسلحة الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان .

٦ ـ المترفون في كل أمّة هم حملة لواء الصدّ عن سبيل الله والتكذيب وهم القادة في كل شرّ، وهم سبب لنزول عقاب الله على أمتهم في الدنيا والآخرة .

٧ ـ التقليد الأعمى لما عليه الآباء ، وطاعة السادة والكبراء في معصية الله من أسباب الصدّ عن سبيل الله والإيمان برسله ولذا فهي نذير هلاك .

٨ ـ التكذيب برسول واحد تكذيبٌ بجميع الرسل لأنهم جميعا مرسلون من الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، ويدعون إلى دينه الذي ارتضاه لنفسه ، وأتمّه وأكمله ببَعْثة نبيّه ورسوله محمد بن عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين ونحن على ذلك من الشاهدين ، والحمد لله رب العالمين .

كتبه الفقير إلى عفو ربه

عبد الرازق السيد إبراهيم عبد

توبة مقبولة

مسلم عن عمران بن حصين رضي الله عنه أن امرأة من جهينة أتت نبي الله ﷺ ، وهي حبلى من الزنى . فقالت : يا نبي الله ! أصبت حدًا فأقمه عليّ، فدعا نبي الله ﷺ وليها . فقال : « أحسن إليها . فإذا وضعت فائتني بها » ففعل . فأمر بها نبي الله ﷺ فشكّت عليها ثيابها . ثم أمر بها فرجمت . ثم صلى عليها . فقال له عمر : تصلي عليها ؟ يا نبي الله ! وقد زنت . قال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم . وهل وجدت توبة أفضل من أن جادت بنفسها لله تعالى ؟ » .

وقفة مع أهل القرى

بقلم الشيخ: عبد الرازق السيد عيد

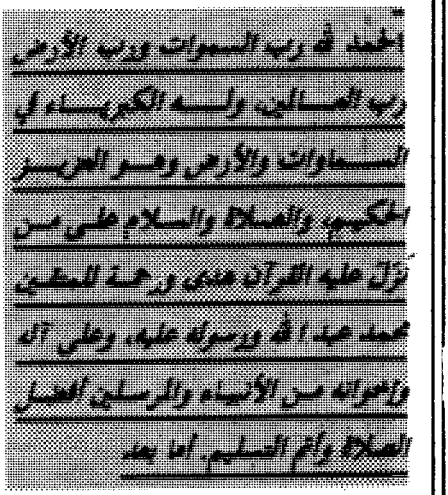

فلقد تناولنا في أحاديث سابقة قصص نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب- عليهم السلام- وما كان بين كل نبي وقومه، ووقفنا على الدروس المستفادة من كل قصة بما ألهاء الله به، والحكمة بالغة جمع السياق القرآني بين هؤلاء الخمس في سياق واحد في سُوَرٍ: الأعراف، وهود، والشعراء، وذلك بشيء من التفصيل، وجمعهم أيضًا في مواضع آخر بشيء من الإجمال في سورتي الحج، والعنكبوت وفي غيرهما أشار إشارات.

وهذا الجمع القرآني البليغ يُرشِدنا إلى خصائص مشتركة بين أهل القرون الأولى وإلى دروس وعِبَرٍ، على العقلاء من بني آدم أن يَفْطِنوا إليها ويستفيدوا منها، كما أرشدنا الله إلى ذلك وحثنا عليه، فقال- سبحانه-: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

وقال- تعالى- : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ولذلك استفاد أهل البصيرة مما وقع لتلك الأقوام، فهذا مؤمن آل فرعون يدعو قومه للإيمان بموسى- عليه السلام- ويحذِّرُهم مَغبَّة التكذيب والبهتان أن يقع لهم ما وقع لأسلافهم، فيقول كما حكى القرآن عنه: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ* مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١].

لقد سماهم الله الأحزاب لتحزُّبهم على رُسلهم واجتماعهم على التكذيب، وسمَّاهم أهل القرى، والقرية في القرآن الكريم تُطْلق ويراد بها المدينة في عُرْف الناس اليوم، أي المقصود

سكّان المدن وأهل العمران، فقد بلغوا في ذلك شأوًا كبيرًا كما سبق بيانه، أما تسميتهم بأهل القرون الأولى فالمقصود المتقدّمون زمنًا.

ما يزال التحدي قائمًا:

إن الله -سبحانه- لم يقص على نبيّه مصارع هؤلاء الأمم إلا ليحذّر قريشًا -ومن سَمِع هذا القرآن- مصارع الظالمين، وأنّ الذي حدث بمن سبق ليس ببعيد أن يحدث بمن لحق، تأمّل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ* ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣، ١٤]، تأمل ما توحي به الآيات من مراقبة الله لأحوال العباد، وانظر قوله- تعالى-: ﴿أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

وانظر إلى هذا التهديد الواضح لأهل المعاصي في كل زمان ومكان مهما اختلفت أماكنهم وذادت أعدادهم أو تضاعفت قوتهم وإمكاناتهم المادية فإحاطة الله بأحوال العباد شاملة وسلطانه قائم ولا معقّب لحكمه.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا* فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: ٨، ٩].

الاعتبار بمصارع الظالمين:

وحتى تكون الموعظة تامة بمصارع أهل القرون الأولى فلا بد من النظر في أسباب هلاكهم ولماذا استحقوا ذلك الهلاك الشامل والاستئصال الكامل، وهذا من أهم الأسباب التي قصّ الله على رسوله من أجلها أخبارهم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ* وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ..﴾ [هود: ١٠٠، ١٠١].

الظلم من أسباب الهلاك:

إذا تأملت الآيات الواردة في التعقيب على مصارع القوم فإنك لا تكاد تراها تخلو من وصفهم بالظلم كما في آيات سورة هود السابقة وغيرها من الآيات في سورة يونس: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ..﴾ [يونس: ١٣]، ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، ذلك أنهم قد وقعوا في الظلم على جميع أحوالهم: وقعوا في الظلم عندما أشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانًا. ووقعوا في الظلم عندما كذّبوا رسُلَه، ووقعوا في الظلم عندما استباحوا المعاصي وأعلنوها، فهذه ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج المرء يده فيها لم يكد يراها، ولذا حين يُطْلق الظلم فإنه يراد به كلُّ ما اقترفوا من آثام، وإذا كانت الأرض اليوم تَضِجُّ بما وقع عليها مِنْ ظلم وتشكو إلى بارئها ألوانًا من الظلم تقع على جوانبها المختلفة تراق فيها الدماء بغير حق، وتسلب الأموال والأوطان من أهلها وتهتك الأعراض، ويهان الأبرياء، ويخوّن الأُمَناءُ، ويُبتَدَعُ في دين الله ما ليس منه، ويُقال على الله ورسوله ما ليس بحق ولا تكاد تمر دقيقة إلا يظهر ظالم يقع منه الظلم ومظلوم يقع عليه الظلم، حتى لا ييأس المظلومون من نصر الله نذكرهم بقوله- سبحانه-: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]. فإن الله يُمهِلُ ولا يُهمِلُ، وهذا الخطاب وإن كان موجهًا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم في مواجهة ظلم الكافرين فإنه لأتباعه في كل زمان ومكان.

أما الظالمون فينذُرهم الله لعلّهم

تقون أو يحدث لهم ذكرًا.

يقول سبحانه: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ* وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤،٤٥].

وقال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ الآية [الشعراء: ٢٧٧].

وهذا الإنذار وإن كان موجهًا في الأصل إلى الكافرين من قريش إلا أنه لا يزال موجهًا إلى كل ظالم يسمع أو يعقل لعله يتوب ويرجع.

الغفلة عن سنن الله الكونية:

في سورة الأعراف وبعد أن قصَّ الله علينا أخبار أهل القرى الخمس: (قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب) شرع- سبحانه- في بيان سنته مع المكذبين، فقال- سبحانه-: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤]، أي لما كذبوا الرسل بلوناهم بالبأساء: الشدَّة والقحط، والضراء: الأمراض والهلاك من الغلاء أن وذلك رجاء، يعودوا إلى الله تائبين ويندموا على ما فعلوا. وهذا تمامًا مثل قوله- تعالى- في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

فهل تذكروا؟ هل عادوا؟ لا، بل قالوا: ﴿قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ [الأعراف: ٩٥]، قالوا: إنها أمور عادية تحدث لنا كما حدثت لغيرنا من قبل، ونسوا أنها من عند الله ارجعوا الأمور إلى أسبابها المادية، وغفلوا عن كونها آية من آيات الله جاءتهم للاختبار من الامتحان والتذكير: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ* فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤،٤٥].

هكذا تمضي سنن الله في خلقه يبتلي الناس بالبأساء والضراء: ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

فإذا استمروا في سهوهم وغفلتهم ومعاصيهم ومرت بهم سنوات (القحط والشدَّة)، ولم ترق قلوبهم، ولم يعودوا إلى بارئهم ماذا يحدث؟ يبتليهم الله بالسراء: ﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾، وجاء في الأعراف: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ [الأعراف: ٩٥]، يعني: أغدق الله عليهم من الثمرات والأموال والبنين حتى تتم غفلتهم وهذا نوع من الاستدراج يصيب الله به أهل المعاصي والذنوب، يمكِّنُ لهم في الأرض حتى تتمكَّنَ منهم الغفلةُ فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فكم لله في خلقه من آيات، وكم في الدهر من تقلبات، وكم في الناس من غَفَلات.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور ٤٤].

مفتاح البركات، وباب الهلكة:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

يرشد الله- سبحانه- في الآية السابقة إلى طريق الفلاح في الدنيا والآخرة وهو الإيمان والعمل الصالح، الإيمان بالله وخشيته، والإيمان بالرسول وطاعته: ﴿آمنوا واتقوا﴾، ذلك سبب كل خير في

الدنيا والآخرة، لكن أهل القرى كذّبوا الرسول، ومن يكذّب الرسول فقد كذّب الله وكفر بشرعه ودينه، فعاملهم الله بما كسبوا.

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

نقض العهود وشيوع الفساد من أسباب الهلاك:

لا شك أن من أسباب هلاك الأمم السابقة نقضهم عهد الله وميثاقه وشيوع الفساد فيما بينهم وعدم انتهائهم عن المنكر، ولو فعلوا ذلك ما انتشر الفساد فليعتبر اللاحق بالسابق: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

فساد القيادة من أسباب الهلاك:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وإذا كانت الآية السابقة قد أشارت إلى فساد الخاصة والعامة فإن هذه الآية تخص الخاصة (الأكابر) لما معهم من سطوة وسلطان وقدرة على فتنة الناس وإضلالهم بمختلف الأساليب. لكن هل علم هؤلاء المجرمون الذين يفسدون عقائد الناس وأخلاقهم ويصرفونهم عن الهدي بزخرف القول والاحتيال والخداع هل علموا أن عاقبة مكرهم ستحيق بهم إذ لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله. هذه سنة الله في خلقه، ولكنهم عنها غافلون، ونختم بما عقبَّ الله به في سورة (هود) حيث قال- سبحانه- بعد ذكر إهلاك تلك الأمم: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ* وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٣، ١٠٤].

هذا ما تيسر في هذه العجالة وفيه ما يغني عن الإطناب والإسهاب، إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب.

والله من وراء القَصْد. والحمد لله رب العالمين.

مدير الشئون الاجتماعية بالمنوفية

إدارة الجمعيات والاتحادات

شهادة شهر

تشهد مديرية الشئون الاجتماعية بالمنوفية بأن جماعة أنصار السنة المحمدية بالكتامية ومقرها الكتامية مركز الباجور ونطاق عملها الجغرافي قرية الكتامية قد تم شهرها بدائرة المديرية تحت رقم (٨٧٥) اعتبارًا من ١٩٩٦/٦/٤ م طبقًا لأحكام القانون ٣٢ لسنة ١٩٦٤ م بشأن الجمعيات والمؤسسات الخاصة ولائحته التنفيذية بمحافظة المنوفية.

وكيل الوزارة

من أسرار سيد الاستغفار

بقلم الشيخ
عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الذي خلق النفوس فسوّاها فألهمها فجورها وتقواها، ووعد بالفلاح من زكاها، وتوعّد بالخيبة والخسران من دسّاها. والصلاة والسلام على خير من تزكي وذكر اسم ربّه فصلى. أما بعد:

ففي "صحيح البخاري" من حديث شداد بن أوس- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: "سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللّهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شرّ ما صنعتُ، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت؛ مَنْ قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يُصبح فهو من أهل الجنّة".

وهذا الحديث الجليل قد جَمَع العبودية من أطرافها إقرارًا وتجريدًا، وليس هناك أدلُّ على عظمة هذا الحديث من وصْف النبيِّ ﷺ له في أوله بسيد الاستغفار، ثم في خاتمته وَوَعَدَ من قاله موقنا به ليلاً أو نهارًا بالجنّة.

ولسنا الآن بصدد الكلام عن الحديث من حيث الشرح والتحليل، فقد سبقنا إلى ذلك إخواننا على صفحات التوحيد الغراء في أعداد سابقة (جزاهم الله خيرًا).

وإنّما هذه محاولة متواضعة هَدفُها إصلاح النفس والعمل، وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعني بها قبل غيري.

وهذا الحديث العظيم مداره على قول النبي ﷺ: ".. أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي" أبوء: أي أعترف.

فجمعَ ﷺ في هذه العبارة البليغة بين مشاهدة المِنّة ومطالعة عيب النفس والعمل. قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: (العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنّة ومطالعة عيب النفس والعمل). وقال ابن القيم رحمه الله: (مشاهدة المنّة توجب المحبة والحمد والشكر لولي النّعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت". انتهى.

والعبودية التي هي الغاية من خلق الجن والإنس مدارها على أصلين:

١- حب كامل. ٢- ذل تام؛ ومشاهدة المنة تورث الحب الكامل لله رب العالمين ومطالعة عيب النفس والعمل تورث الذل والانكسار له سبحانه وتمام الفقر إليه فكانت: ".. أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي.." أصل العبودية الخالصة. قال ابن

القيم رحمه الله: (وأقرب باب يدخل منه العبد على الله تعالى هو باب الإفلاس، فلا يرى لنفسه مالاً ولا مقامًا، ولا سببًا يتعلق به، ولا وسيلة منه يمن بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصِّرْف والإفلاس المحض.

ومشاهدة المنّة التي هي الأصل الأول من أصول العبودية أرشدنا إليها القرآن الكريم في أكثر من موضع، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّه حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، وقال عز وجل: ﴿بَلِ اللَّه يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، وهذا كثير في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ. ومطالعة عيب النفس والعمل كذلك وهي الأصل الثاني للعبودية الخالصة أرشدنا إليها كتاب الله حين أثنى الله على أولي الألباب الذين وصفهم بأكمل الأوصاف ومنها قولهم: ﴿.. سبحانك فقنا عذاب النار﴾ [آل عمران: ١٩١]، وقولهم: ﴿.. ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفّنا مع الأبرار﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقال سبحانه: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ [آل عمران: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾ [الذاريات: ١٨]، هؤلاء وهؤلاء فعلوا الطاعات وأقاموا الليل ومع ذلك قاموا يستغفرون لأنهم يخشون على أعمالهم من آفات أنفسهم ويخشون من تقصيرهم في حق ربهم، ومتى تسلَمُ أعمالُ المرء من العيوب؟

وكلما كان العبد أعرف بحق ربه كلما عرف تقصيره في حق العبودية وعلم أنه أعجز وأضعف وأقل أن يوفّي الله حق عبوديته، ولهذا كان أرباب البصائر والعزائم أشدَّ ما يكونون استغفارًا بعد الطاعات، وهكذا أمر الله عباده بالاستغفار بعد إفاضتهم من عرَفَات ومن المشعر الحرام وهم في أفضل النُّسك وأجلّها، فقال تعالى: ﴿.. ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ [البقرة: ١٩٩]، وأمرهم بالاستغفار بعد أنواع من الطاعات منها قيام الليل وقراءة القرآن والصدقة في سورة المزمّل التي ختمها بقوله تعالى: ﴿.. واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾ [المزمل: ٢٠].

وأمر الله نبيَّه ﷺ بالاستغفار بعد القيام بأشرف مهمة وهي تبليغ الرسالة، فقال سبحانه: ﴿.. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا﴾ [النصر: ٣]، وفي "الصحيح" أن النبي ﷺ كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا، ومن عرف ذلك تبينت له حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية وتفرُّد الرب بالكمال والإفضال. وأن كل نعمة منه وفضل، وعَرف كذلك نفسه أنها منبع كل شر وأساس كل نقْص وأن حدَّها: الجاهلة الظالمة، وعلم أنه لولا فضل الله ورحمته بتزكيتها ما زكت أبدًا. ولولا هداه ما أهتدت، ولولا إرشاده وتوفيقه لما كان لها وصول. فَمِنَ الله الإحسان والفضل ومن العبد التقصير والذنب فهنالك يهتف

حقًا: "أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي".

ومن هنا كان عباد الرحمن الذين باتوا لربهم سجدًا وقيامًا يدعون ربهم بقولهم: ﴿.. ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غرامًا* إنها ساءت مستقرًا ومُقامًا﴾ [الفرقان: ٦٥، ٦٦]، وكذلك المؤمنون: ﴿الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون﴾ [المؤمنون: ٦٠]، قال النبي ﷺ عن هؤلاء: "هو الرجل يصوم، ويصلي، وَيتَصدَّق، ويخافُ أن لا يقبل منه"، فالمؤمنون جمعوا إحسانًا في مخافة، وسوء ظن بأنفسهم مهما قدَّموا من طاعات.

❁ أما المغرورون فقد جمعوا بين حسن الظنّ بأنفسهم مع الإساءة والتقصير والذين تحققوا بمشاهدة المِنّة ومطالعة عيب النفس والعمل تحقق لهم الإخلاص لله وهو أساس قبول الأعمال ونجوا من الرياء ورؤية العمل وهي المحبطات المهلكات.

وسلكوا طريق الشكر الذي لا يسلكه إلا القليل من عباد الله، وتخلّصوا من داء إبليس الأول وهو الكبر والعُجب، وقد طُرد بسببه من رحمة الله.

❁ والذي يشاهد منّة الله عليه، ويطالع عيب نفسه وعمله يتخلّص من مرض عضال وداء فتاك ألا وهو مشاهدة نفسه أحسن من غيره ويتخلص من مفسدة الإدلال بالطاعات ومن الشماتة بأصحاب المعاصي، قال ابن القيم رحمه الله في "مدارج السالكين": (فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المُدِلّ من مقْت الله. فذنبٌ تُذَلُّ به لديه أحب إليه من طاعة تدلُّ بها عليه، وإنك أن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا، خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا- إلى أن قال:- فإن الميزان بيد الله والحكم له)، والمقصود من كلامه- رحمه الله-: أن قلوب العباد بيد مصرِّف القلوب، فمن شاء أن يقيمه أقامه، ومن شاء أن يُزيغه أزاغه، ولذا كان عامة دعاء النبي ﷺ : "اللَّهم مقلّب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللَّهم مصرِّف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك"، ولذا قالوا: (لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك).

❁ وإذا أقام العبد سلوكه على هذين الأصلين العظيمين كان جديرًا برحمة الله تدركه دائمًا فتنقذه من الغفلة والركون إلى النفس، وتنقذه من عدوِّه المتربص به دائمًا ألا وهو الشيطان، فلا يظفر به إلا على غِرّة وغيله، وما أسرع ما يُنْعِشُه الله عز وجل ويميزه ويتداركه برحمته.

ونختم بدعاء النبي ﷺ الذي علّمه أبا بكر- رضي الله عنه-: ".. اللَّهم عالم الغيب والشهادة فاطر السموات والأرض، رب كل شيء ومليكه أشهد ألا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، ومن شر الشيطان وشركه، وأن نقترف سوءًا على أنفسنا أو نجرَّه إلى مسلم.."[1].

والحمد لله رب العالمين.

عبد الرازق السيد عيد

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال: حديث حسن صحيح.

وقفات مع القصة في كتاب الله

الابتلاء في حياة إبراهيم عليه السلام

الابتلاء في حياة إبراهيم عليه السلام

بقلم فضيلة الشيخ : **عبدالرازق السيد عيد**

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فمن سنن الله في الحياة ابتلاء الناس على قدر دينهم ، فكان أشد الناس ابتلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، ومن هنا كان هذا الحديث عن الابتلاء في حياة إبراهيم – عليه السلام – ولما كان الابتلاء على قدر الاجتباء كان الإبتلاء في حياة إبراهيم – عليه السلام – عظيمًا عِظَم اصطفائه ، ولذلك استحق أن يُفْرَد بحديث ، وقد امتد الابتلاء في حياة إبراهيم – عليه السلام – في مختلف مراحلها .

● أولاً : (ابتلاء إبراهيم – عليه السلام – بأبيه) :

● شبّ إبراهيم – عليه السلام – عن طوق الرشد فوجد أباه ليس فقط يعبد الأصنام ، بل من سدنتها والمنتفعين من وجودها ، ولذلك كان من الصعب عليه اتباع ما جاء إبراهيم – عليه السلام – من علم التوحيد ، ولم يقف (آزر) عند حدّ رفض الإيمان بما جاء به ابنه إبراهيم ، بل هدّد إبراهيم وتوعده ، وأمره بالهجرة عنه : ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم : ٤٦] . كل ذلك على الرغم من تلطّف إبراهيم – عليه السلام – في دعوة أبيه ، وأدبه الجمّ معه على ما سنذكره إن شاء الله عند الحديث عن دعوة إبراهيم – عليه السلام .

● ثانيًا : ابتلاء إبراهيم – عليه السلام – بقومه :

لم يكن والد إبراهيم – عليه السلام – بمعزل عن قومه ، بل كان يمثل شريحة من قومه ، وهي شريحة الملأ الذين استكبروا ، وهم أصحاب النفوذ وأصحاب الجاه والسلطان وأعوان الملك الغاشم الظالم (النمرود) . ولذلك كانوا هم قادة الإعراض عن دعوة إبراهيم – عليه السلام – وكيف لا يصدُّون الناس عن دين

إبراهيم – عليه السلام – وقد نظروا فوجدوا سلطانهم القائم على الباطل مصالحهم المادية تقوم على تجارة الأصنام ، وانصياع الناس لهم بعادتهم للأصنام ، نظر القوم في الأمر فخافوا على مصالحهم المادية ، وتمسكوا بأوضاعهم الاجتماعية حتى ولو كانوا على الباطل وهم كذلك وإبراهيم – عليه السلام – على الحق وهو كذلك .

ومن هنا أضرموا العداوة لإبراهيم – عليه السلام – وكانت عداوتهم بمقدار ما جمعوا من حطب للنار التي أرادوا إحراق إبراهيم – عليه السلام – بها ، وقد جاءت الروايات تفيد كثرة ما جمعوا مع طول المدّة التي جمعوا فيها الحطب حتى أن المرأة الحامل كانت تَنذرُ إنْ هي وضعت بسلام أن تشارك في جمع الحطب لنار إبراهيم – عليه السلام – إنها نار الغضب الذي تأججت به قلوبهم تبرمًا بإبراهيم – عليه السلام – ودعوته ، فأرادوها نارًا تأكل إبراهيم – عليه السلام – ودعوته ، ولا تبقي لهما أثرًا .

﴿فَأَرَادُواْ بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات : ٩٨] ، هم أرادوا الكيد بإبراهيم – عليه السلام – لكن الله كاد لنبيِّه وخليله إبراهيم – عليه السلام – وجعل كيد القوم في خسران مبين : ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلاَمًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء : ٦٩] ، وكانت هذه عاجل البشرى لإبراهيم – عليه السلام – وأما الأخرى فوهب الله له الذرية الصالحة ، والتي جعل فيها النبوة والكتاب : ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ۞ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ﴾ [الصافات : ٩٩-١٠١] .

والغلام الحليم هنا هو إسماعيل – عليه السلام – وقال تعالى : ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلاًّ جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم : ٤٩] أي : لما اعتزل إبراهيم – عليه السلام – أباه وقومه وهاجر بدعوته إلى الشام وهبه الله إسحاق ويعقوب ، فآيات سورة الصافات خصَّت بالذكر إسماعيل ، وآيات سورة مريم والأنبياء خصَّت إسحاق ويعقوب – عليهما السلام – وكلُّهم آتاهم الله النبوة والكتاب .

*** ثالثًا : الابتلاء بشدّة العيش في الشام :**

واجه إبراهيم – عليه السلام – وزوجه سارة ، وابن أخيه لوط – عليهم السلام – واجهوا شدّة الحياة في أرض المهجر (الشام) مما اضطر إبراهيم – عليه السلام – أن يخرج وزوجه (سارة) متوجهًا إلى مصر طلبًا للرزق ، وكانت مصر إنذاك مقصدًا للطالبين .

*** رابعًا : الابتلاء في الأهل :**

لما توجه إبراهيم – عليه السلام – إلى مصر ، وكان لفرعون حاكم مصر عيونًا في كل مكان ينقلون له الأخبار والأحوال ، فَعَلِم أنَّ وافدًا جاء معه امرأة جميلة ، وكانت سارة – عليها السلام – على جانب كبير من الجمال ، فأرادها الفرعون لنفسه ، وأرسل في استحضارها ، واعتصم إبراهيم – عليه السلام – بربه ولجأ إليه ، وكذلك فعلت (سارة) ، فلما كانت عند الملك وكلما مدَّ يده إليها تصلَّبت يدُه ، وتوقفت عن الحركة ، طلب منها أن تطلق يده ولَنْ يمسَّها بسوء ، وأحسن إليها وأكرم وفادتها ومنحها

(هاجر) – عليها السلام – وأعطاها من المال الكثير ، وعادت (سارة) إلى إبراهيم – عليه السلام – ظافرة غانمة بفضل اللّه ورحمته لم يمسسْها سوء ، وهكذا يجعل اللّه لأوليائه من كل ضيق مخرجًا ، ومن كل شدّة فرجًا .

*** خامسًا : الابتلاء بتأخّر الإنجاب :**

كانت سارة – عليها السلام – عاقرًا لا تلد ، ولما رأت تطلُّع إبراهيم – عليه السلام – للذرية ، وقد تقدَّم به السنُّ وهبته جاريتها (هاجر) المصرية ، فوهب اللّه إبراهيم منها إسماعيل – عليهما السلام .

*** سادسًا الابتلاء بالابتعاد عن الولد :**

رزق اللّه إبراهيم إسماعيل – عليهما السلام – بعد طول صبر وشوق للولد ، ثم أمره أن يحمل ولده وأمَّه ، ويضعهما في أرض صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء ، لكن عند بيته المحرَّم ليقضي سبحانه أمرًا كان مفعولاً ، وامتثل إبراهيم ، وامتثلت هاجر – عليهما السلام – لأمر ذي الجلال والإكرام .

*** سابعًا : الابتلاء بذبح إسماعيل :**

لم يقف الابتلاء في إسماعيل عندما تقدم ذكره ، بل لما بلغ إسماعيل السعي مع أبيه وصار فتى عاقلاً رشيدًا أمر اللّه إبراهيم – عليه السلام – بذبح ولده إسماعيل : ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۞ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات : ١٠١–١٠٢] .

هذا هو الابتلاء حقًا ، وقد وصفه اللّه سبحانه بقول : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴾ [الصافات : ١٠٦] .

ولما استسلم إبراهيم – عليه السلام – واستسلم إسماعيل لأمر اللّه كانت النجاة ، وكانت البشرى .

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۞ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ۞ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٣–١٠٥] ، فكانت النجاة : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠٧] .

وكانت البشرى : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات : ١١٢] .

والحاصل أن الابتلاء في حياة إبراهيم – عليه السلام – كان عظيمًا ؛ لأن منزلة إبراهيم – عليه السلام – عند اللّه عظيمة ، ومن المناسب هنا أن ننقل ما أُثر عن الإمام الشافعي – رحمه اللّه – حين سأله رجال فقال : يا أبا عبد اللّه أيها أفضل للرجل أن يُمكَّن أو يبتلى ؟ فقال الشافعي : (لا يمكَّن حتى يُبتلى ، فإن اللّه ابتلى نوحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمدًا – صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين – فلما صبروا مكَّنهم ، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البته) [نقله ابن القيم في « الفوائد »] .

هذا وباللّه التوفيق وللحديث بقية إن شاء اللّه .

عبد الرازق السيد إبراهيم عيد

وقفات مع القصة في كتاب الله

إبراهيم عليه السلام

﴿ إني جاعلك للناس إماما ﴾

بقلم فضيلة الشيخ : عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وصلاة وسلامًا على نبيه المصطفى ورسوله المجتبى محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أعلام الهدى ، أما بعد :

فالحديث عن إبراهيم – عليه السلام – حديث عن الإمامة الذي جعله الله قدوة لمن بعده ، فما من نبي أرسل من بعد إبراهيم – عليه السلام – إلا وهو من ذريته ، وما دعوة للتوحيد قامت إلا على ملته وطريقته ، آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب .

وجعل أعماله قدوة للعباد ، وبارك في ذريته وأورثهم النبوة والكتاب ، فموسى كليم الله من ذريته ، وعيسى كلمة الله من ذريته ، ومحمد خاتم النبيين ورحمة الله للعالمين من ذريته ، اتخذ الله إبراهيم خليلاً كما اتخذ محمدًا خليلاً .

أثنى الله على إبراهيم – عليه السلام – في كتابه وليس بعد ثناء الله ثناء : ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ۞ شاكرًا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صرط مستقيم ﴾ [النحل : ١٢٠ ، ١٢] ، فنحن عندما نتحدث عن إبراهيم – عليه السلام – إنما نتحدث عن الدين الذي اختاره الله لنفسه وسمّاه بالإسلام : ﴿ ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل .. ﴾ [الحج : ٧٨] .

ونتحدث عن أول بيت وُضع في الأرض ، وقد رفع إبراهيم وولده إسماعيل – عليهما السلام – قواعده ، وعن بيت المقدس الذي أسسه يعقوب بن إسحق بن إبراهيم – عليهم السلام ، فإبراهيم – عليه السلام – وُلد في العراق ، وهاجر إلى الشام وإلى مصر ، ثم إلى مكة ، فانظر كيف بارك الله في سعيه كما بارك في نسله وولده ، أسمع بدعوته العالمين ، وجعل له لسان صدق في الآخرين ، ذلك هو نبي الله إبراهيم – عليه السلام .

كان لا بد من هذه المقدّمة اليسيرة بين يدي الحديث عن أبي الأنبياء إبراهيم – عليه السلام .

۞ وأول ما نبدأ به الحديث عن إمامته :

حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهنّ قال إني جاعلك للناس إمامًا قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

وهذه الآية نصٌ في اجتباء اللّه إبراهيم – عليه السلام – واصطفائه واختياره إمامًا لَمنْ يأتي بعده في الدين ، وهذه الإمامة في الدين بدليل قوله تعالى : ﴿ لا ينال عهدي الظالمين ﴾ ، وهي تختلف عن إمامة الدنيا التي قد ينالها الكافر أو الظالم بدليل قوله تعالى : ﴿ .. قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النّار وبئس المصير ﴾ الآية [البقرة : ١٢٦] ، قال : القائل هنا هو اللّه سبحانه وتعالى ردًا على إبراهيم – عليه السلام – الذي طلب من ربّه أن يرزُق ذريته من الثمرات من آمن منهم ، فردَّ اللّه سبحانه عليه بهذا القول بيانًا وتوضيحًا أن الدنيا ينالها المؤمن والكافر ، أمّا الإمامة في الدين فلا ينالها إلا من هو أهل لها صدقًا وإخلاصًا واستقامةً .

❁ **استحقاق إبراهيم – عليه السلام – للإمامة :** استحق إبراهيم – عليه السلام – إمامة الناس في الدين لقيامه بما أمره اللّه به من أوامر الدين توحيدًا وصدقًا وأمرًا ونهيًا ، وهذا مستفاد من قوله تعالى : ﴿ وإذا ابتلى إبراهيم ربُّه بكلمات فأتمهن ﴾ .

فسنة اللّه في خلقه الابتلاء ، ثم الاجتباء والاصطفاء ، فاللّه سبحانه أخبر رسوله صلى اللّه عليه وسلم محمدًا أنه سبحانه ابتلى إبراهيم – عليه السلام – أي : اختبره بكلمات ، والكلمات المقصود بها التكاليف الشرعية : أوامر الدين ونواهيه ، ﴿ فأتمهن ﴾ : أي قام بها إبراهيم – عليه السلام – على الوجه الأكمل ، ولذا أثنى اللّه عليه في آية أخرى ، فقال سبحانه : ﴿ وإبراهيم الذي وفىّ ﴾ الآية [النجم : ٣٧] ، وقال سبحانه مبينًا صدق إبراهيم – عليه السلام – وإخلاصه في القيام بأوامر الدين وسرعة استجابته : ﴿ وإذ قال له ربُّه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ﴾ [البقرة : ١٣١] ، وبهذا استحق إبراهيم – عليه السلام – أن يجعله اللّه للناس إمامًا ، ويفصّل اللّه لنا ذلك تفصيلاً في آيات سورة النحل : ﴿ إنَّ إبراهيم كان أمَّة قانتًا للّه حنيفًا ولم يك من المشركين ❁ شاكرًا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ﴾ ، والأمة : الإمام الجامع لخصال الخير عملاً وتعليمًا ، والقدوة الذي يقتدى به في ذلك ، والقانت : المطيع الخاشع ، والحنيف : المائل قصدًا وعمدًا عن الشرك إلى التوحيد ، ﴿ شاكرًا لأنعمه ﴾ : وهذه الخصلة الجامعة لخصال الخير كلها ، ولما قام إبراهيم – عليه السلام – بذلك اجتباه اللّه واصطفاه وزاده هدى وتوفيقًا وتثبيتًا على الصراط المستقيم وهو دين اللّه القويم ، وانظر إلى تمام نعمة اللّه على عبده ورسوله إبراهيم – عليه السلام – حيث عطف بعد ذلك بقوله سبحانه : ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنّه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ [النحل : ١٢٢] .

❁ **مظاهر الإمامة :**

١ – لإمامة إبراهيم – عليه السلام – الناس سمات ولها مظاهر ودلالات ، من ذلك انتمائه التام لدين اللّه ، وبُعده عن التحزُّب والطائفية ، قال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مُسلمًا وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران : ٦٧] ، يبرئ اللّه نبيه إبراهيم – عليه السلام – من الانتماء إلى طائفة اليهود أو طائفة النصارى بعد وقوعهم في الشرك باللّه ، ويعلن سبحانه تنزيه خليله عن ذلك ، ويثبتُ له الإسلام والتوحيد ، وذلك أن كل طائفة ادعت نسبتها إلى

إبراهيم – عليه السلام – ونسبة إبرهيم إليها بما هي عليه من باطل ، فأراد الله إحقاق الحق ، وإبطال الباطل بإثبات هذه البراءة لخليله إبرهيم – عليه السلام – ونفي انتمائه إلى أي الطائفتين ، وقد زعمت كل طائفة من الطائفتين أنها على الهدى دون غيرها ، ودَعَتْ الناس إلى ذلك : ﴿ وقالوا كانوا هُودًا أو نصارى تهتدوا .. ﴾ [البقرة : ١٣٥] ، هكذا زعم أهل الباطل ، فردَّ الله عليهم قولهم في الحال ، وأبطل زعمهم المحال ، فقال سبحانه : ﴿ .. قل بلْ ملَّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ﴾ [البقرة : ١٣٥] .

فملة إبراهيم هي التوحيد ودينه الإسلام ، وقد أعلن الله ذلك صراحة عن إبراهيم – عليه السلام –: ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لربِّ العالمين ۞ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة : ١٣١، ١٣٢] ، فإبراهيم – عليه السلام – كان مسلمًا ووصى بنيه جميعًا بالإسلام ، ومنهم يعقوب على وجه التخصيص ، ويعقوب عليه السلام حَفِظ وصيَّة أبيه إبراهيم – عليه السلام – فأقام الإسلام قولاً وعملاً ، ووصَّى كذلك أبناءه من بعده بالإسلام ، وفي تخصيص يعقوب – عليه السلام – بالذِّكرِ ردٌّ على طائفتي اليهود والنصارى ، وبيان انحرافهم عن منهج إبراهيم ويعقوب – عليهما السلام – ولذلك يوجِّه الله خطابه لرسوله محمدٍ – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين معه يدعوهم للإيمان بدين الأنبياء ، فيقول سبحانه لهم : ﴿ قولوا آمنَّا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيُّون من ربهم لا نفرِّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، ويحذِّر من دعاوى اليهود والنصارى الباطلة ، ويفْصِلُ القضيَّة بوضوح تام : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ [البقرة : ١٣٧] ، فأنت يا محمد ومن آمن معك على الحق الذي جاء به إبراهيم والنبيين من بعده ، فإن آمن اليهود والنصارى بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولُّوا عن ذلك السبيل وأصرُّوا على ما هم عليه من كفر وعناد فحسبك الله يكفيك شرَّهم وشرَّ كل كفارٍ عنيد .

٢– ومن مظاهر إمامة إبراهيم – عليه السلام – أن الله سبحانه بارك في نسله ، وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، وجعل من نَسْلِه أمَّتين عظيمتين : أمة بني إسرائيل ، وهم من نسل إسحاق ويعقوب ، وأمة العرب وهم من نسل إسماعيل – عليهما جميعا السلام .

٣– ومن مظاهر ذلك أن الله جعل ملته من أحسن الملل ، وجعَله قُدْوة تتبع ، واتخذه خليلاً : ﴿ ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملَّة إبراهيم حنيفًا واتخذ الله إبراهيم خليلاً ﴾ [النساء : ١٢٥] ، والخُلَّة منزلة عظيمة لم ينلها إلا إبراهيم – عليه السلام – ومحمد – صلى الله عليه وسلم – كما جاءت به الأحاديث الصحيحة ، ومنها ما رواه ابن مسعود – رضي الله عنه – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « أيها الناس .. إن الله اتخذني خليلاً » [« سنن ابن ماجه » (المقدمة)] .

٤- ومنها أن اللّه جعل له شرف رفع قواعد بيته الحرام بمكة المكرمة وهو أول بيت وضعه اللّه للناس في الأرض ، وجعل وراثة الدين إليه ببعثة خاتم النبيين محمد - صلى اللّه عليه وسلم - بين ظهرانيه .

٥- ومنها أن جعل اللّه مقامه عند بناء البيت مَنْسَكًا للناس إلى يوم الدين : ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ [البقرة : ١٢٥] ، ومناسكًا في الحج على هدي إبراهيم - عليه السلام .

٦- ومنها أنه - عليه السلام - أول من نادى في الناس بحج بيته الحرام بمكة المكرمة ، وقد شرّفه اللّه إذْ أمره بذلك : ﴿ وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ﴾ [الحج : ٢٧] ، فأسمع اللّه صوته أرجاء الأرض ، وأسمع مَن في الأرحام والأصلاب وأجابه كل شيء سمعه من حَجرٍ ومَدر وشجرٍ ، ومَنْ كَتَب اللّه له الحج إلى يوم القيامة .

٧- ومنها أن اللّه رفعَه بالعلم واليقين وقوة الحجة التي أذلّ بها خصومه المعاندين : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ [الأنعام : ٧٥] .

٨- ومنها أن اللّه بعثه وما على الأرض من مؤمن واحد إلا إبراهيم - عليه السلام - وقد آمنت به زوجه (سارة) ، وابن أخيه لوط - عليهما السلام - فأقام اللّه بإبراهيم - عليه السلام - حجته على العباد ، وهذا الذي ذكرناه يسير في بيان شَرَفِ إبراهيم - عليه السلام - ومنزلته العظيمة عند اللّه ، وينال هذا الشرف في الدنيا والآخرة أتباع إبراهيم - عليه السلام - الذين ساروا على مِلّته ، وانتهجوا طريقته لهم من الشرف بحسب إقتدائهم بأبيهم إبراهيم - عليه السلام - فمن أولى الناس اليوم بإبراهيم ؟ ومن أحق الناس فخرًا بشرف الانتساب إلى ملته ؟ يجيبنا على هذا التساؤل كتاب اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه القرآن الكريم ، فيقول تعالى : ﴿ إنّ أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا واللّه ولي المؤمنين ﴾ [آل عمران : ٦٨] ، هذه الآية الكريمة تَنُصُّ صراحة على أنّ أحق وأولى الناس انتسابًا إلى إبراهيم - عليه السلام - أَتْبَاعه الذين آمنوا به في حياته فيما مضى ، وهذا النبي أي محمد - صلى اللّه عليه وسلم - ومن آمن به فدينه هو ملة إبرهيم ، وقد جاء النص صريحًا في ذلك : ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينًا قيمًا ملّة إبراهيم حنيفًا .. ﴾ [الأنعام : ١٦١] ، بل جاءت الإشارة إلى شرف هذه الأمة بانتسابها إلى ملّة إبراهيم في قوله تعالى : ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدًا عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ [الحج : ٧٨] ، تأمّل هذا الشرف الذي نالته هذه الأمة بانتسابها إلى ملة إبرهم - عليه السلام - ثم بشهادتها على جميع الأمم ، ثم بشهادة رسولها محمد - صلى اللّه عليه وسلم - على الجميع .

اللهم حقق في هذه الأمّة ما اجتبيتها له بصدق انتسابها إلى ملة إبراهيم قولاً وعملاً وأخلاقًا ، إنك نعم المولى ونعم النصير ، وللحديث بقية إن شاء اللّه .

حوار بعد صلاة الفجر

فضيلة الشيخ : عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

فهذا حوار دار بيني ، وبين أحد المصلين بعد الفجر في يوم ما في مطلع العام الهجري السابع عشر وأربعمائة وألف .

خرجنا من المسجد بعد الصلاة فقابلني بالسلام والابتسامة العريضة ، ثم قال : لقد أطال الإمام اليوم في الصلاة ، قلت : كيف ؟ قال : لقد قرأ بسورة طويلة ، قلت : لقد قرأ بسورة « القلم » ، وقسمها على الركعتين ، وأعتقد أنَّ هذا ليس تطويلاً في الفجر ، لأن السُّنة إطالة القراءة في صلاة الفجر لقوله تعالى : ﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] ، وكان من هدي النبي صلى اللّه عليه وسلم أن يطيل القراءة في الفجر ، وكذلك فعل الصحابة – رضوان اللّه عليهم – من بعد النبي صلى اللّه عليه وسلم .

● **قال** : لقد قال الرسول صلى اللّه عليه وسلم : « من أمَّ فليخفف » ، قلت : نعم ، هذا حق ، لكنَّ الإمام اليوم لم يخالف السُّنة ، ولم يطل حتى تقول له ذلك ، بل ربما كانت صلاته قصدًا – أي : قصيرة – وحتى نكون منصفين : فكما حفظنا حديث : « من أمَّ فليخفف » ، يجب علينا كذلك أن نحفظ حديث : « صلوا كما رأيتموني أصلي » ، ونتعرف على صلاة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، ونتأسى به وبأصحابه الكرام ، قال : هذا كان زمان !! الناس اليوم مشغولة ، وقد أصابتها الأمراض : السكر ، الضغط ... وانتهى الحوار ، وانصرف الرجل .

- كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر بـ: ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ وكانت صلاته بعد تخفيفًا.

- لم يرد أنه ﷺ خفف قراءة الفجر عن ﴿ ق ﴾، أما ما ورد عن قراءته ﷺ من قصار المفصَّل مثل الشمس والزلزلة وغيرهما فهذا كان في سفر.

● **قلت في نفسي:** لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد صار الدين بين أهله غريبًا، وكأن ما كان بالأمس دينا أصبح اليوم لا يصلح دينا في نظر كثير من الناس، وهذه لعمر الحق لإحدى الكبر، لقد تغيرت نفوس الناس فغيَّر الله أحوالهم، وظهر فيهم من الفتن والأمراض ما لم يكن في أسلافهم، ومن أعجب الأمور أن كل واحد يريد أن يُفسِّر الدين على هواه، ويأخذ ما يتفق مع هواه هو، ولو كان غير الحق، ويترك ما دونه ولو كان هو الحق.

وسبب ذلك ضعف العلم، ونقصان اليقين في الله رب العالمين، ولقد مكثت أفكّر في هذا الأمر مليًّا، فإنه مما لا شك فيه أن مثل هذا الحوار يحدث بين كثير من الناس، فما من إمام يصلي بالناس، إلا ويكون خلفه من المأمومين من يرى أنه قد أطال، ومنهم من يرى أنه قد قصَّر، فما الضابط في ذلك كله؟ وهل الأمور متروكة لأهواء الناس؟ أخطأوا أم أصابوا؟

لا شك أن هناك ضوابط شرعية علينا جميعًا الرجوع إليها بنفس راضية، ورغبة صادقة عند التنازع في أمر ما، كما علّمنا ربنا وأرشدنا إلى ذلك في كتابه الكريم، فقال سبحانه: ﴿.. فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]، فالردُّ إلى الله أي إلى كتابه، والرد إلى الرسول أي إلى سنته صلى الله عليه وسلم.

● قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره هذه الآية:

(وهذا أمر من الله عز وجل بأن يرد كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى كتاب الله وسنة رسوله، هذا هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال). أهـ.

فإذا كان الله سبحانه قد أمرنا أن نردَّ كل شيء نتنازع فيه إلى كتاب الله وسنة رسوله صغر هذا الشيء أم كبر دق أم جلَّ.

ألا يكون الردُّ في باب الصلاة من باب أولى ، وهي عمود الإسلام ورأس العبادات ؟

● يقول ابن القيم رحمه اللّه في كتابه « الصلاة » :

(وحاجة الناس إلى معرفة مقدار صلاة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب) . أهـ .

وقد ضيعها الناس من عهد أنس رضي اللّه عنه ، ففي « صحيح البخاري » من حديث الزهري قال : (دخل عليَّ أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي ، فقلت : ما يبكيك ؟ فقال : لا أعرف شيئًا مما أدركتُ إلا هذه الصلاة ، وهذه الصلاة قد ضُيعت) ، فهذا أنس بن مالك رضي اللّه عنه صاحب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يرى أن أحوال الناس عامة قد تغيرت كثيرًا عما كانت عليه في زمن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى لا يكاد يعرف منها إلا الصلاة ، وحتى الصلاة قد ضيّعها الناس ، وقد غيروا في هيئاتها وأركانها عما كان في صدر الإسلام الأول زمن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مع قرب الفارق الزمني – آنذاك – فكيف لو رأى أنس رضي اللّه عنه أحوال الناس اليوم ؟ ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

● والحقيقة التي ينبغي أن تُعلم أن أمر الصلاة عظيم فهو أمر هذا الدين ، وأن الأمر فيها – والحمد للّه – واضح ليس متروكًا لطائفة دون طائفة ، ولا لأهل مذهب دون مذهب ، ولا إلى شهوة المأمومين ورضاهم ، ولا إلى اجتهاد الأئمة الذين يصلون بالناس ورأيهم في ذلك ، فإن هذا لا ينضبط ، وتضطرب فيه الآراء والإرادات أعظم اضطراب ، ويفسد وضع الصلاة ، ويصير مقدارها تبعًا لشهوة الناس ، ومثل هذا لا تأتي به شريعة ، بل المرجع في ذلك والتحاكم إلى ما كان يفعله ، من شرَّع الصلاة لهذه الأمة ، وجاءهم بها من عند اللّه ، وعلَّمهم حقوقها ، وهيأتها وأركانها ، وكان يصلي وراءه الكبير والصغير والمريض ، والمعافى وذو الحاجة ، ولم يكن بالمدينة إمام غيره[1] صلوات ربي وسلامه عليه .

ولا شك أن النبي صلى اللّه عليه وسلم الذي أمر بالتخفيف هو الذي بيَّن ذلك التخفيف في سنته العملية المنقولة عنه بالتواتر ، والحمد للّه .

● قال فضيلة الشيخ محمد بن عثيمين – حفظه اللّه – في شرحه لـ « رياض الصالحين » الجزء السابع :

(لا شك أن التطويل المنهي عنه في الأحاديث هو ما خالف السُّنة ، أما صلاة الإمام بالناس بحسب ما جاء في السُّنة ، فليفعل غضب من غضب ، ورضي من رضي ، والذي لا ترضيه السُّنة فلا أرضاه اللّه ، السُّنة تتبع ولكن ما زاد عنها فلا) ، ثم يقسم – حفظه اللّه – الأئمة إلى ثلاثة أقسام : مبالغ في التطويل ، ومبالغ في التقصير ، ومعتدل ، وهو الذي اجتهد في موافقة السُّنة .

والسؤال الآن : ما مقدار صلاة رسول اللّه في الفجر ؟

● والحمد للّه الإجابة على هذا التساؤل مبسوطة في كتب الفقه ، ونورد هنا إجابة مختصرة إتمامًا للفائدة ، ففي الحديث المتفق على صحته

(١) يعني : في الاقتداء والرجوع عند التنازع

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي الصبح ، فينصرف الرجل فيعرف جليه - يعني ظَهَر النّهار - وكان يقرأ في الركعتين أو إحداهما ما بين الستين إلى المائة) .

وفي " صحيح مسلم " عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه قال : (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح بمكة ، فاستفتح سورة المؤمنون ، حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون أو ذكر عيسى أخذته سعلة فركع) . أي حوالي خمسين آية في ركعة واحدة .

وفي " صحيح مسلم " عن جابر بن سمرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الفجر بـ : ﴿ ق وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴾ [ق : ١] ، وكانت صلاته بعد تخفيفًا .

● ويعلق ابن القيم - رحمه الله - على ذلك قائلاً : (ولم يرد أنه صلى الله عليه وسلم خفف قراءة الفجر عن ﴿ ق ﴾) .

أما ما ورد في قراءته صلى الله عليه وسلم من قصار المفصّل مثل : (الشمس ، والزلزلة) وغيرها فهذا كان في سفر ، وأحكام السفر لا تؤخذ على المقيم في الحضر ، ويؤكد ابن القيم - رحمه الله - صحة ما ذهب إليه بفعل الخلفاء الراشدين أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي رضي الله عنهم جميعًا ، وإذا أردنا أن نورد أمثلة من فعل الصحابة فقد يطول بنا الحديث ، والمقصود أن هذا فعل الرسول وأصحابه الأبرار لمن أراد أن يتأسى ، ولا يقال : (هذا كان زمان) ، لأن هذه العبارة تفتح علينا أبوابًا من الشرّ لا تنغلق ، وهذا المدخل هو الذي يدخل منه الشيوعيون والعلمانيون وجميع أعداء الدين لردّ أحكام الدين ، وهم في قرارة أنفسهم يعتقدون أن الدين بأسْره من مخلفات القرون الأولى ، وأنه لا مكان له في عصر الحضارة والتقدم ، وقد بدى ذلك فعلاً من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر ، ونحن نقول : ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴾ [الكهف : ٥] ، لكن المشكلة أن كثيرًا من عوام الناس ينخدعون وراء هذا السراب ، ويردّدون ذات العبارات ، ويحسبونها هينة ، وهي عند الله عظيمة .

فالدين الذي صلح عليه أوّل هذه الأمة هو الذي يصلح عليه آخرها ، ولا سبيل غير ذلك ، وإن كان شيء قد تغير فهو في نفوس الناس اليوم ، وما أصابها من ضعف وما أحاط بها من ملهيات حتى أُشرِبَ الباطل في قلوبهم ، وظنوا أنه الحق ، ولقد فعل بنو إسرائيل مثل ذلك من قبل ، فمسخهم الله قردة وخنازير .

● فاللهم رحمتك نرجو ، فلا تكلنا لأنفسنا طرفة عين ، ولا أقل منها ، اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، ولا تجعله ملتبسًا علينا فنضل .

وصلّ اللهم وسلم على نبيك محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وقفات مع القصة في كتاب الله

دورس وعبر من قصة إبراهيم عليه السلام

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على جميع رسل الله ، وعلى خاتمهم محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه ، وبعد .. فلقد تكلمنا في أعداد سابقة عن إمامة إبراهيم - عليه السلام - وفي هذا العدد نتكلم - إن شاء الله - عن مناظرته مع قومه .

فقد ألهم الله إبراهيم - عليه السلام - رشده وآتاه الحكمة وفَصْلَ الخطاب ، ورزقه من العلم والبيان ما أقام به الحجة الدامغة على قومه من عَبَدةِ الأوثان ، وعلى عَبدةِ النجوم والكواكب من أهل حِرَان ، وأفحمَ بها الطاغية المعاند (النمرود بن كنعان) .

ولقد كان للمناظرة في دعوة إبراهيم - عليه السلام - دور كبير أظهر الله به الحق وأبطل الباطل ، نقف معها وقفات ثلاث :

الأولى : مناظرة إبراهيم - عليه السلام - لأبيه وقومه من عبَّاد الأصنام :

﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ [الأنبياء : ٥٢] .

يخاطب إبراهيم - عليه السلام - أباه وقومه متسائلاً مستنكرًا عليهم ما هم فيه من عكوف وعبادة لتلك الأصنام التي لا تنفع ، ولا تضر ، ولا تسمع ، ولا تبصر ، مستهزءًا بهذه الآلهة المزعومة التي عبدها قومه من دون الله .

ولم يكن لقومه جواب إلاَّ قولهم : ﴿ .. وجدنا ءاباءنا لها عابدين ﴾ [الأنبياء : ٥٣] ، ولا شك أن هذا جواب يدلُّ على فقدانهم الحجة ، ووقوعهم أسرى للتقليد الأعمى الذي وقع فيه عامة المشركين من قبل ومن بعد .

وعندما كاد إبراهيم - عليه السلام - لأصنامهم وحطَّمها إلاَّ كبيرًا لهم ، وجاء القوم وقد فزعوا من هَوْل ما شاهدوا أصنامهم وما

﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه..﴾

الشيخ / عبد الرازق السيد إبراهيم عيد

أصابها من تحطيم، وتوجهوا بالسؤال لإبراهيم – عليه السلام –: ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم﴾ [الأنبياء : ٦٢] ؟! فأجابهم إجابة المتهكم عليهم الذي يريد إقامة الحجة عليهم من أنفسهم : ﴿قال بل فعله كبيرهم هذا فسئلوهم إن كانوا ينطقون﴾ [الأنبياء : ٦٣]، والكلام هنا من إبراهيم – عليه السلام – خرج مخرج التعريض بالقوم، ومن باب فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من نفسه، فإنه أقطع للشبهة وأقرب للحجة، ومن هنا وقع القوم في حيرة من أمرهم، واعترفوا بعجز أصنامهم، ولكنهم رغم وضوح الحجة وبيان الحق انتكسوا؛ فانقلبوا من الإذغان إلى المكابرة والطغيان.

﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ ثم نُكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ [الأنبياء : ٦٤، ٦٥].

وهكذا بعد أن كان بينهم وبين الحق قاب قوسين أو أدنى، أضلهم الشيطان ضلالاً بعيدًا، لكنهم مع ذلك اعترفوا بعجز آلهتهم المزعومة، فقالوا : ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ [الأنبياء : ٦٥]، ومن هنا عاجلهم إبراهيم – عليه السلام – بحجته البالغة : ﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم ۞ أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون﴾ [الأنبياء : ٦٦، ٦٧].

أين عقولكم يا قوم؟ وكيف تعبدون من دون الله هذه الأصنام العاجزة الضعيفة عن حماية نفسها فضلاً عن غيرها، إن هذا الأمر يدعو إلى الضجر.

وهكذا أقام إبراهيم – عليه السلام – الحجة على قومه، لكن هيهات هيهات، إنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

ثانيًا : مناظرته لأهل حِرَان عبدة النجوم والكواكب :

قال تعالى : ﴿فلما جَنَّ عليه الَّيل رأى كوكبًا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين﴾ [الأنعام : ٧٦].

وهكذا بعد أن ناظر إبراهيم – عليه السلام – أهل بابل عبدة الأصنام، فهو هنا في آيات سورة الأنعام يناظر أهل حِرَان عبدة النجوم

والكواكب ، فأخذ يتدرج معهم في الأدلة ؛ دليل تلو دليل ، وهو في كل ذلك يقول الشيء الذي لا يعتقده ليقيم الحجة على خصمه ويلزمه بها ، فهو ليس مقام نظر كما ذكر بعض المفسرين ، لكنه مقام مناظرة ، كما ذهب إلى ذلك جمهور المفسرين ، ومنهم القرطبي ، وابن كثير ، والرازي ، والزمخشري ، وأبو السعود .

وهكذا تدرج إبراهيم – عليه السلام – مع القوم ، فذكر الكوكب ، ثم القمر ، ثم الشمس .

قال ابن كثير – رحمه الله –: (والحق أن إبراهيم – عليه السلام – كان في هذا المقام مناظرًا لقومه مبينًا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الكواكب السيارة ، وأشدُّهن إضاءة الشمس ، ثم القمر ، ثم الزهرة ، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع تبرأ منها ، والحقُّ أنَّ إبراهيم – عليه السلام – لم يعتقد يومًا في ألوهية الكواكب ، ولكنه كان يتدرَّج مع قومه في الدليل – كما ذكرْنا آنفًا – فقد آتاه الله رشده من قبل ، فهو بريء من عبادة تلك النجوم ، أو اعتقاد ربوبيتها لحظة واحدة ، وهو هنا يؤكد هذا الاعتقاد : ﴿ .. قال يا قوم إني بريء مما تشركون ۞ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين ﴾ [الأنعام : ٧٨، ٧٩] ، بهذه الحُجة الدامغة نَدَّدَ إبراهيم –عليه السلام – بآلهة القوم المزعومة ، وأعلن بعد ذلك براءته منها ، ووجه وجهه لله الذي فطر السموات والأرض ، مائلاً عن كل ما يُعبد من دونه ، ولمَّا كان القوم أهل خصام ومجادلة لم يسلّموا للحق وظلُّوا على جدالهم وعنادهم ، بل ربما هدَّدوا إبراهيم – عليه السلام – وخوفوه آلهتهم ، لكن إبراهيم – عليه السلام – بما علَّمه اللهُ ، يلقنهم الحجة تلو الحجة ، فلننظر فيما يأتي إلى حجة إبراهيم – عليه السلام – على قومه)[1] .

﴿ قال أتحاجُّونِّي في الله وقد هدان ولا أخاف ما تُشركون به إلاَّ أن يشاء ربِّي شيئًا وسع ربِّي كلَّ شيء علمًا أفلا تتذكرون ۞ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ۞ الذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مُهتدون ۞ وتلك حُجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجاتٍ من نشاءُ إن ربَّك حكيمٌ عليمٌ ﴾ [الأنعام : ٨٠–٨٣] .

وهنا كملت حجة إبراهيم – عليه السلام – على قومه ، حيث أنكر واستنكر خوفه من آلهتهم المزعومة ؛ حسب زعمهم هم ؛ لأن تلك الآلهة لا تملك نفعًا ولا ضرًّا ، ولا تملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا ، ولا تسمع ولا تبصر ، فهي لا تعْلَم ولا تقْدرُ ، لكن الذي أحاط بكل شيء علمًا وقُدْرة هو أهل لأن يخاف ويُرجى ، وهو الله سبحانه وتعالى ، ثم يستفْسر متعجبًا من أمر هؤلاء القوم الذين لا يعقلون ، ولم يقدِّروا الله حق قدره ، فأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا ، ولم يخافوا بطشه وسلطانه لجهلهم به سبحانه ، ثم يواصل إبراهيم – عليه السلام – طرح الأدلة الدامغة ، فيسأل: أيُّنا أحق بالأمن أنا أم أنتم ؟ ويجيب : ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون ﴾ [الأنعام : ٨٢] .

هذه قاعدة جليلة وضع أصولها وقَعَّدَ لها إمامُ الحنفاء وأبو الأنبياء ، فمصْدَر الأمن والهداية لكل

---

[1] ((تفسير ابن كثير)) ، الجزء الثاني .

جيل على مر التاريخ هو التوحيد ، لأن الظُلْم المقصود في كلام إبراهيم – عليه السلام – هو الشرك كما فسَّره النبي – صلى اللّه عليه وسلم – فيما صح عنه حين سأله أصحابه – رضي اللّه عنهم – فقالوا : وأيُّنا لم يظلم نفسه ؟ فقال : « ليس كما تظنون ، وإنما هو كما قال لقمان لابنه : ﴿يا بني لا تُشرك باللّه إن الشرك لظُلمٌ عظيمٌ﴾ [لقمان : ١٣] » .

فالإيمان الذي لم تشوبه شائبة شِرْكٍ ، وإخلاص التوحيد للّه رب العالمين هو أصل كل خير ، ومصدر كل أمن .

هكذا ألهم اللّه سبحانه إبراهيم – عليه السلام – الحجة التي أرغم بها أنوف القوم ، وهذا فضل اللّه يؤتيه من يشاء بعلمه وحكمته سبحانه .

ثالثًا : مناظرة إبراهيم – عليه السلام – للنمرود بن كنعان :

﴿ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن ءاتاه اللّه الملك .. ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

وهذا استفهام فيه تعجب من هذا الطاغية الذي اغتر بما أعطاه اللّه من مُلْك ، فأخذته العزة بالإثم وأنكر وجود اللّه ، ويبدو أنه قد حمله على ذلك سعة ملكه وطول مدته .

فأمَّا سعة الملك فقد كان يحكم الدنيا من مشرقها إلى مغربها في زمانه ، قال مجاهد : (ملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان : « سليمان بن داود » ، و« ذو القرنين » ، والكافران : « النمرود » ، و« بختنصر » .

وأما طول المدة فقيل : إنه حكم أربعمائة سنة ، وهكذا عمر هذا المغرور نفسه إلهًا ، وأعماه الطغيان عن رؤية حقيقة نفسه وحقارتها مهما بلغ ملكه ، ولذلك سلط اللّه عليه بعد ذلك ذبابة دخلت في أنفه فأرغمته التراب ، وهلك شر هلكة في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، (قيل : إن النمرود لم يكن يستريح إلاَّ بالضرب على رأسه) .

﴿ إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، فلما رأى إبراهيم – عليه السلام – تجاهل الطاغية معنى الحياة والموت وانتحاله ما ليس من صفاته وتلبيسه على عوام الناس بالجدل الباطل ، لما رأى إبراهيم – عليه السلام – منه هذا التمرد ، سلك مسلكًا آخر أراد به إفحام خصمه ، وقد كان بفضل اللّه : ﴿ قال إن اللّه يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

وهكذا أفحم إبراهيم – عليه السلام – هذا الطاغية ، وأسكته إلى الأبد ، حيث قال له : إن كنت تدعي لنفسك صفات الربوبية لن نناقشك في ذلك ، لكن من صفات رب العالمين أنه يأتي بالشمس من المشرق في الصباح كل يوم ، فأت بها أنت من المغرب منازعًا للّه في ملكه كما تدعي ، فأصعقت هذه الحجة الطاغية ، وأخرسته عن الجواب ، وقد عبر القرآن عن هذه الحالة بقوله البليغ : ﴿ فبهت الذي كفر واللّه لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [البقرة : ٢٥٨] أي : سكت مَشْدُوهًا وحار في الجواب ، وهكذا يُلهم اللّه أولياءه حجتهم على أعدائهم ، ويمنع هذه الحجة أعداءه الظالمين ، وصدق اللّه : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيمٌ عليمٌ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

والحمد للّه رب العالمين ، وللحديث بقية إن شاء اللّه رب العالمين .

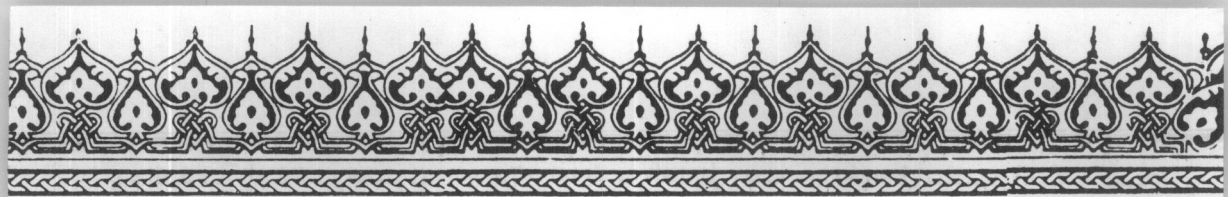

قصة إبراهيم عليه السلام

أدب الدعاء في سيرة إبراهيم عليه السلام

فضيلة الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الأمين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين ، أما بعد ..

فقد تحدثنا في لقاءات سابقة عن دروس مستفادة من سيرة إبراهيم - عليه السلام - تعلمناها من أدبه في دعوته وفي مناظرته لقومه وطاعته ربَّه ، واستسلامه لأمره ، وفي هذا العدد - بعون الله - نتعلم دروسًا جديدة نافعة من دعوات إبراهيم - عليه السلام - الجامعة .

ومما لا شك فيه أن للدعاء مكانة عظيمة في سيرة إبراهيم - عليه السلام - وكيف لا ، والدعاء هو العبادة ، والعبادة مدارها على التوحيد ، وإبراهيم إمام الحنفاء ، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

والدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض ، كما جاء في ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وأخرجه الحاكم في « صحيحه »[1] .

وإذا كان كذلك فحَرِيٌّ بإبراهيم - عليه السلام - وهو يواجه الدنيا وحده أن يتسلح بسلاح الدعاء ، وأن يدعو الله بدعوات يتوسَّل فيها بأسماء الله وصفاته ، يرجو رحمته ، ويخشى عذابه ، ويسأله صلاح الدنيا والآخرة ، فإنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير .

ونبدأ مستعينين بالله في تأمل دعوات إبراهيم - عليه السلام - حسب ترتيب ورودها

(١) قال الألباني في (ضعيف الجامع) : موضوع ، (٣٠٠١) .

في كتاب الله عز وجل .

● { وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهلهُ من الثَّمرات .. } [البقرة : ١٢٦] .

● { وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربَّنا تقبَّل منَّا إنَّك أنت السميع العليم ۞ ربَّنا واجعلنا مُسلِمَين لك ومن ذُريَّتنا أُمةً مُسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنَّك أنت التَّوابُ الرَّحيمُ ۞ ربَّنا وابعث فيهم رسُولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمُهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم } [البقرة : ١٢٧- ١٢٩] .

وإذا تأمَّلنا الآيات السابقة نلاحظ ما يلي :

● إكرام الله لإبراهيم - عليه السلام - وولده إسماعيل - عليه السلام - حيث امتنَّ الله عليهما بشرَف رفع القواعد من البيت الحرام في مكة المكرمة .

● دعاء إبراهيم - عليه السلام - لمكة بالأمن والاستقرار ، ولأهله بالرزق ، وقد استجاب الله لإبراهيم - عليه السلام - وما زال البيت الحرام بمكة يتمتع بالأمن والأمان إلى يومنا هذا ، وما زال أهله تُجبى إليهم ثمرات كل شيء بإذن ربهم ، وسيظل ذلك مستمرًا إلى أن يشاء الله كرامة لخليله إبراهيم - عليه السلام - وقد بارك الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في المدينة كما بارك لإبراهيم - عليه السلام - في مكة ، فعمَّت البركة الحجاز وما جاوره ، والحمد لله رب العالمين.

● يتوسَّل إبراهيم - عليه السلام - بعمله الصالح حين يرفع القواعد من البيت ، وكذلك يتوسَّل بأسماء الله وصفاته في الجمل الآتية :

{ إنك أنت السميع العليم } [البقرة : ١٢٧] ، { إنك أنت التواب الرحيم } [البقرة : ١٢٨] ، { إنك أنت العزيز الحكيم } [البقرة : ١٢٩] ، وهذا من التوسُّل المشروع .

● في قوله : { ربَّنا تقبل منا .. } [البقرة : ١٢٧] جمع بين حُسْن عَمل وسوء ظنٍّ بنفسه ، وهذا دأْبُ المحسنين الذين جمعوا بين مطالعة المنَّة ومشاهدة عيب النفس والعمل ، فهم يعملون الأعمال الصالحة ويخشون ألا تقبل منهم ، فيضرعون إلى ربهم كي يتقبل منهم .

● في قوله : { ربَّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك .. } [البقرة : ١٢٨] دليل على أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعًا ، وأنه الدين الذي لا يقبل الله من أحد سواه ، وبيان كذب أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وكذلك مشركي العرب في انتسابهم إلى إبراهيم - عليه السلام - وهو منهم بَراءٌ ، وفيها دليل على كرم أخلاق إبراهيم - عليه السلام - وحرصه على ذريته ،

حيث طلب الخير لـه ولذريته من بعده بالاستسلام لأوامر اللّه الشرعية والقدرية .

● في قوله : { .. وأرنَا مَنَاسِكَنَا وتُبْ عَلَيْنَا .. } [البقرة : ١٢٨] ، اعتراف بفضل اللّه ورحمته في هداية خلقه إلى الصراط المستقيم ، وأنه لا يُعبَدُ اللّه إلا بما شرع سبحانه على لسان رسُلِه ، واعتراف بعيب النفس والعمل ، وبيان فضل التوبة وشرفها .

● في قوله : { .. وابْعَثْ فيهمْ رسُولاً مِّنهُم يتلواْ عليهم آياتِكَ ويُعلِّمُهُمُ الكتاب والحكمةَ ويُزكِّيهِم .. } [البقرة : ١٢٩] .

فيها دليل على حرص إبراهيم – عليه السلام – على هداية أُمَّته من بعده واستمرار الهداية فيهم بإرسال الرسل إليهم ، وأنه لا طريق للهداية والرشاد إلا عن طريق الرسل المبعوثين من اللّه بالبينات والهدى .

● وفيها كذلك بيان وسائل الهداية والتزكية وهو العلم بكتاب اللّه وسنة رسوله ، والعمل بذلك بجد وإخلاص .

● والذي تجدر الإشارة إليه في هذا المقام أن دعوة إبراهيم – عليه السلام – لأهل الحرم المكي أن يبعث فيهم رسولاً منهم أي من ذرية إبراهيم – عليه السلام – قد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر اللّه السابق في تعيين محمد ، صلوات اللّه وسلامه عليه ، رسولاً في الأُمِّيين (العرب) والعجم ، كذلك من الإنس والجن : { وما أرسلناك إلاَّ كافة للناس بشيرًا ونذيرًا ولكن أكثر الناس لا يعلمون } [سبا : ٢٨] ، أي : وما أرسلناك يا محمد إلا للناس كافة : عربهم ، وعجمهم ، إنسهم وجنهم : { بشيرًا ونذيرًا فأعرض أكثرهم } [فصلت : ٤] ، فالرسول المقصود في دعوة إبراهيم – عليه السلام – هو محمد صلى اللّه عليه وسلم .

أخرج الإمام أحمد في « مسنده » من حديث العرباض بن سارية قال : قال صلى اللّه عليه وسلم : « إني عند اللّه لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك : دعوة إبراهيم ، وبشارة أخي عيسى بي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْنَ »[٢] .

وفي هذا الحديث إشارة إلى علم اللّه السابق لكل شيء ، ولا يفهمنَّ البعض أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم كان مخلوقًا قبل خلق آدم – عليه السلام – لا بل كان في علم اللّه أنه رسول كما أمر اللّه القلم أن يكتب ما هو صائر إلى يوم القيامة .

[٢] قال الألباني في (ضعيف الجامع) : ضعيف، (٢٠٩١) .

والأمور كلها مقدَّرة في علم اللّه قبل خلقها ويبديها اللّه سبحانه في حينها ، ولذلك قال العلماء في تفسير قوله تعالى : { يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن } [الرحمن : ٢٩] ، قالوا : (هي شئون يبديها ولا يبتديها) أي يظهرها اللّه إلى الوجود في توقيتها الذي اختاره سبحانه بعد أن كانت مقدَّرة في علمه أزلاً ، والمقصود أن محمدًا صلى اللّه عليه وسلم هو خاتم النبيين ، وهو دعوة إبراهيم - عليه السلام - وبشرى أخيه عيسى - عليه السلام - فمن آمن بمحمد صلى اللّه عليه وسلم نبيًّا ورسولاً واتبعه ومات على ذلك دخل الجنة بسلام ، ومن كفر به كائنًا من كان فقد أبى دخول الجنة ، وقد قال صلى اللّه عليه وسلم فيما رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضي اللّه عنه : « من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى » أي أبى دخول الجنة ، فليس له إلا النّار .

فالحمد للّه الذي رضى لنا الإسلام دينًا كما رضيه لأنبيائه ورسله ، بدءًا بنوح - عليه السلام - ومرورًا بإبراهيم وموسى وعيسى ، وختامًا بمحمد صلوات اللّه عليهم جميعًا .

فاللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير ، والموت راحة لنا من كل شر .

وصلّ اللهم على محمد وعلى آله وصحبه ، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد .

وكتبه / عبد الرازق السيد عيد

* * *

مجلة الجندي المسلم

صدر أخيرًا العدد (٨٤) من مجلة « الجندي المسلم » وهو عدد خاص بمناسبة مرور ٢٥ عامًا على صدورها ، ومجلة الجندي المسلم التي تصدرها إدارة الشئون الدينية في وزارة الدفاع والطيران السعودية تعتبر بفضل اللّه منبرًا حديثًا من منابر الدعوة إلى اللّه على بصيرة ، وتسعى لتكون لسانًا ناطقًا لأهل السُّنة والجماعة على هدي سلفنا الصالح .

وأسرة تحرير مجلة التوحيد تتمنى للزميلة « الجندي المسلم » والقائمين عليها دوام التوفيق ومزيدًا من العطاء ، واللّه هو الموفق .

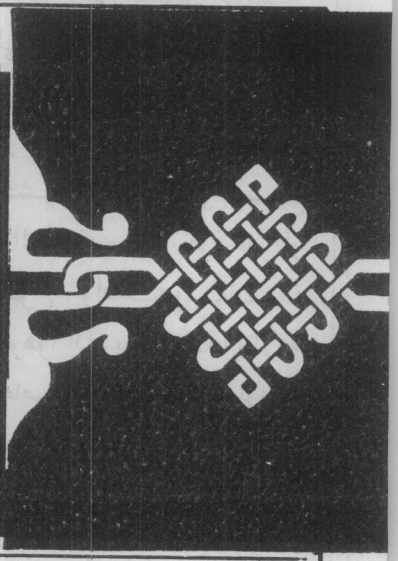

وقفات مع القصة في كتاب الله

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وصلاة وسلاما على نبيه المصطفى ، ورسوله المجتبى ، محمد بن عبد الله ، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين . أما بعد ..

فنواصل بعون الله الوقوف على دروس مستفادة من سيرة إبراهيم - عليه السلام - في الدعاء ، ونسأل الله أن يجعلها دروسا نافعة من دعواته - عليه السلام - الجامعة التي جمعت بين خيري الدنيا والآخرة .

{ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ۞ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ۞ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ۞ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ۞ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ۞ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء ۞ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب } الآيات [إبراهيم : ٣٥-٤١] .

تحدثنا في اللقاء السابق عن بعض الفوائد من دعاء إبراهيم - عليه السلام - في سورة البقرة ، والآن نتحدث عن دعائه - عليه السلام - في سورة « إبراهيم » ، نتأمل ما جد من فوائد هنا ، ونربط بينهما وبين ما ذكرنا هنالك .

أدب الدعاء في سيرة إبراهيم عليه السلام [٢]

فضيلة الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

✸ في قوله تعالى : { وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام } [إبراهيم : ٣٥] .

جمع إبراهيم – عليه السلام – بين دعائه لمكة بالأمن ، وبين الوقاية من الشرك ، فجمع بذلك بين طلب الأمن ، وبين أهم أسبابه ، وإبراهيم – عليه السلام – هو القائل في موضع آخر : { .. الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون } [الأنعام : ٨٢] .

فالتوحيد مصدر الأمن ؛ لذا ناسب المقام أن يدعو إبراهيم – عليه السلام – ربه أن يجنبه الشرك ؛ وهو عبادة الأصنام ، بعد أن دعا ربه بالأمن ، لما بينهما من العلاقة الوثيقة ، فتدبر ذلك ، والله المستعان .

✸ كما في قوله : { وإذ قال إبراهيم .. } [إبراهيم : ٣٥] دليل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأن المعنى : واذكر يا محمد إذ قال إبراهيم ، فالوحي هو الذي يقصُّ على محمد – صلى الله عليه وسلم – من أخبار المرسلين الذين أرسلهم رب العالمين ، ومنهم إبراهيم إمام الحنفاء ، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

فأنَّى لمحمد ذلك إن لم يكن من عند الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

✸ وفيها كذلك خوف إبراهيم – عليه السلام – على نفسه وعلى ذريته الشرك وسؤاله ربه النجاة منه ، ونجاة ذريته من بعده .

✸ في قوله : { .. فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفورٌ رحيمٌ } [إبراهيم : ٣٦] ، إشارة إلى أن علاقة الإيمان والتوحيد أقوى من علاقة النسب ، وفيه كذلك دليل على سعة حلم إبراهيم ، وقد سبق أن وصفه ربه بأنه أواه حليم ، فقد ترك أمر العصاة إلى الله كما قال عيسى – عليه السلام –: { إن تعذبهم فإنهم

عبادُك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم } [المائدة : ١١٨] ، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللهم أمتي ، اللهم أمتي ، اللهم أمتي » ، وبكى ، فعل ذلك عند تلا قول إبراهيم – عليه السلام –: { رب إنهن أضللن كثيرًا من الناس } [إبراهيم : ٣٦] أي الأصنام وعبادتها ، ذكره ابن كثير في « تفسيره » .

✱ في قوله : { ربنا إني أسكنتُ من ذُريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرَّم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدةً من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون } [إبراهيم : ٣٧] .

توسَّل إبراهيم – عليه السلام – بالحال التي ترك عليها ابنه إسماعيل وأمَّه هاجر – عليهما السلام – فقد تركهما بواد غير ذي زرع عند بيته الحرام في مكة المكرمة ، وتوسل كذلك بالسبب المشروع الذي تركهما من أجله ؛ وهو إقامة شعائر الإسلام ، وخصَّ الصلاة بالذكر لأهميتها ومكانتها الرفيعة من الدِّين ، ثم شرع في السؤال ، فطلب من الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ؛ ليكونوا لهم عونًا على طاعة الله ، وأن يرزقهم من الثمرات ليستعينوا بها على الشكر .

نقل ابن كثير ، رحمه الله ، عن ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم أنه لو قال : أفئدة الناس لازدحم عليهم الروم وفارس واليهود والنصارى وجميع الناس ، ولكنه قال : { من الناس } [إبراهيم : ٣٧] ، وفي ذلك تخصيص للمسلمين منهم .

وفيها أيضًا أن النعم واجبها الشكر ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه .

وفيها كذلك امتثال إبراهيم – عليه السلام – لأمر الله بترك ولده وأمه في هذا المكان القفر الموحش ، ومع امتثال إبراهيم– عليه السلام – للقدر لم يهمل الأخذ بالأسباب ، ومن أقوى الأسباب هذا الدعاء الذي توجه به إلى ربه ، وهنا أنقل كلامًا مفيدًا للإمام القرطبي رحمه الله قال : (لا يجوز لأحد أن يتعلق بهذا في طرح ولده وعياله بأرض مضيَّعة اتكالاً على العزيز الرحيم ، واقتداءً بفعل إبراهيم الخليل – عليه السلام – كما تقوله الصوفية في حقيقة التوكل ، فإن إبراهيم – عليه السلام – فعل ذلك بوحي من الله ..) .

ونحن نقول : نعم فعل إبراهيم – عليه السلام – ذلك بوحي من الله ، ومع ذلك فقد ألحَّ إبراهيم – عليه السلام – على ربِّه في الدعاء ؛ أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ، وهذا في غاية البلاغة من التعبير ، فهو يفيد ليس مجرد حضور الناس ، لكن حضورهم بحب وشوق وتعلق قلوبهم بالمكان ، وتوسَّل إبراهيم – عليه السلام – كذلك لربِّه أن يرزقهم من الثمرات ،

وهل كان يملك إبراهيم – عليه السلام – في ذلك الوقت غير هذا الدعاء ، وقد ذكرنا آنفًا أنه من أقوى الأسباب .

فليس بعد ذلك لمتطّع متواكل حجة في ترك الأسباب ، لأنها من القدر وتركها قدح في القدر ، كما أن التعلُّق بها قدح في التوحيد .

✸ في قوله : { الحمد للّه الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء .. } [إبراهيم : ٣٩] .

فيها اعتراف بفضل اللّه وثناء على اللّه بما هو أهله ، حيث رزق إبراهيم – عليه السلام – الولد بعد أن كبرت سنُّه .

وفيها إشارة إلى أن إسماعيل – عليه السلام – هو ولد إبراهيم البكر فهو أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة ، كما ذكره ابن كثير ، وإسماعيل هو الذي تركه إبراهيم – عليه السلام – مع أمِّه هاجر عند البيت الحرام ، وهو الذي رفع القواعد من البيت مع أبيه إبراهيم ، وهو الذي وقع عليه الابتلاء بالذبح ، ووقع عليه الفداء من اللّه .

وفيها بيان استجابة اللّه لدعاء نبيِّه إبراهيم ، وكذلك الأنبياء دعوتهم مستجابة عند اللّه ، ولذلك دعا إبراهيم – عليه السلام – وهو على يقين من استجابة اللّه له ، وتأمَّل بم دعا في هذه الحالة : { رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ربنا وتقبل دعاء .. } [إبراهيم : ٤٠] .

✸ دعا ربه أن يوفقه إلى إقامة الصلاة على الوجه الصحيح وكذلك ذريته ، ودعا ربَّه أن يقبل دعاءه كما تقبله من قبل .

وفي ذلك إشارة إلى أهمية الصلاة ومكانتها من الدين وعلو قدرها ، وأنها سبب كل خير وبركة ، وقد حرص إبراهيم – عليه السلام – أن تكون في ذريته أيضًا ، ثم ختم إبراهيم – عليه السلام – دعاءه بطلب المغفرة له ولوالديه ، وقيل : إن ذلك قبل أن يتبين له إصرار أبيه على الكفر ، وقد سبق بيانه ، وذكر القرطبي قراءة عن إبراهيم النخعي ويحيى بن يعمر (ولولَديَّ) يعني : ابنيه : إسماعيل وإسحاق ، واللّه أعلم .

✸ وفي الدعاء علاوة على ما تقدم إثبات صفات السمع والعلم والرحمة والمغفرة والقدرة والحكمة والرزق للّه رب العالمين ، وإثبات يوم البعث والجزاء .

والحمد لله رب العالمين .

وقفات مع القصة في كتاب الله

دعوة إبراهيم عليه السلام أباه وقومه

بقلم فضيلة الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ؛ وبعد ..

فقد بدأ إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، بدعوة أبيه كما هي سنّة الأنبياء في البدء بدعوة الأقربين .

وكما فعل نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، امتثالاً لأمر ربه : {وأنذر عشيرتك الأقربين} [الشعراء : ٢١٤] .

روى البخاري في « صحيحه » أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، جمع أهل بيته ونادى فيهم قائلا : « يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا ، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئا » . وهذه سُنة الأنبياء وأتباع الأنبياء في كل زمان ومكان ، وهكذا فعل أبو الأنبياء وإمام الحنفاء إبراهيم ، عليه السلام ، فبدأ بدعوة أبيه .

• أدب إبراهيم ، عليه السلام ، في دعوة أبيه :

قال تعالى : ﴿ .. يا أبتِ لِمَ تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا * يا أبتِ إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويًّا * يا أبتِ لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيًّا * يا أبتِ إني أخاف أن يمسّك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليًّا ﴾ [مريم : ٤٢-٤٥] .

تصور لنا هذه الآيات الكريمة من سورة "مريم" أدب إبراهيم، عليه السلام، في دعوة أبيه، وإذا تأملناها مليًا نلاحظ ما يلي:

١- كرر إبراهيم، عليه السلام، نداءه بقوله: ﴿ يا أبتِ ﴾ لإيقاظ عاطفة الأبوّة في قلب الرجل، رجاء أن يلين قلبه فيستجيب لنداء الحق، ويدخل في دين الله.

٢- يعترف إبراهيم بحق الأبوة لأبيه رغم كُفْره، ويستشعر إبراهيم، عليه السلام، واجبه في تقديم النصح لأبيه، ودعوته إلى الإسلام.

٣- لم يمنعه فارق السن من تقديم النصيحة لأبيه.

٤- خاطب إبراهيم، عليه السلام، أباه بحكمة الأنبياء؛ فتساءل أولا:

لماذا تعبد يا أبي ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ؟! فهذا إنكار في صورة استفهام، فقد عاب إبراهيم، عليه السلام، آلهة أباه، ولكن بهذا الأسلوب المهذّب، وأوضح له أن من أخصّ خصائص الإله المعبود أن يسمع ويبصر وينفع ويضر، لكن هذه الأصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تضر ولا تنفع، فهي لا تستحق العبادة، فهذا إنكار في صورة استفهام تأدُّبا.

٥- أوضح إبراهيم، عليه السلام، لأبيه أنه إنما يدعوه عن علم، بل أشرف العلوم ألا وهو علم النبوة، وكل الناس أمام هذا العلم في جهل.

٦- لم يصرّح إبراهيم، عليه السلام، بجهل أبيه تأدبا وحكمة في الدعوة.

٧- حذر إبراهيم، عليه السلام، أباه من اتباع الشيطان فيعصي بذلك الرحمن.

٨- اختار إبراهيم، عليه السلام، ألفاظه بعناية لمخاطبة أبيه بأسلوب مناسب، ومن ذلك اختيار لفظ ﴿ الرحمن ﴾، واختار إبراهيم من أوسع الأبواب وأرجاها، حتى عند حديثه عن ﴿ الرحمن ﴾ من أسماء الله حتى يدخل إلى قلب أبيه العذاب اختار أيضًا ﴿ الرحمن ﴾، ولم يقل: الجبار أو المنتقم مثلا، كما استخدم كلمة (المسّ) عند تكلمه عن العذاب، ولم يذكر ألفاظًا أخر، كل ذلك يشير إلى لطف إبراهيم، عليه السلام، وأدبه وحكمته في دعوة أبيه.

• غلظة الكفر وقسوته:

﴿ فَمن يرد اللّه أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصعّدُ في السماء ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

رأينا أدب إبراهيم، عليه السلام، في دعوة أبيه، غاية الحكمة واللطف، فكيف قابل أبوه دعوته؟

﴿ قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليًا ﴾ [مريم: ٤٦].

وهكذا كان الرّد من والد إبراهيم، لم يكتف بالإعراض عن دعوة الأنبياء، بل هدّد ولده بالرجم أو الطرد، وعامله بقسوة وغلظة وجفاء، وهذه دائما وأبدا طريقة أهل الكفر في مواجهة دعوة الأنبياء.

ولم يخرج إبراهيم، عليه السلام، عن صوابه، ولم يتجاوز الحكمة والأدب في خطابه، ورد العنف بلطف قائلا: ﴿ .. سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيًا وأعتزلكم وما تدعون من دون اللّه وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيًا ﴾ [مريم: ٤٧،٤٨].

وهكذا يستعصم إبراهيم، عليه السلام، بربه سبحانه ويلجأ إليه، فلا ملجأ منه سبحانه إلا إليه، ويعلن مفاصلته لما عليه أبوه وقومه، ويخلص الدعاء لله راجيا منه وحده سبحانه العون والتأييد والنصر والتثبيت.

وقفات مع القصة في كتاب الله

دعوة إبراهيم عليه السلام
أباه وقومه [٢]

فضيلة الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد للّه الذي ألهَمَ عباده المرسلين الحكمة وفَصْل الخطاب ، وجعل في أقوالهم وأعمالهم ذكرى وأسوة لأولى الألباب ، وجعل محمدًا ، صلى اللّه عليه وسلم ، وأمّته أولى الناس بإبراهيم ، عليه السلام ، القائت لربّه الأواب . وبعد ..

قال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم ۞ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبُدُون ۞ قالوا نعبدُ أصنامًا فنظلُّ لها عاكِفين ۞ قال هل يسمعُونكم إذ تدعُون ۞ أو ينفعونكم أو يضرُّون ۞ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ۞ قال أفرأيتم ما كنتم تعبُدُون ۞ أنتم وآباؤكم الأقدمون ۞ فإنهم عدوٌّ لي إلاّ رب العالمين ۞ الذي خلقني فهو يهدين ۞ والذي هو يطعمني ويسقين ۞ وإذا مرضت فهو يشفين ۞ والذي يُميتني ثم يُحيين ۞ والذي أطمعُ أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ﴾ [الشعراء : ٦٩-٨٢] .

تحدثنا في مقال سابق بما أفاء اللّه به من حديث عن أدب دعوة إبراهيم ، عليه السلام ، لأبيه ، وتلك كانت دعوة خاصة بدأ إبراهيم بها أباه ، وهذه دعوة عامة انتقل بها إبراهيم ، عليه السلام ، إلى المجتمع الذي يشمل أباه وقومه ، واللّه سبحانه وتعالى يقول لرسوله وحبيبه محمد ، صلى اللّه عليه وسلم : اتل عليهم يا محمد خبر إبراهيم ، عليه السلام ، وهو يدعو قومه .

ولماذا أمر اللّه نبيَّه محمدًا ، صلى اللّه عليه وسلم ، أن يتلو علينا هذه القصة وغيرها من القصص ؟ لنتعلم دروسًا وعبرًا ، ونستلهم منها حكمة وأدبًا : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثًا يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدًى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [يوسف : ١١١] ، وفي هذه الآيات ما يلي :

١- يسأل إبراهيم ، عليه السلام ، قومه مستنكرًا عليهم متعجبًا من حالهم ، في اتخاذهم أصنامًا لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر ، يعكفون على عبادتها .

٢- وتأتي الإجابة أكثر عجبًا فهم قد فعلوا ذلك ؛ لأنّهم وجدوا الآباء والأجداد يفعلون ذلك .

وهذا هو التقليد الأعمى ، والحجة الواهية التي تعلق بها كل من انحرف عن منهج الرسل ، أو لو كان الآباء لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون ؟ أين

عقولكم أيها القوم وقد جاءكم الهدى ورسول مبين ؟!

٣- يعلن إبراهيم ، عليه السلام ، براءته من هذه الآلهة المزعومة ، وعداوته لها ، بل ويعلن ضجره وتأففه من صنيع قومه ومن آلهتهم : ﴿ أُفٍّ لكم ولما تعبدون من دون اللّه أفلا تعقلون ﴾ [الأنبياء : ٦٧] .

٤- وهذا تدرج حكيم في الدعوة ، فقد بدأ معهم متسائلاً موجهًا ناصحًا ، ثم بيّن لهم عجز آلهتهم وضعفها فضلاً عن إمكانية نفعها وضرّها ، ولكن القوم أصرُّوا على اتباع أهوائهم وتقليد آبائهم فلم يكن هناك بُد من تنبيههم إلى ضلالهم وضلال آبائهم من قبلهم : ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ [الأنبياء : ٥٤] ، ثم أعلن براءته مما يعبدون كما تقدم ، ثم أعلن ضجره ، ثم هدّدهم بعد ذلك تهديدًا واضحًا صريحًا : ﴿ وتاللّه لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ﴾ [الأنبياء : ٥٧] .

ولم يقف إبراهيم ، عليه السلام ، عند حدّ التهديد والوعيد ، بل نفّذ فعلاً ما هدّد به وحطّم آلهتهم بفأسه ، وهذا مشهد يدل على البطولة النادرة وقوة البأس ورباطة الجأش لا يقدر عليه إلا أولي العزم من الرسل ، حيث يواجه رجل واحد أعزل من كل سلاح إلا سلاح الإيمان ، ويواجه قومه بكل ما يملكون من سلطان الملك والكثرة ، ويتحدّاهم في أعز ما يملكون ، في آلهتهم المزعومة ، ويأتي عليها واحدًا واحدًا ، فيجعلها جذاذًا ، وقد سبق الإشارة إلى هذه القصة بما يغني عن إعادتها هنا .

٥- بعد أن بيّن إبراهيم ، عليه السلام ، فساد عقيدة القوم ، وضلال عبادتهم ومعبوداتهم ، أخذ يوضح لهم حقائق التوحيد الخالص ، ويبين لهم صفات ربّه الذي يعبده - وهو الحقيق بالعبادة سبحانه - لأنه سبحانه الذي خلق وهدى وهو الذي أطعم وسقى ، وهو الذي أمرض وشفى ، وهو الذي أمات وأحيا ، وهو سبحانه الذي يرجى لمغفرة الذنوب .

٦- ومن باب الأدب في الخطاب مع اللّه أسند إبراهيم ، عليه السلام ، المرض لنفسه والشفاء إلى اللّه تعالى فقال : ﴿ وإذا مرضت فهو يشفين ﴾ [الشعراء : ٨٠] ، والمرض والشفاء بإذن اللّه .

٧- هذا هو منهج إمام الأنبياء في دعوته يجلّي حقائق التوحيد أمام قومه ويقيم بها الحجة عليهم ، ويُذكّرهم بحقائق الربوبية التي لا يستطيعون إنكارها ، الخلق ، والملك ، والتدبير ، وهذه الثلاثة من خصائص الربوبية المطلقة ، فالذي يخلق العباد ويملك نواصي أمورهم ويدبر أحوالهم ، بل وأحوال كل من السماوات والأرض ؛ فذلك هو الإله المعبود بحق ، لا إله غيره ولا رب سواه ، ومن اتخذ إلهًا غيره فهو في ضلال مبين .

وهذا منهج الأنبياء وأتباع الأنبياء في دعوتهم إلى اللّه تعالى ، وكل دعوة تحيد عن هذا النهج لا يكتب لها النجاح .

نسأل اللّه أن يلهمنا رشدنا ، وأن يقينا شر أنفسنا ، وأن يهدينا سبلنا ، إنه نعم المولى ونعم النصير

كتبه / عبد الرازق السيد عيد

وقفات مع القصة في كتاب الله

فوائد مجموعة من قصة إبراهيم عليه السلام

فضيلة الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي يخلق ما يشاء ويختار يصطفى من خلقه ما يشاء ، له الخلق والأمر ألا هو العزيز الغفار. وبعد :

فهذه أيها القارئ الكريم مجموعة من الفوائد المختارة من قصة إبراهيم ، عليه السلام ، أردت أن أسوقها مجتمعة بين يديك في ختام حديثنا عن قصة أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم ، عليه السلام ، لعل ذلك يكون أرجى للاستفادة منها سائلا ربي سبحانه وتعالى أن ينفعني وإياك بما علمنا ، وأن يعلّمنا ما ينفعنا ، وأن يرزقنا الإخلاص فيما نعمل ، إنه سميع قريب .

* سنّة الله في الأنبياء الابتلاء ثم الاجتباء :

هذه من سنن الله في عباده أن يبتليهم ثم يصطفيهم بما صبروا ، ولقد وقع هذا لإبراهيم ، عليه السلام ، على مدى حياته كلّها ، وفي مواقف متعدّدة ، فكان نعم العبد ، فاستحق من الله الثناء والاجتباء ، قال تعالى : ﴿ إنّ إبراهيم كان أمّة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين ۞ شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ۞ وآتيناه في الدنيا حسنة وإنّه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ [النحل : ١٢٠-١٢٢] .

* بركة الذريّة :

قال تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوّة والكتاب ﴾ [الحديد : ٢٦] ، قال ابن كثير ، رحمة الله عليه ، تعليقا وشرحا لهذه الآية الكريمة : (فكل كتاب أُنزل من السماء على نبي من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل ، فمن ذريته وشيعته ، وهذه خلعة سنية لا تُضاهى ، ومرتبة عليّة لا تباهى ، وذلك أنّه وُلِدَ له من صلبه ولدان عظيمان ؛ إسماعيل من هاجر المصرية ، ثم إسحاق من سارة ابنة عمّه ، وجاء من إسحاق يعقوبُ ، ويعقوبُ هو ؛ إسرائيل ، الذي ينتسب

إليه سائر أسباطهم – أي أسباط بني إسرائيل – فكانت فيهم النبوّة ، وكثروا جدّا بحيث لا يَعلم عددهم إلا الذي بعثهم واختصهم بالرسالة والنبوة ، حتى خُتموا بعيسى ابن مريم ، عليه السلام ، وأما إسماعيل ، عليه السلام ، فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها ، ولم يوجد من سلالته من الأنبياء إلا خاتمهم على الإطلاق وسيدهم ، وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة : محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم القرشي المكي ، ثم المدني ، صلوات اللّه وسلامه عليه) . انتهى من « قصص الأنبياء » .

*** شكر نعمة الذرية والاهتمام بتوجيهها :**

وذلك في قوله : ﴿ الحمد للّه الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ﴾ الآية [إبراهيم : ٣٩] ، ولم يكن شكر إبراهيم ، عليه السلام ، بلسانه فحسب ، بل كان بقلبه وعملِه أيضًا ، ويتجلى ذلك في سيرته بوضوح كامل وفي وصيّته لبنيه بأفضل الوصايا ، وهي ملازمة القيام بالدين والتقوى : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن اللّه اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

*** براءة إبراهيم ، عليه السلام ، مما نسبه إليه اليهود والنصارى :**

قال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران : ٦٧] .

*** أولى الناس بإبراهيم ، عليه السلام :**

﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا واللّه ولي المؤمنين ﴾ [آل عمران : ٦٨] . بعد أن كذّب اللّه اليهود والنصارى في انتسابهم إلى إبراهيم ، عليه السلام ، في الآية ٦٧ من سورة « آل عمران » أوضح سبحانه في الآية التي تلتها مباشرة مَنْ أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم ، عليه السلام ، فقال سبحانه : ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه ﴾ أي ؛ الذين اتبعوه حال حياته وساروا على دينه بعد مماته وماتوا على ذلك ، وهو دين الإسلام الخالص للّه من كل شائبة شِرْك ، ثم قال سبحانه : ﴿ وهذا النبي ﴾ يعني محمدًا صلى اللّه عليه وسلم ، فإن اللّه شرع له الدين الحنيف الذي شرعه لإبراهيم ، عليه السلام ، وأمره باتباعه : ﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملّة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ﴾ [النحل : ١٢٣] .

وهكذا أقام محمد صلى اللّه عليه وسلم ملّة أبيه إبراهيم الذي سمّى أمته من قبل بالمسلمين ، وكل من آمن بمحمد صلى اللّه عليه وسلم واتبع دينه فهو على ملة إبراهيم ، عليه السلام ، ومن كفر بمحمد صلى اللّه عليه وسلم فهو كافر بإبراهيم ، عليه السلام ، بل كافر باللّه رب العالمين ، وهكذا شَرَعَ اللّه لأمة محمد صلى اللّه عليه وسلم من النُّسك ما يَصِلُها بأبي الحنفاء من مناسك الحج ، وفي التشهد في الصلاة وفي غير ذلك من أصول الدين وفروعه ، ويَكفي أن البيت الذي رفع

قواعده إبراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام ، هو قبلة المسلمين التي يتوجهون إليها في صلاتهم .

❋ جَمَعَ إبراهيم ، عليه السلام ، بين حسن العمل والخوف :

وهذه من أعلى مقامات الإحسان أن يجمع المسلم بين حسن عملٍ وسوء ظنّ بنفسه والخوف من ذنبه ، وهكذا كان حال إبراهيم ، عليه السلام ، وهو يقوم ببناء البيت كان يقول : ﴿ ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

❋ قوة الحُجة :

رفع اللّه إبراهيم ، عليه السلام ، بالعلم واليقين وقوة الحجج التي أقام بها الحجة على قومه .

❋ التدرج في الدعوة :

مرّ بنا في قصته ، عليه السلام ، كيف بدأ بدعوة أبيه ، ثم قومه ، وتدرج معهم في أساليب الحوار المختلفة ، ثم أعلن براءته من شركهم ومما يشركون به ، ثم تحدّاهم وتحدّى آلهتهم التي يعبدونها من دون اللّه ، ولم يخش بأسهم وهو فرْد وهم جمع ، لكنّه على يقين من نَصْر اللّه له .

❋ البدء بالتوحيد :

اهتمّ إبراهيم ، عليه السلام ، بتجلية حقائق التوحيد لقومه ، حيث التوحيد أصل كل دعوة إلى اللّه ، ومن هنا اهتم به جميع الرسل من لدن آدم إلى نَبِّينا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وعلى كل داعية أراد وجه اللّه أن يتأسى بالأنبياء في دعوتهم .

❋ خطأ نفاة الصفات :

السّمْع والبصر والكلام صفات كمال للّه ، سبحانه وتعالى ، ولذا عاب إبراهيم ، عليه السلام ، على قومه أن يعبدوا ما لا يسمع ، ولا يُبصر ، ولا يتكلم . ومن هنا فقد وقع الذين نَفَوْا صفات اللّه أو أوّلوها في أمر عظيم ، واللّه ، عزّ وجلّ ، موصوف بصفات الكمال والجلال ، منزّه عن كل نقص : ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾ [الشورى : ١١] .

❋ سلامة القلب :

﴿ ولا تُخْزِني يوم يُبعثُون ۞ يوم لا ينفع مالٌ ولا بنونَ ۞ إلاّ من أتى اللّه بقلب سليم ﴾ [الشعراء : ٨٧-٨٩] ، من هذا الدعاء العظيم لأبي الأنبياء نعلم أهمية القلب ، وأنه أساس قبول الأعمال يوم القيامة إذا كان سليما ، والقلب السليم هو الذي سَلم من كل شبهة تقدح في العلم أو شهوة تعوق العبد عن عبودية ربّه ، وسلم من الكبر والرياء والشقاق والنفاق ، وسوء الأخلاق ، وسلم من الغل والحقد والحسد ، وامتلأ صدقا وإخلاصا وعبودية ، وانطوى على النصيحة للمسلمين ، ونفع العباد .

اللهم اجعلنا من أصحاب القلب السليم ، وثبت قلوبنا على دينك يا مقلب القلوب والأبصار حتى نلقاك على الإيمان والإسلام .

❋ ❋ ❋

وقفات مع القصة في كتاب الله

﴿واذكر في الكتاب إسماعيل﴾

فضيلة الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

يقول تعالى : ﴿ واذْكُر فى الكتاب إسماعيلَ إنَّه كان صادقَ الوَعْدِ وكانَ رسولاً نبيًّا ۞ وكانَ يأمُرُ أهلهُ بالصَّلاةِ والزَّكاةِ وكانَ عندَ ربِّه مَرْضيًّا ﴾ [مريم : ٥٤،٥٥] .

اذكر يا محمد وقصَّ على قومك قصة أبيهم إسماعيل ، عليه السلام ، فمن هو إسماعيل ؟

روى مسلم في " صحيحه " من حديث واثلة بن الأسقع ، رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله اصطفى كِنانة مِن ولد إسماعيل ، واصطفى قريشًا من كِنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم " .

● وإسماعيل ، عليه السلام ، هو بِكْرُ إبراهيم الخليل من هاجر المصرية ، عليها السلام ، وهو أول من فُتق لسانه بالعربية الفصيحة ، وهو أبو العرب المستعربة ، وأول من ركب الخيل ، وهو نبي ، ابن نبي ، أرسله الله إلى قومه من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن ، فكان أول رسول في العرب من نسل إبراهيم ، عليه السلام ، ولم يأت بعده رسول فيهم إلاَّ محمد ، صلوات ربي وسلامه عليه ، حيث ختم الله به رسالته ، وأتمَّ ببعثته كلمته .

● جاء ذِكْر اسمه صريحًا في كتاب الله في ثمانية مواضع ؛ منها أربعة في سورة " البقرة " ، ومن الأربعة موضعين ذُكِرَ فيهما في موضع شرف بمشاركته أبيه إبراهيم في بناء البيت الحرام ، في المكان الذي تركه فيه أبوه من قبل مع أمه الصابرة المحتسبة هاجر ، عليها السلام ، وقد أجرى الله الماء من تحت قدم إسماعيل كرامة وشرفًا ، فكان هذا بركة ورحمة ، وكان مصدر عمران المكان ، وظلّت بركة الماء والمكان إلى يومنا هذا ، وستظل إلى أن يشاء الله .

● في أثناء إقامة البيت توجّه إسماعيل مع أبيه إبراهيم ، عليهما السلام ، وتضرَّعا بالدعاء لله رب العالمين : ﴿ ربَّنا واجْعَلْنا مُسْلِمَيْن لكَ ومِن ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لكَ وأرِنا مَناسِكَنا وتُبْ علينا إنَّكَ أنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۞ ربَّنا وابْعَثْ فيهم رسولاً منهم يَتْلُو عليهم آياتِكَ ويُعلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكْمَةَ ويُزَكِّيهِمْ إنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٨، ١٢٩] .

واستجاب الله دعوتهما ، وكانت الأمَّة المسلمة التي ورثت ميراث إبراهيم وإسماعيل ، وكان النبي الخاتم الذي بعثه الله من أمة العرب يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وكان البيت

الذي رفع إبراهيم وإسماعيل قواعده هو قبلتهم ومثابتهم ؛ وهكذا ختم الله رسالته في هذه الدنيا بهذا النبيِّ الذي جاء من نسْل إسماعيل ، وبعث حول البيت الذي بناه إسماعيل مع أبيه ، وحول الحجر الذي دُفن فيه ، وعند الماء الذي نبع بقدرة الله من تحت قدم إسماعيل ، ألا وهو محمد ، صلوات ربي وسلامه عليه ، فهو سيد الأنبياء ، وفخر بني آدم في الدنيا والآخرة ، وإن لم يكن لإسماعيل منقبة إلا هذه ، فأنعم بها

● وجاء بعد ذلك ذكر إسماعيل ، عليه السلام ، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، وهداهم ، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسير على نهجهم

إلا أنه قد جاء ذكره في سورة مريم في الآيات التي صدرنا به مقالنا هذا ذكرًا مستقلاً تشريفًا له وتكريمًا ، ووصفه القرآن الكريم بأوصاف كريمة ، وأول هذه الأوصاف : صدق الوعد : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْدِ ﴾ [مريم : ٥٤] ، وصدْق الوعد صفة مشتركة بين جميع الأنبياء ، لكن لماذا خصَّ بها إسماعيل ، عليه السلام ؟

ذلك أنه صدق من نفسه صدقًا مع الله لم يسبقه فيه أحد ، ولم يلحقه ، وذلك أنه وعد أباه إبراهيم ، عليه السلام ، بتقديم نفسه للذبح تنفيذًا لأمر الله ، وصدق فيما وعد صدقًا أثنى الله عليه فيه ، وسطرّه في كتابه الكريم يُتلى مادامت السماوات والأرض ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ قال يا أبت افْعَلْ ما تؤمر ستجدُني إن شاء اللّهُ من الصابرينَ ﴾ الآية [الصافات : ١٠٢] ، وإذا علمنا أن إسماعيل في ذلك الوقت صغير السن ، فقد بلغ معه السعي ، ثم يصدر منه ذلك القول وذلك الوعد ، وبهذا الأسلوب ، إنما يدل ذلك على صفة كريمة أخرى وصفه الله بها ؛ ألا وهي الحلم ، والصلاح ؛ لأنّ إبراهيم ، عليه السلام ، قال : ﴿ ربِّ هَبْ لي مِن الصَّالحينَ ﴾ [الصافات : ١٠٠] ، فجاءت البشرى في الآية التي بعدها مباشرة : ﴿ فبشَّرْنَاهُ بغلام حليم ﴾ [الصافات : ١٠١] ، فكان الوصفان لازمين لإسماعيل ، عليه السلام ، الصلاح والحلم منذ نعومة أظفاره ، ثم جاء صدق الوعد في الموقف المتميز ، ونفذ إسماعيل ما وَعَد به أباه ، وأسلم نفسه للذبح مستسلمًا لأمر ربِّه ، وأسلم إبراهيم كذلك واستسلم ، وجاء القرآن الكريم يصف هذا المشهد الرائع في غاية من البلاغة والإيجاز ، قال تعالى : ﴿ فلمَّا أسلما وتلَّهُ للجبين ۞ وناديناه أن يا إبراهيم ۞ قد صدَّقت الرُّءْيَا إنَّا كذلك نجزي المحسنين ۞ إنّ هذا لهو البلاءُ المبين ۞ وفديناهُ بذبح عظيم ﴾ [الصافات : ١٠٣-١٠٧]

وهكذا صدق إسماعيل ، عليه السلام ، في موقف البلاء المبين ، فاستحق أن يفرد بهذا الوصف ، وصدق إسماعيل ، عليه السلام ، فيما وعد به ربّه من الخير ، وفيما وعد به الناس

﴿ وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ﴾ : وجاء محمد صلى الله عليه وسلم يأمر بما أمر به إسماعيل من قبل ، مستجيبًا لأمر ربّه في قوله تعالى : ﴿ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقًا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى ﴾ [طه : ١٣٢]

فأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أهله ، وأمر أمته بالصلاة والزكاة ، وأمرهم بكل معروف ، ونهاهم عن كل منكر

﴿ وكان عند ربّه مرضيًا ﴾ أي : رضي الله عن إسماعيل وأرضاه في الدنيا والآخرة ، ورضي الله عن نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم كذلك ، وعن الذين آمنوا معه واتبعوه وبايعوه على المنشط والمكره ، واتبعوا النور الذي أُنزل معه ، فتولاهم الله وأيدهم بنصره في الدنيا ، وكتب لهم الفوز في الآخرة ، وكل مسلم له من الولاية والنصرة والتأييد بحسب اتباعه لذلك النبي وصحبه الكرام ، فمن كمل اتباعه كمل توفيقه ، ومن قصَّر في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام فله من الخذلان بحسب تقصيره

﴿ ربنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذْ هديتنا وَهَبْ لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهابُ ﴾ [آل عمران : ٨]

وقفات مع القصة في كتاب الله

إسحاق ويعقوب عليهما السلام

بقلم الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين ، نحمده سبحانه ونشكره ونستعينه ونستهديه ، ونصلي على صفوة رسله وخاتم أنبيائه ، محمد بن عبد الله المتصلُ نسبًا وملّة بإسماعيل وإبراهيم ، عليهم جميعًا الصلاة والسلام .

قدّمنا فيما سبق الحديث عن إسماعيل بن إبراهيم ، عليهما السلام ، المولود لهاجر المصرية ، عليها السلام ، والذي رفع مع أبيه القواعد من البيت في مكة المكرمة ، فهو الذي فداه الله بذبح عظيم بعد أن أسلم هو وأبوه الأمر وانقادا لله رب العالمين ، وإسماعيل ، عليه السلام ، هو أول من ركب الخيل ، وأول من فُتِق لسانه عن العربية البينة ، وهو جد العرب الذين جاءوا من نَسْل إبراهيم ، عليه السلام .

واليوم نتحدث عن إسحاق ، عليه السلام ، وهو الذي بشّر الله به إبراهيم من سارة ، عليها السلام ، وقد جاءت البشرى بإسحاق عقيب فوز إبراهيم ، عليه السلام ، في الابتلاء المبين الذي ابتلاه الله به بذبح ولده البكر « إسماعيل » ، انظر إلى بيان ذلك في سورة « الصافات » ، حيث يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ فبشرناه بغلام حليم ۞ فلمّا بلغ معه السعي قال يا بني إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ۞ فلمّا أسلما وتلّه للجبين ۞ وناديناه أن يا إبراهيم ۞ قد صدقت الرُّءْيا إنا كذلك نجزي المحسنين ۞ إن هذا لهو البلاء المبين ۞ وفديناه بذبحٍ عظيمٍ ۞ وتركنا عليه في الآخرين ۞ سلامٌ على إبراهيم ۞ كذلك نجزي المحسنين ۞ إنه من عبادنا المؤمنين ۞ وبشرناه بإسحاق نبيًّا من الصالحين ﴾ [الصافات : ١٠٢ - ١١٢] .

وهكذا جاءت البشرى بإسحاق مكافأة لإبراهيم على صدقه مع ربّه ووفائه بوعده وتصديقه الرؤيا في ذبح ابنه الحليم ، (إسماعيل ، عليه السلام) ، وقد وصف الله إسماعيل بالحليم هنا في هذه الآيات ، ووصف إسحاق بالعليم في « سورة الذاريات » ، حيث قال سبحانه على لسان ملائكته : ﴿ ... قالوا لا تخف وبشروه بغلامٍ عليم ۞ فأقبلت امرأته في صَرّةٍ فصكّت وجهها

وقالت عجوزٌ عقيمٌ ❁ قالوا كذلك قال ربُّك إنه هو الحكيم العليم ﴾ [الذاريات : ٢٨-٣٠] ، فالغلام العليم هنا هو إسحاق ، عليه السلام ، والمرأة العجوز العقيم هي سارة زوج إبراهيم وابنة عمّه ، عليها وعلى إبراهيم السلام .

هذا ، وقد ورد ذكر إسحاق ويعقوب في القرآن الكريم في واحد وعشرين موضعا على النحو التالي :

❁ **أولاً** : ذكر « إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط » مجتمعين ومعهم إسماعيل (الأسباط) ؛ جمع سِبْط ، وهم حفدة يعقوب ، عليه السلام ؛ ذريته من أبنائه ، وكانوا اثني عشر سبطًا ، وهم في بني إسرائيل كالقبائل في العرب .

وقد جاء ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط في أربعة مواضع من كتاب الله ، عز وجل ، في موضع منها جاء ذكر الأربعة فقط ، وذلك لبيان افتراء اليهود والنّصارى وكتمانهم الحق الذي جاء في كتبهم . وذلك في قوله تعالى : ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ [البقرة : ١٤٠] .

جاء ذلك ردًا على اليهود والنّصارى الذين قالوا : ﴿ كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ... ﴾ [البقرة : ١٣٥] ، فردّ الله عليهم مقولتهم هذه الكاذبة ، وقال : ﴿ بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ [البقرة : ١٣٥] .

ثم طرح عليهم هذا الاستفهام الاستنكاري لموقفهم الذي كتموا فيه الحق ، وذكر براءة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط من انتسابهم إلى اليهودية أو النصرانية . ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره نقلا عن الحسن البصري ، رحمه الله ؛ أنّ أهل الكتاب كانوا يقرءون في كتاب الله الذي آتاهم : إن الدين الإسلام ، وإن محمدًا رسول الله ، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا بُرآء من اليهودية والنصرانية ، فشهدوا بذلك وأقروا على أنفسهم ، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك .

وفي موضعين آخرين طالب الله المسلمين أن يعلنوا إيمانهم بجميع النبيين ، ومنهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ؛ وذلك في قوله تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسى وعيسى وما أُوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة : ١٣٦] .

وهذه - والحمد لله - عقيدة كل مسلم ، فإن آمن اليهود والنصارى بمثل ذلك فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق . ومثل هذا الموضع ما جاء في سورة « آل عمران » الآية ٨٤ . والموضع الرابع ما جاء في سياق إثبات وحدة الأنبياء ووحدانية الموحي إليهم سبحانه ، وهو ما جاء في قوله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ﴾ [النساء : ١٦٣] .

وهكذا أثبت الله وحيه لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو سبحانه الذي أوحى إليه كما أوحى لغيره من الأنبياء ، وذكر جملة من الأنبياء ، منهم في الآية السابقة على سبيل المثال ، وليس على سبيل الحصر . ولذلك عقب بقوله تعالى : ﴿ ورسلا قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك ... ﴾ [النساء : ١٦٤] .

* ثانيـًا : ذكـر إبراهيـم وإسـحاق ويعقوب ، عليهم السلام :

ومن ذلك ما جاء في موضع الاقتداء بهم ، كما قال يوسف ، عليه السلام ، مخاطبًا صاحبيه في السجن : ﴿ إني تركت مِلّة قوم لا يؤمنون باللّه وهم بالآخرة هم كافرون ۞ واتبعت مِلة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك باللّه من شيء ذلك من فضل اللّه علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ [يوسف : ٣٧،٣٨] .

ومن ذلك ما جاء في مقام الثناء والتكريم ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ﴾ [ص : ٤٥] .

* ثالثًا : ذكر إسحاق ويعقوب ، عليهما السلام :

وذلك في خمسة مواضع من كتاب اللّه ، عز وجل ، قُرن فيها بين إسحاق ويعقوب ، وجميع هذه المواضع جاءت في مقام البشارة والإنعام على إبراهيم ، عليه السلام ، وقد خُصّ يعقوبُ ، عليه السلام ، بالذكر مقترنًا بأبيه إسحاق ؛ لأن أنبياء بني إسرائيل جميعهم جاءوا من نسل يعقوب ، وهذا مناط التكريم ، قال تعالى : ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ [العنكبوت : ٢٧] .

فهذه الآية واقعة في سياق بيان إكرام اللّه لإبراهيم ومنّه وفضله عليه ، وذلك بأن جعل في ذريته النبوة والكتاب ، ولما كان الأنبياء جميعًا بعد إبراهيم جاءوا من نسل يعقوب – إلا محمدًا صلى الله عليه وسلم – ولما كان يعقوب ابن إسحاق ناسب أن يُقْرن يعقوب بإسحاق في موضع البشارة والتكريم .

* رابعًا : ذكر إسحاق ، عليه السلام ، مفردًا :

وهذا جاء في موضعين فقط ، مصرحًا باسمه منفردًا في كتاب اللّه ، وهما في مقام البشارة والتكريم ؛ والموضعان في سورة « الصافات » : ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيًّا من الصالحين ﴾ [الصافات : ١١٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحاق ﴾ [الصافات : ١١٣] ، فهما مقامان ؛ البشارة والتكريم .

* خامسًا : ذكر يعقوب ، عليه السلام ، منفصلاً في سياق مستقل :

وذلك في مواضع خمسة ، نذكر أهمها هنا ؛ وقبل أن نذكرهما نُذكّر بأن يعقوب هو إسرائيل ، وهو ابن إسحاق بن إبراهيم ، عليهم جميعًا السلام ، ويعقوب أو إسرائيل إليه ينسب بنو إسرائيل ؛ لأنّهم جاءوا من نسله صالحهم وطالحهم ، ومناقب يعقوب ، عليه السلام ، كثيرة ، نكتفي منها بذكر أنه الذي أسس بيت المقدس ثاني مسجد وُضع للناس في الأرض ، كما جاء في حديث البخاري عن أبي ذر قال : سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن أول مسجد وُضع للناس في الأرض ؟ فقال : « المسجد الحرام » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « المسجد الأقصى » ، قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون عامًا » .

ويظن كثير من الناس أن الذي بنى المسجد الأقصى هو سليمان بن داود ، عليهما السلام ، وهو خطأ ، وإنما كان لسليمان ، عليه السلام ، التجديد ، أما التأسيس كان ليعقوب ، عليه السلام ، وهذا هو المفهوم من الحديث السابق ، وهو الواقع من سيرة يعقوب عليه السلام .

ونعود إلى حديث القرآن عن يعقوب ، عليه السلام ، من ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملّة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ۞ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين ۞ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن اللّه اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ۞ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة : ١٣٠ - ١٣٣] .

والمقام هنا مقام مدح وثناء على إبراهيم ، عليه السلام ، لأنّه من الصالحين ، ومن علامات صلاحه : تمسكه بالإسلام قولا وعملا ، وإسلام قلبه ووجهه للّه رب العالمين ، ووصيته لبنيه من بعده بالتمسك بالإسلام حتى يموتوا على ذلك ، وإذا كان المقام مقام مدح لإبراهيم لتمسكه بدين اللّه ، وهو الإسلام ، فهو مقام ذم وتسفيه لمن انحرف عن منهج إبراهيم ودين إبراهيم وهم اليهود والنصارى أبناء يعقوب ؛ لذا خصّ اللّه يعقوب بالذكر مرتين هنا ؛ المرة الأولى : ﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب .. ﴾ أي : إبراهيم وصى بنيه ، وكذلك يعقوب وصى بنيه ، بماذا ؟ بعبارة واحدة ، ووصية واحدة : ﴿ يا بني إن اللّه اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ ، بهذه الوصية وصى إبراهيم بنيه ؛ إسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، وبالوصية نفسها وصّى يعقوبُ بنيه وهم بنو إسرائيل . ويؤكد اللّه سبحانه وتعالى وصية يعقوب مرة أخرى في مقام الردّ على المجادلين من أهل الكتاب فيقول سبحانه : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾ ، وهذا مقام الثناء مرة أخرى على يعقوب ، عليه السلام ، وعلى أبنائه الذين حضروا وفاته واستمعوا وصيته قبل موته ، وأجابوا على سؤاله ، وأعلنوا استقامتهم على دين الآباء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، وهو دين الإسلام ، وتوحيد اللّه الذي لا شريك له .

وهذا الدين هو الذي اختاره اللّه وارتضاه وبعث به رسله ، وأنزل به كتبه من لدن آدم ، عليه السلام ، مرورا بنوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى ، وأكمل اللّه دينه وأتم نعمته وختم رسالته ببعثة خاتم النبيين محمد بن عبد اللّه ، صلاة اللّه وسلامه عليه وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين .

أما الذين لم يشهدوا وفاة يعقوب ولم يسمعوا وصيته ، ولكنهم علموها من كتبهم التي نزلت على رسلهم ، ثم هم بعدُ حرّفوا الكتب وخالفوا الرسل وكتموا الحق ، وينسبون أنفسهم زورا وبهتانا إلى ملّة يعقوب ، ويقولون كذبا وزورا : ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ﴾ [البقرة : ١١١] ، أولئك تولى اللّه الرد عليهم في كتابه الكريم ، وأنكر عليهم انتسابهم الباطل إلى ملّة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وإن كانوا من نسلهم .

هذه بعض الدروس المستفادة من ذكر إسحاق ويعقوب في كتاب اللّه ، أسأل اللّه أن ينفعنا بها ، وأن يتوفانا على ملّة إبراهيم حنيفا التي هي ملة الإسلام التي اختارها اللّه لنا وسمانا إبراهيم ، عليه السلام ، بها فالحمد للّه على فضله وامتنانه وعلى جوده وعظيم إحسانه .

وقفات مع القصة في كتاب الله

يوسف عليه السلام

الحلقة الأولى

بقلم الشيخ /
عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله ذي الحكمة البالغة والقدرة القاهرة والسلطان المطلق والعلم التام الذي أحاط بكل شيء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله .. وبعد ؛ فهذه وقفات مع قصة الكريم ابن الكريم ابن الكريم ؛ يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، عليهم السلام ، نذكرها بعد أن وقفنا من قبل مع آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب .

■ بين يدي القصة ■

١ - فيما تميزت به عن غيرها :

■ تميَّزَت قصة يوسف ، عليه السلام ، عن غيرها بورودِها في سياق واحد من بدايتها إلى نهايتها ، في سورة واحدة هي سورة ((يوسف)) ، وهي سورة مكيّة .

■ **قال القرطبي ، رحمه الله :** قال العلماء : وذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكرّرها بمعنى واحد في وجوه مختلفة ، بألفاظ متباينة على

... ذكر قصة يوسف ولم
... لغرض من الأغراض على معاضة ما تكرر ،
... على معارضته مع التكرر ، لإعجاز لمن تأمل .

هذا كلام نفيس جيد ، وشهد به أن القرآن معجز من جميع الوجوه في أخباره وأحكامه ، في إيجازه وفي إطنابه وفي تكراره لقصصه وعدم تكراره ، فلتخرس تلك الألسنة التي عابت على القرآن قصصه ، وقد تحداهم القرآن - وما زال يتحداهم - أن يأتوا ببعض سورة مما جاء به ، ولكن الذين يعيبون على القرآن قديما أو حديثا هم في شك منه وقلوبهم منكرة ، وهؤلاء وأولئك لو كانت لهم قلوب يعقلون بها لفقهوا قول الله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [يوسف : ٣] في بداية هذه القصة ، ولفقهوا كذلك تعقيب القرآن الكريم في نهايتها : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ [يوسف : ١٠٢] .

فالقرآن كلام الله المعجز البليغ أنى لبشر أن يأتي بمثله أو ببعض سورة منه ؟! وأنى لرسول الله أو لغيره من الناس بأخبار السابقين واللاحقين !! إن ذلك لا يقدر عليه إلا وحي رب العالمين ، وإلى المكذبين الشاكين ردعا وزجرا ، وإلى المؤمنين الصادقين تثبيتا ونصرا ، يسوق الله ، عز وجل ، تعقيبا آخر بعد الذي سبق مباشرة : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ۞ وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ۞ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ۞ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ [يوسف : ١٠٣ - ١٠٦] .

٢ - في تسميتها : أحسن القصص :

■ ... لا سر إلى قوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ [يوسف ٣] قال الإمام ابن كثير ، رحمه الله : ومعنى القول في هذا المقام ، أنه تعالى يمدح كتابه العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله محمد بلسان عربي فصيح ، بين واضح جلي ، يفهمه كل عاقل ذكي ، فهو أشرف كتاب نزل من السماء ، أنزله أشرف الملائكة (جبريل) ، على أشرف الخلق (محمد) ، في أشرف زمان ومكان ، بأفصح لغة وأظهر بيان .

فإن كان السياق في الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ، ودمغ الباطل وزيفه وردّه .

وإن كان في الأوامر والنواهي فأعدل الشرائع وأوضح المناهج وأعدل حكما . اهـ .

■ وقال الإمام القرطبي ، رحمه الله :

واختلف العلماء لِمَ سُميت هذه السورة : ﴿ أحسن القصص ﴾ من بين سائر الأقاصيص ؟ فقيل : لأنه ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تتضمن هذه القصة ، وبيانه قوله تعالى في آخرها : ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ﴾ [يوسف : ١١١] ، وقيل : سماها : ﴿ أحسن القصص ﴾ بحسن مجاوزة يوسف ، عليه السلام ، عن إخوته ، وصبره على أذاهم ، وعفوه عنهم - بعد التقائهم - وكرمه في العفو عنهم ، حتى قال : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ [يوسف : ٩٢] ، وقيل : لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين ، والجن والإنس والأنعام والطير ، وسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والجهال ، والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن ، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسّير وتعبير الرؤية

والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش وجمل الفوائد التي تصلح للدين والدنيا ، وقيل : لأنّ فيها ذكر الحبيب والمحبوب وسيرهما ، وقيل : ﴿أحسن﴾ هنا بمعنى ؛ أعجب ، وقال بعض أهل المعاني : إنما كانت أحسن القصص ؛ لأنّ كل من ذكر فيها كان مآله السعادة ، انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته ، وامرأة العزيز ، قيل : وللملك أيضًا أسلم بيوسف وحسن إسلامه ، ومستعبر الرؤيا الساقي . انتهى كلامه ، رحمه الله .

ولا تعارض بين أقوال أهل العلم هنا ، بل اختلاف يُثري المعنى ويكمل جوانبه ، فهذه الأقوال جميعها متعاونة في توضيح المعنى ، وليست متعارضة ، كما أنّه لا تعارض بين كلام الإمامين القرطبي وابن كثير ، فالأول نظر إلى خصوص السبب ، والثاني نظر إلى عمومه ، فهما متعاونان في البيان ، والقصص القرآني فيه حسن وأحسن ، وهذا التفاضل ليس من جهة المتكلم ، فالمتكلم به واحد ، سبحانه وتعالى ، وهو ((الله)) ، وإنما التفاضل باعتبار المدلولات والموضوعات والعبرة التي تحتويها القصة . والله أعلم .

٣ - في زمان ومكان نزولها :

نزلت قصة يوسف أو سورة ((يوسف)) على النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد سورة ((هود)) في مكة المكرمة قبيل الهجرة ، في تلك الفترة العصيبة في تاريخ الدعوة ، حيث توالت الشدائد والابتلاءات على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى المؤمنين ، في تلك الفترة التي عُرفت في السيرة بـ (عام الحزن) .

فكان في قصص السابقين عمومًا عبرة وعظة وتسلية للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معه ، وتخفيفًا لآلامهم ، وفي قصة يوسف على وجه الخصوص عبرة وأي عبرة وتسرية وأي تسرية .

فإن بعد الضيق فرجًا ، وإن بعد العسر يسرًا ، فهذا يوسف ، عليه السلام ، كيف حدث له صنوف البلايا والمحن ؟ محنة حسد إخوته وكيدهم له ، ومحنة الجُب ، وكيف صار رقيقًا بعد عز ، ثم فتنة امرأة العزيز ، ثم محنة السجن ، وكيف صار يوسف بعد ذلك ؟ نقله الله من السجن إلى القصر ، وجعله عزيزًا في أرض مصر ، ومكّنه من خزائنها والعزيز المكرّم ، وكأن الله ، سبحانه وتعالى ، يقول بلسان الحال : وهكذا أفعل بأوليائي ومن صبر على بلائي ، فلا بد أن توطّد نفسك يا محمد أنت والذين آمنوا معك على تحمل البلاء والشدائد ، اقتداءً بمن سبق : ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، ﴿واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون﴾ [النحل : ١٢٧] .

وهكذا جاءت قصة يوسف تثبيتًا للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وتسلية لهم ، وجاءت تحمل في طياتها البشر والأنس والراحة والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء ، وكيف تتحول المحنة في حق الصابرين إلى منحة ، وهذه سنة الله في خلقه الاصطفاء بعد الابتلاء ، وفي ذلك سلوى لقلب كل من سار على طريق الأنبياء في كل زمان ومكان .

فما أشد حاجة المسلمين إلى الاعتبار بذلك في زمن انتشرت فيه الفتن ، وتوالت فيه المحن ، وطال ظلام الليل ، حتى غمر اليأس قلوب الكثيرين ، إلا من رحم ربي ، ما أحوجنا إلى عدم اليأس من روح الله ، فإنه قرين الكفر ، ما أحوجنا إلى تدبر حكمة الله ولطفه وتمكينه لأوليائه من حيث لا يشعرون ، ما أحوجنا إلى تدبر قول الله تعالى : ﴿والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف : ٢١] ، ما أحوج الدعاة إلى الله أن يَزِنوا الأمور بميزان الشرع لا بميزان الواقع ، فالفرق بينهما كبير ، وتدبروا متى عقّب الله بالتعقيب السابق ومكانه من القصة .

وللحديث بقية ، إن شاء الله تعالى .

وقفات مع القصة في كتاب الله

يوسف عليه السلام

بقلم

الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي بيده مقاليد الأمور ، وأشهد ألا إله إلا الله العزيز الغفور ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الصبور الشكور ، عليه وعلى آله وصحبه وإخوانه الصلاة والسلام .

وبعد :

فقد قدَّمْنا من قبل بتقدمة موجزة بين يدي قصة يوسف ، عليه السلام ، وهذه الحلقة الأولى من حلقات هذه القصة المباركة ، وهي تدور حول الآيات التالية : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ إنِّي رأيت أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ۞ قال يا بني لا تقصص رُءْيَاكَ على إخوتك فيكيدوا لك كيدًا إن الشيطان للإنسانِ عدوٌّ مبينٌ ۞ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليمٌ حكيمٌ ﴾ الآيات [يوسف : ٤-٦] ، ونستعين الله في استخلاص الفوائد التالية من الآيات السابقة :

۞ **الأولى :** من قوله تعالى : ﴿ إذ قال يوسف لأبيه .. ﴾ ، والمعنى : اذكر يا محمد وقص على قومك ما كان من يوسف مع أبيه وإخوته ، وسواء كان هذا القصص تلبية لطلب بعض اليهود أو لرغبة بعض الصحابة في القصص ، كما جاء في بعض التفاسير ، سواء كان كذلك أو قصّه الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم ابتداءً بغير طلب من أحد ، المهم أنه آية وبرهان على صدق نُبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن هذا

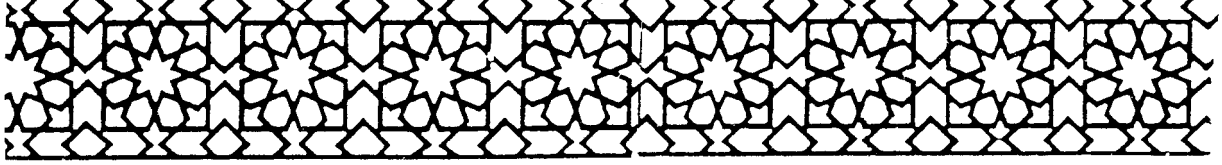

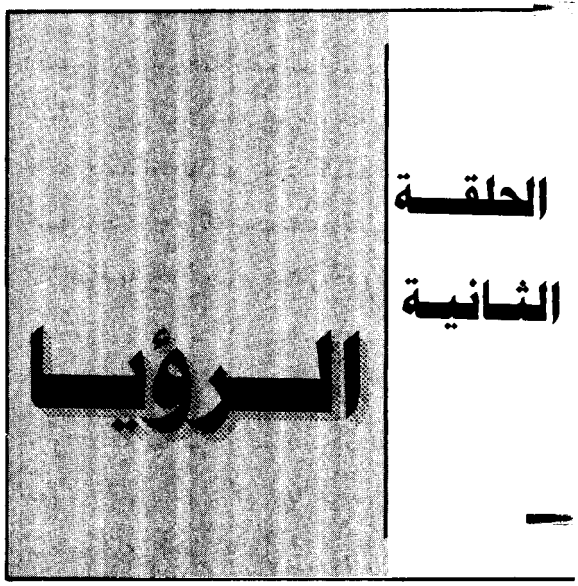

القرآن من عند اللّه لا شك في ذلك ، وإلا فمن أين لمحمد صلى اللّه عليه وسلم هذه الأخبار الصادقة والتفاصيل الدقيقة عن قوم عاشوا في مصر في بيئة غير بيئته ، وزمن غير زمنه بمراحل بعيدة ، ولم يسبق لمحمد صلى اللّه عليه وسلم أن جلس مع أحد من أهل الكتاب أو قرأ كتابًا ، ليس هناك إلا احتمال واحد لا ينكره إلا مكابر ولا يردُّه إلا معاند ، ألا وهو أن هذه القصة وغيرها من القصص وحي من اللّه الذي أحاط بكل شيء علمًا ، وأنزل ذلك على نبيه ورسوله الخاتم .

❋ **الثانية : في الرؤيا :** ويلاحظ أن الرؤيا محورية في هذه القصة ، فبها بدأت ، وبها دعا يوسف ، عليه السلام ، صاحبيه في السجن ، وبالرؤيا أخرج اللّه يوسف من السجن ومكنه من خزائن مصر ، كل ذلك يدل على أهمية الرؤيا في ذلك الوقت وتلك البيئة ، ولذلك حذّر يعقوب ابنه يوسف من الكلام عنها أو التحدث بها أمام إخوته ، فكانت الرؤيا بداية البشرى ، ثم كانت طريقًا إلى الدعوة ، ثم طريقًا لتمكين يوسف ، عليه السلام ، بفضل اللّه ورحمته ، ثم ختمت القصة بتأويلها ، أي بوقوع رؤيا يوسف كما جاءت .

❋ **الثالثة :** في استيعاب يوسف ، عليه السلام ، وهو صبي صغير لتفاصيل هذه الرؤيا واهتمامه بها وقصها على أبيه دليل واضح على ظهور علامات النبوة المبكرة عليه ،كما ظهرت مثل هذه العلامات أيضًا على نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم وهو في سن مبكرة ، فالتشابه واضح ، وهذه العلامات مثل ؛ الذكاء ، النجابة ، الفطنة ، وغيرها .

❋ **الرابعة :** في تحذير يعقوب ، عليه السلام ، لولده من التحدث بالرؤيا مع إخوته ثقةً بعقل ولده ونضجه مع صغر سنّه ، وفي ذلك جواز التحذير من الشر حتى ولو كان من الإخوة ، وفي ذلك أيضًا عدم اطمئنان يعقوب لمسلك إخوة يوسف ، عليه السلام ، وقد ظهر فعلاً ما كان يحذره يعقوب ، عليه السلام ، من هؤلاء الأبناء ، وظهر تمكن الشيطان من نفوسهم ، وما ذلك إلا لفساد في فطرهم ، وإلا لما كان يصل بهم الأمر إلى هذا الحد الذي أدى إلى تآمرهم على قتل أخيهم أو تغْييبه في الجب ،

واستباحة الكذب لأنفسهم على أبيهم أكثر من مرة ، وهذه هي طبيعة بني إسرائيل إلى يومنا هذا – باستثناء الأنبياء منهم – وما حدث منهم مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ومع المسلمين عبر مراحل تاريخ الإسلام ، بل ومع البشرية كلها دليل واضح على فساد فطرهم منذ القدم ، فهل تعلّم المسلمون مع من يتعاملون ؟

❁ **الخامسة** : في قوله تعالى حكاية عن يعقوب ، عليه السلام : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليمٌ حكيمٌ ﴾ [يوسف : ٦] ، أي يختارك ربك يا يوسف لنبوته ورسالته ويعلمك تعبير الرؤيا وغيرها ، ويتم نعمته عليك بإرسالك والإيحاء إليك ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق بأن جعل في ذريتهما النبوة والكتاب ، وفي ذلك ما فيه من شرف وكرامة على آل يعقوب ، لكن أنّى لهم يفهمون ذلك والشيطان متربص بهم .

وفي كل ما تقدّم إشارة إلى نعمة اللّه على يعقوب ، عليه السلام ، بالنبوة وعلم تعبير الرؤيا ، وفيها كذلك إشارة إلى البشرى التي تحملها هذه الرؤيا ، لكن التمكين لا بد أن يسبقه ابتلاء ، كذلك جرت سنة اللّه مع خلقه ، وبخاصة الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، فاللّه وسع كل شيء حكمًا وعلمًا .

❁ **السادسة** : في أمور يندفع بها الحسد : وقد وجه يعقوب ابنه يوسف ، عليه السلام ، إلى أمور يدفع بها عن نفسه بإذن اللّه غائلة حسد إخوته له ، وإذا كان كل ذي نعمة محسود فقد وجه اللّه عباده في كتابه الكريم إلى الاعتصام به والالتجاء إليه والتعوذ به من شر حاسد إذا حسد .

وقد جمع الإمام ابن القيم ، رحمه اللّه ، أمورًا يندفع بها شر الحسد بإذن اللّه في تفسير سورة ((الفلق)) ؛ نذكر منها هنا ما تتم به الفائدة إن شاء اللّه ، وهي كالتالي :

١– الاستعاذة باللّه من شر الحاسد ، والتحصن باللّه سبحانه واللجأ إليه ، فهو سبحانه قادر على دفع شر كل ذي شر .

٢– تقوى اللّه ، عز وجل ، وحفظه عند أمره ونهيه ، فمن اتقى اللّه تولى اللّه حفظه ولم يكله إلى غيره ، قال صلى اللّه عليه وسلم لعبد اللّه بن عباس : ((احفظ اللّه يحفظك ، احفظ اللّه تجده تجاهك)) ، فمن كان اللّه حافظه وأمامه فممن يخاف ؟ وممن يحذر ؟

٣– الصبر على عدوّه ، وأن لا يقاتله ولا يشكوه ، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً ، فما نُصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه ، والتوكل على اللّه ولا يستطل تأخيره وبغيه ، فإنه كما بغى الحاسد كان بغيه جندًا وقوة للمبغي عليه (المحسود) ، يقاتل به الباغي نفسه وهو لا يشعر ، ولو رأى المبغي عليه ذلك لسر ببغيه عليه ، ولكن

لِضعْف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي ، دون آخره ومآله . وقد قال تعالى : ﴿ ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنّه اللّه إنّ اللّه لعفو غفور ﴾ [الحج : ٦٠] .

٤- التوكل على اللّه ، فمن يتوكل على اللّه فهو حسبه ، قال بعض السلف : جعل اللّه لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته للعبد ، قال تعالى : ﴿ ومن يتوكل على اللّه فهو حسبه ﴾ [الطلاق : ٣] ، ولم يقل : نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال ، بل جعل سبحانه نفسه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه ، وواقيه ، فلو توكل العبد على اللّه حق توكله ، ثم كادت له السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجًا من ذلك ، وكفاه ونصره ، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم ، ولا يضرّه إلا أذى لا بد منه ، كالحر والبرد ، والجوع والعطش .

٥- السبب الخامس من أسباب دفع أذى الحاسد ؛ هو فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه ، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له ، فلا يلتفت إليه ، ولا يخافه ، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له ، ومما يقوي العبد على ذلك السبب التالي :

٦- السادس : الإخلاص للّه والإقبال عليه وحده ، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه ، حتى تملأ عليه نفسه وتغمرها ، فإن اللّه يصرف السوء والفحشاء عن عباده المخلصين ، فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن .

٧- تجريد التوبة ؛ فإن الذنوب سبب في تسليط الأعداء ، وقد يكون منها ما لا يعلمه الإنسان .

٨- الصدقة والإحسان ؛ فإنهما يدفعان البلاء .

٩- السبب التاسع ؛ وهو من أصعب الأسباب على النفس ، ولا يوفق له إلا ذو حظ عظيم ، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه ، فكلما ازداد أذًى وشرًّا وحسدًا ازددْت إليه إحسانًا وله نصيحة وعليه شفقة .

١٠- والسبب العاشر ؛ وهو الجامع لذلك كلّه ، وعليه مدار هذه الأسباب ، وهو تجريد التوحيد والتوكُّل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح ، وهي بيد محركها وفاطرها وبارئها ، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه ، فإذا جرّد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه ، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع اللّه ، بل يفرد اللّه بالمخافة وقد أمّنه منه .

ونحن نستعيذ باللّه لنا وللمسلمين من شر كل حاسد إذا حسد ، وإلى اللّه نبرأ ، وعلى اللّه نتوكل ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

وللحديث بقية إن شاء اللّه .

وقفات مع القصة في كتاب الله

يوسف عليه السلام في بيت عزيز مصر

بقلم الشيخ
عبد الرازق السيد عيد

الحمد للّه رب العالمين ، خضعت رقاب العباد لقهر ربوبيته ، وتعلقت قلوب الموحدين لجلال ألوهيته ، فهو سبحانه الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم .

وبعد ؛ فهذا لقاؤنا الثالث مع قصة نبي اللّه يوسف ، عليه السلام ، تجاوزنا به حدود الزمان والمكان ، ووقفنا عند بيت عزيز مصر لحظة دخول يوسف ، عليه السلام ، إليه ، ونترك الحديث الآن لكلام رب العالمين يصوِّر لنا ذلك المشهد العظيم ويعقِّبُ عليه .

قال تعالى : ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدًا وكذلك مكنَّا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث واللّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [يوسف : ٢١] .

هكذا انتهى حسد إخوة يوسف لأخيهم ، ووقع ما كان يخشاه أبوهم (يعقوب) ، عليه السلام ، حين حذر يوسف من قبل قائلاً : ﴿يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدًا إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ [يوسف : ٥] .

وقد كاد الشيطان فعلاً ونزغ بين إخوة يوسف وتآمروا جميعًا ماعدا (بنيامين) الأخ الشقيق ليوسف ، أما الباقون فهم إخوة ليوسف ، وبنيامين لأب ، تآمر الإخوة لأب على يوسف ، فقالوا : ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضًا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قومًا صالحين﴾ [يوسف : ٩] .

هكذا زين لهم الشيطان حتى باتوا مقتنعين بهذا الإثم المبين ، وأوقعهم الشيطان في هاوية الضلال ، ومع ذلك اتهموا أباهم بالضلال ، وظنُّوا أنهم بفعلهم هذا سيصيرون إلى صلاح ، وكما زين الشيطانُ للناس باطلهم فهؤلاء المؤمنون أبناء الرسل وقد وقعوا فريسة للشيطان ، كما نزغ الشيطان

من قبل بين ابني آدم ، عليه السلام ، ونزغ في قلب ابن نوح فتنكَّب طريق أبيه واختار الضَّلالة على الهدى ، وكما نزغ في قلب امرأة نوح وامرأة لوط فخالفتا منهج أنبياء اللَّه .

وكما نزغ الشيطان في قلب والد إبراهيم فخالف منهج اللَّه ، وكما نزغ الشيطان بعد ذلك في قلوب مخالفي الرسل على مرِّ التاريخ ، ومنهم قريش عندما تآمروا على رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم : ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر اللَّه واللَّه خير الماكرين ﴾ الآية [الأنفال : ٣٠] ، وهذا وجه من وجوه التشابه بين نبينا محمد وأخيه يوسف ، عليهما الصلاة والسلام .

حيث كاد إخوة يوسف لأخيهم ، كاد أقرب الناس من نبيِّنا محمد صلى اللَّه عليه وسلم له .

وكاد إخوة يوسف بأخيهم لإبعاده عن وجه أبيهم .

فماذا كان عاقِبَةُ كيدهم ؟ ها هو يوسف ، عليه السلام ، في بيت عزيز مصر ويوصي به سيده خيرًا ؛ لأنه استبشر فيه خيرًا وآنس فيه نجابةً وفطنةً ، وهنا يسمح لي أخي القارئ بوقفة مع تعقيب اللَّه سبحانه وتعالى على هذا المشهد : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ ، وهذا التعقيب الأول والناظر إلى الأمر بملابساته المادية يرى يوسف ، عليه السلام ، وقد صار رقيقًا وعبدًا مملوكًا مهما يكن من أمر إكرام سيده له وإحسانه إليه ، فهو أولاً وأخيرًا عبد مملوك ، لكن اللَّه يقول : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ ، فأين هذا التمكين في الأرض ؟ تأتي الإجابة في التعقيب الثاني : ﴿ واللَّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

وهذا التعقيب عليه مدار القصَّة كلِّها ، بل عليه مدار الأمر كلِّه ، فإن الأمر كله للَّه ، واللَّه سبحانه يسير الأمور بقدرته ويضعها حيث يشاء بعلمه وحكمته .

فعندما كاد إخوة يوسف لقتل أخيهم غَلَبَ أمر اللَّه كيدهم وجعلهم يُلقونه في الجب ، وعندما أرادوا أن تأخذه القافلة ، وتذهب به بعيدًا فلا يُعرف له أثر ، ويُطوى أمره في عالم النِّسيان ، أراد اللَّه أن يقع يوسف ، عليه السلام ، في يد عزيز مصر ، وعندما أرادت امرأة العزيز أن تجرَّ يوسف ، عليه السلام ، إلى مستنقع الرذيلة غَلَبَ أمرُ اللَّه فأنقذه منها ، وعندما تآمر القوم عليه وألقوه في السجن غلب أمر اللَّه ، وجعل السجن طريقًا إلى خزائن مصر .

أرأيت أخي العزيز كيف كان دخول يوسف إلى بيت العزيز بداية التمكين له في الأرض ؟ لأن اللَّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فالمشكلة أن أكثر الناس لا يعلمون ؛ لأنهم لا يؤمنون ، وإذا آمنوا فهم لا يصدِّقون حق التصديق ، ومن تتبع قصص الأنبياء عَبْر مراحل التاريخ يرى هذا القانون الإلهي واضحًا جليًّا ، فكما ظهر في قصة يوسف ، عليه السلام ، ظهر من قبل في قصة أبيه إبراهيم ، وفيمن سبقه من الأنبياء والرسل ، وظهر من بعدُ في قصص الأنبياء والرسل ، ولنأخذ مثالين فقط على سبيل التمثيل لا الحصر من قصة موسى ، عليه

السلام ، وقصة محمد صلى الله عليه وسلم .

ففي قصة موسى ، عليه السلام ، غلب أمر الله فولد موسى رغم حصار فرعون ، وألقي موسى في اليم وهو رضيع لتكون النجاة بأمر الله ، فيأخذه عدو الله وعدوه ليتربى موسى في بيت عدوه ، فانظر كيف غلب أمر الله فاستحال الضعف إلى قوة .

ويكون هلاك فرعون في النهاية على يد من تربى في بيته ، وهو لا يدري ولا يعلم ذلك ؛ لأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وعندما تآمرت قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سجنه أو إخراجه من الأرض غلب أمر الله فجعل له من الضيق فرجًا ومخرجًا ، ونصره سبحانه وهو في الغار ، فأعمى عنه العيون المتربصة ، وجعل له من الهجرة نصرًا ، ومكنه من رقاب أعدائه يوم بدر ، وأعاده من حيث أخرجوه فاتحًا منتصرًا يوم الفتح الأكبر ، وصدق الله : ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ، وكذب الذين يشكون في ذلك فهم لا يعلمون .

والآن نحن أحوج ما نكون إلى اليقين الكامل بهذا القانون الإلهي عقيدةً وسلوكًا : ﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

فالله سبحانه وتعالى رب إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى ورب محمد ورب الأنبياء والرسل جميعًا ، هو ربنا وهو رب جميع الناس ، وهو سبحانه الذي غَلَب أمره فيما مضى ، وهو سبحانه الغالب على أمره الآن ومستقبلاً وفي كل وقت ، سواء أحطنا به أم لم نحط بعلمه ، فكما أنه سبحانه ليس لأوليته ابتداء ولا لآخريته انتهاء ، فهو سبحانه الغالب على أمره بلا ابتداء وبلا انتهاء .

نحن في أمس الحاجة إلى هذا اليقين على مستوى الأفراد والجماعات ، كم نحن في أمس الحاجة لهذا اليقين ، وقد أحاطت بنا مضلات الفتن من كل جانب ، وليس لها من دون الله كاشفة ، الطائعون في حاجة إلى هذا اليقين حتى يزداد إيمانهم فيما عند الله ، فيكونون أوثق به مما في أيديهم فيعملوا بجد واجتهاد متأسين بأنبياء الله بغير حزن على ما مضى ، ولا خوف على مستقبل هو آت ، يعملون بصبر وثبات ، يبذلون ما يستطيعون ، ويتوكلون على الله فيما لا يملكون ، ولا يحملون أنفسهم ما لا يطيقون ، فالله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فلا يأس ولا قنوط ، ولا شطط ، ولا غرور ، ولا استعجال للنتائج .

والعصاة في حاجة إلى التذكرة بهذا القانون الإلهي العظيم ، فلا يغترون بحلم الله عليهم ، ويعلمون أن الله محيط بهم ، وأنهم في قبضته ، وأنهم إليه راجعون ، فإذا علموا ذلك لا يتجرءون على معصية الله ، ولا ينتهكون حرمات الله جهارًا نهارًا ، ولا يحاربون الله في شرعه سرًا وإعلانًا ، فالله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وحسبنا من هذه الوقعة ذلك الدرس ، وإذا وعيناه انتفعنا به في ديننا ودنيانا .

اللهم ألهمنا رشدنا ، وقنا شر أنفسنا ، وللحديث بقية إن شاء الله تعالى ، فإلى لقاء .

يوسف عليه السلام

في بيت عزيز مصر

الحلقة الرابعة

﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه .. ﴾

بقلم الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله العزيز الحميد ، الفعال لما يُريد ، ذي العرش المجيد ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، أما بعد :

فقد وقفنا في اللقاء السابق عند دخول يوسف ، عليه السلام ، إلى بيت عزيز مصر ، ورأينا العزيز وهو يوصي به خيرًا ، وعلمنا كيف كان ذلك بداية التمكين ليوسف ، عليه السلام ، في الأرض كما قال تعالى : ﴿ وكذلك مكنّا ليوسف في الأرض ﴾ [يوسف : ٢١] ، ولا يستبعدن أحد ذلك ، ومن هنا عقب المولى سبحانه بقوله : ﴿ واللّه غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [يوسف : ٢١] .

واليوم نقف مع قوله تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين ۞ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هَيْتَ لك قال معاذ اللّه إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يُفلح الظالمون ﴾ [يوسف : ٢٢، ٢٣] ، ووقفتنا اليوم تحتاج إلى وقفات :

✸ **الأولى :** مع قوله تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ اختلف المفسرون في تفسير (الأشد) ، فمنهم من جعله بلوغ الأربعين ، وعلى هذا التفسير تكون الآية عامة وليس لها صلة بما بعدها في السياق ، ومنهم من فسر (الأشد) هنا بالبلوغ أي سن الثامنة عشر أو العشرين ، وعلى هذا تكون الآية : ﴿ ولما بلغ أشده ... ﴾ الآية [يوسف : ٢٢] متصلة مع الآية التي بعدها ، وهي قوله تعالى : ﴿ وراودته .. ﴾ ؛ أي لما بلغ أشدَّه راودته ، وفي هذا المعنى جاء في « لسان العرب » ؛ باب (شدد) قال الأزهري : (الأشد في كتاب اللّه له ثلاثة معان : فأمّا قوله تعالى في قصة يوسف ، عليه السلام : ﴿ ولما بلغ أشده ﴾ فمعناه

الإدراك والبلوغ ، وكذلك في قوله تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلاَّ بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ [الإسراء : ٣٤] ، والمقصود أن يؤنس منه الرشد ببلوغه ، وأما قوله تعالى في قصة موسى ، عليه السلام : ﴿ ولما بلغ أشدَّه واستوى ﴾ [القصص : ١٤] ، فإنه قرن بلوغ الأشد بالاستواء ، وهو أن تجتمع قوته ويكتهل وينتهي شبابه ، أما قوله سبحانه في سورة « الأحقاف » : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾ [الأحقاف : ١٥] ، فهو أقصى نهاية البلوغ ، وهو الذي بُعث عنده نبينا محمد صلى اللَّه عليه وسلم) . انتهى .

والذي يناسب السياق - واللَّه أعلم - أن المقصود بالأشد هو البلوغ ، ولذا جاء بعده مباشرة : ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ﴾ أي بعد أن بلغ وظهرت عليه علامات الرجولة وأمارات الفحولة راودته ، وأيمًا كان الأمر فقد راودته .

✹ **ثانيا** : مع قوله تعالى : ﴿ وراودته التي هو في بيتها عن نفسه .. ﴾ :

١ - في كلمة : ﴿ راودته ﴾ إشارة إلى كثرة المحاولات من المرأة ، وأنها جعلت تعترض يوسف ، عليه السلام ، بألوان من أنوثتها لون بعد لون ، ذاهبة إلى فن راجعة من فن ، والكلمة مأخوذة من رودان الإبل في مشيتها ؛ تذهب وتجيء في رفق .

وهذا يصور حيرة المرأة واضطرابها في حبها ؛ ومحاولتها أن تنفذ إلى غايتها ، وهذا الذي عبر عنه النسوة تمامًا وهن أعلم بحالها كما حكى عنهن ربنا عز وجل : ﴿ وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تُراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا ﴾ [يوسف : ٣٠] ، هذا هو حال المرأة ، ولكنها مع ذلك أرادت أن تحتفظ بشيء من كبرياء الأنثى ، وإن كانت الطبيعة من وراء ذلك مندفعة ماضية مصممة .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ التي ﴾ لم يبق معها لملك المرأة شيء فإن كلمة : ﴿ التي ﴾ تدل على كل امرأة كائنة من كانت فلم يبق مع مراودتها ليوسف ، عليه السلام ، ملك ولا سلطان ، وزالت جميع الألقاب مع الأنثى المراودة لفتاها .

٣ - في قوله تعالى : ﴿ عن نفسه .. ﴾ إشارة إلى طمعها في ذاته البشرية وشغفها بما في هذه الذات من جمال ورجولة .

وكأن الآية مصرحةٌ في أدب سام كلَّ السمو منزه غاية التنزيه بما معناه : أن المرأة كل ما تستطيع في إغرائه مقبلة عليه ومدبرة عارضة أنوثتها عرض امرأة خلعت - أول ما خلعت - أمام عينيه ثوب الملك .

✹ **ثالثا** : ﴿ وغلقت الأبواب وقالت هيت لك .. ﴾ :

١ - في قوله : ﴿ وغلَّقت الأبواب .. ﴾ إشارة إلى مبالغتها في الإغلاق وتأكيدها عليها ، وأنها تجري من باب إلى باب وتضطرب يدها في الإغلاق ، كأنما تحاول سدَّ الأبواب لا إغلاقها فقط ؛ وهي التي تقوم بنفسها بهذا العمل وقد صرفت الخدم .

وهذه مرحلة تالية لمرحلة المراودة ، وقد بذلت المرأة ما تستطيعه مع يوسف ، عليه السلام ، ولما رأت منه عدم المبالاة وعدم الاهتمام والانتباه لم يعد أمامها غير التصريح بالفعل فغلَّقت الأبواب في

إحكام شديد ، ثم انتقلت إلى التصريح بالقول المباشر الصريح ، فقالت : ﴿ هيت لك ﴾ أي تهيأت لك ، لك أنت يا يوسف ، وليس لأحد سواك ، هذه ثلاثة أطوار ، وفيها طبيعة الأنوثة نازلة من أعلاها إلى أسفلها ، فقد راودته ثم غلّقت الأبواب ودعته لنفسها بعبارة صريحة واضحة .

❁ **رابعًا** : ﴿ قال معاذ اللّه إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون ﴾ :

هذه المرأة وقد شُغفت بيوسف حبًا وأنزلها ذلك الحب إلى أدنى درجات التذلل ، فتنازلت أول ما تنازلت عن تاج ملكها ، وعن منزلتها كسيدة للقصر وراودت مملوكها ، ثم خلعت بعد ذلك رداء كبريائها وتوجهت إلى يوسف في خطاب صريح : (قد تهيأت لك) ، والشأن في المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة ، فما بالك وإن كانت هي امرأة العزيز وسيدة القصر ، بل من سيدات الدولة المعدودات ، إن لم تكن السيدة الأولى ، وقد وقفت أمام مملوكها قائلة له : قد تهيأت لك بعد إغلاقها الأبواب وإحكامها ، وتدعوه إلى نفسها ، فإذا انتهت المرأة إلى نهايتها ، ولم يبق وراء ذلك شيء تبذله ظهرت من ثَمَّ عظمة الرجولة السامية المتمكنة والمتمثلة في يوسف في أسمى معانيها ، فقال يوسف بكل إيمان وثقة : ﴿ معاذ اللّه ﴾ أي أعوذ باللّه عياذًا باللّه مما تدعونني إليه ، أستعيذ باللّه فهو الذي يُعيذني مما تدعونني إليه : ﴿ إنه ربي أحسن مثواي ﴾ .

وعلى تقدير عودة الضمير في : ﴿ إنه ﴾ على لفظ الجلالة السابق ، فيكون عياذًا باللّه ربي الذي رباني وأحسن مثواي ، ويكون : ﴿ إنه ربي ﴾ شهود مشهد الربوبية ، وهو مشهد العلم والإحاطة والقدرة والتربية والعناية .

ويكون قوله : ﴿ معاذ اللّه ﴾ شهود مشهد الألوهية : ﴿ إنه ربي ﴾ شهود مشهد الربوبية ، وهذا توحيد الحنفاء ، ويوسف ، عليه السلام ، هو : « الكريم ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » ، وإبراهيم ، عليه السلام ، إمام الحنفاء ، فلا عجب أن يشهد يوسف مشهد الحنيفية في هذا المشهد الذي جمع بين مشهد الألوهية في الخوف والرجاء واللجوء والدعاء ، ومشهد الربوبية في التربية والإحسان ، وإذا كان التقدير على أنه ضميرُ الشأن ، فإن يوسف ، عليه السلام ، بعد أن استعاذ باللّه ذكر نفسه وامرأة العزيز بفضل سيده عليه وإحسانه إليه وتكون ﴿ ربي ﴾ هنا بمعنى سيدي ، ثم أكد بعد ذلك القول بقوله : ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ ، فإن يوسف ، عليه السلام ، قد استعاذ باللّه مما تدعوه إليه المرأة ، ثم أكد ذلك بجملتين متعاقبتين ، وكل جملة مؤكدة تأكيدًا استقلاليًا .

فهذان موقفان متباينان غاية التباين موقف المرأة بكل ملابساته التي قدّمناها ، والتي تنازلت غاية التنازل من أجل هواها ، وموقف يوسف الشاب المملوك الذي هو في بيتها ، وتعرض لمحاولاتها ، ولم يطاوعها واعتصم باللّه واستعاذ به ولجأ إليه .

فالأولى أذلها هواها ، والثاني أعزّه اعتصامه باللّه .

وإلى لقاء قادم ، إن شاء اللّه ، فتأمل ذلك يكشف لك حقائق هامة نتابعها معًا بعون اللّه .

* * *

وقفات مع القصة في كتاب الله
يوسف عليه السلام في بيت عزيز مصر

بقلم : عبد الرزاق السيد عيد

ولقد همت به وهم بها

الحمد لله الذي يتولى عباده الصالحين برحمته ، ويدفع عنهم كيد الكائدين بقدرته ، والصلاة والسلام على المصطفى رحمة وهداية للناس كافة ، وبعد :

رأينا في اللقاء السابق كيف راودت التي هو في بيتها فتاها عن نفسه ، وقد تدرجت في ذلك من مرحلة إلى أخرى ، فبدأت بعرض مفاتنها على يوسف ، عليه السلام ، مستخدمة ما تملك من وسائل ، وقد ساعدها على ما فعلت ما تمتعت به من منصب وجمال ، ولكنها لم تجد من يوسف ، عليه السلام ، اهتمامًا ولم يعرها انتباهًا ، فانتقلت إلى مرحلة أخرى ، فغلقت الأبواب ، ثم انتقلت إلى أسلوب التصريح المباشر ، ودعت يوسف ، عليه السلام ، إلى نفسها دعوة صريحة ، فقالت : ﴿ هيت لك ﴾ ؛ أي تهيأت لك ، فقابل يوسف ، عليه السلام ، ذلك منها بموقف واضح قوي ، فقال : ﴿ معاذ الله ﴾ .

من المناسب أن نتذكر ذلك جيدًا ونحن نقف وقفتنا الآن ، والتي ستكون - بعون الله - مع قوله تعالى : ﴿ ولقد همَّتَ به وهمَّ بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين ﴾ [يوسف : ٢٤] .

يرى بعض المفسرين أن المرأة عندما أسقط في يدها ولم يستجب لها يوسف ، عليه السلام ، همَّت لتنال منه ما أرادت عُنْوة ، وهمَّ يوسف بدفعها ، ويرى البعض الآخر أنها همَّت بضربه انتقامًا لكبريائها المهدر ، وكرامتها المجروحة ، وهمَّ هو بضربها دفاعًا عن نفسه ، لكنه رأى أن الأولى أن يهرب منها ففعل ، وهناك من يرى أن الهمّ كان منها فقط ، أما يوسف ، عليه السلام ، فلم يهم ؛ لأنه رأى برهان ربِّه على تقدير حذف جواب لولا ، فيكون التقدير : « لولا أن رأى برهان ربِّه لهم بها » ، لكنه

رآه فلم يحدث منه هم أصلاً .

لكن جمهور المفسرين يثبت للمرأة همًّا ، وليوسف عليه السلام همًّا ، كما صرحت بذلك الآية : ﴿ ولقد همت به وهمَّ بها ﴾ ، لكنهم يفرقون بين همها وهمه ، فقد كان همُّه خطرات نفس ، فتركه للّه ، فأثابه اللّه عليه . أما همُّها فكان إصرارًا بذلت معه جهدها فلم يستو الهمان ، وهذا واضح من السياق القرآني ، فقد فرَّق اللّه بين الهمين ، فهي راودت ، وغلقت الأبواب وقلت : هيت لك ، وهو قال : ﴿ معاذ اللّه ﴾ ؛ ولذلك قال اللّه تعالى : ﴿ ولقد همت به وهم بها .. ﴾ لاحظ كيف استخدم السياق الكريم أدوات التوكيد والتحقيق مع همها ، ولم يستخدم شيئًا من ذلك مع همه ، فالهم همان : هم إصرار وعزيمة ، وهمَّ خطرات ، فكان نصيبه الخطرات ، وكان نصيبها الإصرار .

قال الإمام أحمد بن حنبل ، رحمه اللّه : (الهمُّ همان : هم خطرات ، وهمُّ إصرار ، وهم الخطرات لا يؤاخذ اللّه به ، وهم الإصرار يؤاخذ به) .

والأدلة على ذلك متواترة في الكتاب والسنة ، نذكر منها ما رواه البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم من حديث ابن عباس ، رضي اللّه عنهما ، عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنّه قال : « إن اللّه كتب الحسنات والسيئات ، ثم بين ذلك ، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها اللّه عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها اللّه عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها اللّه له عنده حسنة كاملة ، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها اللّه له سيئة واحدة » .

ويرجّح شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه اللّه ، رأي جمهور المفسرين وكذلك ابن القيم ، رحمه اللّه ، ويرى أن ذلك الذي يليق بفحولة يوسف ، عليه السلام ، كما يرى أن ذلك ابتلاء بمخالفة دواعي النفس والطبع ، وهو من أشد البلاء ، ولا يصبر عليه إلا الصديقون ، وإليك نص كلام ابن القيم ، رحمه اللّه ، من كتاب « طريق الهجرتين » بتصرف بسيط :

(ولهذا كان بين ابتلاء يوسف الصديق بما فعل به إخوته من الأذى والإلقاء في الجب ، وبيعه بيع العبيد ، والتفريق بينه وبين أبيه - كان بين ذلك كله - وابتلائه بمراودة المرأة فرق عظيم لا يعرفه إلا من عرف مراتب البلاء ، فهو - أي يوسف ، عليه السلام - شاب عزبٌ غريب بمنزلة العبد لها ، وهي الداعية إلى ذلك ، وإن الشباب داع إلى الشهوة ، والشاب قد يستحي من أهله ومعارفه من قضاء وطره ، فإذا صار في دار الغربة زال الاستحياء والاحتشام ، وإذا كان عزبًا كان أشد لشهوته ، وإذا كانت المرأة هي الطالبة كان أشد لشهوته ، وإذا كانت جميلة كان أعظم ، فإن كانت ذات منصب كان أقوى ، فإن كان ذلك في دارها وتحت حكمها ، بحيث لا يخاف الفضيحة ولا الشهرة كان أبلغ ، فإن استوثقت بتغليق الأبواب والاحتفاظ من الداخل كان أقوى أيضًا ، فإن لرجل كمملوكها وهي كالحاكمة عليه الآمرة الناهية كان أبلغ في الداعي ، فإذا كانت المرأة قد امتلأ قلبها حبًّا للرجل ، فهذا الابتلاء الذي صبر معه مثل الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، صلوات اللّه عليهم أجمعين ، ولا ريب أن هذا من جنس ابتلاء الخليل بذبح ولده ، إذ كلاهما ابتلاء بمخالفة الطبع ودواعي النفس والشهوة ومفارقة حكم طبعه) . اهـ .

ويعلل ابن القيم كلامه ذلك في موضع آخر مبينا أن الابتلاء بمخالفة دواعي النفس والطبع يتوقف على قوة الإيمان ، أما الابتلاء الذي يجرى على العبد بغير اختياره كالمرض والجوع والعطش ونحوها فهو فوق وقوعه على المرء بغير اختياره قد يقع الصبر عليه من البار والفاجر ، أما الابتلاء بمخالفة المرء لنفسه وطبعه فهو يقع منه اختيارا ، ومن أجل ذلك كان صالحو البشر أفضل من الملائكة ؛ لأن الملائكة عبادتهم بريئة عن شوائب دواعي النفس والشهوات .

وأما عبادات البشر فمع منازعات النفوس وقمع الشهوات ومخالفة دواعي النفس والطبع فكانت أكمل ، وبلغ هذا الموقف من الكمال مبلغا عظيما في

موقف يوسف ، عليه السلام ، من امرأة العزيز ، وكان له أسوة في أبيه الأول إبراهيم ، عليه السلام ، ولا يكون هذا ليوسف إلا على رأي جمهور المفسرين ، ومن هنا فالذين ينفون عن يوسف مطلق الهم يسلبون الصديق هذه المنزلة العظيمة التي وقعت له بمخالفته دواعي النفس والطبع ، وكذلك الذين يقولون : إنه هم بضربها .

أما الذين أثبتوا ليوسف همًا مشابهًا لهم المرأة فهؤلاء لم يفطنوا لأسلوب القرآن وسياقه السابق واللاحق الذي يؤكد براءة يوسف ، عليه السلام ، من مشابهة المرأة في همها بأي حال من الأحوال ، وإليك أخي القارئ ذلك :

١- قوله : ﴿ معاذ اللّه ﴾ ؛ فهذا يوسف ، عليه السلام ، لحظة الفتنة وفي عنفوانها كان قوله : ﴿ معاذ اللّه ﴾ بعد أن دعته هي لنفسها دعوة صريحة .

٢- شهادة المرأة نفسها ، حيث قالت : ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ [يوسف : ٣٢] .

٣- اعتراف الشاهد في قوله تعالى : ﴿ وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قميصه قُدَّ من قُبلٍ فصدقت وهو من الكاذبين ﴾ الآية [يوسف : ٢٦] .

٤- وشهادة زوج المرأة (العزيز) إذ قال لزوجه : ﴿ واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ [يوسف : ٢٩] ، بينما قال ليوسف : ﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ [يوسف : ٢٩] .

٥- وقد شهد إبليس ليوسف مع من شهد له ، وذلك مفهوم من قوله الذي حكاه اللّه عنه في قوله سبحانه : ﴿ قال ربِّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين ۞ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [الحجر : ٣٩، ٤٠] .

٦- وهنا نأتي لأكبر شهادة وأشرف شهادة وأعظم شهادة ، وهي تكفي عن غيرها ، وهي شهادة اللّه رب العالمين في الآية التي معنا في هذه الحلقة ، وهي قوله تعالى عن يوسف : ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾

فهذه أولاً : شهادة اللّه .

ثانيًا : هي شهادة مؤكدة بأدوات التوكيد .

ثالثًا : مؤكدة بالمعنى ، حيث أثبت ليوسف ، عليه السلام ، خصوص العبودية في قوله سبحانه : ﴿ من عبادنا ﴾ .

رابعًا : التصريح باللفظ الواضح والوصف الصريح قوله : ﴿ المخلَصين ﴾ ، و﴿ المخلصين ﴾ تأتي بكسر اللام إشارة إلى إخلاص المخلص بفعله ، فهي اسم فاعل ، وتأتي بفتح اللام ، فتكون اسم مفعول ، فهي تدل على وقوع الاصطفاء عليه ، وجاء هنا بالفتح إشارة إلى اصطفاء اللّه ليوسف ، فهل بعد ذلك قول لقائل .

وخلاصة القول : أنه رغم كثرة الدواعي التي أحاطت به من داخل نفسه ومن خارجها ، فإنه صبر على الابتلاء باختياره ، واستعصم واستعاذ باللّه ، واستعان به في صرف السوء والفحشاء عن نفسه ، وهذا هو البرهان الذي رآه يوسف ، عليه السلام . في قوله تعالى : ﴿ لولا أن رأى برهان ربه ﴾ ، ذلك أن يوسف ، عليه السلام ، من قبل آتاه اللّه العلم والحكمة ، حيث قال سبحانه : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكمًا وعلمًا وكذلك نجزي المحسنين ﴾ [يوسف : ٢٢] ، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في اللقاء السابق ، ولا بد من ربط المواقف بعضها إلى بعض ، وتذكرها جيدًا ، وبذلك لن نختلف على البرهان الذي آتاه اللّه يوسف ، عليه السلام ، كما أننا لم نختلف أنه من الصديقين ومن المخلصين ومن المحسنين ، وأنه الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، جعلني اللّه وإياكم من المتأسين بإبراهيم أبي الأنبياء ، وحشرنا على ملته التي بُعث عليها خاتم النبيين محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وإلى لقاء - إن شاء اللّه - والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته .

يوسف عليه السلام في بيت عزيز مصر

المشهد الرابع

بقلم الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله ، وسلام على عباده الذين اصطفى ، وصلاة وسلامًا على نبيه المصطفى ورسوله المجتبى محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .. أما بعد :

فقد مر بنا في المشهد الثاني والثالث في بيت العزيز كيف هامت امرأة العزيز بفتاها يوسف حبًا ، مما جعلها تبذل الجهد الجهيد في مراودته عن نفسه ، واستخدمت في ذلك كل فن ، وانتقلت من مرحلة إلى مرحلة ، حتى وصل بها الأمر إلى إحكام إغلاق الأبواب ، وصرف الحُجَّاب ، وتهيأت ليوسف ، عليه السلام ، بالفعل والقول ، وقالت : ﴿ هَيْتَ لَكَ قال معاذ الله ﴾ [يوسف : ٢٣] ، وقد ثبتت براءة يوسف ، عليه السلام ، من همّ السوء بالمرأة ، وباتت براءته للقريب والبعيد ولصاحب الدار ، حتى قال ليوسف ، عليه السلام : ﴿ أعرض عن هذا ﴾ [يوسف : ٢٩] ؛ أي لا تذكر هذا الأمر لأحد ، وقال لامرأته : ﴿ استغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ [يوسف : ٢٩] .

وقد يتساءل البعض عن سرّ هذا الموقف الذي يبدو سلبيًا من صاحب الدار ؛ لماذا ترك الرجل يوسف ، عليه السلام ، في بيته وهو يعلم مدى فتنة زوجته به ؟

والإجابة على هذا السؤال من وجوه - والله أعلم -:

١- كان الرجل يخشى القيل والقال ، مما يضرُّ بسمعته ، ويؤثر على منصبه ، فآثر السكوت .

٢- وكان الرجل مع ذلك واثقًا من براءة يوسف ، عليه السلام ، وعفته .

٣- ولعله كان ضعيفًا أمام زوجته ، وكان بارد المشاعر ، كما هي أخلاق الكثير من أمثاله .

٤- وكان الرجل مشركًا ، والمشرك لا يغار على شرف ، أو لعل هذه الأمور مجتمعة .

المهم أنه قد وقع ما يخشاه الرجل ، وشاع الأمر في المدينة ، وهنا نأتي معكم للحديث عن المشهد الرابع ، الذي سيكون بعون اللّه وحوله وطوله ومدده وتوفيقه من خلال قوله تعالى : ﴿ وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا إنا لنراها في ضلال مبين ﴿٣٠﴾ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدةٍ منهن سكينًا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش للّه ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملكٌ كريمٌ ﴿٣١﴾ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونًا من الصاغرين ﴿٣٢﴾ قال رب السجن أحب إليَّ مما يدعونني إليه وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ [يوسف : ٣٠- ٣٤] .

يبدو أن امرأة العزيز كانت تُسرُّ بمعاناتها مع يوسف ، عليه السلام ، لإحدى المقربين منها من بنات جنسها ، وعن هذا الطريق انتقل الخبر وشاع في المدينة ، حتى عاد إلى صاحبته ، وهنا يبدأ المشهد الذي ذكره اللّه سبحانه في الآيات السابقة ، والذي ستكون لنا معه الوقفات التالية :

❁ الأولى : مع قوله تعالى : ﴿ .. قال نسوةٌ في المدينة ﴾ : قال : يجوز مع ﴿ نسوة ﴾ بحذف تاء التأنيث وإثباتها ، وجاء هنا بالحذف ، و﴿ نسوة ﴾ على وزن (فِعلة) ، وهو من جموع القلّة في اللغة ، والذي يطلق على الجمع ما دون العشرة ، ويرى بعض المفسرين أنهن كن أربعًا ؛ امرأة ساقي الملك ، وامرأة حاجبه ، وامرأة خبازه ، وامرأة السجان ، ولعل الخبر انتقل إلى واحدة منهن ، ثم شاع في المدينة ، وهذا أمر معروف بين النساء ، ولهنَّ فيه قصب السبق .

لكن تأمل معي كيف شاع الخبر ؟ إنهن قلن : ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبًّا إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ ، فطريقة انتشار الخبر تُلقي باللائمة على امرأة العزيز ، فهي التي راودت ، وهذا هو الحق الذي أنطق اللّه به الجميع ، وهو براءة يوسف ، عليه السلام ، وإلقاء اللوم على امرأة العزيز ، ووصفها بالضلال الواضح.

❁ ثانيًا : مع قوله تعالى : ﴿ فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهنَّ وأعتدت لهن متكئًا ﴾ : يبدو أن امرأة العزيز كانت تُنَفِّس عن نفسها ، وتبث معاناتها إلى بعض صديقاتها تريد التماس النصيحة والعذر منها ، وبالتالي وصفت لها جمال يوسف ، عليه السلام ، ولم تكن ترغب في إشاعة الخبر ، لكن النسوة مكرن بها ، وأشعن الخبر ، وقيل : إنهن أردن رؤية يوسف عن طريق هذه الحيلة ، وعلى أي الأحوال فقد مكرن ، فقابلتهن امرأة العزيز بمكر آخر ، فأرسلت إليهن ، ودعتهن إلى بيتها ، وأعدت لهن المجلس الوثير والطعام الوفير ، وجعلت مع الطعام ما يحتاج إلى سكين ، وقدَّمت لكل واحدة منهن سكينًا .

❁ ثالثًا : في قوله تعالى : ﴿ وقالت اخرج عليهن ﴾ : أمرت يوسف ، عليه السلام ،

بالخروج إلى النسوة ، وألبسته أجمل ثياب ، وهو جميل بطبعه ، فقد أوتي نصف الجمال ، فهو جميل المظهر والمخبر ، كما سنرى قريبًا .

❁ رابعًا : مع قوله تعالى : ﴿ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ : ماذا فعلت رؤية يوسف ، عليه السلام بالنسوة ، إنهن ﴿ أكبرنه ﴾ ؛ أي أعظمنه وأجللنه ، وليس هذا فحسب ، بل لقد أخذت الدهشة من رؤيته بتلابيبهن ، حتى قطعن أيديهن وهن لا يشعرن ، ونطقن في صوت واحد : ﴿ حاش لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

إن هذا الموقف من النسوة يدل على غاية الإجلال والتنزيه واستبعاد الفاحشة عن يوسف ، عليه السلام ، بأي صورة من الصور ، حتى جعلنه في مصاف الملائكة الكرام .

❁ خامسًا : في قوله تعالى : ﴿ قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونًا من الصغرين ﴾ : هذا من امرأة العزيز إعلان واضح وصريح على براءة يوسف ، عليه السلام ، من همّ السوء بها ، وإقرار منها بعفته واعتصامه بالله ، وأنها هي التي راودت وحاولت ، أما هو فاستعصم .

ولما رأت امرأة العزيز ما حدث للنسوة من الدهشة والذهول بمجرد رؤية يوسف ، عليه السلام ، حاولت أن تلتمس لنفسها العذر بما فعلت ، فقالت : ﴿ فذلكن الذى لمتننى فيه ﴾ ؛ وكأنها وجدت ذلك متكأ لتقول في صراحة ووقاحة أمام الجميع : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونًا من الصغرين ﴾ ، ولست أدري ما الذي أصاب المرأة حتى تعلن ما أعلنت ، أهو جنون الحب ؟ أم جنون العظمة ؟ أم هما معًا ؟

إنها وضعت يوسف ، عليه السلام ، بهذا القول أمام واحد من الخيارين ؛ إما الوقوع في الفاحشة ، أو الإلقاء في غياهب السجن ، ويبدو أنها كانت من صاحبات الأمر والنهي ، وهذا من البلاء الذي أصيبت به كثير من المجتمعات قديمًا وحديثًا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

❁ سادسًا : من قوله تعالى : ﴿ قال رب السجن أحب إلىَّ مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ : أصبح يوسف ، عليه السلام ، أمام أحد الخيارين ؛ إما السجن ، وإما الفاحشة ، ماذا يختار يوسف ؟ أيختار الفاحشة التي ستفتح أمامه أبواب اللذة والمتعة والجاه والراحة ، فإن التي تراوده تملك المال والجاه والجمال ، وستمنح يوسف ما يريد وفوق ما يريد ، إن هو وافق على ما تريد ، فهل يوافق على مطلبها أم يختار السجن ؟ لا شك أن يوسف ، عليه السلام ، قد أعلن دون تردد اختيار السجن على ما فيه من مشقة ، ليس حبًا في السجن ، ولكن هروبًا من الفاحشة ، اختار يوسف ، عليه السلام ، عاجل العقوبة على لذة الوصال المحرم ، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوته ، وأخبر أنَّ الصرف عن الفاحشة لا يكون إلا بمعونة الله له وتوفيقه سبحانه وتأييده لا من نفسه .

قال ابن القيم ، رحمه اللّه ، تعليقًا على هذه الآية : (فلا يركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفته ، ومتى ركن إلى ذلك تخلت عنه عصمة اللّه ، وأحاط به الخذلان) . اهـ .

ويقول العبد الفقير : إذا كان هذا الدعاء وهذا اللجوء من يوسف ، عليه السلام ، على ما كان عليه من صبر وعفة وصدق وإخلاص ، فما بال الذين لا يملكون معشار ما كان يملك يوسف من الصبر أو العفة أو العصمة ، نسأل اللّه التوفيق ، ونعوذ باللّه من الخذلان .

وللمسلم أسوة حسنة في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، الذي كان الدعاء ديدنه ، وكان أكثر دعائه قوله : « يا مقلب القلوب ، ثبت قلوبنا على دينك » ، وكان دائم الاستعاذة باللّه من شرّ النفس وسيئات الأعمال .

وأختم هذه الفائدة بنقل كلام نفيس للإمام ابن تيمية ، رحمه اللّه ، في « مجموع الفتاوى » - تفسير سورة « يوسف » - (جزء ١٥) : (في الآية عبرتان :

الأولى : اختيار يوسف السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي .

الثانية : سؤال اللّه ودعائه أن يثبت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته ، وإلا صبا إليهن وصار من الجاهلين ، وفي هذا توكل على اللّه سبحانه ، واستعانته به على الإيمان والطاعة ، والصبر على المحنة والبلاء ، فلا بد من التقوى بفعل المأمور ، والصبر على المقدور ، كما فعل يوسف ، عليه السلام .

ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة اللّه على الكرامة والعزّ في معصية اللّه كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة ، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيمًا وسرورًا ، كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعيم بها ينقلب حزنًا وثبورًا) . اهـ .

✸ سابعًا : من قوله تعالى : ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ ؛ هنا فوائد جمة منها :

١- سرعة استجابة اللّه لأوليائه وأنبيائه .

٢- دليل على صدق يوسف ، عليه السلام ، وإخلاصه .

٣- اتصاف اللّه بالسمع والعلم ، وقد أحاط سمعه بجميع الأصوات ما كان منها ، وما سيكون ، وقد أحاط علمه بما كان وما سيكون ، وهو سبحانه يسمع دعوات أوليائه وأنبيائه في كل زمان ومكان ويستجيب لها .

٤- صَرف اللّه السوء والفحشاء عن يوسف ؛ لأنه كان من المخلصين ، قال تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] .

٥- إن نجاسة الزنا واللواط أغلظ الفواحش من جهة أنها تفسد القلب وتضعف توحيده جدًا ، ولهذا أحظى الناس بها أكثرهم شركًا ، كما حدث لامرأة العزيز ، وكان أبعد الناس عنها أكثرهم توحيدًا ، كما حدث ليوسف ، عليه السلام .

فالتوحيد أصل كل خير وفلاح ، والشرك أصل كل شر وفساد . اللهم أحينا على التوحيد وتوفنا عليه ، وابعثنا يوم القيامة من أهله .

يوسف عليه السلام في السجن

بقلم الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد للّه عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، الذي أعدَّ لكل شيء عدَّته ، وصرف الأمر بحكمته ، وصلاة وسلامًا على النبيِّ الخاتم المبعوث برحمة اللّه للعالمين . وبعد :

أخي القارئ الكريم ؛ وقفنا بك في لقائنا السابق عند إعلان امرأة العزيز أمام جمع النِّسوة أنها هي التي راودت يوسف ، عليه السلام ، عن نفسه ، وأنَّه هو الذي استعصم ، ولم تقف عند هذا الحد ، بل أعلنت في تحد واضح أنه إذا لم يفعل يوسف ، عليه السلام ، ما تأمره به من الفاحشة فسيكون مصيره إلى السجن ، أما يوسف ، عليه السلام ، فقد لجأ إلى اللّه وتضرع إليه أن يعصمه مما أحاط به من فتن ، ولو إلى السجن ، فاستجاب اللّه له وعصمه من كيد امرأة العزيز ، ومن كيد النسوة اللاتي اجتمعن عندها ، ومن كيد ذلك المجتمع بأسره . ولما ينست امرأة العزيز من يوسف ، عليه السلام ، ولم تتمكن من إغوائه ، نفذت وعيدها ، وأودعته في السجن ، وسواء كان ذلك بأمر مباشر منها ، أو بحيلة احتالت بها على زوجها واتهمت يوسف ، عليه السلام ، بأنه هو الذي أشاع أمرها في المدينة ، سواء كان هذا أم ذاك فالنتيجة واحدة ؛ وهي أن البريء الذي لم يذنب ولم يرتكب إثمًا أُودع السجن ظلمًا وبهتانًا ، وهنا جاء ميقات حديثنا عن وقفتنا اليوم ، والتي ستكون بعون اللّه من عدّة وقفات على النحو التالي :

❁ **الأولى** : مع قوله تعالى : ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ [يوسف : ٣٥] :

﴿ بدا لهم ﴾ ؛ أي ظهر لهم - بعد تردّد - سجن يوسف ، عليه السلام ، إلى مدة غير معلومة ، بالرغم من ظهور الآيات المتعدّدة والعلامات الظاهرة على براءته ، ابتداءً من الشاهد الذي رأى القميص وقد قُدَّ من الخلف ، ومرورًا بالنسوة اللاتي قطعن أيديهن ، ووصلاً

إلى اعتراف المرأة الصريح بمراودتها يوسف ، عليه السلام ، وأنه قد استعصم .

برغم كل الأدلة والبراهين الواضحة على براءة يوسف ، عليه السلام ، فقد قرَّر القومُ إيداعه السجن ، لماذا ؟ لأنهم أرادوا ستر القالة ، وكتم ما شاع بين الناس ، والتلبيس على العامة ، وإظهار امرأة العزيز في صورة البريئة الوديعة الآمنة ، ولو على حساب البريء الذي لم يذنب ، وهذه أمور كثيرًا ما تحدث في المجتمعات التي تحكمها أهواء البشر ، فتضطرب فيها موازين العدالة ، وتتحكم النسوة في توجيه سياسة البلاد والعباد .

❁ **الثانية** : مع قوله تعالى : ﴿ ودخل معه السجن فتيان ﴾ [يوسف : ٣٦] :

لما ذكر اللَّه سبحانه في الآية السابقة السجن ، ودخول يوسف ، عليه السلام ، إليه وهو سبب ظاهر في الإهانة ، شرع الحق تبارك وتعالى في بيان ما حاصله أن اللَّه جعل السجن ليوسف ، عليه السلام ، سببًا للكرامة ، فخرج منه عزيزًا كريمًا ، وكانت محنة السجن آخر المحن بالنسبة ليوسف ، عليه السلام ، وسببًا مباشرًا للتمكين ، وما ذلك إلاَّ لأن اللَّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وهذا أحد مشاهد الغلبة والقَهْر في هذه القصة ، فصار السجن سورًا باطنه الرحمة ، وظاهره من قِبله العذاب ، وقدَّم اللَّه ذكر الفتيين ، حيث خروج يوسف ، عليه السلام ، من السجن كان بسبب رؤيا أحدهما ، وكان ساقي الملك ، وعن طريق تعبير هذه الرؤيا أخرج اللَّه يوسف ، عليه السلام ، من السجن ، وجعله صاحب سلطان . وكلمة مسموعة في حكم مصر .

وهكذا يجعل اللَّه من أشياء قد يراها الناس بسيطة سببًا لأشياء عظيمة ؛ لأن اللَّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

❁ **الثالثة** : مع قوله تعالى : ﴿ قال أحدهما إنِّي أرانِي أعصر خَمْرًا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزًا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ [يوسف : ٣٦] :

وهنا أخذ الفتيان يقص كلاهما رؤياه على يوسف ، عليه السلام ، وقد دفعهما إلى ذلك ما لاحظاه على يوسف ، عليه السلام ، من أمارات الإحسان ، مَظْهرًا ومَخْبرًا ، مما جعلهما يحسنان الظن به ، ويلتمسان عنده العلم بتعبير الرؤيا ، كما أنه يبدو أنهما كانا من أصحاب الفطر السليمة ، حيث فَطِنا إلى سلوك يوسف ، عليه السلام ، وإحسانه .

❁ **الرابعة** : مع قوله تعالى : ﴿ قال لا يأتيكما طعامٌ تُرْزَقَانِهِ إلاَّ نبَّأتكما بتأويله قبل أن

يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴿٣٧﴾ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ [يوسف : ٣٧، ٣٨] :

نحن الآن أمام موقف من مواقف الدعوة إلى اللّه يقوم بها يوسف ، عليه السلام ، في السجن ، ولم يثنه السجن عن قيامه به ، وهكذا سلوك أنبياء اللّه وأوليائه ، فغايتهم الأولى الدعوة إلى اللّه ، وتسمو هذه الغاية على كل غاية ، وترتفع فوق ما يصيبهم من محن ، بل بسببها يلاقون أشد المحن ، فلا يبالون بها ، وتظهر هنا براعة يوسف ، عليه السلام ، في الدعوة وحسن توظيفه لإمكاناته ، وحكمته في اختيار الأسلوب المناسب ، ومراعاة مقتضى الحال .

فهو لم يُجب السائلين لطلبهما مباشرة ، بل اهتم أولاً بتصحيح اعتقادهم ، فصلاح الاعتقاد أصل سعادةِ المرءِ وصلاح المجتمع في الدنيا ، والعاقبة الحسنةِ في الآخرة .

ولم يدخل يوسف ، عليه السلام ، إلى هدفه مباشرة ، بل استخدم المراحل الآتية :

١- عرفهما بنفسه من خلال سعة علمه وقدرته على التأويل ؛ كي يكون ذلك أدعى لحسن إصغائهما واهتمامهما بما يقوله ، ومن ثَم قبول الحق الذي يدعو إليه .

٢- بيَّن لهم مصدر هذا العلم ، وأنه ليس من عنده ، بل هو مما علمه ربه ، حتى يَلْفِتَ أنظارهما إلى ربِّه الذي مَنَّ عليه بهذا العلم .

٣- أوضح لهما سبب استحقاقه لهذا العلم ، وهو أنه قد ترك عقيدة القوم الذين لا يؤمنون باللّه ، واتبع مِلَّة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وهذه مِلَّة الحق الأجدر بالاتباع من جميع الناس .

٤- بيَّن لهما بلطف فساد اعتقادهما ، فلم يصرِّح لهما بذلك ، بل عرض وبيَّن فساد اعتقاد القوم ، وفي ذلك لطافة حِسّ وحُسْن مدخل وحكمة في الدعوة .

٥- وأخيرًا أخبرهما أن نجاته من الشرك واتباعه التوحيد ونجاة آبائه إنما ذلك من فضل اللّه عليه وعلى آبائه وعلى الناس أجمعين ، فالهداية إلى الحق من أفضل نعم اللّه يمنُّ بها على الشاكرين من عباده ، ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

❋ **الخامسة** : مع قوله تعالى : ﴿ يا صاحبي السجن أأربابٌ متفرقون خيرٌ أم اللّه الواحد القهّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] :

بعد التمهيد السابق طرح يوسف ، عليه السلام ، على صاحبيه هذا التساؤل الذي يثيرُ العقل ويلفت النظر ، وينبِّه الفطرة السليمة ، وضعهما أمام مقارنةٍ لا يمكن لعاقل أن يحيد عن الحق فيها .

وفي قوله : ﴿ يا صاحبي السجن ﴾ تلطف في الدخول إلى الغَرض ، والصحبة هنا إشارة إلى صحبة الاختصاص التي جمعت بينهم في المكان ، وربما أيضًا اشتراكهم في الظلم الواقع عليهم جميعًا ، وجاء استخدام لفظ : ((أرباب)) في مقابلة لفظ الجلالة ((اللّه)) من أبدع ما يكون ، حيث لفظ ((رب)) مشترك يُطلق على اللّه رب

العالمين ، وكذلك يطلق على رب القوم ورب البيت ورب المهنة ، والسيد المطاع في قومه وغير ذلك ، فناسب الفُرقَة والاختلاف ، وأما لفظ الجلالة ((اللّه)) فهو علم على الذات الإلهية ، لم يُطْلَق إلا على اللّه الواحد الأحد ، فناسب الوصف بالوحدانية والقهر ، فالأرباب التي يتخذها الناس آلهة من دون اللّه موصوفة بالتفرق والاختلاف والعجز أمام اللّه سبحانه ، فهو موصوف بكل صفات الجمال والجلال ، ومنها الوحدانية والقهر ، وأراد يوسف ، عليه السلام ، بهذه المقارنة أن ينفذ منها إلى الإعلان الآتي :

❁ **السادسة** : مع قوله تعالى : ﴿ ما تعبدون من دونه إلاّ أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل اللّه بها من سلطنٍ ۚ إن الحكم إلا للّه ۚ أمر ألا تعبدوا إلاّ إياه ۚ ذلك الدّين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [يوسف : ٤٠] .

هنا وصل يوسف ، عليه السلام ، إلى التصريح بفساد اعتقاد صاحبيه هما وقومهما من أهل مصر ؛ حيث اتخذوا من دون اللّه آلهة مزيفة هم الذين صنعوها بأنفسهم ووضعوا أسماءها من عند أنفسهم أيضًا ، فهي ليست من الحق في شيء ، وكيف يليق بالإنسان العاقل أن يعبد من دون اللّه آلهة صنعها هو بنفسه ، فهي آلهة عاجزة ، لا تنفع ، ولا تضر ، ولا تبصر ، ولا تسمع ، فهذا غاية البطلان والفساد ، وفي مقابل ذلك الباطل الذي عليه القوم وعليه كل مشرك أعلن يوسف ، عليه السلام ، في وضوح حقيقة الدين الحق : ﴿ إن الحكم إلا للّه أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

﴿ إن الحكم إلا للّه .. ﴾ أسلوب قصر وحصر يفيد اختصاص اللّه بالحكم ، وهذا الاختصاص بالحكم من أهم خصائص العبودية ونابع منها ، ولذلك قال : ﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ ، فاختصاص اللّه بالحكم نابع من اختصاصه بالعبادة ، فالدين ما شرع ، والأمر ما حكم سبحانه ونحن عبيده ليس لنا إلا إخلاص العبادة له سبحانه ، ومنها الاحتكام إليه في كل شأن من شئون حياتنا ، وألا نتقدم بين يدي اللّه ورسوله في أمر ما ، ولا نقبل من أحد أن يفعل ذلك ، ﴿ ذلك ﴾ : أي اختصاص اللّه بالحكم تحقيقًا لاختصاصه بالعبادة وحده لا شريك له هو : ﴿ الدين القيم ﴾ ؛ أي القويم المستقيم الواضح الذي يصلح عليه أمر الدنيا والآخرة .

وذلك هو دين الحق الذي أرسل اللّه به جميع رسله ، وأنزل به جميع كتبه ، حتى ختم رسله بمحمد صلى اللّه عليه وسلم ، وختم كتبه بالقرآن الكريم مهيمنًا على ما سبقه من كتب ، قال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أُمةٍ رسولاً أن اعبدوا اللّه واجتنبوا الطاغوت ﴾ [النحل : ٣٦] ، وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلاّ نوحي إليه أنه لا إله إلاّ أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، فعبودية اللّه سر الخلق والأمر ، وهذا هو الدين القيم ارتضاه اللّه لعباده منذ خلقهم ، وإلى يوم يبعثون ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فاحتكموا إلى أهوائهم ، واتبعوا الشيطان ، وحكّموا في شرع اللّه الرجال ، والأوضاع والرسوم والأفكار ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه .

وإلى لقاء يجمعنا في وقفة أخرى ، نسأل اللّه أن ينفعنا بسيرة أنبيائه ، وأن يجعلنا جميعًا من عباده الصالحين ، وأوليائه المتقين . آمين ، آمين . والحمد للّه رب العالمين .

يوسف عليه السلام في السجن

الشهد الثاني

تأويل الرؤى

بقلم الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . أما بعد :

فقد وقفنا بك أيها القارئ الكريم في لقائنا السابق عند دخول يوسف ، عليه السلام السجن ، ولقائه بصاحبيه هناك ، ودعوتهما إلى دين الله الحق .

ومما ذكرنا أن السجن ظاهره العذاب ، لكن الله جعله طريقًا لتمكين يوسف ، عليه السلام ، في أرض مصر ، وبسط سلطانه على خزائنها وأهلها ، بل وملكها أيضًا ؛ ذلك لأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وأيضًا رأينا في اللقاء السابق كيف ظهرت مواهب يوسف ، عليه السلام ، في الدعوة إلى الله ، وكيف استفاد من الموقف بحكمة ولطف ، فبدأ بتقديم الأهم لصاحبيه ، بل الأهم لأهل الأرض قاطبةً ، ألا وهو إصلاح الاعتقاد في الله واليوم الآخر ، فذلك أصل كل خير ، ومصدر كل سعادة في الدنيا والآخرة ، ثم بعد ذلك أخذ يوسف ، عليه السلام ، في الإجابة على سؤال صاحبيه وتأويل رؤيتيهما ، وهنا يصل الحديث إلى وقفتنا اليوم ، والتي ستكون - بعون الله - كما يلي :

● **أولاً : تأويل ما رأى صاحباه في السجن :**

قال تعالى : ﴿ يا صاحبي السجن أمَّا أحدكما فيسقي ربَّه خمرًا وأما الآخر فيُصلب فتأكل الطير من رأسه قُضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ [يوسف : ٤١] .

أخذ يوسف ، عليه السلام ، في تأويل ما رأى صاحباه ، فقال : أما أحدكما فسينجو من السجن ، ويصبح ساقيًا للملك ، وأما الآخر فسوف يموت صلبًا ، وقدم خبر الناجي أولاً ، ثم عقب بعد ذكر خبر

الثاني بقوله : ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ ؛ حتى لا يدع مجالاً للنقاش أو للشك فيما قال .

● **ثانيًا** : مشروعية الأخذ بالأسباب وعدم منافاته للتوكل :

قال تعالى : ﴿ وقال للذي ظنَّ أنه ناجٍ منهما اذكرني عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربِّه فلبث في السجن بضع سنين ﴾ [يوسف : ٤٢] .

قال يوسف ، عليه السلام ، للفتى الذي ظنه ناجيًا منهما : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ؛ أي عند الملك ، اذكر أمر دخولي السجن بغير ذنب عند الملك ، لعله يحقق الأمر ويتبين وجه الصواب فيه ، وليس في هذا ما يناقض التوكل بحال من الأحوال كما توهم البعض ؛ لأن يوسف ، عليه السلام ، كان من الموحدين بشهادة رب العالمين حيث مرَّ بنا قوله تعالى في وصف يوسف ، عليه السلام : ﴿ إنه مِنْ عبادنا المُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف : ٢٤] ، والإخلاص هو أصل التوحيد ، ويوسف ، عليه السلام ، هو الذي دعا إلى التوحيد عندما دخل السجن - وقد مرّ بنا ذلك أيضًا - ومنه قوله : ﴿ إن الحكم إلاّ للّه أمر ألا تعبدوا إلا إياه ﴾ [يوسف : ٤٠] .

ويوسف هو الذي استعصم عندما طُلبت الفاحشة منه وقال : ﴿ معاذ اللّه ﴾ ، فيوسف ، عليه السلام ، موحدٌ ولم يكن من المشركين ؛ لأن التوكل على غير اللّه شرك ، ويوسف ، عليه السلام ، لم يكن مشركًا لا في عبادته ، ولا في توكله ، بل قد توكل على اللّه في فعل نفسه - هو - فقال : ﴿ وإلا تصرف عني كيدهنَّ أصبُ إليهنَّ وأكن من الجاهلين ﴾ [يوسف : ٣٣] ، هذا توكل يوسف ، عليه السلام ، على اللّه في فعل نفسه ، فكيف لا يتوكل على اللّه في فعل غيره ؟ (فعل نفسه هو امتناعه عن الفاحشة ، وفعل غيره ما طلبه من الفتى) .

فلم يكن قول يوسف للفتى : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ مناقضًا للتوكل ، وليس فيه إلا مجرد إخبار الملك بحاله ، فهو قد أخذ بالأسباب وتوكل على رب الأرباب ، ثم إن يوسف ، عليه السلام ، لم يتعجل خروجه من السجن ، بل كان من أثبت الناس عند المحن ، ومنها السجن ، والدليل على ذلك أنه لم يخرج من السجن بمجرد صدور أمر الملك بذلك وإرساله من يستدعي يوسف ، عليه السلام ، من السجن ، بل أعاد الرسول إلى الملك ورفض الخروج قبل التحقيق في سبب دخوله - كما سيأتي ، إن شاء اللّه .

أما قوله تعالى : ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ . فالصحيح من أقوال أهل العلم أن الذي أنساه الشيطان ذكر ربِّه هو الساقي ، عندما خرج من السجن وذهب إلى قصر الملك انشغل بحياته الجديدة ونسي أن يذكر أمر يوسف للملك .

أما يوسف فلم ينس ذكر ربه يومًا ، لا في السجن ولا خارج السجن ، بل نسي محنته ودعا إلى توحيد ربِّه ، كما سبق بيانه .

والسياق القرآني الكريم يؤكد أن الساقي هو الذي نسي ؛ لأنَّه هو الذي تذكر فيما بعد ، فقال تعالى : ﴿ وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أُمَّةٍ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ [يوسف : ٤٥] ، فهذا الساقي الذي نسي من قبل تذكر بعد فترة من الزمن عندما سمع رؤيا الملك .

أما قوله تعالى : ﴿ فلبث في السجن بضع سنين ﴾ ؛ أي ظلَّ يوسف ، عليه السلام ، في السجن مدَّة تتراوح ما بين ثلاث إلى تسع سنوات ، وهي المدة التي قضاها في السجن ، فإذاً ثبت فيما سبق عود الضمير في قوله تعالى : ﴿ فأنساه الشيطان

ذكر ربّه ﴾ على الساقي وليس على يوسف ، عليه السلام .

إذن فليس هناك علاقة البتة بين لبْث يوسف ، عليه السلام ، في السجن ، وبين قوله للساقي : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ، وذلك من وجهين :

الوجه الأول : أن من قال بعود الضمير على يوسف قوله ضعيف ، وقد بين أهل العلم ضعف هذا القول ، ومنهم الإمام ابن كثير - رحمه اللّه - في تفسيره ، حيث قال : (والصحيح إن الضمير في قوله : ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ عائد على الساقي كما قال مجاهد ، ومحمد بن إسحاق ، وعكرمة ، وغيرهم ، ومن قال إن الضمير يعود على يوسف فقوله ضعيف ، وإن كان رُوي عن ابن عباس ، وأسند ابن جرير هاهنا حديثًا فقال : حدثنا ابن وكيع ، حدثنا عمرو بن محمد ، عن إبراهيم بن يزيد ، عن عمرو بن دينار ، عن عكرمة ، عن ابن عباس مرفوعًا قال : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : ((لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال - أي : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ - ما لبث في السجن طول ما لبث ، حيث يبتغي الفرَج من عند غير اللّه)) . وهذا الحديث ضعيف جدًا ؛ لأن سفيان بن وكيع ضعيف ، وإبراهيم بن يزيد هو ((الجوزي)) أضعف منه أيضًا ، وقد رُوي هذا الحديث مرسلاً عن الحسن وقتادة ، وهذه المرسلات لا تُقبل هاهنا ولو قُبل المرسل من حيث هو في غير هذا الموضع ، واللّه أعلم) .

وفي موضع آخر يقول ابن كثير - رحمه اللّه :

(فأما قول ابن حبان في ((صحيحه)) ، عند ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف ، عليه السلام ، في السجن ما لبث : أخبرنا الفضل بن الحبَّاب الجمحي ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ((رحم اللّه يوسف ، لولا الكلمة التي قالها : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ ما لبث في السجن ما لبث)) . يقول ابن كثير : هذا حديث منكر من هذا الوجه ، ومحمد بن عمرو بن علقمة له أشياء يتفرد بها وفيها نكارة ، وهذه اللفظة من أنكرها وأشدّها ، والذي في الصحيحين يشهد بغلطها ، واللّه أعلم) . انتهى كلام ابن كثير في ردّه على أصحاب هذا القول ، ومما استدل به على نكارة ذلك القول ما جاء في الصحيحين البخاري ومسلم ، فما الذي جاء فيهما ؟

اللفظ الذي جاء في الصحيحين هو : ((لو لَبِثتُ في السجن ما لَبِثَ يوسف لأجبتُ الداعي)) ؛ أي لخرجت فورًا من السجن مع أول نداء من الملك بذلك ، ولما انتظرت كما فعل يوسف ، عليه السلام ، وأنتم ترون أن هذه العبارة مناقضة تمامًا للتي جاءت في صحيح ابن حبان ، وهي شهادة كريمة من نبينا لأخيه يوسف ، عليهما السلام ، بالصبر والثبات .

وخلاصة القول : إن دخول يوسف السجن كان بميقات وخروجه منه أيضًا بميقات وقته رب الأرض والسماوات ، وليس مرتبطًا بقول يوسف ، أو نسيان الساقي ، هذا هو الصواب ، واللّه أعلم .

● **ثالثًا** : رؤيا الملك :

قال تعالى : ﴿ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجافٌ وسبع سنبلاتٍ خُضْرٍ وأُخَرَ يابساتٍ يأيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴾ [يوسف : ٤٣] .

أخي الكريم ؛ إذا أراد اللّه أمرًا هيأ له أسبابه ، وهذا أوان خروج يوسف ، عليه السلام ، من السجن قد قرب - بإذن اللّه - فهيأ له اللّه السبب المباشر ، وهو رؤيا ملك مصر التي رآها في نومه .

والملك هو الريان بن الوليد ، كما ذكر أصحاب السِّير والتاريخ ، وقيل : إنه لم يكن من الفراعنة ، ولكن كان من الهكسوس الذين حكموا مصر في تلك الحقبة من الزمن ، ولذلك قال بعض المفسرين : إن القرآن لم يذكره بلقب الفرعون ، وذكره بلقب الملك .

والرؤيا كما عرضها السياق القرآني الكريم بإيجاز بليغ معجز هي رؤية الملك في نومه لسبع بقرات سمان تأكلها سبع بقرات عجاف مهازيل ، وكذلك رأى سبع سنبلات خضر تأكلهن سبع سنبلات يابسات ، فاندهش الملك لهذه الرؤيا ، وتحيَّر فكره فيها ، وأصابه الخوف والهلع بسببها ، فدعا أشراف قومه وكبراءهم وعلماءهم ، وقصَّ عليهم ما رأى لعله يجد عندهم تأويلاً لها ، لكن القوم قالوا جميعًا كما قصَّ علينا ربنا : ﴿ قالوا أضغاث أحلامٍ وما نحن تأويل الأحلام بعالمين ﴾ [يوسف : ٤٤] ، فازداد همُّ الملك وتضاعف حزنه وخوفه ، وهنا تذكر صاحب يوسف ، عليه السلام ، الذي هو الآن ساقي الملك ، تذكر ما كان من أمر يوسف في السجن ، وما طلبه منه يوسف ، وتذكر علم يوسف بتأويل الرؤيا ، فقال على الفور : ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ [يوسف : ٤٥] .

● **رابعًا** : تأويل رؤيا الملك :

قال تعالى حكاية عن الساقي : ﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا في سبعِ بقراتٍ سمانٍ يأكلهن سبعٌ عجافٌ وسبعِ سنبلاتٍ خُضرٍ وأخر يابساتٍ لعلي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴾ [يوسف : ٤٦] ، وهنا انتقل المشهد مباشرة من مجلس الملك إلى السجن ، فهناك مساحة من الزمان والمكان ، وهناك أحداث كثيرة ما بين قوله : ﴿ فأرسلون ﴾ ، وقوله : ﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا ﴾ ، تجاوز السياق القرآني هذه الأحداث ولم يبرزها ، وأبرز الحدث الرئيسي ، وهذا من بلاغة السياق القرآني في القصة عمومًا ، وفي قصة يوسف على وجه الخصوص .

جاء السائل إلى يوسف يستفتيه في رؤيا الملك ، فهل قال يوسف : لا ، لن أجيبكم حتى أعرف لماذا وضَعْتُموني في السجن ؟ هل قال : لن أجيب حتى تخرجوني من هذا السجن الذي وُضِعتُ فيه ظلمًا وزورًا ؟ لا لم يقل شيئًا من ذلك ، ولو قاله لكان محقًّا ، بل سارع يوسف لهم بالإجابة فقال : ﴿ تزرعون سبع سنين دَأَبًا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ۞ ثم يأتي من بعد ذلك سبعٌ شدادٌ يأكلن ما قدَّمتُمْ لهن إلا قليلاً مما تُحصنون ۞ ثم يأتي من بعد ذلك عامٌ فيه يُغاث الناس وفيه يَعصرون ﴾ [يوسف : ٤٧- ٤٩] .

فالبقرات السبع السمان هي سنوات زيادة الخير والنماء ، والبقرات العجاف هي سنوات القحط التي ستأتي بعدها ، فتأتي على كل المدخرات من الحبوب الغذائية ، ولن يتبقى منها إلا القليل ، ثم يأتي عام يزداد فيه الخير ويعم الرخاء ، عبر يوسف لهم الرؤيا وزادهم مما علَّمه اللّه ، وأرشدهم إلى طرق الوقاية والتحصين ، كل ذلك بصدق وإخلاص وتجرد ، ولم يسألهم أجرًا ، ولم يطلب منهم منزلة ولا جاهًا ، ولم يطلب منهم حقه المهضوم ، فهو قد فعل ما فعل رغبة فيما عند اللّه ، وتلمسًا لطريق يدعو فيه إلى اللّه ، فهو من عباد اللّه المخلصين ، ومن أوليائه المتقين ، وهو كذلك من المحسنين كما وصفه رب العالمين .

فما عاقبة إحسانه وتقواه ؟ وما عاقبه صبره على ما ابتلاه اللّه ؟ ذلك ما سنراه - إن شاء اللّه - في وقفاتٍ قادمةٍ .

وإلى ذلك نستودعكم اللّه الذي لا تضيع ودائعه .

إعلان براءة

يوسف عليه السلام

بقلم الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد للَّه ولي الصالحين ، كتب على نفسه نصر أوليائه في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، والصلاة والسلام على نبيه محمد بن عبد اللَّه الذي أرسله ربُّه رحمةً للعباد . أما بعد :

ففي لقائنا السابق وقفنا عند تأويل يوسف ، عليه السلام ، لرؤيا الملك ، حيث بذل لهم النَّصيحة وأرشدهم إلى ما يجبُ عليهم فِعْلُه في سنوات الرخاء وسنين الشدَّة ، ثم بَشرهم بعام يأتي من بعدهن فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون ، وقد عاد السائل إلى الملك بذلك التأويل وتلك البشرى ، فزال ما كان قد أصاب الملك من خوف ، وتساءل الملك مع نفسه ومع ساقيه وأيضًا مع جلسائه : أيوجد هذا العلم الذي عجز عنه الجميع مع شاب في السجن ، وهنا جاءت مناسبة الساقي ليذكر أمر يوسف ، عليه السلام ، وما رآه منه من علم وفضل وإحسان خلال المدة التي قضاها معه في السجن ، وحينئذ يشعر الملك بحاجته الماسة إلى رجل مثل يوسف ، عليه السلام ، في أمانته وعلمه وحكمته وصدقه ، فأرسل في طلبه ، والآن نصل وإياك أخي القارئ الكريم إلى وقفتنا اليوم مع هذه القصة المباركة ، والتي ستكون بعون اللَّه وحوله وطوله ومدده كالتالي :

أولاً : مع قوله تعالى :

﴿ وقال الملك ائتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليمٌ ﴾ [يوسف : ٥٠] .

طلب الملك إحضار يوسف ، عليه السلام ، ليصبح قريبًا منه وفي مجلسه ، وأدرك الملك بفطنته وذكائه أن مثل يوسف لا يجب بقاؤه في السجن بحال ، فأصدر عفوًا فوريًّا عنه ، وأرسل في استدعائه لمجلسه ، ولما وصل إلى السجن من يستدعي يوسف ، عليه السلام ، إلى حضرة الملك ، قال يوسف للرسول - وربما كان الساقي أو غيره - : ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن

ربي بكيدهن عليمٌ ﴾ ، رفض يوسف ، عليه السلام ، الخروج من السجن قبل وضوح موقفه وتبين سبب دخوله السجن ، وحتى لا يكون تأويله للرؤيا هو الذي شفع له في الخروج ، فيبقى حديث ما قُذِفَ به من قبل - وكان سببًا في دخوله السجن - فاشيًا بين الناس فيتسلق منه الحاسدون إلى انتقاص شأنه عند الملك يومًا ما .

هذا ، ومع أن براءة يوسف ، عليه السلام ، كانت معلومة للقاصي والدَّاني حتى الذين سجنوه يعلمون تمام العلم براءته مما نُسِبَ إليه ، ومع ذلك تبقى تبرئة العرض من التهم الباطلة وحرص المسلم على نظافة سمعته وبياض صفحته ، كل ذلك يبقى مطلبًا شرعيًّا يجب أن يحرص عليه المسلم كما حرص عليه يوسف ، عليه السلام ، وكما تعلمنا من نبينا محمد ﷺ ، فقد جاء في « الصحيحين » عن صفية زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين ، رضي اللَّه عنها ، قالت : كان رسول اللَّه معتكفًا ، فأتيته أزوره ليلاً ، فحدثته ، ثم قمت ، فانقلبتُ ، فقام معي ليقلبني - يوصِّلُها - مكان مسكنها في دار أسامة بن زيد ، فمرَّ رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فقال النبي ﷺ : « على رسلكما إنها صفية بنت حيي » . فقالا : سبحان اللَّه يا رسول اللَّه ، فقال : « إنَّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًا - أو قال -: شيئًا » .

ولما كان الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم حرص يوسف ، عليه السلام ، أن يكون موقفه واضحًا ، وليكون حضوره عند الملك مرموقًا بعين لا تنظر إليه بشائبة نقص ، ولا يبقى مهمز لحسود ، وهذا من حكمة يوسف ، عليه السلام ، التي ألهمه اللَّه إياها ، كما يظهر صَبْر يوسف ، عليه السلام ، وثباته بوضوح في هذا الموقف ، وقد مرَّ بنا في المقال السابق حديث رسول اللَّه ﷺ المتفق على صحته من رواية أبي هريرة ، رضي اللَّه عنه ، حيث قال ﷺ : « لو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » ؛ أي لو مكثت في السجن تلك المدَّة التي مكثها يوسف ، عليه السلام ، بغير ذنب ، ثم جاءني رسول الملك يستدعيني لأجبته دون انتظار ، وهذه شهادة من خاتم النبيين لأخيه يوسف بالصبر والثبات والحكمة وعدم التسرع والثقة فيما عند اللَّه ، فإن يوسف ، عليه السلام ، يعلم أن خروجه من السجن بأجل معلوم يعلمه اللَّه ، وليست المشكلة في السجن ، ولكن المشكلة فيما دخل من أجله السجن ، فأراد يوسف ، عليه السلام ، أن يضع حدًّا لهذه الفتنة ، حتى لا تُطِلَّ برأسها من جديد عندما يواجه المجتمع مرة أخرى ، فالشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم ، وكذلك النساء كيدهن عظيم ، فكان من المهم تطويق هذه الفتن بإعلان البراءة التامة أمام الجميع قبل خروج يوسف ، عليه السلام ، من السجن ومباشرة حياته الجديدة ، واللَّه المستعان ؛ ولذلك رفض يوسف ، عليه السلام ، الخروج قبل هذا الإعلان العام ، في حضور الملك وكبار رجالات الدولة في مصر ، وليعلم كذلك جميع أهل مصر براءة يوسف ، عليه السلام .

ثانيًا : إعلان البراءة :

قال تعالى حكاية عن ملك مصر : ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشَ للَّه ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودتُه عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب

وأن اللّه لا يهدي كيد الخائنين ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفورٌ رحيمٌ ﴾ [يوسف : ٥١- ٥٣] .

نحن الآن في مجلس الملك كما تصوره هذه الآيات الكريمة ، وقد جمع الملك النّسوة اللاتي قطعن أيديهن من قبل عند رؤية يوسف ، عليه السلام ، وكذلك امرأة العزيز ، ولا شك أنه قد حضر هذا المجلس جمع كبير من كبار رجال الدولة والمقربين من الملك والوجهاء والأعيان والعلماء والقضاة وغيرهم ، وقد وجه الملك هذا السؤال للنساء أمام الجميع ، ولو كان هناك إرسال تلفزيوني لبث اللقاء من خلاله إلى كافة أنحاء مصر ، والعالم عبر القنوات الفضائية ، فهذا إعلان عام ، ومحاكمة علنية - لكن تسجيل القرآن لها أعظم وأحكم - قال النسوة : سبحان اللّه ما علمنا على يوسف من سوء ، وجاء التعبير بـ (من) ؛ لإفادة نفي جميع أنواع السوء ، وهنا أعلنت امرأة العزيز براءة يوسف ، عليه السلام ، كما أعلنتها من قبل ، لكن هذا الإعلان يختلف ، فهناك أمام النسوة في بيتها أعلنت ذلك من قبل على سبيل التحدي والغرور والإصرار على الفاحشة ، أما هنا فقد أعلنت أمام الجميع ، وفي حضور الملك وحاشيته.

وكان إعلانها في هذا المجلس من باب التوبة والندم وإحقاق الحق ، والشعور بالذنب ، لذلك أتبعت اعترافها بقولها : ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن اللّه لا يهدي كيد الخائنين ﴾ .

أين هذا القول من قولها السابق في مجلس النسوة : ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونًا من الصاغرين ﴾ [يوسف : ٣٢] ؟

إنه فرق كبير كما بين السماء والأرض ، ثم أردفت تقول : ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفورٌ رحيمٌ ﴾ ، من يصدق أن التي كانت تجاهر بالمعصية أمس وتتحدى من أجلها ، هي التي تقول هذا الكلام ، إن الكلام هو كلامها وليس من قول يوسف ؛ لأن يوسف ، عليه السلام ، كان في السجن ، ولم يحضر هذا المجلس ، وهذا الكلام كلّه متمم لبعضه ، وقالته امرأة العزيز في مجلس واحد .

وهذا يدل على أن تغيرًا ما حدث في حياتها ، ولهذا يرى بعض المفسرين أنها تزوجت بيوسف ، عليه السلام ، بعد وفاة زوجها ، ويقال - كما نقل غير واحد من المفسرين نقلاً عن أهل الكتاب - أن قطمير زوج زليخا كان قد مات فولي الملك يوسف ، عليه السلام ، مكانه وزوّجه امرأته فوجدها بكرًا .

المهم أن هذا هو موقف امرأة العزيز - أو « زليخا » كما يسميها المؤرخون - وقد قالت الحق واعترفت بالذنب وندمت عليه وطلبت من اللّه المغفرة ، فإنه سبحانه هو الغفور الرحيم .

وبهذا الموقف قد ظهرت براءة يوسف ، عليه السلام ، بوضوح تام وبصورة لا تدع مجالاً للقيل أو القال ، وذلك إيذان بخروج يوسف ، عليه السلام ، من السجن ليتبوأ مكانته في أرض مصر ، ويباشر سلطانه في أقوات أهلها ، فيكون ملكًا نبيًّا لأهل مصر فيسعدون به ، وتسعد به الشعوب المجاورة لشعب مصر ، ذلك لأن اللّه يصيب برحمته من يشاء ولا يضيع أجر المحسنين ، هذا في الدنيا وما عند اللّه في الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون .

أسأل اللّه أن يجعلني وإياك منهم ، وإلى لقاء أستودعك اللّه الذي لا تضيع ودائعه ، والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته .

يوسف عليه السلام
على خزائن الأرض

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، وصلاة وسلامًا على عبده ورسوله المصطفى نبينا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه من الأنبياء والمرسلين .. وبعد :

أخي الكريم ؛ وقفنا بك في لقائنا السابق عند إعلان البراءة العام ، والذي تمَّ بحضور النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، وبحضور امرأة العزيز التي أعلنت في وضوح كامل براءة يوسف ، عليه السلام ، من جميع ما نُسب إليه ، وأنها هي المخطئة ، وهو من الصادقين ، عند ذلك تَسَنَّى ليوسف ، عليه السلام ، أن يخرج من السجن عزيزًا كريمًا ، مبرأ العِرض ، لا تنظر إليه عينُ حسودٍ بشائبة نقص يومًا ما ، وهذا الذي حرص عليه يوسف ، عليه السلام ، ورفض الخروج من السجن قبل تمامه ، كما ذكرنا في وقفتنا السابقة ، والآن - أخي الكريم - نصلُ بك إلى وقفتنا اليوم . والتي ستكون بعون الله تعالى كما يلي :

✹ أولاً : مع قوله تعالى : ﴿ وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ [يوسف : ٥٤] .

بعد ظهور براءة يوسف ، عليه السلام ، من كل ما نُسب إليه ، قال الملك : ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ ، وأرجو أن تقارن معي - أيها القارئ الكريم - بين قول الملك الآن وقوله في المرَّة السابقة ليظهر لك الفرق واضحًا في المرة السابقة بعد تأويل الرؤيا قال : ﴿ ائتوني به ﴾ ، ولم يزد عليها ، لكن هذه المرة وبعد ظهور البراءة الكاملة قال : ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ ، وقول الملك : ﴿ أستخلصه لنفسي ﴾ يدل على ارتفاع منزلة يوسف ، عليه السلام ، عنده بعد ظهور براءته ، وعادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة لهم دون غيرهم ، فدلَّ ذلك على نفاسة يوسف ، عليه السلام ، عنده خصوصًا بعد إعلان براءته ، وهذا من فضل الله على يوسف ، حيث ألهمه الحكمة ، فلم يخرج من السجن مع أول نداء ورفض ، حتى تظهر حقيقة الأمر .

✹ ﴿ فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ :

طلب الملك استخلاص يوسف ، عليه السلام ، لنفسه قبل أن يراه ، والآن خرج يوسف من السجن وذهب إلى قصر الملك في موكب مهيب ، واستقبال حافل وغيرها مما تجاوز عنها السياق القرآني ، وانتقل مباشرة إلى الحوار الذي حدث بين الملك ويوسف ، عليه السلام ، والملك - كما رأينا - قد تعلق قلبُه بيوسف قبل أن يجلس إليه

ويحاوره ، وقال : ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ .

فلما رأى الملك يوسف وسمع كلامه ، وعظمت منزلة يوسف أكثر من ذي قبل في عين الملك وفي نفسه قال له : إنك ذو مكانة وأمانة ، بحيث يتمكن مما يريده من الملك ، ويأمنه الملك على ما يطلع عليه من أمره ، أو على ما يكله إليه من أمور ؛ أي أطلق الملك يد يوسف ، عليه السلام ، في جميع أمور المملكة المصرية وخيَّره أن يتقلد من المناصب ما يشاء ، وقد نقل المفسرون عن أهل الكتاب : ((أن فرعون عظم يوسف ، عليه السلام ، جدًّا وسلطه على جميع أرض مصر ، وألبسه الحرير وطوقه الذهب وحمله على مركبه الثاني ، ونُودي بين يديه : أنت رب ومسلط ، وقال له : لست أعظم منك إلا بالكرسي)) . اهـ .

✹ ثانيًا : مع قوله تعالى : ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ [يوسف : ٥٥] :

لما خير الملك يوسف ، عليه السلام ، في المنصب الذي يحبُّ أن يتقلده قال يوسف ، عليه السلام : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ ؛ أي ولني أمر حفظ خزائن أرض مصر وما فيها من الأطعمة والأموال ، ثم قدَّم له تعليل طلبه ، فقال : ﴿ إني حفيظ عليم ﴾ ؛ أي ضابط لها ولا أصرفها إلا في مصارفها ولدي العلم الكامل بوجوه جمعها وتفريقها ومدخلها ومخرجها ، ويوسف ، عليه السلام ، لم يطلب هذا الطلب ليتحكم به في رقاب العباد ، لا بل طلبه ليتوصل به إلى نشر العدل ورفع الظلم ، ودعوة أهل مصر للإيمان باللَّه ، وترك عبادة الأوثان .

ويوسف ، عليه السلام ، يعلم أهمية الاقتصاد في توجيه حياة الناس ، وخصوصًا والبلاد قادمة على سنوات متقلبة ؛ رخاء يعقبه جدب ، ثم رخاء ، فلا بد من إحكام الأمور وعدم تركها في أيدي من لا يحسنون التصرف أو يحكمون الهوى ، هذا وقد تكلم المفسرون ، رحمهم اللَّه ، قديمًا وحديثًا فيما يُستفاد من قول يوسف ، عليه السلام : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض ﴾ ، وإليك بعض هذه الأقوال إتمامًا للفائدة :

١- قال ابن كثير ، رحمه اللَّه : (طلب أن يوليه النظر فيما يتعلق ببيوت الطعام ، وفي ذلك دليل على جواز طلب الولاية لمن علِمَ من نفسه الأمانة والكفاءة) . انتهى مختصرًا .

٢- وقال صاحب ((التحرير والتنوير)) : (الآية أصل في وجوب عرض المرء نفسه لولاية عمل من أمور الأمة إذا علم أنه لا يصلح له غيره ؛ لأن يوسف كان المؤمن الموحد الوحيد في ذلك القُطر ، فلا يعارض هذا ما جاء في ((صحيح مسلم)) عن عبد الرحمن بن سمرة قال : قال لي رسول اللَّه ﷺ : ((يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها من غير مسألة أُعنت عليها)) ؛ لأن عبد الرحمن بن سمرة لم يكن متفردًا بالفضل من بين أمثاله ولا راجحًا على جميعهم) . كما هو حال يوسف ، عليه السلام .

٣- قال العلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي : قال بعض أهل العلم : (في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر والسلطان الكافر ، بشرط أن يعلم أنه يفوّض إليه في فعل لا يعارضه فيه فيصلح منه ما شاء ، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره ، فلا يجوز ذلك ، وقال قوم : إنّ هذا كان ليوسف ، عليه السلام ، خاصة وهذا اليوم غير جائز ، والأول أولى إذا كان على الشرط الذي ذكرناه ، واللّه أعلم) . انتهى كلام الشيخ ، رحمه اللّه ، وقد نقل قولين لأهل العلم كما رأينا ، ورجح القول الأول الذي يبيح للفاضل أن يعمل للفاجر أو الكافر بالشرط المذكور ، وهذا الذي انطبق تمامًا على يوسف ، عليه السلام ، فقد أسلفنا القول أن الملك أطلق يد يوسف ، عليه السلام ، في أمور البلاد ، وهناك من المفسرين من قال : إن الملك أسلم ، وعلى كل الأحوال فقد صار الملك يصدر عن رأي يوسف ، عليه السلام .

❁ ثالثًا : مع قوله تعالى : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ❁ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ [يوسف : ٥٦، ٥٧] .

هذا تعقيب القرآن الكريم على هذا المشهد من القصة الذي انتهى بيوسف إلى هذه المكانة العظيمة في أرض مصر ، والتي عبر عنها القرآن بقوله : ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ ، ولفظ ﴿ مكنا ﴾ يدل على القوة والنفوذ والسلطان ، وقوله سبحانه : ﴿ في الأرض ﴾ المقصود بالأرض هي أرض مصر ، لكن السياق القرآني أطلق لفظ الأرض ولم يقيده ؛ إشارة إلى أهمية مصر وموقعها من العالم ومكانتها من الحضارة في تلك الحقبة الزمنية ، وفيه أيضًا إشارة إلى اتساع سلطان يوسف ، عليه السلام ، هذا التمكين من رحمة اللّه بيوسف ، عليه السلام ، جزاء صبره وعفته وإحسانه ، وهذا جزاء عاجل في الدنيا ، أما ما ينتظره في الآخرة وينتظر كل مؤمن ومتق فهو خير : ﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ هذا قانون عام وقضية عامة تشمل جميع المؤمنين المتقين في كل زمان ومكان إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها ، وهذه القضية رغم وضوحها ضلّ فيها كثير من الناس ، وأصل الضلال في هذا الموضوع من جهتين - كما ذكر الإمام ابن القيم - رحمه اللّه :

❁ الأولى : الجهل بأمر اللّه ودينه ، حين يعتقد العبد أنه قائم بالدين الحق ، فقد اعتقد أنه قام بفعل المأمور باطنًا وظاهرًا ، وترك المحظور باطنًا وظاهرًا ، وهذا من جهله بالدين الحق ، فهو جاهل بحق اللّه عليه ، جاهل بما معه من الدين ، قدرًا ونوعًا وصفة .

❁ الثانية : اعتقاده أن صاحب الحق لا ينصره اللّه تعالى في الدنيا والآخرة ، بل تكون العاقبة في الدنيا للكفار والمنافقين على المؤمنين ، وللفجار الظالمين على الأبرار المتقين ، فهذا من جهله بوعد اللّه تعالى ووعيده .

❁ فأما الأولى : فإن العبد كثيرًا ما يترك واجبات لا يعلم بها ، ولا بوجوبها ، فيكون مقصرًا في العلم ، وكثيرًا ما يتركها بعد العلم بها وبوجوبها ، إما كسلاً وتهاونًا ، وإما لنوع تأويل باطل ، أو تقليد ، أو لظنه أنه مشتغل بما هو أوجب منها ، أو بغير ذلك ، فواجبات القلوب أشد وجوبًا من واجبات الأبدان ، وآكد منها ، وكأنها ليست من واجبات الدين عند كثير من الناس ، بل هي من باب الفضائل والمستحبات .

فترى الواحد من هؤلاء قد يتحرج من ترك شيء من واجبات البدن الظاهرة ، ولا يتحرج من

ترك ما هو أوجب منها من واجبات القلوب ، وقد يتحرج من فعل أدنى المحرمات الظاهرة ، وقد ارتكب بقلبه ما هو أشد تحريمًا وأعظم إثمًا .

بل ما أكثر من يتعبدُ للّه عز وجل بترك ما أوجب عليه ، فيتخلى وينقطع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع قدرته عليه ، ويزعم أنه متقرب إلى اللّه تعالى بذلك تارك ما لا يعنيه ، فهذا من أمقت الخلق إلى اللّه وأبغضهم إليه ، مع ظنّه أنه قائم بحقائق الإيمان وشرائع الإسلام ، وأنه من خواص اللّه وأوليائه وحزبه ، ومن الناس من يتعبد للّه بما حرَّمه عليه ، ويعتقد أنه طاعة وقربة ، كأصحاب السماع الشَعْري الذي يتقربون به إلى اللّه تعالى ، ويظنون أنهم من أولياء الرحمن ، وهم في الحقيقة من أولياء الشيطان .

هذا ، وما أكثر من يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه ، ولا يكون الأمر كذلك ، بل يكون معه نوع من الحق ونوع من الباطل والظلم ، ومع خصمه نوع من الحق والعدل ، والإنسان مجبول على حب نفسه ، فهو لا يرى إلا محاسنها ، وبغضه لخصمه ، فهو لا يرى إلا مساويه ، بل قد يستبد حبه لنفسه ، حتى يرى مساويها محاسن ، إلا من رحم ربي .

✹ وأما الثانية : فإن اللّه سبحانه وتعالى قد بين في كتابه - بما لا يخفى على عاقل - أنه سبحانه ناصر عباده المؤمنين وأوليائه المتقين في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران : ١٣٩] ، فللعبد المؤمن من العلوّ بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه ، فإذا فاته حظ من العلو والعزة ، ففي مقابل ما فاته من حقائق الإيمان علمًا وعملاً ظاهرًا وباطنًا ، وكذلك معية اللّه لأهل الإيمان وكفايتهم ونصرهم وتأييدهم ، إنما يكون ذلك كاملاً لأهل الإيمان الكامل .

قال تعالى : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ [غافر : ٥١] .

فمن نَقَصَ إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد ، ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله ، أو بإدالة عدوّه عليه ، فإنما هي بذنوبه ، إما بترك واجب ، أو فعل محرم ، وهو من نقص إيمانه ، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثيرٌ من الناس على قوله تعالى : ﴿ ولن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ [النساء : ١٤١] ، ويجيب كثير منهم بأنه لن يجعل للكافرين سبيلاً على المؤمنين في الآخرة ويجيب آخرون بأنه لن يجعل لهم سبيلاً في الحجة .

والتحقيق : أن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل ، فإذا ضعف الإيمان صار لعدّوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم ، فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور ، مكفي مدفوع عنه بالذات أين كان ، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ظاهرًا وباطنًا . انتهى مختصرًا من ((إغاثة اللهفان)) ، ومن أراد الاستزادة فليراجع الباب في موضعه .

وهذا الذي ذكره ابن القيم من نصر وعزة وغلبة للمؤمن هو الذي وقع ليوسف ، عليه السلام ، ولأنبياء اللّه ورسله ومن آمن معهم على مرّ التاريخ وإلى قيام الساعة ، ورحم اللّه ابنْ القيم وأضرابه من العلماء ، كانوا الأعلم بأدواء الأمة ، ومن ثَمَّ كانوا الأقدر على وصف أدويتها .

نسأل اللّه أن ينفعنا بعلم أهل العلم ، وأن يجعلنا من المقتفين آثارهم قولاً وعملاً ، وأن يجمعنا وإياهم على حوض نبيه ﷺ ، ونعوذ باللّه من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق . وإلى لقاء استودعكم اللّه الذي لا تضيع ودائعه .

وقفات مع القصة في كتاب الله

اللقاء الأول بين يوسف عليه السلام وإخوته

بقلم الشيخ :
عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي يصيب برحمته من يشاء ، ولا يضيع أجر المحسنين ، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى من اقتفى أثره واتبع هداه .

أما بعد :

أيها الأخ الكريم لعلك تذكر ما وقفنا عنده في اللقاء السابق ، حيث مكّن الله ليوسف عليه السلام في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، وولاّه الملك على خزائن مصر وأقوات أهلها ، وصار ليوسف عليه السلام من المكانة عند الملك بحيث لا يصدر الملك نفسه أمرًا إلا بمشورة يوسف عليه السلام ، فصار يوسف عليه السلام عليه وكأنه الحاكم الفعلي للبلاد .

ومرت سنوات واستقر الأمر فيها ليوسف عليه السلام وعمَّ الرخاء ، وسادَ العدل وانتشر السلام والإسلام في ربوع البلاد .

وبدأت سني القحط الذي لم يصب مصر وحدها ، بل أصاب مصر وجميع البلاد المجاورة ، وكانت مصر أحسن حالاً من غيرها ، بل كانت - في عنفوان الشدّة - هي مصدر القمح لجميع البلاد المجاورة ، ذلك بفضل الله ، ثم بفضل ما أولاه سبحانه ليوسف عليه السلام من حكمة في إدارة شئون البلاد ، واشتهر عدل يوسف عليه السلام في الآفاق ، وأخذت الوفود تتوافد على مصر من كل حدب وصوب طلبًا ((للميرة)) الطعام ، وممن وفد على يوسف عليه السلام في ذلك الحين إخوته من أبيه الذين جاءوا من الشام ، وهنا نبدأ معك بعون الله وحوله وطوله ومدده وقفتنا اليوم ، والتي ستكون كما يلي :

أولاً : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ۞ ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ۞ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ۞ قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾ [يوسف : ٥٨- ٦١] .

✹ في قوله تعالى : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون ﴾ :

قال ابن كثير ، رحمه الله : يخبر تعالى عن قدوم إخوة يوسف عليه السلام إلى الديار المصرية يمتارون طعامًا ، وذلك بعد إتيان سِنيّ الجدب وعمومها على سائر البلاد والعباد ، وكان إذ ذاك الحاكم في أمور الديار المصرية دينًا ودنيا ، فلما دخلوا عليه عرفهم ولم يعرفوه ؛ لأنه لم يخطر ببالهم ما صار إليه يوسف عليه السلام من المكانة والعظمة ، فلهذا عرفهم وهم له منكرون . اهـ .

وصدق والله ابن كثير ، فلم يخطر ببال إخوة يوسف ما صار إليه أمر أخيهم الذي وضعوه بأيديهم في الجُبّ ولم ينصرفوا إلا

بعد أن تأكدوا من القافلة وهي تحمله إلى حيث يصير عبدًا مملوكًا ، فكيف صار المملوك حاكمًا لأرض مصر ؟

ذلك لأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

دخل إخوة يوسف عليه كما يدخل عليه جميع الوفود بسهولة ويسر ، فليس له حجاب ولا حراس يمنعون الناس من الدخول عليه ، وذلك من تمام عدله ، فعرفهم يوسف ؛ لأنهم لم يتغيروا كثيرًا ، وهم لم يعرفوه لما صار عليه .

❁ مع قوله تعالى : ﴿ ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخٍ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ❁ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ :

أكرم يوسف عليه السلام وفادة إخوته وأعطاهم ما يريدون من الطعام ، وزادهم إكرامًا ، ثم طلب منهم أن يأتوا بأخيه بنيامين في المرَّة القادمة ، فيوسف عليه السلام أراد أن يخصَّ أخاه بنيامين بخصوصية يتميز بها عن إخوته ؛ لأنه لم يشاركهم في مؤامرتهم الأولى ، فهو الأخ الشقيق ليوسف ، فأراد أن يضم يوسف أخاه إليه قبل إخوته ، فطلب منهم إحضاره تمهيدًا لما يريد ، ولأن يوسف يعرف منزلة أخيه عند أبيه وحرصه عليه بعد ذهاب يوسف ، ومن ذلك لا يسمح له بمفارقته لأنه يشم فيه ريح يوسف ، ويتسلى به عن فقد يوسف ، فالأمر حقًّا صعب ، ولذلك هدَّد يوسف عليه السلام إخوته قائلاً : ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ هددهم بمنع الطعام في المرَّة القادمة إن لم يكن معهم أخوهم ، وذلك حتى يحملهم على الإتيان به مهما كلفهم الأمر .

وكان إخوة يوسف على علم بصعوبة الأمر ، ولذلك قالوا : ﴿ سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون ﴾ .

فقولهم : ﴿ سنراود ﴾ يشير إلى صعوبة الأمر ؛ لأن المراودة تكرار للطلب مرَّة بعد مرة ، وهم سيفعلون ذلك لحاجتهم إلى الطعام ، ولذلك قالوا : ﴿ وإنا لفاعلون ﴾ ، فاستخدموا التوكيد بـ (أن) ، واللام إشارة إلى حديثهم في الطلب واهتمامهم به مهما كلفهم .

ثانيًا : مع قوله تعالى : ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون ﴾ [يوسف : ٦٣] :

لما رجع إخوة يوسف إلى أبيهم لم يبدءوا الحديث معه عن كرم عزيز مصر وعدله ، لا ، بل بدأوا ببيان الخطر المقبل والمحدق بهم جميعًا والمتمثل في مَنْع الكيل مستقبلاً إن لم يصحبوا مع أخاهم بنيامين ، ولعلهم بذلك أرادوا إظهار خطورة الموقف حتى يضعوا أباهم أمام مسئولياته إذ هو مَنَعَ أخاهم منهم ، ثم أرادوا أن يمهدوا لحوارٍ آخر مع أبيهم يكسبون فيه ثقته ، وأكدوا له محافظتهم على أخيهم .

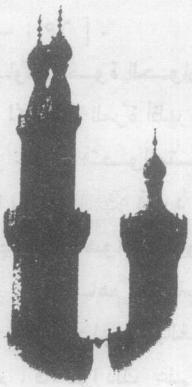

ثالثًا : مع قوله تعالى : ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فاللَّه خيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين ﴾ [يوسف : ٦٤] .

قال الأب لأبنائه بلهجة المعاتب ، كيف آمنكم على بنيامين وقد ضيعتم يوسف من قبل ؟ ثم لجأ إلى الله متوكلاً عليه في الحفظ والرعاية وحده سبحانه ؛ لأنه أرحم الراحمين .

رابعًا : مع قوله تعالى : ﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا رُدت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد

كيل بعير ذلك كيلٌ يسيرٌ ﴾ [يوسف : ٦٥] .

عاودَ الإخوة الحوار مع أبيهم ، لكن هذه المرَّة أظهروا كرم العزيز عندما فتحوا متاعهم ، فوجدوا يوسف عليه السلام قد ردَّ عليهم بضاعتهم التي ذهبوا يشترون بها الطعام ، وأعطاهم الطعام بغير ثمن - هدية - لهم مبالغة في إكرامهم ، فأعلنوا ذلك على أبيهم فرحين به ، وقالوا : ماذا نريد فوق هذا الإكرام ؟ ألا نلبي طلب هذا العزيز الذي أكرمنا ونأخذ أخانا معنا فنستفيد الطعام لأهلنا ونزداد كيل البعير الذي سيركبه أخونا ، وقبل ذلك وبعده نحفظ أخانا .

أمام هذه الحجج القوية لم يكن هناك بد من موافقة يعقوب عليه السلام على طلب أبنائه بإرسال أخيهم معهم ، لكنه اشترط عليهم ، فقال : ﴿ لن أرسله معكم حتى تؤتونِ موثقًا من اللَّه لتأتنني به إلا أن يُحاط بكم ﴾ [يوسف : ٦٦] ، أخذ عليهم هذا الميثاق الذي مفاده عدم تعرضهم لبنيامين بأذى ، وعدم إهمالهم في المحافظة عليه ، إلا أن يأتيهم أمر لا يقدرون عليه فهم معذورون ، ثم لجأ إلى اللَّه بعد ذلك فهو المطلع على أحوال عباده يعلم ما يسرون وما يعلنون ، وهو الذي يحفظ الجميع ويتولى أمرهم ، وأمر جميع العباد ، ويشهد أعمالهم فيجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

خامسًا : مع قوله تعالى : ﴿ وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ وما أغني عنكم من اللَّه من شيء إن الحكم إلا للَّه عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ [يوسف : ٦٧] .

وافق يعقوب عليه السلام على إرسال بنيامين مع إخوته وسلَّم أمرَه إلى اللَّه ، ووَدَّع يعقوب عليه السلام أبناءه حريصًا عليهم خائفًا أن ينالهم مكروه ، فأوصاهم بالحرص والأخذ بالأسباب ، ومن هذه الأسباب ألا يدخلوا من باب واحد ، ويدخلوا من أبواب متفرقة ، حتى لا يلفتوا الأنظار إليهم ، وهم حسانُ الوجوه ، وأبناء رجل واحد ، فيكون ذلك مدعاة لحسدهم .

وبيَّن لهم أن قوله هذا لا يغني عنهم من اللَّه شيئًا ، حيث التصرف في الكون كلِّه راجع لمشيئته سبحانه : ﴿ إن الحكم إلا للَّه ﴾ [يوسف : ٤٠] ، ولذلك فهو سبحانه الذي يتوكل عليه المتوكلون ، ومنهم يعقوب عليه السلام ، وقد أقرَّ بذلك في ختام وصيته ، فقال : ﴿ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ .

فيعقوب عليه السلام أخذ بالأسباب وتوكل على رب الأسباب ، وقد علَّم أبناءه ذلك .

فقوله : ﴿ ادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ لم يناقض التوكل وليس فيه إلا مجرد الأخذ بالأسباب المشروعة ، كما أن قول يوسف عليه السلام من قبل لصاحبه في السجن : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ [يوسف : ٤٢] ليس فيه ما يناقض التوكل ، وقد أعلن يعقوب عليه السلام : ﴿ إن الحكم إلا للَّه ﴾ ، كما أعلن يوسف عليه السلام أيضًا : ﴿ إن الحكم إلا للَّه ﴾ فقد فوضا أمرهما إلى اللَّه ، ويوسف عليه السلام قد اتبع ملَّة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وردَّ الفضل في ذلك إلى اللَّه ، فقال كما حكى القرآن الكريم : ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نُشرك باللَّه من شيء ذلك من فضل اللَّه علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ [يوسف : ٣٨] .

هذه ملَّة الإسلام التي وضَع أصولها إبراهيم عليه السلام ، وسار عليها الأنبياء من بعده ، حتى ختم اللَّه دينه بخاتم أنبيائه محمد ﷺ ، فلا طريق إلى الجنة إلا عن طريق محمد ﷺ مهما استفتح الناس من كل طريق وجاءوا من كل باب .

اللهم إنا نسألك الثبات على طريق الأنبياء والمرسلين حتى نلقاك يوم الدين .. آمين .. آمين .

وإلى لقاء نستودعكم اللَّه الذي لا تضيع ودائعه .

وقفات مع القصة في كتاب الله

اللقاء الثاني بين يوسف عليه السلام وإخوته

بقلم الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وإخوانه من الأنبياء والمرسلين .

أخي القارئ الكريم ، وقفنا معًا في لقائنا السابق عند استعداد الإخوة للرحيل متوجهين إلى مصر بغرض الحصول على الطعام بعد موافقة أبيهم على اصطحاب أخيهم الذي طلبه منهم يوسف عليه السلام .

وقد اشترط عليهم أبوهم وأوصاهم بالأخذ بالأسباب والاعتماد على رب الأسباب ، وهنا نصل معًا إلى وقفتنا الجديدة اليوم ، والتي ستكون - بحول الله وطوله ومدده - كما يلي :

■ أولاً : مع قوله تعالى : ﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ [يوسف : ٦٩] .

هذا هو الدخول الثاني لإخوة يوسف على يوسف عليه السلام وهو عزيز مصر ، وقد عرفهم منذ دخولهم عليه لأول مرة ، وهم لم يعرفوه وما زالوا حتى الآن لا يعرفونه ، وهو لم يخبرهم عن نفسه بعد ، لكنه اختلى بأخيه الشقيق وأخبره عن نفسه وبما هو عازم عليه من خطة لاستبقائه معه في مصر .

ذلك حتى يكون أخوه على بينة من أمره ولا يحدث له شيء من الخوف أو الفزع ، وكذلك أراد إكرام أخيه بهذه الخصوصية تمهيدًا لجمع الشمل .

قال ابن القيم : (وإنما لم يعرّف إخوته بنفسه لأسباب فيها منفعة لهم ولأبيهم وله ، وتمام

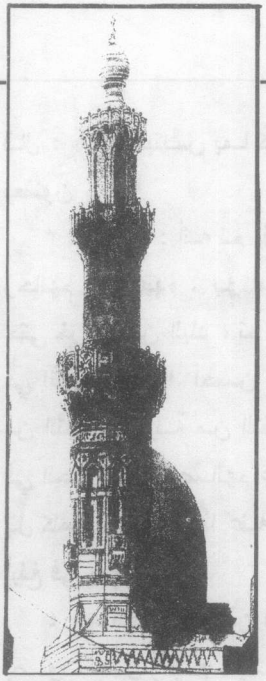

لما أراد اللَّه تعالى بهم من الخير في هذا البلاء ، وأيضًا فلو عرَّفهم نفسه في أول مرَّة لم يقع الاجتماع بهم وبأبيه ذلك الموقع العظيم ، ولم يحل ذلك المحل ، وهذه عادة اللَّه سبحانه في الغايات العظيمة الحميدة ، إذا أراد أن يوصّل عبده إليها هيأ لها أسبابًا من المحن والبلايا والمشاق ، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنَّة إليها بعد الموت ، وأهوال البرزخ ، والبعث والنشور والموقف والحساب ، والصراط ومقاساة تلك الأهوال والشدائد ، كما أدخل رسوله ﷺ إلى مكة ، ذلك المدخل العظيم بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج ، ونصره ذلك النصر العزيز ، بعد أن قاسى مع أعداء اللَّه ما قاساه) . انتهى كلامه ، رحمه اللَّه .

وقد بيَّن بعض الحكم والأسرار العظيمة في عدم إخبار يوسف عليه السلام إخوته بنفسه في المرتين الأولى والثانية .

■ **ثانيًا** : مع قوله تعالى : ﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ۞ قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ۞ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ۞ قالوا تاللَّه لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ۞ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ۞ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين ۞ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كِدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء اللَّه نرفع درجات من نشاء وفوق كلِّ ذي علم عليم ﴾ [يوسف : ٧٠- ٧٦] .

تتحدث هذه الآيات الكريمة عن الحيلة التي استخدمها يوسف عليه السلام لاستبقاء أخيه معه ، ومن المهم هنا أن نشير إلى أن ما فعله يوسف عليه السلام هو من تدبير اللَّه ، كما أرشدنا إلى ذلك ربنا سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ كذلك كِدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء اللَّه نرفع درجات من نشاء وفوق كلِّ ذي علمٍ عليم ﴾ ..

فالذي كاد حقيقة هو اللَّه سبحانه ، والذي فعل هو يوسف عليه السلام بتعليم اللَّه له وتوفيقه إليه ، فكان ذلك من أحسن الكيد وأشرفه ، وقد عدد ابن القيم ، رحمه اللَّه ، وجوهًا للطف ذلك الكيد وشرفه ، نذكر منها مختصرًا ما يلي :

١- منها : أنه لما جهزهم بجهازهم في المرَّة الثانية جعل السِّقاية في رحل أخيه ، وقد ذكرنا فيما سبق أن يوسف عليه السلام أخبر أخاه بهذا الأمر ، وهذا الذي عليه أكثر أهل التفسير .

٢- ومنها : أنه لما أراد أخذ أخيه توصَّل إلى أخذه بما يقرُّ إخوته أنه حق وعدل ، ولو أخذه بحكم قدرته وسلطانه لنسب إلى الظلم والجور ، فوضع الصواع في رحل أخيه بمواطأة منه على ذلك ، ولهذا

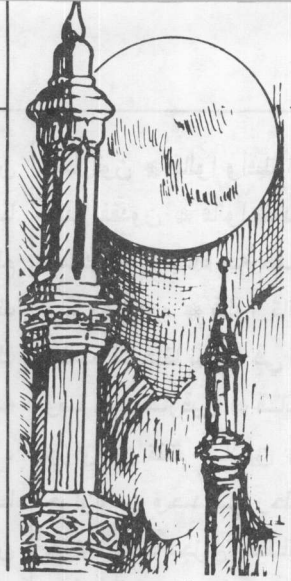

قال : ﴿ فلا تبتئس بما كانوا يعملون ﴾ .

٣- ومنها : أنه لم يفتش رحالهم وهم عنده ، بل أمهلهم حتى خرجوا من البلد ، ثم أرسل في آثارهم ، فهذا أحسن وأبعد من التفطن للحيلة من التفتيش في الحال قبل انفصالهم عنه ، بل كلما ازدادوا بعدًا عنه كان أبلغ في هذه المعنى .

٤- ومنها : أنه أذن فيهم بصوت عالٍ رفيع ، يسمعه جميعهم ، ولم يقل لواحد منهم ، إعلامًا بأن ذهاب الصواع أمر قد اشتهر ، ولم يبق فيه خفاء ، وأنتم قد اشتهرتم بأخذه ، ولم يتهم به سواكم .

٥- ومنها : أن المؤذن قال : ﴿ إنكم لسارقون ﴾ ، ولم يُعين المسروق ، حتى سأله عنه القوم ، فقال لهم : ﴿ ماذا تفقدون ۞ قالوا نفقد صُواع الملك ﴾ ، فاستقر عند القوم أن الصواع هو المتهم به ، وأنهم لم يفقدوا غيره ، فإذا ظهر لم يكونوا ظالمين باتهامهم بغيره ، وظهر صدقهم وعدلهم في اتهامهم به وحده .

٦- ومنها : قول المؤذن وأصحابه لإخوة يوسف عليه السلام : ﴿ فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴾ ؛ أي ما عقوبة من ظهر عليه أنه سرقه منكم ، ووجدناه معه ؟ أي ما عقوبته عندكم وفي دينكم ؟ ﴿ قالوا جزاؤه من وُجد في رحله فهو جزاؤه ﴾ ، فأخذوهم بما حكموا به على نفوسهم ، لا بحكم الملك وقومه .

٧- ومنها : أن الطالب لما هم بتفتيش رواحلهم بدأ بأوعيتهم يفتشها قبل وعاء أخيه تطمينًا لهم وبعدًا عن تهمة المواطأة .

هذا ، وقد تقدم القول أن الله هو الذي كاد ليوسف عليه السلام وعلّمه بهذه الطرق الواجبة أو المستحبة التي يتوصل بها إلى طاعة الله ورسوله ، ونصر المحق وكسر المبطل ، مما يرفع الله به درجة العبد ، ويوسف عليه السلام قد أُكيد له من قبل من وجوه عدّة من جانب إخوته وغيرهم ، وليس في ذلك حجة للذين يتحايلون على تحليل ما حرّم الله أو إسقاط ما أوجبه الله ، أو إسقاط حق المسلم أو التحايل لإيذاء مسلم ، فهذه من الحيل المحرَّمة التي ذمها الله ورسوله والمؤمنون .

أما الطرق التي تتضمن نفع المسلمين ، والذّب عن الدين ، ونصر المظلومين ، وإغاثة الملهوفين ، ومعارضة المحتالين بالباطل ليدحضوا به الحق ، من أنفع الطرق ، وأجلها علمًا وعملاً وتعليمًا ، وهذا ما علّمه الله يوسف وما نفذه يوسف عليه السلام ، ولذا عقب الله سبحانه بقوله : ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كلّ ذي علمٍ عليم ﴾ .

■ **ثالثًا** : مع قوله تعالى : ﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرّها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانًا والله أعلم بما تصفون ﴾ [يوسف : ٧٧] .

عندما ظهر المسروق عند أخيهم ، وشعر الإخوة بالحرج حاولوا التنصّل من هذه التهمة وإلصاقها بالأخوين الشقيقين من

أمهات ((راحيل)) ، وفي ذلك سبَّة لها أيضًا ، وقد وقعت هذه المقالة من نفس يوسف عليه السلام موقعًا آلمه وأحزنه ، لكنه تحلَّم وصبر واحتسب واحتفظ لنفسه بالردّ المناسب في الوقت المناسب ، وقال في نفسه : ﴿ أنتم شرٌّ مكانًا واللَّه أعلم بما تصفون ﴾ .

■ **رابعًا** : مع قوله تعالى : ﴿ قالوا يأيها العزيز إن له أبًا شيخًا كبيرًا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ۞ قال معاذ اللَّه أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذًا لظالمون ﴾ [يوسف : ٧٨، ٧٩] .

فقد طمع الإخوة في كرم يوسف عليه السلام وإحسانه فذكروا له أمر أبيهم وشيخوخته وكِبَرَ سنِّه لعل ذلك يشفع في استثناء أخيهم من العقوبة وأخذ أحدهم مكانه .

لكن يوسف عليه السلام ردّ عليهم بذكاء وفطنة : ﴿ قال معاذ اللَّه أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ ، ولم يقل : إلا من وجدناه سارقًا ، ولكن قال : ﴿ من وجدنا متاعنا عنده ﴾ ؛ لأنه يعلم أن أخاه لم يسرق ، فاستخدم المعاريض حتى يحقق هدفه ، ثم قال : ﴿ إنا إذًا لظالمون ﴾ ؛ أي لو فعلنا ما تقولون وأخذنا غيره فيكون ظلمًا ، والظلم لا يجوز ، فلا بد من إحقاق الحق .

ولما يئس الإخوة من استعادة أخيهم ، تشاوروا فيما بينهم ، فأصرَّ كبيرهم على عدم مغادرته مصر إلا بعد أن يأذن له أبوه أو يقضي اللَّه أمرًا كان مَفْعولاً ثم ذكَّر إخوانه بالميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم ، وطلب منهم أن يعودوا ويتركوه ويخبروا أباهم بما حدث ، وإن شكَّ أبوهم في خبرهم فليسأل من كان معهم من الناس ، وإنما ضاعف من صعوبة الموقف ما حدث من قبل مع يوسف ، لكن الأمر هنا يختلف ، فهم مع يوسف كانوا كاذبين ، وهم الآن قد أحيط بهم والأمر خرج من أيديهم وهم صادقون ، لكن الحال بالنسبة لأبيهم هو زيادة معاناة وإضافة حزنٍ جديد بفقد بنيامين إلى حزنه القديم بفقد يوسف عليه السلام ، لكن الرجل يواجه الموقف مواجهة المؤمن الصادق ، فيلجأ إلى ربه مستعينًا به ، ويتذرع بالصبر الجميل ، وهذا ما صورته الآيات الكريمة الآتية .

﴿ فلما استيأسوا منه خلصُوا نجيًّا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقًا من اللَّه ومن قبل ما فرَّطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم اللَّه لي وهو خيرُ الحاكمين ۞ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلاَّ بما علمنا وما كُنَّا للغيب حافظين ۞ واسأل القرية التي كُنَّا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون ۞ قال بل سوَّلت لكم أنفسكم أمرًا فصبرٌ جميلٌ عسى اللَّه أن يأتيني بهم جميعًا إنه هو العليم الحكيم ﴾ [يوسف : ٨٠- ٨٣] .

وهكذا لجأ يعقوب عليه السلام إلى ربِّه ولم تزده المحنة إلا أملاً في رحمة اللَّه - أن يجمعه بيوسف وأخيه - ولم يزده البلاء إلا صدقًا وإيمانًا وثقة فيما عند اللَّه ، وهذا هو مسلك الأنبياء وأتباعهم ، جعلنا اللَّه وإياكم منهم .

وإلى لقاء جديد نستودعكم اللَّه ، والسلام عليكم ورحمة اللَّه .

وقفات مع القصة في كتاب الله

لقاء التعارف بين يوسف عليه السلام وإخوته

بقلم الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله مالك الملك ، مدبر الأمر ، يرفع القسط ويخفضه ، ينصر مظلومًا وينتقم من ظالم ، يعطي هذا ويمنع هذا يقرب هذا ويبعد هذا ، ويفرّق ويفعل في ملكه ما يشاء ، وصلاة وسلامًا على نبيه المختار ، ورسوله المبعوث إلى ما طلع عليه الليل والنهار محمد بن عبد الله المصطفى من خيرة خلقه الأبرار ،

وبعد :

أخي الكريم ، وقفنا بك في لقائنا السابق من هذه القصة المباركة عند عودة الإخوة لأبيهم ، تاركين أخاهم الأكبر في مصر ، فقد أصرَّ على ألا يبرح الأرض حتى يأذن له أبوه بالرجوع إلى أرض كنعان ، أو يحكم الله له بخير ، وهو أحكم الحاكمين ، وعاد الإخوة إلى أبيهم ، وقد فقدوا ((بنيامين)) و((روبيل)) ، ومن قبل كما علمنا يوسف عليه السلام ، ((روبيل)) هو الأخ الأكبر .

ولم تزد هذه المحنة ((يعقوب)) عليه السلام إلا صبرًا وثباتًا ، بل ضاعفت شدّة المحنة من أمله في رحمة الله وفَرَجه القريب ، ذلك أنه كما حكى الله عنه : ﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٦٨] ، ومنهم أبناؤه ، وانطلاقًا مما علمه الله أمر أبناءه قائلاً كما أخبر الله عنه : ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] .

هذا توجيه كريم من نبي كريم نطالع فيه أنوار النبوة الساطعة ويقينها الصادق ، فيعقوب عليه السلام يعلم من الله ما لم يعلمه أبناؤه ، وهو على يقين بتحقق رؤيا يوسف عليه السلام ، ومع اشتداد الأزمة فهذا أوَانُ انضراجها ، ولذلك أمر يعقوب عليه السلام أبناءه بالعودة إلى مصر والتحقق من وجود يوسف عليه السلام وأخيه هناك .

وقوله : ﴿ فتحسسوا ﴾ يحمل هذه المعاني ، فالتحسس يكون في الخير عكس التجسس فيكون في الشر ، والتحسس كذلك هو طلب الشيء بالحواس ، وفي ذلك إشارة إلى يقين يعقوب عليه السلام في وجود يوسف عليه السلام حقًا ، وفي ندائه لهم بقوله : ﴿ يا بني ﴾ ، وصف بالبنوة ، وهو تلطف معهم في الطلب مما يحملهم على الامتثال للأمر ، وأعقب الأمر بالنهي عن اليأس من روح الله ، واستخدام لفظ ((الروح)) يبعث على الأمل ، ويشيع في

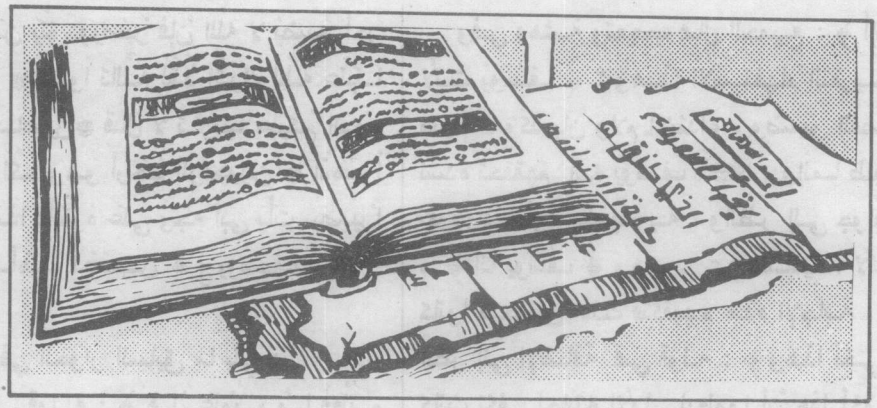

النفس الرجاء بالفَرَج ، فإذا أضيف إلى لفظ الجلالة هكذا « روح اللّه » فذلك منتهى الأمل في سعة رحمة الرحمن الرحيم .

ثم أعقب ذلك بقوله : ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

وهذا بمثابة تعليل لنهيه المتقدم لهم عن اليأس من روح اللّه . فاليأس من روح اللّه ؛ أي من رحمة اللّه وفرجه لا يكون من المؤمنين ، بل من صفات الكافرين ، وهذا تحفيز لهمّة الأبناء حتى ينطلقوا إلى مصر بيقين المؤمنين الصادقين ، وتنفيرًا لهم من اليأس والقنوط الذي هو من صفات الكافرين ، نعوذ باللّه من ذلك .

بهذا الخطاب النابع من نفس مؤمنة بقضاء اللّه وقدره واثقة كل الثّقة فيما عند اللّه ، موقنة في سعة رحمته وقرب فرجه ، توجه يعقوب عليه السلام النبي الأب إلى أبنائه بخطابه لينهضوا ملتمسين أخاهم يوسف موقنين - بإذن اللّه - من الحصول عليه ، واستجاب الأبناء لأمر أبيهم ، وأعدوا العدة ، وانطلقوا إلى مصر لمقابلة العزيز عسى أن يظفروا بشيء من كرمه وجوده الذي لمسوه فيه من قبل ، ولما دخلوا عليه قالوا - وقد قصّ اللّه سبحانه مقالتهم في قوله تعالى -: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف : ٨٨] .

على عادة الأسلوب القرآني في اختصار كثير من المواقف والأحداث الفرعية سكت السياق القرآني البليغ عن أحداث رحلتهم من الشام إلى مصر ، وانتقل مباشرة إلى هذا المشهد ، حيث دخل الإخوة على أخيهم الذي ما زالوا لا يعرفون حقيقة أمره ، ويعرفونه بعزيز مصر فحسب .

فلما دخلوا عليه تلطفوا معه في الخطاب واستعطفوه بإظهار ما أصابهم وأهلهم من ضر ، ومن مظاهر ذلك الضر أنهم جاءوا بدراهم قليلة في عددها وفي قيمتها ، وهنا طلبوا منه ألا يكافئهم بهذه الدراهم الرديئة ، بل يعاملهم بفضله وإحسانه ، ويتصدّق عليهم طمعًا فيما عند اللّه ، وهنا رقّ يوسف عليه السلام لحالهم فبادرهم بما أخبر اللّه تعالى في الحوار التالي : ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ۞ قَالُواْ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ

عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۞ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ۞ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۞ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [يوسف : ٨٩- ٩٣] .

نلاحظ في الحوار السابق ما يلي :

١- في قوله : ﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴾ ؟

استفهام غرضه التوبيخ والاستنكار لما وقع منهم من أفعال ذميمة تجاه يوسف عليه السلام وأخيه ، واستخدم : ﴿ هل ﴾ التي بمعنى (قد) لإفادة التحقيق .

وأفعالهم المذمومة تجاه يوسف عليه السلام معلومة ، وتجاه أخيه ، فهي تشمل التفريق بين يوسف وأخيه ، وتشمل كذلك سوء معاملتهم لأخيهم بنيامين ، وإهانتهم له التي تنافي مسلك الأخوة ، ولذلك جعل ذلك الزمن زمن جهالتهم بقوله : ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ ، و﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ تشمل زمن جهالتهم من حيث السن ومن حيث العلم ، وكذلك تشير إلى أن كل من عصى الله فهو جاهل كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾ الآية [النساء : ١٧] ، كما أن فيها تعريض بأنهم قد صلح حالهم من بعد ، وهو أدب في الخطاب يتناسب مع أسلوب الأنبياء في الدعوة إلى الله ، ويفتح أمام الإخوة طريق الأمل ويخفف عنهم من الشعور بعقدة الذنب ، ويفتح أمامهم أبواب التوبة ، ويدفعهم إلى الصلاح دفعًا .

وفي دهشة وتعجب قال الجميع : ﴿ أَإِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ ﴾ ؟ وهذا الاستفهام التقريري منهم المؤكد بإن ولام الابتداء ، وضمير الفصل لشدة تحققهم أنه يوسف عليه السلام ، وإنما طلبوا تقريره لتأييد علمهم به ، وانظر إلى جوابه بـ ﴿ أنا يوسف ﴾ ، مجرد عن التأكيد ؛ لأنهم كانوا متحققين ذلك فتكفيهم هذه الإجابة ، ثم انظر إلى الإضافة في قوله : ﴿ وهذا أخي ﴾ كانت تكفي إجابته الأولى ليعلموا أنَّ هذا أخوه ، لكنه أضاف هذه الجملة إظهارًا لحكمة الله ورحمته التي جمعت بينه وبين أخيه بعد طول فُرقة خلافًا لما قصده الإخوة وهم جاهلون ، ومن هنا عقَّب بقوله : ﴿ قد مَنَّ الله علينا ﴾ فجملة ﴿ قد منَّ الله علينا ﴾ بيان للمقصود من جملة : ﴿ وهذا أخي ﴾ .

أي قد منَّ الله علينا فجمعنا بعد افتراق ، ولم شملنا بعد شتات وجاء قوله : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ تعليل وتوكيد ، فهو تعليل لما تقدم من نعمة الله أحاطت بيوسف وأخيه نتيجة صبرهما وتقواهما ، ثم انتقل التوكيد إلى جعل ذلك قانونًا عامًّا يشمل جميع المحسنين في كل زمان ومكان ، وأراد يوسف عليه السلام أن يلقِّن إخوته درسًا ويُعلمهم وسائل التعرض إلى نعم الله تعالى ، وحثهم على التقوى والتخلق بالصبر تعريضًا بأنهم لم يتقوا الله فيه ، ولا في أخيه ، ولم يصبروا على إيثار أبيهم إياهما عليهم .

وقال صاحب « التحرير والتنوير » : (وهذا من أفانين الخطابة أن يغتنم الواعظ الفرصة لإلقاء الموعظة وهي فرصة تأثر السامع

وانفعاله وظهور شواهد صدق الواعظ في موعظته) .

وقد يسأل سائل ويقول : فهمنا من الحوار ما يدل على مدح يوسف عليه السلام نفسه وأخاه بالتقوى والصبر ، ودخولهم في عداد المحسنين ، فهل يجوز ذلك ؟

أجاب صاحب تفسير « التحرير والتنوير » عن ذلك التساؤل بقوله : (إن هذا في مقام التحدث بالنعمة وإظهار الموعظة سائغ للأنبياء ؛ لأنه من التبليغ كقول النبي ﷺ : « إنني لأتقاكم لله وأعلمكم به ») .

وهنا جاء دور الاعتراف بالذنب والعزم على التوبة والإقرار بفضل الله الذي غمر يوسف عليه السلام ، فقال الإخوة في بهجة صادقة بما أخبر الله تعالى عنهم : ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ .

وهذا اعترافهم بتفضيل الله ليوسف عليه السلام عليهم وهو اعتراف بالحق فرضه الواقع المشاهد ، ثم أتبعوا ذلك باعترافهم بخطئهم فيما فكروا وفيما دبروا بشأن يوسف وأخيه ، وهذا الاعتراف دليل صدقهم في توبتهم وندمهم على ما فعلوا ، ولذلك كان تعقيب يوسف الآتي :

﴿ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ؛ أي الآن وقد اعترفتم بأخطائكم ، وتبتم إلى الله يغفر الله لكم ، فهو التواب الرحيم ، بل هو أرحم الراحمين .

وما أشبه هذا بموقف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة حين وقف بعد أن مكّنه الله من رقاب قريش ، فقال : « ماذا تظنون يا معشر قريش ؟ » قالوا : خيرًا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت ، قال : « وأنا أقول كما قال أخي يوسف : ﴿ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ »[1].

إن هذا قد خرج من مشكاة واحدة ، فالذي بعث يوسف عليه السلام هو الذي بعث محمدًا ﷺ وجميع الأنبياء هو الله الواحد الأحد ، وقد جمع الله لنبيه ورسوله محمد ﷺ أخلاق الأنبياء جميعًا ، وشملت شريعته الشرائع كلها ، ونسخت ما نسخت منها ، وأقرّت ما أقرت ، وهيمنت على الشرائع ، فهي الشريعة التي أراد الله لها البقاء والاستمرار إلى يوم الوعد الموعود .

ونعود إلى يوسف عليه السلام ، حيث عقب في حواره مع إخوته بقوله : ﴿ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وهذه معجزة أخرى أجراها الله لنبيه يوسف عليه السلام ، حيث يكون قميصه سببًا في إبراء بصر أبيه مما أصابه - بإذن الله - وقد آن الأوان لتأويل رؤيا يوسف عليه السلام واجتماع شمل الأسرة في أرض الكنانة ، هذا وقد كتم يوسف عليه السلام خبره عن إخوته يوم كتمه بإذن الله ، وأخبرهم وعرفهم بنفسه أيضًا بإذن الله ، ذلك ما قدّره الله ليوسف عليه السلام وأهله ، وفي ذلك من الدروس والعبر ما يضيق عنه المقام .

فإلى لقاء نستلهم الدروس والعبر ونكمل المسير ، عسى الله أن ينفعنا بما علمنا ، وأن يعلمنا ما ينفعنا ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

---

(١) أورده المناوي في « شرح الجامع الصغير » : (ص١٧١، ج٥) .

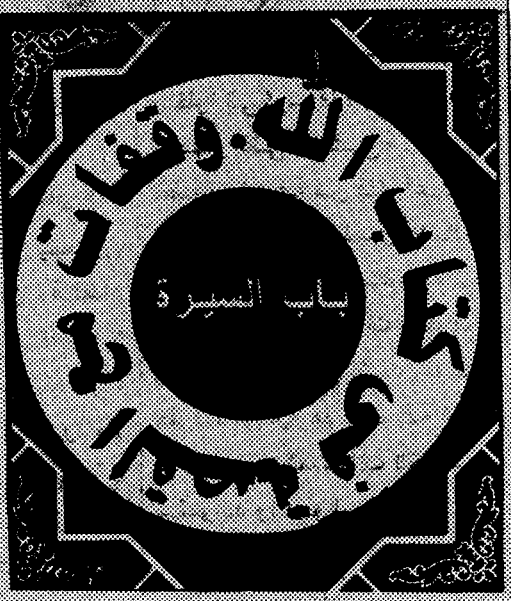

تأويل رؤيا يوسف عليه السلام

بقلم الشيخ :

عبد الرازق السيد عيد

أحمد ربي حمدًا طيبًا مباركًا فيه ، وأصلي على صفوته من خلقه وخاتم رسله ، نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد :

أخي القارئ الكريم ، وقفنا بك في لقائنا السابق عندما أعطى يوسف عليه السلام إخوته قميصه ، وطلب منهم أن يذهبوا به فيلقوه على أبيهم يأتي بصيرًا ، وتأمل قوله : ﴿ يَأْتِ بَصِيرًا ﴾ ، فجمع له بعبارة بليغة موجزة بين الشفاء من العمى وبين حضوره إلى مصر واجتماعه بيوسف عليه السلام ، وإذا قلت لي : كيف علِمَ يوسف عليه السلام بمرض أبيه وحزنه حتى أصابه العمى ؟ أو قلت لي : كيف يبصر يعقوب عليه السلام بمجرد إلقاء القميص عليه ؟

قلت لك : ألم يكن يوسف عليه السلام نبيًّا ؟ ستكون إجابتك - بلا شك -: نعم . إذن فلماذا تتعجب مما سبق ؟ ألم تعلم أن اللّه يجري الكرامات لأنبيائه وأوليائه كرامة لهم وإكرامًا ؟ فإذا زال عجبك من هذه إيمانًا باللّه وإذعانًا له وتسليمًا لحكمه ، فلا تتعجب من الكرامة التالية :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف : ٩٤] ؛ ولما فصلت العير خرجت القافلة من مصر متجهة إلى الشام تحمل قميص يوسف عليه السلام إلى أبيه ؛ أي بمجرد خروج الأبناء من مصر متجهين إلى الشام وجد يعقوب عليه السلام رائحة يوسف ، وأخبر أبناءه ومن حوله من الحاضرين في الشام الذين لم يعلموا شيئًا عن يوسف وحياته ، أخبرهم أنه يشمُّ رائحة يوسف ، لكن الشيخ النبي يعلم رد الفعل عند السامعين ، فقال : لولا أنكم ستقولون : شيخ خرف ، يهرف بما لا يعرف ، وحقًّا ما توقع يعقوب عليه السلام ، فقد كان ردُّهم عجيبًا : ﴿ قَالُوا

تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ [يوسف : ٩٥] ، كان هذا مع الأسف ردُّهم ، وإن التمسنا لهم بعض العذر في اعتقادهم بموت يوسف عليه السلام وشدة حزن أبيه عليه ، فليس عذر في جهلهم بنبوة يعقوب عليه السلام ، فهم يعلمون أنه نبي يعلم من اللَّه ما لا يعلمون ، ولقد قال لهم ذلك مرَّة تلو مرة .

والنبي يعلم من اللَّه ما لا يعلمه غيره ، ويأتيه من الأخبار ما لم يأت غيره ، فليس عجيبًا أن يشم ريح يوسف عليه السلام من مشارف مصر وهو بالشام ، ولن نبحث كما بحث كثير من المفسرين عن كيفية ذلك ، فإن الفاعل هو اللَّه ، الذي يفعل في ملكه ما يشاء بالكيفية التي يشاء ، لكن الذين كانوا حول يعقوب عليه السلام ردوا ذلك بعقولهم ، وكذلك من يكون على شاكلتهم في كل زمان سيردُّ ذلك بعقله ، أما من كان يؤمن بقدرة اللَّه في ملكه ، وإكرامه لأنبيائه وأوليائه فسيقابل الأمر بالرضى والتسليم ، ولم يمض وقت طويل حتى جاء البشير يحمل القميص ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴾ [يوسف : ٩٦] .

وهكذا صار الأمر المستبعد - في نظر أولئك - حقيقة ، وجاء حامل قميص يوسف عليه السلام ، وألقاه على يعقوب عليه السلام فعاد بصر يعقوب بفضل اللَّه ومشيئته ، وكان حامل القميص هو أحد الأبناء العائدين من مصر ، وقيل : إنه ((يهوذا)) ، وقيل غيره ، المهم أنه أحد الأبناء ، أراد أن يُسرع بالبشرى لأبيه قبل إخوته ، وهذا لم يزد يعقوب عليه السلام عن قوله لمن حوله : ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٩٦] .

هذا هو ردُّ يعقوب النبي على الذين اتهموه في عقله ، وتعجبوا من قوله ، ذكَّرهم بأنه نبي ، وأنه يعلم من اللَّه ما لا يعلمون ، وهذه هي النبوة ، فلم

يكن هناك مبرر لاستنكارهم عليه ما أخبرهم به ؛ لأنه يعلم من اللَّه ما لا يعلمون ، وهذا درس يجب أن يتعلم منه كل من يعمل عقله في منهج الأنبياء إعمالاً مجردًا كما يفعل المعتزلة وأضرابهم .

نعود إلى يعقوب عليه السلام وأبنائه ، وبعد رؤية الأبناء للكرامة التي أكرم اللَّه بها يوسف ويعقوب عليهما السلام ، وبعد عودة بصر يعقوب إليه بإذن اللَّه بعد إلقاء القميص عليه ، وحضر باقي الإخوة من مصر ، هنا رجع الأبناء إلى أنفسهم واعترفوا بخطئهم ، كما أخبر اللَّه عنهم : ﴿ قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ [يوسف : ٩٧] .

أجمع على هذا القول جميع الأبناء الذين جاءوا من مصر ، والذين كانوا في مجلس الشيخ بالشام ، الجميع اعترف بخطئه في حق يعقوب النبي الذين قالوا قديمًا : ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : ٨] ، والذين قالوا آنفًا : ﴿ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴾ . الآن ثبت للجميع أنه يعلم من اللَّه ما لا يعلمون ، فاعترفوا جميعًا أنهم كانوا خاطئين في ظنهم السوء بيعقوب النبي ، وقولهم

السوء على يعقوب النبي ، عليه الصلاة والسلام ، وعند ذلك وعدهم يعقوب أن يستغفر لهم اللّه متحريًا وقتًا أنسب للاستغفار والدعاء ، فقال - كما أخبر اللّه عنه -: ﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ . وهنا نقل القرآن الكريم أحداث القصة من الشام إلى مصر ، فهيا بنا إلى هناك نتابع هذه المشاهد الحاسمة والمؤثرة من القصة المباركة ، وإلى قول ربنا ، تبارك وتعالى ، في وصف الموقف : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٩] ، وهكذا انتقلت بنا أحداث القصة مباشرة إلى مشارف مصر ، حيث خرج يوسف عليه السلام ، ومن معه من رجال مصر وكبرائها في استقبال أبويه وإخوته وأهليهم أجمعين ، حيث جاءوا مهاجرين من البدو والتصحر والفقر والاضطراب والخوف إلى مصر ، حيث الحضارة ، والأمن ، والاستقرار ، وسعة الرزق ، ذلك ما عبر عنه يوسف عليه السلام بقوله : ﴿ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ ﴾ ، والأمن : حالة اطمئنان النفس وراحة البال وانتفاء الخوف من كل ما يخاف منه .

قال الشيخ العلامة ابن عاشور في ((تفسيره)): وجملة ﴿ إِن شَاء اللّهُ ﴾ تأدب مع اللّه ، كالاحتراس في الدعاء الوارد بصيغة الأمر ، وهو لمجرد التيمن ، فوقوعه في الوعد والعزم والدعاء بمنزلة وقوع التسمية في أول الكلام وليس هو من الاستثناء الوارد النهي عنه في الحديث أن لا يقال : اغفر لي إن شئت ، فإنه لا مكره له ؛ لأن ذلك في الدعاء المخاطب به صراحة . اهـ .

وكان الدخول السابق دخول على يوسف عليه السلام في الفسطاط الذي ضربه على مشارف مصر ، أو في قصور الاستقبال المعدة لاستقبال كبار الضيوف .

أما الدخول الذي أمر به يوسف عليه السلام فهو دعوة للإقامة الدائمة بمصر ، قال تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف : ١٠٠] .

في هذه الآية الكريمة مسائل :

الأولى : في قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ :

١- يرى بعض المفسرين - وهو الأولى بالسياق ، واللّه أعلم - أن العبارة بها تقديم وتأخير ، فالسجود كان بمجرد الدخول ، ثم جاء الرفع ، فكان مقتضى ذلك أن يكون السياق وخروا له سجدًا ، ورفع أبويه على العرش ، لكن جاء التقديم والتأخير إكرامًا للأبوين ؛ لأن رفع الأبوين على العرش نوع من التكريم لهما ، فناسب تقديمه .

٢- مع قوله تعالى : ﴿ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا ﴾ :

اختلفت أقوال المفسرين في كيفية السجود ، فمن قائل بأنه سجود كامل ، ومن قائل بأنه الركوع أو الإيماء ، وغير ذلك ، ولا تغنينا كيفيته ، إنما يعنينا ما اتفق المفسرون عليه ، وهو أنه كان سجود تحية ، وليس سجود عبادة .

وأن هذا كان مستساغًا عندهم ، ورفعه اللّه عن الأمة الإسلامية ، وحلّ محلّه السلام بالقول والمصافحة باليد ، والالتزام للقادم من سفر ، وإذا كان اللّه سنّ لأمة الإسلام تحيتها فما زالت كثير من

الأمم رغم تظاهرها بالتقدم تئن تحت وطأة الجاهلية في تحيتها لكبرائها ما بين انحناء أو ركوع أو سجود ، فالحمد لله على نعمة الإسلام .

الثانية : مع قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ :

يشير يوسف عليه السلام هنا إلى رؤياه التي رآها وهو صبي صغير وقصها على أبيه ، والمذكورة في أول السورة ، وقد صارت اليوم حقيقة ، فالشمس والقمر هما أبواه ، والكواكب الأحد عشر إخوته ، والجميع خروا له ساجدين سجود تحية على مشارف أرض مصر ، وكانت هذه الرؤية محور القصة من بدايتها إلى نهايتها ، وقد نسب يوسف عليه السلام الفضل لأهله ، فقال : ﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ ، فالذي جعلها حقًا هو الله ، فالفضل له في الأولى والفضل له في الآخرة وفي كل حين .

الثالثة : مع قوله : ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ يواصل يوسف عليه السلام حديثه عن فضل الله ورحمته وعنايته وتوفيقه ليوسف ، وبعد أن أشار إلى تأويل الرؤيا التي جعلها الله حقًا باجتماعهم وتحيتهم له بالسجود أشار هنا إلى فضل الله على يوسف عليه السلام بإخراجه من السجن ، وتمكينه من ملك مصر ، وكان ذلك سببًا مباشرًا في قدومهم جميعًا إلى مصر آمنين . وذكر السجن ، وسكت عن إخراجه من الجُبّ ، حتى لا يجرح مشاعر إخوته بتذكيرهم بما كان منهم ، وهذا من كمال أدب يوسف عليه السلام في الخطاب ، وكرم خُلقه وإحسانه ، أليس هو من المحسنين ؟!

الرابعة : مع قوله : ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ ﴾ :

وهذه نعمة أخرى يذكرها يوسف عليه السلام مما امتن الله عليه مجيئهم من البدو إلى الحاضرة ، فقد كانوا يعيشون حياة البدو الرحل في بادية الشام ، فجاء الله بهم إلى مصر ، حيث الحضارة والأمن والاستقرار ، وفي ذلك إشارة إلى منّة الله على مصر في ذلك الزمان ، حيث كانت عاصمة الحضارة في المنطقة .

الخامسة : مع قوله : ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ :

انظر إلى كمال أدب يوسف عليه السلام وإحسانه ، حيث أحال ذنوب إخوته كلها إلى الشيطان تكرمًا منه وتفضلاً ، ولم ينسب إليهم شيئًا ، حتى لا يكون عتابًا بعد صفح وغفران .

السادسة : مع قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ﴾ :

واللطف : هو التدبير الملائم ، وهو يتعدى باللام على تقدير لأجل ﴿ ما يشاء ﴾ اللطف به ، ويتعدى بالباء مثل قوله : ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾ .

والمقصود أن الله يدبر التدبير الملائم للوصول إلى ما يشاء مما يدق علمه وفهمه على كثير من الناس ، ومن ذلك أحداث هذه القصة ، وتحقيق رؤيا يوسف عليه السلام .

السابعة : مع قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ :

ذلك تعليل لما تقدم من لطف الله وتدبيره ؛ لأنه سبحانه هو العليم الحكيم ، وانظر تطابق هذا القول مع قول أبيه المتقدم في أول القصة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف : ٦] ، ألم تر أنه يخرج من مشكاة واحدة ، ذاك كان في البدء ، وهذا في الختام ، وانظر مرة أخرى إلى توافق البدء مع الختام ، فما أعظم ذلك وما أعجبه .

وللحديث بقية إن شاء الله .

دعاء وتعقيب

بقلم الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي له الحمد في الأولى والآخرة ، وله الحكم وإليه ترجعون ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة وهداية للناس كافة محمد البشير النذير ، أما بعد :

أخي الكريم ، وقفنا بك في لقائنا السابق عند اجتماع شمل الأسرة المباركة بعد افتراق طال أمده ، وحقق الله بفضله ورحمته رؤيا يوسف عليه السلام التي رآها وهو طفل صغير ، وهكذا أتم الله نعمته على نبيه يوسف وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق ، فتحققت رؤيا يوسف عليه السلام كما تنبأ بذلك أبوه يعقوب عليه السلام من قبل .

وكان تمام النعمة ببسط سلطان يوسف على ملك مصر واجتماع أهله به في ملكه وسلطانه ودخولهم مصر بفضل الله آمنين ، ولم تنس فرحة اللقاء والاجتماع بعد الافتراق يوسف عليه السلام أن يتوجه إلى ربه بهذا الدعاء : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف : ١٠١] .

وفي هذا الدعاء الكريم فوائد كثيرة ؛ نذكر منها بعون الله ما يأتي :

الأولى : اعتراف يوسف عليه السلام في هذه المناجاة بثلاث من نعم الله عليه ، نعمتان في الدنيا :

١- ما آتاه الله من الملك .

٢- ما آتاه الله من العلم والحكمة وتأويل الأحاديث .

٣- فهي نعمة الدين .

الثانية : ١- في قوله : ﴿رب﴾ بحذف ياء النداء ؛ إشارة إلى قربه من الله بحسن صلته به ، وقرب الله من عباده بسماع دعائهم واستجابته .

٢- في قوله : ﴿من الملك﴾ ؛ إشعار بأن العبد مهما أوتي من مُلك وعلم فهو قليل بجانب

ملك اللّه وعلمه .

الثالثة : في قوله : ﴿ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ .

أي خالقها ومبدعها على غير مثال سابق ، فبكلمتك سبحانك خلقتها وبيدك أمرها ، ولك القدرة التامة عليها وعلى أهلها .

الرابعة : في قوله : ﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ ؛ اعتراف وإقرار بولاية اللّه له ؛ أي بنصره وتأييده في الدنيا والآخرة ، وقال الشيخ ابن عاشور في «تفسيره» : (وجملة : ﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ من قبيل الخبر في إنشاء الدعاء ، فالمعنى : كن وليي في الدنيا والآخرة) .

الخامسة : في قوله : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ ؛ إشارة إلى النعمة العظمى ، وهي نعمة الانتماء إلى الدين الحق ؛ دين الإسلام ، ويطلب من اللّه الثبات عليها حتى الممات .

وهذا يذكرنا بقول أبويه من قبل إبراهيم وإسماعيل حين قالا : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة : ١٢٨] .

وكذلك بوصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام لأبنائهما : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢] .

وبقول المؤمنين من قوم موسى عليه السلام حين واجهوا جبروت فرعون فقالوا : ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٦] .

وبقول حواريّ عيسى عليه السلام حين قالوا : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا

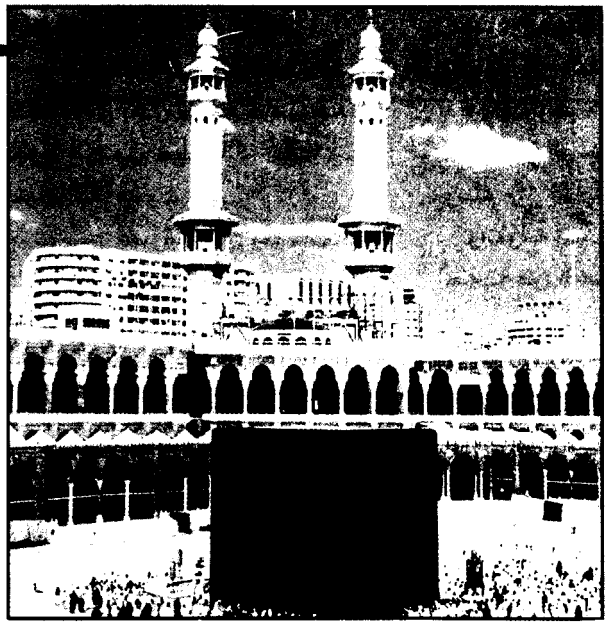

مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

وبقول نبينا محمد ﷺ حين قال فيما حكى اللّه عنه : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٩١] ، وبقوله ﷺ : ﴿ وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الزمر : ١٢] .

وهذا يشبه توجيه اللّه سبحانه للمؤمنين من أمة محمد ﷺ حين قال سبحانه : ﴿ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ، فهذه مسيرة الأنبياء على مر التاريخ أولها متصل بآخرها ، وآخرها يشهد لأولها ، فاللّه واحد ، ودينه واحد ، وهو الإسلام ، والأنبياء والمرسلون جاءوا بهذا الدين ، والمؤمنون في كل زمان ومكان طلبوا من اللّه أن يموتوا على هذا الدين ؛ دين الحق دين الاستسلام لرب العالمين ، وإسلام القلب والجوارح له سبحانه وتعالى ، ومسيرة الحق

يؤيد بعضها بعضًا ، وهكذا طلب يوسف عليه السلام من ربِّه أن يتوفاه على هذا الدين ؛ دين الإسلام ، وأن يلحقه بالصالحين من عباده الذين ماتوا على هذا الدين فيجتمع في جنة الخلد مع آبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومع إخوانه من الأنبياء والمرسلين من لدن آدم عليه السلام إلى خاتمهم محمد بن عبد الله النبي الأمي ومن الصالحين من عباد الله الذين ماتوا على هذا الدين ، بهذا الدعاء الجليل من الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، ختم السياق القرآني الكريم قصة يوسف عليه السلام ، ثم بدأ في تعقيب وتذييل لاستخلاص العبر والدروس ، ولنا معه الوقفات التالية :

الأولى : مع قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ۞ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١، ١٠٢] .

هنا انتقل السياق القرآني الجليل إلى خطاب سيدنا محمد ومن بلغ ، وقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما سبق خبره من أمر يوسف وإخوته فهو غيب لم يكن يعرفه محمد ﷺ ، ولا قومه ، ولا حتى أهل الكتاب الذي نزل فيهم هذا الخبر من قبل لم يعرفوه بهذه الدقة وهذا الشمول وذاك الصدق .

ولكن هذا من فضل الله عليك يا محمد بما أوحى الله إليك من هذا القرآن ، وهذا هو المعنى الذي أشارت إليه الآيات الكريمة في أول السورة ، حيث قال الله عز وجل : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] .

فهذا الذي قصَّه الله عليك يا محمد من خبر موسى وإخوته من الوحي الذي أوحاه الله إليك ، ولم تكن يا محمد حاضرًا هناك عندما مكر إخوة يوسف بأخيهم وبأبيهم ، أو عندما مكرت امرأة العزيز بيوسف عليه السلام أو غير ذلك ، وكان مقتضى ذلك أن يعرف الناس أن هذه الأخبار ليست من عندك أنت ، ولكنها من عند الله الذي يعلم الغيب ، والذي أوحى إليك بشيء منه ، ثم تؤدي بهم هذه المعرفة إلى الإيمان بأنك رسول الله حقًا ، ولكن مع الأسف أكثر الناس - ومع حرصك على إيمانهم - لا يؤمنون .

الثانية : مع قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] ؛ في هذه الآية الكريمة إشارة إلى حقيقة التوحيد الذي غفل عنه الكثيرون رغم رؤيتهم لآيات الله الواضحات التي يمرون عليها صباح مساء ، ثم لا يؤمنون ، حتى وإن اعترفوا بوجود الله خالقًا رازقًا مدبرًا كما كان هو حال مشركي العرب ، فكانوا يؤمنون بوجود الله ، ولكنهم يشركون معه غيره في العبادة ويقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣] .

وهذا حال كثير من الناس في كل زمان ومكان الذين يسألون غير الله ويذبحون لغير الله وينسبون الخير للكواكب والنجوم والأشخاص ويقولون : لولا فلان ما انتصرنا وما رزقنا ، ويخشون المخلوق كخشية الخالق .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وللحديث بقية إن شاء الله رب العالمين .

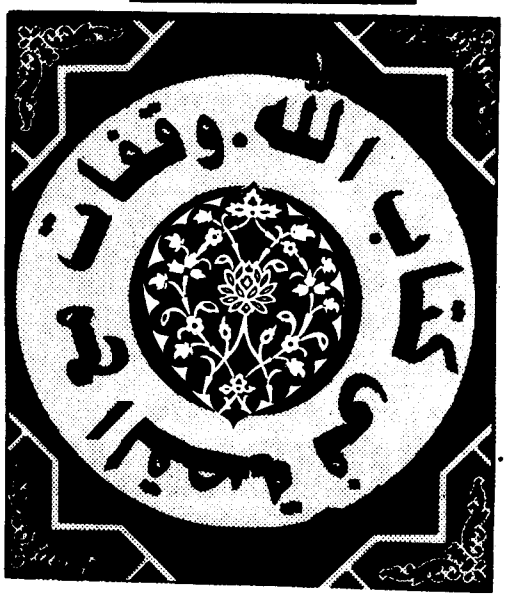

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

بقلم الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

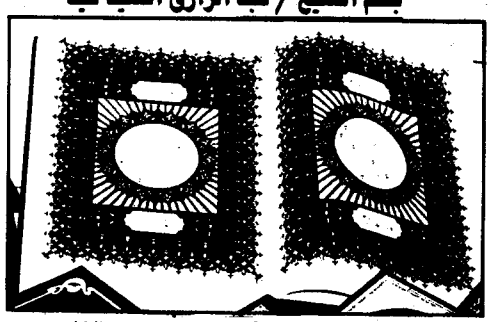

الحمد لله الذي أنزل على عبده آيات بينات ليخرج بها الذين آمنوا من الظلمات إلى النور ، إنه سبحانه بعباده لرءوف رحيم ، وبعد :

قال تعالى في ختام سورة ((يوسف)) : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١] .

❋ أيها القارئ الكريم :

وقفنا بك في اللقاءات السابقة عند ختام قصة يوسف عليه السلام بعد تمكين يوسف في الأرض وتعليمه من تأويل الأحاديث وتمام نعمة ربه عليه وتأويل رؤياه ، واجتماع شمل أسرته ، وقد عبر يوسف عليه السلام عن هذه المعاني في دعائه الجامع ، وقد ذكرناه في لقائنا السابق ، ونعيده هنا لتمام الفائدة : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] ، بهذا الدعاء الصادق الجامع ختم السياق القرآني حديثه عن وقائع قصة يوسف عليه السلام ، ثم بدأ بعد ذلك التعقيبات الهادفة إلى استخلاص العبر والدروس المستفادة لتقرير أصول العقيدة الصحيحة ومنهج الدعوة ، وبيان سنة الله في الاختبار والتمحيص ، ونصر أوليائه وتثبيتهم ، وهزيمة أعدائه وإذلالهم .

هذا ، وقد أشرنا إلى بعض ذلك في مقالات سابقة ، واليوم نقف بكم حيث تقف بنا السورة الكريمة في ختامها بتلك الآية الجامعة : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .

❋ بداية لعلنا نتذكر جيدًا حين بدأت السورة الكريمة بقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] ، وهنا ختمت السورة بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ... ﴾ ليتوافق البدء مع الانتهاء في نسق دقيق

بديع معجز .

❋ في قوله تعالى : ﴿ فِي قَصَصِهِمْ ﴾ قد يعود الضمير على قوله تعالى في الآية السابقة : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [يوسف : ١٠٩] ، فتكون العبرة عامة من تاريخ الأنبياء جميعًا مع رسلهم ، وكيف أهلك الله المكذبين ونصر المرسلين ومن كان معهم ، فهنا عبرتان ؛ عامة من قصص الأنبياء عمومًا ، وخاصة من قصة يوسف عليه السلام .

❋ الاعتبار من قصص الأنبياء بصفة عامة ، من ذلك ما يلي :

١- إثبات صدق نبوة محمد ﷺ ورسالته .

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] ، ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] .

٢- إثبات صدق رسالات الرسل والأنبياء السابقين .

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، والذي بين يديه هو ما أنزله الله على الأنبياء السابقين من حق جاء محمد ﷺ يؤكده ويصدقه .

٣- تصحيح ما ورد من تحريف وتبديل وانحراف وغلو .

كما جاء القرآن الكريم مصدقًا للحق الذي جاء به الأنبياء ، فإنه يصحح ما وقع من تحريف وتبديل وانحراف وغلو ، وبخاصة ما فعل المحرفون من بني إسرائيل مع أنبيائهم : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [النمل : ٧٦] .

٤- تقرير وتوكيد وحدة الدين ووحدة العقيدة .

فالأنبياء جميعًا أرسلهم الله سبحانه وتعالى لتقرير غاية واحدة بينها سبحانه في قوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

٥- تيسير الهدى والرحمة .

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إذ من الهدى الذي حوته هذه القصص العبر والعظات الباعثة على الإيمان والتقوى بمشاهدة قدرة الله في تصريف أحوال عباده ، وأثر التقوى في خيري الدنيا والآخرة .

٦- الاعتبار والاتعاظ .

اعتبار المؤمن الصادق من خلال القصص القرآني وأحوال الأنبياء مع أتباعهم ، وأحوال الأتباع مع أنبيائهم وعاقبة كل من الفريقين يعطي المؤمن مجالاً للاتعاظ والتذكر مما يدفعه للسلوك المستقيم والاقتداء بالأنبياء والصالحين ، ومجانبة سلوك المنحرفين .

٧- الاقتداء بالأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - فهم يمثلون نماذج بشرية بلغت من السمو والرفعة منازل عالية ، سواء في عقيدتهم وسلوكهم ، ولا غرو فقد جعلهم الله مناط القدرة ، في ذلك قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٣] .

٨- التثبيت والتسرية .

لا شك في أن من أهم أهداف القصة القرآنية تثبيت النبي ﷺ والذين آمنوا ، وتثبيت المؤمنين والتسرية عنهم في كل زمان ومكان : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴾ [هود : ١٢٠] ، ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقَدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤] ، ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] .

❋ أما الاعتبار بقصة يوسف عليه السلام على وجه الخصوص فهو كثير لدرجة أن الإمام ابن القيم ، رحمه الله ، قال : إن في هذه القصة أكثر من ألف

فائدة - أي قصة يوسف - ولقد ذكرنا كثيرًا من الفوائد في ثنايا الحديث على مدار أكثر من خمسة عشر مقالاً ، ولا بأس هنا من ذكر بعض الفوائد المجموعة من كلام بعض أهل العلم لتمام الفائدة :

❋ منها ما ذكره صاحب ((صفوة التفاسير)) : (ووجه الاعتبار بهذه القصة أنّ الذي قَدَرَ على إخراج يوسف عليه السلام من الجبّ بعد إلقائه ، وإخراجه من السجن ، وتمليكه مصر ، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدّة الطويلة واليأس من الاجتماع ، قادر على إعزاز شأن محمد ﷺ وإعلاء شأنه ، وإظهار دينه ، وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب ، فكان ذلك معجزة لرسول الله ﷺ) . اهـ .

❋ ومنها ما ذكره الشيخ محمد رشيد رضا ، رحمه الله : (لقد كان في قصة يوسف عليه السلام وإخوته لأبيه أنواع من الدلائل على أنواع من قدرة الله وحكمته وتوفيق أقداره ولطفه بمن اصطفى من عباده ، وتربيته لهم وحسن عنايته بهم للسائلين عنها من الراغبين في معرفة الحقائق والاعتبار بها ؛ لأنهم هم الذين يعقلون الآيات ، ويستفيدون منها ، ومن فاته العلم بشيء أو بحكمته أو بوجوه العبرة فيه سأل عنه من هو أعلم به منه ، فإن للظواهر غايات لا تُعلم حقائقها إلا منها ، فإخوته لو لم يحسدوه لما ألقوه في غيابة الجب ، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر ، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه ما أمنه على بيته ورزقه وأهله ، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعُرِف أمرها ، ولو لم تخب في كيدها وكيد صواحبها من النسوة لما ألقي في السجن لإخفاء هذا الأمر ، ولو لم يسجن لما عرفه ساقي ملك مصر ، وعرف براعته وصدقه في تعبير الرؤيا ، ولو لم يعلم الساقي منه هذا لما عرفه ملك مصر وآمن له ، وجعله على خزائن الأرض ، ولو لم يتبوأ هذا المنصب لما أمكنه أن ينقذ أبويه وإخوته وأهلهم أجمعين من المخمصة ويأتي بهم إلى مصر فيشاركوه في رياسته ومجده ، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا وكان ظاهرها محرقًا وباطنها مشرقًا ، وبدايتها شرًا وخسرًا ، وعاقبتها خيرًا وفوزًا ، وصدق الله عز وجل : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾) . اهـ .

❋ ومنها ما ذكره القاسمي ، رحمه الله ، في ((محاسن التأويل)) : (إن من أمعن النظر في قصة يوسف عليه السلام علم يقينًا أن التّقي الأمين لا يضيع الله سعيه ، بل يُحسن عاقبته ويعلي منزلته في الدنيا والآخرة ، وأن المعتصم بالصبر لا يخشى حدثان الدهر وتجاربه ، ولا يخاف صروفه ونوائبه ؛ فإن الله يعضده وينجح مسعاه ويخلد ذكره العاطر على ممر الأدهار ، فإن يوسف عليه السلام لما لم يخش للنوائب وعيدًا ، ولا للتجارب تهديدًا ، ولم يخف للسجن ظلمًا وشرًا ، ولا للتنكيل به ألمًا وضرًا ، بل ألقى توكله على ربه وصبر إزاء تلك البلية ثابت القلب ؛ نال بطهارته وتقواه تاج الفخر ولسان الصدق طول أيام الدهر ، بل ادخرت لنا مثالاً نقتفي أثره عند طروء التجارب ، وملاذًا نعوذ به في المحن والمصائب ، ومقتدى نتدرب به على التثبت في مواقف العثار ، وننهج منهاجه في التقوى وطيب الإزاء ، فننال في الدنيا سمة المجد ، ونفوز في الآخرة بدار الخلد) . اهـ .

هذه بعض الفوائد والعبر نقلتها لك من أقوال بعض أهل العلم ، وهي قليل من كثير في قصة يوسف عليه السلام التي أرجو الله أن يجعلنا أهلاً للاستفادة منها والاعتبار بها ، فإنها عبرة لأولي الألباب ، وإنها صدق لا كذب فيه وحق لا باطل بين يديه ودليل رحمة وهداية لمن آمن بالله ورسله .

وإلى لقاء في قصة أخرى ودروس مستفادة ، والله الموفق والمعين .

قصة : موسى عليه السلام

نظرة عامة حول القصة

بقلم الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي بيده مقاليد السماوات والأرض ، يعطي ويمنع ، يرفع ويخفض ، يرفع بالقرآن أقوامًا ، ويضع به آخرين ، وبعد :

فهذه وقفتنا الأولى مع قصة موسى عليه السلام ، بعد قصة يوسف عليه السلام .

هذا ، وإذا كانت قصة يوسف عليه السلام جاءت مثالاً لغير المتكرر في القصص القرآني العظيم ، فإن قصة موسى عليه السلام جاءت مثالاً للمتكرر ، فإنها أكثر القصص تكرارًا في كتاب الله ، ولهذا حكمته التي سنتحدث عنها بعد قليل ، بعد إشارتنا إلى قضية التكرار في القرآن الكريم ، لكننا ابتداءً نقرر ونؤمن بإعجاز القرآن الكريم ، وسمو أسلوبه في كل أحواله ؛ لأننا نؤمن بأنه كلام رب العالمين ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

قال الإمام القرطبي : (قال العلماء : وذَكَرَ اللَّهُ أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة ، بألفاظٍ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر ، ولا على معارضته غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل) . اهـ .

طَعْن أعداء الإسلام فيما تكرر :

ذكر القرطبي آنفًا أن العلماء شهدوا بإعجاز القرآن في كل أساليبه المتكرر وغيره ، لكن الذين لا يعلمون ماذا قالوا ؟

قال بعض المستشرقين وتلاميذهم الذين يردِّدون افتراءاتهم ، لكن بلسان عربي مبين ، قالوا عن التكرار في القرآن : أنَّه ضعفٌ في الأسلوب ، واتخذوا من ذلك مدخلاً للطعن في بلاغة القرآن الكريم ، والتقليل من روعة أسلوبه ، وللأسف نُشيرُ هذا الباطل في رسائل لنيل درجة الدكتوراة من الجامعات المصرية حول دراسات في أسلوب القصص في القرآن الكريم ، وهذا القول من أصحابه ، فضلاً عن جهل أهله ، فإنه ينطوي على هوى وأمراض في القلوب .

قال الشيخ محمد الغزالي عن أصحاب هذه الأقوال : (وهذا الكفر الصغير يقوم على جهل كبير بكلام اللّه جل شأنه ، وهو طبعًا بعض آثار الغزو الثقافي الصليبي لبلادنا) . اهـ. من كتاب ((نظرات في القرآن)) .

وردَّ الأستاذ عبد الكريم الخطيب على هؤلاء قائلاً : (إن الذين يقولون هذا القول أو يحكونه عن غيرهم هم أعاجم أو أشباه أعاجم لم يذوقوا البلاغة العربية ، ولم يتصلوا بأسرارها ، ولو أنهم رُزقوا شيئًا من هذا لما طاوعتهم ألسنتهم أن ينطقوا بهذا البهتان العظيم ، ولردَّهم الحياء أن يقولوا قولاً لم يقع في حساب كفار قريش ، وهم كانوا يتصيدون التهم والمفتريات على القرآن الكريم ، حتى لقد بلغ بهم الأمر أنهم لو وجدوا زورًا أو بهتانًا لقالوه في القرآن ورموه به ، ولكن الزور نفسه أعياهم أن يمسكوا به في وجه الحق المشرق ، وإذا لم يكن لقريش أن تقول مثل هذا القول وهي مرجع الفصاحة والبلاغة وموطنها ، وبلغتها نزل الذكر الحكيم ، فكيف يساغ هذا القول من أعاجم وأشباههم ؟ إن هذا لهو الضلال البعيد) . اهـ . من كتاب ((القصص القرآني)) .

ولسنا الآن بصدد استيفاء الردود على هؤلاء ، الذين قالوا على اللّه بغير علم ، ولكننا بصدد بيان الحكمة في التكرار في كتاب اللّه ، سواء كان في القرآن عامة ، أو قصصه بصفة خاصة .

۞ ظاهرة التكرار في القرآن الكريم عامة ، والحكمة منه :

لا شك أنها من الظواهر الهامة ، وتكون أشد وضوحًا في السور المكية منها في المدنية ، مما حدا بكثير من العلماء والمفسرين الإشارة إليها في

ثنايا التفسير ، ومنهم مَنْ ألف فيها كتبًا مستقلة ، ومنهم على سبيل المثال : محمود بن حمزة بن نصر الكرماني ، فقد وضع كتابًا تتبع فيه كلَّ الآيات المتشابهات التي تكررت في القرآن ، ووقع في بعضها زيادة أو نقص ، وتتبع الحكمة في ذلك ، وقال محقق الكتاب : (ولقد بلغت هذه المكررات قمة الإعجاز ، بحيث يمكن اعتبارها من علامات التنبيه على الإعجاز الذي لا يُدْرَكُ إلا بعمق الفهم والفقه والتذكر في كل سورة من سور القرآن الكريم) .

هذا ، والتكرار في القرآن الكريم لا يأتي هكذا جزافًا ، وإنما يأتي لهدف مقصود ، هدف تربوي حكيم ، والتربية ليست قولة مرة وتنتهي ، وإنما هناك مدى يحتاج من يتلقى التربية إلى ((التذكير)) الدائم حتى يستقيم على الأمر المطلوب : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] ، ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] .

أضف إلى ذلك نزول القرآن على مدى ثلاثة وعشرين عامًا متطاولة ، فكان المدى بعيدًا بين نزول الآية وشبيهتها إلى حد يبلغ عدة سنوات .

تشابه وليس تكرار :

ومع ذلك فإن المتأمل في كتاب اللّه لا يجد إلاَّ قليلاً جدًا من الآيات أو العبارات التي تكررت بلفظها لأمر مقصود ، وهدف منشود ، وفيما عدا ذلك لا يوجد نصان متماثلان من جميع الوجوه ، إنما يوجد تشابه فقط دون تماثل ؛ أي دون تكرار كامل ، فإننا حين نتلو القرآن مجمّعًا على صورته في المصحف ، وحتى نتلوه متقاربًا لا يفصل زمن كبير بين الآية وشبيهتها ، فإننا لا نجد فيه تكرارًا حقيقيًا بالمعنى المفهوم من اللفظ ، إنما نجد ظاهرة أخرى في الحقيقة تستحق منّا النظر من حيث هي جمال في التعبير ، ولون من التأثير في الوجدان فريد ، ذلك : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢- ١٩٥] .

التكرار في القصص القرآني بوجه عام :

يأتي تكرار القصة في كتاب اللّه انطلاقًا من الهدف السامي والحكمة البليغة ، والآداب التي يريد القرآن الكريم تقريرها في نفوس المؤمنين ، والتي يمكن إجمالها فيما يلي :

١- القصة في القرآن الكريم أداة لتربية النفوس ، ووسيلة لتقرير المعاني والحقائق .

٢- تتأتى القصة في كل سورة متناسقة مع ملامح السورة التي وردت فيها وهدفها الخاص .

٣- إن كل مرة تعرض فيها القصة تكشف عن جانب من جوانبها ، أو تكمل حدثًا من أحداثها في سياق العبرة المقصودة والغاية المنشودة ، وليس لمجرد التكرار ؛ لذا فإنّه لا يعد تكرارًا بمعناه اللفظي من كل الوجوه .

٤- إبراز الحدث الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة .

٥- والبلاغة كل البلاغة تأتي من هذا التكرار المفيد الهادف الذي لا يشعر فيه القارئ ولا السامع بأي ملل ، بل إذا قرأه وعاد إليه مرة تلو المرة فكأنما يقرؤه لأول مرة ، فسبحان من هذا كلامه !! وعجبًا ثم عجبًا لمن حجب عن الفهم واتبع هواه .

التكرار في قصة موسى عليه السلام بوجه خاص :

بالإضافة إلى ما سبق بيانه عن التكرار في القرآن الكريم وقصصه ، فإن قصة موسى عليه السلام تكررت أكثر من غيرها من القصص ، وقد أوضح أهل العلم جوانب الحكمة في ذلك ؛ نذكر من هؤلاء ما ذكره الشيخ الجليل عبد الرحمن السعدي ، رحمه اللّه ، حيث قال : (قد ذكر اللّه لموسى بن عمران ومعه أخوه هارون ، عليهما السلام ، سيرة طويلة ، وساق قصصه في مواضع متعددة من كتابه الكريم بأساليب متنوعة واختصار أو بسط يليق بذلك المقام ، وليس في قصص القرآن أعظم من قصة موسى عليه السلام ؛ لأنه عالج فرعون وجنوده ، وعالج بني إسرائيل أشد المعالجة . وهو أعظم أنبياء بني إسرائيل . وكتابه التوراة ، هو مرجع أنبياء بني إسرائيل وعلمائهم . وأتباعه أكثر أتباع الأنبياء غير أمة محمد ﷺ . وله من القوة العظيمة في إقامة دين اللّه والدعوة إليه والغيرة العظيمة ما ليس لغيره) . اهـ .

هذا ، وقصة موسى عليه السلام تنقسم إلى قسمين :

الأول : قصة موسى مع فرعون وجنوده .

الثاني : قصة موسى مع بني إسرائيل .

ولكل قسم منهما دروسه وعبره ، والتي سنبدأ بمشيئة اللّه تناولها تباعًا في اللقاء القادم .

بقلم الشيخ :
عبد الرازق السيد عيد

موسى عليه السلام

الحلقة الثانية

المولد

الحمد لله رب السماوات ورب الأرض رب العالمين ، يصرف شئون ملكه بقدرته ، فهو سبحانه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وبعد :

أخي القارئ الكريم ؛ وقفنا معك في مقال سابق حول قصة موسى عليه السلام ، واليوم نبدأ معك بالحلقة الأولى منها من خلال سورة ((القصص)) ، حيث إن هذه السورة أوعب من غيرها في عرض قصته عليه السلام منذ ميلاده ، وفصّلت في جانب الميلاد والنشأة أكثر من غيرها .

۞ تمهيد :

قبل أن ندخل في الحديث عن ميلاد موسى عليه السلام ونشأته يجدر بنا أن نشير إلى وضْع بني إسرائيل في مصر ، وموقفهم من فرعون ، وموقف الفرعون منهم .

۞ الفترة ما بين يوسف وموسى عليهما السلام :

قال أهل التاريخ ومنهم ابن كثير - رحمه الله -: استقر بنو إسرائيل في أرض الكناتة بعد وفاة يوسف عليه السلام ، وأخذوا في الرعي وتربية الماشية ، ومرت عليهم السنون الكثيرة ، فزاد عددهم واتسعت دائرتهم وقويت شوكتهم ، وكانوا في ذلك الحين على صلة وثيقة بالحكام الهكسوس ، الذين حكموا مصر في تلك الفترة ، وظلَّ بنو إسرائيل تحت حكمهم في نعيمٍ وارف .

إلى أن دار الزمان دورته وثار الشعب ثورته على الهكسوس - الذين كانوا غرباء عن مصر - وتولى الحكم في مصر ((أحمس الأول)) مؤسس الإمبراطورية المصرية في حينه ، وقد شن الحرب على كل رجالات الحكومة السابقة ، ومن بينهم الشعب اليهودي ، فأذاقهم ألوان الذل والمهانة والتسخير ، وقد بلغ ذروته في عهد ((رمسيس الثاني)) ، وفي عهد ((مَنفتاح الثاني)) أحد ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، ابتدأ التنكيل ببني إسرائيل يأخذ مجرى أشد عنفًا وضراوة ، بسبب ما كان يتناقله بنو إسرائيل ويتدارسونه بينهم عن خروج غلام منهم يكون هلاك ملك مصر على يديه . وقيل : إن الفرعون رأى في ذلك رؤيا ، وأيمًا كان السبب فإن الفرعون قد أصدر أوامره إلى أعوانه بقتل كل مولود ذكر في بني إسرائيل ، ويستحيوا كل أنثى ، وهذا ما قصَّه الله علينا في صدر السورة الكريمة ، فقال سبحانه : ﴿ طسم ۞ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۞ نَتْلُوا عَلَيْكَ

مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۞ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص : ١- ٦] .

هذه الآيات من صدر سورة ((القصص)) جاءت تمهيدًا لتفصيل خبر موسى وفرعون ، وهي بمثابة التقدمة للنبأ العظيم الهام الذي سيقصه الله على رسوله وعلى المسلمين للتربية والعظة والاعتبار ، وفي الآيات الكريمة مسائل :

۞ **الأولى : في تسمية السورة :**

سميت سورة ((القصص)) ؛ لأن الله تعالى ذكر فيها قصة موسى عليه السلام مفصلة موضحة من حين ولادته إلى حين رسالته ، وفيها من غرائب الأحداث ما يتجلى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه وخذلانه لأعدائه .

۞ **الثانية : في وقت نزولها :**

نزلت السورة في وقت كان المسلمون مستضعفين فيه بمكة ، وهي حالة مشابهة لحال بني إسرائيل مع فرعون ، وفي ذلك ما فيه من التسرية عن الرسول ﷺ والذين آمنوا معه ، ومن يأتي من بعدهم في حال مشابهة لحالهم .

۞ **الثالثة** : في قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ ﴾ :

١- حكاية الماضي بالفعل المضارع ((نريد)) لاستحضار تلك الصورة البعيدة ، وجعلها ماثلة في الأذهان كأنها واقع مشاهد ، وهذا أبلغ في العبرة .

٢- ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ ؛ الإرادة هنا كونية ، وهي واقعة لا محالة ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] ، وهذه بخلاف الإرادة الشرعية التي هي بمعنى المحبة ، وهي ليست لازمة الوقوع .

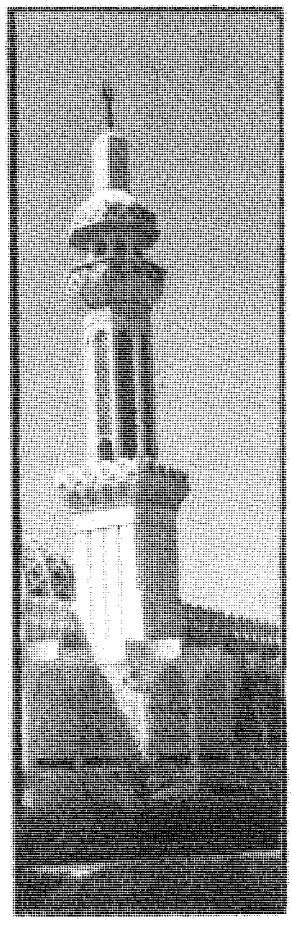

۞ **الرابعة** : الذين استضعفوا في الأرض هم بنو إسرائيل ، وكانوا من خير أهل زمانهم ، والأرض المقصود بها أرض مصر .

۞ **الخامسة** : مظاهر فساد فرعون في الأرض :

١- العلو في الأرض ، وهو التكبر والبغي ، فهذه أم المفاسد وجماعها ، ولذا قُدِّمت في الذكر .

٢- تفريق أهل البلاد إلى شيع (طوائف وأحزاب وفرق) ؛ ليسهل له قيادها .

٣- عدم العدل في معاملة رعاياه ، واستضعافه بني إسرائيل .

٤- أمره بذبح الأبناء من بني إسرائيل ، واستحياء النساء .

وبعد هذه التقدمة التي لخصت أحداث القصة أخذت السورة في تفصيل ما يلي :

۞ الظروف التي أحاطت بميلاد موسى عليه السلام وفيها مشاهد :

۞ المشهد الأول :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلاَ تَخَافِي وَلاَ تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

هذه أم موسى نضع مولودها في خوف وترقب، حيث بث فرعون عيونه ترقب أرجاء البلاد ، باحثة عن ذلك الطفل الذي يخشى الفرعون ميلاده .

في هذه الأجواء التي تحيط بأم موسى حين وضعت وليدها موسى ، تولَّد عند أم موسى حالة من الخوف الفطري الذي لا تلام عليه ، لكن هل تركتها عناية اللَّه ورعايته ؟ بل هي معها موجِّهة ومرشده ومدبرة وقائدة ، أوحى اللَّه إليها عن طريق الإلهام بإرضاعه ؛ لأن اللَّه أراد له الحياة ، وعسى أن تذهب الرضاعة شيئًا من الخوف الذي يعتريها . فإذا استمر الخوف عليه فألقيه في اليم (النهر) ؟

يا سبحان اللَّه !! هذه أم موسى تخاف على وليدها موسى وهو في أحضانها ، فيأتيها الأمر بإلقائه في النيل ، فكيف يستقيم أمرها وحالها ؟

إذا كنت تعجب من هذا فخذ ما هو أعجب : ﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ ﴾ ، بل إليك الأشد عجبًا : ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ !! بهاتين البشارتين أراد اللَّه أن يدفع عن أم موسى ما أصابها من خوف بإزاء الأمرين : ((أرضعيه)) ، و((ألقيه)) ، وقد نهاها سبحانه في ثنايا الآية الكريمة عن الخوف والحزن ، فيا لها من بلاغة معجزة ، وقدرة مقتدرة ، فقد اجتمع في الآية الكريمة على وجازتها ستة أساليب بلاغية : أمران ، ونهيان ، وبشارتان ، وأشارت الآية إلى قدرة اللَّه البالغة التي تحيل الضَعْفَ قوة ، والخوف أمنًا ، والخطر بردًا وسلامًا ، واليأس فرحًا ورجاءً ، وذلك لأن اللَّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

۞ المشهد الثاني :

وهو في قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ۞ وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص: ٨، ٩].

ها هو الوليد الذي قتل فرعون من أجله ما قتل حذرًا من وجوده يقتحم على فرعون بيته وتكون امرأة فرعون آسية بنت مزاحم التي جاء مدحها والثناء عليها في الكتاب والسنة ، ها هي تشفع لموسى الصغير عند زوجها ، ترجو أن يكون قرَّة عين لها ولزوجها ، وقد ألقى اللَّه محبة موسى عليه السلام في قلبها وقلب زوجها ، وها هو فرعون يستجيب لنصيحة زوجته ولرجائها في إبقاء المولود يتربى بينهم ، وحتى لو كان هو المولود المرتقب سيصير بالتربية من أبنائهم وأتباعهم ، هذا اجتهادها قياسًا على ما جرت به العادة ، وهم لا يشعرون بتدبير اللَّه الخفي ، ولما سيصير من أمر هذا الصبي ، ولذلك أخذت فرعون الدهشة عندما جاءه موسى عليه السلام داعيًا إلى اللَّه رب العالمين ، فقال فرعون لموسى في دهشة وتعجب : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ

سِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨] ، ولم يدر فرعون وأمثاله أن وراء الأسباب الظاهرة قدرة اللَّه القادرة ، وأحب هنا أن أنقل كلامًا لابن كثير - رحمه اللَّه - أختم به هذا المشهد ، وكأن القدر يقول : يا هذا الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه ، قد حكم العظيم الذي لا يُغالَب ، ولا يُمانع ، ولا تُخالف أقداره ؛ أن هذا المولود الذي تحترز منه ، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى ، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك ، ولا يغذى إلا بطعامك وشرابك في منزلك ، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتتفداه ، ولا تطلع على سر معناه ، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه ؛ لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين ، وتكذيبك ما أوحي إليه ؛ لتعلم أنت وسائر الخلق ، أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد ، وأنه هو القوي الشديد ، ذو البأس العظيم ، والحول والقوة والمشيئة التي لا مرد لها . اهـ .

المشهد الثالث :

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلاَ أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ١٠، ١١] .

حين وصل الخبر لأم موسى بوقوع ولدها في يد فرعون طار صوابها ، وفرغ قلبها من الصبر ، ومن كل شيء إلا ذكر موسى ، حتى كادت تصيح : ((وا ابناه)) فتظهر أمره ، لولا أن ربط اللَّه على قلبها برباط الصبر لتزداد إيمانًا بوعد اللَّه وثقة في عنايته ، فتحولت أم موسى من اليأس والجزع إلى الرجاء والأمل ، ووجهت ابنتها للأخذ بالأسباب المشروعة ، وتتبع أثر موسى خفية عن أعين القوم .

المشهد الرابع :

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۞ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلاَ تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [القصص : ١٢، ١٣] .

إذا أراد اللَّه أمرًا هيأ له أسبابه ، وهنا جعل اللَّه موسى عليه السلام يمتنع عن كل مرضعة ، حتى يكون ذلك سببًا في عودته إلى أمّه ، بعد تدخل أخته بذكاء ولباقة ، وعرضها الذي تقدمت به ، وكأنها لا تعلم عن الأمر شيئًا ، وتحقق وعد اللَّه لأم موسى ، فعاد إليها ولدها مع كفالةٍ أجراها فرعون عليها ؛ لأنها المرضعة التي حظيت برضا الوليد الذي يرجو فرعون بقاءه ، ولو علم لذبحه من فوره ، ذلك لتعلم أم موسى علمًا يقينيًا وليعلم كل مؤمن : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس : ٥٥] .

وللحديث بقية بعون اللَّه وتوفيقه .

حق المسلم على المسلم !!

حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه ، قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : ((حق المسلم على المسلم خمسٌ : رد السلام ، وعيادة المريض ، واتباع الجنائز ، وإجابة الدعوة ، وتشميتُ العاطس)) .

متفق عليه .

قصة موسى عليه السلام

بقلم الشيخ / عبد الرازق السيد عيد

بسم اللَّه والحمد للَّه والصلاة والسلام على رسول اللَّه وآله وصحبه ومن والاه ، قال اللَّه تبارك وتعالى مخاطبًا موسى عليه السلام : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ۞ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ۞ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [طه : ٣٧- ٣٩] .

في لقاء سابق تحدثنا عن الأحوال التي أحاطت بمولد موسى عليه السلام كما فصَّلتها سورة القصص ، ونريد اليوم في بداية لقائنا استخلاص الدروس والعبر من درسنا الماضي ، ولذلك قدَّمنا بهذه التقدمة البليغة من سورة « طه » ، حيث جاءت هنا التذكرة عابرة موجزة في مجال ذكر الامتنان على موسى عليه السلام ، فهذه المنة القديمة التي أحاطت موسى عليه السلام منذ ولادته ، وقد سبقت منَّة الاصطفاء بالرسالة التي بدأت بها سورة « طه » ، ولما كان محور الحديث في « طه » عن فترة الاصطفاء والرسالة في حياة موسى عليه السلام ومواجهة فرعون وقومه ، جاء الحديث عن فترة الميلاد مختصرًا موجزًا ، بينما جاء في سورة « القصص » مُسْهبًا مفصلاً ؛ لأنها تعنى عناية خاصة بمرحلة المولد والنشأة ، فتأمل - رحمك اللَّه - بلاغة الأسلوب القرآني في إيجازه وتفصيله على السواء ، ومراعاته مقتضى الحال ، والدروس المستفادة من هذا الموقف ملخصة في الآتي :

١- منَّة اللَّه على بني إسرائيل تمثلت أولاً في منته سبحانه على موسى عليه السلام وأمه .

٢- وانظر إلى ما بين قوله تعالى : ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ ﴾ [القصص : ٥] ، وبين تحقيق ذلك بهلاك فرعون وجنوده ، كم مرت من السنون والفتون والمنن ، فلا نستعجل النتائج .

٣- الثقة الكاملة في أن للكون ربًّا يدبر أحوال عباده فينصر مظلومًا وينتقم من ظالم ، يرفع ويخفض ، ويعطي ويمنع ، يدبر أمر عباده بعلمه وقدرته .

٤- إذا أراد اللَّه شيئًا هيأ له أسبابه من حيث لا يشعر الناس ولا يعلمون .

٥- تأمل كيف حكم اللَّه - وله السلطان العظيم والقدرة - أن لا يربى موسى عليه السلام إلا على فراش فرعون بطعامه وشرابه ، مع محبته وزوجته له .

٦- وانظر إلى « اللام » في قوله تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ ، والتي سمّاها العلماء لام الأمر التكويني ، كيف دلّت على قدرة اللَّه الذي سخر البحر لحمل موسى حملاً خفيفًا هينًا وإلقائه بالساحل أمام قصر فرعون ؛ لتحمله الجواري إلى امرأة فرعون ، من الذي هدى البحر إلى هذا الفعل وعلّمه هذا العلم ودربه هذا التدريب وكأنه رجل مُعَلِّم ؟ ومن الذي هدى الجواري إلى صنيعهم ؟ ومن الذي ألقى محبة موسى في قلب امرأة فرعون وفي قلب زوجها ؟ أليس هو اللَّه ذو الحكمة البالغة والقدرة المقتدرة ؟

٧- الأمة الواثقة في نصر اللَّه ؛ عليها ألا تيأس من رحمة اللَّه مهما بلغ بها الضعف ، ويجب ألا يستولي عليها الكسل عن السعي في إصلاح شأنها ، وخاصة إذا كانوا مظلومين ، كما استنقذ اللَّه بني إسرائيل من فرعون .

٨- الأمة مادامت ذليلة مقهورة مستسلمة للضعف لا يقوم لها أمر دينها كما لا يقوم لها أمر دنياها .

٩- الخوف الطبيعي من الخلق لا ينافي الإيمان ولا يزيله ، كما جرى لأمّ موسى من تلك المخاوف الطبيعية .

١٠- الإيمان يزيد وينقص ؛ لقوله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، والمراد بالإيمان هنا زيادته وزيادة طمأنينته .

١١- عناية اللَّه بعباده الصالحين وأوليائه المتقين ، حيث أحاط أم موسى عليه السلام برحمته ، وربط على قلبها لتزداد إيمانًا ويقينًا مع إيمانها .

١٢- ومن رحمته بأم موسى أن حرَّم على موسى المراضع ؛ حتى يعود لأمه وينجز لها سبحانه وعده بردّه إليها ، وتحت كفالة فرعون ونفقته .

١٣- المؤمن مع إيمانه بقدر اللَّه لا يهمل الأخذ بالأسباب المشروعة كما أمرت أم موسى أخته بتتبع أثره . ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ﴾ [القصص : ١١] .

١٤- « فرِّق تسد » ، هذا قانون الظلمة منذ زمن فرعون الذي جعل شعبه شيعًا .

❋ ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ :

الصنع : جعل الشيء على صفة معينة ؛ كصنع صفائح الحديد قدورًا ، وصنع الخشب أبوابًا ، وصنع كل شيء بحسبه ، وصنع الآدمي : معناه التربية البدنية والعقلية : التربية البدنية بالغذاء ، والتربية العقلية بالآداب والأخلاق والعلوم النافعة ، وفي الآية الكريمة إثبات العين للَّه سبحانه وتعالى بما يليق بجلاله وعظيم سلطانه ، وفيها كذلك تأكيد المراقبة والعناية

والرعاية لموسى عليه السلام ، فإنه رُبّي على عين اللّه ، ولولا هذه التربية وتلك العناية ما ألقاه اليم بالساحل ، ولما نجا من القتل على يد فرعون وجنوده ، ولكن عناية اللّه الملازمة لموسى منذ لحظة الولادة وقبلها وبعدها هي التي أدركته برحمة اللّه وألقت عليه محبة من اللّه ، ومن كل من رآه وشاهده حتى من فرعون الذي يقتل الناس من أجله ، وهو يتربى آمنًا في أحضان هذا الجبار الظالم ، فانظر إلى هذه القدرة العظيمة !!

ومن تربية اللّه لموسى أنه لم يقبل غير ثدي أمه ، حتى يرده اللّه لأمه فتقرّ به عينها ولا تحزن .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤] ، ذكرنا من قبل أن قوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ تعني التربية البدنية ، والعقلية ، وقد بدأت التربية البدنية منذ دخول موسى إلى بيت فرعون تحت عين اللّه ومراقبته ، وتزامنت معها التربية العقلية منذ ألهم اللّه موسى الامتناع عن الرضاع من أي ثدي غير ثدي أمه .

وأشارت الآية الكريمة السابقة إلى بلوغ موسى عليه السلام إلى مرحلتي البلوغ البدني والعقلي .

ففي قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ﴾ بلوغ موسى مرحلة القوة والفتوة البدنية ، وفي وقوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ إلى تكامل عقله وحزمه ، وقد آتاه اللّه معرفة بدين آبائه إبراهيم وإسحاق دين الإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعًا ، وتلك هي مقدّمات النبوة ، وبهذه الإشارة القرآنية البليغة طوى القرآن الكريم أحداثًا كثيرة من القصة ، ونقلنا نقلة كاملة من مرحلة الرضاعة والرعاية إلى مرحلة الكمال البدني والعقلي ، ونحن نسكت عما سكت عنه القرآن ، ويسعنا ما وسع القرآن ، ولا داعي لتلمس ذلك في أخبار بني إسرائيل ، فلو كان فيه خير لأرشدنا القرآن إليه .

﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٥] ، نقل إلينا المؤرخون أن موسى عليه السلام بلغ عند فرعون مرتبة عالية من العزة والكرامة ، حيث تذكر بعض المراجع أنه كان قائدًا شجاعًا من قواد فرعون الذين فتحوا البلدان وأخمدوا الثورات ، وبغض النظر عن مدى صحة ما ذكر ، فإن موسى عليه السلام دخل ذات يوم - المدينة - وهي عاصمة مصر في ذلك الوقت ، في وقت القيلولة بينما خلت الشوارع من الناس إلا قليلاً ، فوجد رجلين يتنازعان أحدهما من بني إسرائيل والآخر قبطي من قوم فرعون ، فطلب الإسرائيلي العون والنصرة من موسى ؛ لأنه كان مظلومًا ، ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى ﴾ ؛ أي ضربه بجمع كفه ، ﴿ فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ ؛ أي فقتله ، وما كان موسى يريد

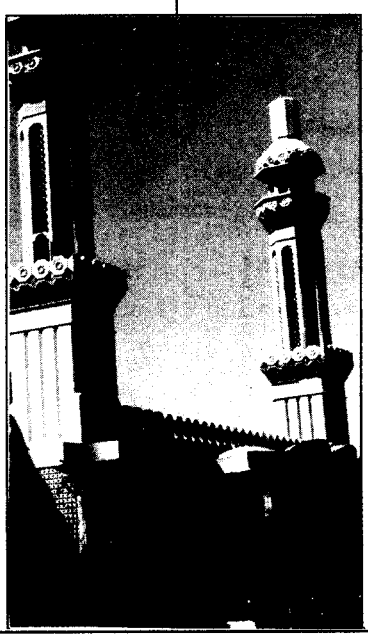

قتل القبطي ، وإنما كان يريد فقط دفع ظلمه عن الإسرائيلي ، ولكن موسى عليه السلام كان معروفًا بالقوة البدنية ، فأدت ضربته إلى قتل القبطي دون قصد منه ؛ لذلك اعترف أن الذي حدث من عمل الشيطان ، أي من إغوائه ، فهو مضل واضح العداوة وواضح الضلال .

ولأن موسى عليه السلام قد آتاه الله الحكم والعلم فقد عرف أن الذي وقع منه من إيعاز الشيطان ، واعترف بخطئه ، واستغفر ربَّه مما بدر منه وإن كان لم يقصده ، وذلك لأنه من المحسنين ، قال موسى متضرعًا إلى الله راجعًا إليه راجيًا مغفرته ورحمته : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ﴾ ؛ أي بالقتل الخطأ الذي وقع مني ، ﴿ فَاغْفِرْ لِي ﴾ ، فاستجاب له ربه ، ﴿ فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ .

❋ موسى يعاهد ربَّه :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص : ١٧] ؛ أي بما أنعمت عليَّ من نعمة القوة والهداية فلن أكون معينًا للظالمين الخارجين عن حدودك . وقد احتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية على منع خدمة أهل الجور ومعونتهم في شيء من أمورهم ، وقد نقل الإمام القرطبي في « تفسيره » ذلك عن عطاء بن أبي رباح ، رحمه الله ، حيث قال الفقيه التابعي : لا يحل لأحد أن يعين ظالمًا ولا يكتب له ولا يصحبه ، وإنه إن فعل شيئًا من ذلك فقد صار معينًا للظالمين .

❋ خطورة موقف موسى عليه السلام بعد قتل القبطي :

قال تعالى :﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ۞ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص : ١٨، ١٩] .

قال الإمام ابن كثير في « تفسيره » : أي أصبح موسى خائفًا من قتل القبطي أن يؤخذ به ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ أي : يتلفت من الخوف ينتظر الطلب وما يتحدث به الناس ، فإذا الإسرائيلي الذي خلَّصه بالأمس يخاصم قبطيًا آخر ويستغيث بموسى لينصره على القبطي ، فقال له موسى : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي : ظاهر الغواية كثير الشر تخاصم من لا تستطيع دفع شرَّه عنك ، ثم عزم موسى عليه السلام على البطش بذلك القبطي فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى يريد البطش به لما سمعه يقول : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ ، فقال يدافع عن نفسه : ﴿ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ﴾ ، فلما سمعها ذلك القبطي ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده . اهـ .

فماذا نتوقع من فرعون حين يعلم أن موسى قتل قبطيًا انتصارًا لإسرائيلي ؟ النتيجة معروفة ، لقد ظهر المستور وتأكدت عداوة موسى لفرعون وقومه مهما كان من أمر موسى وصلته بفرعون ، فهذا موسى الذي كان من المفروض أن يُقتل وهو وليد لقد حان قتله الآن ، وبالفعل أصدر فرعون أوامره بإحضار موسى وقتله فورًا ، فهل سيستطيع فرعون قتل موسى ؟ هذا ما سنعرفه بإذن الله في لقائنا القادم ، لكني أذكرك بقوله تعالى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ ، ضعها أمام عينك .

وإلى لقاء آخر إن شاء الله .

خروج موسى عليه السلام إلى مدين

الحلقة الرابعة

بقلم الشيخ :

عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي يتولى عباده الصالحين برحمته ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة وهداية للناس كافة . وبعد :

أولاً : يقول تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ۞ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [القصص : ٢٠ : ٢٢] .

أخي القارئ الكريم ، وقفنا معًا في اللقاء السابق عند حالة الخوف والترقب التي أصابت موسى بعد مقتل القبطي ، وقد أصدر الفرعون أوامره بالفعل بقتل موسى عليه السلام ، ولم يكن موسى يعلم بذلك .

أما الآن صار التوجس والترقب حقيقة لا مراء فيها ، وجاء الناصح الأمين . وقال المفسرون : إنه مؤمن آل فرعون ، جاء يخبر موسى بحقيقة التدبير الذي دبره القوم بقتل موسى ، وطلب منه أن يخرج من مصر فورًا قبل أن يقع في أيدي رجال فرعون .

خرج موسى عليه السلام من مصر في حالة من الخوف والترقب لا يدري أين يتوجه ، ولكنه توجه إلى الله قائلاً : ﴿ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي : من فرعون وقومه وقد وقعوا في الظلم بأنواعه ، ومن أشد أنواع ظلمهم شركهم بالله رب العالمين ، استجاب الله دعاء موسى عليه السلام ، وهذه منة ثالثة امتن الله بها على موسى في قوله سبحانه : ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ [طه : ٤٠] .

وقد ألهم الله سبحانه موسى أن يتوجه تلقاء مدين ، وقد شبَّه بعض أهل العلم توجه موسى تلقاء مدين بهجرة إبراهيم عليه السلام من قبل .

لكن لماذا مدين بالذات ؟ يعلّل العلماء ذلك بما يأتي :

١- للنسب الذي بين موسى وبين أهل مدين ؛ لأنهم من ولد إبراهيم عليه السلام ، وموسى من ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، فيلتقون معه في إبراهيم .

٢- لبعد مدين - مكانًا - عن مصر ، ولخروجها عن سلطان فرعون مصر ؛ ولذلك قال الرجل الصالح لموسى لما قصّ عليه القصص : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٢٥] .

٣- في قصد بلاد مدين يجد فيها نبيًا يبصره بآداب النبوة ، هذا رأي من يرى أن صاحب مدين هو شعيب عليه السلام .

٤- وفي مدين رزق موسى : الزوجة ، والعمل ، والأمن ، وصحبة الرجل الصالح ، سواء كان شعيبًا أو ابن أخيه .

٥- وفي مدين تم لموسى وصفٌ من أوصاف الأنبياء وخصلة من خصالهم ؛ ألا وهي « رعى الغنم » ، فكما رعى موسى الغنم رعى من قبله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ولوط وغيرهما ، عليهم الصلاة والسلام ، ورعى من بعده داود ومحمد وغيرهم ، عليهم السلام ، وقد روى البخاري في « صحيحه » عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم » . فقال أصحابه : وأنت ؟ قال : « نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » .

ويظهر أن رعي الغنم من تربية الله للنبيين ؛ إذ تعودهم على الصبر والرفق والعطف على الضعفاء ، وحسن قيادة النافر ، وتأليفه وتقريبه ؛ وإدنائه من قطيعه ، فينتقلون من رعاية الغنم إلى رعاية الأمم .

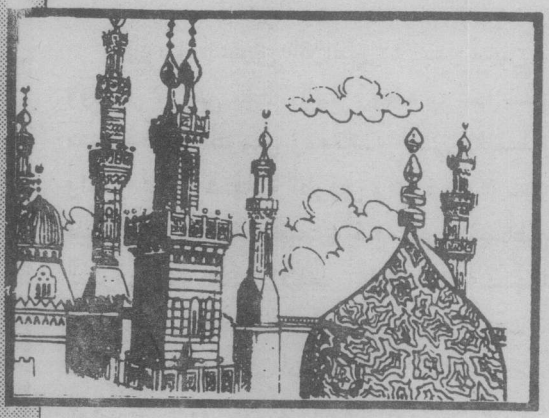

قال صاحب « الروض الأنف » : وإنما جعل الله تعالى هذا في الأنبياء تقدمة لهم ليكونوا رعاة الخلق . اهـ .

٦- أراد الله لموسى مدين يتهيأ فيها للرسالة ، فتصفو فيها نفسه بعيدًا عن حياة الذل والاستكانة التي كانت سمة الحكم الفرعوني ، حتى كان في مصر الرخاء والخصب والذلة مجتمعان ، حتى قال لهم فرعون : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات : ٢٤] ، فصدقوه ، وقال لهم : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف : ٥١] ، فلم يكذبوه ، وقال لهم : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] ، فقالوا : أنت الإله ، فكان لا بد من تهيئة موسى بعيدًا هناك . فالله أعلم حيث يجعل رسالته .

ثانيًا : قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ۝ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا

أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٣، ٢٤] .

انتقل بنا السياق القرآني إلى بئر مدين ، ووصول موسى عليه السلام إليه ، وطوي عنا خبر مسيره في الطريق ومعاناته التي لاقاها ، والأمر ليس سهلاً والطريق وعرة ، والسير فيها له مخاطرة . فمدين تقع على الشاطئ الشرقي من البحر الأحمر ، والمسافة بينها وبين مصر ثمانمائة وخمسين ميلاً تقريبا ، تحتاج في قطعها إلى أيام طويلة ، قدرها بعض المفسرين بنحو خمسة وأربعين يومًا ، وقدرها البعض بأقل من ذلك ، وقد مرَّ بنا أن موسى خرج ولم يكن يعرف الطريق ، ولم يكن معه زاد ، وكان يبيت في البرية لا محالة ، وناهيك عما في ذلك من مخاطر ، بالإضافة إلى خطر طلب فرعون له ، فقد بعث خلفه من يتعقبه ، ولن نقول كما ذكر بعض المفسرين أن الله أرسل له ملكًا ومعه فرس وعصى ، وغير ذلك ؛ لأنه ليس عليه دليل يحتج به . لكنا نقول ما قال به القرآن أن موسى عليه السلام كان رجلاً جلدًا ، وقد ألهمه الله سواء السبيل ، ولعل السر في أن القرآن طوى عنا أخبار هذه المسيرة فيه إشارة على أن الله ألهم موسى رشده فلم يضل الطريق ، ويسر عليه أمره فطوى له الأرض طيًا ، وكل ذلك ؛ لأن موسى يتربى على عين الله ، وأن الله ألهمه سواء السبيل ، فما ظنك بعبدٍ امتن الله عليه بهذه المنن ؟

و﴿ لما ﴾ حرف توقيت وجود شيء بوجود غيره ، أي عندما حلَّ موسى بأرض مدين ونزل عند بئر الماء الذي يجتمع عنده الناس للسقيا ، والذي تعرف به القبيلة وجد موسى جماعة من الناس حضروا للسقيا ووجد كذلك امرأتين تقفان في جانب بعيد عن الزحام وتمنعان قطيعهما من الماء ، فتعجب موسى من أمرهما ، ولذلك توجه إليهما متسائلاً عن أمرهما : ﴿ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ ، فعلم موسى من الإجابة أنهما من بيت فضل وأدب ، وأنهما لم يخرجا إلا لضرورة ، والتمس موسى أيضًا أنهما في حاجة إلى مساعدة ، حيث يمنعهما الحياء من مزاحمة الرعاء ، ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ﴾ أي : رأفة بهما وغوثًا لهما ، وذلك من قوته ومروءته ، قام موسى واقتحم ذلك العمل الشاق على ما هو عليه من التعب والإعياء عند الوصول ، قام موسى بما قام به مروءة ، ثم عاد إلى ما كان عليه من الإيواء إلى ظل الشجرة ، ووجد موسى برد الظل فتذكر بهذه النعمة نعمًا كثيرة أسداها الله إليه ، منها نجاته من القتل ، وتربيته على عين الله ، وإتيانه الحكمة والعلم ، وتخليصه من تبعة قتل القبطي ، وإيصاله إلى أرض معمورة بعد أن قطع فيافي ومفازات ، تذكر ذلك كله ، فتهتف من أعماقه : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، فجاء بهذه الجملة الجامعة للشكر والثناء والدعاء ، واعترف لربه بالفضل ولنفسه بالحاجة إلى فضل الله والفقر إليه ، وبعد هذا اللجوء الصادق وإظهار الفقر الذاتي جاءت الإجابة سريعة من الغني الحميد متمثلة في الآتي :

ثالثًا : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ﴾ [القصص : ٢٥] .

والفاء هنا تدل على سرعة الاستجابة ، وعقب انتهاء دعاء موسى مباشرة ، جاءت

إحدى البنتين قد أرسلها أبوها في طلب موسى بعد علمه بما حدث ليجازي موسى بما فعل من خير ، وجاءت تمشي يغمرها الحياء ، أي : مَشي الحرائر ، كما رُوي عن أمير المؤمنين عمر ، رضي الله عنه ، جاءت مستترة بكم درعها على وجهها ، ليست بسلفع من النساء - أي : الجريئة السليطة - ولا خراجة ولا ولاجة . قال ابن كثير : هذا إسناد صحيح .

ماذا يريد الغريب في مثل هذه الحالة غير مكان يأوي إليه ، وطعام يرد جوعته .

وهكذا ساق الله لموسى ما يريد ، وفوق ما يريد ، فسبحانه الفعال لما يريد .

رابعًا : قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٢٥] ، جاء موسى إلى العبد الصالح ، أو النبي شعيب ، وقصَّ عليه خبره ، فطمأنه وقال : لا تخف ، نجوت من القوم الظالمين ، أي من فرعون وقومه : لأن بلاد مدين تابعة لملك الكنعانيين ، وهم أهل بأس ونجدة . ولا شك أن مطلب الأمن كان هو المطلب الأساسي لموسى في مثل حالته هذه ، وقد لمس هذا النبي الكريم شعيب عليه السلام فأراد أن يفيض الطمأنينة على قلب موسى عليه السلام ، ولعل صاحب مدين إن كان هو النبي شعيب كما يرى الأكثرون من أهل العلم فقد علم ذلك من الله بحكم نبوته . والله أعلم .

وفي ختام هذه الواقعة نسوق بعض الفوائد التي استنبطها العلامة عبد الرحمن السعدي ، رحمه الله ، حيث قال :

ومنها : أن إخبار الغير بما قيل فيه وعنه على وجه التحذير له من شر يقع به لا يكون من باب النميمة ، بل قد يكون واجبًا .

ومنها : إذا خاف شخص التلف بالقتل بغير حق في إقامته في موضع ما ، فلا يلقي بيده إلى التهلكة ويستسلم للهلاك ، مع قدرته على الفرار .

ومنها : إذا كان لا بد من ارتكاب إحدى مفسدتين تعين ارتكاب الأخف منهما الأسلم دفعًا لما هو أعظم وأخطر ، كما فعل موسى بخروجه إلى مدين ، وهو لا يعرف الطريق إليها ، وليس معه دليل ، ولا زاد .

ومنها : أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى العمل أو التكلم ولم يترجح عنده أحد الأمرين ، فإنه يستهدي ربه ويسأله أن يهديه إلى سواء السبيل .

ومنها : أن الرحمة والإحسان على الخلق ، من عرفه العبد ومن لا يعرفه ، من أخلاق الأنبياء ، وأن من جملة الإحسان والإعانة على سقي الماشية .

ومنها : أن الله كما يحب من الداعي أن يتوسل إليه بأسمائه وصفاته ونعمه الخاصة والعامة ، فإنه يحب منه أن يتوسل إليه بضعفه وعجزه وفقره . كما قال موسى : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ ، وذلك هو حقيقة العبودية .

ومنها : أن الحياء والمكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم الصالحين .

ومنها : أن العبد إذا عمل العمل لله خالصًا ثم حصل به مكافأة عليه بغير قصده فإنه لا يلام على ذلك ولا يخل بإخلاصه وأجره . اهـ . من « تيسير الكريم المنان » مختصرًا .

هذا ، والله سبحانه وتعالى من وراء القصد ، وهو الهادي إلى سواء السبيل . وإلى لقاء نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه .

قصة موسى عليه السلام

بقلم الشيخ /

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد الأمين الذي بعثه ربُّه رحمة للعالمين . وبعد :

فقد وقفنا في اللقاء السابق من قصة نبي الله موسى عليه السلام عند وصوله إلى مدين ، ولقائه بالعبد الصالح هناك ، وقد قصَّ موسى عليه السلام على صالح مدين قصته فبشره وطمأنه بقوله : ﴿ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص : ٢٥] .

والمقصود بالقوم الظالمين هم قوم فرعون ، وقد نجا موسى منهم بخروجه من سلطانهم ، حيث وصل إلى مدين ، وهي بعيدة مكانًا عن مصر من جهة ، ومن جهة أخرى فهي لا تخضع لسلطان فرعون وقومه ، ومن جهة ثالثة فإن موسى عليه السلام وجد في مدين من يلتقون معه في النسب لأبيه إبراهيم عليه السلام ومن يلتقون معه في الصلة الإيمانية من صالحي مدين رجالاً ونساءً ، وهنا نأتي معًا للموقف الخامس في هذه القصة المباركة ، وقد هيأ الله سبحانه وتعالى لعبده ورسوله موسى عليه السلام إقامة آمنة في مدين ، رُزق فيها الزوجة الصالحة والصحبة الطيبة والعيش الرغيد .

وتُحدِّثنا آيات سورة القصص عن ذلك فتقول : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ۞ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ الآيات [القصص : ٢٦- ٢٨] .

وفي الآيات الكريمة مسائل :

۞ **الأولى** : في قوله تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ .

● نقل ابن كثير رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (أفرس الناس ثلاثة : صاحب يوسف حين قال لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ ، وصاحبة موسى حين قالت : ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ ، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب) .

وقيل : إنها رأت ذلك منه كما سيأتي .

● ونقل كذلك عن عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبي مالك وقتادة ومحمد بن إسحاق وغير واحد : أنها لما قالت ذلك قال أبوها : وما علمك بهذا ؟ فقالت : إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا

الحلقة الخامسة

مقام موسى في مدين

عبد الرازق السيد عيد

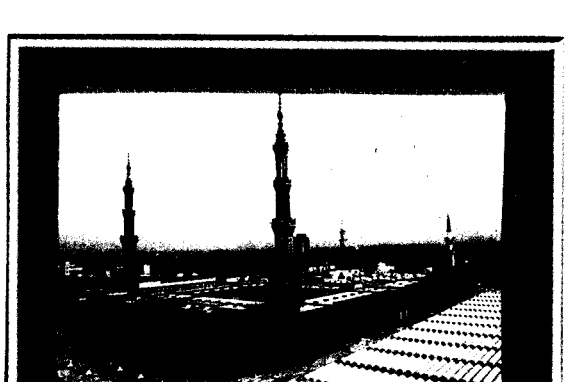

عشرة ، وإنني لما جئت معه تقدمت أمامه فقال : كوني من ورائي ، فإذا اختلف الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق ، وإذا كان أهل العلم شهدوا لهذه الفتاة بالفراسة فإن أباها أعظم فراسة منها حين قال لموسى : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ (وهذه المسألة الثانية) .

● قال القرطبي رحمه الله : فيها عرض الولي ابنته على الرجل ، وهذه سنة قائمة ، عَرَضَ صالح مدين ابنته على صالح بني إسرائيل ، وعرَض عمر بن الخطاب ابنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، وعرضت الواهية نفسها على النبي ﷺ ، فمن الحسن عرْض الرجل وليته على الرجل الصالح ، اقتداءً بالسلف الصالح .

● وقال رحمه الله : وفي الآية دليل على أن النكاح إلى الولي لا حظ للمرأة فيه ؛ لأن صالح مدين تولاه ، وبه قال فقهاء الأمصار ، وخالف في ذلك أبو حنيفة رحمه الله .

❁ **المسألة الثالثة** : في قوله : ﴿ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، وفي هذه المسألة مسائل منها :

١- قال القرطبي رحمه الله : وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية ، وهو أمر قد قدره شرعنا ، وجرى في حديث الذي لم يكن عنده إلا شيء من القرآن ، رواه الأئمة ، وفي بعض طرقه : فقال رسول الله ﷺ : « ما تحفظ من القرآن ؟ » فقال : سورة البقرة والتي تليها ، قال : « فعلمها عشرين آية وهي امرأتك » .

ثم نقل اختلاف العلماء في ذلك على ثلاثة أقوال : فكرهه مالك ، ومنعه ابن القاسم ، وأجازه الشافعي وأصحابه ، قالوا : يجوز أن تكون منفعة الحر صداقًا كالخياطة والبناء وتعليم القرآن ، وقال أبو حنيفة : لا يصح ، وجوز أن يتزوجها بأن يخدمها عبده سنة ، أو يسكنها داره سنة ؛ لأن العبد والدار مال .

وقال صاحب « التحرير والتنوير » بعد نقل الخلاف السابق : (فإن صحت هذه الزيادة أي : « فعلمها عشرين آية وهي امرأتك » كان الحديث جاريًا على وفق الآية ، وكان حجة لصحة جعل الصداق إجارة عمل ، وإن لم تصح كما هو مشهور في كتب الصحيح فالقصة خصوصية يقتصر على موردها) . اهـ .

٢- قال القرطبي رحمه الله : الكفاءة في النكاح معتبرة ، واختلف العلماء هل في الدين والمال والحسب ، أو في بعض ذلك ، والصحيح جواز نكاح الموالي للعربيات والقرشيات ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ ، وقد جاء موسى إلى صالح مدين غريبًا طريدًا خائفًا وحيدًا جائعًا فأنكحه ابنته لما تحقق من دينه ورأى حاله وأعرض عما سوى ذلك .

٣- قوله : ﴿ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ﴾ ، جعل تمام العشر لموسى تفضلاً منه إن اختاره ووكله إلى ما تكون عليه حاله في نهاية الثماني سنين

من رغبة في الزيادة أو عدمها .

٤- قوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ، وهكذا صنع الشيخ الكبير - صاحب موسى - فعرض على موسى ذلك العرض بهذا التلطف في القول واعدًا بعدم المشقة مستقبلاً ، راجيًا بمشيئة الله أن يجده موسى من الصالحين في معاملته ووفائه ، وهو أدب جميل في التحدث عن النفس ، وفي جانب الله فهو لا يزكي نفسه ، ولا يجزم بصلاحها ، ولكن يرجو أن يكون كذلك ويكل الأمر في هذا لمشيئة الله .

❁ المسألة الرابعة :

في قول موسى : ﴿ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ .

وقبل موسى العرض وأمضى العقد ؛ في وضوح كذلك ودقة ، وأشهد الله على ذلك ، بيَّن موسى هذا البيان تمشيًا مع استقامة فطرته ، ووضوح شخصيته ، والتزامًا بواجب المتعاقدين في الدقة والوضوح والبيان ، وهو ينوي في قرارة نفسه أن يوفي كما فعل ، فقد بين ذلك بيانًا ﷺ فيما رواه البخاري أن موسى عليه السلام : « قضى أكرمهما وأطيبهما » . وهكذا أخلاق النبيين والصالحين في الوفاء .

وهكذا كتب الله لموسى الأمن والأمان والاستقرار في بيت حميه وفي ربوع مدين بعيدًا عن فرعون وكيده ، ولحكمة مقدَّرة في علم الغيب كان الذي كان .

وقبل أن أترك القلم أريد أن أعود بأخي القارئ إلى استخلاص بعض الفوائد والعبر التي فاتنا ذكرها في السياق السابق ، ومن ذلك ما يلي :

● أولا : في قول الصالحة بنت الصالح : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ .

فتقدير معنى الكلام يا أبي استأجره فهو قوي أمين ، وإن خير من استأجر مستأجر القوي الأمين ، فكانت الجملة مشتملة على خصوصية تقديم الأهم بإيجاز بليغ فاستوفت بذلك غاية مقتضى الحال فكانت بالغة الإيجاز .

وقد نقل صاحب « التحرير والتنوير » عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : (أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوي) . يريد عمر رضي الله عنه أن يسأل ربه تأييده بقوي أمين يستعين به ، فهما صفتان من أهم صفات من يتولى أي عمل ويندر اجتماعهما في شخص إلا ما رحم الله .

● ثانيًا : قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله : من أعظم مكارم الأخلاق تحسين الخلق مع كل من يتصل بك من خادم وأجير وولد ومعامل وغيرهم ، ومن ذلك تخفيف العمل على العامل ؛ لقوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ﴾ .

● ثالثًا : قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله : وبمثل هذه الوضاءة والبساطة سار المجتمع الإسلامي يبني بيوته ويقيم كيانه في غير ما تلعثم ولا جمجمة ولا تصنع ولا التواء ؛ عرض الرجل إحدى ابنتيه من غير تحديد ، عرضها في غير تحرج ، فهو يعرض نكاحًا لا يخجل منه ، يعرض بناء أسرة وإقامة بيت ، وليس في هذا ما يدعو إلى التحرج والتردد والإيماء من بعيد ، والتصنع والتكلف مما يشاهد في البيئة التي تنحرف عن سواء الفطرة ، وتخضع لتقاليد مصطنعة باطلة سخيفة تمنع الوالد أو ولي الأمر من التقدم لمن يرتضي خلقه ودينه وكفايته لابنته أو أخته أو قريبته ؛ وتحتم أن يكون الزوج أو وليه أو وكيله هو الذي يتقدم ، ومن مفارقات مثل هذه البيئة المنحرفة أن الفتيان والفتيات يلتقون ويتحدثون ويختلطون ويتكشفون بعضهم لبعض في غير ما خطبة ولا نية نكاح . اهـ . بتصرف قليل .

ونحن نقول : لقد قال صاحب « الظلال » هذا الكلام ولم تكن الفتن قد انتشرت بالصورة التي هي عليها اليوم ، وكل إغلاق لباب من أبواب الحلال يؤدي إلى انفتاح أبواب من المحرمات لا حصر لها .

● رابعًا : ومرَّ بنا ما استخلصه الإمام القرطبي من ضرورة تولي الرجل نكاح ابنته أو وليته ، وليس للمرأة حظ فيه ؛ لأن صالح مدين تولاه ، وهذه سنة المرسلين واتباعهم منذ الأزل ، ولا عبرة للخلاف في هذه القضية ، فأين المتتبعين لشوارد المسائل من هذا ؟ أين الذين يبيحون للناس الخنا والزنا تحت مسمى الزواج العرفي ، وليس له من الزواج أدنى حظ .

اللهم احفظ مجتمعنا بحفظك من الذين يريدون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، واعصمنا بكتابك وسنة نبيك عن الضلال والغي ، وصلِّ اللهم على محمد وآله وصحبه أجمعين ، وإلى لقاء إن شاء الله .

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣

قصة موسى

تكليمُ الله موسى عليه السلام

الحلقة السادسة

بقلم الشيخ
عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وأشهد ألا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، ما أنزل عليه ربُّه الكتاب ليشقى إلا تذكرة لمن يخشى . أما بعد :

فهذا أوان وقفتنا مع قصة موسى عليه السلام من حلقة الرسالة ، بعد أن قضى موسى الأجل وسار بأهله متجهًا إلى مصر فكلمه ربُّه وأوحى إليه ما أوحى ، ولقد اخترنا سورة ((طه)) للكلام عن هذه الحلقة الهامة ، حيث إنها من أوفى السور التي تناولت هذا الجانب من القصة المباركة .

وسورة ((طه)) من أوائل السور التي نزلت في مكة المكرمة ، فهي تواكب الدعوة في عهدها المكي ، وتحقق هدفًا واضحًا من أهداف القصة القرآنية ، وهو التسرية عن النبي الكريم والذين آمنوا معه وتثبيتهم ومؤازرتهم ، وتبشيرهم بنصر الله ، فقد نزلت السورة في فترة الدعوة المكية العصيبة قبل إسلام عمر رضي الله عنه . قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : (سورة ((طه)) من أول ما نزل من القرآن . قال ابن مسعود : بنو إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول ، وهن من تلادي . رواه البخاري . وهي مكية باتفاق الناس ، قال أبو الفرج وغيره : هي مكية بإجماعهم ، بل هي من أول ما نزل ، وقد روي : أنها كانت مكتوبة عند أخت عمر رضي الله عنه قبل إسلامه) . اهـ . من الفتاوى (الجزء ١٥، ص٢٥٥) .

ولذلك جاء مطلع السورة الكريمة يربط بين القرآن الذي أنزله الله على نبيه محمد ﷺ والكلام الذي كلمه الله موسى والوحي الذي أوحاه الله إليه ، وفي ذلك إشارة إلى أن دعوة محمد ﷺ التي تعاني من اضطهاد قريش في مكة ستصير إلى ما صارت إليه رسالة موسى من النصر والتأييد وهزيمة فرعون وجنده وما كانوا يعرشون .

جاء مطلع السورة يوضح مهمة المرسلين وهي البشارة والإنذار وهداية الناس إلى طريق الله المستقيم ، وأن هذا القرآن لم ينزل لشقاء نبينا محمد ﷺ ولا لشقاء أحد من أمته ، بل جاء بالسعادة لمن اتبعه في الدنيا والآخرة ، كما أخبر الله سبحانه في السورة ذاتها بقوله : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه : ١٢٣، ١٢٤] .

جاء مطلع السورة يعلن في وضوح تام أن الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض ، والموصوف بكل صفات الكمال والجلال هو الذي أرسل رسله من لدن آدم إلى خاتمهم محمد ﷺ هو سبحانه الذي يرعى عباده الذين اصطفاهم وأنزل عليهم كتبه لهداية رسله وتبليغ دعوته ، وهو سبحانه الذي يتولاهم وينصرهم على مرّ التاريخ ، فهو سبحانه الذي نصر نوحًا وهودًا وصالحًا وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهو سبحانه ناصرك يا محمد وناصر دعوتك ومبلغ رسالتك ، فلا يكن في صدرك حرج مما يمكرون ؛ ولذلك جاءت التعقيبات المتتالية في ختام السورة الكريمة تدور حول هذا المعنى المقصود والدرس المستفاد ومنها :

١- ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۞ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۞ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾ [طه : ٩٩- ١٠١] .

٢- ومنها : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه : ١١٣] .

٣- ومنها : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ۞ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [طه : ١٢٨، ١٢٩] .

٤- ثم يأتي ختام السورة بهذا التهديد والوعيد الشديد :

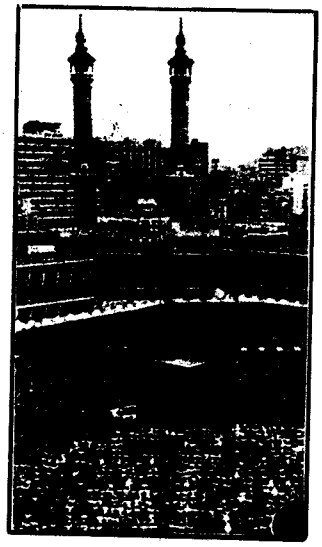

﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ١٣٥] .

ونعود إلى ما شرعنا فيه ، فنقف مع قوله : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۞ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ [طه : ٩، ١٠] .

بعد أن قدّمت السورة التقدمة السابقة وبدأت بما وضحناه آنفًا شرعت في الحديث عن قصة موسى لحظة اصطفاء الله له بالرسالة ، وقد سكتت السورة الكريمة عما ذكر في سورة القصص من قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ ... ﴾ [القصص : ٢٩] ، فبعد أن قضى موسى عليه السلام أوفى الأجلين وأحسنهما سار بأهله متجهًا إلى مصر ، وبينما هو يقطع صحراء سيناء في ليلها المظلم وطقسها البارد آنس من جانب الطور نارًا أي من جبل الطور في سيناء ، وهذه التي بدأت بها سورة « طه » : ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ أي : قد أتاك ، فالاستفهام هنا للتحقيق ، قد أتاك يا محمد نبأ وخبر موسى بن عمران نبي بني إسرائيل ؛ إذ رأى نارًا تخرج من شجرة بجانب جبل الطور ، فقال لأهله الذين كانوا معه من زوجة وولد أو خادم : ﴿ امْكُثُوا ﴾ أي : انتظروا لعلي آتيكم ببعض هذه النار تستدفئون بها من برد الصحراء القارص ، أو لعله يجد عندها قِرى أو يجد عند النار قومًا يستأنس بهم من وحشة الطريق ، ويهدونه في متاهة الصحراء فماذا وجد موسى عند النار ؟ استمع معي إلى آيات الكتاب العزيز تقص علينا الحق : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ۞ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۞ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ [طه : ١١- ١٣] .

يا لها من لحظات يعجز عن وصفها القلم مهما أوتي من بلاغة ، بل أقلام الأرض جميعًا .

أراد موسى الدفء المادي والهداية المادية في متاهة الصحراء ، فجاءه من الله النداء الذي يبعث الدفء في الروح والبدن ، وجاءته هداية الدنيا والآخرة . نودي : يا موسى ، إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادي المقدّس الذي اسمه طوى ، ثم استمع إلى هذا النداء الذي هو سر السعادة الأبدية : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا

يُوحَى ﴾ [طه : ١٣] ، هذه لحظة الاختيار والاصطفاء والاجتباء التي صار بها موسى نبيًا ورسولاً .

قال ابن كثير : أي الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله : ﴿ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [القصص : ٣٠] ، وقال الله لموسى هنا : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ أي : الذي يخاطبك ربك .

وفي قوله تعالى : ﴿ أَنَا اخْتَرْتُكَ ﴾ قال ابن كثير هذا مثل قوله تعالى : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ . وقبل أن يوحي الله لموسى ما أراد أن يوحيه ، طلب منه التهيؤ لذلك بأمرين :

الأول : خلع نعليه . والثاني : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ .

قال القرطبي رحمه الله في قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ ؛ لأن بذلك يُنال الفهم عن الله تعالى . روي عن وهب بن منبّه أنه قال : من أدب الاستماع سكون الجوارح ، وغض البصر ، والإصغاء بالسمع ، وحضور العقل ، والعزم على العمل ، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى ؛ وهو أن يكف العبد جوارحه ولا يشغلها ، فيشتغل قلبه عما يسمع ، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى ويحضر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه ، ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم . وقال سفيان بن عُيينة : أول العلم الاستماع ، ثم الفهم ، ثم الحفظ ، ثم العمل ، ثم النشر ؛ فإذا استمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب وجعل له في قلبه نورًا) . اهـ .

بهذا التمهيد هيأ الله موسى ظاهرًا وباطنًا لتلقي ما يوحى إليه .

قال صاحب « الظلال » : (ويلخص ما يوحى في ثلاثة أمور مترابطة : الاعتقاد بالوحدانية ، والتوجه بالعبادة ، والإيمان بالساعة ، وهي أسس رسالة الله الواحدة) .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ۞ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ۞ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾ [طه : ١٤ - ١٦] .

قال ابن كثير رحمه الله : (﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ هذا أول واجب على المكلفين أن يعلموا أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وقوله : ﴿ فَاعْبُدْنِي ﴾ أي : وحدني وقم بعبادتي من غير شريك) . اهـ .

أوحى الله لموسى بأول واجب على المكلفين وهو العلم بـ « لا إله إلا الله » ، ثم في المرتبة الثانية توحيد العمل ، وهو قوله : ﴿ فَاعْبُدْنِي ﴾ ، وهذا كما جاء في سورة : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ سورة الإخلاص ، وهو توحيد المعرفة ، وسورة : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ توحيد العمل ، فالتوحيد توحيدان :

الأول : معرفة الله بأسمائه وصفاته .

والثاني : مقتضى الأول توحيد العبد ربه بأفعاله ، فالأول توحيد الله سبحانه بأفعاله وأسمائه وصفاته ، والثاني توحيد الله بأفعال العباد . وبذلك أرسل الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه .

ثم خصّ الله الصلاة بالذكر من بين العبادة لبيان أهميتها ومكانتها وعظم منزلتها ، ولأنها أكمل صور العبادة ، واجتمعت فيها جميع صور العبادات الأخرى .

ثم أعقب ذلك « علم الساعة » الذي يعود فيه كل مخلوق إلى ربه فيحاسبه ويجازيه بما عمل ، ثم بين الله سبحانه وتعالى أن من ينكر الساعة وقيامها والبعث وما فيه فقد عرّض نفسه للهلاك والبوار ، والخسران في الدنيا والآخرة ، وبهذه الأسس خاطب الله موسى عليه السلام بالتوحيد العلمي والعملي وبالإيمان باليوم الآخر في أول لقاء لبيان أهمية هذه الأمور ومنزلتها من الدين ، فهي أسس التوحيد والإيمان ، كما قال الله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ۞ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [محمد : ١٨، ١٩] .

وللحديث بقية بإذن الله ، فإلى لقاء نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه .

قصة :

موسى عليه السلام

الحلقة السابعة

﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾

بقلم الشيخ
عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي خلق فسوى ، والذي قدَّر فهدى ، قدَّر لكل شيء تقديرًا ، ومن ذلك تقديره رسالة موسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم جميعًا .

وبعد :

فيقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ۞ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ۞ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ۞ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ۞ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ۞ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ۞ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ۞ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۞ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۞ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۞ يَفْقَهُوا قَوْلِي ۞ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۞ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۞ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ۞ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ۞ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ۞ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ۞ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ۞ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ الآيات [طه : ١٦- ٤١] .

أيها القارئ الكريم : وقفنا معًا في لقائنا السابق عند تلك اللحظة الحاسمة في حياة موسى عليه السلام ، تلك اللحظة التي جاء فيها النداء العلوي من الله

تبارك وتعالى هداية وإرشادًا ، وكلّمه ربه تكليمًا اصطفاءً واجتباءً ، وعندها أوحى اللّه إلى كليمه موسى بأسس الرسالة : توحيد اللّه اعتقادًا وعبادة ، والإيمان بالبعث والجزاء .

وما زال خِطابُ اللّه لموسى مستمرًا في الآيات التي معنا اليوم ، وكذلك خطاب موسى لربه وسؤاله من فضله ، وقد سمى بعض أهل العلم هذا الموقف بموقف « المناجاة » بين موسى وربه سبحانه وتعالى ، فيا لها من لحظات تشع نورًا وهداية للناس كافة – إلا من طمس اللّه على قلبه وفارق منهج الرسل – .

وبعد أن حدّد الله سبحانه لرسوله قواعد التوحيد التي هي أصل الرسالة في اللقاء السابق تتوالى هنا التجليات الإلهية والهبات الربانية بمنح موسى المعجزات والكرامات التي تؤيد رسالته ، ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ﴾ : يسأل اللّه موسى ، وهو أعلم بما في يده ، لكن هذا السؤال جاء بمثابة التمهيد لأمر عظيم لم يألفه موسى من قبل ولم يألفه أحد من البشر على الحقيقة التي جاء عليها ، ويجيب موسى قائلاً : ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى ﴾ ، هذه حدود علم موسى بعصاه وعمله بها ، وقد أسهب موسى عليه السلام في الإجابة إيناسًا ورغبة ، وكان يكفي أن يقول : هي عصاي .

لكن بعد ذلك يأتي موسى الأمرُ من اللّه ﴿ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ ﴿ فَأَلْقَاهَا ﴾ ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾ ، وهنا أدهشت المفاجأةُ موسى عليه السلام وأصابته بالخوف ولاذ بالفرار رغم جلال الموقف ، وسكتت السُّورة هنا عما أظهرته سورة أخرى مثل قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ﴾ [القصص : ٣١] ، وقوله تعالى : ﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : ٣٢] .

اكتفت سورة « طه » بالإشارة إلى هذا الموقف في قوله تعالى : ﴿ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ ، فأشارت العبارة على وجازتها إلى ما أصاب موسى عليه السلام من الخوف الطبيعي الذي لا يلام عليه ، ولن يخاف موسى هذا الخوف الذي أدى به إلى الفرار إلا لعظم التحول الذي صار ، وضخامة الحية التي وصفها اللّه بأنها جان وبأنها ثعبان مبين ، وقال اللّه لموسى في عبارة حاسمة : ﴿ لَا تَخَفْ ﴾ ، نهاه عن الخوف لماذا ؟ لأن اللّه سيعيد الحية الضخمة إلى عصًا مرة أخرى : ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ ، وستكون العصا في يد موسى « عصًا » ، فإذا أراد لها أن تتحول بقدرة اللّه إلى حية تحولت ، وهكذا ..، وهذه المعجزة الأولى ، أما المعجزة الثانية ففي قوله تعالى : ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾ ، ووضع موسى يده تحت إبطه فخرجت بيضاء ناصعة البياض بغير مرض ولا آفة من برص أو خلافه ، وهذا الذي رأيتَ يا موسى من تحول العصا إلى حية ثم عودتها إلى عصًا ، ومن خروج يدك بيضاء من تحت إبطك ما هو إلا مثال لآياتنا الكبرى التي ستراها ، وإلى هنا لم يكن يعلم موسى بالمهمة الكبرى المنتدب إليها ، وبعد التمهيد السابق جاءه الأمر واضحًا ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ .

هنا أدرك موسى عِظَم المهمة الملقاة على عاتقه وضخامة المَسئولية المنوط به حَمْلُها ، إنه ليعرف من هو فرعون ، فقد رُبِّيَ في قصره ، وشهد طغيانه وجبروته ، وشاهد ما يصبُّه على قومه من نكال وعذاب ، ويعلم كيف آثر الحياة الدنيا ونسي الرب الأعلى ، وقد فرَّ موسى من قبل هاربًا من بطش فرعون وظلمه ، وبفطنة النبوة وذكاء الفطرة الذي تمتع به موسى عليه السلام أدرك صعوبة مهمته وثقلها ، فلجأ إلى ربه متضرعًا خاشعًا أن يمدَّه بما يعينه على هذا الأمر ، فقال : ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۞ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ ، فانشراح الصدر يحول مشقةَ التكليف إلى متعة ، ويحيل عناءه لذة ، ويجعله دافعًا للحياة لا عبئًا يثقل خطاها .

وتيسير الأمر من اللّه لعبده هو ضمان النجاح ، وإلا فماذا يملك الإنسان بدون هذا التيسير ؟ ماذا يملك الإنسان بقواه المحدودة وعلمه القاصر ، وهذا هو توكل الأنبياء الذين يعلمون أن مقاليد الأمور بيد اللّه سبحانه ، وأن الأسباب مهما اجتمعت لا تعمل إلا بتيسيره عز وجل .

وقوله : ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۞ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ له علاقة بانشراح الصدر وتيسير الأمر ، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه العلاقة في موضع آخر ، فلنستمع إليه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۞ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴾ [الشعراء : ١٢، ١٣] ، فالعلاقة واضحة بين ضيق الصدر وانطلاق اللسان ، فإذا انشرح الصدر وتيسر الأمرُ انطلق اللسان وانحلت عقده ، وإذا ضاق الصدر حُبس اللسان عن الكلام ، وقد كان في طبع موسى عليه السلام نوع من الحدّة في الغضب عند انتهاك محارم الله

لذا طلب من اللَّه سبحانه وتعالى أن يشرح صدره وييسر أمره ويحلل عقدة من لسانه ، وتلك من أفضل الوسائل المعينة على الدعوة إلى اللَّه ، ولم يقف موسى عند هذا الحد ، بل طلب من اللَّه أن يعينه بأخيه وزيرًا معه وردءًا يصدّقه ، ويساعده بما يتمتع به من هدوء الطبع وفصاحة القول ، فقال : ﴿ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۞ هَارُونَ أَخِي ۞ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۞ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۞ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۞ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۞ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ .

والتسبيح والذكر من أهم أسباب النصر والتأييد وهما زاد الداعية ، وبعد أن انتهى موسى في هذا الموقف من بسط حاجته وإعلان فقره لربه ، وإظهار كمال عبوديته لخالقه وولي نعمته ، أجابه المولى الكريم لكل ما سأل فقال سبحانه : ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ ، وتأمل معي أخي الكريم هذه العبارة القرآنية وهذا الخطاب الإلهي لعبده الفقير موسى ، ففيها إجمال يغني عن التفصيل : أن اللَّه قد أجاب كل ما سأله موسى ، وقد تحقق ذلك فعلاً بلا تأجيل ، وهذا حرف (قد) عندما يدخل على الماضي يفيد التحقيق ، وكيف لا والربُّ القادر هو الذي يتولى أمر موسى قبل أن يُولد وبعد أن ولد ، وقد أعطاه اللَّه وهو صغير قبل أن ينطق ويسأل ، فهل يمنعه بعد أن سأل وتذلل وأظهر فقر العبودية ؟!

إن المنَّة قديمة وممتدة ، وهذا الذي أشارت إليه الآيات الكريمة التالية في إيجاز بليغ .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ۞ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ۞ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ۞ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ . كان موسى عليه السلام يحتاج إلى هذه التذكرة التي عرضت سيرته منذ نشأته إلى هذه اللحظة التي يقف فيها بين يدي ربه سائلاً متضرعًا ، وهذه الآيات الكريمة فيها مسائل :

الأولى : روعة الأسلوب القرآني وعلو مستواه في عرض الأحداث بإيجاز بليغ لم يخل بالمعنى ويناسب الموقف ، فهذه الآيات على اختصارها لخصت جميع المواقف الهامة في قصة موسى من النشأة إلى الرسالة في إيجاز بديع لا يرقى إليه مطلقًا أسلوب بشر .

ألا فليتعلم الطاعنون على الإسلام من بلاغة أسلوب القرآن ، ألا فليتنبه الغافلون الهاجرون للقرآن البعيدون عن هديه واستقامته وإن كانوا ينتسبون إليه بالأسماء ، ألا فليكفوا ألسنتهم وأقلامهم عن النيل من القرآن متذرعين بدعاوى واهية ضعيفة منها « الإبداع » و« حرية الكلمة » ، وليس الذي يكتبونه إبداعًا وحرية ، إنما هو إسفاف وسخرية .

أيُّ إبداع هذا الذي لا يغوص إلا في مستنقع الرذيلة ، وأي حرية هذه التي تحارب الفضيلة ، وتمعن في كشف السوءات وهتك الحرمات وتتجرأ على المقدسات ، إنهما عبارتان أو كلمتان (الإبداع ، وحرية التعبير) وغيرهما من العبارات المستهلكة بيديها أربابُها ليستروا خلفها ما تمتلئ به قلوبهم من حقد على الإسلام ، أو ليمرروا بها ما يأمرهم به أسيادُهم من شياطين الإنس والجن الذين يوحون إليهم بزخرف القول غرورًا .

الثانية : أن اللَّه الذي تولى أمرك يا موسى وأنت رضيع وجعل من المحنة درعًا تحطمت عليه كل محاولات فرعون لطلبك ، ولم يفلح من النيل منك بكل جبروته وبطشه ، وتربيت تحت رعايته وفي بيته وأنت عدوه اللدود الذي يبحث عنك وأنت بين يديه ، إن اللَّه نصرك وأنت في تلك الحال ، وهو رب القوى والقدَر ، ومالك الملك الذي سينصرك على كل حال ، وبوسائل قد لا تخطر لك على بال .

الثالثة : أنك يا موسى في كل ذلك كنت بأعيننا ، وكان خروجك من بيت أمك وعودتك إليه بأمرنا ، ثم ذهابك إلى مدين كان بتدبيرنا ، وكذلك رجوعك من مدْين وعودتك إلى مصر ، كل ذلك بتدبيرنا وتقديرنا ، ﴿ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى ﴾ . كل ذلك لماذا ؟

﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ هذه هي الغاية العظمى : اصطفاء موسى على الناس برسالات اللَّه وبكلامه ، واختياره عبدًا للَّه ورسولا يبلغ دعوته إلى الناس وبخاصة فرعون الذي طغى وبغى .

فأنت يا موسى خالصًا مخلصًا ، اصطفاك اللَّه لتبليغ رسالته والقيام بدعوته ، وقد جاء اللَّه بك في الوقت المقدّر لذلك ، فكل شيء عنده بمقدار ، وهو عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال . وللحديث بقية إن شاء اللَّه لنا ذلك بعونه وتوفيقه .

ونستودعكم اللَّه الذي لا تضيع ودائعه .

مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية
العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ب ٢ - تليفاكس : ٣٦٣٣١٤ - ٣٦٢٣١٣
مكتب القاهرة : مدينة نصر ١٢ ش ابن هانيء الأندلسي ت : ٤٠٣٨١٣٧ - تليفاكس : ٤٠١٧٠٥٣

الحمد للّه رب العالمين الرحمن الرحيم ، فهو سبحانه أرحم بعباده من الأمّ بولدها ، قضى عنده في كتاب أن رحمته تسبق غضبه ، وأنه لا ينزل العقوبة حتى يقيم الحجة : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [الإسراء : ١٥] . فسبحانك اللهم على حلمك بعد علمك ، وعلى عفوك بعد قدرتك .

وبعد أخي القارئ الكريم ، هذا لقاؤنا الثامن مع قصة كليم اللّه موسى عليه السلام ، وقد عشنا معًا منذ نشأته عليه السلام ، وتربيته في قصر فرعون ، ثم خروجه إلى مدين ، ثم مجيئه على قدر بعد أن اصطفاه اللّه برسالته وبكلامه ، وأيده بالمعجزات الباهرة وبأخيه هارون وزيرًا .

وبعد أن تهيأ موسى للأمر وأمدَّه اللّه بالعون باطنًا وظاهرًا ؛ حانت لحظة التوجه إلى فرعون ، فجاء الأمر من اللّه تبارك وتعالى موجهًا ومرشدًا موسى وأخاه في مهمتهما المقبلة فلننظر ولنتأمَّل لنتعلّم :

﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ۞ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ۞ قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى ۞ قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٢ - ٤٦] .

ولنا مع هذه الآيات الكريمة وقفات :

الأولى : مع قوله تعالى : ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ ، والأمر الإلهي هنا لموسى وأخيه هارون

بالتوجه إلى فرعون ، وقد أمرهما اللَّه بالآيات الدالة على صدقهما في دعوتهما وفي إثبات وحدانية اللَّه وكمال قدرته ، وهذه الآيات تشمل الحجج والبراهين العقلية ، وكذلك المعجزات المادية مثل : « العصا » ، و« اليد » وغيرهما .

ومع هذه الآيات أوصاهما اللَّه سبحانه وتعالى بمداومة ذكر اللَّه سبحانه ، فالذكر هو سلاحكما وسندكما والركن الشديد الذي تأويان إليه في مواجهة عدوكما ، وذكر اللَّه من أكبر عوامل النصر على الأعداء ، وقد أوصى اللَّه به المؤمنين عند لقاء العدو ، فقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلَحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥] .

هذا ، وقال الإمام ابن كثير : يذكران اللَّه في حال مواجهة فرعون ؛ ليكون ذكر اللَّه عونًا لهما عليه وقوةً لهما وسلطانًا كاسرًا .

الوقفة الثانية : مع قوله تعالى : ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ . تكرار الأمر هنا لاستشعار المواجهة مع هذا الفرعون الذي تجاوز كل حدٍّ في طغيانه ، حتى قال لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] . لكن بم أمر اللَّه موسى وأخاه هارون في مواجهة طغيان فرعون وبطشه ؟ هل أمرهما أن يصبا عليه اللعنات وتوجيه الإهانات ؟ هل أمرهما بالبطش والتنكيل به ؟

لم يأمرهما بشيء من ذلك ، لكن أمرهما بما سنقف معه وقفتنا الثالثة .

الوقفة الثالثة : مع قوله تعالى : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ . قال الإمام ابن كثير : هذه الآية فيها عبرة عظيمة ، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار ، وموسى صفوة اللَّه من خلقه إذ ذاك ومع هذا أُمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين .

وبعد أن نقل أقوال التابعين في معنى الآية قال : والحاصل من أقوالهم أن دعوتهما له تكون بكلام رقيق لين سهل رفيق ليكون أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع ، كما قال تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ . انتهى كلامه رحمه اللَّه .

وإذا كان هذا مع فرعون فمع غيره أولى ، ولا شك أن القول اللين لا يثير العزة بالإثم ، ولا يهيج الكبرياء الزائف الذي يعيش به الطغاة والجبابرة ، ومن شأنه أن يوقظ القلب فيتذكر ويخشى عاقبة الطغيان ، ولذا قال اللَّه تعالى معللاً ذلك الأمر ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ، كما في القول اللين مراعاة للصلة القديمة بين فرعون وموسى على أي حال .

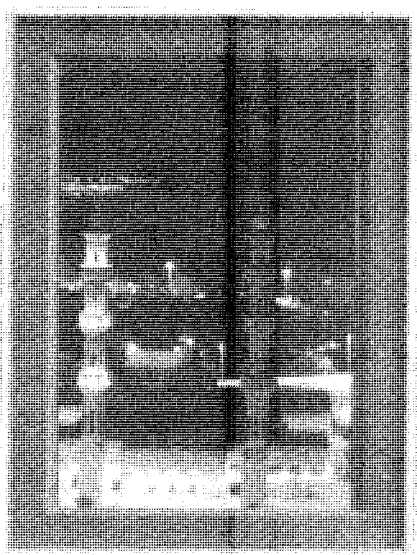

الوقفة الرابعة : مع

قوله تعالى : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ . قال صاحب « الظلال » : (اذهبا إليه غير يائسين من هدايته ، راجين أن يتذكر أو يخشى ، فالدعاية الذي ييأس من اهتداء أحد بدعوته لا يبلغها بحرارة ، ولا يثبت عليها في وجه الجحود والإنكار .

وإن اللّه ليعلم ما يكون من فرعون ، ولكن الأخذ بالأسباب في الدعوات وغيرها لا بد منه ، واللّه يحاسب الناس على ما يقع منهم بعد أن يقع في عالمهم ، وهو عالم بأنه سيكون ، فعلمه تعالى بمستقبل الحوادث كعلمه بالحاضر فيها والماضي في درجة سواء . اهـ .

وقد نقل الإمام القرطبي : وقد قيل : إن فرعون ركَن إلى قول موسى لما دعاه ، فشاور هامان ، فقال : لا تفعل ؛ بعد أن كنت ملكًا تصير مملوكًا ، وبعد أن كنت ربًّا تصير مربوبًا) . وإن صحَّ هذا القول فهو دليل على أثر القول اللين على النفوس حتى مع أطغى الطغاة ، لكن وزراء السوء يزينون الباطل دائمًا لأسيادهم ؛ لأنهم ينتفعون من ورائهم ، وبئس بطانة السوء ، تكون حول من اغتر بملكه .

هذا ، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في تفسيره من مجموع الفتاوى كلامًا نفيسًا حول هذه الآية الكريمة نقتطف منه ما يلي :

(قال اللّه تعالى لموسى وهارون : ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ، وقال في السورة بعينها : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ .

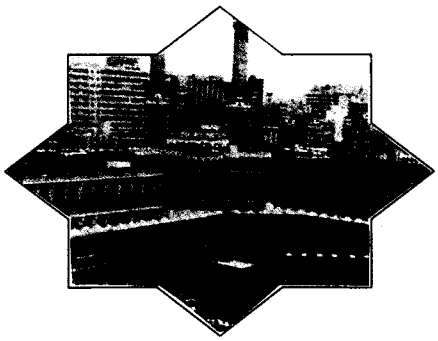

فذكر سبحانه في كل واحدة من الرسالتين العظيمتين : رسالة موسى ورسالة محمد أن ذلك لأجل التذكر أو الخشية ، ولم يقل : يتذكر ويخشى ، ولا قال : ليتقون ويحدث لهم ذكر ؛ بل جعل المطلوب أحد الأمرين .

فقوله سبحانه : ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ ، وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ طَلَبُ وجود أحد الأمرين بتبليغ الرسالة ، وجاء بصيغة : (لعل) تسهيلاً للأمر ورفقًا وبيانًا ؛ لأن حصول أحدهما طريق إلى حصول المقصود ، فلا يطلبان جميعًا في الابتداء ، والداعي للخلق الآمر لهم يسلك بذلك طريق الرفق واللين ، فيطلب أحدهما لأنه مطلوب في نفسه ، وهو سبب للآخر ، فإن ذلك أرفق من أن يأمر بهما جميعًا .

وهذا مطابق لقوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ، فتارة يكون العبد إذا عرف الحق وتبين له اتبعه وعمل به ، فهذا الذي يدعى بالحكمة وهو الذي يتذكر ، وهو الذي يحدث له القرآن ذكرًا ، وتارة يكون له من الهوى والمعارض ما يحتاج إلى الخوف الذي ينهى النفس عن الهوى ؛ فهذا الذي يُدعَى بالموعظة الحسنة ، وهذا هو

القسم الثاني المذكور في قوله : ﴿ أَوْ يَخْشَى ﴾ ، وفي قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [« مجموع الفتاوى » (ج١٥) بتصرف] .

الوقفة الخامسة : قوله تعالى : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَى ﴾ . الفرْط : هو التسرع بالأذى ، والطغيان أشمل ، وفرعون الجبار يومئذ لا يتحرَّج من إيقاع الأذى بأي صورة من صوره على أحدهما أو كليهما ، وهذا الخوف الذي أصاب هارون وموسى من بطش فرعون بهما لا يقدح في توكلهما . قال الإمام القرطبي : (والخوف من الأعداء سنة اللَّه في أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم) . اهـ .

هذا ، وسؤالاهما لربهما يعتبر نوع من الأخذ بالأسباب الذي لا ينافي التوكل ، بل هو لجوء إلى اللَّه واستعانة به في كيفية مواجهة هذا الطاغية المتكبر وأمثاله ، ومن هنا جاءت الإجابة الكافية الشافية من اللَّه لهما فيما يلي :

الوقفة السادسة : مع قوله تعالى : ﴿ قَالَ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ . قال الإمام ابن كثير : (أي : لا تخافا منه ، فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه ، وأرى مكانكما ومكانه ، لا يخفى عليَّ من أمركم شيء واعلما أن ناصيته بيدي ، فلا يتكلم ولا يتنفَّس ولا يبطش إلا بإذني ، وبعد أمري وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي) . اهـ . وفيه ردٌّ على أهل البدع والأهواء .

ففي الآية الكريمة إثبات السمع والبصر للَّه على الحقيقة[1] ؛ لأن اللَّه يسمع كلام موسى وكلام فرعون ، ويرى مكان موسى ومكان فرعون ، ففيها إثبات السمع ولازمه من السماع ، وكذلك البصر ولازمه من الرؤية ، فاللَّه سبحانه وتعالى يسمع جميع الأصوات مع تعدد اللغات لا يشغله سمع عن سمع ، ويرى جميع الأشياء مهما دق حجمها واختلف مكانها ، يرى مكان النملة السوداء ويسمع دبيبها على الصخرة الصماء مهما تكن في سهله أو جباله .

وأيضًا في الآية الكريمة إثبات المعية الخاصة - معية النصر والتأييد - والتي تكون لأنبيائه وأوليائه ، هي التي كانت لموسى وهارون ، وهي كذلك التي كانت لنوح وهود وصالح وإبراهيم عليهم السلام ، وهي التي كانت من بعد ذلك لمحمد ﷺ وصاحبه إذ هما في الغار ، وهي التي تكون لأولياء اللَّه الذين ينصرون دينه واستوفوا شرطها ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّه مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] . وهذه غير المعية العامة التي لا يخفى فيها عن اللَّه شيء من أمور جميع المخلوقات ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد : ٤] ، من اتقى اللَّه سبحانه في معيته العامة تحققت له معية اللَّه الخاصة .

أسأل اللَّه الكريم رب العرش العظيم أن يجعلني وإياكم من المتقين الذين يتولاهم اللَّه في الدنيا والآخرة .

وإلى لقاء جديد بعون اللَّه وبمشيئته .

(١) الحقيقة التي تليق بجلاله سبحانه وعظيم سلطانه من غير تحريف ولا تعطيل ولا تشبيه .

القصص في القرآن

وقفات مع القصة في كتاب الله

المواجهة بين موسى وفرعون

الحلقة التاسعة

بقلم الشيخ : عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله وسع سمعه جميع الأصوات ، وأحاط بصره بجميع الموجودات :

أيها القارئ الكريم ، وقفنا بك في لقائنا السابق عند قوله تعالى - مخاطبًا موسى وهارون -: ﴿ لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٩] ، فالله سبحانه مع موسى وهارون معية نصر وتأييد ، وقد أحاط بكل شيء علمًا ، وبهذا اليقين الثابت والإيمان العميق يتوجه موسى وهارون إلى فرعون لا يخافان بطشه ، ولا يهابان جبروته ، ولا قوته ؛ لأن الله جعل لهما سلطانًا ، فلا يستطيع فرعون بكل ما أوتي من عدة وعتاد هو وجنوده لا يستطيعون الوصول إلى موسى وهارون بسوء أو النيل منهما بأذى .

هكذا وعد الله موسى وهارون : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ [القصص : ٣٥] ، بهذا وعد الله موسى وأخاه ، وهذا الذي وقع كما وعد الله ، لا يستطيع أن يماري في ذلك إلا ضال مضل ، وهكذا يأتي كتاب الله بالحق مصدقًا لما بين يديه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، وأكثر الناس لا يؤمنون ، ولا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين .

ولم يبق أمام موسى وهارون بعد هذا السلطان المانع واليقين الدافع إلا التوجه إلى فرعون برسالة رب العالمين ، وهنا جاء موعد وقفتنا اليوم ، والتي ستكون بعون الله مع الآيات التالية :

❋ ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ❋ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ❋ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ❋ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ❋ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الأُولَى ❋ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى ❋ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ❋ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُوْلِي النُّهَى ﴾ [طه : ٤٧ - ٥٤] .

ولنا مع هذه الآيات المباركة وقفات :

❋ **الأولى** : مع قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾ ، الموقف هنا جديد ، إنه موقف المواجهة ، فيما سبق كان السياق : ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ، ﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ ، ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ ، في كل ما سبق كان الحوار أو كانت المناجاة مستمرة بين الله وبين موسى وهارون ، وقد سأل موسى ربه جميع الأسباب التي يستعين بها على مواجهة فرعون ، وأعطاه ربه جميع ما سأل ، وأبدى موسى وهارون كل مخاوفهما من المواجهة ، إلى أن جاءهما الأمن

المطلق والسلطان التام والوعد بالظفر والنَّصر المبين كما سبق بيانه .

لم يعد أمام موسى وهارون إلا أن ينطلقا بدعوة ربهما إلى فرعون وقومه ، ولذلك جاء التعبير هنا بقوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ ﴾ ، التي تفيد حصول الإتيان فعلاً . قال الإمام القرطبي : فوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولاَ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ ﴾ في الكلام حذف ، والمعنى : فأتياه فقالا له ذلك . والذي يقصده الإمام القرطبي بالحذف ، هو اختصار في أحداث القصة لإبراز المواقف الهامة والسكوت عن الأحداث الجانبية ، وهذه طريقة القرآن المثلى في قصصه الكريم .

وقد نُقل عن ابن عباس وغيره كلامًا أغلبه منقول عن بني إسرائيل ، لسنا في حاجة إلى نقله هنا ، ونحن نسكت عما سكت عنه القرآن ، والموقف الآن : موسى وهارون في مواجهة فرعون . قال الدكتور محمد بكر إسماعيل : (وهنا أدرك فرعون أنه أمام الرجل الذي كان يخشاه على نفسه وعلى ملكه من قبل ، أمام الرجل الذي كان يتمنَّى ألا يُخلق ، وألا يجيء اليوم الذي يأتي إليه في عقر داره وفي ديوان حكمه ليعرض عليه أمرًا لم يعرضه عليه أحد من قبله ، ومن هو هذا الرجل ؟ إنه الوليد الذي رباه في بيته وحمله في حجره ، وأحسن كفالته حتى بلغ رشده) . اهـ .

ولك أن تتصور أخي الكريم هذه اللحظة ، ولك كذلك أن تتساءل عن مدى الدهشة التي أصابت فرعون ومن حوله !! وربما تساءلت كذلك كيف سمح فرعون لموسى بالدخول عليه ، ولماذا لم يأمر بقتله على الفور هو وأخيه[1] ؟

وقد نُقل في ذلك الكثير عن بني إسرائيل لا أحبذ ذكره ، ويكفي أن أذكر بما سبق من وعد الله لموسى وأخيه وقوله تعالى : ﴿ فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾ ، وقوله

(١) قيل في ذلك أقوال منسوبة إلى بني إسرائيل . اكتفينا بما ذكرنا

سبحانه : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ ، فما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ ومهما يكن من أمر فقد دخل موسى وهارون على فرعون وعرضه عليه ما أمرهما الله به ، ودار بينهما الحوار التالي :

❋ **موسى وهارون ، عليهما السلام** : ﴿ إِنَّا رَسُولاَ رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلاَمُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ❋ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ .

في هذا السياق القرآني عرَّف موسى وهارون بشخصيتهما ورسالتهما ، وطلبا منه أن يطلق بني إسرائيل من تحت وطأته ويحررهم من ذل عبوديته ، وفتحا له باب الأمل إن أراد الإسلام فله السلام ، وأنذراه بطريق غير مباشر بالعذاب في الدنيا والآخرة إن هو أعرض عن الهدى . واستعمال الأسلوب غير المباشر في التهديد أجدى في دعوته حتى لا تثار حفيظته ، ولا تأخذه العزة بالإثم .

❋ **فرعون** : ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ؟

وسكتت سورة « طه » هنا عما ذُكر في سورة أخرى ، حيث قال فرعون لموسى : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ❋ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٨، ١٩] .

فردَّ عليه موسى من كلامه وقال : ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا

وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ ، والمقصود أن موسى عليه السلام عندما قتل المصري قتله قبل أن يمن الله عليه بالهداية التامة إلى الوحي والرسالة ، وكأن موسى قرأ في وجه فرعون تساؤلاً صرّح ببعضه فيما سبق كيف أصبحت يا موسى رسولاً وأنت الذي قد ربيناك بيننا ؟ فأجابه موسى موضحًا : ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١] .

هذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، والنبوة والرسالة هبة من الله ومنّة يمن بها سبحانه على من يشاء ؛ ولقد اصطفاني الله واختارني وأرسلني أنا وأخي إليك . وجاء دور السؤال الذي سأله فرعون : ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ؟ ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ؟ وتأتي الإجابة .

❁ **موسى** عليه السلام : ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ . ربنا الذي وهب الوجود لكل موجود في الصورة التي أوجده عليها ، ثم هدى كل شيء إلى وظيفته التي خلقه لها ؛ وأمدّ بما يناسب هذه الوظيفة ويعينه عليها . ثم هنا ليست للتراخي الزمني ، إنما هو التراخي في الرتبة بين خلق الشيء واهتدائه إلى وظيفته ، فهداية الشيء إلى وظيفته مرتبة أعلى ؛ وإن كان الله سبحانه قد أودع في فطرة كل شيء ما يهتدي به إلى ما يصلح معاشه .

هذا ، والهداية الفطرية كفلها الله لكل مخلوق ، يشترك فيها الإنسان والحيوان ، والمؤمن والكافر ، أما الهداية إلى صراط الله المستقيم والتي تشمل هداية الدنيا والآخرة فهي التي يأتي بها رسل الله على مرّ التاريخ ، وهي التي أشار الله سبحانه إليها في قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ۞ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه : ١٢٣، ١٢٤] .

❁ **قال فرعون** : ﴿ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ ؟ يسأل فرعون موسى عن الذين ماتوا ولم يسلموا ولم يعرفوا الله – الذي يدعو إليه موسى – ما مصيرهم ؟

❁ **قال موسى** عليه السلام : ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ .

أحال موسى الأمر لله في ماضي البشرية ومستقبلها ؛ فقد أحاط علمه بكل شيء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، وتنزه ربي سبحانه عما يصيب البشر من الضلال والنسيان ، ثم أردف موسى عليه السلام موضحًا بعض آثار القدرة الماثلة أمام كل ذي لب صحيح ، فقال : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ۞ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ [طه : ٥٣، ٥٤] .

استطرد موسى عليه السلام في بيان صفات الله وعجيب قدرته ، وضرب مثالاً من الواقع المشاهد المحسوس بهذه الأرض المبسوطة الممهدة التي جعلها الله سبحانه للإنسان كالأم ، وأمدّه فيها بوسائل المعيشة من إنزال الماء ، وإنبات النبات ، وفي ذلك من بديع القدرة ما يعجز عنه القلم ، فالماء واحد ، والأرض واحدة ، ويخرج النبات مختلف في الشكل والطعم والخصائص ، ومع هذا الاختلاف الظاهر فتجد النبات في أمر الزوجية ﴿ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ، بل ويتفق مع كل مخلوق في ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] .

إن في ذلك لآيات لا يعقلها إلا أصحاب العقول السليمة المستقيمة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠، ١٩١] .

وللحديث بقية بعون الله .

❁ ❁ ❁

دعاة على أبواب جهنم

بقلم الشيخ :

عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين ، يقول الحق ويهدي السبيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله يهدي من يشاء ويضل من يشاء .. وبعد :

فقد صدق رسول الله ﷺ الذي أخبرنا أن من علامات الساعة انتزاع العلم بقبض العلماء وتفشي الجهل ، حتى يتخذ الناس « رءوسا جهالاً يفتونهم بغير علم ، فيضلون ويضلون » .

وأخبرنا أيضًا ﷺ بظهور دعاة على أبواب جهنم من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا ، من أطاعهم قذفوه فيها .

كل ذلك وقع ، وصدق رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى . أقدّم بهذه المقدمة بمناسبة آخر الضلالات التي أعلنها الرئيس الليبي معمر القذافي ، ولقد عكف هذا الرجل منذ زمن على تحريف دين الله كتابًا وسنة ، ومن آخر ما زعم من مزاعمه الباطلة : « أن الملابس من صنع الشيطان » .

وقد أطلق القذافي هذا الباطل في مؤتمر للنسوة في عمان الأردن ، وقد نشر هذا الكلام عبر وكالات الأنباء ، وأنا أنقله الآن عن جريدة الخليج الصادرة في السبت ٢٠٠٠/١٠/٧م العدد رقم ٧٨١١ .

ولست أدري من أين جاء الرئيس القذافي بهذا الكلام ؟ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ [النحل : ٨١] .

فهذه الآية واضحة الدلالة أن الله سبحانه هو الذي جعل لنا الملابس لوقايتنا من الحر ومن البرد ومن البأس ، وجعلها من تمام النعمة علينا لعلنا نشكر الله سبحانه وتعالى عليها ، وكما صح عن رسول الله ﷺ : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » . قال ذلك وهو يأمر رجلاً بأن يلبس من ثيابه الحسنة ، وهذا كلام تؤكده الفطر السليمة ، ويؤكده الشرع .

وهذا كلام الله في كتابه وكلام رسوله ، من جعل الملابس نعمة من الله امتن علينا بها وهي جزء من نعمه التي لا تحصى ولا تعد .

فأخبروني أيها العقلاء ، أنصدق كلام الله أم كلام الزعيم الليبي ؟ ثم من أين جاء الزعيم الليبي بزعمه الذي يخالف العقل والدين والواقع ، إلا أن يكون الشيطان قد ألقاه في روعه ، فهو يتكلم على لسان الشيطان ، ثم إني أسأل حضرة الزعيم : إذا كانت الملابس من صنع الشيطان ، فلماذا ترتديها أنت ؟ بل ولماذا تبالغ فيها إلى حد الإسراف ، فأنت - حسب زعمك - من جند الشيطان .

ويستمر حضرة الزعيم في تحريفه للكلم عن مواضعه وقلب الأمر رأسًا على عقب ، ويقول : إن الشيطان هو الذي اقترح على آدم وحواء تغطية عوراتهما بلباس من ورق الشجر بعد أن تسبب في إخراجهما من الجنة .

ونحن نقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فهذا تحريف واضح وقلب

للحقائق وقول على الله بغير علم ، وهو من أكبر الكبائر .

فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ [الأعراف : ٢٧] .

فإن الشيطان هو الذي نزع عن آدم وحواء اللباس ليريهما سواءتهما ، أي عوراتهما ، وهذا هو نص القرآن الكريم ، وجميع نصوص القرآن تشير إلى ذلك ، فالشيطان هو الذي نزع اللباس لإظهار العورة ، وليس هو الذي أمر باللباس يا حضرة الزعيم ، فمن أين جئت بهذا الكلام ؟ أتصدق كلامك أم كلام رب العالمين ؟

إن الشيطان أيها الزعيم هو الذي نزع اللباس عن آدم وزوجه ، وهو الذي ينزع اللباس اليوم عن ذرية آدم ، ولذلك جاء التحذير القرآني لجميع بني آدم بقوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ .. ﴾ ، وما أراك إلا مجددًا لدعوة الشيطان ؛ لأنك تريد أن تنزع عن المرأة لباس العفة والكرامة ، وقلت بالحرف الواحد : لا يجب إذن الوقوف كثيرًا عند الملابس ووضع القيود عليها انطلاقًا من موروثات عفا عليها الزمن .

وهذه مصيبة أخرى كبرى ، فإنك تدعو الناس إلى التمرد على كتاب الله وسنة رسول ﷺ ، تدعوهم إلى الخروج من أحكام الدين ، وتصف الدين بأنه موروثات

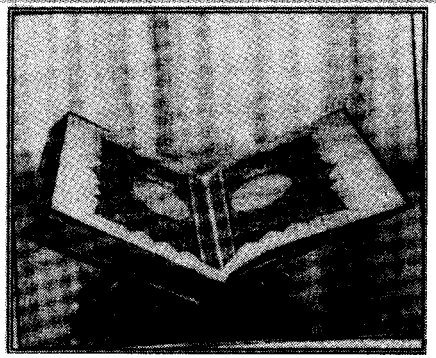

عفا عليها الزمن ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ولست أدري لماذا يسكت علماء المسلمين على هذا الكفر الواضح الصريح ، وهذه الردة التي أقيم عليها البرهان !!

والغريب في الأمر بعد ذلك أن حضرة الزعيم حاول أن يضفي الشرعية على كلامه ويؤصله بالقرآن فيقول : إن القرآن تحدث عن لباس التقوى في المقام الأول . وهذا كفر وتضليل وتلبيس وخداع هي نفسها أساليب الشيطان في إغواء الإنسان عندما أقسم لآدم وزوجه أنه لهما لمن الناصحين .

ونقول لحضرة الزعيم : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ ؟ ونقول له : لا تفعل كمن يقول : ﴿ لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ ﴾ ويسكت ، واقرأ الآية قراءة صحيحة : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٦] .

فالآية الكريمة جعلت اللباس من نعم الله ، والغرض منه ستر العورات وليس هتك العورات يا حضرة الزعيم ، ثم إن الآية تدعو المسلم لإصلاح الظاهر والباطن ، وفيما يتعلق بأمر الآخرة قدّم التقوى ، ثم إن التقوى تدعونا إلى ستر العورات وعدم كشفها واتباع أوامر الله في كتابه التي أمر فيها المؤمنين والمؤمنات بالحجاب وستر العورات وغض البصر .

يا حضرة الزعيم ، إن كنت حقًا تأمر بالتقوى فأنصحك بتقوى الله ، وأن تعلن توبتك النصوح قبل أن يوافيك الأجل ولا ينفعك مال ولا بنون ولا منصب ولا سلطان ، تب إلى الله من القول على الله بغير علم ، فإنه من أكبر الكبائر ، إن تُرد التوبة النصوح فعليك بالتوبة والرجوع عن كل بدعة ابتدعتها في دين الله وتحريف حرفته في دين الله .

عليك أن تجلس وتتعلم العلم الصحيح على أيدي العلماء ، أو تجعل الفتوى لهم ولا تتكلم بما لا تعلم .

وهذه كلمة أخيرة لأهل العلم : لماذا تسكتون عن المنكر ؟!

والغريب أن حضرة الزعيم ذهب يصرح هذه التصريحات ويقول هذا الباطل في الوقت الذي توجه فيه إسرائيل رصاصها إلى صدور المسلمين ، وتحاصر المسجد الأقصى بدباباتها ، وتحاصر ديار المسلمين ، فهل هناك علاقة بين الأمرين .

نقول أولاً وأخيرًا : لا حول ولا قوة إلا بالله .

مصيبة الأمة بموت علمائها

بقلم الشيخ: عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين ، فهو سبحانه العليم بالأحوال الحكيم في الفعال ، والمحمود على كل حال ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .. وبعد :

فإن مصيبة الموت من المصائب العظام ، وقد صرَّح بذلك القرآن ، فقال تعالى : ﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ ... ﴾ [المائدة : ١٠٦] ، وأفدحُ ما تكون المصيبة عندما تصيب الأمة بموت علمائها العاملين .

وإني لأشهد أن الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين - تغمدَّه الله برحمته وأدخله فسيح جنته - من هؤلاء العلماء العاملين ، ولقد أتاح الله لي بفضله ورحمته رؤية هذا العالم الجليل عن قرب ، فرأيت فيه سَمْت العلماء الزاهدين ، وحال وسلوك العلماء الربانيين الذين يعلمون العلم النافع ، ويعملون بما يعلمون ، ويعلِّمون الناس ، ولقد ظل الشيخ على حاله هذه من العطاء المستمر لا يكتم علمًا ولا يرد مستفتيًا ، حتى وهو يغالب وعثاء المرض ، وظل على ذلك حتى فارق الدنيا ، ومن أهم الوصايا التي حفظتها عنه - يرحمه الله - ما يلي :

- إعطاء الأولوية في طلب العلم لدراسة تفسير القرآن الكريم والاهتمام بمعانيه ، فذلك أصل كل علم ، ففي القرآن الكريم علم العقيدة والتوحيد ، وفيه الأحكام والتشريع في العبادات والمعاملات والأخلاق ، وفيه قصص الأنبياء وسير الأمم ، وطرق محاجة الخصم بالتي هي أحسن .
- لزوم طريق أهل السنة والجماعة ، والتحذير من الفرقة والاختلاف .
- الاهتمام بدراسة السيرة النبوية ، وسيرة الصحابة والتابعين ، فذلك مما يرقق القلب .
- الاهتمام بالدليل في دراسة الفقه ونبذ التقليد الأعمى ، والبُعد عن الجدل والمراء ، وعدم التسرع في الأحكام على الناس ، واحترام الرأي المخالف .
- الدعوة إلى الله على بصيرة ، وسلوك مسلك الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن .

لكني لم أكتب هذه الكلمات لأعلن شهادتي في الشيخ الجليل رحمه الله ، فما قيمة شهادتي ، وقد شهد له من هو خير مني ، وإني على يقين أن شهادتي لن تقدِّم ولن تؤخر في الأمر شيئًا ، فالشيخ رحمه الله يعرفه القاصي والداني مكانة الشيخ العلمية وجهوده المباركة لا تخفى على عاقل ، ولم أكتب هذه الكلمات للحديث عن سيرة الشيخ الذاتية ، فذلك له مواضع ، وأقلام أخر .

وإنما كتبتُ لأعلن عن فداحة الخطب وجسامة المصيبة بموت العلماء ، ولقد تتابع موت كوكبة كبيرة من

علماء الأمة في وقت وجيز ، كتتابع سقوط حبات عقد انفرط نظامه ، تتابع موت العلماء في بقاع شتى من العالم في مصر والهند ، والشام ، والمملكة العربية السعودية ، وكان آخرهم موتًا ، صاحب الفضيلة الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ، رحم الله الجميع ، وأدخلهم فسيح جنته .

أقول : وهذا التتابع السريع في موت العلماء العاملين لنذير بما أخبر عنه النبي ﷺ من رفع العلم وقبضه بين يدي الساعة .

فقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من أشراط الساعة أن يُرفع العلمُ ، ويُثبت الجهل ويشرب الخمر ، ويظهر الزنا » ، وأيضًا من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « إن بين يدي الساعة أيامًا يرفع فيها العلم وينزل فيها الجهل ، ويكثر فيها الهرْج ، والهرج القتل » .

وفي الباب أحاديث كثيرة مماثلة من رواية أبي هريرة وغيره .

* لكن كيف يكون رفع العلم وثبوت الجهل أو نزوله ؟

يوضح ذلك حديث رسول الله ﷺ الذي جاء في « صحيح مسلم » من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ إذ يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنّ الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يترك عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » . وقد ورد الحديث أيضًا في صحيح البخاري مع تفاوت في بعض ألفاظه .

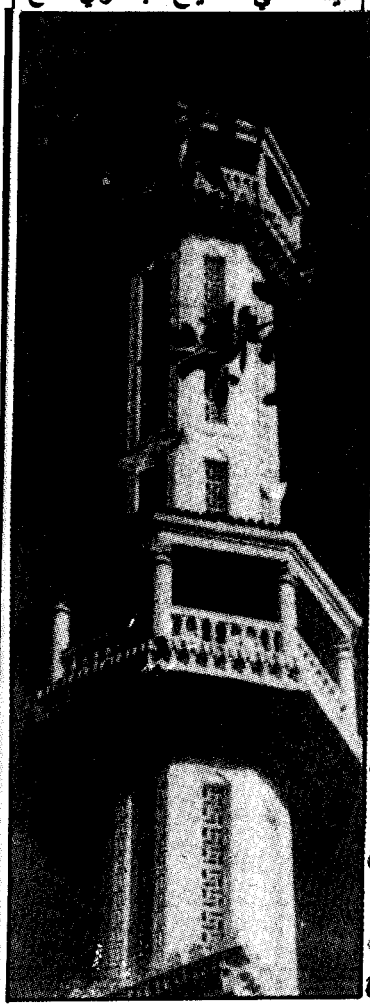

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح الحديث في صحيح مسلم : وقوله ﷺ : « اتخذ الناس رءوسًا جهالاً » قال النووي : وضبطوه في مسلم هنا بوجهين : أحدهما : « رءوسًا » جمع رأس ، والثاني : (رؤساء) بالمد ، جمع رئيس ، وكلاهما صحيح ، والأول أشهر ، وفيه التحذير من اتخاذ الجهال رؤساء .

ثم قال الإمام النووي : وفي هذا الحديث : الحث على حفظ العلم ، وأخذه من أهله ، والاعتراف للعالم بالفضيلة .

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في « فتح الباري » : وفي هذا الحديث الحث على حفظ العلم ، والتحذير من ترئيس الجهلة ، وفيه أن الفتوى هي الرياسة الحقيقية ، وذم من يُقدِم عليها بغير علم . اهـ .

والحاصل أيها القارئ الكريم أن وجود العلماء الربانيين عصمة للأمة ، وموتهم فتنة لها ؛ لأنه كما جاء في الحديث السابق : يرتفع العلم بموت هؤلاء العلماء ، وبموت العلماء يتصدّر الفتوى أهل الضلال والبدع وأهل الهوى وحب الدنيا والرياسة ، فتكون الفتن المتلاحقة - نسأل الله العفو والعافية - وقد يقول قائل :

كيف يكون هذا وبين أيدينا كتاب اللّه وسنة رسول اللّه ﷺ ، والمكتبات تضج من كثرة الكتب ، والعلم موجود في المدارس والجامعات والمساجد وفي كل مكان ؟

أقول : لقد كفاني الإجابة عن هذا التساؤل حديث رسول اللّه ﷺ الصحيح عن زياد بن لبيد رضي اللّهُ عنه قال : ذكر النبي ﷺ شيئاً فقال : « ذاك عند أوان ذهاب العلم » . قلت : يا رسول اللّه ، وكيف يذهب العلم ، ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا ويقرؤه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة ؟ قال : « ثكلتك أمك زياد إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة ، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيء مما فيها ؟ » . والحديث أخرجه أحمد وابن ماجه ، وصححه الشيخ الألباني رحمه اللّه في « صحيح الجامع » .

فليست العبرة بكثرة وجود الكتب ، ولكن العبرة بالعمل بما فيها ، فقد قال سلفنا الصالح : (إنما العلم الخشية) ، وليس كل من قرأ فقه ، وليس كل من فقه علم ، فالقراء كثير ، ولكن العبرة بالفقه في دين اللّه ، كما أنه ليس كل من فقه أخلص للّه فيما فقه .

روى عبد الرزّاق في مصنفه عن علي رضي اللّه عنه أنه ذكر فتناً تكون في آخر الزمان ، فقال له عمر رضي اللّهُ عنه : متى ذلك يا علي ؟ قال : إذا تُفقه بغير الدين وتُعلم العلم لغير العمل ، والتمست الدنيا بعمل الآخرة .

ومع كل ما تقدّم فنحن على يقين من وعد اللّه على لسان رسوله ﷺ : « ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ، ولا يترك اللّه بيت مدر ولا بر إلا أدخله اللّه هذا الدين بعزّ عزيز أو بذل ذليل ، عزًّا يعز اللّه به الإسلام ، وذلاً يذل اللّه به الكفر » . وهذا الحديث في « السلسلة الصحيحة » ، وقال العلاّمة الألباني رحمه اللّه تعليقًا على هذا الحديث : فهذا الحديث مفسرًا للآية الكريمة : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٩] ، وقال العلاّمة الألباني رحمه اللّه : ومن جزئيات الآية والحديث ما صح عنه ﷺ أن المسلمين سيفتحون مدينة روما عاصمة البابا بعد فتحهم القسطنطينية ، وقد تحقق الفتح الأول ؛ فلا بد أن يتحقق الفتح الثاني : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٨] . اهـ .

وكذلك نحن على يقين بما بشّر به النبي ﷺ فيما رواه مسلم من حديث ثوبان رضي اللّهُ عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر اللّه وهم كذلك » .

فعلى المسلمين أن يعدُّوا أنفسهم لذلك بالرجوع الصادق إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ ، واجتنابهم المحرمات ، وتقليد المشركين ، وتعاون المسلمين ، واتحادهم على ما يرضي اللّه ورسوله ، واجتناب كل طريق يؤدي إلى الفرقة والشر .

وعندما تتذكر مصاب الأمة في رسولها ﷺ يهون علينا كل خطب ، وعندما تتذكر كيف مكّن اللّه لهذه الأمة بعد موت رسولها تزداد أملاً في نصر اللّه لدينه وحمايته لعباده المؤمنين .

فنسأل اللّه الكريم رب العرش العظيم أن يجعلنا من عباده الصالحين وأوليائه المتقين ، وأن يتغمد برحمته علماءنا المخلصين ، وأن يخلفنا فيهم خيرًا ، وأن يلحقنا بهم على خير . اللهم انصر دينك وكتابك وعبادك الصالحين ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه رب العالمين .

قصة :

موسى عليه السلام

الحلقة العاشرة

بقلم الشيخ

عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله مالك الملك ، مدبر الأمر ذي الجلال والإكرام ، والصلاة والسلام على رسول الله الذي جاء بالحق مصدقًا لما بين يديه ومهيمنًا عليه .

أخي الكريم : وقفنا بك في لقائنا السابق بين موسى عليه السلام وفرعون الذي طغى ، وبغى .

وقد أجاب موسى وأخوه هارون فرعون عن كل ما سأل ، وأظهرا له آيات الله في كونه ، وكذلك أظهر موسى الآيات المادية التي أعطاها الله له : تحويل العصا إلى حية تسعى ، وخروج يده بيضاء من غير سوء .

فماذا كان موقف فرعون من كل ذلك ؟ قال الله عز وجل مجيبًا عن هذا السؤال : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ [طه : ٥٦] ، نعم كذب وأبى ، أي استكبر على الانقياد لأمر الله ورسوله ، وسكتت هنا سورة « طه » عن تفاصيل وردت في سور أخرى ، فقد قص علينا ربنا سبحانه جوانب من تفاصيل ذلك الموقف في عدّة سور من كتابه الكريم مستوفيًا جميع جوانبه ، من ذلك ما قصّه الله علينا في سورة « الأعراف » : ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُواْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

الآيات [الأعراف : ١٠٦- ١١٢] .

وقال تعالى في سورة « الشعراء » : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلاَ تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣- ٢٩] .

نخلص من هذا العرض القرآني المحكم إلى الحقائق التالية :

١- لقد منع فرعون كبرُه من الانقياد للحق رغم ظهوره بجلاء ، وله في ذلك أسوة بإبليس ، وكل من سبقه من المتكبرين ، وصار فرعون مثلاً وقدوة في الشرّ كذلك لمن جاء بعده من المتكبرين .

٢- لما أسقط في يد فرعون أمام حجج موسى وبراهينه الواضحة لم يجد فرعون إلا التهم الباطلة يقذفُ بها موسى وهارون .

* فاتهمهما بالسحر وبالرغبة في السيطرة على الملك وإخراج أهل مصر منها ، ونسي فرعون أن موسى وأخاه رسولا رب العالمين ، أو تناسى ذلك .

* ولم يكتف بهذا ، بل وجه تهمة الجنون إلى موسى عليه السلام .

* وأيضًا هدَّد موسى بالسجن إن حاول أن يتخذ إلهًا غير فرعون فنصَّب نفسه إلهًا ، وصرح بذلك في موضع آخر ، فقال كما قصَّ اللّه سبحانه عنه : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [النازعات : ٢٤] ، بل قال فرعون لقومه : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص : ٣٨] .

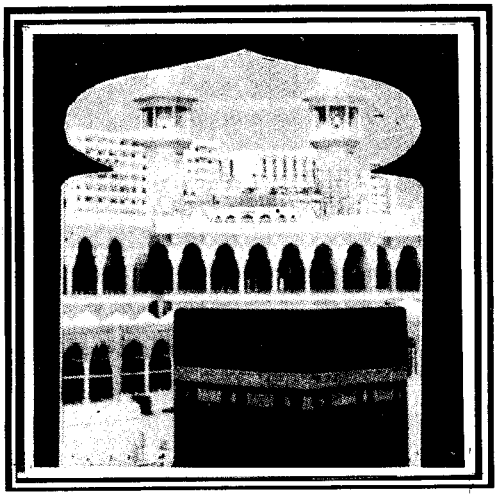

* اجتمع في قوم موسى بطانة السوء وهم الملأ الممالئون لفرعون المداهنون له المستفيدون من وجوده في الحكم ، وهم الذين قالوا لفرعون : ﴿ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ﴾ .

* وكان أيضًا في بطانة فرعون من يتسم بالحكمة والتعقّل ، وهم الذين قالوا : ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴾ .

ويبدو أن هؤلاء كانوا من أصحاب الرياسة والريادة وأهل الرأي والقيادة ، فمال فرعون إلى رأيهم ، وهنا نعود لسورة « طه » مرة أخرى تحدثنا عن هذا الموقف :

* ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لاَ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَانًا سُوًى * قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : ٥٧- ٥٩] .

* من هذا الموقف السابق نلحظ فطنة موسى عليه السلام وذكاءه ، وقبل هذا وبعده ثقته في نصر اللّه له ، ولذلك اختار يوم الزينة - يوم

العيد الوطني للبلاد - الذي تُعلّق فيه الزينات والأعلام ، وتنشد فيه الأناشيد ، التي تمجد فيه فرعون وترفع من شأنه ويغدق الفرعون على شعبه العطايا بهذه المناسبة المجيدة ، وتعطل فيه الأعمال ويتفرغ فيه الناس للبهجة والسرور ، فأراد موسى أن ينتهز هذه الفرصة السانحة حتى يجتمع أكبر عدد ، ويحشرون ضحى ليس ليلاً ، ولا أصيلاً ولا غدوة حتى تكون الرؤية واضحة ، وتكون فضيحة فرعون وملئه على رءوس الأشهاد ، وحتى هزيمته في يوم عيده وفرحته ، وحتى تكسر أوثان الوطنية الزائفة ، وتنكسر أعلام الضلال والبهتان ، وحتى يكون ذلك اليوم عيدًا لانتصار الحق ، بدلاً من شيوع الباطل . هذا ما كان من أمر موسى في اختيار يوم الزينة .

أما فرعون ومن معه فقد وقع اختيار موسى من نفسه موقعًا ، وكذلك من نفوس من شايعه على باطله ؛ لأنهم دائمًا يأتون الناس من هذا الجانب ، جانب الارتباط بالأرض والتمسك بها ، كذلك ظنَّ فرعون ومن معه أنهم سيهزمون موسى وتكون هزيمته أيضًا على رءوس الأشهاد ، وهكذا يفكر فيه كل من أعمى الله بصيرته عن الحق ، وهنا انطلق فرعون وأرسل رجاله في البلاد ليجمع السحرة من كل واد ليوم الميعاد ، واختصرت سورة « طه » كل هذه التفاصيل وعبَّرت عنها بأسلوب بليغ معجز ، فقال سبحانه : ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴾ [طه : ٦٠] ، هكذا بهذه الكلمات الوجيزة اختصرت لنا هذه الآية تفاصيل كثيرة في الزمان والمكان والجهود ، حتى وضعتنا أمام اليوم الموعود ، فنحن الآن أمام الفريقين المجتمعين : فرعون ، وجنوده ، وقواده ، وحاشيته ، وشعبه ، في يوم زينته ، والسحرة المجتمعين من كل أقطار مصر ، والفريق الآخر المتمثل في موسى وأخيه هارون ومعهما العصا بعد توكلهم على الله .

لكن الله مع مَن ؟ مع موسى أم مع فرعون ؟ وهنا استفاد موسى عليه السلام من وجود هذا الجمع الحاشد الذي قلَّ أن يجتمع مثله ، ووجه إلى الجميع دعوة ونصيحة ، فقال : ﴿ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ [طه : ٦١] .

هذا هو موقف الداعية الصادق والرسول المبين الذي ليس له همٌ إلا تعبيد الناس لله رب العالمين ، وهو لذلك يتحين الوقت ويستفيد من جميع الفرص المتاحة ، وسنرى في اللقاء القادم - بعون الله - لمن ستكون الغلبة ؟ لموسى الذي كان مستعينًا بالله وحده لا شريك له ؟ أم للسحرة الذين استعانوا بعزة فرعون ؟

وإلى لقاء ، أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه .

فضائل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه

حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ، قال : « دخلت الجنة ، أو أتيت الجنة ، فأبصرت قصرًا ، أو أتيت الجنة فأبصرت قصرًا ، فقلت : لمن هذا ؟ قالوا : لعمر بن الخطاب ، فأردت أن أدخله ، فلم يمنعني إلا علمي بغيرتك » . قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي يا نبي الله ، أو عليك أغار ؟ [متفق عليه] .

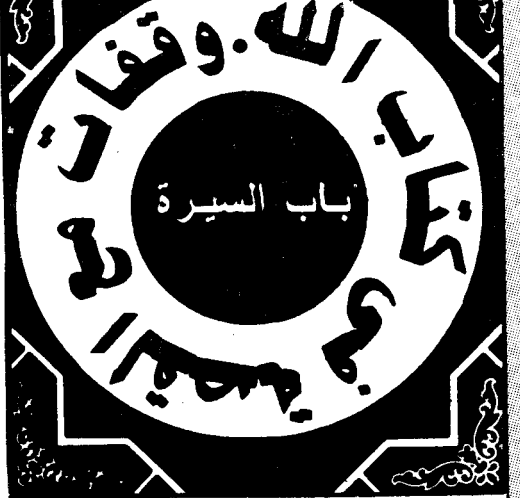

قصة : موسى عليه السلام

بقلم الشيخ :

الحمد للَّه العزيز الجبار المتكبر الذي له العزة جميعًا : ﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ ، والصلاة والسلام على إمام رسل اللَّه وخاتم أنبيائهم الذي صدَّق بوعد اللَّه ، فنصره اللَّه والذين آمنوا معه في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .. وبعد :

أخي القارئ العزيز : أتدري في أي زمان نحن وفي أي مكان ؟ وفي أي جمع ؟ نحن مع قصة موسى عليه السلام في أرض مصر وفي يوم الزينة والوقت ضحى ، وقد احتشد الناس من كل صوب ، وقد تولّى فرعون فجمع كيده ثم أتى ، واجتمع الناس للموعد الذي ضربه لهم موسى من قبل في يوم عيدهم ، فكان الجمع حافلاً ، حضره الرجال والنساء والكبار والصغار والعوام والأشراف ، فضلاً عن جمع السحرة الذين اجتمعوا لمقارعة موسى ومغالبته ، وهؤلاء الذين توجه إليهم موسى بالموعظة : ﴿ وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ [طه: ٦١].

أي : لا تنصروا الباطل بسحركم وتغالبوا الحق ، وتفتروا على اللَّه الكذب ؛ فيستأصلكم بعذاب من عنده ، ويخيِّب سعيكم وافتراءكم ، فلا تدركوا ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه ، ولن تسلموا من عذاب اللَّه ، وقد وقع هذا الكلام موقعًا عظيمًا في نفوس القوم ؛ لأنهم يعلمون أنهم على باطل ، وأن موسى ليس بساحر ، وقد ظهر أثرُ هذا في التنازع الذي وقع بينهم ، كما حكى القرآن حالهم : ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ [طه : ٦٢] ، هذا النزاع الذي وقع بينهم بسبب موعظة موسى لهم ، فارتبكوا واشتبه عليهم الأمر ، وقال فريق منهم : إن هذا كلام رسول وليس بساحر ، وقال فريق آخر منهم : إنه ساحر ، وكانت الغلبة لهذا الفريق ، وخشية أن يفتضح أمرهم أمام القوم حاولوا التماسك والظهور برأي واحد اتفقوا عليه سرًّا ، فقالوا بمقولة فرعون : ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ۞ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ [طه : ٦٣، ٦٤] .

وهذه منهم محاولة للتماسك وتوحيد الصف واستجماع القوة أمام موسى واستعلاء بالباطل وبعزة فرعون من دون اللَّه ، وهذا ما قاله قائلهم ، فهم قد جاءوا طمعًا في الجاه والمنزلة عند فرعون الإله المزعوم : ﴿ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۞ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف : ١١٣، ١١٤] .

الحلقة الحادية عشر

﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾

عبد الرازق السيد عيد

ولهذا أعلنها قائلهم بصراحة واضحة : ﴿ ... بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٤] ، هذا استعلاء القوم ، وهذه عزتهم ، ليست باللّه العزيز ، ولكنها بفرعون الذليل ، وبعد أن انتهى القوم من نجواهم وجمعوا أمرهم على ما أسروه بينهم توجهوا إلى موسى في نوع من تحدي الغرور : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ [طه : ٦٥] ، وهنا تظهر مرة أخرى عبقرية موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ﴾ [طه : ٦٧] ، طلب منهم موسى أن يلقوا أولاً ما عندهم حتى يأتي عليه موسى بإذن اللّه فلا يبقى له أثر ، وكان موسى عليه السلام قد هددهم بعد ما رآه منهم من إصرار على الباطل قائلاً فيما حكاه القرآن الكريم عنه : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٨١] ، ونعود إلى هذا المشهد في سورة « طه » : ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ۞ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ [طه : ٦٦، ٦٧] .

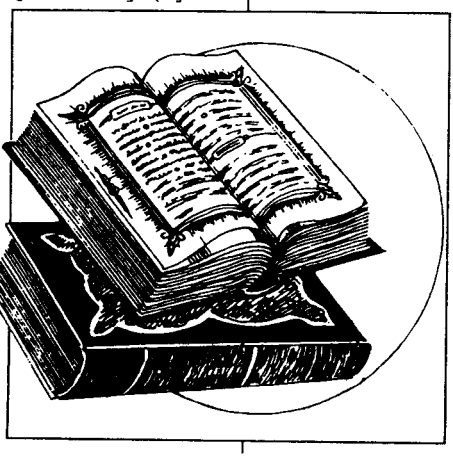

إن القوم حقًا برعوا في السحر وسحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ، وبهذا نطق الذكر الحكيم ، قال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأعراف : ١١٦] ، نعم قد برع الناس هناك في هذا النوع من السحر ، وجاء السحرة بهذا السحر الذي وصفه القرآن بالعظيم ؛ حبال ، وعصي ، ألقاها السحرة على الأرض فيتخيل لمن يراها أنها حيات تسعى ، وهكذا تخيل الناس ، حتى إن موسى عليه السلام داخله شيء من الخوف الطبيعي من رهبة الموقف ، وهنا يظهر دور المعية الربانية والعناية التامة من الحي القيوم ، ويظهر الفرق الواضح بين علو موسى وعلو فرعون وقومه .

فجاء الوحي من اللّه إلى موسى : ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى ﴾ [طه : ٦٨] ، لا تخف يا موسى ، نداء من اللّه العلي القدير ، فينزل بردًا وسلامًا وتثبيتًا على قلب موسى ، فهذا هو النداء الذي قال لموسى من قبل : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ [طه : ٣٩] ، وقال له : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ [طه : ٤١] ، وقال له : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه : ٤٦] ، وهاهنا يقول له : ﴿ لاَ تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى ﴾ ، الأعلى بما معك من حق ، الأعلى لأنك تستعين بربك الأعلى ، وتتوكل على العلي العظيم ، الأعلى لأنك على صراط مستقيم ، فهذا علو ، وذاك علو ،

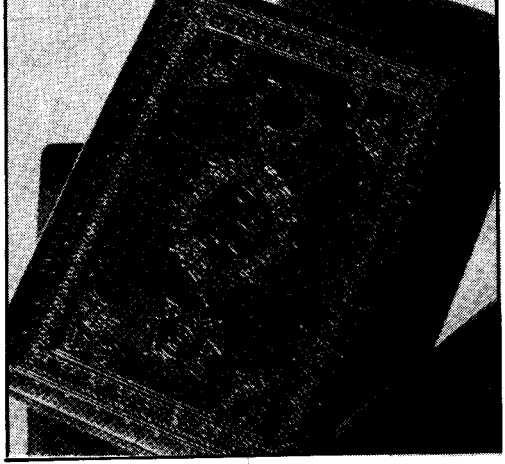

وبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض ، وسترى لمن ستكون الغلبة ؟!

ويستمر وحي اللّه إلى موسى في تثبيته كما تقصُّ علينا سورة « طه » : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ ، ويبدو أن موسى من رهبة الموقف نسي السلاح الذي في يده ، والذي أمدَّه اللّه به لمثل هذا الموقف ، وهنا تذكر موسى بعد أن سكن فؤاده بوحي اللّه له : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۞ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۞ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَانقَلَبُواْ صَاغِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١١٧- ١١٩] ، لك أن تتخيل هذا الموقف بجلاله ورهبته ، قوم بذلوا أقصى ما يملكون ، بل ما يملك أهل الأرض يوم ذاك من علم السحر وصناعة السحر ، حتى استرهبوا أعين الناس بعدما سحروها وجاءوا بسحر عظيم ، وخيل لهم أنهم حققوا نصرًا ساحقًا على موسى ، وفي ظنهم ماذا تفعل عصا موسى مع هذا الكم الهائل من السحر الذي صنعوه ، وفجأة يلقي موسى عصاه فتتحول إلى ثعبان مبين يلتهم كلَّ ما صنعوه من حبال وعصي في سرعة فائقة وبراعة نادرة ، ماذا حدث ؟ ما الخطب ؟

هذا هو الفرق بين الكذب والحقيقة ، فما صنعوه كان سحرًا وكان كذبًا وافتراءً ودجلاً ، لكن ما صنعه موسى كان هو الحق والحقيقة ، ما صنعوه كان بعزة فرعون ومن أجل فرعون ، وما صنعه موسى كان بعزة وبعون اللّه ولأجل اللّه ، فهنا أدرك السحرة الحقيقة واضحة لا غبار عليها بعدما انكشف لهم زيف ما كانوا عليه ، وكذب فرعون وافتراؤه على موسى ، وكذب وسائل إعلامه وبهتان الملأ من قومه ، فكان السحرة صادقين مع أنفسهم ، فلم يبق أمامهم إلا الإيمان والتسليم ، وتنزل سورة « طه » تتحدث لنا عن هذا الموقف واصفة لنا إياه : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۞ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ۞ قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [طه : ٧٠- ٧٣] .

وللّه درُّ هؤلاء الرجال الذين علمونا دروسًا يجدر بنا الوقوف عندها وتأملها ، نعم سنقف مع هذا الموقف لنتعلَّم منه ما يلي :

١- صدق هؤلاء السحرة مع أنفسهم ومع ربهم وشجاعتهم الإيمانية ، فعندما ظهر لهم الحق وانجلت غشاوة الباطل عن أعينهم لم يترددوا لحظة في إعلان موقفهم وإظهار إيمانهم برب العالمين ؛ رب موسى وهارون ، وأعلنوا ذلك بالقول وبالعمل أمام الجمع الحاشد بما فيه فرعون وجنوده ، ولم يأبهوا بشيء ، ولم يكتموا الحق إلى حين .

٢- ثورة الكبر وطغيان الكبرياء ، فهذا فرعون الطاغية الذى هدّد وتوعد هؤلاء السحرة الذين

أظهروا الحق ، والمفروض لو كان فرعون صادقًا لاتبعهم ؛ لأنهم بمثابة الحكم الذي يفصل بينه وبين موسى ، فإن كان اتهامه لموسى عن جهل ، فهؤلاء رجال فرعون وأهل العلم بالسحر في مملكته أثبتوا أن موسى ليس بساحر وأنه رسول رب العالمين ، فكان عليه اتباع هذا الفريق المحايد الذي أظهر الله الحق على يديه ، لكن فرعون كان يعرف الحقيقة من اللحظة الأولى التي جاء فيها موسى ، ومنعه كبره من الانقياد للحق كما فعل كثير من أمثاله سابقًا ولاحقًا . وكما فعل اليهود ومشركو العرب مع نبينا محمد ﷺ إذن كان الذي فعله فرعون مجرد مسرحية أراد أن يضحك بها على شعبه ، وظنّ بجهله أنه على كل شيء قدير ، فلما فشل مخططه ، وأبطل الله باطله ، وكانت الضربة القاضية باستسلام السحرة لله رب العالمين ، جُنّ جنون فرعون وانقلب أنصاره الذين جاء بهم ليقربهم ويمكنهم انقلبوا في لحظة إلى أعداء يتهددهم ويتوعدهم .

٣- الإيمان يغير النفوس ، نعم فعندما تخالط بشاشة الإيمان النفوس فإن حالها يتغير إلى أحسن حال ، فهؤلاء السحرة الذين كانوا منذ قليل يقولون : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ، عندما تمكن الإيمان الصادق من قلوبهم ، انظر كيف تغير حالهم وكيف ثبتهم الله على الحق رغم تهديد فرعون لهم ، واستمع مرة أخرى إلى مقولتهم الخالدة التي سطرها القرآن بأحرف من نور تضيء إلى يوم القيامة : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ .

٤- سلامة فطرة السحرة .

من أين عرف السحرة كلّ ذلك العلم في لحظات ؟ من أين عرفوا الحقيقة بين الدنيا والآخرة ؟ وبين الحق والباطل بهذه السرعة حتى تحولوا إلى دعاة كما سيأتي ؟ ألم يقولوا في قَسَمهم : ﴿ وَالَّذِي فَطَرَنَا ﴾ ، إنها الفطرة الكامنة في النفوس ، ما إن تلبث أن تنجلي عنها الغشاوة فتعود إلى صفائها ونقائها : ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ... ﴾ [الروم : ٣٠] ، هذه فطرة الله التي فطر الله جميع البشر عليها يوم خلقهم في عالم الذر وهي موجودة في جميع الخلق مؤمنهم وكافرهم ، ومهمة الرسل على مرّ التاريخ رفع الغشاوة عن هذه الفطرة ليعود إليها صفاؤها ونقاؤها ؛ فيوافق نور الوحي نور الفطرة الكامنة فيصبح بفضل الله : ﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاء ﴾ [النور : ٣٥] ، وهذا الذي فعله موسى مع السحرة ، حيث أزاح شبهات الشياطين وشهوات المعاصي عن فطرة السحرة فأبصروا الحقيقة فأعلنوها غير مبالين بما يصيبهم ؛ لأن ما عند الله خير وأبقى .

٥- ولم يقف السحرة عند هذا الحد ، بل تحولوا إلى دعاة يوجهون النصيحة إلى فرعون كما نسب ذلك إليهم ابن كثير رحمه الله وغيره من المحققين ، قالوا كما حكى القرآن عنهم ووجهوا القول إلى فرعون - فسبحان الله -: ﴿ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۞ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ۞ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى ﴾ [طه : ٧٤- ٧٦] .

اللهم آت نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ، وإلى لقاء نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه .

وقفات مع القصة في كتاب الله قصة موسى عليه السلام

الحلقة رقم (١٢)

بقلم الشيخ :
عبد الرازق السيد عيد

(أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله)

الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ، سبحانه ، يحق الحق ويبطل الباطل ويبطل كيد الكافرين ... وبعد :

وقفنا بك أخي القارئ الكريم في لقائنا السابق عند ذلك الحدث العظيم الذي اهتز له عرش فرعون وتصدّع بنيانه من الداخل ، نعم ، إنه موقف هؤلاء السحرة وقد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم فاستهانوا بالدنيا بأسرها : لأنهم أيقنوا بما عند الله ، فانتصر فيهم الحق على الباطل والعقيدة على الحياة وانتصرت العزيمة مع الألم ، فواجهوا تهديد فرعون ووعيده بصبر وثبات ، وقالوا كلمتهم المأثورة : ﴿ اقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا) [طه : ٧٢]. ولم يكن لهم هم إلا أن يموتوا مسلمين ، فكانوا في أول النهار سحرة ، فأصبحوا بفضل الله في آخر النهار شهداء بررة .

قال ابن كثير : قال ابن عباس وعبيد بن عمير وقتادة وابن جريج : (كانوا في أول النهار سحرة وفي آخره شهداء) . وقد أشرنا إلى بعض الدروس المستفادة من هذا الموقف في لقائنا السابق ، وحق هذا الموقف أن يُفرد ببحوث مستقلة تستخلص منه العبر التي تنتفع بها الأجيال على مر العصور ، والوقت لا يسعفنا في هذه الوقفات ، وسنمضي اليوم للنظر في تداعيات هذا الموقف وما تركه من نتائج وآثار على فرعون وقومه وموسى وقومه ، لا نبالغ إن ذكرنا أن موقف السحرة كان فرقانًا بين الحق والباطل ، وكان نصرًا حاسمًا لموسى وهارون ومن آمن بهما ! نعم كان نصرًا بالحجة والبرهان ، تمهيدًا للنصر بالسيف والسنان .

كان برهانًا ساطعًا على الحق الذي جاء به موسى ودليلاً واضحًا على كذب فرعون وباطله ، وقد اهتز لذلك الأمر مُلك فرعون وعرشه وتصدّع الكرسي من تحته - وسنعرف ذلك قريبًا - ومع ذلك فالأمر لم ينته بين موسى وقومه وفرعون وقومه ، لكن المعركة قد اشتد أوارها وزاد عنفوانها . فماذا حدث ؟ وماذا كان موقف فرعون وملئه وموقف موسى وقومه؟

أولاً : نظرة إجمالية إلى موقف كلا الفريقين :

هذا فرعون والملأ من قومه - الكبراء والأمراء : هامان وقارون - ومن على شاكلتهم لم تزدهم الآيات البينات إلا طغيانًا وكفرًا واستكبارًا في الأرض بغير الحق .

قال تعالى : (وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) [الأعراف:

١٢٧]. هذا منطق الطغيان المستبد الذي لا يرى من الحقائق إلا ما أشرب من هواه . وقد طمست قلوبهم . فقلبوا الحقائق والموازين . فصار الحق في عرفهم الفاسد باطلا . وصار الاصلاح فسادا.

أما موسى وقومه . فلم يكن أمامهم إلا الصبر والصلاة ولزوم تقوى الله واليقين فيما عنده سبحانه لمواجهة تلك القوى الغاشمة . وبذا وصاهم موسى . قال تعالى : (قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) [الأعراف : ١٢٨، ١٢٩].

هذه إشراقات النبوة تبدد آثار اليأس التي بدت على ملامح بعض بني إسرائيل وظهرت في كلامهم . وتغرس مكانها برد اليقين . كما تحدد معالم النصر وأسبابه في وضوح . وسيكون لنا عودة مع ذلك - تفصيلا - بعون الله تعالى .

ثانيا : نظرة بشيء من التفصيل على موقف فرعون وقومه :

والآن نعود فنلقي نظرة أكثر تفصيلا على فرعون وقومه . لعلك تذكر معي أخي القارئ الكريم أن من آثار موقف السحرة المبارك تصدع عرش فرعون . واهتزاز ملكه . هذا ما ذكرناه في أول هذا المقال . ونعود هنا لتأكيده . فإن دم هؤلاء الشهداء لا يمكن أن يذهب سدى . وإن أرواحهم الطاهرة التي صعدت تسبح بحمد ربها لا بد أن تلقي بظلالها على فرعون وقومه. فلا يغرنك صولجان القوة الذي يتظاهر به أمام الناس . فإنه مهزوم من الداخل . ولا يغرنك اجتماع الملأ . فإن منهم من يؤمن بموسى ولكنه يكتم إيمانه . ومنهم من أعلن إيمانه صراحة . لقد آمن بموسى أقرب الناس من فرعون : (زوجه، وابن عمه . وخازنه) .

وحتى فرعون نفسه رغم تهديده لبني إسرائيل وتنكيله بمن يستطيع التنكيل به منهم . أقول : على الرغم من ذلك فإنه لا يستطيع أن يمسّ موسى عليه السلام بسوء . ولا يمس أخاه هارون . نعم لا يستطيع أن يخدش لهما ظفرا . ولو استطاع قتلهما لفعل واستراح من وقت مبكر . لكنه لم يستطع ولن يستطيع ذلك . وقصارى ما يملك هو التهديد فقط . انظروا إلى قوله : (ذروني أقتل موسى وليدع ربه) [غافر : ٢٦] يقول : ذروني أقتل موسى . وكأن هناك من يمنعه . فمن الذي يمنعه ؟ إن الذي منع فرعون من قتل موسى وأخيه هو الذي قال لهما من قبل : (لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى) . وهو سبحانه ما زال مع موسى وأخيه يسمع ويرى حتى نصرهم ونجاهم . ولا يزال سبحانه مع كل عبد مؤمن تقي معية حفظ وعناية . وقال بعض المفسرين : إن الذي منع فرعون من قتل موسى هو تأثره بما سمع من مؤمن آل فرعون . ونحن لا ننكر أن فرعون تأثر بما قاله العبد المؤمن الذي كان في مجلسه وقريبا منه قربى صلة وقربى نسب ومنزلة . لكن حفظ الله لموسى وأخيه كان قبل ذلك ومن بعد .

مؤمن آل فرعون :

سنعرض في الأسطر القادمة لقصة العبد الصالح لأنها إحدى النتائج المباشرة لحادث السحرة . ولأنها تطلعنا على جانب هام مما يحدث في قصر فرعون . ولها صلة مباشرة بالتفاصيل التي نريد أن نعرفها عن قوم فرعون بعد حادث السحرة . والأهم من ذلك كله فيها دروس وعبر نحن أحوج ما نكون إليها ؛ لذا لا نعجب حين نرى القرآن الكريم يقصها علينا ويضمنها أحداثا وعبرا هامة . فإلى ذلك:

١- قال تعالى : (وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) [غافر : ٢٦].

هذا فرعون يتحدث في مجلس الوزراء والأعيان بعد أن جمعهم للنظر في أمر موسى وقومه بعد ظهور أمرهم بإسلام السحرة . وخشي فرعون من انتشار دين موسى فأعلن رغبته في قتله . وحجته في ذلك خشية أن يبدل دين أهل مصر من الشرك إلى التوحيد الذي يدعو إليه موسى .

وإن كنت تعجب من ذلك فالأعجب منه

قوله : (أوْ أن يُظهِرَ في الأرْضِ الفَسَادَ) أيْ فساد يكون في انتشار التوحيد وفي إسلام الناس لرب العالمين وتعبيدهم لخالقهم سبحانه وتعالى ؟ إن ذلك هو الإصلاح ولا سبيل للإصلاح غير ذلك ، ولكنه منطق أهل الباطل الذين يقلبون الحقائق ، ويشوهون مسلك أهل الحق بدعايتهم الباطلة في كل زمان ومكان .

٢- (وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ) [غافر : ٢٧] . لما سمع موسى بما قاله فرعون آنفا استعاذ بالله من شر فرعون ومن شر كل متكبر لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، وهذا طريق الأنبياء ومسلكهم في التوكل على الله واللجوء إليه والاستعاذة به من كل شر .

٣- (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) [غافر : ٢٨]

وهنا بدأ الرجل الصالح مؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه بدأ يتكلم لما رأى من واجبه أن يقول كلمة حق لله في وجه سلطان جائر ، فقال : أتقتلون رجلاً أن يقول : ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟ أتقتلون رجلاً كل جريمته - في نظركم - إيمانه بالله ودعوتكم لذلك ، وقد جاء بالبراهين والآيات الدالة على ذلك ، أهذا يعدُّ في نظركم جريمة ، نعم يعدُّ ذلك جريمة في منطق أهل الباطل ، وإلا فلماذا قتل أصحاب الأخدود المؤمنون في اليمن قديما ؟ كل جريمتهم هي الإيمان : (وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) [البروج : ٨].

ولماذا حاولت قريش قتل رسول الله ﷺ ؟ روى البخاري في ((صحيحه)) من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال : قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص : أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون برسول الله ﷺ ؟ قال : بينا رسول الله ﷺ يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه وخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه ، فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي ﷺ ثم قال : أتقتلون رجلا أن يقول : ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟

(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ) قالها مؤمن آل فرعون ، وقالها أبو بكر الصديق ، رغم بعد المسافة الزمنية بينهما : ذلك لأن الحق واحد لا يتجزأ ومصدره واحد ، سبحانه هو الذي أرسل موسى وعيسى ، ومن قبل نوحا وإبراهيم ، ومن بعد محمداً ﷺ خاتم النبيين ، وصلى الله وسلم على جميع إخوانه المرسلين.

(أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ) . ما أبشع ذلك الظلم وما أشنعه أن يقتل رجل بسبب كلمة التوحيد ، وأن يموت شهيداً للحق ، ثم أتقتلونه بعدما رأيتم الآيات الواضحات على صدقه ؟ ما أقسى تلك القلوب وما أظلم تلك النفوس التي لا ترى الحق بعد وضوحه كرابعة النهار .

ثم انتقل العبد الصالح مع قومه نقلة أخرى تظهر فيها حكمة الداعي وفطنته ، فقال لهم : (وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) .

تنزّل العبد الصالح معهم في الخطاب واستخدم الأسلوب العقلي ، فقال : موسى لن يكون إلا واحداً من اثنين : إما صادقا ، أو كاذبا ، فإن كان كاذبا كما تزعمون فهو الذي سيتحمل عاقبة كذبه ، أما إن كان صادقا فستكون الخسارة عليكم ، فلا تقتلوه : لأن قتله سيكون خسارة لكم في جميع الأحوال واتركوه وشأنه ، فلن تخسروا شيئا ، وهذا منطق مقبول لأصحاب العقول السليمة ، لكن هيهات هيهات .

ثم عقّب العبد الصالح بذكر قانون عام يشمل الجميع بما فيهم فرعون وكل ظالم في كل زمان ومكان ، فقال : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) .

وإلى الحلقة القادمة إن شاء الله . والسلام عليكم ورحمة الله .

قصة موسى عليه السلام

الحلقة رقم (١٣)

بقلم الشيخ:
عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله اللطيف الخبير، عالم الغيب والشهادة وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على البشير النذير، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وإخوانه من الأنبياء والمرسلين من لدن آدم إلى يوم الدين.

أما بعد: فيقول سبحانه وتعالى:

١- (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ. وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ. وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ. يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (غافر: ٢٩، ٣٣).

مازلنا في مجلس الحرب الذي عقده فرعون في قصره المنيف على ضفاف نيل مصر؛ لينظر في أمر موسى وهارون وقومهما، بعد أن ظهر أمرهم وقامت حجتهم بإسلام السحرة لله رب العالمين.

رغبة فرعون في قتل موسى!!

وكان قد أعلن عن عزمه على تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم، بل صرَّح فرعون برغبته في قتل موسى قبل ظهور دينه واستعلاء شأنه. وكان قد حضر مجلس فرعون من الوجهاء والكبراء والوزراء والنظَّار والمستشارين ومنهم هامان وقارون، ومنهم كذلك العبد الصالح المؤمن الذي كان يكتم إيمانه، ولكنه تكلم في هذا المجلس حين رأى المؤامرة على موسى، نعم تكلَّم ليعلن كلمة حق في وجه سلطان جائر، تكلم حتى لا يكون ساكتًا عن الحق فيكون كالشيطان الأخرس،

تكلم ليأمر بمعروفٍ وينهى عن منكرٍ، تكلم لينقذ نفسه وقومه من النار، وقد عرضنا لجانب مما دار في ذلك المجلس في مقالنا السابق، واليوم بعون الله نواصل استكمال الحديث واستكمال جوانب القصة. وها هو العبد الصالح الراشد يواصل نصحه لقومه قائلاً: (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءنَا)؟ استخدم لهم لهجةً في الخطاب تشعرهم بأنَّه منهم، يصيبه ما يصيبهم؛ ولذا فهو مشفق عليهم، فقال: (يا قوم...) وقال: (ينصرنا)؛ ليشمل نفسه معهم، ثم حذرهم ألا يغتروا بما هم فيه اليوم من قوة، فالله أشد بأسًا وأشد تنكيلاً، وهم إن أقاموا على معصية الله ومخالفة رسوله فلا يأمنون مكر الله وانتقامه، الذي قد يأتيهم في أي لحظة، فمن الذي ينصرهم من بأس الله إن جاءهم فجأة؟ وهذا كلام يدلُّ على الحكمة والرشد والوعي بأخبار السابقين، وفيه كذلك شفقة ورحمة بالمخاطبين، لكن ماذا كان جواب فرعون؟

(قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ). هذا منطق كل طاغية مستبد يرى النصيحة تدخُّلاً في سلطانه ومشاركة في نفوذه، فهو يرى أن الكلمة كلمته، والمشورة مشورته، والرأي رأيه، ورأيه هو الصواب، ولن يسمح لأحد بالتدخل في شأن الحكم والنظام كائنًا من كان، بهذا نطق فرعون الطاغية المستبد.

وكأنَّه يشير من طرف خفي إلى الرجل المؤمن أن يكفَّ عن نصيحته، وأن يسكت عن كلامه، فقوله ونصحه لن يغيِّر من الأمر شيئًا.

فهل سكت الرجل المؤمن، وهل خاف تهديد فرعون ولهجته الغاشمة؟

لا، بل رأى من واجبه أن يستمر في نصح قومه مستعليًا بالحق الذي يؤمن به، مستهينًا بالباطل في جميع صوره، فأخذ يطرق أسماعهم بأمثلة قريبة من الواقع هم قد سمعوا بها لعل القلوب القاسية تلين، لقد ذكرَّهُم بمصارع المكذبين من الأمم السابقة، فقال: (يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ. مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ).

يقول لهم- مذكرًا-: أسمعتم ما حلّ بالأمم السابقة من عذاب، وما ظلمهم الله عندما دمَّر عليهم؛ لأنهم هم الذين ظلموا أنفسهم عندما أشركوا بالله وعصوا رسله، فكان الجزاء من جنس العمل، وللكافرين أمثالها في كل زمان ومكان، ثم ذكرهم بأن مصير الجميع إلى الله إن لم يحدث الانتقام في الدنيا فهناك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود، وسماه بيوم التناد، أي يوم القيامة، حيث ينادي الناس بعضهم بعضًا من شدّة الهول يحاولون الفرار، لكن أين المفر؟ إلى ربك يومئذ المستقر. ثم يختم هذه النصيحة القوية بلفتةٍ ذكيةٍ، فيقول: (وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)، يا لها من روعة في البيان! وهو يشير من طرف خفي إلى قول فرعون السابق: (مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ)، فيقول العبد الصالح: إن الهدى هدى الله، والضلال كذلك، فليس فرعون هو الذي يهدي إلى سبيل الرشاد، لكن من يهدي الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلا هادي له. ولو كان فرعون من الذين هداهم الله لم يقل ما قال، كل هذه الإشارات والإيحاءات نفهمها من مقولة العبد الصالح مؤمن آل فرعون: (ومَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)، ثم ماذا بعد؟ ماذا كانت نتيجة هذه الموعظة البليغة التي أخذت قلوب القوم قبل أسماعهم؟ لا شك أنها ألقت بظلالها على القوم، ولعلَّ فرعون لاحظ ذلك فاتجه بالحديث وجهة أخرى، وجهة المستهزئ المتهكم، وطلب من هامان وزيره أن يبني له برجًا عاليًا يصعد عليه ليرى إله موسى[1]، وإنه ليظنه كاذبًا، وهذه طريقة المكذبين بالرسل يستهزءون بالحق الذي جاءهم[2]، ويريدون رؤية الله جهارًا نهارًا، وأنى لهم ذلك. وهنا يُعقِّب الله سبحانه وتعالى على موقف فرعون المكذِّب، فيقول الحق تبارك

وتعالى: (وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ) (غافر: ٣٧)، نترك هذا التعقيب القرآني البليغ يعمل مداه في القلوب، ثم ننتقل بسرعة إلى الجولة الأخيرة من نصيحة العبد الصالح والتي قصَّها الله علينا في قوله:

٥- (وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ. يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ. مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ. وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ. تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ. لاَ جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلاَ فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ. فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) (غافر: ٣٨- ٤٤).

هذه الكلمة الأخيرة للعبد الصالح مؤمن آل فرعون ألقاها في وجه الطغيان والفساد والصد عن سبيل الله، ألقاها الرجل في مواجهة فرعون وملئه قوية صريحة مدوية، تخلَّى فيها عن أسلوب التلطف والحذر الذي كان في أول الكلام، وأطلقها صريحة مدوية لا يخاف فيها لومة لائم. إنها قوة الحق وشجاعة الإيمان وثبات اليقين، جعلته يصدع بالحق صريحًا واضحًا، معلنًا للقوم الحقائق الإيمانية التالية:

١- أعلن لهم في صراحة ووضوح أن في اتباعه الهداية إلى سبيل الرشاد؛ لأنه يدعوهم للإيمان بالله وحده واتباع رسله، وهذا هو الرشد وليس الرشاد في اتباع فرعون، إنما فيه الغواية والضلال.

٢- عقد لهم مقارنة بين الدنيا والآخرة، مبينًا فيها حقارة متاع الدنيا إلى جانب الآخرة، مع سرعة زوال الدنيا، ودوام الآخرة.

٣- تقرير عدل الله في مجازاة السيئة بالسيئة، وبيان فضله وإحسانه بمضاعفة ثواب الأعمال الصالحة للمؤمنين، يستوي في ذلك الذكور والإناث.

٤- يستنكر على قومه دعوتهم إياه إلى الشرك، بينما يدعوهم هو إلى توحيد العزيز الغفار، فهو يدعوهم إلى طريق الجنة، وهم يدعونه إلى النار.

٥- يؤكد لهم أن ما يعبدونه من دون الله لا ينفع ولا يضر ولا يملك شيئًا من أمر الدنيا والآخرة، ولم يدع أحدًا منهم لعبادته، بينما الدنيا والآخرة لله رب العالمين الذي إليه مصيرنا جميعًا.

٦- يؤكد لهم سوء عاقبة المسرفين، وأن مصيرهم إلى النار خالدين فيها جزاء تجاوزهم للحد مع الله ومع الناس في الدنيا.

٧- يختم نصيحته ببيان أنهم سيذكرون قوله هذا ساعة لا تنفع الذكرى ولا ينفع الندم، أما هو فلا يخاف تهديدهم ولا يخاف بطشهم؛ لأنه يفوض أمره إلى الله المطلع على أحوال عباده، البصير بهم سبحانه.

وبعد أن ختم العبد الصالح موعظته وتذكرته يأتي التعقيب القرآني شافيًا كافيًا، فيقول: (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ) (غافر: ٤٥). فوقاه الله سيئات ما مكروا به في الدنيا، ووقاه مصيرهم في الآخرة، وحاق بآل فرعون سوء العذاب في الدنيا والآخرة.

وإلى تفصيل ذلك في اللقاء القادم إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله.

---

(١) في هذا إشارة إلى أن موسى عليه السلام كان يقول: إن الله في السماء.

(٢) وعبثًا حاول فرعون بهذا الأسلوب أن يُظهر نفسه في ثوب الباحث عن الحقيقة أمام قومه، وهو نوع من المكر والخداع يستخدمه الطغاة أحيانًا.

وقفات مع القصة في كتاب الله

الحلقة (١٤)

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

بقلم الشيخ: عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد الذي جاء بالصدق مصدقًا لما بين يديه ومهيمنًا عليه.. وبعد:

أخي القارئ الكريم، وقفنا معًا فيما مضى مع فرعون وقومه بعد ما كان من أمر السحرة في ذلك اليوم المشهود، ونستطيع تلخيص ما سبق تفصيله عن موقف فرعون وملئه في النقاط الآتية:

١- الملأ من قوم فرعون يستنفرونه للقضاء على موسى وقومه.

٢- فرعون يهدِّد ويتوعد بني إسرائيل: ﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢٧).

٣- مؤمن آل فرعون يصدع بالحق على مرأى ومسمع من الجميع وبحضور فرعون، لا تأخذه في الله لومة لائم، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويذكِّر بالله واليوم الآخر، ويَعظُ بما حَدَثَ للسابقين، ويدعو إلى التوحيد وترك الشرك، وينصح باتباع منهج الرسول وترك ضلال فرعون، وذلك طريق النجاة في الدنيا والآخرة.

٤- فرعون يصرُّ على الفساد، ويسير في غيِّه وقد زَين له الشيطان سوء عمله.

وبعد هذا الاستعراض السريع لموقف فرعون وملئه، ماذا عن موقف موسى وقومه؟ نستطيع بعون الله استعراض موقف موسى وقومه من خلال المشاهد القرآنية الآتية:

□ **المشهد الأول:** قال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ. قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٢٨، ١٢٩).

نستطيع بعون الله أن نَلْحَظ في هذا المشهد المواقف الآتية:

١- في قوله تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ﴾؛ لأنهم عجزوا عن دفع الأذى عنهم، فقال لهم موسى: اعتمدوا على الله في جلب ما ينفعكم ودفْع ما يضركم، وثقوا بالله، والزموا الصبر على ما يحل بكم، منتظرين فرج الله.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: (وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة عليه، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه الأذى ما يقدر عليه وعند العجز، عليه أن يصبر ويستعين بالله، وينتظر الفرج). اهـ.

٢- إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وليست لفرعون ولا لغيره من الطغاة.

٣- إن العبرة في الأمور بالعواقب، والعاقبة للتقوى وللمتقين في الدنيا والآخرة.

٤- ﴿ قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ (الأعراف: ١٢٩)، أي: نحن في العذاب ماكثون من ﴿ قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا ﴾ إشارة إلى تقتيل أبنائهم حذرًا من ظهور موسى. ﴿ وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ﴾ إشارة إلى استمرار العذاب عليهم بعد بعثة موسى.

وهذا الرد منهم يدل على ما يلي:

- تضجر بني إسرائيل من استمرار العذاب عليهم.
- استبطاء نصر الله.
- سوء الأدب مع الله ومع رسوله، وهذه سمة غالبة وصفة بارزة في بني إسرائيل، إلا قليلاً منهم، وسيأتي تفصيل الكلام عن ذلك في موضعه إن شاء الله.
- وكان المفروض على بني إسرائيل- وهم قد آمنوا بالله ورسوله- أن يكون ردهم غير ذلك، وهم قد عاينوا الآيات الكثيرة الدالة على نصر الله، ويكفي أن الله أخلف حذر فرعون من ظهور موسى بل وربَّاه في بيته، وبعثة

موسى أحد معالم النصر الكبرى، وهم يجدون ذلك مكتوبًا عندهم، لكن هي طبيعة ضعاف الإيمان من بني إسرائيل.

٥- ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾. (ويمضي النبي الكريم على نهجه، يذكرهم بالله، ويعلق رجاءهم به، ويلوح لهم بالأمل في هلاك عدوهم، واستخلافهم في الأرض، مع التحذير من فتنة الاستخلاف).

نعم يمضي موسى عليه السلام حاضًا قومه على الصبر والثبات، ومذكِّرًا لهم بسنن الله في الكون، ويبيّن لهم حكمة الاستخلاف في الأرض؛ ألا وهي الابتلاء كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (هود: ٧)، وكما قال موسى من قبل: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، فليعلم ذلك جيدًا بنو إسرائيل، وليس الأمر كما ظنوا- أنهم أبناء الله وأحباؤه- لا، هذا وَهْم كاذب وخداع من الشيطان لهم، فالناس جميعهم لآدم وآدم من تراب، وأكرم الناس عند الله أتقاهم لله.

□ **ثانيا المشهد الثاني**: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ. فَقَالُواْ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: ٨٤- ٨٧).

نحن الآن أمام مشهد آخر يختلف في لهجة الخطاب ويختلف في الاستجابة، فنبرة الخطاب من موسى عالية تدعو بني إسرائيل لصدق التوكل على الله في مواجهة اشتداد أذى فرعون وملئه، والاستجابة اليوم كانت من الطائفة الأقوى إيمانًا في بني إسرائيل، وسكت أو تلاشى مؤقتًا صوت تلك الطائفة التي أظهرت تململها وضجرها في المشهد السابق.

ولنا مع هذا المشهد الجديد الوقفات التالية:

١- يخاطب موسى قومه بمقتضى الإيمان الذي آمنوا به أن يَصْدُقوا في التوكل على الله إن كانوا صادقين في إسلام قلوبهم ووجوههم إلى الله.

٢- استجاب المخاطَبون أو تكلَّم الصادقون منهم وأعلنوا توكلهم على الله.

٣- أردفوا توكلهم بالدعاء: ﴿رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، وهذه دعوة إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه من قبل، قالها القوم هنا سألوا ربهم ألا يسلط عليهم الأعداء فيفتنوهم عن دينهم؛ ولذلك أتبعوا دعاءهم هذا بدعاء آخر فقالوا: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

٤- أوحى الله إلى موسى أن يستعين وقومه بالصلاة، فهي من أهم أسباب النصر؛ لذا عقب سبحانه بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾. قال ابن كثير رحمه الله نقلاً عن الثوري وعكرمة عن ابن عباس (أمروا أن يتخذوها مساجد)، ونقل هذا القول عن كثير من التابعين. ثم قال رحمه الله: (وكان هذا لما اشتد بهم البلاء الصلاة، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾، وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى)(١). اهـ.

والتعقيب بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يحمل في طياته أملاً قريبًا بنصر الله، يتحقق للمؤمنين إن صدقوا في إيمانهم لله وصدقوا في توكلهم عليه وصدقوا في متابعة الرسول وصدقوا في الأخذ بأسباب النصر التي يستطيعونها.

ونختم هذا اللقاء ببيان أسباب النصر التي وردت في المشهدين السابقين فيما يلي:

- اللجوء إلى الله والاستعانة به مع بذل ما يمكن من أسباب.
- الصبر والثبات على الحق ومصابرة الأعداء.
- الثقة في الله المهيمن على الكون كلِّه أرضه وسمائه وما بين ذلك.
- تقوى الله عز وجل في السرِّ والعلن.
- صدق التوكل على الله سبحانه وتعالى.
- المحافظة على إقامة الصلاة والمداومة على ذكر الله.
- الضراعة إلى الله بالدعاء وطلب العون منه وحده سبحانه.

ونستطيع أن نستخلص الدروس والفوائد الآتية:

١- سنن الله في الكون ثابتة يجريها على خلقه.

٢- الخلق كلهم عبيد لله، وليس بين الله وبين أحد من خلقه نسبًا.

٣- يستخلف الله الناس جيلاً بعد جيل في الأرض للابتلاء والاختبار.

٤- قد يعلو الباطل حينًا، لكن العاقبة في سنن الله للمتقين، فليفقه ذلك الدعاة إلى الله وحملة الحق في كل زمان ومكان.

٥- من طبيعة اليهود الجحود والنكران وسوء الأدب مع الله ورسله إلا قليلاً منهم.

٦- على المسلم الصادق أن يبذل ما يستطيعُ من أسباب مادية ثم يصدق في توكله على الله، وقد فعل ذلك خاتم النبيين محمد ﷺ والذين آمنوا معه في بدر وفي غيرها من المشاهد، فنصرهم الله على قلّة عددهم وضعف قوتهم لِمَا علم من صدق توكلهم، وحسبنا هذا القدر في هذا اللقاء، وإلى لقاء قادم نستودعكم الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الهوامش:

(١) حديث حسن، رواه أحمد، وأبو داود عن حذيفة رضي الله عنه.

وقفات مع القصة في كتاب الله

قصة موسى عليه السلام

الحلقة (١٥)

﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾

بقلم الشيخ: عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير، والصلاة والسلام على محمد البشير النذير، وعلى آله وأصحابه وذريته وأهل بيته وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين من لدن آدم إلى خاتم النبيين الذي ختم الله به النبوات والرسالات إلى يوم الدين... أما بعد:

فيقول ربنا تبارك وتعالى:﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ. قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٨، ٨٩].

رأينا في المقالات السابقة كيف أوصى موسى قومه بالصبر والثبات والاستعانة والتوكل على الله، والرجاء في رحمته ولزوم طاعته وتقواه سبحانه وتعالى، فإنه الذي يملك مقاليد السماوات والأرض، وأزمَّة الأمور بيده سبحانه، وكان موسى عليه السلام قد أوصى قومه بذلك في مواجهة عَنَت فرعون وملئه وتهديده وتعذيبه وتنكيله ببني إسرائيل، كما جاء الأمر من الله لموسى ومن معه بالاستعانة وبالصبر والصلاة والمداومة على ذكر الله، ثم رأينا البُشرى التي ساقها الله على لسان موسى عليه السلام لمن تمسك بحبل الله واعتصم به في قوله تعالى:﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فالبشرى هنا على مسمى الإيمان ووصف الإيمان وليست لأشخاص معينين ولا لأجناس بعينها، فالبشرى للمؤمنين الصادقين، للمتقين من أي جنس ولون ماداموا كذلك، لكن يبدو أن الأمر اشتد على بني إسرائيل واشتد الأذى عليهم من فرعون وملئه واسْتَعَرت الفتنة، مما دفع موسى عليه السلام أن يضرع إلى الله عز وجل بالدعاء السابق الذي قدَّم موسى فيه بمقدمة ثم دعا بدعوته.

□ **المقدمة:**

قال موسى ما تفسيره: يا رب إن فرعون يستخدم نعمتك التي أنعمت عليه بها وعلى ملئه من زينة وأموال يستخدمونها في معصيتك ويتكبرون بها على عبادك المؤمنين وينفقونها في الصدِّ عن سبيلك، وفتنة المؤمنين عن دينهم وكأنها تمهيد وتعليل.

□ **الطلب:**

طلبَ موسى عليه السلام من الله أن يُهلك أموال فرعون وملئه، وأن يصرف قلوبهم عن الحق حتى يعاينوا العذاب الأليم، وعندها لا ينفعهم الإيمان.

وحول هذا الدعاء الذي دعا به موسى عليه السلام إليك أخي القارئ بعض أقوال أهل العلم:

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبًا لله ولدينه على فرعون وملئه الذي تبين له أنهم لا خير فيهم، ولا

يجيء منهم شيء، كما دعا نوح على قومه فقال:﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا. إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧]». اهـ.

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي رحمه الله: «قال موسى ذلك؛ غضبًا عليهم، حيث تجرأوا على محارم الله، وأفسدوا عباد الله، وصدوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه، بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا، بإغلاق باب الإيمان عليهم». اهـ.

استجابة الدعاء

استجاب الله دعاء موسى عليه السلام وأخيه هارون؛ لأن موسى كان يدعو وهارون يؤمن على دعائه، والمُؤَمِّن شريك للداعي، ولذلك جاء الضمير بالمثنى ليشملهما معًا، فقال تعالى:﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾.

و﴿قَدْ﴾ عندما تدخل على الماضي تفيد التحقيق، والقائل هو الله سبحانه، وقوله حق لا يحتاج إلى أدوات توكيد، ولكنها أساليب القرآن العربي المبين، لكن كيف تحققت دعوة موسى وأخيه هارون؟

أولاً: قال الله عز وجل:﴿فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾. قال ابن كثير رحمه الله: أي كما أجيبت دعوتكما فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون.

ونفهم من ذلك أن الاستقامة على دين الله ومخالفة أصحاب الجحيم من أهم أسباب النصر، ويكفي أن الله هو الذي أمر موسى وأخاه بذلك، والأمر لهما خاصة، ولبني إسرائيل بصفة عامة، استقامة على دين الله، تقابلها مفارقة لأهل الضلال والباطل، أهل الجهل بدين الله، الذين لا يعلمون العلم الصحيح عن الله واليوم الآخر، إنما علمهم عن هذه الحياة الفانية فحسب،﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

ولا يستقيم أمر الدين إلا بمخالفة أصحاب الجحيم؛ لذا أمرنا بمخالفتهم قولاً وعملاً وسمتًا واعتقادًا، وهذا أمر ظاهر من الدين، نسأل الله لنا ولكم النجاة من مضلات الفتن، ما ظهر منها وما بطن، وهذا شرط وسبب من أسباب الاستجابة(١).

ثانيًا: كيف استجاب الله دعاء موسى وهارون؟ هل حلَّ العذاب بفرعون وملئه فورًا أم تأخَّر قليلاً؟ ولماذا؟

نقل ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» عن ابن جريج: يقول: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة. ونَقَل أيضًا عن محمد بن كعب وعلي ابن الحسين: أربعين يومًا. ولم يعلِّق ابن كثير على هذه الأقوال. وعلى أي حال إن صحت هذه الأقوال مع اختلاف النسبة بينها(٢)، فإنما يَقْصد أصحابها الفرق بين دعاء موسى عليه السلام وبين هلاك فرعون وجنوده بالغرق، والذي أشارت إليه الآية التالية مباشرة:﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾، لكن من خلال استعراض الآيات القرآنية في القصة الكريمة، نرى نوعًا من العذاب وقع لفرعون وقومه قبل الغرق، وهذا الذي وقع فورًا، وسنعرض له الآن بعون الله.

فهناك نوعان من الهلاك حدثا لفرعون وقومه:

الأول: هلاك في الأموال والزروع والضروع والثمار.

والثاني: هلاك الأنفس والعتاد الحربي.

فالنوع الأول هو الذي جاء في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ. فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ. وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ. فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ. وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠- ١٣٥].

ونستطيع أن نستخلص من الآيات السابقة الحقائق التالية:

١- كانت إشارة التحذير الأولى لفرعون وقومه إصابتهم بالسنين ونقص من الثمرات، و(السنين) يطلق في اللغة على سِني الجدب والشدة والقحط، ونقص الثمرات معلوم، وهو نقص عام أصابهم في جميع أنواع الثمار، تنوعت أسبابه.

٢- قد أشارت الآية الكريمة إلى الحكمة من

إصابتهم بذلك أولاً، فقال تعالى:﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾، وهذه سنّة الله في خلقه ماضية إلى يوم القيامة. قال تعالى:﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢].

٣- فهل تذكّر فرعون وقومه وهل عادوا إلى الله؟ لا، لم يحدث ذلك، بل قست قلوبهم، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون،﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ...﴾ [الأعراف: ٩٥] من تلبيس إبليس عليهم وعلى أمثالهم أن أنساهم قدْرة الله المسيطرة على كل شيء، ونسبوا ما حدث لهم على أنه أمر طبيعي، قد مسَّ آباءهم كما قد مسَّهم، هذه أمور عادية تحدث في كل زمان ومكان، ونسبوها إلى الطبيعة، ولم ينسبوها لله الواحد الديان، وهذا من عمى البصيرة، يصيب كلَّ من طمس الله على قلبه في كل زمان ومكان.

٤- تمادى قوم فرعون في الضلال والبهتان، ونسبوا كل حسنة تصيبهم إلى أنفسهم، ولم ينسبوها إلى الله؛ كما نسبوا كلَّ سيئة تصيبهم إلى موسى وقومه.

٥- لم يتذكر فرعون وقومه ولم ينتفعوا بما أصابهم الله به من ابتلاء، ونسبوا الحسنة لأنفسهم، والنقص والسوء لأهل الدين والاستقامة،﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾.

٦- عندئذ تتابعت عليهم المصائب واحدة تلو الأخرى؛ فأصابهم الله بالطوفان الذي أغرق بيوتهم وبساتينهم وأهلك الحرث والنَّسل، ثم سلط الله عليهم الجراد يلتهم محاصيلهم حتى الأخشاب كان يقرضها، ثم سلط عليهم القمَّل؛ وهي الحشرة المعروفة تؤرق عليهم نومهم ليل نهار، ثم الضفادع تظهر في كل شيء في حياتهم وتزعجهم صباح مساء، وأخيرًا الدَّم، فكانت المياه تتحول إلى دم، واللبن يحلبونه من الضرع فيصير دمًا، وهكذا سلَّط الله عليهم بعضًا من جنوده، فلله جنود السماوات والأرض،﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

٧- في أول الأمر قال فرعون وقومه لموسى:﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، ومع تتابع الآيات وشدتها عليهم،﴿قَالُواْ يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، كان فرعون وقومه يقولون لموسى ذلك كلما أصابتهم آية من آيات ربك وسلط الله عليهم جندًا من جنوده، فهل صَدَقوا ووفوا؟!

٨- لم يصدق فرعون وقومه في عهودهم مع موسى، وكلَّما كشف الله عنهم الضّر عادوا لما كانوا عليه من كفر وفساد وعناد،﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾، ينكثون: يخلفون الوعد، كلما كشف الله عنهم العذاب إلى فترة عادوا ينقضون عهدهم.

وأرى الآن أننا قد أجبنا عما طرحناه من تساؤلات، وبهذا نكون قد وصلنا مع فرعون لبدء نهايته هو وجنوده المكذبون؛ ذلك لأنهم لما لم يتعظُوا بالآيات المتتالية التي تنخلع لها القلوب، وكانت قلوبهم أقسى من الحجارة واستمروا في كفرهم وعنادهم، فكانت النهاية المحتومة في قوله تعالى:﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

أما كيف حدث ذلك؟ ففي اللقاء التالي إن شاء الله، والسلام عليكم ورحمة الله.

الهوامش :

(١) ويضاف إلى أسباب النصر الذي سبق بيانه في مقال سابق، ولعله يشملها جميعًا؛ لأن الاستقامة على الدين شاملة.

(٢) النسبة الزمنية أربعون سنة، وأربعون يومًا.

الحلقة (١٦)

هلاك فرعون وجنوده

بقلم الشيخ: عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله القائل في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ. إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ. وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ. ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ. فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٢- ١٦]، والصلاة والسلام على النبي المصطفى والرسول المجتبى الذي لا ينطق عن الهوى، ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

وبعد أخي القارئ الكريم، رأينا في اللقاء السابق كيف أرسل الله إلى فرعون وقومه بعضًا من جنده لعلهم يتذكرون، وكان من الآيات المفصلات: السنون، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، وهم في كل مرّة يطلبون من موسى أن يسأل ربّه كشف ما هم فيه من كرب، فيكشف الله الكرب عنهم فيعودون لما هم عليه من كفر وعناد، ولم تؤثر في قلوبهم تلك الآيات، الواحدة تلو الأخرى، وكل آية فيها عبرتان؛ عبرة في نزولها، وعبرة في كَشْفِها، فالذي أتى بها هو الله سبحانه، والذي كشفها هو الله سبحانه، والداعي هو رسوله موسى عليه السلام، آيات باهرات لا تدع مجالاً للشك عند أولي النهى، ومن قبلها آية العصا وآية اليد، لكنه الجحود والظلم والعلو في الأرض بغير الحق والإفساد فيها والرغبة في السيطرة المطلقة دون حدود أو قيود، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ. وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

هذه دعوة من الله إلى رسوله محمد ﷺ وإلينا جميعًا أن ننظر عاقبة المفسدين الذين غلبتهم شهواتهم على الحق بعد ظهوره وجلائه، وبعد أن أمهلهم الله وأنذرهم بالآيات المتتابعات، والآن جاء وقت النظر في هلاك فرعون وجنوده، وقد جاء ذلك في كتاب الله في سور شتى مجملاً ومفصلاً.

أولاً: فمن المجمل ما جاء في الآيات التالية:

١- ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى. إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦].

٢- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ. وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٣، ٢٤].

٣- ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥، ٥٦].

٤- ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لاَ تَخَافُ دَرَكًا وَلاَ تَخْشَى. فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ. وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٧- ٧٩].

٥- ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣].

٦- ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

ثانيًا: نموذج من العرض المفصل:

ونترك هذه الآيات بإيقاعها السريع الذي يدخل القلب مباشرة فَيُوحي بسرعة زوال الباطل- مهما امتد أجله- أمام سلطان اللّه القاهر الذي له جنود السماوات والأرض؛ لنقف مع آيات سورة «الشعراء» بشيء من التفصيل في هذا الموقف، فنشاهد ما يأتي:

١- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢].

جاء الأمر من اللّه إلى موسى بالخروج ببني إسرائيل من مصر إلى أرض الشام، مرورًا بسيناء، ويكون الخروج ليلاً مع الحذر؛ لأن فرعون لن يتركهم يخرجون، فاحتال بنو إسرائيل للأمر وتظاهروا بالاستعداد للاحتفال بعيدهم واستعاروا من قوم فرعون ما استطاعوا من الحلي، وفي الليلة الموعودة، ومع ظهور القمر خرج موسى يقود بني إسرائيل.

٢- ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ. إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ. وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ. وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٣- ٥٦].

عَلِمَ فرعون بخروج بني إسرائيل سرًا، فاشتد غضبه وازداد حنقه عليهم، وأعلن حالة الاستنفار القصوى، وأرسل من يحشد له الجند من جميع أقاليم مملكته، وأعلن عن عزمه في استئصال شافة بني إسرائيل وإبادة خضرائهم حتى لا يبقى منهم أحد، ومن يبق يقع تحت نير العبودية، كما كان وأشد. على هذا صمّم فرعون وحشر قواته وخيله ورَجِلِهِ وخرج في إثر موسى وقومه.

٣- ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ. فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ. قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٠-٦٢].

حشد فرعون جنوده وخرج في جيوشه الجرارة التي لا قِبَل لبني إسرائيل بها، ولم يمض وقت طويل حتى أدرك فرعون بني إسرائيل- أو كاد- وعند الشروق كان فرعون وجنوده على مد البصر من موسى وقومه وكلا الفريقين رأى الآخر. عندها قال أصحاب موسى لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾!! هذا بالمقاييس البشرية المادية واقع، فالمسافة قريبة والطريق انتهى ببني إسرائيل إلى ساحل البحر الأحمر، وفرعون وجنوده من خلفهم والبحر من أمامهم، فأين المفر؟ إنه الموت المحقق على أيدي فرعون وجنوده أو الغرق في البحر، هكذا كانت الصورة، واشتد الموقف.

وهنا هتف صوت الحق من قلب موسى وعلى لسانه: ﴿كَلَّا﴾، كلمة ردع وزجر، لن تُدرَك، لماذا يا نبي اللّه؟ ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، هكذا نطق موسى عليه السلام بيقين النبوة: أن اللّه لن يتركه ولن يتخلى عنه، فهو الذي أمره أن يتجه هذا الاتجاه ويمشي في هذا الطريق، وقد فعل موسى ما أمره اللّه به، وهذا ما يملك، فسيكفيه اللّه فيما لا يملك؛ لأن اللّه معه، معية حفظ ورعاية، يسمع ويرى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾، ما أشبه هذه الكلمة بتلك التي قالها النبي الخاتم محمد ﷺ لصاحبه أبي بكر إذ هما في الغار: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، إنها كلمات تعلوها إشراقات النبوة، ولأن الذي أرسل الأنبياء جميعًا هو اللّه الواحد، فمصدر الإلهام واحد، والمعية هي هي، والولاية والنصر كذلك.

٤- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وبعد أن ضاق الأمر على بني إسرائيل واشتد بهم الحزن وقتلهم الخوف من إدراك فرعون وجنوده لهم؛ جاء الفرج القريب، جاء ما كان يتوقعه موسى عليه السلام ويوقن به، جاء الأمر من الله والتوجيه بضرب البحر بالعصا فيصير فيه طريق آمن بين جبلين من الماء المتجمد، نعم تشق العصا في البحر طريقًا يبسًا يعبر فيه موسى وقومه لا يخافون دركًا من فرعون ولا يخافون الغرق؛ لأن الذي أمر البحر أن ينشق هو اللّه الذي إذا أراد شيئًا أن يقول له: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، هو الذي جعل الماء نجاة لموسى ومن معه، وغرقًا لفرعون ومن معه، سبحانه وتعالى هو الذي أمر النار أن تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم، وأمر الماء أن يتجمد لموسى فيمشي عليه، وهو الذي أمره بإغراق قوم نوح، وقوم فرعون، فاللّه سبحانه وتعالى ذو الحكمة البالغة والقدرة الغالبة القاهرة؛ وهو الذي جعل الماء ينبع من تحت قدم إسماعيل، ويخرج من الحجارة بضربة من عصا موسى، وكذلك جعله ينبع من بين أصابع النبي محمد ﷺ، وهو الذي أمر البحر أن يتجمد هنا ويصير على الجانبين كالجبلين والطريق الصالح للمرور بينهما، يا لها من آية تهتز لها القلوب المؤمنة، وخصوصًا عندما تعاينها الأبصار، وتلك معجزة أخرى عظيمة تنضم إلى سلسلة المعجزات التي أجراها اللّه على يد نبيّه

موسى عليه السلام، فهل ارعوى فرعون ومن معه أم أضلهم الكبر والهوى عن رؤية تلك الآية الباهرة كما ضلُّوا من قبل؟

٥- ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ. وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٤-٦٦].

ظلَّ فرعون سادرًا في غيِّه، ولم ينزجر ولم يتحرك قلبه بما رأى، وذلك عمى البصيرة- نعوذ بالله من ذلك- ونزل خلف موسى ومن معه يريد اللحاق به، لكن هيهات هيهات، لم يمكنه الله من ذلك وأطبق عليه جانبي البحر، فغرق هو وجنوده جميعًا، ونجى الله موسى ومن معه، لكن آيات سورة الشعراء هنا أوردت هذا المشهد بإيجاز، فإذا أردنا شيئًا من التفصيل، فلنذهب إلى سورة «يونس».

٦- ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠- ٩٢].

ويضيف المشهد القرآني هنا تفاصيل لم ترد في سورة الشعراء نلحظها فيما يلي:

١- قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا﴾ إشارة إلى أن الله هو الذي هداهم إلى هذا الطريق، وهو الذي يحفظه «سبحانه وتعالى» حتى خرجوا سالمين.

٢- ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾، لا هداية وإيمانًا، ولا ردًا لحق مسلوب، ولكن: ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾، تجاوزًا للحد وطغيانًا، ظلمًا واعتداء.

٣- ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ...﴾(١)، وهو إيمان لا ينفع صاحبه؛ لأنه آمن عند معاينة العذاب بعد فوات الأوان، آمن بعد رؤية الآخرة، فلم يكن إيمانه بالغيب، بل بالشهادة، وفي ذلك وأمثاله يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

فهذه سنة الله في خلقه، أن تقبل التوبة في حال الإمكان، وليس عند معاينة العذاب؛ لذا وضع العلماء شرطًا للتوبة استنباطًا من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وهذا الشرط هو أن تكون التوبة في الزمن الذي تقبل فيه وهو وقت الإمكان لا عند الغرغرة بالموت، ولا عند معاينة آية العذاب، ولا عند شروق الشمس من مغربها، ولما كانت توبة فرعون في غير وقتها الصحيح؛ لم يقبلها الله منه وردها عليه.

٤- ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩١، ٩٢].

أراد الله أن يكون في موت فرعون عبرة لغيره، فلم يترك جسده يأكله السمك مثل غيره من الجنود، بل لفظه البحر جثة هامدة لا حراك فيها، وكان غضب الله عليه جعل البحر والسمك يلفظه ويصير على الطريق عبرة لكل من يأتي بعده مثلاً، ذليلاً لكل متكبر، لا بد وأن يذله في الدنيا والآخرة، فهل من معتبر؟ وصدق الله حين ختم هذا المشهد بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وبغرق فرعون وجنوده يكون قد انتهى القسم الأول من قصة موسى، وهو قصة الصراع بين موسى وفرعون، تبدأ الصفحة التالية بقصة الصراع بين موسى وقومه من بني إسرائيل، وإنه حقًا لصراع يذكرنا بقول القائل:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضةً
على النفس من وقع الحسام المهنّد

وإلى صفحات هذا الصراع الطويل المرير الذي يظهر خبث نوايا بني إسرائيل وسوء نيتهم وفساد طويتهم(٢)، نلتقي بعون الله سبحانه وتعالى، لكن لا بد لنا من وقفه مع الدروس والعبر المستفادة من هلاك فرعون، فإلى أن نلتقي، والسلام عليكم ورحمة الله.

الهوامش :

(١) يرى بعض المفسرين أن توبة فرعون لم تكن خالصة، وكان فيها دخن من كبر؛ لأنه لم يقل: آمنت بالله، ولكن قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾، والله أعلى وأعلم.

(٢) هذا إلا من رحم الله، وقليل ما هم.

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾

قصة موسى عليه السلام

الحلقة رقم (١٧)

بقلم:
عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي نصر رسله والذين آمنوا معهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وأهلك الكفرة الطغاة البغاة ومن شايعهم، فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين وله الكبرياء في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم.. وبعد:

فقد حان وقت الوقوف مع العبر والفوائد المستفادة من مهلك فرعون وجنده، وإذا كان الاعتبار بمصارع المكذبين هدفًا عامًا من أهداف القصة القرآنية بصفة عامة؛ إلا أنه هنا يأخذ لونًا متميزًا، لفت الله سبحانه وتعالى أنظارنا إليه في قوله تعالى: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [يونس: ٩٢]، ثم حذّر من الغفلة عن آيات الله، فختم الآية بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٢]، والآية هنا بمعنى العلامة الدالة على قدرة الله وسلطانه المهيمن، وفيها عظة وعبرة لمن يعتبر، فهذا فرعون الذي طغى وبغى واستكبر، وقال لقومه: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾، وقال لهم: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾، هذا الظالم الجبار يأمر اللَّهُ البحر فيغرقه هو وجنده، ثم يأمر الله البحر أن يلفظ جسد فرعون من بين الغرقى على الساحل جثة هامدة لا حراك فيها، ولا قدرة لها على شيء، فأين ذهب سلطان فرعون؟ وأين جنده وقوته وعتاده؟ أين... أين؟ ذهب كل ذلك، وها هو جسد فرعون ملقى على الطريق نهبًا لكل وارد مجردًا من كل شيء حتى يكون آية وعبرة لمن يراه ولمن سيأتي بعده على سُدَّة الحكم؛ ليعلم أنها لو دامت لغيره ما وصلت إليه، عبرة لكل من تسوّل له نفسه محادة الله ورسوله، وليعلم الناس إلى قيام الساعة شؤم الظلم على صاحبه وعلى مَن شايعه وعاونه، وإليك أخي القارئ ما يسّره الله لنا من الفوائد والعبر

فيما يلي:

أولاً: تحقيق وعد الله لعباده المؤمنين:

لقد تحقق بهلاك فرعون وعد الله بني إسرائيل الذي وعدهم إياه في قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]، وكان هذا الوعد مصاحبًا لميلاد موسى عليه السلام، وقد تحقق بهلاك فرعون، فقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، فانظر رحمني الله وإياك كم من الزمن بين: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ وبين: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، فنثق في وعد الله مهما طال الأمد ولا نستعجل النتائج، ولننظر مرة أخرى كم مرَّ من أحداث لنعلم أن الله إذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه، وأن لنصر الله أسبابًا نملكها وأخرى لا نملكها، فإذا قام المؤمنون بما يستطيعون عذرهم الله فيما لا يملكون، وأن المؤمنين قريبون من نصر الله بقدر صدقهم مع الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، فجعل الله نصر دينه في الأرض شرطًا لنصره للمسلمين، وهم على وعد بالنصر على قدر عملهم بهذه الأسباب، ويستحسن هنا أن نورد أسباب النصر كما جاءت في القصة المباركة مختصرة:

١- اللجوء إلى الله والاستعانة به مع بذل ما يمكن من أسباب.

٢- الصبر والثبات على الحق ومصابرة الأعداء.

٣- الثقة التامة في نصر الله وفي سلطانه المهيمن على الكون كلِّه أرضه وسمائه، وما بين ذلك.

٤- تقوى الله في السر والعلن، وصدق التوكل عليه سبحانه وتعالى.

٥- إقامة الصلاة والمداومة على ذكر الله.

٦- التضرع إلى الله بالدعاء وطلب العون منه وحده لا شريك له.

٧- الاستقامة التامة على الدين ومخالفة المشركين.

٨- مفاصلة أهل الباطل في منهجهم وسلوكهم وعدم متابعتهم في شيء من ذلك، وصبغ الفرد المسلم والمجتمع المسلم بصبغة الإسلام التي هي صبغة الله، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

ثانيًا: إذا صدق المؤمنون في إعداد ما يملكون من أسباب عذرهم الله فيما لا يملكون من أسباب وكفاهم مئونتها.

ثالثًا: كما أن للنصر أسبابًا، فإن للهلاك أسبابًا، فما هي؟

١- الطغيان. قال تعالى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى(١)﴾ [طه: ٢٤]، بهذه الحيثيات توجَّه الأمر الإلهي إلى موسى عليه السلام: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾، وكلمة ﴿طَغَى﴾ تشمل جميع أنواع الفساد الذي وقع فيه فرعون، ومنه:

أ- قوله لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وقوله أيضًا لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وذلك من تكذيبه وعصيانه وكبره وبهتانه، وإلا فإنه كان يعلم في قرارة نفسه أنه ليس كذلك ولم يكن فرعون يدعي الألوهية والربوبية بمعنى أنه خالق الكون ومدبره، أو أن له سلطانًا على الأسباب الكونية، لم يكن فرعون يعتقد ذلك، ولم يكن أهل مصر يتقرَّبون إليه بالشعائر التعبدية، والدليل على ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن فرعون سأل موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى. قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

فأجاب موسى عليه السلام عن سؤال فرعون بأن ربَّه ورب السماوات والأرض ورب العالمين هو الذي خلق كل شيء وأعطاه هدايته، فلم يتكلم فرعون ولم يدَّع لنفسه أنه يخلق أو يهدي، بل أقر موسى على قوله.

الوجه الثاني: أن فرعون نفسه كانت له آلهة وكذلك أهل مصر(٢)، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ

وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ...﴾ [الأعراف: ١٢٧]، أي: يذرك ويذر عبادة آلهتك.

وقال صاحب «فتح القدير»: (قيل: كان له أصنام يعبدها وقومه تقربًا، وقيل: كان يعبد الشمس). اهـ.

وقال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السر، وقيل غير ذلك. المهم أن ادعاء فرعون الألوهية والربوبية كان من باب قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، فالقول قوله والأمر أمره، يفعل بشعبه ما يشاء ويحكمهم بما يريد: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي....﴾ [الزخرف: ٥١].

ب- ومن طغيان فرعون: علوّه في الأرض بغير الحق وإفساده فيها. قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

ج- معصية الله ورسوله، واستمراره على الذنوب بغير توبة. قال ابن القيم رحمه الله: (فمما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي، تضر ولا بد، وأن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان، على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل في الدنيا والآخرة شرٌّ وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي؟ وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء وطرده ولعنه؟ وما الذي أغرق أهل الأرض كلَّهم حتى علا الماء فوق رءوس الجبال؟ وما الذي أهلك القرون من بعد نوح ودمَّرها تدميرًا؟ وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقل أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق، وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله؟). اهـ مختصرًا من «الداء والدواء».

رابعًا: طمأنة الرسول ﷺ والذين آمنوا معه وتعزيتهم عما يلاقونه من أذى قريش.

خامسًا: إثبات حقيقة هامة وترسيخها في القلوب والعقول، وهي: أن الله ينصر دعوته والعاملين لها ولو كانوا مجردين من القوة المادية، ويخذل أعداء دينه وأعداء المؤمنين ولو ملكوا الأرض ومن عليها.

سادسًا: الطير والحشرات والريح والماء والنار والجدب من جنود الله، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

سابعًا: من شروط التوبة أن تكون في وقت الإمكان، فالإيمان عند معاينة العذاب الذي هو من آيات الله لا ينفع صاحبه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وكما جاء في الحديث الحسن الذي رواه الترمذي عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل يقبل توبة العبد ما لم يغرغر». أي: ما لم تبلغ روحه حلقومه.

ثامنًا: على المسلمين مهما بلغ بهم الضعف ألا ييأسوا من روح الله، وعليهم السعي فيما يملكون والعمل على الارتقاء إلى معالي الأمور، أما إذا استكانوا للذل والقهر فلن يقوم لهم أمر دينهم ولا دنياهم.

تاسعًا: الدلالة على صدق رسالة محمد ﷺ؛ إذ أخبر بهذه القصة وغيرها خبرًا مفصلاً، وهو لم يحضر في شيء من ذلك ولا درس عنها شيئًا قبل هذا القرآن، ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥].

عاشرًا: بركة العدل في الأرض وطاعة الله ورسله، وشؤم الظلم ومعصية الله ورسله على الحاكم والمحكوم.

ونكتفي بهذا القدر، وأسأل الله أن ينفعني وإياكم به، وألا يجعلنا من الغافلين عن آياته الشرعية أو الكونية، والحمد لله رب العالمين، وإلى لقاء قريب مع القسم الثاني من هذه القصة المباركة والسلام عليكم ورحمة الله.

الهوامش:

(١) «طغى» كلمة جامعة، فهي تدلُّ على تجاوز الحدِّ في التعامل مع الله ومع الناس.

(٢) والثابت تاريخيًا كذلك تعدد الآلهة عند القدماء المصريين.

○○○

أمريكا تكشف عن وجهها القبيح.. وتعلن الحرب على الطبيعة!!

بقلم: عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون. وأشهد ألا إله إلا الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير... وبعد:

فقد نشرت جريدة «الخليج» في عددها الصادر بتاريخ ١٤٢٢/١١/٧هـ الموافق ٢٠٠١/١٢/٢٢م نقلاً عن وكالات الأنباء البيان التالي:

«أعلن الناطق باسم وزير الخارجية الأمريكية (كولن باول) ريتشارد باوتشر: إننا ندين تخلف الثلج عن موسم الأعياد، راجيًا الطبيعة الأم أن تعالج هذه المسألة». وجاء أيضًا في البيان قوله: «لا يمكن لشيء أن يبرر إفساد هذا الحدث الهائل، إننا ندعو الطبيعة إلى القيام بمبادرة فورية». وأكد باوتشر في حفل أقامه للصحافيين بمناسبة حلول نهاية السنة: «أنَّ عدم تساقط الثلوج في العاصمة الأمريكية هو من العوامل المسبِّبة للمشكلات التي تعصف بالعالم». وقد قال الناطق أيضًا: «إننا نعتبر استمرار الطبيعة في رفض القيام بواجباتها حيال الدول المتحضرة عملاً استفزازيًا وغير إيجابي، لذلك ندعو الطبيعة إلى اتخاذ جميع الإجراءات الضرورية بغية تساقط كمية مناسبة وذات مصداقية من الثلوج».

هذا هو نصّ البيان الأمريكي كما جاء على لسان المتحدث باسم وزير الخارجية كما نشرته جريدة الخليج نقلاً عن وكالات الأنباء، وهو بيان صادر بصفة رسمية يمثل رأي الدولة واتجاهها العام، وليس مجرد ترهات شخص ثمل قال ما قال تحت وطأة السُّكْر أو الجنون، وإن هذا الكلام لصدمة لكل ذي عقل سليم، فإن رائحة الكفر والإلحاد تفوح منه، وقد كشفت فيه العلمانية عن وجهها القبيح بكل وضوح، ألا وهو الكفر بجميع الأديان السماوية والإلحاد الواضح في أسماء

وصفات رب البرية. فقد أطلعنا «ريتشارد باوتشر» بوضوح على هذا الوجه الخفي والذي تحاول العلمانية إخفاءه عن كثير من الشعوب سياسة ودهاءً لتحقيق مكاسب مادية، لكن في ذلك اليوم أعمى الصلَف والغرورُ عقل المتحدث المذكور، فكشف ما كان مستورًا- على الأقل- عن كثير من الشعوب المتدينة.

ويكفيك أخي القارئ الكريم أن تراجع قراءة هذا التصريح مرّة واحدة فتكتشف الحقيقة المؤسفة، حقيقة هذه القوى الغاشمة التي ظنّت نفسها الحاكمة والمتحكمة في العالم وهي تؤمن بالجبت والطاغوت وتكفر برب الملك والملكوت.

ولست أدري على وجه التحديد ماذا يقصد «باوتشر» بقوله: «الطبيعة الأم»!! هل هناك طبيعة أم وطبيعة أب؟ هل توجد في الكون أرض غير هذه الأرض وكواكب غير هذه الكواكب التي نعرفها، أو مجموعة شمسية أخرى غير هذه المجموعة التي يعرفها الناس؟

ربما اكتشف الأمريكان أثناء صعودهم إلى الفضاء طبيعة أخرى غير هذه الطبيعة تصلح أن تكون أمًا، وطبيعة أخرى تصلح أن تكون أبًا؟ إن شر البلية ما يضحك، وشرٌّ منه أن تجد من الأغبياء من يصدق أمريكا لأنها الأقوى ولأنها الأعلم في رأيهم ولأنها التي صعدت إلى الفضاء!! نعم يصدقونها حتى لو زعمت أن للطبيعة أمًا وأبًا، وإذا كان هذا الاحتمال لا يصدقه عقل، فما هو الاحتمال الآخر؟

الاحتمال الذي يظهر من كلام المستر باوتشر أنّه يعتبر الطبيعة هي التي خلقت نفسها، وهي التي تتحكم في هذا الكون بالقهر فترسل العواصف، والرعد والبرق والزلازل والبراكين، وتتحكم أيضًا بالخير والعطاء والنماء فترسل الشمس والمطر والثلج والخير والنماء، فالطبيعة عند هؤلاء هي اللّه الخالق لكل شيء والمتصرف في كل شيء.

وإذا كانوا يدّعون ويعتقدون أن الطبيعة هي الخالقة والمتصرفة، فكيف يسوغ التخاطب معها بهذا الأسلوب؟ كيف يصف سيادته الطبيعة بالاستفزاز، ويعتبر منعها لنزول الثلج نوعًا من الاستفزاز وعدم الإيجابية؟ وكيف يأمر الخالق- في زعمه- وينهاه؟ إن هذا الأسلوب يدل على أنه يستحق حقًا خاصًا عند الخالق لا يستحقه غيره من الناس، وهو صاحب الكلمة، ولا بد أن يكون أمره مطاعًا، (أو ربما يكون من سلالة أبناء الله).

وإني أتساءل بدوري: ماذا سيفعل المستر «باوتشر» إذا لم تستجب الطبيعة لطلباته؟ هل سيطالب بلاده بإعلان الحرب على الطبيعة؟ كل ما سبق ونحن نُجاري المستر «باوتشر» في زعمه، لكن اللّه تعالى عما يشركون، وإذا أردنا أن نضع كلامه في ميزان العقل، فإن العقل الصحيح يقول: كيف تستطيع الطبيعة أن تخلق وهي مخلوقة؟ وأي طبيعة هذه التي خلقت؟ هل الشمس هي التي خلقت مجموعتها؟ ومن الذي خلق الشمس؟ أم النجوم هي التي خلقت؟ ومن الذي خلق النجوم؟ وهل السماء هي التي خلقت الأرض؟ ومن الذي خلق السماء؟ وهل المحيطات هي التي خلقت البحار؟ ومن خلق المحيطات؟ ومن خلق الجبال؟ ومن خلق الليل والنهار؟ ومن... ومن!!

تساؤلات عديدة لا نجد لها إجابة شافية إلا في الشرع الشريف الذي أعلَمَنَا أن اللّه خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل، فهو سبحانه وتعالى خلقنا وخلق السماوات والأرض ويتولى أمر خلقه صباح مساء، ولتستمع إلى آيات اللّه في كتابه الكريم تحدثنا عن آلائه في الكون وعن أسمائه سبحانه وصفاته، قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠١- ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ. وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ. وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ

الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٢- ٣٤].

هذه الآيات وغيرها كثيرة في كتاب الله عز وجل؛ يتعرَّف الله بها إلى خلقه ويذكرهم بنعمه عليهم في أنفسهم وفي الكون، في الخلق والرزق، هذا هو الله سبحانه: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

هذا هو الله سبحانه الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى، صفات الجلال والكمال، ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ. هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢- ٢٤].

هذا هو الله سبحانه وتعالى، تعالى في ذاته وتقدست أسماؤه وصفاته، لكن أكثر الناس لا يؤمنون ولا يعلمون، فأكلوا رزق الله وعبدوا غيره، غفلوا عن الخالق البارئ المصور وعدلوا عنه إلى المخلوق الضعيف، فيا غيبة العقل والوعي، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]!!

ولهذا فقد حرص النبي ﷺ في كل مناسبة أن يعلِّم أصحابه التوحيد الصحيح ويحذرهم من مسالك أهل الجاهلية في كل صغيرة وكبيرة، حتى الذي يظن كثير من الناس أنها أمر عادي وقد يقولونها بحُسْن نية وعدم قصد، ومن ذلك قوله ﷺ: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب». متفق عليه.

والرسول ﷺ قال هذا القول في صبيحة يوم ممطر بعد صلاة الفجر يحذر أصحابه التشبه بأهل الجاهلية الذين عبدوا الكواكب من دون الله؛ محذرًا من مجرد القول باللسان، فما بالكم بمن يعتقد ذلك اعتقادًا وينسب نزول المطر والثلج للطبيعة الأم؟ هل يعلم المستر «باوتشر» المتحدث بلسان الدولة المتحضرة- كما وصفها- أنه يعتقد اعتقاد أهل الجاهلية من لدن نوح عليه السلام إلى يومنا هذا، فقديمًا قال قوم نوح لنبيهم نوح عليه السلام: ﴿وَقَالُوا لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وَدًّا وَلاَ سُوَاعًا وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، أصرُّوا على عبادتهم للأصنام بعد أن ظلَّ نوح عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله ويذكرهم بنعمه عليهم وعظمته في خلقه، ومن ذلك: ﴿مَّا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا. وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا. أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا. وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٣- ١٦]. وقد عبد قوم إبراهيم الكواكب والأصنام، وكذلك قال أهل الجاهلية قبل الإسلام: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فإذا كان هذا اعتقاد أهل الجاهلية من عهد نوح إلى ما قبل الإسلام، فهل جاءت أمريكا بجديد!! ماذا فعلت الدولة المتحضرة في اعتقادها، قالت مثل ما قال الأولون، بل أشد جهلاً وضلالاً، ولم تغن عنهم حضارتهم شيئًا لأنها فقط تتعلق بهذه الحياة الدنيا، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧٥]، ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]، ذلك أن العلم بالله وبالآخرة لا يأتي إلا عن طريق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ألا فليشكر المسلمون ربهم على نعمة الإسلام، وليحافظوا على هذه النعمة، وليعضوا عليها بالنواجذ، وإياهم ومحدثات الأمور، وليحذروا الدنيا وليحذروا الشيطان: ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

قصة موسى عليه السلام

القسم الثاني الحلقة الأولى

بقلم: عبد الرازق السيد عيد

﴿ وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ ﴾

الحمد لله الذي أرسل رسله مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل الفوز والفلاح لمن اتبع منهج الرسل إجمالاً، واتبع خاتم النبيين محمدًا ﷺ تفصيلاً.. وبعد:

أخي القارئ الكريم، وقف بنا الحديث في آخر لقاء عند نهاية قصة فرعون مع موسى عليه السلام، والتي انتهت بهلاك فرعون وقومه. وقد وقفنا في حينها مع ما فيها من دروس وعبر.

واليوم بحول الله وطوله ومدده نبدأ مع الحلقة الأولى من القسم الثاني ؛ ألا وهو: قصة بني إسرائيل مع موسى، عليه السلام.

وإن كانت لنا وقفات مع ما سبق من القصة، فستكون لنا وقفات أيضًا مع ما سيأتي من أحداث قد تطول أو تقصر بحسب موضعها من القصة، ولكنها في جميع الأحوال ستكون أعجب وأغرب.

ولا أريد أن أسبق الأحداث، ولنترك لكل درس موضعه، ولنشرع فيما قصدناه مستعينين بالله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ. إِنَّ هَـؤُلاَءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨، ١٣٩].

عجيب أمر هؤلاء القوم الذين منَّ الله عليهم بالنجاة من فرعون وقومه، ثم بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا أنفسهم دار البوار، يمرُّون في طريقهم على قوم يعكفون على أصنام لهم فيطلبون من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا مثل آلهتهم، ماذا يعني ذلك؟ وقبل أن نجيب على هذا التساؤل نذكر إجابة موسى عليه السلام عليهم كما قصَّها علينا ربنا عز وجل في كتابه الكريم: ﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٠]. يقول لهم موسى عليه السلام متعجبًا من أمرهم ومستنكرًا عليهم: كيف تريدون أن تعبدوا آلهة أخرى غير الله، والله سبحانه هو الذي خلقكم وخلق جميع الخلق، وهو سبحانه أكرمكم بالنبوَّة والرسالة وفضلكم بها على العالمين في زمانكم، ومنَّ عليكم بنعم كثيرة مادية ومعنوية، ومنها نجاتكم من فرعون وقومه. يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَونَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٤١]. وقال موسى عليه السلام لقومه محذرًا صنيع المشركين عبدة الأوثان: ﴿إِنَّ هَؤُلاء مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٩].

والآن نعود للإجابة على سؤالنا الذي طرحناه: قوم بعث الله فيهم رسولاً منهم، بل رسولين، ومنّ عليهم بالنجاة من عدوهم وأهلكه أمام أعينهم وهم ينظرون، ثم بعد قليل يمرون بسيناء على قوم يعبدون أصنامًا على هيئة عجل فيقولون لموسى: اجعل لنا أصنامًا مثل هذه الأصنام نتخذها آلهة ونعبدها!!

فساد اعتقاد (اليهود)

هذا الموقف من اليهود الذي وصفهم فيه موسى عليه السلام بالجهل، يدل على فساد عقيدتهم- إن لم يكونوا جميعًا، فالأعم الأغلب منهم- فهم قوم يعبدون المادة، ولا يؤمنون بالغيب.

وسيرتهم تدل على ذلك، فعندما دعاهم موسى عليه السلام لتحقيق الإيمان الصادق بالله، قالوا: أرنا الله جهرة!! قال تعالى حكاية عن بني إسرائيل قوم موسى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً...﴾ [البقرة: ٥٥].

فهم لا يصدقون بالغيب، لكنهم يريدون معاينة الله ورؤيته جهارًا نهارًا!! ومما يؤكد ذلك الأمر أنهم لم يقتنعوا بنصيحة موسى عليه السلام وتحذيره إياهم من فعل المشركين، وإن كانوا قد سكتوا مؤقتًا وظل الأمر معلقًا في قلوبهم، حتى انتهزوا فرصة غياب موسى عليه السلام وذهابه لميقات ربّه، فصنعوا عجلاً من ذهب وعبدوه من دون الله، ويقصُّ الله سبحانه وتعالى علينا ذلك في كتابه الكريم، فيقول سبحانه: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

لا حول ولا قوة إلا بالله، انتهز القوم فرصة غياب موسى عليه السلام وصنعوا لأنفسهم عجلاً من ذهب، وجعل الصانع فيه فتحة يخرج منها الهواء ويدخل فتحدث صوتًا «خوارًا»، أين عقول القوم؟ ألا يرون أن هذا الصنم هم الذين صنعوه بأيديهم، وهو لا يسمع ولا يعقل ولا يهدي ولا ينفع ولا يضر، لا يملك لنفسه- فضلاً عن غيره- ضرًا ولا نفعًا، فكيف يعبدونه من دون الله تعالى؟ إنه الجهل في أحلك صوره، وإنه لظلم عظيم. ولم يكتف القوم بذلك، بل بلغت بهم البجاحة مبلغها، فقالوا: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]. انظر إلى عمى القلوب، لم يكتف القوم بعبادتهم العجل، بل تعجبوا من فعل موسى عليه السلام، وقالوا: أين يذهب موسى للقاء ربه، فهذا هو إلهكم وإله موسى، يقصدون أنّ العجل هو إلههم وإله موسى لكن موسى نسيه وذهب يبحث عن إله آخر!! سبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وصل بهم الأمر إلى حدّ التشريع لموسى عليه السلام، وأنّه يجب أن يتبعهم في باطلهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهكذا أهل الجهل والباطل في كل زمان ومكان، يظنون أن باطلهم خير من الحق الذي جاء به الأنبياء، فيحتكمون إلى الباطل، ويتركون الحق الذي جاءت به الرسل.

لقد فسدت عقيدة اليهود منذ وجودهم مع موسى عليه السلام، ولم ينفعهم نصح موسى ولم يعتبروا بالآيات التي كانت تأتيهم من الله تترى، ذلك لأن حب المادة تغلغل في قلوبهم كما وصفهم ربنا عز وجل، فقال في كتابه الكريم: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

وتأمل التعبير القرآني البليغ ﴿وَأُشْرِبُواْ﴾ أي: بلغ حبُّهم لعبادة العجل كمن شرب الماء وتغلغل في أجزاء جسده، كذلك وصل حب المادة إلى أعماق قلوب هؤلاء القوم بسبب كفرهم بالله، وهذا تصريح واضح من القرآن الكريم على فساد اعتقاد بني إسرائيل منذ عهدهم الأول، إلا من رحم ربي منهم، وهم قليل.

وإذا كان هذا هو حالهم في عهودهم الأولى وقربهم من الأنبياء، فكيف يكون حالهم وقد خَلَفَتْ من بعدهم خلوف وخلوف؟ إن فساد الاعتقاد عند بني إسرائيل هو أصل فسادهم بعد ذلك في كل شيء في عباداتهم ومعاملاتهم وفي أخلاقهم، وصدق الله حين وصف حالهم بقوله تعالى: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤]، ونحن لا نبالغ إنْ قلنا: إن كلَّ فساد في الأرض اليوم يعود بسبب من أسبابه إلى اليهود، وسنوضح ذلك إن شاء الله فيما سيأتي من حلقات، والله المستعان.

شبهة والرد عليها

لكن رأيت قبل أن ننهي مقالنا هذا أن أورد شبهة قد ترد في أذهان البعض، ثم أحاول دفعها بالدليل فيما يلي بعون الله. وتدور الشبهة حول القصة التالية:

روى الترمذي في سننه وابن حبان وغيرهما بالسند إلى أبي واقد الليثي قال: لما افتتح رسول الله ﷺ مكة خرجنا معه قِبَل هوازن، حتى مررنا على سدرة للكفار يعكفون حولها ويدعونها «ذات أنواط». فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾». ثم قال: «إنكم ستركبنّ سنن من قبلكم».

وفي هذا الحديث يحذر الرسول ﷺ الصحابة من مشابهة اليهود في أي شيء ومن التماس البركة من غير الله.

ولهذا السبب قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع شجرة الرضوان ؛ خشية أن يتخذها الناس موضعًا بعد ذلك، وهو في ذلك يتأسى برسول الله ﷺ ويسدُّ ذرائع الشرك من كل باب. والشبهة التي قد ترد في ذهن البعض من هذه القصة ؛ هو أن يتصور في الصحابة من وقع فيما وقعت فيه بنو إسرائيل، ويستدل بقول النبي ﷺ: «قلتم كما قالت بنو إسرائيل». وهذا الذي أردت التنبيه عليه، فالمشابهة هنا ليست من جميع الوجوه، وإن كان في الموقفين بعض التشابه أراد الرسول ﷺ أن يحذر منه.

- فبنو إسرائيل الذين قالوا لموسى هذا القول لم يكونوا حديثي عهد بإيمان، لكن الذين قالوا ذلك من الصحابة كانوا قريبي عهد بوثنية من الذين أسلموا يوم الفتح (حديث عهد بإسلام).

- بنو إسرائيل قالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، لكن من قال ذلك من الصحابة قال: اجعل لنا ذات أنواط نعلق عليها أسيافنا التماسًا للبركة، كما كان يفعل القوم (فهي شجرة للتبرك بها).

- لكن بنو إسرائيل رأوا قومًا يعبدون أصنامًا على هيئة البقر أو العجل.

- من قال ذلك من الصحابة انتهى بعد نهي الرسول ﷺ ولم يفكر في الأمر مرّة أخرى.

- لكن بنو إسرائيل ظلَّ حب العجل في قلوبهم حتى انتهزوا أول فرصة غاب فيها موسى ثم صنعوا لأنفسهم عجلاً عبدوه من دون الله، ولم يكتفوا بذلك- كما ذكرنا- بل قالوا: هذا إلهكم وإله موسى، ولكن موسى نسى وذهب يبحث عن إلهه، وهذا هو إلهه وإلهكم. تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، فالأمر عند بني إسرائيل أمر اعتقاد متغلغل في قلوبهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وهيئة راسخة في النفس تلازمهم إلى يوم القيامة.

- لكن الأمر بالنسبة لبعض الصحابة حديثي العهد بالإسلام كان من قبيل الخطأ الذي لم يتكرر، فشتان بين الموقفين.

ومع ذلك يحذر ﷺ بهذه اللهجة الحاسمة المحذرة حماية لجناب التوحيد، ووقاية من الوقوع في أي شبهة تنقص من كماله، وتحذيرًا من مشابهة اليهود في القليل أو الكثير، فهل وعى المسلمون الدرس؟

أسأل الله العلي الكبير أن يردنا إلى دينه ردًا حميدًا. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ماذا يريد منا أعداؤنا؟!!

بقلم: عبدالرزاق السيد عيد

الحمد لله مالك الملك يؤتيه مَنْ يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير.

والصلاة والسلام على صفوة رسله وخاتم أنبيائه المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

أما بعد: فإن الذي يحدث اليوم من حولنا ليجعل أشدَّ الناس علما يقف متسائلا. لماذا؟

لماذا يختار العرب «السلام» خيارا استراتيجيا بل وتكتيكيا ويصرون على ذلك في كل مناسبة وفي كل اجتماع. بينما لا يريد عدوهم منهم إلا الاستسلام؟ بل الذلِة والهوان (لا قدَّر الله) إلى متى يثق العربُ في أمريكا ويعتبرونها راعية السلام؟ والغريب في الأمر أن العرب كلما أعلنوا عن تمسكهم بخيار السلام، واحترامهم لمواثيق الأمم المتحدة. كلما أمْعَن اليهودَ في البطش والعدوان، وَرَكْلِ مواثيق الأمم المتحدة بل كل الشرعية الدولية بالأقدام.

ومازالت الأحداث قريبة منا بل نعيشُها يوما بيوم وساعة بساعة فكان اجتياح شارونَ وجنودِه لنابلس وجنين وحصار بيت لحم ورام الله، قد جاء مباشرة بعد انتهاء قمة بيروت في أواخر مارس الماضي، وبعد أن أعلن العرب في قمتهم تمسكهم بالسلام وما حدث في نابلس وجنين من قتل وتدمير واعتقال وفساد لا يخفى على أحد، والكل ينظر ويسمع، والعدو يتمادى في صلفه وغروره وعندما انتهت القمة الثلاثية في شرم الشيخ وأكَّدت على خيار السلام في مايو الماضي، قام الحزب الحاكم في إسرائيل وأعلنها صريحة أنه يرفض قيام دولة فلسطينية بأي صورة من الصور والأمر المدهش حقًا أن العدو يُعلن بصراحة عن مخططاته ولا يخفيها فشارون أعلن مرارا وتكرارا أنه عازم على ضرب البنية الأساسية للمقاومة الفلسطينية، وقبل أن يجتاح الضفة الغربية، أعلن عن ذلك ونُشرت الإليات في تحد سافر لكل المقررات والمواثيق، أعلن واستعدَّ ونَفَّذ، ثم توجه إلى غزة وحاصرها، ومازال يحاصر الشعب الفلسطيني في الضفة وغزة ويتحدى.

وعجزت الأمم المتحدة عن إدانة المجرمين على جرائمهم التي يشيب من هولها الولدان، لأن أمريكا تبارك ما تفعله إسرائيل وبوش يعتبر شارون رجل سلام، ويتهم المستضعفين في الأرض بالإرهاب، ويريد من العرب أن ينعتوهم بالإرهاب(١)، وإلا صار العرب والمسلمون جميعا إرهابيين - في نظر بوش

وشـــارون - ولست أدري هل نجهل ما يريده منا أعداؤنا؟ أم أننا نتـعـامى عنه؟ ولماذا؟ إن الذي تفعله إسرائيل لا يخفى على أحد. وإن احتضان أمريكا لإسرائيل اقتصاديا وعسكريا وسياسيا لا يخفى على أحد ولأن كثيرًا منا يعمى أو يتعامى عن قصْد ويحاول تضليل الناس ولأن كثيرا منا أيضا يحاول إخفاء أبعاد القضية الحقيقية فـاسـمح لي أخي الكريم أن أوضح بشيء من الاختصار ماذا يريد أعداؤنا؟

أولا: لنبدأ بإسرائيل:

ماذا يريد منا اليهود؟ قبل أن أجيب عن هذا السؤال أنقل لكم بعض ما قاله (شارون) في مقابلة أجراها معه الكاتب اليهودي «أموس أوز» ونشرها في كتاب له بعنوان «أرض إسرائيل» والكتاب بالعبرية، وتُرجم إلي الفرنسية، ونَشَرت منه جريدة الخليج مقتطفات في عددها الصادر يوم ٢٠٠٢/٥/٢٠م أنقل لكم منه ما يلي:

يقول «شارون» «أريد أن يخشى الناس جنوني، لا أن يعجبوا بأخلاقي، وليطلقوا على «إسرائيل» بعد ذلك الدولة المجنونة وليفهموا أننا دولة وحشية، وأننا نشكّل خطرًا على الدول المحيطة بنا وليس دولة عادية».

ويقول شارون: «أنا نادم بالفعل لأنني لم أُدمِّر مخيَّم عين الحلوة بالكامل، وأحيلُه إلى أنقاض، فقد كان قصْفُ مدينة بيروت رائعًا بالفعل، وهو ما يطلقون عليه اسم مذبحة - والكلام ما زال لشارون - فيقول: وإني لأتساءل: هل تعتبرون قتل بضع مئات من العرب مذبحة؟ لقد كان من الواجب أن أدخل أنا وجنودي إلى صبرا وشاتيلا، ونقتل سكانها بأيدينا الماهرة المدرَّبة.. وليعلم الجميع في واشنطن وموسكو، ودمشق، والصين. بأن قتل أي من سفرائنا أو قناصلنا أو أي موظف صغير في سفارة سيدفعنا إلى بدء حرب عالمية ثالثة». ويضيف شارون قائلا: «إنَّني على استعداد أن أقتل أكبر عدد من العرب، وأن أحرق الفلسطينين أو أطردهم إنني على استعداد للتطوع بالقيام بما تطلقون عليه «الأعمال القذرة» خدمة لإسرائيل. وإنني أتساءل: «لو أن اليهود قتلوا ستة ملايين من العرب، فماذا سيحدث؟ طبعًا، ستخصص كتب التاريخ بضع صفحات تطلق علينا فيها مختلف الصفات، ولكن في المقابل ستقوم دولة «إسرائيل الكبرى» التي تضم ما يزيد على ٢٥ مليونا».

هذا الذي يريده «شارون» وهذا اعتقاده، إنَّه لا يجد غضاضه في قتل ستة ملايين عربي مسلم أو تحريقهم أو طردهم، بينما هو سيشعلها حربًا عالمية ثالثة إذا أصيب موظف «يهودي» صغير في إحدى السفارات اليهودية في مكان ما من العالم. إنه متطوع لخدمة إسرائيل الكبرى، وهو مستعد لفعل.. أي شيء مهما كان في نظر الناس قذرا حتى لو قتل المسلمين جميعا ولو قتل جميع من في الأرض من أجل إسرائيل فهو شيء في اعتقاده مباح بل قربى يتقرَّب به إلى الله. وليس شارون وحده على هذا الاعتقاد بل جميع اليهود، ولا تقولوا صقور وحمائم فكلهم شارون وإلا فما الذي جاء بشارون إلى سُدَّة الحكم؟ ومكَّنه من رقاب العباد وتاريخه الدامي معروف؟ وهل يفعل شارون ما يفعله اليوم منطلقا من نفسه أم بتأييد من شعبه ومباركة من أمريكا وإنجلترا؟ بل يفعله انطلاقا من عقيدته المحرَّفة ومباركة شعبه وبحمايه أمريكية، وفي ظل صمت عالمي وتخاذل عربي إسلامي.

أوصاف اليهود المخزية

فاليهود هم اليهود من عبدة العجل ناقضي العهد قتلة الأنبياء محرفّي الكلم عن مواضعه، وأكلة السحت والربا، والقائلين على الله ورسله الكذب، كاتمي الحق، تاركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الملعونين على لسان داوود وعيسى بن مريم، والممسوخين قردة وخنازير، لا تخـتص فضائحهم من عهد موسى مرورا بداوود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم، ومحمد (صلوات الله وسلامه على أنبيائه) ووصولا إلى هرتزل وعصابته، وبيجن وشرزمته، وإلى السفاحين الذين جاءوا من بعدهم - وكلهم سفاحون - ومن لبس منهم جلد الضأن على قلوب الذئاب أو الثعالب، ومن كشَّر عن أنيابه وجاهر بإرهابه...

إلى العتاة القساة غلاظ القلوب، الذين استهدفوا أعين الأطفال بالرصاص المتفجر، وأحرقوا قلوب الأمهات، وأحرقوا الأخضر واليابس،

وجَرَّفوا الأرض، وهدموا البيوت فوق ساكنيها، وتركوا المصابين تنزف دماؤهم حتى الموت، وكشفوا الوجه الحقيقي لرجسة الخراب «إسرائيل» بفَظاعتِهم ووحشيتهم!! من أولئك الأقدمين إلي هؤلاء المعاهدين، لم تتغير الطبيعة، ولم يتغير الخلق، ولن يتغير لماذا؟ لأنهم يعتبرون ما يفعلونه من وحشية وإجرام حقًا مشروعا لهم وقربى يتقربون بها إلى الله؛ كما تزعم توراتهم التي حرَّفُوها، وتلمودهم الذي كتبوه بأيديهم وإليكم بعض الأمثلة والشواهد:

«الربُّ» كما وصفته توراتهم المحرفة - تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا - في سفر التكوين ٣٢ - ٣٤ «رَنِّموا للرب الساكن في صهيون إنه يطالب بالدماء» وفي سفر الملاك من توراتهم المحرَّفة - أيضا - «أن سليمان - عليه السلام(٢) - ذبح اثنين وعشرين ألف ثور، وعشرين ومئة ألف خروف خلال أسبوع لله فلم يَرْتَو وطلب دماء البشر» هذا غيض من فيض عن تصورهم عن الله الذي هو في زعمهم يأكل ويشرب ومصاص دماء، وينسى ويتعب، ويصارع يعقوب، ويبكي على أبنائه، ويستشير حاخاماتهم في كل معضلة، وكثير وكثير من هذا الفساد الاعتقادي، الذي ننزه - نحن المسلمين - الله ربنا عنه وهو سبحانه المنزَّه عن كل نقص والموصوف بكل كمال فتعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. وإذا كان هذا ظنهم وكذبهم وافتراؤهم على الله فما بالك بظنهم بالبشر؟

افتراؤهم على أنبياء الله:

في التوراة المزعومة سفر الأعداد الإصحاح ١٣/١٥/١٨ «ولما رجعوا إلى موسى سخط موسى وقال: هل أبقيتم كل أنثى حية؟ فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة...» فموسى - كليم الله - عندهم سفاح يأمر بقتل الأطفال والنساء بل إن إبراهيم - عليه السلام - أبا الأنبياء عندهم كذلك منهوم لا يشبع ومتعطش للدماء ويأكل لحوم البشر جاء في تلمودهم:

«إن إبراهيم أكل أربعة وسبعين رجلا وشرب دماءهم دفعة واحدة ولذلك كانت له قوة أربعة وسبعين رجلا»، وحتى لا تشمئز نفس القارئ المسلم، وحتى لا تتأذى مشاعره أقف عند هذا الحد وإلا فالتوراة المحرَّفة والتلمود يطفحان بالإساءة البالغة إلى الله ورسله - ولا حول ولا قوة إلا بالله -.

نظرة اليهود لغيرهم من البشر:

وفيما يتعلق بعلاقة اليهود بغيرهم أذكر أيضا جانبا يسيرًا يكفي.

جاء في تلمودهم «من يسفك دم غير يهودي فإنما يقدم قربانا للرب» وجاء فيه أيضا «اليهود بشر لهم إنسانيتهم، أما الشعوب الأخرى فهم عبارة عن حيوانات» وفي سفر التكوين ٣٢ - ٣٤ «يعجنون كحك العيد بدم غير اليهود» يا قوم - وحتى لا أطيل عليكم - هذا معتقد اليهود، وهذا سلوك اليهود ماثلا أمامكم. ألم يعلن شارون أنه يتطوع للّه بذبح العرب والمسلمين؟ نعم هذه عقيدته وعقيدة غيره وهو مستعد لذبح جميع أهل فلسطين أو تحريقهم أو لذبح جميع المسلمين أو البشر جميعا فكلهم في زعمه حيوانات جاءوا لخدمة إسرائيل وهو يتقرَّب إلى الرّب بهذه الأفعال القبيحة، وليس شارون وحده بل كلهم كذلك قال بن جوريون: «بدون التفوق الروحي لم يكن شعبنا يستطيع البقاء ألفي سنة في الشتات، وأن لا معنى لإسرائيل بدون القدس، ولا معنى للقدس من غير الهيكل». وقالت جولدا مائير «وجد هذا البلد تنفيذًا لوعد الرب ذاته.. ولهذا لا يصح أن نسأله إيضاحًا عن شرعية ذلك الوجود» وقال موشى ديان: «إذا كنا نملك الكتاب، وإذا كنا نعتبر أنفسنا شعب التوراة فينبغي أن نمتلك أيضا بلاد التوراة، أرض أورشليم، وحيرون وأماكن أخرى» وهذه الأماكن الأخرى أفصح عنها ديان قال: «إن على إسرائيل أن ترسم أهدافها القومية في حدود الوطن التاريخي» هذا اعتقاد القوم وسلوكهم وأفعالهم شاهدة بجديتهم في تنفيذ هذا الكذب المفترى. فماذا فعل أصحاب الحق الواضح الصريح؟ ماذا فعل المسلمون؟

وللحديث بقية.

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم

أن يرزقنا التوفيق إلى الحق والثبات عليه حتى نلقاه سبحانه

هامش

(١) ودعونا نقولها صريحة فالمسلمون جميعًا في نظر بوش وشارون (لا يستحقون الحياة)

(٢) - عليه السلام - هذه من عندي فهم لا يعرفون هذه الكلمة ولا يقولونها لنبي أبدًا.

وقفات مع القصة في كتاب الله تعالى

القسم الثاني

الحلقة الثانية

قصة موسى عليه السلام

بقلم: عبد الرازق السيد عيد

من مظاهر فساد الاعتقاد عند اليهود:

الحمد لله القوي العزيز، الذي لا يغلب وهو سبحانه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، والصلاة والسلام على النبي الخاتم محمد وآله وصحبه أما بعد..

أخي القارئ الكريم أرجو المعذرة فقد تأخرنا قليلا عن متابعة ما مضى من أمر بني إسرائيل لانشغالنا بما وقع ويقع منهم كل يوم وصدق الله سبحانه في وصفهم ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة:٦٤]، نعوذ بالله من شرورهم ونجعله في نحورهم. ونعود معًا للحديث عن فساد بني إسرائيل منذ عهد موسى (عليه السلام) فسادهم في الاعتقاد الذي هو أصل لفسادهم في السلوك والأخلاق.

أولا: فقد وقف بنا الحديث في اللقاء الماضي عند عبادة بني إسرائيل عجلاً صنعوه من الذهب، صَنَعَهُ لهم شقيٌ من أشقيائهم يُدْعَى «السَّامري» وانتهزوا فرصة ذهاب موسى لميقات ربِّه، فأخذوا يطوفون حول عجلهم ويرقصون وقالوا كما حكى القرآن عنهم ﴿...هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ أي فنسي موسى ربَّه عندنا، وذهب يتطلبه وهو ها هنا!! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا، وتقدست أسماؤه وصفاته.

وقد رد الله سبحانه وتعالى عليهم مبينًا سوء فعلتهم وجهلهم الشنيع بصفات الرب المعبود فقال عز وجل: ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا﴾ [طه:٨٩].

وقال سبحانه: ﴿... أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُم وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلا...﴾ [الأعراف:١٤٨].

وأيُّ فساد في الاعتقاد بعد هذا الفساد، قومٌ أنعم الله عليهم بنجاتهم من عدوهم وشق لهم في البحر طريقا، وبين ظهرانيهم اثنان من أنبياء الله أحدهما من أولي العزم كليم الله موسى بن عمران (عليه السلام) وأخوه هارون عليه السلام، وعندما ذهب موسى لميقات ربه بقي بينهم أخوه هارون ومع ذلك صنعوا عجلا من ذهب لا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ولا يهديهم سبيلا، واتخذوه إلها من دون الله!! إنها قلوب قد طمست ولا حول ولا قوة إلا بالله (فعلوا ما فعلوه برغم تحذير هارون إياهم) أخبر الله موسى بما كان من أمر بني إسرائيل. رجع موسى غضبان أسفا فلما رأى ما هم عليه من عبادة العجل ازداد غضبه لله وكانت معه ألواح التوراة التي نزلت عليه من ربِّه أثناء المناجاة فألقاها على الأرض من شدَّة غضبه مما رأى.

ثم أقبل على عباد العجل من قومه فعنَّفهم

ووبخهم أشد التوبيخ على فعلتهم المنكرة.

فاعتذروا إليه باعتذار هو أقبح من الذنب؛ فماذا قالوا:

كما جاء في سورة طه: ﴿حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾.

فعلوا كمن يسأل عن دم البعوضة، بينما لا يتحرَّج من قتل إنسان، نعم هكذا فعل بنو إسرائيل فقالوا تحرجنا من امتلاك حُليِّ المصريين التي استعرناها منهم ليلة خروجنا من مصر فالقيناها في الأرض، وهكذا جاء السامري وصنع منها عجلا فعبدوه.

انظر أخي رحمك الله كيف لبس الشيطان عليهم الأمر فأمرهم بإلقاء الذهب مع أنه أبيح لهم لأنهم كانوا في دار حرب ثم أوقعهم في أكبر الكبائر فأين عقول القوم؟

وهذا دليل واضح على فساد اعتقاد القوم برغم وجود هارون عليه السلام معهم، وقد حذرهم من شناعة فعلتهم فلم يستجيبوا.

ثانيًا: أحرق موسى عليه السلام هذا الإله المزعوم الذي صنعه السامريُّ وتوعد الله السامري بعقوبة في الدنيا سريعة وأخرى في الآخرة ودعا موسى ربه أن يغفر له ولأخيه هارون، وأن يدخلهما في رحمته: قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٢] .

توعد الله عبدة العجل بعقوبة سريعة في الدنيا جزاء ما اقترفوه ثم أخبر سبحانه عن حلمه ورحمته بخلقه، وإحسانه على عبده في قبول توبة من تاب حتي ولو كان من عبَّاد العجل. قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف:١٥٣] .

ولكن كيف كانت توبة من عبدوا العجل من بني إسرائيل؟

ثالثًا: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٥٤] .

أخبر موسى (عليه السلام) قومه أن الله لن يقبل توبتهم إلا بعد أن تحدث بينهم مقتلة عظيمة؛ يقتل فيها الطائعون منهم العصاة المجرمين الذين عبدوا العجل، حتى ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم وقد حدثت فعلا بينهم تلك المقتلة قال ابن كثير رحمه الله (وألقى الله عليهم ضبابا حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسيب نسيبه. ثم مالوا على عابدي العجل فقتلوهم وحصدوهم فيقال أنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفا، ويقال ثلاثة آلاف في أول يوم» والله أعلم.

المهم أن المقتلة حدثت والعدد الحقيقي علمه عند الله ومن رحمة الله بهم أن من مات منهم على نية التوبة مات شهيدا، ومن بقي قد غفر الله له.

رابعًا: ماذا فعلت الصفوة المختارة من بني إسرائيل؟

طلب موسى «عليه السلام» من قومه أن يختاروا من بينهم سبعين رجلا وأن يكونوا من أكثر القوم صلاحًا وطاعة.

وسار موسى بهؤلاء السبعين المختارين من القوم والمتقدمين في العبادة والصلاح والتقوى إلى جبل الطور لينوبوا عن قومهم في معاهدة الله على الطاعة والعبادة والتمسك بأحكام التوراة. قال تعالى: ﴿ وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا... ﴾ [الأعراف:١٥٥]، وعندما وصل القوم إلى هناك ماذا قالوا؟ قالوا كما حكى القرآن عنهم في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٥] .

فالعوام من بني إسرائيل عبدوا العجل والخواص منهم طلبوا من موسى أن يروا ربهم جهرة، ونكصوا على أعقابهم وارتدوا على أدبارهم فقالوا لموسى ﴿لن نؤمن لك﴾ أي لن نصدقك بما تقول ولن نسلم لك.. حتى نرى الله جهرة. ولا حول ولا قوة إلا بالله!! فأين ذهب إيمانهم السابق؟ وأين ذهب صلاحهم وأين ذهبت عبادتهم وتقواهم؟

وإذا كان هذا حال خواص القوم صلاحا وتقوى.. فما حال باقي القوم؟ وإذا كان هذا حال الذين كانوا مع موسى (عليه السلام) خواصهم وعوامهم، فكيف حال الشراذم التي خلفهم حتى اليوم؟

خامسًا: لما لم يؤمن القوم رفع الله عليهم الجبل معلقًا فوق رؤوسهم وهددهم بإنزاله عليهم، فبايعوا مكرهين.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٧١] .

سبحانك اللهم على حلمك بعد علمك، سبحانك اللهم على عفوك بعد قدرتك...

وللحديث بقية إن شاء الله

وقفات مع القصة في كتاب الله تعالى

القسم الثاني

الحلقة الثالثة

جُبْنُ بني إسرائيل وضعف إيمانهم

بقلم
عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذُّل وكبره تكبيرًا، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين محمد كما أمر ربي سبحانه: «صلوا عليه وسلموا تسليمًا». أما بعد:

أخي القارئ الكريم، فها نحن نواصل معًا وقفاتنا مع قصة موسى عليه السلام مع قومه، وإن كنا قد رأينا عجبًا في مواقفنا مع الأحداث التي دارت بين موسى وقومه من جانب وفرعون وقومه من جانب آخر.

فإن عجبنا لا ينتهي ونحن نشاهد مواقف بني إسرائيل مع موسى، وقد رأينا كيف عبدوا العجل من دون الله، وكيف تنطعوا مع نبي الله، وطلبوا منه رؤية ربه جهرة كشرط لإيمانهم، واليوم نقف مع قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ. قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ. قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢١- ٢٤].

ولنا مع الآيات الكريمة وقفات:

الوقفة الأولى:

من النِّعم التي أنعم اللهُ بها على بني إسرائيل أن كتب لهم سُكْنى الأرض المقدسة؛ القدس وما جاورها (أرض فلسطين)، وهي الأرض التي جَعَلها الله مباركة للعالمين، والتي هاجر إليها من قبل إبراهيمُ، وسكنها يعقوبُ وإسحاقُ عليهم الصلاة والسلام، وصدر الأمر من الله عز وجل لموسى أن يدخل بقومه هذه الأرض رحمة بهم وانقاذًا من الصحراء، وقد أخبر موسى قومه بالأمر وأخبرهم أن الله كتبها لهم يعيشون فيها ما داموا صالحين.

الوقفة الثانية:

أرسل موسى رُوَّادًا- فرق استطلاع بلغة العصر- إلى بيت المقدس وأريحا لاستجلاء الأخبار، وكان سكانها من العمالقة (الحيثيين واليوبوسيين والكنعانيين)، وكانوا ضخام الأجسام أشدّاء البنية، عاد الرّواد وقصُّوا على القوم حقيقة ما رأوا.

الوقفة الثالثة:

لما عَلِمَ بنو إسرائيل بضخامة أجسام السكان، قالوا لموسى: إنّ فيها قومًا جبارين، وإنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها، ولن نفكّر في الدخول حتى يخرجوا منها، هذا أمر يدل على الجبن والسلبية وضعف الإيمان، لأن موسى عليه السلام أخبرهم أن هذا أمر الله، وحذرهم من النكوص والردة، وما دام أن الله هو الذي أمر سبحانه فعليهم أن يقصدوا ويتوكلوا على الله فيما لا يستطيعونه، والله سبحانه لن يضيعهم وسيتولى أمرهم، لكن أين هم من ذلك؟

الوقفة الرابعة:

كان موقف بني إسرائيل من دخول الأرض المقدسة موقفًا يدل على نقص في الإيمان ونقص في التوكل واليقين، لذا ظهر منطق الإيمان من قلّة منهم كما ذكر ربنا عز وجل: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

هذا منطق الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب فتؤتي ثمارها صدقًا ويقينًا وتوكلاً.

ولذلك وصف الله الرجلين بأنهما: ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾، وقد أنعم الله عليهما بنعمة الإيمان الصادق واليقين الذي لا يعرف الشك، فكان ممن شملتهم: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

هذان الرجلان تحدثا مع قومهما من منطلق الإيمان الصادق، فقالا لهم: لا تتخاذلوا ولا ترتدوا ولا تخافوا من ضخامة أجسامهم، ولكن نفذوا أمر الله وادخلوا الأرض كما أمركم وسينصركم الله؛ لأن النصر من عنده هو سبحانه قبل أن يكون بالقوة المادية، ثم ذكروهم بأهم أسباب النصر، وهو التوكل على الله إن كانوا صادقين في إيمانهم بالله عز وجل.

الوقفة الخامسة:

كان مقتضى الاستجابة لنصيحة العبدين الصالحين الصادقة أن يفيء بنو إسرائيل إلى رشدهم، وأن يتوبوا إلى ربِّهم، وأن ينفذوا أمره سبحانه وتعالى بدخول الأرض المقدسة التي كتب لهم، وأن يتوكلوا على ربِّهم ويثقوا في وعده ونصره كما نصرهم وأنقذهم من فرعون وقومه وعبر بهم البحر على مرأى ومسمع من عدوهم وأهلك عدوَّهم أمام أعينهم وهم ينظرون، كان المفروض أن يتذكروا تلك النعمة العظيمة، والعهد ليس ببعيد، وأن النصر بيد الله وليس بأيديهم، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

لكن أنّى لقلوب قست فهي كالحجارة أو أشد قسوة أن تذوق حلاوة الإيمان وتدرك حقائقه؟ وأنى لعقول لا تدرك إلا ما يقع تحت الحواس أن تستشعر الإيمان بالغيب؟ وأنى لقلوب غلَّفها حب الدنيا أن تعرف التوكل على الله؟!!

صمَّ بنو إسرائيل آذانهم عن كل حق، ولم تلتفت قلوب كثير منهم إلى الخير، فقالوا لموسى عليه السلام كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ بئس ما قال القوم، إنه يدل على حقيقة قائليه الذين لم يقدروا الله حق قدره، إن هؤلاء القوم لا يجدي فيهم نصح، ولا يرجى منهم نفع، ولا يصلحون لتنفيذ أوامر الله على الوجه الصحيح؛ لذا توجَّه موسى إلى ربه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، تبرأ موسى عليه السلام لنفسه ولأخيه من فعل القوم ومن حالهم ومن أقوالهم، فجاءته الإجابة من الله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

يواسي ربنا عز وجل موسى عليه السلام في مصيبته في قومه، ويحكم عليهم بالتيه في صحراء سيناء أربعين سنة جزاء خورهم وتخاذلهم، وهكذا ضيع الجيل من بني إسرائيل فرصة سنحت لهم، وكفروا بنعمة أهداها الله لهم، إن جيلاً مثل هذا الجيل من بني إسرائيل قد عاش حياة الذلة والمهانة تحت وطأة حكم الفراعنة في مصر، لا يصلح لمعالي الأمور، إن شعبًا عاش معظمه يخدم في قصور ملوك مصر وأثريائها لا يتقن غير القيل والقال، والحياة في الظل وشرب الماء البارد، إن هذا الجيل من بني إسرائيل الذي يخشى البشر أكثر من خشيته الله، لا يصلح للاستخلاف في الأرض ولا لتنفيذ أوامر الله فيها؛ فلا بد أن يذهب إلا قليلاً من الصالحين الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، ويأتي جيلٌ آخر تربى على أيدي هؤلاء الصالحين، فيمكن الله به لبني إسرائيل، ولذا عاقبهم الله بالتيه أربعين

سنة، وهي مدة تكفي لذهاب أكثر الجيل الفاسق، ويأتي من بعدهم قوم صالحون- إن شاء الله- وهذا ما سيأتي بيانه في أعداد قادمة بفضل الله، لكن قبل خِتام هذا اللقاء لا بدَّ من وقفة أخيرة للمقارنة.

الوقفة السادسة (للمقارنة):

نقارن لبيان الحق والحقيقة بين أصحاب موسى عليه السلام كما رأيناهم في هذا الموقف، وأصحاب محمد ﷺ في غزوة بدر، حتى نعرف الفرق بين قوم هم خير أمة أُخرجت للناس، وقوم يسعون في الأرض فسادًا، بين أصحاب رسول الله ﷺ الذين نذروا أنفسهم وأموالهم لله، وصدقوا الله ورسوله، وبين قوم موسى الذين حاربوا الله ورسله.

خرج أصحاب رسول الله ﷺ معه يوم بدر ولم يكونوا قد خرجوا لقتال، بل خرجوا لاستلاب غنائم، ثم وجدوا أنفسهم في مواجهة جيش من المشركين جاء من مكة مستعدًا للقتال، وقوته تزيد على ثلاثة أضعاف قوة المسلمين، وتحتمت المواجهة بين الجيشين، فاستشار النبي ﷺ أصحابه ماذا يفعلون؟ لاحظ هنا استشارة فقط، وهناك كان أمر صريح مباشر بدخول المدينة بإذن الله، ومع ذلك رأينا ما رأينا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لكن كيف كان موقف أصحاب رسول الله ﷺ؟ من المهاجرين، تكلَّم أبو بكر رضي اللَّه عنه فأحسن، وتكلم عمر رضي اللَّه عنه فأحسن، وتكلم المقداد بن عمرو رضي اللَّه عنه فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إن معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد(١) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. وقال سعد بن معاذ رضي اللَّه عنه يمثل الأنصار: يا رسول الله، قد آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر (البحر الأحمر) فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

هذا موقف الأمة المرحومة التي آمنت فصدقت في إيمانها فقالت: سمعنا واطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فرحمها الله ببعثة خاتم النبيين محمد ﷺ، فوضع الله به عنها الإصْر والأغلال التي كانت على الأمم السابقة ومنها بنو إسرائيل، فكانت توبتهم بقتل أنفسهم، أما في أمة محمد ﷺ فالتوبة بين العبد وربه(٢) في أي ساعة من ليل أو نهار حتى تطلع الشمس من مغربها أو تبلغ الروح الحلقوم، وهذا فضل الله آتاه الله هذه الأمة التي آمنت بنبي الرحمة، بينما كفرت به الأمة الشقية أمة بني إسرائيل الذين قالوا: سمعنا وعصينا وأُشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، فكانت أمة ملعونة على لسان أنبيائها، وكتب الله عليها الشقاء في الدنيا والآخرة بكفرهم وقولهم على الله بغير علم وقولهم على مريم وعيسى عليه السلام بهتانًا عظيمًا، وكفرهم بمحمد ﷺ وهو مكتوب عندهم في التوراة، فهما أمتان؛ أمة هي لعنة الله في الأرض وهم بنو إسرائيل، وأمة هي خير أمة أُخرجت للناس في الأرض، وهم أمة محمد ﷺ، والفرق واضح وظاهر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ. إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦، ٧].

وتأمَّل أخي رحمك الله واربط ذلك بالواقع الذي نعيشه ترى عجبًا تتفطر منه القلوب، ويعجز القلم عن تصويره!! ترى حفدة عُبَّاد العجل الذين ورثوا الجبن والنذالة يستأسدون، بينما أهل الحق الذين حملوا ميراث خير أمة يتخاذلون، ذلك لأن كثيرًا منهم ورثوا الاسم ولم يرثوا المضمون، وشغلتهم دنياهم فضاع منهم الكثير، وغيروا فغير الله عليهم، وسنن الله الشرعية والكونية ثابتة، وقضى الله قضاء لا يرد، وبينه في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

اللهم اكتب لنا الخير، ووفقنا إليه، ورد أمتنا إلى دينك ردًا جميلاً.

الهوامش

(١) برك الغماد: مكان باليمن، وقيل: آخر الأرض.

(٢) بالقلب واللسان والعمل.

وقفات مع القصة في كتاب الله

التيـــه

بقلم
عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي يعطي ويمنع ويرفع ويخفض، ولا يغيِّر نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، أحمده على كل حال، وأصلي وأسلم على خاتم النبيين وإمام المرسلين والمبعوث رحمة للعالمين.

لقد عاقب الله بني إسرائيل بالتيه، يتيهون في الصحراء أربعين عامًا لا يعرفون لهم هدفًا ولا غاية، ولا يعرفون طريقًا يسلكونه، فكان التيه عقابًا ماديًا ومنعويًا لأنهم خالفوا أمر الله وخالفوا أمر رسوله موسى عليه السلام الذي أبلغهم أمر ربهم قائلاً لهم: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾.

فهذا أمر بدخول الأرض المقدسة (بيت المقدس) التي وعدهم الله بها على لسان إبراهيم (الخليل) وموسى (الكليم) عليهما السلام.

ونهيٌ عن النكوص والردة عن ذلك الأمر، وتحذيرٌ من عاقبة المخالفة التي ستكون الخسران.

وقد فصَّلنا القول في هذا في لقاءات سابقة، وانتهينا إلى أن القوم نكصوا على أعقابهم وارتدوا على أدبارهم وخالفوا أمر ربهم فانقلبوا خاسرين، فتبرأ موسى منهم ومن أفعالهم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، فجاءته الاستجابة سريعة من عند الله: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

صدَّق الله سبحانه وصف موسى لقومه بالفسوق وحكم سبحانه وتعالى عليهم بالفسوق أيضًا وحرمهم من دخول بيت المقدس أربعين سنة، وحكم عليهم بالتيه في هذه المدة في الصحراء يسيرون على غير هدى ويحلّون ويرتحلون، ويذهبون ويجيئون، لا يعرفون من أين أتوا ولا أي طريق سلكوا، يسيرون في عمى وضلال، ذلك لأنهم تعاموا من قبل عن أمر الله وضلوا عن اتباعه ومتابعة رسوله (موسى) عليه السلام، فكان الجزاء من جنس العمل.

فهؤلاء القوم قد مرَّ بك أخي الكريم الحديث عنهم ابتداءً من استعباد فرعون لهم وإذلاله لهم، ومرورًا بطلبهم من موسى أن يجعل لهم إلهًا يرونه ويلمسونه بأيديهم مثل ما يفعل عبَّاد الأصنام، ولما نهرهم موسى ونهاهم عن ذلك لم يتوبوا ولم يرشدوا بل انتهزوا ذهابه للقاء ربه، وصنعوا لأنفسهم عجلاً من ذهب وعبدوه من دون الله، مواقف كثيرة مرت بك في تاريخ هؤلاء القوم مع موسى عليه السلام، وكل تلك المواقف تنبئ عن فساد اعتقاد القوم، وفساد أخلاقهم حتى الصفوة المقرَّبة منهم الذين ذهبوا مع موسى للقاء ربِّه قالوا لموسى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾. وأخيرًا نكصوا عن أمر الله بدخول بيت المقدس، فهل يستحق هؤلاء شرف الفتح وأن يمنَّ الله عليهم بدخول بيت المقدس وينصرهم على العماليق. كلا !! لا يستحقون هذا الشرف، ولذا لابد من التيه، ويأتي جيل آخر ينبته الله لدينه إنباتًا ويصنعه سبحانه على عينه وينمو ويترعرع على منهج التوراة قبل تحريفها في حياة موسى وهارون، ومن يتولى الأمر بعدهما، وسيموت موسى وهارون عليهما السلام في فترة التيه ويموت معظم هؤلاء الذين نشأوا على الذل والمهانة واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم، ويفتح الله على الجيل الجديد الذين هم النابتة التي نبتت على الإيمان والإحسان بقيادة أحد تلاميذ موسى عليه السلام وسيأتي الكلام عن ذلك مفصَّلاً في موضعه فلا نسبقُ الأحداث، وقبل أن نشرع في الدخول في التيه مع بني إسرائيل لنرى ما حدث لهم من الأمور العجيبة هناك. أقول قبل ذلك نقف وقفة نتأمل فيها ما ننتفع به في واقعنا المعاصر، ومستقبلنا المشرق إن شاء الله، فسنن الله ثابتة لا تتغير، فنصر الله لأوليائه كائنا من كانوا وخذلانه لأعدائه كائنًا من كانوا في كل زمان ومكان يقوم على قواعد شرعية ثابتة فاز من فقهها وعمل بها وخسر من أعرض عنها ولم يعمل بها، وقد حذر موسى قومه من الارتداد عن أمر الله لأنه أساس الخذلان والخسران.

ولذلك جاء التوجيه من الله للذين آمنوا بمثابة الدرس المستفاد من موقف اليهود مع موسى عليه السلام، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

فوصف الله سبحانه أولياءه بست صفات:

الأولى: محبتهم له سبحانه، والثانية محبته سبحانه لهم، والثالثة: ذلهم ولينهم على أوليائه، والرابعة: عزهم وشدتهم على أعدائه، والخامسة: جهادهم في سبيل الله، والسادسة: لا يخافون في الله لومة لائم.

وهذه الأوصاف انطبقت تمام الانطباق على أصحاب نبينا محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم، قال تعالى واصفًا إياهم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ

اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [محمد: ٢٩].

ولذلك لم يفعلوا كما فعل بنو إسرائيل مع موسى، وقد قال الصحابي الجليل المقداد بن الأسود للنبي ﷺ يوم بدر: لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكنا نقاتل عن يمينك وشمالك، وبين يديك ومن خلفك» أخرجه البخاري في باب غزوة بدر في المغازي.

والحاصل: أن هذين موقفان بينهما كما بين السماء والأرض فانظر صفات أولياء الله المستحقين لنصر الله ولذلك لنصرهم الله في بدر وكانوا قلّة ونصرهم يوم الأحزاب وقد اجتمعت عليهم الجزيرة العربية من أقطارها ونصرهم يوم الفتح المبين في مكة المكرمة ومكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وشواهد التاريخ كثيرة لمن أراد العبرة ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا على ما صلح عليه أولها فتمسكوا إن أردتم نصر الله بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ

أقول ذلك والأمة الإسلامية تواجه اليوم ما تواجه مما لا يخفى على عاقل وأذكّر نفسي وإخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بوعد الله الذي لا يتخلف: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٥،٥٦].

هذا وعد الله الحق وهذه شروط التمكين لمن أراد وإن تتولوا يستبدل قومًا غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.

وضرب الله على بني إسرائيل التيه عقوبة لهم لارتدادهم عن تنفيذ أمر الله ورسوله وبنكوصهم وجبنهم عن مواجهة الجبارين يقول ابن القيم - رحمه الله - تعليقا على هذا الموقف: «... فسبحان من عظم حلمه حيث يقابل أمره بمثل هذه المقابلة، ويواجه رسوله (موسى) بمثل هذا الخطاب وهو يحلم عليهم ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل وسعهم حلمه وكرمه، وكان أقصى ما عاقبهم به: أن ردّهم في برية التيه أربعين عاما يظلل عليهم الغمام من الحرّ، وينزل عليهم المن والسلوى» اهـ وقد حدث لبني إسرائيل في التيه أمور عجيبة. قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ

وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠].

ولنا مع الآيتين الكريمتين الوقفات التالية.

أولا: قال ابن كثير - رحمه الله - : (لما ذكرَ تعالى ما دفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضًا بما أسبغ عليهم من النعم) وهو (رحمه الله) يشير بقوله ما دفعه عنهم من النقم إلي ما أشارت إليه الآيات التي تقدم ذكرها في هذا السياق الكريم في سورة البقرة مثل: إنقاذهم من فرعون، وعفوه سبحانه عنهم بعد عبادتهم العجل، وعفوه سبحانه أيضا بعد رفع الجبل فوقهم وإحياء الصفوة منهم بعدما أخذتهم الصاعقة، وغير ذلك كثير.

ثانيا: أما النعم التي أشار إليها ابن كثير رحمه في هذا الموضع فهي ما صاحبتهم في البرِّية (التيه): قال السُّدِّي - رحمه الله - «فلما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى (عليه السلام) كيف لنا بما هاهنا أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المنَّ فكان ينزل عليهم شجر الزنجبيل والسلوى، وهو طائر يشبه السماني أكبر منه فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سمينا ذبحه أو أرسله فإذا سَمُن أتاه. فقالوا فأين الشراب؟ فأمر الله موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فَشَرِبَ كل سِبط من عين، فقالوا هذا الشراب فأين الظل؟ فظلَّلهم الله بالغمام. فقالوا هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما يطول الصبيان ولا يتخرق لهم ثوب».

٢ - قال قتادة (رحمه الله) فكان المن ينزل عليم في محلهم مثل سقوط الثلج أشدُّ بياضًا من اللبن وأحلى من العسل يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس..».

٣ - قال ابن عباس (رضي الله عنهما) جعل الله لهم في التيه ثيابا لا تخرق ولا تدرن أي لا تبلى ولا تتسخ.

ثالثا: قال الله عز وجل تعقيبًا بعد ذكر النعم السابقة: في الآية الأولى: ﴿... كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ وقال سبحانه معقبا في الآية الثانية: ﴿... كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ ولأن الله سبحانه يعلم ما انطوت عليه نفوس بني إسرائيل من فساد وجحود ونكران فقد شدَّد عليهم النكير وحذرهم من الجحود والنكران ونهاهم عن الفساد في الأرض. لكن يجب عليهم والحال كذلك أن يعترفوا بنعمة المنعم سبحانه وأن يشكروه عليها بإخلاصهم له سبحانه في العبادة وإخلاصهم للرسول (موسى) عليه السلام من صدق المتابعة. فهل فعل بنو إسرائيل ذلك؟

سننظر إن شاء الله فيما سيأتي من وقفات، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقفات مع القصة في كتاب الله

قصة موسى (عليه السلام)

جملة من الأمور العجيبة

القسم الثاني (٥)

بقلم/ عبد الرازق السيد عيد

*الحمد لله خلق الإنسان علمه البيان، وأشهد أن لا إله إلا الله سخر الشمس والقمر، والليل والنهار وجعل في ذلك عبرة لأولي الأبصار وأشهد أن محمدًا * عبده ورسوله، أكمل الله به الدين وأتم به النعمة وختم به الملة.*

أخي القارئ الكريم:

في اللقاء السابق وقف بنا الحديث عن بني إسرائيل مع موسى عليه السلام بعد نكوصهم على أعقابهم وعصيانهم لنبيهم عندما أمرهم بدخول الأرض المقدسة التي كتبها الله لهم. وعندها عاقبهم الله بحرمانهم من دخول بيت المقدس لمدة أربعين سنة يتيهون في الصحراء، ومع هذا الحكم فإن الله أدركهم برحمته وشملهم بعنايته، لقد كانوا بين الصحراء بجدبها، وصخورها والسماء المكشوفة بشواظها ورجومها. فأما الحجر فقد أتبع الله لهم منه الماء، وأما السماء فظللها الله بالغمام، وأنزل لهم منها المنَّ والسلوى: (عسلا وطيرًا) وماءً وظلا ولباسًا لا يبلى. وقال الله سبحانه لهم: ﴿ ...كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ لكن هل شكر بنو إسرائيل نعمة ربِّهم؟ وهل تابوا وأقلعوا عن الفساد في الأرض وبين ظهرنهم نبيُّهم موسى وأخوه هارون (عليهما السلام)؟ لا.. لا إنها النفسية المريضة والجبلَّة الهابطة المتداعية أبت عليهم أن يستقيموا على الجادة، ولذا قال الله في حقهم: ﴿ .. وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ وإليك أخي القارئ جملة من الأمور العجيبة التي وقعت من القوم تنبئ عن جحودهم نعمة الله وترشد إلى طبيعتهم المجبولة على الفساد والإفساد:

أولا: قال تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:٦١].

ولنا مع هذه الآية وقفات:

الأولى: عامة: (من تلاعب الشيطان باليهود):

قال ابن القيم - رحمه الله - «ومن تلاعب الشيطان بهم - أي باليهود - أنَّهم كانوا في البريَّة قد ظلَّل الله عليهم الغمام، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى، فملُّوا ذلك، وذكروا عيش الثوم والبصل والعدس والبقل والقثاء، فسألوه موسى عليه السلام. وهذا من سوء اختيارهم لأنفسهم وقلَّة بصرهم بالأغذية النافعة الملائمة، واستبدال الأغذية الضارة القليلة التغذية منها؛ ولهذا قال لهم موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾.

الثانية: في قول موسى عليه السلام لهم: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾.

قال ابن كثير - رحمه الله - «فيه تقريع وتوبيخ لهم على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء الطيب النافع».

وليس من شك أن هذا الطلب يدل على حماقة القوم وسوء أدبهم مع الله ومع رسوله، وسوء اختيارهم للأمور، وإيثارهم لشهواتهم الدنيئة على ما اختاره الله لهم.

الثالثة: مع قوله تعالى على لسان موسى ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ ما المقصود بـ (مصرًا)؟ هل هو أي مصر من الأمصار أم مصر فرعون؟ القولان مشهوران عن أهل العلم.

وعلى الاختيار الأول يكون المعنى: هو الذي سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه فهو كثير وزهيد، قال ابن كثير: «ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه».

وعلى القول الثاني قال صاحب فتح القدير: «أذن لهم بدخول مصر. قال: وقيل الأمر للتعجيز أي تجدون هناك البقل والثوم وما معهما، لكن مع الذبح والخوف والمذلة».

لكن يبقى هنا وقفة أخرى مع التعقيب الذي ختمت به الآية الكريمة السابقة وهو قوله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾.

هذا التعقيب الكريم الذي جاء في ختام الآية الكريمة هل له علاقة بصدرها؟ وهل يمكن الاستفادة منه في تحديد المصر المقصود؟

أصحاب الرأي الأول قالوا: (ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلّة صَبْرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه جازاهم من جنس عملهم فقال: (وضربت عليهم الذِّلَّة) التي تُشاهد على ظاهر أبدانهم (والمسكنة) بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة ولا لهم همم عالية بل أنفسهم أنفس مهينة، وهممهم أردأ الهمم)، وأما الذين يرون أن مصر هي مصر فرعون فاستدلوا بهذا التعقيب لترجيح ما ذهبوا إليه وقالوا: (إن ضرب الذِّلَّة والمسكنة عليهم، وعودتهم بغضب الله، لم يكن - من الناحية التاريخية - في هذه المرحلة من تاريخهم؛ كان فيما بعد، بعد وقوع التعليل الذي ذكرته الآية في ختامها: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾، وقد وقع هذا منهم متأخرًا بعد عهد موسى بأجيال. إنما عجّل السياق بذكر الذلة والمسكنة والغضب هنا لمناسبته لموقفهم من طلب العدس والبصل والثوم والقثاء؛ وهذا مناسب أن يكون قول موسى لهم: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ هو تذكيرٌ لهم بالذل في مصر، وبالنجاة منه ثم هفوّ نفوسهم للمطاعم التي ألفوها في دار الذُّلّ والهوان! وهذا قول له وجاهته والله أعلم.

ثانيا: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٦٣].

في هذه الآية الكريمة وقفات:

الأولى: يقول ابن القيم (رحمه الله): «ومن تلاعب الشيطان بالأمة الغضبية المغضوب عليهم - اليهود - أنهم لما عرضت عليهم التوراة لم يقبلوها، وقد شاهدوا من الآيات ما شاهدوه، حتى أمر الله جبريل، فقلع جبلا من أصله على قدرهم، ثم رفعه فوق رؤوسهم وقيل لهم إن لم تقبلوها ألقيناه عليكم، فقبلوها كرها.

الثانية: قال عبد الله بن وهب قال ابن زيد: «لما رجع موسى من عند ربه بالألواح، قال لبني إسرائيل: إن هذه الألواح فيها كتاب الله وأمره الذي أمركم به، ونهيه الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذ بقولك أنت؟ لا والله، حتى نرى الله جهرة، حتى يطلع الله إلينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما كلمك أنت يا موسى، فيقول: هذا كتابي فخذوه؟ فجاءتهم صاعقة من الله فصعقتهم. فماتوا أجمعون. قال ثم أحياهم الله تعالى بعد موتهم. فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله. قالوا: لا. فقال خذوا كتاب الله، فقالوا: لا. قال: فبعث الله ملائكته فنتقت الجبل فوقهم، فقيل لهم: أتعرفون هذا؟ قالوا: نعم، الطور قال: خذوا الكتاب وإلا طرحناه عليكم. قال: فأخذوا الميثاق».

الثالثة: قال ابن جرير: ذكّرهم الله بذلك اختلاف أبائهم وسوء استقامة أسلافهم لأنبيائهم، مع كثرة ما أتاهم من آيات الله ما يُثلجُ بأقلها الصدور، وتطمئن بالتصديق معها النفوس؛ وذلك مع تتابع الحجج عليهم، وسُبوغ النِّعم من الله تعالى لديهم، وهم مع ذلك مرَّة يسألون نبيهم أن يجعل لهم إلها غير الله، ومرَّة يعبدون العجل من دون الله ومرة يقولون: لا نصدقك حتى نرى الله جهرة، وأخرى يُعرض عليهم العمل بالتوراة، كأنّه ظُلّة، إلى غير ذلك من أفعالهم، التي آذوا بها نبيهم، التي يكثر إحصاؤها.

فأعلم ربنا تبارك وتعالى الذين خاطبهم بهذه الآيات من يهود بني إسرائيل الذين كانوا على عهد رسول الله - صلى الله تعالى عليه وسلم - أنهم لن يعدوا أن يكونوا في تكذيبهم محمدًا ﷺ وجحودهم نبوته وتركهم الإقرار به وبما جاء به، مع علمهم به، ومعرفتهم بحقيقة أمره كأسلافهم، الذي قصّ الله علينا قصصهم».

وللحديث بقية إن شاء الله.

القسم الثاني (٦)

قصة البقرة

بقلم/ عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي وسع كل شيء رحمة وعلما، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. وبعد..

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٦٧) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (٦٩) قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (٧١) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٦٧-٧٤].

أخي الكريم نواصل معك اليوم تلك الأمور العجيبة والغريبة التي وقعت من بني إسرائيل، وهذه قصة البقرة المشهورة والتي سُمِّيت بها أطول سورة وأعظم سورة في كتاب الله بعد فاتحة الكتاب. وقد سُميت السورة بهذا الاسم لورود هذه القصة مفصلًة فيها ولم ترد في سورة غيرها. وهذه القصة على اختصارها ووجازتها فيها مجالات شتى للنظر والاعتبار من جانب دلالتها على طبيعة بني إسرائيل وجبلتهم الموروثة والموسومة بالتعنّت والتلكؤ في الاستجابة لأمر الله ورسوله، وتمحّل الحيل والمعاذير ومن جانب أخر تشير القصة إلى قدرة الله - سبحانه وتعالى - وحكمته،

وحقيقة البعث، وطبيعة الموت والحياة، وأمور أخرى كثيرة، وهي تشير أيضا من جانب إلى عظمة الأداء القرآني في بناء القصة. وتفصيل ذلك يحتاج منا إلى وقفات متعددة نوردها بعون الله فيما يلي:

أولا: نقل ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره عن جماعة من السلف قالوا: «كان رجل من بني إسرائيل عقيمًا لا يولد له، وكان له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل مِنْهم ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض. فقال ذوو الرأي منهم والنهى: علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم؟ فأتوا موسى (عليه السلام) فذكروا ذلك له، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شدّدوا فشُدِّد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أُمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال والله لا أنقصها عن ملء جلدها ذهبا فأخذوها فذبحوها فضربوه ببعضها فقام (أي القتيل) فقالوا: من قتلك؟ قال: ابن أخي هذا ثم مال ميتًا فلم يعط من ماله شيئًا فلم يورَّث قاتلَ بعد» اهـ.

ثانيًا: قال ابن القيم - رحمه الله - «وفي هذه القصة أنواع من العبر:

منها: أن الإخبار بها من أعلام نبوّة رسول الله ﷺ.

ومنها: الدلالة على نبوّة موسى عليه السلام وأنه رسول رب العالمين.

ومنها: الدلالة على صحة ما اتفقت عليه الرسل من أولهم إلى خاتمهم: من معاد الأبدان وقيام الموتى من قبورهم.

ومنها: إثبات وجود الله سبحانه وتعالى وأنه الفاعل المختار، العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العدْل الذي لا يجوز عليه الظلم والجور، الحكيم الذي لا يجوز عليه العبث.

ومنها: إقامة أنواع الآيات والبراهين والحجج على عباده بالطُّرُق المتنوعة زيادةً في هدي المهتدي، وإعذارا وإنذارا للضلال.

ومنها: أنه لا ينبغي مقابلة أمر الله بالتعنت، وكثرة الأسئلة، بل يُبادرُ إلى الامتثال، فإنّهم لما أمروا أن يذبحوا بقرة كان الواجب عليهم أن يبادروا إلى الامتثال بذبح أي بقرة اتفقت، فإن ذلك إجمال ليس فيه إشكال، بل هو بمنزله قوله: أعتق رقبة، وأطعم مسكينا، وصم يومًا، ونحو ذلك، ولذلك غلط من احتج بالآية على جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة؛ فإن الآية غنية عن البيان المفصل، مبينه بنفسها، ولكن لما تعنتوا وشددوا، شدّد الله عليهم.

ومنها: أنه لا يجوز مقابلة أمْر اللهِ - الذي لا يعلم المأمور به وجه الحكمة فيه - بالإنكار. وذلك نوع من الكفر. فإن القوم لما قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ قابلوا هذا الأمر بقولهم: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ فلما لم يعلموا وجه الحكمة في ارتباط الأمر بما سألوه عنه قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ وهذا من غاية جهلهم بالله ورسوله. فإنه أخبرهم عن أمر الله لهم بذلك، ولم يكن موسى هو الآمر به. ولو كان هو الآمر به لم يجز لمن آمن بالرسول أن يقابل أمره بذلك. فلما قال لهم: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وتيقنوا أن الله سبحانه أمره بذلك أخذوا في التعنت بسؤالهم عن عينها ولونها، فلما أُخبروا عن

ذلك رجعوا إلى السؤال مرّة ثالثة عن عينها. فلما تعينت لهم ولم يبق إشكال توقفوا في الامتثال. ولم يكادوا يفعلون.

ومنها: أن من أقبح جهلهم وظلمهم: قولهم لنبيهم: ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ فإن أرادوا بذلك: أنك لم تأت بالحق قبل ذلك في أمر البقرة، فتلك ردة وكفر ظاهر.

وإن أرادوا: أنّك الآن بينت لنا البيان التام في تعيين البقرة المأمور بذبحها، فذلك جهل ظاهر. فإن البيان قد حصل بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ فقد جاء موسى عليه السلام بالحق من أول مرة.

ومنها: الإخبار عن قساوة قلوب هذه الأمة وغِلظِها، وعدم تمكن الإيمان منها. وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: «إن القوم بعد أن أحيا الله تعالى لهم ميتهم فأخبرهم بقاتله أنكروا قتله، وقالوا: والله ما قتلناه، بعد أن رأوا الآيات والحق، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾.

أي لا تنقُص قسوتُها عن قسْوة الحجارة، بل إنْ لم تزد على قسوة الحجارة، لم تكن دونها وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل (أو) في هذا الموضع بمعنى (بل).

ومنها: مقابلة الظالم الباغي بنقيض قصده شرعًا وقدرا.

فإن القاتل قصده ميراث المقتول، ودفَع القتلَ عن نفسه ففضحه الله وهتك ستره، وحرمه ميراث المقتول.

ومنها: أن بني إسرائيل فُتنوا بالبقر مرتين من بين سائر الدواب. فتنوا بعبادة العجل، وفُتنوا بالأمر بذبح البقرة. والظاهر: أنَّ هذه القصة كانت بعد قصة العجل ففي الأمر بذبح البقرة تنبيه للقوم على أن هذا النوع من الحيوانات قد سخَّره الله لنا فأي عقل هذا الذي يتخذه إلها معبودًا من دون الله (سبحانه وتعالى)؟ وهذا البقر لا يمتنع من الذبح والحرث والسقي فكيف نتخذه إلهًا؟ اهـ.

وهذه الفوائد والعبر التي ذكرها ابن القيم - رحمه الله - ونقلناها عنه استوعبت جوانب الحديث عن قدرة الله وحكمته وما انطوت عليه جبلة بني إسرائيل الفاسدة طبعا وخلقا وقبل ذلك وبعده فسدت اعتقادا.

كما أشارت إلى جوانب فقهية وأحكام شرعية.

أما ما يختص بالبناء البلاغي للقصة والحديث عنه فغنيٌّ عن البيان أن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى وكما أن الله سبحانه ليس كمثله شيء فإن كلام الله وهو القرآن ليس كمثله كلام وينطبق ذلك على ما ساقه الله من أمثال وقصص، قال الله سبحانه: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾، فقصص القرآن أحسن القصص في تفصيله وفي إجماله، وأحسن القصص في جمال الأداء وتناسقه وأحسن القصص في سمو هدفه وغايته.

وهذه القصة القصيرة يلتقي فيها جمال الأداء التعبيري بحكمة السياق الموضوعية في أسلوب بليغ موجز.

إلى لقاء نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

والله من وراء القصد.

قصة موسى عليه السلام

القسم الثاني (٧)

قصة موسى والخضر عليهما السلام.

بقلم/ عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي وسع كل شيء رحمةً وعلمًا، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، يصرف الأمور بقدرته، ويحكم ما يريد بحكمته. وبعد:

أخي القارئ الكريم مازلنا مع الأمور العجيبة التي حدثت لبني إسرائيل فترة وجودهم في التيه ومنها قصة موسى عليه السلام مع الخَضر عليه السلام، وهذه القصة فيها من العبر والدروس، والأحكام والقواعد والفوائد الشيء الكثير الذي يضطرنا للحديث عنها على ثلاث مراحل:

الأولى: عرض موجز للقصة من خلال سياقها في كتاب الله عز وجل.

الثانية: وقفة مع الدروس المستفادة والأحكام والقواعد.

الثالثة: وقفة مع الخضِر عليه السلام وما قيل حوله وعنه.

ولنشرع في المقصود بعون الله: أولا: عرض موجز لأحداث القصة التي ذكرت مرة واحدة في سورة الكهف من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلاَ أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ

تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٠- ٨٢].

وكما جاءت الأخبار الصحيحة: أن موسى عليه السلام قام ذات يوم في بني إسرائيل مقامًا عظيمًا، علمهم فيه علومًا جمّة وأُعجب الناس بكمال علمه، فقال له قائل: يا نبي الله، هل تعلم في الأرض أحدًا أعلم منك؟ فقال: لا، بناءً على ما يعرفه، وترغيبًا لهم في الأخذ عنه، فأخبره الله أن له عبدًا في مجمع البحرين عنده علوم ليست عند موسى فاشتاق موسى إلى لقائه رغبة في الازدياد من العلم فطلب من الله أن يأذن له في الرحلة إليه فأَذِنَ له وأخبره بموضعه، وكيفية العثور عليه. وإلى أحداث القصة كما جاءت في سياق الآيات الكريمة:

١- واذكر يا محمد حين قال موسى لفتاه يوشع بن نون: لا أزال أتابع السير حتى أصل إلى ملتقى البحرين، أو أسير زمنًا طويلا حتى أصل إلى العبد الصالح لأتعلَّم منه ما ليس عندي من العلم. (يوشع بن نون: قد نبَّأه الله من بعد وسيكون لنا معه وقفة).

٢- وجدًا في السير، فلما وصلا ملتقى البحرين جلسا عند صخرة، ونسيا حوتهما وهذا الحوت قد أُمِر موسى أن يأخذه معه قوتًا لهما، وعلامة على مكان العبد الصالح. وأثناء جلوسهما على صخرة عند مجمع البحرين فإذا بالحوت المملح الميت يصير حيًا وينحدر في البحر، ويتخذ له في البحر طريقًا مفتوحًا.

٣- فلما فارقا المكان الذي نسيا فيه الحوت وشعر موسى بالجوع، قال لفتاه أحضر إلينا غذاءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا.

٤- قال فتاه: أتذكر حين أوينا إلى الصخرة التي استرحنا عندها؟ فإني نسيت أن أخبرك ما كان من أمر الحوت، وما أنساني ذلك إلا الشيطان، فإنَّ الحوت الميت دبت فيه الحياة، وقفز في البحر، واتخذ له فيه طريقًا وكان أمرًا عجيبًا.

٥- قال موسى: ما حصل هو ما كنّا نطلبه، فإنّه علامة على مكان العبد الصالح، الذي جئت أقصده، فرجعا أدراجهما حتى انتهيا إلى الصخرة.

٦- فوجدا هناك عبدًا صالحًا من عباد الله هو الخضر عليه السلام، وقد علمه الله علمًا مخصوصًا ليس عند موسى عليه السلام.

٧- سلم موسى على الخضر وطلب منه الصحبة ليتعلم منه مما علمه الله إياه علمًا يسترشد به موسى وينتفع.

٨- فأخبره الخضر أنه لن يطيق أن يصبر على اتباعه وملازمته لأنه سيفعل أمورًا تخفى عليه مما علمه الله.

٩- وأمام إصرار موسى عليه السلام وقوله ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا تأمرني به، وافق الخضر واشترط عليه ألا يسأله عن شيء ينكره عليه حتى يخبره عنه.

١٠- فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما سفينة، فطلبا من أهلها أن يركبا معهم ولم يطلبوا منهما أجرًا، فلما ركبا السفينة قلع الخضر لوحًا من السفينة

فخرقها، فقال له موسى: أخرقت السفينة؛ لتغرق أهلها، وقد حملونا معهم بغير أجر؟ لقد فعلت أمرًا منكرًا.

قال: لقد قلت لك من أول الأمر: إنك لن تستطيع الصبر على صحبتي. قال موسى معتذرًا: لا تؤاخذني بنسياني شرطك، ولا تكلفني مشقةً في تعلمي منك وعاملني بيسر ورفق.

١١- قبل الخضر عذر موسى عليهما السلام ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر غلامًا يلعب مع الغلمان، فقتله الخضر، فأنكر موسى على الخضر هذه الفعلة بل واشتد به الغضب، فأي جرم أشد من قتل نفسٍ بريئة بغير ذنب فعلته؟ وإن كانت الأولى من موسى عليه السلام نسيانًا فهذه لم يتحملها ولم يصبر عليها، ولهذا قال له الخضر معاتبًا ومذكرًا: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

١٢- وهنا اعترف موسى عليه السلام بصعوبة الأمر، وقال: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ﴾ بعد هذه المرّة (فلا تصاحبني) أي: فأنت معذور بذلك، بترك صحبتي ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: أعذرت مني، ولم تقصّر.

١٣- فانطلقا: أي موسى والخضر عليهما السلام، حتى أتيا أهل قرية، فطلبا منهم طعامًا على سبيل الضيافة، فامتنع أهل القرية عن ضيافتهما وبينما هما يواصلان السير في القرية إذ وجدا فيها جدارًا مائلا يوشك أن يسقط، فشمر الخضر عن ساعديه وأخذ في تعديل بناء الجدار وإقامته مستويًا من جديد. فقال موسى: يمكنك أن تأخذ أجرًا على بناء هذا الجدار ندبر به لأنفسنا طعامًا حيث امتنع أهل القرية عن استضافتنا.

١٤- وهنا وقف الخضر وقال لموسى: قد حان وقت الفراق بيننا، وسأخبرك بخبر ما أنكرت عليَّ من أفعالي، وما يؤول إليه الأمر.

١٥- وهذه الأمور على النحو التالي:

* ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقها فإنها كانت لأناس مساكين يعملون في البحر عليها سعيًا على رزقهم، فأردت من إعابتها ألا تروق للملك الذي أمامهم يأخذ كل سفينة صالحة تمرُّ عليه ظلمًا وعدوانًا. وهذا من باب الشفقة والرحمة بهؤلاء المساكين، حتى إذا رأى الملك الظالم سفينتهم معيبة تركها لهم، وعندئذ يكون إصلاح العطب أسهل بكثير من ضياع السفينة منهم.

* ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ فإنه قدِّر أنه لو بلغ لأرهق أبويه طغيانًا وكفرًا، إما لمحبتهم إياه وحاجتهم إليه، وإما أن يجبرهما على الكفر بعد إذ كانا مؤمنَين فقتله كان حفاظًا على سلامة دين أبويه المؤمنين، وأي فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟!! وهو وإن كان فيه إساءة عاجلة للوالدين فإن الله سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه إضافة إلى حفظ دينهما.

* ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الذي أقمته فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحًا. أي حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما لكونهما صغيرين عدما أباهما، وحفظهما الله أيضًا بصلاح والدهما. ولما كان أهل هذه القرية بهذا الشُّح الذي رأيته فكان من الحكمة حماية مالهما حتى يبلغا رشدهما، ولهذا هدمت الجدار وأعدت بناءه على أساس متين، وهذه الأشياء التي فعلتها لم أفعلها من عند نفسي، وإنما ذلك من رحمة الله بعباده وبأمره سبحانه، وذلك الذي فسرته لك: ﴿تَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾.

وبهذا نكون قد قدّمنا عرضًا موجزًا لأحداث القصة، ولكن في هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد والأحكام والقواعد الشرعية الشيء الكثير؛ منها: فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في طلبه، بل وترك القعود عند بني إسرائيل لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر لزيادة العلم.

وهذه الأمور وغيرها مما يقتضي تفصيلها مقالا مستقلا، فإلى ذلك أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

والله من وراء القصد.

قصة موسى عليه السلام

القسم الثاني [٨]

بقلم
عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله كان فضل الله عليه عظيمًا.

أما بعد:

فقد وعدناك أخي الكريم بالوقوف مع فقه قصة موسى مع الخضر عليهما السلام وشيء من الفوائد والقواعد المستنبطة منها، وقد جاء أوان الوفاء بذلك، فنبدأ مستعينين بالله عز وجل فيما شرعنا فيه، ونوجزه فيما يلي:

أولاً: من فقه القصة:

١- ضرورة رد العالم العلمَ إلى الله مهما بلغ علمه ومهما عَلَتْ منزلته، ولذلك عتب الله على موسى قوله: «لا أعلم على الأرض أعلم مني». ومع صحة هذه العبارة وسلامتها؛ لأن موسى عليه السلام يتكلم في حدود علمه، أقول: ومع ذلك فإنَّ الله سبحانه عتب على موسى إذ لم يرد علم ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، فأخبره الله جل وعلا أن هناك عبدًا لا يعلمه موسى هو على علم من الله لا يعلمه موسى، وكان من أجل ذلك هذا اللقاء بين موسى والخضر عليهما السلام، وليس هذا نقصًا في حق موسى بل توجيه إلى كمالات أولي العزم كما وجَّه الله نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]. ومهما يكن من أمر فموسى كليم الله ومن أولي العزم من الرسل.

٢- إن العلم المطلق لله سبحانه وتعالى بجميع الأمور صغيرها وكبيرها وعلم الخَلْق جميعًا من لدن آدم إلى يوم القيامة لا يساوي شيئًا في علم الله ولذا قال الخضر لموسى في أول اللقاء بينهما: «إن علمي وعلمك في علم الله كقدر ما استقى الخطاف من هذا الماء». أو كما قال.

٣- ليس في القصة ما يشير إلى فَضْل الخضر على موسى، أو زيادة علمه على علم موسى، وكما هو معلوم: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٥].

٤- إن الشريعة التي كان عليها الخضر لم تكن في حقيقتها مخالفة لشريعة موسى وإنما كان يخفى على موسى الأسباب التي من أجلها فعل الخضر ما فعل، ولذا لم يستنكر موسى منها شيئًا عندما علم الأسباب، وهنا قواعد فقهية سنذكرها بعون الله بعد قليل.

٥- أن الخضر لم يكن يعلم الغيب فعلمُ الغيب موكول إلى الله سبحانه وتعالى، وقد يطلعُ بعض رسله وأنبيائه من غيبه بالقدْر الذي يريد لحكمة أرادها سبحانه، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦- ٢٨].

بهذه الضوابط وتلك الشروط المذكورة في الآيات الكريمة يُطْلِعُ اللهُ على بعض غيبه من شاء لما شاء، ولو كان الخضر يعلم الغيب لعرف موسى عندما سلَّمَ عليه، ولكنه لم يعرفه، ففي الحديث السابق الإشارة إلى ذلك عندما سلَّم موسى على الخضر، فقال له الخضر:

«من أنت؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم...».

فلو كان الخضر يعلم الغيب لعلم اسم موسى من أول لحظة، ولكنه لم يعلم، ومع ذلك ضلَّ في قصة الخضر أقوام ووقعت فيها أوهام وشبهات سنعرض إليها بعون الله في مقال مستقل.

٦- لا شك أن ما فعله الخضر فعَله عن وحي حقيقي من الله وليس عن مجرد إلهام؛ لأنَّ قتل النفس- كما فعل في الغلام- لا يجوز بمجرد الظن، ولذلك قال الخضر: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾. فلم يفعل الخضر ما فعل إلا عن أمر الله الصادق ووحيه القطعي، فقد كان الخضر نبيًا على الأرجح من أقوال أهل العلم.

٧- ومثل هذا الأمر الذي كان عليه الخضر والوحي القطعي قد انقطع بوفاة النبي محمد ﷺ فلا وحي بعده، ومن ادعى شيئًا من ذلك فقد كفر بالقرآن الذي أُنزل على محمد ﷺ، حيث يقول الله فيه: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال ﷺ: «وخُتِمَ بي النبيُّون فلا نبي بعدي». رواه مسلم.

٨- إن الله لا يقضي للمسلم قضاءً إلا وهو خير له، وعلى المسلم أن يرضى بذلك ويؤمن به في جميع الأحوال، ومن ذلك فَقْد الأولاد وإن كانوا قِطَعًا من الأكباد، وقد يفرح الأبوان بمولد ولدهما ويحزنان لموته وهما يعلمان أنَّ في موته خيرًا لهما، وهذا الغلام الذي قتله الخضر بإذن الله كان في بقائه إرهاق لوالديه وكفر لهما، ومن رحمة الله بهما أن أبدلهما خيرًا منه: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ثانيًا: الفوائد والدروس المستفادة:

١- ما اشتملت عليه القصة من فضيلة العلم وشرفه، ومشروعية تحصيله، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور؛ فإن موسى عليه السلام رحل في طلبه مسافة طويلة ولقي من النَّصب ما لقي، وترك الإقامة عند قومه لتعليمهم وهم أحوج ما يكونون إليه واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.

٢- ومنها البداءة بالأهم فالمهم؛ فإن زيادة علم الإنسان بنفسه أهم من ترك ذلك اشتغالاً بالتعليم فقط.

٣- ومنها إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان تأدبًا مع الله وإن كان كلٌّ من عند الله كما فعل فتى موسى فقال: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾.

وأيضًا كما فعل الخضر وتأدب مع الله في اختيار الألفاظ فنسب ما ظاهره الشر لنفسه فقال: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾. ونسب ما ظاهره الخير لله، فقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾.

٤- ومنها التأدب مع المعلم والتلطف في خطابه لقول موسى عليه السلام للخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾. فاخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة، والاستئذان، وإظهار حاجته إلى المعلم، هذا بخلاف حال أهل الكِبْر والجَفاء الذين لا يظهرون حاجتهم إلى المعلم؛ فلا أنفع للمتعلم من إظهار حاجته إلى المعلم وشكره على تعليمه.

٥- ومنها تواضع الفاضل للتعلم ممن هو دونه، فإن موسى بلا ريب أفضل من الخضر- ولا يماري في ذلك إلا جاهل أو زنديق- ومع ذلك تواضع للخضر.

٦- ومنها أن العلم النافع هو الذي يرشد صاحبه إلى الخير.

٧- ومنها أنه ينبغي للمرء إضافة العلم وغيره من الفضائل إلى فضل الله ورحمته.

٨- ومنها أن الصبر على العلم من أهم أسباب نواله، فمن لا صبر له لا يدرك مراده من العلم، وأن مما يعين على صبر المتعلم إحاطته بثمرة علمه ومنافعه ونتائجه، فمن لا يدري هذه الأمور يصعب عليه الصبر: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾. وخصوصًا عندما رأى وقوع جريمة قتل وهي من أبشع الجرائم.

٩- ومنها مشروعية تعليق إيجاد الأمور المستقبلة على مشيئة الله سبحانه: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا...﴾، وأنَّ العزم على الشيء بمنزلة فِعْلِه، لكن قد يحدث من الأمور ما لا طاقة للعازم عليه كما حدث لموسى عليه السلام.

١٠- ومنها: أنَّ الأحكام في الدنيا تجري على ظواهر الأمور؛ لأن الباطن موكول إلى الله، ولذلك اعترض موسى على الأمور التي ظاهرها الخطأ، رغم العهد والميثاق الذي بينه وبين الخضر.

ثالثًا: ومن القواعد المستنبطة من هذه القصة ما يلي:

١- القاعدة المشهورة عند أهل العلم بارتكاب أخف الضررين لدفع ضرر أكبر منه، أو تفويت أدنى المصلحتين لحصول مصلحة أعلى؛ فإن قتل الغلام الصغير شر، ولكن بقاءه حتى يبلغ ويفتن أبويه عن دينهما أعظم شرًا، وهذا الأمر لا يكون إلا بوحي يقيني، كما قدمنا في الأمور الغيبية، لكن الأمور الظاهرة تكون باجتهاد أهل العلم.

٢- ومنها أنَّ عمل الإنسان في مال غيره إذا كان على وجه المصلحة ودفع المضرة فإنه يجوز بلا إذن، حتى ولو ترتب عليه إتلاف بعض المال كما حدث في خرق السفينة.

٣- ومنها أن صلاح العبد ينفعه في نفسه وفي ذريته من بعده، كما بين ذلك الخضر لموسى فقال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، وأن خدمة الصالحين مقدمة على غيرها من الأمور.

واحسب أن في هذا القدر كفاية؛ من الفقه والفوائد والأحكام والقواعد المستنبطة، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

القسم الثاني (٩)

إعداد/ عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي خلق فسوّى، وقَدَّر فهدى، والذي أخرج المرعى، فجعله غثاءً أحوى، والصلاة والسلام على نبي الهدي، ورسول الرحمة محمد ﷺ.

وبعد أخي الكريم، وقفنا في اللقاءين السابقين عند عرض موجز لقصة الخضر مع موسى ﷺ، ثم عرض لمجمل الفوائد المستخلصة والقواعد المستنبطة، واتضح بما سبق المحتوى الإيماني والمغزى التربوي للقصة.

وكذلك اتضحت لنا الصورة الحقيقية والاعتقاد الواجب في الخضر عليه السلام، نعم الاعتقاد والتصور النابع من الكتاب والسنة، وأن الخضر إنما فعل ما فعل بوحي من الله جَلِيٍّ، وليس بإلهام خفيٍّ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢].

أقول ذلك لأنَّه قد ضَلّ في قصة الخضر أقوامٌ كُثُر من أهل التصوف ومن غيرهم، وقد شطحوا في فهم القصة شطحات، وأوحت إليهم أوهامهم فيها خيالات لا أصل لها، وضلَّ القوم في الأمر ضلالاً بعيدًا أدّى ببعضهم للتطاول على مقام النبوة والأنبياء- لا فرق في ذلك عندهم بين نبي أو رسول من أولي العزم- حتى قال قائلهم: «خضنا بحرًا وقف بساحله الأنبياء». يقصد هذا القائل أن الأولياء في زعمه خاضوا بحر الحقيقة، بينما وقف الأنبياءُ بساحل الشريعة وحدودها، ويعتقدون - استنادًا إلى استنباطهم السقيم من قصة الخضر - أن الخضر- وهو عندهم وليٌّ- عرف ما لم يعرفه النبيُّ. وعلى هذا فإنَّ الولي عندهم يتلقى من الله سبحانه مباشرة دون واسطة، بينما يتلقى النبي بواسطة، وأيضًا قالوا إن الأولياء يتلقون مباشرة من الله الحي الذي لا يموت، وسائر علماء الشريعة يتلقون علمهم عن الأموات، وغير ذلك من الشطحات التي لا تؤدي في النهاية إلا إلى هدم الدين من أساسه وتقويض بنيانه - نسأل الله العصمة - ومما يؤسف له أن هذه الأفكار الدخيلة على الدين قد شاعت وانتشرت بين قطاعات عريضة من الناس، ومن هنا وجب التنبيه عليها والتحذير منها وكشف شبهاتها، وسأنقل لك أخي القارئ فيما يلي من أقوال أهل العلم ما يوضّح الحقيقة ويزيل الشبهة بإذن الله.

ويمكننا ترتيب الشبهات الواردة وردّ العلماء عليها في الخطوات الآتية:

أولاً: مجمل الشبهات:

يقول صاحب الفضيلة الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق: «قصة الخضر عليه السلام التي وردت في القرآن الكريم في سورة الكهف، ووردت في السنة في صحيح البخاري وغيره،

حرَّفَ الصوفيةُ معانيها وأهدافها ومراميها، وجعلوها عمودًا من أعمدة العقيدة الصوفية- المخالفة للكتاب والسنة- فقد جعلوا هذه القصة دليلاً على أن هناك ظاهرًا شرعيًا، وحقيقة صوفية تخالف الظاهر، وجعلوا إنكار علماء الشريعة على من يسمونهم بعلماء الحقيقة أمرًا مستغربًا، وجعلوا الخضر مصدرًا للوحي والإلهام والعقائد والتشريع، ونَسَبَ الصوفيةُ طائفةً كبيرةً من علومهم التي ابتدعوها إلى الخضر، وليس منهم صغيرٌ أو كبير ممن دخل في طريقهم إلا وادّعى لُقيا الخضر والأخذ عنه- إلا ما شاء الله- وزعم المتصوفة أو أغلبهم أن الخضر حي أبد الدَّهر، وأنه صاحب شريعة وعلم باطن يختلف عن الشريعة الظاهرة، وأنه وليّ وليس بنبيّ، وأن علمه علمٌ لدنّي موهوب من الله بغير وحي الأنبياء، وأن هذه العلوم اللدنيّة تنزل على جميع أولياء الصوفية في كل وقت، قبل بعثة الرسول ﷺ وبعد بعثته، وأن هذه العلوم أكبر وأعظم من العلوم التي مع الأنبياء، بل وعلوم الأنبياء لا تدانيها ولا تضاهيها، فكما أن الخضر وهو وليٌّ فقط (في زعمهم) كان أعلم من موسى فكذلك أولياء الصوفية من أمة محمد هم أعلم من محمد ﷺ؛ لأن النبي محمدًا ﷺ عالم بالشريعة الظاهرة فقط، والوليّ عندهم عالم بالحقيقة الصوفية، وأن الحقائق الصوفية تختلف عن الشريعة المحمدية، ولذلك فلكل وليٍّ شريعته المستقلة، فما يكون معصية في الشريعة كشرْب الخمر والزنى واللواط، قد يكون حقيقة صوفية وقُربة إلى الله حسب العلم الباطني، وكذلك في أمر العقائد ومسائل الإيمان فلكل وليٍّ كشْفُه الخاص، وعلمه اللدنّي الذي قد يختلف مع الوحي النبوي، وهكذا جعل غالبية المتصوفة من قصة الخضر بابًا عظيمًا لإدخال كل أنواع الخرافات والزندقة والجهل والإسفاف. اهـ مختصرًا.

وهكذا ذكر الشيخ شطحات الصوفية في قصة الخضر، والتي ترجع في مجملها إلى ثلاث مسائل:

١- مسألة العلم اللدنّي.
٢- مسألة ولاية الخضر وعدم نبوته.
٣- مسألة حياته وعدم موته.

والآن جاء أوان ردّ تلك الضلالات وبيان الحق واضحًا، كما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وأقوال أهل العلم.

وكما راعينا الاختصار في عرض تلك الشطحات سنراعي أيضًا الاختصار في الردّ عليها ودحضها بعون الله تعالى.

أولاً: مسألة العلم اللدني:

يقول صاحب «أضواء البيان»: «إن المقرّر في الأصول أن إلهام الأولياء لا يجوز الاستدلال به، بل الأدلة على عدم الاستدلال به أكثر من أن تحصى، وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام، وما يزعمه بعض الجبرية أيضًا من الاحتجاج بالإلهام، جاعلين الإلهام كالوحي المسموع، مستدلين بظاهر بعض النصوص وبخبر: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» وكل هذا الزعم باطل لا يُعوّلُ عليه. ثم قال: وبالجملة. فلا يخفى على من له إلمام بمعرفة دين الإسلام أنه لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه، وما يتقرَّب إليه به من فعل أو ترك إلا عن طريق الوحي. فمن ادعى أنّه غني في الوصول إلى ما يرضي الله عن الرسل، وما جاءوا به ولو في مسألة واحدة فلا شك في زندقته، والآيات والأحاديث الدالة على هذا لا تحصى قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾ [الإسراء: ١٥]، ولم يقل حتى نلقي في القلوب إلهامًا.

وبذلك تعلم أن ما يدعيه كثير من الجهلة المدّعين التصوف من أن لهم ولأشياخهم طريقًا باطنة توافق الحق ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع، كمخالفة ما فعله الخضر لظاهر العلم الذي عند موسى، وهذا الادّعاء منهم زندقة أو ذريعة إلى الانحلال بالكلية من دين الإسلام.

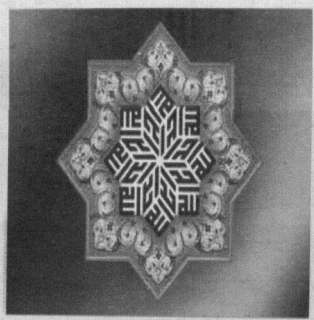

ويستطرد الشيخ رحمه الله معلّلا وموضحًا؛ «وما يستدل به بعض جهلة المتصوفة على اعتبار

الإلهام مصدرًا من مصادر الدين عند أوليائهم حديث: «استفتِ قلبك وإن أفتاك الناس وأفتَوْك» لا دليل فيه البتة على اعتبار الإلهام؛ لأنه لم يقل أحد ممن يُعتد به أن المفتي الذي تتلقى الأحكام من قِبَله هو القلب. بل معنى الحديث: التحذير من الشّبه؛ لأنَّ الحرام بيِّنٌ والحلال بيِّنٌ، وبينهما أمور مشتبِهة لا يعلمها كل الناس، فقد يفتيك المفتي بِحِلِّ شيء وأنت تعلم طريق حرمته استنادًا إلى الشرع؛ فإن قلب المؤمن لا يطمئن لما فيه الشُّبهة.

والحديث مثل قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». وقوله ﷺ: «البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس». رواه مسلم.

ولا شك أن المراد من مثل هذه الأحاديث: الورع وترك الشبهات، وليس الوقوع في الضلالات.

ويواصل الشيخ رحمه الله حديثه فيقول: «ومما يدل على ما ذكرنا من كلام أهل التصوف المشهود لهم بالخير والدين والصلاح- قول الشيخ أبي القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد رحمه الله: «مذهبنا هذا مقيّد بالكتاب والسنة». اهـ.

ونختم مسألتنا هذه اليوم بكلام نفيس للإمام القرطبي رحمه الله في تفسيره قال: «قال: شيخنا الإمام أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق لا تلزم منه هذه الأحكام الشرعية وتهدم الدين؛ فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب من خواطرهم. وقالوا: ذلك لصفاء قلوبهم من الأكدار، وخلوها عن الأغيار فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات؛ كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم، وقد جاء فيما ينقلون «استفت قلبك وإن أفتاك المُفْتون». قال الشيخ أبو العباس رحمه الله: «وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب؛ لأنه إنكار ما علم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سننه، وأنفذ حكمته بأن أحكامه لا تُعلم إلا بواسطة رسله، السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلِّغون عنه رسالته وكلامه، المبينون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك وخصهم بما هنالك، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥] إلى غير ذلك من الآيات. وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعي واليقين الضروري، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه إلا من جهة الرسل. فمن قال: إن هناك طريقًا أخرى يُعرف بها أمره ونهيه غير الرسل؛ حيث يستغنى عن الرسل- فهو كافر يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه سؤال وجواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا محمد ﷺ الذي جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبي بعده ولا رسول، وبيان ذلك أن من قال: يأخذ عن قلبه، وأنه يعمل بمقتضاه، ولا يحتاج مع ذلك إلى كتاب أو سنة فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، فإن هذا نحو ما قاله ﷺ: «إن رُوح القدس نفث في رُوعي» الحديث. انتهى من تفسير القرطبي.

وهكذا نقل الإمام القرطبي عن شيوخه تفنيد مزاعم أهل الضلال الذين يريدون هدم الدين من أساسه بما قذف الشيطان في قلوبهم من شبهات. كما نقل غير القرطبي من أهل العلم وذكرنا بعض أقوالهم وادعاءاتهم فيما يسمونه العلم اللدني، وليس لهم فيما فعله الخضر أدنى حجة، وسواء كان الخضر نبيًا أو وليًا فليس في ذلك تبرير بأي صورة من الصور لشطحات أهل الشطح.

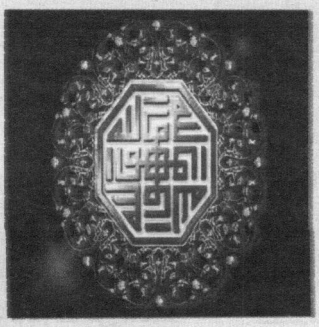

وسنواصل إن شاء الله بيان الحق في أمر الخضر؛ حياته وموته، نبوته أو ولايته، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقفات مع القصة في كتاب الله

قصة موسى والخضر عليهما السلام

القسم الثاني (١٠)

إعداد/ عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي يحق الحق ويُبطلُ الباطل وهو القائل في كتابه الكريم: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له أرسل رسوله محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره الكافرون... أما بعد:

٤- حول نبوة الخضر وولايته وحياته وموته

فيا أيها القارئ الكريم، ألهمني الله وإياك رشدنا ووقانا شرّ أنفسنا، وبعد: انتهى بنا الحديث في لقائنا السابق بذكر حقائق أهل العلم التي دمغت أباطيل أهل الزيغ حول موضوع العلم اللدني الذي نسجت منه أوهام جهلة المتصوفة دينا اعتنقوه يخالف ما جاءت به رسل الله وما أنزله الله في كتبه وما جاء به قرآن ربنا وسنة نبينا محمد ﷺ، ولا نريد أن نعيد ما ذكرنا في المقال السابق؛ ولكن القوم أقاموا شطحاتهم على فهم سقيم لقصة الخضر عليه السلام مع موسى عليه السلام، وما قالوا به، قالوا: بحياة الخضر عليه السلام المستمرة وأنه لم يمت ولن يموت، وقالوا كذلك بولايته وعدم نبوته، وذكرنا فيما ذكرنا أن قولهم بالعلم اللدني على النحو الذي اعتقدوه ليس فيه حجة البتة من قصة الخضر سواء كان الخضر نبيًا أو وليا وسواء كان حيًا أو ميتًا، وأما مسألة ولاية الخضر عليه السلام أو نبوته واستمرار حياته أو موته، فهذه مسألة أخرى سنبين فيها وجه الحق إن شاء الله بأدلته الشرعية من الكتاب والسنة ومن أقوال سلف الأمة من أهل الفقه والحديث والتفسير، وعلى الله نتوكل ومنه نستمد العون ونسأله التوفيق والسداد.

أولاً: مسألة: هل الخضر نبي أو ولي؟

١- يقول صاحب روح المعاني في تفسيره قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا﴾: «الجمهور على أن المقصود بالرحمة الوحي والنبوة، وقد أُطلقت على ذلك في مواضع من القرآن، وأخْرَجَ ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وهذا قول من يقول بنبوته عليه السلام، وفيه أقوال ثلاثة، فالجمهور على أنه عليه السلام نبي وليس برسول، وقيل هو رسول، وقيل هو ولي وعليه القشيري وجماعة، والمنصور ما عليه الجمهور، وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة وبمجموعها يكادُ يحصلُ اليقين». انتهى.

فها هو الشيخ الألوسي رحمه الله ينقل الاختلاف في أمر نبوة الخضر وولايته ورسالته، ولكنه رحمه الله ينتصر لرأي الجمهور القائل بنبوته؛ لأنّ هذا الرأي أدلته واضحة من الآيات

والأخبار .

٢- ونذهب الآن للإمام ابن كثير رحمه الله حيث يذكر لنا هذه الأدلة بشيء من التفصيل فيقول: «وقد دلَّ سياق القصة على نبوة الخضر من وجوه : أحدها : قوله تعالى : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥]».

الثاني : قول موسى له : ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٦٦-٧٠] .

ويعلّق ابن كثير على الآيات فيقول : «فلو كان وليا وليس بنبي لم يخاطبه بهذه المخاطبة، ولم يرد على موسى هذا الرد، بل موسى إنما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به دونه، فلو كان غير نبي، لم يكن معصومًا ولم تكن لموسى- وهو نبيّ عظيم ورسول كريم واجب العصمة- كبير رغبة ولا عظيم طلبة في علم ولي غير واجب العصمة، ولما عَزَمَ على الذهاب إليه والتفتيش عنه، ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه، واتبعه في صورة المستفيد منه فدل على أنه نبي مثله يوحى إليه كما يوحى إليه؛ وقد خصَّه الله ببعض العلم الذي لم يطلع عليه موسى الكليم.

يقول: وقد احتج الرماني أيضًا بهذا المسلك الثالث: أن الخضر أقدم على قَتْلِ الغلام، وما ذاك إلا بوحي إليه من الملك العلام، وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته، لأن الولي لا يجوز له الإقدام على قتل النفوس بمجرد ما يُلقى في خَلَدِه، لأن خاطره ليس بواجب العصمة، إذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق لكن لما أقدم الخضر على قتل الغلام لأنه عنده فيه من الله برهان دلَّ ذلك على نبوته، وأنه مؤيد من الله بعصمته. يقول: وقد رأيت الشيخ ابن الجوزي يسلك هذا المسلك بعينه في الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه .

الرابع: أنه لما فسَّر الخضر تأويل الأفاعيل لموسى ووضح له عن حقيقة أمره، قال بعد ذلك كله: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ يعني : ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمر أمرت به وأوحي إلي فيه .

ثم قال الإمام بعد عرضه هذه الأدلة : فدلت هذه الوجوه على نبوته، ولا ينافي ذلك ولايته بل ولا رسالته، كما قال آخرون، وإذا ثبتت نبوته كما ذكرناه : لم يبق لمن قال بولايته وأن الولي قد يطلع على حقيقة الأمور دون أرباب الشرع الظاهر مستند يستندون إليه ولا معتمد يعتمدون عليه . انتهى من البداية والنهاية مع تصرف يسير .

٣- وبالنسبة لقوله تعالى : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف : ٦٥] . يستدل بها الشيخ الشنقيطي رحمه الله صاحب أضواء البيان على نبوة الخضر، فيقول : «إن الرحمة يأتي إطلاقها على النبوة في القرآن، وكذلك العلم المؤتى من الله تكرر إطلاقه في القرآن أيضًا على علم الوحي، فمن إطلاق «الرحمة على النبوة قوله تعالى «الزخرف»: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ...﴾ الآية، أي نبوته حتى يتحكموا في إنزال القرآن على رجل من القريتين عظيم، وقوله تعالى في سورة «الدخان»: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (٤) أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٥) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ الآية، وقوله تعالى من آخر القصص: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ...﴾ الآية. ومن إطلاق إيتاء العلم على علم النبوة قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾، وقوله : ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ الآية، إلى غير ذلك من الآيات. اهـ.

٤ . أما الإمام القرطبي فيوجز المسألة ويقول رحمه الله : «هو نبي عند الجمهور، الآية تشهد بذلك ؛ لأن النبي ﷺ لا يتعلم ممن هو دونه، ولأن الحكمة بالباطن لا يطلع عليها إلا الأنبياء». اهـ.

ثانيًا : أما مسألة كونه حيًا أو ميتًا بمعنى : هل مات الخضر أم لا

يزال على قيد الحياة ؟ اعلم أن العلماء اختلفوا في هذا، فذهب كثير من أهل العلم إلى أنه حي وأنه يشرب من عين تسمى عينُ الحياة، ومن نَصَرَ القول بحياته القرطبي في تفسيره، والنووي في شرح مسلم وغيره، وابن الصلاح، والنقاش وحكايات كثيرة عن أهل التصوف.

قال ابن عطية : «وأطنب النقاش في هذا المعنى وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب وغيره، وكلها لا تقوم على ساق». اهـ.

وقال ابن كثير رحمه الله : «وقد تصدى الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله في كتابه عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات، فبين أنها موضوعة، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم فبين ضعف أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها، وقد أجاد في ذلك أحسن الانتقاد». انتهى كلام ابن كثير.

وقال الشيخ محمد الأمين صاحب أضواء البيان رحمه الله : «وحكايات الصالحين عن الخضر أكثر من أن تحصر، ودعواهم أنه يجتمع هو وإلياس كل سنة، ويروون عنهما بعض الأدعية، كل ذلك معروف، ومستند القائلين بذلك ضعيف جدًا؛ لأن غالبه حكايات عن بعض من يُظن به الصلاح، ومنامات وأحاديث مرفوعة عن أنس وغيره، وكله ضعيف لا تقوم به حجة.

ويتابع الشيخ رحمه الله حديثه قائلاً: «ومن أقوى الأدلة عند القائلين بحياة الخضر التعزية حين توفي النبيُّ ﷺ والذي ذكره ابن عبد البر في تمهيده عن علي رضي الله عنه قال : لما توفي النبي ﷺ وسُجِّي بثوب هَتَف هاتف من ناحية البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، السلام عليكم أهل البيت: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ الآية، إن في الله خلفًا من كل هالك، وعوضًا من كل تالف، وعزاء من كل مصيبة فبالله تقووا، وإياه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب، فكانوا يرون أنه الخضر؛ يعني أصحاب النبي ﷺ.

ثم يقول الشيخ رحمه الله : والاستدلال على حياة الخضر بآثار التعزية كهذا الأثر الذي ذكرناه آنفًا مردود من وجهين: الوجه الأول : أنه لم يثبت بسند صحيح . ثم نقل قول ابن كثير رحمه الله، حيث قال : وحكى الثوري وغيره بقاء الخضر إلى الآن، ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكايات عن السلف وغيرهم، وجاء ذكره في بعض الأحاديث، ولا يصح شيء من ذلك، وأشهرها حديث التعزية وإسناده ضعيف . اهـ. من أضواء البيان.

وأقول بعد ذلك مستعينًا بالله سبحانه وتعالى: لو صحت الرواية لاشتهر الأمران للصحابة رضوان الله عليهم، ولوصل إلينا واضحًا جليًا، ثم إن الرواية تحمل في طياتها عنوان ضعفها بل وضعها ففيها قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، فهذه الآية الكريمة تستغرق كل نفس من لدن آدم إلى ما شاء الله، فكيف يستثنى منها الخضر عليه السلام، وسواء كان وليًا أم نبيًا فلا مجال للاستثناء من الآية وغيرها من الآيات التي توجب الموت على الجميع إلا بدليل، ولا دليل، وهل يعقل أن يموت إبراهيم وموسى وعيسى ومن قبلهم نوح ثم يموت خاتم النبيين محمد ﷺ ويبقى الخضر إلى يومنا هذا كما يدعون إلى قيام الساعة؟ ليس من العقل ولا من الشرع أن يقال ببقاء الخضر واستثنائه من الموت استنادًا إلى حكايات ورؤى ومنامات وإلى روايات موضوعة أو ضعيفة فالقول ببقاء الخضر وعدم موته قول لا ساق له مع احترامنا لمن قال ذلك من أهل العلم، فأدلته لا تستطيع أبدًا أن تثبت في مواجهة أدلة من قال بوفاته وممن قال بوفاته من أهل العلم وأئمة الفقه والحديث : البخاري، وإبراهيم الحربي، وأبو الحسن بن المنادي، وابن الجوزي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وابن كثير، وغيرهم خلق كثير - رحم الله الجميع- وأدلتهم قوية واضحة تعتمد على كتاب الله وسنة النبي ﷺ الصحيحة الثابتة.

ولكن أين أدلتهم ؟ سنوردها في العدد القادم إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين.

وقفات مع القصة في كتاب الله

قصة موسى والخضر عليهما السلام

دروس وعبر

القسم الثاني (١١)

إعداد/ عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أكرم المرسلين وخاتم النبيين والمبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد فقد عرضنا في اللقاء السابق قصة قارون كما جاءت في كتاب رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلْفِه لأنه تنزيل من حكيم حميد.

واليوم بعون الله وحوله وطوله ومدده نقف معك أخي القارئ الكريم على ما استطعنا أن نقف عليه من الدروس والعبر سائلين المولى عز وجل أن ينفعني وإياك بها، وإذ نشرع في المقصود نقول مستعينين بالله رب العالمين.

أولا: مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ...﴾ قارون كان من قوم موسى وعلى الراجح من أقوال أهل العلم كان ابن عم موسى وليس هذا فحسب، بل كان من أتباع موسى ومن المشهورين بحسن الصوت بالتوراة كما نقله ابن كثير عن ابن جريج وأكثر أهل العلم على ذلك ونقل ابن جريج عن قتادة بن دعامة قوله: «كنا نحدث أنه كان ابن عم موسى وكان يُسمَّى المنور لحُسنِ صوته بالتوراة؛ ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري لكثرة ماله، فها هو قارون رغم قرابته من موسى نسبًا وموافقته له في المنْهج بل كان من المعروفين المعدودين من قرَّاء التوراة، أقول ومع ذلك (بغى) عليهم، فما سبب البغي؟ وما مظاهره؟

أما سبب البغي فهو «كَثْرة مالِه» قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ فالمال كان سبب طغيان قارون على الرغم من قراءته للتوراة بل قيل: كان من السبعين رجلا الذين اختارهم موسى للميقات. لكن أعماه حب المال وأنساه الحق وجعله من قادة البغي، وصدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال: «احذروا المال فإن له ضراوة الخمر» حقًا، فكم من أقدام زلّت بعد ثبوتها، وكم من قلوب قست بعد خشوعها، وكم من أفئدة انقطعت عن الله بعد اتصالها، بل وكم من نفوس كفرت بالله بعد إيمانها بسبب المال، وصدق النبي ﷺ حين قال «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار» جزء من حديث رواه البخاري، فالمال فتنة وأي فتنة!، ومن هنا جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تحذِّر من الافتتان بالمال، ونذكر من تلك الأحاديث على سبيل المثال لا الحصر: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدِّينار والدِّرهم أهلكا من قبلكم وهما مهلكاكم» [صحيح الجامع ٢٢٤٥] رواه البيهقي في شعب الإيمان.

وعن كعب بن عياض رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال»

رواه الترمذي والحاكم وصححه الألباني - رحمه الله - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله، فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» متفق عليه.

وقال ﷺ: «... فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكنني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم» متفق عليه جزء من حديث طويل.

وهذا الدرس من أهم الدروس المستفادة من قِصَّة (قارون) فانظر أخي الكريم كيف حوكَه طغيان المال من قارئ للتوراة ومن أصحاب الميثاق مع موسى عليه السلام إلى عابد للمال كافر بكل ما سواه، وقد كان الأجْدَرُ به أن يعمل بالمال في طاعة الله، وقد نصحه قومه بذلك وقدَّموا له خمس نصائح غالية ثمينة:

الأولى: «لا تفرح إن الله لا يحب المفرحين» والفرح المنهي عنه هنا الأشر والبطر والتكبُّر، لأن الله لا يحب المتكبرين قال مجاهد: «الفرح» «الأشر والبطر. أي: الذي يدعو صاحبه إلى الوقوع فيما يغضب الله وينسيه ذكره سبحانه وشكره» اهـ.

وقال صاحب روح المعاني «والفرح بالدنيا مذموم لذاته لأنه نتيجة حبِّها والرضا بها والذهول عن ذهابها» وأقول: قد ذمَّ الله هذا المسلك وجعله من صفات الكافرين فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ (٧) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:٧، ٨]، ولكي تكمل الفائدة من هذا الموقف نقول: إن حب الدنيا لذاتها هو المذموم أما حبها لكونها وسيلة لأمر من أمور الآخرة فغير مذموم فالمال وسيلة وليس غاية والدنيا ممر وليست مستقرًا وهي قنطرة ومزرعة للآخرة.

ولذلك جاءت النصيحة الثانية من الصالحين إلى (قارون) ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ﴾ [القصص:٧٧]، أيَ استعمل المال فيما أمرك الله حتى تفوز بما وعد به عباده الصالحين في الآخرة.

وكانت النصيحة الثالثة: ﴿وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]، أي مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن، والمناكح بغير سرف ولا مخيلة، فإن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقًا ولزوجك عليك حقًا وللفقراء والمساكين وذوي القربى في مالك حقًا فأعط كل ذي حق حقه.

وجاءت النصيحة الرابعة: «وأحسن كما أحسن الله إليك» أي أحسن إلى خَلْقِ الله في القول والعمل كما أحسنَ الله إليك بالعطاء، وهذه إشارة طيبة من الناصحين وهم كأنما نصحوه بعدم التكبرُ والبغي بالمال لأن المال مال الله هو سبحانه الذي منحك إياه وهو سبحانه الذي يملك أن يمنعك إياه في أي لحظة فلا مجال لك أن تتكبر به.

ومن هنا جاءت النصيحة الخامسة: «ولا تبغ الفساد في الأرض» فالمال إنما جعله الله لإقامة العدل في الأرض، وليس للعلو في الأرض والتكبر فيها بغير الحق والعمل بالمعاصي.

وهذه الوصايا تنبع من مشكاة النبوَّة فلا يُستبعد أن يكون الذي أوصَى بها موسى عليه السلام أو أخوه هارون، أو هما معا عليهما السلام.

ثانيًا: ما تقدَّم كان بسبب بغي قارون، وحان الوقت للحديث عن بعض مظاهر بغي قارون؛ ولعل من أبرز تلك المظاهر رده الحق ورفضه نصيحة الناصحين له فكان ردُّه عليهم: «إنما أوتيته على علم عندي» فدفعه الكبرُ إلى بَطر الحق وعدم قبوله، ولم تنفعه قراءته للتوراة ولم تنفعه صحبته لكليم الله لما أعماه حبُّ المال وأصابه بالكبر، كما أن إبليس اللعين لم ينفعه علمه ولم تنفعه صحبته للملائكة الكرام ولا وجوده بالملأ الأعلى، لم ينفع إبليس ذلك كلُّه حين امتلأ قلبه كبرًا وحسدًا فردَّ أمر الله الواضح الصريح بعقله الفاسد القبيح، كذلك أهل الكبر في كل زمان ومكان يردُّون الحق ولا يقبلونه من أحد إلا ما أُشرب في قلوبهم، ويحتقرون خَلْقَ الله.

وهذه المقولة التي قالها قارون عن عمْد وإصرار قد يقولوها بعض الناس وهم لا يشعرون كأن يقول أحدهم نجحت بذكائي وكونت ثروتي باجتهادي، وهزمت أعدائي بشجاعتي.

ولو أنصف هؤلاء لأسندوا الأمور إلى الله أولا ثم إلى أسبابهم الظاهرة، وقد تكون العبارة السابقة من (قارون) بمعنى أنه لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وهذا من انطماس بصيرته التي أعماها الغرور، وظنّ أن المال دليل على حبّ الله له ونسي أنه ابتلاء وفتنة، ولذلك ناسب أن يأتي التعقيب القرآني على كلام قارون المتقدم بقوله

تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصص:٧٨]، فليس المال أو عدمه دليلا على حبّ الله، وكذلك ليس المال والقوة مانعة من بطش الله؛ إنما الذي يعصم من غضب الله الاستقامة على دينه.

ومن مظاهر بغي (قارون) تكبره على قومه في كل شيء واحتقاره الناس ومن ذلك ما نقله المفسرون عن شهر بن حوشب من قوله عن قارون: «زاد في ثيابه شبرا طولا ترفعًا على قومه».

روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر وأبي هريرة - رضي الله عنهما - عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء خُسف به، فهو يتجلل في الأرض إلى يوم القيامة» وفي إحدى روايات مسلم: «إن رجلا ممن كان قبلكم يمشي في حُلَّةٍ..» فالكبر والخيلاء جريمة كبرى توبق صاحبها في الدنيا والآخرة، وهذا الرجل الذي أصابه الخسف كان متكبرًا والدليل على كِبْره أنه كان يمشي يجر إزاره خيلاء وهكذا فعل قارون، وجرُّ الثوب وإطالته واسباله تحت الكعبين قد نَهي النبي ﷺ عنه، وكثير من الناس لا يبالون بهذا الأمر رغم خطورته فهو إما أن يكون من الكِبْر، وسبق الكلام عنه، أو لا يكون الإسبال كبرًا ولا خيلاء فقد جاء النهي عنه والتحذير منه في أحاديث كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما رواه الإمام مالك وغيره من حديث أبي سعيد الخدري أن النبيَّ ﷺ قال: «أُزرة المؤمن إلى نصف ساقه وما أسفل من الكعبين ففي النار، ومن جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه» فإسبال الإزار أسفل الكعبين محرَّم حتى ولو لم يكن كبرا وأمَّا إن كان كبرا فهذا أمر آخر.

هذا وقد بلغ كبرُ قارون واستخفافه بقومه منتهاه حين خرج عليهم في زينته «فخرج على قومه في زينته» خرج في رياشه ومراكبه وخَدَمِه وعبيدِه وأمواله، خرج في هذا الموكب لا لشيء إلا البطر والأشر والخُيلاء وفتنة الضعفاء من قومه أتباع موسى عليه السلام، ولما بلغت الفتنة غايتها جاء أمر الله. كما قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ [القصص:٨١].

ثالثًا: العلم النافع يعصم من الفتنة:

وقد ظهر هذا جليا عند بروز قارون في زينته، فقد انقسم الناس إلى فريقين؛ أولي العلم الذين لم ينخدعوا بهذه الزينة الزائفة، وعلموا أنها إلى زوال سريع، وأن عاقبتها أليمة في الدنيا والآخرة طالما أنها في غير طاعة الله، وقد ظهر ذلك في ردِّهم على ضعاف العلم والإيمان الذين بهرتهم زينة قارون وقالوا: «.. يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم».

هذا موقف ضعاف الإيمان، وقد وصفهم الله بأنهم يريدون الحياة الدنيا، وذلك لجهلهم بحقيقتها وحقيقة علاقتها بالآخرة. أما الذين أوتوا العلم فكان لهم موقف آخر فقد قالوا للمخدوعين: «ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون» هذا قول في الغاية من الحكمة والصواب وقد يحتاج منا التعليق عليه إلى صفحات لكن نكتفي بقوله تعالى: ﴿ .. قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر:٩]، هذا في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة.

رابعًا: التعقيب القرآني:

عقَّب القرآن الكريم على القصة مرتين في نهايتها.

الأولى: بعد الخسف مباشرة فقال تعالى: ﴿ ... فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ [القصص:٨١]، أين ذهبت أموال قارون وديارِه وخدمه وحاشيته؟ ما استطاع أحد أن يمنعه من أمر الله، ولا يستطيع أحد في الماضي ولا في المستقبل أن يقف أمام أمر الله وقدره إذا جاء فهو سبحانه القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، فقهره عن قدرة وقدرته عن علم وحكمة.

الثانية: ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ [القصص:٨٣]، جاء هذا التعقيب بمثابة إعلان هام وقاعدة كلية تحكم حياة الناس، فاعتبروا يا أولي الأبصار، فإن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول قد جعلها الله سبحانه وتعالى للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا، قال الألوسي نقلا عن عكرمة وغيره (العلو في الأرض) التكبُّر وطلب الشرف عند السلاطين والملوك و«الفساد» العمل بالمعاصي وأخذ بالمال بغير حقِّه ووضعه في غير مستحقه. اهـ. وجماع الأمر يا عباد الله في تقوى الله فهي الميزان وهي طوق النجاة في الدنيا والآخرة والعاقبة للمتقين».

والحمد لله رب العالمين.

قصة موسى عليه السلام

القسم الثاني (١٢)

قصة قارون مع موسى عليه السلام

• الحلقة الأخيرة •

إعداد/ عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي بيده الملك والملكوت، أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وأرسل موسى بآياته وسلطان مبين إلى فرعون وهامان وقارون، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين من بعثه ربه رحمة للعالمين.. وبعد:

قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٧٦- ٨٣].

أخي القارئ الكريم، تحدثنا في العدد السابق عن لمحات من قصة نبي الله موسى عليه السلام مع قارون، وفي هذا العدد نتكلم بشيء من التفصيل، وذلك من خلال سورة القصص، بعد أن بسط الله سبحانه وتعالى ذكر القصة في هذه السورة الكريمة.

أولاً: مدخل:

١- علاقة قصة قارون بقصة موسى واضحة: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾، لكن هل وقعت القصة قبل عبور موسى وقومه البحر أو بعد العبور؟ الراجح- والله أعلم- أنها كانت بعد عبور موسى وقومه، وهذا الذي يؤكده سياق القصة، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

٢- أما مناسبة ذكر القصة وحال المسلمين في مكة؛ فقد جاءت تسلية للنبي ﷺ والذين آمنوا معه الذين كانوا يواجهون طغيان

المشركين من أهل مكة أصحاب الجاه والسلطان والمال، كما جاءت الآيات تهديدًا ووعيدًا لهؤلاء المستكبرين إنْ أصروا على كُفرهم واستكبارهم أن يصيبهم من العذاب مثل ما أصاب قارون ومن سبقه من أهل الظلم والبغي وحينئذ لا يجدون لهم وليًا ولا نصيرًا؛ وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

ثانيًا: عرض مجمل لأحداث القصة من خلال فهم الآيات الكريمة السابقة يتمثل في الخطوات التالية:

أ- طغيان قارون على قومه:

تبدأ الآيات الكريمة بتحديد نسب قارون والتعريف بشخصه وأنه من قوم موسى، وعلى قول أكثر المفسرين هو ابن عم موسى، وقيل: كان من الماهرين في قراءة التوراة العالمين بها، وكان من السبعين الذين اختارهم الله للميقات، لكنه نافق بعد ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم تُقَرِّرُ الآيات مَسْلك قارون مع قومه إذ بغى عليهم؛ وأنَّ سبب هذا البغي هو الثراء العريض والمال الكثير الذي آتاه الله قارون، وبلغ من كثرة هذا المال أنَّه كنوز، وأن هذه الكنوز من كثرتها تَتْعَبُ المجموعةُ من الرجال بل تعجز عن حمل مفاتحها.

وكانت صور بغي قارون كثيرة ومتعددة أشار إليها جميعًا علماء التفسير، فقال شهر بن حوشب: كان بغيه: «أن زاد في طول ثوبه شبرًا»، قال القرطبي تعليقًا على ذلك: وفي الحديث: «لا ينظر الله إلى من جرَّ إزاره بطرًا». رواه البخاري، وقال الضحاك: بغيه: كفره بالله عز وجل، وقال قتادة: بغيه بالتكبر على قومه واستخفافه بهم؛ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حسد موسى على الرسالة وحسد هارون على الإمامة.

وقال يحيى بن سلام وابن المسيب: كان قارون غنيًا عاملاً لفرعون على بني إسرائيل فتعدى عليهم وظلمهم، وكان منهم، وكل ذلك من مظاهر بغيه- والله أعلم.

نصيحة أهل الصلاح:

ب- لما رأى الصالحون- من قوم موسى ومن أقارب «قارون» ما عليه قارون من فساد وطغيان قد يؤدي به إلى الهلاك نصحوه نصيحةً أمينة، نصيحةَ من يعلم عواقب الأمور؛ فقالوا له: «لا تفرح» أي لا تتكبر وتغتر بمالك ولا تكن من الغافلين، واعترف بالنعمة لمسديها وهو الله سبحانه واعرف حقَّه فيها بوضعها فيما أمرك وأحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك، ولا تنس نصيبك من الحلال المباح في الدنيا.

ج- جحود النعمة والكفر بالمنعم سبحانه:

لم يقبل قارون نصيحة قومه ولم يتراجع عن غيِّه بل تمادى في عناده وبغيه ورد على الناصحين بقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ وهذه الجملة على وجازتها تحمل شتى معاني الفساد والإفساد، فقارون كفر بالنعمة وجحد المنعم سبحانه، وحاصل هذه الجملة هو الفساد بجميع صوره؛ لأنه سيتصرف في المال باعتباره صاحب السلطان المطلق فيه، فهو الذي جمعه بجهده وعلمه وهو صاحب التصرف فيه بلا وازع من شَرْع أو دين، وإنما حسبما يمليه عليه هواه، وسينظر للناصحين نظر سوء، ويتهمهم بما ليس فيهم.

د- موقف الناس من الفتنة:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ خرج قارون يستعرض قوته وأمواله في موكب زينة، وكأنه يقول بلسان الحال، إذا كان موسى أُعطى التوراة والرسالة فأنا أملك كل هذه الأموال وأستطيع أن أفعل بها ما أشاء، خرج يتحدى

موسى والصالحين من قومه، ويفتن العامة.

وانقسم الناس أمام هذا الموقف إلى فريقين: فريق ثابت على الحق لا يتزعزع إيمانه بمثل هذه الأمور وهؤلاء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، وهؤلاء لم يفتنوا.

ويقابلهم فريق من ضعاف الإيمان والعلم وهم الذين فُتِنُوا بما عند قارون وغرَّهم مظهر الزينة الزائلة وتمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون وأعلنوا ذلك صراحة بلسان المقال، فحذرهم الذين أوتوا العلم وقالوا لهم: ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾، وهذا قولٌ يدل على الرسوخ في العلم واليقين بما عند الله.

هـ- العقوبة العاجلة:

وعندما تبلغ الزينة ذروتها يضع الله سبحانه حدًا للفتنة وللعلو والاستكبار في الأرض بغير الحق، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾.

وهكذا أمر الله الأرض فابتلعته وابتلعت داره وذهبت زينتُه في لحظات، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاءً وفاقًا وذهب ضعيفًا عاجزًا لا ينصره أحد ولم ينفعه ماله الذي تكبَّر به.

هكذا طارت أحلام الذين تمنَّوا مكانه بالأمس، الذين طارت قلوبهم وتهاوت نفوسهم وتمنوا لأنفسهم مثل ما أوتي قارون ويحسبون أنه أوتي حظًا عظيمًا يشتهيه المحرومون.

و- العبرة بعد الغفلة:

وهكذا أفاق الذين أسكرتهم نشوة حبِّ المال، نعم أفاقوا من غفلتهم بعد رؤية الخسف الذي عاجل الجبارُ سبحانه به قارون، وهو شيء لم يكونوا يتوقعونه؛ نعم ربما رأى بعضهم أو جميعهم غرق فرعون في البحر هو وجنده لكنهم لم يكونوا يتخيَّلون أن الأرض الجامدة تبلتع هي أيضًا أعداء الله، لم يكونوا يدركون أن لله جنودَ السماوات والأرض، ويرسل الله جنده على من يشاء عندما يشاء.

انتبه الذين تمنوا مكانه بالأمس على المشهد الرهيب الذي تنخلع من هوله القلوب، ووقفوا يحمدون الله سبحانه وتعالى أن منَّ عليهم ونجَّاهم من الخسف، وبعد أن أخذ العجبُ بألبابهم أدركوا أن الله يبتلي عباده بالخير والشر، وأن الثراء العريض ليس دليلاً على رضا الله عن العبد؛ لأن الله سبحانه من سننه الكونية أن يوسع الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء، ابتلاءً وفتنة، فهي أسباب أخرى لا علاقة لها بالرضا والغضب، فإن الرضا والغضب يتوقف على أسباب أخرى وضحها الله في كتابه وعلى لسان رسله الأكرمين، ولو كان الثراء وحده دليل الرضا ما أخذ الله قارون هذا الأخذ الشديد العنيف، وعلموا كذلك أن الكافرين لا يفلحون أبدًا، وإن بدا ظاهرهم في الدنيا يأخذ بألباب ضعاف الإيمان؛ لذا ناسب أن التعقيب من رب العزة والجلال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

بهذا نكون قد انتهينا من بعض الدروس المستفادة من قصة قارون مع موسى، ولنا وقفة أخرى مع الدروس المستفادة من القصص القرآني، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وقفات مع القصة في كتاب الله

إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام

بقلم: عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله ذي الجلال والإكرام والعزّة التي لا ترام ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كل شيء هو خالقه ، وكل حي هو رازقه ، وكل نور هو مُشرقه، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ورحمته للعالمين ، أما بعد :

فمن المعلوم عن بني إسرائيل شدّة إيذائهم للأنبياء بشتى أنواع الإيذاء النفسي والبدني ، قال تعالى : ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧] ، هكذا وصف الله حال اليهود في التطاول على أنبياء الله، والآيات والشواهد كثيرة على تعنّت بني إسرائيل مع النبيين ، ومع كل من يأمر بالقسط ، وقد أشرنا في أحاديثنا السابقة إلى جوانب من ذلك ، وسنشير مستقبلاً إن شاء الله إلى هذا الأمر بشيء من التفصيل، لكننا اليوم بصدد الحديث عن لون محدَّد من الإيذاء الذي وقع على نبي الله وكليمه موسى عليه السلام ، وقد جاء ذِكْر ذلك في كتاب الله عز وجل وفي سنة نبينا محمد ﷺ.

١- قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقال تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف:٥].

٢- روى البخاري في صحيحه : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن موسى كان رجلاً حييًا ستيرًا لا يُرى من جلده شيء استحياءً منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص ، وإما أُدرة وإما آفة، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا ، فخلا موسى عليه السلام يومًا وحده يغتسل ، فوضع ثيابه على الحجر ، ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عَدَا بثوبه فأخذ موسى عصاه فرأوه عريانًا أحسن ما

خلق الله وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه وطفق بالحجر ضربا بعصاه، فوالله إن بالحجر لندبًا من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا ، فذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾.

وقوله : «آدر» أو «أدرة» أي : انتفاخ الخصيتين وكبر حجمهما .

والحديث ورد ذكره بروايات متقاربة في صحيح البخاري في أكثر من باب ، كما ورد أيضًا في صحيح مسلم ، والحديث كما نلاحظ جاء تفسيرًا لآية الأحزاب وموضحًا لنوع من أنواع إيذاء بني إسرائيل لموسى عليه السلام، وبنو إسرائيل الذين ما برحوا يُؤْذُون موسى عليه السلام بعصيانهم ومخالفتهم لمنهج الله حتى وصل بهم الأمر أن عبدوا عجلاً واعتبروه إلههم الذي لم يهتد إليه موسى ، وغير ذلك من الأمور العِظام التي تناولناها خلال حديثنا الطويل عنهم .

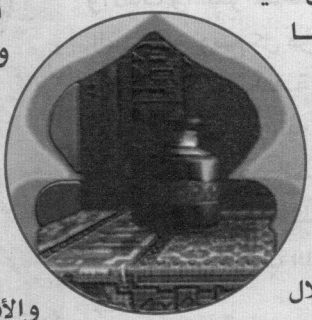

وهاهم يواصلون هنا إيذاء نبيهم ورسولهم الكريم الذي هو من أولي العزم، والذي كلَّمه ربه تكليمًا ، لكن الإيذاء هذه المرة في بدن موسى عليه السلام . كان موسى يغتسل يومًا وحده مستترًا عن الناس، لكن الجهَّال منهم فهموا مسلك موسى عليه السلام على غير الحق ، فأشاعوا بين الناس كذبًا وزورًا أن سبب استتار موسى عنهم إنما يرجع لعلَّة في بدنه أو عيب يخفيه عن الناس مثل البرص ، أو غِلَظِ خصيته أو غير ذلك من العيوب الجسدية ، ولا شك أن هذا القول فيه سفاهة ، وتطاول على مقام النبوة ، فأراد الله عز وجل أن يظهر براءة موسى من كل عيب خلقي وخُلقي فوقعت قصة هذا الحجر الذي حمل ثوب موسى وانطلق به عند القوم ، وخرج موسى من الماء يجري خلف الحجر ويقول للحجر : ثوبي ثوبي ، وعندما وصل الحجر إلى مجتمع بني إسرائيل وقف هناك ورأى بنو إسرائيل موسى عليه السلام سليمًا معافى لا عيب في بدنه فاكتمل له الكمال الذي لا تشوبه شائبة لا في خلقه ولا خُلُقه ، ولتخرس الألسنة التي أشاعت الكذب والبهتان ولتطمئن قلوب المؤمنين ، وتناول موسى ثيابه ولبسها ، وأخذ يضربُ الحجر ضرباتٍ متتالية بعصاه وهو يعلم أنه حجر لكنه فعل فعلاً لا تفعله الحجارة ففعل موسى معه فعلاً لا يُفعل بالحجارة .

الدروس والفوائد المستنبطة

١- عظم حياء موسى عليه السلام ، ومن حيائه عدم إظهار شيء من جسده للناس، فكان هذا ورعًا منه وموافقًا لأخلاق الأنبياء ، وكذا كان نبينا محمد ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها.

٢- أصحاب النفوس الضعيفة والأهواء المغرضة يؤولون مسلك الصالحين على حسب هواهم، وبئس ما يصنعون ، كما فعل الجهال مع موسى عليه السلام . وهذا من قلب الحقائق وتغييرها كما فعل قوم لوط بلوط وكما فعل فرعون بموسى .

٣- لم ينج الرسل والأنبياء من أذى أهل الجهالة فضلاً عن الصالحين وعلى المرء أن يواجه الأذى بصبر .

٤- برأ الله سبحانه موسى عليه السلام مما رماه المغرضون بطريقة قد تفاجأ بها موسى ؛ ولكنها أزالت الغمة ، وكشفت الشبهة، وكله لحكمةٍ بالغة.

٥- في هذا الحديث آيتان من آيات الله في خلقه : فرار الحجر بثياب موسى ، وليس من شأن الحجارة ذلك ، تأثر الحجر بالضرب الذي ظهر أثره عليه.

٦- الأنبياء أكمل الناس خُلقًا وخَلْقًا ، لأن الله يصطفيهم على أكمل وجه .

٧- إن اليهود أعداء الله ، وأعداء ملائكته ومنهم «جبريل وميكال» ، وأعداء الأنبياء، وأعداء الحق أينما كان، والتوراة التي حرّفوها طافحة بهذه العداوة ، ولولا خشية الإطالة لذكرت أمثلة عديدة ؛ لكن يكفينا أن الله لعنهم في كتابه على لسان رسله، وتوعدهم بالعذاب الأليم والخسران المبين في الدنيا والآخرة : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨] .

٨- لقد عاب اليهود على موسى عليه السلام حياءه ، وتستره ، وهل هذا خُلق يعاب؟ نعم يُعاب عند اليهود لأنهم منكوسو الفطر ، فإنهم يعتبرون التعري والانحلال والإباحية أسمى معاني الفن والرقي ، والحضارة والأناقة ، بينما يعتبرون الحياء والتستر والفضيلة - وبخاصة عند المؤمنات الفاضلات - تأخرًا وانحطاطا، ويعتبرون الحجاب الإسلامي ستارًا تخفي المؤمنة تحته قُبحها وأمراضها ، وتشوهات جسدها ، قبحهم الله ، إن اليهود لا يكفون عن نشر الرذيلة في أنحاء المعمورة ، وينطلقون بذلك من منطلق عقائدي.

يقول غوستاف لويون في كتابه «اليهود في تاريخ الحضارات الأولى» : «الزنى بالأخت، والبنت ، والأم ، واللواط ، والمساحقة، ومواقعة البهائم من أكثر الآثام كانت ولا تزال شائعة بين ذلك الشعب اليهودي. لقد خلطوا اللذات الآثمة بالطقوس الدينية ، فغدا السكر نوعًا من العبادة، هذا ماضيهم السحيق ، أما واقعهم المعاصر فهم مستنقع الرذائل».

يقول الكاردينال مردل : «لقد ثبت أن اليد اليهودية كانت دائمًا ولا تزال وراء صدور كل كتاب فاحش ومجلة عاهرة تستفزنا صورها وتشمئز منها نفوسنا».

وأقول جازمًا : إنه ما من مشهد خليع أو منظر فاجر أو كلمة خبيثة تقع على الأرض إلا وعلى اليهود إثمها الأول لأنهم من ورائه، ويتفاخرون بذلك ويعلنونه . يقول قائلهم وهو المدعو أوسكار ليفي : «نحن اليهود لسنا إلا سادة العالم ومفسديه ومحركي الفتن فيه وجلاديه».

هذه عقيدة اليهود وهذا سلوكهم ، الفساد والإفساد ، وصدق ربنا سبحانه وتعالى الذي وصفهم بقوله تعالى : ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة : ٦٤] . وليس بعد قول الله قول، وليس بعد وصف الله وصف ، وهذا يغنينا عن كثيرٍ من الاستشهادات لفساد اليهود في الأرض والتي لو جمعناها لملأت مجلدات، وتأمل قوة التعبير بقوله تعالى : «ويسعون» ، فإن في ذلك ما يشير إلى انطلاقهم في هذا الأمر بسعي حثيث نابع من عقيدة شيطانية عششت في عقولهم وظهرت في سلوكهم ، و«الفساد» يشمل الفساد في العقيدة ، والفساد في السلوك والأخلاق ، و«الأرض» تشير إلى الشمول .

٩- ينهى الله المؤمنين عن التشبه باليهود في إيذائهم لأنبيائهم وصالحيهم ، وكذلك التشبه بهم في شيء من عقيدتهم أو أخلاقهم أو سلوكهم : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴾ الآية .

هذا وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا بما نقول ، وأن يوفقنا لقول الحق والعمل به . وإلى لقاء . والسلام عليكم ورحمة الله .

وفاة موسى عليه السلام

إعداد
عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الباقي مالك الملك، وأشهد أن لا إله إلا الله الحي الذي لا يموت، والخلق جميعًا يموتون، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي خُيِّر فاختار الرفيق الأعلى، وكذلك فعل موسى عليه السلام. أما بعد:

فلعل أخي القارئ الكريم على ذكْر معنا لتتابع أحداث بني إسرائيل منذ خروجهم من مصر حتى دخولهم التيه حيث ضرب الله عليهم بهذه العقوبة يتيهون في الأرض أربعين سنة بسبب نكوصهم عن قتال الجبارين، وعصيانهم لأوامر الله رب العالمين، وعصيان موسى الكليم عليه من الله الصلاة وأتم التسليم، وقال القوم حينئذ له بكل جُبن وخور، وذل وهزيمة، وعدم تقدير للمسئولية: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ﴾.

وفيما سبق من دروس ومواقف تحدثنا عن هذا الأمر بالتفصيل وعما حدث لهم في التيه من أمور عجيبة.

ولا يزال بنو إسرائيل في التيه حتى توفى الله هارون عليه السلام، ثم أخاه موسى عليه السلام من بعده، وقد وردت قصة وفاة موسى في السنة الشريفة في أحاديث صحيحة ذكرها البخاري ومسلم وأحمد وغيرهم من أهل الحديث، ولما كان في هذه القصة بعضُ الأمور التي قد استغلق فهمها على بعض طلبة العلم، وقَدَحَ فيها بعض القادحين أردنا أن نُفرد لها حديثًا مستعينين بالله سائلينه سبحانه التوفيق والسداد.

روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام. فقال له: أجب ربك. قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها. قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني، قال: فردَّ الله إليه عينه، وقال: ارجع إلى عبدي فقل: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد فضع يدك على متن ثور، فما وارت يدك من شعره، فإنك تعيش بها سنة. قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت. قال: فالآن من قريب. رب أمتني من الأرض المقدسة رمية بحجر».

قال رسول الله ﷺ: «والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق، عند الكثيب الأحمر». هذا لفظ الحديث كما جاء في صحيح مسلم، وقد جاء الحديث في صحيح البخاري وفي مسند أحمد وعند ابن حبان وعند الحاكم مع تفاوت في ألفاظه، وهذا التفاوت يُكْمل بعضه بعضًا حتى تتضح صورة قصة ملك الموت مع موسى عليه السلام، وإذا أردنا عرض الصورة جمعًا بين الروايات فإننا نوجزها فيما يلي:

١- كان ملك الموت يأتي الناس عيانًا فأتى موسى عليه السلام على هيئة رجل لم يعرفه موسى في أول الأمر.

٢- ربما دخل الملك على موسى في هيئته البشرية، وربما استأذن ففوجئ به موسى فعاجله بلطمة على عينه ففقأتها. وكان موسى قويًا- كما نعلم.

٣- فوجئ الملك بهذه اللطمة فعاد أدْرَاجَه شاكيًا إلى ربه.

٤- أعاد الله للملك عينه وأمره بالعودة إلى موسى وتخييره بين الموت الآن أو بعد سنين تُقدَّر بمقدار ما يقع تحت قبضته من شعر الثور.

٥- طلب موسى عليه السلام التعجيل بموته، ودعا ربه أن يجعل قبره قريبًا من بيت المقدس لأنها كانت محرَّمة على بني إسرائيل عند موته.

٦- استجاب الله دعوة نبيِّه موسى، وقبضه بالمكان الذي أراد.

٧- أخبر الرسول محمد ﷺ بمكان قبر موسى على حدود القدس عند الكثيب الأحمر، وذلك من علم الغيب الذي أوحى الله به إليه.

وقبل أن نمضي في استخلاص العبر والدروس من هذه القصة نقف وقفة ننقل فيها ردود أهل العلم على محترفي إنكار الأحاديث وردِّها بعقولهم مع صحتها- دون النظر- في أشهر شروح هذه الأحاديث مثل فتح الباري وشرح صحيح مسلم، ويبدو أن ردّ الأحاديث بالعقل المجرد آفة قديمة استشرت في زمننا هذا ونشرع الآن في نقل كلام أهل العلم محاولين الاختصار قدر الإمكان:

أولاً: قال الإمام النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم عند كلامه على هذا الحديث في باب فضائل موسى عليه السلام: «قال المازري: وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث، وأنكر تصوره، قالوا: كيف يجوز على موسى فقْأ عين ملك الموت؟ قال: وأجاب العلماء عن هذا بأجوبة: أحدها: أنه لا يمتنع أن يكون الله سبحانه قد أذن لموسى في هذه اللطمة ويكون امتحانًا للملطوم، والله سبحانه وتعالى يفعل في خلقه ما يشاء، ويمتحنهم بما أراد.

والثاني: أن موسى عليه السلام لم يعلم أنه ملك من عند الله، وظن أنه رجل قصده يريد نفسه فدافعه فأدت المدافعة إلى ما حدث.

ثانيًا: قال ابن حجر في فتح الباري: قال ابن خزيمة: (أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث وقالوا: إن كان موسى عرفه فقد استخف به، وإن كان لم يعرفه فكيف لم يقتص منه؟) وقد أجاب ابن خزيمة عن هذا بتفصيل لخصه الخطابي ونقله أيضًا ابن حجر. قال الخطابي: (إن موسى دفعه عن نفسه لما رُكِّب فيه من الحدّة، وأن الله ردَّ عين ملك الموت ليعلم موسى أنه من عند الله فلهذا استسلم حينئذ». هذه بعض نقول أهل العلم حول هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث التي قد لا تروق لعقول البعض فيسارعون في ردّها بعقولهم على الرغم من صحتها سندًا، ولم يكلفوا أنفسهم قراءة تفسير واحد لتلك الأحاديث وتجرأوا على إنكارها، وكان الأولى بهم أن يرجعوا لكلام أهل العلم في شرح تلك الأحاديث، وإذا لم يقبل المسلم حديث رسول الله ﷺ رغم صحته فعليه أن يتهم عقله قبل أن يتهم الحديث الصحيح. هذا والله أعلم.

والآن جاء دور استخلاص الفوائد والعبر:

١- الموت حق لابد منه، ولو نجا منه أحدٌ لنجا منه أنبياء الله ورسله، وليس في الموت استثناء لنبي أو ولي: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠].

٢- من كرامة الأنبياء على ربهم أنه يخيِّرهم قبل قبض أرواحهم بين الموت أو تأجيله لحين، ولكنهم كانوا يختارون الرفيق الأعلى، ومنهم موسى عليه السلام.

٣- قد خير نبينا محمد ﷺ فاختار الرفيق الأعلى، بل قد أورد الحاكم في مستدركه أن النبي ﷺ قال لمولاه أبي مويهبة: «إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة، قال: فقلت: بأبي أنت وأمي خذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة».

[الحديث أخرجه الحاكم (٣/٥٥، ٥٦)، وقال: صحيح على شرط مسلم، وأقره عليه الذهبي]

والعبرة واضحة في فضل النبي ﷺ، ثم هوان الدنيا في مقابل الآخرة، وحتى لو كان الخلد في الدنيا ثم الجنة فما عند الله خير.

٤- تمثل الملائكة بصورة الإنسان كما جاء ملك الموت لموسى.

٥- تأدب موسى مع ربه سبحانه في طلبه حيث طلب منه أن يكون قريبًا من الأرض المقدسة، ولم يطلب دفنه فيها رغم حبِّه لذلك لأنه يعلم أنها مازالت محرمة على بني إسرائيل.

٦- هذا وقد أوصى موسى قبل موته لفتاه يوشع بن نون بخلافة بني إسرائيل من بعده، وفي ذلك بيان حرص موسى على استمرار رسالته من بعده، وفضل يوشع بن نون الذي أوحى الله إليه وصار نبيًا وقاد بني إسرائيل للخروج من التيه ودخول الأرض المقدسة، وسيأتي إن شاء الله الحديث عن ذلك.

فإلى لقاء استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

بنو إسرائيل بعد موسى

إعداد : عبد الرازق السيد عيد

خروج بني إسرائيل من التيه
بقيادة يوشع بن نون عليه السلام

الحمد لله مالك الملك مدبر الأمر يُعزُّ من يشاء ويُذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، والصلاة والسلام على البشير النذير محمد صلوات ربي وسلامه عليه وعلى إخوانه المرسلين .

أما بعد : فقد تقدَّم الحديث عن سبب العقوبة التي قضى الله بها على بني إسرائيل أربعين سنة يتيهون في الصحراء ، وقد تحدثنا كذلك عن فترة مكثهم في التيه وما حدث لهم من الأمور العجيبة ، إلى أن توفى الله موسى عليه السلام قبل خروج بني إسرائيل من التيه ، وكان قد مات أخوه هارون قبله بسنتين ، وظل موسى طيلة فترة التيه يربي جيلاً جديدًا من بني إسرائيل صادق الإيمان بالتوراة (التي نزلت على موسى) عاملاً بها ، وقبل وفاة موسى أوصى لفتاه يوشع بن نون بخلافته في بني إسرائيل من بعده ، ويوشع بن نون من تلاميذ موسى عليه السلام ، وقد جاء ذكر مصاحبته لموسى في رحلته إلى الخضر في سورة الكهف، وقد ذكر ابن كثير نسبه فقال : «هو الخليل يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام» كما نقل أيضًا : (إجماع أهل الكتاب على نبوته)، ولم يصرِّح القرآن بنبوته ، لكن الثابت أن الله سبحانه أوحى إليه بعد وفاة موسى وصار نبيًا قاد بني إسرائيل في أعظم ملحمة لهم ودخل بهم الأرض المقدسة ، وهذه معجزة أظهرها الله له وجعل عصره كله عصر انتصارات لبني إسرائيل بخروجهم من التيه في سيناء ودخولهم أرض الشام ، وقد أشارت السنة النبوية الصحيحة إلى هذه القصة فيما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «غزا نبي من الأنبياء ، فقال لقومه: لا يتبعني رجلٌ ملك بُضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ، ولما يبن بها ، ولا أحدٌ بنى بيوتًا ولم يرفع سقفها، ولا آخر اشترى غنمًا أو خلفات وهو ينتظر ولادها ، فغزا فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبًا من ذلك ، فقال للشمس: إنكِ مأمورة ، وأنا مأمور اللهم احبسها علينا فحبست حتى فتح الله عليهم . فجمع الغنائم ، فجاءت (النار) لتأكلها فلم تطعمها ، فقال : إن فيكم غلولا ، فليبايعني من كل قبيلة رجلٌ فلزقت يد رجل بيده ، قال : فيكم الغلول ، فليبايعني قبيلتك ، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة بيده ، فقال فيكم الغلول ، فجاءوا برأس بقرة من الذهب فوضعوها فجاءت النار فأكلتها ، ثم أحل الله لنا الغنائم ، رأى ضعفنا وعجزنا فأحلها لنا».

وفي هذا الحديث لم يأت التصريح باسم النبي ؛ لكن جاء

التصريح في روايات أخرى منها ما رواه أحمد بسند صحيح إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : «إن الشمس لم تُحبس على بشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس» . وقد استدل الحافظ ابن حجر بهذا الحديث في الفتح وخرجه . وقال ابن كثير : تفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري .

وبعد هذا العرض نريد أن نقف معًا الوقفات التالية :

١- شرحٌ مجمل لما ورد في الأحاديث .

٢- استخلاص الدروس والفوائد .

٣- ربط القصة بما نزل في سياقها من القرآن الكريم .

ونبدأ مستعينين بالله فيما قصدناه :

أولاً : خلاصة مجملة للقصة من الأحاديث في النقاط التالية :

* يوشع بن نون نبي كريم من أنبياء بني إسرائيل وقائد عظيم من قادتهم .

* أراد وهو يُعدُّ العدَّة لفتح بيت المقدس أن يختار جنوده من الذين أقبلوا على الله بالكلية وتركوا الدنيا وراء ظهورهم .

* لهذا السبب اشترط على من يحضر معه ألا يكون واحدًا من ثلاثة :

١- الذي عقد نكاحه ويستعد لبنائه على زوجته، ولم يبن بعد .

٢- المشغول ببناء بيتٍ أشرف على انتهائه ولم يتمّه بعد .

٣- الذي اشترى غنمًا أو نوقًا حوامل وهو ينتظر ولادتها.

* خرج يوشع بجيشه-إلى حيث أراد بيت المقدس، وتأخر الفتح إلى قبيل المغرب فدعا ربه أن يؤخر غروب الشمس ريثما يتحقق لهم النصر .

* استجاب الله دعاء نبيه - يوشع - وتأخر غروب الشمس حتى فتح الله عليهم .

* بعد انتهاء المعركة جمع الغنائم ليقدمها قربانًا لله ، وآية ذلك أن تأكلها النار.

* لم تأكل النار الغنائم في أول الأمر بسبب الغلول .

* طلب من قومه أن يصافحوه يدًا بيد حتى اكتشف الغلول وأحضره فأكلت النار الغنائم .

ثانيًا الدروس والفوائد :

* النصر في المعارك لا يكون بكثرة العدد ، ولكن بنوعية الرجال .

* الإخلاص لله وترك زينة الحياة الدنيا من أهم عناصر بناء الجند وتحقيق النصر بإذن الله.

* قد اعتمد يوشع (عليه السلام) ذلك المبدأ عند اختيار جنده لذلك اشترط عليهم ما اشترط مما يدل على خبرته بالقيادة .

* يوشع بن نون نبيٌّ كريم وقائد عظيم استجاب الله دعاءه وأمسك له الشمس عن المغيب واختصه الله دون غيره من البشر بهذه الآية إكرامًا له وتأييدًا ، ونصرًا ومؤازرة .

* لله القدرة التامة والحكمة البالغة ، والشمس والقمر آيتان من آياته يسيران بإذنه - سبحانه - وتقديره ، ولا ينكسفان لموت أحد أو حياته .

* في الحديث إرشاد لمن يتولى أمر المسلمين أن يختاروا أهل الفضل والعدل على أمور المسلمين قبل أن يختاروا أهل الثقة والولاء.

* النصر من عند الله وما عند الله لا يُنالُ إلا بطاعته .

* على الرغم من تصفية يوشع لجيشه من الذين يؤتى من قبلهم إلا أنه قد بقي فيه من ضعف إيمانهم، وهم الذين غلُّوا من الغنيمة.

* بيان إثم الغلول وأنه محرَّم في جميع الشرائع السابقة كما أنه محرَّم في الشريعة الخاتمة.

* لم تحل الغنائم لأمة قبل أمة محمد ﷺ ، فقد اختارها الله خير أمة وأكمل لها شريعتها وأتم عليها نعمته .

* في الحديث تصويب لما وقع في التوراة من تحريف ، فقد وصف العهد القديم عمليات الاقتحام والفتح بما تحتويه من البطش والعدوان والفتك بالبشر وصفًا تشمئز منه النفوس ، وتنفر منه القلوب في سفر يوشع في الفصل السادس مما يؤكد أن هذه التوراة كتبوها بأيديهم وليست من عند الله ، وتلك هي طبيعة قلوب بني إسرائيل القاسية وممارساتهم المخزية ، وما يحدث كل يوم في فلسطين خير شاهد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وقفات مع القصة في كتاب الله

بنو إسرائيل بعد موسى

الحلقة الثانية

طالوت وداود

أ. د. حسين عبد الرزاق السيد عليان

كان لقاؤنا السابق حول خروج بني إسرائيل من التيه، ودخولهم الأرض المقدسة بقيادة يوشع بن نون عليه السلام، وقد حكم يوشع بالتوراة مدة بقائه بينهم، ولما حانت وفاته؛ أوصى بني إسرائيل بالثبات على دينهم والتمسك بتوراتهم، لأن ذلك سبب عزتهم في الدنيا ونجاتهم يوم الدين، وتوالت عليهم الأحداث والسنون، ولما اشتهر به بنو إسرائيل من التفلت والانحلال كلما حانت لهم الفرصة، فقد جعل الله سياستهم في أيدي أنبيائهم، كلما مات نبي خلفه نبي، ليكون أردع لهم عن الذنب، وأوجع لهم في العقاب إذا حادوا عن الصراط المستقيم.

روى البخاري ومسلم وغيرهما بالسند إلى أبي هريرة رضي الله عنه يحدِّث عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء...». الحديث.

لكن هل حفظ اليهود عهود أنبيائهم ومنهم يوشع عليه السلام وقد مكنَّهم الله من الأرض المقدسة؟ هيهات هيهات، وقد مرَّ بنا من تاريخهم ما يدل على طبيعتهم المتمرِّدة على أوامر الله، والمستهينة بمتابعة أنبيائه وهم بين ظهرانيهم؛ فكيف يكون الحال بعد وفاة النبيِّ وخلوِّ الزمان منه؟ نقل الإمام ابن كثير في تفسيره عن أهل العلم: (كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا خلقًا كثيرًا وأخذوا منهم بلادًا كثيرة). وهذا ما تتناوله الآيات الكريمة التالية من سورة البقرة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦- ٢٥٢].

وسيكون لنا مع هذه الآيات الكريمة وقفتان الأولى: حول معاني الآيات، والثانية: حول الدروس المستفادة منها.

أولاً: المعاني والشرح:

١ - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم، لكن «ألم تر» نقلت المُتلَقَّي إلى زمان ومكان الحدث كأنه يراه ويسمعه، فهذا أبلغ في التعبير عن صدق الخبر وحقيقته وشموله، وكيف لا، والمخبر هو رب العالمين سبحانه. ﴿المَلإِ﴾ وجوه القوم، وأهل الرأي والمشورة فيه، اقترحوا على نبيٍّ لهم في زمن ما بعد موسى أن يجعل عليهم ملكًا قائدًا يقودهم في قتالهم ضد أعدائهم، حتى يتحدوا بعد تفرّق، ويستعيدوا ما سلبه منهم أعداؤهم.

٢ - ﴿نَبِيٍّ لَّهُمُ﴾ النبي هو «شمعون» كما ذكر السدّي، ويقال: «شمويل» كما ذكره مجاهد، وأيضًا يقال: «سمعون». وهذا هو الصحيح خلافًا لمن قال: «يوشع بن نون»، وقد سبق الحديث عن يوشع، ولا يُعقل أن يكون هو المقصود هنا لأن يوشع كان معاصرًا لموسى وتولى الأمر بعده، أما هذه القصة فكانت في زمن داود عليه السلام وبينه وبين موسى أكثر من ألف عام. ذكره ابن كثير.

٣ - أجابهم نبيهم من خلال خبرته بأحوالهم يريد أن يتأكد من عزمهم وصدقهم في مرادهم متسائلاً عن جدهم في طلبهم، أحقًا ستقاتلون؟ أم أنكم عند التقاء الجيشين ستفرون؟ قالوا: وما لنا ألا نقاتل وقد أخرجنا عدونا من ديارنا، وأبعدنا عن أبنائنا، ونسائنا بالقتل والأسر.

٤ - ورغم أيمانهم المغلظة، وعهودهم المؤكدة، والمبررة بما حدث لهم، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

٥ - قال لهم نبيهم «شمعون»: إن الله اختار طالوت ملكًا عليكم يقودكم لقتال عدوكم.

٦ - قالوا: كيف يكون (طالوت) ملكًا علينا، وليس هو من سَبْط الملوك ولا من بيت النبوة، وليس من أهل الثراء؟ فنحن أحق بالملك منه.

٧ - ردّ عليهم شمعون عليه السلام مؤكدًا قوله مُدعمًا له بحجة لا تقبل المناقشة، قال: إن الله سبحانه وتعالى هو الذي اختاره، وهيأه لقيادتكم بزيادة وسعة في العلم والجسم، وهذه أهم مؤهلات القيادة والله أعلم باختياره يؤتي ملكه من يشاء فهو سبحانه واسع الفضل والعطاء عليم بحقائق الأمور لا يخفى عليه منها شيء.

٨ - لم يكن أمام بني إسرائيل إلا التسليم، وإن كان كثير منهم استسلموا وهم كارهون.

٩ - قال لهم نبيهم إن علامة ملك طالوت عليكم أن يأتيكم (التابوت) الصندوق الذي فيه التوراة، وأيضًا فيه آثار مما ترك آل موسى وهارون تحمله الملائكة.

١٠ - هذا التابوت كان قد انتزعه منهم أعداؤهم عندما جاسوا خلال ديارهم فعندما ينتزع من عند أعدائهم، ويأتيهم بطريقة لا دخل لهم بها فهذا من أهم علامات النصر والتمكين لهم، ومن أقوى الأدلة المادية على ملك طالوت.

١١ - لما خرج طالوت بقومه لقتال الأعداء أراد أن يُجري حالة من التصفية بين جنوده تقوم على أساس القلّة الصالحة خير من الكثرة التي تجمع الغث والسمين.

١٢ - أخبرهم طالوت بابتلاء الله لهم بعدم الشرب من النهر الذي سيعبرونه، فالذي يشرب لا يصلح للجهاد، والذي لا يشرب فهو الصابر المحتسب المطيع فهذا هو المجاهد، واستثنى طالوت من اغترف غُرْفة بيده فهذا يمكنه أن ينضم للجيش.

١٣ - وكانت المفاجاة أنهم شربوا من النهر إلا قليلاً، يعني الكثير عَبَّ من الماء عبًا وملأ بطنه، والقليل الذي أمسك عن الشرب أو اغترف غُرفة بيده.

١٤ - إذا كنت ترى فيما سبق عجبًا فما يأتي أعجب - وكل أمر بني إسرائيل عجيب وغريب- والأعجب الذي أقصده أن طالوت عندما عبر النهر بجنوده المختارين بعد هذا الامتحان قالوا: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، فهذه القلة المختارة تقول هذا: إنه لأمر مؤسف، لكن قالت طائفة منهم من أهل الإيمان والتقوى قالوا قولة أهل الحق والإيمان في كل زمان ومكان: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

١٥- ولما غلب منطق الإيمان والثقة بنصر الله والتقى الجيشان هزموهم بإذن الله، وقتل داود جالوت، كان مقتل جالوت هو مفتاح هزيمة العمالقة الجبارين حيث كان جالوت هو رأسهم وقد حُكيت أساطير في قوته وبطشه، وعندما قُتل هُزم جيشه واستعاد بنو إسرائيل ملكهم بإذن الله، وإذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابه الظاهرة والخفية.

١٦ - هناك نقولٌ كثيرة عن أهل الكتاب في قصة قتل داود لجالوت قد أغنانا الله بالقرآن عنها، فإن الله سبحانه قال في هذا الموطن عن داود: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾، فقد أشارت هذه الكلمات العظيمة إلى نبوة داود وملكه لبني إسرائيل، فقد آتاه الله ملك طالوت ونبوة شمعون، وعلّمه الله التوراة وصناعة الدروع ومنطق الطير وغير ذلك مما شاء ربنا سبحانه وتعالى، وبدأ في بني إسرائيل عصر داود عليه السلام، وسنأتي في المرة القادمة للحديث عن الدروس المستفادة من هذه القصة ثم نستكمل مسيرة بني إسرائيل في عصر داود عليه السلام. وإلى لقاء نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

والحمد لله رب العالمين

وقفات مع القصة في كتاب الله

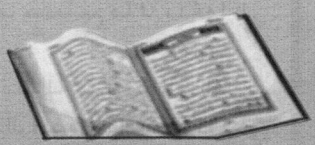

بنو إسرائيل بعد موسى

الحلقة الثالثة

طالوت وداود

إعداد

عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الذي شهد الله له بالرسالة فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وقصَّ عليه القصص تصديقًا لما بين يديه وعبرة للمعتبرين، وهدى ورحمة للمؤمنين. أما بعد:

فلعلك أخي القارئ الكريم على ذكر من لقائنا السابق حيث تحدّثنا عن بني إسرائيل من بعد موسى إذا قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكًا نقاتل في سبيل الله، وذكرنا هناك القصة بتمامها من خلال آيات كتاب ربنا عز وجل من سورة البقرة، وذكرنا الصحيح في اسم النبي وما دار بينه وبين قومه من حوار حول طالوت الذي جعله الله ملكًا عليهم ثم أشرنا إلى نبوة داود عليه السلام ومُلْكه كما ظهر واضحًا من الآيات الكريمة، ونقف الآن مع بعض الدروس المستفادة والفوائد المستخلصة من القصة ونصوغها بعون الله في النقاط التالية:

١- دور العلماء وأهل الرأي والمشورة لابد أن يكون بارزًا، وأن يوجهوا الأمة إلى ما فيه صلاحها، وبخاصة في أوقات الأزمات، ولابد أن تتوحد كلمتهم للبحث عن مخرج لأمتهم مما وقعت فيه، وهكذا طلب القوم (الملأ) من نبيهم أن يجعل لهم ملكًا يقودهم للقتال في سبيل الله ضد أعدائهم، وهكذا برز دورهم واضحًا في الإصلاح.

٢- الجهاد سبيل الأمة لاستعادة عزتها وكرامتها:

نعم فقد رأى أهل الرأي أن الجهاد هو سبيل استعادة حقوقهم المسلوبة وأرضهم المغصوبة، وشرفهم المهان، وليس أمامهم من سبيل إلا القتال في سبيل الله، ولذلك قالوا: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فما ترك قوم الجهاد في سبيل الله، ورضوا بأذناب البقر إلا أذاقهم الله ذلا لا ينتزعه منهم إلا بالعودة إلى ربهم، وهذه سنة من سنن الله ماضية إلى يوم القيامة، وانظروا سيرة رسول الله ﷺ وقارنوا بين حال المسلمين إبان عزّهم وحالهم اليوم.

٣- تؤكد القصة مرة أخرى على طبيعة بني إسرائيل المتمردة على أحكام الله وأخلاقهم الإبليسية واتضح ذلك فيما يلي:

أ- طلبوا من نبيهم القتال وقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ هذا قولهم وهو قول حسن في ظاهره لكن ماذا كان فعلهم؟ ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾، هذه حقيقتهم، وفرق كبير بين القول والفعل.

ب- اعتراضهم على حكم الله الصريح برأيهم الفاسد القبيح، وهذه طريقة إبليس- لعنه الله- وذلك أن نبيهم قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ كان مقتضى الإيمان أن يقال: سمعنا وأطعنا، لكن بني إسرائيل ليسوا كذلك، إنهم قوم خصمون سارعوا

بالاعتراض على حكم الله الذي أوحى به إلى نبيهم بتولية طالوت ملكًا عليهم، قالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾، ولا تظن أن هذا منهم سؤال عن الكيفية يراد به الاستفسار كلا إنه اعتراض واضح بدليل قولهم: ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾، إنها والله عين مقولة إبليس فيما سبق: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾.

ج- نظرتهم المادية للأمور.

من طبيعة اليهود قياس الأمور بالمقياس المادي البحت ابتداءً من طلبهم من موسى رؤية الله جهرة، ومرورًا بعبادتهم العجل، إلى غير ذلك من أمور أشرنا إليها، وهنا يرون أن مؤهلات القيادة تكون بكثرة المال، وانتساب الإنسان لأصل عريق، وهكذا قالوا: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ بعد قولهم سالف الذكر.

٤- مؤهلات القيادة الناجحة:

بعد اعتراض القوم على اختيار (طالوت) من جهة نظرهم المادية، ردّ نبيهم ردًا مفحمًا فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ﴾ إن الله سبحانه هو الذي اختاره، وهل بعد اختيار الله اختيار؟ ثم بين لهم مقومات القيادة الناجحة ولخصها في كلمتين: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾.

قال الإمام القرطبي: «بسطته في العلم الذي هو ملاك الإنسان، والجسم الذي هو معينه في الحرب وعدته عند اللقاء، فتضمنت بيان صفة الإمام وأحوال الإمامة، وأنها مستحقة بالعلم والدين والقوة لا بالنسب».

ومعلوم أن البسطة هي الزيادة فهي زيادة في المخبر وزيادة في المظهر، فاصطفاء الله ظاهرًا وباطنًا، والله يؤتي ملكه من يشاء.

٥- النصر في المعارك بإذن الله ينصر من يشاء، والعبرة بصدق الجند وإخلاصهم في التوكل على الله، لذلك تكون القلة الصابرة المحتسبة أفضل في ميدان القتال من الكثرة الضعيفة المهزومة نفسيًا، ولهذا السبب أراد طالوت تصفية جنده باختبار النهر الذي رسب فيه أكثر الجند وشربوا منه فردّهم طالوت.

٦- عوامل النصر:

توجه المؤمنون الصادقون إلى الله بالدعاء أن يلهمهم الصبر والثبات، وأن ينصرهم، قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

قال ابن القيم في معنى الآية السابقة: ففي الآية أربعة أدلة على خلق الله تعالى الأعمال وتكوينه وإيجاده لها:

الأول: قولهم: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ والصبر فعلهم الاختياري، فسألوه ممن هو بيده ومشيئته وإذنه إن شاء أعطاهموه وإن شاء منعهموه.

الثاني: قولهم: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ وثبات الأقدام فعل اختياري، ولكن التثبيت فعله سبحانه والثبات فعلهم، ولا سبيل إلى فعلهم إلا بعد فعله.

الثالث: قولهم: ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فسألوه النصر وذلك بأن يقوي عزائمهم ويشجعهم، ويصبرهم، ويثبتهم ويلقي في قلوب أعدائهم الخور والضعف والرعب، فيحصل النصر، وقد أخبر سبحانه أن النصر بجملته من عنده وأثنى على من طلبه منه.

الرابع: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وإذنه هاهنا الإذن الكوني القدري أي بمشيئته، وقضائه وقدره، وليس الإذن الشرعي بمعنى الأمر، فإن الإذن الكوني لا يتخلف أبدًا. اهـ من شفاء العليل.

٧- الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والالتجاء إلى الله سبب النصر ومثال الأول قولهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾.

والثاني: قول الفئة المؤمنة: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

٨- من سنن الله الجارية ومن رحمته بعباده أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين حتى لا تفسد الأرض باستيلاء الكفر وشعائره عليها: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾.

٩- فهل أدرك أهل الإيمان دورهم في إصلاح الأرض ودفع فساد المفسدين عنها؟ ولا صلاح للأرض وأهلها إلا بالعودة إلى منهج الله وإقامته كما شرعه، ولهذا استخلف الله آدم وذريته إلى قيام الساعة، وأنزل كتبه وختمها بالكتاب المهيمن (القرآن الكريم)، وأرسل رسله وختمهم بإمام المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

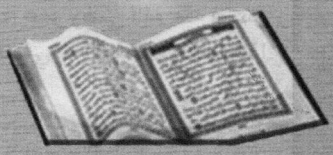

بنو إسرائيل بعد موسى

الحمد لله الذي له ملك السماوات والأرض، يمنُّ على من يشاء من عباده بفضله، ويمنع من يشاء بحكمته وعدله، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وبعد:

سبق لنا الحديث عن داود عندما كان جنديًا في جيش طالوت، وقد امتن الله عليه ومكنه من قتل رأس جيش العدو (جالوت) وكان ذلك سببًا مباشرًا في انتصار بني إسرائيل ودخولهم الأرض المقدسة.

إعداد

عبد الرزاق السيد عيد

واليوم نتحدث عن داود بعد أن صار ملكًا نبيًا وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء، وقد بلغت دولة بني إسرائيل في عهده شأوا لم تبلغه من قبل وحققت مجدًا تليدًا، وعلا نجم بني إسرائيل في مدة حكمه وحكم ولده سليمان من بعده.

وحديثنا عن داود عليه السلام سيكون بعون الله على مرحلتين:

الأولى: فضل الله على داود

وقد أشارت آيات الكتاب العزيز إلى مظاهر هذا الفضل فيما يلي:

١- ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

٢- ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ [ص: ١٧- ٢٠].

٣- ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سبأ: ١٠- ١١].

وباستقراء الآيات السابقة نلاحظ أمرين:

الأول: فضل الله على داود.

الثاني: (أنه أواب).

١- فضل الله على داود عليه السلام:

ذكرته الآيات مجملاً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً﴾، ثم مفصلاً في إيتائه الملك والحكمة وتعليمه مما يشاء ثم إيتائه القوة وتسخير الجبال معه يُسبحن والطير وإلانة الحديد له، فصار الحديد في يد داود مثل العجينة يصنع به ما يشاء من غير نار، وعلَّمه الله صناعة الدروع يُحكم صناعتها ويبيعها ويأكل من عمل يده وقوَّى الله ملكه ورزقه قوة البيان والحجة ومجادلة الخصوم، وأغناه الله ماديا ومعنويا وأظهر ملكة بالحجة والبيان والسيف والسنان.

٢- (إنه أواب):

أواب: كثير الرجوع إلى الله، وكثير الاستغفار وكثير التسبيح والذكر والدعاء، وفي ذلك إشارة إلى قيام داود بحق

«نبي الله داود عليه السلام»

الشكر واستحقاقه المزيد كما وعد الله الشاكرين، وقد حث الله داود وآله على عمل الصالحات شكرًا لله، فقال تعالى: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾، وقال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وقد كان داود عليه السلام من الذاكرين الله كثيرًا ومن الشاكرين وقد ضُرب المثل بعبادته فصلاته أحبُّ الصلاة إلى الله، وقيامه في الليل أحب القيام، وصيامه أحب الصيام، وتلاوته من أحب التلاوة وأحسنها وأجملها، ففي الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه». [متفق عليه]

انظر أخي رحمك الله كيف ضرب نبينا ﷺ المثل بصلاة داود وصيامه وقيامه، أما عن تلاوته للزبور الذي أُنزل عليه فحدث ولا حرج ويكفي أن الطير في السماء والجبال الراسيات كانت تُنصت لقراءته وتُرَجِّع بترجيعه. قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٨، ١٩]، قال: «وذلك أنه كان قد وهبه الله تعالى الصوت الجميل بحيث إنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء يرجع بترجيعه ويسبح بتسبيحه وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيا، صلوات الله وسلامه عليه». اهـ.

وكما ضرب النبي ﷺ المثل بصلاة داود وصيامه فقد ضرب المثل بحسن صوته وتلاوته، ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ أثنى على أبي موسى الأشعري رضي الله عنه لحسن صوته بالقرآن، فقال له رسول اللَّه ﷺ: «يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود».

[أخرجه البخاري: برقم ٥٠٤٨]

المزمار: فصل من التوارة أو الزبور، فهو جزء منها، فثناء النبي ﷺ على أبي موسى لأن فيه جزءًا من حلاوة صوت داود عليه السلام، وليس كل صوت داود وحلاوته.

وقد خفف الله سبحانه على داود قراءة الزبور، فكان يقرأه في وقت قصير وهو مقدار تجهيز دوابه.

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «خُفِّف على داود عليه السلام القرآن- يعني قراءة الزبور- فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن- الزبور- قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يده».

هذه فضيلة أخرى وهي كونه لم يكن يأكل إلا من عمل يده، يصنع الدروع بدقة وإتقان كما علمه الله ويبيعها- فهذا أكله من عمل يده أي من صناعته.

ومن فضائله كرامته عند الله في الآخرة: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٢٥].

قال ابن كثير رحمه الله: «أي- إن له يوم القيامة لَقُرْبةً يُقَرِّبهُ الله عز وجل بها، وحسن مرجع وهو الدرجات العالية في الجنة لنبوته وعدله التام في ملكه كما جاء في الصحيح: «المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا».

ومن فضائله: أن الله جعل الملك والنبوة في ولده من بعده: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾.

وللحديث بقية عن نبي الله داود عليه السلام في جوانب أخرى من حياته، وعن الدروس والعبر المستفادة، والله المستعان.

بنو إسرائيل بعد موسى

نبي الله داود عليه السلام

الجزء الثاني

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

مضى بنا الحديث في المقال السابق عن فضل الله على داود ومظاهر ذلك الفضل، واستقرائها من خلال آيات الكتاب العزيز، واليوم بعون الله وحوله وطوله ومدده نواصل حديثنا عن جانب آخر من سيرة هذا النبي الكريم داود عليه السلام من خلال آيات كريمات من سورة «ص» ألا وهو قوله تعالى:

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص: ٢٠- ٢٥].

وقد كثر الكلام حول هذه القصة وملابساتها وعن الخصمين والفتن وفتنة دخول الخصمين على داود حتى فزع منهما، لذلك كثر التأويل في هذه القصة، فقالوا عن الخصمين إنهما ملكان وعلَّلُوا ذلك بطريقة دخولهما غير المعتادة وطريقة حوارهما مع داود، وقيل: أريد بالنعاج هنا النساء، وتسع وتسعون نعجة أي تسع وتسعون امرأة كانت تحت داود، وقد نظر داود لزوجة أحد قواده فأعجبته فارسله في قتال حتى قتل وتزوج امرأته من بعده فأكمل بها المائة، وقد جاء الملكان في هيئة رجلين يختصمان ليذكرانه بخطئه فاستغفر وخرَّ راكعًا وأناب. هكذا جاءت النقول عن بني إسرائيل، وفيها نظر! وقد نبه على ذلك كثير من المحققين من أهل التفسير والسير، منهم الإمام ابن كثير وابن حزم والسيوطي والإمام البقاعي، والقاضي عياض، وغيرهم، ونحن ننقل جانبًا من أقوال بعضهم خشية الإطالة.

إعداد

عبد الرزاق السيد عيد

قال الإمام السيوطي في «الإكليل»: «القصة التي يحكونها في شأن المرأة، وأنها أعْجَبت داود فأرسل زوجها مع البعث حتى قتل، أخرجها ابن أبي حاتم من حديث أنس مرفوعًا، وفي إسناده ابن لهيعة، وحاله معروف، عن ابن صخر عن يزيد الرقاشي وهو ضعيف، وأخرجها من حديث ابن عباس موقوفًا» انتهى.

وقال البرهان البقاعي في تفسيره: وتلك القصة وأمثالها من كذب اليهود.

وقال ابن كثير: وقد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذة من الإسرائيليات، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه، ثم قال: الأولى أن يُقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة، وأن يُردَّ علمها إلى الله عز وجل. اهـ.

وإن كان ابن كثير رحمه الله يرى الاقتصار على تلاوة الآيات فحسب دون الخوض في تفسيرها فإن ابن حزم رحمه الله له رأي آخر، فهو ينكر رحمه الله كما أنكر ابن كثير هذه الإسرائيليات بل أشد، لكنه يضيف قوله: «ما حكاه الله تعالى عن داود عليه السلام قول صادق صحيح، لا يدل على شيء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولَّدها اليهود، وإنما كان ذلك الخصلم من بني آدم، بلا شك مختصمين في نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم، بغى أحدهما على الآخر على نص الآية، ثم يضيف ابن حزم رحمه الله بلهجة حازمة شديدة ومن قال إنهم كانوا ملائكة معرِّضين بأمر النساء فقد كذب على الله عز وجل، وأقر على نفسه الخبيثة أنه كذَّب الملائكة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ لم يكونوا قط خصمين، ولا بغى بعضهم على بعض، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة، ولا كان للآخر نعجة واحدة؛ ولا قال له أكفلنيها فاعجبوا لما يقحم فيه أهل الباطل أنفسهم، ونعوذ بالله من الخذلان.

ثم كل ذلك بلا دليل بل الدعوة المجردة، ويواصل ابن حزم كلامه قائلاً: وتالله! إن كل امرئ منا ليصون نفسه وجاره المستور عن أن يتعشق امرأة جاره ثم يعرِّض زوجها للقتل عمدًا، ليتزوجها، هذه أفعال السفهاء المتهوكين الفساق المتمردين، لا أفعال أهل البر والتقوى، فكيف برسول الله داود الذي أوحى الله إليه كتابه وأجرى على لسانه كلامه؟ لقد نزهه الله عز وجل عن أن يمرَّ هذا الفحش بباله، فكيف أن يستضيف إلى أفعال؟

وأما استغفاره وخروره ساجدًا، ومغفرة الله له فالأنبياء أولى الناس بهذه الأفعال الكريمة والاستغفار فعل خير لا ينكر من ملك ولا نبي ولا من مذنب ولا من غير مذنب، فالنبي يستغفر الله لمذنبي أهل الأرض والملائكة كذلك يستغفرون للمؤمنين كما حكى الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، وأما قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ﴾.

فقد ظنَّ داود أن يكون ما آتاه الله عز وجل من سعة الملك العظيم فتنة فقد كان رسول الله ﷺ يدعو أن يثبت الله قلبه على دينه، فاستغفر داود ربه من هذا الظن، فغفر الله له، إذ لم يكن ما آتاه الله تعالى من ذلك فتنة.

ولقد سلك مسلك ابن حزم كثير من أهل العلم قديمًا وحديثًا وإن اختلفت عباراتهم، لكنها تتفق في أمر واحد هو تنزيه أنبياء الله عامة ونبي الله داود خاصة عن حقد اليهود ودسائسهم فهم قوم بهت لم يسلم منهم نبي ولا ولي حتى داود عليه السلام الذي يعظمونه لم يسلم من أذاهم لخلل في نفوسهم، وسنناقش هذا الأمر عند حديثنا عن العبر والدروس من قصة داود إن شاء الله.

دروس وعبر من قصة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ومن ولاه، أما بعد:

فهذه بعض الدروس والفوائد التي استُخلصت من قصة داود عليه السلام:

١- تجليات فضل الله على عباده.

ترادف نعم الله على عباده عامة وعلى أنبيائه وأوليائه خاصة لا ينكره إلا جاحد، وقد خصَّ الله نبيه داود بمزيد من فضله وظهر ذلك واضحًا في المظاهر الآتية:

*سخر الله له الجبال والطير تردد معه ذكره وتسبيحه.

*ألان في يده الحديد فصار كالعجينة يصنع منه ما يشاء.

*يسَّر له تلاوة الزبور، وآتاه الملك فجمع له الخيرين خير الدنيا والآخرة.

*أنعم عليه بالقوة في البدن والحكمة في الرأس والعدل في الحكم.

*أنعم عليه بالذرية الصالحة: «وورث سليمان داود».

٢- الشكر قيد النعمة:

شكر النعمة يمنعها من الزوال ويجلب المزيد، ويمنع النقمة، وبهذا قضى العزيز الحميد، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقليل من الناس من يعرف النعمة فيقرُّ بها للمنعم سبحانه ويشكره عليها بوضعها فيما أمر سبحانه، وكان داود عليه السلام من هذا القليل الشاكر، فاستحق من الله الثناء: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

٣- بنو إسرائيل لم يشكروا نعمة الله عليهم:

لم يشكر اليهود نعمة الله عليهم بإنزال التوارة، فحرفوها وبدلوها ولم يعملوا بما فيها، ولم يشكروا نعمة الله عليهم بتتابع الأنبياء فيهم، فآذوا أنبياء الله حال حياتهم وبعد مماتهم، ومنهم من قتلوه، ومن ذلك ما فعلوه مع نبي الله داود عليه السلام وهو المبجل فيهم، فوصفوه بالثائر السفاح الذي يحب سفك الدماء وإقامة الملك على جماجم البشر، وإن شئت التفاصيل فراجع العهد القديم، سفر الملوك الثاني الفصول من (٥- ٢٠)، وكذلك ما نسبوا إلى نبيهم داود زورًا وبهتانًا أن داود عليه السلام قد رأى امرأة جاره وهي تغتسل فأحبَّها حبًا شديدًا، فأرسل زوجها في إحدى المعارك، وأمر القائد أن يجعله في المقدمة لعله يقتل فيتزوج امرأته، وتوراة اليهود التي كتبوها بأيديهم- وليست التوراة التي أنزلها الله على موسى- تمتلئ بهذه السفاهات التي أنزه سمع القارئ وبصره عنها.

فهم لم يتركوا نبيًا إلا أساءوا إليه، بل لم يسلم الله سبحانه وتعالى من افتراءاتهم، فتعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ومن هنا فقد حذرنا الله أن نكون مثلهم، وذكر ذلك في كتابه الكريم تصريحًا وتلميحًا.

داود عليه السلام

إعداد
عبد الرزاق السيد عيد

٤- أفضل ما أكل الإنسان من عمل يده:

هذا أيضًا مما تعلمناه من قصة داود عليه السلام، فعلى الرغم من كونه خليفة في الأرض وملكًا على أمة امتد ملكها، إلا أنه كان يأكل من عمل يده: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾، فكان عليه السلام يصنع الدروع ويبيعها ويأكل من ثمنها.

وفي صحيح البخاري قال ﷺ: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبيَّ اللَّه داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده». وهكذا الأنبياء والصالحون، فمنهم من كان يرعى الغنم، ومنهم من كان نجارًا؛ كزكريا عليه السلام، ومنهم من عمل بالنجارة زمنًا مثل نوح عليه السلام، ومنهم من عمل بالتجارة فكان يبيع ويشتري في الأسواق، وكبار الصحابة رضي اللَّه عنهم كان الواحد منهم يعمل بيده ويحمل على ظهره ليكتسب قوته ويتصدق من عمل يده، فقد أرشدهم النبي ﷺ إلى العمل وكسب القوت، حتى ولو كان العمل في الاحتطاب، فلا غضاضة في ذلك، فهذا خيرٌ من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه، وأحاديث النبي ﷺ متواترة في ذلك، وأعمال الصحابة كذلك شاهدة على ذلك، فكانوا يتناوبون فيما بينهم في سماع النبي ﷺ والجلوس عنده وفي طلب الرزق، ومن عجب أن يخفى ذلك على كثير من شبابنا ممن يدعون طلب العلم ويتخذونه حرفة لهم، حتى أصبحوا عالة على غيرهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٥- من المعجزات المحسوسة أن ألان اللَّه الحديد لداود عليه السلام فجعله مطاوعًا له يشكله كما يشاء، وهذه آية من آيات اللَّه الكونية ودليل على قدرة اللَّه سبحانه، فهو الذي جعل النار بردًا وسلامًا على إبراهيم، وجعل الماء سلاحًا أغرق فرعون، ونجا موسى، وألان الحديد لداود، وهكذا فلله جنود السماوات والأرض يفعل ما يشاء ويختار؛ ولكن أكثر الناس يجهلون هذه الحقيقة.

٦- ومن الفوائد ما ذكره الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه اللَّه، فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، هذه الآية تمنع من حكم الحاكم بعلمه؛ لأن الحكام لو مكنُّوا أن يحكموا بعلمهم لم يشأ أحدهم إذا أراد أن يحفظ وليه ويهلك عدوه إلا ادعى عليه فيما حكم به، ونحو ذلك؛ روى عن جماعة من الصحابة منهم أبو بكر رضي اللَّه عنه قال: لو رأيت رجلاً على حدٍ من حدود اللَّه ما أخذته حتى يشهد على ذلك غيري.

وروى أن امرأة جاءت إلى عمر رضي اللَّه عنه فقالت له: احكم لي على فلان بكذا فإنك تعلم ما لي عنده، فقال لها: إن أردت أن أشهد لك فنعم، وأما الحكم فلا.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قضى بيمين وشاهد. انتهى مختصرًا.

وأقول: قد ازدان القضاء الإسلامي بدرر ناصعات من النزاهة والعدل واحترام حقوق الآخرين حتى ولو كانوا غير مسلمين، وذلك مما يضيق المجال عن ذكره، وأكتفي بهذا القدر، وأسأل اللَّه أن ينفعني بما كتبت، وأن ينفعك بما تقرأ، وأن يرزقنا الثبات على الحق والدين حتى يأتينا اليقين، وإلى لقاء استودعكم اللَّه، والسلام عليكم ورحمة اللَّه.

قصة سليمان عليه السلام (٣)

الحمد لله ذي العرش المجيد، الفعال لما يريد، الذي هو يبدئ ويعيد، سبحانه سبحانه لا يخفى عليه شيء من أمر خلقه في الأرض ولا في السماء والصلاة والسلام على رسله الكرام وصفوته من الأنام أما بعد:

وقفنا معك في اللقاء السابق على بعض مظاهر الحكمة والقوة في مملكة سليمان - عليه السلام - وكيف تنبهت لذلك نملة من النمل سمع صوتها وفهم كلامها نبي الله سليمان، وذكر الله قصتها في القرآن وسمّى باسمها سورة من سوره الكرام، وقد أشرنا إلى ذلك بشيء من التفصيل فيما مضى من المقال واليوم نحضر ضيوفا على مجلس الحكم في مملكة النبي الكريم سليمان ونستمع إلى وصف القرآن لما دار هناك في الزمان والمكان، نستمع ونقرأ ونفهم ونتعلم ونستخلص الدروس والعبر سائلين الله - سبحانه - أن يشرح صدورنا لفهم كتابه الكريم والعمل بما نعلم إنه جواد كريم.

أولا: غياب الهدهد: قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:٢٠-٢١].

يباشر سليمان - عليه السلام - مهام الحاكم الحازم الذي يقوم على مصالح رعيته ويتفقد أحوال جنده من الجن والإنس والطير، وعندما تفقد الطير لم ير الهدهد فتساءل: أين الهدهد؟ أحاضر ولم أره؟ أم غائب؟ ولماذا غاب بدون إذن؟ إذا لم يأت الهدهد بعذر مقبول عن سبب غيابه سيعذب عذابا شديدا دون الموت أو يقتل جزاء ما اقترف من إثم، وقد جمع سليمان عليه السلام في هذا الموقف بين العدل والحزم وأعلن ذلك أمام الجميع حسمًا لنوازع الفوضى، وحفظا لمظاهر العز والسلطان.

المستفاد من المشهد السابق:

قبل أن ننتقل لمشهد آخر نلخص المستفاد منه فيما يلي:

• شعور الحاكم بمسؤوليته نحو رعيته:

يقول الإمام القرطبي - رحمه الله - (وتفقد سليمان للطير كما ورد في الآية الكريمة دليل على تفقد الإمام أحوال رعيته والاهتمام بامر صغيرهم وكبيرهم فانظر إلى الهدهد مع صغره كيف لم يَخْفَ أمره على سليمان وسأل عن سبب غيابه، ويرحم الله عمر بن الخطاب حيث كان يستشعر المسؤولية نحو رعيته صباح مساء حتى يرى نفسه مسؤولا عن تمهيد الطريق للدواب.

• كمال حزم سليمان في إدارة مملكته، حزم مقرون بالعدل.

ثانيا: عودة الهدهد: قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ

«الهدهد» في مجلس الحكم

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل:٢٢-٢٦].

ها هو الهدهد قد عاد بعد وقت قصير ووقف أمام سليمان مبررا سبب غيابه فقال: قد وقفْتُ على أمر لم تعلمه أيها الملك العظيم وعلمت به علما أحاط بجوانبه وجئتك من مدينة سبأ باليمن بخبر له شأن وأنا على يقين مما جئت به، ثم يواصل الهدهد كلامه قائلا: وجدت امرأة وهي (بلقيس) قد ملكها قومُها عليهم وصار لها من الملك شأن عظيم، وليس هذا لبُّ الموضوع إنما الشأن فيما سيأتي وهو أنني وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وقد زين لهم الشيطان هذا الكفر واستدرجهم إليه، وانحرف بهم عن طريق التوحيد فهم في ضلال واضح.

بهذا وصف الهدهد حال ملكة سبأ وقومها وكيف أفسد الشيطان فطرهم وصدَّهم عن الصراط المستقيم. ثم أخذ الهدهد معقبًا على ما رآه بفطرته السليمة المستقيمة على توحيد الله قائلا: كان الأولى بهؤلاء أن يسجدوا لله - سبحانه - الذي يخرج المخبوء المستور في السماوات والأرض، ولا يغيب عن علمه شيء لأنه - سبحانه - الذي يعلم ما يُخفي الناس وما يعلنون، وهو الله الذي لا إله إلا هو المستحق للعبادة ولا معبود بحق سواه، وهو رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه.

• وهنا نكتة لطيفة: انظر كيف ختم الهدهد تعقيبه بقوله: (رب العرش العظيم) وخصَّ هذه الصفة بالذكر، ولعله أراد أن يقول: إذا كان لملكة سبأ عرش عظيم، فإن الله - سبحانه - ذو العرش المجيد الذي وسع كرسيه السماوات والأرض، فشتان ما بينهما بين عرش هذه الملكة المحدود، وعرش الله - سبحانه - الموصوف بكل جلال وكمال والمنزَّه عن الشبيه والمثال؛ ألا فليعبد أصحاب العروش الزائلة رب العرش الذي لا يزول ولا يخفى.

ثالثًا: جواب سليمان عليه السلام عن خبر الهدهد: حكى الله - سبحانه - عن سليمان - عليه السلام - قوله: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل:٢٧-٢٨].

ويلاحظ أن سليمان - عليه السلام - لم يشرع في تصديق الهدهد ولا تكذيبه وكذلك لم يستخفه النبأ العظيم الذي جاء به إنما شرع في طريقه للتثبت من الخبر بطريقة عملية، وهو في ذلك يعلم أتباعهُ درسا في التثبت من الأخبار وعدم المسارعة بنفيها أو تصديقها إلا ببينة، فكتب للهدهد كتابا وأرسله إلى ملكة سبأ، فذهب الهدهد بالكتاب وألقاه إليهم. ماذا كان في الكتاب؟ وماذا حدث؟ وما الدروس المستفادة؟ فإلى ذلك إن شاء الله، نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

قصة سليمان عليه السلام (٥)

بقلم: عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله المبدئ المعيد الغفور الودود ذي العرش المجيد الفعال لما يريد، والصلاة والسلام على رسله الكرام المبعوثين للناس رحمة وهداية وعلى إمامهم وخاتمهم نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

أيها القارئ الكريم:

فلعلك على ذكر معي أين وصلنا في المقال السابق من قصة الهدهد وملكة سبأ، وبعد أن اكتشف الهدهد أمر عبادتهم لغير الله، ثم أعاده سليمان- عليه السلام- بكتاب ألقاه إلى بلقيس في خلوتها، وكذلك انتهينا إلى رد فعل بلقيس وقومها وكيف اختارت طريق المهادنة وبدأت بإرسال هدية إلى سليمان تختبر بها موقفه- عليه السلام- ومن هنا نبدأ حديثنا هذا اليوم مستعينين بالله رب العالمين.

أولاً: وصول هدية بلقيس

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ «النمل: ٣٦».

وصل الوفد الذي يحمل الهدايا من نفائس الأموال إلى سليمان عليه السلام وكان على رأس الوفد وجهاء القوم، ولم يكترث سليمان- عليه السلام- بهداياهم وأموالهم، ولم يهتم بها، بل أخبرهم أن الله مَنَّ عليه بالكثير من الفضل والمال بل أعطاه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده وفوق ذلك أعطاه النبوة والإسلام، فليس هناك وجه مقارنة بحال بين ما عندهم وما عنده- عليه السلام-؛ ولذلك هو لا يفرح بمالهم ولا بما يُهدى إليه من متاع الدنيا؛ كما يفرحون هم لأن منتهى علمهم هو هذه الحياة الدنيا، أما سليمان فغايته أسمى من غايتهم وهي: أن يأتوه مسلمين وليس هناك ما يثنيه عن ذلك.

ثانيا: تهديد ووعيد

قال تعالى حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ «النمل: ٣٧».

لم يكتف سليمان- عليه السلام- برد هدية بلقيس بل أرسل إليهم تهديدًا واضحًا، إما الإسلام وإما الحرب، قال سليمان- عليه السلام- موجهًا كلامه إلى رئيس وفد بلقيس: «ارجع إليهم» أي: عد إلى قومك وأعلمهم ما أقول: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

نعم والله، فأنى لقوم سبأ أو غيرهم بجنود مثل جنود سليمان عددًا وعدةً كيفًا وكمًا جنوده من الطير والجن والإنس والريح، لقد عزم سليمان عليه السلام على قتال بلقيس وقومها، وإزالة حكمهم من الأرض بالقوة، إذا لم يسلموا ويتركوا كفرهم وشركهم، إنهم إن أسلموا عصموا منه

عرش بلقيس

دماءهم وأموالهم، وإن لم يسلموا أخرجهم من أرضهم صاغرين مهانين.

ثالثًا: عرش بلقيس:

لما رجع رسل بلقيس بهديتها وأخبروها بما قال، وما هددهم به وتوعدهم عزمت على الاستجابة وقالت: قد والله عرفت ما هذا بملك وما لنا به من طاقة وما نصنع بمكابرته شيئًا، وبعثت إليه إني قادمة إليك بملوك قومي لأنظر ما أمرك وما تدعونا إليه من دينك. تفسير ابن كثير.

وقد بلغ سليمان ما عزمت عليه ملكة سبأ وقومها، ولكنه مع ذلك طلب من جلسائه ووزرائه وجنده من الجن والإنس ما حكاه القرآن الكريم عنه فيما يلي: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ الآيات «النمل: ٣٨- ٤٠».

في الآيات الكريمة مسائل:

الأولى: لك أن تتساءل وأنا معك

إذا كانت بلقيس وقومها قد عزموا على الاستسلام كما تقول فلماذا أراد سليمان- عليه السلام- أن يحضر عرشها قبل حضورها وقومها؟ وقد تساءل المفسرون قديمًا وحديثًا عن الحكمة من ذلك وأجابوا إجابات متعددة منها ما هو مقبول ومنها ما هو مرفوض، وسنختار أرجح هذه التعليلات وأقربها إلى الصواب والله أعلم وهو ما ذكره الإمام ابن العربي المالكي في أحكام القرآن حيث قال رحمه الله: «أراد سليمان بإتيان عرشها أن يريها ما أيده الله به من معجزات على نبوته ورسالته، ومنها جلب عرشها قبل أن تصل إليه وفي هذا دليل ملموس على صدقه وأنه رسول الله». اهـ. مختصرًا.

نقول: إن سليمان- عليه السلام- أراد منها وقومها إسلام القلوب قبل الأبدان ودخول الإسلام عن طواعية واقتناع ويقين فهذه غاية الإسلام حيث ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ «البقرة: ٢٥٦»، وحتى تتحول هي وقومُها إلى الدعاة إلى الله في شعوبهم وغير شعوبهم على هُدى وبصيرة.

الثانية: من الذي أحضر عرش بلقيس؟

تعدَّدَتِ أقوال المفسرين فيمن أحضر العرش- وهو الذي عنده علم من الكتاب- وبلغت أقوال المفسرين إلى ثمانية، أشهرها: أنه آصف بن برخياء وكان من صالحي بني إسرائيل، ولن نطيل في تحقيق هذه القضية وقد سكت عنها القرآن الكريم، ولذلك قال سليمان- عليه السلام- بعد أن رأى العرش مستقرًا عنده: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ «النمل: ٤٠».

هذا عبد الله ورسوله سليمان- عليه السلام- يعترف بالفضل لله أولاً وأخيرًا وهو عليه السلام لم يشكر ربه بالقول فحسب بل سخَّر ما آتاه الله في الدعوة إلى الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحقيق العدل والسلام على الأرض، وهذا ما سنعود إليه بشيء من التفصيل في لقائنا القادم إن شاء الله.

مع سليمان عليه السلام (٦)

الحمد لله الذي خضع كل شيء لعظمته، واستسلم كل مخلوق لكلمته، ووسع كل شيء رحمة وعلمًا، وأرسل رسله رحمة لأقوامهم، وأرسل محمدًا ﷺ رحمة للعالمين، فصلاة الله وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فنواصل بعون الله وحوله وطوله الحديث عن عرش بلقيس، فقد وقف بنا اللقاء السابق عند استقرار العرش عند سليمان قبل وصول بلقيس إليه، وقد اعترف سليمان بالفضل والمنّة لله رب العالمين الذي استجاب دعاء عباده الصالحين وأحضر عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين قبل أن يرتد طرف سليمان إليه، أي بمجرد أن نظر سليمان تجاه اليمن- مكان عرش بلقيس- وقبل أن ينتهي من نظرته كان العرش أمامه وفي قصره في بيت المقدس بقدرة الله الذي يقول للشيء كن فيكون، فسبحانه وتعالى عما يصفه الظالمون، والآن وقد حضر عرش بلقيس قبل حضورها، ماذا سيفعل سليمانُ عليه الصلاة والسلام بالعرش؟ هذا ما سنعرفه من خلال الآيات الكريمة التالية:

قال تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لاَ يَهْتَدُونَ (٤١) فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣) قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤١- ٤٤].

أولاً: قال سليمان عليه السلام لمن عنده: غيِّروا في سرير ملكها بعض الشيء إلى حال تنكره إذا رأته؛ لنرى أتهتدي إلى معرفته أم لا؟

فلما جاءت الملكة إلى مجلس سليمان قيل لها: أهكذا عرشك؟ فنظرت الملكة إلى العرش وتعجبت في نفسها من الأمر إنه يشبه عرشها تمامًا إلا من تغيير بسيط، لكن ما الذي جاء به إلى هنا بهذه السرعة وتمكَّن من إحضاره من بين الحراس، دار هذا الحوار في نفسها سريعًا لكنها لم تتلعثم وقالت في سرعة بديهة (كأنه هو) فدلت إجابتها على رجاحة عقلها، وحسن تصرُّفها في المواقف الحرجة.

ولعل سائلاً يسأل: إذا كانت الملكة بهذا الفهم وهذه الحكمة فلماذا ضلَّت عن سبيل الله؟

جاءت الإجابة في التعقيب التالي على الموقف: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ

عرش بلقيس (٢)

إعداد
عبد الرزاق السيد

مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي منعها عن عبادة الله وحده ما كانت تعبده من دون الله تعالى، إنها كانت كافرة ونشأت في بيئة كافرة أورثتها الكفر والباطل، فإنَّ العقائد الباطلة تُذهب بصيرة القلب وتحجبه عن الهداية إلى الصراط المستقيم.

وقد عرفنا من سنة نبينا ﷺ أن المولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، وقد كانت من قوم كافرين فكفرت مثلهم.

كان سليمان عليه السلام قد أمر ببناءِ قصر من زجاج يجري الماء من تحته لاستقبالها، فقيل لها ادخلي القصر، فلما رأته الملكة حسبته لجةً من الماء فكشفت عن ساقيها استعدادًا لخوض الماء فقال لها سليمان- عليه السلام-: لا تفعلي إنه سطح من زجاج تحته ماء، عند ذلك أدركت بلقيس عظمة مُلك سليمان، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ بما كنت عليه من الشرك، والآن ﴿أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ثانيًا: تساؤلات:

هذه التساؤلات هدفها إبراز بعض الفوائد العاجلة من هذا الموقف نحن بحاجة ماسة إليها قبل أن نعود للفوائد المجتمعة من هذه القصة في مقال لاحق- إن شاء الله-.

لماذا اهتم سليمان عليه السلام ببناء القصر على الصورة التي ذكرناها آنفًا؟ ألم يكن يكفيها آية إحضار عرشها أمامها؟

والإجابة على النحو التالي:

-في بناء القصر على النحو السابق برهانٌ على ما امتن الله به على سليمان عليه السلام من تسخير الجن والإنس والطير فهو آية تدل على نعمة العلم المادي على سليمان، لكن الفرق بين سليمان وغيره من ملوك الدنيا هو أن هؤلاء الملوك علمهم مقصور على الحياة الدنيا ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، أما سليمان فقد اجتمع له علم الدنيا والآخرة، ولهذا قال معقبًا: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ أي قد رَزَقَنَا الله من علم الدنيا ما سبقنا به ملوك الأرض وقد تميزنا عليهم بأعظم ميزة ألا وهي الإسلام، أما عن اجتماع بناء القصر مع حضور العرش فلعل إحضار العرش بالصورة المشار إليها آنفًا فيه إبراز لقوة الإيمان لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي...﴾، وبناء القصر إبراز لقوة السلطان، وقد اجتمعا لسليمان- عليه السلام- فهو ملك نبي آتاه الله من الملك ما لم يؤت أحدًا من العالمين من بعده، وكذلك يدل بناء القصر على تنويع أساليب الدعوة أمام المدعوين وتقديم الدليل تلو الدليل والبرهان بعد البرهان على صدق النبيِّ في دعوته مما يحمل المدعو على التسليم بغير شك ولا تردد، وذلك الذي حدث لبلقيس فلم يكن أمامها بعد الذي رأته إلا أن تعلن بصدق: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

انظر أخي الكريم كيف قالت أسلمت مع سليمان ولم تقل أسلمت لسليمان، فقد علِمَتْ أن رب سليمان هو رب العالمين فأسلمت له وأذعنت.

والحمد لله رب العالمين، وإلى لقاء إن شاء الله تعالى.

إعداد

عبد الرازق السيد عيد

بين داود وسليمان عليهما السلام

الحمد لله خلق الأرض والسماوات العلا، الرحمن على العرش استوى، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، والصلاة والسلام على خير من وَطِئَتْ قدماه الثرى نبينا محمد ﷺ، وبعد:

كانت وقفاتنا السابقة مع داود وسليمان عليهما السلام، تحدثنا عن كلا النبيين الكريمين بشيء من التفصيل واستخلصنا الدروس والفوائد من كل موقف، وفي هذه الحلقة بعون الله تعالى وحوله وطوله نتحدث عن حكومة (قضية) حكم فيها داود وسليمان أشار إليها القرآن الكريم، وأخرى أشارت إليها السنة الصحيحة، وإنما أردنا تلكم الوقفة المستقلة مع هاتين القضيتين لما قد يُساء فهمه للوهلة الأولى، فأردنا وقفة فيها متسع لبسط القول وذكر آراء أهل العلم بما يحفظ لكل ذي فضل فضله، والفضل لله أولاً وآخرًا: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة:٤]، والآن نشرع فيما أردنا الحديث عنه على النحو التالي:

أولاً: قال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨- ٨٢].

ومعنى الآيات الكريمة: اذكر- يا رسولنا - لقومك خاصة وللناس كافة قصة داود وسليمان عليهما السلام: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾- أي حال كونها يحكمان في الزرع، قيل إنه كان عناقيد تدلت، ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي انتشرت وتفرقت فيه ليلاً بلا راعٍ فرعته وأفسدته.

قال ابن كثير - رحمه الله - عند تفسير هذه الآيات نقلاً عن أبي إسحاق عن مرة عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾، قال كرْم قد أنبتت عناقيده فأفسدته، قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرْم إلى صاحب الغنم فيقوم عليه حتى يعود كما كان وتدفع الغنم إلى صاحب الكرْم (العنب) فيصيب منها حتى إذا كان الكرْم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه

ودفعت الغنم إلى صاحبها فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾. اهـ.

وحتى لا يفهم القارئ من العبارة السابقة تقليلاً من شأن داود عليه السلام عقب ربنا سبحانه وتعالى بعدها مباشرة بقوله: ﴿وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، فداود عليه السلام حكم بالعدل وسليمان عليه السلام حكم بالفضل، وقد أثنى الله على حكمه الذي وفقه إليه لأنه يحب الرفق في الأمر كله كما جاء في الصحيحين عن أمنا عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله». ثم استمرت الآيات الكريمة في بيان ما مَنَّ الله سبحانه به على كل من داود وسليمان فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾، وقد تناولنا ذلك فيما سبق بما يغني عن إعادته، وخلاصة القول: أن الله سبحانه قد خصَّ كلا من النبيين بما يناسبه من فضل ومنَّة، وإن تميز أحدهما بشيء عن الآخر فليس في ذلك انتقاص من فضل الآخر، وهذا أمر مقرر في الشريعة ولولا خشية الإطالة لأوردنا أدلة كثيرة على ذلك.

يجب ألا ننسى أن سليمان قد ورث داود وهو ابنه وكلما نُسب فضلٌ إلى سليمان عليه السلام فهو فضل لداود عليه السلام.

ثانيًا: القصة الثانية كما جاء في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: «كانت امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت لصاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام، فأخبرتاه فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى». قال الإمام النووي- رحمه الله-: «توصل سليمان بطريق من الحيلة والملاطفة إلى معرفة باطن القضية، فأوهمهما أنه يريد قطعه، ليعرف من يشق عليها قطعه، فتكون هي أمه، فلما هان على الكبرى قطعه عرف أنها ليست أمه، ولما قالت الصغرى ما قالت عرف أنها أمه»، ولا شك أن في هذه القصة دليلا على فراسة سليمان عليه السلام وعبقريته في استخراج الحكم بالقرائن والاستدلال بالأمارات.

ثالثًا: من المقرر في الشريعة أن القاضي إذا اجتهد وأخطأ فله أجر وإن اجتهد وأصاب فله أجران كما صحَّ عن النبي ﷺ من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر».

[رواه البخاري]

الأنبياء في النهاية بشر كانوا يحكمون فيما يعرض عليهم من قضايا باجتهادهم الخاص وليس بوحي، ومن هنا جاء في الصحيحين عن أم سلمة- رضي الله عنها- أن رسول اللَّه ﷺ قال: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إليَّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار». فالحاكم مثاب أصاب أو أخطأ، وعلى القاضي أن يجتهد ما استطاع، والفضل أولاً وآخرًا لله يؤتيه من يشاء، ونكتفي بهذا القدر وإلى أن نلتقي أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

إعداد
عبد الرازق السيد عيد

بنو إسرائيل من بعد سليمان عليه السلام (١)

الحمد لله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وإخوانه من الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

فقد تقدَّم بنا الحديث عن ملك بني إسرائيل في عهد النبيين الكريمين داود وسليمان عليهما السلام، ورأينا كيف مكَّن الله لهم واتسع الملك وازداد رخاءً واستقرارًا في مدَّة حكم سليمان ونبوته التي امتدت قرابة عشرين عامًا، لكن ماذا حدث بعد موت سليمان عليه السلام؟ هذا ما سنحاول الإجابة عليه من خلال دراستنا لآيات سورة الإسراء التي يقول الله سبحانه فيها: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٤- ٨]، وسننظر في الآيات السابقة على النحو التالي:

أولاً: معاني بعض المفردات:

١- «قضينا»: أخبرنا.

٢- «الكتاب»: التوراة.

٣- «الأرض»: بيت المقدس وما حوله من أرض فلسطين.

٤- «جاسوا» الجوس: الطواف بالليل والطلب مع الاستقصاء.

٥- «تتبيرا»: هلاكًا وتدميرًا.

٦- «البأس» القوة والشدة.

ثانيًا: نظرة في كتب التفسير، وهنا أحب أن أشير إلى أن المفسرين اختلفوا سلفًا وخلفًا في تعيين العباد المُسلطين على بني إسرائيل، ولكنهم اتفقوا على كونهم من الكفار، وكون ذلك كان قبل الإسلام،

ولعل اختلاف المفسرين كان بسبب اختلاف الدولة اليهودية وانقسامها إلى قسمين بعد موت سليمان عليه السلام، وسننظر في أقوالهم نظرة هامة شاملة مختصرة في البيان التالي:

١- أَخْبَرْنَا بني إسرائيل في التوراة التي أُنزلت عليهم بأنه لا بد أن يقع منهم إفساد مرتين في «بيت المقدس» وما حوله، وسيكون إفسادهم بالمعاصي والظلم وقتل الأنبياء والعلماء والتكبر والطغيان والعدوان.

٢- فإذا وقع منهم الإفساد الأول سَلَّطْنَا عليهم عبادًا لنا ذوي شجاعة وقوة، قيل (سنمارين) الفارسي وقيل (بختنصر) البابلي طافوا بين ديار بني إسرائيل إهلاكًا وتدميرًا.

٣- ثم رددنا لكم - يا بني إسرائيل - الغلبة والظهور على أعدائكم، وأكثرنا أرزاقكم وأولادكم وقويناكم وجعلناكم أكثر عددًا، وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله، وقيل ذلك كان بقيادة (العزير)، ولكنهم عادوا إلى الإفساد فعاد التسليط عليهم.

٤- فإذا حان موعد الإفساد الثاني والذي سمَّاه القرآن «وعد الآخرة» سلَّط الله عليهم مرَّة أخرى، وكان هذا الإفساد الثاني بأمور بلغ قمتها قتل يحيى وزكريا (عليهما السلام)، ومحاولة قتل عيسى عليه السلام، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وهنا سلَّط عليهم الله الرومان بقيادة هادريان ومن بعده... فساموهم سوء العذاب ودمروا كل شيء وأخرجوهم من ديارهم وشتتوهم في أنحاء الأرض.

٥- ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ لم يتوقف اليهود عن الإفساد، فهو يسري في نفوسهم سريان الدَّم في العروق وتنتشر سمومهم انتشار النار في الهشيم في كل مكان ذهبوا إليه، وقد سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب في كل مرة، ففي جزيرة العرب أفسدوا فسلط الله عليهم الرسول الكريم محمدًا ﷺ ومن معه من المسلمين حتى الملائكة حاربوا مع المسلمين ضد اليهود وأُخرجوا من جزيرة العرب.

وفي أوربا سلط الله عليهم هتلر وغيره، وها هم اليوم يعودون للإفساد مرة أخرى في أرض فلسطين، وليسلطن الله عليهم من يسومهم سوء العذاب تصديقًا لوعد الله القاطع، وفاقًا لسنته التي لا تتخلف ولا تتبدل.

والحقيقة التي يجب أن نعيها أننا نتعامل مع سنن الله الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تحابي أحدًا: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا﴾ وهذا الكلام ليس لليهود فحسب، بل هو قانون رباني عام لجميع الخلق، والله سبحانه عندما يقص علينا من أخبار السابقين إنما يريد منا أن نعتبر بها ونتعلم منها الدروس والعبر التي تنفع الأمة في مسيرتها أفرادًا وجماعات.

قال الشيخ السعدي رحمه الله: وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، فسنَّة الله واحدة لا تتغير، ومن نظر إلى تسليط الكفرة والظلمة على المسلمين، عرف أن ذلك بسبب ذنوبهم، عقوبة لهم وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله مكَّن لهم في الأرض، ونصرهم على أعدائهم. اهـ.

هذا، ولنا نظرة أخرى مع المؤرخين لا يتسع لها المجال في هذا العدد، ونتبعها بالفوائد والدروس، فإلى ذلك نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

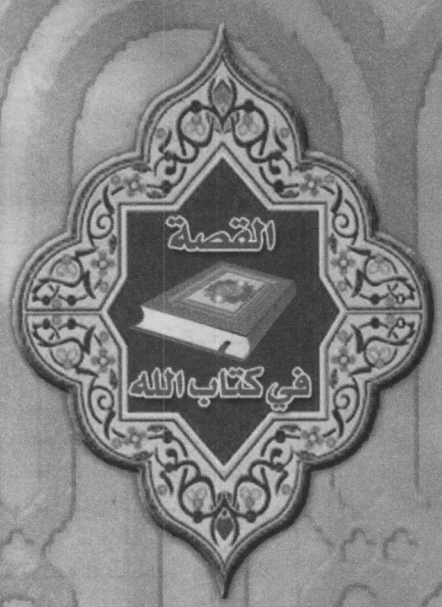

إعداد
عبد الرازق السيد عيد

مع بني إسرائيل بعد سليمان عليه السلام
من المجد إلى الشتات

الحمد لله تعالى جده وتبارك اسمه ولا حول ولا قوة إلا به الله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

فقد وعدناك أخي الكريم بنظرة تاريخية ننظر من خلالها إلى تاريخ بني إسرائيل نظرة رأسية، وكيف نقلتهم أعمالهم من قمة المجد إلى الهوي في محيط الشتات السحيق.

أولاً: نظرة مجملة:

وسنجمل القول بغير إطالة ولا إخلال والله المستعان: يقول د. عبد الله الشقاري الباحث في تاريخ اليهود:

١- انقسام مملكة سليمان عليه السلام:

«وبوفاة سليمان - عليه السلام - انفرط عقد الدولة اليهودية وأخذ الصراع على السلطة ينخر في كيانها فانقسمت بعد فترة من الصراع الدموي مملكتين:

١- شمالية: اسمها إسرائيل وعاصمتها شكيم «نابلس» وقد اجتاحها الملك الآشوري «سرجون الثاني» سنة ٧٢١ق م. فأزالها من الوجود.

٢- جنوبية: اسمها يهوذا وعاصمتها أورشليم «القدس» وقد عُمِّرَتْ هذه الدولة قرابة أربعة قرون حتى اجتاحها الملك البابلي «بختنصر» ٥٨٦ق. م، فقتل الآلاف من اليهود ومحا قراهم واحدة بعد الأخرى حتى وصل إلى أورشليم فدمرها تدميرًا وقضى على هيكل سليمان، وشتتهم في بقاع الأرض كمصر وجزيرة العرب وغيرهما، وأخذ من بقي منهم أسرى إلى بابل.

٢- اليهود بعد السَّبي البابلي:

استمر اليهود أسرى في بابل ثمانية وأربعين عامًا، وقد مكنتهم ظروف الأسر من تكوين الحركة العنصرية وتدوين كتبها من التوراة والتلمود وغيرهما، وفي سنة ٥٣٨ ق. م، احتل ملك الفرس (قورس) بلاد بابل، وأذن لليهود بالعودة إلى فلسطين، عاد بعضهم بقيادة عزرا- عُزَيْرٍ - عليه السلام - فأسّسوا هناك دولة يهودية تدين بالولاء للفرس، وقد حاولوا التمرد عليها مرات كثيرة، وفي سنة ٣٢٠ ق. م زَحَفَ الملك الروماني «الإسكندر المقدوني» على فلسطين فهادنه اليهود، وانضموا تحت لوائه وغدروا بأحلافهم الفرس، ولكن الرومان ساموهم سوء العذاب وقتلوا منهم الكثير؛ بسبب ثورات اليهود المتعاقبة.

٣- الشتات الأخير:

كان آخر تلك الثورات سنة ٧٠م حين ثار اليهود على حاكم فلسطين الروماني فاجتاح الإمبراطور الروماني «تيطس» أرض فلسطين وطهرها من شراذمهم بقعة بقعة حتى تجمعت فلولهم في أورشليم «بيت المقدس» فحاصرهم فيها فترة من الزمن ثم هدمها عليهم وأعمل السيف فيمن بقي منهم فلم تقم لهم قائمة بعد ذلك». اهـ.

بعد أن نظرنا تلكم النظرة الرأسية لتاريخهم من الصعود إلى الهبوط، آن الأوان لنلقي نظرات خاطفة في عمق الدولة نلمح منها بسرعة أسباب الانهيار:

انقسام الدولة والعلاقة بينهما:

يلخص هذه العلاقة صاحب تاريخ الإسرائيليين فيقول:

«وحدث بين المملكتين حروب ومنازعات كثيرة أثارها ما بين ملوكها من التنافس وعدم انتظام الملك في كليهما على اضطراد، لكن أولئك الملوك كانوا في بعض الأحايين، يتعاهدون ويسيرون معا بجيوشهم إلى الحروب، وكان ملوك إسرائيل في الشمال يخشون أن ترتد رعاياهم عنهم إلى ملوك يهوذا في الجنوب بذهابهم للعبادة في أورشليم، فاتخذ بعضهم جميع الوسائل لحملهم على عدم الذهاب إلى الجنوب، فكانوا تارة ينصبون لهم الأوثان ليعبدوها، وطورًا يمنعونهم من تأدية العبادة جبرًا، وهكذا تناثرت على الاتحاديين الأسباب، وازداد الشقاق فكانت النتيجة ضعف المملكتين، وتغلّب الأعداء والغزاة عليهما الواحدة تلو الأخرى».

-ويصور لنا أحد الكتاب الغربيين نهاية الدولتين فيقول: «كانت حياة العبرانيين في فلسطين نكبات، وقصة تحررات لا تعود عليهم إلا بإرجاء نزول النكبة القاضية، هي قصة ملوك همج يحكمون شعبًا من الهمج، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ ق. م محت مملكة إسرائيل من الوجود وزال شعبها من التاريخ زوالاً تامًا، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها البابليون سنة ٨٦٥ ق.م. ومن المبدأ إلى النهاية لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسورية وآشور وفينقيا، وذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم».

-ويصف لنا أحد المؤرخين الذين شاهدوا نهاية دولة إسرائيل على أيدي الرومان فيقول: «لقد طال حصار «تيطس» لأورشليم، حتى فني ما فيها من قوت واضطر سكانها إلى أكل الجيف ودبيب الأرض، وهلك خلق من الجوع واشتغل الأحياء بأنفسهم وتركوا الموتى بدون دفن فامتلأت الشوارع والأزقة بجثث الموتى وتعفنت، وصار الناس يخرجون إلى الروم بالآلاف دون أن يمنعهم أحد، وكانوا يبتلعون ما عندهم من ذهب وفضة ثم يستخرجونه من البراز بعد وصولهم إلى الروم، وانتشر خبرهم بين الروم فكانوا يقتلونهم طمعًا فيما في أجوافهم من ذهب وفضة، وقد تمكّن الروم في النهاية من خرق أسوار أورشليم فدخلوا المدينة وأخذوا يقتلون اليهود، ويدمرون ما تقع عليه أيديهم، وهكذا دُمرت أورشليم ودمِّر المعبد للمرة الثانية وهلك اليهود في المدينة قتلاً وجوعًا بأيدي بعضهم، وأيدي الرومان». اهـ.

ويقول صاحب تاريخ الإسرائيليين واصفًا جانبًا من هذه النهاية:

«.. ومني اليهود بالانقسام الداخلي والفتن والمنازعات بينهم حتى ضعف أمرهم وتقلص ظلهم، وتقوى (تيطس) عليهم فمزق شملهم، ودخل أورشليم فدكها دكًا ودمرها تدميرًا، ومات من اليهود في ذلك الحصار نحو مليون نسمة فسالت الدماء كالأنهار، وإلى هنا ينتهي تاريخ الإسرائيليين كأمة فإنهم بعد خراب أورشليم الثاني على يد تيطس الروماني تفرقوا في جميع بلاد الله، وتاريخهم فيما بقي ملحق بتاريخ الممالك التي توطنوها، أو نزلوا فيها وقد حظر عليهم الرومان دخول أورشليم». اهـ.

-ويلخص لنا الدكتور محمد عبد الواحد وافي تاريخ اليهود من القمة إلى الشتات فيقول:

«وانقسمت مملكتهم بعد وفاة سليمان عليه السلام إلى مملكتين: مملكة إسرائيل، ومملكة يهوذا، ونشبت بين المملكتين حروب أهلية كثيرة، وفي سنة ٥٩٦، ٥٨٧ قبل الميلاد أغار بختنصر ملك بابل على فلسطين، فأزال ملك بني إسرائيل، وأسر منهم عددًا كبيرًا وأخذهم إلى بابل حيث ظلوا في الأسر خمسين سنة حتى تغلب كورش ملك الفرس على البابليين عام ٥٣٨ قبل الميلاد فأطلق سراح اليهود ورجع كثير منهم إلى فلسطين، واستعادوا بعض أوضاع حياتهم الأولى، ولكنهم فقدوا استقلالهم، ولم ينعموا به بعد ذلك إلا فترات قصيرة، فوقعوا أولاً تحت سيطرة الفرس، وظلوا كذلك زهاء قرنين كاملين، ثم وقعوا تحت سيطرة المقدونيين خُلفاء الإسكندر الأكبر، ثم تحت سيطرة الرومان، وفي سنة ١٣٥ بعد الميلاد - أي بعد قتل يحيى وزكريا ومحاولة قتل عيسى - أَخْمَدَ الرومان في عهد هادريان - آخر معاقل اليهود - ثورة قام بها اليهود في فلسطين، واستخدموا في إخمادها أعنف وسائل البطش، فدمروا بلادهم، وهدموا هيكلهم، وأخرجوهم من ديارهم، فأصبحوا مشتتين هائمين على وجوههم في مختلف بقاع الأرض حتى يومنا هذا، ذلك على الرغم من إنشاء دولتهم المزعومة كما يدعون ومن هجرة شرذمة من أفاقيهم إليها». اهـ مختصرًا.

وبعد أخي الكريم، هذه نقول من مصادر القوم ومن كُتاب غربيين وعرب مسلمين وغير مسلمين أردنا منها زيادة الإيضاح، وللحديث بقية إن شاء الله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مراجع البحث

-اليهود في الكتاب والسنة، جامعة الإمام محمد بن سعود - دار طيبة.

إعداد
عبد الرازق السيد عيد

أصحاب السبت

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى ورسوله المجتبى.

وبعد: قال الله تعالى في كتابه الكريم مخاطبًا يهود المدينة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥، ٦٦].

وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣- ١٦٦].

هذه الآيات الكريمة جاءت في موضوع واحد وقصة واحدة وجاءت آيات سورة الأعراف تفصيلاً لما تقدم في آيات سورة البقرة، والقرية هي (أيلة) وهي التي يدعونها اليوم «إيلات»، والسؤال هنا المقصود به سؤال توبيخ وتقريع على عصيانهم لعلهم يتوبون أو يرجعون إلى الحق، ولا يعرضون أنفسهم لعقوبات الله التي نزلت بأسلافهم السابقين، فهذا تقرير للحق الذي أنكره اليهود المعاصرون للنبي ﷺ وتحذير لهم من كتمان الحق فيلحقهم من العقوبة ما نزل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت من قبل، وفي هذه القصة دليل من أدلة صدق النبي «محمد» الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ولكنهم كتموا نبوته، كما كتموا هذه القصة لما فيها من عار وشنار لما حلّ بأسلافهم من سوء أعمالهم.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «أي واسأل- يا محمد - هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم، وهذه القرية هي (أيلة) وهي على شاطئ بحر القلزم». اهـ.

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: «وهذا سؤال توبيخ وتقرير وكان كذلك علامة صدق النبي ﷺ، إذ أطلق الله تلك الأمور التي لا سبيل إلى معرفتها بغير الوحي، وكانوا يقولون: نحن أبناء الله وأحباؤه؛ لأنا من سبط إسرائيل ومن سبط موسى كليم الله ومن سبط ولده عزير فنحن أولادهم، فقال الله لنبيه سلهم - يا محمد - عن القرية، أما عذبتهم بذنوبهم عندما غيروا فروع الشريعة؟». اهـ.

[تفسير القرطبي مع تصرف يسير]

وقال أيضًا في موضع آخر: «ورُوي في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود عليه السلام وأن إبليس أوحى إليهم، فقال: إنما نهيتم عن أخذ الحيتان يوم السبت واتخذوا

الحياض فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج فيأخذونها يوم الأحد». اهـ. تفسير القرطبي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن اليهود أمروا باليوم الذي أمرتم به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله تعالى به وحرَّم عليهم الصيد فيه وأمرهم بتعظيمه فإذا كان يوم السبت شرعت لهم حيتانهم ينظرون إليها فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا في السبت المقبل، وذلك بلاءٌ ابتلاهم الله به فذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ﴾، وخلاصة ما تقدَّم أن الله سبحانه ابتلى أهل هذه القرية تمحيصًا لهم واختبارًا فكانت الأسماك تأتيهم يوم السبت من كل نوع وتشرع لهم برؤسها، وفي الأيام الأخرى لا يجدون في البحر أي نوع من السمك فاشتد الأمر عليهم، وكانت حياتهم تقوم على الصيد بسبب موقع القرية من شاطئ البحر الأحمر وهم في الأصل قد اختاروا يوم السبت وحرموا على أنفسهم العمل فيه فابتلاهم الله باختبارهم بما سبق.

موقف أهل القرية من هذا الابتلاء:

١- فرقة اعتدت واحتالت وفسقت وكانت هذه الأغلبية، فكانوا يحتالون بوضع شباك يوم الجمعة ليحبس فيها السمك ثم يأخذونه يوم الأحد أو يصنعون حياضًا أو أي حيلة أخرى.

٢- جماعة أخرى وهم الناجون أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نصحوا هؤلاء وبينوا لهم سوء فعلهم وحذروهم من عاقبته وقاطعوهم في كل شيء بعدما وجدوا منهم إصرارًا.

٣- جماعة ثالثة يئست من النصح ومن إصلاح المعتدين، بل قالوا للناصحين كما حكى القرآن عنهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

وقد ردّ الناصحون ردًا فيه حكمة وعلم قالوا: ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يعني دعونا نستفيد فائدتين الأولى: نؤدي ما أمرنا الله به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أعذرنا بذلك.

الثانية: لعل الموعظة تأتي بنتيجة مع واحد أو أكثر، والله أعلم.

ماذا كانت النتيجة؟

جاءت النتيجة كما أخبر الله - سبحانه وتعالى-: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، هذه كانت النتيجة نجاة أهل الأمر بالمعروف، وعذب الله الظالمين المعتدين بعذاب بئيس ثم مسخهم قردة خاسئين.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قال الله لهم قولاً قدريًا (كونيًا): ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ لأن القرد أشبه ما يكون بالإنسان، وفعلهم الخبيث أشبه بالحلال؛ لأنه حيلة فالذي يراهم ظاهريًا يقول ما صادوا يوم السبت فالصورة تخالف الحقيقة فصارت العقوبة مناسبة تمامًا للعمل، هذا موقف الطائفة الناجية، والأخرى الهالكة.

موقف الطائفة الثالثة:

يرى بعض المفسرين: أنها لم تنج لأنها لم تنه عن المنكر فضلاً عن أنها لامت الناصحين لغيرهم.

ويرى جمهور المفسرين أنها نجت، لأنها كانت كارهة لما فعله العادون يوم السبت، ولم ترتكب شيئًا مما ارتكبوه، ويرى جماعة أخرى من العلماء أن الواجب السكوت عنهم كما سكت عنهم القرآن ومنهم الشيخ ابن عثيمين حيث قال رحمه الله: «فاختلف العلماء: هل الطائفة الساكتة أُخذت بالعذاب أم أنها نجت ؟ والذي ينبغي أن نسكت كما سكت الله ويسعنا ما في كتاب الله عز وجل». اهـ.

أخي القارئ الكريم: هذا عرض مجمل لأحداث هذه القصة وما زلنا في حاجة إلى ﷺ أخرى معها نتأمل أحداثها جيدًا ونستخلص الدروس.

إن المتأمل للآيات الست السابقة يجدها تسجل وتكرر على اليهود أوصاف (الظلم، والتبديل، والاعتداء، والفسق، والتناسي، والاستهانة بالحق، والاستخفاف بنذر العذاب الشديد. وأخيرًا (العُتُوّ).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

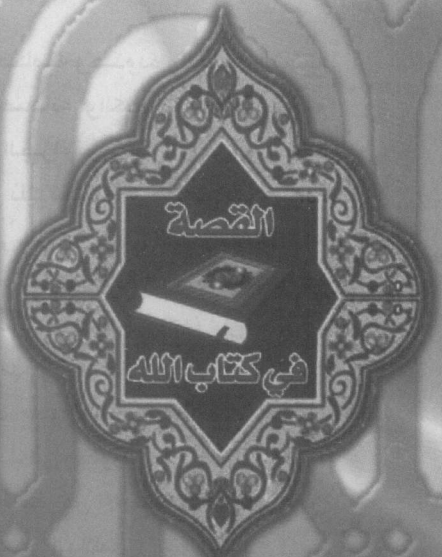

إعداد
عبد الرازق السيد عيد

أصحاب السبت (٢)

الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، والصلاة والسلام على رسوله الكريم ونبيه الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

أخي الكريم: هذا لقاؤنا الثاني مع قصة أصحاب السبت، وقدمنا القصة مجملة في المقال السابق واليوم موعدنا لوقفات تأملية نستوضح ما قد خفي من أمور، ونتأمل ما ننتفع به في مسيرتنا إلى الله، وهذا من أَجَلِّ أهداف القصة القرآنية، ونستعين بالله ونبدأ بهذه الأسئلة والإجابة عنها:

أولاً: هذا سؤال طرحه الصحابة على رسول الله ﷺ وأجابهم عنه ﷺ، وهذا السؤال قد يخطر ببال أحدنا كما خطر ببالهم - رضوان الله عليهم - في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير هي من نسل اليهود؟ فقال: «لا، إن الله لم يلعن قومًا قط فيمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان فلما غضب الله على اليهود مسخهم وجعلهم مثلهم». وفي الحديث إشارة إلى وجود القردة والخنازير منذ بدء الخلق وقبل وجود اليهود، وجاء المسخ على صورة أشياء موجودة في الواقع من باب التنكيل والتوبيخ.

ثانيًا: ماذا حدث للممسوخين؟ وهل كان لهم نسل بعد ذلك؟

نقل ابن كثير عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجُعِلُوا قردة فُوَاقًا[1] ثم هلكوا ما كان للمسخ نسل». وفي رواية عن الضحاك عن ابن عباس - أكثر تفصيلاً - قال: «فمسخهم الله قردةً بمعصيتهم إذ لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام، ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها في كتابه، ومسخ هؤلاء القوم على صورة القردة وكذلك يفعل الله بمن شاء ما شاء». اهـ.

ثالثًا: ما الذي فعله أصحاب السبت حتى استحقوا هذه العقوبة المخزية؟ وقد يقول قائل: معلوم أن اليهود أهل معاصٍ وجرائم وفساد، فكم استباحوا من محرمات، وكم فعلوا من منكرات أعظم إثمًا مما فعلوا يوم السبت،

فلماذا استحقوا هذه العقوبة ؟

نقول وبأسلوب آخر: أي قدر من وقاحة النفس، وقساوة القلب وفظاعة الذنب ذلك الذي أغضب الرب الحليم الصبور ؟

إن المتأمل للآيات الست في سورة الأعراف والتي صاغت قصة أصحاب السبت يجدها تسجل وتكرر على اليهود أوصاف: (الظلم، والتبديل، والاعتداء، والفسق، والتناسي، والاستهانة بالحق، والاستخفاف بنذر العذاب الشديد).

رابعًا: يجيبنا الإمام ابن القيم رحمه الله فيقول: «ولكن لما استحلوا محارم الله بأدنى الحيل، وتلاعبوا بدينه وخادعوه مخادعة الصبيان ومسخوا دينه بالاحتيال مسخهم الله تعالى قردة».

ويقول رحمه الله في موضع آخر: «وكذلك الحيل نوعان: نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى وترك ما نهى عنه، وتخليص المظلوم من يد الظالم فهذا النوع محمود يُثاب فاعله، ونوع يتضمن إسقاط الواجبات، وتحليل المحرمات، وقلب المظلوم ظالمًا، والظالم مظلومًا، والحق باطلاً والباطل حقًا، فهذا الذي اتفق السلف على ذمه وصاحوا بأهله من أقطار الأرض، ثم قال: إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لما تحايلوا على إباحة ما حرّم الله تعالى عليهم من الصيد في يوم السبت بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة فلما وقع فيها الصيد أخذوه يوم الأحد»، ثم يواصل فيقول رحمه الله: «قال بعض الأئمة: ففي هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهي الشرعية ممن يتلبس بالفقه وعلومه وهو غير فقيه، إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حدوده، وتعظيم حُرماته والوقوف عندها». اهـ.

خامسًا: يتضح مما تقدم أن أصحاب السبت بما فعلوه من إثم يبدو في ظاهره صغيرًا وهو عند الله عظيم؛ لأنهم بذلك وقعوا في الظلم فقد ظلموا أنفسهم بارتكاب ما حرّم الله والاعتداء على حدوده - سبحانه - والخروج عن شريعته والتهاون بأحكامه وحدوده والجهل الشنيع بأسماء الله وصفاته، والكذب وتغيير الحق أو كتمانه، فكان الجزاء من جنس العمل، ولا يظلم ربك أحدًا. وفي ذلك تحذير لمن يسمع ويرى، هذه عقوبتهم في الدنيا، وفي الآخرة يقال لهم ولأضرابهم: ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴾ [فصلت: ٢٣، ٢٤].

سادسًا: فوائد في سطور:

١- الحذر الحذر من الاستخفاف بشيء من شريعة الله فذلك هو الهلاك.

٢- النجاة النجاة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣- من أمرته بالمعروف فلم يأتمر، ونهيته عن المنكر فلم ينته وجب اعتزاله.

٤- الساكتون عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قدرتهم على خطر عظيم.

٥- ليحذر أهل الفقه من مداهنة أهل المعصية بأي صورة من الصور.

٦- من استخدم الحيلة في تحليل ما حرَّم الله أو تحريم ما أحل الله فهو جاهل بأسماء الله وصفاته لا يرجو لله وقارًا.

٧- من تعاطى شيئًا من الفقه فليتق الله حين يُسأل عن أحكام الدين.

٨- أصل فساد الدين من طريقين: ١- الابتداع في الدين. ٢- اتباع الهوى.

يقول ابن القيم رحمه الله: «وهذان هما أصل كل شرٍّ وبلاء، وبهما كُذِّبَت الرسلُ وعُصي الربُّ - سبحانه - ودُخلت النار، وحلّت العقوبات». اهـ.

٩- الجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحدًا.

هذا، وأسأل الله أن ينفعني وإياكم بما تقدم، وإلى لقاء جديد، أستودعكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) أي قدر الفُوَاق: وهو ما بين الحليتين.

إعداد
عبد الرازق السيد عيد

أبناء أصحاب السبت

الحمد لله أنزل كتبه وأرسل رسله مبشرين ومنذرين وختمهم بمحمد ﷺ فلا نبي بعده ولا كتاب بعد كتابه، ولا طريق إلى الجنة إلا عن طريقه. أما بعد:

فنحن اليوم مع جيل آخر من أجيال بني إسرائيل ذكرهم الله - سبحانه - عقيب قصة أصحاب السبت لذا أطلقت عليهم اسم (أبناء أصحاب السبت)، ولا أقصد البنوّة المباشرة، ولكني أقصد الأجيال التي تلت، وهل كان التالي مثل السابق في السوء أم أسوأ؟ نترك الإجابة للسياق القرآني الذي سنعيش معه فيما يلي:

«فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» [الأعراف].

والخَلْف: بسكون اللام يطلق على الطالح من الأجيال، والخلَف بالفتح يطلق على الصالح منهم.

ويؤكد ذلك ما جاء في قوله تعالى: «فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا» [مريم: ٥٩].

أي جاء من بعدهم عُقبُ سوءٍ من أممهم يتسمون بالإيمان والاتباع للأنبياء ولكنهم مقصرون ومخالفون أضاعوا دينهم وانقسموا في دنياهم، فإذا كنا فيما سبق وقفنا على مساوئ أصحاب السبت فإن الذين جاءوا من بعدهم كانوا الأسوأ، والدليل على ذلك فيما يأتي:

١- «وَرِثُوا الْكِتَابَ» أي: التوراة ورثوها من أسلافهم يقرأونها ولا يعملون بها، بل نصبوا أنفسهم حماة التوراة وهم الأولى بها وفسروها بأهوائهم غيّروا وبدلوا وحرّفوا فيها وقد ضرب الله مثلا لهم ولأمثالهم في كتابه الكريم فقال - سبحانه - «مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» [الجمعة: ٥]. وليس أبلغ من وصف الله وصفٌ.

٢- «يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى» هو الدنيا يتعجلون مصالحها بالرِّشا والسحت في مقابلة تحريفهم لكلمات الله وتهوينهم للعمل بأحكام

التوراة، وسكوتهم على مخالفتها وكتمهم لما يكتمونه منها.

٣- «وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا».

وهذا قول منهم يدل على الغرور والكبر؛ فهم لم يتوبوا ولم يستغفروا، ويقولون سيغفر لنا وكأنهم أخذوا على الله العهد والميثاق أن يغفر لهم مهما فعلوا ،ولو كان قولهم هذا من باب التوبة والاستغفار لأقلعوا عن معاصيهم وندموا على فعلهم، ولكنهم كما وصفتهم الآية بعد ذلك «وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ» فهم مستمرون على ما هم عليه.

قال ابن كثير - رحمه الله - عند تفسير هذه الآيات: «كانت بنو إسرائيل لا يستقضون قاضيًا إلا ارتشى في الحكم، وإن خيارهم اجتمعوا فأخذ بعضهم على بعض العهود ألا يفعلوا ولا يرتشوا، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى، فيقال له ما شأنك ؟ ترشي في الحكم ؟ فيقول: سيغفر لي فتطعنُ عليه البقية الأخرى من بني إسرائيل فيما صنع فإذا مات أو نزع، وجُعل مكانه رجل ممن كان يطعنُ عليه فإنه يرتشي» أهـ. كان أحدهم يعيب على من يرتشي فإذا تولى هو القضاء ارتشى! وهنا لابد لنا من وقفة سريعة، فإذا كان هذا حال خيارهم وقضاتهم كما سبق فما بالك بحال غيرهم. هذه واحدة والثانية إذا فسد القضاةُ في أمة فماذا بقي لها من الخير ؟

٤- «أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لاَ يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ» يستنكر الله عليهم أفعالهم ويذكّرهم بالعهود والمواثيق التي أخذها عليهم في التوراة وهي عدم تحريفهم الحق أو تغييره اتباعًا لأهوائهم ولكنهم مع معرفتهم بما نزل عليهم في الكتاب تركوا العمل به، وهذا ما يحتمله قوله تعالى: «وَدَرَسُوا مَا فِيهِ»، وقد درسوا ما في الكتاب وعلموه، فكان الترك منهم عن علم وعمد لا عن جهل ونسيان، وهذا الذي يستوجب غضب الله - سبحانه - نعوذ بالله من غضبه وعقابه وشرِّ عباده.

٥- ما الميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل سلفهم وخلفهم ؟

أخذ الله عليهم مواثيق كثيرة في العقيدة والأخلاق والمعاملات وتبليغ الحق للناس وعدم كتمانه بعد تطبيقه على أنفسهم وقد اجتمعت كل هذه في الإيمان بالكتاب الحق وعدم تحريفه.

لكن ماذا فعلوا ؟ نستمع إلى ما أخبر الله تعالى عنهم حين قال: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ» [آل عمران: ١٨٧] حرّفوا وبدلوا وكتموا ما لم يستطيعوا تحريفه أو تبديله وما بقي عندهم من حق تركوا العمل به واشتروا به متاع الحياة الدنيا.

وأخذ الله عليهم ميثاق الإيمان بالرسل واتباعهم ونصرتهم وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، قال تعالى: «وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ» [المائدة: ١٢]، لكن ماذا فعلوا؟

قال الله تعالى عنهم: «لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ» [المائدة: ٧]. لم يكتفوا بتكذيب الرسل وكفى به جرمًا، بل قتلوا من استطاعوا قتله منهم.

وقد أخذ الله الميثاق وشهد الله عليهم، وقد أبلغوا أقوامهم وبشروا بمحمد وقد بشر موسى - عليه السلام - بنبوة محمد وكذلك بشر عيسى - عليه السلام - ومكتوب في التوراة والإنجيل: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [الأعراف: ١٥٧].

وللحديث بقية، فإلى ذلك استودعكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إعداد
عبد الرازق السيد عيد

أصحاب السبت

(.. ويقولون سيغفر لنا)

الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، والصلاة والسلام على محمد النبيِّ البشير النذير وعلى آله وصحبه وإخوانه من الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

فقد تحدثنا في اللقاء السابق عن الأجيال الأسوأ من آبائها التي جاءت بعد أصحاب السبت تلكم الأجيال التي عناها القرآن الحكيم بقوله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وقد أجملنا القول في لقاء سابق عن هذه الخلوف التي صارت أسوأ خلف لسلف سوء.

مقارنة:

ويمكننا أن نعقد مقارنة سريعة يتبين فيها الفرق بين الفريقين بجلاء ووضوح، فأسلافهم الذين مسخ الله منهم القردة كان فيهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وفيهم من أنكر وسكت، والقسم الثالث الذين احتالوا وكانوا من عامة الناس.

أما هؤلاء الذين جاءوا من بعدهم فأشرافهم وعلماؤهم هم الذين ارتكبوا الإثم وقبلوا الرشوة وانغمسوا في الدنيا ويقولون: (.. سيغفر لنا...)، وهذه المقولة منهم سنعود إلى بيان خطورتها بعد أن نلخص المقارنة بين السلف والخلف فيما يأتي:

*أسلافهم على الرغم من سوئهم كان بينهم علماء يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وكان فيهم من يغضب على أهل المنكر الذي كان يقع غالبًا من الجهَّال.

*أما الخلوف التي جاءت من بعد والتي أخبرنا الله عنهم فقد تغلْغل فيهم الفساد حتى وصل إلى قمتهم، إلى علمائهم وقضاتهم (أهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) هم الذين كانوا بنصِّ القرآن الذي لا ينطق عن الهوى هم الذين ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

قولهم: (... سيغفر لنا...):

١- تكمن خطورة هذه المقولة في أنها تشير إلى استخفافهم بشرع الله وقولهم على الله بغير علم، والكذب على الله وعلى دينه وهذا من أسوأ أنواع الظلم وأشد المحرمات فحشًا، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقال تعالى:)قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْأِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ) [الأعراف:٣٣]. قال ابن القيم رحمه الله تعليقًا على هذه الآية: (ذكر سبحانه المحرمات الأربع مبتدئًا بالأسهل منها ثم ما هو أصعب منه ثم كذلك حتى ختمها بأعظمها وأشدها، وهو القول على الله بغير علم) .اهـ.

ويقول بعض أهل العلم: (قوله: (سيغفر لنا) تعبير عن عقيدتهم بأن الله تعالى سيغفر لهم لأنهم أبناؤه وأحباؤه، أو لأن آباءهم وأسلافهم من الأنبياء سيشفعون لهم)، ولا شك أن هذا زعم فاسد وافتراء على الله وعلى رسله وكتبه.

أخي الكريم: مكمن الخطر الحقيقي في هذا الافتراء اعتقادهم العلو في الأرض بغير الحق وأن لهم ما ليس لغيرهم في كل شيء ونسبة هذا كلّه إلى الوحي، وإذا كان أسلافهم قد

حرَّفوا وغيَّروا وبدلوا واحتالوا، فإنَّ الخلوفَ توسعوا في هذا المجال. ولم يكتفوا بتحريف التوراة ولكنهم كتبوا بأيديهم هم ما زعموا أنَّه من عند الله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:٧٩].

وهذا الأمر أدى بهم إلى كتابة ما اعتبروه تفسيرًا للتوراة تجرأوا فيه أكثر على الله ورسله ووحيه وكتبوا ما أملته عليهم أهواؤهم في كتاب عُرف (بالتلمود) وهو الذي يحكم تصرفاتهم منذ عصر الأسر البابلي حتى يومنا هذا.

واسمح لي أخي القارئ في عجالة سريعة أن أشير إلى هذا التلمود نشأته وأهم معتقداته لأنها هي التي يصدر عنها اليهود اليوم:

نشأة التلمود:

زعم أحبارهم العُتاة أنَّ الله أوحى إلى موسى (عليه السلام) نوعين من الوحي وهو بطور سيناء: الأول: الشريعة المكتوبة (أسفار التوراة)، والثاني: الشريعة المكررة (التعاليم الشفهية).

وهي تعاليم سرية - في زعمهم - وتتضمن التفسير الحقيقي الصحيح الذي يعنيه الله ويريده من النصوص الظاهرة المكتوبة في أسفار التوراة، ويزعمون أن هذه التعاليم تنوقلت شفاهةً عن موسى عليه السلام عبر أربعين جيلاً حتى انتهت إلى (بوذا هاناس) فدونها خشية ضياعها وسميت (المشناه) mishnah ثم عكف الأحبار بعد ذلك على شرح (المشناه) في أورشليم وفي بابل وسميت الشروح باسم Gemara، من المتن وشروحه جاء ما يعرف بالتلمود بنوعيه الأورشليمي والبابلي وهما سواء في البهتان والافتراء.

فالتلمود: هو الكتاب العقائدي الذي وحده يفسر ويبسط كل معارف الشعب اليهودي وتعاليمه، أو قل هو (كتاب شرائع وآداب إسرائيلي).

بعض ظلمات التلمود:

إن التعاليم التلمودية في العقائد والشرائع والأخلاق والأحكام شيء لا يصدقه عقل، لكنه مع الأسف واقع قامت عليه حياة اليهود واقعًا ملموسًا والكتاب مُدونٌ ومتداول في أيدي الناس يُقْرأ صباح مساء، ومن الظلمات التي يغصُّ بها التلمود نذكر ما يلي:

*أن تعاليم الحاخاميين لا يمكن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله.

*للحاخاميين السيادة على الله وعليه إجراء ما يرغبون فيه.

وأنه (تعالى عما يقولون) يقضي ثلاث ساعات من النهار يلعب مع اللافياتن ملك الأسماك)، (إلا أنه يجب الانتباه إلى أن لعب الله مع اللافياتن قد مضى بعد تدمير هيكل أورشليم).

(ومن ذلك الوقت لم يعد لله جلد في اللعب والرقص كما كان يصنع في الأزمان السالفة، وأن أول رقصة رقصها الرب كانت مع حواء بعد أن برجها وزينها وسرَّح شعرها بنفسه)، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

ومن ظلمات التلمود أيضًا:

*اليهودي أحب إلى الله من الملائكة، فالذي يصفع اليهودي كمن يصفع الله.

*الشعب المختار وحده يستحق الحياة الأبدية، أما الشعوب الباقية فمماثلة للحمير.

وبعد أخي الكريم، هذا قليل جدًا من كثير من البهتان الذي امتلأت به كتب اليهود التي كتبوها بأيديهم وقالوا هي من عند الله، قالوا زورًا وبهتانًا هي من عند الله، والله ورسوله ووحيه منه براء.

أخي: أكتب هذا والقلم في يدي يرتجف ألمًا والقلب يعتصر حزنًا وكمدًا من هذا الافتراء الذي افتراه هؤلاء على الله، ولا تعليق لنا على هذا الإفك المبين إلا أن نقول: سبحانك هذا بهتان عظيم!! وتعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وما كنت لأسطر هذا البهتان إلا لنبين كيف يصل الافتراء على الله بأهله وكيف يبدأ صغيرًا ثم يتنامى حتى يصير كما رأينا، ثم إن هذه هي معتقدات القوم وعقليتهم التي تحكم الصراع القائم اليوم بينهم وبيننا، أي قانون وأي عقيدة تسيطر على هؤلاء الأعداء وتعكس تصرفاتهم ووحشيتهم التي نراها صباح مساء مع إخواننا في فلسطين، وحتى يقف المسلم على عقيدة عدوه، والأمر الأخطر من ذلك تحذير المسلمين من عقيدة هؤلاء وقد حذرنا ربنا منهم وحذرنا رسولنا الكريم من اتباعهم، وقد يقول قائل متعجبًا: وهل يقع في المسلمين مثل ذلك؟

أقول: نعم، حدث مثل ذلك أو قريبًا منه، تقول كيف؟ أقول لك: هذا أمر نُوضّحه في لقاء قادم والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإلى الملتقى إن شاء الله.

مراجع البحث:

بدائع التفسير لابن القيم.

إغاثة اللهفان لابن القيم.

معركة الوجود بين القرآن والتلمود- د. عبد الستار فتح الله سعيد - ط دار التوزيع.

التلمود: تاريخه وتعاليمه - ظفر الإسلام خان ط- دار الثقافة.

الكنز المرصود في قواعد التلمود.

اليهودية والصهيونية.

همجية التعاليم الصهيونية.

إعداد

عبد الرازق السيد عيد

أصحاب السبت (٥)

..ويقولون سيغفر لنا (٢)

الحمد لله نور السماوات والأرض، حجابه النور، وأنزل كتبه نورًا، وأرسل رسله نورًا، ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور. وبعد:

أخي الكريم: لعلك تذكر معي حين تحدثنا في المقال السابق عن مساوئ الخلق التي خَلَفَتْ أصحاب السبت وكيف بلغوا في السوء مبلغًا كبيرًا وكان من فسادهم أن كتبوا بأيديهم ما قالوا إنه من عند الله وما هو من عند الله ، ومن أسوأ ما كتبوا وهم في ظلمات الشتات (التلمود) فجاء ظلمات بعضها فوق بعض، ووقفنا معك في المقال السابق مع بعض ظلمات ذلك التلمود الذي يحكم حياتهم وتصوراتهم في صراعهم مع الأمم عامة ومع المسلمين خاصة، وهذه الضلالات وإن لم تكن جديدة عما فعله أسلافهم إلا أنها زادت عليها وهي تنقسم إلى قسمين : ضلالات في العلم والاعتقاد (شبهات)، وضلالات في العمل (شهوات).

هذا، ولعلك تذكر أخي القارئ الكريم أننا طرحنا سؤالاً حان لنا وقت الإجابة عليه.

ولعل من المناسب أن أذكّرك بالسؤال، فقد كان: هل يقع في المسلمين ما وقع عند اليهود من اتباع فتن الشبهات والشهوات؟ قلت: نعم. ووعدتك اليوم ببيان كيف؟

أقول مستعينًا بالله ما يلي:

أولاً: حذرنا الله من الفرقة كما تفرقوا، ولكننا تفرقنا فرقًا شتى.

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من اتباعهم، ولكن كثير منا اتبعهم حذوا القذة بالقذة فيما وقعوا فيه من شبهات وشهوات فإنَّهم قالوا على الله بغير علم واستهانوا بشرع الله وشريعة أنبيائه ومنا من فعل ذلك، ووقعوا في حب الدنيا واتباع الشهوات، ومنا من فعل ذلك، بل من الفرق من كتبوا بأيديهم باطلاً ثم قالوا هو من عند الله كما فعل يهود.

ثانيا: أقرب فرق المسلمين شبهًا باليهود:

إن أقرب الفرق شبهًا باليهود في ضلالهم هم الشيعة (الرافضة)، ذلك بأنهم وإن لم يستطيعوا تحريف حروف القرآن فقد حرَّفوا تأويله، ومنهم من ادعوا وجود مصحفٍ آخر وعلم آخر اختصَّ الله به عليًا - رضي الله عنه - وفاطمة - رضي الله عنها - وهما براءٌ من افتراءات الشيعة . وقالوا: إنَّ هذا القرآن الذي يدَّعون سيظهر مع إمامهم المنتظر، وقد منحوا أئمتهم حق التشريع المطلق ووسموهم بالعصمة.

والغلاة منهم خلعوا على بعض أئمتهم صفات الإله الخالق - سبحانه - وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا وتنحصر بدعتهم في أربعة أمور: (التشبيه، والبداء، والرجعة، والتناسخ)، وهذه تفرَّعت عنها كل البدع.

يقول الأستاذ أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام الجزء الأول: «والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كلُّ من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزرادشتية وهندوسية، ومن كان يريد استغلال بلاده والخروج على مملكته، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب آل البيت ستارًا يضعون وراءه كلَّ ما شاءت أهواؤهم، فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة، وقال الشيعة: إن النار محرمَّة على الشيعي إلا قليلاً كما قال اليهود: ﴿ لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً ﴾ [البقرة: ٨٠]. والنصرانية ظهرت في التشيع في قول بعضهم: إن نسبة الإمام إلى الله كنسبة المسيح إليه. وقالوا: إن اللاهوت اتحد بالناسوت في الإمام، وأن النبوة والرسالة لا تنقطع أبدًا، فمن اتحد به اللاهوت فهو نبيٌّ». اهـ

وقد ذهب كثير من المؤرخين ومنهم بعض المستشرقين مثل - ولهوسون - إلى أن العقيدة الشيعية بنت اليهودية، مستدلاً بأن مؤسسها عبد الله بن سبا وهو يهودي ، وهذا أمر لا شك فيه؛ فإن اليهود عندما عجزوا عن مواجهة الإسلام من الخارج أرادوا هدمه من الداخل، وكان هذا هو هدف عبد الله بن سبا مؤسس التشيع الأول، وهو الذي خلع على عليّ رضي الله عنه صفات الإله ، وقد قام علي رضي الله عنه بتحريقه بالنار عقوبة له على افترائه ومع بشاعة العقوبة إلا أن الفِرْية كانت أشنع.

ثالثًا: ومن رَحم الشيعة ومن تحت مظلة التشيع خرجت فرق كثيرة اشتركت مع التشيع في ضلالاته بل فاقته في أحيان كثيرة.

ونشير فيما يلي إلى أشهر هذه الفرق وأهم معتقداتها إشارة مجملة لأن المجال لا يسمح بتفصيل:

١- الإسماعيلية: ولهم مسميات كثيرة منها الباطنية والمزدكية والقرامطة، وأهم معتقداتهم:

أ- إعلان الحرب على أهل السنة وتشويه الإسلام.

ب- خلعوا صفات الإله على إمامهم (آخاخان الثالث).

٢- القرامطة: وقد خرجوا من رحم الإسماعيليين وقد سعوا في الأرض فسادًا.

ومن معتقداتهم:

-وجود ظاهر وباطن للقرآن والأحكام والأخبار.

-حصر مدارك العلوم في الإمام المعصوم الذي لا يخلو منه زمان ولا مكان.

-قالوا بإلهين للكون.

-أنكروا البعث والجزاء.

-استباحوا كل محظور شرعي ويكفيهم جرمًا أن هدموا الكعبة وعاثوا فسادًا بالبلد الحرام.

٣- الفاطميون: وهم صورة أخرى من صور القرامطة في معتقداتهم الهدّامة، وتاليه الحكام والقول بوجود إلهين اثنين أو أكثر.

٤- الدروز: وهم مزيج من الفرق الباطنية وغلاة المتصوفة.

ومن أهم معتقداتهم:

-تاليه الحكام.

-إسقاط فرائض الدين، وبعضهم يؤله الشيطان.

٥- النصيرية العلوية: وموطنهم سوريا. ومن معتقداتهم:

-تاليه علي رضي الله عنه.

-تاليه الأئمة من بعده.

-يقولون بتناسخ الأرواح.

-يكفّرون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما.

-يحتفلون بأعياد اليهود والنصارى ولا يصومون رمضان وأسقطوا الصلاة.

٦- البُهْرَةُ: يحترمون ظاهر القرآن ويحرفون معانيه بحسب أهوائهم.

-يتوجهون في صلاتهم إلى قبر أحد دعاتهم المقبور في الهند ولا يصلون إلا في الأيام العشرة الأولى من المحرم فقط.

٧- البهائية: وهم امتداد للبابية التي ظهرت في إيران عام ١٨٤٤م على يد مؤسسها علي محمد في يوم الخميس ٢٣ مارس وهو يوم عيد عندهم والبهائية سميت بهذا الاسم تسمية لمؤسسها الميرزا حسين والذي تسمى بالبهاء، وثقافته خليط من البرهمية والبوذية والزرادشتيه الفارسية واليهودية والباطنية وغلاة الصوفية الذين يقولون بحلول الله في الأشياء - تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

أما عقيدة البهائيين فهي تبعًا لمؤسسها تقوم على هدم عقيدة التوحيد والقول بتعدد الآلهة وبنظرية الفيض وحلول الله - سبحانه - في المخلوقات- تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، ثم هم يستبيحون المحرّمات وينقضون أركان الإسلام.

أخي الكريم : هذا قليل ذكرناه من كثير اتضح فيه تأثير اليهود في الفرق المنتسبة إلى الإسلام، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى لاحظنا مدى الضلال والانحراف عن الحق والتحريف لدين الله الذي وقعت فيه هذه الفرق ومن ناحية ثالثة لاحظنا أن جميع هذه الفرق يجمع بينها التشيُّع لآل البيت زورًا وبهتانًا، وكلها خرجت من رحم فرق الشيعة، ومهما حاول أهل التشيع استخدام التقية أو الكذب على أنفسهم وعلى المسلمين فهذه الحقائق دامغة، وقد حاول بعض أهل العلم التهوين من انحراف الشيعة تحت دعوى التقريب وهذا الأمر للأسف لم يعد له مجال بعد أن انكشفت الأمور واضحة في رابعة النهار، ونقلت لنا وكالات الأنباء صباح مساء أخبار الجثث التي توجد هنا وهناك في أرض العراق مفصولة الرؤوس، ومقتولة بطريقة بشعة، هذه التصفيات المدبرة التي تقوم بها الميليشيات الشيعية وهذا التعاون الواضح مع القوات المحتلة على إبادة أهل السنة، علام يدل؟

وينقل شهود العيان أمورًا تتقطع لها نياط القلوب عن مداهمات لبيوت أهل السنة والبحث عن كل من يتسمّى بعمر وبأبي بكر وإطلاق الرصاص على رأسه وفي عينه بالتحديد، ولم يسلم من هذا العسف والظلم والمداهمات الإخوة الفلسطينيون الذين يعيشون في العراق.

ونحن مهما حاولنا من إحسان الظن فلن نستطيع أن نجد مبررًا لما يحدث إلا أن يكون حقدًا كامنًا في النفوس والذي هو نتيجة طبيعية لضلال الفهم والانحراف عن دين الله الصحيح، والذي جعل اليهود يكتمون الحق ويجحدون نبوة محمد هو السبب نفسه الذي جعل تلك الفرق الضالة تنحرف عن دين محمد ﷺ وبالتالي اجتمعت عداوتهم ضد سنة محمد ﷺ وأصحابه وأتباعه.

والله من وراء القصد

إعداد

عبد الرازق السيد عيد

أصحاب السبت

(٦)

«ويقولون سيغفر لنا» (٣)

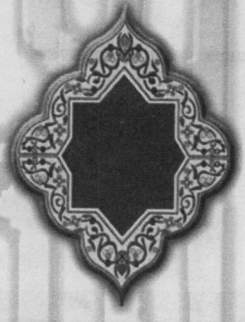

الحمد لله رب الأرض والسماوات، تسبح بحمده جميع المخلوقات، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للكائنات، أما بعد:

فهذا لقاؤنا السادس حول قصة أصحاب السبت؛ الثالث في الخُلُوف التي جاءت من بعدهم، وقد مرَّ بنا في اللقاء السابق الحديث عما وقعت فيه بعض الفرق المنسوبة إلى الإسلام من شبهات، أصولها تعود إلى التأثر بما فعله اليهود من تحريف للكلم عن مواضعه ومن القول على الله بغير علم.

واليوم حديثنا عن فتن الشهوات وما وقعت فيه أمة الإسلام - إلا ما رحم الله - من مشابهة لأهل الكتاب. وقبل أن أبدأ معك هذا الحديث أذكرك أخي الكريم أننا نتحدث حول قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق التعقيب على قصة أصحاب السبت وهي تتحدث عن زيادة الانحراف في الأجيال المتتالية من بني إسرائيل، وقد سبق الحديث عن ذلك بشيء من التفصيل وكيف وقعت الخلوف في انحرافات السابقين وزادت عليها مع وجود الميثاق المؤكد في كتبهم أن يتقوا الله فيما استحفظهم عليه من كتاب وجعلهم أمناء عليه وأوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والتحريف، وأن يبلِّغوه للناس ولا يكتموه.

ومن علامة سعادة ورثة الكتاب أن يقوموا بما أمرهم الله ولا يكتموه، ومن علامات الشقاوة أن يكون العالم مُخلدًا للبطالة، غير قائم بما أمر الله به ولا مبال بما استحفظ عليه، وقد أهمله وأضاعه بل حرَّفه وبدَّله واشترى بآيات الله ثمنًا قليلاً في الدنيا، وهذا ما وقع فيه بنو إسرائيل وقوعًا تامًا، وقد بينا ذلك فيما سبق بوضوح، وقد حذرنا الله - سبحانه - أن نقع فيما وقع فيه بنو إسرائيل، ومع ذلك فقد وقع في أمتنا ما وقع في بني إسرائيل على مستوى العلماء والعوام، وعلى مستوى الشبهات والشهوات، وقد ذكرنا جانبًا من ذلك في مقالنا السابق مباشرة واليوم آن الأوان أن نستكمل معك الموضوع ونبدأ مع الإمام القرطبي - رحمه الله - حيث

قال عند تفسير الآية السالفة الذكر: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ...﴾ قال رحمه الله: «وهذا الوصف الذي ذمّ الله تعالى به هؤلاء موجود فينا». واستدل على قوله هذا بأثر موقوف على الصحابي الجليل معاذ بن جبل رحمه الله: «سيبلى القرآن في صدور أقوام كما يبلى الثوب فيتهافت يقرؤونه لا يجدون له حلاوة ولا لذة، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف إن قصَّروا قالوا سنبلغُ، وإن أساءوا قالوا سيغفر لنا، إنا لا نشرك بالله شيئًا».

[أخرجه الدارمي في فضائل القرآن - باب تعاهد القرآن]

أصل الداء:

نشير هنا إلى أمر هام ألا وهو أن القضية الأساسية ليست في وقوع القوم في المعاصي أو تقصيرهم في طاعة الله، إنما المشكلة في زعمهم أن الله سيغفر لهم مع تقصيرهم في طاعة الله واستمرارهم على المعصية.

ثم لم يتوبوا ولا هم يستغفرون، وإنما نشأ ذلك من ضعف العلم وغفلة استولت على القلب وطمست البصيرة، أوصلت القوم إلى التقول على الله بغير علم، وإحسان الظن بأنفسهم مع سوء الظن بالله.

قال ابن القيم - رحمه الله-: القلب في سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ومتى قُطِعَ الرأس مات الطائر، ومتى فُقِدَ الجناحان أو أحدهما فهو عرضة لكل صائد وكاسر. [الفوائد]

وقال رحمه الله في «الداء والدواء»: «وكثير من الجهال اعتمدوا على رحمة الله وعفوه وكرمه وضيعوا أمره ونهيه، ونسوا أنَّه شديد العقاب، وأنه لا يرد بأسه عن القوم المجرمين».

وأكمل الأحوال للمسلم الاعتدال في جانب الرجاء والخوف، وقد أخبر سبحانه عن أوليائه وأصفيائه فقال سبحانه مثنيًا عليهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

وإنما نشأ عند القوم الاستهانة بأوامر الله من تغليب جانب الرجاء على الخوف وحسبوا أن ذلك من إحسان الظن وكذبوا كما قال الحسن البصري- رحمه الله-: «إن قومًا ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول أحدهم: لأني أحسن الظن بربي ! وكذبوا، لو أحسن الظن لأحسن العمل». وقال رحمه الله: «إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن العمل، وإن الفاجر أساء الظن بربه فأساء العمل».

الفرق بين حسن الظن والغرور:

لأهمية هذا الموضوع وخطورته سأقدم لك خلاصة ستين صفحة من كتاب الجواب الكافي «الداء والدواء» لابن القيم - رحمه الله - في السطور التالية: «حسن الظنّ بالله إن حمل على العمل وحث عليه وساق إليه فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور».

وقال: «حسن الظن هو الرجاء؛ فمن كان رجاؤه هاديًا إلى الطاعة وزاجرًا عن المعصية؛ فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاءً، ورجاؤه بطالة وتفريطًا فهو المغرور».

وقال رحمه الله: وسر المسألة: أن الرجاء وحسن الظن إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله في شرعه وقدره، وثوابه وكرامته، فيأتي العبد بها ثم يحسن ظنه بربه، ويرجوه ألا يكله إليها، وأن يجعلها موصولة لما ينفعه ويصرف عنه ما يعارضها ويبطل أثرها». اهـ.

وبعد فإن من تتبع سيرة النبي ﷺ وصحبه الأطهار ومن تبعهم بإحسان وجدهم على ذلك فإنهم أحسنوا العمل ومع ذلك أساءوا الظن بأنفسهم وقال قائلهم: «اللهم إني ظلمتُ نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم». [متفق عليه]

وهذا علَّمه خير نبي لخير ولي علمه الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه يقوله في صلاته، هذا وقد خلفت خلوف أساؤوا العمل وأحسنوا الظن بأنفسهم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والحمد لله رب العالمين

إعداد

عبد الرازق السيد عيد

أصحاب السبت

(٦)

(ويقولون سيغفر لنا) (٤)

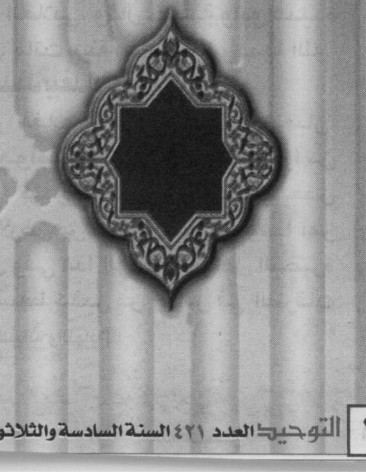

الحمد لله، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، والصلاة والسلام على البشير النذير سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين.... وبعد:

إحسان الظن بالله - سبحانه - وإساءة الظن بالنفس والعمل:

أخي الكريم حديثنا موصول عمن انحرف من بني إسرائيل واغتروا بأنفسهم فقارفوا المعاصي جهارًا نهارًا، وأعلنوا المحادة لله ورسله ثم لم يتوبوا ومع ذلك يقولون: «سيغفر لنا»، وتطرق الحديث إلى من شابههم من أمة محمد ﷺ، ووقعوا في مثل ما وقعوا فيه من انحراف في الاعتقاد وانحراف في السلوك.

وكان آخر حديثنا عن قوم ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا بغير توبة، يقول قائلهم: إني لأحسن الظن بربي، وكذبوا؛ لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل، وتحدثنا عن الفرق بين حسن الظن والغرور.

وانتهينا إلى: أن الرجاء وحسن الظن إنما يكونان مع الإتيان بما أمر الله ورسوله من خير، مع رجاء ثواب ذلك والخوف من حبوطه، وعدناك في اللقاء السابق بتتبع سيرة الرسول الكريم وصحبه الأبرار الأخيار في هذا اللقاء للوقوف على تطبيق ذلك المعنى، والتأسي بهم فهم قدوتنا، ولا طريق لنا- إن أردنا الفلاح- إلا في التأسي بهم، وقبل أن أعرض عليك نماذج من سيرة رسول الله ﷺ وصحبه والصالحين الذين تحدث عنهم كتاب ربنا أحب أن أتقدم إليك برجاء: ألا تستطيل الحديث في هذا الموضوع ؛ فإن الحاجة إليه شديدة فإنما هلك من هلك بالاغترار بالله، وَوَضْعِهِ الرجاء في غير موضعه، ونجا من نجا بإحسان ظنِّه بالله ووَضْعِ الرجاء في موضعه، وانظروا إلى إمام المفسدين إبليس - عليه لعنة الله - كيف كان هلاكه؟ ألم يكن من باب العُجب والغرور الذي أدى به إلى مقابلة أمر الله الواضح الصريح برأيه الفاسد القبيح.

أما إمام الصالحين آدم - عليه السلام - فكانت نجاته من باب التواضع ومطالعة عيب النفس والعمل وإحسان الظن بربه - سبحانه - وقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، فغفر الله له واجتباه، أما إبليس فلعنه الله إلى يوم الدين.

والآن هيا بنا عزيزي القارئ ننظر ونتعلم كيفية إحسان الظن بالله، وأريد أن أذكرك بحديث رسول الله ﷺ الذي رواه مسلم في صحيحه عن جابر - رضي الله عنه - أنه سمع رسول

الله ﷺ قبل موته بثلاثة أيام يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل». أما كيف فعل رسول الله ﷺ ذلك وكيف فعل الصحابة ذلك ؟ فإليك الإجابة:

أولاً: من القرآن الكريم:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٨]. انظر كيف «يرجون رحمة الله» بعد الإيمان والعمل الصالح المتمثل في أعلى صوره: الهجرة والجهاد في سبيل الله.

٢- ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧- ٦١]، وقد روى الترمذي في جامعه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، أهم الذين يشربون الخمر ويزنون ويسرقون؟ فقال: «لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلُّون، ويتصدقون، ويخافون أن لا يقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات». فهؤلاء قوم أهل إيمان وتوحيد وقد برأهم الله من الشرك ومع ذلك يخافون، وقد أثنى عليهم القرآن الكريم بأنهم يسارعون في الخيرات.

وأرجو أن تتأمل معي كيف جمع الله لأهل السعادة من عباده بين الرجاء والخوف في المثالين السابقين، وهذا في القرآن الكريم كثير لو تتبعناه لضاق بنا المقام ولكن تكفي هذه الإشارة.

لاحظ في الجانب الآخر أن الذين يأمنون مكر الله وهم في أمن من خوف الله هم أهل الشقاء والتعاسة ولا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا في القرآن الكريم أيضًا.

ثانيًا: من حديث رسول الله ﷺ وسيرته:

وهذا رسول الله ﷺ كان كثير البكاء من خشية الله سبحانه، وكان ﷺ أخشى الناس لله وأتقاهم له، وهو كان أكثر الناس استغفارًا وتأملوا قوله ﷺ: «اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت». [رواه البخاري]. فجمع في قوله ﷺ «أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي» بين مطالعة المنّة ومطالعة عيب النفس والعمل.

ثالثًا: اعتراف بنعمة الله عليه من التوفيق والهداية، واعتراف بقصور النفس عن بلوغ حد الشكر رجاءً وخوفًا، ومن تأمل أحوال الصحابة رضي الله عنهم وأحوال من تبعهم بإحسان - رضي الله عنهم - وجدهم غاية الإحسان في العمل مع غاية الخوف، وإليك بعض الأمثلة.

فهذا الصديق - رضي الله عنه - أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ كان كثير البكاء؛ كان يقول: «ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»، وهو رضي الله عنه القائل: «وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن». والقائل: «والله لوددت أني كنت شجرة تؤكل».

وهذا عمر - رضي الله عنه - قرأ سورة الطور حتى إذا بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ بكى واشتد بكاؤه حتى مرض وعاده الناس.

وكان في وجهه - رضي الله عنه - خطان أسودان من كثرة البكاء.

وهذا عثمان رضي الله عنه كان إذا وقف على القبر يبكي حتى تبتل لحيته.

وكان كثير الخشية من يوم العرض على الله مع إحسانه رضي الله عنه.

وهذا علي - رضي الله عنه - كان كثير البكاء والخوف وكان يشتد خوفه من اثنين: طول الأمل واتباع الهوى، أما الأول فينسي الآخرة، وأما الثاني فيصد عن الحق، والأمثلة كثيرة من سيرة الصحابة والتابعين رضي الله عنهم لكني أرى ضيق المكان والزمان عن عرض الأمثلة فاكتفي بما ذكره البخاري عن ابن أبي مليكة أنه قال: «أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه».

وكان الحسن يقول عن النفاق: ما خافه إلا مؤمن، ولا أمنه إلا منافق.

وقال ابن القيم - رحمه الله - وهو يستعرض هذه النماذج: هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم جمعوا بين إحسان العمل وسوء الظن بأنفسهم، أما نحن فقد جمعنا بين التقصير - بل التفريط - والأمن، وإذا كان هذا قول ابن القيم عن نفسه وأهل زمانه فماذا نقول نحن اليوم؟

ولقاؤنا في العدد القادم إن شاء الله.

إعداد

عبد الرازق السيد عيد

بنو إسرائيل من بعد سليمان عليه السلام

هاروت وماروت (١)

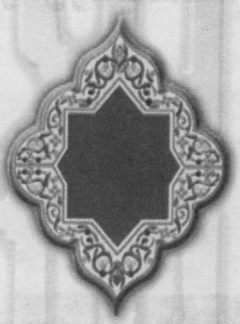

الحمد لله، إن الحكم إلا لله يقصُّ الحق وهو خير الفاصلين، وأشهد ألا إله إلا الله الذي عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، والصلاة والسلام على رسول الله، الذي لا علم له إلا ما علمه الله إياه، وقال له ربه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] أما بعد:

فها نحن ننتقل معك أخي القارئ إلى موقف آخر من مواقف بني إسرائيل في كتاب الله من خلال قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢، ١٠٣].

وسنلقي إن شاء الله تعالى نظرة إجمالية حول هذه الآيات من خلال ثلاثة محاور:

أولاً: الحديث هنا عن بني إسرائيل ويُفهمُ ذلك من السياق السابق واللاحق، فالآيات السابقة تتحدث عن بني إسرائيل وعداوتهم لجبريل الذي جاء بالحق من عند الله ونزل به على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وخاتمهم محمدٌ ﷺ، بل الآية السابقة مباشرة تتحدث عن تكذيبهم لمحمد ﷺ الذي جاءهم بالحق المصدق لما هو معهم من بقايا التوراة بعد تحريفها، ومع ذلك نبذوا كتاب الله الذي معهم - البقايا التي معهم - وكذلك نبذوا كتاب الله الحق الذي أنزله على محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١].

والحديث هنا عن يهود المدينة الذين هم امتداد لأسلافهم من أصحاب السبت، قال صاحب «نظم الدرر»: «ولما توالى الإنكار من بني إسرائيل أدَّى بهم إلى اتباع الشياطين في كذبهم على سليمان عليه السلام، ولما كانت

سنة الله الجارية بأنه ما أمات أحدٌ سنةً إلا زاد في خذلانه بأن أحيا على يديه بدعة، أعقبهم نبذهم لكلام الله إقبالهم على كلام الشياطين الذين هم أعدى الأعداء». اهـ.

وحول هذا المعنى قال الشيخ السعدي في تفسيره عند هذا الموضع: «ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه مع إمكانه من الانتفاع به فلم ينتفع، ابتلي بالاشتغال بما يضرُّه، فمن ترك عبادة الرحمن، ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله، أنفقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذلَّ لربه ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل، كذلك هؤلاء اليهود نبذوا كتاب الله واتبعوا ما تتلو الشياطين وتختلق من السحر على ملك سليمان، حيث أخرجت الشياطينُ للناس السحر وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم، وهم كذبة في ذلك، وقد نزه الله سبحانه سليمان عن ذلك». اهـ مع تصرف يسير.

ثانيًا: المعنى الإجمالي للآيات الكريمة وهو ملخص للقصة كما اتفق عليه كثير من أهل التفسير سلفًا وخلفًا، ولعله خلاصة الراجح في القصة، واتبع اليهود ما تُحدِّث الشياطين به السحرة على عهد سليمان عليه السلام، وما كفر سليمان وما تعلم السحر، ولكن الشياطين هم الذين كفروا بالله حين علموا الناس السحر؛ إفسادًا لدينهم.

وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أُنزل على الملكين هاروت وماروت بأرض بابل بالعراق والذي جعله الله ابتلاءً منه لعباده.

والملكان لا يعلمان أحدًا السحر حتى ينصحاه ويحذراه من تعلّم السِّحر ويقولا له: لا تكفر بتعلُّم السحر وطاعة الشياطين، فيتعلم الناس من الملكين ما يُحْدِثون به الكراهية بين الزوجين حتى يتفرقا.

لكن الأمر المؤكد هو أن السحرة وسحرهم لن يتمكنوا من ضرر أحد إلا بإذن الله وقضائه، وما يتعلم السحرة إلا شرًا يضرهم ولا ينفعهم، وقد نقلته الشياطين إلى اليهود، فشاع فيهم حتى فضلوه على كتاب الله، ولقد علم اليهود أن من اختار السحر وترك الحق فليس له في الآخرة من الخير نصيب، وبئس فعل القوم ما اختاروه من السحر والكفر عوضًا عن الإيمان ومتابعة الرسول الذي جاء بالحق مصدقًا لما معهم من بقايا الحق، ولو أنهم آمنوا بالله واتبعوا رسوله النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة لكان خيرًا لهم في الدنيا والآخرة.

ثالثًا: لقد وقع اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ فيما وقع فيه أسلافهم من قبل من أصحاب السبت في كتمانهم الحق وتحريفه وتبديله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، ولذا حذرهم الله أن يصيبهم ما أصاب أسلافهم من أصحاب السبت، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾ [النساء: ٤٧]، ويهود المدينة ضلُّوا وأرادوا الضلال لغيرهم، إذن فها هو تاريخ بني إسرائيل سلسلة من الانحرافات على مر الزمن - إلا فترات يسيرة - مستمرة إلى يومنا هذا وإلى أن يأتي أمر الله.

هذا، وقد قدَّمنا في هذا المقال عرضًا مجملاً للقصة، وإلى مزيد من التفاصيل والأحكام والدروس المستفادة في لقاءات تالية بإذن الله.

فإلى ذلك نستودعكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حتى لا يقع الالتباس على كثير من الناس

إعداد
عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

عادت إلى الساحة في الآونة الأخيرة أدراج المهتمون به على تسميته بالتقريب بين المذاهب، ولست بصدد مناقشة موضوع التقريب الآن لا من قريب ولا من بعيد، ولكني رأيت أن تسمية هذا العمل بالتقريب بين المذاهب قد يُحدث التباسًا على الكثير من الناس؛ لذا أردت التوضيح وباختصار:

إن أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماع كلمة «المذاهب» أنها المذاهب الفقهية (الشافعي- مالك- أحمد- أبو حنيفة) وغيرهم، رحم الله الجميع. هذا أولاً، وثانيًا: ذلك يوحي بأن الخلاف بين أهل السنة والشيعة خلاف مثل الخلاف الذي بين مذاهب الفقه، وشتّان بين الأمرين:

فالخلاف بين المذاهب الفقهية خلاف في مسائل فرعية وليس في أصل العقيدة، وأصحاب المذاهب الأربعة المشهورة كلهم من أهل السنة والجماعة، ولا خلاف بينهم في أصول الاعتقاد وإنما خلافهم في مسائل فرعية من مسائل الفقه مثل قنوت الفجر عند الشافعية وبقية المذاهب مثلاً. والخلاف في هذه المسائل مستساغ وموجود منذ زمن الصحابة، وسيستمر ولا حرج فيه، بل قد يكون رحمة في بعض الأحيان، وصاحب هذا الاختلاف مأجور على كل حال انطلاقًا من قاعدة من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر، وهي معتمدة على حديث رسول الله ﷺ.

أما الخلاف بين السنة والشيعة فهو خلاف في أصول الاعتقاد، وانطلاقًا من قاعدة الاختصار التي ألزمت نفسي بها سأختصر جدًا، فهو خلاف مذموم، هو كالخلاف بين السنة وبين الخوارج والقدرية والمرجئة، وهو الذي حذر منه القرآن الكريم حين قال تعالى: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقد تحدث عنها النبي ﷺ موضحًا ومحذرًا حين قال: «إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة». وفي رواية أخرى قال: «فرقة» بدلاً من «ملة».

وعندما سُئل عن النجاة قال: «ما أنا عليه اليوم وأصحابي». وهذه الأحاديث رواها أصحاب السنن وصححوها، وصححها الألباني رحمه الله في السلسلة تحت رقم (٢٠٤)، وجمع بينها وعلّق عليها.

وكما ترى هذا اختلاف تفرق وتشرذم يفت في عضد الأمة ويضعف قوتها ويفرق كلمة المسلمين، وقد بين الرسول ﷺ سبيل النجاة بلزوم سنته وسنة أصحابه من بعده، وقد أكد هذا المعنى في أحاديث كثيرة منها ما رواه أحمد والترمذي وأبو داود من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: «... فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة». فأمر بالتمسك بسنته ﷺ وسنة أصحابه وبخاصة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم.

وما أحسن ما ذكره عبد الله بن المبارك رحمه الله حين قال: (أصل اثنتين وسبعين فرقة هوى): أربعة أهواء تشعبت منها الفرق كلها: ١- القدرية. ٢- المرجئة. ٣- الشيعة. ٤- الخوارج. فمن قدّم أبا بكر وعمر وعثمان وعليا رضي الله عنهم فقد خرج من التشيع أوله وآخره.

ومن قال الإيمان قول وعمل يزيد وينقص فقد خرج من الإرجاء أوله وآخره. ومن قال: الصلاة خلف كل بر وفاجر والجهاد مع كل خليفة، ولم ير الخروج على السلطان فقد خرج من قول الخوارج أوله وآخره.

ومن قال المقادير كلها من الله عز وجل خيرها وشرها، يضل من يشاء ويهدي من يشاء فقد خرج من قول القدرية أوله وآخره وهو صاحب سنة. اهـ.

أسأل الله أن يقينا وإياكم شر الأهواء، وأن يثبتنا على الحق حتى نلقاه.

إعداد

عبد الرازق السيد عيد

بنو إسرائيل من بعد سليمان عليه السلام

هاروت وماروت (٢)

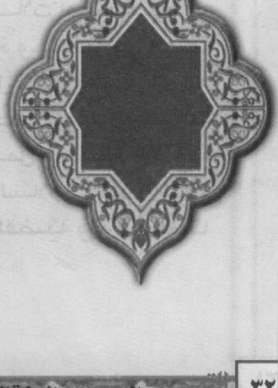

الحمد لله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، وصلاة وسلامًا على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

أخي الكريم: في اللقاء الماضي تحدثنا معك عن شيء من أسباب نزول قصة هاروت وماروت وعلاقة ذلك ببني إسرائيل، وبيَّنا علاقة اليهود المعاصرين للنبي ﷺ بأسلافهم من أصحاب السبت، وأن وجه الشبه بينهم هو التكذيب بكتب الله ورسالاته وتحريف الكلم عن مواضعه، فحق عليهم ما حق على أسلافهم من اللعنة.

وقد وصل الحقد مداه بهم حتى باعوا أنفسهم للشيطان، وخسروا الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وقد ذكرنا هناك القصة مجملة من صحيح أقوال أهل العلم، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من البسط والتفصيل بغير إسهاب أو تقصير[1]. فإلى ذلك والله ولي التوفيق:

قوله تعالى: ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ أي: اليهود ؛ و«تتلو» ليست هنا بمعنى تقرأ ؛ ولكن من: تلاه يتلوه- بمعنى: تَبِعه أي ما تتبعه الشياطينُ «على ملك سليمان» أي في ملكه وفي عهده، وقد جمع الله لسليمان - عليه السلام - بين الملك والنبوة، ولكن اليهود يعترفون بملكه فقط، وهذا من ضلالهم.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ أي: بتعلم السحر، أو تعليمه، ولكن الشياطين هم الذين كفروا بتعلُّم السِّحر وتعليمه.

السحر في اللغة

«السحْرُ» يُطلق في اللغة ويراد به كل شيء خَفِي سَبَبُه ولَطُف، ومنه قول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «إن من البيان لسحرًا»، وهذا ليس بمذموم إلا بحسب موضوعه، وليس هذا المقصود من السحر المذكور في الآيات الكريمة التي بين أيدينا، إنما المراد هنا السحر المذموم وهو الذي نهى عنه الشرع الحنيف، وهذا السحر يؤثر في بدن المسحور وعقله وهو أنواع بحسب تأثيره، وذلك خلافًا لرأي المعتزلة ومن ذهب مذهبهم من الذين ينكرون حقيقة السِّحر ؛ وقولهم هذا مرجوح، وما ذهب إليه الجمهور من أهل العلم سلفًا وخلفًا من وقوع السحر حقيقة هو الرأي الصحيح الذي يؤيده النقل والعقل والواقع ولولا خشية الإطالة لأوردنا الأدلة الكثيرة على ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾، «ما» موصولة بمعنى «الذي»، والجملة معطوفة على جملة «واتبعوا...»، والمعنى أي واتَّبع اليهود كذلك السّحر الذي أُنزل على الملكين ببابل، وقيل: إن «ما» في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ نافية أي: لم ينزل على الملكين ببابل، قال ابن الأنباري: وهذا الوجه ضعيف جدًا لأنه خلاف الظاهر والمعنى، فكان غيره أولى، والحق أن من قال بهذا القول أوقع نفسه في سلسلة من التقديرات والتأويلات ذهبت به بعيدًا والراجح هو القول الأول.

التفريق بين السحر والمعجزة

﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ هما من الملائكة على القراءة الأصح[٢]، بفتح اللام والكاف في «مَلَكَيْن» مثنى «مَلَك»، وعلى ذلك فهاروت واحد من الملائكة، وماروت كذلك، وقد أنزلهما الله إلى الأرض ابتلاءً من الله للناس، وما يعلمان الناس السحر من أجل السحر ولكن من أجل إبطاله، وقد فشى السحر في ذلك الزمان، وأظهر السحرة أمورًا غريبة، وقع بسببها الشك في النبوة، وكان الهدف إزالة الشُّبَه وإماطة الأذى والتفريق بين السحر والمعجزة، ولذا كانا يقولان للناس: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ أي: بتعلُّم السحر وتعليمه، وقوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، وكان مما يتعلمه الناس من الملكين سحر التفريق بين الزوجين ويسمى «الصَّرف» ويقابله سحر «العطف»، وهو من الخطورة بحيث يلتزم كبير الشياطين تلميذه الذي يقوم بذلك، ويلتزمه أي يحتضنه ويقربه على ما قام به من أسباب التفريق بين الرجل وزوجه كما صحَّ بذلك الخبر في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه، قال ﷺ: «إن الشيطان ليضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم فتنة، يجيء أحدهم فيقول ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا. فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئًا، ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول: نعم أنت».

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وفي هذا إثبات لحقيقة السحر وحقيقة ضرره خلافًا لمن قال بغير ذلك، لكن إذا كان للسحر حقيقة وتأثير، فإن الحقيقة العظمى التي يجب أن تستقرَّ في وجدان المؤمن وفي عقله وقلبه ويقينه أن السحرة والسحر لا يضرُّان أحدًا إلا بإذن الله، فاعلم أيها المسلم المؤمن ذلك، وتأكد أنك ما دمت مستعينًا بالله، ذاكرًا له سبحانه على كل أحيانك، قائمًا بأمره قدر إمكانك، مجتنبًا نواهيه في سرك وإعلانك، فإنه سبحانه يعصمك بقدرته من شرِّ السحر والسحرة ومن شياطين الإنس والجن ومن كل معلن أو مسر.

خسران الذين اتبعوا الشيطان

ولقد خُتم هذا المقطع ببيان خسران الذين اتبعوا الشياطين وعملوا بالسحر، قال تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢، ١٠٣].

لكن وآسفاه على اليهود الذين تركوا الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، واتبعوا الباطل الذي جاءت به الشياطين، واتبعوا السحر وسحروا الرسول ﷺ، ولكن الله أبطل سحرهم، فحاولوا قتله ﷺ، لكن الله عصمه منهم، ثم سوَّل لهم الشيطان تفضيل الشرك على التوحيد، وتفضيل أصنام المشركين على عبادة الله رب العالمين، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإلى لقاء آخر أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

---

(١) اخترت الراجح من أقوال أهل العلم وتركت المرجوح، وسكتُّ عن القصص الواهية أو التي فيها رائحة الوضع، والله المستعان، فتركها خير من ذكرها.

(٢) أيضًا اخترنا - هنا - الرأي الأرجح حتى نبتعد بك عن تأويلات لا طائل من ورائها.

بنو إسرائيل من بعد سليمان عليه السلام

هاروت وماروت

إعداد
عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي له في كل شيء آية تدل على أنه الواحد، فيا عجبًا كيف يعصى الإله أو يجحد صنعه الجاحد، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ خير من قرأ وتدبر واعتبر حتى كان خلقه القرآن، وبعد:

أخي القارئ الكريم: وقفنا من خلال مقالين سابقين على قصة هاروت بعرض مجمل وآخر أكثر تفصيلاً، رأينا من خلال ذلك مناسبة ورود القصة في موقعها القرآني وعلاقة ذلك باليهود والمعاصرين للنبي ﷺ ، وابتعدتُ بك عن كثير من الأقوال التي لا فائدة منها، والآن ندخل مباشرة إلى الغاية الأساسية من القصص القرآن ألا وهي استخلاص الدروس والعبر.

أولاً: في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.

فوائد:

١- نزلت في يهود المدينة النبوية الذين كفروا بمحمد ﷺ بعد أن جاءهم بكتاب من عند الله هو القرآن مصدقًا لما معهم من التوراة.

٢- لكن اليهود نبذوا كتاب الله - القرآن - ونبذوا «التوراة» وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، وعبَّر القرآن الكريم بـ «نبذوا» ولم يعبِّر بـ «تركوا» لأن النبذ يشير إلى ما انطوت عليه نفوس اليهود من استهانة بمنهج الله وكُتبه ورسله، ويدل على ما تتسم به أخلاقهم من خسة ونذالة وما تغلي به صدورهم من حقد وحسد للإسلام والمسلمين.

ثانيًا: في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

فوائد:

١- لما كفر اليهود بالحق الذي جاءت به الرسل لم يكن أمامهم إلا اتباع الباطل الذي جاءت به الشياطين من السحر والبهتان، فتعلّموه وعلموه ومارسوه وفسدوا به وأفسدوا كثيرًا، وقد حاول بعضهم سحر رسول الله ﷺ في المدينة وقد قام بهذه الفعلة الشنعاء أحدهم وهو لبيد بن الأعصم. [البخاري ٥٧٦٦، ومسلم ٢١٨٩]، لكن الله سبحانه أبطل سحرهم.

٢- لما فشل سحرهم حاولوا قتل النبي ﷺ وحاولوا ذلك في بني النضير ثم في خيبر حين قدَّمت له امرأة شاة مسمومة.

٣- ولما كان من سنن الله في كونه أن من ترك الحق شُغل

بالباطل ومن ترك الخير شُغل بالشرِّ كان ذلك شأن اليهود من لدن موسى إلى قيام الساعة، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥]، وهكذا استمر اليهود في الفساد، ومن فسادهم ما ذكرنا ولم يقفوا عند حد في فسادهم ولما فشلت محاولاتهم في سحر رسول الله ﷺ أو قتله، أخذوا يدبرون للقضاء على الإسلام والمسلمين بالمدينة النبوية بتأليب المشركين من قريش وغطفان ضد المسلمين في غزوة الأحزاب حتى بلغ بهم الحقد مداه فوقعوا في أشنع أعمالهم وفضّلوا عبادة الأوثان على عبادة الرحمن سبحانه فبئس ما صنعوا؛ وكان ذلك عندما سألت قريش وفد اليهود الذين كانوا يجوبون آنذاك الجزيرة لتأليب الأحزاب فقالت لهم قريش: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول، وأنتم على علم بما أصبحنا نختلف فيه ومحمد ؛ أفديننا خيرٌ أم دينه؟ فقال اليهود: بل دينكم خيرٌ من دينه، وأنتم أولى بالحق منه!! وقد سجّل عليهم القرآن الكريم هذه السَّقْطة المزرية وكم من سقطات لهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلاَلَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١، ٥٢].

وقد أنكر عليهم مثل هذه السَّفه من هو من بني جلدتهم فقال د. إسرائيل ولفسون في كتابه الشهير «تاريخ اليهود في بلاد العرب»: كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرّحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة طلبهم بالخروج لقتال محمد». اهـ.

ثالثًا: في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا...﴾.

فوائد:

١- تنزيه سليمان عليه السلام من افتراءات اليهود عليه من اتهامه بتعاطي السحر، وإثبات النبوة والملك له عليه السلام.

٢- بيان حكم السِّحر ومن يتعاطاه تعلمًا وتعليمًا وأنه كفر مخرج من الملة، ولقد عقّب الله في ختام الآيات بحرمان من فعله وانعدام حظه في الآخرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ﴾.

ويتأكد هذا الحكم في حق من يتعاطاه عن طريق الشياطين لأن الشياطين لا يعطون السحر إلا لمن يكفر بالله أو يأتي بأعمال هي الكفر بعينه غالبًا، ولذا فرق العلماء بين السحر الذي يأتي عن طريق الشياطين وغيره، وهنا من المفيد أن ننقل لك كلامًا مفيدًا للشيخ ابن عثيمين - رحمه الله-:

«... وتعلُّم السحر كفرٌ أكبر يخرج من الملَّة؛ وهذا فيما إذا كان السِّحْر عن طريق الشياطين، أما إذا كان عن طريق الأدوية، والأعشاب، ونحوها ففيه خلاف بين العلماء، واختلفوا هل تُقبل توبة الساحر أم لا ؟ والراجح أنها تقبل فيما بينه وبين الله عز وجل، أما قتله فيرجع فيه إلى القواعد الشرعية وما يقتضيه اجتهاد الحاكم، وقد يتوصل إلى السحر بمعصية دون الشرك فهو بحسبها. والله أعلم.

رابعًا: في مسائل لابد من بيانها:

الأولى: قد بينا حكم السحر والساحر، فما حكم من يذهب إلى الساحر؟

نقول ابتداءً بإجماع العلماء على تحريم الذهاب إلى الساحر أو تصديقه لوضوح الأدلة في تحريم ذلك ومنها ما رواه الأربعة والحاكم وقال: صحيح الإسناد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ : «من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد». وفي صحيح الجامع من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه قال ﷺ : «ليس منا من تطير أو تُطير له أو تكهن أو تُكهن له أو تسحّر أو تُسحِّر له». وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ : «من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة».

الثانية: لا يجوز حلّ السحر بالسِّحر على الرأي الراجح ولوضوح الأدلة في النهي عن تعلُّم السحر أو تعليمه، أما كيف يتم حل السحر وعلاجه وفوائد أخرى في لقاء قادم، استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

بنو إسرائيل من بعد سليمان عليه السلام

هاروت وماروت

إعداد
عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله ربِّ السماوات، ورب الأرض، ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، نعوذ به سبحانه من شر كل ذي شر هو آخذ بناصيته، والصلاة والسلام على من عصمه الله من الناس، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

أخي الحبيب: لعلك تذكر اللقاء السابق الذي قدّمنا فيه مجموعة من الفوائد والدروس مستخلصة من قصة هاروت وماروت، وتوصلنا في «رابعًا» إلى مسائل تتعلق بالسحر رأينا من الأهمية بيانها وذكرنا هناك حكم الذهاب إلى السحرة والكهَّان وحرمة ذلك بإجماع أهل العلم، كما لا يجوز التداوي من السحر بسحر مثله.

وهناك طرحنا سؤالاً ألا وهو، ماذا يفعل من أصابه سحر؟

وإليك الإجابة: جاء في صحيح سنن أبي داود عند أحمد - رحم الله الجميع - من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سُئل عن النشرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان». قال ابن القيم - رحمه الله - تعليقًا على هذا الحديث وشرحًا كاملاً قيمًا أوجز لنا فيه القضية: «النشرة: حل السحر عن المسحور وهي نوعان: أحدهما: حلُّ السحر بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان وهو الذي نهى عنه الحديث، والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدعية والأدوية المباحة فهذا جائز». اهـ.

ويتضح مما سبق أنه لا يجوز حلُّ السحر بسحر مثله حيث يتقرَّب الساحر والمسحور إلى الشيطان بطاعة، لكن يعالج السحر بإحدى طريقتين الأولى: أن يُعرفُ مكانه فيُبطل؛ وهذا الذي حدث عندما سُحر رسول الله ﷺ، وهذه الطريقة قد تكون من الصعوبة بمكان، والثانية هي الرقية الشرعية من كتاب الله وبخاصة المعوذتين (الفلق والناس) «لم يتعوذ المتعوذون بمثلهما»، وبالأدعية والأدوية النافعة بإذن الله وبعض الأغذية مثل التمر والحبة السوداء، وقد صح بذلك الخبر عن المعصوم ﷺ، والله أعلم.

خامسًا: في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ﴾ مسائل:

الأولى: قد تتساءل وأنت محق في تساؤلك كيف يعلِّم

الملكان الناس السحر مع اعترافهما بأنه كفر؟ والإجابة مختصرة جدًا في قولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾، والفتنة هنا بمعنى الابتلاء والاختبار، ومع تفصيل يسير نقول: إن الابتلاء سنة الله الثابتة والمستمرة في عباده، قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فالله سبحانه إنما يبتلي عباده بالخير والشر ليميز الخبيث من الطيب، وقيل الابتلاء (للتفريق بين سحر الشياطين، معجزة النبي.

الثانية: وهذه فائدة من كلام العلامة ابن عثيمين - رحمه الله-: «إن الله تعالى قد ييسر أسباب المعصية فتنة للناس، فإياك إياك إذا تيسرت لك أسباب المعصية أن تفعلها، واذكر قصة بني إسرائيل حين ابتلاهم الله بتحريم الصيد يوم السبت - صيد البحر - فلم يصبروا حتى تحايلوا على صيدهم يوم السبت، فقال الله تعالى لهم: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، واذكر في المقابل قصة أصحاب محمد ﷺ حين ابتلاهم الله عز وجل وهم محرمون بالصيد تناله أيديهم، ورماحهم فلم يُقْدم أحد منهم عليه حتى يتبين لك حكمة الله في خلقه». اهـ.

الثالثة: قال أيضًا - رحمه الله-: «يجب على الإنسان أن ينصح الناس وإن أدى إلى إعراضهم، فإذا كانت عندك سلعة رديئة، وأراد أحد شراءها يجب عليك أن تحذره منها». اهـ.

سادسًا: في قوله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾، تخصيص بالذكر من بين أنواع السحر لخطورته، ولأنه من أعظم الأمور المحبوبة لدى الشياطين كما صح بذلك الخبر في صحيح مسلم، ولأنّ الرابطة بين الرجل وزوجه من أوثق الروابط.

سابعًا: في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ مسائل.

الأولى: إثبات حقيقة تأثير السحر خلافًا لمن أنكر ذلك.

الثانية: أن الأسباب مهما عظمت لا تأثير لها إلا بإذن الله. أي بقدر الله ومشيئته ولم يخالف في ذلك إلا القدرية الذين زعموا أن المرء يخلق فعله بعيدًا عن قدر الله ومشيئته وخالفوا بذلك كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين، وضلوا وأضلوا كثيرًا.

الثالثة: على المؤمن أن يلجأ إلى ربه ويستعين به في جلب خير أو دفع ضر فهو سبحانه بيده مقاليد الأمور.

ولعل من المفيد هنا الإشارة إلى كلام نفيس لابن القيم - رحمه الله - عن ذكره عشرة أسباب يندفع بها - بإذن الله - شر السحر والحسد والعين، وهذه الأسباب العشرة مدارها على التوحيد، فقال رحمه الله: «فالتوحيد حصن الله الأعظم من دخله كان من الآمنين»، وقال رحمه الله: «والسبب الجامع لذلك كله هو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم وأنها لا تنفع ولا تضر إلا بإذن الله ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال رحمه الله: «ليس أنفع للعبد من التوجه إلى الله وإقباله عليه، وثقته به، وأن لا يخاف معه غيره». اهـ.

ثامنًا: في قوله تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ﴾ إثبات أن تعلّم السحر ضرر محصن لا خير فيه البتة لمن يعلّم أو يتعلم أو يتعاطى بخلاف الأمور المنهي عنها قد يكون فيها بعض النفع، أما السحر فلا خير فيه مطلقًا.

تاسعًا: بقيت قضية نحب أن نشير إليها وهي متعلقة بقوله ﷺ فيما صح عنه: «إن من البيان لسحرًا». هل هذا على سبيل الذم أم على سبيل المدح، أو لبيان الواقع ثم ينظر إلى أثره؟ يقول العلامة ابن عثيمين رحمه الله: «الجواب الأخير هو المراد؛ فالبيان من حيث هو لا يمدح عليه ولا يذم ولكن ينظر إلى أثره، والمقصود منه، فإن كان المقصود رد الحق وإثبات الباطل فهو مذموم، وإن كان المقصود إثبات الحق وإبطال الباطل فهو ممدوح». اهـ.

وبعد، فإن البيان نعمة امتن الله به عليك فقال سبحانه: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]، فهل نشكر الله على نعمته لتوظيف البيان في طاعته ؟ اللهم إني أعوذ بك من شر لساني، ومن شر قلبي، ومن شر سمعي وبصري.

وإلى لقاء بإذن الله تعالى.

القصة في كتاب الله

قصص بني إسرائيل

الحلقة الثانية

لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة

إعداد/
عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم، والصلاة والسلام على من أرسله الله رحمة للعالمين، وبعد:

كان حديثنا في لقاءٍ سابق حول كثرة الآيات المعنوية والحسِّية في بني إسرائيل، واليوم نواصل الحديث في هذا الباب، لكن قد يخطر في نفس أحدنا سؤال: علام يدل كثرة الآيات والمعجزات وخوارق العادات في بني إسرائيل؟ بل كثرت الأنبياء في بني إسرائيل، كلما هلك نبي بعث الله فيهم نبيًا آخر، فكانت تسوسهم الأنبياء، فعلامَ يدل ذلك؟ يدلُّ ذلك على شدَّة أمراضهم وكثرتها، ولقد بيَّن الله سبحانه في كتابه أسباب انصراف بني إسرائيل عن الحق مع كثرة الآيات، وسنذكر أصول هذا الأمر حتى لا نطيل عليك.

١- قال الله عز وجل: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً...﴾.

٢- قال تعالى: ﴿...أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

فلعلك لاحظت معي أن المرض الأساسي عند هؤلاء القوم هو الكِبر، وغلظة القلب وقسوته أثر من آثاره، كذلك تكذيب الرسل وقتلهم أثر من آثاره، ومن سنن الله الكونية صرف المكذب عن الإيمان بآياته، وبهذا وصفهم الله وعاقبهم، فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ولو فتحت المصحف على هذه الآية لوجدتها قد جاءت في معرض الحديث عن بني إسرائيل قَبْلها وبعدها (السباق واللحاق)، ولذلك قال أبو السعود - رحمه الله - في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ قال: استئناف مسوق لتحذيرهم من التكبر الموجب لعدم التفكر في الآيات التي هي ما كتب في ألواح التوراة من المواعظ والأحكام وغيرها من الآيات الكونية. اهـ.

ولكنهم وقعوا فيما حُذروا منه، وتكبروا وكذبوا، وتركوا الحق الذي هو مكتوب عندهم في التوراة باتباع النبي الأمي الذي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحلُّ لهم الطيبات ويحرِّم عليهم الخبائث، وكانوا يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم، فتركوا سبيل الرشد واتخذوا سبيل الغي، فعاقبهم الله بصرف قلوبهم عن الحق كما قال تعالى عنهم أيضًا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

والحق الذي لا مرية فيه أن هذه الأحكام وهذه النتائج وهذا الطبع والصرف عن آيات الله وإن كان نزل في اليهود إلا أنه ينسحب على كل متكبر من لدن آدم إلى قيام الساعة، قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ

هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وأنت تعلم أن «كل» من ألفاظ العموم، فليس فرعون وحده، وليس اليهود وحدهم، بل كل من كان على شاكلتهم، وأعتذر عن الإطالة في التقدمة.

ولنبدأ الآن ما قصدناه والله المستعان، وحديثنا اليوم عن سبعين رجلاً اختارهم موسى عليه السلام من قومه لميقات ربه، فلماذا اختارهم؟ وماذا حدث منهم؟ وماذا فعل الله بهم؟...

كل هذه الأسئلة سنجيب عنها ونحن نعرض الموضوع من خلال النص القرآن العظيم، وأقوال أهل التفسير، وقد جاء الحديث عن هذه القصة في القرآن الكريم في موضعين، والموضعان متلازمان ومترابطان، وسياقهما واحد وأحدهما يكمل الآخر.

الموضع الأول في سورة البقرة الآيتان (٥٥، ٥٦)، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

الموضع الثاني في سورة الأعراف، الآية (١٥٥): ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

وفيما تقدم مسائل:

الأولى: في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ مَن الذين قالوا؟ هم السبعون المختارون والذين جاء ذكرهم في سورة الأعراف. قاله ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم، وهذا قول نقله صاحب زاد المسير وقدمه، وقطع به الشوكاني في فتح القدير في تفسيره «وإذ قلتم» .ونقله كذلك ابن كثير رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن علي بن أبي طلحة رحمه الله، ونقل ابن كثير رحمه الله عن السدِّي رحمه الله: «إن الله أمر موسى أن يأتيه في ناس من بني إسرائيل ليعتذروا عن قومهم من عبادة العجل، ووعدهم موعدًا فاختار موسى سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا، فلما أتوا ذلك المكان قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته فأرناه، فأخذتهم الصاعقة فماتوا، فقام موسى يبكي ويدعو الله».

وأرجو أن تلاحظ معي أخي الكريم هنا أمورًا:

أولها: قد أورد ابن كثير هذا القول في تفسير آية الأعراف.

ثانيها: نقل السدِّي عنهم قولهم: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾، وهي ذات العبارة في سورة البقرة.

ثالثها: تفسير «الرجفة» المذكورة في الأعراف بـ «الصاعقة» المذكورة في سورة البقرة، وكأنه يقصد - رحمه الله - إن لم تكن الرجفة هي عين الصاعقة فهي أثر من آثارها. والله أعلم.

المسألة الثانية: تتمة الكلام في المسألة الأولى؛ فقد قطع أبو السعود - رحمه الله في تفسيره - بهذا القول ولم ينقل سواه، فقال في تفسير قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ الآية. تذكير بنعمة أخرى من نعم الله عليهم بعدما صدر عنهم من الخيانة العظيمة التي هي اتخاذ العجل وعبادته من دون الله». اهـ.

وقال رحمه الله في تفسير آية الأعراف: «وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى جهرة فأخذتهم الرجفة - أي الصاعقة - أو رجفة الجبل فصعقوا فيها أي ماتوا».

وقال - رحمه الله-: «ولعلهم أرادوا بقولهم: لن نؤمن لك أي لن نصدقك فيما أخبرتنا بقتل أنفسنا هو من الله حتى نراه عيانًا». اهـ. بتصرف يسير.

ولعلك تلاحظ أخي الكريم كيف ربط أبو السعود بين الموضعين موضع سورة البقرة وموضع الأعراف، وهذا واضح، وقد نقله عنه أيضًا صاحب روح المعاني في تفسيره، وسياق الآيات في السورتين يؤكد ما ذهب إليه.

المسألة الثالثة: في قوله تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: لن ننقاد لك ولن نصدقك ولن نعترف لك بما جئت به، وقد فرَّق صاحب نظم الدرر بين «نؤمن لك» و«نؤمن بك»، قال: «جاء باللام لأنهم كانوا قد آمنوا به فتوقفوا عن الإيمان له الذي يتعلق بتفاصيل ما يأتيهم به، فمن آمن لأحد فقد آمن بأمور لأجله، ومن آمن به فقد قبل أصل رسالته». اهـ.

المسألة الرابعة: قال صاحب فتح القدير «جهرة» أي: المعاينة بالبصر، وقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾، نارٌ من السماء أصابتهم فماتوا، ثم قال: وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم لأنهم طلبوا ما لم يأذن به الله في الدنيا، أما في الآخرة فقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم في الآخرة وهي قطعية الدلالة.

المسألة الخامسة: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ هذه نعمة كبيرة عليهم أن أخذهم الله تعالى بهذه الطريقة، ثم بعثوا ليرتدعوا ويكون كفارة لهم، ولهذا قال تعالى بعدها: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

إلى هنا ينتهي ما وفق الله إليه، ولنا وقفة مع الدروس والعبر المستفادة بعون الله في لقائنا القادم.

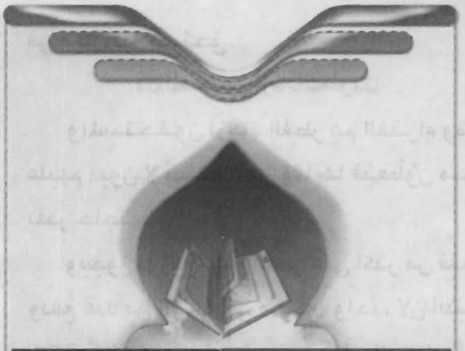

القصة في كتاب الله

لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة

الحلقة الثالثة

إعداد/
عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله يقول الحق وهو على صراط مستقيم، أنزل كتبه بالحق، وأرسل رسله بالحق، نشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن الجنة حق، وأن النار حق، والبعث حق، والنبيين حق، ومحمدًا ﷺ حق.

أما بعد: أخي القارئ الكريم، فقد انتهينا في اللقاء السابق من ذكر قصة السبعين المختارين لميقات الله مع موسى عليه السلام ليعتذروا نيابة عن قومهم، لكن الحسَّ المادي الغليظ حجبهم عن مسارب الغيب فأعلنوها في وقاحة متناهية: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ إنها الطبيعة القاسية التي لا تؤمن إلا بالمحسوس حكمت تصرفاتهم وانطلقت في جفاء على ألسنتهم فأعلنوا هذا القبيح من القول فعاقبهم الله بالصاعقة فارتجفت الأرض من تحت أقدامهم وماتوا جميعًا، ثم بعثهم الله من بعد موتهم آية لهم وعبرة لعلهم يوقنون بالغيب والبعث بعد الموت، ولعلهم يشكرون الله على نعمه السابغة عليهم.

وهذا موعدنا معك أخي الكريم لنتأمل بعض الفوائد والدروس؛ عسى الله أن ينفعني وإياك بها في الدنيا ويوم يقوم الحساب، وبيانها كما يأتي:

أولاً: من سنن الله الكونية صَرْفُ المتكبرين عن تدبر آيات الله المتلوة والمنظورة، المعنوية والمادية: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ

في الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾، وهذا جزاء من جنس العمل فهم انصرفوا لتكبرهم فصرفهم عقوبة لهم عن الفهم والعمل فلا خير فيهم في الدنيا ولا في الآخرة، وقد بين ربنا عز وجل ذلك في كتابه في أكثر من موضع نذكر منها موضعًا واحدًا، قال الله عز وجل: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

فانظر رعاك الله كيف رتَّب المولى عز وجل ميراث الجنة في الآخرة على صلاح الدنيا كما بين سبب صلاح الدنيا على عدم العلو في الأرض بغير الحق وهو الفساد، ثم كيف قرن التكبر في الارض بالفساد فهما قرينان، وقد نعت الله اليهود بهذه السمات التي استجمعت كل عناصر الفساد، فتأمل معي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

انظر كيف وصل بهم التكبر إلى تجاوز الحد مع الله - سبحانه وتعالى - ووصفه بما لا يليق، وهو سبحانه أهل للثناء والمجد وموصوف بكل كمال ومنزه عن كل نقص فعاقبهم الله سبحانه بكفرهم وتكبرهم وصرفهم عن الانتفاع بآياته ومن أعظمها ما جاء به محمد ﷺ لم يتبعوه وهو على الحق وجاء يدعوهم وغيرهم إلى الحق، بل كما أخبر الله عنهم زادهم ما أنزل على محمد طغيانًا لأنهم لا يريدون الله والدار الآخرة بل يريدون الدنيا، ولأنهم كما أخبر الله عنهم: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾، فدينهم وديدنهم الإفساد في الأرض. وهذه الأوصاف اتصف بها كثير منهم إلا من رحم الله ومات على الحق قبل بعثة محمد وعاصر بعثة محمد فاسلم ونجا بإسلامه كعبد الله بن سلام ومن آمن معه، وقد بين الله لهم أن أهل الفلاح والفوز والرحمة في الدنيا والآخرة هم أمة محمد، وإذا عدنا إلى سياق الآيات في القصة التي بين أيدينا من سورة الأعراف نجد أن موسى عليه السلام عندما رأى ما حل بقومه من الصاعقة والرجفة فزع إلى الله متوسلاً إليه راجيًا منه الرحمة والمغفرة فجاءته الإجابة كما يلي: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

فهنا كما تلاحظ قال الله لموسى: ﴿عَذَابِي﴾ أي: الصاعقة أو الرجفة التي أصابت قومك ﴿أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي﴾ العامة وسعت الجميع في الدنيا، أما رحمتي الخاصة التي هي سبب النجاة في الدنيا والآخرة فهي من نصيب الذين يؤمنون بمحمد النبي الأمي الذي جاءت صفاته وصفات أتباعه في التوراة والإنجيل، ثم

ذكرت الآية الكريمة جانبًا من تلك الصفات والعاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة، وفي الآية الكريمة إشادة بشرف أمة محمد وبيان منزلة من آمن به من العرب والعجم وتعريض بحال يهود المدينة الذين كفروا بهذا النبي الأمي كما هو موصوف عندهم وتحذيرهم من سلوك مسلك آبائهم في الكيد والعناد، وأنه لا سبيل إلى النجاة إلا باتباع محمد ﷺ وتصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر ومؤازرته ونصره.

ثانيًا: إذا كان التكبر سبيل كل شر فإن التواضع سبيل كل خير، ولذلك جاء من أهم سمات الأمة المرحومة التواضع لله ولرسوله وللمؤمنين والعزة على الأعداء، واقرؤا إن شئتم: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. إلى آخر ما وصفهم الله به في هذه الآية وفي مواضع كثيرة يضيق المجال بذكرها، كما وردت آثار وأحاديث في صفات هذه الأمة الناجية لا يتسع المجال لها.

ثالثًا: قال الشيخ ابن عثيمين - رحمه الله-: «فرق بين قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ »، وبين قول هؤلاء: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾، فموسى قال ذلك شوقًا إلى رؤية ربه، أما هؤلاء فقالوه تشككًا واشتراطًا جافيًا لسنا بمؤمنين إلا إذا رأينا الله جهرة. اهـ.

قُلْتُ: مع علمهم أن موسى - عليه السلام - لم ير الله وأن الله تجلى إلى الجبل فجعله دكًا وخر موسى صعقًا لأن رؤية الله في الدنيا غير ممكنة، فهذا القول منهم والحال ما ذكر غاية الإثم والبهتان ومنتهى الكيد والعدوان، وإذا كان هذا حال الصفوة المختارة منهم فما حال العوام؟ وما حال من جاء من بعدهم ؟ يصدق عليهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

رابعًا: قال صاحب فتح القدير: «إنما عوقبوا بالصاعقة أو الرجفة لأنهم طلبوا ما لم يأذن به الله في الدنيا، أما في الآخرة فقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم، خلافًا لما ذهب إليه المعتزلة ومن تابعهم واعتمادهم على العقل في ذلك دعوى على شفا جرف هار، وقواعد عقلية لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم النافع بنصيب». اهـ.

وقال: «لا ينبغي لمنصف أن يتمسك بتلك القواعد الكلامية التي وضعها المعتزلة في مقابلة النصوص الصريحة الواضحة». انتهى مع تصرف يسير من فتح القدير سورة الأعراف.

خامسًا: في الآيات دليل على قدرة الله المطلقة في إماتة من يشاء وإحياء من يشاء فهو سبحانه الفعال لما يريد.

سادسًا: في القصة دليل مادي ملموس على إمكانية البعث بعد الموت وقد تكرر مثل هذه المواضع في الذكر الحكيم، وقد يأتي بيانها في حينها (إن شاء الله).

سابعًا: علينا نحن أتباع النبي الأمي أن نشكر الله على منّته علينا ونعمته العظيمة، وحقيقة الشكر هو القيام بطاعة المنعم - سبحانه - إقرارًا بالقلب واعترافًا باللسان وعملاً بالأركان ومؤازرة ونصرة بصدق وإخلاص وتواضع.

اللهم إنا نسألك شكر نعمتك، ونعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجاءة نقمتك ومن جميع سخطك.

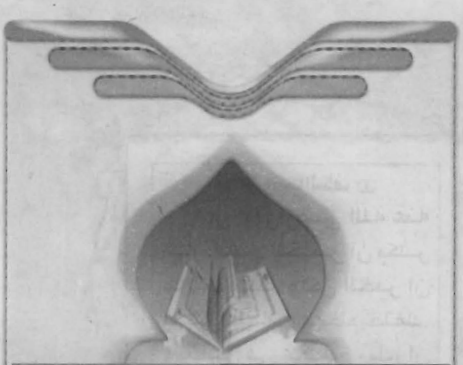

القصة في كتاب الله

قصة عزير

إعداد/
عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله مالك الملك، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على رسول الله البشير النذير، أما بعد:

فقد كثرت في بني إسرائيل الأعاجيب، ومن عجيب ما وقع فيهم الإماتة والإحياء، وقد مرَّ بنا شيء من ذلك في الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم، وكذلك الذين طلبوا من موسى - عليه السلام - رؤية الله جهرة فأماتهم الله، ثم أحياهم.

ومن العجائب أيضًا إحياء الموتى وتكليمهم للأحياء، وقد وقع ذلك في قصة البقرة المشهورة، وقد تحدثنا عنها من قبل، وأيضًا ما رواه أحمد وأبو داود وغيرهم، وصححه الألباني في الصحيحة برقم (١٢٠٩) عن جابر رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «لو خرجت طائفة من بني إسرائيل حتى أتوا مقبرة من مقابرهم، فقالوا: لو صلينا ركعتين ودعونا الله عز وجل أن يخرج لنا رجلاً ممن قد مات نسأله عن الموت، قال: ففعلوا فبينما هم كذلك إذ أطلع رجل رأسه من قبر من تلك المقابر بين عينيه أثر السجود، فقال: يا هؤلاء ما أردتم إلي؟ فقد مت منذ مائة سنة، فما سكنت عني حرارة الموت حتى كان الآن فادعوا الله عز وجل يعيدني كما كنت».

ومن ذلك قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها وسأل متعجبًا عن كيفية إحياء الله لهذه القرية بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه، وهذا موضوعنا اليوم الذي نقف معه، ولنبدأ بذكر الآية الكريمة التي وردت فيها هذه القصة: قال الله تعالى: ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

والكلام عن هذه القصة يقع تحت مسائل:

الأولى: حول المقصود بالقرية والذي مر عليها:

قال صاحب فتح القدير في عبارة مختصرة: «هو عزير؛ من أنبياء بني إسرائيل مرَّ على قرية من أرض بيت المقدس بعد تخريب بختنصر لها». اهـ.

ونقل الإمام ابن كثير في تفسيره هذا القول عن جمع من السلف، وقال: المشهور أن المقصود بالرجل هو عزير». أما عن القرية فقال: «فالمشهور أنها بيت المقدس مرَّ عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها». اهـ.

ويقول مقيده عفا الله عنه: نعم هذا قول جمهور المفسرين من السلف، ولكن بعض العلماء والباحثين والمفسرين من المتأخرين يرون أن ذكر الأسماء لا يتعلق به كثير فائدة(١).

وبعضهم صرَّح بأن هذا رأي جمهور المفسرين، ثم يرى عدم أهمية ذكر الأسماء(٢).

والبعض يرى أنه ليس «عزيرًا» المقصود وليس بنبي(٣).

وسنعود لهذا الموضوع مرّة أخرى، لكني أرى ما يراه الجمهور وسأعلل لماذا في حينه بعون الله، قد يأتي التعليل في خلال الشرح والبيان.

المسألة الثانية: في معاني المفردات:

١- «أو» حرف عطف، و«الكاف» بمعنى «مثل»، والقصة هنا معطوفة على القصة السابقة لها قصة الذي حاج إبراهيم في ربه.

والمعنى: انظر أيها النبي، وتأمل يا كُلّ من تقرأ القرآن أو تسمع في كل زمان ومكان إلى قصة هذا الرجل الذي مرّ على قرية مثل ما سمعت إلى قصة الذي حاج إبراهيم في ربه وغيرها من القصص.

٢- قوله تعالى: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: أصابها الخراب والدمار من كل جانب، مات أهلها وسقطت سقوفها وجدارنها وتهدمت كل جنباتها، ولم يبق فيها أثر لحياة قط.

٣- في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ قال ابن كثير رحمه الله: لم يقلها شكًا ولا إنكارًا للبعث، بل قالها تعجبًا. والحقيقة أن هذه الجملة التي قالها الرجل من أهم ما جعله منكروا نبوة الرجل حجة لهم، فقال قائلهم: «لو كان نبيًا أو عبدًا صالحًا لم يقل ذلك». واعتبروه منكرًا للبعث أراد الله هدايته، ونحن مع احترامنا للقائلين بهذا الرأي نقول لهم: على رسلكم، أنّى لكم ذلك وما دليلكم عليه، إنها اجتهادات يعوزها الدليل.

ثم نقول لهم: ما تقولون في قول أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام لربه: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وقد جاءت قصته في الآية التي بعدها مباشرة، وماذا تقولون في قول زكريا - عليه السلام - حين قال: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًا﴾ [مريم: ٨] ؟

ستقولون السؤال هنا في حقّ إبراهيم وحقّ زكريا عن الكيفية: ونقول: ما الذي يمنع من سؤال الرجل الصالح (عزير) أن تكون «أنّى» عنده للكيفية وليست للاستبعاد والإنكار، وأنه أراد كما أراد إبراهيم - عليه السلام- ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

ورحم الله الإمام الشوكاني حين فسّر قول الرجل في نهاية القصة (أعلم) قال معناه: «طمأنينة القلب». وبهذا تندفع أكبر شبهة عند من يرى أن الرجل ليس «عزيرًا» ولا «نبيًا»، والله أعلم.

٤- ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ﴾ قال له: مت فمات، أمر كوني لا منازع له، ﴿ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أيضًا أمر كوني بالبعث وبينهما مئة عام. أماته الله مائة عام ثم بعثه لينجلي له الدرس العملي بوضوح تام وإن كان الدرس مدته مائة عام فإن يومًا عند ربك كألف سنة مما تعدون، لم يمته الله يومًا أو بعض يوم، كما ظن هو، بل أماته مائة عام، ثم بعثه حتى تنجلي طلاقة القدرة الإلهية بما لا يدع مجالاً للشك ولا مثقال ذرة، وقد ساله ربه سؤال تقرير وهو يعلم: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ ميتًا قال: يومًا أو بعض يوم، هذا أقصى ما يتخيله عقل، وقد ظن أنه كان نائمًا لكن جاءته الإجابة التي لم يكن يتوقعها، ثم توالت الدروس والعبر التي نطالعها بعون الله في اللقاء الآتي، إن شاء الله.

هوامش:

١- الشيخ العلامة ابن عثيمين - رحمه الله-.

٢- د. محمد بكر إسماعيل: «في قصص القرآن».

٣- الشيخ العلامة السعدي رحمه الله في تفسيره.

عزاء

توفي ظهر الخميس ٢٥ رمضان ١٤٢٨هـ الشيخ مختار حسانين حمامة رئيس فرع منشاة البكاري بالهرم، وقد نهض الفرع في فترة رئاسته نهوضًا ملحوظًا.

نسأل الله أن يغفر له ويرحمه، وأن يتجاوز عن سيئاته.

التحرير

قصة عُزير - عليه السلام

الحمد لله الذي خلق فسوى، والذي قدّر فهدى، والذي أخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى، والصلاة والسلام على النبيِّ المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

أخي القارئ الكريم: لعلك على ذكر من حديثنا في العدد الماضي عن قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وتحدثنا هناك عن المقصود بالقرية وبالذي مرَّ عليها، وانتهينا إلى أن القرية هي بيت المقدس، والذي مرَّ عليها هو «عزير»، وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقدَّمنا هناك مسوغات ترجيح هذا الرأي، ووصلنا مع القصة إلى أن أمات الله- سبحانه وتعالى- الرجل ثم بعثه وأخبره ربه أنه مات مائة عام، وقد ظن أنه لبث يومًا أو بعض يوم.

إعداد / عبدالرازق السيد عيد

وهنا وجَّه الله- سبحانه- نظر الرجل ونَظَر كل من يسمع ويقرأ وعنده قدرة على إمعان النظر في الأمور وخلا قلبه من الأهواء المضلة.

قال تعالى: ﴿ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

«البقرة: ٢٥٩».

أولاً: المعاني:

﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لم يتغير لونه أو طعمه، ومعلوم أن الطعام والشراب من الأشياء التي يتطرق إليها الفساد سريعًا، ولعل الرجل عندما عادت إليه الحياة ورأى طعامه وشرابه كما هو، ظن أنه نام يومًا أو بعض يوم، والحق أن الله أماته مائة عام، وها هو طعامه سواء كان من العنب والتين أو غير ذلك، وشرابه من العصائر أو الماء، كل ذلك محتفظ بحيويته كما هو مع مرور مائة عام عليه، ففي أي مبرد حفظ وحوله عوامل التلف من كل مكان، فسبحان الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

﴿ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ﴾ أين حماره؟ قد أفناه الموت من سنين مديدة وصار عظامًا بالية ألفتها الريح في كل مكان، هذا إجمال سيأتي بعده تفصيل.

فقد بعث الله الحياة في العزير أولاً، وأراد الله- سبحانه- أن يريه بعينه آية عملية تدل على قدرة الله- سبحانه- في إحياء الموتى من خلال مشهد عملي الصورة من صور إحياء الموتى متمثلة في إعادة الحياة إلى حماره خطوة خطوة أمام ناظريه، فسبحان من يحيي العظام وهي رميم، قال الله له: ﴿وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً﴾ أي علامة واضحة على قدرة الله- سبحانه وتعالى- في إحياء الموتى لبني إسرائيل؛ آية ماثلة أمام أعينهم، ولمن يقرأ القرآن بعد ذلك آية متلوة يؤمن بها، ويصدق بها من يؤمن بالله واليوم الآخر.

ثم وجه نظره إلى هذا الدرس العملي على وجه الخصوص ﴿وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ﴾ أي: عظام حمارك ﴿كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ أي: نركب بعضها فوق بعض لتصير هيكلاً عظمياً لحمار، وهناك قراءة «ننشرها» بالراء أي نبعث فيها الحياة ونجمعها من شتات، وفي كل الأحوال، ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ بعد أن تتركب العظام نسترها باللحم والجلد ونبعث فيها الحياة بعد أن كانت رميمًا، رأى العزير ذلك رؤية واضحة لا غموض فيها، فهتف من أعماقه، ﴿أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

قال صاحب فتح القدير: « أَعْلَمُ: هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته وهو طمأنينة القلب». اهـ. وقال ابن كثير: «أي أنا عالم بهذا وقد رأيته عيانًا فأنا أعلم أهل زماني بذلك». اهـ. وقرأ آخرون «اعلم» بدون همزة قطع على أنه أمر له بالعلم. أي يأمره ربه بقوله سبحانه «اعلم».

ثانيًا: الفوائد والدروس:

الأولى: في القصة دليل عملي محسوس لبني إسرائيل على قدرة الله سبحانه على إحياء الموتى مهما طال أمد موتهم، لكن بني إسرائيل على عادتهم في تبديل نعم الله كفرا قالوا: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ «التوبة: ٣٠»، فأحالوا التوحيد شركًا والإيمان كفرًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الثانية: اليهود على مر تاريخهم لا يؤمنون إلا بالمحسوس، وقد حاولوا تأصيل ذلك بكل الصور، فكانوا خَلْفَ النظريات الإلحادية في المادة والحياة، فهذا صنيعتهم «دارون» قال بردِّ الحياة إلى الخلية الأولى، ولكنه لم يسلم بمن وهب الحياة للخلية الأولى- سبحانه-. وهذا صنيعتهم الآخر «فرويد» يردُّ كل سلوكيات الحياة إلى أسباب جنسية بحتة، وصنيعتهم الثالث «ماركس» يرد الصراعات إلى أسباب اقتصادية بحتة. وهكذا صنعوا النظام الرأسمالي لعبادتهم الذهب، وأقاموا مدارس الإلحاد في العالم؛ لأنهم ينكرون البعث والجزاء ولم يستفيدوا من كل ما مر بهم من آيات.

الثالثة: العبرة والدرس ممتد إلى كل من يقرأ كتاب الله القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي نقل إلينا هذه الحقائق وهذه الآيات البينات على لسان رسولنا الأمين ﷺ، ونحن مطالبون بالإيمان بها كما جاءت، وتصديق القرآن الكريم فيما أخبر كأننا نرى هذه الأحداث رأي عين، فيزداد إيماننا ويقوى يقيننا في أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علمًا، وأن البعث حق، والجنة حق، والنار حق، وما أخبر به ربنا في كتابه وعلى لسان رسوله محمد ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ «فاطر: ٥».

الرابعة: فإذا آمنا بالبعث وصدقنا به فلا نقع فريسة للدنيا ولا للشيطان كما فُعل باليهود، ولنحذر مسالكهم فقد تلاعب بهم الشيطان وانغمسوا في فتنة الحياة الدنيا حتى غضب الله عليهم ولعنهم فهل نتعلم الدرس ونحن نقرأ في كل ركعة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ «الفاتحة: ٦، ٧»، هل نعي الدرس أم أننا وقعنا فيما حذرنا الله ورسوله منه: «واتبعنا سنن من قبلنا حذو القذة بالقذة»؟.

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

القصة في كتاب الله

واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها

الحلقة الأولى

إعداد/
عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الذي علّم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي علمه الله ما لم يكن يعلم وكان فضله عليه عظيمًا.

أما بعد: فيقول ربنا تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

أولاً: قبل الشروع في الحديث عن الآيتين السابقتين لابد من هذه التوطئة، فلقد اختلفت نقول المفسرين وأصحاب السير حول هذه القصة اختلافًا كثيرًا، واختلفت آراؤهم تبعًا لذلك في صاحب القصة سلفًا وخلفًا.

ولقد أخطأ بعض المتأخرين في النقل عن المتقدمين أو نقول: جَانَبَ الدقة في النقل عن ابن كثير رحمه الله، فقد نقل تصحيح ابن كثير رواية عبد الله بن عمرو بن العاص في أنَّ الرجل هو (أمية بن الصلت)، وغفل عن تعليق ابن كثير على هذا القول وهو الأهم، وسنجتهد في بيان الأقرب إلى الصواب من ذلك، فإن أصبنا فمن الله، وإن أخطأنا فمن أنفسنا ومن الشيطان، ونسأل الله الغفران.

ومما وقع فيه الاختلاف زمن القصة هل وقعت في بني إسرائيل ؟ أم هي مثل ضربه الله للعظة والاعتبار ؟ وهل بين الأمرين تناقض ؟

ثانيًا: نقول ابتداءً إن القصة مما وقع في بني إسرائيل، ويدل على ذلك سوق الآيتين عقب الحديث عن بني إسرائيل أو في سياقه؛ لأن الآيات السابقة تتحدث عن رفع الجبل فوق بني إسرائيل ليأخذوا بأحكام التوراة: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١]، ثم بعد قليل جاءت هذه القصة في الآيتين (١٧٥، ١٧٦) مباشرة، وقد أحسن صاحب فتح القدير إذ قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ذكر بني إسرائيل بأمر آخر وقع لبعض أسلافهم حين ترك أمر الله لهوى نفسه كيف صنع الله به. اهـ.

وأخذ يذكر الأدلة والآثار على صحة ما ذهب إليه.

ثالثًا: ونحن نستأذن صاحب فتح القدير لنذهب

ونأخذ هذه الأدلة من عند ابن كثير، وقد ذكر أقوالاً كثيرة لكنه لم يصحح منها إلا قولين وحديثًا، وسنذكر القولين والحديث.

أما القول الأول الذي قدمه ابن كثير فهو عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ الآية. قال: هو رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعم بن آبر. وكذا رواه شعبة وغير واحد عن منصور به.

أما القول الثاني: فهو عن نافع بن عاصم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ قال: هو صاحبكم أمية بن الصلت. وتأمل تعليق ابن كثير على الرواية للأهمية. قال ابن كثير: «وقد روى من غير وجه عنه، وهو صحيح إليه، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه فإنه كان قد اتصل إليه علم كثير من علم الرائع المتقدمة، ولكنه لم ينتفع بعلمه، فإنه أدرك زمان رسول الله ﷺ وبلغته أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة، ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه وصار إلى موالاة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم، ورثى أهل بدر من المشركين بمرثاة بليغة- قبحه الله تعالى-، وقد جاء في بعض الأحاديث: «أنه ممن آمن لسانه، ولم يؤمن قلبه»، ذلك لأن له أشعارًا ربانية وحكمًا وفصاحة ولكن لم يشرح الله صدره للإسلام». اهـ. وهذا التعليق من ابن كثير- رحمه الله كافٍ شافٍ.

وقد أخذ البعض منه جزئية تصحيحه لخبر عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وترك الباقي وهو الأهم، ويشير فيه إلى ما يلي:

١- تشبيه أمية بن الصلت ببلعم بن آبر في انسلاخه عن الإيمان.

٢- وهذا يتفق مع أصول التفسير، فالعبرة ليست بخصوص السبب، وإنما بعموم اللفظ، فقد يأتي كثيرون من أمثال بلعم بن آبر أو بلعام بن باعوراء في كل زمان ومكان، وهذا الذي وقع من اليهود المخاطبين بذلك أصلاً- يهود المدينة- وقع كذلك من مشركي العرب ويقع في أزمنة مختلفة إلى يومنا هذا وبعد يومنا هذا، وفي ذلك موطن العبرة وهو المقصود من سوق القصة وغيرها، ولذلك عقب ابن كثير بعدها بحديث يؤيد ما ذهب إليه، والحديث رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي من حديث الصلت بن بهرام حدثنا الحسن، حدثنا جندب البجلي في هذا المسجد، أن حذيفة- يعني ابن اليمان- رضي الله عنه حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أتخوف عليكم رجلاً قرأ القرآن حتى إذا رُؤيت بهجته عليه، وكان ردء الإسلام اعتزاه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك». قال: قُلْتُ: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك المرمي أو الرامي؟ قال: «بل الرامي».

وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد، والصلت بن بهرام من ثقات الكوفين ولم يرم بشيء سوى الإرجاء، وقد وثقه الإمام أحمد ويحيى بن معين وغيرهما.

هذا، وقد سكَتُّ عن آثار كثيرة نقلها ابن كثير وغيره في هذه القصة، وكان سكوتي متعمدًا؛ أولاً: لعدم الإطالة. وثانيًا: لأن أسانيدها لا ترتقي لأسانيد ما ذكرت، وثالثًا: لأن في ألفاظها نكارة وغرابة، رابعًا: قد يكون هناك سبب شكلي يؤكد وقوع القصة في عداد ما أخبر الله به رسوله ﷺ من أنباء ما قد سبق ألا وهو ورودها بصيغة مشابهة في مثل قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ﴾، وقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾، وقوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾، وقوله تعالى بعد قصة مريم وزكريا ويوسف: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾، والله أعلم.

ونكتفي بما تقدم في تقرير ما ذهبنا إليه، ولنذهب إلى المقصود الأسمى من القصص عمومًا ومن هذه القصة في لقاء قادم بإذن الله تعالى.

واتل عليهم نبأ الذي آتيناه

الحمد لله الذي سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلاً، وأوضح لهم طرق الهداية، وجعل اتباع الرسول عليها دليلاً، والصلاة والسلام على عبده ونبيه محمد الذي أرسله ربه رحمة للعالمين، وهداية للسالكين، وحجة على العباد أجمعين، وبعد:

وقفنا في اللقاء السابق مع قصة هذا الذي انسلخ من دين الله وآياته، واستغرق اللقاء هناك الحديث عن تحقيق بعض الأدلة، وانتهى بنا المطاف إلى ما يمكن تلخيصه فيما يلي:

- إن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله محمدًا ﷺ أن يقص على أمته خبر ذلك الرجل من بني إسرائيل الذي أعطاه الله حججه وأدلته فتعلَّمها ثم كفر بها، ونبذها وراء ظهره فاستحوذ عليه الشيطان فصار من الضالين الهالكين؛ بسبب اتباعه هواه ومخالفته أمر ربه وطاعته للشيطان، ولو شاء الله أن يرفع قدره بما آتاه من الآيات لفعل، ولكن الرجل ركن إلى الدنيا واتبع هواه وآثر لذاته وشهواته، فتركه الله لما اختار، فصار مثله كمثل الكلب الذي يخرج لسانه لاهثًا إن طردته أو تركته فهو لاهث دائمًا، وصار هذا مثلاً لكل من علم الحق وانحرف عنه من اليهود وغيرهم.

والآن يجدر بنا أن نتلمس ما في هذه القصة من دروس وعبر نحن أحوج ما نكون إليها في زمن عمت فيه الفتن وفشى فيه الجهل، مع كثرة المنتسبين إلى العلم، وفرق كبير بين من ينتسب إلى العلم رسمًا واسمًا، وبين العلماء الربانيين الذين بموتهم يُقبض العلم، كما أخبر الصادق المصدوق حيث قال- كما جاء في الصحيح-: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً فُسئلوا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا».

(رواه البخاري).

والمتأمل في واقع الناس وما يراه من تخبط في الفتوى ومن جرأة على القول على الله بغير علم، يرى مصداق ما أخبر ﷺ، وهناك مشهد آخر عبر عنه الإمام ابن القيم- رحمه الله- في فوائده حين قال: «علماء السوء، جلسوا على باب الجنة، يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم ؛ فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم. فلو كان ما دعوا إليه حقًا كانوا أول المستجيبين له ؛ فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع طرق».

وهناك مشهد ثالث وهو مشهد أناس من جلدتنا يتكلمون بألسنتنا هم دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والمشاهد كثيرة، ولنعد إلى ما عزمنا على الحديث عنه من فوائد، وعندما أبدأ في ذلك لا يمكنني أن أتعدى الإمام ابن القيم إلى غيره إن وجدت له في الباب شيئًا، وقد وجدت له والحمد لله مادة غزيرة في هذا الباب، قال رحمه الله تعليقًا على الآيات التي نحن بصددها: «شبه- سبحانه- من آتاه كتابه، وعلمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به واتبع هواه، وآثر سخط الله على رضاه، ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو من أخس الحيوانات، وأوضعها قدرًا، وأخسها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرهًا وحرصًا، ومن حرصه أنه لا يمشي إلا وخطمه في الأرض يتشمم،

آياتنا فانسلخ منها

دروس وعبر

الحلقة الثانية

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

ويستروح حرصًا وشرهًا، ولا يزال يشم دبره دون سائر جسده، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمه، وهو من أمهر الحيوانات وأحملها للهوان، وأرضاها بالدنايا، والجيف القذرة المروحة(١) أحب إليه من اللحم، والعذرة أحب إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفي مائة كلب لا يحب أن يشاركه فيها كلب آخر».

ثم قال: «وفي تشبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الآخرة- مع وفور علمه- بالكلب في حال لهثه سر بديع وهو أن هذا الذي حاله ما ذكره الله من انسلاخه من آياته واتباعه هواه: إنما كان لشدة لهفه على الدنيا ؛ لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، فهو شديد اللهف عليها، ولهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، واللهف واللهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى». اهـ مختصرًا من «بدائع التفسير».

وأنت تلاحظ أخي القارئ الكريم أن وجه الشبه الجامع بين الذي اتبع هواه وبين الكلب هو اللهث في طلب الدنيا حتى صار طلب الدنيا يتحكم في نبضات قلوب ضحايا الحضارة الحديثة في أوربا وعاصمتها الجديدة اليوم أمريكا، وقد كنت أتساءل كثيرًا عن سبب ولوعهم بالكلاب وحبهم لها، حتى صارت الكلاب جزءًا لا يتجزأ من حياة الصغير والكبير والرئيس والمرؤوس، المرأة والرجل، حتى صارت بينهم وبين الكلاب علاقات حميمة، فالكلب يكون معه أو معها في مجلسه وفي ناديه وفي حديقته وفي سيارته، بل وفي مخدع نومه، وصارت هناك خدمات على أعلى مستوى للكلاب من عناية صحية وتغذية ومشافٍ خاصة بأعداد كبيرة ومراكز عناية خاصة، بل وصارت الكلاب ترث بعضهم، وانتقلت هذه العدوى إلى كثير من الذين وقعوا في أسر الحضارة الغربية، وحسب آخر إحصائية رسمية نُشرت وصل عدد الكلاب في أمريكا إلى واحد وستين مليون كلب، وما خفي كان أعظم، وفي البرازيل وصل عدد الكلاب إلى ثلاثين مليونًا، وفي اليابان عشرة ملايين، هذه الكلاب المثبتة في البطاقات الرسمية.

ومن أعجب ما قرأت وسمعت أخيرًا أن الشباب الياباني من الجنسين صاروا يفضلون تربية الكلاب على تربية الأطفال هربًا من تكاليف تربية الأطفال، ونتيجة لذلك ارتفع سعر الكلب حتى وصل إلى خمسة آلاف دولار.

والأعجب من ذلك ما وقع فيه كثير من المسلمين من تقليد للغرب في هذا السخف، وصارت تربية الكلاب عند كثير منهم من شعارات العولمة، وتقليد أمريكا، حتى صارت الكلاب تقطن الفنادق الكبيرة مع أصحابها نزلاء الفنادق العامة، وصدق رسول الله ﷺ إذ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه». قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمَن». يعني: فمن غيرهم.

(أخرجه الشيخان وغيرهما).

وحكم نجاسة الكلب معلوم، حتى لو شرب الحليب ولبس الحرير ونام فيه، وحكم شرائها وتربيتها حرام، ويستثنى من ذلك ما كان للحراسة في الصحراء أو لصيد، ولكن الناس عندما تنحرف بهم الأهواء يتركون الأصل ويبحثون عن الاستثناء أو بغير استثناء، فهذه بعض آثار تقليد حضارة الأهواء، وما زلنا بعد لم نتكلم بما يكفي عن العلماء الذين لعبت بهم الأهواء، فإلى ذلك إن شاء الله.

هوامش:

١- المروحة: أي فاحت رائحتها الكريهة، وهي أحب للكلاب من اللحم الطازج.

القصة في كتاب الله

واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها

دروس وعبر

الحلقة الثالثة

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

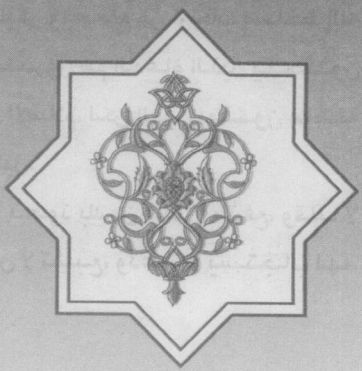

الحمد لله الذي اختص هذه الأمة بأن جعل فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم إلى يوم القيامة، يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، متأسين في ذلك بسيد المرسلين وخاتم النبيين وصحبه البررة الميامين، صلى الله وسلم على نبيه الأمين وآله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فنواصل معك أخي الكريم الدروس والعبر والفوائد من قصة ذلك الرجل الذي انسلخ من دينه كما تنسلخ الحية من جلدها وأخلد إلى الأرض واتبع هواه ولم ينفعه علمه إذ لم يعمل به فكان له في إبليس اللعين قدوةً وإمامًا، وهكذا كل من تعلَّم علمًا يراد به وجه الله فأراد به الدنيا فهو من المقتدين بإبليس اللعين.

أولاً: ومن الفوائد ما ذكره ابن القيم- رحمه الله- فقال: «فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه وتأمل ما تضمنته الآية من وجوه:

أحدها: أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عَمدًا لا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من جلدها.

ثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال الله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾، ولم يقل: تبعه، فإن معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظًا ومعنى.

رابعها: أنه غوى بعد رشد، والغي: الضلال في العلم والقصد وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذكر.

وخامسها: أنه- سبحانه- لم يشأ أن يرفعه بالعلم فكان سبب هلاكه فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخف لعذابه.

سادسها: أن الله أخبر عن خسة همة ذلك الرجل في اختياره الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

سابعها: أنَّ اختيار الأدنى لم يكن مسألة عابرة، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض، وميل بكليته إلى ما هناك، وأصل الإخلاد اللزوم، وعبَّر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض لأن الدنيا هي الأرض وما فيها، ويستخرج منها الزينة والمتاع.

ثامنها: أنه رغب عن هداه واتبع هواه فجعل دعواه إمامًا له يقتدي به ويتبعه.

تاسعها: أنه شبه لهفته ولهثه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه في تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه، والحمل عليه.

قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال الري وحال العطش، فضربه الله مثلاً لهذا الكافر فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال ؛ كالكلب إن طردته يلهث وإن تركته في حاله يلهث، وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخس ما يكون وأشبه. اهـ.

ثانيًا: سبق أنْ ذكر ابن القيم من صفات الكلب إقباله على الجيف وتفضيلها على اللحم الطازج، وهذا سلوك كثير ممن انغمسوا في شهوات الدنيا، فهم يقبلون بل يتنافسون على الحرام، ويتركون الحلال المباح فقد يترك أحدهم زوجته التي أحلَّها الله له، ويبحث عن المتعة من طريق غير مشروع، وهذا مثال من أمثلة عديدة، وقد صوَّر الإمام الشافعي- رحمه الله- ذلك التنافس في أبيات بديعة: قال فيها:

ومن يذُق الدنيا فإني طعمتُها
وسيق إلينا عذبها وعذابها
فلم أرها إلا غرورًا باطلاً
كما لاح في ظهر الفلاة سرابها
وما هي إلا جيفة مستحيلة
عليها كلاب همُّهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلمًا لأهلها
وإن تجتذبها نازعتك كلابها

ولعل الإمام الشافعي- رحمه الله- وهو ينظم هذه الأبيات كان يتمثل ما روي عن علي- رضي الله عنه- موقوفًا قوله: «الدنيا جيفة فمن أرادها فليصبر على مخالطة الكلاب». وقد أخرجه ابن أبي شيبة عن علي- رضي الله عنه- مرفوعًا. والله أعلم.

ثالثًا: احذروا فتنة العالم الفاجر، وفتنة العابد الجاهل، قال سفيان بن عيينة- رحمه الله-: «احذروا فتنة العالم الفاجر، وفتنة العابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه، وذاك بغيِّه يدعو إلى الفجور».

رابعًا: إذا كان الحذر من فتنة الدنيا مطلوبًا من كل أحد فهو أولى أن يكون من العلماء لأن العلماء ورثة الأنبياء، والأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا، ولكنهم وَرِثوا العلم، ولتكن قدوة العلماء متمثلة في نبينا ﷺ الذي آثر ما عند الله على أن تصير الجبال له ذهبًا، وعاش ومات ولم يشبع من طعام الشعير، ومات ودرعه مرهونة في طعام اشتراه لبيته ﷺ، فالعالم الرباني هو الذي يجعل الدنيا تحت قدميه ويستخدمها ولا يخدمها.

خامسًا: من أهم سمات العالم الرباني أن يتمتع بعاطفة حيَّة وقلبًا يستشعر آلام المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، ومن أعجب ما قرأت عن الشيخ محمد رشيد رضا كثرة تأمله لواقع المسلمين وظهور ذلك على قسمات وجهه حتى إن والدته عرفت عنه هذا الخلق فإذا رأته حزينًا كاسفًا سألته مالك يا ولدي: أمات اليوم مسلم بالصين ؟ ومن هذه العاطفة أن يتأثر قلبه لأخطاء المسلمين وانحرافهم عن الدين ويحزن حزنًا يدفعه لمحاولة الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وقبل ذلك وبعده ينبغي أن تدعوه هذه العاطفة للغيرة على نفسه وزوجه وولده فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويمنعهم من ارتكاب مساخط الله (عز وجل) فكثيرون هم الدعاة الذين يتحدثون بالإسلام وعن الإسلام، لكن الذين يملكون عاطفة حقيقية حية قليل.

اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ونفس لا تشبع، ودعوة لا يُستجاب لها. آمين.

القصة في كتاب الله

أيوب

«عليه السلام»

المحـــور الأول

إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

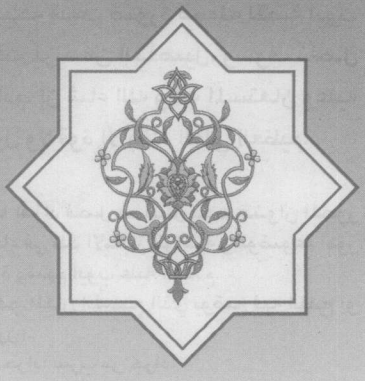

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فإلى الذين عرفوا ربهم حق المعرفة فعبدوه حق العبادة شكرًا في الرخاء وصبرًا في الضرّاء، إلى الذين ابتلاهم الله فصبروا فصارت المحنة في حقهم منحة وانقلبوا بنعمة من الله وفضل، إلى أهل الصبر الجميل الذي لا يشكو فيه المؤمن ربه إلى خلقه، نُقدم اليوم هذه القصة التي جعلها القرآن الكريم مثالاً يُحتذى للصابرين المحتسبين وللعابدين المخلصين، فقال سبحانه تعقيبًا وتذكيرًا ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾، وقال سبحانه: ﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ تعقيبًا على قصة أيوب- عليه السلام- الأولى في سورة الأنبياء والثانية في سورة (ص)، وهكذا جعل الله- سبحانه- هذه القصة ذكرى لأولي الألباب وهم العابدون الذين عرفوا الله- سبحانه- فعبدوه ولزموا طاعته مخلصين له الدين في جميع أحوالهم.

ونحن اليوم نقدم هذه القصة للقارئ الكريم على أقسام ثلاثة:

القسم الأول: عرض للقصة من كتاب الله ومما صحَّ من حديث رسول الله ﷺ.

القسم الثاني: دفع شبهات وأباطيل كَثُر تناولها في هذه القصة.

القسم الثالث: الفوائد الإيمانية والعبر المستفادة.

القسم الأول

تحت هذا القسم ننظر في المسائل الآتية:

١- نسب أيوب- عليه السلام-: هو أيوب بن موص بن زارح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم (خليل الرحمن).

٢- زمنه: نقل الحافظ ابن حجر في الفتح عن الطبري أنه كان بعد شعيب. ونقل عن أبي خيثمة: أنه كان بعد سليمان.

٣- ذكره في القرآن الكريم:

جاء ذكره في القرآن الكريم في أربعة مواضع:

- أشار في موضعين منها إلى دخوله فيمن أوحى إليهم من الأنبياء والمرسلين:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، فأيوب من الأنبياء ومن ذرية إبراهيم (عليه السلام) حيث يعود الضمير إليه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي من ذرية إبراهيم الآتي أسماؤهم من الأنبياء والمرسلين، وهو داخل في

جملة من أوحى الله إليهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ﴾ [النساء: ١٦٣]، فهو نبيٌ من أنبياء بني إسرائيل ومن نسل إبراهيم الخليل.

قال ابن كثير- رحمه الله-: «فالصحيح أنه من سلالة العيص بن إسحاق بن إبراهيم.

- وامرأته: قيل اسمها ليا بنت يعقوب- وهذا بعيد- وقيل: رحمة بنت أفراثيم، وقيل ليا بنت منشا بن يوسف بن يعقوب». اهـ.

ولعل: ليا بنت منشا هي بنت يعقوب، واختصر المؤرخون اسمها، والله أعلم.

هذا ما يثبت نبوة أيوب خلافًا لمن زعم غير ذلك.

- وأشار القرآن الكريم إلى قصته إشارتين في موضعين: إحداهما مجملة والأخرى مفصلة، فالأولى في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

أما الثانية فقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٤١) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٢) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ (٤٣) وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلاَ تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤١- ٤٢].

٤- ما جاء عن قصة أيوب في السنة الصحيحة:

أقول في السنة الصحيحة لأن هناك نقولاً كثيرة ومطولة نقلها أهل التفاسير والسير وجلُّها منقول دون تمحيص عن بني إسرائيل، وقد نحيناها جانبًا، وسنفرد للرد عليها فصلاً مستقلاً لكثرة شيوعها وانتشارها بين القصاص قديمًا وحديثًا، والله المستعان(١).

أما ما صحَّ فنورد هنا حديثين أحدهما في البخاري والآخر في غيره، لكن صححه أهل العلم، وذكره الحافظ في الفتح، وقال: هذا أصح ما جاء في قصة أيوب كما أورده الألباني في السلسلة الصحيحة وذكر تصحيحه عن الضياء المقدسي وابن حبان، وإليك نص الحديث: عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن نبي الله أيوب- عليه السلام- لبث بلاؤه ثماني عشرة سنة (وفي رواية ثلاث عشرة سنة) فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا يغدوان إليه ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به، فلما راحا إلى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له، فقال أيوب: لا أدري ما تقولان، غير أن الله تعالى يعلم أني كنت أمر بالرجلين يتنازعان، فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر الله إلا في حق. قال: وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضى حاجته أمسكته امرأته حتى يبلغ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها، وأوحى الله إلى أيوب: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته، فتلقته تنظر وقد أقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، وهو أحسن ما كان، فلما رأته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، والله على ذلك ما رأيت أشبه منك إذ كان صحيحًا، فقال: إني أنا هو، وكان له أندران (بيدران)(٢) أندر للقمح وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض وأفرغت الأخرى في أندر الشعير الورق حتى فاض». اهـ.

أما الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «بينما أيوب يغتسل عريانًا خرَّ عليه رجل جراد(٣) من ذهب فجعل يحثى في ثوبه، فناداه ربه: يا أيوب لم أكن اغنيتك عما ترى؟ قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك».

هذه النصوص القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة قدمت صورة مجملة لقصة أيوب وقد ضاق الوقت لمزيد من التفصيل، وسوف نفصل ذلك في لقاء قادم، إن شاء الله والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

الهوامش:

١- قد رأينا إفراد فصل مستقل تحت عنوان المحور الثاني لأنه قد جاء في تلك الأخبار الواهية والموضوعة أمور تنافي مقام النبوة ومنهم أيوب عليه السلام.

٢- البيدر: هو المكان الفسيح الذي يوضح فيه القمح أو الأرز، يعني (الجرن).

٣- رجل من جراد: سرب من جراد.

القصة في كتاب الله

أيوب

«عليه السلام»

المحـــور الأول ـ ٢ ـ

إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

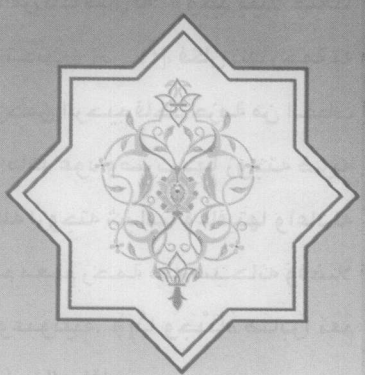

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على الرسول المصطفى والنبي المجتبى، محمد ﷺ وآله وصحبه، والتابعين بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد:

فهذا لقاؤنا الثاني حول المحور الأول من قصة أيوب- عليه السلام-، وقد قدَّمنا في اللقاء السابق عرضًا للنصوص القرآنية وما صح من الأحاديث النبوية حول قصتنا هذه، وقد حان الآن موعد عرض القصة بشيء من التفصيل؛ انطلاقًا من النصوص السابقة مع بيان لبعض المسائل فلنشرع فيما عزمنا عليه، وبالله نستعين:

أولاً: عرض للقصة من خلال ما تقدَّم من آيات قرآنية وأحاديث نبوية يستفاد من الآيات ومن حديث أنس ومن حديث أبي هريرة ما يلي:

١- كان نبي الله أيوب قبل ابتلائه منعمًا يرفل في بحبوحة من العيش، وقد رزقه الله من المال والبنين الكثير الكثير، وكان يملك أراضٍ واسعة وحقولاً وبساتين، وأنعامًا لا حصر لها، وكان في غناه شاكرًا لأنعمه يعرف حق ربه، بل كان أحيانًا يخرج الكفارة عن الآخرين دون علمهم، تعظيمًا لحق ربه عليه، وشكرًا لنعمه، لم تفتنه الدنيا ولم يغرّه بها الغرور.

٢- شاء الله أن يبتلي أيوب لحكمة أرادها قد يدرك الناس منها شيئًا، وغابت عنهم أشياء، فهو سبحانه: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فذهب مال أيوب ومات أبناؤه ولم يبق معه إلا زوجه، وامتد البلاء إلى جسد أيوب فأصابه الضر والعذاب والنصب والإعياء، فلا يستطيع الحركة إلا بمعونة زوجه.

٣- صبر أيوب على بلائه ولم يقنط، لكن كعادة الكثير من الناس من طلاب الدنيا يجتمعون على صاحب النعمة وينصرفون عنه عند فقدها انصرف عنه هؤلاء ولم يبق بارًا به إلا زوجته واثنان من كرام أصحابه يغدوان عليه ويروحان فيأنس بهما.

٤- صبر أيوب على البلاء وحمد الله وأثنى عليه فكان في حالتي الرخاء والبلاء مثلاً لعباد الله الصالحين في إرضاء الرحمن وإرغام أنف الشيطان.

٥- لم يستطع الشيطان الدخول إلى أيوب في حال بلائه كما فشل من قبل في حال رخائه، فدخل إليه عن طريق زوجته وعن طريق صاحبيه.

٦- دخل الشيطان إلى زوجه رغم صبرها وصلاحها فجعلها تشعر

بشيء من التململ أو بقليل من الضجر فطلبت من أيوب أن يدعو ربه بكشف الضُرّ عنه، وقالت لأيوب: إلى متى هذا البلاء؟ أو كلمة قريبة من ذلك. فقال لها أيوب وهو غاضب: كم لبثتِ في الرخاء ؟ قالت: ثمانين. قال: كم لبثتِ في البلاء ؟ قالت: سبع سنين. قال: أما أستحي أن أطلب من الله رفع بلائي وما قضيت فيه مدة رخائي، ثم قال: والله لئن برئت لأضربنك مائة سوط.

٧- ودخل الشيطان على صاحبيه اللذين كانا يزورانه دائمًا، فجاء لأحدهما موسوسًا ذات يوم: تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا عظيمًا ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك ؟ قال: منذ ثمانين عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به. (دار هذا الحديث بينهما سرًا).

٨- لكن الآخر الذي سمع لم يصبر ولم يكتم فلما راحا لزيارة أيوب أخبره الرجل بما دار بينهما، فقال أيوب عليه السلام: لا أدري ما تقولان غير أن الله يعلم أني كنت أمرُّ بالرجلين يتنازعان فيذكران الله، فأرجع إلى بيتي، فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر الله إلا في حق.

تأملوا- رحمكم الله- إجابة أيوب كيف فاضت فقهًا وورعًا وتواضعًا، وكيف أوكل العلم إلى الله سبحانه، والله يعلم أنه نعم العبد وأنه أواب.

٩- وأيوب- عليه السلام- الصابر المحتسب الذي لم يستطع الشيطان الدخول إليه والتأثير فيه، لكنه- أي الشيطان- نال من صاحبيه ومن زوجه، هنالك أشفق أيوب فهو إنْ تحمَّل الضرّ في نفسه لم يستطع أي يرى أتباعه وزوجه نهبًا لفتنة الشيطان، فلجأ إلى أرحم الراحمين فإن رحمة الله أوسع له مما هو فيه، لا شك لجأ إلى ربه متضرعًا، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١]، فجاءت الإجابة لأيوب بأسرع مما يتصور أو تصور زوجه، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، فأعاد إليه صحته وشبابه وأمطر عليه الذهب والفضة وأرسل إليه جراد من ذهب، لكن كيف ؟

خرج أيوب كعادته ليقضي حاجته بصحبة زوجته، فكانت تُسانده وتمسك بيده لضعف بَدنه، فإذا أوصلته لمكان قضاء الحاجة تركته ريثما يقضي حاجته ثم تعود إليه، لكنها في هذه المرة عندما عادت إليه لم تجده، ووجدت رجلاً أكثر شبهًا بأيوب في شبابه وصحته، فسألته عن زوجها، فقال: أنا هو. فما الذي حدث.

جاءه الوحي من الله: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، فجرَّ الله له عينًا من الماء الطيب البارد، وأمره أن يغتسل من هذا الماء ويشرب منه، فعاد بقدرة الله أحسن مما كان صحة وشبابًا وحيوية.

١١- وكما أعاد الله لأيوب صحته، أعاد إليه ماله وزيادة، فأرسل سحابتين لمتمطرا ماءًا، ولكنهما أمطرتا ذهبًا وفضة(١)، فانظر إلى عطاء الله.

١٢- أما زوجه الصابرة المحتسبة، فقد شق عليه أن يجلدها مائة جلدة كما سلف وأقسم بذلك ؛ فجعل الله له مخرجًا من ذلك فقال له: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]، فكان ذلك رحمة به وبزوجه من الرحمن الرحيم فأخذ حزمة من الحطب أو القش فبها مائة عود وضرب بها زوجته ضربه واحدة وأعاد الله لزوجته شبابها وعافيتها وأعاد له أبناءه ومثلهم معهم رحمة منه سبحانه وفضلاً وجزاء صبره وعبوديته، ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾. وإلى لقاء.

القصة في كتاب الله

أيوب

«عليه السلام»

المحور الثاني

وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

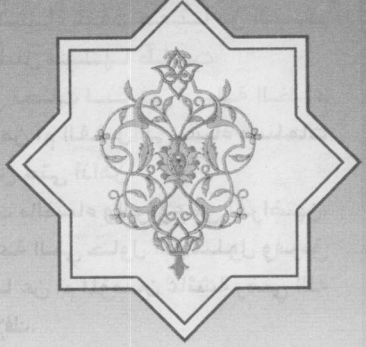

الحمد لله الذي جعل من سننه ابتلاء عباده بالبأساء والسراء، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فعليه السخط، والصلاة والسلام على إمام رسل الله وخاتم الأنبياء خير من صبر عند الضراء، وشكر عند الرخاء.

أما بعد:

فهذا لقاؤنا الثالث مع قصة أيوب عليه السلام، وقد قدمنا في اللقاءين السابقين عرضًا للقصة في القرآن الكريم، وما صح من حديث رسول الله ﷺ، وهذا ما أسميناه المحور الأول، واليوم بعون الله نقف مع تساؤلات كثرت وكثر فيها الخوض، ووقفتنا اليوم للبيان والإيضاح ورد شبهات ومفتريات.

الوقفة الأولى: وهي حول قول أيوب- عليه السلام- في دعائه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾، وهذا من أكثر المواضع التي كثر فيها الخوض بالباطل وبالحق، ونستطيع أن نقسم ما قيل فيها أو حولها إلى قسمين: مقبول، ومردود، مقبول يوافق العقل والنقل، ومردود غير ذلك.

أولاً: القسم الأول:

القسم المقبول حول معنى الآية من أقوال المفسرين والذي يوافق العقل والنقل وهو كالتالي:

١- قال الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (أي ما يلحقه من وسوسته لا غير)، وكأني به- رحمه الله- يرد ردًا مجملاً على من شطح وجانب الصواب، وسنعود إلى رده مفصلاً بعد قليل.

٢- وقال آخرون من أهل التحقيق:

«قد يكون المقصود جرأة الشيطان عليه بالوسوسة، وليس المقصود أن الشيطان أصابه»(١). اهـ.

٣- وقال صاحب التحرير والتنوير: «في الآية كناية لطيفة عن طلب لطف الله به ورفع العطب عنه والنصب ؛ لأنهما صارا مدخلاً للشيطان إلى نفسه بالوسوسة». اهـ.

٤- وطرح صاحب فتح البيان صديق حسن خان- رحمه الله- تساؤلاً وجيهًا قال: «لماذا لا يكون مس الشيطان متصلاً بعمل أيوب كنبيٍّ إلى قومه حيث كان يوسوس لهم فيكابرون وينقُضون ما عقدوه مع أيوب- عليه السلام- فيشق ذلك عليه ويشفق عليهم». اهـ.

ونحن نقول: ولماذا لا ؟ فهذا القول وجيه وأميل إليه وله ما يؤيده من السنة الصحيحة ؛ ففي الحديث الذي نقلناه في اللقاء السابق حين

قال الرجل لصاحبه: «إن لم يكن أيوب قد أذنب ذنبًا كبيرًا ما ظل في هذا البلاء هذه المدة». وقد صرح الآخر لأيوب بذلك، وكانا من أوفى الناس بأيوب، فما بالك بغيرهم، والله أعلم.

ثانيًا: القسم الثاني: حول معنى الآية، وهو القسم الذي لا يقبله عقل سليم ولم يصح نقلاً، ومع ذلك امتلأت به كتب المؤرخين والمفسرين، وقد ردَّه أهل التحقيق منهم، وإليك ذلك:

- وهذه الأقوال تنقسم أيضًا إلى قسمين ؛ قسم يتعلق بما قيل حول قول أيوب: ﴿مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ﴾، وقسم آخر يتعلق بدرجة مرضه.

- أما ما يتعلق بتفسير الآية وتأثير الشيطان على أيوب- عليه السلام- فقد نقلت روايات أكثرها لا يصح ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وابن عساكر، نقلوا خبرًا طويلاً منسوبًا إلى ابن عباس رضي الله عنهما، ومفاده أن إبليس كان له يوم في العام يرقى فيه إلى السماء السابعة ويحاور ربه فطلب منه أي الشيطان طلبًا من رب العزة أن يسلطه على أيوب فسلطه.

وينبري الإمام المحقق ابن العربي- رحمه الله- إلى هذا الخبر فيفنده ويرد عليه، وقد نقل الإمام القرطبي- رحمه الله- ذلك في تفسيره، وانقل إليك في هذه العجالة بعض هذا الرد بما يحقق المقصود:

قال ابن العربي- رحمه الله-: «ما ذكره المفسرون من أن إبليس كان له مكانٌ في السماء السابعة يومًا من العام فنقول: باطل ؛ لأنه أُهبط منها بلعنه وسُخط إلى الأرض فكيف يرقى إلى محل الرضا ويجول في مقامات الأنبياء ويخترق السماوات العلا، ويعلو إلى السماء السابعة فيقف موقف الخليل- عليه السلام- ثم يحاور رب العالمين»؟. اهـ.

٢- وهناك من المفسرين من قال: «مسَّه الشيطان بالسحر حتى أصابه في بدنه بأمراض شديدة». وقد رد ذلك القاضي عياض فيما نقله عنه أيضًا الإمام القرطبي- رحمه الله- قال: «وليس الأمر كما زعموا من السحر الذي أصاب الشيطان به أيوب عليه السلام، فالأفعال كلها خيرها وشرها خالقها هو الله لا شريك له في خلقه، ولا في ملكه، ولكن الشر لا ينسب إلى الله ذكرًا، وإن كان موجودًا منه خلقًا». اهـ. مختصرًا.

ونحن نقول: نعم قد أدبنا نبينا محمد ﷺ بأدب التخاطب مع الله تعالى في دعائه، ومن ذلك ما أورده مسلم في صحيحه من حديث طويل جاء فيه: «..لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك».

وهذا تنزيه لله- سبحانه وتعالى-، فالشر لا ينسب إليه لا في أسمائه ولا في صفاته، ولا في أفعاله ؛ وإنما يدخل في مخلوقاته ومفعولاته.

٣- وأما ما يتعلق بحرص أيوب عليه السلام وما وصل إليه من تغير رائحته، حتى نفر الناس منه، وعن تساقط لحمه، حتى صار هيكلاً عظميًا بغير لحم، أو أن الدود كان يسرح في بدنه ويروح، وأنه أُلقي في المزبلة، وغير ذلك، فقد ردَّها المحققون، ومنهم القاسمي، رحمه الله، فقال: «يذكر كثير من المفسرين ههنا مرويات وقصصًا إسرائيلية في ابتلائه عليه السلام، ولا نؤمن من ذلك كله إلا بمجمله وهو ما أشار إليه التنزيل الكريم لأنه الحق المتيقن، وهو أنه عليه السلام أصابته بلوى عظيمة في نفسه وأهله وماله، فصبر على ذلك صبرًا صار مضرب الأمثال». اهـ. مختصرًا.

هذا، وقد أشار الشيخ المراغي- رحمه الله- في تفسيره إلى تلك المرويات لمنافاتها لما يجب أن يكون عليه النبي من هيئة لا تنفر الناس منه، وأرجو أن يكون في هذا القدر ما يفي بغرضنا في هذا المحور، وإلى لقاء.

هامش

١- في هذا إشارة إلى الأقوال التي قيلت من إصابة أيوب عليه السلام بمس مباشر من الشيطان أصابه في بدنه، وسيأتي الرد على ذلك قريبًا.

القصة في كتاب الله

أيوب

«عليه السلام»

المحور الثالث

جني الثمار وذكر الآثار

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الذي جعل في قصص أنبيائه عبرة لأولي الألباب وذكرى للمتقين، ومنها قصة أيوب- عليه السلام- والصلاة والسلام على نبينا محمد، الذي جاء بالحق وصدق المرسلين.

أما بعد: فقد آن أوان قطف الثمار، وجمع الفوائد الإيمانية من قصة أيوب- عليه السلام- بعد أن عرضناها عرضًا صحيحًا ورددنا ما تناقلته الكتب حولها من إسرائيليات، وشبهات، ونستعين الله في ذكر هذه الفوائد كالتالي:

١- نفي تحريف أهل الكتاب وبخاصة اليهود وتبرئة الأنبياء مما ألحقوه بهم، فمن يقرأ قصة أيوب في القرآن وصحيح السنة ثم يقرأ ما ورد في التوراة(١) عنها يوقن أن أحد أهداف القصة في كتاب الله هو كشف التحريف الذي أصاب هذه القصة وغيرها، وتبرئة نبي الله أيوب وغيره من الأنبياء مما نسبه إليه الظالمون زورًا وكذبًا.

٢- ليس بالضرورة أن يكون البلاء بسبب الذنب؛ فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عن النبي ﷺ قال: «أشدُّ الناس بلاء الأنبياء، ثُمَّ الصالحون ثم الأمثل فالأمثل». وقال ﷺ فيما رواه الترمذي وغيره من حديث سعد بن أبي وقاص- رضي الله عنه- «يُبتلى الرجل على حسب دينه ؛ فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه». وكان ابتلاء أيوب من هذا النوع ولم يزده البلاء إلا صبرًا واحتسابًا وحمدًا وشكرًا، فكملَ في حقِّ أيوب نوعا البلاء ابتلي بالرخاء فشكر، وابتلي بالضراء فصبر، وقد أثنى الله عليه قائلاً- سبحانه- : ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، وهو كذلك قد صدق فيه ومَنْ تأسَّى به إلى يوم القيامة ما صَحَّ عن النبيِّ ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كلَّه خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له». رواه مسلم.

٣- يقول ابن القيم- رحمه الله-: «إن الله سبحانه يحب من عباده تكميل عبوديتهم على

السراء والضراء، وفي حال العافية والبلاء، فلله سبحانه على العباد في كلتا الحالين عبودية بمقتضى تلك الحال، لا تحصل إلا بها، ولا يستقيم القلب بدونها، كما لا تستقيم الأبدان إلا بالحر والبرد، والجوع والعطش، والتعب والنصب، وأضدادها، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإيماني والاستقامة». اهـ. مختصرًا.

أقول نعم وهذه سنة الله في ابتلاء أنبيائه وأوليائه، ولذلك عقب الله سبحانه في الموضعين اللذين ذكر فيهما قصة أيوب في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٤٣]، فجعل سبحانه ما حدث لأيوب عليه السلام ذكرى للعابدين الذين هم أولو الألباب، ولعل في ذلك يتضح بعض آثار رحمة ربك وحكمته في ابتلاء الصالحين، وجعل أيوب في صبره وشكره مثلاً يحتذى، والله أعلم.

٤- أهمية دور الزوجة الصالحة في الوقوف مع زوجها في السراء والضراء، وقد ضربت زوجة أيوب مثلاً عظيمًا في الوفاء والصبر، وليت نساء المسلمين يتعلمن منها هذه الصفات الحميدة.

٥- كافأ الله زوجة أيوب على صبرها في الدنيا قبل الآخرة، فأعاد لها شبابها كأحسن ما يكون، وجعل لها مخرجًا من قسم أيوب رحمة بها لبِرّها بزوجها، فأمر أيوب أن يضربها ضربة واحدة بحزمة تحتوي على مائة عود خفيف.

٦- من الفوائد الهامة بيان قدرة الله- سبحانه- على إزالة البلاء وشفاء المرضى في أسرع مما يتخيل الناس وبأهون الأسباب ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

٧- استجابة الله السريعة لدعاء أنبيائه وأوليائه، وإذا أراد الله أمرًا هيأ له أسبابه فجعل الماء شرابًا ودواء: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾.

٨- ونتعلم من الآية السابقة ضرورة الأخذ بالأسباب حتى لو كانت ضعيفة، المهم أن يبذل العبد ما يملك من سبب ثم يترك النتيجة لله رب العالمين، فماذا تفعل قدم أيوب المريض التي أمره الله أن يضرب بها الأرض، وماذا تفعل أيد مريم- عليها السلام- عندما أمرها أن تهز بها جذع النخلة، وماذا تفعل عصا موسى حين أمره أن يضرب بها البحر، إن الفاعل هو الله- سبحانه- ولكنه عز وجل أمر عباده أن يأخذوا بالأسباب التي يستطيعونها، والله من وراء ذلك.

٩- تظهر معادن الناس عند الشدائد، فقد ظهر معدن زوج أيوب عند الشدّة، كما ظهر معدن صاحبيه الطيب كما مر بنا في الحديث.

١٠- وفي الحديث الذي رواه البخاري نلاحظ أن من عادة بني إسرائيل الاغتسال عرايا ينظر بعضهم إلى بعض، فالتعرّي عندهم مستساغ، وكانوا يعيبون على موسى عليه السلام ؛ لاغتساله وحده بعيدًا عنهم، ويبدوا أن ذلك كان جائزًا عندهم(٢).

١١- وهذا ما فعله أيوب عليه السلام فإنه اغتسل عريانًا وحده في خلوة، وقد علق البخاري رحمه الله على الحديث بجواز اغتسال الرجل خاليًا عريانًا وإن كان التستر أفضل، وفي الحديث جواز الاستكثار من فضل الله، وفيه تسمية الذي أفاض الله على أيوب بالبركة(٣).

هذا والله أعلم، والحمد لله رب العالمين.

﴿ الهوامش ﴾

(١) راجع سفر أيوب في العهد القديم ترى عجبًا يضيق الزمان والمكان عن ذكره هنا.

(٢) يرى ابن حجر رحمه الله أن اغتسال بني إسرائيل عرايا جميعًا ينظر بعضهم لبعض كان مباحًا عندهم وإلا لنهاهم موسى عنه، ولكنه عليه السلام نزه نفسه عن ذلك، والحديث في البخاري برقم (٢٧٨).

(٣) في الحديث الذي رواه البخاري أن الله أرسل لأيوب ذهبًا على هيئة جراد بعد أن أمطر عليه الذهب والفضة من السحاب.

القصة في كتاب الله

إلياس «عليه السلام»

وإن إلياس لمن المرسلين

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

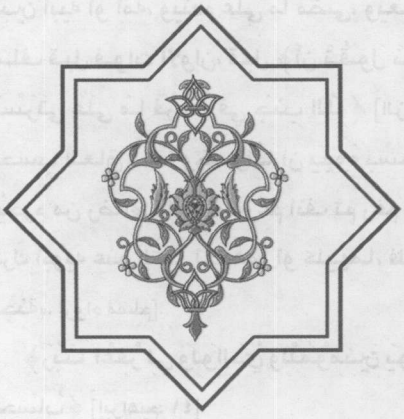

الحمد لله الذي أرسل رسله مبشرين ومنذرين لأقوامهم على مرِّ السنين، ثم ختمهم بمن أرسله للناس كافة بشيرًا ونذيرًا محمد ﷺ،

أما بعد:

فإن إلياس - عليه السلام - نبيٌّ مرسل من أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله إلى أهل بعلبك، غربي دمشق، فدعاهم إلى الله الواحد الأحد، ونهاهم عن الشرك وعبادة الأصنام، وتعجَّب من حالهم كيف يعبدون (بعلا) وهو صنم، وقيل عجلًا(١)، أو صنمًا على هيئة العجل، عبدوه من دون الله، وقد زين لهم الشيطان ما هم فيه وصدهم عن سبيل الله.

وسنعرض في لقائنا اليوم لقصة هذا النبي الكريم على النحو التالي:

أولًا: حديث القرآن عن إلياس - عليه السلام:

١- دخوله في عداد الأنبياء والمرسلين من ذرية إبراهيم - عليه السلام -: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين (٨٤) وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥].

٢- دعوته قومه:

قال تعالى: ﴿وإن إلياس لمن المرسلين (١٢٣) إذ قال لقومه ألا تتقون (١٢٤) أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين (١٢٥) الله ربكم ورب آبائكم الأولين (١٢٦) فكذبوه فإنهم لمحضرون (١٢٧) إلا عباد الله المخلصين (١٢٨) وتركنا عليه في الآخرين (١٢٩) سلام على إل ياسين (١٣٠) إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ [الصافات: ١٢٣- ١٣١].

ثانيًا: ما يمكن استخلاصه من الآيات:

١- إن إلياس نبيٌ مرسل وإنه من ذرية إبراهيم - عليه السلام - لأن الضمير في قوله تعالى: ﴿ومن ذريته﴾ يعود إلى خليل الله إبراهيم المتقدِّم ذكره في الآية التي قبلها مباشرة: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ [الأنعام: ٨٣]، وهو الذي وهبه الله إسحاق ويعقوب، ثم ذكر من ذريته داود

وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا، فاتضح في هذا التسلسل عودة نسب إلياس إلى إبراهيم - عليه السلام -، وفي ذلك رد على من زعم غير ذلك.

٢- «إلياس هو الياسين». والتي تكتب «إل ياسين» في المصحف. قال ابن كثير - رحمه الله -: «العرب تلحق النون في أسماء كثيرة وتبدلها من غيرها، كما تقول: إسماعيل وإسماعين، وإسرائيل وإسرائين وإلياس وإلياسين». اهـ.

٣- دعوته - عليه السلام:

ويتضح من آيات سورة الصافات منهجه في الدعوة وهو منهج الأنبياء والمرسلين قبله وبعده ألا وهو دعوة قومه إلى تقوى الله وطاعته وعبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن عبادة الأصنام - وكانوا يتخذون صنمًا يُقال له «بعل»، وتعجَّب إلياس عليه السلام من قومه، كيف يعبدون صنمًا لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئًا، ويتركون عبادة الله الذي خلق الخلق فأحسن خلقهم وربَّاهم فأحسن تربيتهم وأغدق عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

٤- مصير قومه :

تشير الآيات الكريمة إلى تكذيب قومه له فتوعدهم الله بالعذاب يوم القيامة، في قوله تعالى: ﴿فإنهم لمحضرون﴾، أي: يوم القيامة في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية(٢)، ووعدت الآيات المُخْلِصين المتبعين لنبي الله بالنجاة من عذابه، ثم أثنى الله ثناءً حسنًا على نبيه ورسوله إلياس، فقال تعالى: ﴿وتركنا عليه﴾ أي: على إلياس ﴿في الآخرين﴾ فيمن يأتي بعده الذكر والثناء الحسن من الله ومن عباد الله ومع الثناء السلام والتحية، ﴿سلام على إل ياسين﴾ الآية.

ثالثًا: نظرات في أقوال أهل السِّير والتاريخ حول هذه القصة:

تنوعت أقوال المؤرخين حول هذه القصة بين ما هو مقبول، وما هو موضوع، ونحن نذكر جانبًا من المقبول زيادة في الإيضاح.

النظرة الأولى: ونشير إلى الموضوع تبصرةً وذكرى.

١- زمن بعثته:

نقل ابن كثير خبرًا عن الواقدي مفاده أن إلياس كان مبعثه بعد موسى وهارون، ونقل غيره من أهل العلم أنه كان بعد سليمان بن داود - عليهما السلام-، ولعل هذا أقرب إلى الصواب، والله أعلم.

وذكروا في سبب مبعثه أن دولة بني إسرائيل تَشَتَّتَتْ وانقسمت إلى دولتين بسبب اختلافهم بعد موت داود - عليه السلام - وبسبب تقاتل ملوكهم على السلطة، وبسبب انتشار الكفر والمعاصي بين الراعي والرعية، وقد سمح أحد ملوكهم واسمه (أخاب) لزوجته بنشر عبادة قومها بين بني إسرائيل وكان قومها يعبدون الأوثان فشاعت في بني إسرائيل عبادة الأوثان، ومنها هذا الصنم الذي كان يعبده أهل بعلبك، فأرسل الله إليهم إلياس يدعوهم إلى عبادة الله كما تقدم بيانه فلما حانت منية (إلياس) عليه السلام، أوحى الله إلى (إليسع)، وكان من اتباع (إلياس) ومن تلاميذه فسار في قومه بسيرته ودعاهم بدعوته.

النظرة الثانية: إلى الأقوال الموضوعة في كتب التاريخ وأهل التفسير:

ومنها ادعاؤهم حياة إلياس في الأرض إلى الآن، واجتماعه بالخضر في كل عام، وحجهما معًا، وشربهما من ماء زمزم، والتقائهما بعرفات، وادعاء بعضهم أن إلياس لما دعا ربه ألْبَسَهُ نورًا وجعل له ريشًا يطير مع ملائكة السماء، وقد روى البيهقي وغيره عن الأوزاعي عن مكحول عن أنس حديثًا طويلاً مفاده التقاء النبي محمد ﷺ بإلياس وجلوسهما معًا قرابة اليوم ونزول مائدة من السماء عليهما، وذلك كله باطل وموضوع، وإن صححه الحاكم، فقد تعقبه الذهبي وبيّن بطلانه ونقل ابن كثير ذلك كله في البداية والنهاية كما جاء الحديث في كتب الموضوعات مثل «تنزيه الشريعة»، و«اللآلى المصنوعة». هذا والله أعلم وأعز وأكرم. وللحديث بقية.

هوامش

١- وقيل اسم امرأة، وهذا ليس بغريب على قوم أجدادهم عبدوا العجل من دون الله وموسى - عليه السلام - بين ظهرانيهم.

٢- قال ابن كثير - رحمه الله -: العذاب يلحقهم في الدنيا والآخرة. وقال: الأول أرجح - أي في الدنيا والله أعلم - وهذا لا ينفي عذابهم في الآخرة، فهذا مقطوع به.

القصة في كتاب الله

يونس «عليه السلام»

وإن يونس لمن المرسلين

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين، محمد النبي الأمين، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وبعد:

ما نزال على عهدنا نتدارس سويًا قصص أنبياء بني إسرائيل، ووصل بنا المسير إلى نبي الله يونس - عليه السلام - أو ذي النون، أو صاحب الحوت، كما وصفه القرآن الكريم.

وقد جاء ذكره باسمه في كتاب الله في أربعة مواضع في سور «النساء، والأنعام، ويونس، والصافات»، وجاء ذكره بوصفه في موضعين في سورتي «الأنبياء، والقلم».

وقد سمّى اللهُ سورة في القرآن باسم هذا النبي الكريم، وهو بذلك يُعدُّ من القلائل الذين سميت بأسمائهم السور مثل: نوح، وإبراهيم، ومحمد، عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

وسنأتي للكلام على ذلك مفصلاً - إن شاء الله-.

وقد أرسله الله إلى قرية عظيمة وشعب كبير، فمائة ألف في ذلك الوقت عدد كبير جدًا.

اسمه ونسبه: لم يذكر المؤرخون نسبًا مفصَّلاً ليونس عليه السلام، وإنما اتفقوا على أن اسمه يونس بن متى، واختلفوا في «متى» هل هي أمه أو أبوه، والصحيح أنه نسبه لأبيه، وقد رجَّح ذلك ابن حجر - رحمه الله - في فتح الباري ؛ لصحة الحديث الوارد في ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وسيأتي.

كما اتفق المؤرخون كذلك على أنه من أنبياء بني إسرائيل، ويعود نسبه إلى «بنيامين» ابن يعقوب - عليه السلام -، ومولده في الشام، ويُعْرف بـ «يونان بن أمتاي».

بين يدي القصة

أصدقكم القول أني حين كنت أجمع خيوط هذه القصة وأعود إلى مراجعتها في مظانِّها في كتب التفسير والتاريخ، وجدتُ عجبًا، وليس العجب في قصة يونس - عليه السلام - مع الحوت، وهي حقًا عجيبة - وسيأتي الحديث عنها-، ولكن العجب كلُّ العجب فيما لاكتْهُ ألسنة المتخرِّصين

وفيما افتراه الكذبةُ المضللّون حول قصة هذا النبي الكريم «يونس بن متى»، عليه السلام.

وهنا أدركت سرَّ اهتمام القرآن بذكر نبأ يونس عليه السلام بالتوكيد الجازم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٣٩] عند الحديث عنه في سورة الصافات، وكذلك من تسمية سورة باسمه ؛ ألا وهي سورة «يونس»، مع أن السورة على طولها لم تتحدث عن يونس - عليه السلام -، بل تحدثت عن قومه وعن سبب نجاتهم من عذاب الله في آية واحدة، وقد ذكر القرآن الكريم يونس عليه السلام في مصافّ الصفوة المختارة من الأنبياء والمرسلين الذين يجب علينا الإيمان بهم على التعيين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، وفي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

وكذلك أدركتُ سرَّ قول النبيِّ محمد ﷺ الصحيح: «لا يقولن أحدكم إني خيرٌ من يونس». وفي رواية: «يونس بن متى». (البخاري ٣٤١٢).

وفي رواية عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: قال ﷺ: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خيرٌ من يونس بن متى». ونسبه إلى أبيه. (البخاري ٣٤١٣).

وسرُّ ذلك - واللهُ أعلم - هو تأكيد براءة يونس عليه السلام مما توهمه المتوهمون وحرَّفه المحرِّفون وتخرصَّه المتخرصون، وأكثر ما وقع ذلك عند أهل الكتاب وعند الرافضة، عليهم من الله ما يستحقون، وللأسف قد تأثر كثير من المفسرين والمؤرخين - مع مكانتهم(١)- ببعض الآثار الواردة عن طريق أهل الكتاب - مع منافاتها لمقام النبوة الكريم.

يونس عليه السلام عند أهل الكتاب

وكما ذكرنا من قبل اسمه عندهم «يونان بن أمتاي»، جاء في التوراة (العهد القديم في سفر يونان):

١- (يونان يعصي الرب): «كانت كلمة الرب إلى يونان بن أمتاي قال: قم اذهب إلى نينوى المدينة العظيمة وناد بأن شرورها صعدت إليَّ. فقام يونان وذهب، لا إلى نينوى، بل إلى مدينة ترشيش هربًا من وجه الرب، فنزل إلى يافا، فوجد سفينة سائرة إلى ترشيش، فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب مع ملاحيها إلى هناك بعيدًا عن وجه الرب»(٢).

وذكرَ النص بعد ذلك ما حدث في السفينة، ودعاء يونس عليه السلام، ثم عودته إلى قومه بحسب الرواية الواردة في العهد القديم.

لكن بتأمل يسير في هذا النَّص المذكور نجد أن يونس عليه السلام لا يعرف ربَّه، وأنه أجهل من طفل صغير بربه؛ إذن فكيف يهرب من وجهه كما يدعي النص؟ وكيف يخالف نبيٌ مرسل أمر ربه بالذهاب إلى الشرق فيذهب إلى الغرب، أو أن يونس كما قال بعضهم كان وطنيًا فلم يقبل أن يذهب لدعوة مشركين - بزعمهم -!!

ما هذه الأفهام السقيمة والعقول القاصرة؟ إنه الهوى والتحريف الذي وقع فيه القوم.

ومثله تمامًا ما وقع فيه الرافضة، حيث استنبط كبيرهم في بحاره أمورًا عجيبة من قصة يونس ؛ منها توكيد غيبة الإمام المنتظر حيث سمى الفترة التي قضاها يونس في بطن الحوت غيبة، وقاس عليها غيبة الوصي المنتظر بغضِّ النظر عن قصر أو طول المدتين !!

نعم هذا الضلال موجود في كتابهم الموسوم بـ «بحار الأنوار»، ويروجون له، وهو أكبر مرجع عندهم، ولا أظنه إلا بحار الظلمات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كما ورد فيه أيضًا أن يونس عليه السلام إنما ابتلعه الحوت عقوبة له لأنه رفض البيعة لأئمتهم المزعومين، ولولا خشية الإطالة لأوردت لكم النص كاملاً كما أورده صاحب «بحار الأنوار» برقم (٦١/ ٥٢).

وقد تعمدت أن أذكر لكم هذا الباطل أولاً، ثم أذكر لكم الحقائق القرآنية من باب: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾.

فإلى الحق إن شاء الله وعلى الحق نلتقي، بإذن الله تعالى.

هوامش

١- منهم صاحب «التحرير والتنوير» عندما تعرض للقصة في سورة الصافات.

٢- العهد القديم - الإصدار الثاني ١٩٩٥، الطبعة الرابعة، عن جمعية الكتاب المقدس في لبنان.

القصة في كتاب الله

يونس «عليه السلام»

«وذا النون إذ ذهب مغاضباً»

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

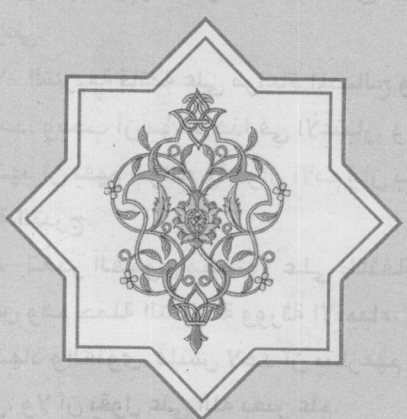

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه، فبلغ الرسالة، وهدى الله به من الضلالة، وفتح به قلوبًا غلفًا، وآذانًا صمًا، واعينا عميا فصلاة ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فنكمل ما ذكرناه في المقالة السابقة بإظهار الحق الواضح في كتاب الله، ومما صح عن رسول الله ﷺ في خبر «يونس» عليه السلام، بل وفي كل أمر، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]، ومع الحق نعيش ونعرض لقضيتنا على النحو التالي:

أولاً: الآيات التي وردت فيها القصة عدا الموضعين السابقين اللذين ذكرناهما في المقال السابق من سورتي النساء والأنعام.

١- قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

٢- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٣٩-١٤٨].

٣- قال تعالى: ﴿فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[يونس: ٩٨].

٤- قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلاَ تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلاَ أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩)

فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القلم: ٤٨-٥٠].

ثانيًا: عرض مجمل للقصة:

نقدِّم هنا عرضًا مجملاً للقصة على ضوء الآيات السابقة، وبما صحَّ من أقوال أهل العلم:

١- قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير سورة الأنبياء: «هذه القصة مذكورة ههنا وفي سورة الصافات وفي سورة «ن»، وذلك أن يونس (عليه السلام) بعثه الله إلى أهل قرية نينوى، وهي قرية في أرض الموصل فدعاهم إلى الله تعالى فأبَوْا عليه وتمادوا في كفرهم، فخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث، فلما تحققوا من ذلك وعلموا أن النبيَّ لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم وفرقوا بين الأمهات وأولادها، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل، وجأروا إليه ورغت الإبل وفصْلانها وخارت البقر وأولادها، وثغت الغنم وسخالها، فرفع الله عنهم العذاب، وذلك قوله تعالى: ««فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ»». اهـ.

٢- أما يونس (عليه السلام) فاستمر في طريقه إلى أن ركب سفينة مزدحمة بالركاب، وتغيَّرت حالة البحر، وارتفع الموج، وتهدد الركاب بالغرق، ووقع على يونس السهم بالاقتراع للتخلص منه بإلقائه في البحر، وسخر الله له حوتًا في انتظاره، فالتقمه ولم يكسر له عظمًا أو يمزق له لحمًا بأمر الله له، إلى أن ألقاه بعد ذلك على الشاطئ وعاد إلى قومه مرشدًا حتى توفاه الله - سبحانه - ودفن هناك وقبره معروف الآن (عليه السلام) في الموصل من أرض العراق ومعلوم للناس.

٣- نقل ابن حجر - رحمه الله - في الفتح عن ابن أبي حاتم من طريق السدي عن أبي مالك قال: «لبث يونس في بطن الحوت أربعين يومًا، ومن طريق جعفر الصادق قال: سبعة أيام، ومن طريق قتادة قال: ثلاثًا ومن طريق الشعبي قال: التقمه ضحى، ولفظه عشية». اهـ. والله تعالى أعلم بالصواب.

ثالثًا: وقفات في تدبر الآيات نصوغها في كلمات:

الأولى: هناك فرق بين غضب ومغاضبة وقتال ومقاتلة:

حول قوله تعالى: ««وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا..»» مغاضبة على وزن مفاعلة مثل مقاتلة ومصارعة لا تكون إلا بين طرفين فقوم يونس أغضبوه بإصرارهم على كفرهم، وقد مكث فيهم يدعوهم أكثر من ثلاثين سنة فلم يؤمن معه إلا رجلان فغضب عليهم وهددهم بوقوع العذاب عليهم بعد ثلاث وهجرهم، وقد روى السدّي في تفسيره بأسانيده عن ابن مسعود وغيره: «إن الله بعث يونس إلى أهل نينوى فكذبوه فوعدهم بنزول العذاب في وقت معين، وخرج عنهم مغاضبًا لهم». وقد روى ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن ميمون عن ابن مسعود رضي الله عنه بإسناد صحَّحه الحافظ ابن حجر في الفتح وفيه: «وأصبح يونس فأشرف على القرية فلم ير العذاب، وكان في شريعتهم من كذب قُتل فانطلق مغاضبًا». وهناك رواية أخرى عن ابن مسعود أيضًا من طريق ابن مردويه عن النبي ﷺ، وفيها «أن يونس لما وعدهم العذاب خرج عنهم - وكانت الأنبياء إذا وعدت قومها العذاب خرجت عنهم».

وفي ذات الرواية أيضًا: «وقعد يونس في الطريق يسأل عن الخبر فمر رجل فسأله: ما فعل قوم يونس؟ فحدثه بما صنعوا، فقال: لا أرجع إلى قوم قد كذبوني وانطلق مغاضبًا». هذا هو المعنى الصحيح لقوله تعالى: «مغاضبًا»، وقد نقله جميع المفسرين إلا من تأثر بقول اليهود كما أسلفنا فهم الذين زعموا أن يونس خرج مغاضبًا لربه أي هاربًا من أمره وحكمه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وإتمامًا للبيان فقد نقل صاحب «فتح البيان»: أن «مغاضبًا» أي مراغمًا لقومه لا ربه، ولكنه هناك ذكر نكتة لطيفة ألا وهي نقله عن الحسن والشعبي وسعيد قولهم في معنى «مغاضبًا» أي مناجيًا لربه، واختار هذا القول ابن جرير والتعنبي، لكن المعنى مغاضبًا لأجل لربه ولأجل دين ربه، وقد نقل رحمه الله توضيح هذا المعنى عن ابن مسعود رضي الله عنه فيعود المعنى في جميع الأحوال مغاضبًا قومه لأجل ربه.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

القصة في كتاب الله

يونس

«عليه السلام»

الحلقة الثالثة

«فنادى في الظلمات»

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

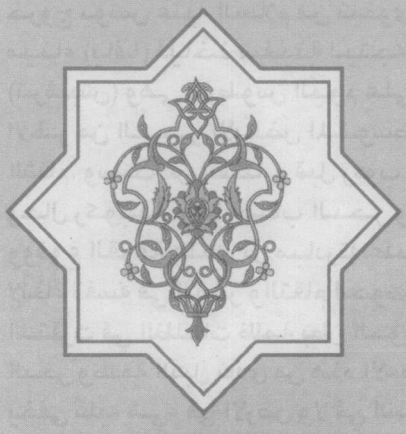

الحمد لله مجيب المضطر إذا دعاه، وكاشف السوء، لا يخفى عليه من أمر خلقه شيء في الأرض ولا في السماء على قمم الجبال أو في أعماق البحار، أما بعد:

فقد وقفنا معًا في اللقاء السابق حول معنى (مغاضبًا)، وانتهينا إلى أن غضب يونس - عليه السلام - كان على قومه لربه، وقدَّمنا هناك الأدلة وكانت هذه هي الكلمة الأولى، أما الكلمة الثانية فمع قوله تعالى: «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ».

«نقدر» ومنه: يقْدِر، وقَدر، نقدْر بمعنى نضيِّق، ولذلك ذهب جمهور المفسرين إلى هذا المعنى، واستدلوا بأدلة قوية لا تقبل المناقشة من كتاب الله، ومنها قوله تعالى: «أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» [الإسراء: ٢٩]، وقوله تعالى: «وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ» [الطلاق: ٧]، وقوله تعالى: «وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ» [الفجر: ١٧]، فالمعنى واضح والقرآن يفسر بعضُه بعضًا فهو من التضيِّق وليس من القدرة، كما يتوهم البعض لأول وهلة، ولا يمكن أبدًا أن يظن يونس عليه السلام هذا الظن، (أي عدم قدرة الله عليه) فهذا لا يظنه عاقل فكيف بنبيٍّ، ولكن يأتي هنا سؤال مؤداه لماذا ظن يونس أن الله - سبحانه - لن يضيق عليه ؟ والإجابة لأنه عندما ذهب مغاضبًا قومه لم يخرج بإذن من الله بل اجتهد وقاس ذلك على ما فعله لوط عليه السلام أو غيره من الأنبياء ولكنه نسي أمرًا وهو أن هؤلاء الأنبياء عندما وَقَّتُوا لأقوامهم العذاب إنما وقتُوه بأمر من الله، وعندما خرجوا أيضًا خرجوا بإذن الله لكنه - أي يونس - لم يفعل ذلك، وقد أدرك يونس - عليه السلام - هذا الخطأ عندما علم بتوبة الله على قومه فخرج على وجهه هائمًا لا يدري أين يذهب لكنه يريد شيئًا واحدًا ألا وهو توبة ربه عليه، ألم تر أنه نادى في الظلمات قائلاً: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

والكلمة الثالثة: مم يتوب يونس عليه السلام؟

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نسأل سؤالاً آخر: هل أذنب يونس حقًا ذنبًا يستحق التوبة؟ أو وقع في تقصير ما؟ وهنا نحب أن نوضِّح أمرًا على جانب كبير من الأهمية، فالهفوة التي تقع من العالم ليست مثل الهفوة التي تقع من الجاهل، والتقصير من النبيِّ ليس كالتقصير من غير النبيِّ.

فكلما ازداد العبد قربًا من الله كان أكثر خشية لله وأكثر دقة في حسابه لنفسه مع الله، ألم تعلم أن محمدًا ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر كان يقيم الليل حتى تفطرت قدماه، بهذا الفهم نقول: نعم وقع يونس في تقصير يحتاج إلى توبة منه وهذا على قدر علاقته بربه، وهذا التقصير يسميه كثير من العلماء ذنبًا.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: «.. ولكنه - عليه السلام - ذهب مغاضبًا وأبق عن ربه لذنب من الذنوب التي لم يذكرها الله لنا في كتابه... إلخ». فالشيخ في تفسيره لسورة الأنبياء يؤكد أن يونس عليه السلام ارتكب ذنبًا ويقول كذلك إن هذا الذنب لم يحدِّده الله في كتابه، والشيخ - رحمه الله - يقرر كما قرر غيره من المفسرين بوقوع الذنب من يونس، وإن كنت استحيي أن أسميه ذنبًا، بل أرى من الأنسب أن نسميه تقصيرًا (بالنسبة لمقام النبوة)، أما كونه غير محدد في كتاب الله فلست أدري كيف غابت عن الشيخ هذه الحقيقة وهي واضحة في كتاب الله وضوح الشمس، الم يقل ربنا الرحمن الرحيم في كتابه العزيز مخاطبًا نبيه الكريم محمدًا ﷺ: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ»؟ بلى قال سبحانه؛ إذن فالحالة التي أمر الله نبيه محمدًا بها قد نهاه عن ضدِّها عند صاحب الحوت، وهذه حالة التقصير التي رغب يونس عليه السلام في التوبة منها، وهذا من باب التفاضل في الدرجات بين الأنبياء، والله أعلم.

وهذا هو ما فهمه العلماء وأهل التفسير.

قال الإمام عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره لهذه الآية: «لا تعجل كما عجل ولا تغضب كما غضب».

ونقل الإمام القرطبي عن قتادة في تفسيرها «إن الله يعزِّي نبيه ويأمره بالصبر ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت»(٢).

وقال ابن القيم - رحمه الله -: «وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ» أي: في ضعف صبره، وهنا أورد ابن القيم كلامًا قيمًا أحب أن أنقله لعموم فائدته: «أمر الله رسوله أن يصبر صبر أولي العزم من الرسل الذين صبروا لحكمه اختيارًا، وهذا أكمل الصبر؛ ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على الأنبياء فردُّوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم ربه محمد بن عبد الله - صلوات ربي وسلامه عليه وعليهم أجمعين»(٣). اهـ.

الكلمة الرابعة: «فنادى في الظلمات»: وبلاغة الإيجاز في كتاب الله.

وهنا نصل إلى هذه الكلمة الهامة والعظيمة والتي كانت نتيجة طبيعية لاستشعار يونس عليه السلام في حق ربه بضعف صبره وعجلته كما في أسلفنا مقارنة بأولي العزم من الرسل فاحتاج إلى هذه التوبة، ولا سيما عند علمه بتوبة قومه.

ونلاحظ بلاغة الإيجاز القرآني في عرض القصة حين انتقل مباشرة من قوله تعالى: «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» إلى قوله: «فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ»، وهنا سكت عما ذكره في موضع آخر: «إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ»، سكت القرآن الكريم عن مرحلة زمنية طويلة وقعت فيها أحداث كثيرة منها خروج يونس عليه السلام من نينوى وقصده ميناء (يافا) ليأخذ سفينة ليتجه بها إلى (ترشيش) وهي طرطوس اليوم على الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط في بلاد الشام، وسكت عن انتظاره قبل ركوب السفينة وحال ركوبها، وما أصاب البحر والاقتراع ووقوع القرعة عليه، بل مبادرته عليه السلام لإلقاء نفسه في البحر والتقام الحوت له وحين استقرت في الظلمات ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل نادى من هذه الأعماق من لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وللحديث بقية إن شاء الله.

القصة في كتاب الله

يونس

«عليه السلام»

«نداء من الأعماق»

الحلقة الرابعة

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

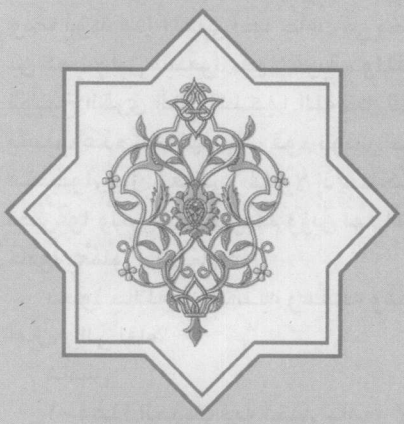

الحمد لله الذي وسع سمعه جميع الأصوات، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصمَّاء في الليلة الظلماء، وسمع دعاء عبده يونس من أعماق البحر وهو في بطن الحوت في ظلمة الليل البهيم في ظُلمات ثلاث، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وآله وصحبه وسلم.

وبعد:

وقفنا معًا في اللقاء السابق على الحالة التي كان عليها نبيُّ الله يونس عليه السلام من الرغبة الأكيدة في الفرار إلى الله وبخاصة بعد علمه برحمة الله التي وسعت قومه، فأراد أن يفرَّ إلى هذه الرحمة وهو على يقين أنه سيدركها وتدركه، حتى لو كان في عمق البحر.

الكلمة الخامسة: «...لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

نريد هنا أن نقرر أن المؤمن يستشعر هفوته وذنبه مهما كان صغيرًا يحمله على رأسه كالجبل، بينما المنافق لا يشعر بذنبه مهما كان كبيرًا وإن شعر فإنه يشعر به كالريشة فوق رأسه، وبهذا يتفاوت الناس في إيمانهم وعلاقتهم بربهم من الأنبياء فالأمثل فالأمثل، أما الاستغفار والتوبة فهي زاد المؤمن حتى لو كان من المقربين، ألم تر إلى خير رسل الله محمد بن عبد الله ﷺ كيف كان يكثر من الاستغفار والتوبة، حتى كان يُحصَى له في المجلس الواحد أكثر من مائة استغفار، وهو مَن غفر الله له ما تقدم وما تأخر من ذنبه، وها هو عبد الله ورسوله يونس يجد نفسه في عمق البحر وفي بطن الحوت، فماذا يفعل ؟ هتف من أعماقه: « لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»، علم يونس - عليه السلام - أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، ولا منقذ له مما هو فيه إلا الله، فناداه نداء العبد الوجل المقر بذنبه والمقر قبل ذلك بوحدانية ربه وعبوديته له، وهو على يقين أن الله يسمعه ويراه، وأنه سبحانه يجيب دعاء المضطر إذا دعاه، ولم يخيِّب الله رجاء عبده الصادق فاستجاب له ونجاه، وقال سبحانه: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي

الْمُؤْمِنِينَ»، فجاءت الإجابة سريعة، وهذا عهده سبحانه مع عباده المؤمنين في كل زمان ومكان.

الكلمة السادسة: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ»:

١- اعرف ربك في الرخاء يعرفك عند البلاء:

قد سمع الله دعاء عبده يونس من فوق سبع سماوات، بينما كان يونس في أعماق البحر وفي بطن الحوت وفي ظلمة الليل.

روى ابن أبي حاتم بسنده أن يزيد الرقاشي قال: سمعتُ أنس بن مالك، ولا أعلم إلا أن أنسًا يرفع الحديث إلى رسول الله ﷺ: أن يونس النبي عليه السلام حين بدا له(١) أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت قال: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فأقبلت هذه الدعوة تحت العرش، فقالت الملائكة: يا رب، صوت ضعيف معروف من بلاد غريبة، قال: أما تعرفون ذاك ؟ قالوا: لا يا رب ومن هو ؟ قال: عبدي يونس، قالوا: عبدك يونس الذي لم يزل يُرفعُ له عمل صالح متقبل ودعوة مُجابة، قالوا: يا رب، أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال: بلى، فأمر الحوت فطرحه في العراء. أورده ابن كثير في تفسيره.

٢- فضل دعوة ذي النون:

نقل الإمام ابن كثير أيضًا في تفسيره من مسند الإمام أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص وعثمان بن عفان رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «دعوة ذي النون إذ هو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها مسلم ربَّه في شيء قط إلا استجيب له».

٣- دعوة يونس له ولجميع المسلمين:

وروى ابن جرير بسنده إلى سعيد بن المسيب قال: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اسم الله الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن متى». قال: قلت: يا رسول الله، هي ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين ؟ قال: «هي ليونس بن متى خاصة ولجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله عز وجل: «فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ»، فهو شرط من الله لمن دعاه به».

الكلمة السابعة: «فَلَوْلاَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» أي: فلولا ما تقدم له من كثرة العبادة والعمل الصالح قبل وقوعه في بطن الحوت، وتسبيحه أيضًا ولجوءه إلى الله بالذكر والدعاء حال وقوعه في بطن الحوت لمكث في بطن الحوت وصار له قبرًا إلى يوم البعث المعلوم، بل لاختلطت عظامه بعظام الحوت ولحمه بلحم الحوت ودماؤه بدماء الحوت حيث يهضمه الحوت ويصير أثرًا بعد عين، (يا سبحان الله)، ولكنه (سبحانه) أوحى إلى الحوت ألا يكسر له عظمًا، وألا يهضم له لحمًا، وأمره في النهاية أن يلفظه على الشاطئ كما التقمه من البحر، فالحوت جند من جند الله كما أن الريح والماء والنار والسماوات والأرض والجبال من جند الله وكلها تسبِّح بحمده ولكن لا نفقه تسبيحهم.

فاعرف ربك في الرخاء والجأ إليه عند البلاء يُنْجِك من كل كرب يقع بك، والمولى سبحانه وتعالى قد وعد بذلك ووعده حق، وبذلك أيضًا أخبر النبيُّ ﷺ من سأله، فقال ﷺ: «هي ليونس بن متى خاصة، ولجماعة المؤمنين عامة إذا دعوا بها». فادع الله وأنت على يقين كما فعل يونس عليه السلام، وهو في أعماق البحر وبطن الحوت يعلم أن الله يسمعه ويراه كما كان مع موسى وهارون يسمع ويرى، وكما كان مع إبراهيم ونوح ومحمد وسائر النبيين وسائر عباده المخلصين، ألم يستجب لقوم يونس حين تضرعوا؟

الكلمة الثامنة: «فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا...»:

لولا هنا هي بمعنى «هلا» التي تأتي للتحْضيض كما قال الأخفش والكسائي وغيرهما، ومما يؤكد هذا المعنى أنها جاءت في مصحف أُبي بن كعب وابن مسعود «فهلا قرية»، والمقصود هو توبيخ القرى التي أهلكها الله قبل قوم يونس بسبب عدم إيمانهم، أما قوم يونس فقد آمنوا فنجوا، قال تعالى: «فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [الأنعام: ٤٣].

نعوذ بالله من غضبه وعقابه وشر عباده، آمين، وإلى لقاء.

هامش

١- وهذا الحديث فيه إخبار بأمور لا تكون إلا بوحي فيتأكد رفعه. (والله أعلم).

القصة في كتاب الله

يونس «عليه السلام»

الحمد لله الذي وسع كل شيء رحمة وعلمًا، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة والنعمة المسداة محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

حقيقة نحن الآن أمام تحدٍ كبير، والتحدي الذي أقصده يكمن في كثرة الفوائد المستخلصة والعبر المستفادة من قصة النبي الكريم يونس عليه السلام، والتي نريد أن نجملها ونوردها في هذا اللقاء، مع قصره فأدعو الله أن يوفقني لحسن الاختيار والسداد في القول، آمين.

ولنشرع وبالله العون والتوفيق:

أولاً: وطن الدعوة

ونبدأ بسؤال: ما وطن الدعوة؟ وهل للدعوة وطن؟

والإجابة أن الأرض لله والخلق عبيد الله، والأنبياء رسل الله، فحيث ما أمرهم نفذوا أمره وبلغوا دعوته، فإن من القواعد المقررة شرعًا أن محبة الله مقدمة على محبة الأهل والمال والوطن، وطاعةُ الله مقدمة على كل طاعة، هذا في حق آحاد المؤمنين فكيف بالنبيين والمرسلين؟

فالرسل والأنبياء برآء من التعصب المقيت لقومية أو وطنية، بل هي دعوى الجاهلية وليست دعوة الرسل ومنهم يونس عليه السلام، فقد نفذ أمر الله وذهب لأهل نينوي بالموصل بأرض العراق خلافًا لما ادعاه اليهود، نَعم يونس عليه السلام من بني إسرائيل ومولده بالشام لكنه لم يخالف أمر الله وليس من شيمته ذلك، وليس هو أول نبي يفعل ذلك؛ فموسى عليه السلام أول أنبياء بني إسرائيل لم يدع بني إسرائيل فحسب، بل دعا فرعون وقومه من أهل مصر وسليمان بن داود عليهما السلام، وهو من أشهر أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى، دعا ملكة سبأ باليمن وأسلمت لله على يديه، والقصة معروفة.

هذا بخصوص الأنبياء والمرسلين قبل نبينا محمد ﷺ، أما نبينا محمد ﷺ فهو خاتم النبيين ورسول الله للعالمين، وهو القائل: «كان كل نبي يُبعث لقومه خاصة، وبعثت للناس كافة». (ولا تنفي هذه الخصوصية أن يدعو غيرهم كما بينا في قصة موسى عليه السلام).

ومصداق ذلك في كتاب الله تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ» (سبا: ٢٨)، والآيات والأحاديث في هذا يطول بيانها، وليس هذا مكانه ولا أوانه.

ثانيًا: المعبود واحد - سبحانه - والرسل إخوة والأمة واحدة

وتأسيسًا على ما تقدم، يتضح الآتي:

١- الله سبحانه وتعالى هو الذي أرسل جميع الرسل وأنزل جميع الكتب.

٢- الإيمان بجميع الرسل وبجميع الكتب واجب، والكفر بواحد منهم كفر بالمرسِل - سبحانه -.

٣- قد قص الله علينا من خبرهم في كتابه ما قصَّ، نؤمن به تفصيلاً، وهناك رسل لم يقصصهم علينا نؤمن بهم إجمالاً، ولا نفرِّق بين أحد من رسله.

٤- الله - سبحانه - قص علينا في كتابه مسيرة الرسل والأنبياء ثم عقب بقوله - سبحانه -: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» (الأنبياء: ٩٢).

ثالثًا: سفينة النجاة

عندما استقر يونس في بطن الحوت نادى من الأعماق، «أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ»، وكان على يقين أن الله سيسمعه كما

الحلقة الخامسة

«خلاصة المستفاد من قصة يونس عليه السلام»

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

سمع دعاء أبيه إبراهيم من قبل وهو يُلقَى في النار، وكما سمع لنوح ولوط وأيوب وزكريا ومريم وغيرهم، كما كان على يقين أن الله منجيه كما أنجاهم، وقد استجاب الله له ونجاه، وقال: «وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ» من السابقين واللاحقين، ولذلك قال خاتم النبيين: «دعوة ذي النون لم يدع بها مسلم ربَّه في شيء إلا استجيب له». فإذا ألمَّ بك مكروه فالجأ إلى من يجيب المضطر إذا دعاه واسلك سبيل النجاة.

رابعًا: إثبات السمع والبصر لله

في قصة الحوت دليل قوي على إثبات السمع لله، وإثبات البصر له - سبحانه - وإحاطة سمعه بجميع المسموعات، وإحاطة بصره بجميع المرئيات، وله سبحانه جنود السماوات والأرض، فالحيتان في أعماق البحر من جنده، والطير في أجواء الفضاء من جنده، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته.

خامسًا: الصبر زاد الدعوة

الصبر زاد الدعوة وروحها وقوامها، والسكينة والوقار سمت الدعاة والمصلحين، ويتفاضل الأنبياء بالصبر في دعوتهم وأعظمهم صبرًا أولو العزم منهم، ولنبينا ﷺ المقام الأعلى، لذا فهو صاحب الشفاعة العظمى، ومن هنا أمره الله ألا يكون كصاحب الحوت في ضعف صبره وعجلته على قومه، قال تعالى: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ» الآية.

نزلت مرتبة صاحب الحوت في الصبر عن منزلة أولي العزم من الرسل، وبهذا أوخذ، والله أعلم.

سادسًا: قوم يونس (أمة عظيمة) ويونس نبي كريم

أثنى الله - سبحانه وتعالى - عليهم لتوبتهم من عنادهم ولجوئهم إلى الله، «فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (الأنعام: ٤٣)، وقال تعالى: «فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ» (يونس: ٩٨)، هذا في حق الأمم غير قوم يونس. أما قوم يونس فآمنوا وبادروا بالتوبة قبل نزول العذاب عند أول علاماته وكانت أول علامات العذاب عندهم خروج يونس عليه السلام من بين ظهرانيهم، وقد كان معلومًا عندهم أن خروج النبي علامة على إتيان العذاب لا محالة، فبادروا بالتوبة والإنابة فقبل الله توبتهم وكشف عنهم العذاب في الدنيا ومتعهم بحياة طيبة لمَّا كانوا على الإيمان، وأعاد لهم نبيهم يونس معززًا مكرمًا معلمًا ومرشدًا فعاش بينهم حتى توفاه الله وهو بين قومه، ونتعلم من هذا الموقف:

١- سعة رحمة الله بعباده وقبوله توبة التائب حتى ولو كان كافرًا وتاب من كفره.

٢- كرامة يونس على ربه حيث نجاه من الظلمات الثلاث وأنبت عليه شجرة من يقطين، وحتى عجلته على قومه كانت من أسباب سرعة توبتهم.

٣- كانت أمة يونس أمة عظيمة في عددها فمائة ألف وزيادة في ذلك الزمن عدد كبير، وهي كذلك أمة عظيمة في أخلاقها حيث بادرت بالتوبة، وهي أيضًا عظيمة في حضارتها في ذلك الزمن القديم.

٤- قبول التوبة يكون قبل معاينة العذاب، وليس بعد وقوعه، وهذا الذي حدث لقوم يونس عليه السلام.

سابعًا: سر اليقطين

تحدث بعض الباحثين حول سبب اختيار المولى - سبحانه - لشجرة اليقطين ينبتها على عبده يونس وهو سقيم، فذكروا فوائد لهذا النبات منها:

- سرعة نموه، وظل أوراقه ونعومتها وكبرها فكانت كالمهد، وطردها للحشرات وبخاصة الذباب، وتحدثوا عن فوائد ثمره الذي يزيل العطش ويبعث الحيوية في الكبد والكلى والبدن عمومًا، واستأنسوا في ذلك بحب رسول الله ﷺ لثمر اليقطين كما صح الخبر بذلك، وهذه جهود مشكورة، لكن تبقى الحكمة العليا يختص بها العليم الحكيم، وما علمناه فهو نزر يسير، وأرجو أن ينفعني الله وإياكم بهذا الذي ذكرناه، وأحسب أن ما سكتنا عنه لا يضرنا سكوتنا عنه، وفقنا الله لحسن القول وإحسان العمل، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

وإلى لقاء جديد بإذن الله تعالى.

القصة في كتاب الله

زكريا

«عليه السلام»

ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا

١. تمهيد

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الذي وهب إبراهيم على الكبر إسماعيل وإسحاق إنه سبحانه سميع الدعاء، استجاب دعاء زكريا ووهبه غلامًا تقيًا اسمه يحيى، ولم يجعل له من قبل سميًا، ووهب مريم غلامًا زكيًا من غير زوج ولم تك بغيًا.

أخي الحبيب: لا نزال معًا نتابع الحديث عن أنبياء بني إسرائيل، وموعدنا اليوم مع نبي الله زكريا الذي نادى ربه نداءً خفيًا أن يرزقه غلامًا رضيًا بعد أن وهن عظمه، وزاد شيبه، وكانت امرأته عاقرًا، فاستجاب الله له ووهبه يحيى وأصلح له زوجه، وسنعود للوقوف مع ذلك كله بشيء من التفصيل والتحليل، لكني أردت الآن أن أقدِّم بمقدمة أراها ضرورية، وهذه التقدمة ستدور بحول الله وقوته حول الآتي:

أولاً: ذكره في القرآن الكريم:

جاء اسم نبي الله زكريا صريحًا في سبع مواضع ؛ ثلاث منها في سورة آل عمران في قوله تعالى: «وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ» الآية ٣٧، وفي قوله تعالى: «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ» الآية ٣٨.

واثنان في سورة مريم في قوله تعالى: «ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا» الآية ٢، وفي قوله تعالى: «يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ» الآية رقم ٧، وفي الأنعام في موضع عند قوله تعالى: «وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ» الآية ٨٥، وجاء في سورة الأنبياء أيضًا في موضع واحد في قوله تعالى: «وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا» [الأنبياء: ٢١].

هذا، وقد جاء ذكر قصته بشيء من التفصيل في سورتي آل عمران ومريم مقرونًا بذكر يحيى ومريم وعيسى عليهم جميعًا السلام، وجاء ذكره بشيء من الاختصار في موكب الأنبياء في سورة الأنبياء، وجاء ذكر اسمه فقط مع إخوانه النبيين في سورة الأنعام.

ثانيًا: اسمه ونسبه ومكانته:

«هو زكريا بن برخيا بن مسلم بن صدوق، يتصل نسبه بسليمان بن داود، عليهم السلام». ذكره ابن كثير، وقال صاحب بصائر ذوي التمييز: «أرسله الله تعالى إلى بني إسرائيل، وكان عالمًا بالتوراة

والإنجيل، وكان إمام علماء بيت المقدس ومقدمهم». (جـ٦)، «وهو من أواخر أنبياء بني إسرائيل، وقد اجتمع هو ويحيى وعيسى في عصر واحد». [من كتاب اليهود في السنة (١ / ١٢٩)، بحث مقدم لجامعة الإمام محمد بن سعود].

ثالثًا: حِرْفَتُه:

كان زكريا عليه السلام كغيره من الأنبياء والصالحين حريصًا على ألا يأكل إلا من عمل يده، وكان يحترف التجارة ولم تمنعه مكانته العلمية ونبوته من ذلك، وليس في عمله بيده ما يسقط المروءة، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كان زكرياءُ نجارًا».

قال الإمام النووي تعليقًا على هذا الحديث في «شرح صحيح مسلم»:

١- فيه: جواز الصنائع (أي اتخاذ الحرفة والصنعة)، وأن التجارة لا تسقط المروءة، وأنها صنعة فاضلة، وهذا لا يتنافى مع طلب العلم أو بذله.

٢- وفيه: فضيلة لزكرياء - عليه السلام - فإنه كان صانعًا يأكل من كسبه، وقد ثبت قوله صلى الله عليه وسلم: «أفضل ما أكل الرجل من كسبه، وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده». والحديث صحيح، ذكره العلامة الألباني - رحمه الله - في صحيح الجامع برقم (٥٥٤٦) بلفظ: «ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده». فكان زكريا متأسيًا بجدِّه الأول.

٣- ويواصل الإمام النووي - رحمه الله - تعليقه فيقول: وفي زكرياء خمس لغات: «المد: زكرياء، والقصر: زكريا، وزكري بالتشديد والتخفيف، وزكر كعلَم». اهـ.

ويقول مقيده - عفا الله عنه -: يا ليت شباب اليوم يتعلَّمون ويعلمون شرف العمل اليدوي والحرفي، وأنه خير لهم من البطالة الحقيقية أو المقنعة.

رابعًا: العلاقة بين زكريا ويحيى ومريم وعيسى ابن مريم:

المتتبع لآي القرآن الكريم في سورتي «آل عمران، ومريم» يلاحظ الارتباط الوثيق الذي يصل إلى حدِّ التداخل والتحاور بين قصة زكريا ويحيى ومريم وعيسى، عليهم جميعًا السلام، فما سرُّ ذلك؟

والإجابة تكون في النقاط الآتية - والله أعلم -:

١- كانت أشياع بنت عمران أخت مريم بنت عمران، وهذا قول الجمهور، وقد صرح به رسول الله ﷺ كما جاء في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه، وهو حديث طويل، وفيه قوله ﷺ: «ثم عُرج بي إلى السماء الثانية، وإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا، فرحبا بي ودعوا لي بخير».

٢- كانت كفالة مريم لزكريا - عليه السلام - بعد موت أبيها بحكم عمله في الهيكل، ولوجود أختها تحته، ثم إن الله - سبحانه - هو الذي اختار ذلك واقرأ إن شئت قوله تعالى إجابة لدعوة مريم: «فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا» [آل عمران: ٣٧١].

أي أن الله سبحانه اختار زكريا لكفالتها لعلمه - سبحانه - بصلاح زكريا لهذا العمل ولحكم قد نعلم بعضها ويغيب عنا الكثير منها.

قال قتادة - رحمه الله -: «كانت مريم ابنة سيد الأحبار وإمامهم فتشاحوا على كفالتها فألقوا القرعة بسهامهم أيهم يكفلها». اهـ.

ومصداق ذلك قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ» [آل عمران: ٤٤].

٣- وشاء الله أن يتعاصر الأنبياء الثلاثة زكريا ويحيى وعيسى في الدنيا، وكذا اجتمع يحيى وعيسى في الآخرة.

٤- وقد كان مصيرهم واحد، ألا وهو القتل، فقتل اليهود يحيى، وقتلوا زكريا، وحاولوا قتل عيسى، لكن الله رفعه إليه، ولم يمكِّنهم منه، وقد ردَّ عليهم الله - سبحانه وتعالى - حين ادعوا قتله، فقال سبحانه: «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ» [النساء: ١٥٧].

٥- ولعل هذه أهم نقطة ألا وهي وجود الإعجاز في ولادة يحيى وعيسى عليهما السلام، فلقد بلغ زكريا من الكبر عتيًا، ووهن العظم منه واشتعل الرأس شيبًا وكانت امرأته عاقرًا لا تلد، فأصلح الله زوج زكريا، وهيأها للإنجاب، فكان يحيى قبل أن يولد في حكم العدم، فقال الله: كن فكان، كما قال لعيسى عليه السلام: كن فكان: «إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [مريم: ٣٥]، فالله - سبحانه وتعالى - يخلق ما يشاء ويختار بالأسباب الظاهرة وغير الظاهرة، بالأسباب التي نعلمها وبغيرها، ولكن يبرز هنا سؤال: لماذا لم يلتفت القوم للعجيب في قصة يحيى كما التفتوا للعجيب في قصة عيسى؟ ذلك لأن الشيطان سوَّل لهم وأملى لهم، ولأن شياطين الإنس من اليهود كانوا من وراء هذا الكذب والبهتان؛ لأنهم قوم كفروا بالله ورسله، وقد لعنهم الله على لسان رسله بكفرهم، وكذبهم، واقرأ إن شئت قول الله تعالى فيهم: «فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا» [النساء: ١٥٥، ١٥٦].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى، فإلى لقاء.

زكريا

«عليه السلام»

«ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا»

القصة في كتاب الله

الحمد لله، مالك الملك، مدبر الأمر، مجيب دعاء المضطر إذا دعاه وكاشف السوء، والصلاة والسلام على خير من دعا ربه سرًا وجهارًا ليلاً ونهارًا. أما بعد:

فأخي القارئ الكريم: نواصل معك الحديث عن قصة زكريا (عليه السلام)، وقد لخصها القرآن الكريم في الآيتين التاليتين:

يقول الله تعالى: «وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ» [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

وسنقف بعون الله مع هاتين الآيتين من خلال تفصيل القرآن للقصة في سورتي آل عمران ومريم في الوقفات التالية:

أولاً: لماذا دعا زكريا ربه؟

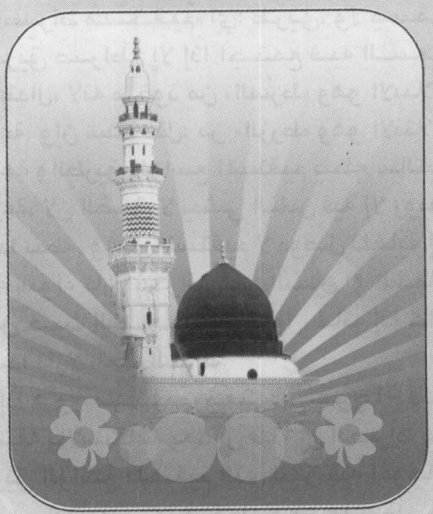

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: اذكر حال زكريا إذ نادى ربه.

بم توجه زكريا إلى ربه في دعائه؟

الجواب: طلب من ربه الولد، لماذا طلب الولد؟ لأنه يريد الذي يرثه في تبليغ الدعوة إلى الله بعد أن كبرت سنه ووهن عظمه وامرأته عاقر لا تلد، وقد عانى معاناة شديدة مع بني إسرائيل، ويعلم تعنتهم ويخشى على شريعة الله من المحرِّفين والمضللين من اليهود، فقد كان عليه السلام مشغولاً بأمر الدعوة، قال تعالى موضحًا ذلك في سورة مريم: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا» [مريم: ٤، ٥].

وقد أخطأ من ظن أن زكريا عليه السلام كان يريد من يرث ماله، وإنما أراد عليه السلام وراثة النبوة والدعوة، والأدلة على ذلك كثيرة.

منها:

١- أنه قال: يرثني ويرث من آل يعقوب وميراث آل يعقوب لا يكون إلا النبوة.

٢- كان زكريا - عليه السلام - يعلم أن اليهود تسوسهم الأنبياء ؛ كلما مات نبي قام نبي، ومع ذلك لم يسلم الأنبياء من أذى بني إسرائيل، وقد وصل الأذى إلى القتل.

٣- كان زكريا - عليه السلام - نجارًا يحصِّل رزقه يومًا بيوم ولم يكن من الأثرياء، ولا أصحاب الأموال، ولم يكن يملك العقارات ولا الضياع والمزارع.

٤- جاء في الصحاح عن النبي ﷺ قوله: «لا نُورث، ما تركناه صدقة».

وقد جاء في رواية عند الترمذي بالجمع: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث».

٥- أن الدنيا كانت أحقر عند الأنبياء من أن يكنزوا لها أو يغتموا لها، وكما قدمنا كان شغل زكريا عليه السلام الشاغل هو الدعوة إلى الله واستمرارها، ولذا سأل الله الولد. هذا والله أعلم.

ثانيًا: كيف دعا زكريا ربه؟

قال تعالى: «ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا» [مريم: ٢، ٣].

هذا ذكر أو اذكر أيها النبي إذ رحم ربك عبده زكريا باستجابة دعائه الخفي، وهذا مثل قوله تعالى المتقدم في الأنبياء: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ». وفي الأنبياء جاء ذكر الاستجابة بعد ذكر الدعاء، لكن هنا قدم الاستجابة مقرونة بالرحمة على الدعاء، وكأن في ذلك إشارة إلى سرعة الاستجابة مقرونة برحمة رب العالمين عبده زكريا الذي دعاه دعاءً خفيًا، مظهرًا ضعفه وقلة حيلته وتمام فقره لرحمة رب العالمين، ولعل في ذلك إشارة إلى حالة اليقين وحسن الظن التي صاحبت الدعاء، ولذا جعله زكريا خفيًا ليقينه أن الله يسمع ويرى، ولذلك نصَّ القرآن على كيفية الدعاء، فقال تعالى: «إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا» قال قتادة في تفسيرها: «إن الله يعلم القلب النقي ويسمع الصوت الخفي»، وفي ذلك إشارة إلى فضل الدعاء الخفي.

ولقد عقد شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فصلاً في مجموع الفتاوى (ج١٥ ص١٥-٢١) بيَّن فيه فضل الدعاء الخفي، نقل فيه عن الحسن - رحمه الله - قوله: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا». اهـ. وانتهى شيخ الإسلام إلى بيان فضل دعاء السر وأن فيه زيادة إيمان وحسن ظن بالله وحسن يقين، وفيه أدب المناجاة مع الله، ولولا خشية الإطالة لنقلتُ كلامه كاملاً، ومن أراد فليرجع إليه في مكانه، لكن هذا لا يمنع التضرُّع في الدعاء والجهر به، فقد صح عن النبي ﷺ التضرع بالدعاء والجهر به في مناسبات عدَّة، وللجهر بالدعاء أحوال وللإسرار به أحوال فليكن المسلم على ذكر من ذلك، وعليه مراعاة مقتضى الحال، لكن لا بد أن وراء هذا الدعاء الخفي وحالة اليقين التي صاحبته ظرفًا لابسه، فما هو؟

وهذا يجعلنا نذهب إلى ظرف الدعاء وزمانه.

ثالثًا: متى دعا زكريا ربه؟ وأين؟

قال الله تعالى: «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ» [آل عمران: ٣٨]، هنالك أي عندما دخل على مريم في محرابها وهي تتعبد لربها منقطعة لذلك متبتلة، وكان التبتل والانقطاع للعبادة مستساغًا عندهم، وكان زكريا بحكم كفالته لمريم يتابع شؤونها فكلما دخل عليها محرابها وجد عندها طعامًا وفاكهة لا يعلم مصدرها فسألها أنى لك هذا؟

قال تعالى: «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» [آل عمران: ٣٧]، «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ».

قال صاحب التحرير والتنوير: «أي في ذلك المكان، قبل أن يخرج، وقد نبَّهه وهيجه إلى الدعاء مشاهدة خوارق العادة عند مريم مع قولها: «إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

والحكمة ضالة المؤمن، وأهل النفوس الزكية يعتبرون بما يرون ويسمعون، فلذلك عمد إلى الدعاء بطلب الولد في غير إبَّانه، وقد كان في مكان شهد فيه فيضًا إلهيًا.

ثم يواصل قوله: «ومشاهدة خوارق العادات خولت لزكريا الدعاء بما هو من الخوارق أو المستبعدات، لأنه رأى نفسه غير بعيد عن عناية الله تعالى، لا سيما في زمن الفيوض الإلهية أو مكانها». اهـ.

ولا شك أن الدعاء إذا صادف حضور القلب وإقبال صاحبه على ربه مع وقت من أوقات الإجابة أو مكانها وخرج من نفس زكية فلا يكاد يُرد، فما بالك لو تصادف ذلك كله مع خروجه من نبيٍّ وهو زكريا فهل تراه يرد؟ كلا، ومن هنا جاءت الإجابة سريعة، وجاءت البشرى على لسان الملائكة مقرونة بالفاء التي تدل على سرعة الاستجابة: «فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى» [آل عمران: ٣٩].

فهو - عليه السلام - لم يكد يفرغ من صلاته ودعائه حتى نادته الملائكة لتبشره بمطلوبه، وكما قال تعالى في سورة الأنبياء: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ»، فقد كان لزكريا وزوجه صلة حسنة بالله، وكانا من المداومين على الطاعة المسارعين إليها ومن المخبتين المقبلين على الله.

قال تعالى: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ».

أسأل الله تعالى أن يحشرنا وإياكم مع هؤلاء، وإلى لقاء قريب بعون الله.

القصة في كتاب الله

زكريا

«عليه السلام»

الحلقة الثالثة

«ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا»

[مريم: ٢- ٣]

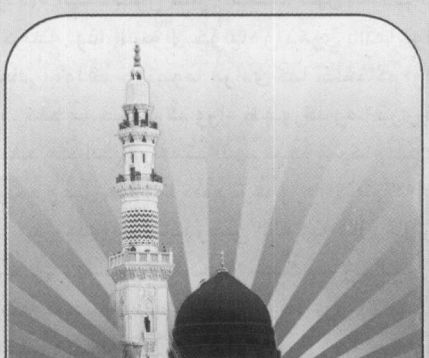

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله فالق الإصباح وجعل الليل سكنًا والشمس والقمر حسبانًا ذلك تقدير العزيز العليم، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، أما بعد:

فمرَّ بنا الحديث عن دعاء نبي الله زكريا وكيف توجه إلى ربِّه ومتى؟ ولماذا؟ ومن تأمل قصة هذا النبيِّ الكريم يجد:

أولا: الدعاء قضية محورية فيها، ففي جميع المواضع التي ذكرت فيها القصة في كتاب الله نلاحظ هذا:

□ ففي سورة مريم، قال تعالى: «ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا» الآيتان: ٢، ٣، ثم فصلت الآيات بعد ذلك ماذا أسرَّ نبي الله زكريا في نفسه في مناجاته لربه.

□ وفي سورة آل عمران قال تعالى: «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ» [٣٨]، ثم بينت الآيات ماذا قال وماذا ترتب على الدعاء، وكذلك في سورة الأنبياء «وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ» [٨٩].

وهكذا فإنك ترى قصة زكريا محورها الدعاء وكيفيته وماذا ترتب عليه. وقدمنا في اللقاء السابق الدعاء وكيفيته وجانبًا من آدابه.

ثانيًا: ثمرات الدعاء:

ولا تظن بذلك أننا نبالغ، كلا وربي، فالدعاء هو العبادة وهو الدواء لجميع الأدواء وبخاصة عند انعدام الأسباب الأخرى أو ضعفها، وانظر حال النبي ﷺ يوم بدر وهو يرى ضعف الأسباب المادية، أمام قوة العدو المادية فلم يكن أمامه بعد أن أعد ما استطاع إلا التوجه والضراعة إلى من بيده الملك والملكوت والذي قال له: «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى»، وكانت حالة زكريا من هذا القبيل، فهو قد بلغ من الكبر عتيًا وامرأته عاقر فتوجه بدعائه ملتمسًا ما عند الله راجيًا ألا يرده ربه صفرًا: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا» [مريم: ٤- ٦].

وزكريا عليه السلام لم يقل ذلك بلسان المقال، ولكنه قاله بلسان الحال؛ لأن دعاءه كان خفيًا، لكن الله العلي علم الدعاء الخفي من صاحب القلب النقي فأجابه إلى طلبه بأسرع ما يتوقع، وبأفضل مما طلب، انظر معي

أخي الكريم في الآيات الكريمة التالية وتأمل ما فيها، قال تعالى: «يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا» [مريم: ٧]، وقال تعالى: «يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا» [مريم: ١٢]، وقال تعالى: «فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» [آل عمران: ٣٩].

تأمل كيف أجابه الله إلى مطلوبه بسرعة وبأكثر مما طلب، فقد سماه الله بحيى ولم يجعل له من قبل سميًا وآتاه الحكم صبيًا وسيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين، على درجة عالية من الزهد في الدنيا والنساء، وإمامًا في الصلاح والتقى، وسنأتي للحديث عن ذلك عندما نتحدث عن يحيى عليه السلام، لكن الملاحظ سرعة الاستجابة، وكمالها لدرجة اندهش معها زكريا، كما أن إتيان الإجابة على هذا النحو وبهذه الصفات المصاحبة للمولود يؤكد صحة قول من ذهب إلى أن الميراث الذي كان يقصده زكريا في دعائه هو ميراث النبوة والحكمة، وبهذا أجابه الذي يعلم السر وأخفى.

ثالثًا: قال تعالى: «قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا» [مريم: ٨].

وقال تعالى: «قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ» [آل عمران: ٤٠].

ذكرنا أن سرعة إجابة دعاء زكريا وورود الإجابة على هذا الوصف الذي كان يطلبه زكريا ويتمناه بل أفضل جعل زكريا عليه السلام في دهشة من أمره، أو قل: إنه رأى نفسه أهون على الله من ذلك، وهذا من باب التواضع، وهذا ما ذهب إليه جمع من المفسرين، وقال صاحب التحرير والتنوير: «أنى» استفهام مستعمل في التعجب، والتعجب مكنى به عن الشكر، فهو اعتراف بأنها عطية عزيزة غير مألوفة. اهـ.

فهو يرى أن التعجب هنا كناية عن الشكر والذي عليه جمهور المفسرين أن «أنى» بمعنى «كيف»، فزكريا عليه السلام يسأل عن الكيفية التي سيرزق بها الولد وهو على ما هو عليه من كبر السن ووهن العظم وامرأته لا تلد ؟ هل سيتزوج بأخرى أم سيرزق الولد من زوجته هذه ؟ قال: لا، بل سترزق الولد من زوجتك هذه وليس من أخرى، وهذا أمر على الله هيِّن، والله سبحانه يفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء ويختار، قال تعالى: «قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ» [آل عمران: ٤٠]، وقال تعالى: «قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا» [مريم: ٩].

فالله سبحانه وتعالى له القدرة المطلقة والمشيئة النافذة لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، «إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» [مريم: ٣٥].

رابعًا: وقد جاء تعليل الإجابة في سورة الأنبياء بقوله تعالى: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ» [الأنبياء: ٩٠].

نقل ابن كثير في تفسيره لهذه الآية عن ابن أبي حاتم بسنده إلى عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر - رضي الله عنه - ثم قال: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله وتثنوا عليه بما هو له أهل وتخلطوا الرهبة بالرغبة وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ».

وسواء كان هذا الثناء خاصاً بزكريا وآل بيته أم بجميع الأنبياء المذكورين من قبل، فإن زكريا وآل بيته داخلون فيه ولا شك، وفي هذا دليل على أن من عرف الله في الرخاء عرفه الله في الشدّة، وأن الله إنما يتقبل من المتقين، ولما كانت زوجه من الخاشعات لله قلبًا أصلحها قالبًا فجعلها محلاً لكرامته وهيأها لحمل نبي من أنبياء الله الكرام سيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين.

خامسًا: من أهم الدروس المستفادة:

أهم الدروس المستفادة من قصة زكريا هو الدعاء ومكانته وأهميته وآدابه وثمرته.

يقول ابن القيم - رحمه الله - في الداء والدواء: «والدعاء من أنفع الأدوية وهو عدو البلاء، يدافعه ويعالجه، ويمنع نزوله ويرفعه أو يخففه إذا نزل، وهو سلاح المؤمن». اهـ.

وذكر حديثًا رواه الحاكم من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين ونور السماوات والأرض». والحديث ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم (١٧٩).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل». هذا هو الدعاء وهذه مكانته، وكم نحن بحاجة إليه في دفع ضرٍّ أو جلب نفع لا يملك دفعه وجلبه إلا الله، لكن يبقى السؤال: أين القلب التقي والداعي النقي، أين الذين يدعون ربهم رغبًا ورهبًا ويسارعون في الخيرات وهم خاشعون ؟

أسأل الله بمنه وكرمه أن يجعلني وإياكم منهم، آمين.

القصة في كتاب الله

يحيى

«عليه السلام»

«يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا»

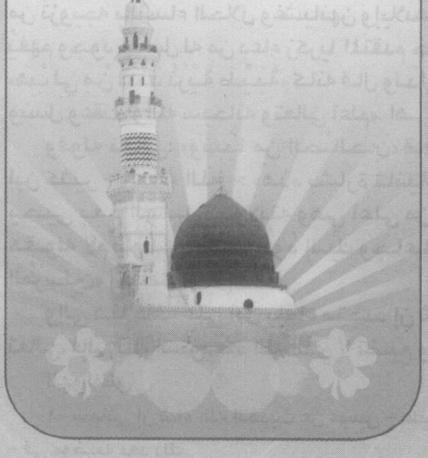

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

١- مكانة يحيى ومنزلته وصفاته:

الحمد لله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والشافع المشفع يوم الدين وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

أخي القارئ الكريم: لعلك على ذكْرٍ من حديثنا في لقاءات سابقة عن نبي الله زكريا عليه السلام، وهناك أشرنا إلى البشارة بيحيى عليه السلام استجابة لدعاء زكريا ومناداته ربه نداءً خفيًا وكان على يقين أنه لن يكون بدعاء ربه شقيًا، فاستجاب الله لزكريا وأصلح له زوجه ووهبه يحيى ولم يجعل له من قبل سميًا، وهو نبي من أنبياء بني إسرائيل عاصر أباه وابن خالته عيسى عليهم جميعًا السلام، سماه الله يحيى ليحيى ذكره في نفوس المؤمنين، وزاده بركة وتقى، وجعله سيدًا على أهل زمانه، وحصر همته في طاعته، وقصر هواه في عبادته، ولم يجعل له في النساء رغبة مع قدرته على إتيانهن في الحلال، وقد زوده الله بالعلم والتقوى منذ نعومة أظفاره، ووصفه بأوصاف جمعت شُعب الإيمان، نقف معها إن شاء الله من خلال وصف آيات القرآن.

قال الله تعالى: «يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا» [مريم: ١٢ - ١٥].

وقال تعالى: «أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» [آل عمران: ٣٩].

ولنا مع الآيات السابقة الوقفات التالية:

الأولى: في قوله تعالى: «يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا».

قال ابن كثير - رحمه الله -: يخبر تعالى عن وجود الولد، وفق البشارة الإلهية لأبيه زكريا - عليه السلام - وأن الله علم يحيى الكتاب والحكمة وهو صغير في حال صباه.

قال عبد الله بن المبارك - رحمه الله -: قال معمر: قال الصبيان ليحيى بن زكريا: اذهب بنا نلعب، فقال: ما للعب خُلقنا. قال: وذلك قوله: «وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا». والكتاب المقصود هو التوراة.

الثانية: وأما قوله: «وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا» أي: رحمة من عندنا رحمنا بها زكريا. ذكره ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك وعكرمة. وعن عكرمة أيضًا قال: «وحنانًا من لدنا» أي: محبة عليهم، وهي صفة لتحنن يحيى على الناس ولا سيما أبويه، بمحبتهما والشفقة عليهما وبره بهما.

الثالثة: في قوله تعالى: «وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣)

وَبَرًا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا»، وأما «الزكاة» فهي طهارة الخُلُق، وسلامته من النقائص والرذائل.

و«التقوى» هي طاعة الله ؛ بامتثال أوامره وترك زواجره.

«وَبَرًا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا» الإحسان إلى الوالدين وطاعتهما وترك عقوقهما قولاً وفعلاً، ولم يكن متجبرًا على خلق الله ولا عصيًا لأوامره (سبحانه) ولا لوالديه.

الرابعة: في قوله تعالى: «وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا». قال ابن كثير: هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان ؛ فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر فيفقد الأول بعد ما كان ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر، ولا يدري ما بين يديه؛ ولهذا يستهل صارخًا إذا خرج من بين الأحشاء وفارقها وانتقل إلى هذه الدار ؛ ليكابد همومها وغمها.

وكذلك إذا فارق هذه الدار، وانتقل إلى عالم البرزخ وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور. قال: ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون على ابن آدم سلَّم الله على يحيى في كل مَوْطِن منها». اهـ مختصرًا.

ثم نقل الإمام ابن كثير - رحمه الله - الأثر الذي أخرجه الطبري برقم (٢٣٥٦٩) عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى التقيا، فقال له عيسى: استغفر لي ؛ أنت خير مني. فقال له يحيى: استغفر لي ؛ أنت خير مني. فقال له عيسى: أنت خير مني سلَّمت على نفسي وسلم الله عليك. فعُرف واللهُ فضلُهما. اهـ.

وهذا الأثر لو صحَّ لعله من تواضع عيسى - عليه السلام - لأن عيسى من أولي العزم وما أدراك من هم؟ أما عن فضل عيسى ومنزلته فليس المجال هنا لبيانها وسيأتي(١).

أو لعل هذا الأثر فيه إشارة إلى مكانة يحيى بين الأنبياء من معاصريه والله تعالى أعلم، أو لبيان شرف تسليم الله عليه في هذه المواضع الثلاثة.

الخامسة: مع قوله تعالى: «وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ». جاءت البشارة لزكريا على لسان الملائكة أن الله يبشره بيحيى مصدقًا بكلمة من الله وهو عيسى عليه السلام وسمي كذلك لأن الله خلقه بكلمة «كن» بغير الطريقة التي اعتادها الناس وسيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن قصة عيسى عليه السلام، أما صفات يحيى عليه السلام «سيدًا»، وخلاصة أقوال أهل العلم في ذلك أنه الذي يسود قومه حلمًا وكرمًا وتقوى، أما قوله تعالى: «حصورًا»، والحصور أي: المحصور عن إتيان النساء إما لعدم القدرة على ذلك، أو لأنه يكفّ نفسه، وهنا لا بد من تفصيل، وإليكم ذلك:

١- لخص الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله القول فقال: «وحصورًا» أي: ممنوعًا عن إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغالاً بعبادة ربه وطاعته». اهـ.

٢- أما الإمام القرطبي - رحمه الله - فقد نقل أقوال المفسرين في معنى «حصورًا»، ثم عقَّب قائلاً: «وقال ابن مسعود أيضًا وابن عباس وابن جبير وقتادة وعطاء وأبو الشعثاء والحسن والسدي وابن زيد: هو الذي يكفُّ عن النساء ولا يقربهن مع القدرة».

ثم قال رحمه الله: وهذا أصحُّ الأقوال لوجهين:

أحدهما: أنه مدحٌ وثناءٌ على يحيى، والثناء إنما يكون على الفعل المكتسب دون الجبلَّة في الغالب.

والوجه الثاني أن فعولاً في اللغة من صيغ الفاعلين؛ فالمعنى أنه يحصر نفسه عن الشهوات». اهـ.

يقصد - رحمه الله - أن فعولاً تأتي بمعنى فاعل، يعني حصورًا بمعنى حاصر ؛ أي هو الذي يكفُّ نفسه مع قدرته على الفعل إن أراد، وهذا أنسب بمقام المدح والثناء، ويؤيد ما ذهب إليه ما نقله الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره عن القاضي عياض في كتابه الشفاء قال: «اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان «حصورًا» ليس كما قال بعضهم إنه كان هيوبًا(٢) أو لا ذكر له، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين، ونقاد العلماء، وقالوا: هذه نقيصة وعيب ولا يليق بالأنبياء عليهم السلام، وإنما الفضل في كونها موجودة ثم يمنعها بمجاهدة». اهـ. مختصرًا.

ثم واصل القاضي عياض رحمه الله فقال: «ثم هي في حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه: درجة عليا وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتهم(٣) عن عبادة ربه بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن وإكسابه لهن وهدايته إياهن». اهـ.

ثم عقب ابن كثير بقوله: «والمقصود أنه مدح ليحيى وأنه حصور عن الفواحش والقاذورات، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال وغشيانهن وإيلادهن بل قد يُفهم وجود النَّسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال: «هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً» كأنه قال ولدًا له ذرية ونسل وعقب، والله سبحانه وتعالى أعلم». اهـ.

وقوله تعالى: «وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ» قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -: «هذه بشارة ثانية بنبوة يحيى بعد البشارة بولادته وهي أعلى من الأولى كقوله لأم موسى: «إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» [القصص: ٧].

وإلى هنا نقف على أمل بلقاء متجدد إن شاء الله تعالى، فإلى ذلك استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

الهوامش

١- سيأتي إن شاء الله الحديث عن عيسى - عليه السلام - في موضعه بعد ذلك.

٢- هيوبًا: أي يهاب النساء.

٣- هذا قياسه على غيره من أمته، أما لو قسناه على من سبقه من الأنبياء في كثرة النساء فالأمر مختلف.

فهناك من الأنبياء من هم أكثر منه أزواجًا، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

يحيى بن زكريا

عليهما السلام

الجزء الثاني

«يا يحيى خذ الكتاب بقوة»

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الذي أرسل رسله بالهدى ودين الحق، وختمهم بمحمد بن عبد الله مبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وصحبه الكرام ما أشرقت شمس أو أضاء كوكب، وبعد:

أخي القارئ الكريم: هذا لقاؤنا الثاني مع يحيى عليه السلام، وقد وقفنا في اللقاء الأول مع الآيات الكريمات التي تحدثت عن فضله ومكانته، وهنا في هذا اللقاء نقف مع بعض الآثار التي تحدثت عن دعوته، ونستعين بالله فنقول:

نشأ يحيى بن زكريا في تقى وورع فشب على ذلك، وكان مثالاً للتقوى والورع والزهد، وقد اشتهر بالعفة والطهارة، وكان كثير العُزْلة عن الناس، يأنس إلى البراري ويأكل ما تيسَّر ويرد ماء الأنهار، ونقل ابن كثير في البداية والنهاية عن خيثمة أنه قال: «كان عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا ابني خالة وكان عيسى يلبس الصوف، وكان يحيى يلبس الوبر، ولم يكن لواحد منهما دينار ولا درهم، ولا أمة ولا عبد ولا مأوى يأويان إليه، أينما جنهما الليل أويا، فلما أرادا أن يتفرقا قال له يحيى: أوصني ؟ قال: لا أستطيع إلا أن أغضب قال: لا تَقْتَنِ مالاً، قال: أما هذه فعسى». اهـ. البداية والنهاية (ج٢).

ولعله - عليه السلام - كان سريع الغضب لله، كما سيأتي قريبًا.

قام يحيى - عليه السلام يدعو بني إسرائيل إلى الله، ويبشرهم باقتراب ملكوت السماوات، وكانت دعوته بالحكم والمواعظ الرقيقة، ومع ذلك فقد وجد من بني إسرائيل صدودًا وعنتًا وإعراضًا؛ فهم قوم قساة القلوب غلاظ الطباع، لا يستجيبون بسهولة إلى نصح الناصحين حتى كاد أن يكف عن تعليمهم وإرشادهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة لولا توفيق الله وتثبيته، وقد كان عيسى عليه السلام رفيق دربه وابن خالته يشاركه آماله وآلامه، ويشد من أزره في تبليغ دعوته كما يتضح من الحديث الآتي:

روى الإمام أحمد والترمذي - رحمهما الله - من حديث الحارث الأشعري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن الله - سبحانه وتعالى - أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات؛ أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يبطئ بها، فقال له عيسى عليه السلام: «إن الله تعالى أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى عليه السلام: أخشى إن سبقتني أن يُخْسَفَ بي وأُعَذَّبَ.

فجمع يحيى الناس في بيت المقدس، فامتلأ المسجد، وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله تبارك وتعالى أمرني بخمس كلمات أن أعملهن، وآمركم أن تعملوا بهن:

١- أولاهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا،

وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال له: هذه داري، وهذا عملي ؛ فاعمل، وأد إليَّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟!

٢- الثانية: وإن الله أمركم بالصلاة، فإذا صليتم ؛ فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت.

٣- وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرَّةٌ فيها مِسْك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

٤- وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو، فأوثقوا يديه إلى عنقه، وقدموه ؛ ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفتدي منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم.

٥- وأمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك ؛ كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعًا، حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى».

قال النبيُّ ﷺ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر ؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية ؛ فإنه من جثى جهنم». فقال رجل: يا رسول الله، وإن صلى وصام ؟! قال: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله».

وإذا نظرنا في الحديث نظرة فيها بعض التأمل نلاحظ ما يلي:

١- اجتماع عيسى مع يحيى وكذلك زكريا (عليهم السلام) في زمان واحد وفي مكان واحد، وهذا دليل على كثرة الأنبياء في بني إسرائيل.

٢- تعاون عيسى ويحيى عليهما السلام في الدعوة إلى الله.

٣- حِرْصُ يحيى عليه السلام على تنفيذ ما أمره الله به وخشيتُه من العقوبة، وفي ذلك دليل على شدَّة ورعه وخوفه من ربه، وقد وردت في ذلك آثارٌ نقلها ابن كثير - رحمه الله - وعزاها إلى أصحابها.

منها ما نقله عن ابن المبارك عن وهيب بن الورد قال: «فقد زكريا ابنه يحيى ثلاثة أيام، فخرج يلتمسه في البرية، فإذا هو قد احتفر قبرًا وأقام فيه يبكي على نفسه. فقال: يا بني، أنا أطلبك من ثلاثة أيام وأنت في قبر احتفرته قائم تبكي فيه ؟! فقال: يا أبتِ، ألست أنت أخبرتني أن بين الجنَّة والنار مفازة لا تقطع إلا بدموع البكائين، فقال له: ابك يا بني ؛ فبكيا جميعًا». اهـ.

قال ابن كثير: وهكذا حكاه وهب بن منبه ومجاهد، هذا خوف يحيى وبكاؤه، فماذا لو علمت أنه الذي يأتي يوم القيامة بغير ذنب أتاه من دون العالمين ؟

٤- وإذا تأملت مرَّة أخرى الكلمات التي تكلم بها يحيى وجدتها هي وما جاء به نبينا محمد ﷺ تخرج من مشكاة واحدة، ولذا أقرَّها وزاد عليها.

٥- وإذا تأملنا الكلمات التي أوصى بها النبيُّ الأميُّ أمته تجد فيها الفرق الواضح بين بني إسرائيل وبين الأمة التي ختم الله بها الأمم وأكمل لها دينها، ولكي أوضِّح لك مقصدي أقدِّم لك الحديث التالي: روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل يسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وستكون خلفاء فيكثرون؛ قالوا: فما تأمرنا ؟ قال: فوا(١) ببيعة الأول فالأول، ثم أعطوهم حقهم ؛ فإن الله سائلهم عما استرعاهم».

ومن هنا أوصى النبي ﷺ بالسمع والطاعة وملازمة الجماعة ؛ أي السمع والطاعة لولاة الأمر وعدم الخروج عليهم ولزوم جماعة المسلمين والجهاد تحت راية الإمام الممكن برًا كان أو فاجرًا، ففي ذلك صلاح دنيا الناس، والنصوص في هذا الباب كثيرة لا يتسع المجال لذكرها ؛ فإن كانت وصايا يحيى عليه السلام تدور في مجملها حول صلاح الدين، فجاءت وصايا نبينا محمد ﷺ تدور في مجملها حول صلاح الدنيا ليجمع الحديث بذلك الخير من أطرافه ويصلح بهذه الوصايا دنيا الناس ودينهم، وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً ببعثة خاتم النبيين وإمام المرسلين.

وإلى لقاء قريب أستودع الله دينكم وأمانتكم وخواتيم أعمالكم.

هامش:

١- (فوا) أي: وفّوا بعهد من بايعتموه.

"يا يحيى خذ الكتاب بقوة"

الجزء الثالث

«مقتل يحيى وزكريا عليهما السلام»

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الذي أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، وشرع لنا من الدين ما وصّى به نوحًا وما أوحى به إلى نبينا محمد وما وصى به إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، فسبحان الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، والصلاة والسلام على النبي الخاتم.

أما بعد:

أخي القارئ الكريم، في اللقاء السابق تحدثنا عن جانب من دعوة يحيى - عليه السلام - وكيف أنها خرجت من مشكاة النبوة واتفقت مع دعوة نبينا محمد ﷺ في أصولها وأسسها وفي ذكر النبي لها بيان أهميتها ومكانتها، ولولا ذلك ما نقلها إلينا.

ورأينا كيف اجتمع ثلاثة من الأنبياء في بني إسرائيل في زمان واحد ومكان واحد، منهم نبي من أولي العزم وهو عيسى عليه السلام، وانتهينا من دلالة ذلك على أن الناس لا بد لهم من يسوسهم بدين الله؛ وأن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء كلما مات نبي قام نبي، وأحيانًا كان يجتمع أكثر من نبي في وقت واحد، كما رأينا من أمر زكريا ويحيى وعيسى.

أما هذه الأمة الخاتمة فلا نبي بعد محمد بن عبد الله ﷺ الذي أتم الله به كلمته، وختم به رسالته، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك في الحديث الذي ذكرناه في العدد السابق وفي غيره من الأحاديث، بل أشار القرآن الكريم إلى هذا بوضوح فقال تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا) [الأحزاب: ٤٠].

وإذا كان لا نبي بعد رسول الله ﷺ والناس يحتاجون إلى من يسوسهم بمنهج الله، إذن وجب على الأمراء أن يقوموا بهذا الواجب تجاه الناس، ووجب على الناس طاعتهم في ذلك ؛ حتى يصلح لهم أمر دينهم ودنياهم، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) [النساء: ٥٩].

فكان لا بد من قيام الأمراء بدين الله، وكان على الرعية طاعة الأمراء في ذلك، فطاعة الله ورسوله واجبة على كل أحد ؛ وطاعة ولاة الأمر واجبة بطاعتهم لله ولرسوله، ولذلك أمر الله بطاعتهم، وأنت تلاحظ في الآية الكريمة طاعتهم بطاعة الله والرسول، وعند الاختلاف يكون الرد إلى الله والرسول، فالرد إلى الله أي إلى كتابه، والرد إلى الرسول يكون إلى سنته، وعلى هذا أجمع أهل التفسير ؛ وعلى هذا كانت وصية النبي ﷺ بالسمع والطاعة لولاة الأمر ؛ حتى وإن حدث منهم بعض الجور لما في ذلك من الصالح العام، ودرء

مفاسد كثيرة، ولذلك قال ابن رجب رحمه الله في شرح حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: "أما تقوى الله فهي كافلة بسعادة الآخرة لمن تمسك بها، وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين، ففيها سعادة الدنيا، وبها تنتظم مصالح العباد في معايشهم، وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم". اهـ.

ونقل قول علي رضي الله عنه "أن الناس لا يصلحهم إلا إمام بر أو فاجر".

ونقل أيضاً قول الحسن رحمه الله: "هم يلون من أمرنا خمساً: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، والله ما يستقيم الدين إلا بهم، وإن جاروا أو ظلموا، والله لَمَا يُصلح الله بهم أكثر مما يفسدون". اهـ. مختصراً.

قُلْت: من أجل ذلك تكررت وصية رسول الله ﷺ بالسمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة وإن تأمر عليكم عبد، ومن هنا أيضاً دعت الحاجة إلى الاسترسال بعض الشيء في هذه القضية الهامة. اللهم وفق الراعي والرعية إلى الاعتصام بدينك، وتطبيق شرعك، اللهم آمين.

ثم نعود إلى حديثنا عن مقتل يحيى وزكريا عليهما السلام، والذي له علاقة مباشرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهما اختلفت أسبابه، نعم ذكر أهل السير والتاريخ أسباباً كثيراً عن مقتل يحيى، ثم زكريا عليهما السلام، والحقيقة أنه لم يرد في ذلك نص عن رسول الله ﷺ يقطع لنا في المسألة، وقد اختلفت أقوال أهل التاريخ في ذلك، وأشار ابن كثير رحمه الله إلى ذلك، ونقل لنا حديثاً عن ابن عباس لو صح لكان نصاً في المسألة.

قال ابن كثير عن إسحاق بن بشر في كتابه "المبتدأ" حيث قال: أنبأنا يعقوب الكوفي، عن عمرو بن ميمون، عن أبيه، عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ليلة أسري به رأى زكريا في السماء فسلم عليه، وقال له: "يا أبا يحيى خبّرني عن قتلك كيف كان ولم قتلك بنو إسرائيل؟" قال: يا محمد، أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه، وكان أجملهم وأصبحهم وجهاً؛ فهويته امرأة ملك بني إسرائيل، فأرسلت إليه، وعصمه الله وامتنع يحيى وأبى عليها، فأجمعت على قتل يحيى، ولهم عيد يجتمعون في كل عام، وكانت سنة أن يعد ولا يخلف ولا يكذب. قال: فخرج الملك إلى العيد، فقامت امرأته فشيعته، وكان بها معجباً، ولم تكن تفعله فيما مضى، فلما أن شيعته، قال الملك: سليني، فما سألتني شيئاً إلا أعطيتك. قالت: أريد دم يحيى بن زكريا. قال لها: سليني غيره. قالت: هو ذاك. قال: هو لك، قال: فبعث جلاوزتها (شرطتها) إلى يحيى وهو في محرابه يصلي وأنا إلى جنبه أصلي. قال: فذبح في طست، وحمل رأسه ودمه إليها. قال: فقال رسول الله ﷺ: "فما بلغ صبرك؟" قال: ما انفلت من صلاتي، قال: فلما حمل رأسه إليها فوضع بين يديها، فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه، فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل: قد غضب إله زكريا لزكريا، فتعالوا نغضب لملكنا فنقتل زكريا، فخرجوا في طلبي ليقتلوني، وجاءني النذير، فهربت منهم، وإبليس أمامهم يدلهم عليّ، فلما تخوفت ألا أعجزهم عرضت لي شجرة فنادتني وقالت: إليّ إليّ وانصدعت لي ودخلت فيها". اهـ. مختصراً.

والحديث طويل، وقد اختصرت منه ما استطعت، ونهايته قتل زكريا أيضاً كما قتل يحيى، وكما ذكرت آنفاً لو صح هذا الخبر لكان نصاً في المسألة، ولكن ابن كثير نفسه أنكر هذا الخبر ولم يرد غيره في الباب، وكل ما ورد منقولاً عن بني إسرائيل وذكرت أسباب أخرى ذكرها ابن كثير وغيره، ومهما تعددت الأسباب فالثابت الذي لا مراء فيه أن اليهود قتلوا يحيى وقتلوا زكريا وحاولوا قتل عيسى كما قتلوا غيرهم من الأنبياء، فهذه سجيتهم، وبهذا وصفهم الله سبحانه في محكم التنزيل، قال تعالى: (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) [البقرة: ٦١].

وقال تعالى مخاطباً بني إسرائيل: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ) [البقرة: ٨٧].

والنصوص القرآنية والأحاديث النبوية في هذا صريحة وكثيرة، فهذه طبيعة هؤلاء القوم الذين استحلوا دماء الأنبياء وقتلوا الأبرياء الأتقياء الأنقياء من أجل نزوات رخيصة فاستحقوا لعنة الله وغضبه في الدنيا والآخرة، وسلط عليهم بذنوبهم من سامهم سوء العذاب، ومن ذلك تسليط بختنصر بعد مقتل يحيى وزكريا مباشرة.

ولا حول ولا قوة إلا بالله.

القصة في كتاب الله

عيسى عليه السلام

الحلقة الأولى

نسبه الشريف

«ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ»

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الذي بيده الملك والملكوت، وله القوة والجبروت، يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد، إذا أراد أمرًا فإنما يقول له: كن فيكون، والصلاة والسلام على نبينا محمد المعصوم، وعلى أخيه عيسى الذي خلقه الله بكلمة «كن» «فيكون».

أخي المبارك: نحن اليوم أمام سيرة نبي مبارك متفرِّد عن جميع الأنبياء، بل عن جميع الخلق، صاحبَتْه المعجزات من اللحظة الأولى لتكوينه في رحم أمِّه، بالأمر الإلهي المباشر دونما واسطة بشر، وصاحبَتْه الآيات (المعجزات) في أيام وشهور حمله، وفي لحظة ولادته، بل وهو في المهد صبيًا، ثم حين أُرسل رسولاً نبيًا، ثم حين رفعه الله إليه في السماء وجعله هناك، وبوَّأه منزلاً عليًا، بل سيصاحبه الإعجاز حين يعيده الله إلى الدنيا قبل موته فيخبرُ الناسَ بحقيقته، ويُبين لهم الذي اختلفوا فيه، ولا يقبل منهم إلا الإسلام أو الجزية، ويخبرهم أنه من أتباع دين محمد النبيِّ الأمي، ولا يقبل منهم إلا اتخاذ (أحمد نبيًا).

نعم نحن أمام نبي جعله الله وأمَّه آية للناس، ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يجادلون بغير سلطان أتاهم، بل يخالفون ما أتاهم، ولا يتبعون غير شيطانهم وهواهم، عرف اليهود الحق في شأن عيسى فأنكروه وحرَّفوه، وضلَّ النصارى حين اتبعوه، وهدى الله المسلمين إلى الحق فعرفوه، نسأل الله العونَ على بيانه.

أولاً: بين تفريط اليهود وإفراط النصارى

أ- قول اليهود في عيسى ابن مريم:

اتهم اليهود مريم في ولدها، وقالوا عليها بهتانًا عظيمًا، وأنكروا نبوة عيسى وحاربوه، وحاولوا قتله، بل زعموا أنهم قتلوه، وصلبوه، وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبِّه لهم، وما قتلوه يقينًا بل رفعه الله إليه، وسيعيده قبل يوم القيامة حكمًا عدلاً.

ب- مقالة النصارى:

أما النصارى فقد قالوا قولاً إدًا تكاد السماوات يتفطرن منه، وتخر الجبال هدًا، قالوا عن عيسى: إنه الله، أو إنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة على اختلاف بينهم في ذلك، فقد اختلفوا وقالوا قولاً لا يوافقُ عقلاً سليمًا، ولا نقلاً صحيحًا، ضلالات بعضها فوق بعض لا تكاد ترى نور الحقيقة من شدة ظلمتها، وسأبينها بضوء الحق، وسوف نكشفها جميعًا، إن شاء الله، ولكننا اليوم سنقف مع قطرة منها يسيرة، فبينما هم يقولون عن المسيح ما يقولون تنسبه أناجيلهم إلى يوسف النجار بالعار.

جـ- نسب المسيح في إنجيل متى:

هو يسوع بن يوسف النجار بن هالي بن لاوي بن ملكي.. إلى أن ينتهي إلى إبراهيم عليه السلام، ولا أكاد أفهم أو يفهم عاقل في الدنيا كيف يقولون عن عيسى أو يسوع يسمونه إنه الله، أو ابن الله، أو

ثالث ثلاثة!! تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، ثم ينسبونه إلى بشر، وهو يوسف النجار؟! بينما تعترف أناجيلهم أن يوسف النجار كان من شباب اليهود الصالحين؛ عاش عيشة الطهر والعفاف، ثم خطب مريم ولم يتمَّ بينهما التقاء أو زواج، كما في إنجيل متى (١ - ٢٠).

كيف لا يتم بينهما لقاء أو معاشرة جنسية، ثم ينسبون عيسى ليوسف النجار، وكيف ينسبون (عيسى) إلى يوسف النجار، ثم يقولون هو الله أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة (ولا حول ولا قوة إلا بالله). ما هذا التناقض الغريب؟!!

هذا ومن ناحية أخرى إذا تأملت في نسب المسيح الظاهر، والمكتوب سابقًا في الإنجيلين (لوقا ومتى) تجد بينهما تناقضًا واضحًا كما يلي:

فإنجيل لوقا يقول: «إن يوسف بن هالي».

وإنجيل متى يقول: «إن يوسف بن يعقوب».

وإذا تابعنا النسب تفصيليًا نجد تناقضات كثيرة يطول وقوفنا معها، وليس هذا موضعها، والحقيقة هي تناقضات بعضها فوق بعض، ونريد الآن أن نعيش مع الحقيقة كما جاء بها كتاب الله تبارك وتعالى.

فهذا عيسى عليه السلام، وهذه أمه الصديقة كما جاء في القرآن الكريم.

ثانيًا: نسبه كما جاء في القرآن الكريم

هو عيسى ابن مريم، عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه (أي: من خلقه، وليست «من» هنا للتبعيض، ولكن لابتداء الغاية)، خلقه الله بالأمر الكوني «كن»، فكان من أمه بغير أب، وفي ذلك بيان القدرة الإلهية، وكمالها، وحكمتها في تنوع أنواع الخلق، فخلَق سبحانه آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من أب بغير أم، وخلَق عيسى من أم بغير أب، وخلقنا من أب وأم، فكملت بذلك جوانب الخلق الأربعة، ولله الحكمة البالغة والمشيئة القادرة، يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]، ذكر الله سبحانه ذلك تعقيبًا على قصة مريم، وبيان وجه الصواب في ذلك، وسيكون لنا معها وقفة مطولة بعون الله بعد ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وهذا كثير في القرآن، فعيسى ابن مريم رسول الله، وهو من أولي العزم، وهو عبد أنعم الله عليه وعلى أمه، وقد نسبه الله إلى أمه من غير أب، فمن هي أمه كما جاء ذكرها في القرآن والسنة النبوية الشريفة؟ وهذا البيان أصبح من الأهمية بمكان بعد أن نال منها اليهود واتهموها، وبالغ في أمرها النصارى، فهذا إفراط، وذلك تفريط، فما القول الفصل؟

ثالثًا: مكانة مريم في الإسلام

- شأن الله مع أنبيائه أن يختارهم من أوسط الناس نسبًا، وأنفسهم معدنًا، فقد اختار الله لنبيه عيسى الوعاء الطاهر الذي يحمله، والنسب الشريف الذي ينتمي إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ . ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤].

قال ابن كثير رحمه الله: «يذكر الله تعالى أنه اصطفى آدم عليه السلام، والخُلَّص من ذريته، المتبعين شرعه، الملازمين لطاعته، ثم خصَّص فقال: ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾، فدخل فيهم بنو إسماعيل، ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب، وهم آل عمران، والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام. اهـ.

فآدم أبو البشر الأول، ونوح أبو البشر الثاني، وإبراهيم أبو الأنبياء الذين جاءوا من بعده من ذرية إسماعيل وإسحاق، عليهم جميعًا السلام.

وعمران يعود نسبه إلى يعقوب، ثم إلى إبراهيم، وخصَّص الله بيته بالذكر هنا تمهيدًا للحديث عن مريم، وشرفها ومكانتها، والبيئة الصالحة التي نشأت فيها، لذا قال بعد ذلك مباشرة: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ

> نحن أمام نبي جعله الله وأمَّه آية للناس، ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يجادلون بغير سلطان أتاهم، بل يخالفون ما أتاهم، ولا يتبعون غير شيطانهم وهواهم، عرف اليهود الحق في شأن عيسى فأنكروه وحرَّفوه، وضلَّ النصارى حين اتبعوه، وهدى الله المسلمين إلى الحق فعرفوه

﴿ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٥- ٣٦].

وامرأة عمران هي حنَّة بنت فاقود بن قبيل وهي زوجة صالحة، وامرأة ورعة عابدة تحب الله حبًا صادقًا، والدليل على ذلك أنها لما شعرت بالحمل نذرت ما في بطنها لخدمة بيت المقدس خالصة لله، وتوجهت إلى ربها ضارعة أن يتقبل منها نذرها، وأن يجعله صالحًا خالصًا، وكان من عادة هؤلاء الصالحين أن يجعلوا أبناءهم الذكور في خدمة بيت الله، وهو بيت المقدس، لكن امرأة عمران فُوجئت بأن المولود أنثى، وهي كانت تريد ذكرًا، فذلك أنسب لخدمة بيت الله، وكأنها تألمت لذلك فعبَّرت عنه ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٦، ٣٧].

فاعتذرت أم مريم عن كونها أنثى، ومع ذلك وهبتها لبيت الله، ودعت ربها أن يحفظها وذريتها من الشيطان الرجيم، وجاءت الجملة الاعتراضية في موضعهما المناسب: «والله أعلم بما وضعت»، وكأن الله يقول: لا تحزني يا أم مريم، فالله سبحانه يعلم أنها أنثى، بل هو سبحانه جعلها أنثى لحكمة أرادها وأمر سيبديه في حينه، والله عز وجل إذا أراد أمرًا هيأ له أسبابه، وقد وافقت دعوة أم مريم قدر الله السابق حين قالت: ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾، فتقبلها ربها بقبول حسن، وأنبتها نباتًا حسنًا، وكفَّلها زكريا، استجاب الله دعوة أم مريم وقبل منها نذرها، وحفظ مريم ونسلها من شياطين الجن والإنس، وعاشت مريم في كنف بيت الله، وفي كفالة نبي من أنبياء الله، ونشأت طاهرة في بيئة طاهرة، وجاء في الحديث الذي أخرجه أحمد ومسلم رحمهما الله عن النبي ﷺ قال: «كل مولود من بني آدم يمسُّه الشيطان بإصبعه إلا مريم بنت عمران وابنها عيسى» [مسلم ٦٢٨٢].

والحديث جاء بروايات متعددة وصيغ مختلفة حول ذات المعنى، وهذا من ثمرة الدعاء المبارك الذي دعته أم مريم، واستجاب الله لها، وهكذا حفظ الله المحضن الذي نبت فيه نبيه عيسى من كل شر.

> ﴿ اتهم اليهود مريم في ولدها، وقالوا عليها بهتانًا عظيمًا، وأنكروا نبوة عيسى وحاربوه، وحاولوا قتله، بل زعموا أنهم قتلوه، وصلبوه، وما قتلوه وما صلبوه، ولكن شبّه لهم، وما قتلوه يقينًا بل رفعه الله إليه، وسيعيده قبل يوم القيامة حكمًا عدلا ﴾

رابعًا: اصطفاء مريم على نساء العالمين

قال الله عز وجل: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢- ٤٣]. فهذا اصطفاء واصطفاء واصطفاء: في النشأة والتكوين، والطهر فيها، وفي البيئة المحيطة بها، ثم اصطفاء آخر لتكون أول امرأة في العالم (بل وآخر امرأة، فهذا الأمر لم ولن يحدث لأحد قبلها ولا بعدها) تحمل بغير زوج، لكن بالأمر الإلهي: «كن»، فتلد آخر أنبياء بني إسرائيل نبيًا، ورسولاً من أولي العزم، ليجعلها الله هي وابنها آية للعالمين، قال الله تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٢].

وعن أنس رضي الله عنه: قال ﷺ: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون». [أحمد ١٢٤١٤ وصححه الألباني في صحيح الجامع: ٣١٤٣].

والحديث له روايات كثيرة مع تقديم وتأخير في بعض الألفاظ، أخرجه أحمد وغيره.

والأحاديث في فضل مريم كثيرة، نكتفي بهذا القدر الذي ظهر فيه بوضوح فضل الله على عيسى ابن مريم، كما هو فضله سبحانه على جميع أنبيائه ورسله وسائر خلقه؛ حيث اقتضت حكمته أن يختار رسله وأنبياءه من خيرة خلقه، وهذا عيسى ابن مريم رسول الله لما كانت نسبته إلى أمِّه فقد اصطفاها مولاها، وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، فقد ظهر الحق الذي فيه يمترون ويشكون ويجادلون بغير سلطان إلا من هوى أنفسهم ووحي شياطينهم، وهذا عيسى ابن مريم وأمه الصديقة قد رفع الله ذكرهما وزكى نسبهما، ونحن على ذلك من الشاهدين، فالحمد لله رب العالمين، وإلى لقاء قادم مع مولد عيسى عليه السلام، أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

القصة في كتاب الله

عيسى عليه السلام

الحلقة الثانية

٢- مولده عليه السلام

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون.

أيها الحبيب: وقفنا بك في اللقاء الماضي على الوعاء الذي هيَّاه الله لحمل رسوله الكريم ونبيه العظيم عيسى عليه من الله أتم الصلاة وأكرم التسليم، ولما كانت نسبة عيسى إلى أمِّه مريم من غير أب فقد بيَّن الله شرف مريم ومكانتها، وكيف اختارها الله وهيأها لهذا الشرف العظيم، وطهَّرها واصطفاها على نساء العالمين، وقد أسهبنا في بيان ذلك فيما سبق بما يُغني عن إعادته، والآن نشرع فيما قصدنا إليه، فنقول وبالله التوفيق:

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا. قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا. قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا. فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا. فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا. فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: ١٦ - ٢٦].

في هذه الآيات الكريمة يقصُّ علينا ربنا سبحانه من نبأ مريم بالحق بعد أن قصَّ قبلها قصة يحيى عليه السلام، وكيف حملت به أمُّه بعد أن كانت عاقرًا فأصلحها الله، وكان زوجها زكريا عليه

السلام قد وهَنَ العظم منه، واشتعل رأسه شيبًا، وبلغ من الكبر عتيًا، والعاقل يرى المناسبة هنا واضحة بذكر قصة مريم بعد قصة يحيى، ويمكننا تلخيص ذلك فيما يلي:

١- البيئة المشتركة التي جمعتهم، والقرابة التي كانت بينهم.

٢- كفالة زكريا لمريم.

٣- كان يحيى استجابةً لدعوة زكريا عليه السلام، وكان للكرامات التي أكْرَم اللهُ بها مريم أثرٌ مباشر في ذلك.

تبرئة ساحة العذراء البتول !!

٤- والنقطة الأهم تتمثل في وجه التشابه الكبير بين ولادة يحيى وولادة عيسى، ألا وهو قدرة الله التي لا حدود لها؛ حيث جاء يحيى من أم عاقر وأب قد بلغ من الكبر عتيًا، وكذلك مريم حملت بأمر الله دون واسطة اتصال بشري، فسبحان مَن إذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون.

وهذه القصة جاءت هنا بهذا التفصيل لتدلّل على قدرة الله في فعله، وحكمته في أمره ونهيه، ولتبرئة ساحة هذه العذراء البتول، وليتبين الحق الذي فيه يمترون، وقد سمى الله سورة كاملة في كتابه الكريم باسم «مريم» تكريمًا لها وتشريفًا.

ويمكننا تلخيص هذا المقطع من القصة كما أوردته الآيات من سورة مريم في النقاط التالية:

١- مريم عليها السلام وقد تفرّغت لخدمة بيت الله، وعاشت في هذه البيئة الإيمانية، وانقطعت للعبادة والتبتل، أرادت أن تخلو بنفسها بعيدًا إلى ناحية الشرق، وهي قبلتهم، واعتكفت عن الناس.

٢- بينما هي كذلك؛ إذ دخل عليها إنسان، ففزعت وخافت من وجوده معها، وليس معها أحد، فاستعاذت بالله وذكّرته بتقوى الله، ولعلها التمست فيه سمات المتقين، والله أعلم.

٣- ولم يكن الداخل عليها بشرًا، بل كان جبريل عليه السلام، وجاءها في صورة بشر حتى تأنس به؛ لأنها لا تتحمل رؤيته في هيئته الحقيقية، فطمأنها قائلاً: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

٤- بينما أخذت دهشتها من حضوره المفاجئ في الزوال؛ إذ أخذتها دهشة أشد مما أخبرها به.

٥- وقالت متعجبة: ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾. قالت: كيف ألد وأنا عذراء لم أتزوج بعدُ، ولست من البغايا (الزانيات).

٦- فرد عليها جبريل - عليه السلام- قائلاً: إن الله يخبرك أن هذا هيّن عليه -سبحانه-، وهو الذي خلق آدم من تراب، وخلق حواء من آدم، وهو سبحانه يريد من خلق ابنك من غير أب أن يجعل ذلك آية ومعجزة للناس تدلُّ على تمام قدرته -سبحانه-، كما أن الله سيجعله رحمة للناس بما يأتي به من هداية رب العالمين، وهذا قضاء لا يردُّه رادّ: «جفت الأقلام وطويت الصحف».

٧- وعندها نفخ جبريل في طرف ثوبها نفخة حملت على إثرها مريم بعيسى وقُضي الأمر.

٨- عندما شعرت مريم -عليها السلام- بأثر الحمل المبارك في بطنها أرادت أن تبتعد أكثر عن أعين الناس؛ تجنبًا للقيل والقال، فانتقلت إلى مكان أبعد.

٩- وبينما هي في مكانها القصيّ قريبًا من بيت المقدس فاجأها المخاض، وفي ذلك إشارة إلى أنها عليها السلام لم تعانِ من آلام الحمل والمخاض كما تعاني الإناث، لكن كانت ملائكة الله تحوطها، وتدبير الله من فوقهم.

١٠- ومع إيمان مريم عليها السلام بما بشرها به ربُّها عن طريق ملائكته، وما رأته بنفسها من دلائل قدرة الله حين كانت تأتيها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء وهي في محرابها. نقول مع ذلك كلّه لكنها عند معاينة الحقيقة وحين وضعت وليدها تمنّت لو أنها ماتت قبل مواجهة قومها وهي تحمل وليدها، وذلك لشدة حيائها -عليها السلام-، ولعلمها بفساد قومها، وما جُبِلوا عليه من سوء ظن ونظرة مادية بحتة للأمور.

١١- وهنا بادرها النداء العلوي من مكان قريب منها فسمعت النداء ولم تر المنادي: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾.

من تولى الله أمره فلا يحزن !!

١٢- نعم ناداها المنادي، وهو على الراجح جبريل عليه السلام، ناداها ولم تره قائلاً: إنه لا داعي للحزن؛ لأن الله معك يتولى أمرك فيما سيأتي، كما تولاه فيما مضى، وقد جعل الله تحت قدميك نهرًا يجري وأنت في صحراء، كما أن الله يأمرك أن تهزّي جزع النخلة التي بجوارك تتساقط عليك رطبًا جنيًا طازجًا وشهيًا، فكلي من الرُّطب واشربي من الماء الجاري، واذكري ربك واشكريه.

١٣- ثم أخبرها عند مواجهة قومها ألا تكلمهم، ولا ترد عليهم، وإنما فقط تشير إلى مولودها.

١٤- وبعد أن تعافت مريم من نفاسها، وقد كان يسيرًا، فحملها كان يسيرًا، ليس في مدته، ولكن في تبعاته التي تصيب الحوامل، وكذلك مخاضها ونفاسها كان أيسر والله أعلم. حملت وليدها وعادت به إلى قومها، وهذه قضية يجب أن نتنبه إليها جيدًا ففي عودتها إلى قومها، وهي تحمل

وليدها، دليل على تصديقها بآيات ربها وكتبه، وهو جزء من رسالتها الدعوية؛ لأن عيسى لا بد أن يبرز للوجود في هذه اللحظة معلنًا تحديه لبني إسرائيل ومتحدثًا عن نفسه، ومعلنًا عفة أمه وشرفها، ولذلك روايات الأناجيل حول هذه القضية تخالف العقل والنقل، ولعلنا نعرض لها لاحقًا، إن شاء الله.

١٥- حملت مريم ابنها وعادت به إلى قومها؛ طاعةً لأمر ربها، فماذا حدث؟ يقصُّ علينا ربنا ماذا حدث في الآيات التالية: قال الله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٧ - ٢٩].

تعريض اليهود بمريم !!

١٦- عندما جاءت مريم قومها اليهود، وهي تحمل ابنها، أنكروا عليها ذلك؛ وقالوا: لقد جئت كذبًا وزورًا، وعرَّضوا بها في قولهم: يا أخت هارون في الصلاح والتقى ما كان أبوك امرأ سوء، وما كانت أمك بغيًا. وهذا اتهام صريح منهم لمريم -عليها السلام- أنها جاءت بهذا الغلام من طريق غير مشروع، ولما لم ترد عليهم بكلمة واحدة، بل أشارت إلى الغلام الرضيع.

١٧- عندها سخروا منها، وقالوا -تهكمًا وسخرية-: كيف نكلم من كان في المهد صبيًا؟ هذا الموقف من القوم أحدث زلزالاً عظيمًا، وترتبت عليه أمور خطيرة، منها:

أ- اتهام العذراء البتول الشريفة بالزنا، وهي التي اصطفاها الله وطهرها.

ب- وهذا الاتهام يترتب عليه أمور أيضًا:

١- إقامة الحدّ على مريم، وهذا مكتوب عندهم في التوراة.

٢- إنكار نبوة عيسى.

٣- وأخطر من ذلك إنكار قدرة الله على ما يشاء ويختار، فكان لا بد من معجزة تُحدث زلزالاً مدويًا يرد هذا البهتان، ويرد أصحابه على وجوههم خاسئين، فجاءت الإجابة عن سؤالهم التهكمي - كيف نكلِّم من كان في المهد صبيًا؟- قوية مدوية، جاءت معجزة لا يقدر عليها إلا رب القُوَى والقدر، نطق الصبي في المهد، نعم حدث الذي استبعدوا، وتكلم بكلام فصيح واضح سجَّله رب العالمين قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة، فهيا نسمع ونقرأ ماذا قال عيسى وهو في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٣].

أرأيت كلامًا أوضح من ذلك ينطق به صبي في المهد؟ ومن الذي أنطقه وعلَّمه هذه الكلمات؟ أنطقه الذي خلقه وسوَّاه بالأمر الكوني: «كن»، فكان، فتبارك الله رب العالمين.

وهذا الكلام المبارك الذي نطق به عيسى في المهد فيه أمور:

١- قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ تأكيد لعبوديته لله وبشريته، وأنه ليس إلهًا، ولا ابن الله، ولا ثالث ثلاثة، كما ضلَّ في ذلك من ضل.

٢- وقوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فيه إثبات نبوته ورسالته، وأن الله سيحفظه حتى يؤدي رسالته، ولن يتركه لأعدائه والحاسدين له، وهذا تنبؤ بغيب لا يعلمه إلا الله، وقد وقع كما أخبر والحمد لله، وفي ذلك ردٌ على اليهود البهت المكذبين لله ورسله قتلة الأنبياء.

٣- وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ بيان لمنزلته العظيمة وبركة الله التي صاحبته أينما كان.

٤- وفي قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ بيان لبعض مفردات منهجه المهمة في طريق دعوته إلى الله، وأن يكون هو قدوة لأتباعه.

٥- وقوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ بيان أهمية البر بالوالدين وتأكيد لنسبته لأمِّه مريم - عليها السلام- وأنه ليس له أب لأنه لو كان له أب لقال كما ذكر الله عن يحيى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ [مريم: ١٤]، وفي ذلك تزكية لأمه، وبيان لعفتها وطهارتها، وردٌ على اليهود الذين اتهموها ظلمًا وزورًا.

٦- وفي قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ وصف لجانب من أخلاقه العظيمة، ومنها اتصافه بالرحمة، والتواضع والاستقامة، ثم ختم هذا البيان العظيم بالسلام على نفسه في الدنيا والآخرة.

هذا البيان الناصع الواضح المختصر يرد على كذب اليهود وبهتانهم وحيرة النصارى بعد ذلك وضلالهم، لهذا كان تعقيب القرآن الكريم بهذه الآية الكريمة: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].

وإلى لقاء نستكمل به ما بدأنا، ونستمد من الله العون.

عيسى عليه السلام

الحلقة الثالثة

٣- مولده عليه السلام

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله ذي الحكمة البالغة والقدرة المقتدرة، والصلاة والسلام على نبيه الخاتم، وعلى آله وأصحابه المتقين البررة، أما بعد:

فيا أيها الأخ المبارك انتهينا معك في اللقاء السابق من ذكر قصة ولادة عيسى عليه السلام، وكيف صاحبت عناية الله مريم، ورأينا كيف كانت الملائكة تحوطها في حلِّها وترحالها، وكيف كان روح القدس جبريل - عليه السلام - يخاطبها، ولما عادت إلى قومها فاتهموها أنطق الله عيسى، وهو في المهد، بكلمات من نور تعلن عبوديته لله رب العالمين، وتبشِّر برسالته ودعوته التي سيرحم الله بها من اتبعه، وتعلن براءة أمِّه مريم مما نسبه اليهود إليها كذبًا وبهتانًا.

واليوم أخي الكريم نقف وقفة نتأمل فيها هذه القصة العظيمة من خلال تعقيب القرآن الكريم عليها، فما أحسن كلام الله وما أعظمه، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤-٣٥].

والكلام هُنَا موجَّه إلى النبيِّ محمد ﷺ، وإلى أمَّته يخبرهم فيه الخبر الحق عن عيسى ابن مريم، الذي تكلم بهذا الكلام في المهد، وقد سجَّله الله قرآنًا يُتلى إلى يوم الدين، يُعلن للناس الحقيقة في عيسى ابن مريم وأمِّه، تلك الحقيقة التي اختلف فيها اليهود الذين سمعوا وشاهدوا، والنصارى الذين جاءوا من بعدهم.. وأخبرهم بأصل الدِّين الذي جئتَ به، والذي جاء به عيسى، وأعلنه وهو في المهد، وعاش عليه، ومات عليه، وسيُبعث عليه، وهو الذي جاء به موسى وإبراهيم ونوح، وكل نبي، وهو المتمثل في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦].

فمن أراد الله به خيرًا وفَّقه إلى ذلك الأمر من التوحيد والعبادة الصحيحة، وهو -مع الأسف- ما اختلف فيه أهل الكتاب من قبلنا، وقد أخبرنا الله بذلك بعد هذه الآية مباشرة؛ فقال تعالى:

﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: ٣٧]، أي: فاختلفت الفِرَق من أهل الكتاب في شأن عيسى، فاليهود قالوا: إنه ساحر، وقالوا: إنه ابن يوسف النجار. والنصارى اختلفت فِرَقهم فيه: فقالت النسطورية: هو ابن الله. وقالت الملكية: هو ثالث ثلاثة. وقالت اليعقوبية: هو الله، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وهذا الذي قال به هؤلاء هو الكفر بعينه؛ لذا قال الله تعالى معقِّبًا على اختلافهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، نعوذ بالله من الضلال وأهله، ومن الاختلاف الذي يؤدي بأهله إلى الكفر أو ما دونه.

وسنحاول بعون الله فيما يلي أن نبين رواية الأناجيل واختلاف بعضها مع بعض من جانب، ورواية القرآن الكريم كلام رب العالمين من جانب آخر.

أولاً: وصف مولد عيسى في الإنجيل:

أخي الكريم: رأيت تلك الصورة المشرقة لميلاد عيسى ابن مريم عليه السلام، وكيف أحاطت عناية الله سبحانه بأمه منذ مولدها حتى وضعت عيسى، وبعد وضعه وفي أثناء النفاس، وكيف أجرى الله لمريم نهرًا يجري الماء فيه صافيًا، وأنزل عليها رطبًا جنيًا، وأنطق عيسى في المهد ليعلن براءتها وشرفها، فباسم الله حملت، وباسمه سبحانه وضعت، وبإذنه تعالى نطق عيسى في المهد مدافعًا عنها، هذه الصورة الكريمة العزيزة التي رأيناها في القرآن لا تظهر أكثر إلا إذا رأينا ضدها في الإنجيل، فماذا قالت الأناجيل عن ميلاد عيسى عليه السلام؟!

أ- قال إنجيل متى: «وهذه سيرة ميلاد يسوع المسيح: كانت أمه مريم مخطوبة ليوسف، فتبين قبل أن تسكن معه أنها حبلى من روح القدس، وكان يوسف رجلاً صالحًا، فما أراد أن يكشف أمرها، فعزم على أن يتركها سرًا، وبينما هو يفكر في هذا الأمر ظهر له ملاك الرب، وقال له: «يا يوسف بن داود لا تخف أن تأخذ مريم امرأة لك، فهي حبلى من روح القدس، وستلد ابنًا تسميه (يسوع)؛ لأنه يخلِّص شعبه من خطاياهم». ثم قال: «فلما قام يوسف من النوم عمل بما أمره ملاك الرب، فجاء بامرأته إلى بيته، ولكنه ما عرفها حتى ولدت ابنها فسماه يسوع». (متى ٢٤، ٢٥).

ب- وفي إنجيل لوقا: «وفي تلك الأيام أمر القيصر أوغسطس بإحصاء سكان الإمبراطورية». ثم قال: «وصعد يوسف من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى بيت لحم مدينة داود؛ لأنه كان من بيت داود وعشيرته؛ ليكتتب مع مريم خطيبته، وكانت حبلى، وبينما هما في بيت لحم، جاء وقتها لتلد فولدت ابنها البكر وقمطته [أي شدته برباط]، وأضجعته في مذود؛ لأنه كان لا محل لهما في الفندق».

ج- ونعود إلى متى ليقول لنا: «ولما وُلد يسوع في بيت لحم اليهودية على عهد الملك هيرودس جاء إلى أورشليم مجوس [أي: علماء فلك من بابل] من المشرق، وقالوا: أين المولود ملك اليهود؟ رأينا نجمه في المشرق فجئنا لنسجد له».

ثم نعود إلى متى:

قال: تحت عنوان: (الهروب إلى مصر): «وبعدما انصرف المجوس ظهر ملاك الرب ليوسف في الحُلْم وقال له: (قم، خذ الطفل وأمَّه، واهرب إلى مصر، وأقم فيها حتى أقول لك متى تعود؛ لأن هيرودس سيبحث عن الطفل ليقتله»، فقام يوسف وأخذ الطفل وأمه ليلاً، ورحل إلى مصر فأقام فيها إلى أن مات هيرودس؛ ليتم ما قال الرب بلسان النبي: «من مصر دعوت ابني». (متى: ٢- ١٣/ ١٥).

ثانيًا: نلاحظ من روايات الأناجيل ما يلي:

- أنه بالمقارنة بين رواية (متى) ورواية (لوقا) لميلاد المسيح في الجزء الثاني من كليهما [بعد قراءة النصين كاملين؛ لأنني نقلت الروايات مختصرة خشية الإطالة] نلاحظ ما يلي:

١- يُفهم من رواية (متى) أن يوسف النجار ومريم هربا بالمسيح إلى مصر بعد ولادة المسيح؛ لأن هيرودس كان يريد قتل المسيح.

٢- بينما يشير لوقا إلى عكس ذلك تمامًا؛ فقد ذكر لوقا أن مريم والمسيح ويوسف النجار لم يغادروا أرض فلسطين، وكانوا يترددون ما بين الناصرة وبيت لحم وبيت المقدس، ولم يذهبوا إلى مصر.

﴿ رواية القرآن ترتفع بمريم ووليدها الكريم إلى درجات عالية من السمو والتكريم، فهما في صحبة الملائكة في كل وقت، وفوق الجميع ولاية ورعاية الحي القيوم ﴾

٣- ومن رواية (متى) يُعلم أن أهل أورشليم وهيرودس كانوا معاندين للمسيح.

٤- ومن رواية (لوقا) وكلامه نفهم أيضًا أنه لم تكن عداوة ألبتة بين أهل أورشليم والمسيح، ولا بين هيرودس والمسيح، بل كان الجميع يرحب به، وقد ذكر (لوقا) قصة الرجل الصالح (سمعان) الممتلئ بروح القدس، والذي جاءته نبوءة أنه لن يموت قبل أن يرى المسيح، وقد حمله بين ذراعيه وفرح به، وأخبر الناس عنه حين كان المسيح مع أمه ويوسف النجار في إحدى زياراتهم لبيت المقدس، فلو كان أهل أورشليم وهيردوس معاندين للمسيح لما استطاع ذاك الرجل الصالح أن يخبر بالمسيح وأورشليم دار السلطة والحكم لهيرودس.

ثالثًا: وإذا حاولنا أن نقارن بين رواية القرآن والأناجيل نلاحظ ما يلي:

١- لم تُشر الأناجيل من قريب ولا من بعيد إلى كلام عيسى في المهد، وهو عمدة في الموضوع، ففيه براءة مريم مما نسبه اليهود إليها، وفيه إثبات عبوديته لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وفيه إثبات نبوته ورسالته ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

٢- خلو الأناجيل من الإشارة إلى هذا الحدث مع ظهوره وشيوعه يدل على أن أصابع اليهود ومن وافقهم من الضالين كانت وراء ذلك.

٣- ولو كان عيسى لم يتكلم في المهد لسارعوا بإقامة حدِّ الزنا على مريم، وخصوصًا أنهم كانوا يتمنون ذلك، وهم أصحاب السلطة والقرار، وفي أيديهم التوراة فيها حكم الله، لكن - والله أعلم - ما منعهم من ذلك إلا هذه المعجزة الباهرة، وهي كلام عيسى في المهد، والذي سجَّله القرآن بأحرف من نور ليحق الله الحق ويبطل الباطل.

٤- رواية القرآن ترتفع بمريم ووليدها الكريم إلى درجات عالية من السمو والتكريم، فهما في صحبة الملائكة في كل وقت، وفوق الجميع ولاية ورعاية الحي القيوم الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء.

٥- في رواية الأناجيل نرى عيسى المسيح وقد وُلد في حظيرة للحيوانات، ووُضع في مذود لطعام الأغنام.

أين ذلك من صحبة ملائكة الرحمن، ومن النهر الذي أجراه الله تحت قدمي مريم أثناء الولادة، ومن الرطب الجنيِّ الذي تساقط عليها كالمطر؟!! قال الله: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾.. فطعام وشراب وطمأنينة برعاية رب العالمين.

٦- لم يشر القرآن الكريم لا من قريب ولا من بعيد إلى يوسف النجار، ولم يرد ذكره في أحاديث رسول الله ﷺ الصحيحة، ولم يذكر عداوة هيردوس لعيسى المسيح، ولم تأتِ إشارة إلى رحلته إلى مصر لا في القرآن ولا السنة.

وفي ختام هذه الوقفة قد يطرح البعض سؤالاً: لماذا خلق الله سبحانه عيسى من غير أب؟

نجيب إجابة مختصرة عن ذلك: بأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك فتنة واختبارًا؛ أخفق فيه وضلَّ من لا يؤمن بقدرته ومشيئته، وأنه سبحانه يخلق ما يشاء ويختار، وهدَى الله فيه المؤمنين إلى الحق؛ لأنهم يؤمنون بأسماء الله وصفاته، وأنه سبحانه ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، يخلق ما يشاء ويختار، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.[هذا ومن أراد التوسع في ذلك فليراجع مثلاً كتاب محاضرات في النصرانية للشيخ محمد أبي زهرة، رحمه الله، أو لكتب التفاسير وكتب التاريخ والسير].

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبسًا علينا فنضل، وإلى لقاء أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

عيسى ابن مريم

- عليه السلام -

وصفه - عليه السلام - ومعجزاته

الحلقة الرابعة

الحمد لله الواحد الأحد، الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وإمام المرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين. أما بعد:

فقد تحدثنا في المقالات الثلاث السابقة عن نسب عيسى عليه السلام، ومولده، وعن أمه الطاهرة البتول، وقبل أن نتحدث عن دعوته ورسالته، رأينا أن نتحدث عن أوصافه ومعجزاته كما جاءت في كتاب الله، وفي سنة رسوله محمد ﷺ.

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

أولاً: وصفه وجانب من معجزاته - عليه السلام - في القرآن الكريم:

أ- قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

ب- وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٨، ٤٩].

جـ- وقال الله سبحانه على لسان عيسى ابن مريم، وهو في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٠- ٣٢].

د- وقال الله جل وعلا: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥].

من خلال هذا العرض القرآني العظيم يتبيَّن لنا ما يلي:

- (المسيح) لقبه، ومن معانيه الصدِّيق، أو الملك الشريف، وقيل: لأنه كان يمسح على المريض فيبرأ بإذن الله، وقيل: هو الممسوح بالزيت، والله أعلم.

- (واسمه عيسى) وهو مُعَرَّب (أيشوع) أو (يشوع)، وهو السيد.

- (وابن مريم) كُنيته.

- وهو كلمة الله، عبده ورسوله، وسُمِّي كلمة الله؛ لأنه كان بالكلمة من الله، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل؛ لأن حالته وطريقة خلقه خارجة عن الأسباب البشرية المعتادة، وسماه الله أيضًا (روحًا)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]، أي روح من خلقه، كما قال الله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ

مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣].

أي: وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا من خلقه - سبحانه -. وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: «أرسل الله جبريل - عليه السلام - إلى مريم فنفخ في جيب درعها - فتحة ثوبها - فولجت فيها تلك النفخة الزكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانيًا نشأ من مادة روحانية، فلهذا سُمِّي روح الله». اهـ.

- قوله تعالى: ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾، أي: له الوجاهة في الدنيا؛ فجعله الله من أولي العزم من الرسل، أصحاب الشرائع الكبار والأتباع، ونشر الله له من الذكر ما ملأ بين المشرق والمغرب، وفي الآخرة يكون من أصحاب الشفاعة مع إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وله عند الله المنزلة العالية في الجنة فهو من المقربين.

- ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ كلامه في المهد آية عظيمة؛ ينتفع بها المؤمنون، وتكون حجة على المعاندين، أنه عبد الله ورسوله، وأن أمّه بريئة مما رماها به المكذبون.

وكلامه وهو كهل دعوةُ الناس لما فيه خيرهم وصلاحهم، كما هي دعوة سائر المرسلين.

- ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين يؤدون حقوق الله وحقوق عباده كاملة غير منقوصة.

- ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ﴾. الكتاب: الخط والكتابة.

والحكمة: العلم الصحيح، والإصابة في الأمور، وفهم أسرار الشرع. والتوراة التي أُنزلت على موسى، والإنجيل الذي أنزل على عيسى.

- ورسولاً إلى بني إسرائيل مُؤيَّدًا بالمعجزات والآيات الدالة على صدقه، ومنها:

١- جعل الطين طيرًا.

٢- شفاء الأعمى والأبرص.

٣- إحياء الموتى.

كل ذلك بإذن الله، فالله - سبحانه - هو الذي أمدَّه بهذه الآيات؛ تصديقًا لدعوته ورسالته، وعلَّمه الله من علم الغيب ما يستطيع أن يخبرهم عن أسرار بيوتهم، مما يأكلون ويدخرون، وقد حرص القرآن الكريم أن يكرر عبارة (بإذن الله) للتأكيد على أن المسيح لا يفعل شيئًا من عنده، بل هو من عند الله، وبإذن الله، وهذه العبارة (بإذن الله) جاء مثلها أو قريبًا منها في إنجيل يوحنا (٥ / ٣٠) إذ يقول المسيح - عليه السلام -: «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئًا». وقريب من ذلك ما جاء في يوحنا (٨ / ٤٠) من قوله: «وأنا إنسان قد كلَّمكم بالحق الذي سمعه من الله».

ومع ذلك ضل من ضلَّ، وقال: إن عيسى هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة -تعالى الله وتقدس عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا-؛ لأن الله أجرى على يديه هذه الآيات، وقال لهم: إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين، أي مؤمنين بأني عبد الله ورسوله إليكم، وأن الله أجرى على يدي هذه المعجزات لتكون دليلاً لكم، ولا تكون سبب كفركم.

- ومن أوصافه أيضًا أن الله جعله مباركًا، كثير الخير والنفع للناس، أينما ذهب أو حلّ، ومن هذه البركة: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والبر بأمه.

ولم يجعله الله متكبرًا عاصيًا، بل جعله رحيمًا ودودًا.

- والمسيح عليه السلام ليس إلا رسولاً مثل جميع الرسل الذين سبقوه، وأيَّدهم الله بالمعجزات، وأمه صديقة، برَّة طاهرة زكية، وليست من الملائكة، ولا من روح القدس، والدليل على ذلك أنهما كانا يأكلان الطعام.

وهذه خصائص الضعف البشري، فالذي يحتاج للطعام، ثم يحتاج إلى لوازم أكل الطعام -وسكت عنها القرآن؛ لأنها تُفهم من السياق؛ حيث إن أسلوب القرآن من السمو والرفعة فلم يذكر لوازم الطعام-

المسيح عليه السلام ليس إلا رسولاً مثل جميع الرسل الذين سبقوه، وأيَّدهم الله بالمعجزات، وأمه صديقة، برَّة طاهرة زكية، وليست من الملائكة، ولا من روح القدس، والدليل على ذلك أنهما كانا يأكلان الطعام

وهي دخول الخلاء، وما يترتب على ذلك، ولما كان القرآن الكريم كلام الله؛ فقد ترفَّع عن ذكر هذه الأمور تصريحًا، وإن فُهمت تلميحًا، فكيف يسقط هؤلاء القوم في الهوّة السحيقة، ويقولون عن عيسى إنه الله؟! وهل يليق بالله أن يمشي على الأرض، ويدخل الأسواق، ويأكل الطعام، ويدخل الخلاء كيف يكون هذا إلهًا؟!! - سبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

ثانيًا: ما جاء في السنة النبوية من ذكر صفات المسيح:

يمكننا أن نقسِّم أوصاف المسيح - عليه السلام- التي وردت في أحاديث رسول الله ﷺ إلى قسمين:

أ- صفات خَلْقية.

ب- صفات خُلُقية.

أ- الصفات الخَلْقية: وهي التي رآها النبيُّ ﷺ بعينه ليلة أسري به.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أُرَانِي اللَّيْلَةَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ؛ فَرَأَيْتُ رَجُلاً آدَمَ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ مِنْ أُدْمِ الرِّجَالِ، لَهُ لِمَّةٌ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ مِنَ اللِّمَمِ، قَدْ رَجَّلَهَا فَهِيَ تَقْطُرُ مَاءً، مُتَّكِئًا عَلَى رَجُلَيْنِ أَوْ عَلَى عَوَاتِقِ رَجُلَيْنِ، يَطُوفُ بِالْبَيْتِ؛ فَسَأَلْتُ مَنْ هَذَا؟ فَقِيلَ: الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...». [البخاري ٥٩٠٢]

وعن ابْنَ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي مُوسَى رَجُلاً آدَمَ طُوَالاً جَعْدًا كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ، وَرَأَيْتُ عِيسَى رَجُلاً مَرْبُوعًا مَرْبُوعَ الْخَلْقِ إِلَى الْحُمْرَةِ وَالْبَيَاضِ، سَبِطَ الرَّأْسِ...» [البخاري ٣٢٣٩].

ب- الأوصاف الخُلُقية:

وقد تقدم ذكرها أو ذكر معظمها في القرآن، ومما جاء في حديث رسول الله ﷺ ما يلي:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً، ثُمَّ قَرَأَ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾؛ فَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ يُؤْخَذُ بِرِجَالٍ مِنْ أَصْحَابِي ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ أَصْحَابِي. فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُذْ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨]. [البخاري ٣٤٤٧]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- عَنْ النَّبِيِّ ﷺ

كيف يسقط هؤلاء القوم في الهوّة السحيقة، ويقولون عن عيسى إنه الله؟! وهل يليق بالله أن يمشي على الأرض، ويدخل الأسواق، ويأكل الطعام، ويدخل الخلاء كيف يكون هذا إلهًا؟!! - سبحان الله وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا

قَالَ: «رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلاً يَسْرِقُ، فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قَالَ: كَلاَّ وَاللَّهِ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ. فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللَّهِ، وَكَذَّبْتُ عَيْنِي». [البخاري ٣٤٤٤، ومسلم ٦٢٨٦].

فقد وصفه النبي ﷺ بغاية الصلاح والورع والتقوى، ثم وصفه بالعبودية لله، وبغاية التسليم لله سبحانه وتعالى، والتفويض له عز وجل.

وفي ذكر النبي ﷺ لصفات عيسى عليه السلام، وصفات موسى، وصفات إبراهيم وغيرهم من الأنبياء دليل على صدق النبي ﷺ فيما أخبر به عن ربه، ودليل كذلك على أن مسيرة الأنبياء واحدة من لدن آدم حتى ختمهم الله بمحمد ﷺ، فلا نبي بعده، وأنهم جميعًا رسل الله، ومن كفر برسول منهم فقد كفر بالله الذي أرسله.

وأختم لقائي معكم اليوم بالإشارة إلى معنى الوفاة التي جاءت في قوله تعالى حكاية عن عيسى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ معناه: فلما رفعتني إليك، وأنهيت مهمتي في الأرض، وليس معنى الوفاة هنا الموت، فعيسى لا يزال حيًا، ولن يموت حتى يُبعَث مرة أخرى إلى الأرض ثم يموت فيها.

وإلى مزيد بيان في هذا الشأن وغيره، في العدد القادم بإذن الله، ونسأل الله لنا ولكم التوفيق والسداد. والحمد لله رب العالمين.

القصة في كتاب الله

عيسى ابن مريم

- عليه السلام -

(٥)

دعوته ورسالته

الحلقة الخامسة

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الذي أرسل رسله مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب بالحق والميزان ليقوم الناس بالقسط، والصلاة والسلام على خير الأنام، محمد ابن عبد الله، وعلى آله وصحبه الكرام، أما بعد:

فهذا لقاؤنا معكم للحديث عن دعوة عيسى - عليه السلام -، والتي لا تخرج عما جاء قبلها على لسان الأنبياء والمرسلين، ولا عن دعوة أخيه خاتم الأنبياء والمرسلين الذي جاء بعده محمد ﷺ.

أولاً: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥٠-٥١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٣- ٦٤].

وقد أشرنا في اللقاء السابق إلى الآيات التي تحمل معجزاته التي أجراها الله على يديه لتكون حافزًا لبني إسرائيل على الإيمان بدعوته ورسالته وطاعته فيما يأمرهم به، وتصديقه فيما أخبرهم به، وقد سمَّى القرآن الكريم هذه المعجزات بالآيات، وقد آن لنا أن نقف مع أصول دعوته ورسالته عليه السلام كما نستخلصها من الآيات السابقة:

١- لم يأت عيسى - عليه السلام - بنقض التوراة، بل جاء مصدقًا لها، ومبينًا وموضحًا بعض الأمور التي اختلف فيها أحبار بني إسرائيل، والتي تتعلق بالتحليل والتحريم.

٢- قرر لهم بما لا يدع مجالاً للشك أنه عبد الله ورسوله، وأن الله سبحانه ربُّه ورب بني إسرائيل ورب العالمين.

٣- دعاهم إلى تقوى الله وتوحيده وعبادته حق العبادة، فهذا هو الطريق المستقيم الذي سار عليه جميعُ الأنبياء.

٤- دعاهم إلى طاعته - عليه السلام - فيما دعاهم إليه من توحيد الله، وما نصحهم به من مكارم الأخلاق والبرِّ، وصلة الأرحام، والحذر من الانغماس في الشهوات واتباع الدنيا والهوى.

٥- بيَّن لهم أن مهمته في الأرض محدودة، وأنه عليه السلام إنما بُعث لخراف بني إسرائيل الضالة ولذلك بشرهم بنبيٍّ يأتي من بعده اسمه (أحمد) يبعثه الله لأهل الأرض كافة ومنهم بنو إسرائيل.

و(أحمد) من أسماء نبينا محمد ﷺ كما جاء في حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي خمسة أسماء؛ أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». والعاقب: الذي لا نبيَّ بعده. [متفق عليه].

وقال صاحب التحرير والتنوير في معنى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾: وهذه الكلمة التي أوحى الله بها إلى عيسى عليه السلام أراد الله بها أن تكون شعارًا لجماع صفات الرسول الموعود به ﷺ صيغت بأقصى صيغة تدل على ذلك إجمالاً بحسب ما تسمح اللغة بجمعه من معانٍ، ووكل تفصيلها إلى ما يظهر من شمائله قبل بعثته وبعدها ليتوسمها المتوسمون». اهـ مختصرًا.

فأوصاف الرسول ﷺ وأمته لا تكاد تُحصر من كثرتها فيما بين أيدي اليهود والنصارى اليوم من كتب، مع ما وقع فيها من تحريف.

بعض ما جاء في التوراة والإنجيل من مبشرات بالنبي الجليل محمد ﷺ

جاء في إنجيل متى في الإصحاح الرابع والعشرين قول عيسى عليه السلام: «ويقوم أنبياء كذبة كثيرون، ويُضلون كثيرًا، ولكن الذي يصبر إلى المنتهى فهذا يخلص ويكرز ببشارة الملكوت هذه في كل المسكونة شهادة لجميع الأمم ثم يكون المنتهى».

وجاء في إنجيل يوحنا في الإصحاح الرابع عشر: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر يثبت معكم إلى الأبد». والفارقليط كلمة رومية معناها: المدافع أو المسلمي أو المعزي، وقد جاءت بالمعنى الأخير لفظًا في معنى معظم الطبعات الحديثة للأناجيل، وهم بذلك يريدون أن يطمسوا الحقيقة؛ لأن مجموع أعداد حروفها يساوي كلمة محمد ﷺ بحساب الجمل، ومهما حاولوا فهناك حقائق كالشمس في وضح النهار لا يستطيعون محوها في التوراة والإنجيل، ذكرنا بعضها من الإنجيل؛ حتى لا نطيل عليكم، ونذكر أيضًا نماذج يسيرة من التوراة التي يؤمن بها اليهود والنصارى.

جاء في سفر التثنية (٢٣: ٣): «جاء الرب من سيناء، وأشرق لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فاران».

أما سيناء فهي إشارة إلى رسالة موسى عليه السلام، وأما ساعير أو سعير فهي أرض فلسطين في إشارة إلى رسالة عيسى عليه السلام، أما جبل فاران أو برية فاران فهو إشارة إلى مكة المكرمة ومكان البيت الحرام بالتحديد، وهذه البشارة التوراتية توافق ما أشارت إليه الآيات القرآنية في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: ١- ٣].

وهذا الذي جاء في سفر التثنية جاء بصورة أوضح في سفر التكوين: «وعاد إبراهيم فأخذ الغلام، وأخذ خبزًا وسقاء ماء، ودفعه إلى هاجر وحمله عليها، وقال لها: اذهبي، فانطلقت هاجر ونفد الماء الذي كان معها؛ فطرحت الغلام تحت شجرة، وجلست مقابلته على مقدار رمية الحجر لئلا تبصر الغلام حيث هو، فقال لها الملك: قومي فاحملي الغلام وشدِّي يدك به، فإني جاعله لأمة عظيمة، وفتح الله عينها فبصرت ببئر ماء، فسقت الغلام وملأت سقاءها، وكان الله مع الغلام فتربى وسكن في برية فاران».

أليس هذا هو إبراهيم - عليه السلام - الذي أسكن ذريته (هاجر وإسماعيل) عند بيته المحرم؟! وهذا الماء هو زمزم الذي نبع من تحت قدم إسماعيل، وقد وعد الله أن يُبارك في أمته، وأن يجعل منه النبي الذي سيتلألأ مبعثه أو يستعلي من فاران، ولم يأت من نسل إسماعيل نبي إلا محمد ﷺ، وهو صاحب هذه البشرى، وهذه صفاته وصفات أمته كما جاء في التوراة والإنجيل؟ ذكرنا أمثلة مختصرة منها بقيت حجة على أصحاب الكتابين، رغم محاولات التحريف والتأويل التي لم تتوقف يومًا ما.

ثانيًا: موقف المدعوين

وصف الله سبحانه في القرآن الكريم حال الذين دعاهم عيسى عليه السلام، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

وقال جل وعلا: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥].

وقد أشرنا إلى هذا من قبل، ونوجزه هنا لتمام الفائدة، أما اليهود فاتهموا أمَّه، وأنكروا نبوته وحاولوا قتله، وأما النصارى فانقسموا في شأنه؛ منهم من قال: هو الله، ومنهم من قال: ابن الله، ومنهم من قال: ثالث ثلاثة، ومنهم من قال: عبد الله ورسوله، ولكنهم قلَّة، وبقي منهم أفراد قليلون إلى قبل البعثة المحمدية بقليل، وهم الذين أرشدوا سلمان الفارسي، رضي الله عنه، أن يذهب إلى مدينة رسول الله ﷺ.

ثالثًا: موقف عيسى - عليه السلام - من أعدائه

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢-٥٣].

هذه الآيات تصوِّر الموقف بينه وبين خراف بني إسرائيل الضالة في الأيام الأخيرة قبل رفعه إلى السماء، فلما وجد منهم الإصرار على التكذيب، بل وسمع منهم الكفر الصريح والتهديد والوعيد؛ توجه إلى الصادقين من أتباعه متسائلاً «من أنصاري إلى الله؟». قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله. وقال الحسن: من أنصاري في السبيل إلى الله. وقال ابن كثير - رحمه الله -: والظاهر أنه: من أنصاري في الدعوة إلى الله. ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (آل عمران) أي أمة محمد ﷺ، وبعد هذا الإعلان ماذا حدث؟

هذا ما سنعرض له في العدد القادم إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه أجمعين.

وقفات مع القصة في كتاب الله

عيسى عليه السلام

الحلقة السادسة

أنصار الله «الحواريون»

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين. أما بعد:

فقد انتهينا في لقائنا السابق مع قصة نبي الله عيسى عليه السلام وهو يدعو قومه إلى توحيد الله وعبادته، وتقواه وطاعة رسوله، قائلاً لهم بعد أن قدَّم لهم الآيات والبراهين الدالة على نبوته ورسالته: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥٠-٥١].

وهنا وقف بنو إسرائيل منه موقف العداء والكفر، ومالئوا ذوي السلطان الكافر عليه في ذلك الزمان، وقد استشعر عيسى عليه السلام ذلك منهم، وسمعه بأذنه؛ وعندها أعلن فيهم بوضوح: من يتبعني إلى الله، ويبايعني على نصرة دين الله وتبليغ دعوته؟ وهذا ما سجله القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢- ٥٣].

ونَقِف مع هاتين الآيتين الوقفات التالية:

أولاً: الأنصار

١- ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أي: استشعر عليه السلام من اليهود الكفر والعدوان والكيد والمكر والخذلان.

٢- قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي﴾ إلى الله؟ قال ابن كثير: قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله، ونصر ابن كثير - رحمه الله - هذا القول، ورجحه على ما سواه، ثم عقَّب عليه قائلاً: «والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله، كما كان النبيُّ ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر: «ألا رجل يحملني إلى قومه فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» [أبو داود ٤٧٣٤، والترمذي: ٢٩٢٥٥، وصححه الألباني]؛ حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه وهاجر إليهم».

وهكذا عيسى ابن مريم عليه السلام أعلنها؛

فقامت له طائفة سماها الله «الحواريين»، وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «لكل نبي حواريٌ وحواريَّ الزبير» [متفق عليه]؛ فالحواريون هم أنصار الأنبياء، وقد امتنَّ الله على نبيه عيسى بهذه المنَّة، وجعل له حواريين ينصرونه، ويؤازرونه في تبليغ دعوة الله، وقال سبحانه مذكرًا نبيَّه عيسى عليه السلام بهذه النعمة ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١].

> الحواريون هم أنصار الأنبياء، وقد امتنَّ الله على نبيه عيسى بهذه المنة، وجعل له حواريين ينصرونه، ويؤازرونه في تبليغ دعوة الله

٣- وقد جاءت آية المائدة في سياق تعداد نعم الله على نبيِّه ورسوله عيسى ابن مريم في يوم القيامة.

وهذا مشابه لتأليف الله تعالى بين قلوب المهاجرين والأنصار حول النبي ﷺ، وقد امتن على نبيه ورسوله محمد بذلك، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢- ٦٣].

٤- وهكذا ألهم الله حواريِّي عيسى الإيمان به سبحانه، والتصديق بالنبي الكريم فأعلنوها صريحة: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾؛ ذلك لأن الإسلام دين الأنبياء جميعًا من لدن آدم عليه السلام مرورًا بإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، وانتهاء بخاتم النبيين محمد ﷺ وبامته التي تسمَّت بهذا الاسم؛ لأنها كذلك خاتمة الأمم.

٥- ولم يكتف الحواريون بإعلان إسلامهم، بل توجهوا إلى الله بخالص الدعاء متوسلين بإيمانهم أن يجعلهم مع الشاهدين (أي مع أمة محمد ﷺ). قاله ابن عباس - رضي الله عنهما -.

وقال ابن كثير عنه: «إسناده جيد»، فالله أعلم.

ثانيًا: قصة المائدة من سورة المائدة

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٢ - ١١٥].

هذه قصة المائدة التي طلبها الحواريون من عيسى عليه السلام، كما جاءت في السورة التي تسمَّت باسمها في القرآن الكريم، وفي ذلك دلالة على أهمية هذا الحدث، ولذلك أوردناه ضمن حديثنا اليوم عن الحواريين، وسوف نناقش هذا الموضوع من عدة وجوه:

الأول: كيف يطلب الحواريون - وهم أخلص الناس إيمانًا - من نبيهم عيسى عليه السلام أن يطلب من ربهم إنزال مائدة عليها أطايب الطعام؟ ألا يدل ذلك على شك منهم في قدرة الله؟

قد يبدو هذا للوهلة الأولى، نعم. ويؤكده قول عيسى عليه السلام: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي صادقي الإيمان.

لكنهم عندما قدموا تبريرًا معقولاً لطلبهم في قولهم: ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾.. إلى آخر ما قالوه؛ هنالك توجه عيسى عليه السلام إلى ربه؛ ليسأله إنزال المائدة، وإلى هذا الحد يكون الأمر قد بدا مقبولاً، وإن كان في النفوس شيء منه؛ فنذهب مع الإمام القرطبي حيث يجيبنا على هذا الإشكال إجابة شافية بإذن الله - فيقول - رحمه الله - عن القراءة المشهورة: «هل يستطيع ربُّك» المضارع بالياء مع رفع باء (ربُّك) أن هذا لم يكن شكًا منهم في استطاعة الله

سبحانه وتعالى؛ لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي، وقد علمت أنه يستطيع، فالمعنى: هل يفعل ذلك؟ وهل يجيبني أم لا؟

وقد كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر؛ فأرادوا علم معاينة كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]. اهـ.

هذا باختصار بعض ما أورده الإمام القرطبي على القراءة المشهورة بالياء، أما على القراءة الأخرى التي سماها قراءة (التاء) «هَلْ تَسْتَطِيعُ ربُّك» أي: هل تستطيع أن تدعو ربك؛ فإن الإشكال يزول بالكلية ويصير لا إشكال.

وأيًا ما كان الأمر؛ فإن عيسى عليه السلام دعا ربه، وربّه سبحانه استجاب له، ونزلت المائدة عليها أصنافٌ من الطعام اختلفوا في تعيينها وتعدادها؛ لكني أقول: ما ظنك بمائدة يُنزلها الرحمن وتحملها الملائكة على نبيّ من أولي العزم وحوارييه؟ اللهم ارزقنا من فضلك واكفنا بحلالك عن حرامك وأغننا بفضلك عمن سواك. فمهما قيل في وصفها تبقى حقيقتها أعظم من كل وصف.

الوجه الثاني: اختلف السلف في نزول المائدة هل أنزلها الله فعلاً أم أنهم خافوا لما قال الله لنبيه عيسى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. فلم ينزلها عليهم.

ولست أدري لم الخلاف؟ وقد سأل عيسى ربَّه، وسؤال الأنبياء لا يُرَدّ، وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾، فكيف بعد ذلك يكون مجال للخلاف، وعمومًا جمهور السلف على نزولها، وهذا هو الحق، والله أعلم.

الوجه الثالث: قال الشيخ ابن باز رحمه الله معلقًا على هذه القصة: «ففي هذا بيان شيء من قدرة الله جل وعلا، وأنه سبحانه في العلو؛ لأن الإنزال يكون من الأعلى إلى الأسفل؛ فإنزال المائدة وطلب إنزالها، كل ذلك دليل على أن القوم قد عرفوا أن ربهم في العلو، فهم أعرف بالله وأعلم به من الجهمية وأضرابهم ممن أنكر العلو، فالله سبحانه فوق السماوات، وفوق جميع الخلائق، وفوق العرش قد استوى عليه استواءً يليق بجلاله لا يشابه خلقه في شيء من صفاته جل وعلا». [انتهى مختصرًا من مجموع فتاوى ابن باز].

> الحواريون أعرف بالله وأعلم به من الجهمية وأضرابهم ممن أنكر العلو، فالله سبحانه فوق السماوات، وفوق جميع الخلائق، وفوق العرش قد استوى عليه استواءً يليق بجلاله لا يشابه خلقه في شيء من صفاته جل وعلا

الوجه الرابع:

هل قصة المائدة هي المذكورة في الأناجيل تحت مسمى العشاء الأخير أو (أفخاريستيا) باليونانية يعني (الشكر أو المسرّة)، وقد تم اختزالها وتحريفها بتناول رقيقة خبز وشرب خمر عند انتهاء الصلاة؛ تذكيرًا بالعشاء الأخير للمسيح وحوارييه عليهم السلام. الله أعلم.

وقد ذكر ابن كثير أن ورود القصة في الأناجيل التي بين أيديهم اليوم أمر مختلف فيه، وأرجع علم ذلك إلى الله سبحانه.

الوجه الخامس: بقي أن نقول: إن هناك رأيًا شاذًا لا يُعتد به؛ يقول صاحبه: إن المائدة لم تنزل، وستنزل على عيسى بعد نزوله آخر الزمان، ويحدد لذلك ميقاتًا هو ١٤٤٤هـ؛ مستنتجًا ذلك من حسابات وهمية يضرب عدد آيات سورة المائدة في آيات سورة الفاتحة !! ولست أدري ما العلاقة بينهما؟!!

ونحن نؤمن بما أنزله الله في كتابه على لسان رسوله، وبما أجمع عليه سلف الأمة ممن يُعتد بقولهم.

ونسأل الله أن يحيينا على ذلك، وأن يميتنا على ذلك، وإلى لقاء أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه. والحمد لله رب العالمين.

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

فقد انتهينا في اللقاء الماضي عندما التف الحواريون حول عيسى ينصرون دينه الذي جاء به، وأعلنوا إسلامهم لله رب العالمين في مواجهة الكفر البواح الذي أعلنه اليهود الذين لم يقف أمرهم عند تكذيب عيسى عليه السلام والكفر بما جاء به، واتهامه بالسحر، واتهام أمه الشريفة الطاهرة الكريمة وقولهم عليها بهتانًا عظيمًا!

أقول: لم يقف مكر اليهود من بني إسرائيل عند هذا الحد، بل وشوا للحاكم الروماني في ذلك الزمان، وادعوا أن عيسى يجمع الناس ضده، ويحاول الخروج على الدولة الرومانية حتى وافقهم على قتله، بل أصدر مرسومًا يفوّض اليهودَ أن يفعلوا بالمسيح ما يشاءون من قتل وصلب وغير ذلك.

وهكذا حاك القوم المؤامرة للتخلص من عيسى عليه السلام ودعوته إلى الأبد، فهل تركهم الله يفعلون ما يشاءون بنبيه ورسوله الكريم عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام؟

فلنتدبر بعض الآيات من كتاب ربنا جل شأنه؛ التي تنبئنا عن تدبير الله لنبيِّه، وكيف نجاه من بين أيديهم، ورفعه إلى السماء كريمًا معززًا. قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٥٥) وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ

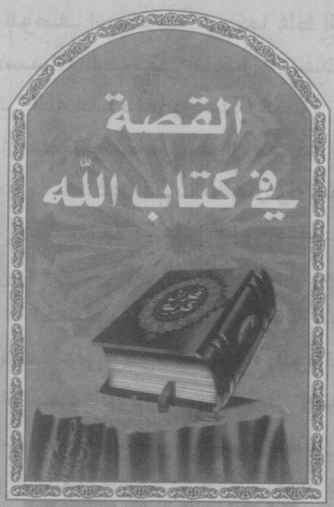

عيسى ابن مريم عليه السلام

الحلقة السابعة

(بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ)

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٥٨) وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٥٩].

ونحاول من خلال الوقوف مع هذه الآيات أن نستخلص منها عبرًا وفوائد:

أولاً: نظرة عامة

الآيات في سورة آل عمران تفيد أن الله أنبأ عيسى عليه السلام أنه متوفيه، ورافعه إليه، ومطهره من الذين كفروا، وجاعل العزَّة لأتباعه إلى يوم القيامة، ولا شك في وعد الله وعهده، ومن أوفى بعهده من الله.

ولذا كانت آيات سورة النساء توكيدًا وبيانًا لطبيعة بني إسرائيل في نقض العهود والمواثيق، وكفرهم، وقتلهم الأنبياء، فهذا ديدنهم فكم قتلوا؟ قتلوا الكثير.

وتدبر قول ربنا عز وجل فيهم: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧]، إذن هم قتلوا الأنبياء بالجملة، ومنهم يحيى وزكريا، عليهما السلام، وحاولوا قتل عيسى عليه السلام، بل قالوا: إنهم قتلوه وصلبوه. وهذا الذي نفته سورة النساء بوضوح ويقين: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾، ﴿ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾.

ثانيًا: وقفة تدبُّر مع شيء من التفصيل حول تفسير بعض المفردات

- ﴿وَمَكَرُوا﴾ أي: يهود بني إسرائيل، حين دبَّروا قتل المسيح عليه السلام.

- ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾: دبَّر الله لنجاة عبده ورسوله عيسى، وخيَّبهم فيما عزموا عليه.

- ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾: سبحانه وتعالى أحسن المدبرين لإنقاذ أنبيائه وأوليائه، وإهلاك أعدائه.

- ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: متمم لك ما كتبت لك من أيام بقائك مع قومك.

ثالثًا: مناقشة ما يحتاج إلى تفصيل

١- لا يجوز وصف الله سبحانه بصفة المكر مُطلقة؛ إلا أن يكون الوصف بها مقيدًا كما جاء بالآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾، فالمكر منه المذموم والممدوح، ولله سبحانه منه أكملُ الوصف وأجمله.

٢- يترتب على ما سبق أنه لا يجوز أن يُشتق من هذا الوصف اسم لله تعالى، كما غلط البعض فجعل من أسمائه الحسنى (المضل - الفاتن - الماكر)، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا؛ فهذه صفات أفعال مخصوصة في أحوال معينة؛ فلا يجوز أن يسمَّى بأسمائها، فباب الأفعال والأخبار أوسع من باب الأسماء، فلا نسمي الله - سبحانه - إلا بما سمى به - سبحانه - نفسه، أو سماه رسوله ﷺ.

٣- اختُلف في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ على وجوه: أشهرها: (الوفاة الحقيقية - الوفاة بمعنى النوم - الوفاة بمعنى انتهاء الأجل في الأرض - الوفاة بمعنى القبض والانتقال والرفع).

وللعلماء - رحمهم الله - أقوال في الترجيح نختصرها فيما يلي:

١- بعد أن عرض الإمام القرطبي - رحمه الله - الأقوال في معنى الوفاة قال: «والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم، كما قال الحسن وابن زيد، وهو اختيار الطبري، وهو الصحيح عن ابن عباس».

٢- ويختار هذا أيضًا صاحب أيسر التفاسير، ويؤكده قائلاً: «لم أر داعيًا إلى استشكال رفع عيسى حيًا إلى الملكوت الأعلى، وإبقائه هناك إلى أن يُنزله الله في آخر أيام هذه الدنيا؛ حيث صرّح رسول الله ﷺ بنزول عيسى بما لا مجال للشك فيه، وإن السنن الكونية خلقها الله تعالى؛ فهو قدير على تبديل ما شاء منها، أليس الله على كل شيء قديرًا؟ بلى. فلِمَ إذًا يرتبك المؤمنون في شأن رفع عيسى حيًا وإبقائه في دار السلام حيًا حتى ينزل في آخر الدنيا؟». اهـ.

انتهى كلام الشيخ أبي بكر الجزائري، حفظه الله، وكأني به - والله أعلم - يشير إلى خرق السنن لعيسى منذ ولادته؛ حيث وُلد بغير أب، وأراد الله أن يجعله آية للناس، وكذلك بدَّل الله لعيسى - عليه السلام - السنن؛ فتكلم في المهد، ومن قوله: ﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًا ﴾ [مريم: ٢٣].

فخوارق العادات من لوازم عيسى عليه السلام منذ ولادته، وفي حياته، ويوم عودته مرة أخرى

للدنيا قبل وفاته الوفاة الآخرة.

٣- أما الإمام ابن كثير - رحمه الله - فقد عرض لنا الأقوال بغير ترجيح، لكنه قدَّم قولاً، وكأني به يقدمه على غيره، والله أعلم.

وهذا القول هو: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾. قال قتادة وغيره: هذا من المقدم والمؤخر تقديره إني رافعك إليَّ ومتوفيك بعد ذلك. اهـ.

وهو بتقديم هذا القول يوافق ما ذهب إليه الإمام القرطبي، وصححه عن ابن عباس وغيره، وهو اختيار الإمام الطبري، والله أعلم.

رابعًا: في قوله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية.

يقول الإمام ابن القيم - رحمه الله -: «فلما كان للنصارى نصيب من اتّباعه كانوا فوق اليهود إلى يوم القيامة، ولما كان المسلمون أتبع من النصارى كانوا فوق النصارى إلى يوم القيامة». اهـ.

وهذا القول البديع مجمل يفصله الإمام ابن كثير رحمه الله كالتالي: (وهكذا وقع؛ فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء؛ تفرقت أصحابه شيَعًا بعده، فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أَمَته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا هو الله، وآخرون قالوا: ثالث ثلاثة، واستمروا على ذلك ثلاثة قرون، ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يقال له «قسطنطين»، فدخل في دين النصرانية، قيل حيلة ليفسده؛ فإنه كان فيلسوفًا، وقيل جهلاً منه - إلا أنه بدَّل لهم دين المسيح، وحرَّفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضع له القوانين والأمانة الكبرى - في زعمهم -، والتي هي الخيانة الحقيرة، وأحلّ لهم في زمانه لحم الخنزير، وصلّوا إلى المشرق، وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع، وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون، فصار دين المسيح دين قسطنطين، واتبعه طائفة الملكية منهم، وهم في هذا كله قاهرون لليهود، وهو وإن كان أقرب للحق من اليهود، إلا أن الجميع كفار.

فلما بعث الله محمدًا ﷺ؛ فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، فهم أولى بإبراهيم من اليهود والنصارى، وأولى بموسى من اليهود، وأولى بعيسى من النصارى، وقد نسخ الله بشريعة محمد كل الشرائع، وأرسله الله بالهدى ودين الحق الذي لا يغيّر ولا يبدل إلى قيام الساعة، ولا يزال قائمًا ظاهرًا منصورًا على كل دين، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها، ودانت لهم جميع الممالك، وكسروا كسرى، وقصروا قيصر، وهذا ما وعدهم الله به؛ حيث قال الله سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

وقد وعدهم الصادق المصدوق محمد ﷺ بفتح القسطنطينية، وقد حدث، وسيفتحونها مرة أخرى، إن شاء الله تعالى، ويفتحون روما، أو رومية كما أخبر عليه الصلاة والسلام. [انتهى ملخصًا من تفسير ابن كثير، الجزء الأول].

وحول هذه القضية أيضًا نقل الإمام القرطبي عن الحسن وابن جريج ما ملخصه: «ورفع الله تعالى عيسى من روزنة كانت في البيت إلى السماء، قال: وجاء الطلب من اليهود؛ فأخذوا الشبيه وقتلوه، ثم صلبوه، ثم تفرقوا ثلاث فِرَق: قالت فرقة: كان فينا الله ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء هم اليعقوبية، وقالت: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية، وفرقة قالت: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون. فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ».

وهذا الذي ذكره القرطبي في الذين اتبعوا المسيح من النصارى، أما اليهود الذين كفروا به وتآمروا عليه، وقالوا: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم؛ فقد رد الله عليهم: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾، فكيف نجى الله نبيه ورسوله عيسى من براثن اليهود؟

هذا ما سنجيب عليه إن شاء الله في لقائنا القادم، فإلى اللقاء مع خالص الدعاء. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله أجمعين.

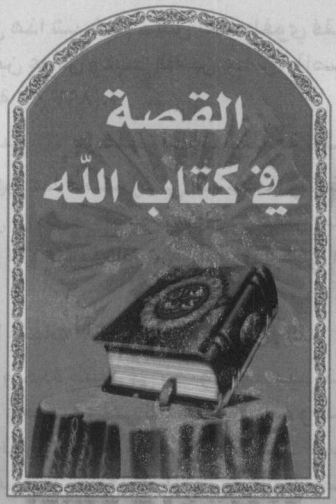

عيسى ابن مريم

- عليه السلام -

الحلقة الثامنة

(وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ)

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، يقص الحق، ويهدي السبيل، والصلاة والسلام على خاتم النبيين محمد النبي الأمي الأمين، بشرت به التوراة والأناجيل؛ فآمن به من هداه الله وكفر من أضله الله.. وبعدُ:

قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦- ١٥٨]. الحديث هنا عن اليهود الذين نقضوا المواثيق، وخانوا العهود، وقتلوا الأنبياء، وكفروا بالله وكتبه ورسله، واتهموا مريم - عليها السلام - بالزور والبهتان، وادعوا قتل المسيح عليه السلام، لكن الله سبحانه يردُّ عليهم ردًّا قاطعًا حاسمًا: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

ونحن ابتداءً نؤمن بما أخبرنا الله به - فهو سبحانه - أعلم، وهو على كل شيء قدير، وقد نجى عبده ورسوله عيسى عليه السلام من كيد اليهود ومن براثن خيانتهم، وقد قال تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. نعم فالله - سبحانه - عزيز لا يُغلب، حكيم في كل ما يصدر عنه سبحانه من أقوال وأفعال، نؤمن بذلك ونسأل الله أن نلقاه على هذا الإيمان غير مفتونين ولا ضالين.

ولما كانت الفتنة قد عظمت والبلاء قد عمَّ في قضية المسيح عليه السلام.. مولده وبعثته، وموته ومبعثه مرة أخرى؛ فإن الأمر يحتاج إلى مزيد بيان للرد على افتراءات اليهود وأكاذيبهم، ومن سار في فلكهم؛ حتى يحيا من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وسنحاول بعون الله تناول هذا الموضوع في المحاور الآتية:

أولا: أقوال المفسرين في الآيات السابقة

أ- يعدِّد القرآن الكريم رذائل بني إسرائيل التي

أدت إلى لعنتهم من الله ومن أنبيائه في الآية السابقة على هذه الآيات، فيقول تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾. هذا كفر عام بجميع آيات الله ورسله. أما قوله تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ...﴾ هنا فيقصد به كفر مخصوص وهو كفرهم بعيسى ابن مريم عليه السلام؛ لأنه استلزم ما جاء بعده من قولهم على أمه ورميهم لها بما هي بريئة منه وغافلة عنه، وقد برأها الله سبحانه في أكثر من موضع في كتاب الله، منها قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وقد سبق أن وفينا هذا الموضوع حقه.

ب- أما قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فلك أن تتساءل كيف يقولون عنه إنه رسول الله، وينسبونه لأمه مع كفرهم؛ وقولهم ما قالوا عن أمه؟

يجيب عن هذا التساؤل صاحب الكشاف فيقول: «قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون لقومه عن موسى: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]، ويجوز أن يضع الله سبحانه الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم؛ تنزيهًا لعيسى عليه السلام، ورفعًا لمنزلته عما كانوا يذكرونه به». اهـ.

جـ- قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾. قال الشيخ حسنين محمد مخلوف: «زعم أكثر اليهود أنهم قتلوا المسيح وصلبوه، فأكذبهم الله - تعالى - في ذلك وقال: ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي ألقى شبه المسيح على المقتول؛ لأنهم لما دخلوا ليقتلوه وجدوا هذا الشبيه، فأخذوه يظنونه المسيح، وما هو بالمسيح؛ لأن المسيح الحقيقي قد رفعه الله إليه ونجاه من شرورهم».

د- أما كيفية النجاة فقد كثرت فيها أقوال المفسرين نختار منها قولين هما أرجح ما قيل والله أعلم:

القول الأول للعلامة الألوسي في تفسيره قال رحمه الله: «إن الله تعالى ألقى شَبَه عيسى عليه السلام على أحد الذين خانوه، وكان ممن يدعي الإيمان به، وهو «يهوذا الاسخربوطي» الذي كان عينًا وجاسوسًا على المسيح، والذي أرشد الجند الذين أرادوا قتله إلى مكانه، وقال لهم: «أنا أدلكم عليه، وآخذ على ذلك ثلاثين درهمًا، وقال لهم من أقبّله أمامكم يكون هو المسيح؛ فلما دخل البيت الذي كان فيه عيسى ليدلهم عليه ليقتلوه رفع الله عيسى وألقى شبهه على ذاك المنافق، فأخذوه وهم يظنون أنه عيسى وقتلوه».

وهذه الرواية اعتمدت فيما ذكرت على ما جاء في الأناجيل مفصلاً، وقد أشار الألوسي إلى ذلك. وهو معذور فيما ذهب إليه لندرة تفصيل ذلك في القرآن أو السنة الصحيحة؛ ولأن هذه النصوص لا تتعارض مع القرآن الكريم في نفي الصلب عن عيسى عليه السلام.

أما القول الثاني فهو للإمام ابن كثير رحمه الله وقد نحى منحى آخر، واستدل لقوله بحديث عن ابن عباس، وقال عنه: صحيح الإسناد إلى ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: «لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَ عِيسَى إِلَى السَّمَاءِ، فَخَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ وَفِي الْبَيْتِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلاً مِنَ الْحَوَارِيِّينَ، يَعْنِي فَخَرَجَ عِيسَى مِنْ عَيْنٍ فِي الْبَيْتِ وَرَأْسُهُ يَقْطُرُ مَاءً، فَقَالَ: إِنَّ مِنْكُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِي اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِي، قَالَ: أَيُّكُمْ يُلْقَى عَلَيْهِ شَبَهِي، فَيُقْتَلَ مَكَانِي وَيَكُونَ مَعِي فِي دَرَجَتِي، فَقَامَ شَابٌ مِنْ أَحْدَثِهِمْ سِنًّا، فَقَالَ لَهُ: اجْلِسْ، ثُمَّ أَعَادَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ الشَّابُّ: أَنَا، فَقَالَ: أَنْتَ هُوَ ذَاكَ، فَأُلْقِيَ عَلَيْهِ شَبَهُ عِيسَى، وَرُفِعَ عِيسَى مِنْ رَوْزَنَةٍ فِي الْبَيْتِ إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: وَجَاءَ الطَّلَبُ مِنَ الْيَهُودِ فَأَخَذُوا الشَّبَهَ، فَقَتَلُوهُ ثُمَّ صَلَبُوهُ، فَكَفَرَ بِهِ بَعْضُهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مَرَّةً بَعْدَ أَنْ آمَنَ بِهِ، وَافْتَرَقُوا ثَلاثَ فِرَقٍ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ اللَّهُ فِينَا مَا شَاءَ ثُمَّ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ، فَهَؤُلاءِ الْيَعْقُوبِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا ابْنُ اللَّهِ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَيْهِ، فَهَؤُلاءِ النَّسْطُورِيَّةُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كَانَ فِينَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَهَؤُلاءِ الْمُسْلِمُونَ، فَتَظَاهَرَتِ الْكَافِرَتَانِ عَلَى الْمُسْلِمَةِ فَقَتَلُوهَا، فَلَمْ يَزَلِ الإِسْلامُ طَامِسًا حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ» [رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٤ / ٤٣١، وأورده ابن كثير في تفسيره ١ / ٧٠٩ وقال: هذا إسناد صحيح].

وأظن أن ابن عباس نقله عن علماء أهل الكتاب، والله أعلم.

وللحديث بقية، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله أجمعين.

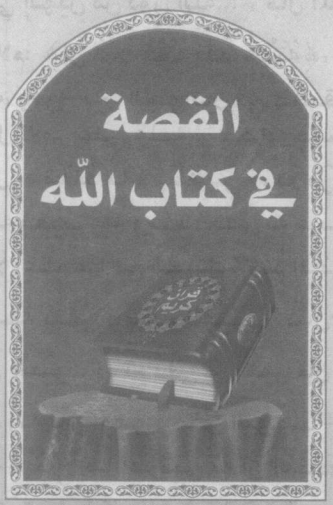

عيسى ابن مريم

- عليه السلام -

الحلقة العاشرة

هل قال عيسى لقومه: «اتخذوني وأمي إلهين من دون الله»

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، والصلاة والسلام على من أُنزل عليه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

أما بعدُ: فنواصل بحول الله وقوته الحديث في قصة عيسى عليه السلام، وفي مقال سابق رددنا فرية اليهود عن عيسى وقولهم: إنهم قتلوه وصلبوه، وتبين لنا بالحقائق الدامغة أنهم ما فعلوه، ولكن شُبِّه لهم، كما رددنا فرية النصارى في فلسفة الصلْب والفداء وما هي إلا محض افتراء.

واليوم - بعون الله - نرد فرية أخرى ألا وهي اتخاذه وأمه إلهين من دون الله، ولما كانت هذه الفرية العظيمة تكاد السماوات أن تنشق بسماعها وتخر الجبال هدًا من هولها، جعل الله ردَّها على رءوس الأشهاد يوم يجمع الله الأولين والآخرين، ويجمع معهم الرسل ويسألهم: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]؟

ولنشرع الآن مستعينين بالله فيما قصدناه:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٦- ١١٨].

وسنتناول هذا الموضوع بعون الله على الوجه التالي:

أولاً: تساؤلات:

- متى كان هذا الحوار؟ وأين؟ ولماذا خصَّ الله عيسى به؟

والإجابة: سيكون هذا الحوار إن شاء الله يوم القيامة، ونقله الله إلينا كأننا نراه ونسمعه، ولا يغرنَّك استخدام الفعْل الماضي (قال)، فهذا كثيرًا ما يأتي في القرآن للدلالة على

تأكيد وقوعه مستقبلاً، لكن سياق الآيات ولحاقها يؤكد وقوع ذلك في عرصات القيامة على رءوس الأشهاد، فالآيات السابقة على الآيات التي معنا تبدأ من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]. أي: كيف استجابت لكم أممكم بالطاعة أم بالتكذيب؟ فيجيبون ﴿قَالُوا لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾.

ثم يخص الله عيسى عليه السلام بهذا الحوار الطويل، ثم يعقب سبحانه في نهاية ذلك الحوار: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

فيوم الجمع هو يوم القيامة، وهو اليوم الذي ينفع فيه الصادقين صدقهم؛ إذن هذا الحوار سيكون إن شاء الله يوم القيامة، ونقله الله إلينا ليرفع عن عيسى ما ألحقه به الكاذبون، وقد بُشر عيسى بذلك، فقال: «.. لأن الله سيُصعدُني من الأرض، وسيغيِّر منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياي، ومع ذلك فإنه لما يموت شر ميتة أمكث في ذلك العار زمنًا طويلاً في العالم، ولكن متى جاء محمد رسول الله المقدس تُزال عني هذه الوصمة..» [برنابا: ١١٢ / ١٧- ١٨].

فعيسى عليه السلام يعتبر ما نُسب إليه زورًا وبهتانًا يعتبره وصمة عار يمكث فيها طويلاً حتى يبعث الله رسوله محمدًا ﷺ فيخلصه من هذا العار، ومن هذه الوصمة بذكر الحق الذي اختلف فيه الضالون.

أما لماذا خصَّ الله عيسى بهذا الحوار من دون الرسل على رءوس الأشهاد؟

فالجواب: لما كانت الفرية التي ألحقت به من أعظم الفِرَى، وتناقلتها الأجيال بالكذب والبهتان إلى قيام الساعة، كان لا بد من فضيحة القائلين بها على رءوس الأشهاد يوم يقوم الناس لرب العالمين، فإنها من أبطل الباطل الذي لا دليل عليه من نقل صحيح ولا عقل سليم.

ثانيًا: معايشة ذلك الحوار العظيم:

قال ابن القيم - رحمه الله - في «مدارج السالكين»: قول الله تعالى ذكره ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ قال المسيح عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾، ولم يقل: لم أقله، وفرق بين الجوابين في حقيقة الأدب، ثم أحال الأمر على علمه سبحانه بالحال وسرِّه. فقال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾، ثم برَّأ نفسه عن علمه بغيب ربه وما يختص به سبحانه فقال: ﴿وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾، ثمَّ أثنى على ربه ووصفه بتفرده بعلم الغيوب، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾، ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمره ربه به - وهو محض التوحيد - فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾، ثم أخبر عن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد وفاته لا علم له بهم، والله سبحانه وحده هو المتفرد بالعلم والاطلاع عليهم، وشهادته سبحانه فوق كل شهادة وأعمّ: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، ثم قال: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾، وهذا من أبلغ الأدب مع الله في مثل هذا المقام، أي شأن السيد رحمة عبيده والإحسان إليهم، وهؤلاء عبيدك ليسوا لغيرك، فلولا أنهم من أنجس العبيد وأعتاهم وأعصاهم لسيدهم لم تعذبهم، ثم قال: ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ولم يقل «الغفور الرحيم»؛ لأن المقام ليس مقام شفاعة لهم، بل مقام البراءة منهم». اهـ مع الاختصار.

فأنت تلاحظ معي أن عيسى عليه السلام يستحيل عليه أن يقول لقومه أو يدعوهم لغير ما أمره الله به، ألا وهو عبادته - سبحانه وتعالى - وحده لا شريك له، وهذه دعوة جميع الرسل، وقد نزَّه الله سبحانه وتعالى نبيه عيسى عليه السلام عن مثل ذلك في أكثر من موضع من كتابه الكريم؛ منها قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢]، بل قد نزَّه الله جميع رسله الذين أرسلهم عن مثل ذلك، فقال سبحانه:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩].

وكما نزّه الله رسله عن دعوة أقوامهم إلى عبادة غير الله؛ أثبت لهم جميعًا دعوتهم لتوحيد الله - سبحانه - وعبادته وحده؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ثالثًا: هل دعت التوراة والإنجيل إلى التوحيد؟

نستطيع أن نؤكد ما يلي:

١- إن الدعوة التي قامت عليها المسيحية الصحيحة، والتي نادى بها نبي الله عيسى عليه السلام؛ لم تكن إلا إلى توحيد الله سبحانه، وهناك نصوص وفيرة في التوراة والإنجيل تؤكد هذه الحقيقة مع ما أصابها من تحريف، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

أ- ما جاء في التوراة في سفر الخروج (٣٤ / ١٤):

«احفظ ما أنا موصيك اليوم: لا تسجد لإله آخر..» وفي سفر (أشعياء: ٤٤ / ٩١٦): «أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيري». وفي سفر التثنية إصحاح (٦)، فقرة (٤ / ٥): «اسمع يا إسرائيل، الرب إلهنا رب واحد، فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفس ومن كل قوتك».

ب- أما في الأناجيل فإليك ما يلي:

- في إنجيل متى إصحاح (٢٣ / ٩): «لا تدعوا لكم أبًا في الأرض؛ لأن أباكم واحد الذي في السماوات».

- وفي متى إصحاح (٤): «قال يسوع: اذهب يا شيطان؛ لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد».

- وفي إنجيل مرقص يأتي أحد الكتبة إلى المسيح سائلاً: «أي وصية هي أول الكل؟ فأجابه يسوع (المسيح): إن أول كل الوصايا: اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد». فيقول الرجل مستحسنًا كلام المسيح: «جيدًا يا معلم بالحق قلت؛ لأن الله واحد وليس آخر سواه».

- وعند يوحنا إصحاح (٥ / ٤٤): يتحدث المسيح مع اليهود فيقول لهم: «كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلوا مجدًا بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه».

جـ- المسيح إنسان وليس إلهًا، يقول المسيح عن نفسه كما جاء في إنجيل يوحنا:

١- «أنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله».

٢- «إن ابن الإنسان ماضٍ كما هو مكتوب عنه».

- وجاء في قاموس الكتاب المقدس (ص١٧١) لبطرس عبد الملاك: «ويوجد في الأربعة الأناجيل ثمانية وسبعون مثلاً يستخدم فيها المسيح عبارة: «إن الإنسان» عن نفسه». هكذا عبارته بنصِّها.

٢- وبهذا نستطيع أن نؤكد أن المسيحية في قرونها الثلاثة الأولى لم تعرف إلا التوحيد الخالص؛ فالمسيح لم يقل في حياته: إنه إله ولا ثالث ثلاثة، ولم يُسمع من حواريه غير ذلك، وإنما هذا اختراع بولس الوثني والذي رُقِّي في عهد قسطنطين إلى درجة رسول؛ لأن قسطنطين الملك لما تنصَّر أجبر الناس على النصرانية بالسيف غالب أحيانه، وبالعطاء أحيانًا، ونصر عقيدة بولس وأتباعه وتغيَّر وجه النصرانية من ذاك التاريخ وبالتحديد في مجمع نيقية (٣٢٥م) إلى النصرانية الجديدة، وهي المعروفة اليوم، وتم القضاء التام على أهل التوحيد، ومنهم من تفرَّق في الأقاليم حتى جاء النور الساطع من جبال فاران (مكة) وظهر النبي المنتظر الذي بشَّر به موسى وعيسى والذي دعا به إبراهيم وأوحى الله إليه: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، فحمل لواء التوحيد مجددًا، وأظهر دعوة الأنبياء جميعًا، وورثت أمته الكتاب، واجتباهم الله وسماهم المسلمين، وجعلهم شهداء على الأمم، وكان الرسول محمد شهيدًا عليهم، والحمد لله رب العالمين.

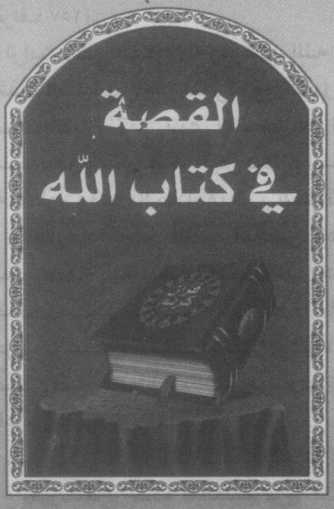

عيسى ابن مريم

- عليه السلام -

الحلقة (١١)

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين، وبعد:

أستطيع الآن أن أقول: لقد حططنا رحالنا بعد رحلة دامت عشرة شهور مع قصة عيسى عليه السلام في عرض موجز لها، وإن كان تاريخ النصرانية ومراحلها يحتاج إلى بحوث ودراسات لسنا بصددها الآن، ويمكننا ونحن في هذه الاستراحة اليسيرة أن نستخلص أهم الدروس من عرضنا السابق على النحو الآتي:

١- أنزل الله القرآن الكريم على محمد النبيِّ الأميِّ الأمين مصدقًا لما في الكتب السابقة من حقٍ، ومصححًا لما فيها من خطأ وباطل. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، فما في أيدي أهل الكتاب من الدين باطله أضعاف حقه، وحقه منسوخ بالقرآن المهيمن الذي يجب على كل من سمع به أن يؤمن به ويتبعه.

قال يسوع (يعني المسيح عيسى): «كل ما ينطبق على كتاب موسى فهو حقٌ فاقبلوه؛ لأنه لما كان الله واحدًا؛ كان الحق واحدًا، فينتج من ذلك: أن التعليم واحد، وأن معنى التعليم واحد، فالإيمان إذن واحد، الحق أقول لكم: إنه لو يُمح الحقُّ من كتاب موسى لما أعطى الله داودَ أبانًا الكتاب الثاني. ولو لم يفسد كتاب داود لم يعهد الله بإنجيله إليَّ؛ لأن الرب إلهنا غير متغير، ولقد نَطَق رسالةً واحدة لكل البشر، فمتى جاء رسول الله يجيء ليطهِّر كلَّ ما أفسد الفجار من كتابي». (برنابا: ٥- ١٢). ألا يوافق هذا النصُّ الإنجيلي ما ذكرناه آنفًا؟

٢- هذا اعتراف من نبي الله عيسى بما أصاب الكتب السابقة من تحريف، ودعوته لضرورة اتباع الرسول الذي سيبعثه الله ليمحو عن الكتب السابقة ما ألحقه بها الفجار من تحريف، وذلك من خلال كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا الرسول هو محمد ﷺ الذي بشَّر به عيسى، بل وبشَّر به جميع الرسل بعد أن أخذ الله عليهم العهد والميثاق بذلك، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

٣- وجوب اتباع النبي الأمّي:

لما كانت مهمة المسيح (عليه السلام) هي وصل ما سبق بما هو آت؛ كان على أتباعه الإيمانُ بالنبيِّ الذي بشَّر به، وهو عليه السلام قد أخبر بني إسرائيل بذلك فيما حكاه القرآن الكريم على لسانه في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]، فعيسى عليه السلام مهمته محصورة في أمرين: التصديق والبشارة، التصديق بما جاء به موسى من الحق، والتبشير بالنبي الخاتم الذي سيصحح أخطاء السابقين، ويقود الناس بالحق إلى رب العالمين، ولذا سُمِّي كتابُ عيسى بالإنجيل، أي البشارة، ونحن نلاحظ تأكيد الإنجيل بل الأناجيل على هذه البشارة كثيرًا، نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

قال المسيح عليه السلام: «الفارقليط لا يجيئكم ما لم أذهب، وإذا جاء وبَّخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه مما يسمع ويكلمكم، ويسومكم بالحق، ويخبركم بالحوادث والغيوب». (يوحنا: ٢٥: ١٦).

ويقول (عليه السلام): «ابن البشر ذاهبٌ والفارقليط من بعده يجيء لكم بالأسرار ويفسِّر لكم كل شيء، وهو يشهد لي كما شهدت له؛ فإني أجيئكم بالأمثال، وهو يأتيكم بالتأويل». (يوحنا: ١٤: ١٦).

وقال (عليه السلام): «وأمَّا متى جاء ذاك روح الحق؛ فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية». [يوحنا: ١٦: ١٣].

وإذا تأملت هذه النصوص التي جاءت في الإنجيل تتوافق تمامًا مع ما جاء في التوراة في سفر أشعيا:

«يُدفع الكتاب إلى من لا يعرف الكتابة، فيقال له اقرأ هذا، فيقول: لا أعرف الكتابة». وما جاء في سفر التثنية: «جاء الرب من سيناء، وأشرف لهم من ساعير، وتلألأ من جبل فاران». وإذا كانت ساعير إشارة إلى القدس وما حولها، وفاران هي جبال مكة، ألا يكون هذا النص مشيرًا إلى الترتيب الزمني لرسالة موسى ثم عيسى ثم محمد عليهم السلام؟!!

ثم ألا يوافق هذا ما جاء صريحًا في القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

أرأيت أخي القارئ - رحمني الله وإياك - كيف توافقت النصوص من التوراة والإنجيل والقرآن على أوصاف النبيِّ الأمّي الذي لا ينطق عن الهوى، والذي لا يتكلم من عند نفسه، لكن بكلام الله الذي أوحاه إليه ينطق، ويحلُّ الحلال ويحرِّمُ الخبائث؟!!

والفارقليط وهو النبي المقدس، وهو أحمد: هو محمد رسول الله خاتم النبيين الذي كان يعرفه أهلُ الكتاب كما يعرفون أبناءهم - نعم والله الذي لا إله غيره - وصدق الله سبحانه وتعالى حين قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

ولكنهم ومع الأسف لما جاءهم ما عرفوا؛ كفروا به، ويقرر القرآن هذه الحقيقة في منتهى الوضوح، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٨٩- ٩٠].

أرأيت كيف كان اليهود الذين يسكنون حول المدينة ينتظرون النبيَّ الذي قَرُبَ زمانُ ظهوره، وجاءوا إليها خصيصًا؛ لأنهم يعرفون أنها القرية التي سيهاجر إليها هذا النبي بعد ظهوره في مكة، وكان إذا وقع خلاف بينهم وبين الأوس أو الخزرج من سكان المدينة من العرب يقولون لهم: قرب زمان نبيٍّ سيظهر ونتبعه، ونقتلكم به قتل عاد وإرم؛ فلما جاء الرسول من العرب؛ جحدوه وكفروا به، فعرفوا الحق ولم يتبعوه؛ حسدًا من عند أنفسهم، فاستحقوا غضب الله ولعنته إلى يوم القيامة، إلا أن يتوبوا، وتوبتهم بالاعتراف بهذا النبيِّ الأمي، وتصديق ما جاء به واتباعه.

ولست أبالغ إن قلت: إن الله سبحانه علّق قبول التوبة كما نفهم من سياق الآيات في سورة الأعراف على الإيمان بهذا النبي الأميِّ، لمن لم يدركه ولم يره، وعلى الإيمان به واتباعه ونصرته ومؤازرته لمن عاصره، وهم كانوا يؤمنون به قبل أن يروه، فلما جاءهم كفروا به وجحدوا نبوته، وخالفوا طريقته، ونابذوه العداء؛ لأنه جاء عربيًا.

٤- من أهم أهداف القصة القرآنية: تصحيح مسيرة الأنبياء عبر التاريخ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ

في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

فتصحيح مسيرة الأنبياء على مر التاريخ البشري، وإظهار الحقائق التي طمسها المحرِّفون من أهم أسباب سوق القصة القرآنية؛ لأنهم جميعًا رسل الله، والإساءة لأحدهم إساءة إلى الذي أرسلهم، لذا وجب تنزيههم والذبّ عنهم جميعًا، ومن عقيدتنا الإيمان بهم جميعًا، وعدم الكفر بأحدهم.

أ- ومن ذلك تصحيح القول في عيسى بأنه عبدُ الله ورسوله، وليس إلهًا ولا ابن الله ولا ثالث ثلاثة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا بصراحة لا غموض فيها وبوضوح لا شك فيه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ..﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣ - ٧٤].

انظر إلى رحمة الله في ثنايا الآيات مع مقولتهم الشنيعة في المسيح والتي يستحق من مات عليها العذاب الأليم في جهنم، فإن الله الرحيم فتح لهم باب التوبة؛ فإن رجعوا عن ضلالهم قبل أن يموتوا قَبِلَ الله منهم، وغفر لهم؛ لأنه غفور رحيم.

والحقيقة التي يجب أن يسلِّم بها الجميع هي: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

وهذا هو الحق والعدل الوسط بين إفراط النصارى وتفريط اليهود في عيسى عليه السلام وأمِّه عليها السلام، ولذلك دعا القرآن أهل الكتاب جميعًا لترك الغلو والتفريط والدخول في دين الله الحق، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: ٧١]، فهذا النص القرآني في غاية الوضوح إذا أُخذ كاملاً، لكن الذين في قلوبهم مرضٌ يأخذون بعض الكلمات منه، ويتركون بدايته ونهايته ووسطه، ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؟

ب- وكما أوضح القرآن الحقيقة كاملة في المسيح، كذلك في أمِّه هي واضحة، فمريم عليها السلام صديقة برَّة طاهرة، اصطفاها الله وطهَّرها، واصطفاها على نساء العالمين، وليست كما رماها اليهود بكل نقيصة، ولا كما غالى فيها النصارى، فهي كما وصفها الله على لسان ملائكته الكرام: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [مريم: ٤٢ - ٤٣].

هذا ما تيسر إيراده في هذه العجالة، والله - سبحانه - أسأل أن يكون فيه تذكرة وعبرة لأولي الألباب، والله يقول الحق ويهدي السبيل. والحمد لله رب العالمين.

إنا لله وإنا إليه راجعون

توفي الشيخ محمد سيد شبهة، رئيس فرع الكونيسية بالجيزة، وعضو بمجلس إدارة المركز العام، سابقًا، وذلك غرة شوال١٤٣١هـ.

والشيخ محمد سيد شهبة - رحمه الله - من أوائل من التفوا حول مؤسسي الدعوة بالجيزة، وكان من دعاة الجماعة ومحبيها.

رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه الله خير الجزاء.

الامين العام : احمد يوسف عبدالمجيد

إشهار فروع

تم بحمد الله تعالى إشهار الفروع التالية:

١- فرع جماعة أنصار السنة المحمدية بوردان، تحت رقم (٣٦٨٢) بتاريخ ٢٨ / ٩ / ٢٠١٠م.

٢- فرع جماعة أنصار السنة المحمدية - الودي - الصف - حلوان، تحت رقم (٨٨٧) بتاريخ ٢٤ / ٨ / ٢٠١٠م.

القصة في كتاب الله

الحلقة (١٢)

عيسى ابن مريم

- عليه السلام -

تابع الحقائق الإيمانية والفوائد العلمية (٢)

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان، والصلاة والسلام على محمد خير الأنام وعلى أصحابه وإخوانه الرسل الكرام.

أما بعدُ: فهذا لقاؤنا الثاني مع الحقائق الإيمانية، والفوائد العلمية المستخلصة من قصة عيسى ابن مريم (عليه وعلى أمه السلام)، وقد عرضنا في لقائنا السابق لمجموعة منها، وها نحن نكمل بعون الله تعالى فنقول:

خامسًا: التوحيد دعوة جميع الرسل

نعم أيها الأخ الكريم، ما من رسول أرسله الله، وما من كتاب أنزله الله؛ إلا وكانت غايته دعوةَ الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال الله تعالى مخاطبًا نبيَّه ورسوله محمدًا ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فهذه دعوة خاتم النبيين محمد ﷺ، وقد استفاض بها القرآن الكريم، حتى بات أمرًا لا يخفى على أحد.

والذي نريد أن نؤكد عليه أن الكتب السابقة التي بأيدي أهل الكتاب اليوم - مع ما وقع فيها من تحريف- تؤكد هذه الحقيقة: حقيقة توحيد الله سبحانه وتعالى، ففي العهد القديم تصريح واضح بأن الله واحد في السماء وفي الأرض، وأن الشرك ذنب عظيم، وجزاؤه القتل.

١- فالإصحاح الرابع من سفر التثنية - العدد ٣٥ يقول: «لتعلم أن الرب هو الله وليس غيره».

٢- وفي العدد ٣٩: «فاعلم اليوم، واقبل بقلبك، أن الرب هو الإله في السماء من فوق وعلى الأرض من تحت وليس غيره».

٣- وفي الإصحاح الخامس والأربعين من سفر أشعيا العدد ٥: «أنا هو الرب وليس غيري، وليس دوني إله، شددتك ولم تعرفني». وهذا يصدقه ما جاء في القرآن الكريم في مواضع شتى، منها قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]،

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

وأيضًا في سفر أشعيا العدد ٦: «ليعلم الذين هم من مشرق الشمس، والذين هم من المغرب؛ أنه ليس غيري، أنا الرب وليس آخر». وهذا يصدقه قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، وفي العهد القديم الإصحاح الثالث عشر العدد ١ من سفر التثنية: «أنه لو دعا نبي أو من يدعي الإلهام إلى عبادة غير الله؛ فإنه يُقتل هذا الداعي وإن جاء بمعجزات عظيمة».

وفي الإصحاح السابع عشر من سفر العدد (٢ - ٧): «أنه لو ثبت على أحد عبادة غير الله يُرجم، رجلاً كان أو امرأة».

ولم يشذ العهد الجديد عن القديم، بل إن النصوص فيه تصرِّح بنفس الحقيقة التي حسمتها الكتب السابقة.

١- ففي الإصحاح الثاني عشر من إنجيل مرقص ٢٨: «فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون؛ فلما رأى أنه أجابهم حسنًا، سأله أية وصية هي أول الكل» (٢٩): «فأجابه يسوع: أن أول كل الوصايا اسمع يا إسرائيل ! الرب إلهنا واحد».

٢- في العدد الثالث من الإصحاح السابع عشر من إنجيل يوحنا قول عيسى عليه السلام مخاطبًا ربه وإلهه: «وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلت».

وهذا الذي جاء في الأناجيل يصدقه القرآن في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، ويعقوب المذكور في القرآن هو إسرائيل، والوصية له ولأبنائه من بعده.

وهذا الإجماع في دعوة التوحيد لم يشذ عنه إلا وصية في متى الفقرة (١٩) من الإصحاح (٢٨)، وفاصلة في يوحنا الفقرة (٧) من الإصحاح الخامس، هذان فقط جاء فيهما ذكر الأب والابن والروح القدس، وهذان النصان تعقَّبهما النقاد الغربيون المتخصصون أمثال الأب الدكتور بروس متزجر، د. بارت أرمان وغيرهما، وأثبتا شذوذهما وزيغهما، ولسنا هنا في مجال عرض هذه الدراسة. [انظر المجلة العلمية للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عدد المحرم ١٤٣١هـ].

سادسا: حفظ القرآن من التحريف

لما كانت التوراة مرحلية، والإنجيل كذلك؛ فإن الله استحفظ عليهما أهلهما، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ [المائدة: ٤٤]، قال بما: ﴿اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ...﴾ أي جعلهم الله أمناء على كتاب الله، يحفظونه من التحريف والتبديل، ولكنهم غيَّروا وبدَّلوا، ويا للأسف، ولما كان القرآن هو كلمة الله الباقية لأهل الأرض قاطبة، لم يستحفظ الله عليه أحدًا، بل تكفل سبحانه بحفظه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وتأمل كيف جاء الله سبحانه بنون العظمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ ليُشعرك بعظمة القرآن ومن قبل بعظمة مُنزله سبحانه، وعظمة مهمة حفظه، وأهمية ذلك لمصلحة البشرية كافة، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

سابعا: القرآن كلام الله وليس كلام محمد

في القصص القرآني أكبر دليل على أن هذا القرآن هو من عند الله، وليس من عند محمد؛ كما زعم المشركون قديمًا، وكما يزعم من طمس الله على قلبه حديثًا؛ فينسب هذا القرآن إلى محمد، ويزعم أن محمدًا هو الذي كتبه، والذي يقول ذلك لا يعي التاريخ ولا يعقل ما في القرآن؛ فالمشهور عند الناس أن محمدًا كان أميًا لا يقرأ ولا يكتب، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

الإيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥] أي أنزله الله على قلب النبي محمد بواسطة الروح الأمين جبريل عليه السلام.

وقال تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، نعم ما أدْرَى هذا النبي الأمي الذي لم يقرأ كتب السابقين ولا المعاصرين، والذي كان يعيش في شعاب مكة، بعيداً عن العواصم الحضارية في العالم آن ذاك، ما الذي أدراه بنوح وهود وصالح وإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم، لولا أن الله مَنَّ عليه بهذا القرآن، وأوحى إليه فيه علم الأولين والآخرين؛ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ثامنًا: مريم صدّيقة وابنها عبد الله ورسوله

قال الله عز وجل: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة: ٧٥]، نعم انظر إلى وضوح الدليل ومع ذلك انظر كيف يُصرفون عنه مع شدّة وضوحه؛ فالأمر الذي لا يختلف عليه اثنان أن عيسى كان يأكل الطعام وأمه مريم كانت تأكل الطعام، ولازم ذلك مفهوم ومعلوم سكت عنه القرآن تعفّفًا عن ذكره ولشدّة وضوحه، فهل يليق هذا الوصف بالله الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

تاسعًا: منزلة مريم في القرآن الكريم

أثنى الله تعالى على مريم، ومدحها بضد ما وصمها به اليهود، ورفع ذكرها، وجعلها وابنها آية للعالمين، قال الله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

عاشرًا: من سنن الله في الكون الأخذ بالأسباب

نعم، إن من سنن الله الثابتة أن جعل لكل شيء سببًا، وإن كان الله سبحانه هو الفاعل على الحقيقة للأسباب، والمسببات، والتوكل الحقيقي لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب، وعلى المسلم أن يبذل السبب الذي يتمكن منه، ولو كان بسيطًا، والله سبحانه وتعالى يجبر عجزه، وهذا نفهمه من قوله تعالى لمريم عليها السلام عند المخاض: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]، ماذا تفعل مريم بهزها لجذع النخلة؟!

لكنها ما دامت تستطيع أن تفعل ذلك؛ فلتفعله، والله يفعل ما يشاء، فهو سبحانه وتعالى يرزق بالأسباب وبغيرها، فهو الذي جعل لها نهرًا يجري في الصحراء دون أن تطلب، أو تبذل سببًا، وهو سبحانه الذي أطعمها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء، وهو الذي جعلها تحمل بغير بعل، وأنطق عيسى في المهد، ودفع عنها وعن ولدها أذى اليهود وعدوانهم؛ فسبحانه سبحانه.

كلمة في الختام

بعد استعراضنا لقصة عيسى ابن مريم عليه وعلى أمِّه السلام، نحمد الله الذي هدانا للحق الذي ضلَّ عنه أكثر الناس، وأرشدنا إلى القول الوسط في المسيح عيسى ابن مريم دون تفريط اليهود أو إفراط النصارى، وهذا الحق الذي نؤمن به هو من عند الله الذي أرسل الرسل وأنزل الكتب؛ فهو الله الواحد الأحد الصمد، أرسل رسله منذ آدم مروراً بنوح وإبراهيم، وختمهم بمحمد ﷺ؛ فشريعته التامة، ودينه هو الذي ارتضاه الله دينًا، ولا يقبل من أحد سواه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥]، ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

والحمد لله رب العالمين.

قتل أصحاب الأخدود

تعقيب القرآن

الحلقة الثانية

إعداد/ عبدالرزاق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعدُ:

وقفنا بك أيها القارئ الكريم مع قصة أصحاب الأخدود في اللقاء الماضي، وقدَّمنا عرضًا موجزًا لها من خلال آيات سورة البروج، ووعدناك بالحديث عنها من خلال السنة النبوية، لكني رأيت قبل ذلك أن أقف معك عند تعقيب القرآن الكريم على القصة من خلال السورة ذاتها، فهذا التعقيب فيه ذكرى وعبرة وعظة، ووصْلٌ للحاضر بالماضي، واستخلاصٌ للدروس والعِبَر.

والمعلوم أن سورة (البروج) التي جاءت القصة في ثناياها سورة مكية، نزلت تعالج مشكلات المسلمين في العهد المكيِّ، وتسرّي عنهم، وتواسيهم، وتقدِّم لهم أمثلة عالية للثبات في مواجهة الفتن، في وقتٍ كانوا يواجهون فتن كفار قريش، وقد تنوعت واشتدت ما بين سبٍّ وضرب، وتعذيبٍ وقتلٍ، وحصارٍ؛ حتى جاء الصحابة إلى رسول الله ﷺ يشكون له، ويطلبون منه أن يدعو الله لهم، وأن يستنصر لهم، كما في صحيح البخاري «عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ رضي الله عنه قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا: لَهُ أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلاَ تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ؛ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» [البخاري ٣٦١٢].

أقول: في هذه الأثناء نزلت هذه السورة؛ لتقدم مثلاً أعلى للإيمان حين تذوق حلاوته القلوبُ؛ فتستعلي به على حطام الدنيا، ويهون في سبيل الله كل غالٍ ورخيص، وإن كان بعض أصحاب رسول الله ﷺ، ومنهم خباب بن الأرت رضي الله عنهم جميعًا تعرّضوا لوضع الحديد المحمي بالنار على رءوسهم؛ فإن المؤمنين في هذه القصة تعرضوا للإحراق في النيران بكامل أجسادهم، ولم يتركوا دينهم. نعم خسروا أجسادهم، لكنهم كسبوا دينهم وعقيدتهم، وكم كانوا سيخسرون لو تراجعوا؟ وكم كانت البشرية كلها ستخسر هذه المُثُل العليا؟

ومن هنا جاء التعقيب القرآني يستخلص العبرة، ويقدِّم الدرس، ويواسي المؤمنين المضطهدين ويثبتهم، ويهدّد الظالمين الطغاة ليس في مكة وحدها، وليس في وقت نزولها فحسب، بل في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، فلننظر بم عقَّب ربنا ولنتأمل، قال تبارك

وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (١٠) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١) إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ١٠- ٢٢].

قال صاحب البصائر: «معظم مقصود السورة: القَسَمُ على أصحاب الأخدود، وكمالُ مُلْك المَلِك المعبود، وثوابُ المؤمنين في جوار المقام المحمود، وعذابُ الكافرين في الجحيم المورود، وما للمطيع والعاصي من كرم الغفور الودود، والإشارةُ إلى هلاك فرعون وثمود».

ونعود للحديث عن التعقيب القرآني كما يلي:

١- ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أحرقوهم بالنار؛ ليصدوهم عن دينهم.

٢- ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ أي: فعلوا ما فعلوه بالمؤمنين من تحريق أو تعذيب، ثم ماتوا قبل أن يتوبوا ويعودوا إلى الله، وهذا يشمل أصحاب الأخدود الذين عذّبوا وحرّقوا المؤمنين والمؤمنات، ويشمل كفار قريش الذين عذّبوا المستضعفين من المؤمنين، ويشمل الطغاةَ والظلمةَ في كل زمان ومكان.

مسألة:

لكن هناك نكتة لطيفة أشار إليها الإمام الحسن البصري؛ حيث قال: «انظروا إلى هذا الكرم والجُود يدعوهم إلى التوبة! وقد فتنوا أولياءه، فحرقوهم بالنار، فلا ييأس العبد أبدًا من مغفرة ربه وعفوه، ولو كان منه ما كان، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة، ولا أكفر ممن حرَّق المؤمنين بالنار؛ لأنهم آمنوا بالعزيز الغفار، ومع هذا فلو تابوا لقبلهم وألحقهم بأوليائه».

ونحن نقول: نعم لأن الله هو الغفور الرحيم، ولأنه الرحمن الرحيم، ولأن رحمته وسعت كل شيء، ولأنه كتب في كتابٍ هو عنده فوق العرش أن رحمته تسبق غضبه [متفق عليه]، وهذا في كتاب الله كثير، ونذكر منه هنا شيئًا يسيرًا:

قال الله تعالى مخاطبًا جميع العصاة مهما اقترفوا من ذنوب: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال عن المشركين الذين حاربوا المؤمنين وعن المنافقين: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٥].

وقال عن الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤].

انظروا رحمكم الله إلى سعة رحمة الله تبارك وتعالى، يدعو هؤلاء إلى التوبة! إلى طريق الله، مع ما فعلوه من شرك وكفر، فقد جاءوا شيئًا إدًا، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا، ومع هذا لو تابوا؛ لتاب الله عليهم؛ لأنه هو الغفور الرحيم، فسبحان الله على حلمه بعد علمه، وعلى عفوه بعد قدرته، ما أوسع عفوه! وما أعظم رحمته! فهو أرحم الراحمين ورب العالمين.

٣- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، فكما هدَّد سبحانه المجرمين بعذاب جهنم؛ بشّر المؤمنين بما أعدَّه لهم من نعيم مقيم في جنات النعيم، وهذا فضل الله وذاك عدله.

٤- ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٢- ١٤]، وهذا يتناسب مع تهديده لأعدائه ومودته لأوليائه، فذكر سبحانه بطشه الشديد بأعدائه، ومغفرته ومودته لأوليائه.

قال ابن القيم - رحمه الله-: «ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه، وهو مع ذلك الغفور الودود، يغفر لمن تاب ويودّه ويحبه، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش، ومع ذلك هو الغفور الودود».

قال البخاري في صحيحه: الودود الحبيب، والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين: على كونه وادًا لأوليائه، ومودودًا لهم، فأحدهما بالوضع فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه، وقال شعيب عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

ثم قال رحمه الله: «وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور! فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه، وكذلك يرحم من لا يحب، والرب تعالى يغفر لعبده؛ إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك».

٥- ﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ فأضاف العرش إلى نفسه - سبحانه - إضافة تشريف وتعظيم، وهذا يدل على عظمة العرش، وقربه منه سبحانه، واختصاصه به.

٦- ﴿الْمَجِيدُ﴾ والمجد في لغة العرب: كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير، وهو أحق ما يُوصف به الكبير المتعال - سبحانه وتعالى-، ومن قرأ «الْمَجِيدِ» بالكسر فهو صفة للعرش.

٧- ﴿فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ يفعل ما يشاء كيفما شاء وقتما شاء؛ لا رادّ لفعله، ولا معقّب لحكمه.

٨- ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾ قال الإمام القرطبي: «قد أتاك يا رسولنا خبر الجموع الكافرة المكذّبة لأنبيائهم، وما حلّ بهم من العذاب؛ يؤنسه ويسليه، ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾، وإنما خصّ فرعون وثمود؛ لأن ثمود في بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة، وإن كانوا من المتقدمين، أما فرعون فكان مشهورًا عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين في الهلاك، فدلّ بهما على أمثالهما في الهلاك. والله أعلم».

٩- ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾، والعجب كل العجب ممن يكفر بالله - سبحانه - وهو محيطٌ به، واقعٌ في قبضته، قادرٌ عليه من كل وجه وبكل اعتبار، وهذا تحذير لعباده من سلوك سبيل هؤلاء المعاندين الذين جاء ذكرهم في كتاب الله على مرّ التاريخ، وإن ربك لبالمرصاد.

١٠- ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾، وصَف الله سبحانه وتعالى كلامه بأنه مجيد، وهو أحق بالمجد من كل كلام، كما أن المتكلم به سبحانه له المجد كله، فهو المجيد - سبحانه - وكلامه مجيد، وعرشه مجيد، والمجد: كثرة الخير. وكثرة خير القرآن لا يعلمها إلا من تكلم به، والشرف كل الشرف، والمجد كل المجد لمن اهتدى به، والويل كل الويل لمن أعرض عنه.

١١- الختام: ونختم هذا التعقيب القرآني بتعقيب للإمام ابن القيم على هذه السورة، فيقول - رحمه الله-: «وقد اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه - سبحانه - بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة وعدم النظير، والحمد المتضمن لصفات الكمال، والتنزيه عن أضدادها، مع محبته وإلهيته، وملكه السماوات والأرض المتضمن لكمال غناه، وسعة مُلكه، وشهادته على كل شيء المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور وبواطنها، وإحاطة بصره بجزئياتها، وسمعه بمسموعاتها، وعلمه بمعلوماتها، ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة، وتفرّده بالإبداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته، وتصرُّفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة وانقيادها لقدرته، ووقوعها جميعًا تحت قبضته؛ فلا يستعصي عليه منها شيء، ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته، ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيبًا لعباده محبًا لهم، ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه، وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوي عليه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة، والملك والغنى، والجود والإحسان والكرم، وكونه فعالاً لما يريد المتضمن لحياته التامة، وعلمه الشامل، وقدرته النافذة، وحكمته ومشيئته، وغير ذلك من أوصاف الكمال. فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين، تكفي من فهمها». [التبيان في أقسام القرآن ١ / ٥٧].

أقول: نعم تكفي من فهمها أن يمتلئ قلبه يقينًا في ربه ومعبوده، وثقة في وعده ونصره لعباده المؤمنين في كل زمان ومكان، وكم نحن في حاجة إلى ذلك؟ والله المستعان. والحمد لله رب العالمين.

حقائق إيمانية وقواعد علمية

أصحاب الأخدود

٤

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله المبدئ المعيد الذي هو على كل شيء شهيد، والصلاةُ والسلام على صاحب اللواء المعقود والحوض المورود يوم الوعيد،

أما بعدُ:

فقد آن أوان استخلاص الحقائق الإيمانية والفوائد العلمية والعِبَر التي فيها موعظة ورحمة، ونستعين بالله على إيرادها في نقاط فيما يلي:

١- إن النصر في أعلى صوره هو انتصار العقيدة على الألم، وانتصار الإيمان على الفتنة، وهذا الذي رأيناه واضحًا في قصة أصحاب الأخدود.

٢- إن الناس جميعًا يموتون وتختلف أسباب الموت، لكن القليل الذين يرتفعون هذا الارتفاع ويسمون هذا السمو؛ لقد اختار الله هذه الفئة الكريمة من المؤمنين لتنفرد بهذا المجد في الملأ الأعلى، ومن كان على شاكلتها من المؤمنين في كل زمان ومكان.

٣- ليس من الضروري أن يشهد المؤمن ثمرة انتصاره في الدنيا، يكفيه أن يؤدي واجبه ويذهب، فواجبه أن يستعلي بالإيمان على الفتنة، وأن يصدق الله في النية والعمل، ثم يفعل الله به وبأعدائه ما يشاء، كما يفعل بدينه ودعوته ما يشاء.

٤- لله الحكمة البالغة وراء كل حدث، فهو - سبحانه - لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وقد يكشف لعباده عن الحكمة في حينها، وقد ندركها بعد وقت يطول أو يقصر ونحن نستسلم لقَدَر الله ولحكمته، فهو سبحانه يفعل ما يشاء ويختار.

٥- إن المعركة المستمرة بين المسلمين وبين أعدائهم في كل زمان ومكان هي معركة عقيدة في المقام الأول، ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، ألم تر إلى مشركي مكة كيف عرضوا على رسول الله ﷺ المال والحكم والمتاع في مقابل شيء واحد أن يدع معركة العقيدة، ولو أجابهم إلى ما طلبوا: ما بقيت بينه وبينهم معركة على الإطلاق.

٦- قد يحاول أعداء الإسلام أن يرفعوا شعارات أخرى اقتصادية أو أمنية أو سياسية أو ديمقراطية أو تحريرية: للتمويه، لكن يظهر في فلتات ألسنتهم ما تُخفي صدورهم، بل نحن أصبحنا في زمن لا يقيم الأعداءُ فيه وزنًا للمسلمين، وصاروا يصرِّحون جهارًا نهارًا بأهدافهم وعدائهم، وقد صرح بعضهم بضرورة هدم الكعبة، وضرب مكة بالقنابل النووية!!

٧- إن المتأمل في القصة كما جاءت في الحديث يرى أن الغلام انتصر بعقيدته ومنهجه، وكذلك الراهب الذي ثبت من أجل أن تبقى عقيدته، ولا بأس من أن يُشَقّ بالمنشار نصفين، وتصعد روحه إلى بارئها؛ لكنها ستكون راضية مرضية.

أما الأعمى فقد انتصر مرتين، انتصر حين تخلى عن مكانته عند الملك، وانتصر عندما قدَّم

نفسه لله؛ انتصاراً لعقيدته.

٨- لقد كان الغلام ذكيًا ألمعيًا، وحين سنحت له فرصة عظيمة في تبليغ رسالة ربه فاغتنمها ولا بأس من التضحية بنفسه في هذا الموضع إذا كانت تضحيته ستكون سببًا في دخول أمةٍ بأسرها في دين الله، وهنا يكون قد حقّق معنًى عظيمًا من معاني الانتصار، وقد كان له ما أراد بتوفيق الله.

٩- إن الطغيان والجحود يُعمي صاحبه، وهذا الذي وقع من الملك حينما انساق وراء رغبته في الانتقام من الغلام بقتله بأي سبيل ولم يدرك عاقبة فعلته إلا بعد فوات الأوان.

١٠- إن تضحية الغلام بنفسه كانت لغاية نبيلة وشرف عظيم من أجل إسلام أمة بكاملها، وهذا نوع من الجهاد في سبيل الله، هذا بخلاف من ينتحر أو يُهلك نفسه من أجل أمر تافه من أمور الدنيا الفانية.

١١- حرص الحكام قديمًا على تثبيت عروش ملكهم عن طريق السحر والكهانة، وحديثًا أيضًا وإن تغيّرت الصورة فصارت تحضيراً للأرواح والذي يسمونه كذبًا وزوراً علمًا، ولذلك يلجأون اليوم إلى تثبيت عروش ملكهم عن طريق سحر العيون والعقول عن طريق الإعلام المرئي والمسموع والمكتوب، والسينما والمسرح، والأندية الاجتماعية والرياضية، وتحت مسميات شتى، فالحكام قديمًا وحديثًا - إلا من رحم ربي - يبنون ملكهم على الكذب والخداع، كما رسم لهم أستاذهم ميكيافلي وغيره، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١٢- في كل زمان ومكان يهيئ الله لدينه من يقوم بنصره في الأرض، كما هيأ الراهب والغلام فكانا سببًا في إسلام أمة.

١٣- ليست العبرة بكثرة العمل ولا بطول العمر، فهذا الغلام على صِغر سنه وحداثة عهده بإيمان، تمكّن الإيمان من قلبه، ورزقه الله الحكمة والتوفيق وحسن الفهم والتدبير، ففعل في أيامٍ معدودات ما لم تفعله جيوش جرارة من الدعاة في سنوات عديدة.

١٤- إذا أراد الله أمرًا هيّأ أسبابه، فها هو الملك اختار الغلام على عينه ليكون عونًا له، ولكن الله أراد أمرًا آخر، وفي هذا شَبَه قريب من قصة موسى عليه السلام في قصر فرعون.

١٥- قد يجري الله على يد بعض أوليائه كرامات يؤيدهم بها ويثبّتهم، وتكون عونًا لهم على نشر دين الله، كما حدث لهذا الغلام، وللمرأة التي تكلّم وليدُها في المهد، وقد أجرى الله كثيرًا من هذه الكرامات على يد نبيه محمد ﷺ وكثير من أصحابه - رضي الله عنهم - فكانت للنبي ﷺ معجزات ولصحبه كرامات، وكرامات الأولياء حُق، لا ينكرها إلا مجادل بالباطل.

١٦- هذا الملك المغرور الطاغية المتألي على الله ظهر عجزه وضعفه أمام هذا الغلام الصغير، وهذه من حكمة الله في إذلال الطغاة، وأخيراً اعترف بعجزه وضعفه، ولم يستطع قتل الغلام إلا بما أرشده إليه الغلام، فيا عجز هذا الطاغية! حيث أُوتي من مكمنه.

١٧- في قصة الغلام ردٌّ واضح على من يزعمون أن الإصلاح لا يأتي إلا من قمة الهرم (من أعلى)، ويستهينون بالدعوة من القاعدة، فهذا الغلام بدأ دعوته من أفراد معدودين دعاهم إلى الله وتمت دعوته بفضل الله، وانتشرت حتى

بلغت القمة بإسلام القرية.

١٨- الله سبحانه وتعالى يسمع ويرى، ويجيب دعاء عبده إذا دعاه، وهذا من أوضح الوضوح في قصة الغلام، فقد تكرر منه الدعاء، وتكررت من الله الاستجابة، وهكذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

١٩- «العلم في الصغر كالنقش في الحجر»، ولهذا اختار الساحر غلامًا شابًا يتميز بالفطانة وسرعة الفهم، فإذا اجتمع الشباب وحسن الفهم يُؤْتي العلم أُكُله بإذن الله، إذا وُجد المربي الفاضل مثل الراهب، فلنهتم بالتربية، وخصوصًا في أوساط الشباب.

سؤال وجواب:

هل يجب على المسلم إذا عُذِّب واشتد العذاب عليه أن يصبر؟ أم يجوز له أن يقول كلمة الكفر إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان؟

والجواب فيه تفصيل:

أ- إذا كان الأمر يتعلق به هو: فهو مخيَّر إن شاء صبر، كما فعل بلال - رضي الله عنه - وإن شاء قال كلمة الكفر؛ دفعًا للإكراه مع طمأنينة القلب بالإيمان، كما فعل عمارُ بنُ ياسر، رضي الله عنهما.

ب- أما إذا كان الأمر متعلقًا بالناس خلفه ينتظرون كلمته، وستكون لها كبير الأثر في نفوسهم؛ في ثباتهم على الحق أو فتنتهم عنه: تعيَّن في حقه الصبر والاحتساب، وإن عُذِّب أو قُتل، وهذا الذي فعله الراهب، وكذلك الأعمى والغلام.

وهذا ما فعله الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - في فتنة خلق القرآن في زمنه في العصر العباسي، فمع ما تعرض له من إيذاء: لم يتراجع عن الحق الذي يعلمه، وهو السنة: أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق؛ لأن الناس كانت تنتظر كلمة الإمام أحمد؛ فلهذا ثبت ولم يداهن في الحق، ولم يجامل؛ فثبَّت الله الأمة بثباته، والحمد لله رب العالمين.

٢٠- وختامًا ذكر الشيخ ابن عثيمين رحمه الله كلامًا طيبًا في معنى «الحميد» من خلال شرحه لقوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، نحب أن نورده مختصرًا هنا، ونختم به، قال رحمه الله: «الحميد: المحمود، فالله سبحانه وتعالى: محمود على كل حال، وكان من هدي النبي ﷺ أنه إذا جاءه ما يُسرُّ به قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وإذا جاءه خلاف ذلك قال: الحمد لله على كل حال. [صحيح الجامع: ٤٦٤٠].

وهذه هي السُّنّة، أما إذا قلت كما يقول البعض: الذي لا يُحمد على مكروه سواه. فكأنك تعلن أنك كاره ما قدَّر الله عليك، وهذا لا ينبغي، بل الواجب أن يصبر المسلمُ على ما قدَّره الله عليه مما يسوءه أو يسره، أو لا يتسخط وليعلم أن «النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا». [أحمد ٢٨٠٤ وصححه الألباني]». انتهى كلامه مختصرًا.

هذا ما يسَّره الله لنا من الفوائد والعبر والدروس والحقائق العلمية والإيمانية من قصة أصحاب الأخدود، نفعنا الله بها، ونفعنا بالقرآن الكريم، وبسنة خاتم النبيين، والحمد لله رب العالمين، وإلى لقاء جديد مع قصة جديدة، والله ولي التوفيق.

الحلقة الأولى

قصة أصحاب الكهف

«أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا»

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعد:

فهذه قصة فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدًى، فربط على قلوبهم وثبّتهم فسمت نفوسهم بالتوحيد على حطام الدنيا الزائل لما رأوا طريقًا إلى الشرك وآثروا حياة الكهوف في عز التوحيد على حياة القصور في ذل الشرك، وبصدقهم وإخلاصهم نشر الله عليهم من رحمته وأنزل عليهم سكينته وحفظ أجسادهم من الفناء، سنين عددًا وبعثهم من مرقدهم ليكونوا آية من آياته وعبرة للأولين والآخرين، والحمد لله رب العالمين.

ونحن نبدأ معك قصتهم كما ذكرها لنا القرآن الكريم إجمالاً وتفصيلاً مستعينين بالله رب العالمين في الإجمال والتفصيل، وستكون وقفتنا الأولى بعون الله بين القصة والسورة.

أولاً: بين القصة والسورة:

لم يذكر المولى عز وجل قصة أصحاب الكهف إلا في سورة الكهف، ولم أقف على تسمية للسورة بغير هذا الاسم، فقد وردت تسميتها فيما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بسورة «الكهف»، وقد جاءت هذه التسمية على لسان النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه مسلم وأبو داود عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال» [مسلم ٨٠٩]. وفي رواية الترمذي: «من آخر الكهف». وكذلك جاء في حديث البراء بن عازب في صحيح البخاري تسميتها بهذا الاسم.

وفي حديث أخرجه ابن مردويه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سماها سورة أصحاب الكهف، إذن السورة تدور تسميتها بين الكهف وأصحاب الكهف، ولم يرد لها اسم ثالث فيما أعلم، فهل هناك علاقة بين اسم السورة وبين قصة أصحاب الكهف؟

أقول: نعم، وعلى الرغم من ورود قصص أخرى في السورة مثل قصة صاحب الجنتين، وقصة ذي القرنين وقصة موسى والخضر، ومع ذلك سُميت السورة باسم الكهف أو أصحاب الكهف لتبقى العلاقة وثيقة بين اسم السورة وقصة أصحاب الكهف وإن كان هذا لا يمنع صلة السورة أيضًا من

خلال أهدافها بما ورد فيها من قصص أخرى.

ويبقى السؤال: ما أبعاد العلاقة بين سورة الكهف وقصة أصحاب الكهف؟ ونجيب عن هذا التساؤل- بعون الله- فيما يلي:

١- إن موضوع سورة الكهف يقوم على تصحيح علاقة الناس بربهم الذي خلقهم وبحياتهم التي يعيشونها وآخرتهم التي يعودون إليها.

٢- وهذا البناء الشامخ يقوم على محاور ثلاثة:

أ- تصحيح عقيدة الناس بربهم.

ب- وتصحيح نظرتهم إلى دنياهم التي يعيشون فيها وآخرتهم التي سيعودون إليها.

جـ- تصحيح القيم والأخلاق التي يتعاملون بها.

٣- وعند التأمل نجد قصة أصحاب الكهف تلتقي مع السورة في هذه المحاور على النحو التالي:

تبدأ السورة بقوله تعالى: «الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا» [الكهف: ١- ٥].

وختمت السورة بقوله تعالى: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» [الكهف: ١١٠]، وهكذا يتساوى البدء والختام في إعلان توحيد رب العالمين، وإنكار الشرك وإثبات النبوة والرسالة.

وهكذا ما نلاحظه بوضوح في قصة أصحاب الكهف، فقد أعلن الفتية إيمانهم بالله رب العالمين، وأنكروا أن يتخذوا من دونه أولياء، فقالوا: «رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا» [الكهف: ١٤]، وفي التعقيب القرآني على القصة قال الله تعالى: «مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا» [الكهف: ٢٦].

٤- أما في مجال تصحيح عقيدة الناس بربهم فقد أنكرت سورة الكهف على الذين يقولون على الله بغير علم، قال الله تعالى: «وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا» [الكهف: ٤، ٥]، وفي قصة أصحاب الكهف قال الفتية عن قومهم: «هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ» [الكهف: ١٥]، فاستنكروا قول قومهم على الله بغير دليل واضح.

٥- وفي مجال تصحيح القيم والأخلاق وربطها بالعقيدة:

أ- قال الله تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا» [الكهف: ٧، ٨].

فزينة الدنيا التي تبهر قلوب الضعفاء إلى زوال، والباقيات الصالحات خير ثوابًا وخير أملا.

ب- وحياة المرء بعقيدة صحيحة ولو في كهف خير من حياته بين القصور وربات الخدور بغير رصيد صالح من إيمان أو عمل، ومن هنا آثر الفتية الذين آمنوا اللجوء إلى الكهف هربًا بعقيدتهم الصالحة من قصور كانت تهدد عقيدتهم.

وكما ذكر الله عنهم وهم يقولون بعد اعتزالهم قومهم في العقيدة، وأرادوا كذلك أن يعتزلوهم في المكان؛ حرصًا على عقيدتهم، فقال بعضهم لبعض: «وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا» [الكهف: ١٦].

فكهف ضيّق بعقيدة صحيحة في رحاب رضوان الله خيرٌ من قصور شاسعة بعقيدة فاسدة تستجلب سخط الله.

ونكتفي بهذا القدر في بيان العلاقة الواضحة بين سورة الكهف وقصة أصحاب الكهف في تصحيح العقيدة وبيان المنهج الصحيح واستقامة السلوك.

ثانيًا: عرض مجمل للقصة:

قال الله تعالى: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا» [الكهف: ٩- ١٢].

في هذا الإيجاز البليغ الذي يُعدُّ مقدمة للقصة يرسم لنا القرآن معالمها الرئيسة فهي قصة عجيبة ولكنها ليست بأعجب آيات الله، ففي كون الله وفي خلقه سبحانه عجائب لا تُحصى قديمًا وحديثًا، وفي المستقبل الذي لا يعلمه إلا الله، كم من آيات عجيبة يمر عليها المكذبون وهم غافلون؟!!

والخطاب وإن كان للنبي-صلى الله عليه وسلم - ولكن يُراد به قومه الذين كذبوا به، وأهل الكتاب الذين أغروهم بالسؤال عن قصة هؤلاء الفتية الذين كانوا في الزمن الغابر، قال العلامة ابن عاشور - رحمه الله-: «وهذا تعريض بغفلة الذين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم بيان قصة أهل الكهف لاستعلام ما فيها من العجب، بأنهم سألوا عن عجيب وكفروا بما هو أعجب»، وقال: وفيه لفت لعقول السائلين عن الاشتغال بعجائب القصص إلى أن الأولى لهم الاتعاظ بما فيها من العبَر. اهـ.

ولعله هنا يشير - رحمه الله - إلى ما ورد في أسباب النزول، وقد ذكره كثير من المفسرين وبسطه ابن إسحاق في سيرته بدون سند، وأسنده الطبري إلى ابن عباس بسند فيه رجل مجهول أن المشركين لما أهمهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعثوا النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة يسألونهم رأيهم في دعوته، فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث؟ فإن أخبركم فهو نبيّ، ومن هذه الثلاث قالوا لهم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم...

وبغض النظر عن صحة هذا الخبر فإن القصص القرآني لا شك مَعْلم من معالم النبوة، ودليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عن ربه، فكيف للنبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ولم يغادر مكة قبل بعثته إلا مرة واحدة ولم يجلس ليتعلم على يد أحد أن يعرف أخبار أهل الكهف الذين كانوا في عهد الدولة الرومانية وكانوا على النصرانية؟ أو كيف به أن يعرف أخبار من سبقهم ومن لحقهم إلا عن طريق وحي من ربه، قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم في شأن إخباره بقصص الأولين والآخرين: «تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ» [هود: ٤٩]. فلم يكن النبي صلى الله عليه وسلم على علم بهذا القصص، ولم يكن كذلك قومه على علم، ولكن الله سبحانه وتعالى هو الذي أخبره عن ذلك الغيب، وأطلعه عليه؛ تصديقًا لما بين يديه، فهو سبحانه اقتضت حكمته أن يُطلع رسله أو بعض رسله على شيء من الغيب؛ عونًا لهم في إبلاغ رسالتهم وإتمام دعوتهم، قال تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا» [الجن: ٢٨].

والكهف: هو الشق في الجبل أي (الغار)، والمراد الكهف الذي أوى الفتية إليه، والرقيم: قيل اسم كلبهم، وقيل: اسم الجبل أو اسم القرية التي خرج منها أولئك الفتية، ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب هو الرقيم بمعنى مرقوم أي مكتوب، وهو اللوح الذي كُتبت فيه أسماؤهم وقصتهم أو الكتاب الذي كان معهم وفيه عقيدتهم، والله أعلم.

أما تفاصيل قصة هؤلاء الفتية وعددهم الذي اختلف الناس فيه اختلافًا كبيرًا، وكذلك مدة مكوثهم قبل بعثهم، كل ذلك يقصه الله تعالى علينا بالحق، قال تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ» [الكهف: ١٣]. فإلى ذلك التفصيل في لقاء آخر إن شاء الله، ونستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

القصة في كتاب الله

قصة أصحاب الكهف

الحلقة الثانية

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

أحمد ربي – سبحانه – وأصلّي على إمام رسله وخاتم أنبيائه سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (الكهف: ١٣- ١٥).

أيها الأخ الكريم في اللقاء الماضي قدمنا عرضًا موجزًا للقصة كما قدمه لنا القرآن الكريم، والآن نبدأ معك في التفصيل كما فصَّل القرآن الكريم، وقد بدأ الحق تبارك وتعالى تفصيل القصة بقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾، وهذه البداية تحتاج منا أن نتأملها، فإن الله سبحانه هو الذي يقص الحق؛ لأن الله هو الحق، قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ (الأنعام: ٥٧)، والله سبحانه يقص الحق؛ لأنه سبحانه هو الذي أحاط بكل شيء علمًا، قال تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ (الأعراف: ٧)، ولهذا صُدرت الآية بـ«نحن» إشارة إلى عظمة الله سبحانه، وإشعارًا بشهود الله لجميع الأحداث واتصاله بها ووقوعها على عينه.

والله يقصُ الحق الذي اختلف فيه أهل الكتاب قبلنا، ولذلك وجّه خطابًا مباشرًا للنبي صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: «عليك» بيانًا لما خصه الله به من الحق الذي اختلف فيه السابقون، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل: ٧٦)، نعم يقص على بني إسرائيل ما اختلفوا فيه من أمر العقيدة والعبادة وأخبار السابقين، وقد اختلف أهل الكتاب في أصحاب الكهف اختلافات شتى، اختلفوا في أسمائهم، وفي أعمالهم، وفي ديانتهم – النصرانية أم اليهودية، وإن غلَّبوا أنهم نصارى – واختلفوا كذلك في عددهم، وسنوات رقادهم، وطريقة موتهم وغير ذلك.

وقد نقل لنا العلامة القاسمي جانبًا من هذا

الاختلاف في تفسيره، ننقله بإيجاز: قال رحمه الله: «وقد رأيت في كتاب – الكنز الثمين في أخبار القديسين – ترجمة عن أحوالهم تحت عنوان: «فيما يخصُّ السبعة القديسين الشهداء من أفسس»، ثم قال: أما نوع استشهادهم فليس بمعروف، فالبعض من الكتبة الكنائسيين يرتأون بأنه لما اختفى هؤلاء الفتية في تلك المغارة هربًا من الاضطهاد، عُرف أمرهم فأغلق عليهم باب المغارة بصخور عظيمة. وهكذا ماتوا فيها.

وغيرهم يرون أنهم قتلوا من أجل الإيمان في مدينة أفسس، وبعد موتهم نُقلت أجسادهم ودفنت في المغارة المذكورة، وآخرون يظنون أنهم حبسوا أنفسهم أحياء باختبائهم في المغارة المذكورة ليموتوا برضاهم هربًا من ذاك الاضطهاد الوحشي».

وغير ذلك من الاختلافات، وهذا شأن ما يرويه الإخباريون، وهذا هو الخلاف البين بين ما يقصه الحق سبحانه وبين ما يقصه البشر تمامًا، كالخلاف بين كلام الله وكلام البشر، وبين علم الله وعلم البشر، وقد صدق الله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (النمل:٧٦)، وصدق الله إذ قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾.

ثانيًا: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

نعم إنهم فتية من الشباب وليسوا من الشيوخ. قال ابن كثير – رحمه الله-: «إنهم فتية، وهم الشباب، وهم أقبل للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم شبابًا، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابًا.

نعم صدق والله ابن كثير، فإن شباب الصحابة هم الذين تحملوا أعباء الجهاد في سبيل الله، فمنهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومنهم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ومنهم أسامة بن زيد، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وسعد بن معاذ، وسعد بن الربيع، وغيرهم كثير رضي الله عنهم أجمعين، ويكفي أن أول سفير للدعوة إلى الله كان من الشباب، وهو مصعب بن عمير رضي الله عنه، حيث بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل المدينة قارئًا للقرآن ومعلمًا للدين وداعيًا إلى الله، وعلى أكتاف شباب الصحابة حُفظ القرآن ونُشر العلم، ومن أبرز من قام بذلك عبدالله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر، وابن عباس رضي الله عن الجميع.

وهكذا قامت الدعوة على سواعد الشباب من الصحابة علمًا وتعليمًا وقيادة في مساحات الجهاد.

ثالثًا: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله-: استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص». اهـ.

ونحن نقول: نعم، هذه عقيدة أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، وتفصيل ذلك في كُتب الأصول فليرجع إليها من يريد، والمقصود أن هؤلاء الفتية آمنوا بالله واعترفوا له بالوحدانية، فألهمهم الله رشدهم، وآتاهم تقواهم، وزادهم إيمانًا على إيمانهم.

رابعًا: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾.

(الربط): أصله الشدُّ والحزم، ويراد به هناك الثبات والعزم القوي تجاه ما عزموا عليه من مخالفة قومهم فيما ذهبوا إليه من شرك، والذي أمدَّهم بهذا المدد هو الله الذي له ملك السماوات والأرض، وهو سبحانه على كل شيء شهيد.

قال الإمام القرطبي – رحمه الله – في تفسيره: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن شدّ عزم وقوة صبر أعطاهم الله لهم حتى قالوا بين الكفار: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ (الكهف:١٤).

وقال العلامة الشنقيطي – رحمه الله-: ويُفهم من هذه الآية أن من صدق في طاعة ربه – جل وعلا – يقوّي الله قلبه ويثبته، وهكذا يفعل الله بأوليائه، قال الله تعالى عن أم موسى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص:١٠). وقال تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم وصحبه: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ (الأنفال: ١١). انتهى كلامه بتصرف يسير.

وقال الإمام ابن كثير – رحمه الله-: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى

قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، يقول تعالى: وصبرناهم على مخالفة قومهم ومفارقة ما كانوا عليه من العيش الرغيد والسعادة والنعمة، فقد ذكر غير واحد من السلف والخلف أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم، وقد فارقوا قومهم الذين كانوا يعبدون الأصنام والطواغيت، ويذبحون لها، وكان لهم ملك جبار يأمر الناس بذلك، ولما خرج الناس يومًا في بعض أعيادهم خرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم، ونظروا إلى ما يصنع قومهم من السجود والذبح لغير الله تعالى». اهـ.

عرفوا أن هذا لا ينبغي إلا لله خالق السماوات والأرض، فانحاز كل من الفتية عنهم، أي اعتزلوهم وما يعبدون إلا الله، فتحاوروا فيما بينهم، واتفقوا أن الذي يستحق العبادة هو الله وحده لا شريك له، وأن قولهم بمقالة قومهم هو نوع من الشطط، وهو البعد عن الحق والانحراف الواضح عنه، فتواصوا فيما بينهم بالحق الذي هداهم الله إليه، وجمع قلوبهم عليه بقدرتهم، فصاروا يدًا واحدة على الحق، واتخذوا لهم مَعْبدًا حتى إذا علم الملك بأمرهم واجهوه بالحقيقة التي آمنوا بها، ولهذا أخبر الله عنهم بقوله سبحانه: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أي إن فعلنا كما تفعلون وقلنا كما تقولون بعبادة غير الله ودعوة الأصنام والطواغيت من دون الله، فإننا نكون قد فعلنا فعلاً منكرًا، وقلنا قولاً باطلاً وكذبًا وبهتانًا.

خامسًا: ﴿هَؤُلاَءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

عاب الفتية على قومهم ما فعلوه من اتخاذ آلهة يعبدونها من دون الله، واستنكروا هذا الفعل الشنيع من قومهم.

هي قاعدة احفظوها أيها القراء الكرام، ألا وهي أن من ترك عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد عَبَدَ من دونه آلهة ولا بد؛ لأنه حينئذ يتبع هواه، فيومًا يعبد صنمًا من خشب صنعه بيده، ويومًا آخر يعبد صنمًا من حجر، وهناك من كان يعبد صنمًا من عجوة يحمله معه في سفره، فإن جاع أكله؛ ثم يعود يصنع إلهًا آخر، فتتعدد الآلهة بتعدد الأهواء والمشارب، فقد يتخذ الناس عجلاً من لحم ودم يعبدونه من دون الله، وقد يصنعون عجلاً من ذهب ويقولون كما قال بنو إسرائيل: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾، وعندما يُعبَد الهوى يُفسد المنهج ولا يملك صاحب الهوى دليلاً على ما يقول إلا ما أُشرب من هواه.

ومن هنا قال الفتية قولتهم الخالدة: ﴿لَوْلاَ يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾، أي: هلا أتى قومنا على آلهتهم التي يزعمونها من دون الله بدليل واضح، وأنى لهم الدليل! هم لا يملكونه؛ لأنه لا وجود له أصلاً إلا في عقولهم السقيمة وهواهم المريض، وهذا من أظلم الظلم وأقبح الكذب على الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٣٩، ٤٠).

وقديمًا أقام يوسف عليه السلام على قومه الحجة من هذا الباب، ودخل عليهم من هذا المدخل، فلم يحيروا جوابًا، فقال عليه السلام وهو يخاطب صاحبيه في السجن: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٣٩- ٤٠)، ولقد أولى القرآن الكريم هذه القضية – قضية التوحيد – اهتمامًا بالغًا مفندًا مزاعم المشركين ومنكرًا عليهم ما ذهبوا إليه من اتخاذ الأنداد من دون الله؛ لأن قضية التوحيد هي التي يصلح عليها أمر الدنيا والآخرة، لذا أولاها النبي صلى الله عليه وسلم جلَّ اهتمامه، وبدأ بها دعوته وأسس عليها رسالته، فهنيئًا لمن عاش عليها ومات عليها، قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (النمل: ٦٠).

فلينهض الدعاة إلى الله إلى ترسيخ هذه العقيدة في نفوس الناس، وتصحيح مفهوم العبادة الحقة لله رب العالمين، إن راموا إصلاحًا للنفوس والمجتمعات، بل للعالم بأسره، بل للدنيا والآخرة.

وللحديث بقية، إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

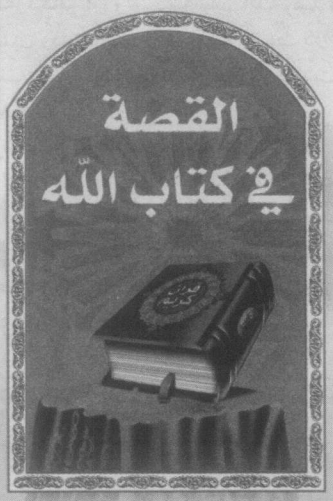

أصحاب الكهف

(٣)

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ)

[الكهف: ١٦]

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد انتهينا في اللقاء السابق مع قصة هؤلاء الفتية الذين أنكروا على قومهم ما يفعلونه من شرك بالله رب العالمين بغير سلطان واضح مقنع على ما يفعلون ويقولون، فهم يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم، بل هي آلهة زعموها وصنعوها بأيديهم، ثم اتخذوها أندادًا لله رب العالمين، وبات هؤلاء الفتية مهددين إذًا بالرجم حتى الموت، أو إكراههم على الدخول في دين القوم وترك التوحيد الذي هداهم الله إليه، وهم لا يملكون عددًا ولا عتادًا لمواجهة أقوامهم، فتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون؟ وقد ذكر الله لنا ماذا قالوا؟ وكيف خططوا للنجاة بعقيدتهم في قوله تعالى:

قال تعالى: فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ [الكهف:١٦]. الإيواء إلى الكهف والموت الأول (النوم الطويل)- وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾ ❁ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا [الكهف:١٦- ١٧].

هذه صورة من صور الصراع بين الحق والباطل على مرِّ التاريخ، والتي ستستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، والصورة هنا أن هؤلاء الفتية اعتزلوا قومهم فيما يعبدون من دون الله، اعتزلوهم في عقيدتهم، وفي عبادتهم، وجهروا بموقفهم في صراحة ووضوح، ولكنهم لا يأمنون على أنفسهم من بطش الملك وأعوانه، فتشاوروا فهداهم الله إلى اعتزال قومهم بأجسادهم كما اعتزلوهم في اعتقادهم، فاختاروا كهفًا يبدو أنهم كانوا يلتقون عنده بعيدًا عن أعين القوم؛ اختاروا هذا الكهف يأوون إليه؛ أملاً في رحمة الله - سبحانه - أن يجعل هذا الكهف الضيق جنة لهم في الأرض وجُنَّة عن أعين المتربصين بهم، وقد كان؛ فقد نشر الله عليهم من رحمته في هذا الكهف، وتولاهم ولاية حفظ وصيانة ونصر على أعدائهم، ومن مظاهر ذلك:

أولاً: مظاهر رحمة الله بأصحاب الكهف:

أ- أثنى الله عليهم ووسمهم بالهداية، وأن الله هو الذي هداهم لهذا الاختيار.

ب- جعل الله لجوءهم إلى الكهف آية من عجائب آياته الكونية وكرامة لهؤلاء الفتية.

جـ- وفقهم الله سبحانه وتعالى لاختيار الكهف من حيث الموقع، فتأتي أشعة الشمس عليهم بطريقة معتدلة، فعند الشروق تميل عن كهفهم ناحية اليمين وفي السماء - بعد الظهر - تتركهم ذات الشمال

فتدخل عليهم أشعة مناسبة بتقدير العزيز العليم، فلا هي حارة محرقة ولا باردة مقلقة، مما يحافظ على بيئة نظيفة داخل الكهف خالية من الأشياء الضارة وخالية من الرطوبة والتعفن.

د- ومن مظاهر رحمة الله بهم أن ضرب على آذانهم فعطل وسائل السمع لديهم، وفي قوله تعالى: فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ.... إعجاز علمي سبق به القرآن الاكتشافات العلمية الحديثة، فالقرآن لم يقل: «فضربنا على سمعهم» فالأذن هي الحاسة الوحيدة التي تعمل في مختلف الأحوال أثناء النوم، كما تعمل أثناء اليقظة، فجاء التعبير القرآني البليغ بالضرب على الأذن كاملاً حتى يعطل السمع بشقيه الداخلي والخارجي فيعزلهم عن العالم عزلاً تامًا حتى يناموا كما أراد الله لهم سنين عددًا.

هـ- تعطيل المحفزات الداخلية والتي قد تساعد على إيقاظهم كالرغبة في الطعام أو الشراب، أو قضاء الحاجة، أو الشعور بالألم.

و- حماية أجسادهم من التلف بتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال؛ لئلا تأكل الأرض أجسادهم ويصابوا بتقرحات الفراش أو جلطات الأوعية الدموية، وبقاء أعينهم مفتوحة لكيلا تتعرض للتلف وأجسادهم تعمل في الحد الأدنى لاستهلاك الطاقة للمحافظة على حيويتها، وهذا كله يتعلق بحمايتهم الداخلية.

ز- أما ما يتعلق بحمايتهم الخارجية، فقد ألقى الله الرهبة في قلب من يراهم، فمن ينظر إليهم يحسبهم أيقاظًا بينما هم نائمون، فيفر هاربًا عند رؤيتهم مما يملأ قلبه من الرعب، كذلك جعل الله كلبهم باسطًا ذراعيه عند باب الغار كأنه متحفز لحمايتهم، قال الله تعالى: وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا [الكهف:١٨].

وهكذا نشر الله رحمته على هؤلاء الفتية الذين فروا إليه فآواهم وأيدهم بنصره، وحفظهم داخل الكهف وخارجه ليبعثهم قبل موتتهم الأخيرة في وقت يريده - سبحانه - ليجعلهم للناس آية، فسبحان من تولى عباده الصالحين بالحفظ والنصر والتوفيق في الدنيا والآخرة.

البعث الأول

قال الله تعالى: وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا [الكهف:١٩، ٢٠].

- وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ:

معنى البعث هنا: هو الإيقاظ يعني أيقظناهم من نومتهم الطويلة، واستخدم القرآن الكريم لفظ البعث للتنبيه على أن في هذه الإفاقة دليلاً على إمكانية البعث وكيفيته، قال العلامة ابن عاشور: والإشارة بقوله تعالى: وَكَذَلِكَ إلى المذكور من إنامتهم وكيفيتها، أي كما أنمناهم قرونا بعثناهم، ووجه الشبه: أن الإفاقة آية على عظيم قدرة الله تعالى مثل آية الإنامة. اهـ. أي كما جعل الله نومهم هذه المدة الطويلة آية عجيبة فكذلك جعل بعثهم أيضًا آية بليغة، وفي النوم والإفاقة دليل واضح على البعث والنشور.

«ليتساءلوا بينهم» أي: بعثناهم فتساءلوا: كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يومًا أو بعض يوم، هذا اجتهاد بعضهم، بينما كان البعض الآخر في شك من هذه الإجابة، فلهذا أسند العلم بحقيقة المدَّة إلى الله الذي أحاط بكل شيء علمًا، وقولهم: فَابْعَثُوا أَحَدَكُم إشارة فيها حكمة وكأنهم يقولون: دعوا الخوض فيما لا علم لكم به، وانظروا فيما هو أهم، ألا وهو إرسال أحدكم بنقود من الفضة التي معكم ليجلب لكم طعامًا، وكأنهم استشرفوا إلى الإجابة على سؤالهم تأتى مع هذا الرسول الذي سيذهب لإحضار الطعام؛ لأنه سيطلع على القرية وأهلها وسيتعرف أخبارها وأحوال أهلها، ومن هنا يكتشفون مدة لبثهم بالتقريب، وقد كان ما توقعوا؛ فإن العملة التي كانت معهم كانت ترجع لزمن ذلك الملك الظالم الذي كان يجبر الناس على اتباع دينه الباطل، بينما تغيرت أحوال القرية الآن من الكفر إلى الإيمان، وذهب ذلك الزمن زمن الكفر والطغيان.

وقولهم: فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ [الكهف:١٩]:

إشارة إلى تحريهم الحلال الطيب من الطعام، وإيمانهم بأن الطعام رزقٌ من الله ساقه إليهم بفضله ورحمته يستحق الشكر عليه حتى ولو دفعوا ثمنه من الفضة، فالله سبحانه وتعالى هو الذي أطعمهم وسقاهم، وهذا مسلك المؤمنين، وفي قولهم: وَلْيَتَلَطَّفْ فسَّره قولهم: وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا، وعللوا ذلك بقولهم: إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا [الكهف:٢٠]، فإن آخر عهدهم بالقرية قبل نومهم أنها قريةٌ ظالم أهلها؛ يتبعون دين ملكهم الظالم وإذا علموا بخبر هؤلاء الفتية فسيكون المصير أحد أمرين: إما القتل في أبشع صوره وهو الرجم، أو عودتهم أي عودة الفتية في دين قومهم الذي فارقوهم بسببه وهو الشرك بالله، وعندئذ يكون هذا هو الخسران المبين، ولا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين.

هذا وإذا كان في إيقاظ الفتية من رقدتهم الطويلة آية لهم فهو أيضا آية لمن عاصر الموقف وشاهد عودة هؤلاء الفتية إلى الحياة، وبعثهم من نومهم بعد أن سمعوا عن قصتهم التي كانوا يتناقلونها في مجالسهم وعن اختفائهم المفاجئ، قال تعالى: وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا [الكهف:٢١].

وهنا سكت القرآن الكريم عن بعض التفاصيل التي تُفهم من السياق، وانتقل بنا إلى موطن العبرة مباشرة، سكت القرآن الكريم عن كيفية عثور القوم على مكان هؤلاء الفتية، وهي أنهم لما أرسلوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ليجلب لهم طعامًا طيبًا في نفسه وفي مصدره وليس مما قد حرمه الله، وذهب صاحبهم إلى المدينة، فعجب الناس من هيئته وعجب هو كذلك مما رأى من تغيير الأحوال، وكانت الدراهم التي معه عليها تاريخ ضربها وصورة الملك الظالم، وتسامع أهل المدينة بأمرهم -قيصر الصغير مع أساقفة وقسيسين وبطارقة من المدينة التي قالوا هي (أفسس) - وقالوا غير ذلك - فخرج الجميع خلف هذا الشاب الذي دلهم على مكان إخوانه ووصل الجميع إلى الكهف وسبقهم الفتى إلى إخوانه ونظر القوم إلى الفتية وكلموهم وآمنوا بآيتهم، ولما انصرفوا عنهم ماتوا في مواضعهم، وكانت آية صدق لدين المسيح الحق.

أقول: ترك القرآن هذه التفاصيل وانتقل بنا مباشرة إلى موطن العبرة، فقال تعالى: وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا. وكذلك أعثرنا أهل القرية على الفتية في كهفهم لتبرز أمامهم صورة من صور البعث حقيقة واقعة،

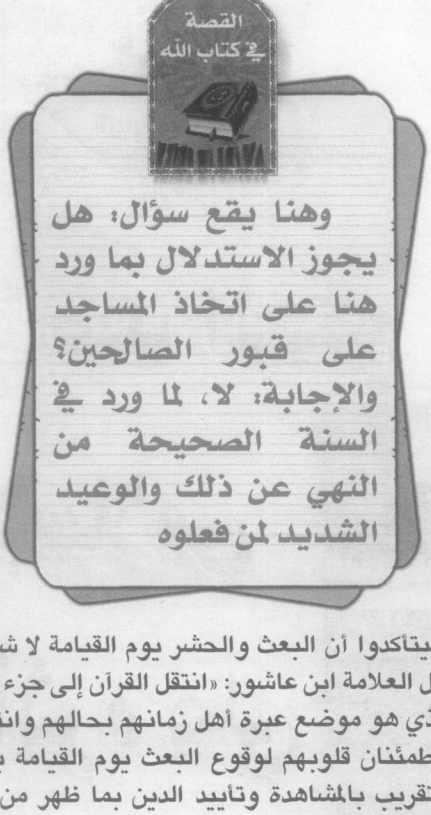

وليتأكدوا أن البعث والحشر يوم القيامة لا شك فيه، قال العلامة ابن عاشور: «انتقل القرآن إلى جزء القصة الذي هو موضع عبرة أهل زمانهم بحالهم وانتفاعهم باطمئنان قلوبهم لوقوع البعث يوم القيامة بطريقة التقريب بالمشاهدة وتأييد الدين بما ظهر من كرامة أنصاره.

وقد كان القوم الذين عثروا عليهم مؤمنين، فكانت آيتهم آية تثبيت وتقوية إيمان؛ فالكلام عطف على قوله: وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ الآية». اهـ.

ثم أوضحت الآية الكريمة أن أهل القرية تنازعوا في شأن أصحاب الكهف أيتركونهم هكذا مع إحاطتهم ببناء يحفظ لهم هيبتهم ومكانتهم أم يبنون عليهم مسجدًا تعظيمًا لشأنهم؟ ويبدو أن الغلبة كانت لأصحاب هذا الرأي الأخير؛ لأنهم كانوا من المتقدمين أصحاب المال والسلطان.

وهنا يقع سؤال: هل يجوز الاستدلال بما ورد هنا على اتخاذ المساجد على قبور الصالحين؟ والإجابة: لا، لما ورد في السنة الصحيحة من النهي عن ذلك والوعيد الشديد لمن فعلوه، والأحاديث كثيرة نذكر منها حديثًا واحدًا على سبيل المثال لا الحصر، قال صلى الله عليه وسلم: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». [متفق عليه].

وقد توسع الإمام القرطبي في ذكر الأدلة في هذه المسألة كما أشار إليها الإمام ابن كثير وغيرهما من أهل العلم، والله الموفق والمستعان، والحمد لله رب العالمين.

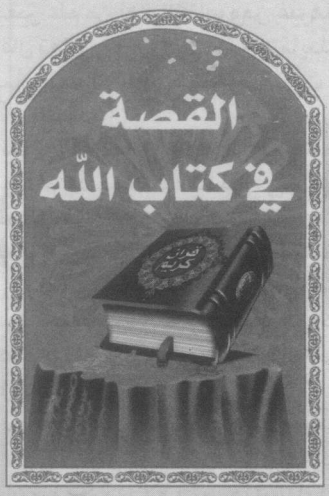

أصحاب الكهف

٤

«سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ»

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد، والصلاة والسلام على نبي الهدى ورحمة الله للبشر محمد بن عبد الله سيد ولد آدم ولا فخر، وعلى آله وأصحابه الكرام البررة.

وبعدُ: أخي الكريم: وقفنا في لقائنا السابق مع الذين عثروا على أصحاب الكهف من المعاصرين لهم، ثم اختلفوا في طريقة تكريمهم، بعد أن أطلعهم الله على كرامتهم، وكيف أنه سبحانه يتولى عباده الصالحين بالنصر والحفظ والتثبيت في الدنيا والآخرة، ورأينا كيف جعل الله في قصتهم آية على حقيقة البعث والنشور.

أولاً: الاختلاف في العدد واليوم:

نقف على اختلاف من نوع آخر نطالعه في الآيات الكريمة التالية، قال الله تعالى: « سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا » (الكهف:٢٢).

أ- قوله تعالى: «سيقولون»:

قال الإمام القرطبي: «الضمير في «سيقولون» يُرادُ به أهل التوراة ومعاصرو محمد صلى الله عليه وسلم». اهـ.

وقال العلامة ابن عاشور - رحمه الله -: «لما شاعت قصة أهل الكهف حين نزل بها القرآن، صارت حديث النوادي، فكانت مثار تخرّصات في معرفة عددهم، وحصر مدة مكثهم في كهفهم، وربما أملى عليهم المتنصّرة من العرب في ذلك قصصًا، وقد نبههم القرآن إلى ذلك وأبهم على عموم الناس الإعلام بذلك لحكمة، وهي أن تتعود الأمة ترك الاشتغال فيما ليس منه فائدة للدين أو الناس». اهـ.

وعلى العموم قوله تعالى: «سيقولون» وإشعار المضارع بالسين يدل على أن الناس سيخوضون في هذا الموضوع قديمًا وحديثًا من قبل زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى زمننا هذا وبعده، وسيسألون عن اسم كلبهم وعن لونه، وغير ذلك من الأمور التي لا طائل منها في دين ولا دنيا، لذا حسم الله القضية فقال تعالى: «قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ » حسمًا للنزاع، وإرشادًا لنا حتى نترك الخوض فيما لا فائدة مرجوحة منه.

ب- هل أخبر القرآن بعدتهم؟

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -: أخبر القرآن الكريم عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف فحكى ثلاثة أقوال، فدل على أنه لا قائل برابع، ولما ضعّف القولين بقوله: «رجمًا بالغيب» أي قول بلا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه فإنه لا يكاد يصيب وإن أصاب فبلا قصد.

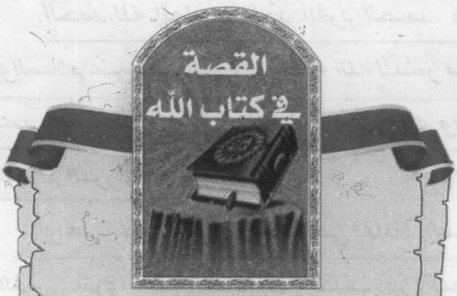

إن تأخّر الوحي وتأخرّ إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بذلك يدل على صدقه؛ لأنه لو كان كاذبًا لصنع قصة فيما بين ليلة وضحاها، وقال هذه قصتهم إذن فتأخر الوحي وانتظار النبي يدل على كمال صدقه صلى الله عليه وسلم

ثم حكى القول الثالث وسكت عنه أو قرره بقوله: « وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ » (الكهف:٢٢)، فدل على صحته، وأنه هو الواقع في نفس الأمر، وقوله: « قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم » (الكهف:٢٢) إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى. انتهى كلام الإمام ابن كثير.

وهو يؤكد أن عدد أصحاب الكهف كانوا سبعة استنباطًا من فهمه لأسلوب القرآن حين ضعَّف قول القائلين بأنهم ثلاثة ورابعهم كلبهم، وكذلك الذين قالوا إنهم خمسة وساسهم كلبهم، بقوله تعالى: « رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ » (الكهف:٢٢) واصفًا القولين السابقين، بينما سكت عن القول الثالث القائل: إنهم سبعة وثامنهم كلبهم، فكأن القرآن الكريم أقرَّ هذا القول، وابن كثير - رحمه الله - ينتصر لهذا القول بتصحيح سند رواية منقولة عن عكرمة عن ابن عباس، حيث ذكر ابن عباس عدتهم سبعة، وقال عن نفسه: إنه من القليل الذي أشار الله إليه في قوله تعالى: « مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ » (الكهف:٢٢)، وكذلك رجح قول ابن عباس وابن كثير جمعٌ من العلماء المعاصرين مثل الشيخ السعدي وابن عثيمين وغيرهما والقدامى مثل القرطبي.

ثانيًا: توجيهات للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته:

أ- أرشد الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه إلى إسناد العلم لله فيما لم يأتهم به علم من الله، وحذرهم من الاستماع للخائضين في ذلك بغير علم من أهل الكتاب ومن غيرهم.

قال تعالى: «قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا » (الكهف:٢٢).

يقول الله تعالى لنبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: قد جاءك الله بالحق في شأن هؤلاء الفتية فلا تجادل في شأنهم أحدًا من أهل الكتاب ولا من غيرهم، وقل ربي أعلم بعدتهم فهو سبحانه الذي يعلم الحق ويخبر به وكل علم يأتي من غير هذا الطريق فهو من الرجم بالغيب من غير استناد إلى كلام معصوم، وقد كفيناك ذلك بالحق الذي أرشدناك إليه، ففيه غنية عن كل ما سواه.

ب- قال تعالى: « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ». (الكهف:٢٣).

وهذا توجيه آخر وأدبٌ أدَّب الله به نبيه صلى الله عليه وسلم، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئل عن أسئلة فيها سؤال عن أهل الكهف، فقال لمن سأله: سأخبركم به غدًا، ولم يقدِّم المشيئة فتأخر الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم مدة ذكر بعض العلماء أنها خمسة عشر يومًا، ثم نزل الوحي بالخبر ثم العتاب، قال العلامة ابن عاشور هنا كلامًا جيدًا، نذكره فيما يلي: «قد جمعت هذه الآية كرامة للنبي صلى الله عليه وسلم من ثلاث جهات: الأولى: أنه أجاب سؤله، فبين لهم ما سألوه إياه على خلاف عادة الله مع المتكبرين».

الثانية: أنه علَّمه أدبًا عظيمًا من أدب النبوة.

الثالثة: أنه ما علمه ذلك إلا بعد أن أجاب سؤاله استئناسًا لنفسه أن لا يبادره بالنهي عن ذلك قبل أن يجيبه، كيلا يتوهم أن ذلك يقتضي الإعراض عن إجابة سؤاله، وكذلك شأن تأديب الحبيب المكرم، ثم ذكر لنا الشيخ رحمه الله مثالاً من تعامل النبي صلى الله عليه وسلم انطلاقًا من هذا الأدب، فقال: «ومثاله من الصحيح: أن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاني ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم إن هذا المال خضرة حُلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذي يأكل ولا يشبع واليد العليا خير من اليد السفلى». قال حكيم: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا» (متفق عليه). فعلم حكيم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمنعه من سؤاله، ولكن يؤدبه بأدب حسن. اهـ.

وقد صدق حكيم فيما عزم عليه فلم يسأل أحدًا شيئًا بعد رسول الله حتى فارق الدنيا، وهذه صورة مضيئة من أدب النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه.

وقال العلامة ابن عثيمين رحمه الله: «إن تأخّر

الوحي وتأخرّ إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بذلك يدل على صدقه؛ لأنه لو كان كاذبًا لصنع قصة فيما بين ليلة وضحاها، وقال هذه قصتهم إذن فتأخر الوحي وانتظار النبي يدل على كمال صدقه صلى الله عليه وسلم». اهـ.

جـ- وهناك توجيه ثالث في قوله تعالى: «وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا» (الكهف:٢٤).

يرشد القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عمومًا إلى ذكر الله في كل الأحوال، سواء في الاستثناء إذا نسيه أو يعمُّه ويعمُّ غيره، ويرى ابن القيم - رحمه الله - أن هذا هو الصواب، فالأمر بذكر الله يعم الاستثناء وغيره، و(عسى) هنا بمعنى الرجاء، أي ارجُ ربك أن يهديك إلى الرشد والخير دائمًا في مسألة أهل الكهف، وفي غيرها من المسائل، هذا وقد هدى الله رسوله إلى الحق في كل أموره، وقال سبحانه: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ» (الصف:٩)، فقد جمع الله لرسوله الهداية من أطرافها، فالهدى هو ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الأخبار الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع، ودين الحق هو الأعمال الصالحة النافعة ليكون ذلك منهاجًا للعالمين، والحمد لله رب العالمين.

ثالثًا: مدة لبثهم في الكهف

قال الله تعالى: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾» (الكهف:٢٥).

وهكذا ختم الله قصة أصحاب الكهف ببيان حقيقة لا يعلمها إلا الله، وإن خاض فيها من خاض من أهل الكتاب ومن غيرهم، ألا وهي مدة بقاء الفتية في كهفهم قبل بعثهم الأول أي بقائهم نيامًا قبل أن يعرف أهل قريتهم بأمرهم وهي مدة ثلاث مائة من السنين وتسع سنوات يعني بلغة الحساب (٣٠٩) من السنين.

وهل هذه المدة بالحساب القمري أم هي ثلاث مائة بالتقويم الشمسي وثلاثمائة وتسع بالتقويم القمري؟

يرى العلامة ابن عثيمين أن عدة الشهور عند الله بالأهلة، كما قال تعالى: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ» (سورة التوبة:٣٦)، فالحساب عند الله بالأهلة، وضعّف القول الآخر. وهذا إخبار من الله بحقيقة مدة لبثهم بالغار قبل موتهم، وهو سبحانه أعلم بذلك.

وحين يخبر سبحانه بالحقيقة فلا مجال لقول قائل كائنًا من كان.

لما كان الله المتفرد بالولاء والتدبير فهو كذلك المتفرد بالحكم؛ لذا قال - سبحانه -: «وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا» (الكهف:٢٦)، وهذا يشمل الحكم الكوني القدري والحكم الديني الشرعي، فهو الحاكم في خلقه قضاءً وقدرًا، وخلقًا وتدبيرًا، والحاكم فيهم بأمره ونهيه وثوابه وعقابه

وقوله تعالى: «أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ» (الكهف:٢٦) تعجيب من كمال سمعه وبصره - سبحانه - وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات بعدما أخبر بإحاطة علمه بالمعلومات، ومن هنا فالله سبحانه هو المتفرد بالولاية «مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ» (السجدة:٤)، فهو سبحانه الولي الذي يدبّر جميع شئون خلقه في كونه المتسع ولاية خاصة وولاية عامة.

وهو سبحانه الذي يتولى عباده الصالحين يخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن ذلك ولايته لأصحاب الكهف بلطفه وكرمه ولم يكلهم إلى أحد من خلقه، ولما كان الله المتفرد بالولاء والتدبير فهو كذلك المتفرد بالحكم؛ لذا قال - سبحانه -: «وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا» (الكهف:٢٦)، وهذا يشمل الحكم الكوني القدري والحكم الديني الشرعي، فهو الحاكم في خلقه قضاءً وقدرًا، وخلقًا وتدبيرًا، والحاكم فيهم بأمره ونهيه وثوابه وعقابه؛ لذا وجب اتباع وحيه الذي أوحى به إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعدم اللجوء إلى سواه، وبذلك عقب سبحانه على قصة أهل الكهف، فقال عز وجل: «وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا» (الكهف:٢٧)، وهكذا أوصى الله نبيه بالحق وأمر ألا نعبد إلا إياه ولا نحتكم إلا لشرعه، وصدق الله القائل: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (يوسف:٤٠).

والحمد لله رب العالمين.

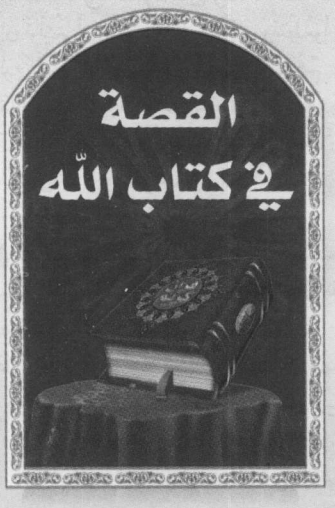

أصحاب الكهف

(٥)

مسائل متفرقة وفوائد مجموعة

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أخي المسلم؛ هذه مسائل متفرقة تتعلق بقصة أصحاب الكهف، أخرنا إيرادها إلى الآن؛ حتى لا تُزاحم علينا التسلسل الطبيعي للقصة؛ لأنها قد تحتاج لشيء من التفصيل، وهناك فوائد ذكرناها في موقعها المناسب من السياق، وأخرى نوردها لك اليوم، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

أولاً: مسائل متفرقة تتعلق بالزمان والمكان:

اختلف الناس قديمًا وحديثًا في مكان أهل الكهف وزمانهم، وكان للاختلاف في المكان النصيب الأوفر؛ حتى تكلم المؤرخون عن كهوف في ثلاث وثلاثين دولة حول العالم منها: الأردن، وتركيا وفلسطين، وإسبانيا، واليونان، وإيطاليا وسوريا، وغير ذلك.

ومن أشهر هذه المواضع الذي ترددت كثيرًا في كلام المفسرين ما ذكروه عن قرية تسمى «أفسوس» وهي من تركيا الآن، وبلدة تسمى «أبسيس»، وهي من ثغور طرسوس بين حلب وأنطاكية، وقيل ببلدة تسمى «بتراء» بين خليج العقبة وفلسطين، واكتشف أحد علماء الآثار في الأردن، ويدعى محمد تيسير في عام 1963م كهفًا في قرية الرجيب، وقالوا: إن هذه القرية كان اسمها السابق «الرقيم»، والله أعلم.

وقد سكت القرآن الكريم عن تحديد المكان والزمان أيضًا؛ لأن القرآن يصل بنا مباشرة إلى العبرة المستفادة، ويضعها نُصب أعيننا؛ حتى تكون هي غايتنا، أما الاختلاف في عددهم فقد حسمه القرآن، والله أعلم.

وأما الزمان فقيل في زمان الإمبراطور الروماني «دقيانوس»، وقيل: «تيودوسيوس» 408/450م.

ثانيًا: فوائد مجموعة:

1- الإيمان الحق يدفع المؤمنين إلى التضحية:

فأصحاب الكهف لما تمكّن الإيمان من قلوبهم، وذاقوا حلاوته؛ جعلهم يؤثرون حياة الكهف على حياة القصور على ترجيح من قال: إنهم كانوا من أبناء عِلْية القوم في الدولة الرومانية، ثم عرفوا التوحيد من النصرانية الحقة، وهكذا المؤمنون في كل زمان ومكان، فالسَّحَرة حين خالط بشاشة

الإيمان قلوبهم لم ينلْ منهم تهديد فرعون بصلبهم في جذوع النخل، وتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وقالوا له في عزة وإباء: « قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ » [طه:٧٢].

وأصحاب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم تحمّلوا ما تحملوا في سبيل دينهم في مكة، ثم هاجروا، وتركوا ديارهم وأموالهم، بل وأبناءهم في سبيل الله، والنماذج العليا للإيمان وأثره أكثر من أن تحصر.

٢- الله هو الذي يثبت القلوب:

قال الله تعالى: « وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ » [الكهف: ١٤]؛ فالربط هو الشد والتثبيت، والذي فعل ذلك هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك يفزع المؤمنون دائمًا إلى الله ليثبّت قلوبهم على الإيمان: « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ » [آل عمران:٨]، وكثيرًا ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يُردّد في دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». [ابن ماجه ١٩٩ وصححه الألباني].

٣- الفرار إلى الله واللجوء إليه:

المؤمنون في كل زمان ومكان يفرُّون إلى الله، ويدعونه رغبًا ورهبًا؛ لأنهم يعلمون أنه سبحانه هو الذي يسمع ويرى، ويجيب دعاء المضطر إذا دعاه، وهو الذي ينصر أولياءه، وهذا ما فعله الفتية حين أووا إلى الكهف: «فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا» [الكهف:١٠]، فاستجاب الله لهم وآواهم ونصرهم وجعلهم للناس آية.

٤- أهل الضلال لا يملكون حجة مقنعة:

لا يملك أهل الضلال على باطلهم دليلاً واضحًا، ولا حجة مقنعة لأصحاب العقول السليمة، ولذلك تحداهم الله تعالى على مر العصور، فقال: «لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ» [الكهف:١٥]، هكذا تعجب الفتية من قومهم الذين اتخذوا من دون الله آلهة دون أن يأتوا على افترائهم بدليل، وأنّى لهم؟! فهم لا يملكون إلا البطش والقوة لفرض معتقدهم: « إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا » [الكهف:٢٠].

٥- الحث على العلم، وطلب الدليل على القول والفعل، فهو مسلك من هداه الله.

٦- الأدب فيمن اشتبه عليه أمرٌ من العلم أن يرده إلى عالمه، ويقف عند حدِّ ما يعلم، ولا يتعداه.

٧- حين أرسلوا صاحبهم ليجلب لهم طعامًا فيه دليل على صحة الوكالة في البيع والشراء والشراكة في الطعام.

٨- وجوب التحرز والاستخفاء والبعد عن مواطن الفتن قدر الإمكان.

٩- ومن الفوائد المهمة أن من فرَّ بدينه من الفتن سلَّمه الله منها، وأن من حرص على العافية عافاه الله، ومن أوى إلى الله آواه الله، وأن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ومن صبر واحتسب كان أجره على الله: « إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ » [يوسف:٩٠].

١٠- قضية الخلطة والاعتزال:

وهذه من أهم القضايا التي قد تُستنبط من قصة أهل الكهف، وقد يسارع البعض، ويجيز العزلة دون مبرر، ومن هنا يحسن بنا أن ننقل تلخيصًا لأقوال أهل العلم في المسألة، ونذكر ما رجَّحوه، والله المستعان، ولكن قبل ذكر أقوال أهل العلم أحب أن أشير إلى أن أصحاب الكهف لم يكن أمامهم سبيل غير ذلك، وقد أشاروا إليه في قولهم: « إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا » [الكهف:٢٠]، فهم كانوا بين أمرين لا ثالث لهما؛ إما الرجم أو الكفر، فاختاروا الاعتزال، فمن وصل إلى حالتهم أو حالة مشابهة لها، فهنا يمكنه أن يفعل ما فعلوا، أمَّا إن استطاع أن يخالط الناس ويصبر على أذاهم، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر في حدود استطاعته، فلا يجوز في حقه الاعتزال، والله أعلم.

هذا ملخص ما وصل إليه أهل العلم وهو الموافق لقوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم». [صحيح الجامع: برقم ٦٦٥١].

ويمكننا تلخيص أقوال أهل العلم فيما يلي:

١- الخلطة أفضل من العزلة لمن وفقه الله للقيام بحقها المتمثل فيما يلي:

أ- أن يأمن على نفسه من الوقوع في الفتن.

ب- أن يقوم بواجب الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- العزلة نوعان:

أ- عزلة بدنية، وهذه التي فعلها أهل الكهف.

ب- عزلة شعورية وسلوكية، وهذه يفعلها كل إنسان حتى لو كان وسط الخلق يعتزل سلوكهم وأقوالهم، ويجعل علاقته بالناس على قدر الضرورة، ولابن القيم كلام جميل في هذا يُرجَع إليه في كتاب «الداء والدواء»؛ فهو جميل مفيد.

والله المستعان.

أصحاب القرية

الحلقة الأولى

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾

إعداد/ عبد الرازق السيد عيد

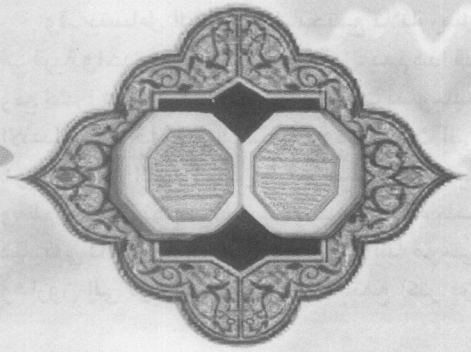

الحمد لله، والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعدُ:

أخي القارئ الكريم ها نحن نبدأ معًا قصة أخرى من قصص القرآن؛ لعلنا ننتفع بها في واقعنا، ونتطلع من خلال ذلك إلى مستقبل مشرق بالإيمان - إن شاء الله -؛ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده، جعلنا الله وإياك منهم، ولكل قصةٍ ما تتميز به عن الأخرى، ولها محورها الذي تدور حوله، ولها علاقة بالسورة التي وردت فيها، ولها هدف ترمي إليه، ولها خصائصها.

ونحن بعون الله وحوله وطوله ومدده سنتناول هذه القصة من خلال المحاور التالية:

١- علاقتها بالسورة التي وردت فيها.
٢- المقصود بالقرية التي ضرب الله بها المثل.
٣- ومن هم المرسلون.
٤- وما موقف المدعوين.
٥- مؤمن (يس) وقصته مع المرسلين ومع أصحاب القرية.
٦- كيف واجه أصحاب القرية دعوتهم لهم.
٧- العاقبة.

ونستطيع أن نلحظ عرض القرآن الكريم للقصة على النحو التالي:

أولاً: أصحاب القرية في مواجهة المرسلين: (من الآية: ١٣: ١٩).

ثانيًا: أصحاب القرية ودعوة العبد الصالح المؤمن (من ٢٠: ٣٠).

أولاً: أصحاب القرية في مواجهة المرسلين:

قال الله تعالى: «وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ

فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ » [يس: ١٣- ١٩].

نتناول الحديث حول هذه الآيات على النحو التالي:

١ - علاقة القصة بالسورة:

حفلت سورة «يس» بمناقشة قضايا البعث والجزاء، والنبوة والرسالة، وموقف أهل مكة والمعاندين والمكابرين، «يٰسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ » [يس:١ - ٥].

القرآن حكيم، وتنزيل من رب العالمين، ومحمد صلى الله عليه وسلم من المرسلين، وهو على صراط مستقيم، اختاره الله واصطفاه وهو ليس بدعًا من الرسل، بل جاء بما جاء به من الله وليس من عند نفسه.

وقوله تعالى: « لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ » [يس:٦]: لقد أرسل الله رسوله لينذر هؤلاء القوم بعد انقطاع الوحي عنهم لفترة طويلة، فهم في غفلة من أمر الرسالة والمرسلين، حتى وصل الأمر بهم في الإعراض والكبر بأن صموا آذانهم واستغشوا ثيابهم، وأعرضوا عن سماع الذكر، فهم لا يسمعون، وإن سمعوا لا يعقلون، وهذه حال أكثرهم، إلا من رحم الله، « لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ » [يس:٧ - ١٠].

ولما كانت هذه حال قريش من دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت حالهم أشبه بحال أصحاب هذه القرية المذكورة، فناسب ذكرها هنا لبيان عاقبة المكذبين للرسل، وكيف يفعل الله بهم من الخزي والنكال في الدنيا قبل الآخرة، وكيف ينصر الله رسله والذين آمنوا معهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

٢ - مَن هم أصحاب القرية؟

اشتهر عند جمهور المفسرين أن القرية المقصودة هي (أنطاكية)، لكن الإمام المحقق ابن كثير يرى رأيًا آخر، ذكره في تفسيره وانتصر له؛ بشواهد من سياق القرآن، ومن التاريخ.

فمن سياق القرآن يرى أن الرسل أرسلهم الله، ولم يرسلهم المسيح عليه السلام، والذي قال عن القرية: إنها أنطاكية يقول: إنهم رسل المسيح.

والأمر الثاني يرى أن أنطاكية لم يثبت تاريخيًا أنها دُمرت، وهذه القرية دمَّرها الله بالصيحة.

ثالثًا: روى الإمام ابن كثير رحمه الله أن موقف أنطاكية مع حواريي المسيح معروف تاريخيًا، وأنها آمنت بهم وأكرمتهم.

وهذا القول يرجّحه كثير من أهل العلم المعاصرين، منهم الشيخ ابن عثيمين رحمه الله، يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: «وتعيين تلك القرية، لو كان فيه فائدة لعيّنها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكليف، والتكلف بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذا تجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار.

ثم قال - رحمه الله -: إن طريق العلم الصحيح هو الوقوف مع الحقائق، وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس ويزيد العلم.

هذا الذي ذكره الشيخ بخلاف ما يظن كثير من الناس أن ذكر الأقوال التي لا دليل عليها توسعٌ في العلم، لا، بل هو تشوشٌ للذهن، واعتبارٌ لأمور مشكوك في صحتها، والحاصل أن هذه القرية جعلها الله مثالاً للمخاطبين، وجعلها عبرة، وسكت عن تعيين زمانها ومكانها، فلنلتفت إلى ما وجهنا القرآن إليه، ولنسكت عما سكت عنه من غير نسيان منه أو تقصير.

وقد يتساءل البعض: هل يجتمع ثلاثة رسل في قرية واحدة ويُرسلون إليها؟ أقول: نعم هذا قد وقع كثيرًا في بني إسرائيل؛ لأنهم كانت تسوسهم الأنبياء، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي قام نبي». الحديث. وقد أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون وقومه، وقد اجتمع أكثر من

نبي ورسول في مكان واحد وزمان واحد، كاجتماع زكريا ويحيى وعيسى ابن مريم عليهم السلام في بيت المقدس في زمن واحد.

٣- موقف القرية من المرسلين:

قال الله تعالى: «إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ» [يس:١٤]. واضح من السياق أن هذه القرية كانت تتسم بالعنت وتكذيب رسل الله؛ لأن الله سبحانه أخبر أنه أرسل إليها رسولين، فكذبوهما، فعزّز برسول ثالث يشد من أزر أخويه، ويناصرهما في الدعوة إلى الله، ومن السياق نفهم أنهم رسل من الله، وهذا واضح في ردِّ أصحاب القرية عليهم حين قالوا لهم: «مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ» [يس:١٥]، وهذه دائمًا حجة مكذبي الرسل على مرِّ التاريخ؛ كانوا ينكرون عليهم كونهم من البشر، ويريدونهم من الملائكة، أو ينزل معهم ملائكة، وهذا عين ما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم، «وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ» [الأنعام:٨ - ٩].

ثم توالى الحوار بين الرسل وأهل القرية: قال الرسل: «قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ» [يس:١٦ - ١٧].

انظر كيف ارتفعت نبرة التوكيد عند المرسلين ردًا على تكذيب المكذبين، فأوكلوا العلم إلى الله بأمرهم، وهذا منتهى التفويض، ثم استخدموا أساليب التوكيد اللفظي من استخدام الضمير (نا) مع حرف التوكيد «إن» ولام التوكيد في قوله: «لمرسلون»، وقال صاحب التحرير في قولهم: «ربنا يعلم»: إنه قسم للتوكيد، وعلى هذا تكون اللام واقعة في جوابه، والله أعلم.

وفي قول المرسلين: «وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ» [يس:١٧]، هذا القول منهم يدل على التجرد الصادق في دعوتهم، وأنهم ليس لهم من مصلحة في كفرهم أو إسلامهم، إن هم إلا مبلّغون عن الله، لا يسألونهم أجرًا.

قال أصحاب القرية: «قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ» [يس:١٨]:

قال صاحب التحرير والتنوير: «لما غلبتهم الحجة من كل جانب، وبلغ قول الرسل: «وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ» [يس:١٧] من نفوس أصحاب القرية مبلغ الخجل والاستكانة من إخفاق الحجة، وألا توسم بميسم المكابرة والمنابزة للذين يبتغون نفعهم؛ انصرفوا إلى ستر خجلهم وانفحامهم بتلفيق السبب لرفض دعوتهم». اهـ. مختصرًا.

وهكذا كل مكابر ومعاند تلجمه الحجة، لا يجد أمامه إلا التهديد والوعيد؛ لذلك جاء رد الرسل عليهم أكثر إفحامًا وإيلامًا، قال الرسل: «قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ» [يس:١٩]، نعم هكذا كان رد الرسل قويًا واضحًا ومفحمًا في نفس الوقت لهؤلاء المسرفين، قالوا لهم: ما الذي يدعوكم للتطير والتشاؤم من دعوتنا لكم؟ ألئننا دعوناكم للإيمان، وذكّرناكم بالله، هل هذا مدعاة للتشاؤم، أم أن هذا التشاؤم هو في نفوسهم السيئة التي ألفت الكفر، إنها الحقيقة فأنتم قوم مسرفون، نعم إن المانع الحقيقي الذي منعكم من اتباع الحق هو اتصافكم بالإسراف، وهو مجاوزة الحدِّ، والخروج على منهج الأنبياء، وهذه طبيعة الإسراف والمسرفين في كل زمان ومكان.

قال تعالى: «وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ» [سبأ:٣٤].

وقال تعالى: «وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ» [الشعراء:١٥١، ١٥٢].

فالترف طريق إلى السرف، والمترفون هم المسرفون الذين حذّر منهم صالح عليه السلام، وحذر من اتباعهم ومن صنيعهم؛ لأنهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فيا لها من نفوس فاسدة إذا دُعيت للحق تنفر منه، وإذا دُعيت للباطل تفرح به، وصدق الله القائل عن أمثال هؤلاء: «وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ» [الزمر:٤٥].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين.

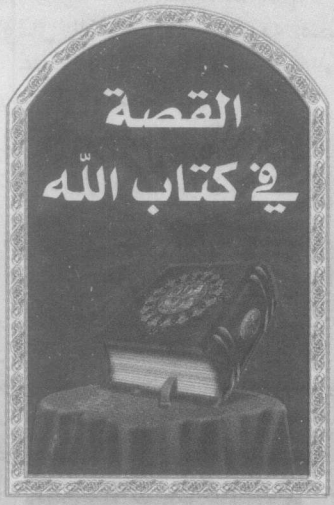

أصحاب القرية

الحلقة الثانية

«اتبعوا من لا يسألكم أجرًا...»

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، أما بعدُ:

قال الله تعالى: « وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ » [يس: ٢٠- ٢٧].

أخي القارئ الكريم: وقف بنا الحديث في اللقاء السابق عندما وصل الحوار بين المرسلين وأصحاب القرية إلى طريق مسدود؛ بسبب تعنت أصحاب القرية، وإصرارهم على الكفر وتكذيب المرسلين، بل وصل الأمر إلى تهديد المرسلين بالقتل، وعندما علم بذلك العبد الصالح جاء من أقصى المدينة يسعى، وقال: ما قصَّه الله علينا في الآيات السابقة والتي نحتاج معها إلى الوقفات التالية:

أولا: الرجل الذي جاء يسعى:

نقل ابن كثير - رحمه الله - عن ابن إسحاق فيما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وكذلك مجاهد، أن الرجل كان اسمه حبيب، وقيل: كان يعمل بالحرير، وقيل: كان نجارًا، وغير ذلك، وكان الجذام قد أسرع فيه، وشفاه الله بدعوة المرسلين بعد إسلامه، ونقل القرطبي عن مقاتل أنه حبيب بن إسرائيل النجار، وكان ينحت الأصنام، وبهذا قال غير واحد من أهل العلم.

ونقل القرطبي أيضا - رحمه الله - وغيره عن قتادة - رحمه الله - أن الرجل كان يعبد الله في غار في أقصى المدينة، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعى، فقال للمرسلين: أتطلبون على ما جئتم به أجرًا؟ قالوا: لا، ما أجرنا إلا على الله، فأعلن صدقهم، وآمن بهم، وتوجه إلى قومه

يدعوهم لاتباعهم.

وهذه الأقوال كلها ليس عليها دليل من كتاب ولا سنة، ولكنها اجتهادات العلماء، ومعظمها نُقول من أهل الكتاب، ومهما يكن من أمر، فالرجل سليم الفطرة، صادق اللهجة، قوي الحجة لا يخشى في الله لومة لائم، قال كلمات خرجت من مشكاة النبوة تحتاج إلى تأمل، وهذا الذي نرنو إليه.

ثانيًا: «وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ» [يس:٢٠، ٢١].

هذه المقولة تدل على فطرة سليمة وفهم دقيق، فقد استدل على صدق المرسلين بتجردهم في دعوتهم وإخلاصهم لله، فالمرسلون لا يسألون الناس أجرًا على دعوتهم إلى الله، وإنما أجرهم على الله، هذا دأبهم، وهذا ديدنهم من لدن آدم إلى أن ختم الله النبوة بخاتم النبيين وإمام المرسلين محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهذا واضح جلي في كتاب رب العالمين، نذكر منه أمثلة فيما يلي:

فهذا هود عليه السلام يقول لقومه: «إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ» [الشعراء:١٠٧- ١٠٩]، وقال صالح عليه السلام لقومه: «إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾» [الشعراء:١٤٣].

وقال لوط لقومه: «إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾» [الشعراء:١٦٢].

وقال شعيب لقومه: «إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾» [الشعراء:١٧٨- ١٨٠].

وقال الله سبحانه وتعالى على لسان خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم: «أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾» [الأنعام:٩٠].

وقال: «قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾» [الفرقان:٥٧].

وقال: «قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ» [ص:٨٦، ٨٧].

وقال الله سبحانه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: «أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾» [الطور:٤٠].

ومن قبل قال نوح لقومه: «فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾» [يونس:٧٢].

هؤلاء الأنبياء والمرسلون الذين بعثهم الله على مر التاريخ لم يسألوا أقوامهم أجرًا على دعوتهم لهم؛ لأن أجرهم على الذي أرسلهم وهو الله سبحانه وتعالى، وكذلك الرسل لا يريدون علوًا في الأرض ولا فسادًا، وليس لهم هدف إلا هداية الناس إلى الله، وهكذا فهم الرجل هذا الدليل العقلي الصحيح، ولعله -والله أعلم- كان من المتعبدين على منهج رسل سابقين، وهذا هو الراجح، والله أعلم.

قال ابن القيم رحمه الله تعليقًا على قوله تعالى: «اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ» [يس:٢١]، قال: «موجب الاتباع كونهم مهتدين، والمانع منه مُنتف وهو طلب العلو في الأرض والفساد وطلب الأجر». اهـ.

فالقياس الصحيح أدى إلى نتيجة صحيحة، وعامة ما يصيب أهل النار بسبب عدم إعمال عقولهم إعمالاً صحيحًا، «وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾» [الملك:١٠].

ثالثًا: «وهم مهتدون»:

ومع صدق الرسل في لهجتهم، فإنهم مهتدون لا يدعون إلى باطل، ولكن يدعون إلى حق واضح، يدعون إلى عبادة إله واحد، له الخلق والأمر، وهو الذي يملك الضر والنفع والحياة والموت، يملك الدنيا والآخرة، ويواصل الرجل تقديم الأدلة والبراهين على هداية الرسل، والتي آمن هو بها وأعلن ذلك صريحًا واضحًا أمام قومه، مخرجًا لهم الحجة في معرض المخاطبة لنفسه تأليفًا لقلوب قومه، وتنبيهًا لفطرهم، فقال:

رابعًا:

«وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» [يس:٢٢]. أليس من المستقيم في عقول الناس أن يعبدوا الذي خلقهم ورزقهم في الدنيا، وهم بعد ذلك راجعون إليه؟

وهل من الحكمة والعقل أن يعبد المرء من دون الله آلهة صنعها هو بيده لا تملك له ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟

خامسًا: «ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾» [يس:٢٣]، إنه لأمر منكر في العقول الصحيحة والفطر السليمة أن يعبد المرء من دون الله آلهة لا تشفع له عند الله، ولا تنقذه من عذاب الله يوم يلقاه.

سادسًا: «إني إذن لفي ضلال مبين» يؤكد لهم الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، أنه لو فعل ذلك أي لو عبد الآلهة التي يعبدها قومه من دون الله، والتي لا تنفع ولا تضر ولا تغني عنه من عذاب الله من شيء لو فعل ذلك يكون في ضلال واضح بين، وهذا تعريض منه بما عليه قومه من ضلال وبفساد اعتقادهم وعبادتهم، وأنه من الواجب عليهم أن يتبعوا هداية الرسل فهي الحق الواضح المبين، ثم أعلن صيحته المدوية.

سابعًا: «إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾» [يس:٢٥]، أعلنها وهو يرجو قومه أن يؤمنوا بمثل ما آمن به فهو يقول لهم: «آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ» أي: ليس ربي وحدي، إنه ربي وربكم ورب العالمين، وعليكم أن تؤمنوا بمثل ما آمنت به؛ حتى تكونوا من المهتدين، وإن لم تؤمنوا بمثل ما آمنت به، فأنا أسمعكم ما لا تحبون، ولا أبالي بما تفعلون.

أعلن الرجل كلمته: كلمة الإيمان والإسلام في وجه قومه قوية مدوية، وهو يعلم أن هذا الإعلان سيكلفه حياته، لكنه لا يبالي على أي جنب كان في الله مصرعه، وهكذا الدعاة الصادقون يقولون الحق، ولا يخافون في الله لومة لائم.

ثامنًا: «قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾» [يس:٢٦]. وهذا نداءٌ علوي من ملائكة السماء يزفون الرجل، ويستقبلونه في الشهداء، ويوحي سياق القصة هذا أن الأمر وصل لمنتهاه بين الرجل وقومه، وأن الرجل نال الشهادة في سبيل الله، بعد أن انقض عليه قومه فقتلوه، وهكذا يصل الرجل إلى منازل من قال كلمة الحق في وجه سلطان قومه الجائر، فيرتفع إلى أعلى درجات الشهادة، وينادى عليه أن ادخل الجنة، هنيئًا بما كنت تعمل في الدنيا.

وهكذا على عادة القرآن الكريم في سياق القصص القرآني يسكت عن تفاصيل كثيرة؛ يجملها ونفهمها من السياق.

ونحن نفهم من سياق القصة أن الرجل جاء ساعيًا إلى الحق، ناصرًا أهله يؤدي واجبه في الدعوة إلى الله، ناصرًا قومه، راغبًا في هدايتهم، وبدأ معهم متدرجًا، مبينا لهم صحة منهج المرسلين، وسلامة دعوتهم بمنطق عقلي سليم، ونداء فطري حميد، ويبدو أن قومه جادلوه فرد عليهم بالتي هي أحسن وفند مزاعمهم، ورد على شبهاتهم، وأوضح لهم صحة دعوة الرسل وسلامة منهجهم وبطلان ما عليه قومه، وهنا احتدم الأمر بينه وبين قومه وهددوه وتوعدوه، فأعلن صيحته المدوية أنه لا يبالي بتهديدهم ما دام على الحق، والحمد لله، وهنا وصل الأمر إلى منتهاه وانقض القوم عليه وقتلوه فدخل جنة مولاه.

ومن المناسب هنا أن نذكر قول الله تعالى: «وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾» [آل عمران:١٦٩، ١٧٠].

تاسعًا: «قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾» [يس:٢٦-٢٧]

يا له من مصير كريم صار الرجل إليه عند رب كريم في جنات النعيم، ويا له من خلق رفيع استحق الرجل هذا الكرم عليه، فهو لم يكن له هدف إلا هداية قومه، ولم يحمل في قلبه لهم إلا كل خير في حياته وبعد مماته يتمنى لهم الهداية أيضا مع ما فعلوه به فهو يتمنى لو علموا الحقيقة حقيقة ما صار إليه وما له من كرامة عند الله فيكون حافزًا لهم على الإيمان بالله واليوم الآخر.

وهذه بلا شك أخلاق الدعاة الصادقين، يُؤذَى من قومه، ويُضيَّق عليه، وقد يُسجن وقد يُقتل ومع ذلك يقول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». كما صحَّ ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه، جعلني الله وإياكم من المتأسين بمنهج الأنبياء وبإمامهم وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وإلى لقاء متجدد استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

أصحاب القرية (٣)

(يا حسرة على العباد...)

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي ينصر رسله والذي آمنوا معهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وعلى صحبه من خيرة العباد، أما بعدُ:

فقد وقف الحديث بنا في اللقاء الماضي عند دخول العبد الصالح الجنة، ونحن نؤمن بذلك؛ لأن الله هو الذي أخبرنا بذلك في قوله تعالى: «قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ» [يس: ٢٦، ٢٧]، فقومه طاشت عقولهم من كلمة الحق التي قالها ومن صرخة الإيمان التي أعلنها، فبطشوا به حتى قتلوه، فانتقل من ضيق الدنيا إلى سعة جنة ربه، ومن بطش قومه به إلى مغفرة من الله ورضوان، وإذا كان هذا مصير الرجل بعد أن نال الشهادة، فما مصير قومه الذين قتلوه؟

يحدثنا ربنا عز وجل عن ذلك فيقول: «قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ» [يس: ٢٨ ٣٢].

ولنا مع هذه الآيات وقفات:

الأولى: مع قوله تعالى: «وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ».

إن بطش ربك لشديد، وإن انتقامه لأوليائه لسريع، رأينا كيف أعد الله لوليه من الكرامة، وهذا ما أعدَّ لأعدائه من المهانة، ونحن نلحظ حقارة شأن القوم، وأنهم أهون على الله من أن ينزل عليهم جندًا من ملائكته ليسومهم سوء العذاب في الدنيا قبل الآخرة جزاء ما اقترفوا في شأن عبده الصالح، فما أعظم قدرة الله وما أشد ضعف بني آدم!!

الثانية: مع قوله تعالى: «إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ

وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ»، إنما إهلاكهم كان بالصيحة. قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله -: إن كانت عقوبتهم إلا صيحة واحدة أي: صوتًا واحدًا تكلم به بعض ملائكة الله، فإذا هم خامدون تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين لا صوت ولا حركة، ولا حياة بعد العند والاستكبار». اهـ. مختصرًا.

هؤلاء القوم كانت حركتهم كثيرة منذ لحظات وبطشوا بمن بطشوا به من عباد الله، وتأمل سرعة عقاب ربك، فهم يتحركون في كل اتجاه يمرحون ويلعبون وهم سامدون، وفجأة تأتي الصيحة فإذا هم خامدون، فأهلك الله أهل القرية أجمعين؛ انتقامًا لولي من أوليائه الصالحين.

الثالثة: مع قوله تعالى: «يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ».

الحسرة: هي شدة الندم والحزن والتألم، ممن يقع؟ وعلى من؟

نقل الإمام ابن كثير القول المنسوب إلى ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الحسرة بمعنى الويل، أي يا ويل العباد، كما نقل قول قتادة في معنى الآية، حيث قال: أي يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيعوا وفرّطوا في جنب الله.

وقد يتحسر المؤمنون على تكذيب المكذبين، المهم أن الحسرة من العباد على أنفسهم أو على غيرهم، ولا تكون من الله - سبحانه وتعالى - فالله موصوف بصفات الجلال والكمال، ولا يجوز وصفه بالحسرة، ولا يصح ذلك عقلاً ولا شرعًا، وإنما وقع في ذلك من يتبعون أهواءهم من اليهود والنصارى، ومن سار على دربهم من أهل الأهواء والبدع.

وهنا نحب أن نشير أن بعض المفسرين قالوا: إن التحسر من الله لكن ليس المعنى المتبادر إلى الأذهان من أول وهلة، وإنما معناه أن الله يبين أن حسرة العباد على أنفسهم واقعة لا محالة بسبب ما كذّبوا وفرّطوا.

ومما لا شك فيه أن كل المعاني على هذا لا تخرج عن القول الذي اختاره ابن كثير، وهذا القول الصواب يؤكده القرآن الكريم في أكثر من موضع، منها: قوله تعالى: «وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» [مريم: ٣٩]، فيوم القيامة سُمِّي بيوم الحسرة؛ لكثرة ما يقع فيه من التحسر بين الغافلين والمكذبين، ومن ذلك قوله تعالى أيضا: «أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ» [الزمر: ٥٦]، ومنها قوله عز وجل عن أهل الأهواء والكفر يوم القيامة: «إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ» [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

والحاصل من كل ما سبق أن الحسرة تقع من العباد أنفسهم على أنفسهم، أو على غيرهم، وتعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

الرابعة: أسباب الحسرة:

«مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾» دأبهم دائمًا التكذيب والسخرية من الرسل وأتباعهم حتى ماتوا على ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الخامسة: أفلا يعقلون؟

«أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾»: الرؤية هنا علمية والاستفهام إنكاري، ينكر الله سبحانه عليهم عدم اتعاظهم بمن سبق من الأمم التي أهلكها الله بسبب تكذيبها، ومن أشهرهم قوم نوح، وعاد وثمود، وقوم فرعون، وغيرهم من الأفراد والجماعات، حتى الذين ماتوا من قومهم، ورأوهم رأي عين، هل يعودون بعد موتهم؟ هذا محال. أفلا يدعوهم ذلك للتفكر في أسرار البعث والمعاد؟

السادسة: الحقيقة الدامغة:

ليس بعد الحق إلا الضلال: «وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ» من مات قديمًا، ومن مات حديثًا، ومن لم يمت بعد سيموت الآن أو بعد فترة، والكل سيبعثه الله عز وجل، وسيقفون بين يديه، ويجازيهم بما قدمت أيديهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، «قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ» [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

السابعة: هذه وقفة عامة نستخلص فيها

بعض الفوائد من القصة:

الأولى: أن كل مكذب بالله ورسله يدعي على الرسل وأتباعهم ما ليس فيهم؛ تشويهًا وتنفيرًا كما ادعى هؤلاء المكذبون التشاؤم من الرسل.

الثانية: الإسراف وهو تجاوز الحد في الفجور والعصيان من سمات المكذبين.

الثالثة: ينبغي للناصح لقومه أن يبادر لذلك ولا يتوانى، وهذا ما فعله الرجل مع قومه؛ حيث جاء يسعى من أقصى المدينة، ولم يتوان في إخلاص النصح لقومه، والانتصار للحق وأهله.

الرابعة: على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتلطف في ذلك كما قال الرجل لقومه: (يا قوم)، من باب حرصه عليهم وإرادة الخير لهم.

الخامسة: على الداعية المخلص أن يستخدم كل ما يستطيع من وسائل الإقناع بالحجة والبرهان، وقد وجد هذا الرجل دليلاً واضحًا على صدق المرسلين، فأبرزه لقومه في قوله: «اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا»، وجعل ذلك دليلاً على هدايتهم (وهم مهتدون).

السادسة: مما لا شك فيه أن ترفُّع الدعاة عن حطام الدنيا أبلغ في التأثير على المدعوين، وأعظم في الدلالة على صدق الدعاة، وهنا سؤال يطرح: هل يستفاد من هذا أنه لا يجوز أخذ الأجر على تعليم العلم وتعليم القرآن وغير ذلك؟ هذا موضوع طال فيه الحجاج بين أهل العلم، والراجح جوازه، ومن جوَّز ذلك استدل بما جاء في البخاري من حديث الرقية الطويل: «إن أحق ما أخذتم عليه أجرًا كتاب الله». وخصوصًا إذا كان القائم بهذا العمل متفرغًا له وليس عنده دخل يكفيه، وفرق العلماء بين ما يأتي من الدولة من أرزاق للعاملين بها وغيره، وأنقل هنا كلامًا للعلامة ابن عثيمين - رحمه الله - أظنّه مفيدًا - والله أعلم - قال الشيخ: لا يجوز أخذ الأجر على الدعوة إلى الله عز وجل لوجوبها على كل مسلم، أما التعليم فيجوز الأجر عليه؛ لما يحتاجه من المعاناة والتعب.

وقال رحمه الله: «وهل يستفاد من الآية أنه لا يجوز أخذ رزق من بيت المال للدعوة والإرشاد؟ لا يستفاد، ولكن لا شك أن التنزه عن ذلك أولى».

ونقول: أيها الإخوة، إن بعض العلماء شبَّه حال الدعوة بحال من يقوم على أمر اليتيم إن كان غنيًا فليستعفف، ومن كان فقيرًا فلياكل بالمعروف، ولا بد أيضًا أن نفرِّق بين مال يأتي بغير استشراف نفس وترقب وبين ما يأتي بغير ذلك، رزقنا الله وإياكم الصدق والإخلاص وأغنانا بفضله عمن سواه.

السابعة: الدعاة إلى الله لا بد أن يكونوا في دعوتهم على بصيرة، وأن يكونوا من المخلصين في توحيد الله، وهذا ما اتسم به صاحب يس، وهذا واضح في قوله: «وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾». وفي قوله: «ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ».

الثامنة: أن الحكمة والرفق في الدعوة لا يمنع الدعاة من الصدع بالحق في الوقت المناسب، ولا يخافون في الله لومة لائم، «إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾».

التاسعة: من بلاغة الإيجاز في القرآن أنه حذف أحداثًا كثيرة تُفهم من السياق، مثل قوله تعالى: «قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ» بعد قوله: «ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾». وسكت القرآن عن ذكر تفاصيل كثيرة في تصعيد الموقف بين الرجل وقومه، وتفاصيل قتله، وما أحاط بذلك من ملابسات، ونقلنا القرآن مباشرة إلى الجنة، وما أعده الله من كرامة فيها للرجل المؤمن.

العاشرة: يجب أن يثق الدعاة إلى الله في نصره لهم؛ ما أخلصوا دعوتهم له سبحانه، وأن لهم عند الله من الكرامة ما يتناسب مع إخلاصهم، فهذا الرجل الصادق انظر كيف أكرمه الله، وكيف أهان قومه بسبب قتلهم له، وكيف عجل بعقوبتهم في الدنيا قبل الآخرة، وأهلك قرية كاملة لقتلهم رجلاً واحدًا، وهذا يذكرنا بحرمة الدماء المعصومة عند الله، وقد أقسم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فقال فيما رواه النسائي وغيره من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «والذي نفسي بيده لقتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا». حفظ الله دماء المسلمين وأعراضهم في مشارق الأرض ومغاربها، وحفظ عليهم دينهم وأمنهم.

والحمد لله رب العالمين

مؤمن آل فرعون (١)

(أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله)

إعداد / عبدالرزاق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وخاتم النبيين ورسول الله للعالمين، سيدنا محمد النبي الأمي الأمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعد:

قال الله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾» [غافر: ٢٣- ٢٩].

أيها الأخ الكريم: هذه آيات الكتاب العزيز تتلو علينا من نبأ موسى وفرعون بالحق، وتقصُّ علينا من نبأ الرجل الذي آمن من قوم فرعون الذي كان يكتم إيمانه ينطق بالحق مدافعًا عنه في عبارات من نور يكفي في فضلها ومنزلتها أن سجلها القرآن الكريم آيات تتلى إلى قيام الساعة تدعو إلى الحق وإلى صراط مستقيم فيها ذكرى وعبرة للموقنين، وسنقف معها بحول الله وطوله الوقفات الآتية:

الأولى: مع قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾» [غافر:٢٣].

هذا هو نبي الله موسى وهو من هو في منزلته ومكانته، فهو كليم الله اصطفاه الله على الناس برسالته وبكلامه، وهو من أولي العزم من الرسل أرسله الله بآيات واضحات وسلطان واضح أي حجة واضحة إلى «فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ» [غافر:٢٤]، قال أهل التفسير: فرعون ملك القبط، والقبط هم أهل مصر القدماء، وكانوا عباد أوثان وأصنام، فكلمة قبطي تعني مصري قديم من قوم فرعون الوثنيين وفرعون هو ملكهم،

وكانت كلمة (فرعون) تطلق على كل ملك يحكم مصر في ذلك الزمن القديم، وهامان وزيره، وقارون كان من قوم موسى، لكنه كان أغنى الناس في ذلك الزمن وأكثرهم مالاً.

وقد جمعهم الله لأنهم رؤوس الفساد، ولأنهم اجتمعوا على تكذيب موسى، وإن اختلفت مشاربهم، لكن جمعهم التكذيب، ولأن في اجتماعهم أيضًا إشارة إلى قمة الفساد بتزاوج السلطة والمال.

الثانية: بلوغ الفساد أقصاه:

وقد بلغ فساد هؤلاء المكذبين مداه حين قالوا: «فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾» [غافر:٢٥].

وهذه طبيعة مكذبي الرسل في كل زمان ومكان حين يعجزون عن مواجهة الحجة بالحجة، ويفشلون في محاورة أهل الحق، فليس أمامهم غير البطش والتنكيل، وقد رأينا هذا فيما عشنا معه من قصص الأنبياء قديمًا، ونراه واقعًا اليوم في حياتنا المعاصرة، ولم يكتف هؤلاء المكذبون بتكذيبهم موسى واتهامه بالسحر، بل أرادوا استئصال شأفة كل من آمن به حتى يجففوا ينابيع الخير، ويقضوا عليها قضاءً تامًا فأمروا بقتل الذكور واستحياء الإناث أي استبقائهم للخدمة والذلة والمهانة، بل زعم فرعون قتل موسى كما سيأتي، ولكن الله - سبحانه - لم يمكّن لهم، وأعلن ضلال سعيهم، وفضح تخطيطهم فقال سبحانه في عبارة موجزة موحية مطمئنة لأهل الحق: «وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾» [غافر:٢٥]، هكذا حكم الله، وحكمه الحق والعدل.

الثالثة: منطق الطغاة والجبابرة:

قال الله تعالى: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾» [غافر:٢٦].

١- هكذا ينطق فرعون بالباطل الذي ظنّه حقًا، ألم يقل لقومه: (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد)، هكذا يرى فرعون نفسه، لا سبيل إلا ما يراه ولو كان باطلاً - وهو كذلك - فهو في زعمه سبيل الرشاد، ومن هنا يرى ضرورة قتل موسى الذي يراه كاذبًا، وقد صرّح باتهامه بالكذب في غير موضع، ولذلك قال هنا: «وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ» [غافر:٢٦] يعني إن كان صادقًا في دعواه وإن كان له رب كما يزعم، وهذا الزعم الباطل قد كلف فرعون كثيرًا، فإن الله كان له بالمرصاد لم يغفل عن ظلمه أبدًا حتى إذا أخذه لم يفلته، فأغرقه وجنوده وهو في عنفوان قوته، وألقاه جثة هامدة على قارعة الطريق ليكون لمن خلفه آية.

٢- فهل يعتبرون؟ لكن العجب ليس في زعم فرعون قتل موسى، بل العجب كل العجب في تبريره فهو يقول: «إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ» [غافر:٢٦]، ولو قالها وسكت لكان في منطقه شيء من العقل؛ لأن موسى سيبدل دينهم لكن من الباطل إلى الحق، لكن فرعون قضى على هذا الاحتمال، يقول: «أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ» [غافر:٢٦]، فهل هذا معقول، موسى رسول الله يدعو الناس إلى الفساد وفرعون عدو الله يهدي الناس إلى سبيل الرشاد؟! ما هذه المفارقة العجيبة؟ والمغالطة المقصودة؟ فرعون الذي علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم فاستحق كما وصفه الله: «إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ». فمن نصدق؟ نصدق الله رب العالمين؟ أم نصدق فرعون الذي كان من المفسدين؟

٣- ومما يؤسف له أن هذا المنطق المعكوس نراه كثيرًا قديمًا وحديثًا، فقوم لوط اتهموا لوطًا وبناته بالطهر والعفاف، وهذا في نظر المنحرفين جريمة يستحق عليها آل لوط الطرد من القرية.

كما كانت جريمة أصحاب الأخدود التي عاقبهم عليها الطغاة بالحرق بالنار كانت جريمة المؤمنين هي الإيمان بالله رب العالمين، وماذا كانت جريمة خاتم النبيين؟ لم تكن جريمة النبي صلى الله عليه وسلم أن دعا الناس لعبادة الله وتوحيده، فقال الله سبحانه واصفًا حالهم وقولهم عن النبي صلى الله عليه وسلم: «وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾» [ص:٤ - ٥]، ولم يكتف المشركون بذلك الباطل، بل تنادوا بالتمسك به والصبر عليه والدعوة إليه، «وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾» [ص:٦].

٤- وهكذا نرى في زماننا أهل الباطل يوالي بعضهم بعضًا على باطلهم، ويتهمون أهل الحق من دعاة الإسلام والداعين إلى تحكيمه في الحياة، أقول: يتهمونهم بأبشع التهم، منها الكذب والرغبة في السيطرة

والهيمنة، ويتهمونهم بالعمالة لجهات غير مصرية (أجنبية وعربية)، ويتهمونهم بنشر الفساد تمامًا كما قال فرعون عن موسى: «إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾» [غافر:٢٦]. فلا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين.

رابعًا: نوازع الحق عند الرجل المؤمن:

هنا تحركت نوازع الحق عند الرجل المؤمن من آل فرعون، فقال كلمة الحق والعدل عند هذا الظالم الكافر: «وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴿٢٨﴾» [غافر:٢٨].

١- قال ابن كثير - رحمه الله -: «وهذا الرجل هو ابن عم فرعون، وكان يكتم إيمانه من قومه خوفًا منهم على نفسه، وزعم بعض الناس أنه كان إسرائيليًا وهو بعيد». ونقل ابن جريج عن ابن عباس قوله: «لم يؤمن من القبْط بموسى إلا هذا، والذي جاء من أقصى المدينة وامرأة فرعون». [ذكره السيوطي في الدر المنثور، وعزاه إلى ابن المنذر وابن أبي حاتم].

وهذا القول تأكيد للقول الأول، فسكان مصر في ذلك الوقت كانوا نوعين: أهل مصر الأصليون وهم الأقباط المشركون الوثنيون، ولم يؤمن منهم بموسى إلا هؤلاء الثلاثة الذين ذكرهم ابن عباس (رضي الله عنهما). والنوع الثاني: وهم بنو إسرائيل، وكانوا مستضعفين مستذلين عند أهل مصر، وقد آمنوا بموسى إلا قليلاً منهم، ونعم هذا الرجل كان يكتم إيمانه في البداية، ولكنه ما لبث إلا قليلاً بعدما رأى من إصرار القوم على باطلهم حتى أعلنها صريحة مدوية، وأفصح عن دعوته بما لا يدع مجالاً للشك، فقال: «وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾» [غافر:٤١].

٢- هذا الرجل المؤمن من قوم فرعون ومن أقباط مصر القلائل الذين آمنوا بموسى، وكان يكتم إيمانه في أول الأمر، قال قولة عدل: «أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ» [غافر:٢٨]، وقد تلطف في حديثه مع فرعون طمعًا في أن يلين جانبه تجاه موسى، وقد صحّ في الحديث الذي أخرجه أبو داود وغيره عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال صلى الله عليه وسلم: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» [أخرجه أبو داود (٤٣٤٤)، وابن ماجه (٤٠١١) وصححه الألباني].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا من أعلى مراتب هذا المقام فإن فرعون لا أشد جورًا منه، وهذا الكلام لا أعدل منه». اهـ.

كيف تقتلون رجلاً من أجل قوله: ربي الله، وقد جاء بدليل واضح على صدق ما يقول: «وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ» [غافر:٢٨]، فالرجل (يقصد موسى عليه السلام) لم يرتكب جُرْمًا يستحق العقاب عليه، بل جاءكم بدعوة أقام لكم عليها البراهين الواضحة، ومع ذلك فكذبه عليه وصدقه عليكم، وهذا كلام في غاية من الرشد والحكمة لو صادف آذانًا صاغية وقلوبًا واعية.

٣- ثم خاطبهم بلغة المشفق عليهم الحريص على مصلحتهم: «يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا» [غافر:٢٩]، وكأن الرجل فتحت له روزنة من الغيب يرى منها بقلبه أحداث المستقبل، وهكذا يكون صدق الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب. قال ابن كثير رحمه الله: «وكذا وقع لآل فرعون، ما زالوا في شك وريب ومخالفة ومعاندة لما جاءهم به موسى حتى أخرجهم الله مما كانوا فيه من الملك والأملاك والدور والقصور، والنعمة والحبور ثم حولوا إلى البحر مهانين، ونقلت أرواحهم بعد العلو والرفعة إلى أسفل سافلين». اهـ.

الخامسة: موقف فرعون:

«يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾» [غافر:٢٩].

هكذا كان جواب الطاغية المستبد لا يسمع إلا صوت نفسه، ولا يرى إلا رأيه مهما يكن من أمر حتى لو أدى به ذلك إلى هلاكه وهلاك جنده في الدنيا، وفي الآخرة إلى جهنم وبئس القرار، أعاذنا الله وإياكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وإلى لقاء أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

القصة في كتاب الله

مؤمن آل فرعون

الحلقة الثانية

« فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ »

[غافر: ٤٤]

إعداد/ عبدالرزاق السيد عيد

الحمد لله المبدئ المعيد، الغفور الودود، الفعال لما يريد، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين ورحمة الله للعالمين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعدُ:

فنواصل معك أيها الأخ الكريم ذلك الحوار الإيماني الذي بدأناه في اللقاء الماضي، ووقفنا عند مقولة الطغيان التي أعلنها فرعون على قومه: «مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾» [غافر:٢٩]، وهذه العبارة التي قالها فرعون بلسان المقال يقولها كثير من الطغاة في كل زمان ومكان، فمنهم من يقولها صريحة كما قالها فرعون، ومنهم من يقولها بلسان الحال وليس المقال.

وكان لا بد أمام هذه اللهجة المتغطرسة أن يُعلي الرجل المؤمن لهجته ونبرته محذرًا ومهددًا، ومعلنًا إيمانه في صراحة ووضوح، وسنتناول ذلك في الوقفات التالية:

أولاً: قال الله تعالى: «وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾» [غافر: ٣٠- ٣٣].

نستطيع تلخيص هذا المقطع من الحوار في النقاط التالية:

١- يذكّر الرجل المؤمن قومَه بمصارع الأمم التي كذّبت رسلها، وكيف أهلكها الله عن آخرها، وتعددت أنواع الهلاك، منهم من أهلكه الله بالصيحة، ومنهم من أرسل الله عليه حاصبًا، ومنهم من أهلكه الله بالريح، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

٢- أعلن المؤمن إشفاقه على قومه أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم السابقة، فهذه سنن الله التي لا تحابي أحدًا.

٣- وكما أنه ذكّرهم بالعذاب العاجل في الدنيا يذكرهم كذلك بعذاب الآخرة يوم القيامة، وقد سماه يوم التناد؛ لأن الخلق يومئذ ينادي بعضهم بعضًا، فمن مستشفع، ومن متضرع، ومن مسلِّم ومهنئ،

ومن موبخ، ومن معتذر، ومن مذعن بالطاعة، قال تعالى: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ» [القصص:٦٢]، «أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ» [فصلت:٤٤]، «وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ» [الأعراف:٤٤]، «وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ» [الأعراف:٥٠]، «يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ» [الإسراء:٧١]، «دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا» [الفرقان:١٣]، «يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ» [القمر:٦]، ومثل ذلك كثير.

يقول صاحب التحرير والتنوير: «ومن بديع البلاغة ذكر هذا الوصف لليوم في هذا المقام؛ ليذكرهم أنه في موقفه بينهم يناديهم بـ «يا قوم» ناصحًا ومريدًا خلاصهم من كل نداء متضرع، وتاهيلهم لكل نداء سار، قال الإمام القرطبي عند تفسير قوله تعالى: «وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾» [غافر:٣٢] زاد الرجل المؤمن في الوعظ والتخويف، وأفصح عن إيمانه؛ إما مستسلمًا موطنًا نفسه على القتل، أو واثقًا بأنهم لا يقصدونه بسوء، وقد وقاه الله شرهم. اهـ بإيجاز.

٤- وقد نصحهم إلى الأخذ بأسباب النجاة في ذلك اليوم الذي لا عاصم فيه من أمر الله إلا من رحم.

ثانيًا: مع قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾» [غافر: ٣٤- ٣٥].

١- «ولقد جاءكم يوسف بالبينات...» الآية يواصل العبد المؤمن تصعيد لهجته مع القوم، فيقول لهم بلهجة المعاتب والمؤنب: لقد سبق أن بعث الله فيكم يوسف عليه السلام بالآيات الواضحات، وما زلتم في شك من ذلك، حتى إنكم بعد موته قلتم: قد استرحنا، ولن يأتي رسول ولا نبي من بعد يوسف، وما زلتم في هذا الشك وهذا الارتياب حتى جاءكم موسى فكذبتموه، وهذا دأبكم، وهذه من علامات الضلال، فمن كان على شاكلتهم لا يصلح أن يكون أهلاً لهداية الله.

٢- قوله تعالى: «ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ» [غافر:٣٥] الآية.

هنا يُطرح تساؤل هل هذا من كلام العبد الصالح مؤمن آل فرعون، أم من تعقيبات القرآن الكريم وتقريراته؟

يحاول ابن عاشور رحمه الله الإجابة على هذا السؤال فيقول: «جرى أكثر المفسرين على أن هذه الجمل حكاية لبقية كلام المؤمن، وبعضهم جعل بعضها من حكاية كلام المؤمن، وبعضها كلامًا لله تعالى، وسكت بعضهم عن ذلك على بيان المعنى دون تصدٍّ لبيان اتصالها بما قبلها». اهـ.

ثم اختار رحمه الله أن تلك الجمل من تعقيبات القرآن، لكننا لو تأملنا نجد قوله تعالى: «ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ» [غافر:٣٥] إلى قوله: «قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ» [غافر:٣٥] الآية، نجدها وصفًا وبيانًا وتوضيحًا لحال من هو مسرف مرتاب، فالكلام متصل، وقائله واحد، وهذا مما يرجح قول الجمهور أن الكلام لمؤمن آل فرعون، والله أعلم.

٣- وهكذا نرى الرجل المؤمن قد أخذ في تصعيد لهجته مع قومه، بعد أن لمس منهم الإعراض والعناد، فهو بدأ معهم متلطفًا في القول، مشفقًا عليهم من عذاب الله، ثم موضحًا مصير المعاندين المتكبرين، ثم ماذا؟ هذا ما سنراه في الوقفة بعد التالية.

ثالثًا: قال الله تعالى: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾» [غافر:٣٦- ٣٧].

١- «وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحًا...»:

هذا من التدليس الواضح والخداع المكشوف، والجهل بالله عز وجل وأسمائه وصفاته، فقد توهم فرعون أنه يمكنه أن يرى الله عز وجل، بمجرد صعوده إلى السماء كما توهم ذلك بعض رواد الفضاء في عصرنا الحديث، فالضلال قديمٌ حديثٌ، والله عز وجل ليس كمثله شيء، وقد قضى سبحانه ألا يُرى في الدنيا، وإلا لو كانت رؤيته متاحة في الدنيا لكل راغب فما الفرق إذن بين من يؤمن بالغيب ومن لا يؤمن؟

ثم إن فرعون حاول أن يظهر أمام قومه منصفًا، يفصل في قضية رسالة موسى، ويبين صدق موسى أو كذبه.

٢- ومن هنا جاء النص القرآني يكشف زيف فرعون، وسوء قصده، وعاقبته المنتهية إلى الخسران، فقال تعالى: «وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾» [غافر:٣٧]، جاء هذا القول الفصل ليختم هذا المشهد، وليبدأ مشهدًا آخر.

رابعًا: « وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾» [غافر: ٣٨- ٤٠].

١- وهكذا أعلنها الرجل المؤمن قوية صريحة، لا يخشى فيها لومة لائم، وهي ترد مقالة فرعون الباطلة: «مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ» [غافر:٢٩]، وهذه مقولة باطلة وضع المؤمن الصادق في مواجهتها كلمة حق: «يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ» [غافر:٣٨]. هذه حقيقة قوية، فالذي آمن نعم يدلهم على طريق الرشد الذي هو ضد الغي، وهذا لا يكون إلا بالإيمان بالله ورسله.

٢- ما أعظم الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، فهذا الرجل المؤمن يكاد يكون هو المؤمن الوحيد في بلاط فرعون، فكانت له حظوة ومكانة عند فرعون وقومه، ولك أن تتخيل ماذا ينتظره بعد هذا الإعلان الذي فاجأ به الجميع، وهو يعلم جيدًا أن مصيره في أقل الأحوال السجن إن لم يكن القتل، فلم تغره الرغبة ولم تثنه الرهبة عن كلمة حق يقولها في الوقت المناسب والمكان المناسب، ألا ما أعظم هذا الإيمان! وأعظم بهذا المؤمن الصادق الذي صدع بالحق في وجه الباطل وأهله!!

وقوله: «يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ» [غافر:٣٨] إجمال تبعه تفصيل. قال ابن القيم رحمه الله: «ألا ترى كيف قال: «أهدكم سبيل الرشاد» فلم يبين أي سبيل هو، ثم فسّر ذلك فافتتح كلامه بذم الدنيا وتصغير شأنها؛ لأن الإخلاد إليها أصل الشر كله، ثم ثنى بعد ذلك بتعظيم الآخرة، وبيان حقيقتها وأنها هي الوطن الذي فيه المستقر، ثم ثلث بذكر الأعمال سيئها وحسنها، وعاقبة كل منها؛ ليثبط عن الفانية، وينشط للباقية، فكأنه قال: سبيل الرشاد هو الإعراض عن الإسراف في الدنيا، والرغبة في الآخرة، والامتناع عن سيئ الأعمال؛ خوف المعاقبة عليها، والمسارعة إلى الأعمال الصالحة رجاء المجازاة عليها». اهـ.

خامسًا: قال الله تعالى عن المؤمن: «وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾» [غافر: ٤١- ٤٦].

وقفتنا مع هذا المشهد نسجلها في النقاط التالية:

١- يواصل الرجل المؤمن إقامة الحجج على قومه، فيتساءل مستنكرًا على قومه دعوتهم له إلى النار، بينما هو يدعوهم إلى الجنة والنجاة من النار.

٢- كيف تدعونني للشرك بالله الواحد الأحد، بينما أدعوكم إلى العزيز الغفار.

٣- حقًا إن دعوتكم باطلة لا وزن لها في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنها كفر بالله وبرسوله موسى، وأننا جميعًا راجعون إلى الله يوم القيامة يفصل بيننا.

٤- ثم يعلن مفاصلة قومه ويبين باطلهم، ويتحداهم ويهددهم ويتوعدهم بما ينتظرهم من عذاب الله في الدنيا قبل الآخرة، وعندها سيذكرون ما نصحهم به، ولكن بعد فوات الأوان.

٥- هذا المؤمن الصادق يعلن عدم خشيته من تهديد قومه ولا وعيدهم؛ لأنه فوّض أمره إلى الله فهو سبحانه بصير بالعباد وأحوالهم.

٦- لما صدَق الرجل مع الله صدق الله معه، ووقاه سيئات ما مكروا، وحاق بآل فرعون سوء العذاب.

رزقنا الله وإياكم الصدق مع الله حتى ننال وعده الذي وعد بنصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

وللحديث بقية. والحمد لله رب العالمين.

القصة في كتاب الله

دروس وعبر وفوائد

مؤمن آل فرعون

الحلقة الثالثة

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين ورحمة الله للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين. وبعدُ:

أخي الكريم: هناك فوائد حان وقت استخلاصها، وثمرات حان قطافها في ختام قصة مؤمن آل فرعون؛ راجيًا أن ينفعنا الله وإياكم بها، ويمكننا بعون الله بيانها في النقاط التالية:

١- من الحكمة في الدعوة التدرج مع المخالف والتلطف في القول؛ تأليفا لقلبه وقلوب المخاطبين معه، وبخاصة إذا كان المخاطَب ذا بأس شديد وعتو مثل فرعون وأمثاله، وقد تدرج مؤمن آل فرعون مع قومه من التلطف في البداية، ثم إظهار خشيته عليهم، ورغبته في إنقاذهم من عذاب الله، ثم صدع بالحق واضحًا صريحًا.

٢- إذا صدق إيمان المؤمن صدقت لهجته، ووضحت عبارته، وقامت حجته، ولم يخشَ في الله لومة لائم.

٣- إذا صدق المؤمن مع ربِّه صدق الله معه ونصره في الدنيا والآخرة، وهذا الذي حدث مع العبد الصالح مؤمن آل فرعون، قال الله تعالى: « فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ » [غافر:٤٥].

٤- بمناسبة قوله تعالى: « إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ » [غافر:٥١]، فقد يقول قائل: كيف نفهم هذه الآية وقد قُتل من أنبياء الله وأوليائه من قُتل؟ وقد أورد ابن كثير هذا التساؤل على لسان ابن جرير - رحمه الله - وأورد إجابته عليه كما يلي: «يجابُ عن هذا بجوابين: أحدهما: أن يكون الخبر خرج على

وجه العموم، والمراد به بعض الرسل وليس جميع الرسل. والثاني: أن يكون المراد بالنَّصر الانتصار لهم ممن آذاهم، سواء كان هذا في حياتهم أو بعد مماتهم، كما فعل الله تعالى بقتلة يحيى وزكريا وأشعيا سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم. وأما الذين راموا صلب المسيح من اليهود، فسلط الله عليهم الروم، فأهانوهم وأذلوهم هذا في الدنيا، وفي الآخرة لهم عذاب شديد، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى - عليه السلام - إمامًا عدلاً وحكمًا مقسطًا، فيقتل الدجال وجنوده من اليهود، ويقتل الخنزير، ويكسر الصليب ويضع الجزية، ولا يقبل إلا الإسلام [متفق عليه]، وهذه نصرة عظيمة وهي سنة الله في خلقه في قديم الدهر وحديثه».

ثم قال ابن كثير: وقال السدّي: «ما بعث الله رسولاً إلى قومه قط فيقتلونه أو قومًا من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا؛ فكانت الأنبياء والمؤمنون يُقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها». اهـ. مختصرًا.

٥- التدليس والكذب من سمات أعداء الرسل:

نعم هذه من سمات المكذبين بالرسل، وهذا فرعون يكذب ويدلس على قومه ويقول لهم: «ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ» [غافر: ٢٦]، سبحان الله من هذا المنطق المعكوس، فرعون يخشى أن يفسد موسى في الأرض، وهذا للأسف منهج أهل الباطل في كل زمان ومكان، وحين يعجز أهل الباطل عن الوقوف أمام حجة أهل الحق فليس أمامهم إلا البطش والكذب.

٦- الصراع بين الحق والباطل قديم متجدد:

وفي كل زمان ومكان، يقيّض الله رجالاً يصدعون بكلمة الحق أمام الباطل، وينصرون رسل الله مهما تكلفوا من مشقة.

فقد هيأ الله لموسى هذا الرجل القبطي في بلاط فرعون يذود عنه، وهذا يذكّرنا بموقف أبي بكر رضي الله عنه حين وقف يدفع المشركين عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم في مكة، روى البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط، فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلفّ ثوبه في عنقه، فخنقه خنقًا شديدًا فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ورفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ» [غافر: ٢٨] [البخاري ٥٤٣٧].

٧- «إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ» [غافر: ٢٧].

قالها موسى عليه السلام في مواجهة صولة الباطل الذي أعلنه فرعون، ليس أمام موسى إلا أن يستعيذ بالله الذي له مقاليد السماوات والأرض والذي يجير ولا يُجار عليه، إنه رب موسى وربهم ورب العالمين، استعاذ به موسى من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب من أمثال فرعون ومن معه، وهذا مسلك الأنبياء والصالحين في كل زمان ومكان، ومن يتوكل على فهو حسبه.

٨- علينا أن نحرص على نصرة دين الله، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بفهم السلف، وأن نتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم في كل أموره حتى يكون لنا الفوز في الدنيا والآخرة ، اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

والحمد لله رب العالمين.

قصة ابني آدم (١)

(إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ)

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله الذي خلق النفوس فسواها، ألهمها فجورها وتقواها، والصلاة والسلام على المبعوث بتزكية النفوس ومكارم الأخلاق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعدُ:

قال الله تعالى: «وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾» [المائدة:٢٧ - ٣١].

أيها الأخ الكريم: هذه قصة النفس البشرية حين تطبع على خلال الخير فتسمو عن الدناءات وسفاسف الأمور وترتفع عن حطام الدنيا الزائل، وقصتها أيضا حين تطبع على الحسد والغدر والعدوان، وحين يَظُنُّ الفاشل البليد الحاقد حين يتخلص من منافسه التقي النقي أنه سيبني نفسه فإذا هو يهدمها؛ لأن الإنسان لا يبني نفسه بهدم غيره؛ بل بجهده الإيجابي في تقوية النفس وتزكيتها.

ثانيًا: اختلاف النفوس باختلاف ما جُبِلَت عليه:

لا شك أن النفوس تختلف باختلاف ما جلبت عليه من خير أو شر، ثم يأتي دور المجاهدة لزيادة نصيب الخير والاستقامة عليه، وتقليل نصيب الشر والقضاء عليه، وصدق الله العظيم حين قال: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾» [الشمس:٧ - ١٠]، ورحم الله ابن القيم حين قال: «سبحان الله في النفس كبر إبليس وحسدُ قابيل، وعتو عاد، وطغيان ثمود، وجرأة نمرود واستطالة فرعون وبغي قارون وخفة هامان».

وقال مالك بن دينار: «إن الأبرار لتغلي

قلوبهم بأعمال البر، وإن الفجار تغلي قلوبهم بأعمال الفجور، والله يرى همومهم؛ فانظروا في همومكم».

ثالثًا: هذا الذي أشرنا إليه آنفًا نلاحظه بوضوح في هذه القصة، كما نستخلص أمورًا أخر من الفوائد والعبر في حينه إن شاء الله، ونبدأ بوقفة مع الآيات الكريمة نوجزها فيما يلي:

١- واقصص عليهم - يا رسول الله - على بني إسرائيل وعلى غيرهم خبر ابني آدم - وهو خبر حق وصدق - حين قدَّم كلاهما قربانًا، فتُقبل من هابيل، ولم يُتقبل من قابيل، وقد تم ذلك بأن جاءت نار فأكلت ما قدمه هابيل، ولم تأكل ما قدمه قابيل.

وللمفسرين حول هذا تعليقات، بعضهم قال: الذي قدَّمه قابيل كان هزيلاً لا قيمة له، والبعض الآخر قال كان قابيل عاطلاً لا يعمل ولا يملك شيئًا، وكان هابيل يعمل في رعي الأغنام، وقال آخرون: كان قابيل يعمل في الزراعة وهابيل يعمل في الرعي.

والخلاصة كما قال الله تعالى على لسان هابيل: «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» [المائدة:٢٧].

٢- دبَّ الحسد في قلب قابيل، وانتقل إلى جوارحه بصورة واضحة، وهذا الذي استعاذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما علَّمنا القرآن في قوله تعالى: «وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥» [الفلق:٥].

فقال قابيل لأخيه هابيل: (لأقتلنك) هكذا بصيغة التوكيد، لكن لماذا تقتله يا قابيل؟ لا لشيء إلا أن الله تقبل منه ولم يتقبل منك؟ وما ذنب أخيك هابيل؟ وما الجريمة التي ارتكبها هابيل حتى يستحق عليها القتل وما ذنبه إلا أن يكون من المتقين، وأن الله أحبَّه لتقواه وتقبل منه، لماذا لا تحاول أن تكون مثله من المتقين حتى يتقبل الله منك؟ ولأن نفس قابيل كانت مثل نفس الشيطان، فامتلأت شرًا فحسد أخاه وحقد عليه ولم ير أمامه إلا قتله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٣- قابل هابيل سيئة أخيه بالحسنة لعله يرعوي أو ينزجر، فقال له: لئن مددت إليَّ يدك لتقتلني لن تجد مني مثل فعلك، إني أخاف الله رب العالمين، كما أني أريد أن تتحمل أنت وزر قتلي مضافًا إلى أوزارك السابقة، فتكون بذلك من أصحاب النار الملازمين لها.

٤- ولما غلت مراجل الحقد والحسد في قلب قابيل، وأغلقت منافذ التفكير في عقله لم يتورع عن المسارعة بالبطش بأخيه وقتله، وبذلك سقط في معين الخسران، الذي جعله عاجزًا عن مواراة جثة أخيه، ويبدو أن هذه الجريمة وقعت في وقت مبكر جدًا من هبوط آدم وزوجه إلى الأرض؛ لأن قابيل لم يكن يعرف كيف يتصرف في جثة أخيه حتى بعَثَ الله غرابًا ينقر في الأرض يحفر فيها حفرة عميقة يواري فيها جثة غراب آخر؛ فتعلم منه قابيل كيف يواري جثة أخيه أي كيف يدفنها.

وهنا اختصر السياق القرآني أحداثًا نفهمها من السياق، وهذا أحدُ وجوه الإعجاز في الأسلوب القرآني الفريد؛ لأنه ما من شك قد مرَّت فترة زمنية طويلة من حيرة قابيل وذكر بعض المفسرين أن قابيل حمل جثة أخيه على ظهره وطاف بها طويلاً (قيل: سنة، وقيل: مائة سنة، كما نقله ابن كثير)، لا يعرف كيف يتصرف فيها، حتى رأى ما فعله الغراب.

٥- وهنا أدرك قابيل عجزه وضعفه بل وغباءه، وقد صرَّح بذلك كما حكى عنه القرآن الكريم: «قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ۝٣١» [المائدة:٣١].

٦- نقل ابن كثير عن ابن عباس قصة مؤداها خلاف نشب بين قابيل وأخيه هابيل بسبب رغبة قابيل في الزواج من أخته التي ولدت معه لوضاءتها في بطن غير الذي ولدت معه، فكانت الفتاة المولودة مع قابيل من حق هابيل كما كان متبعًا في ذلك الوقت، لكن قابيل بغى على أخيه... ومهما يكن من أمر بشأن صحة هذه القصة من عدمه فقد حسد قابيل أخاه، يقول ابن كثير رحمه الله: قال في تفسيره: «يقول تعالى مبينًا وخيم عاقبة البغي والحسد

والظلم في خبر ابني آدم». ثم قال: «أي اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم بالحق». انتهى مختصرًا. وعلى هذا أجمع المفسرون؛ فالحسد هو المحرك الأول لهذه الجريمة الشنعاء.

٧- صلة هذه القصة ببني إسرائيل:

مما لا شك فيه أن هذه القصة وثيقة الصلة بالحديث عن بني إسرائيل، وهذا واضح جلي من السياق القرآني في السباق واللحاق، فالقصة جاءت تعقيبًا على ما ذكره القرآن من تمرُّد بني إسرائيل على أوامر موسى ونكوصهم عن دخول القرية التي أمرهم الله بدخولها، فأبوا الانقياد لأمر الله، وبلغت بهم الوقاحة أن قالوا لموسى: «فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ» [المائدة:٢٤]، هذا وقد جاء تعقيب القرآن على القصة «مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾» [المائدة:٣٢].

ونستطيع بعون الله أن نُلخص علاقة القصة ببني إسرائيل فيما يلي:

١- بنو إسرائيل تمردوا على أوامر الله تمرُّد قابيل على أوامر الله.

٢- بنو إسرائيل دب فيهم داء الأمم ألا وهو الحسد فقديمًا حسد أبناء إسرائيل أخاهم يوسف وتآمروا على قتله وانتهى بهم الأمر على التخلص منه ليخلوا لهم وجه أبيهم بغير جريرة جناها يوسف عليه السلام، وهذا الذي فعله قابيل تمامًا مع أخيه هابيل.

٣- وحسد اليهود العرب على بعثة النبي صلى الله عليه وسلم فيهم ونزول القرآن بين ظهرانيهم، وحملهم ذلك على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن وبالإسلام مع علمهم بذلك وإقرارهم به، ولكن منهم الحسد والحقد على الكفر وعدم الإيمان.

قال الله تعالى في سياق الحديث عن اليهود: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾» [النساء:٥٣ - ٥٤].

وقال تعالى: «وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» [البقرة:١٠٩].

فالحسد إذن صفة لازمة لبني إسرائيل قديمًا وحديثًا.

٤- انتشار القتل بينهم وجرأتهم عليه حتى قتلوا أولياء الله وأنبياءه، ومن هنا قال الله تعالى تعقيبًا على قصة ابني آدم: «مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا» [المائدة:٣٢] من أجل حرمة القتل الشديدة، وكونه إزهاق نفس حرَّم الله قتلها بغير حق، وهذا من أعظم الحرمات على الله، ومن أجل ما وقع فيه بنو إسرائيل من استهانتهم بالدماء، كتبنا عليهم أي شرعنا لهم وفرضنا عليهم، وكانت التوراة أول الكتب التي حرَّم الله فيها قتل النفس وجاء فيها شرع القصاص، كما قال الله تعالى: «وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ» [المائدة:٤٥]. هذا بعض ما كتبه الله في التوراة على بني إسرائيل، فهل عملوا به؟! اللهم لا. إلا قليلاً.

٤- وكتب الله علينا في القرآن: «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾» [المائدة:٣٣]، فهل عملنا به؟ وأقمنا حدود الله؟

لو أقمنا حدود الله في مجرم واحد لساد الأمن، وتحقق العدل، وانتفت ظاهرة البلطجة وجميع الظواهر السلبية التي تهدد أمن المجتمع وأمانه. اللهم انشر رحمتك على العباد، ودمِّر أهل الزيغ والفساد.

وللحديث بقية، والحمد لله رب العالمين.

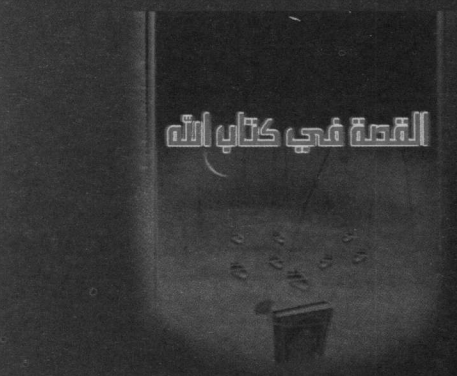

قصة ابني آدم «٢» داء الأمم

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وخاتم النبيين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

أيها الأخ الكريم: هذا لقاؤنا الثاني مع قصة قابيل وهابيل، وهو الأخير، نستخلص فيه بعض الفوائد والدروس والعبر التي استفدناها من هذه القصة، ونجملها بعون الله فيما يلي:

١- خطورة الحسد:

الحسد هو أول ذنب عُصِيَ اللهُ به في السماء، وأول ذنب عُصِيَ الله به في الأرض، فالحسد كان سببًا في معصية إبليس؛ فامتنع عن تنفيذ أمر الله بالسجود لآدم، فهذه معصية السماء.

والحسد هو الذي دفع قابيل إلى قتل أخيه هابيل، وهذه أول معصية في الأرض.

وهو الذي منع اليهود من اتباع النبي محمد الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فكان يهود المدينة يعرفون الرسول كما يعرفون أبناءهم، ومع ذلك لما جاءهم ما عرفوا كفروا به.

والحسد هو الذي منع المشركين في مكة من اتباع النبيِّ محمد صلى الله عليه وسلم، مع يقينهم بصدقه وأمانته، قال الله تعالى: «قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ» [الأنعام: ٣٣]، هذا خطاب للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، والظالمون الجاحدون هم كفار قريش.

وكما منع الجحود قريشًا من الإيمان مع علمهم بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وأمانته، كذلك منع فرعون من الإيمان بموسى، وعادًا وثمود من الإيمان برسلهم، والجحودُ متولد من الحسد.

الحسد يؤدي إلى الاعتراض على أمر الله كما فعل إبليس حين ردَّ أمر الله الواضح الصريح برأيه الفاسد القبيح، وكما فعل قابيل واعترض على أمر الله سبحانه حين تقبَّل من هابيل ولم يتقبل من قابيل، وكانت النتيجة البغي والعدوان

فقتل قابيل هابيل.

وكما أن الحسد من صفات اليهود والمشركين فهو كذلك من صفات المنافقين، وإن الله تعالى جامعهم في جهنم جميعًا.

قال ابن المعتز: «الحسد داء الجسد»، وقال: «الحاسد مغتاظ على من لا ذنب له، بخيل بما لا يملكه، طالبٌ ما لا يجده».

وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وقيل: ما خلا جسد من حسد، إلا أن الكريم يكتمه، والبخيل يعلنه». [الفتاوى: ١٠/١٢٤، ١٢٦]. فالكريم يكتم حسده فيتحول إلى غِبطة، وهو الحسد الممدوح، والبخيل يعلنه وهو الذي أمرنا الله أن نستعيذ بالله منه، وهو تمني زوال نعمة العبد وهو الحسد المذموم.

٢- بشاعة القتل وتعظيم حرمة الدماء:

في هذه القصة بيان واضح لبشاعة جريمة القتل، ويظهر ذلك جليًا في اللقطات التالية:

الأولى: الصورة التي صوّر الله بها قابيل بعد ارتكابه جريمته البشعة وقبلها؛ فقبل الجريمة بدا قابيل لا يتقي الله في أفعاله ولا أقواله، والأدلة على ذلك كثيرة، منها أنه قدَّم لله قربانًا فلم يقبل منه، وإنما يتقبل الله من المتقين، فقابيل ليس من المتقين، ومنها أنه تجرأ على قتل أخيه دون ذنب ارتكبه أخوه إلا أنه من المتقين، ثم انظر صورته بعد ارتكابه الجريمة وكيف أصبح من الخاسرين، ولم يهتدِ لدفن أخيه، وعجز أن يكون مثل الغراب فيواري سوءة أخيه.

الثانية: أن الله - سبحانه وتعالى - عقّب بعد القصة بهذا التعقيب الذي تنخلع له القلوب كما قال تعالى: «مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا» [المائدة: ٣٢].

ولا يزال ابن آدم الأول له نصيب من كل جريمة قتل تقع في الأرض؛ لأنه أول من سن سُنة القتل في الأرض، قال صلى الله عليه وسلم: «لا تُقتل نفسٌ ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفلٌ منها؛ لأنه أول من سن القتل». [متفق عليه].

وهذه سنة سيئة سنّها ابن آدم الأول فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة، قال صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» [رواه مسلم وغيره].

٣- تعظيم حرمة الدماء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم:

كما جاء بعد القصة تحريم القتل على بني إسرائيل وتصويره بصورة قتل الناس جميعًا لمن قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض، جاء بعدها مباشرة تشريع لحماية المجتمع، ولعصمة الدماء؛ تشريع يحفظ دماء الناس وأعراضهم وأموالهم في قوله تعالى: «إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [المائدة: ٣٣]. جاء بعد الآية السابقة مباشرة، وكلتاهما جاءتا تعقيبًا على القصة، وواضح من الآية أهمية حماية المجتمع، وحماية أموال الناس وأعراضهم وأنفسهم وصيانة الدماء والأعراض والأموال.

وانظر كيف نعتهم الله بأنهم يحاربون الله ورسوله وهم ليسوا كفارًا محاربين، بل هم أفراد من المجتمع يقطعون الطريق ويسفكون الدماء، ويعتدون على الحرمات وهم من المسلمين، لكنهم خرجوا على النظام والأمن، وهذه الآية تعرف عند العلماء بآية الحرابة أي التي تبين حد الحرابة الذي يجب تطبيقه على هؤلاء الخارجين عن النظام، فعلى ولي الأمر أن يطبق عليهم إحدى العقوبات المذكورة في الآية الكريمة على حسب ما ارتكبوا من جُرْم، وعلى ولي الأمر أن يختار من العقوبة ما يتناسب مع جرمهم، فليس من سرق فقط كمن سرق وقتل، وحالات القتل تختلف أيضًا باختلاف أحوالها.

والحاصل أن المقصد في النهاية هو حماية الدماء والأموال والأعراض والحفاظ على أمن المجتمع، وهذا الذي شدّد عليه النبي صلى الله عليه وسلم في أعظم موقف وقفه وآخر موقف وقفه في المكان والزمان في حجة الوداع، فقال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا». [متفق عليه].

فأين المسلمون اليوم من تطبيق حد الحرابة، بل ومن تطبيق حدود الله كافة، ويكفي لبيان

حرمة الدماء وبشاعة القتل أن تقرأ أو تسمع لهذه الآية الكريمة: « وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا » [النساء: ٩٣].

هذا الوعيد الشديد الذي لم تر في القرآن من بدايته إلى نهايته وعيدًا مثله إن دلّ على شيء إنما يدل على عظيم حرمة الدماء.

وقد استفاضت السنة النبوية بذكر تعظيم حرمة الدماء والأموال والأعراض، ذكرنا فيها كلمات النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، ونذكر أيضًا ما صح عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يزال المسلم في فسحة من دينه ما لم يصيب دمًا حرامًا» [رواه البخاري]. وعن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل مؤمن بغير حق» [رواه الترمذي وصححه الألباني].

والحق الذي جاءت به السنة الصحيحة إحدى ثلاث:

١- الثيب الزاني.

٢- قاتل النفس.

٣- التارك لدينه المفارق للجماعة (المرتد).

كما صحَّ ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل زنى بعد إحصان، أو ارتد بعد إسلام أو قتل نفسًا بغير حق» [رواه البخاري].

هذا، والأحاديث كثيرة لا يتسع المجال لإيرادها، فإذا أضفناها إلى ما تقدم من آيات وإلى حد الحرابة وغيره من الحدود يتبين لنا مدى حرص الإسلام على الدماء والأعراض والأموال، ومدى حرص الإسلام على أمن المجتمع عامة وأمن المسلم خاصة وليس هذا فحسب، بل الإسلام حريص كل الحرص على منع المقدمات من القول والعمل التي تؤدي إلى تهديد المسلم أو ترويعه بأي صورة من الصور، وهذا ما يسمى في التشريع الإسلامي بسد الذرائع يعني إغلاق كل باب يؤدي إلى فتنة، ومن ذلك ما أعلنه النبي صلى الله عليه وسلم محذرًا وناهيًا، فقال عليه الصلاة والسلام: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» [رواه البخاري]. وقال أيضًا: «من حمل علينا السلاح فليس منا» [متفق عليه]. وقال أيضًا صلاة ربي وسلامه عليه: «لا يشيرنَّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح؛ فإنه لا يدري، لعل الشيطان ينزع في يده، فيقع في حفرة من النار» [متفق عليه]. أي: بقتل أخيه أو جرحه.

ولقد أطلت النفَس نوعًا ما في هذه الوقفة لأهميتها في الوقت الذي نعيشه الآن وفي الأحوال غير المعهودة التي تمر بها البلاد، نسأل الله لها السلامة، فقد استهان كثير من الناس بالدماء والأعراض، ونهب الأموال بصورة لافتة للنظر، وبصورة لم نعهدها، ولا شك أن الأمر يحتاج من الجميع إلى وقفة للمراجعة لتحديد الأسباب والدوافع، ووضع خطط العلاج والاستئصال، فهناك أمور يمكن معالجتها مثل الجهل يعالج بالعلم والتربية، والفراغ الذي يعالج بفرص عمل مناسبة، أما العمالة والمؤامرة فليس لها علاج إلا الكشف وبيان الحقائق، والحزم في معاملة المتورطين مهما كانت اتجاهاتهم وأوضاعهم، وليتق الله كل مسلم في نفسه وفي أخيه وفي وطنه، وليحزم أولو الأمر أمرهم وليضربوا بيد من حديد على العابثين بممتلكات الناس وأرواحهم، فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

٤- أما الفائدة الرابعة والأخيرة في هذا الموطن: فهي تقوى الله، وهذه أهم الفوائد التي نتعلمها من قصة قابيل وهابيل، فتقوى الله هي أصل صلاح العمل وأساس قبوله، وهي طريق صلاح الدنيا والآخرة، وسبب بركات الأرض وبركات السماء، وهي مفتاح سعادة الأمم وسعادة الأسرة المسلمة والمجتمع المسلم وهي طريق النجاة من غضب الله وعقابه في الدنيا والآخرة، ولو اتقى الله الراعي والرعية لساد الأمن والأمان والعدل والإحسان والحق والوئام، أصلح الله مصر وشعبها وقادتها.

وللحديث بقية والحمد لله رب العالمين.

القصة في كتاب الله

أصحاب الجنة

« إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » [القلم: ١٧].

إعداد / عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الكبير المتعال، والصلاة والسلام على كريم الخصال محمد بن عبد الله النبي المختار، وعلى آله وصحبه السادة الأخيار، أما بعدُ:

فنحن اليوم مع صورة محسوسة ومَثَل مضروب يوضح حقيقة الأمور ويكشف زيف الباطل حين يلتبس على كثير من الناس فيظنونه حقًا وإذا هم بسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

نحن اليوم مع قصة أصحاب الجنة التي ضربها الله مثلاً لأهل مكة في أول عهدهم بالوحي والنبوة، وسنعرض لها بعون الله ومدده في الخطوات التالية:

أولا: الآيات الكريمة التي عرضت للقصة:

قال الله تعالى في سورة القلم: « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ » [القلم: ١٧- ٣٢].

ثانيا: عرض إجمالي لمعاني الآيات السابقة:

١- « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ » [القلم: ١٧] أي: اختبرناهم وامتحناهم، والضمير يعود على أهل مكة الكفار؛ حيث أصابهم الجوع والخوف والقتل في بدر بسبب إعراضهم عن الحق.

٢- « كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » [القلم: ١٧] الآتي خبرهم.

٣- «إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ » حين بيتوا النية وتعاهدوا فيما بينهم على القيام بقطع ثمار حديقتهم في الصباح الباكر بعيدًا عن أعين الفقراء، ولا يبقون لهم شيئًا من ثمرها.

٤- « فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » [القلم: ١٩- ٢٠]، فكان الجزاء من

جنس العمل، وكان عاقبة تدبيرهم لحرمان الفقراء أن حرمهم الله من ثمار جنتهم «حديقتهم»، وأرسل عليها ليلاً نارًا التهمت ثمارها فلم تبق منه شيئًا، فأصبح الذي يراها في الصباح كأنها حُصدت بالأمس.

٥- « فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ » [القلم: ٢١] قام الأبناء الإخوة في الصباح الباكر ينادي بعضهم بعضًا.

٦- « أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ» [القلم: ٢٢] هيا انطلقوا إلى حديقتكم وتفقدوا ما أنفقنا إن كنتم صادقين عليه من الحصاد وحرمان الفقراء.

٧- « فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ » [القلم: ٢٣- ٢٤].

٨- « وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ » [القلم: ٢٥]. وخرجوا في الصباح الباكر وهم مصممون على منع الفقراء حقهم، وهنا نكتة بلاغية من نكت الإعجاز القرآني في اختيار الألفاظ، أشار إليها الشيخ ابن عاشور - رحمه الله - في تحريره: «وفي إيثار كلمة «حرد» في الآية نكتة من نكت الإعجاز المتعلق بشرف اللفظ ورشاقته». والشيخ رحمه الله أصاب كبد الحقيقة فكلمة (حرد) هنا تعني المنع وتعني السرعة وتعني الغضب، وكل هذا مقصود عبر عنه القرآن بلفظ واحد، فأصحاب الجنة خرجوا يريدون منع الفقراء، ولذلك أسرعوا الخطى والفعل، وهذا جعلهم في حالة من الغضب والحمق، فهذه الأوصاف كلها اجتمعت في كلمة واحدة، فسبحان من هذا كلامه.

٩- « فَلَمَّا رَأَوْهَا » [القلم: ٢٦]، وهنا كانت المفاجأة التي لم يتوقعها أصحاب الحديقة، فهذه حديقتهم خالية من أي ثمر، أشجارها كأنها أصابها نار فاحترقت، فأصابهم هول شديد لدرجة أنهم ظنوا أنهم ضلوا الطريق، وأن هذه ليست حديقتهم التي يعرفونها، ووقفوا في حيرة من أمرهم، قال بعضهم: «إنا لضالون» أي: ضللنا الطريق إلى حديقتنا التي نعرفها، أين ثمارها اليانعة، وفروعها الباسقة، وخضرتها الممتعة، أين.. أين.. وقال البعض الآخر ولعلهم الأكثر عقلاً: لا، « بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ » [القلم: ٢٧]، الحقيقة أن الله عاقبنا على سوء نيتنا وعلى حزمنا على حرمان الفقراء فعاقبنا ربنا بالحرمان.

١٠- « قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ» [القلم: ٢٨]: في هذا الموقف الصعب صارت النفوس مهيأة لسماع صوت الحق والاستجابة للنصيحة، فذكرهم أكثرهم عدلاً واستقامة: ألم أحذركم مما عزمتم عليه وقلت لكم: توبوا إلى الله من هذا التصميم السيئ والإرادة السيئة، وهنا أيضًا نكتة في اختيار (تسبحون) بدلاً من (تستغفرون) أو (تتوبون)؛ لأن التسبيح يشمل التوبة والاستغفار، كما يشتمل كذلك على ذكر الله وتعظيمه وتنزيهه والثناء عليه بما هو له أهل، ويشمل تعظيم أوامره ونواهيه.

١١- وهنا عادوا إلى الله جميعًا وتذكروا أخطاءهم وأعلنوا توبتهم وقالوا: « قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ» [القلم: ٢٩]. وهنا قال كثير من أهل العلم: إنهم كما تابوا ورجعوا إلى الله صادقين ردّ الله عليهم حديقتهم على أحسن ما كانت.

ثالثًا: بداية القصة:

هذا الذي ذكره القرآن الكريم في نهاية القصة أو عاقبة المكر السيئ، فهل لهذه القصة بداية؟

نستطيع والعلم عند الله أن نربط بين هذه الآيات وما ورد في صحيح مسلم عن قصة صاحب البستان الذي توجهت إليه السحابة بأمر الله؛ حيث روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « بينا رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتًا في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: فلان - للاسم الذي سمع في السحابة - فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة

فلان، لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه» رواه مسلم.

ذُكر عن جمع من أهل التفسير أن صاحب هذا البستان هو والد هؤلاء الأبناء الذين ورثوا الحديقة من بعد أبيهم، واعترضوا على مسلكه فيها، وبخلوا بحق الفقراء، فأصابهم ما أصابهم كما علمنا من سياق القصة في القرآن الكريم.

رابعًا: صلة القصة بأهل مكة المكذبين:

١- قال ابن كثير رحمه الله: «هذا مثل ضربه الله لأهل مكة من كفار قريش فيما أهدي إليهم من الرحمة العظيمة، وأعطاهم من النعمة الجسيمة، وهو بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم؛ فقابلوه بالتكذيب، والرد والمحاربة، ولهذا قال تعالى: « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » [القلم: ١٧]. اهـ. مختصرًا.

٢- وقال بعض أهل العلم في قوله تعالى: « إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ » [القلم: ١٧] يفيد أن مشركي مكة سوف يعترضون على الإسلام أولاً ثم يعرفون الحق، ويدخلون فيه وينصرونه، وذلك ما وقع! فإن ملأ الحديقة المذكورة شحوا بحق الفقراء فيها، فأهلك الله ثمرها، فلما ندموا على رذيلتهم قبل الله توبتهم، ومن يرغب إلى الله يتب عليه ويلقه بقبول حَسن، وقد أعز الله قريشًا بالإسلام بعدما أهانت نفسها بالكفر، أما المصرون على زيفهم فلا مستقبل لهم.

خامسًا: من فوائد القصة:

١- الجزاء من جنس العمل، فلما كان صاحب البستان مستقيمًا يعرف حق الله في ماله بارك الله له في ثمره وحصاده، وتولى سقيا بستانه، ولما بخل الأبناء وقالوا كما يقول البخلاء: المال قليل والعيال كثير فلا نستطيع أن نفعل كما كان يفعل أبونا، وبعضهم قد يتهم الأب بالجنون؛ لأنه يوزع جزءًا من ماله على الفقراء، فكان عقابهم الحرمان.

٢- إن هذا الكون ملك لله، فالله خالقه والمتصرف فيه، وله جنود السماوات والأرض والريح من جنوده والسحاب من جنده، والمطر من جنده، وكذا البحار والأنهار، والشمس والقمر والزرع والشجر.

٣- قد يبدو للناظرين إلى ظواهر الأمور أصحاب النظرة المادية المحدودة أن الخير المبذول للفقراء والعطف على المساكين نوع من تبديد الثروات، وتضييع المدخرات، وسبب في نقص رءوس الأموال، وذهلوا عن حقيقة كونه سببًا للبركة وسعة الأرزاق.

٤- فضل الإنفاق في سبيل الله وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتولى مكافأة المنفقين، قال الله تعالى: « قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » [سبأ: ٣٩].

فالمال في الحقيقة مال الله، وهو الذي يعطي ويمنع فيعطي منفقًا خلفًا، ويعطي ممسكًا تلفًا، والشكر قيد النعمة وسبب زيادتها: « لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ » [إبراهيم: ٧].

٥- صلاح الآباء ينفع الأبناء وإن انحرفوا قليلاً، فإنهم سريعًا ما يعودون.

٦- للعمل والإنتاج قيمة عظيمة في بناء الأمم مع صدق التوكل على الله والأخذ بالأسباب التي شرعها الله.

٧- الزراعة مصدر مهم من مصادر الدخل وسبيل لإطعام الناس جميعًا فقراء وأغنياء.

٨- القرآن الكريم أصدق وأصح كتاب وصل الأرض بالسماء واختار الله لتبليغه أفضل أنبيائه ورسله وأشرفهم نسبًا وأكرمهم خُلقًا، أما أعداء الوحي في كل زمان ومكان فهم نفر من الناس لا يزينهم شيء ولا وزن لهم، وقد ذهبوا بددًا وبقي الإسلام شامخًا فيما مضى، وسيقع مستقبلاً ما حدث في الماضي، لكن هذا مرهون بثبات أهل الحق عليه، ومدى صدقهم مع الله.

اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.

والحمد لله رب العالمين.

القصة في كتاب الله

أصحاب الفيل «١»

أصحاب الفيل بين المفسرين والمؤرخين

إعداد/ عبدالرازق السيد عيد

الحمد لله القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، والصلاة والسلام على رسوله الأمين المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعدُ:

فهذه قصة أصحاب الفيل التي وقعت عام مولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فصارت تاريخًا للعرب وبداية لتاريخ جديد وعهد جديد عظمت فيه مكانة البيت الحرام ومكة المكرمة، وزادت مكانة قريش بين الناس سموًا وارتفاعًا.

قصَّها القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم مذكرًا بنعمة الله عليه وعلى قومه، فصارت القصة حديث المؤرخين وأهل السِّيَر؛ لأنها آية كونية عدَّها المؤرخون من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، كما أنها أيضًا حديث المفسِّرين باعتبارها من الآيات القرآنية، فهي معجزة كونية.

وقبل حديثنا عنها في سياقها كما جاءت في كتاب الله نشير إلى بعض ما ذكره المؤرخون عنها لأهميته، وهذا القسم الأول كما يلي:

أولاً: هي من آيات الله الباهرة ومن شواهد النبوة الظاهرة.

قال الماوردي - رحمه الله - في أعلام النبوة: «آيات الملك باهرة، وشواهد النبوة ظاهرة، تشهد مباديها بالعواقب فلا يلتبس فيها كذب بصدق، ولا منتحل بحق، وبحسب قوتها وانتشارها يكون بشائرها وإنذارها، ولما دنا حول رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاطرت آيات نبوته، وظهرت علامات بركته، فكان من أعظمها شأنًا وأشهرها عيانًا وبيانًا أصحاب الفيل، وقد أنفذهم النجاشي بقيادة أبرهة الأشرم إلى مكة لقتل رجالها وسبي ذراريها وهدم الكعبة، وآية الرسول في قصة الفيل أنه كان في زمانه حملاً في بطن أمه بمكة، لأنه ولد بعد خمسين يومًا من الفيل فكانت آيته في ذلك من وجهين:

أحدهما: أنهم لو ظفروا بقريش لسبوا واسترقوا، فأهلكهم الله صونًا لرسوله أن يجري عليه السبْيُ حملاً ووليدًا.

والثاني: لم يكن لقريش من الصلة بالله والعبادة ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم، فلم يكونوا أهل كتاب بل كانوا عابدي أوثان، لكن الله أراد حماية بيته؛ تهيئةً لظهور الإسلام وتأسيسًا للنبوة وتعظيمًا للكعبة، ولذلك لما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى بجيش الفيل تهيبوا الحرم وعظموه، وزادت حرمته في النفوس ودانت لقريش بالطاعة. انتهى باختصار وتصرف يسير.

ثانيًا: ذكر الإمام الماوردي أيضًا سؤالاً وأجاب عنه:

والسؤال هو: «فإن قيل: فكيف منع الله الكعبة قبل مصيرها قبلة ومنسكًا، ولم يمنع الحَجَّاج من هدمها وقد صارت قبلة ومنسكًا؟».

والإجابة: «أن ما فعله الحجاجَ وغيرُه كان بعد استقرار الدين، فاستغنى عن آيات تأسيسه؛ وأصحاب الفيل كانوا قبل ظهور النبوة فجعل المنع منها آية لتأسيس النبوّة، ومجيء الرسالة، هذا وقد أخبر الرسول وأنذر بهدمها فصار الهدم آية على صدق ما أخبر به صلى الله عليه وسلم، فلذلك اختلف حكمها في الحالتين، والله أعلم». اهـ بتصرف.

ثالثًا: نقل الإمام القاسمي في تفسيره عن القاشاني قوله: «قصة أصحاب الفيل مشهورة ووقعت قريبة من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي إحدى آيات قدرة الله، وأثر من آثار سخطه على من اجترأ على هتك حَرمه، وإلهام الطيور والوحوش أقرب من إلهام الإنسان بكون نفوسهم ساذجة، وتأثير الأحجار بقدرة الله تعالى أمر ليس بمستنكر، ومن اطلع على عالم القدرة لزال عنه حجاب الغفلة».

ولعله يشير بل هو يشير إلى الطير الأبابيل التي أرسلها الله على الجند تحمل حجارة من سجيل، وكيف ألهمها الله ووجهها، وإلى الفيل الذي توقف عن التقدم نحو البيت وكيف حُبس؟ ولماذا؟

ومن وراء ذلك كله قدرة أحكم الحاكمين الذي له جنود السماوات والأرض، فالطير من جنده والوحوش من جنده والجبال والأرض والسماوات والأنهار والبحار والرمال والريح.... وما علمنا وما لم نعلم فله سبحانه وتعالى جنود السماوات والأرض، فسبحان من سبح الطير بحمده، وسبح بحمده الأرض والسماوات والجبال والشجر، قال تعالى: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا» [الإسراء: ٤٤]. وقال تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ» [النور: ٤١].

وقال تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ» [الحج: ١٨]، وهكذا الكون كله خاضع لجلال الله بأرضه وسمائه وبحاره...

رابعًا: القصة مختصرة من كُتب السيرة:

نستطيع بعون الله أن نوجز القصة فيما يلي:

لما غلب أبرهة الحبشي على بلاد اليمن، ورأى الناس يقصدون مكة زرافات ووحدانًا ورجالاً وركبانًا، قال: إلام يقصدون؟ قالوا له: إلى الكعبة بمكة يحجون، قال: وما هو؟ قالوا: بيت من الحجارة وكسوته ثياب يمنية، قال: لأبنينَّ خيرًا منه.

وبنى أبرهة كنيسة ضخمة تفنن في بنائها وتزيينها وسماها «القُليس»؛ قاصدًا بذلك صرف العرب عن الكعبة وعن مكة.

ولكن رجلاً من بني كنانة عمد إليها فتغوَّط فيها؛ سخريةً من أبرهة وفعله؛ فلما علم أبرهة استشاط غضبًا، وعزم على هدم الكعبة، وسار بجيش لا قِبَل لأهل مكة والعرب به، وفي طريقه إلى مكة تعرضت له بعض القبائل لكنه تغلب عليها.

وعند مشارف مكة وجدوا إبلاً لعبد المطلب بن هاشم، فاستاقوها.

ذهب إليه عبد المطلب وكان رجلاً وسيمًا مهيبًا، فاستعظمه أبرهة وأكرمه، فلما كلمه في الإبل، عجب وقال له: أتكلمني في الإبل ولا تكلمني في بيت فيه عزك وشرفك وشرف آبائك؟

فقال عبد المطلب: «أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه».

ثم رجع عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، ومما قال:

لاهم إن المرء يمنع
رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب
وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم
ومحالهم أبدا محالك
إن كنت تاركهم وقبلتنا
فأمر ما بدا لك

انطلق أهل مكة إلى الجبال ينظرون ما سيحدث.

كان في جيش أبرهة فيل عظيم كلما وجّهوه إلى الطريق المؤدي إلى مكة أبى وبرك منهم في الأرض، وإذا وجّهوه إلى غير طريق مكة أسرع وانطلق.

ومع ذلك أصرَّ أبرهة وجيشه على التقدم نحو الكعبة لهدمها، وهنا أرسل الله عليهم جماعات من الطير تحمل حجارة معينة ترمي بها الجند، فكان الحجر يدخل من رأس الرجل ويخرج من مؤخرته فيهلكه.

ونكّل الله بأبرهة وجيشه شر تنكيل، فقُتل منهم من قُتل، وهرب منهم من هرب، وحفظ الله بيته، ولم يمكّنهم منه وقريش تنظر.

قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين». رواه الشيخان.

وذلك لأن أبرهة وجنده أرادوا بمكة سوءًا فأهلكهم الله، ولما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بفتحها خيرًا مكّنهم الله وأعانهم ونصرهم.

خامسًا: المشككون في القصة:

مع تواتر الأخبار عن هذه القصة وذكرها في القرآن في السورة المشهورة «سورة الفيل»، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم عنها في الصحيح من حديثه، فإنك تعجب حين ترى بعض المستشرقين يشكك في صحتها، ويتبعهم في ذلك بعض من تأثر بهم ممن كتب في السيرة أو في التفسير، ويحاول حمل آيات القرآن على غير ظاهرها بتأويل متكلف يجانبه الصواب، ولقد انبرى كثير من المحققين للرد على هؤلاء المرجفين ومنهم د. محمد أبو شهبة - رحمه الله - قال في كتاب السيرة النبوية الجزء الأول، قال: «ويشكك بعض المستشرقين ومن نهج نهجهم من كتاب المسلمين في هذه القصة، مع ثبوتها بالتواتر المفيد للقطع واليقين بإجماع أهل الملل والعقول، ويقولون: إن هلاك الجيش كان بسبب انتشار مرض الجدري في الجيش، واعتمدوا على خبر ذكره ابن إسحاق بعد ما ذكر القصة على ما وردت في الكتاب الكريم. قال: حدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث: «أن أول ما رئيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام».

فليس فيما ذكره ما يدل على أن هلاكهم كان بهذا وإلا لما ذكر ابن إسحاق القصة المعتمدة في بضع صفحات، ولم لا تكون الحصبة والجدري كانتا بسبب ما أصابهم من جراح كما هو مشاهد ومعروف من انتشار بعض الأمراض والأوبئة عقب الحروب والجوائح، ولو سلمنا بهذا الرأي لقائله، فكيف يرجّح رأي ضعيف يعارض ظاهر القرآن على رأي صحيح يشهد له ظاهر القرآن؟!

الحق أن هذا التشكيك ليس له ما يبرره، أما إنكار ما قصه القرآن وقد كان من المشهودات عند العرب واستعظامه على قدرة الله سبحانه وتعالى، فأثر من ضعف الإيمان واليقين، ولوثة سرت إلى بعض المستشرقين.. ومن سار سيرتهم». اهـ.

والحق نقول: يكفي أن القرآن ذكرها، وأن الرسول ذكرها في خبره الصحيح، والخبر الذي أورده ابن إسحاق وتمسك به من تمسك خبر في إسناده ضعف، فيه جهالة شيخ ابن عتبة.

وإني لا ألوم المنصرين الذين سُمُّوا بالمستشرقين، فأغراضهم معروفة إلا من رحم الله، ولكن اللوم كل اللوم يقع على مَنْ تبعهم من المسلمين: « رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ » [آل عمران: ٨].

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

أصحاب الفيل

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ

الحلقة الثانية

إعداد / عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير، الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على البشير النذير نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أيها الأخ الكريم: هذا لقاؤنا الثاني مع قصة أصحاب الفيل، وكان اللقاء الأول حول أقوال أهل التاريخ والسِّيَر حول هذه القصة باعتبارها من دلائل النبوة ومقدماتها، واليوم حان موعدنا للحديث عنها باعتبارها من الآيات القرآنية، وحول تناول المفسرين لها.

فحديثنا الأول عنها باعتبارها آية كونية وقعت واشتهرت في العام الذي وُلد فيه النبي صلى الله عليه وسلم، وحديثنا اليوم باعتبارها آيات قرآنية أنزلها الله على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بعثه بالحق نبيًا ورسولاً، وامتن عليه بنعم كثيرة ومنها هذه السورة الكريمة؛ حيث قال تبارك وتعالى: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ» [سورة الفيل]. ونحن بعون الله سنقف مع السورة الوقفات التالية:

أولاً: علاقة السورة بما قبلها وما بعدها:

أ- علاقة السورة بما قبلها: قال الإمام الآلوسي - رحمه الله -: «سورة الفيل سورة مكية وآياتها خمس بلا خلاف، وكأنه لما تضمن الهمز واللمز من الكفرة نوع كيد للنبيِّ - عليه الصلاة والسلام - عقَّب ذلك بقصة الفيل للإشارة إلى أن عقبى كيد الكافرين في الدنيا تدميرهم كما دمَّر أصحاب الفيل، ألا وليعلموا أن عناية الله برسوله أقوى وأتم من عنايته بالبيت، فالسورة تشير إلى مآلهم في الدنيا إثر بيان مآلهم في الآخرة في سورة الهمزة، والله على كل شيء قدير». اهـ بتصرف.

ب- علاقة السورة بما بعدها - يعني سورة «قريش»-:

تكاد سورة «لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ» أن تكون امتدادًا لسورة الفيل، قال الإمام النسفي - رحمه الله -: «وهي في مصحف أبي بن كعب سورة واحدة بلا فصل (ويروى عن الكسائي ترك التسمية بينهما). ونقل ابن عاشور رحمه الله خبرًا عن عمرو بن ميمون قال: «صليت المغرب خلف

عمر بن الخطاب فقرأ في الركعة الثانية: «ألم تر» و«لإيلاف قريش»، ووجه الدلالة هنا أن الصحابة لم يكونوا يقرءون في الفروض السورتين؛ لأن السنة قراءة الفاتحة وسورة، فدل على أنهما سورة واحدة».

وبتأمل يسير نجد العلاقة وثيقة بين السورتين في امتنان الله على قريش بنعمة الأمن وبنعمة حفظ البيت الذي أمروا بعبادة ربه سبحانه.

ثانيا: أهداف السورة: (أغراضها).

١- التذكير بمكانة الكعبة وأنها حرم الله، وقد حماها ممن أرادها بسوء.

٢- تذكير قريش بهذه النعمة وأن للبيت ربًا يحميه.

٣- الإشارة إلى مكانة النبي صلى الله عليه وسلم حيث جعل الله هذا الحدث إرهاصًا لمولده.

٤- تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة كيد قريش، وأن الله قادر على رد كيدهم كما ردّ كيد أصحاب الفيل، وفي هذا أيضًا تسرية عن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين المضطهدين من قريش.

٥- ومن وراء ذلك الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

٦- من كان الله معه يدافع عنه فلا غالب له.

ثالثا: معاني المفردات:

«أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ» [الفيل:١].

الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم ابتداءً ولكل من يقرأ كتاب الله أو يسمعه، «ألم تر» بمعنى ألم تسمع أو ألم تعلم ما حدث لأصحاب الفيل حين أرادوا الكعبة بسوء، وجاء الخطاب بألم تر ليفيد العلم اليقيني كأنك تراه رأي عين، لا مجال فيها للشك أو الاحتمال.

وأضافهم الله - سبحانه - إلى الفيل لاعتمادهم على الفيلة كسلاح فعّال في المعركة، كما يعتمد الناس في زماننا هذا على المدرعات، فالأفيال كانت بمثابة المدرعات في ذلك الوقت، ولوجود فيل كبير كان في المقدمة امتنع من دخول مكة، وكلما وُجه إليها أبى أن يدخلها وعاد أدراجه، فقد منعه الله من دخول مكة وحبسه عنها، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك فيما رواه البخاري حين بركت ناقته وهو على مشارف مكة عام الحديبية فقالوا: «خلأت القصواء، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما خلأت القصواء، وما ذاك بخُلق لها، ولكن حبسها حابس الفيل» [البخاري]. وقد ذكر بعض أهل العلم أن هذا الفيل اسمه «محمود»، والله أعلم.

«أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ» [الفيل: ٢]: أي جعل تخطيطهم وعزمهم على هدم الكعبة في خسران وبوار.

«وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ» [الفيل: ٣] أي: جماعات من الطير في نوبات متتابعة كأنها الطائرات في طلعات متتابعة تلقي بمقذوفات فتصوبها بدقة تامة لا تخطئ هدفها، وإذا كانت الطائرات اليوم تُوجَّه بالرادار إلكترونيًا فمن وَجَّه الطير يومئذ؟ سبحان من ألهمها فاستجابت باتفاق محكم: فسبحان من علم هذه الطير وألهمها أن تُغير على أهدافها في مجموعات لكل مجموعة قائد وفي تشكيلات كتشكيلات الطيران الحربي المغير، بل قد تعلم منظمو الطيران من الطير النظام، والله غالب على أمره.

«تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ» [الفيل: ٤]:

أرسل الله سبحانه وتعالى الطير بمهمة محددة تلقي مقذوفاتها من الحجارة الدقيقة كأنها القنابل في قوتها وفتكها، وإذا كانت القنابل التي صنعها البشر وصلت قوتها التدميرية إلى ما وصلت إليه مما هو معلوم للقاصي والداني، فما بالك بقنابل من صنع رب القوى والقُدر،والحجارة من سجيل سلطها الله من قبل على قوم لوط كما قال الله تعالى: «فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ» [هود: ٨٢، ٨٣].

وقال تعالى: «فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ» [الحجر: ٧٤].

وقال تعالى: «قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ» [الذاريات: ٣١-٣٤].

فالحجارة التي أرسلها الله من قبل على قوم لوط هي هي التي أُرسلت على أبرهة وجيشه مع اختلاف في القدر والكمية والطريقة، فلما كان المقصود في قوم لوط الاستئصال والإبادة

التامة، أمطر عليهم الحجارة فأبادت كل شيء وتركت الأرض بركة ماء إلى يومنا هذا يُعرف بالبحر الميت، والله أعلم.

ولما كان الغرض هو حماية البيت والمحافظة عليه وعلى مكة ومن فيها، كانت الإبادة هنا نوعية وانتقامية لإبادة المعتدين فحسب، وترك الأرض ومن عليها سالمة آمنة، فكانت الإبادة انتقائية وكان الحجر يذهب لصاحبه فلا يخطئه، وسواء كان الإرسال بواسطة الملائكة كما في قصة لوط أو بواسطة الطير كما في قصة أصحاب الفيل؛ فالكل جنود لله يرسلهم الله بما يشاء على من يشاء، فما وجه العجب والإنكار والاستبعاد الذي جعل بعض المفسرين يلجأون إلى التأويل المنكر الذي يصادم الحقيقة، وكأنهم يحجرون على قدرة الله المطلقة.

والحجارة أصلها من الطين فإذا مست النار صار سجيلاً، وإذا أُرسل إلى قوم بأعينهم لا يخطئهم صار مسومًا أي معلمًا موجهًا إلى هدفه بقدرة الله ومشيئته فلا يخطئه أبدًا، فلماذا يستعظم ذلك صاحب المنار ومن سار سيرته فيذهب إلى تأويل بعيد. حيث فسر الإمام محمد عبده وتلميذه الشيخ رشيد رضا الطير بالبعوض والحجارة بالجدري.

«فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ»

هذه نهاية الطاغين المعتدين صاروا أشلاء ممزقين، والعصف هو ورق الشجر إذا دخلته البهائم فأكلته وداسته بأرجلها، أو هو قشر البُر بعد أكل الحب منه ثم طُرح القشر أرضًا يداس بالأقدام، والمقصود هو تشبيه حال جيش أبرهة بعد الذي أصابه من هزيمة منكرة جعلت الجيش أشلاء مقطعة الأواصل كصورة هذه النباتات التي أكلتها الحيوانات وتركتها فشورًا مهانة أو أعوادًا معتصرة، ومنها ما خرج على هيئة البعرية، ومن بقي على قيد الحياة من الجنود عاش مشوشًا معدوم القدرة أصابه العمى أو المرض المُقعد ثم الموت بعد ذلك.

ولعل من حكمة الله أن يُبقي بعضهم على قيد الحياة وقتًا يسيرًا حتى ينقلوا إلى أقوامهم حقيقة ما أصابهم ويكونوا آية وعلامة على قدرة رب العالمين، وهم عليها شهود، فليعتبر من كان له قلب.

دروس مستفادة من القصة، وهي كثيرة منها:

١- أن الله عز وجل لم يترك لأحد حماية بيته الحرام، مع تعظيم المشركين له، فقد كان تعظيمهم حمية الجاهلية.

٢- لم يجعل المولى عز وجل لأهل الكتاب سلطانًا على بيته الحرام، ورد كيدهم في تضليل، فالفضل لله وحده سبحانه.

٣- ومن هذا نفهم أن الله سبحانه يعدُّ هذا البيت لأمر عظيم ليس هو ما كان عليه المشركون ولا ما كان عليه اليهود والنصارى، بل يعدُّ الله عز وجل هذا البيت لاستقبال الحنيفية السمحاء التي هي دين الأنبياء جميعًا، ودين إبراهيم عليه السلام، فكان مبعث النبي الخاتم إعلانًا لهذه الدعوة دعوة الإسلام التي هي دين إبراهيم الذي لم يك يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا ولم يك من المشركين، وبهذا بعث الله محمدًا الذي هو دعوة إبراهيم وبشرى أخيه عيسى وكلمة الله الأخيرة للبشرية وخاتم النبيين.

٤- كان على المشركين أن يدخلوا في هذا الدين الذي حفظ الله البيت من أجله، وعلى النصارى أن يتبعوا العرب في ذلك وأن يسلموا جميعًا لله رب العالمين.

٥- من دلائل هذه القصة تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين وتبشيرهم بمستقبل هذا الدين، وزيادة يقينهم في نصرة رب العالمين الذي حفظ هذا البيت وهو حجارة من طين، ألا يحفظ رسوله ودعوته الذي أرسله رحمة للعالمين وهداية للخلق أجمعين.

٦- ونحن نستبشر بذلك ونوقن به، ونعلم أن الله على كل شيء قدير، وأنه ينصر دينه متى شاء وكيف شاء ونلجأ إلى الله وندعوه مخلصين له الدين أن يجعلنا من عباده الصالحين وجنده الموحدين، وأن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين، آمين، آمين.

القصة في كتاب الله

صاحب الجنتين

الحلقة الأولى

إعداد / عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على النبي محمد صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه السادات الشرفاء، أما بعدُ:

فإن الله سبحانه وتعالى نوّع لنا القصص والأمثال في كتابه الكريم؛ لعل أصحاب التفريط يرعوون وإلى الله يعودون، وبالحق الذي أنزله الله يتمسكون.

وفي سورة الكهف على وجه الخصوص نوّع القصص ما بين فتية آمنوا بربهم فزادهم هدًى، وبين ملك مكّنه الله من كل شيء في الأرض فأصلح، وبين رجل مكّنه الله على جزء في الأرض فأصلح، وبين رجل مكّنه الله من جزء في الأرض فأفسد، وبين من لم يمكنه الله من شيء فصبر، وهكذا نوّع الله الأمثال للناس رحمة وهداية، ومن هذا القبيل قصة صاحب الجنتين؛ إذ يقول الحق تبارك وتعالى: «وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ » [الكهف: ٣٢] إلى قوله: « وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرٗا » [الكهف:٤٣].

وسنتناول هذه القصة بعون الله وحوله وطوله ومدده من ثلاثة محاور:

الأول: علاقتها بالسورة، الثاني: ملخص القصة والحوار الذي دار بين الرجلين، الثالث: تعقيبات القرآن على القصة والدروس المستفادة.

ومع المحور الأول: علاقة القصة بالسورة.

المتأمل في سورة الكهف يجدها تدور حول أمور ثلاثة:

١- تصحيح العقيدة في الله واليوم الآخر وفي القضاء والقدر.

٢- تصويب منهج التلقي والنظر والتفكر والتصور الذي يقوم على البرهان والدليل الصحيح.

٣- تصويب النظرة إلى القيم وعلاقة الإنسان بها في ضمن العقيدة الصحيحة (قيمة المال، والجاه والملك، والعلم). وقصتنا تدور حول قيمة المال، وكيف يتصرف فيه المؤمن؛ هل سيشكر ربه فيعترف له بالنعمة، ثم يصرفها في طاعة الله، أم سيكفر بنعمة ربه ومولاه، وينسى أنه الذي منّ عليه وأفاء عليه بنعمة المال، وينسى أنه إلى

الله سيعود، وأنه سائله عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه.

وفي مقابل ذلك العبد الذي ضيق الله عليه رزقه هل سيصبر على ذلك أم يكفر؟ فالله سبحانه يبتلي عباده بالعطاء والمنع، وبالصحة والمرض؛ لينظر ماذا يفعلون.

وقد جاء في مطلع السورة بيان هذه القضية بوضوح فقال تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا» [الكهف:٧-٨]، هذه الحقيقة التي غابت عن كثير من الناس، فلم يعرفوا حقيقة هذه الحياة، واغتروا بها واطمأنوا بها وغفلوا عن آيات الله، قال الله عنهم في سورة يونس الآية: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ» [يونس: ٧].

وهذا الصنف من الناس حذر الله نبيه من مجالسته، وصرف الوقت معه، والإصغاء إليه، فقال تعالى: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا» [الكهف: ٢٨].

في هذا الجو الذي يدعو الله فيه إلى مجالسة الصالحين المتقين، والبعد عن مجالسة الغافلين المعرضين عن ذكر الله وعن منهجه، نعم هذه سمات أهل الدنيا، غفلوا عن آيات الله، نظر إليهم وهم يطالبون الرسول النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بقرآن غير الذي جاء به، نعم هكذا حكى الله عنهم قال تعالى: «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» [يونس: ١٥، ١٦].

فالذين لا يرجون لقاء الله هم الذين اطمأنوا بالحياة الدنيا، وغفلوا عن آيات ربهم، ولم يعقلوا أن الرسول متبعٌ وليس بمبتدع، وأن هذا القرآن ليس من عنده هو وإنما هو من عند رب العالمين الذي أرسله وأرسل جميع الرسل من قبله، وأنزل جميع الكتب، وأن هذا القرآن هو كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين جبريل على قلب النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين، في هذه الأجواء التي يُرغب القرآن فيها في مجالسة الصالحين الأتقياء، ويحذر من مجالسة الضالين الأغبياء ساق لنا الذكر الحكيم هذه القصة التي تعطينا نموذجين: الطالح الغني، والفقير الذكي.

ثانيا: عرض للحوار:

فهيا نرى ماذا حدث في المحاورة التي وقعت ودارت بينهما: قال تعالى: «وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا» [الكهف: ٣٢-٣٣].

الله سبحانه وتعالى يوجه خطابه للنبي صلى الله عليه وسلم قائلا: واضرب أي اجعل واذكر لهم هذا المثل لرجلين أحدهما أنعمت عليه جنتين أي (حديقتين عظيمتين ؛ المحصول الرئيس فيها العنب، وقد زُرع بين العنب محاصيل أخرى من الخُضر والفاكهة وخلافه، والمزرعتان باستمرار يجري فيهما الماء بغير انقطاع، والجنتان مثمرتان يأتي ثمرهما كل حين بإذن ربه دون آفات أو تلفيات، في روعة وجمال!!!

ولكن نظر صاحب الجنتين فيما حوله فوجد الأمور تتدفق عليه من كل مكان، والثمار بين يديه، فلعب الشيطان برأسه، وأصابه الغرور بلوثة، فانظر ماذا قال لصاحبه: وقبل أن نستعرض الحوار نذكر أن القرآن لم يُشر إلى اسم الرجلين ولا مكانهما

وزمانهما، ولم يأت في السنة الصحيحة ما يُعتمد عليه في ذلك، وينبغي التوقف عند ما وقف عنده القرآن في وصف الرجلين، فالهدف من القصة العظة والعبرة.

ولنشرع في المقصود بعون الله، قال الله تعالى: «وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا» [الكهف: ٣٤]، هذا الرجل الذي اغتر بما عنده من ثمار وبساتين قال لصاحبه الفقير: أنا أكثر منك مالاً وعندي كذلك أبناء كثر وعمال وخدم... وهلم جرا، يقول ذلك من باب المفاخرة والكبر، وليس من باب التحدث بنعمة الله، والدليل ما سيأتي: «وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا» [الكهف: ٣٥ - ٣٦]. هكذا كلام يدل على غرور صاحبه بما في يديه وعدم يقينه بالبعث والجزاء على فرض وجود البعث، فسيكون له هناك ما هو خير له من جنتيه هاتين.

ومن هنا جاء الجواب المناسب من صاحبه الفقير: «قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا» [الكهف:٣٧- ٣٨]. قال الرجل الصالح لصاحبه محذرًا ومذكرًا له: هل كفرت بالله؟ وهذا استفهام فيه استنكار لمسلك الرجل من إنكار البعث، وبيان بأنه كفر، ثم استدل على إمكانية البعث والإعادة بقدرة الله على النشأة الأولى تذكرةً بأصل جميع البشر، وهو آدم عليه السلام الذي خلقه الله من تراب، ثم بأصل نشأة جميع ذرية آدم، ألا وهي النطفة المنتقلة في الأصلاب، ثم في الأرحام ثم التسوية وتمام الخلق «ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا» [الكهف: ٣٧].

والرجل الصالح ذكّر صاحبه بأصل نشأته حتى يدفع عنه الغرور الذي أصابه، فكأنه يقول له: أنت تساويت مع كل الناس في أصل النشأة، وهو التراب، ثم تساويت معهم في الإتيان من نطفة، ونزوله من مجرى البول مرتين؛ مرَّة من أبيه، وأخرى من أمه، ثم هو في حياته يحمل في بطنه العذرة، وبعد مماته يصير جيفة قذرة.

فلماذا التكبر إذن؟ ثم أليس الذي سوّاه هذه التسوية من هذا الأصل الضعيف قادرًا على إعادته مرة أخرى ومساءلته يوم القيامة، فإنكاره للساعة والبعث هو عين الكفر بالله الخالق سبحانه.

ثم أردف العبد الصالح القول معلمًا ومرشدًا: «وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا» [الكهف: ٣٩]، كان الأولى بك حين ترى نعمة الله عليك أن تردها إلى صاحبها الذي أنعم بها عليك وتقول: «مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ» [الكهف: ٣٩]، فهذا الاعتراف بالنعمة وردها إلى المنعم سبحانه من عوامل حفظها وصيانتها، لكنك أيها المغرور لم تعترف بذلك، وكان هدفك ازدرائي والتقليل من شأني، بسبب قلة مالي وعشيرتي، وغاليت في المقارنة بيني وبينك والتفاخر عليّ بمالك وعشيرتك.

دوام الحال من المحال

واستمر العبد الصالح في تحذيره لصاحبه من الغرور والبطر وذكّره بتقلبات الدهر، وأن الأمور كلها بيد الله سبحانه؛ يعطي هذا، ويمنع هذا؛ لحكمة يعلمها فهو سبحانه العليم، «فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا» [الكهف: ٤٠- ٤١].

فالله الذي منحك هذه الجنة قادر على سلبها منك، وهو سبحانه قادر على أن يعطيني خيرًا من جنتك في الدنيا أو الآخرة أو فيهما معًا، فربي لطيف لما يشاء وهو على كل شيء قدير.

وللحديث بقية إن شاء الله إن كان في العمر بقية.

والحمد لله رب العالمين.

الحلقة الثانية

قصة صاحب الجنتين

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، والصلاة والسلام على النبي الأمي المصطفى المختار، وعلى آله وصحبه الصادقين الأبرار، أما بعدُ:

لعلك تذكر أخي القارئ الكريم أن الحوار وقف بنا في قصة صاحب الجنتين عند طلب الرجل الصالح من صاحبه أن يعترف بالنعمة لمسديها، وأن يحرص على اتخاذ أسباب الشكر والوقاية لدوام النعمة واستمرارها، فقال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: ٣٩]، وهنا نقطة فارقة في الحوار، فالرجل الفقير الصالح استشعر في نفسه النقص والاحتقار، وشعر بالظلم والإهانة من خلال حوار الآخر الذي يتفاخر عليه بماله وعشيرته، فقال له: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠].

«فعسى ربي» اختلف المفسرون حول هذه الجملة، هل هي للرجاء أم للتوقع، إن كانت للرجاء فهي دعاء من رجل ظلم. وإن كانت للتوقع فهي جارية مع سنن الله التي لا تحابي أحدًا، وداوم الحال من المحال، و﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٤]، وأيما كان الأمر فقد وقع ما يتوقعه الصالح، وما كان يغفل عنه صاحبه الجاهل الظالم لنفسه، وإن كانت دعاء فهي كرامة للرجل الصالح.

«حسبانًا» أمرًا مقدرًا من الله كالصواعق المحرقة أو غيرها.

«صعيدًا» أي لا ثبات فيها.

«زلقًا» قد غمرتها المياه.

«غورًا» أي يذهب ماء هذا النهر الذي أجراه الله فيتفرق في الأرض ويختفي، فلن تتمكن من الحصول عليه مهما حاولت.

ثانيًا: ماذا حدث بعد هذا الدعاء أو التوقع؟

قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ

أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا) [الكهف: ٤٢].

«وأُحِيطَ بِثَمَرِهِ» أحاط الله بثمره إحاطة عذاب وإهلاك؛ بسبب كفره وطغيانه، وهذه عقوبة عاجلة في الدنيا قبل الآخرة، وهي في نفس الأمر كرامة للعبد الصالح، وهذه الإحاطة لم تُبق في الثمر شيئًا، ووقفت الأشجار بلا ثمر، ولعلها احترقت ولم يبق فيها شيء، والدليل على ذلك قوله تعالى: (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا).

ثالثًا: اعترف الرجل أنه أخطأ خطأ كبيرًا بشركه وكفره، فقال: «يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا»، وتقلب الكفين حركة يفعلها المتحسر ومثلها قولهم: «قرع السن من ندم»، وقوله تعالى: «عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ»، وقال العلامة ابن عاشور في قوله تعالى: «وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا»: «وهذا التركيب أرسله القرآن مثلاً للخراب التام الذي هو سقوط سقف البناء وجدرانه، وجعل ذلك مثلاً لكل هلاك تام لا تبقى معه بقية من الشيء الهالك».

وجملة: «يقول» حكاية لتندمه على ما فرط منه حين لا ينفع الندم بعد حلول العذاب». اهـ.

ثم قال ابن عاشور: «وهذا ندم على الإشراك فيما مضى وهو مؤذنٌ بأنه آمن بالله وحده حينئذٍ». والله أعلم.

المحور الثالث: تعقيبات القرآن والدروس المستفادة:

أولاً تعقيبات القرآن:

قال تعالى: (وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا) [الكهف: ٤٣].

١- هذا كقوله تعالى عن قارون: (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ) [القصص: ٨١]، فذلك الرجل الذي قال لصاحبه: «أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرًا» اغتر بماله وعشيرته أين ماله وعشيرته حين جاء أمر الله؟ لم تنصره عشيرته، ولم ينتصر هو بنفسه، ولا يستطيع لا هو ولا عشيرته ولا من في الأرض جميعًا أن ينصروه من أمر الله إذا جاء.

٢- التعقيب القرآني الثاني:

قال جل وعلا: (هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا) [الكهف: ٤٤]، عندما يأتي أمر الله فلا رادّ له ولا معقب عليه، والنصرة الحق عندئذ لا تكون إلا لله، لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، قال الله تعالى: (وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [يونس: ١٠٧]، وهذا كثير في كتاب الله.

٣- التعقيب الثالث:

قال سبحانه: (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) [الكهف: ٤٥- ٤٦].

ومناسبة ذكر هذا المثل هنا هو ما أصاب الحديقة من سرعة زوال، فكما تحولت الجنتان بعد نضرة وروعة وثمار متنوعة إلى خراب حين أتى أمر الله؛ لأن قدرة الله مطلقة لا يردها رادّ ولا يمنعها مانع، وكما خلق الأشياء بقدرته فبقاؤها وزوالها أيضا بقدرته، منه بدأ الخلق وإليه يعود (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً) [الأنعام: ٦١].

وهذا مثل ضربه الله لكل من اغتر بالحياة الدنيا وزينتها، كما اغتر صاحب الجنتين بجنتيه، وغفل عن آيات الله.

ثم عقب بقوله: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» كما قال من قبل: «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا» والباقيات الصالحات من الأقوال والأعمال الصالحة هي خير ما يأمله المؤمن عند ربه، وهي خير ما ينتظر عليه الجزاء والثواب من رب العالمين، فالعاقل من الناس هو الذي يأخذ من دنياه لآخرته، فالدنيا ممر وفي الآخرة المستقر.

ثانيًا: الأمر الثاني من المحور الثالث هو ما نجنيه من ثمار وفوائد بعون الله.

١- من صفات أهل الدنيا الركون إليها والاطمئنان بها، والغفلة عن آيات الله قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ) [يونس: ٧]. وقال تعالى عن صاحب الجنتين: «ما أظن أن تبيد هذه أبدًا».

أ- ومن صفات أهل الدنيا الاغترار بما في أيديهم والإعراض عن منهج الله: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ) [يونس: ١٥].

وقال تعالى: «ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا» [المدثر: ١١- ١٦].

وقال سبحانه: (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا) [المزمل: ١١]. ولذلك كان معارضو الرسل على مرِّ التاريخ هم أهل الترف والسرف.

٣- يستخدم أهل الباطل وطلاب الدنيا القياس الفاسد في مقابلة الحجة الواضحة كما استخدم إبليس من قبل هذا القياس الفاسد القبيح في مواجهة أمر الله الواضح الصريح حين قال: «أأسجد لمن خلقت طينًا».

وصاحب الجنتين استخدم القياس الفاسد فقال لصاحبه: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا»، فظن بعقله القبيح أن الساعة لو قامت لكان هو من أهل النعيم قياسًا على نعيمه في الدنيا، وهذا من أفسد الأمور، وقد رد الله هذا القياس الفاسد في أكثر من موضع في كتابه الكريم، نذكر منها على سبيل المثال قوله تعالى: (فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) [الفجر: ١٥- ١٧].

كلا للرَّدع والزَّجْر فهذا القياس خطأ، وجاء بعدها بل للإضراب عما قبلها، وإثبات ما بعدها، فالقضية ليست كما تظنون، ولكنكم انشغلتم بما في أيديكم عن واجبات دينكم وحقوق الفقراء والمساكين، وأعماكم حب الدنيا عن كل حقيقة، والحقيقة أن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولكن لا يعطي الآخرة إلا لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً، ونحن في هذه الحياة مبتلون بالشر والخير فتنة وإلى الله راجعون، فما وجدنا من خير فالحمد لله، وما وجدناه غير ذلك فلا نلوم إلا أنفسنا.

وبعدُ: فإذا افتخر أهل الباطل بباطلهم فإن المؤمن يعتزّ بدينه وتوحيده، وإذا تعلقت قلوب أهل الدنيا بدنياهم فإن المؤمن يثق فيما عند الله أعظم من ثقته بما في يديه، وإذا ارتاب أهل الباطل في الآخرة فإن المؤمن على يقين بموعود الله.

٤- البغي واحتقار الناس من أسباب تعجيل العقوبة، يقول العلامة ابن عاشور: «وأحاط به هذا العقاب لا لمجرد الكفر؛ لأن الله قد يمتع كافرين كثيرين طول حياتهم ويملي لهم ويستدرجهم، وإنما أحاط بصاحب الجنتين من هذا العقاب العاجل جزاء طغيانه، وجعله ثروته وماله وسيلة إلى احتقار المؤمن الفقير، وبهذا كان هذا المثل موضع العبرة للمشركين في مكة الذين جعلوا النعمة وسيلة للترفع عن مجالس الدعوة؛ لأنها تجمع قومًا يرونهم أحط منهم مكانة وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم طردهم من مجلسه كما تقدم». اهـ بتصرف.

٢- قال ابن كثير رحمه الله: وهذه القصة تضمنت أنه لا ينبغي لأحد أن يركن إلى الحياة الدنيا، ولا يغتر بها، بل يجعل طاعة الله والتوكل عليه في كل حال نُصْب عينيه، وليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه. اهـ.

وهذا كله حال العبد الصالح الذي كان فقيرًا في أمر الدنيا، لكنه كان أغنى الناس بإيمانه وتوحيده.

نسأل الله الهدى والتقى والعفاف والغنى، والحمد لله رب العالمين.

القصة في كتاب الله

قصة سبأ

«بلدة طيبة ورب غفور»

الحلقة الأولى

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله مالك الملك مدبر الأمر يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على سيد الشاكرين وإمام الصابرين محمد بن عبد الله نبي الأميين ورحمة الله للعالمين. أما بعدُ:

قال الله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ» [سبأ: ١٥، ١٧].

أخي القارئ الكريم: نقف بك اليوم على عتبة هؤلاء القوم الذين استدرجهم الشيطان فأنساهم ذكر الرحمن، وكفروا بنعمه الظاهرة والباطنة، فعاقبهم الله في الدنيا قبل الآخرة ليكونوا مثلاً لمن يعتبر، وقبل أن نقف مع الآيات القرآنية التي تحدثنا عن آيات كونية ننظر في مورد الآيات في هذا الموضع من السورة التي تسمت باسم القوم «سبأ»، فنقول وبالله التوفيق:

أولاً: بين يدي القصة: من هم سبأ؟

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله –: «كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التابعة (أي قوم تُبّع) منهم وبلقيس صاحبة سليمان عليه السلام من جملتهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزق الله ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله، ثم أعرضوا عما أُمروا به فعُوقبوا بالسيل والشتات». اهـ مع تصرف يسير.

ثم نقل لنا حديثًا رواه الإمام أحمد رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إن رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبأ ما هو أرجل أو امرأة أم أرض؟ قال صلى الله عليه وسلم: «بل هو رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة، فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحِمير، وأما الشامية: فلخم وجذام وعاملة وغسان». وقال الإمام ابن كثير عن هذا الحديث: «إسناده حسن».

فهؤلاء القوم انتسبوا إلى أبيهم سبأ، وقد استوطنوا اليمن حول سد مأرب الذي ازدهرت حوله حضارة اليمن في تلك الحقبة التاريخية، وظلوا على الإسلام منذ عهد بلقيس وفي عهد أبيهم سبأ حتى جاءت أجيال تركوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وانحرفوا عن منهج الله؛ فأصابهم ما سنوضحه إن شاء الله.

ثانيًا: علاقة القصة بالسورة وبالآيات السابقة واللاحقة:

نلاحظ أن السورة (سورة سبأ) بدأت بالثناء على الله الذي يملك الدنيا والآخرة إلى سعة علمه وسعة رحمته وعفوه، ثم انتقلت للحديث عن الكافرين المكذبين بنعمة ربهم الذي أرسل لهم رسولاً منهم

فكذبوه وأنكروا ما أخبرهم به من بعث وجزاء.
ثم انتقلت للحديث عن آل داود وما خصَّ الله به سليمان عليه السلام من فضل وإنعام.
فكان الحديث عن سليمان فيه تسرية للنبي صلى الله عليه وسلم، ولما كان سليمان من الشاكرين جاء ذكر قصة سبأ كمثال للكافرين بنعمة الله المادية والمعنوية فيه نوع من المقابلة بين الشكر والكفر.
كما كان في ذكر سبأ بعد الحديث عن قريش تنبيه للغافلين بسنن الله التي لا تحابي أحدًا، وأن ما أصاب السابقين غير بعيد عن قريش وغيرهم، وهو نوع من مشابهة كفار مكة بكفار سبأ.

ثالثًا: وقفة مع الآيات القرآنية:

١- قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ» [سبأ: ١٥] لقد كان لقبيلة سبأ باليمن فيما أنعم الله عليهم في مساكنهم ومزارعهم آية وعلامة تدل على قدرة الله سبحانه على خلقه ورحمته بهم وتفضله وإنعامه عليهم مما يستوجب شكره سبحانه بإخلاص توحيده، وقد فسَّر القرآن الكريم تلك الآية، فقال: «جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ» [سبأ: ١٥]، وكان لهم وادٍ عظيم تأتيه سيول كثيرة أقاموا عليها سدًا منيعًا محكمًا ليكون مجمعًا للمياه في مأرب، ثم يتحكمون في صرف هذه المياه على مزروعاتهم وبساتينهم حتى صارت كما صورها القرآن «جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ» [سبأ: ١٥] يسير الرجل أو المرأة فتكون البساتين عن يمينه وشماله وتقع مساكنهم متوسطة بين الزروع والثمار.
ونقل ابن كثير - رحمه الله - وغيره من أهل التفسير والسير في ذلك أخبارًا بديعة منها ما ذكره قتادة رحمه الله «أن المرأة من قوم سبأ كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل (وعاء تجمع فيه الثمار)، فيتساقط فيه ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه وجودته». ولم تكن النعمة متمثلة فقط في كثرة الزروع والثمار وكثرة الأمطار ووفرة المياه، بل كانت كذلك في سلامة البيئة من الآفات كما ذكر غيرُ واحد من مفسِّري السلف أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب والبعوض ولا البراغيث ولا شيء من الهوام؛ وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج، ولعل هذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله: «كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ» [سبأ: ١٥].
فالبلدة الطيبة تشمل جودة التربة، وحسن الهواء، ووفرة الزروع والثمار والحياة، وقيل ذلك وبعده بركة الرب الغفور، وهذه البركة تجعل القليل كثير، وتجعل الكثير طيبًا دائمًا بفضل الله ورحمته، واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى: «وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ» [الأعراف: ٥٨]، هذا وإذا ذهبت البركة صار الكثير قليلاً، والجيد رديئًا، والاجتماع فُرقة والنعيم عذابًا، وهذا الذي حدث بقوم سبأ بسبب ذنوبهم.

٢- قال الله تعالى: «فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ» [سبأ: ١٦].
لما أعرض القوم عن منهج الله، وكذبوا رسله، وكفروا بنعمته صارت النعم نقمًا عليهم، ونزعت البركة من زروعهم وثمارهم، وسلَّط الله عليهم بذنوبهم السيل الجارف الشديد الذي دمر السدَّ، وجرف كل شيء في طريقه، وصارت الثمار الكثيرة الطيبة ثمارًا قليلة ذات طعم مُرٍّ، وصارت بعض الأشجار نوعًا من الطرفاء الذي لا يثمر وبقي لهم قليل من شجر النبق، «ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [الأنفال: ٥٣].
وقد تحدث بعض المفسرين عن أسباب حدوث السيل وقيل من بين الأسباب: أن الجرذان هي سبب خراب السد، وقد وجدوا ذلك في بعض كتبهم، فكانوا يرصدون السنانير (القطط) عند السد للقضاء على الجرْذان (الفئران) ومهما يكن من أمر فإن الله إذا أراد بقوم سوء فلا مرد له، وقد يُسخِّر له أضعف الأسباب؛ حتى يتبين مدى ضعف الطُّغاة أمام أضعف جند الله، وصدق الله حين قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ» [الرعد: ١١]، وإن صحت قصة انهيار السد بسبب فأرة فما أضعف الطغاة أمام أصغر جند الله.
٣- قوله تعالى: «ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ» [سبأ: ١٧]، قال ابن كثير رحمه الله: «قال الحسن البصري: صدق الله العظيم لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور». وقال ابن خيرة وكان من أصحاب علي رضي الله عنه: جزاء المعصية الوهن في العبادة والضيق في المعيشة والتعسُّر في اللذة، قيل له: ما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف المرء لذة حلالاً إلا جاء ما ينغصُه إياها. اهـ.
فالذي أرسل عليهم سيل العرم وبدل أحوالهم هو الله سبحانه الذي أنعم عليهم وهم في حال شكرهم، فإذا كان الله قد جعل لهم آية في النعيم، فكذلك جعل لهم ولغيرهم آية في العذاب الأليم، والله سبحانه هو المتفرد في تصريف أحوال عباده، وهو الذي يغيّر أحوال عباده ويصرّفها بين الرجاء والشدة والأمن والخوف، فسبحان مالك الملك مدبّر الأمر يعطي ويمنع، ويرفع ويخفض، ويعز ويذل وهو على كل شيء قدير، فهل نتعلم الدرس ونقرُّ إليه سبحانه وتعالى في كل أحوالنا نشكر في السراء ونصبر في الضراء، ذلك هو محض الإيمان كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «عجبًا لأمر المؤمن، كل أمره له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له» رواه مسلم.
جعلني الله وإياكم من المؤمنين، وللحديث بقية إن شاء الله.

قصة سبأ

الحلقة الثانية

«سبأ ونعمة الأمن»

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله حمد الشاكرين، والصلاة والسلام على رسول الله خاتم النبيين، إمام المرسلين محمد ولد إسماعيل وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

تحدثنا في اللقاء السابق من قصة سبأ عن نعمة الرخاء، ورغد العيش، والمسكن الطيب، والبيئة الصالحة (كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) [سبأ: ١٥]، هكذا لخص القرآن الكريم مشهد النعمة السابغة التي أسبغها على سبأ؛ فهذه الجنات التي تحيط بمساكنهم عن يمين وشمال، والماء العذب الفرات المحفوظ خلف السدِّ يشربون منه ويسقون دوابهم وزرعهم، وهواء طيب، وبيئة نقية.

وإلى جانب هذا المشهد مشهد آخر لا يقل أهمية إن لم يكن هو الأهم، ألا وهو مشهد الأمن، نعم مشهد الأمن في الأنفس والأموال في الحل والترحال، وإليك تصوير هذا المشهد من آيات القرآن الكريم:

قال تبارك وتعالى: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) [سبأ: ١٨، ١٩].

قال الشيخ العلامة ابن عاشور رحمه الله: «إن تأمين الطريق، وتيسير المواصلات، وتقريب البلدان لتيسير تبادل المنافع واجتلاب الأرزاق، هذا وما وراءه، نعمة إلهية ومقصد شرعي يحبه الله لمن يُحب أن يرحمه من عباده كما قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ) [البقرة: ١٢٦]، وقال: (وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) [قريش: ٤]، فنعمة الأمن أساس العمران البشري والاقتصادي في ظلها يسعد الناس ويأمنون على أنفسهم وأموالهم، لذلك امتن الله على سبأ بها، فقال سبحانه: (سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ) [سبأ: ١٨]، ولنبدأ المشهد من بدايته:

١- قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً) [سبأ: ١٨] أي جعل الله طريق أهل اليمن (سبأ) طريقًا عامرًا بالقرى من اليمن إلى الشام، أينما ساروا وجدوا قرية بعد قرية لا يكادون ينتهون من معالم قرية وجدوها حتى تطالعهم قرية أخرى بمعالمها البارزة الواضحة، فلا يجدوا في طريقهم مفازة ولا مصدر فزع ويبدو أن هذه القرية كانت على مسافات منظمة مقدرة يعرفها المسافرون ويحددون بذلك وقت استراحتهم ووقت ارتحالهم، ولذلك قال الله تعالى: (وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ) [سبأ: ١٨] أي: سيروا في طريقكم من اليمن إلى الشام مراحل مقدرة بالأيام والليالي، وبين كل مرحلة يجدون قرية مهما ساروا بالليل أو النهار، فهم في أمن وأمان، وهذا من تمام نعمة الله عليهم.

انظر أخي -رحمني الله وإياك- كيف تعددت نعم الله على قوم سبأ بين مسكن طيب، وزرع متنوع، وظل ظليل، وماء عذب وفير، وفواكه كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة، وهواء نقي، وطريق آمن فكيف قابلوا هذه النعمة؟! قابلوها بالجحود والنكران حتى وصل بهم الكفر إلى أن قالوا كما حكى القرآن عنهم:

٣- ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩]، وإنك لتعجب من أحوال العباد كيف يظلمون أنفسهم وكيف يبدّلون نعمة الله كفرًا؟ وصدق الله حين يقول عن هؤلاء وأمثالهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٨- ٢٩].

وكان الأولى بقوم سبأ أن يشكروا الله على ما أولاهم من نعم، ويطيعوا رسل الله الذين بعثهم إليهم ويسجدوا لله شاكرين، ويطلبوا منه سبحانه أن يديم عليهم نعمة الرخاء والأمن، لكنهم ظلموا أنفسهم وطلبوا الشقاء بعد الرخاء والخوف بعد الأمن، وهذه طبيعة الكفر والجحود والكفران!!

وهذا الذي فعله قوم سبأ من قديم مع رسلهم فعلته قريش مع خاتم النبيين وإمام المرسلين، فقالوا كما حكى عنهم القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، انظر كيف دفع الكفر والجحود والعناد القوم إلى طلب الهلاك ولم يطلبوا الهداية، إن بطر النعمة قد أوصلهم إلى ما وصلوا إليه.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «وذلك أنهم بطروا النعمة كما قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغير واحد، وأحبوا مفاوز مهامة (أي: أرض لا زرع فيها ولا ماء، وفيها صعوبة) يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يُخرج الله لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها مع أنهم كانوا في عيش رغيد في من وسلوى وما يشتهون من ماكل ومشارب وملابس، ولهذا قال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال الله عز وجل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨]، وقال في حق هؤلاء: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩]. اهـ مختصرًا.

قال الشيخ العلامة ابن عاشور رحمه الله: «وأشارت الآية إلى التفرق الشديد الذي أصيبت به قبيلة سبأ؛ إذ حملهم خراب السدّ، وقحولة الأرض إلى مفارقة ديارهم مفارقة وتفريقًا ضربت به العرب المثل في قولهم: ذهبوا أو تفرّقوا أيدي سبأ أو أيادي سبأ، والأيدي والأيادي جمع (يد)، وهي هنا بمعنى الطريق، والمعنى أنهم ذهبوا في طرق شتى فتفرقت الأزد، وكنده ومذحج، والأشعريون، وأنمار، وبجيلة في اليمن ولحقت خزاعة بتهامة بمكة، ولحقت الأوس والخزرج بيثرب، وهم من لخم، وتفرّقت بقية لخم بالعراق، ولحقت غسان ببصرى». اهـ.

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩]، هذا التعقيب القرآني الأول على قصة سبأ، وفيه إشارة عظيمة إلى أن ما حدث لسبأ فيه آيات لكل صبار شكور، وقال الله عز وجل: «آيات»، ولم يقل آية؛ لأن ما حدث لسبأ من تبديل أحوالهم من الأمن والرخاء والاجتماع إلى الخوف والشدّة والتفرق فيه آيات كثيرة متعددة، وسنأتي إليها إن شاء الله في مقال لاحق.

لكن الذي نحرص على الإشارة إليه الآن أن هذه الآيات لا يدركها كل أحد، ولا ينتفع بها إلا كل صبار شكور، أي كثير الصبر وكثير الشكر، وهذا فيه تعريض بقوم سبأ فهم لم يصبروا ولم يشكروا، ولكن أصابهم الجزع والهلع وبطر النعمة، وأصابهم الملل من كثرة النعيم وتمنوا زوال نعمتهم، وهذا دليل على ما قد تبلغه العقول من انحطاط وانحراف حين تبتعد عن منهج الله.

ونحن نشاهد أمثال هذا البطر في واقعنا المعاصر في كثير من الأمم التي أصابتها تخمة الرفاهية، ولم يكتفوا بما تقلبوا فيه من نعيم؛ فراحوا يبحثون عن أنواع من الشذوذ والانحراف في علاقاتهم الاجتماعية والجنسية وأنشطتهم الرياضية كما يسمونها، فما أبأس العقل البشري حين يبتعد عن منهج الله! وما أفقره إن لم يعرف ربه وخالقه!!

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: «والقلب فقير بالذات إلى الله من جهتين: من جهة العبادة وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل وهي العلة الفاعلة، فالقلب لا يصلح ولا يفلح، ولا ينعم لا يُسَرُّ ولا يطيب ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحده لا شريك له وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن، ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه بالفطرة من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة، وهذا لا يحصل إلا بإعانة الله له؛ فالعبد مفتقر دائمًا إلى حقيقة: «إياك نعبد وإياك نستعين». اهـ من رسالة العبودية.

وهذا الكلام الذي ذكره ابن تيمية يرشدنا إلى الغاية التي خلق الله الخلق من أجلها، وهي العبادة، وأنهم فقراء بالفطرة إلى هذه الغاية، وفقراء في الوصول إليها إلا بمعونة الله، وهذا لا يكون إلا لمن هداه الله إلى اتباع منهج الرسل، وهذا أيضا يفسر لنا شقاء من ابتعد عن منهج الرسل.

والله الموفق. ونسأل الله الهداية والتوفيق.

قصة سبأ

تعقيبات ودروس مستفادة

الحلقة الثالثة

إعداد/ عبد الرازق السيد عيد

الحمد لله الذي له ما في السماوات والأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير، والصلاة والسلام على البشير النذير وعلى آله وصحبه والتابعين، أما بعد:

فهذا - أخي الكريم - لقاؤنا الثالث والأخير مع قصة سبأ نقف فيه مع تعقيبات القرآن الكريم على القصة، ونستخلص الفوائد والدروس والعبَر التي هي غاية القصص القرآني العظيم.

وإلى تفاصيل ما قصدناه، والله الموفق.

أولاً: تعقيبات القرآن:

١- جاء تعقيب مباشر بعد القصة مباشرة كأنه تذييل لها ألا وهو قوله تعالى: (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ) [لقمان: ٣١]، وقد جاء التعبير القرآني بجمع (آية) للدلالة على كثرتها، وسنذكر منها ما تيسر إن شاء الله بعد قليل.

٢- أما التعقيب الثاني فهو غير مباشر وهو في قوله تعالى: (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُو مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ) [سبأ: ٢٠]. قال الشيخ العلامة الطاهر ابن عاشور - رحمه الله -: «الأظهر أن هذا عطف على قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ) [سبأ: ٧] الآية في أول السورة، وأن ما بينهما من الأخبار المسوقة للاعتبار كما تقدم واقع وقع الاعتراض والاستطراد فيكون ضمير «عليهم» عائد إلى «الذين كفروا» ا هـ.

يقصد الشيخ أن قوله تعالى: (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) [سبأ: ٢٠] يعود على المشركين في مكة، الذين أنكروا البعث واستهزؤوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن هذا المذهب الذي ذهب إليه الشيخ له وجاهته على الرغم من كثرة القائلين بعودته على قوم سبأ، ويستدل الشيخ على صحة ما ذهب إليه بالآية رقم (٢٢) من ذات السورة بعد الآيات السابقة مباشرة والتي هي قوله تعالى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ) [سبأ: ٢٢] وفيها عود إلى محاجة المشركين، وكأن قصة داود وسليمان وسبأ جاءتا كجمل اعتراضية في السياق لضرب الأمثال، وعلى كل فالآية تصلح للموضعين يعني إعادتها على مشركي مكة لا يمنع كونها تنطبق على قوم سبأ؛ لأنهم أيضا من الذين صدَّق عليهم إبليس ظنه.

وهذا من جمال وروعة أسلوب القرآن الكريم، وإعجازه.

ومعنى قوله تعالى: (وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ) [سبأ: ٢٠] أي: اعتقاده بضعف بني آدم وقدرته على إغوائهم بما أعطاه الله من سلطان على ذلك، وهذا الذي صرَّح به إبليس في قوله لله رب العالمين: (أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا) [الإسراء: ٦٢]، وقوله: (فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) [الأعراف: ١٦- ١٧].

وهذا ما صرَّح به القرآن الكريم بيانًا لحكمة الله

في تسليط الشيطان على بني الإنسان في قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ) [سبأ: ٢١]، ومعنى قوله تعالى: «لنعلم» أي: ليظهر ويتميز في الواقع المشاهد، وعليه فتكون الحكمة من السلطان الممنوع للشيطان على الإنسان ليظهر أمر المؤمن سلوكًا واعتقادًا، وكذلك يظهر أمر الكافر سلوكًا واعتقادًا، و(مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ) [الجاثية: ١٥]، مع ملاحظة أن هذا التسليط لا يؤثر إلا على من تولى الشيطان وعبده من دون الرحمن، أما من أخلصوا توحيدهم لله وصدقوا في إيمانهم به فهم أولياء الرحمن ولا سبيل للشيطان عليهم ولا سلطان: (إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) [النحل: ٩٩].

ثانيا: دروس مستفادة:

١- وجوب شكر النعم:

قال الله عز وجل لقوم سبأ: (كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)[سبأ: ١٥]، فأمرهم بشكره سبحانه على ما أنعم به عليهم من نعم كثيرة في المأكل والمشرب والبيئة الصالحة، فتبين من ذلك وجوب شكر نعم الله؛ لأن الشكر يحفظ النعمة، قال الله عز وجل: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ) [إبراهيم: ٧].

٢- كيف نشكر نعمة الله:

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في «الداء والدواء» عند حديثه عن عقوبات المعاصي والذنوب قال: «من عقوباتها: أنها تزيل النعم الحاضرة، وتقطع النعم الواصلة فتزيل الحاصل وتمنع الواصل، فإن نعم الله ما حُفظ موجودها بمثل طاعته، ولا استجلب مقصودها بمثل طاعته، فإن ما عنده لا يُنال إلا بطاعته».

وقال علي رضي الله عنه: «ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رُفع إلا بتوبة». وشكر النعم يكون بالقلب واللسان والجوارح.

٣- الله سبحانه هو المتفرّد بالعطاء والمنع:

المتأمل في قصة سبأ يجد أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أنعم على سبأ بما أنعم، وهو الذي سلب منهم ما وهب لما كفروا عطاءه ومننه وفق سنن ثابتة لا تتغير كما قال تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ) [الرعد: ١١]، فيا ليت العباد يحسنون التعامل مع سنن الله الكونية والشرعية!!

٤- نعمة الأمن من أساس العمران: وتحقيقه واجب الأمراء والعلماء، واقرؤوا إن شئتم قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ) [إبراهيم: ٣٥]، وقال تعالى: (وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) [قريش: ٤]، وقال لقوم سبأ: (سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ) [سبأ: ١٨].

فلا شك أن أهمية نعمة الأمن لا تقل شأنًا عن نعمة الرخاء والرزق، بل هي أصلها، قال العلامة ابن عاشور رحمه الله بعد أن قرر أن نعمة الأمن أساس العمران، قال: «من أجل ذلك كله كان حقًا على ولاة أمور المسلمين أن يسعوا جهدهم في تأمين البلاد، وحراسة السبل، وتيسير الأسفار، وتقرير الأمن في سائر نواحي البلاد جليلها وصغيرها بمختلف الوسائل، وكان ذلك من أهم ما تنفق فيه الجهود والأموال». ثم يقول: «وكان حقًا على أهل العلم والدين أن يرشدوا أئمة المسلمين وعامتهم إلى طريق الخير وأن ينبهوا إلى معالم ذلك الطريق ومسالكه بالتفصيل دون الإجمال، فقد افتقرت الأمة إلى العمل وسئمت الأقوال». [انظر التحرير والتنوير].

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «من أصبح منكم». وفي رواية: «من بات منكم آمنًا في سربه، معافى في بدنه، أو في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا». رواه البخاري في الأدب المفرد، والترمذي وحسنه الألباني (٢٣١٨).

٥- من أعظم أسباب الأمن التوحيد:

ولذلك عندما دعا إبراهيم ربَّه بالأمن لمكة قال: (وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ) [إبراهيم: ٣٥]، فربط بين الأمن وتجنيب عبادة الأصنام، وقالها إبراهيم عليه السلام صريحة في موضع آخر حين قال مقيمًا الحجة على قومه: (ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) [الأنعام: ٨٢].

ولما خاف الصحابة فقالوا: يا رسول الله، أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس كما تظنون، إنما هو كما قال العبد الصالح لقمان لولده: (يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان: ١٣].

٦- جنود الله لا يعلمها إلا الله:

لما أعرض قوم سبأ سلط الله عليهم سيل العرم، فأهلك الحرث والنسل، وحوّل العمران خرابًا، وسواء كان السبب في السيل هو «فأرة» أم لا، فما أضعف الطغاة أمام جند الله!!

وهكذا فعل الله مع أعدائه، وفعله مع أوليائه بالنصر والولاية والحفظ والهداية.

اللهم اجعلنا من أولئك المتقين.

قصة ذي القرنين

«ويسألونك عن ذي القرنين»

الحلقة الأولى

إعداد/ عبد الرازق السيد عيد

أخي الكريم: نحن اليوم مع قصة رجل اختلف الناس في شأنه اختلافًا بينًا: اختلفوا في اسمه؟ واختلفوا كذلك أهو ملك أم نبي؟ واختلفوا في مكانه وزمانه، وإذا حدث هذا من الناس فإن القرآن حين يقصُّ علينا فإنه يأتي بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ويأتينا بخبر الصدق الذي لا كذب فيه لأنه تنزيل من حكيم حميد.

قال الله تعالى: «وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا» [الكهف: ٨٣- ٩٨].

وإذ نتناول الحديث حول هذا الموضوع من خلال هذه الآيات فإننا نتناول فيه الوقفات الآتية:

الوقفة الأولى: مع قوله تعالى: (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ) [الكهف: ٨٣]، وفيها مسائل:

١- وسواء كان السؤال من اليهود أو من المشركين؛ فإن إجابة القرآن عن الأسئلة التي يتعرض لها النبي دليل على مواكبة القرآن لمسيرة الدعوة، ومؤازرة النبي، وتأييده، ونزول الوحي المباشر من السماء بالإجابة عن الأسئلة التي يتعرض لها النبي صلى الله عليه وسلم والتي لم يكن يعرف إجابتها سواء كانت في أمور الأحكام كما سألته التي تجادله في زوجها أو في أمور الغيب.

٢- وهذا السؤال كان عن أمر غيبي بالنسبة للنبي وللعرب في مكة على وجه الخصوص، فأعلمه الله من علم الغيب ما يثبّتُ به فؤاده ويؤيد به رسالته؛ كما قال تعالى: «عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا» [الجن: ٢٦- ٢٨].

٣- هل هناك علاقة بين هذه القصة، وقصة موسى والخضر؟

قال صاحب نظم الدرر:

«كانت قصة موسى مع الخضر مشتملة على الرحلات من أجل العلم، وجاءت قصة ذي القرنين مشتملة على الرحلات من أجل الجهاد في سبيل الله».

٤- في اسمه ووصفه:

والحقيقة التي لا مراء فيها أن القرآن لم يصرِّح باسمه ولم يأت تصريح باسمه في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المعتمدة، ولم يأت في القرآن سبب لتسميته بذي القَرنين، ولكن أقرب ما يتفق مع نصوص القرآن الكريم أنَّ ذا القرنين كناية عن اتساع ملكه، وأنه مَلَك المشرق والمغرب، ومما لا شك فيه أنه ملك الدنيا شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، لكن كان اتساعه أكثر في ناحيتي الشرق والغرب.

قال سفيان الثوري - رحمه الله -: «بلغني أنه ملك الأرض كلها أربعة: مؤمنان وكافران، أما المؤمنان فهما سليمان النبي، وذو القرنين، وأما الكافران فنمرود وبختنصر». اهـ.

وخلاصة ما تقدم أن ذا القرنين عبدٌ صالح مكَّن الله له في الأرض، وبسط له في الملك فاعترف بنعمة ربه وشكره حق شكره بتحقيق العدل والحزم في الأرض وإقامة التوحيد، والأرجح أنه لم يكن نبيًا.

الوقفة الثانية مع قوله تعالى:

«قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا» [الكهف: ٨٣].

وليس كل تفاصيل قصته بل طريق منها وهو الذي يفيدكم وتنتفعون به، وهذا توجيه من القرآن الكريم لنا لنشتغل ونهتم بالمفيد من الأمور، ونلتمس العبرة من هذا القصص القرآني الكريم؛ لأن هذا هو المقصود الذي ساق الله إلينا هذا القصص من أجله.

قال ابن عاشور - رحمه الله -: «ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه، فكان الاقتصار على ما يفيد الأمة من هذه القصة ؛ فلذلك قال الله تعالى: «قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا» [الكهف: ٨٣]. ثم قال: «والذكر؛ التذكر والتفكر، أي سأتلو عليكم ما به التذكر، فجعل المتلو نفسه ذكرًا مبالغة بالوصف بالمصدر، ولكن القرآن جاء بالحق الذي لا تخليط فيه من حال الرجل الذي يوصف بذي القرنين بما فيه إبطال لما خلط به الناس من أوهام خرافية وأكاذيب». اهـ بتصرف. هذا والله سبحانه وتعالى نسأل أن يلهمنا الصواب في القول والعمل.

وإلى استكمال القصة في لقاءات تالية، نسأل الله تعالى التوفيق.

قصة ذي القرنين

«إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا»

الحلقة الثانية

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير سبحانه، إنه على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على البشير النذير نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين، أما بعدُ:

فنتابع معك أخي القارئ الكريم وقفاتنا مع قصة العبد الصالح والملك العامل ذي القرنين، ونبدأ مع الوقفة الثالثة وهي حول قوله تعالى: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا» [الكهف: ٨٤]، وهذا هو المراد من الذكر الذي يتلوه الله علينا من قصة ذي القرنين، وهو الذي ينتفع به في حياتنا وسياسة أمورنا، المثال الصالح للحاكم الذي يمكّنه الله من ربوع الأرض شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا، فلا يتكبر ولا يتجبر ولا يطغى ولا يتبطر ولا يتخذ الفتوحات وسيلة للاستبداد واستغلال الشعوب والثروات والأوطان، بل ينشر العدل في كل مكان يذهب إليه وينصر المظلوم ويحاسب الظالم، ويحقق الأمن والرخاء، وينسب الفضل في كل شيء إلى الله، وليس إليه بل رحمة من ربه.

قال تعالى: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ» [الكهف: ٨٤]، قال ابن كثير رحمه الله: أي أعطيناه ملكًا عظيمًا مكنّا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من أمثاله من التمكين والجنود والآلات الحربية، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ودانت له البلاد، وخضعت له الملوك، وخدمته الأمم من العرب والعجم، ويسر له أسباب البناء والعمران ما هو من شأن البشر أن يُمَكَّنوا في هذه الحياة. اهـ. بتصرف يسير.

وقوله تعالى: «وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا» [الكهف: ٨٤]، قال ابن عباس: علمًا. وقال قتادة وابن زيد وابن جريج والضحاك وإسحاق: علمًا تسبب به إلى ما يريد، أو علمًا يوصله إلى حيث يريد، وقال المبرد: وكل ما وصل شيئًا بشيء فهو سبب، والمقصود: قد أُوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سببًا. والله تعالى أعلم.

وقال العلامة ابن عثيمين رحمه الله: «ليس معنى (من كل شيء) أنه يعمُّ جميع الأسباب، أو يعم كل شيء على الإطلاق، بل المراد من كل شيء يحتاج إليه في قوة السلطان والتمكين في الأرض». اهـ.

ونقول: نعم. وهذا له نظائر في القرآن في الكريم كثيرة؛ منها ما ذكره الله سبحانه من قول الهدهد عندما وصف ملكة سبأ وملكها: «وَأُوتِيَتْ مِن

كُلِّ شَيْءٍ » [النمل: ٢٣]، ومعلوم أنها لم تؤت ملك السماوات والأرض، ولا حتى ملك الأرض وحدها، كذلك قال تعالى عن الريح التي أرسلها على قوم عاد: «تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ » [الأحقاف: ٢٥]. فهذا استثناء من كل شيء دمرته الريح.

فليست (كل شيء) على إطلاقها، وليس في ذلك تقليل من ملك ذي القرنين، ولكن فيه ردٌ على الأساطير التي جاءت من عند أهل الكتاب، ونقلها بعض من أسلم مثل كعب الأحبار من أن ذا القرنين كان يربط فرسه في الثريا، وقد رد عليه معاوية رضي الله عنه مبطلاً هذا الزعم الباطل الذي فيه مبالغة ومغالاة أقرب إلى الأساطير.

الوقفة الرابعة مع قوله تعالى: «فَأَتْبَعَ سَبَبًا» [الكهف: ٨٥] أي: تتبع السبب الموصل لمقصوده، فإنه كان حازمًا، فانتفع بما أعطاه الله تعالى من الأسباب؛ لأن من الناس من ينتفع، ومن الناس من لا ينتفع، ولكن هذا الملك أخذ الأسباب التي وهبه الله إياها واجتهد في تفعيلها في رحلته في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، سبحانه وتعالى، وهنا لنا وقفة.

فإن الأخذ بالأسباب التي يستطيعها المرء لا ينافي التوكل، ولا يقدح فيه، بل ترك الأسباب هو الذي يقدح في التوكل؛ لأن سر التوكل وحقيقته هو اعتماد القلب على الله وحده فلا يضره مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: «توكلت على الله» مع اعتماده على غيره سبحانه، وركونه إلى الأسباب المادية، وقد نقل الإمام ابن تيمية رحمه الله عن كثير من السلف قولهم: «التفات القلب إلى الأسباب قدحٌ في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا قدح في العقل، والإعراض عن الأسباب قدح في الشرع». اهـ. التحفة العراقية.

الوقفة الخامسة (رحلته إلى الغرب) مع قوله تعالى: «حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ» [الكهف: ٨٦] أي: سلك الطريق الذي يسَّره الله له وجدَّ واجتهد في المسير باتجاه الغرب، حتى إذا بلغ موضعًا ما على شاطئ الماء وجد الشمس تغرب في عين حمئة، وهذا بحسب ما تراه العين من مكان بعيد وإلا فالشمس في السماء والعين الحمئة في الأرض.

و«الحمئة» معناها: الطين الأسود.

الوقفة السادسة مع قوله تعالى: «وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » [الكهف: ٨٦- ٨٨].

إن من أهم واجبات الإمام المكّن حفظ الدين، وسياسة الدنيا به، وها هو ذو القرنين يمارس دوره المنوط به في حفظ الدين والعمل به، فيطبق مبدأ الثواب والعقاب، ومبدأ الجزاء من جنس العمل، فيعاقب الظالم على ظلمه، ويحسن معاملة المؤمن الذي يعمل الصالحات، ويؤكد عقيدة البعث والجزاء، وأن الخلق عائدون إلى الله ولا بد، فيضاعف عذاب الظالمين، ويجازي المحسنين بإحسانهم أجرًا عظيمًا.

وقيام ذي القرنين بمعاقبة الظالمين والإحسان للمحسنين يرسّخ قاعدتي الحزم والعدل اللتان تُساس بهما الدولة المسلمة، ويذكرنا بمسلك سليمان عليه السلام ومملكته.

وأمور الناس إن لم تُساس بالحزم صارت الأمور إلى الفوضى التي لا يأمن فيها الناس على أموالهم ولا دمائهم ولا أعراضهم، وسقطت هيبة السلطان، وانهارت أركان الدولة، وآلت الأمور إلى الرعاع من الناس، فعاثوا في الأرض فسادًا، وكذلك إن لم تُساس بالعدل تعرضت لعقوبة من الله عاجلا أو آجلاً؛ لأن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة حتى وإن كانت مسلمة، فاتقوا الظلم فإنه الظلم ظلمات في الدنيا والآخرة.

وكم نحن في حاجة إلى الحزم والعدل في إدارة شئوننا بعد الذي نعيشه الآن من فوضى عمت أرجاء البلاد صار فيها الرويبضة يتكلمون في أمور العامة، بل أصبحوا يتحكمون في مصالح الدولة، ويعطلون مسيرتها نحو العمل والإنتاج، والغريب في الأمر أن أجهزة الإعلام الضالة المضللة تسمى هؤلاء «ثوارًا»، فكيف صار الحرق والتخريب وإلقاء الحجارة والمولوتوف على رجال الأمن وحرق الممتلكات العامة والخاصة، كيف يصير ذلك عملاً ثوريًا إلا في زمن انقلبت فيه الموازين، وصار الحق باطلاً والباطل حقًا.

وإن تعجب من ذلك فإن الأعجب هو عجز الدولة بمؤسساتها الأمنية والعسكرية والقانونية عن وضع حد لهذه الفوضى، وكأن الجميع يعمل لتحقيق ما خططت له أمريكا منذ طرح مشروع الشرق الأوسط الجديد والفوضى الخلاقة.

أسأل الله أن يخيب ظن المتربصين ويرد كيد الكائدين، ويحفظ مصر آمنة مطمئنة وسائر بلاد المسلمين، وإلى لقاء قريب بإذن الله.

قصة ذي القرنين

ثم أتبع سببًا

الحلقة الثالثة

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي يعطي ويمنع ويخفض ويرفع، وكل شيء عنده بمقدار، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، والصلاة والسلام على النبي المختار وعلى آله وصحبه الطيبين الأبرار ما توالى الليل والنهار، أما بعدُ:

فهذا لقاؤنا الثالث مع العبد الصالح والملك المُمَكَّن ذي القرنين، وهو يواصل مسيرته الميمونة المباركة في أرجاء المعمورة؛ بما أفاء الله عليهم من وسائل التمكين، فينتقل من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق؛ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ينصر مظلومًا، ويقهر ظالمًا، يسوس البلاد والعباد بالعزم والعدل، ويصلح دنيا الناس بدين الله وشريعته، ويحقق غاية التمكين في الأرض كما أراد الله - سبحانه- «الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» [الحج: ٤١]، فهذا واجب التمكين وهو في ذات الوقت من أسباب استمراره، وذو القرنين استحق نصر الله وتمكينه، لأنه قام بحق التمكين، فعَبَد الله وحده لا شريك له، ودعا لعبادته، وأقام العدل في الأرض، ونشر الرحمة والتعاون، ولم يبغ في الأرض فسادًا.

وها هو القرآن الكريم يسجّل لنا هذه الجوانب الإيمانية في سيرته، ويسجل لنا رحلته إلى الشرق بعد أن سجل لنا رحلته إلى الغرب فيقول سبحانه: «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا» [الكهف: ٨٩- ٩١].

وهذه هي الوقفة السابعة مع نصوص هذه القصة:

١- «ثم أتبع سببًا» أي واصل مسيرته المباركة الميمونة في سبيل الله لإعلاء كلمته- سبحانه-، وتحقيق منهجه واقعًا ملموسًا على الأرض، فانتقل من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، والذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله: «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ» [الكهف: ٩٠]، والمقصود مطلع الشمس في عين الرائي كما ذكرنا القول عند مغربها، والقرآن الكريم لم يحدّ المكان على وجه التحديد، لكنه وصف حال سكان المنطقة بقوله تعالى: «وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن

دُونِهِمَا سِتْرًا» [الكهف: ٩٠]، وهذا الوصف لسكان المكان جعل بعض أهل العلم يجتهدون في تحديد بعض المناطق على وجه التقريب لا الجزم (والعلم عند الله).

٣- وإذا اختلف الناس في تحديد المكان والزمان والأشخاص؛ فإن الله سبحانه قد أحاط بكل شيء علمًا، وهذا الذي نفهمه من التعقيب القرآني على هذا المشهد؛ حيث قال سبحانه: «كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا» [الكهف: ٩١]. قال العلامة ابن عاشور- رحمه الله-: «والخُبْر- بضم الخاء وسكون الباء- العلم والإحاطة بالخبر كناية عن كون المعلوم عظيمًا لا يحيط به علمًا إلا علام الغيوب». اهـ.

ونحن نقول: سبحان من أحاط بكل شيء علمًا، وانتهى عنده- سبحانه- علم ما كان، وعلم الحاضر وعلم ما سيكون كيف يكون، وقد أطلع عباده على هذه النافذة من علم الماضي؛ لينتفعوا بها في سياسة الحاضر والمستقبل، ونتعلم أن الحاكم المُمكَّن بفضل الله لا يتواني عن تفقد أخبار مملكته مهما اتسعت أرجاؤها؛ لينظر أحوال رعيته، ويعاينها على أرض الواقع، ويلتمس أحوالهم عن قرب، ويُصلح ما فسد منها، ويعزز منها ما صلح، كما كان يقول عمر رضي الله عنه: «لو عثرت بغلة في أرض العراق لخشيت أن يسألني ربي: لِمَ لَمْ تمهّد لها الطريق يا عمر». بمثل هذا الشعور بالمسئولية يقوم المُلك الذي مكّنه الله، ويستمر بإذن الله على مرّ التاريخ.

الوقفة الثامنة: مع قوله تعالى: «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا» [الكهف: ٩٢- ٩٨].

ونتناول هذه الوقفة في النقاط الآتية:

١- واصل ذو القرنين مسيرته التفقدية الإصلاحية، وفي هذه المرة وصل إلى منطقة عند سدين معروفين لأهل ذلك الزمان، وسنأتي لمزيد من التفصيل في هذا لاحقًا بعون الله.

٢- ويبدو أنه قد علم بوجود قوم مفسدين في الأرض في هذه المنطقة، فأراد أن يمنع عن الناس شرَّهم.

٣- وعندما وصل ذو القرنين المكان وجد قومًا لا يكادون يفقهون قولاً، ولكن الله أعطاه قدرة على مخاطبة الجميع وفهم ألسنتهم، فعلم شكواهم من يأجوج ومأجوج، وأعلنوا عن رغبتهم في أن يجعلوا له نصيبًا من المال مقابل حمايتهم من المفسدين.

٤- فأبدى ذو القرنين استعداده لإقامة سدٍّ بينهم وبين يأجوج ومأجوج، وردَّ عليهم عَرْضهم لأن الله أغناه عنهم وعن غيرهم بما أفاء عليهم من فضله.

٥- لكنه طلب منهم أن يقدِّموا ما يستطيعون من قوة بشرية وعضلية في هذا العمل.

٦- وطلب منهم أن يجمعوا قطع الحديد ويلقوها بين السدين لردمها لإقامة سدّ منيع يحجز بينهم وبين يأجوج ومأجوج؛ فلا يستطيعون النفاذ إليهم، وبذلك يأمنون شرهم.

٧- بعد أن جمعوا الحديد ووضعوه بين الجبلين طلب منهم أن يوقدوا عليه النار لينصهر.

٨- ثم ألقى عليه النحاس المذاب فيصير جسمًا واحدًا أشد تماسكًا.

٩- وقد اكتشف العلم الحديث أن إضافة النحاس إلى الحديد يعطي الخليط المنصهر قوة ليست في غيره.

١٠- وعجز المفسدون عن اقتحام السد، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله: «فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا» [الكهف: ٩٧]، فلم يستطع قوم يأجوج ومأجوج أن يعتلوا السد لارتفاعه وملاسة جدرانه، وما استطاعوا أن يُحدثوا فيه فتحة صغيرة أو كبيرة لصلابته وقوته.

١١- وتأمل دقة التعبير القرآن في اختيار ألفاظه الموحية المعبرة، فاختار لتسلق الجدار (اسطاعوا) واختار لنقبه (استطاعوا)؛ لأن التسلق أسهل من النقب؛ فالنقب يحتاج إلى مجهود أشد من التسلق، ولما كان زيادة المبنى في اللغة يدلّ على زيادة المعنى، أدركنا سرَّ الاختيار القرآني للكلمة المناسبة في المكان المناسب.

١٢- وختم هذا المشهد باعتراف ذي القرنين بالفضل لله وحده، وأن هذا العمل الذي قام به هو محض فضل من الله ورحمة، وهذا دأب الصالحين الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر في نسبة الفضل لله أولا وآخرًا، ثم بيّن أن هذا السد سيبقى إلى ما شاء الله، ويأذن في زواله.

وإلى هنا نصل إلى نهاية ما ذكر الله من قصة ذي القرنين، وإلى ما يُستنبط منها من دروس وعبر نلتقي في لقاء قادم إن شاء الله.

والحمد لله رب العالمين.

وقفات مع القصة في كتاب الله

قصة ذي القرنين

دروس وعِبر

الحلقة الرابعة

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على سيدنا محمد البشير النذير، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

أخي الكريم: على مدار ثلاثة لقاءات سبقت تحدّثنا عن ذي القرنين بما أفاء الله علينا به، وأشرنا إلى بعض الفوائد والدروس المستفادة في ثنايا عَرْضنا للمشاهد المختلفة من القصة، والآن نُفرد هذا المقال للإشارة إلى مجموعة من الفوائد نحسبها مهمة، خصوصًا ونحن نعيش هذا الواقع المؤلم الذي اختلطت فيه الأمور، وصرنا في مسيس الحاجة إلى شُعاع من نور الكتاب والسنة نهتدي به، فهما طوق النجاة، بل لا نجاة إلا بالاهتداء بهديهما.

والآن نبدأ فيما شرعنا فيه ولْنحدد ما قصدنا في الوقفات التالية، وبالله التوفيق:

الوقفة الأولى: من خلال قوله تعالى: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا» [الكهف: ٨٤].

١- «الملك لله ومن الله»:

عندما نتدبر آيات الله في كتابه الكريم، نجد هذا واضحًا، فالله سبحانه مالك الملك يؤتي ملكه من يشاء وينزعه ممن يشاء، قال تعالى: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ» [الأعراف: ١٢٩]. وقال تعالى: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ» [الأحقاف: ٢٦]، وقال تعالى: «وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ» [البقرة: ٢٤٧]. وقال عن النمرود: «أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ» [البقرة: ٢٥٨]، وقوله تعالى: «فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا» [النساء: ٥٤]، وهذا كثير في كتاب الله.

وقوله سبحانه وتعالى هنا في الآية التي معنا: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ» [الكهف: ٨٤]، فهذه كلها تفيد أن المُلك لله يؤتيه من يشاء، وأن التمكين من الله، وترادف الآيات على هذا المعنى الواحد في مسألة الملك والتمكين والاستخلاف في الأرض، ونسبة ذلك كله لله وحده يضع أمامنا أو يضعنا أمام قاعدة مهمة وهي ما ذكرناه سالفًا «الملك لله ومن الله» والتي قد يغفل عنها كثير ممن ينشدون الإصلاح، وربما كلفوا أنفسهم وغيرهم سبلاً لم يُكلّفوا بها؛ بينما أرشدنا ربنا عز وجل إلى الطريق الأمثل للتغيير، اعتقادًا، فقال سبحانه: « فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » [الذاريات: ٥٠]، وسلوكًا: «وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ» [الذاريات: ٥١]. فتعبيد الناس لله هي غاية

جميع الرسل « إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ» [فصلت: ١٤].

ويجب أن تكون كذلك هي غاية أتباع الرسل فالاهتمام بتزكية النفوس وإصلاحها أول مراتب الإصلاح على أساس من العقيدة الصحيحة، وكذلك طريق التغيير وإن شئت قل: سنة الله في التغيير وبذا أخبرنا اللطيف الخبير: « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ» [الرعد: ١١].

فالذي يمكِّن هو الله، والذي ينزع التمكين هو الله، والذي يعطي الأسباب هو الله، والذي يمنع الأسباب هو الله، وما عند الله لا يُنال إلا بطاعته، وطاعته لا تكون إلا بالمنهج الذي أرسل به الرسل وأنزل به الكتب ، وجاء به النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ، وسار عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الوقفة الثانيةمن خلال قوله تعالى: «فأتبع سببًا» تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل. قال ابن القيم- رحمه الله-: «وليكن معلومًا أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل، بل إن التوكل نفسه من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب ويندفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ثم إن حقيقة التوكل الثقة بالله والطمأنينة به والسكون إليه، وهذا لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذي: «اعقلها وتوكل» [سنن الترمذي ٢٥١٧ وحسنه الألباني]، بهذا أجاب النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الذي سأل عن بعيره أو ناقته أو يعقلها؟ أم يطلقها ويتوكل؟. [مدارج السالكين٢/١٢٠]

وقال الإمام ابن تيمية- رحمه الله- تعليقًا على حديث أبي هريرة في صحيح مسلم: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله..» الحديث. قال: هذا الحديث فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز» [صحيح مسلم ٢٦٦٤].

أمر بالتسبب المأمور به وهو الحرص على المنافع وأمر مع ذلك بالتوكل وهو الاستعانة بالله، فمن اكتفى بأحدهما فقد عصى أحد الأمرين. [الفتاوى ج١].

الوقفة الثالثة:من واجبات الحاكم المسلم دفع الفوضى وتأمين السبل ومنع الشر.

قال ابن المبارك- رحمه الله-:

إن الجماعة حبل الله المتين فاعتصموا
بعروته الوثقى لمن دانا
كم يدفع الله بالسلطان مظلمة
في ديننا رحمة منه ودنيانا
لولا الخليفة لم تأمن لنا سبل
وكان أضعفنا نهبًا لأقوانا

ويقول الإمام ابن تيمية في السياسة الشرعية: «يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين إلا بها»، ثم أخذ يعلل ذلك فقال: «لأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة ، وكذلك سائر ما أوجبه الله من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة»اهـ.

وهذا نتعلمه من قضية ذي القرنين حين قام ببناء السد ليدفع شر يأجوج ومأجوج عن غيرهم.

الوقفة الرابعة: الخروج لقمع الفساد وإعلاء كلمة الله في الأرض: قال الدكتور عبد الكريم زيدان في كتابه المستفاد: «ويستفاد أيضا من خروج ذي القرنين من بلده وتنقله في الأرض لنشر العدل والحق وقمع الكفر وأهله، أن على الدعاة المسلمين أن يخرجوا إلى كل مكان يمكنهم الوصول إليه كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم حتى إنه انتقل إلى الطائف يبلغ أهلها دعوة الإسلام». اهـ. مختصرًا.

الوقفة الخامسة : مع قوله تعالى : « قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا» [الكهف: ٨٧، ٨٨].

ونستخلص منها ما يلي :

١- استمرارًا لسياسة الحاكم المسلم الرشيدة؛ يحاسب ذو القرنين الظالم على ظلمه، وهذه إحدى صور العدل ، فمن أهم مهام الحاكم المسلم تحقيق العدل، وإحقاق الحق، ورحم الله أبا بكر رضي الله عنه الذي أعلنها صريحة في خطبته المشهورة بعد أن تمت له البيعة العامة بعد البيعة الخاصة، وفيها قوله: «... القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له..».[الثقات لابن حبان٣/١٥٧]

٢- ومن سياسة ذي القرنين الرشيدة عدم التسوية بين المسيء والمحسن في المنزلة والجزاء، وهذا ما أمرت به الشريعة الإسلامية، وأخبرنا به المولى عز وجل في كتابه الكريم باعتباره من سنن الله التي لا تتبدل ، قال الله تعالى: « أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ » [ص: ٢٨]، وقال تعالى: « أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ» [القلم: ٣٥]، قال د. عبد الكريم زيدان في كتابه «المستفاد»: وأثر هذه السياسة الرشيدة في الحكم أن الصالحين المحسنين يجدون التكريم والكرامة من الحكام، ومن مظاهر تكريمهم إنزالهم المنزلة التي يستحقونها، فمن هذه المنزلة تقربهم إليهم والاستماع إلى نصحهم ومشورتهم، أما الظالمون المعتدون فلا يلقون من الجزاء إلا ما يستحقون ، وبالتالي إبعادهم عن منازل المسئولية، وعدم تقريبهم من ذوي السلطان، وبهذه السياسة تستقيم الأمور وتنصلح الأحوال، ويروج سوق العمل والإحسان، ويكسد سوق الظلم والطغيان». اهـ. مختصرًا.

هذه بعض الفوائد التي اختصرتها خشية الإطالة، وأسأل الله أن ينفعنا وإياكم، وإلى لقاء مع قصة أخرى.

والحمد لله رب العالمين.

القصة في كتاب الله

يأجوج ومأجوج

الحلقة الأولى

اضطراب الأفهام والأقوال في يأجوج ومأجوج

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعدُ:

أخي الكريم: نبدأ الحديث في هذا العدد عن «يأجوج ومأجوج»، وقد اضطربت أقوال الناس في شأنهم اضطرابًا عظيمًا.

فمن الناس من أنكر وجودهم وأنكروا وجود السد!! وهؤلاء لا يعنينا أمرهم؛

٢- ومنهم من يصفهم بأوصاف لم يصح بها نقل صريح ولا عقل صحيح، كمن يصفهم بأنهم ليسوا من أبناء آدم وحواء.

٣- وقد اختلفوا كذلك في نسبتهم.

٤- كما اختلفوا في مكان السد، وهل لا يزال موجودًا أم لا.

٥- ومنهم من توسّع في القول واعتبرهم كل مفسد من أهل الأرض في السرقة أو الحرق.

وهذه الأقوال المضطربة المتفاوتة في اضطرابها منها ما هو باطل شديد البطلان يصادم الحق، وهذا بمجرد تسليط نور الحق عليهم فيدمغه ويزهقه، فإذا هو زاهق بفضل الله ورحمته.

ومنها ما يعد اجتهادًا لبعض أهل العلم يدخل في باب من اجتهد وأخطأ فله أجر ومن اجتهد وأصاب فله أجران.

وما يعنينا الآن هو أن نسلط الضوء على بعض هذه الاجتهادات لتكون ماثلة أمام القارئ، ثم نوضح الحق الواضح من الكتاب والسنة الصحيحة، والله المستعان وعليه التكلان.

وسنعرض لآراء بعض أهل العلم المتأخرين كما يلي:

أولًا: جاء في تفسير القاسمي رحمه الله المسمى بمحاسن التأويل عند تفسير قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ» [الكهف: ٩٨]، قال: ناقلاً عمن أسماهم (بعض المحققين): «فلا يصح أن يستنتج من هنا القول أن السدّ يبقى إلى يوم القيامة، بل صريحه أنه إذا قامت القيامة في أي وقت كان، وكان هذا السد موجودًا دكه الله دكا، وأما إذا تأخرت فيجوز أن يُدك قبلها بأسباب أخرى.

وأما قوله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ» [الأنبياء: ٩٦]، فالمراد منه خروجهم بكثرة وانتشارهم في الأرض، كما يخرج الشيء المحبوس أو المضغوط إذا انفجر، والغالب أن المراد بخروجهم هذا: خروج المغول التتار، وهم من نسل يأجوج ومأجوج، وهو الغزو الذي حصل منهم للأمم في القرن السابع الهجري وناهيك بما فعلوه إذ ذاك

في الأرض، بعد أن نشروا فيها من الإفساد والنهب والقتل والسبي، والراجح أن السد كان موجوداً بإقليم داغستان التابع الآن لروسيا، بين مدينتي دربند وخوزار. فإنه يوجد بينهما مضيق شهير منذ القدم، يسمى عند كثير من الأمم القديمة والحديثة بالسُّد وبه موضع يسمى باب الحديد وهو أثر سدّ حديدي قديم بين جبلين من جبال القوقاز الشهيرة عند العرب بجبل قاف وقد كانوا يقولون إن فيه السد كغيرهم من الأمم. ويظنون أنه في نهاية الأرض. وذلك بحسب ما عرفوه منها. ومن ورائه قبيلتا يأجوج ومأجوج. انتهى.(تفسير القاسمي محاسن التأويل صـ٩٢٤).

ويواصل الشيخ القاسمي نقله عن صاحب كتاب «صفوة الاعتبار» وهو جغرافي تونسي شهير ما يؤكد أن السد هو سور الصين العظيم، وغير ذلك. والشيخ رحمه الله لم يرد على أصحاب هذه الاجتهادات بل ربما تأثر بها والله أعلم. فالشيخ رحمه الله على مكانته تأثر بهذه التأويلات.

ثانيًا: والشيخ أبو الكلام آزاد العالم الهندي المشهور، والذي قيل عنه: إنه أحد من يبحث في المعضلات التاريخية في العصر الحديث بما اجتمع له من ثقافة موسوعية دينية وتاريخية، وقد تأثر بآرائه كثير من العلماء والمؤرخين والمفسرين المحدثين نلخص رأيه في هذه القصة على النحو التالي:

«فهو يبدأ بحثه انطلاقًا من كتب أهل الكتاب، ومن خلال استعراضه لمراجعهم عمومًا وسفر أشعياء خصوصًا يصل في النهاية إلى أن ذا القرنين هو «كورس» الفارسي الذي كان في القرن السادس قبل الميلاد والذي عثر له في إيران على تمثال له قرنان وجناحان، وقال: إن كل ما ذكره القرآن عن ذي القرنين ينطبق على كورش فهو على الدين الصحيح القائم على التوحيد والنية الصادقة، والقول الصادق والعمل الصالح، وهو الذي توجه في الفتح حتى بلغ صحراء بلخ في المشهد وتوجيه ناحية المغرب حتى وصل إلى بحر إيجة قريبًا من إزير، وتوجه نحو الشمال وبنى السد الذي بقي معروفًا باسمه في المكان الذي يسمى الآن بمضيق دار يال والموجود الآن في جبال القوقاز.

وخطأ من قال بأن السد هو السد المعروف بباب ديند أو باب الأبواب، والممتد من بحر الخزر إلى سلسلة جبال القوقاز، وخطأ من ذهب إلى أنه سد الصين العظيم، هذا كما خلص إلى أن يأجوج ومأجوج هم التتار والمغول الذين كانت تقذف بهم منغوليا مرة بعد مرة، وأن سد ذي القرنين هو الذي أغلق تحركاتهم نحو الغرب.

وأنا أذكر أخي القارئ الكريم أني لا أذكر هذا الذي ذكرت على أنه حقائق، بل هي اضطرابات في الأقوال حول موضوع يأجوج ومأجوج، وأحسن ما يقال في بعضها أنها مجرد اجتهادات قابلة للخطأ والصواب، وتبقى الحقيقة الناصعة والحق الذي ليس بعده شك ما جاء به كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا ما سنعرض إليه إن شاء الله بعد قليل، وقبل أن نشرع في بيان الحق من الكتاب والسنة ننظر فيما سبق من أمور نظرة تأمل:

١- معظم الذين أنكروا يأجوج ومأجوج هم الذين أنكروا ظهور المهدي ونزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان، وهؤلاء لا يعتمدون في إنكارهم على شيء إلا على عقولهم، وهؤلاء يقال لهم ولأمثالهم: إن أصل فساد الدين هو تقديم الرأي على الوحي، والهوى على الشرع، والعقل على النقل، ونقول لهم أيضا: من لم يسلم للمنقول، وقابله برده بالعقول فهو ضال مخبول، ومقابلة النص الواضح الصريح بالرأي الفاسد القبيح هي بدعة قبيحة أول من وقع فيها إبليس، والذي يفعل ذلك هو من جملة أتباعه المقربين.

وقصة يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة، ومن مقتضيات الإيمان بالغيب: الإيمان بها وخصوصًا قد جاء بها الحق (سبحانه) في كتابه والرسول الكريم في سنته، وقد ذكر ابن القيم أحوال القلوب عند ورود الحق عليها فقال: «حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يُفتن به كفرًا وجحودًا، وقلب يزداد به إيمانًا وتصديقًا، وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة وقلب يوجب له حيرة وعمى فلا يدري ما يراد به». اهـ. من إغاثة اللهفان.

وأي فتنة أعظم من أن يأتي الخبر في القرآن الكريم، ويأتي الحديث الصحيح عن المعصوم فينكره المنكرون بحجة أنه يخالف العقل في زعمهم، ويخالف العلم الذي لم يدع مجالاً في الأرض إلا بيّنه وكشفه، وهذا في حد ذاته باطل عقلاً، فضلاً عن كونه باطلاً شرعًا، نسأل الله الهداية والتوفيق وللحديث بقية إن شاء الله والحمد لله رب العالمين.

القصة في كتاب الله

يأجوج ومأجوج

« إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »
[النمل: ٧٦]

الحلقة الثانية

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، أما بعدُ:

فهذا لقاؤنا الثاني مع قصة يأجوج ومأجوج، وقد تحدثنا في اللقاء السابق عن كثرة اضطراب أقوال المؤرخين والمفسرين في قصة يأجوج ومأجوج، وهذه الاضطرابات الكثيرة تعود في أصلها إلى أمرين أساسين:

الأول: التأثر بالكشوف الحديثة، وبالتالي تقديم الهوى والرأي على الشرع.

الثاني: التأثر بما جاء عن بني إسرائيل، ومحاولة تطويع القرآن والسنة لموافقة هذه الأخبار، وهذا اجتهاد فيه خطأ وصواب، وقد عرضنا في المقال السابق لأمثلة من النوعين، وبيّنا خطأ الشرع، واليوم نرد على أصحاب الاتجاه الثاني المتأثر بمرويات بني إسرائيل، وفي مقدمتهم العالم الهندي المعروف أبو الكلام آزاد، ومع تقديرنا لجهده في البحث واجتهاده، لكن الشيخ رحمه الله أقام بحثه انطلاقًا من كتب بني إسرائيل وعلى تفصيلات جاءت فيها ليست في القرآن ولا في السنة الصحيحة، وهذا الذي دعاني إلى تصدير هذا المقال بالآية الكريمة من سورة النمل، وقد سبق هذه الآية الكريمة آية أخرى هي قوله تعالى: « وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ » [النمل: ٧٥]، وجاء بعدها: « وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ » [النمل: ٧٧].

فتأمل أخي كيف وجَّه القرآن الكريم خطابه إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى: « فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ » [النمل: ٧٩]؛ لأن هذا الحق الواضح من عند الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، «فسبحانه» هو الذي يخبرك بالحق، وهو الذي نزَّل عليك الكتاب بالحق، وهو الذي أرسلك بالحق، فتوكل عليه في تبليغ ما جاءك من الحق، وقد جعله الله رحمة وهداية للمؤمنين.

قال الشيخ ابن عاشور رحمه الله في تفسير الآية (٧٦) من سورة النمل: «إبطال لقول الذين كفروا « إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ » [النمل: ٦٨]، وله مناسبة بقوله تعالى: « وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ » [النمل: ٧٥]، فإن القرآن وحي من عند الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فكل ما فيه فهو من آثار علم الله تعالى، فإذا أراد الله تعليم المسلمين شيئًا مما يشتمل عليه القرآن فهو العلم الحق إذا بلغت الأفهام إلى إدراك المراد

منه على حسب مراتب الدلالة التي أصولها في علم العربية وفي علم أصول الفقه.

ومن ذلك ما اشتمل عليه القرآن من تحقيق أمور الشرائع الماضية والأمم الغابرة مما تخبطت فيه كتب بني إسرائيل من جراء ما طرأ على كتبهم من التشتت والتلاشي وسوء النقل من لغة إلى لغة في عصور انحطاط الأمة الإسرائيلية، ولما في القرآن من الأصول الصريحة في التعريف بالله مما يكشف سوء تاويل بني إسرائيل وتحريفهم لكلمات كتابهم؛ فإنك لا تجد في التوراة ما يساوي قوله تعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ» [الشورى: ١١]. وقد قصَّ عليهم القرآن أكثر ما اختلفوا فيه، وبيَّن لهم الحق الواضح في الإخبار بالغيب وفي العقيدة والأخلاق والمعاملات. اهـ بتصرف.

فإذا كانت مهمة القرآن الكريم هي تصحيح ما حرَّفه بنو إسرائيل، فهل يصح الاعتماد على مروياتهم فيما أخبرنا به القرآن؟ وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك تحريف اليهود للتوراة والإنجيل، ولم يستطيعوا تحريف القرآن رغم محاولاتهم المتعددة؛ لأن الله تكفل بحفظه، وقد جاء القرآن تبيانا لكل شيء بما يغنينا عن غيره، فلماذا يقع البعض أسرى الإسرائيليات؟ لنرى موقف الشرع في هذه القصة وآراء العلماء الأثبات.

موقف العلماء من الإسرائيليات على سبيل الإجمال:

ذكر البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه محضًا لم يُشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدَّلوا كتاب الله وغيره، وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا: «هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا» [البقرة: ٧٩]، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، لا والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم». [صحيح البخاري: ٢٦٨٥].

رأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر بن الخطاب صحيفة من التوراة فسأله: «ما هذا في يدك يا عمر؟» قال: يا رسول الله، كتاب نسخته لنزداد به علمًا إلى علمنا، فغضب رسول الله حتى احمرت وجنتاه ثم نودي بـ«الصلاة جامعة»، فقالت الأنصار: أغضب نبيكم؟ السلاح السلاح، فجاءوا حتى أحدقوا منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «يا أيها الناس، إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه، واختُصر لي اختصارًا، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية فلا تهوكوا، ولا يغرنكم المتهوكون. قال عمر: فقمت، فقلت: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبك رسولاً».

رواه أبو يعلى بسند فيه ضعف وذكره ابن كثير في تفسيره وذكر له شواهد متعددة تحسنه، والله أعلم.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «.. وفي القرآن غُنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة؛ لأنها لا تكاد تخلو من تبديل وزيادة ونقصان، وقد وضع فيها أشياء كثيرة، وليس لهم من الحفاظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين؛ كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء والسادة والأتقياء، والبررة والنجباء من الجهابذة النقاد والحفاظ الجياد...» اهـ. مختصرًا. [تفسير ابن كثير ٣/ ١١٠].

وخلاصة القول

وقد قسَّم أهل العلم ما جاء عن بني إسرائيل إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وهو الصحيح الذي علمنا صحته من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا القسم مع صحته فعندنا غُنية عنه من كتاب ربنا وسنة نبينا، ولكن يجوز روايته للاستشهاد به، وإقامة الحجة عليهم من كتبهم، هذا القسم ورد فيه قول النبي صلى الله عليه وسلم: «بلِّغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري.

القسم الثاني: ما علمنا كذبه؛ لأنه يخالف ما جاء في كتاب ربنا وسنة نبينا، فهذا لا يجوز روايته بحال، وأعتقد أن هذا النوع الذي جاء التحذير فيه فيما سبق من قصة عمر وموعظة ابن عباس، وقال الإمام مالك رحمه الله في حديث «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» (المراد به جواز التحدث عنهم بما كان من أمر حسن، أما ما عُلم كذبه فلا). [فتح الباري].

القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه لا من الصحيح ولا من المكذوب، ولعل هذا القسم هو المراد بما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: «ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ» [العنكبوت: ٤٦] الآية». رواه البخاري.

ولقد أطلت النَّفس في هذا الباب؛ لكثرة من فُتن به، وخاصة في الأخبار المتعلقة بالغيب وأشراط الساعة؛ حيث امتلأت كتب العابثين بأشراط الساعة بعشرات الأخبار المنقولة عن كُتب اليهود والنصارى دون تمحيص، ولما كانت قصة يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة، ومن الأمور التي ستقع إن شاء الله في زمن نزول عيسى عليه السلام، كان لا بد من الوقوف عند الصحيح الذي جاء به القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا ما سنتناوله في اللقاء القادم بإذن الله، فإلى ذلك إن شاء الله. والحمد لله رب العالمين.

حقيقة يأجوج ومأجوج (٣)

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعدُ:

أخي الكريم: الآن نعرض لحقيقة يأجوج ومأجوج أو قل حقائق، وكلها تعود إلى حقيقة واحدة، ألا وهي أصل يأجوج ومأجوج في الكتاب والسنة؛ هذه الحقيقة التي يقف العقل أمامها صاغرًا، ويصير كل تأويل يخالفها باطلاً؛ ذلك أن العقل مهما أوتي من علم فهو أمام حقائق الغيب يقف عاجزًا ما لم يستضئ بنور الوحي المعصوم.

هذا ومعلوم لكل من عنده أدنى نصيب من العلم أن الاجتهاد إذا خالف النص فلا عبرة به؛ لأنه لا اجتهاد أصلاً مع وجود النص، وحقائق الغيب لا مجال لمعرفتها إلا عن طريق الوحي المعصوم من كتاب ربنا وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، ومن هذه الحقائق:

الحقيقة الأولى: يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى:

نعم أخي المسلم (يأجوج ومأجوج) من أشراط وعلامات الساعة الكبرى، والدليل على ذلك ما جاءت به السنة الصحيحة، نذكر منها ما جاء في صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للصحابة عن الساعة: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات» فذكر «الدخان» والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، و(يأجوج ومأجوج). الحديث بتمامه في كتاب الفتن برقم (٢٩٠١).

والحاصل أن يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة، ولم يخرجوا بعدُ، وسيكون خروجهم في زمن عيسى ابن مريم حين ينزل في آخر الزمان كما سيأتي بيانه في أحاديث أخر، وفي ذلك ردّ على من زعم خروجهم وأنهم التتار أو المغول، وفيه كذلك رد على زعم عدم وجود السدّ إلى الآن.

وفي ضوء الحديث السابق أيضًا نفهم قوله تعالى في سورة الكهف: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا» [الكهف: ٩٨]، ويظهر المقصود بالوعد هنا: وعد الآخرة، وظهور أشراط الساعة الكبرى، وليس كمن زعم إطلاق الوعد في أي زمان ومكان، والله أعلم.

الحقيقة الثانية: يأجوج ومأجوج أناس من ذرية آدم:

وهذا خلافًا لمن زعم غير ذلك؛ لما رواه الشيخان من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه واللفظ للبخاري قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعين، فعندها يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما

هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ؟ قَالَ: أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلاً وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلاَّ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ».

والحديث السابق فيه تحديد لنوع يأجوج ومأجوج، وأنهم من ذرية آدم، كما فيه بشرى للمسلمين، وبيان فضل هذه الأمة المحمدية على سائر الأمم.

الحقيقة الثالثة:

توقيت خروجهم والأحداث المواكبة لخروجهم ونهايتهم بإذن الله:

١- قال الله تعالى: «حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ» [الأنبياء: ٩٦ - ٩٧].

نفهم من الآيتين السابقتين أن خروج يأجوج بإذن الله سيكون قرب الساعة وهو أحد أشراطها الكبرى التي متى ما ظهرت تتابعت، والمقصود بقوله تعالى: «فتحت» أي: فُتح السدّ الذي حجزهم ذو القرنين خلفه، فكان خروجهم بهذه الصفة المذكورة في الآيات والتي تزيدها وضوحًا الأحاديث الصحيحة الآتية:

- في الصحيحين من حديث أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: دَخَلَ عَلَيْهَا رسول الله صلى الله عليه وسلم فَزِعًا يَقُولُ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ! فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا. قالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ.

- وفي صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان، وهو حديث طويل وفيه: «إِذْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى عِيسَى إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي لاَ يَدَانِ لأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ، وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فِيهَا، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ: لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَوْمَ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الأَرْضِ، فَلاَ يَجِدُونَ فِي الأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلاَّ مَلأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ».

- وفي فقرة أخرى من الحديث السابق قبل الفقرة السابقة: «... ثُمَّ يَسِيرُونَ حَتَّى يَنْتَهُوا إِلَى جَبَلِ الْخَمَرِ، وَهُوَ جَبَلُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَيَقُولُونَ: لَقَدْ قَتَلْنَا مَنْ فِي الأَرْضِ، هَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ مَنْ فِي السَّمَاءِ! فَيَرْمُونَ بِنُشَّابِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ فَيَرُدُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ نُشَّابَهُمْ مَخْضُوبَةً دَمًا».

نستخلص من النصوص السابقة ما يلي:

١- يأجوج ومأجوج سيخرجون في التوقيت المقدّر لهم.

٢- وسيكون خروجهم بعد نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان.

٣- لقد بدءوا منذ أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عنهم في نقب السدّ المضروب عليهم، وما زالت عملية الحفر مستمرة إلى أن يشاء الله، وقد جاء تفصيل هذا في حديث رواه أحمد وأبو داود والحاكم وابن حبان عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فسنحفره غدًا، فيعيده الله أشد ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله خروجهم أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذي عليهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء الله تعالى واستثنوا، فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه ويخرجون على الناس...» والحديث صححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه ح٤٠٨٠.

٤- لقد بدأوا محاولات الخروج منذ تركوا خلف السدّ، ولكنهم لن يُمكنوا من الخروج إلا في الوقت الذي قدّره الله، وهو كما تقدم متزامن مع نزول عيسى عليه السلام.

٥- خروجهم سيكون مصدر فساد في الأرض حتى وصل بهم الغرور كما تقدم في تفكيرهم في الاعتداء على من في السماء!!

٦- يأمر الله عيسى عليه السلام أن يحصِّن المؤمنين الذين معه في ذلك الوقت بجبل الطور في سيناء؛ لأنهم لا يمكنهم مواجهة يأجوج ومأجوج وجهًا لوجه.

٧- يلجأ نبي الله عيسى ومن معه إلى الله بالدعاء ليدفع عنهم شرّ يأجوج ومأجوج أحياء وأمواتًا.

٨- يستجيب الله دعاء المؤمنين ويرسل دودًا صغيرًا على يأجوج ومأجوج فيقتلهم جميعًا ثم يرسل طيرًا ضخمًا يخلص الأرض من جثثهم ونتنهم رحمة بعيسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين.

٩- موطن هذه الملحمة أرض الشام وبيت المقدس وفلسطين وسيناء بعد القضاء على الدجال واليهود ومن معهم إن شاء الله.

وإلى لقاء قادم بإذن الله.

القصة في كتاب الله

يأجوج ومأجوج

حقائق وفوائد

الحلقة الرابعة

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيين، نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، أما بعدُ:

فهذا لقاؤنا الرابع مع قصة يأجوج ومأجوج، نستكمل فيه حقائق القرآن، والسنة حول هذه القصة، ونستخلص الفوائد العلمية والحقائق الإيمانية استكمالاً لما ذكرنا في المقال السابق بفضل ربنا عز وجل فنقول وبالله تعالى التوفيق:

رابعًا: عدد يأجوج ومأجوج بشرى للمسلمين :

عندما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن بعث النار أي أهل النار من ذرية آدم من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين كما في حديث أبي سعيد الخدري المخرّج في الصحيحين، وفيه أيضًا: فشق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله، أينا ذلك الرجل؟ يعني إذا كان لا يدخل الجنة إلا واحد من الألف، فمن سينجو؟ وأينا ذلك الناجي من النار؟

عند ذلك بشّر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بقوله: «أبشِروا، فإن من يأجوج ومأجوج ألفًا، ومنكم رجل»، يعني سيكون- إن شاء الله- من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعون إلى جهنم بينما يكون من أمة محمد واحد فقط إلى النار، ولقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم أفضلية هذه الأمة على سائر الأمم، فقال: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله تبارك وتعالى» رواه أحمد والترمذي.

ثم بيّن فيما صح عنه صلى الله عليه وسلم أن هذه الأمة ستكون بفضل الله نصف أهل الجنة.

خامسًا: نزول المطر الغزير لإزالة آثارهم:

جاء في حديث النواس بن سمعان الطويل الذي ذكرنا مقاطع منه تشير إلى إرسال المولى عز وجل عليهم الدود لقتلهم والطير للتخلص من جثثهم، وفيه أيضا: «ثم يرسل الله مطرًا لا يكُنُّ (لا يمنع) منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يجعلها كالزلقة (كالمرآة)» [مسلم٤/٢٢٥٠].

أي يرسل الله سبحانه مطرًا غزيرًا يعم الأرض لغسلها من آثار القوم حتى تصير كالمرآة في صفائها ونقائها.

سادسًا: مكان مقتلهم:

في حديث النواس بن سمعان: «.. ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر، وهو جبل ببيت المقدس، فيقولون لقد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من السماء»... وقد تقدم الحديث أن يرسل الله عليهم جنده، والشاهد قوله صلى الله عليه وسلم: جبل الخمر.

وهو الشجر الملتف ومكانه: بيت المقدس، والله أعلم.

وهناك وفي المنطقة المحيطة سيكون مقتلهم بإذن الله.

سابعًا: أسلحتهم وقود للمسلمين:

بعد موت يأجوج ومأجوج ستكون أسلحتهم وقودًا لنيران المسلمين مدة سبع سنين، والدليل قوله صلى الله عليه وسلم: «سيوقد المسلمون من قسي يأجوج ومأجوج ونشابهم وأترستهم سبع سنين». [صحيح الجامع: ٣٦٦٦].

ثامنًا: طيب العيش وبركته بعدهم:

«... ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرّسل حتى اللقحة (الحلْبة) من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقرة لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم الفخذ من الناس». صحيح مسلم.

من مظاهر هذه البركة أن الرمانة الواحدة تكفي جمعًا من الناس يأكلونها ويتخذون قشرتها مظلة لهم، وأن الله سيبارك في لبن الماشية سواء كان من الإبل أو البقر أو الغنم لدرجة أن نتاج الواحدة من الغنم في المرة الواحدة يكفي حليبها فخذ القبيلة، وأن حليب البقرة لمرة واحدة يكفي قبيلة بأكملها، وهكذا.

أيها المسلمون : أبشروا فإن بعث النار من يأجوج ومأجوج ألف ومن المسلمين واحد فقط ، نسأل الله النجاه منها.

تاسعًا: أسباب البركة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله لينزلن ابن مريم حكمًا عادلاً، فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص (صغار الإبل) فلا يُسعى عليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد» أخرجه البخاري، واللفظ هنا لمسلم.

فمن أسباب البركة الواضحة هنا ارتفاع الشحناء والبغضاء والضغينة من صدور الناس وشيوع الأمن والسلام وعدل السلطان.

عاشرًا: حج البيت:

روى أحمد والبخاري من حديث أبي

سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليُحَجَّنَ هذا البيت بعد يأجوج ومأجوج».

ثانيًا: من الفوائد المتعلقة بيأجوج ومأجوج.

الأولى: نزولهم سيكون متزامنًا مع نزول عيسى عليه السلام:

أشارت الأحاديث الصحيحة التي سقناها وغيرها مما سنعرض له إن شاء الله أن ظهور يأجوج ومأجوج وخروجهم سيكون بعد نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام في آخر الزمان، ونزول عيسى في حد ذاته شرط من أشراط الساعة الكبرى، ومن الأشراط العشرة الكبرى التي تسبق الساعة مباشرة، وهذا النزول قد أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم وأشار إليه القرآن الكريم إشارات عديدة ليس مجال الحديث عنها الآن.

لكن من أهم ملامح هذا النزول ما يلي:

١- الحكم بشريعة الإسلام:

ينزل عيسى عليه السلام من السماء بأمر الله، ووصف النبوة قائم فيه، غير أنه لا يأتي بشريعة جديدة، بل يكون تابعًا لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، وحاكمًا من حكام هذه الأمة ومجدّدًا لأمر دينها؛ لأن محمدًا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين؛ وشريعته خاتمة الشرائع، ولذلك أخذ الله العهد والميثاق على جميع الأنبياء أن يبشّروا به ويتبعوه وينصروه، إن بُعث وهم أحياء وقد فعلوا وأخذوا الميثاق على أممهم بذلك، قال الله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ» [آل عمران: ٨١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم، وإمامكم منكم. [أخرجه الشيخان].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس بيني وبين عيسى نبي وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، بين ممصرتين (والممصرة من الثياب: التي فيها صفرة خفيفة)؛ كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويُهلك الله في زمانه الملل كلها إلا الإسلام، ويهلك المسيح الدجال، فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون». [صحيح أبي داود برقم: ٤٣٢٤].

إنّ من أسباب نزول البركة: ارتفاع الشحناء والضغينة من صدور الناس وشيوع الأمن والسلام وعدل السلطان.

وهذه عقيدة الحق في عيسى ابن مريم عليه السلام وعلى أمه، تلك العقيدة التي يعتقدها المسلمون اليوم أن عيسى قد رفعه الله إليه ولم يقتله اليهود ولم يصلبوه، بل رفعه الله إليه ولم يمت، بل هو حي عند الله وسينزل في آخر الزمان كما بينا، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله بصورة أكثر شمولا.

اللهم أحيينا على الإسلام، وتوفنا عليه، وابعثنا يوم القيامة من أهله، أمين.

وقفات مع القصة في كتاب الله

نزول عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان (١)

لماذا اختص الله عيسى عليه السلام بالنزول في آخر الزمان؟

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله مالك الملك، مدبر الأمر، يفعل ما يشاء ويختار، والصلاة والسلام على النبي المختار، وعلى آله وأصحابه الأبرار، وبعدُ:

فقد يتساءل البعض لماذا ينزل عيسى عليه السلام دون غيره من الأنبياء في آخر الزمان؟ وأردت بالإجابة عن هذا السؤال مدخلاً للحديث عن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، هذا الحدث الذي تنتظره الأمم الثلاث؛ اليهود، والنصارى، والمسلمون، واتفقت الأمم الثلاث على نزوله.وسنشير إن شاء الله فيما سيأتي إلى وجوه الاتفاق والاختلاف، والصواب والخطأ، والحق والباطل في ذلك، فقضية نزول عيسى ابن مريم ليست فقط عَلَمًا من أشراط الساعة بل لها علاقة وثيقة بالواقع الذي نعيشه، وبالصراع القائم الآن في العالم وفي المنطقة التي اصطلحوا على تسميتها بـ «الشرق الأوسط»، وبمستقبل الصراع فيها، بل لما يحدث في العالم بأسره من أحداث مهمة بين يدي الساعة، وفي حسم الصراع القائم بين الحق والباطل والأمن والسلام، والتمكين لدين الله في الأرض.

وكل هذه الموضوعات سنتحدث عنها تباعًا؛ من خلال حديثنا عن عيسى عليه السلام ونزوله إلى الأرض، وأدلة نزوله من الكتاب والسنة، والرد على المشككين، ومن توقيت نزوله ومكان نزوله وصفة نزوله وأعماله ودعوته، وغير ذلك مما يتعلق بهذه القضية المهمة.

ونستعين بالله ونبدأ بالإجابة عن السؤال الذي طرحناه: لماذا عيسى بالذات من دون الأنبياء سينزل في آخر الزمان؟

أقول وبالله التوفيق: إن الله سبحانه وتعالى جعل في عيسى عليه السلام وأمه آية للعالمين، قال الله تعالى: «وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ» [الأنبياء: ٩١]، وقال سبحانه: «وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ» [المؤمنون:٥٠]، وقال الله تعالى: «وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا» [مريم: ٢١]، وهكذا اقتضت حكمة العليم الحكيم أن يجعل في عيسى عليه السلام آية تدل على طلاقة قدرته، وأنه سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء وقتما يشاء وكيفما شاء.

اختلاف أهل الكتاب في ولادته ورسالته

جعل الله في ولادة سبحانه ولادة عيسى من أم بغير أب آية، وجعل من حديثه في المهد آية، وجعل في رعايته لأمه وحفظه- سبحانه- لها،

وربطه على قلبها والدفاع عنها آية، وجعل في مبعث عيسى آية، وفي حياته ودعوته آيات؛ من إحياء الموتى لإبراء المرضى، والإخبار بما يأكلون وما يدخرون، وإخبارهم ببعض الغيوب، وتبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم، إلى غير ذلك.

ثم جعل في رفعه إليه آية، وكذلك في إنزاله آخر الزمان آية، لكن حال الناس مع آيات الله مختلف؛ فمنهم من يهتدي بها وينال بها رحمة ربه، ومنهم من يُعرض عنها وما أكثرهم!! قال الله تعالى: «وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ» [يوسف: ١٠٣]، وقال سبحانه: «وَكَأَيِّن مِّنۡ ءَايَةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يَمُرُّونَ عَلَيۡهَا وَهُمۡ عَنۡهَا مُعۡرِضُونَ» [يوسف: ١٠٥].

والآيات التي صاحَبَت عيسى عليه السلام في مولده ونشأته وبعثته مع كثرتها قابلها بنو إسرائيل بالكفر والضلال إلا قليلاً منهم، قال الله تعالى: «فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ٣٧ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ» [مريم: ٣٨].

وهذه الآيات جاءت في أعقاب الحديث عن عيسى عليه السلام، وكونه عبد الله ورسوله وداعيًا إلى توحيده، لكن قومه اختلفوا في شأنه اختلافًا كبيرًا:

- فطائفة كفرت به، واتهموا أمه عليها السلام بالزنى، واتهموا عيسى بالسحر، وكفروا بنبوته ورسالته وهم اليهود.

- وقسم آمن به وهم النصارى، ولكنهم أيضًا اختلفوا في شأنه على أقسام، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: «فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ» [مريم: ٣٧] قال: «أي اختلف قول أهل الكتاب في عيسى بعد بيان أمره ووضوح حاله، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فصممت طائفة منهم وهم جمهور اليهود- عليهم لعائن الله- على أنه ولد زانية، وقالوا كلامه سحر، وقالت طائفة أخرى: إنما تكلم الله، وقال آخرون: بل هو ابن الله، وقال آخرون: هو ثالث ثلاثة، وقال آخرون: بل هو عبد الله ورسوله، وهذا قول الحق الذي أرشد الله إليه المؤمنين». اهـ.

فاليهود كفروا كفرًا واضحًا بعيسى واتهموا أمه عليها السلام، والنصارى ضلوا ضلالاً بعيدًا بقولهم هو إله أو ابن الله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

اختلافهم في رفعه إلى الله وقتله:

قال الله عز وجل في سياق حديثه عن اليهود وإبطال مزاعمهم: «فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ١٥٦ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا» [النساء: ١٥٥- ١٥٨]، كان من أمر اليهود حين كفروا بعيسى عليه السلام وطاردوه واضطهدوه ووشوا به إلى ملك دمشق، وكان مشركًا من عبدة الكواكب، فأمر بصلب عيسى عليه السلام.

الحكمة من نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان

قال ابن كثير رحمه الله: هذا إسناده صحيح إلى ابن عباس، ورواه النسائي عن أبي كريب عن أبي معاوية بنحوه، وكذا ذكره غير واحد من السلف. اهـ. من «تفسير ابن كثير».(هذا الحديث يتكلم عن العقيدة في بشريته وليس عن الرفع)

فما من نبي كثر الاختلاف حوله في حياته، وقبل موته مثل عيسى عليه السلام، فمن هنا- والله أعلم- نتلمس الحكمة من نزوله في الأسباب الآتية:

أولها: رد أباطيل اليهود والنصارى في أمر مولده، فالرد على اليهود في براءة أمه مما اتهموها به وهي منه براء، وفي كفرهم بعيسى وهو عبد الله ورسوله. وفي قولهم: إنهم قتلوه «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡ» [النساء: ١٥٧].

والرد على النصارى في افترائهم عليه وقولهم إنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، أنه حين ينزل يكون من أهم أعماله: كسر الصليب وقتل الخنزير. روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «والذي نفس بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية...» الحديث.

وكسر الصليب إشارة إلى فساد عقيدة النصارى التي تقوم على عقيدة الصلب، وقتل الخنزير إشارة إلى فساد شريعتهم التي استحلوا فيها ما حرَّم الله.

وللحديث بقية إن شاء الله.

القصة في كتاب الله

نزول عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان

الأدلة على نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان

الحلقة الثانية

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الباقي بعد فناء خلقه، والصلاة والسلام على النبي محمد الأمي الذي أرسله ربه بين يدي الساعة بشيرًا ونذيرًا، وبعدُ:

أخي القارئ لعلك تابعت معنا في اللقاء السابق الحديث عن سبب اختيار عيسى ابن مريم عليه السلام لينزل آخر الزمان، وملخص ذلك أن عيسى عليه السلام رُفع إلى السماء حيًا ولم يمت حتى الآن، ولن يموت حتى يبعثه الله آخر الزمان، فيرد الشبهات التي كثرت حوله في حياته وبعد رفعه إلى الله، ويجمع الناس على دين الإسلام الذي اختاره الله للناس، ولن يقبل دينًا سواه، وسينزل عيسى عليه السلام واحدًا من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم وداعيًا إلى الله وحده لا شريك له على ملة إبراهيم حنيفًا مما سيأتي بيانه- إن شاء الله- بشيء من التفصيل في لقاءات لاحقة.

ومن تمام الفائدة أن نشير إشارة سريعة إلى عقيدة الصلب والفداء عند النصارى، والتي أساسها الجهل بالله وبصفاته العليا وأسمائه الحسنى، وهذه العقيدة تقوم على توارث الخطيئة، وانتقالها من آدم إلى ذريته، وعجز الله عن مغفرتها -عياذا بالله- حتى اضطر أن ينزل بنفسه أو ينزل ولده البكر ليموت صلبًا ليطهّر البشرية من رجس الخطيئة التي انتقلت إليهم وتوارثوها عن أبيهم!!

والحقيقة أن هذا كلام لا يقبله عقل سليم ولا نقل صحيح، والقضية كلها جلّاها القرآن الكريم في آية واحدة، قال الله تعالى: «وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ» [طه: ١٢٢]، وقع آدم عليه السلام في الذنب بسبب الضعف البشري والنسيان الفطري، فلما ذكّره ربه تذكر وتاب واستغفر، فقبل الله توبته وهداه؛ لأن الله غفور رحيم، فلا ذنب إذن يُتوارث ولا مشكلة، وهذا الهراء الذي وقع فيه

النصارى من ضلالهم وتلاعب الشيطان بهم.

ثانيًا: ينزل عيسى لأنه بشر ورسول يموت في الأرض كما يموت البشر، ولأن الله قضى أن يكلم الناس في المهد وكهلا، وقد رُفع إلى السماء حيًا قبل الكهولة، وسيعود ليكلم الناس في الكهولة، والله على كل شيء قدير.

الأدلة على نزول عيسى عليه السلام:

وهي أدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة، ومن أقوال أهل العلم بل ومن الواقع المشاهد عند أهل الكتاب:

أولاً: الأدلة من القرآن الكريم:

١- قال الله تعالى: «وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ءَأَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» [الزخرف: ٥٧- ٦١].

والشاهد في هذه الآيات قوله تعالى: «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ للسَّاعَة» [الزخرف: ٦١]، وما تشير إليه الآية: «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ» بمعنى أنه بنزول عيسى آخر الزمان يُعلم قرب مجيء الساعة، وفي القراءة الأخرى: «وإنه لَعَلَم للساعة» بمعنى نزول عيسى أمارة من أماراتها، وبهذا قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي وقتادة، وقال القرطبي رحمه الله ناقلاً عن هؤلاء المتقدمين: «وإنه خروج عيسى عليه السلام، وذلك من أعلام الساعة؛ لأن الله ينزله من السماء قبيل قيام الساعة، وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بن دينار والضحاك: «وإنه لَعَلَم للساعة» أي: أمارة من أماراتها». [تفسير القرطبي ج٩].

وقد رجح ابن كثير رحمه الله هذا الاتجاه واستبعد ما عداه قائلا: «ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: «وإنه لَعَلَم للساعة» أي: أمارة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: «وإنه لعلم للساعة» أي: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم عليهما السلام قبل يوم القيامة، وهكذا روي عن أبي هريرة وابن عباس وأبي العالية وعكرمة والحسن وقتادة وغيرهم، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة إمامًا عدلاً وحكمًا مقسطًا». [تفسير ابن كثير ج٤].

ثانيًا: الأدلة من السنة النبوية:

هي كثيرة وكما ذكر ابن كثير وغيره بلغت حد التواتر؛ منها ما هو في الصحيحين، ومنها ما انفرد به مسلم أو البخاري، ومنها ما رواه أصحاب السنن أو المسانيد وغير ذلك، وسنذكر هذه الأحاديث أو بعضها عند الحديث عن صفة عيسى عليه السلام ووقت ومكان نزوله، وأعماله المختلفة، ومدة بقائه وأحوال العالم خلال وجوده فيما سيأتي من وقفات إن شاء الله ونكتفي الآن بذكر حديث واحد مما رواه ابخاري ومسلم: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ، والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحدٌ ، زاد في حديث صالح عن الزهري: ، وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها ، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم:) وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته (الآية [النساء]. وأخرجا من حديث ابن شهاب عن نافع مولى أبي قتادة الأنصاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ، وفي رواية ابن أخي ابن شهاب ، فأمكم ، وفي رواية ابن أبي ذئب عن الزهري ، فأمكم منكم ، وقال ابن أبي ذئب: تدري ما أمكم منكم؟ قلت: تخبرني. قال: فأمكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى، وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم (الجمع بين الصحيحين للحميدي (١٠/٣)

ثالثًا: بالرغم من وضوح الأدلة وصراحتها إلا أن هناك شبه آثارها بعض أتباع المدرسة العقلية التي أسسها الشيخ محمد عبده وسار على نهجها كثيرون، وهنا ننقل أقوال أهل العلم في الرد على هؤلاء ونختصر القول فيما يلي:

١- قال الإمام المحقق محمد ناصر الدين

الألباني: «واعلم أن أحاديث الدجال ونزول عيسى عليه السلام متواترة يجب الإيمان بها، ولا تغتر بمن يدعي فيها أنها أحاديث آحاد، فإنهم جهال بهذا العلم وليس فيهم من تتبع طرقها، ولو فعل لوجدها متواترة كما شهد بذلك أئمة هذا العلم كالحافظ ابن حجر وغيره، ومن المؤسف حقًا أن يتجرأ البعض على الكلام فيما ليس من اختصاصهم، لا سيما والأمر دين وعقيدة، وبرغم بعضهم أن روايات نزول عيسى بعد الدجال إنما هي من رواية وهب بن منبه وكعب الأحبار، وهذا اختلاق محض». [من تعليقات الشيخ على شرح العقيدة الطحاوية].

٢- وعقد الشيخ التويجري- رحمه الله- في كتاب المفيد «إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة»، فصولاً مطولة للرد على شبهات المنكرين لأحاديث نزول عيسى عليه السلام نجتزئ منه قليلاً لتمام الفائدة، قال رحمه الله: «وقد اشتملت الأبواب التي في ذكر نزول عيسى عليه السلام على خمسة وخمسين حديثًا مرفوعًا، أكثرها صحيح والباقي غالبه من الحسان، وجاء في ذلك آثار كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين، ذكرتها في أول الأبواب وفي أثنائها، ومع هذا فقد أنكر بعض الأهواء والبدع نزوله وزعموا أنه قد مات، وقد تبعهم على ذلك بعض المشايخ العصريين، وقد رأيت جوابًا لبعض أهل العلم أنكر فيه حياة المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وزعم أنه قد مات موتة عادية، وأنكر نزوله إلى الأرض في آخر الزمان حكمًا عدلاً. فخالف ما جاء بالكتاب وما تواترت به الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجمع عليه سلف الأمة. [راجع إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة: ١٢٨/٣-١٤٨].

وأخذ الشيخ التويجري في نقل أقوال من زعم اضطراب أحاديث نزول عيسى كما زعم أن ذلك هو قول علماء الحديث، ثم أخذ في نقل أقوال أهل العلم ردًا على مزاعم شلتوت ومن زعم زعمه، فقال: والجواب أن يقال: هذا غير صحيح، فإن علماء الحديث قد تلقوا الأحاديث الواردة في نزول عيسى عليه السلام بالقبول ودوَّنوها في كتب الصحاح والسنن والمسانيد، وذكروا مضمونها في كتب السنن، قال الإمام أحمد- رحمه الله- في «عقيدة أهل السنة والجماعة»: «والإيمان أن المسيح الدجال خارج، مكتوب بين عينيه كافر، والأحاديث التي جاءت فيه والإيمان بأن ذلك كله كائن، وأن عيسى ابن مريم ينزل فيقتله بباب لد...». وقال الطحاوي- رحمه الله- في العقيدة المشهورة: «ونؤمن بأشراط الساعة؛ من خروج الدجال، ونزول عيسى من السماء».

ويواصل الشيخ نقوله عن أهل العلم قائلاً: قال الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري رحمه الله في كتابه «مقالات الإسلاميين»، ما مجمله في عليه أهل الحديث والسنة: الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله وما جاء من عند الله وما رواه الثقات (إلى أن قال): «ويصدّقون بخروج الدجال وأن عيسى ابن مريم يقتله». انتهى.

وقال الإمام أبو محمد عبد الله بن أبي زيد القيرواني المالكي- رحمه الله-: «والإيمان بما ثبت من خروج الدجال، ونزول عيسى عليه السلام حكمًا عدلاً يقتل الدجال». انتهى.

وقال الإمام أبو أحمد بن الحسين الشافعي المعروف بابن الحداد في عقيدته: «وإن الآيات التي تظهر عند قرب الساعة من الدجال ونزول عيسى عليه السلام، والدخان والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، وغيرها من الآيات وردت بها الأخبار الصحاح؛ حقٌ».

وواصل الشيخ رحمه الله ذكر أقوال أهل العلم مثل ابن تيمية وابن القيم وابن قدامة المقدسي والقاضي عياض والإمام النووي والإمام المناوي وغيرهم كثير مما يضيق المجال بذكر أقوالهم، ومن أراد المزيد فليراجع الكتاب المشار إليه نسأل الله تعالى الهداية والتوفيق،والحمد لله رب العالمين.

نزول عيسى عليه السلام

الحلقة الثالثة

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

اختلاف الناس في توقيت نزول عيسى عليه السلام

الحمد لله الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات والأراضين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للخلق أجمعين، أما بعدُ:

فهذا لقاؤنا الثالث مع قصة نزول نبي الله عيسى ابن مريم في آخر الزمان، تحدثنا في المقال الأول عن بعض أسباب تخصيص عيسى ابن مريم بالنزول في آخر الزمان، ثم تحدثنا عن أدلة نزوله من القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال أهل العلم، وكيف رَدُّوا على منكري أحاديث عيسى والمهدي.

وقبل أن أبدأ حديثي معكم اليوم أحبُّ أن أشير من باب الإنصاف إلى ما يلي:

ذكرتُ أن الذين أنكروا أحاديث عيسى والمهدي هم أتباع مدرسة الشيخ محمد عبده- رحمه الله- ومنهم: الشيخ رشيد رضا- رحمه الله- بالرغم من جهوده التي لا تُنكر في نشر السنة وعلومها، وذكرتُ ردود العلماء على هذه المدرسة العقلية.

أما حديثنا اليوم: فنبدأ بعرض حقيقة اجتمع عليها أهل الأديان الثلاثة: اليهود والنصارى والمسلمون، ولكن..!

ويحسن بنا أن نقرأ أولاً كلام ابن القيم- رحمه الله- ثم ننظر ماذا بعد، قال ابن القيم: «والأمم الثلاث تنتظر منتظِرًا يخرج في آخر الزمان، فإنهم وُعدوا به في كل ملة» [إغاثة اللهفان ج٢ ص٣٣٨، ط مكتبة عاطف، بتحقيق حامد الفقي سنة ١٩٣٩م].

ويقول عن اليهود: «إنهم ينتظرون قائمًا من ولد داود النبي، إذا حرَّك شفتيه بالدعاء مات جميع أعدائه، وأن هذا المنتظَر- بزعمهم-: هو المسيح الذي وُعدوا به، وهم في الحقيقة ينتظرون مسيح الضلالة الدجال، فهم أكثر أتباعه، وإلا فمسيح الهدى عيسى ابن مريم عليه السلام سيقتلهم، ولن يُبقي منهم أحدًا»[إغاثة اللهفان ج٢ ص٣٣٨، ط مكتبة عاطف، بتحقيق حامد الفقي سنة ١٩٣٩م]..

ويقول رحمه الله: «والمسلمون ينتظرون نزول

عيسى ابن مريم من السماء، لكسر الصليب، وقتل الخنزير، وقتل أعدائه من اليهود، وعبَّاده من النصارى، وينتظرون خروج المهدي من أهل بيت النبوة، يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جورًا». اهـ. [إغاثة اللهفان ج٢ ص٣٣٨، ط مكتبة عاطف، بتحقيق حامد الفقي سنة ١٩٣٩م].

أما النصارى فينتظرون نزول عيسى ابن مريم الذي هو الله (في زعمهم) ليحملهم ويرتفع بهم فوق السحاب، أما أعداؤهم من المسلمين وغيرهم (يسمونهم الأشرار) فسيغرقون في بحيرة النار المتقدة بالكبريت، وسنعودُ إن شاء الله للحديث بالتفصيل عن عقيدة كل أمة وبيان الحق من الباطل فيها، لكن الذي أنبِّه إليه الآن أنه كما وقع الاختلاف في عقيدة نزول عيسى فقد وقع الاختلاف في توقيت نزوله، وهذا ما سنشرع في بيانه بعون الله فيما يلي:

أولاً: اضطراب أهل الكتاب في تحديد زمن عودة المسيح المنتظر:

يعتقد كثير من النصارى أن المسيح سيرجع بعد ألف سنة ثم يحكم العالم ألف سنة أخرى، وعلى ذلك اعتقدوا عودته على رأس الألف سنة الميلادية الأولى، ولكن المسيح لم يظهر كما توهموا فهدأت المسألة وتلاشت حتى بداية القرن الأخير من الألف الثانية يعني سنة ١٩٠٠٠م بدأت الدعوات تظهر من جديد واتفقت الصهيونية النصرانية مع الصهيونية اليهودية على تهيئة الأجواء لقدومه، والذي كانوا يتوقعونه مع نهاية الألف الثانية، وذلك بتجميع اليهود في أرض فلسطين وهي الأرض التي وُلد فيها المسيح، وسيعود إليها، وبدئ بالتخطيط لقيام دولة إسرائيل- وسيأتي مزيد بيان لهذا الموضوع لاحقًا إن شاء الله- وانتشرت هذه العقيدة الألفية لعودة المسيح في أوساط كثيرة في أمريكا وأوروبا ابتداءً من السياسيين والرؤساء والعامة وبخاصة في أمريكا، وقد ظهرت كتب تروِّج لذلك، ولاقت رواجًا هائلاً في كل الأوساط ومن أهم هذه الكتب: «دراما نهاية الزمن»، ومؤلفه «أوترال لوبرتس».

والثاني: كتاب «نهاية الكرة الأرضية العظيمة»، ومؤلفه: لندسي، «وقد ارتفع مستوى الإيمان بهذه العقيدة، وكثر الحديث عنها أثناء أزمة الخليج، واعتقد بعضهم أن حرب الخليج هي هرمجدون، وتأولوا كثيرًا من وقائعها على ما جاء في رؤيا يوحنا وأمثاله» [د. سفر الحوالي- الوعد الحق والوعد المفترى- ص٣٣، مكتبة السنة بالقاهرة ١٩٩٤م].

وأنت تلاحظ يا أخي أن كل هذه التوقعات والتخمينات قائمة على الرؤى والتأويلات التي ليس لها نصيب من الصحة، هذا إن استبعدنا سوء القصد والرغبة في تحقيق أهداف محددة من العلو والفساد في الأرض والرغبة في السيطرة وتحقيق مكاسب مادية على حساب الحقيقة، وهذا بلا شك حاصل.

ويؤكد كذلك كذب كل هذه التوقعات أنها لم تحدث؛ فقد توقعوها في نهاية الألف الأولى ولم تحدث، ثم توقعوها في نهاية الألف الثانية ولم تقع، وقالوا: حرب الخليج هي النهاية، وكذا، فماذا بعد؟ ومن جانب آخر لا نرى في الكتب المعتمدة في أيديهم ما يدل على هذا التحديد ولننظر بعضًا منها حتى لا نطيل ما جاء في مرقس ١٣ (٣٢- ٣٣): «وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفها أحد، لا الملائكة التي في السماء، ولا الابن، إلا الآب، فكونوا على حذر، واسهروا وصلوا؛ لأنكم لا تعرفون متى يجيء الوقت»، يعني متى يأتي وقت عودة المسيح وهو مرتبط بنهاية العالم.

وفي متى ٢٤/٣٦: «أما ذلك اليوم وتلك الساعة، فلا يعرفها أحد لا ملائكة السماوات، ولا الابن، إلا الآب وحده».

ثانيًا: استنساخ المسيح للتعجيل بعودته:

لم يتوقف عبث اليهود والنصارى على ما

ذكرنا من توقع عودته على رأس الألف عام كما سبق بيانه، بل وصل الهوس بهم إلى ظهور بعض المنظمات التي تتبنى فكرة استنساخ المسيح، وهم بهذا التفكير يشبهون من يصنع صنمًا من عجوة فإذا جاع أكله!!

يقول صاحب كتاب «المسيح المنتظر ونهاية العالم»: «ثمة منظمة وصفت نفسها بأنها لا تسعى إلى جني الأرباح صرحت بأنها ترمي إلى إقامة مشروع للتعجيل بعودة المسيح عن طريق استنساخ جسمه باستخدام التقنيات الناجحة في جمعية وزالين في اسكتلندا باستخدام الصبغة الجينية من خلية وحيدة ووضعها داخل بيضة بشرية وفق الخطوات التالية:

أ- زعموا أن بعض الكنائس تحتفظ ببقايا مقدسة من جسم المسيح (دم- شعر)، وهم يقومون بالحصول عليها لاستخراج الصبغة.

ب- سيتم زرع البيضة الخاصة بالمسيح بعد إعدادها في رحم امرأة شابة عذراء، تطوعت من تلقاء نفسها بحضانة البيضة في رحمها وولادة الطفل ولادة عذرية ثانية. [تعالى الله عما يقولون].

ج- إذا سار كل شيء حسب الخطة فستكون الولادة في الخامس والعشرين من شهر كانون ديسمبر عام ٢٠٠١م) [راجع كتاب المسيح المنتظر ونهاية العالم، عبد الوهاب عبد السلام طويلة، ص٢٧٥ وما بعدها، ط. دار السلام بالقاهرة، سنة ٢٠٠٤م].

وقد حمل المشروع دليل كذبه وفشله حين حدد هذا التاريخ باليوم والعام، وها نحن في يناير عام ٢٠١٤م ولم يحدث شيء مما قالوا، فهم ينتقلون من كذب إلى كذب، وينتقلون بين باطل إلى باطل أشد، وقد أشارت صحيفة الشرق الأوسط الصادرة في ٢٦ شعبان عام ١٤٢١هـ الموافق ٢٠٠٠/١١/٢٢م إلى هذا الموضوع فقالت: «إن جماعة ينتمون إلى طائفة مسيحية أمريكية يخططون للعمل على تعجيل عودة المسيح إلى الأرض عن طريق استنساخه من لحم ودم، ويتوقعون أن يبصر المستنسَخ النور في ميلاد العام المقبل (يعني ٢٠٠١م)، فأين هذا المستنسخ؟!

ثالثًا: وقوع بعض المنتسبين للإسلام فيما وقع فيه أهل الكتاب:

الحقيقة المؤسفة أن من المسلمين من تأثر بما وقع فيه أهل الكتاب من تأويلات وإنزال علامات الساعة على الواقع، وتحديد عمر الأمة الإسلامية، وظهرت كتب كثيرة في هذا الموضوع وجدت رواجًا عند كثير من الناس بسبب حالة الضعف والهوان التي وصلت إليها أمة الإسلام، وتكالب الأمم عليها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وبعض هؤلاء الكُتاب اجتهد وأخطأ، وبعضهم تعمد الكسب المادي وجني المال واستغلال حالة الناس إلى مخرج ومنفذ، وبعضهم تعمد التحريف والكذب والافتراء، ونحن الآن لسنا بصدد الرد عليهم ولا مناقشتهم، فهذا أمر يطول، وقد كفانا مؤونة ذلك الواقعُ الذي دحض افتراءاتهم وكذبهم، وإخواننا من أهل العلم الذين ردُّوا عليهم. [ممن تولى الرد على هؤلاء: فضيلة الشيخ محمد إسماعيل المقدم، وفضيلة الشيخ أحمد أبو العينين، وفضيلة الشيخ محمد بيومي، حفظهم الله جميعًا].

رابعًا: عقيدة أهل السنة في نزول عيسى ابن مريم

سبق أن ذكرنا عقيدة أهل السنة في نزول المسيح وملخصها أن المسيح عليه السلام ينزل في آخر الزمان دون تحديد لوقت معين كما دلت على ذلك الأدلة من القرآن والسنة.

ومنها قوله تعالي : «وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ» [الزخرف :٦١] أي : علامة عليها ، وقوله صلى الله عليه وسلم: «والذى نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد» [صحيح البخاري / ٣٢٦٤].

وإلى لقاء قريب بإذن الله.

القصة في كتاب الله

نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان وعلاقته بالواقع الذي نعيشه

الحلقة (٤)

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين الذي بشر به الرسل أجمعين، وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعدُ: فقد انتهى بنا اللقاء السابق إلى اتفاق الأمم الثلاث اليهود والنصارى والمسلمون على انتظار منتظَر واحدٍ يخرج في آخر الزمان، فإنهم وُعِدُوا به في كل ملة؛ فاليهود ينتظرون المسيح الدجال الذي يسمونه «ملك السلام»، والذي يهيئون لخروجه، ولكنهم لا يسمونه الدجال، والمسلمون والنصارى يتفقون على أنه سيكون عيسى ابن مريم، لكن النصارى يعتقدون أنه الله، والمسلمون يعتقدون أنه عبد الله ورسوله.

ويتفق اليهود والنصارى على كونه من بني إسرائيل، وسيكونون جنده وأعوانه، وستكون قاعدة ملكه القدس، والإنجيليون على وجه الخصوص وهم طائفة البروتستانت من النصارى وقد وُصِفوا بالإنجيليين؛ لأنهم يؤمنون بحرفية التوراة، ومؤسس هذه الفرقة هو مارتن لوثر الألماني الذي انشق عن الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر الميلادي، وأنكر كل تعريفات البابا وتفسيراته للكتاب المقدس، وقد هاجر كثير منهم إلى أمريكا بعد اكتشافها وشكّلوا فيها أغلبية كبيرة، فصاروا يشكلون ما يزيد على ٦٢٪ من سكان أمريكا، وصارت لهم سطوة وكلمة مؤثرة وفعل مؤثر في السياسة الأمريكية.

وهم يعتبرون أن دعم قيام إسرائيل في فلسطين واجب ديني مسيحي، وكذلك دعم توسعها والاعتراف بالقدس عاصمة لها، وكذلك تمويل الاستيطان اليهودي في الأرض المحتلة، وذلك لأنهم يؤمنون بثلاث إشارات إلهية يجب أن تتحقق قبل أن يعود المسيح- هذا بزعمهم- (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون):

١- قيام دولة إسرائيل من النيل إلى الفرات.

٢- امتلاك مدينة القدس التي ستكون مقرًا لنزول المسيح.

٣- إعادة هيكل سليمان المفقود- والذي يسعى اليهود في زعمهم إلى إعادته على أنقاض المسجد الأقصى- (لا مكّنهم الله من ذلك).

وأنت تلاحظ -أخي القارئ- معي من خلال العرض الموجز الذي قدمته لك مدى ارتباط عودة المسيح عند اليهود والنصارى بقضية فلسطين وأطراف الصراع فيها، ونستطيع تلخيص الأمر في النقاط التالية:

١- قيام إسرائيل وتوسعها واستمرارها في المحافظة على أمنها: عقيدةٌ توراتية عند النصارى

قبل اليهود.

٢- العمل الدءوب منذ قرون على إنشاء إسرائيل وعلى المحافظة عليها بعد إنشائها وإلى أن ينزل المسيح كما يزعمون.

وبصرف النظر عن صحة اعتقادهم هذا أم بطلانه، وهو لا شك باطل؛ وسنبين بطلانه إن شاء الله فيما سيأتي، لكن اسمح لي أولاً بلمحة تاريخية لن أطيل فيها تكشف لنا ظهور الصهيونية المسيحية قبل اليهودية؛ لأن الاعتقاد السائد أن هرتزل هو أول مَن دعا إلى قيام دولة إسرائيل ثم تلاه وعد بلفور الشهير، وهذا ليس هو الصحيح المطلق في المسألة، ولكن الحقيقة نلخصها فيما يلي:

١- بدأت الدعوة إلى قيام إسرائيل في فلسطين تظهر على يد علماء الدين المسيحي البروتستانتي، ثم رجال السياسة البريطانية سنة ١٥٦٢م.

٢- ثم على يد السياسي البريطاني هنري منسن ١٦٢١م.

٣- ثم السياسي البريطاني كروميل ١٦٤٩م.

٤- ثم الفرنسي فيليب حنتل ١٦٥٦م.

٥- ثم تبناها اللورد الإنجليزي شافنسبري، وجلادستون سنة ١٨٨٢م، ثم بالمرستون وزير الخارجية البريطاني سنة ١٨٩٥م.

٦- كل هذه المراحل سبقت دعوة هرتزل الشهيرة، والتي تبنى فيها قيام الدولة اليهودية في فلسطين، ودعا اليهود إلى العمل على تحقيق ذلك في مؤتمر بال الشهير سنة ١٨٩٧م، ثم تدافعت الجهود التي تمخضت عن وعد بلفور المشهور سنة ١٩١٧م، وبلفور هذا «كان يؤمن إيمانًا عميقًا بالتوراة، ويقرؤها ويصدق بها حرفيًا، ونتيجة لإيمانه أصدر هذا الوعد». هذا ما ذكرته عنه صاحبة سيرته الذاتية، وهي ابنة أخته. [انظر كتاب: القدس للدكتور سفر الحوالي ص٤٥، ط مكتبة السنة بالقاهرة سنة ١٩٩٤م].

سر تأييد أمريكا المطلق لإسرائيل:

هذا ونحن لا زلنا نذكر أحداث ١٩٤٨م وما تلاها إلى يومنا هذا، والواقع على الأرض يكفيني مؤنة ذكر تفاصيل تاريخية كثيرة، ولعل القارئ الكريم اكتشف معي الآن سر تأييد أمريكا المطلق لإسرائيل، وأحب أن أزيد هذه القضية إيضاحًا؛ لظني أنها تخفى على كثير من الناس، فقد برز دور أمريكا واضحًا في قضية إسرائيل بسبب هجرة البروتستانت إليها، وإلى الآن ما يزالون هم أكثر سكان أمريكا، وقد خرجوا من أوربا بروح التدين التوراتي، فلما دخلوا أمريكا قالوا بأن هذا خروج مثل خروج بني إسرائيل ودخولهم إلى الأرض المقدسة (في الزمن القديم)، وأخذوا يسمون المدن والمناطق في أمريكا بأسماء من التوراة، واعتقدوا أن هذه الأرض البِكْر بشرى بشرهم الله بها في الدنيا.

وتم تأسيس المجتمع الأمريكي على أساس بروتستانتي توراتي، وقرر الرئيس الأمريكي الأسبق كارتر هذه العقيدة بوضوح فقال: «لقد آمن بذلك سبعة رؤساء أمريكيين، وجسَّد هذا الإيمان بأن علاقات الولايات المتحدة الأمريكية مع إسرائيل هي أكثر من علاقة خاصة، بل هي علاقة فريدة؛ لأنها متجذرة في ضمير وأخلاق ودينِ ومعتقدات الشعب الأمريكي نفسه، لقد شكَّل إسرائيلَ والولايات المتحدة الأمريكية مهاجرون طليعيون ونحن نتقاسم تراث التوراة»[انظر: البعد الديني في السياسة الأمريكية، د. يوسف حسن، ط مركز دراسات الوحدة العربية سنة ١٩٩٠م].

وهذا الذي يقوله كارتر هو عقيدة كثير من رؤساء أمريكا على مر تاريخها الطويل، ولا فرق بينهم ممن ينتسب إلى الحزب الجمهوري أو الحزب الديمقراطي، وكذلك لا فرق بين الساسة ورجال الدين، وأهل الفن ورجال الاقتصاد.

وخشية الإطالة في بحثنا أذكر فقط بعض الأمثلة المحدودة، فهذا الرئيس الأمريكي السابق ريجان يقول في حديث له مع المدير التنفيذي للوبي اليهودي في أمريكا (إيباك): «حيثما أتطلع إلى نبوءاتكم القديمة في العهد القديم وإلى العلامات المنبئة بهرمجدون أجد نفسي متسائلاً عما إذا كنا نحن الجيل الذي سيرى ذلك واقعًا ولا أدري إذا كنت قد لاحظت مؤخرًا أيًا من هذه النبوءات، لكن صدقني أنها تنطبق على زماننا الذي نعيش فيه».

وقال أيضا: «إنني دائمًا أتطلع إلى الصهيونية كطموح جوهري لليهودي، وبإقامة دولة إسرائيل تمكن اليهود من إعادة حكم أنفسهم بأنفسهم في وطنهم التاريخي ليحققوا بذلك حلمًا عمره ألفا عام».[المصدر السابق].

لاحظ أن كلمة «صهيونية» التي يعتز بها ريجان ترمز لدولة داود؛ لأنها مشتقة من جبل صهيون في القدس والذي بنى عليه داود عليه السلام بيته بعد انتقاله من الخليل، وهي شعار الحركة السياسية التي ترمي إلى إقامة إسرائيل في فلسطين لإعادة مملكة داود- كما يزعمون-، وجاء كلينتون ليعلن بصراحة: «إنني أعتقد أنه يتوجب علينا الوقوف إلى جانب إسرائيل في محاولاتها التاريخية لجمع مئات الألوف من المهاجرين لمجتمعها ودولتها»[انظر: مجلة المراقب العدد الأول ص٩، ١٠].

وللحديث بقية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإلى لقاء قريب بحول الله وقوته.

القصة في كتاب الله

نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان

٥

عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين ورحمة الله للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد رأينا في اللقاء السابق كيف اعتمدت الحركة الصهيونية العالمية النصرانية في سعيها لإقامة دولة إسرائيل عقيدة منسوبة للتوراة، وكيف استغل اليهود ذلك في التأثير على النصارى الذين يؤمنون بالعهد القديم كجزء أساس من كتابهم المقدس، وخصوصًا بعد ظهور البروتستانت الذين يؤمنون بحرفية التوراة، وكيف ساعد اكتشاف أمريكا وهجرة البروتستانت إليها في ترسيخ هذا المفهوم حتى تأثر به رؤساء أمريكا فضلاً عن غيرهم ولا يخفى على مطلع اتساع اللوبي اليهودي وتعاونه مع الإنجيليين الأمريكان حتى صار النفوذ اليهودي يؤثر في اختيار الرئيس الأمريكي، ولا يهم انتماؤه الجمهوري أو الديمقراطي طالما سيخدم قضية إسرائيل، هذا فضلاً عن اتساع النفوذ اليهودي في الاقتصاد والإعلام بأشكاله المختلفة.

ويكفي أن تعلم أن العين الموسومة على الدولار فوق قمة الهرم هي إحدى رموز الماسونية اليهودية، والتي ترمز للدجال، وعندما نتحدث عن أثر التوراة في السياسة الأمريكية والأوروبية والإسرائيلية فنحن لا نغفل جانب الانتهازية والعقلية الاستعمارية التي تحكم تصرفات الغرب وأمريكا، وكذلك نعلم أن اليهود أشبه الناس بالشيطان على الأرض، وقد لعنهم الله على لسان داود وعيسى ابن مريم، ولعنهم في القرآن الكريم، وهم لا يتورعون عن فعل أي شيء لتحقيق مصالحهم المادية، ومنها استخدام التوراة المحرفة وهم يعلنون ذلك صراحة دون مواربة؛ فتلمودهم الذي كتبوه بأيديهم يقول: «يجب على كل يهودي أن يسعى لأن تظل السلطة على الأرض لليهود دون سواهم، وقبل أن يحكم اليهود نهائيًا باقي الأمم يجب أن تقوم الحرب على قدم وساق، ويهلك ثلثا العالم، وسيأتي المسيح الحقيقي ويحقق النصر القريب، وحينئذ تصبح الأمة اليهودية غاية في الثراء؛ لأنها تكون قد ملكت أموال العالم جميعًا ويتحقق أمل الأمة اليهودية بمجرد قيام إسرائيل (من كتاب الخلفية التوراتية للموقف الأمريكي، لإسماعيل كيلاني ص٨٩، المكتب الإسلامي سنة ١٩٨٩م). حتي تكون هي الأمة المتسلطة على باقي الأمم عند مجيء المسيح».

انظر فيم يفكر اليهود؟! تفكيرهم مادي بحت، ألم يعبد أجدادهم العجل الذهبي من دون الله؟!

واستطاع اليهود بدهائهم ومكرهم أن يحكموا العالم من خلف الستار؛ تمهيدًا لحكمه علانية كما يدعون عند نزول المسيح الذي ينتظرونه وهو الدجال- إن شاء الله- والذي سيتبعه سبعون ألف منهم من يهود أصفهان حين ينزل هناك في بداية نزوله، أما الذي سينزل في دمشق فهو عيسى ابن مريم عليه السلام، وسيأتي تفصيل ذلك.

وقد أشرت في مقالي السابق أن أهل الباطل يعملون بجد لتحقيق باطلهم كما يعتقدون، ويجندون أهل الأرض لمشروعهم ويتفقون رغم تفرقهم، أما أهل الحق المسلمون فيتفرقون رغم اتفاقهم ويهملون حقهم الصريح الصحيح، وإذا كان قادة أمريكا وإسرائيل ومن شايعهم لا يستنكفون عن الانتساب إلى عقيدة التوراة والعمل لها، فإن كثيرًا من حكام المسلمين يستنكفون من الإسلام وأهله بل يحاربون الإسلام

وأهله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ما علاقة واقعنا بالحديث عن نزول عيسى عليه السلام؟

ألا ترى أن إقامة إسرائيل في فلسطين هو تمهيد لنزول عيسى كما يعتقدون؟ وكما بينا في المقال السابق، وبالتالي فإن ما يحدث وحدث في العراق وفي فلسطين وفي لبنان وفي سوريا وتونس ومصر من أجل الحفاظ على أمن إسرائيل وبقائها، فمحاصرة مصر اقتصاديًا ومائيًا وعسكريًا، واختراقها اجتماعيًا، وبث الفتنة والوقيعة، ونشر البغضاء بين أفراد المجتمع حتى تحدث القلاقل والحروب وتنتشر الفوضى الخلاقة التي تتبناها أمريكا والتي لا تثمر إلا الفوضى ثم الفوضى.

ونحن لا نشك لحظة أن اليهود يستخدمون الدين للعلو والسيطرة؛ لأنهم كما أخبرنا الله يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله وهم يستخدمون الدهاء والمكر، ويغررون بكثير من النصارى ويضلونهم، ومع ذلك فمن الغرب وأمريكا من التقت مصالحه مع اليهود ووجد ضالته فيهم للحفاظ على مصالحه، ولاستمرار دفق البترول والمواد الخام، وإشباع رغبته في السيطرة والاستبداد، وأحسن القول قول ربي حين قال سبحانه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، وللأسف هذا الصنف الأخير هو الذي بيده القيادة الآن وهو الذي يكذب على الله، أفلا يكذبون على الناس؟ بلى يكذبون ويعتبرون غيرهم خدمًا لهم، هذا وقد صنفهم القرآن إلى قسمين أميين وهم الكثرة وقادة في التحريف، فقال عن الصنف الأول: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]، هؤلاء ضالون وقعوا فريسة لهؤلاء الذين قال الله عنهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

الفرق بين عقيدة اليهود والنصارى في المسيح:

هناك فروق جوهرية بين اليهود والنصارى في اعتقادهم في المسيح في مولده وحال حياته وعند رفعه وحال نزوله، وحتى لا نكرر كلامًا سبق أن ذكرناه سأقف الآن عند موقفين نحتاج إليهما الآن:

الأول: موقف اليهود من رفعه.

الثاني: موقفهم عند نزوله.

بالنسبة لاختلاف اليهود والنصارى في المسيح حين رفعه الله إليه، وهذا اعتقاد المسلمين، أما اليهود فيدعون أنهم قتلوه وصلبوه لأنهم لا يؤمنون أنه رسول الله، بل يثير الفتنة ويستحق القتل وهكذا أقنعوا الحاكم الروماني حتى قتل عيسى وصلب كما يزعمون، والنصارى يعتقدون أن اليهود قتلوا إلههم أو ابن إلههم ودمه في أعناقهم إلى يوم القيامة.

والأمر الثاني: وهو نزول عيسى آخر الزمان فيعتقد اليهود والنصارى أنه من أبناء داود وسينزل في آخر الزمان في القدس لكنهم يختلفون في النتيجة، فالنصارى يرون أنه سيكون لهم وينصرهم ويقتل ما سواهم من اليهود والمسلمين وغيرهم.

واليهود يرون أنه سيكون لهم ويقتل ما عداهم من النصارى والمسلمين وغيرهم.

مناقشة هذين الأمرين:

من المفترض أن تكون العداوة قائمة ومستمرة إلى يوم القيامة بين اليهود والنصارى، وأن يُبغض النصارى اليهود بغضًا أبديًا؛ لأنهم قتلوا إلههم ومعبودهم وكفروا به، ولذلك سياتي في آخر الزمان ليقتلهم، وقد كانت فعلاً العداوة قائمة حتى بداية القرن السادس عشر الميلادي فماذا حدث؟

أقول: كانت العداوة مستمرة بين الطائفتين وكانت الكنيسة البابوية في روما تقود هذه العداوة وتستمر في لعن اليهود وينسبون إليهم كل شر، ومن طرائف هذا العداء أن وباء خطيرًا انتشر في أوربا فقتل ثلث سكان القارة وأطلقوا عليه «الطاعون الأسود»، فأعلن بابا الفاتيكان في منشور رسمي عُمم في كافة أنحاء أوربا أن سبب هذا الطاعون هم اليهود، وقامت حملات شديدة تزعمها البابا لتنظيف المجتمعات الأوربية من اليهود، واستمرت هذه الحملة ثلاثة قرون الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر للميلاد، لكن هذه العداوة تتلاشى شيئًا فشيئًا بعد ظهور المذهب البروتستانتي واكتشاف أمريكا، وأخذ البروتستانت يعملون بدهاء واليهود من خلفهم ولعل البروتستانت صنيعتهم حتى أعلنت الكنيسة البابوية مؤخرًا براءة اليهود من دم المسيح، وتغلبت المصالح المادية على العقيدة الدينية لأنها هشة.

أما بالنسبة لمسألة اختلافهم فيما سيفعله المسيح حال نزوله فجمعهم الحقد والحسد ضد المسلمين، واتفقوا على تأجيل الحديث والخوض في تفاصيل نزول المسيح والتعاون والاهتمام لتهيئة الأجواء لنزوله، فإذا نزل فسنرى هل هو الذي يؤمن به اليهود أم النصارى؟

وللحديث بقية إن شاء الله وإلى لقاء لنجيب على سؤال مهم: هل لليهود حق ديني شرعي في فلسطين؟

والحمد لله رب العالمين.

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، وأرسل رسوله محمدًا مبشرًا ونذيرًا، وداعيًا إليه بإذنه وسراجًا منيرًا. وبعدُ:

حديثنا عن القرآن كلام الله الذي نزل به الروح الأمين جبريل على قلب النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال تعالى: «وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ» [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥]، وقد أردت في عجالة أن أقدم بيانًا مختصرًا لشرف تلاوة القرآن وأنواع هذه التلاوة، وعلاقة ذلك كله بتدبر القرآن الكريم، وبيان الغاية منه:

أولاً: تلاوة النبي صلى الله عليه وسلم للقرآن:

بزغ فجر دعوة الإسلام بنزول قوله تعالى: «اقرأ»، فكانت النبوة ثم استعلنت بـ «يا أيها المدثر»، وظل القرآن يواكب الدعوة معلمًا وموجهًا ومفسرًا ومثبتًا للنبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ومشرعًا إلى أن نزل قوله تعالى: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» [المائدة:٣]، وقوله تعالى: «إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ» [النصر:١]، وقوله تعالى: «وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ» [البقرة:٢٨١]، وسيظل القرآن هاديًا ومرشدًا وملهمًا طالما وجد قلوبًا تعقل وآذانًا تسمع، وأعينًا تبصر، وأنفسًا تخلصت من حبِّ الدنيا وكراهية الموت، وصارت تواقة لتطبيق شرع الله في الأرض، ذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هذا هو كتاب الله الخالد الذي أنزله على نبيِّه الخاتم ورسوله إلى الناس كافة، فلا كتاب صحيح النسبة إلى الله غير القرآن، ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، فمن رام الفلاح والنجاح والفوز في الدارين فلا طريق له غير ذلك.

أولاً: بعض الأغراض المختلفة لتلاوة القرآن التي أمر الله بها المؤمنين:

١- تلاوة التعبد والتبتل:

في مجال التعبد والتبتل، قال الله سبحانه لنبيه: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا» [المزمل:١- ٤]، وهذا الترتيل للقرآن وقيام الليل من أكبر العون للنبي صلى الله عليه وسلم على تحمُّل أعباء الدعوة إلى الله في مواجهة المعاندين لها، وهذا واضح في قوله تعالى بعدها: «إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا» [المزمل:٥]، إلى أن قال الله: «وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا» [المزمل: ١٠، ١١].

ومثل ذلك ما جاء في ختام سورة «الإنسان» من قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا» [الإنسان: ٢٣- ٢٦].

وهذا في القرآن كثير، والمقصود هو تثبيت فؤاد النبي وإعانته على مواجهة صلف المشركين وغرورهم، قال الله سبحانه: «كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا» [الفرقان:٣٢].

٢- تلاوة الدعوة والتبليغ:

قال الله عز وجل: «وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا» [الكهف:٢٧]، وقال تعالى: «وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ» [الكهف:٢٩]، بل أمر الله نبيه أن يصبر على إبلاغهم

هذا بكل وسيلة، وأن يجاهدهم به، قال الله تعالى: «فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا» [الفرقان:٥٢] أي: لا تطعهم في الكف عن الدعوة إلى الله وإبلاغهم هذا القرآن، ولا تجعلهم يثنونك عن ذلك، وجاهدهم بإبلاغهم القرآن جهادًا كبيرًا.

٣- تلاوة التزكية والتعليم والبيان:

قال الله تعالى: «لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ» [آل عمران:١٦٤]، ويدخل في هذا النوع الدعوة إلى مكارم الأخلاق.

٤- تلاوة التشريع وبيان أحكام الحلال والحرام:

قال الله تعالى: «قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا» [الأنعام:١٥١]، إلى غير ذلك مما فصَّله الله سبحانه وتعالى من وصايا وأحكام في العقيدة والعبادات والأخلاق، وما أمر الله به من شرائع وأحكام، وما نهى عنه من فواحش وآثام.

٥- تلاوة أخبار السابقين:

قال الله تعالى: «تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [القصص: ٢، ٣]، إلى غيره من قصص السابقين وسِيَر المرسلين؛ لأنهم جميعًا مرسلون من عند رب العالمين، وبيَّن الله الحكمة من ذلك فقال سبحانه: «لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» [يوسف:١١١].

والحاصل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتلو القرآن حق تلاوته عبادة وأخلاقًا، وكان القدوة لأمته والمثل الأعلى لهم.

ثانيًا: أحوال الناس في تلاوتهم للقرآن:

لا شك أن تلاوة القرآن الكريم تنقسم إلى قراءة لفظية، وقراءة حكمية أو معنوية، والقراءة اللفظية تهتم بالألفاظ وحروفها، والقراءة أو التلاوة الحكمية أو المعنوية تهتم بالحدود والأوامر والنواهي وتطبيقاتها، وهي المقصودة من إنزال القرآن والغاية منه، والقراءة الأولى أو التلاوة اللفظية وسيلة لها، والسعيد من جميع بين التلاوتين، كما قال تعالى: «ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ» [البقرة:١٢١].

فنفهم من الآية الكريمة أن هناك مجرد تلاوة وهناك (حق تلاوة)، كما أن هناك (إيمان)، وهناك (حق الإيمان)، أو (المؤمنون حقًا)، ولقد أثنى الله على أهل القرآن الذين يتلونه ويعملون به فقال سبحانه: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ» [فاطر:٢٩]، قال العلامة السعدي في تفسيره: «أي يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدِّمون عليه ما يخالفه من الأقوال، ويتلون القرآن حق تلاوته، فهذا ابن مسعود رضي الله عنه يقول: كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات من القرآن لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن».

وقال أبو عبد الرحمن السُّلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يأخذون من رسول الله عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قال: فتعلمنا العلم والعمل جميعًا».

ولقد صنَّف النبي صلى الله عليه وسلم الناس مع تلاوة القرآن تصنيفًا بليغًا وضرب لهم الأمثال فقال: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة: ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة: لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة: ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة: ليس لها ريح وطعمها مر». [متفق عليه].

وهذا الحديث الكريم يبين لنا أن الذي في القمة المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به، فهذا خير الناس كما جاء في الحديث الصحيح عن عثمان بن عفان رضي

أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يأخذون من رسول الله عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل.

الله عنه: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه». رواه البخاري، فهذا الذي جمع بين التلاوة اللفظية والتلاوة الحكمية المعنوية، ومن الناس من لا يستطيع تلاوة القرآن لأيّ سبب من الأسباب كأن يكون أعجميًا أو أميًا أو لا يتقن القراءة والتعلم، لكنه يؤمن بالقرآن، ويحل حلاله ويحرم حرامه، فهذا مؤمن في المنزلة التالية، وهناك من يقرأ القرآن لا يجاوز حنجرته (تراقيه) كالمنافقين والخوارج وأهل البدع من الروافض وغيرهم، وهؤلاء في وادٍ والقرآن في وادٍ آخر، وهناك من أهل المعاصي من يهتم بقراءة الألفاظ والحروف وهو باق على معاصيه من أكل الحرام وفعل الحرام بأشكال وأنواع متباينة ومختلفة، وهؤلاء تأثرهم بالمعاني ضعيف، فالقراءة اللفظية إذن يشترك فيها البار والفاجر والمؤمن والمنافق.

ثالثًا: تدبر القرآن:

قال الله تبارك وتعالى: «كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ» [ص:٢٩]، قال الإمام الحسن البصري رحمه الله: «نزل القرآن ليُتَدبر ويُعمل به، فاتخذوا تلاوته عملاً»، أي: اتخذ كثير من الناس تلاوة القرآن هي الشغل الشاغل عنده دون النظر في المعاني وفهمها على الوجه الذي يؤدي إلى العمل بها كما أمر الله. ويقول ابن القيم رحمه الله في مدارج السالكين: «وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه، وجمعُ الفكر على تدبره وتعقله، وهو المقصود من إنزاله لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر، فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها، وعلى طرقاتها وأسبابها وغاياتها وثمراتها، ومآل أهلها، وتستل (تضعُ) في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا عن الآخرة، وتحضره بين الأمم، وتبصره مواقع العبر إلى أن قال: وبالجملة تعرِّفه الربَّ المدعو إليه، وطريق الوصول إليه وما له من الكرامة إذا قدم عليه، وتعرِّفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه». اهـ. مختصرًا.

ويقول رحمه الله في كتابه الفوائد: «وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين، وتعطيل المعطلين، أشهدك ملكًا قيومًا فوق سماواته مستويًا على عرشه يدبر أمر عباده، يأمر وينهى، ويرسل الرسل، وينزل الكتب، ويرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويُعطي ويمنع، ويذل ويخفض ويرفع، ويرى من فوق سبع، ويسمع ويعلم السر والعلانية فعّال لما يريد، موصوف بكل كمال منزّه عن كل عيب، لا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع عنده إلا بإذنه، ليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع.

وهكذا ترى خطاب القرآن يعرِّفك بالله وأسمائه وصفاته، ويعرفك بنعمه وإحسانه وباقواله وأفعاله، ويطلعك على شرعه وأمره ونهيه؛ فتحبه وتعظمه وتعبده.

وإلى هذا المعنى يشير ابن القيم رحمه الله في موضع آخر من كتابه الفوائد فيقول: «فإذا شهدت القلوب من القرآن ملكًا عظيمًا رحيمًا جوادًا كريمًا جميلاً، هذا شأنه، فكيف لا تحبه، وتتنافس في القرب منه، وتنفق أنفاسها في التودد إليه، ويكون أحب إليها من كل سواه، ورضاه آثر عندها من رضا كل ما سواه؟! وكيف لا تلهج بذكره، ويصير حبه والشوق إليه والأنس به هو غذاؤها وقوتها ودواؤها بحيث إن فقدت ذلك فسدت وهلكت، ولم تنتفع بحياتها». اهـ.

وهكذا فحياة القلوب باتصالها بعلام الغيوب، والقرآن هو النجاة، وهو الصلة بين الله وعباده، ويكفي العبد الفقير شرفًا أنه حين يقرأ القرآن فهو يتصل بالله الذي بذكره تطمئن القلوب.

اللهم اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وهمومنا، وارزقنا تلاوته على الوجه الذي يرضيك عنا، واجعلنا من الذين يقيمون حروفه وحدوده، آمين. والله الموفق.

من معالم البركة في شهر رمضان

سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدُّك، ولا إله غيرك، الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرة وأصيلاً... وبعد:

فإن الحديث عن البركة حديث ذو شجون ومطلب عزيز تتطلع إليه النفوس وتهفو إليه الأفئدة في زمن افتقدنا فيه البركة في كل شيء، والبركة جند من جنود الله يضعها حيث يشاء لعبد من عباده، فإذا وُضعت في المال كثّرته، وإذا وُضعت في الولد أصلحته، وإذا وُضعت في البدن قوّته، وإذا وُضعت في الوقت عمّرته، وإذا وُضعت في القلب أسعدته.

البركة من الله

فالبركة إذن من الله، والله ينزلها من السماء ويضعها في الأرض، يبارك الله سبحانه في الأشياء المادية فتنمو وتزيد، ويبارك في الأشياء المعنوية فتزكو وتطهر وتكون رحمة وهداية، وقد بيّن الله في كتابه الكريم أنه خَلَقَ الأرض، وبارك فيها، كما وضع البركة في رسله وكتبه وعباده الصالحين، ووضعها في الأمكنة التي خصها الله سبحانه بأنواع من البركة، ونحاول في هذه العجالة أن

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

نتلمس بعضها، علَّنا نصيب منها بفضل الله:

أولاً: شهر رمضان شهر مبارك

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتاكم رمضان؛ شهر مبارك، فرض الله عز وجل عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب السماء، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه مردة

الشياطين؛ لله فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حُرم». (صحيح النسائي: ٢١٠٥).

وبتأمل هذا الحديث الشريف نلاحظ ما يلي:

١- وصف النبي صلى الله عليه وسلم شهر رمضان بـ «المبارك».

٢- ومن علامات بركته:

أ- فرض الله صيامه.

ب- تفتح فيه أبواب السماء وتغلق فيه أبواب الجحيم. وفي رواية أخرى عن عتبة بن فرقد: قال عليه الصلاة والسلام: «تفتح أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب النار». ولعل هذه الرواية تفسِّر قوله في الحديث السابق: «تفتح فيه أبواب السماء». فيكون المقصود بـ«تفتح أبواب السماء» أي: أبواب الجنة، ولو جمعنا بين الروايتين فلا بأس، فتفتح أبواب السماء لقبول الدعاء والعمل الصالح بجمع الأمرين، وهو أعمُّ، والله أعلم.

وفي رواية عتبة: جاء قوله صلى الله عليه وسلم: «يا باغي الخير هلم، ويا باغي الشر أقصر». وفيها حث على الاجتهاد في الطاعة والعبادة، ومنها الدعاء، وهذا أيضًا جاء في صحيح سنن النسائي للإمام الألباني رحمه الله برقم (٢١٠٦).

ج- ومن معالم البركة أيضًا أن مَرَدَة الشياطين تُغل في هذا الشهر، فيقل الشر ويكثر الخير وأهله، والحمد لله.

د- ومن معالم البركة الواردة في حديث أبي هريرة المتقدم أن في رمضان ليلة هي خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حُرم، ولا شك أن هذه الليلة المقصودة هي ليلة القدر، وقد سماها الله تصريحًا بالليلة المباركة، فقال تعالى: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ» (الدخان:٣).

ولا شك أن المشار إليه بقوله: «أنزلناه» هو القرآن الكريم وهناك سورة كاملة في القرآن الكريم تسمى سورة «القدر» جاء فيها: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ» (القدر:١-٥).

فهذه هي الليلة المباركة وهي ليلة القدر والشرف العظيم، وقد وصفها الله بأنها خير من ألف شهر، وهذه لا شك بركة عظيمة من الله تمنح القائم فيها عبادة عمر كامل يزيد على ثلاث وثمانين سنة من الطاعة والعبادة الخالصة، فأي بركة هذه؟! وأي فضل يتفضل الله به على عباده؟! ما أعظم هذا الفضل وما أكرم هذا العطاء من رب العالمين لعباده الصادقين!!

ثانيًا: القرآن مبارك:

وصف الله تعالى الليلة التي أنزل فيها القرآن بالمباركة؛ لأن القرآن الذي أنزل فيها كتاب مبارك، وقد شهد القرآن بذلك في أربعة مواضع:

الموضع الأول: دعوة أهل الكتاب وغيرهم للإيمان به بعد أن جعلوا ما في أيديهم من كتاب «قراطيس» نسخًا يكتبونها بأيديهم؛ يُخفون منها ما يشاءون، ويُبدون منها ما يشاءون بحسب أهوائهم، وهم بذلك لا يقدرون الله حق قدره ولا يقدرون كتبه ولا رسله فدعاهم الله للإيمان بهذا القرآن الذي أنزله مباركًا مصدقًا لما بين يديه وهو مصدر التقوى والهداية والرحمة، فقال الله تعالى: «وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ» (الأنعام:٩٢)، فهذا القرآن أنزله الله لتصحيح مسيرة السابقين وإنذار وهداية العالمين؛ لأن المقصود بأم القرى

(مكة)، ومن حولها (كل أهل الأرض)، وهذا المعنى جاء مصرحًا به في مواضع أخر فقال سبحانه وتعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ» (الأنبياء:١٠٧)، وقال تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» (الفرقان:١)، وقال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (سبأ:٢٨).

الموضع الثاني في قوله تعالى: «وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (الأنعام:١٥٥)، وهذا في مقام إقامة الحجة على العرب وعلى غيرهم ودعوتهم لاتّباعه إذا أرادوا رحمة الله.

الموضع الثالث: في مقام التحذير من الكفر به، وإنكار ما جاء من حقائق الإيمان، قال الله تعالى: «وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ» (الأنبياء:٥٠).

الموضع الرابع: في مقام الدعوة لتدبره والعمل به؛ لأنها الغاية من إنزاله، قال الله تعالى: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ» (ص:٢٩)، فالغاية هي التدبر والقراءة وسيلة فلا نجعل الوسيلة غاية فيقع الخطأ.

بعض أقوال المفسرين في وصف القرآن بأنه (مبارك):

قال الإمام الألوسي رحمه الله: وقوله سبحانه: «مبارك» أي: كثير الفائدة والنفع؛ لاشتماله على منافع الدارين وعلوم الأولين والآخرين. وقال الإمام الرازي: «وقد جرت سنة الله تعالى أن الباحث في هذا الكتاب المتمسك به يُحصِّل به عز الدنيا وسعادة الآخرة». وقال أيضًا في تفسيره: «العلوم إما نظرية وإما عملية، فالأولى أشرفها وأكملها معرفة ذات الله وصفاته وأسمائه وأفعاله وأحكامه، ولا ترى هذه العلوم أكمل ولا أشرف ما تجده في القرآن الكريم، وأما الثانية: فالمطلوب: إما أعمال الجوارح، وإما أعمال القلوب وهو المسمى طهارة الأخلاق وتزكية النفوس ولا تجد هذين العلمين؛ بمثل ما تجد في هذا الكتاب المبارك.

وقال الشيخ السعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: «كتاب أنزلناه مبارك»: أي فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تُستمد منه سائر العلوم وتُستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه، ورغّب فيه، وذكر الحِكم والمصالح التي تحثّ عليه، وما من شر إلا وقد نهى عنه، وحذر منه ومن عواقبه الوخيمة. اهـ.

ومهما تكلم أهل التفسير عن بركة القرآن فلن يوفوها حقّها؛ لأن هذا القرآن كلام الله يستمد بركته من الله، وهذا شرف ما بعده شرف ويعجز المرء عن وصفه مهما بلغ وقد وصفه الله ونعم ما وصف.

«الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (هود:١)، وقال سبحانه: «الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» (إبراهيم:١)، وقال تعالى: «وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (فصلت:٤٢).

وقد جعل الله البركة في بعض آياته وسوره، وعلى سبيل المثال لا الحصر ما جاء في فضل سورة البقرة حيث قال صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه مسلم في صحيحه: «اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة» قيل هم (السحرة). والله أعلم.

وإنما يكون القرآن بركة لمن يؤمن به بحق بكامله، ولا يضرب القرآن بعضه ببعض فيؤمن ببعض ويكفر ببعض أو يضرب

بمتشابهه محكمه؛ بل يرد المتشابه إلى المحكم، كما هو حال الذين هداهم الله والذين يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وأما أصحاب القلوب المريضة أهل الفتن والضلالات فقد وصفهم الله بقوله: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ» (آل عمران:٧) أي: تحريفه عن الحق والتشكيك في صحته وإثارة الفتنة في القلوب والمجتمعات، وهذا دين أصحاب القلوب المريضة الزائغة عن الحق، نعوذ بالله منهم ونسأله كما سأله المؤمنون الصادقون، «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ» (آل عمران:٨)، فالقرآن بركة لمن عمل به وأحل حلاله وحرّم حرامه، وجعله إمامه، قال الله تعالى: «وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ» (الحاقة:٤٨)، وقال تعالى: «وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ» (الحاقة:٥١)، وهنا نأتي إلى المعلم الثالث من معالم البركة.

ثالثًا: بركة التقوى:

التقوى ثمرة الصيام، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقرة:١٨٣)، فالصوم سبيل التقوى، والقرآن تذكرة للمتقين وهدى للمتقين، وقد اجتمعا في رمضان، قال الله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (الأعراف:٩٦)، ولا شك أن التقوى ثمرة من ثمرات البركة في رمضان.

رابعًا: السحور بركة:

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تسحروا؛ فإن في السحور بركة». متفق عليه. فالسحور بركة لأن الوقت الذي يكون فيه السحور وقت مبارك ينزل الله فيه إلى السماء الدنيا؛ يغفر الذنب ويقبل التوب ويجيب الدعاء، ولذلك يُستحب تأخير السحور إلى ما قبل الفجر بقليل، وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه تسحر مع رسول الله، وقد كان بين السحور والفجر مقدار قراءة خمسين آية، وفي السحور بركة لأنه فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب، ففي صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص قال صلى الله عليه وسلم: «فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر».

وفي السحور بركة لأنه استجابة لهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد يدعو المسلم في هذا الوقت المبارك بدعوة لا ترد.

وفي السحور بركة؛ لأن المسلم يستعين به على طاعة الله وفيه بركة لأنه يدرك معه صلاة الفجر ويفوز برضا الله سبحانه وتعالى وحفظه، ويدرك بركة البكور وخصوصًا لو اتبع السنة وأخّر السحور كما كان يفعل النبي صلى الله عليه وسلم.

والحديث عن البركة في رمضان يطول فيكفي أن الرسول صلى الله عليه وسلم سماه «شهر مبارك»، ويكفي أن الله فرض فيه الصيام وسن الرسول فيه القيام، ويكفي أن الله أنزل فيه القرآن فيه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، ويكفي أن ليلة القدر خير من ألف شهر، وكل ذلك لا يتحصل إلا بتقوى الله في رمضان في أيامه ولياليه في صيامه وقيامه وفي القرآن الذي أنزل فيه.

اللهم أسعدنا في رمضان بالصيام والقيام، وتقبل منا الدعاء والأعمال الصالحة، وأقل الأمة عثرتها وردها إلى دينك ردًّا جميلاً.. آمين، والحمد لله رب العالمين.

قصة نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان (٧)

إعداد/ عبدالرزاق السيد عيد

الحمد لله المبدئ المعيد، الفعّال لما يريد، والصلاة والسلام على من أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.

أما بعدُ،

فمن السهل أن أذكر لك أخي الكريم الأحاديث الصحيحة التي رُويت في نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان، والتي تصف نزوله والهيئة التي سينزل عليها- إن شاء الله- والمكان الذي سينزل فيه والأحداث المواكبة لنزوله، وأعماله التي سيقوم بها ومدة بقائه في الأرض، كل ذلك قد جاءت به أحاديث صحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، وهو الحق الذي سيدمغ الباطل الذي ملأ الدنيا فإذا هو زاهق؛ بعون الله.

ولعل سائل يسأل: لماذا لم تفعل ذلك إلى الآن؟

أقول جوابًا على ذلك: إن كمّ الزيف والتحريف والكذب الذي وقع في قصة نزول عيسى في آخر الزمان كبير، وترتب عليه ظلم وعدوان وقتل وإرهاب باسم الدين، والدين منه براء، إن هي إلا أوهام وأساطير نسجوها بأيديهم وقالوا: هي من عند الله، وما هي من عند الله، وكم أفسدوا بسببها في الأرض، وأحدثوا من فساد! وأشعلوا بسببها نار الحرب في أماكن كثيرة من العالم وفي منطقتنا على وجه الخصوص، وهنا سؤال يطرح نفسه: ما علاقة نزول عيسى عليه السلام بما يحدث الآن في منطقتنا؟

الجواب: العلاقة وثيقة، وهذا الذي لا يعلمه كثير من الناس، ولا أريد أن أسرد كلامًا مرسلاً، بل أريد أن أقدم الحقائق بأدلتها الدامغة حتى يكون كل مسلم على بصيرة بما يُحاك للإسلام والمسلمين، وأن يكون على علم بالواقع الذي يعيشه فليس من الحكمة أن أكون غافلاً بواقع الأمة أو متغافلاً، بل الحكمة كل الحكمة في معرفة كيف أتعامل معه بعد أن أعرفه جيدًا، ولن أكون مبالغًا إن قلت لك: إن ما يحدث الآن في المنطقة التي اصطلحوا على تسميتها منطقة الشرق الأوسط، ثم الشرق الأوسط الجديد، التي دعت إليها وزيرة الخارجية الأمريكية وما يقع في العراق وسوريا واليمن وتونس ومصر، وفي المنطقة بأسرها له علاقة بنزول عيسى لماذا؟ لأن نزول عيسى أو المسيح مرتبط في فكر الغرب وأمريكا بقيام دولة إسرائيل

من النيل إلى الفرات، وظهور إسرائيل وتفوقها وبناء الهيكل على أنقاض بيت المقدس والمسجد الأقصى في القدس، كل ذلك لا بد أن يحدث قبل نزول عيسى كما يعتقدون، ولهذا لا بد من دعم إسرائيل ومساعدتها على البقاء والتوسع؛ لأن هذا يحقق مشيئة الرب- كما يزعمون- وإسرائيل شعب الله المختار، والله يباركه مباركة ويلعن لاعنيه؛ هكذا يعتقد القوم ويؤمنون بعقيدة توراتية ويحسبون أنهم على خير وعلى صراط مستقيم.

وتسارع وتيرة الأحداث في المنطقة كشف لنا أمورًا كانت تحت الطاولة كما يقولون، لكنها الآن طفت على السطح، وظهرت بوضوح مما يدل على وصول المسلمين إلى درجة من الضعف صار معها لا يكترث أعداؤهم بما يقولون.

أخي القارئ الكريم قبل أن أفصح لك عن هذه الأمور، اسمح لي أن أسألك سؤالاً: كيف ينظر الغرب وأمريكا لنا؟ وكيف ينظرون لإسرائيل؟

نظرة الغرب المسيحي وأمريكا الصهيومسيحية تحكمها عقيدة مارتن لوثر التي أفصح عنها بوضوح في كتابه «المسيح وُلد يهوديًا»: «إن اليهود هم أبناء الرب ونحن الضيوف والغرباء وعلينا أن نكون كالكلاب التي تأكل ما يتساقط من فتات مائدة أسيادها».

هذه هي عقيدة الغرب، وعقيدة أمريكا على وجه الخصوص، أما كيف يرى الغرب المسلمين وكيف تزاحم أمريكا، انظر ما يلي:

«إن العرب والمسلمين قوم فاسدون مفسدون فوضويون لا يمكن تحضرهم، وإذا تُركوا لأنفسهم فسوف يفاجئون العالم المتحضر بمجموعات بشرية إرهابية تدمّر الحضارات وتقوض المجتمعات، ولذلك فإن الحل السليم للتعامل معهم هو إعادة احتلالهم واستعمارهم وتدمير ثقافتهم الدينية وتطبيقاتها الاجتماعية، وفي حال قيام أمريكا بهذا الدور فإن عليها أن تستفيد من التجربة البريطانية والفرنسية في الاستعمار لتجنب الأخطاء والمواقف السلبية التي اقترفتها الدولتان، إنه من الضروري إعادة تقسيم الأقطار العربية والإسلامية إلى وحدات عشائرية وطائفية، ولا داعي لمراعاة خواطرهم أو التأثر بانفعالاتهم وردود أفعالهم». اهـ.

وقد أشارت الصحفية رانيا رفاعي في جريدة الأهرام القاهرية في عددها الصادر في ٩ أكتوبر ٢٠١٤م إلى خطة تقسيم المقسم وتجزيء المجزأ التي اقترحها المدعو (برنارد لويس)، والتي أقرها واعتمدها الكونجرس الأمريكي في جلسة سرية عام ١٩٨٣م، ولويس هذا المولود من أسرة يهودية في لندن سنة ١٩١٦م، ودرس التاريخ واللغة وتخصص في تاريخ الشرق الأوسط وانتقل إلى أمريكا في ١٩٨٠م، وكان ممن شاركوا مع بوش ومستشاره ديك تشني في غزو العراق وقام بدور بارز في رسم السياسة الأمريكية في المنطقة، وها هو الكونجرس يتبنى مشروعه في تقسيم منطقة الشرق الأوسط، وكذا وزارة الخارجية الأمريكية تحت عناوين شتى يطول شرحها الآن.

هكذا ينظر الغرب إلينا وأمريكا على وجه التحديد، وينظر إلى إسرائيل، ولا أكون مبالغًا إن قلت: إن الذي يحكم أمريكا اليوم هم اليهود، بل ويحكمون العالم.

حقائق تتكشف

إن تسارع الأحداث على الساحة أظهر لنا أمورًا كنا نتوقف عن الجهر بها مع علمنا بحقيقتها، والآن لا يسعنا أن نسكت بعد أن جهر بها أصحابها ولم يراعوا في ذلك مشاعر أحد.

ولنا وقفة مع إحدى تصريحات سفيرة الولايات المتحدة بالقاهرة (آن باترسون) لصحيفة معاريف الإسرائيلية في يناير ٢٠١٣م التي قالت فيها: «إنها تشعر بفخر لأنها لعبت دورًا محوريًا حقق لشعب الله المختار التنبؤات التي قيلت عنه بصورة إعجازية».

وأضافت: «أن عودة اليهود من الشتات من كافة بلدان العالم صار وشيكًا وأرض الموعد من النيل إلى الفرات».

ونقل كثير من المواقع الإخبارية على شبكة المعلومات والصحافة المصرية الخاصة وشبكات التلفزة لتلك التصريحات أدى إلى مسارعة السفارة الأمريكية لنفي هذا التصريح، وسواء نفت السفارة أو أثبتت فإن هذه عقيدة القوم التي تربى عليها الصغار والكبار، نعم نشأ معظم

الأمريكيين البروتستانت منهم والكاثوليك على حد سواء، واسمح لي في عجالة أن أقدّم لك بعض الأدلة على ذلك:

قالت الكاتبة الأمريكية في كتاب «النبوءة والسياسة» والذي ترجمه الأستاذ محمد السماك وطبعته دار الشروق ٢٠٠٣م والكاتبة هي «جريس هالسل» قالت في مقدمة كتابها المشار إليه آنفًا: وهي تتحدث عن نفسها: «ولدت في مدينة ليبوك من أب وأم مسيحيين تربت وترعرعت على الإيمان بالديانة المسيحية، إننا نؤمن كمسيحيين أن تاريخ الإنسانية سوف ينتهي بمعركة تدعى «هرمجدون»، وأن هذه المعركة سوف تتوج بعودة المسيح، الذي سيحكم بعودته على جميع الأحياء والأموات على حد سواء، بصورة عامة يؤمن المسيحيين في مدينتي أن عمر الكون هو ستة آلاف عام، وأن مريم أم عيسى كانت عذراء وأن اليهود هم شعب الله المختار، وأن الله أعطى الأرض المقدسة إلى شعبه المختار اليهود، ولأن اليهود هم شعبة المختار فإن الله يبارك الذين يباركون اليهود ويلعن لاعنيهم».

وتواصل القول: «كنا ندرس في أيام الآحاد في المدرسة كتابًا يتضمن صورًا ملونة عن مناطق بعيدة وعن رجال ملثمين يلبسون قفاطين فضفاضة وكنت أستمع إلى قصص العهد القديم حول استيطان «العبرانيين» في فلسطين». اهـ.

وهكذا تشير الكاتبة أنها ترعرعت على تعاليم العهد القديم وقصص العودة عودة اليهود إلى أرضهم فلسطين أن اليهود هم شعب الله المختار وقد وعدهم بأرض فلسطين وعلى هذه العقيدة تربى عامة المسيحيين في مدينتها.

إن الكاتبة تشير إلى اعتناق هذا الفكر وهذه العقيدة من قبل جميع الأمريكيين من مختلف المستويات منهم سياسيون ومنهم رجال فكر وعسكريون، ومنهم قساوسة... وأن هذه المعتقدات تبث من خلال قنوات تلفزيونية ضخمة تسمى بالكنائس المتلفزة ويشاهدها الملايين فضلاً عن تدريس هذا الكلام في مراحل التعليم المختلفة حتى الجامعة.

ويلخص لنا الكاتب رضا هلال في كتابه «المسيح اليهودي ونهاية العالم»، ط مكتبة الشروق سنة ٢٠٠٠م، يلخص لنا مراحل تطور هذا الاعتقاد في أمريكا فيما يلي:

«ولكن الانطلاقة الكبرى للمسيحية اليهودية ارتبطت بحركة الإصلاح البروتستانتي التي وصلت إلى ذروتها في القرن السابع عشر إذ طالبوا الحكومة البريطانية بأن تعلن التوراة دستورًا للبلاد واستعاضوا بالعادات اليهودية عن المسيحية بل إن بعضهم كان يلهج بالعبرية في الصلاة وتلاوة الكتاب المقدس.

وعندما وصل المهاجرون الأوائل من البروتستانت إلى العالم الجديد (أمريكا) كانت أساطير الشعب المختار وأرض الميعاد ومملكة إسرائيل هي المرشد والنبراس، وكانوا يصلون باللغة العبرية ويطلقون على أبنائهم أسماء من قصص التوراة وكان أول كتاب طبعوه في أمريكا هو كتاب «مزامير داود»، ومع حلول القرن الثامن عشر أصبح الاعتقاد بالبعث اليهودي في فلسطين يشكل جانبًا مهمًا من اللاهوت البروتستانتي الأمريكي حيث أخذت معتقدات المسيح والعصر الألفي يستعيد مكانًا بارزًا، وبدخول أمريكا الصحوة الدينية العظمى في أربعينيات القرن التاسع عشر، أنتجت عن المسيحية اليهودية مسيحية صهيونية رفدت الثقافة والسياسة في الولايات المتحدة باعتقاد الالتزام بإقامة إسرائيل والانحياز لها كالتزام لاهوتي وثقافي ثم سياسي».

ويواصل الكاتب تلخيصه لهذا التاريخ المتصل بالواقع الحالي فيقول: «.. وفي الربع الأخير من القرن العشرين فقد شهدت الولايات المتحدة ابتداءً من عام ١٩٧٦م صعود المسيحية السياسية والأصولية أو ما اصطلح على تسميته «اليميني المسيحي»؛ إذ تحول الآلاف من الشباب إلى «مسيحيين ولدوا ثانية»، ومنهم رؤساء مثل ريجان، وقد ارتبط صعود المسيحية السياسية والأصولية بصعود المسيحية الصهيونية خصوصًا بعد انتصار إسرائيل في حرب يونيو ١٩٦٧م، واحتلالها القدس وهو الأمر الذي اعتبرته المسيحية الصهيونية الأمريكية تأكيدًا لصحة نبوءات التوراة وإعلانًا عن قرب مجيء المسيح.

وتوالى صعود اليمين المسيحي وفي طريقه إلى السيطرة على المسرح السياسي الأمريكي تحالف

اليمين المسيحي مع اليمين السياسي في الحزب الجمهوري يتشكل ما أصبح يعرف باسم «حزب الله» (أي: حزب الله الأمريكي وليس الشيعي)، وتزامن مع تزايد دور اليمين المسيحي الذي شمل أيضًا الكاثوليك الأمريكيين إلى جانب البروتستانت، أن أصبحت «الصهيومسيحية»، صفة لأمريكا لاهوتيًا وأخلاقيًا وثقافيًا، لدرجة قطع لسان من لا يضيف وصف «يهودية» إلى المسيحية في وصف أمريكا. اهـ. مختصرًا.

انظر كيف تغلغل اللاهوت اليهودي في ثقافة الشعب الأمريكي دينيًا وثقافيًا واجتماعيًا وسياسيًا داخليًا وخارجيًا، وقد أشار هلال في كتابه المشار إليه إلى هذا في صفحة١٤: «وشهد عقد التسعينات ترسيخ منظمات الأصولية المسيحية تحت مسميات: «الائتلاف المسيحي»، و«الإحياء الأصولي»، و«مجلس أبحاث العائلة»، و«التركيز على العائلة»، و«ائتلاف القيم التقليد»، كما ظهرت جماعات وميليشيات العُنف التي لجأت إلى التخريب والقتل لتقويض النظام الاجتماعي والسياسي، وإعادة تأسيسه وفق تعاليم الكتاب المقدس حتى تصبح عودة المسيح ممكنة، ولم تقتصر أجندة المسيحية السياسية والأصولية على تهيئة المجتمع الأمريكي بعودة المسيح، بل إنها ضمنت الأجندة رسالة صليبية عالمية ولم يقتصر دورها على السياسة الداخلية، بل أصبح لها دور مؤثر في السياسة الخارجية الأمريكية. اهـ.

وقد وصل سلطان المنظمات الصهيومسيحية إلى كبرى مؤسسات الدولة مثل الكونجرس والبنتاجون، بل ومؤسسة الرئاسة في البيت الأبيض فضلاً عن البنوك والإعلام.

أخي القارئ: بعد هذا العرض الذي اختصرناه اختصارًا تتعجب من تصريحات «آن باترسون» التي أراها تنسجم مع عقيدتها وعقيدة رؤساء أمريكا الذين وضعوها في هذا الموضع لتقوم بالدور الذي تتفاخر به في خدمة سيدتها إسرائيل، وقد نُقلت هذه السفيرة من مصر ووضعت مساعدة للخارجية لتستمر في أداء دورها في خدمة شعب الله المختار، وبعد هذا العرض لا تتعجب من وقوف أمريكا في صف إسرائيل على طول الخط في المحافل الدولية وغيرها، وتبرير أي إرهاب لإسرائيل وأي اعتداء وأي ظلم وأي قتل وأي سجن أو تعذيب تحت حجة واحدة ألا وهي الدفاع عن النفس، وأنها فوق الجميع لا تصلح معها قوانين الأمم المتحدة ولا غيرها.

إن هذا الاعتقاد متجدد في ضمير الأمة الأمريكية من القاعدة إلى القمة، ولقد ألقى كارتر خطابًا أمام الكنيست عام ١٩٧٩م قال: «جسَّد من سبق من الرؤساء والأمريكيين الإيمان بأن جعلوا علاقات الولايات المتحدة مع إسرائيل هي أكثر من علاقات خاصة، إنها علاقات فريدة لأنها متأصلة في ضمير الشعب الأمريكي نفسه، وفي أخلاقه وفي دينه وفي معتقداته». (المصدر السابق ص٨).

أرأيتم السُر العميق في العلاقات الوثيقة بين أمريكا وإسرائيل، ومن أجل عيون إسرائيل يستبيحون كل محرم ويرتكبون كل منكر ويتنكرون لكل المواثيق زاعمين أن ذلك في مرضاة الرب لحماية شعبه المختار حتى لو استولى على كل العالم، ولست أدري عن أي إله يتحدثون؟! وعن أي شعب ينافحون؟! هل يقصدون الله الذي نزل في ضيافة إبراهيم وأكل عنده اللحم والخبز!! أم هو الذي صارع يعقوب وصرعه يعقوب! ثم خدعه بعد ذلك!! أم هو الذي يتعب ويستريح ويلعب مع الحوت ويعجز أحيانًا عن معرفة الصواب!! تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

فلا تتعجب- أخي القارئ- فهذه أوصاف الإله عندهم في التوراة، أم هو الإله الذي نزل إلى الأرض وتجسد في صورة إنسان ثم صلبه اليهود وقتلوه- كما يزعمون-.

وعن أي شعب يتحدثون، عن الشعب الذي لعنه الله على لسان داود وعيسى ابن مريم، الشعب الذي آذى موسى وآذى رب موسى، وعبَد العجل الذي صنعه بيده من دون الله، ثم كيف ينحاز الإله إلى شعب دون شعب، أليس الله هو الذي خلق السماوات والأرض وخلق الملائكة والجن والإنس وخلق كل متحرك وساكن وهو رب العالمين، وهو الرحمن الرحيم مالك الدنيا ويوم الدين يوالي عباده الصالحين ويكره الكافرين الظالمين؟! أم ماذا؟! نبئوني بعلم إن كنتم صادقين.

وقفات مع القصة في كتاب الله

قصة نزول عيسى (عليه السلام) في آخر الزمان

(وصف نزول عيسى وأعماله)

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحلقة الثامنة

الحمد لله الذي له الدين واصبًا، واليه يعود الخلق كما بدأهم، منهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة، اللهم اهدنا فيمن هديت، وتولنا فيمن توليت.

أخي الكريم: آن الأوان أن نعيش مع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي تصف لنا الهيئة التي سينزل عليها عيسى ابن مريم عليه السلام آخر الزمان، والمكان الذي سينزل به، والأعمال التي سيقوم بها، والأحوال المواكبة لنزوله ومدة بقائه على الأرض، ذلك الحق الذي سيدفع الباطل الذي نشره أعداء الله، ويصحح التحريف الذي حرفوه عن عمد واصرار ليستخفوا بعقول البشر ويستحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله ويفسدوا في الأرض، ولنبدأ في المقصود راجين عون المعبود سبحانه وتعالى:

أولاً: مكان نزوله وهيئته عند نزوله:

روى الطبراني في الكبير عن أوس بن أوس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ينزل عيسى ابن مريم عند المنارة البيضاء في شرقي دمشق». (صحيح الجامع: ٨٠٢٥).

أخرج أبو داود باسناد صحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس بيني وبين عيسى نبي، وانه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وان لم يصبه بلل». (صحيح الجامع: ٥٢٦٥).

ثانيًا: إليك الآن أخي القارئ مجموعة من الأحاديث النبوية الكريمة والصحيحة في الصحيحين وغيرهما تصف لنا أعمال عيسى عليه السلام وعلاقته بمهدي آخر الزمان والدجال، ونبدأ بأهم أعمال عيسى عليه السلام نذكرها مجمله ثم نعلق عليها بمشيئة الله:

١- في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى

لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها».

٢- الحديث الثاني: في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه قال: «لا تَزالُ طائفةٌ من أمّتي يُقاتلونَ على الحقِّ ظاهرينَ إلى يومِ القيامةِ». قال: «فينزلُ عيسى ابنُ مريمَ صلى الله عليه وسلم فيقولُ أميرُهم: تعالَ صلِّ لنا. فيقولُ: لا إنَّ بعضَكم على بعضٍ أمراءُ تكرمةَ اللهِ هذه الأمةَ».

٣- الحديث الثالث: في صحيح مسلم في كتاب الحج عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «والذي نفسي بيده ليُهلّن ابن مريم بفج الروحاء حاجًا أو معتمرًا أو ليثنيهما». وكذلك رواه أحمد.

(والروحاء: اسم لمكان يبعد عن المدينة حوالي سبعين كيلو مترا طريق المدينة - بدر. (وهو ممر بين جبلين وعنده بئر ماء، ويُعرف الآن ببئر الروحاء).

٤- الحديث الرابع رواه الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الأنبياءُ إخوةٌ لعلّاتٍ أمّهاتُهم شتّى ودينُهم واحدٌ، وأنا أولى الناس بعيسى ابنِ مريمَ لأنه لم يكنْ بيني وبينه نبيٌّ وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرفوه رجلًا مربوعًا إلى الحُمرةِ والبياضِ عليه ثوبانِ مُمصّران كأن رأسه يقطرُ وإن لم يُصبْه بللٌ، فيدقُّ الصليبَ ويقتلُ الخنزيرَ ويضعُ الجزيةَ، ويدعو الناسَ إلى الإسلامِ فيُهلكُ اللهُ في زمانِه الملَلَ كلَّها إلا الإسلامَ، ويُهلكُ اللهُ في زمانِه المسيحَ الدجّالَ وتقعُ الأمنةُ على الأرضِ حتى ترتعَ الأسودُ مع الإبلِ والنمارُ مع البقرِ والذئابُ مع الغنمِ ويلعبُ الصبيانُ بالحياتِ لا تضرُّهم، فيمكثُ أربعينَ سنةً ثم يُتوفّى ويُصلّي عليه المسلمونَ». (صححه الشيخ أحمد شاكر في المسند برقم (٧٨٩٠)، والألباني في السلسلة الصحيحة (٢١٨٢).

ومعنى: «عليه ثوبان ممصران» أي: ثوبان مصبوغان بصفرة.

٥- الحديث الخامس: وهو حديث طويل (رواه ابن ماجه ٤٠٧٧، وأفرده العلامة الألباني بمؤلف خاص أسماه (قصة المسيح الدجال ونزول عيسى ابن مريم، ط المكتبة الإسلامية عمان، ١٤٢١هـ)، ننقل بعض الفقرات منه استشهادًا:

وقال- أي النبي صلى الله عليه وسلم-: «كيفَ أنتُم إذا نزلَ ابنُ مريمَ فيكُم وإمامُكُم». وفي رواية: «وأمّكُم منكُم». قال ابن أبي ذئب: «تدري ما أمّكُم منكُم؟ قلتُ: تُخبِرُني قال: فأمّكُم بكتابِ ربِّكُم تبارَكَ وتعالى وسُنّةِ نبيِّكُم».

فرجع ذلك الإمام ليتقدم عيسى فيضع عيسى يده بين كتفيه، ثم يقول له تقدم فصل، فيصلي بهم إمامهم.

«ثم يأتي الدجال جبل إيلياء فيحاصر عصابة من المسلمين»، «فيقول لهم الذين عليهم: ما تنتظرون بهذا الطاغية «إلا» أن تقاتلوه حتى تلحقوا بالله أو يفتح لكم، فيأتمرون أن يقاتلوا إذا أصبحوا».

«فبينما هم يعدون للقتال ويسوون الصفوف، إذا أقيمت الصلاة»، «صلاة الصبح»، «فيصبحون معهم عيسى ابن مريم» «فيقوم الناس، فإذا رفع رأسه من ركعته قال: سمع الله لمن حمده قتل الله المسيح الدجال وظهر المسلمون. فإذا انصرف قال: افتحوا الباب، فيفتح ووراءه الدجال معه سبعون ألف يهودي، كلهم ذو سيف محلى، فيطلبه عيسى عليه السلام».

فيذهب عيسى بحربته نحو الدجال، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريه دمه في حربته فيدركه عند باب اللد الشرقي فيقتله فيهلكه الله عز وجل عند عقبة أفيق».

فيهزم الله اليهود، ويسلط عليهم المسلمون، ويقتلونهم فلا يتقي شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء؛ لا حجر ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة، إلا الغرقدة فإنها شجرهم لا تنطق إلا قال: يا عبد الله المسلم، هذا يهودي «ورائي» فتعال فاقتله.

ثم يلبث الناس بعده سنين سبعًا ليس بين اثنين عداوة.

فيكون عيسى ابن مريم «عليه الصلاة والسلام في أمتي مصدقًا بمحمد صلى الله عليه وسلم على ملته حكمًا عدلًا وإمامًا مهديًا مقسطًا فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب ويذبح

الخنزير، وتجمع له الصلاة، ويضع الجزية ويترك الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بعير، وترفع الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد». وبعد كلام طويل عن يأجوج ومأجوج:

«قال عليه الصلاة والسلام بعد القضاء على يأجوج ومأجوج وتطهير الأرض من زهمهم»، «ثم يرسل الله مطرًا لا يكنُّ منه بيت مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك وردي بركتك.

فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرِّسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس ويكون الثور بكذا وكذا من المال، وتكون الفرس بالدريهمات، قال صلى الله عليه وسلم: طوبى لعيش بعد المسيح، طوبى لعيش بعد المسيح يؤذن للسماء في القطر ويؤذن للأرض في النبات فلو بذرت حبك على الصفا لنبت، ولا تشاح ولا تحاسد ولا تباغض» (يعني نعم العيش بعد نزول عيسى إلى الأرض).

وتنزع حمة كل ذات حمة، «وتقع الأمنة على الأرض».

فيمكث عيسى عليه السلام في الأرض أربعين سنة ثم يتُوفى، فيصلي عليه المسلمون. ونكتفي بهذا القدر من الفقرات التي كتبها الشيخ الألباني رحمه الله في هذا السفر العظيم الذي أشرنا إليه آنفًا، وقبل أن ننتقل إلى كلام آخر نحاول أن نزيل ما يتوهم أنه تعارض بين قول النبي صلى الله عليه وسلم: «فيمكث عيسى عليه السلام أربعين سنة». وبين قوله صلى الله عليه وسلم: «ثم يلبث بعده سنين سبعًا ليس بين اثنين عداوة».

قال الشيخ الألباني رحمه الله: المقصود أن يلبث الناس بعد هلاك الدجال سبع سنين ليس بين اثنين عداوة، وهذا لا ينافي أن عيسى يمكث في الأرض أربعين سنة.

وقد ضعف الشيخ الرواية التي وردت وتفيد أن عيسى عليه السلام يمكث في الأرض سبع سنين، ورد قول الحافظ في الفتح وخلص رحمه الله إلى القول أن الذي يلبث سبع سنين هم الناس وليس عيسى عليه السلام فلا إشكال، والحمد لله.

وبمراجعة الأحاديث السابقة نلاحظ ما يلي:

١- وصف لنا النبي صلى الله عليه وسلم هيئة عيسى عليه السلام ومكان نزوله، وهذه نظرة سريعة إلى أهم أعمال عيسى عليه السلام، ولنا عودة.

٢- أوضح لنا سياق الأحاديث أن عيسى عليه السلام لن يأتي بشريعة جديدة، ولكنه سيكون حكمًا عدلاً إمامًا مهديًا يحكم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيكون مأمومًا في الصلاة خلف العبد الصالح المهدي حين يتزامن نزول عيسى مع وجود المهدي الذي سيكون من آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم واسمه على اسم النبي.

٣- سيكون عيسى عليه السلام داعيًا إلى الإسلام تبعًا للنبي الأمي الذي بشر به قومه حين بعثه الله قبل رفعه فكذبه اليهود واتهموه بالسحر.

٤- استمر كذب اليهود على عيسى عليه السلام حتى ادعوا قتله وصلبه، ولكن الله أنقذه منهم ورفعه إليه وهو الآن حي عند الله عز وجل إلى أن ينزل على الأرض آخر الزمان ويموت ويصلي عليه المسلمون.

٥- يبقى عيسى عليه السلام على الأرض أربعين سنة على الصحيح من أقوال أهل العلم يقاتل خلالها أعداء الله من اليهود ومن غيرهم ولا يقبل من أحد غير الإسلام الذي اختاره الله لعباده.

٦- بعد أن يتحقق القضاء على أعداء الدين من اليهود والدجال ويأجوج ومأجوج الذي سيتزامن ذلك كله مع نزول عيسى وفي مدة بقائه بهم؛ ينشر السلام بعد إقامة العدل وتكثر البركة ويعم الأمن بسبب عودة الناس إلى توحيد رب العالمين الذي سيعم الأرض كلها، وبذلك يحق الله على يد عيسى عليه السلام كلمته، ويتم عليهم نعمته كما أتمها على هذه الأمة التي لا أمة بعدها، وهذا النبي الذي لا نبي بعده.

وللحديث بقية إن شاء الله.

قصة نزول عيسى (عليه السلام)

(فقه أحاديث نزول عيسى آخر الزمان «١»)

الحلقة التاسعة

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

نحمد الله عز وجل، ونصلي ونسلم على إمام رسله وخاتم أنبيائه، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد سبق لنا في اللقاء السابق إيراد مجموعة من الأحاديث الصحيحة التي تتناول قصة نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، وتصف لنا بالتفصيل مكان نزوله وهيئة نزوله في صحبة الملائكة وتصف لنا شعره وملابسه، وتذكر لنا أعماله والصفة التي سينزل بها ودعوته والأحوال المواكبة لنزوله ومدة بقائه على الأرض قبل موته عليه السلام، واليوم بعون الله نتناول شيئًا من فقه هذه الأحاديث انطلاقًا من قول الحق- تبارك وتعالى-: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ» (الأنبياء:١٨).

أولاً: الصفة التي سينزل عليها عيسى عليه السلام آخر الزمان:

يتفق اليهود والنصارى على أن المسيح المنتظر سيكون من بني إسرائيل، وستكون قاعدة ملكه القدس، ويظن كل منهم أنهم سيكونون أتباعه، فحلم النصارى بعودة المسيح إلى الأرض ليقتل اليهود والمسلمين، وكل من لا يدين بدينهم ويعتقدون أن الرب سيعود لينقذهم من حرب نووية يسمونها هرمجدون يُهلك فيها الرب كل الأشرار من اليهود والمسلمين وغيرهم، أما هم- أي النصارى- فيرفعهم الرب فوق السحاب ينجيهم من الهلاك، أما اليهود فيحلمون بملك محارب يسمونه (المسيا) يقتل النصارى والمسلمين ويخضع الناس أجمعين لدولة إسرائيل فيصبح اليهود سادة العالم.

والحقيقة أن المسيح عليه السلام حين ينزل لن يكون يهوديًا ولا نصرانيًا ولكنه سيكون حنيفًا مسلمًا كما كان قبل رفعه إلى السماء ولم يكن من المشركين، كما جاء في الحديث: «فيكون عيسى ابن مريم- عليه الصلاة

والسلام- حكمًا عدلاً، مصدقًا بمحمد صلى الله عليه وسلم على ملته وإمامًا مهديًا مقسطًا فيقاتل الناس على الإسلام». هذه هي الصفة التي سينزل عليها عيسى عليه السلام داعيًا إلى الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وفي رواية الإمام أحمد من حديث أبي هريرة: «ويدعو الناس إلى الإسلام فيهلك الله الملل كلها إلا الإسلام». إذن هذه هي مهمة عيسى عليه السلام الدعوة إلى الإسلام والقتال على ذلك وعلى منهج النبي محمد الذي جاء مبشرًا به في رسالته الأساسية لكن اليهود كذبوه واتهموه بالسحر، ولم يكن عيسى وحده هو الذي بشر بالنبي الخاتم لكنه كان آخر أنبياء بني إسرائيل تبشيرًا بالنبي الأمي فقد بشر به كل الأنبياء، كما قال الله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ» (آل عمران:٨١). إذن ينزل عيسى عليه السلام من السماء، بأمر الله ووصف النبوة قائم فيه غير أنه يكون تابعًا لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وحاكمًا من حكام هذه الأمة، وقد علمه الله كل ما يحتاج إليه من أمر هذه الشريعة للحكم بين الناس. أما اليهود فحقيقة أمرهم أنهم ينتظرون الدجال وسيكونون من أتباعه وسيهزمون عند مقتله كما سيأتي بيانه لاحقًا إن شاء الله، أما النصارى فينتظرون سرابًا (وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ).

ثانيًا: كسر الصليب وقتل الخنزير:

من أهم أعمال عيسى عليه السلام كسر الصليب وقتل الخنزير، وكسر الصليب دليل على إبطال العقيدة الفاسدة التي عليها النصارى، فالنصارى يعظمون الصليب، ويعتقدون أنه رمز عقيدتهم، حيث يزعمون بمقتضى هذه العقيدة أن الرب قد ضحى بابنه البكر والوحيد فمكن اليهود من صلبه، وذلك ليخلص البشرية من الخطيئة التي توارثوها عن أبيهم آدم!! وهذا قول عظيم يقولونه افتراءً على الله. سبحانه وتعالى عما يقولون علوًا كبيرًا، فقد غفر الله لآدم عليه السلام خطيئته منذ الأزل حين وفقه الله تعالى للتوبة والاستغفار، قال الله عز وجل: «وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ» (طه:١٢٢)، فقد انتهت مشكلة آدم من اللحظة الأولى حين تاب واستغفر، وهذا الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس، وهذا منهج الإسلام في المعصية والتوبة لكل البشر فمن تاب تاب الله عليه، ولا تُوَرَّث الخطيئة، فكل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون، والله سبحانه غافر الذنوب جميعًا لأنه هو الغفور الرحيم، وقد قرر ذلك حقيقة لجميع الخلق، وناداهم جميعًا بقوله سبحانه: «قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ» (الزمر:٥٣)، لكن الذين لم يقدروا الله حق قدره قالوا على الله ما لا يعلمون، وللأسف جعلوا هذا الكذب والبهتان أساس عقيدتهم وعظموا الباطل، فمن أهم أعمال عيسى إزالة هذا الباطل بكسر الصليب حقيقة، ورد الناس إلى دين الإسلام الصحيح.

أما قتل الخنزير فقد قال الحافظ في الفتح (٣٤٣/٤): «أي يأمر بإعدام الخنزير

مبالغة في التحريم، وفيه توبيخ عظيم للنصارى الذين يزعمون أنهم على طريقة عيسى عليه السلام، ثم يستحلون أكل الخنزير ويبالغون في محبته، فكسر الصليب إذن هدم للعقائد الباطلة وقتل الخنزير هدم للشريعة الباطلة في استحلال ما حرم الله، حتى يعود الناس إلى دين الله الذي اختاره للناس جميعًا ولا يقبل سواه، وقد أرسل به رسوله الخاتم ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وقال الله تعالى: « هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ » (الصف:٩).

ثالثًا: ويضع الجزية:

يضع عيسى عليه السلام الجزية، أي يتركها لا يقبلها لأنه لا يقبل من الناس إلا الإسلام، قال الحافظ في «فتح الباري» (٣٥٦/٦): «يضع الجزية أي يتركها ويسقطها؛ لأنه لن يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ودخل في الإسلام بعد نزول عيسى عليه السلام فلا يبقى أحد من أهل الذمة ليؤدي الجزية، ويؤيد هذا ما ورد عند الإمام أحمد من وجه آخر من حديث أبي هريرة: «وتكون الدعوى واحدة»، أي الملة واحدة وهي الإسلام، وهذا كله يؤكد مهمة عيسى الأساسية وهي الدعوة إلى الإسلام، بل ويقاتل عيسى عليه السلام من أجل تحقيق هذه الغاية العظيمة ولا يقبل من أحد كائنًا من كان إلا أن يدخل في دين الله الذي ارتضاه لعباده وهو الإسلام، فتكون الملة واحدة والدين واحد لله الواحد الأحد، فتدين الأرض كلها لله ويعم الخير وينشر الإسلام والأمن وتنزل البركة من السماء وتخرج من الأرض كما سيأتي بيانه بعون الله.

رابعًا: حج البيت الحرام بمكة المكرمة:

من أعمال عيسى عليه السلام أداء مناسك الحج والعمرة كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة في صحيح مسلم وغيره أنه عليه السلام ينزل بالروحاء ويهل منها حاجًا أو معتمرًا أو يجمع بين الحج والعمرة، وهو بذلك يستكمل مسيرة الأنبياء والبيت الحرام في مكة كما أخبر الله عنه في كتابه فقال سبحانه: « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ » (آل عمران:٩٧).

وهذا البيت قد رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل وأمر الله نبيه إبراهيم أن يؤذن في الناس كل الناس بالحج وقد فعل وبلغ الله عنه، وجاء محمد صلى الله عليه وسلم النبي الأمي الذي هو دعوة أبيه إبراهيم وبشرى أخيه عيسى ، وجعل الله أداء فريضة الحج معلمًا واضحًا على اتباعه ملة إبراهيم التي اتبعها محمد صلى الله عليه وسلم، وأضل الشيطان اليهود والنصارى عن ذلك مع ادعائهم الانتساب إلى إبراهيم، وقد كذبهم الله في هذا الادعاء وقال سبحانه: « مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ » (آل عمران:٦٧)، ثم بَيَّن الله مَن أولى الناس بإبراهيم فقال: « إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ » (آل عمران:٦٨)، فألصقُ الناس بإبراهيم من آمنوا به في حياته مثل إسماعيل وإسحاق ولوط وسارة وهاجر عليهم جميعًا السلام، ثم النبي محمد وأمته، فعيسى عليه السلام عندما يحج البيت آخر الزمان يؤكد هذه المعاني، ويربط الحاضر بالماضي، ويرد كذب اليهود والنصارى وغيرهم، والله الموفق والمستعان.

والى لقاء إن شاء الله تعالى.

قصة نزول عيسى (عليه السلام) في آخر الزمان

مقتل الدجال (٢)

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فنتابع معك أيها القارئ الكريم استخلاص الحقائق الإيمانية والفوائد العلمية من أحاديث نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، ونقف معك على حدث من أهم الأحداث في مسيرة مسيح الحق، ألا وهو قتله لمسيح الضلال.

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

خامسًا: مقتل المسيح الدجال:

لا شك أن مقتل المسيح الدجال هو قتلٌ لأعظم فتنة تقع على الأرض، وإغلاق لأخطر باب من أبواب الشر، وقد ثبت بالأحاديث الصحيحة أن هذه المهمة العظيمة سيقوم بها المسيح عليه السلام بعد نزوله إلى الأرض وسيجعل المولى عز وجل نهاية الدجال على يديه، ونذكر ببعض الأحاديث الصحيحة التي سجلت هذا الحدث العظيم:

روى الشيخان وأحمد من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ينزل عيسى ابن مريم، فإذا رآه الدجال ذاب كما تذوب الشحمة، فيقتل الدجال ويفرق اليهود فيقتلون، حتى إن الحجر يقول: يا عبد الله المسلم، هذا يهودي فتعال فاقتله». وعند البخاري وأحمد- رحمهما الله- من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في معرض حديثه عن الدجال: «.. وإنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرمين وبيت المقدس، وإنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس فينزلون زلزالاً شديدًا فيصيح عيسى ابن مريم فيهم، فيهزمه الله وجنوده..» من اليهود وغيرهم.

وفي حديث أبي أمامة الطويل الذي وصححه الألباني، وأضاف إليه ما صح من طرق أخرى، قال صلى الله عليه وسلم: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم فرجع ذلك الإمام ليتقدم عيسى فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول تقدم فصل فيصلي بهم إمامهم، ثم يأتي الدجال جبل إيلياء فيحاصر عصابة من المسلمين. إلى أن قال عليه السلام: فيذهب عيسى بحربته نحو الدجال فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء فلو تركه لانزاب حتى يهلك ولكن يقتله الله بيده فيريه دمه على حربته فيدركه عند

باب اللد الشرقي فيقتله فيهزم الله اليهود ويُسلط عليهم المسلمون فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء لا حجر ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة، إلا الغرقد فإنها من شجرهم لا تنطق، إلا قال: يا عبد الله يا مسلم، هذا يهودي ورائي فتعالى فاقتله».

ونحن بعون الله نستخلص مما سبق ومن الأحاديث التي وردت بعض الفوائد المجملة ثم نقف مع بعضها وقفات للتأمل:

أولاً: بعض الفوائد إجمالاً:

١- يتزامن نزول عيسى عليه السلام مع المهدي ومع الدجال.

٢- يصلي عيسى عليه السلام خلف المهدي ليؤكد تبعيته لشريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

٣- القدس وأكناف بيت المقدس ستكون مسرحًا لأحداث النهاية وسيكون القدس وما حولها مقرًا للخلافة الإسلامية آنذاك.

٤- يخرج الدجال أول ما يخرج من جهة المشرق وبالتحديد من يهودية أصبهان وسيتبعه سبعون ألفًا من يهودها وسيتبعه كذلك كثير من النساء والدهماء من الناس.

٥- يعيث الدجال في الأرض فسادًا ويذهب يمينًا

> **يخرج الدجال أول ما يخرج من جهة المشرق وبالتحديد من يهودية أصبهان وسيتبعه سبعون ألفًا من يهودها.**

وشمالاً وتمنعه الملائكة من دخول مكة والمدينة فيتحول إلى الشام حيث يلقى حتفه هناك بعد حصاره للمسلمين هناك.

٦- يجعل الله سبحانه وتعالى خلاص العباد والبلاد من شر الدجال على يد عيسى ابن مريم عليهما السلام.

ثانيًا: هنا نناقش قضية انتقال الخلافة الإسلامية إلى أرض الشام وما يترتب عليها من أمور.

- لقد دلّت الأحاديث الصحيحة والصريحة على انتقال الخلافة إلى بيت المقدس، نورد منها ما يلي:

وضع النبي صلى الله عليه وسلم يده على رأس ابن حوالة- رضي الله عنه- وقال: «يا ابن حوالة، إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلايا والأمور العظام، والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه على رأسك». (أخرجه أحمد وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٥٢١٠)).

ومنها: ما رواه معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عمران بيت المقدس خراب يثرب، وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح قسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال». ثم ضرب بيده على فخذي أو منكبي، ثم قال: «إن هذا لحقٌ كما أنك هاهنا أو كما أنك قاعد». رواه أبو داود، وحسنه الألباني برقم (٣٦٠٩). والشاهد معنا من الحديث قوله: «عمران بيت المقدس خراب يثرب». وهو إشارة إلى انتقال الخلافة إلى بيت المقدس، ومن الأحاديث التي تشير إلى أن بيت المقدس وأكنافه سيكون مكانًا للملاحم آخر الزمان وأن الطائفة المقاتلة هناك هم أهل السنة والجماعة الطائفة المنصورة:

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال». (رواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني برقم: ٢١٧٠).

ومنها حديث أبي أمامة

رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من جابههم إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك». قالوا: أين هم يا رسول الله؟ قال: ببيت المقدس وأكناف بيت المقدس. (المسند: ٥/٢٦٩، وقال الهيثمي: رجاله ثقات).

ومنها: ما رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، فينزل عيسى فيقول أميرهم: تعال صل بنا. فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله لهذه الأمة». (رواه أحمد ومسلم).

وهذه الخلافة التي ستكون ببيت المقدس هي التي وعد النبي صلى الله عليه وسلم وبشر بها في قوله: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها ثم تكون مُلكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًا فتكون ما شاء الله أن تكون،

> نحن على يقين من وعد الله ووعد رسوله صلى الله عليه وسلم، ونعلم أن الله يغرس لدينه غرسًا يستخدمهم لنصرة دينه وقتما شاء وكيفما شاء.

ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت». (أخرجه الإمام أحمد من حديث النعمان بن بشير والطيالسي والبزار والطبراني في الأوسط، وصححه الحافظ العراقي والألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤)).

فهذا بيان نبوي كريم لمراحل الحكم في الدولة الإسلامية فيما مضى وما يستقبل من الزمان، وقد مرت المراحل الأولى (النبوة) ثم الخلافة الراشدة على منهاج النبوة، كما مرَّت كذلك مرحلة الملك العاض، الذي بدأ مع دولة بني أمية، ونحن الآن في مرحلة الحكم الجبري والتي سيرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، فالأمر كله لله، يرفع ويخفض، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ثم تأتي مرحلة الخلافة الراشدة التي وعد بها النبي صلى الله عليه وسلم وسكت بعدها، مما يشير إلى أن خلافة راشدة لا بد أن تقع في آخر الزمان وعاصمتها القدس.

تنبيه وبيان:

نحن لا نستطيع إسقاط الأحاديث السابقة على طائفة بعينها، ولا أشخاص بأعينهم، كما هو منهج السلف الصالح، وإنما تفسير هذه الأحاديث هو وقوعها كما أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن على يقين من وعد الله ووعد رسوله صلى الله عليه وسلم، ونعلم أن الله يغرس لدينه غرسًا يستخدمهم لنصرة دينه وقتما شاء وكيفما شاء، قال الله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ» (المائدة:٥٤)، وقال تعالى: «وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم» (محمد:٣٨)، فإذا كان هذا الخطاب قد وُجِّه للصحابة في المقام الأول، وهم على مكانتهم العظيمة من الجهاد والعمل فنحن أولى بذلك منهم، أقصد أننا أولى بهذا اللوم والتحذير من الصحابة الكرام، وعمومًا فالعبرة ليست بخصوص السبب ولكن بعموم اللفظ، فهذا التوجيه للصحابة رضي الله عنهم ولمن

يأتي بعدهم إلى ما شاء الله.

هذا التنبيه، أما البيان: فإن الأحاديث الشريفة التي تشير إلى انتقال الخلافة إلى بيت المقدس تدل على حتمية زوال دولة إسرائيل الحالية، وأن محاولاتهم لاستعادة هيكلهم المزعوم، وحكم العالم من القدس ستذهب هباءً منثورًا، بقدرة القوي القاهر- سبحانه وتعالى- أما ما جاء في الأحاديث من قتال لليهود بعد مقتل الدجال فهذا قتال للذين جاءوا خلف الدجال من أصبهان ومن غيرها مما تبقى من اليهود بعد زوال دولتهم الحالية بإذن الله.

نحن وهم: يقول عبد العزيز مصطفى في كتابه «قبل أن نهدم الأقصى»: إن اليهود والنصارى بين أيديهم أخبار غير موثوقة، وتفسيرات غير مأمونة، وعقائد مضطربة تزيدها التأويلات اضطرابًا واختلافًا فيما بينهم في

> لا يجوز للمسلمين اليوم أن يتركوا العمل للإسلام وإقامة دولته على وجه الأرض، انتظارًا منهم لخروج المهدي، أو نزول عيسى عليهما السلام.

الأصول والفروع يستحيل معها الجمع بين الأقوال، ومع ذلك فهم جعلوا هذه الأخبار وتلك النبوءات مسارًا يسيرون على ضوئه خلال أحقاب طويلة). اهـ.

فماذا فعلنا نحن، ونحن نحمل الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ونرى أمام أعيننا في كل يوم محاولات اليهود لاختراق المسجد الأقصى، واقتحامه، وإرهاب القائمين، والعاكفين فيه، وتخريبه، تمهيدًا لهدمه- لا مكنهم الله من ذلك- هل ننتظر المهدي أو عيسى ليقوم بذلك؟!

يقول العلامة الألباني رحمه الله: «لا يجوز للمسلمين اليوم أن يتركوا العمل للإسلام وإقامة دولته على وجه الأرض، انتظارًا منهم لخروج المهدي، أو نزول عيسى عليهما السلام، يأسًا منهم، أو توهمًا أن ذلك غير ممكن قبلهما فإن هذا توهم باطل ويأس عاطل». اهـ. (قصة المسيح الدجال ص٣٦).

أخي الكريم: أختم معك هذه الوقفة بسؤالين: الأول: لماذا إقامة الخلافة الراشدة على منهاج النبوة حتمية؟ والثاني: هل ستكون الخلافة هذه قبل المهدي أم ستكون مع ظهوره؟ ونجيب على هذين السؤالين في اللقاء القادم إن شاء الله، استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تهنئة واجبة

حصلت الباحثة / وسام سمير محمود الزحلان على درجة الماجستير بتقدير عام إمتياز مع مرتبة الشرف من كلية التربية جامعة عين شمس قسم الصحة النفسية في رسالة بعنوان: (المناخ المدرسي وعلاقته بالهوية الثقافية) تحت اشراف أ.د/ سميرة محمد شند ، د/ طه ربيع طه وأسرة تحرير مجلة التوحيد يتقدمون بخالص التهاني للباحثة متمنين لها دوام التوفيق.

قصة نزول عيسى (عليه السلام) في آخر الزمان

نزول عيسى (عليه السلام) (٣)

الحمد لله المبدئ المعيد الفعال لما يريد، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وامام المرسلين والمبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

أخي القارئ الكريم وقفنا بك في اللقاء السابق مع أعظم الأحداث في مسيرة مسيح الحق في آخر الزمان، ألا وهي قتله لمسيح الضلالة عند باب لُد، وهزيمة أتباعه ومعظمهم من اليهود، وبذلك يتم القضاء على مصدر عظيم من مصادر الشر في الأرض وخلاص العباد من أخطر فتنة وقعت على الأرض.

ويهلاك الدجال ومن معه من فلول اليهود الذين جاءوا خلفه من أصفهان تزول عن المسلمين المرابطين بأكناف بيت المقدس فتنة عظيمة وكرب شديد، وذكرنا هناك أن الشام، وبالتحديد بيت المقدس وما حوله ستكون آنذاك مقرًا للخلافة الإسلامية التي وعد بها النبي صلى الله عليه وسلم والتي ستكون في آخر الزمان، وذكرنا الأحاديث التي دلت على ذلك.

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

والآن نبدأ بالإجابة عن سؤالين طرحناهما في نهاية المقال السابق، ووعدنا بالإجابة عليهما اليوم؛ لصلتهما الوثيقة بموضوعنا وهما:

١- هل ستكون هذه الخلافة سابقة لظهور المهدي أم معه؟

٢- هل هذه الخلافة حتمية؟ ولماذا؟

أما عن السؤال الأول المتعلق بعودة الخلافة قبل المهدي أم لا، فمن أهل العلم من يرى أن غربة الإسلام ستزداد إلى أن يظهر المهدي من ولد فاطمة فيُظهر الإسلام ويحيي العدل.

ومن أهل العلم من يرى ضرورة قيام خلافة إسلامية على منهاج النبوة قبل المهدي، ومن المنافحين عن هذا الاتجاه: هو الشيخ العلامة الألباني رحمه الله قال: «واعلم يا أخي المسلم أن كثيرًا من المسلمين اليوم قد انحرفوا عن الصواب في هذا الموضوع، فمنهم من استقر في نفسه أن دولة الإسلام لن تقوم إلا بخروج المهدي! وهذه خرافة وضلالة ألقاها الشيطان في قلوب كثير من العامة، وبخاصة الصوفية.

وليس في شيء من أحاديث المهدي ما يشعر بذلك مطلقًا، بل هي كلها لا تخرج عن أن النبي صلى الله عليه وسلم بشّر المسلمين برجل من أهل بيته، ووصفه بصفات بارزة أهمها: أنه يحكم بالإسلام وينشر العدل بين الأنام، فهو في الحقيقة من المجددين الذين يبعثهم

الله على رأس كل مئة سنة كما صح عنه صلى الله عليه وسلم، فكما أن ذلك لا يستلزم ترك السعي وراء طلب العلم والعمل به لتجديد الدين، فكذلك خروج المهدي لا يستلزم التواكل عليه وترك الاستعداد والعمل لإقامة حكم الله في الأرض، بل العكس هو الصواب، فإن المهدي لن يكون أعظم سعيًا من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي ظل ثلاثة وعشرين عاما، وهو يعمل لتوطيد دعائم الإسلام، وإقامة دولته فماذا عسى أن يفعل المهدي لو خرج اليوم فوجد المسلمين شيعًا وأحزابًا، وعلماؤهم - إلا القليل منهم - اتخذهم الناس رؤوسًا! لمن يستطيع أن يقيم دولة الإسلام إلا بعد أن يوحد كلمتهم ويجمعهم في صف واحد، وتحت راية واحدة، وهذا بلا شك يحتاج إلى زمن مديد الله أعلم به.

فالشرع والعقل معا يقتضيان أن يقوم بهذا الواجب المخلصون من المسلمين، حتى إذا خرج المهدي، لم يكن بحاجة إلا أن يقودهم إلى النصر، وإن لم يخرج فقد قاموا هم بواجبهم. (سلسلة الأحاديث الصحيحة ١٠٣/٤).

> **خروج المهدي لا يستلزم التواكل عليه وترك الاستعداد والعمل لإقامة حكم الله في الأرض.**

وهكذا نرى الشيخ رحمه الله يستدل على ما ذهب إليه بدليل في غاية القوة ألا وهو: أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر «أن الله يبعث في الأمة على رأس كل مئة عام من يجدد لها أمر دينها» فكما أن المسلمين لا يتوقفون عن العلم والعمل انتظارًا لهذا المجدد، فكذلك لا يتوقفون عن العلم والعمل والجهاد لنصرة الدين انتظارًا لخروج المهدي وهو واحد من هؤلاء المجددين، بل إن أشد الناس غلوًا في ذلك وهم الروافض تراجعوا عن فكرة الانتظار لخروج المهدي واخترع لهم الخميني ما أسماه ولاية الفقيه وصاروا يسعون في الأرض فسادًا وينشرون مذهبهم الباطل بحجة تهيئة الأجواء لظهوره بينما أهل السنة والجماعة وهم أهل الحق تتآكل الأرض من تحت أقدامهم في كل يوم وما ذلك إلا أنهم تفرقوا شيعًا وأحزابًا، إن الانكسارات المتعددة ينبغي أن توقظنا من سباتنا. فنعود أكثر استمساكًا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، بل نعضّ عليها بالنواجذ كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، ونبذ محدثات الأمور، فهذا هو الطريق.

ويمكن تعقب هذا القول بأن المهدي سيظهر بالفعل في خراب؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «يملأ الأرض قسطًا وعدلاً كما مُلئت ظلمًا وجورًا». وإن كنا نوافق على العمل الدؤوب لإعلاء كلمات الله عز وجل في الأرض، لكن ظهور المهدي بهذا الوصف لا يستلزم أن يكون قبله تمهيد وخلافة.

إجابة السؤال الثاني عن حتمية ظهور الخلافة الراشدة:

أقول وبالله التوفيق: لا بد من ظهور الخلافة الإسلامية سواء مع المهدي أو قبله وهو الراجح والله أعلم.

ولا يستبعدن أحد ذلك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته إلى يوم

القيامة» من حديث أبي عتبة الخولاني حسنه الألباني في صحيح الجامع رقم (٧٥٦٩)، والقضية التي يجب أن يستوعبها المسلمون استيعابًا لا يقبل الشك ولا الريب أن الله سبحانه وتعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ونصَّ على ذلك بوضوح في قوله تعالى: «هُوَ الَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ» (الصف: ٩)، وهذا الإظهار الذي أراده الله سبحانه هو ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة الآتية:

- «إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها» الحديث، وهو صدر حديث ثوبان رضي الله عنه رواه مسلم برقم (٢٨٨٩).

- وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يبقى بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزًا يعز الله به الإسلام وذلاً يذل به الكفر». رواه الإمام أحمد والطبراني وابن

> **الله سبحانه وتعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ونصَّ على ذلك بوضوح.**

منده في كتاب الإيمان، وصححه في الصحيحة برقم (٢).

ويتضح من هذين الحديثين وما في معناهما أن الإظهار المقصود في الآية هو الذي يعم الكرة الأرضية مشرقها ومغربها شمالها وجنوبها؛ بحيث لا يبقى بيت في الأرض إلا ودخله الإسلام حتى لا يدان بدين إلا الإسلام، ولا يعبد في الأرض إلا الله، وهذا هو الإظهار الذي وعد الله به وما حدث في عهد النبوة الكريمة هو مرحلة وكذلك ما حدث في أيام الخلافة الراشدة هي مرحلة؛ لأن الدين لم يغط الكرة الأرضية كما جاء في الأحاديث ولم يبلغ ما بلغ الليل والنهار، ولذلك وعد النبي صلى الله عليه وسلم بخلافة راشدة على منهاج النبوة تكون بعد الحكم العضوض والحكم الجبري.

وهذه الخلافة الراشدة التي وعد بها النبي صلى الله عليه وسلم والتي ستبدأ قبل المهدي أو معه، ثم تختم بعيسى عليه السلام، فهو على مكانته المحفوظة والمعلومة من كونه نبياً كريماً من أولي العزم فسيكون في هذه الأمة يكمل المهمة التي أرسله الله بها فلا يقبل من الناس إلا الإسلام وتكون الملة واحدة وهي الإسلام ولا يُعبد إلا الله في الأرض، وقبل أن ننتقل إلى عمل آخر من أعمال عيسى عليه السلام نشير بعض الفوائد العلمية المستفادة مما سبق:

١- البعض يبالغ ويحاول أن يؤكد أن الدجال يحكم الأرض الآن، وهؤلاء للأسف ممن يسمي نفسه باحثًا في أشراط الساعة أو مثل هذه الأسماء وتنشر أقواله مصورة على الإنترنت في حلقات متتالية، وهناك من يرفض فكرة الدجال أصلاً وينكر أحاديثها بالجملة كما ينكر أحاديث المهدي ونزول عيسى.

والحق الذي لا ريب فيه هو ما صرَّحت به الأحاديث الصحيحة

وهو تزامن ظهور المهدي مع عيسى مع الدجال والذي سيقوم عيسى عليه السلام بقتله، كما أوضحنا، وواجب المسلم المتبع لمنهج أهل السنة والجماعة أن يؤمن بأشراط الساعة كما أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم بغير إفراط ولا تفريط كما أننا لا نستطيع أن نحدد لها زمانًا مجددًا ولا ننزلها على أشخاص معينين ولا جماعة بعينها كما فعل بعض المتاجرين بالدين، واستغلوا ضعف الأمة وحالة الانكسار التي تعاني منها وتجرؤوا جرأة عجيبة على تحديد مواقيت لحوادث كبار، فقال بعضهم وزعم أن المهدي يظهر في يوم الثلاثاء الموافق ٢٥ محرم ١٤٢٠هـ، ويحدِّد كذلك المدة بين ظهور المهدي ونزول عيسى عليه السلام بأنها ثمانية أشهر، وقد سبقه لذلك من حدد ظهور المهدي في عام ١٤٠٠هـ وفي المحرم منه، وقاموا باحتلال الحرم المكي فعلاً وقدموا المهدي المزعوم للصلاة في الفتنة المعروفة بفتنة جهيمان، وادعى بعضهم أن ظهور عيسى عليه السلام ستكون عام ٢٠٠٠م ووفاته ستكون ٢٠٠٧م، وأن نهاية العالم ستكون ٢٠١٠م، وقد كذب الواقع كل هذه التخرصات

> **الحق الذي لا ريب فيه هو ما صرَّحت به الأحاديث الصحيحة وهو تزامن ظهور المهدي مع عيسى مع الدجال والذي سيقوم عيسى عليه السلام بقتله.**

والحمد لله.

وكل هؤلاء المتخرصين وقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب، ونحن نبرأ إلى الله من كل ذلك.

٢- إن من الحكم العظيمة كون المسيح عليه السلام هو الذي يسلطه الله على الدجال كما صح في الأخبار عن سيد الأبرار أن عيسى عليه السلام ينزل آخر الزمان، قبل يوم القيامة من السماء فيقتل مسيح الضلالة الدجال على بعد خطوات من باب مدينة اللد، ويُظهر دين الله وتوحيده، ويقضي على أعدائه الذين رموه وأمه بالعظائم، وحاولوا أن يقتلوه ويصلبوه، كما سيقتل أيضًا أعداء الدين وسوف تعود الملل في زمنه واحدة وهي ملة إبراهيم حنيفًا والتي أمر الله رسوله محمدًا أن يتبعها وهي ملة جميع الأنبياء من لدن آدم حتى ختمهم الله بمحمد النبي الأمي، وذلك أن عيسى عليه السلام حين بعث في قومه أول مرة قال كما أخبر الله عنه في كتابه الكريم: «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (الصف: ٦- ٧). فلما رفض اليهود ما جاءهم به عيسى عليه السلام من البينات الواضحات ومن تبشيره بالنبي الخاتم الذي يأتيهم بدين الإسلام الذي اختاره الله للعالمين، وقعوا في ظلم عظيم وكذب مبين، فكان الجزاء من جنس العمل، فكانوا أتباع أكذب خلق الله وصاحب أعظم فتنة على دين الناس منذ خلق الله آدم حتى قيام الساعة، فأراد الله سبحانه أن يكون مقتل الدجال وهزيمة أتباعه على يد عيسى ابن مريم فتكون هزيمة كبرى للباطل وأهله أمام الحق وأهله، الباطل الذي يمثله الدجال وأتباعه من اليهود وغيرهم، والحق الذي يمثله عيسى ابن مريم وأتباعه من المسلمين الموحدين.

والحمد لله رب العالمين.

مع القصة في كتاب الله

نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان (١٢)

هلاك يأجوج ومأجوج

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ووعده وعد الحق، وقال وقوله الصدق: « هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ » (التوبة: ٣٣)، والصلاة والسلام على النبي الأمي الكريم وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

مر بنا فيما مضى من لقاءات الحديث عن أعمال عيسى عليه السلام بعد نزوله في آخر الزمان من كسر الصليب وقتل الخنزير وقتل الدجال الذي هو رأس الشر وأصل الفتنة والابتلاء.

وعلمنا مما سبق أن الله سبحانه سلط عيسى ابن مريم عليه وعلى أمه البتول أفضل السلام أن الله سلطه على الدجال فيذوب الدجال عندما يرى المسيح كما يذوب الملح بحيث لو تركه المسيح عيسى لمات من نفسه، لكنه سيرميه بحربته رمية واحدة فيقتله بإذن الله عند باب اللد الشرقي.

وبمقتل الدجال يتفرق أتباعه ومعظمهم من اليهود ويسلط الله عليهم جنده من المسلمين فيقتلونهم فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى خلفه اليهود إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله، وهذا جزاء من غضب الله عليه، فكل شيء في الأرض وفي السماء يغضب عليه، وقد غضب الله على اليهود ولعنهم في كل كتاب وعلى كل لسان إلا من وافقهم من أهل الباطل فهم مثل شجر الغرقد الذي يزرعه اليهود بكثرة.

وبعد مقتل الدجال وأتباعه تجتمع الأمة على عيسى عليه السلام الذي يحكم بين الناس ويكون فيهم حكمًا عدلاً وإمامًا مهديًا يحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى ملته، وتكون الدعوة واحدة والدين واحد وهو دين الإسلام الذي هو دين جميع الأنبياء وهو الذي أرسل الله به محمدًا صلى الله عليه وسلم ليظهره على الدين كله، وتأتي مهمة عيسى عليه السلام في آخر الزمان، حيث لا يقبل من أهل الأرض إلا الإسلام، وهذا معنى أن تكون الدعوة واحدة والملة واحدة، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى

لا يقبله أحد». متفق عليه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

واليوم أيها الأخ الكريم نتحدث عن عمل آخر في سيرة عيسى ابن مريم الإصلاحية في آخر الزمان، وهو يتعلق بفتنة أخرى تقع لعيسى ومن معه من المسلمين، والآن نقرأ معًا الجزء الخاص بيأجوج ومأجوج مع عيسى عليه السلام، والذي جمعه الإمام الألباني رحمه الله من أحاديث صحيحة للإمام مسلم ومن مسند الإمام أحمد وغيرهما من حديث النواس بن سمعان وأبي هريرة وغيرهما، وقد ساقها المؤلف على الوجه التالي بعد أن جمع أطرافها: (وما وضعته هكذا توضيح لبعض الفقرات): «ثم يأتي عيسى ابن مريم قوماً قد عصمهم الله منه (أي من الدجال) فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة (هذا بعد مقتل الدجال)، ثم يواصل الشيخ الألباني نقل القصة من الأحاديث كما يلي:

«فبينما هو كذلك؛ إذ أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرِّز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبريا،

> يحصرُ نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم.

فيشربون ما فيها، فيمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه ماء، ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر، فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماءً، ويحصرُ نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله عليهم النَّغف في رقابهم فيصبحون موتى كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم.

فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يَكُنُّ منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة».

هذه قصة يأجوج ومأجوج في مسيرة عيسى عليه السلام كما جاءت في الأحاديث، وقد جمعها ورتبها الشيخ الألباني رحمه الله، ولنا معها الوقفات التالية:

١- سرد مجمل للأحاديث في نقاط يوضح بعض غوامضها.

٢- استخلاص الحقائق العلمية والفوائد الإيمانية المستفادة منها.

أولاً: عرض توضيحي لأحداث القصة في نقاط:

١- بعد أن قضى الله على الدجال بضربة من حربة عيسى عليه السلام، وطهَّر الله الأرض من شرِّه وشر أتباعه من اليهود والمشركين، وأخذ عيسى عليه السلام يتفقد أصحابه ويجمع صفوفهم ومنهم قوم من المسلمين تحصنوا من الدجال ووقاهم الله من فتنته فيمسح نبي الله عيسى عليه السلام على وجوههم مبشرًا لهم بدرجاتهم في الجنة.

٢- وبينما هو كذلك إذ أوحى الله إليه إني أخرجت عبادًا لي وهم يأجوج ومأجوج لا يستطيع أحد قتالهم فحصِّن من معك من المؤمنين بجبل الطور. والله أعلم (هكذا قال صاحب

المفهم في شرحه صحيح مسلم).

٣- يبعث الله يأجوج ومأجوج من كل حدب ينسلون فيمرون على بحيرة طبريا فيشربون ما فيها حتى يمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه ماء، ويواصلون مسيرتهم حتى ينتهوا إلى جبل الخمر في بيت المقدس، وقد سمي بهذا الاسم لكثرة الأشجار حوله والتي تستر من خلفها كما تستر الخمر العقل، ويظن قوم يأجوج ومأجوج أنهم قتلوا من في الأرض، فيأخذهم الغرور، فيقولون: هيا نقتل من في السماء، فيرمون بسهامهم إلى السماء فيملي لهم الله، ويرد عليهم سهامهم وفيها آثار دماء.

٤- في تلك الأثناء قد اشتد الحصار على عيسى ومن معه من المسلمين، فيتوجهون إلى الله بالدعاء أن يخلصهم من شر يأجوج ومأجوج.

٥- فيرسل الله سبحانه نوعا من الدود يسمى (النغف) في رقابهم فيموتون جميعًا كنفس واحدة.

٦- ينزل عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض فيجدونها قد امتلأت من جثثهم ونتنهم فيتوجهون إلى الله بالدعاء ليطهِّر الأرض منهم ومن نتنهم.

> إن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، وهي من علم الغيب الذي أخبره الله به.

٧- فيرسل الله طيرًا ضخمة لها أعناق مثل أعناق الإبل الضخمة فتحمل هذه الجثث وتطرحها حيث يشاء الله، ثم يرسل الله مطرًا يعم جميع الأرض ليغسلها من آثار جثث يأجوج ومأجوج ويتركها وقد تطهرت تمامًا من نتنهم.

ثانيًا: الحقائق العلمية والدروس الإيمانية:

١- أولى هذه الحقائق أن خروج يأجوج ومأجوج من علامات الساعة التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، وهي من علم الغيب الذي أخبره الله به وتصديق خبره صلى الله عليه وسلم من شروط الإيمان به، ونحن نصدق بخبر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الوجه الذي جاء به.

وقد علمنا من النصوص المتقدمة أن زمن خروج يأجوج ومأجوج سيكون بعد نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، وقت انقضاء فتنة الدجال وأتباعه، وفي هذا رد على المشككين في خروج يأجوج ومأجوج بل يشككون في وجودهم من الأساس، ويشككون في السد الذي بناه ذو القرنين والذي سيفتح في الوقت الذي أراد الله كما أخبر سبحانه في كتابه الكريم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ (الأنبياء: ٩٦)، أي: فتح السد الذي يحجز يأجوج عند الخروج حتى يأذن الله، وفي الوقت الذي يشاء، وهذا يفسره قول الحق تبارك وتعالى في سورة الكهف: ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (الكهف: ٩٨)، وقد علمنا من الأحاديث التي سقناها في قصة نزول عيسى عليه السلام زمان هذا الوعد كما بيناه آنفًا.

كما في ذلك ردٌّ على الذين قالوا: إن يأجوج ومأجوج هم الترك أو المغول أو الصينيون أو الروس أو كل مفسد في الأرض، وقد خرجوا وانتهى زمانهم، وكل هذه التخرصات تدحضها

هذه الحقائق الواضحة فقد علمنا صفاتهم وزمان خروجهم من الأحاديث الصحيحة فلا مجال لقول قائل بعد ذلك.

وثاني هذه الحقائق: مكانة الدعاء في رفع البلاء:

إن شأن الدعاء في الإسلام شأن عظيم ومكانته فيه سامية ومنزلته في رفع البلاء عالية وخصوصًا إذا فقد المرء الأسباب المادية المشروعة في رفع البلاء كما رأينا فيما تقدم، فإن الله أوحى لعيسى عليه السلام: «أني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم» أي: لا يستطيع أحد قتالهم أو ردهم، ولذلك طلب الله من نبيه عيسى أن يحصِّن المسلمين بالجبل، والله سبحانه يعلم أن يأجوج ومأجوج لن يصعدوا إلى الجبل، ولن ينتبهوا إلى وجود أحد هناك، أو لعل الله منعهم من ذلك- والله أعلم-، ولما فعل عيسى عليه السلام ما أمره الله به من أسباب يقدر عليها، ألا وهو تحصين من معه من المسلمين بجبل، ثم توجه إلى الله بالدعاء هو ومن معه من المؤمنين أن يخلصهم من شر يأجوج ومأجوج، فاستجاب دعاءهم وصرف عنهم شر القوم، وأرسل عليهم دودًا صغيرًا فأهلكتهم جميعًا مرة واحدة.

ثم توجه عيسى ومن معه من المؤمنين مرة أخرى إلى الله بالدعاء أن يطهر الأرض من جثثهم ونتنهم، فأرسل الله طيرًا حملتهم إلى حيث شاء، ثم أرسل مطرًا مدرارًا وماء طهورًا لم يترك الأرض إلا وقد جعلها كالمرآة في نقائها ونظافتها.

> **الدعاء هو روح الدين، وزاد المؤمنين المتقين، وعنوان الخضوع والتذلل لرب العالمين، وهو حقيقة العبادة.**

وهكذا ندرك شرف الدعاء ومكانته في دفع البلاء، فالدعاء هو روح الدين، وزاد المؤمنين المتقين، وعنوان الخضوع والتذلل لرب العالمين، وهو حقيقة العبادة، وقد عرض علينا القرآن الكريم في مسيرة الأنبياء والصالحين كيف كانوا يدعون رب العالمين خوفًا وطمعًا ورغبًا ورهبًا، وسيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حافلة بذلك ولولا مخافة الإطالة لعرضنا عليكم أمثلة لذلك وهي كثيرة.

ثالثًا: لله تعالى جنود السماوات والأرض

نعم لله تعالى جنود السماوات والأرض يرفع البلاء عن عباده بما يشاء ويسلط أضعف خلقه على من يشاء من الطغاة والجبابرة، وانظر كيف سلط الله على هؤلاء القوم المتجبرين دودًا صغيرة الحجم عظيمة الأثر، وانظر كيف سلط على النمرود الطاغية ذبابة، فأهلكته، أو بعوضة، والله أعلم، وكيف سلط على أصحاب الفيل طيرًا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلتهم كعصف مأكول. وكيف أغرق أقواماً بالماء وخسف بآخرين الأرض، وسلط الريح على غيرهم وأهلك أقوامًا بالصيحة، فهو سبحانه إذا أراد شيئًا هيأ له أسبابه ولا يرد بأسه عن القوم الظالمين.

وعلى المؤمنين في كل زمان ومكان أن يوثقوا صلتهم بالله- سبحانه- وأن يثقوا في وعده، وأن يستجلبوا ذلك بنصرة دينه سبحانه - كما أخبر سبحانه فقال: «إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ» (محمد: ٧)، وقال تعالى: «إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ» (غافر ٥١).

اللهم اجعلنا من الذين يؤمنون بوعدك ويصدقون بخبرك، وخبر نبيك صلى الله عليه وسلم وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، آمين.

مع القصة
في كتاب الله

نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان (١٢)

فقه الأحاديث (٤)

ثم ماذا بعدُ؟

الحمد لله العلي الكبير، والصلاة والسلام على البشير النذير، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعدُ:

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

ماذا بعد؟

ماذا بعد الأحداث العظيمة التي مرت بنا في اللقاءات السابقة، ماذا بعد كسر الصليب وقتل الخنزير وقتل الدجال، وهلاك يأجوج ومأجوج؟ وهذه أحداث من علوم الغيب أخبر بها الصادق الذي لا ينطق عن الهوى، وهذه الأحداث الكبرى التي سيباشرها المسيح ابن مريم بإذن الله تعني تطهير الأرض من الفساد بأشكاله وألوانه؛ فكسر الصليب يشبه ويرمز إلى القضاء على فساد العقيدة، وقتل الخنزير يدل على ذبح فساد الاعتقاد في استباحة ما حرم الله، ومقتل الدجال هو قضاء على فساد القيادة التي تتزعم الشر في العالم، وهلاك يأجوج ومأجوج، وهم همج رعاع أتباع كل ناعق بلا علم، فإذا تخلصت الأرض ومَن عليها من المؤمنين من فساد الاعتقاد واتباع الهوى؛ أيْ: من فتن الشبهات، وفتن الشهوات، ومن الزعامة الفاسدة المضللة التي تقود الناس إلى جهنم، ومن الدهماء الفاسدة الذين لا همَّ لهم إلا شهواتهم، فماذا يحدث بعد ذلك؟ هذا ما سنوضحه بعون الله فيما يلي:

أولاً: نشير إلى النصوص الحديثية الواردة في ذلك:

«.. ثم يُقال للأرض أنبتي ثمرتك، وردِّي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك في الرِّسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم تكفي الفخذ من الناس، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة»، هذه في صحيح مسلم من حديث النواس بن سمعان، وعند أحمد وغيره، وقد ألف بينها وصحح أحاديثها الشيخ الألباني رحمه الله في كتابه «قصة المسيح»، وفي السلسلة الصحيحة برقم (١٩٢٦)، وهذه الروايات من معظم ما ورد في القصة، ولكن هذا لا يمنع أن نورد بعض الأحاديث الأخرى، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والله لينزلن ابن مريم حكمًا عدلاً (عادلاً) فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتُتركن القلاص، فلا يُسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد،

وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد».

ثم ماذا بعدُ: «فيمكث عيسى عليه السلام في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون». رواه أحمد من حديث أبي هريرة وابن حبان وصححه الشيخ الألباني.

ثانيًا عرض مجمل للنتائج:

ماذا يترتب على خلو الأرض من الشر والفساد المتمثل في فتن الشبهات المضلِّلة وفتن الشهوات المفسدة، ومن دعاة على أبواب جهنم يتزعمهم الدجال، ومن الهمج الرعاع أتباع كل ناعق، وأسوؤهم يأجوج ومأجوج؛ فإذا حدث ذلك بفضل الله، وكان الإمام حكمًا عادلاً وهو عيسى ابن مريم عليه السلام الذي يحكم بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك تُملأ الأرض من السِّلم أي من الإسلام والسلام والسلامة، فلا يُعبدُ إلا الله وحده لا شريك له، فلا يُعبد الهوى ولا الشيطان ولا النفس ولا الدنيا، ولا يتخذ الناس بعضهم أربابًا من دون الله، عندئذ تنزع الشحناء من النفوس والبغضاء والتحاسد، ويحل محلها المحبة والإخاء والإيثار، ويقول الله سبحانه وتعالى للأرض: «أنبتي ثمرتك وردِّي بركتك». ومن هنا قال عليه السلام: «طوبى لعيش بعد المسيح، طوبى لعيش بعد المسيح» أي: ما أطيب العيش بعد نزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان! وبعد كسره للصليب وقتله للخنزير وقتله الدجال، وهلاك يأجوج

> **عندما يتحقق توحيد الله في الأرض تنزل البركة من السماء وتخرج من الأرض ويسود الأمن والأمان والسلامة.**

ومأجوج، ووضعه الجزية، وعدم قبوله من أحد كائنًا من كان عندئذ إلا الإسلام، فتكون الملة واحدة؛ ملة إبراهيم، والدين واحدًا؛ دين محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يُعبد إلا الله سبحانه وتعالى، وبهذا أنزل الله كتبه وأرسل رسله.

ثالثًا: مظاهر البركة والأمن والأمان بعد توحيد الله سبحانه:

عندما يتحقق توحيد الله في الأرض تنزل البركة من السماء وتخرج من الأرض ويسود الأمن والأمان والسلامة، وبهذا أقام الله حجته على خلقه، وألهمها إبراهيم عليه السلام فأقامها على قومه منذ عهد بعيد وسجَّلها القرآن الكريم بأحرف من نور تتلى على الناس إلى ما شاء الله حيث قال ربنا عز وجل: «الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» (الأنعام: ٨٢، ٨٣)، فمصدر الأمن والهداية هو توحيد الله؛ لأن الظلم المنهي عنه هو الشرك المنافي للتوحيد في أصله وكماله.

وقد أقام الله سبحانه وتعالى هذه الحجة أيضًا على أهل الكتاب حيث قال سبحانه: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ» (المائدة: ٦٥، ٦٦).

وقد أقام الله سبحانه هذه الحجة على كل الخلق ومنهم أهل القرى عاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون وغيرهم، فقال سبحانه: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (الأعراف: ٩٦).

أخي القارئ: كان لا بد من هذه المقدمة قبل الحديث عن مظاهر البركة والأمن والأمان؛ لأنها تبين وتوضح سنن الله في خلقه والتي لا تتبدل ولا تتغير وللناس في كل زمان ومكان؛ نصيب من نتائجها بحسب التعامل معها، والآن نعود لتفصيل مظاهر البركة كما جاء تفصيلها في الأحاديث الشريفة:

١- «أنبتي ثمرتك وردي بركتك» تنبت الأرض نباتها ببركة من الله سبحانه، وهذه البركة التي وضعها الله في الأرض منذ خلقها لآدم وذريته دون تدخل مفسد من الإنسان بالهرمونات والمسرطنات التي تسمم الأبدان، ومن مظاهر هذه البركة أن الرمانة الواحدة تكفي العصابة، أي: الجماعة من الناس التي تصل إلى

الأربعين نفسًا لكبر حجمها، حتى إن قشرتها تقعر وتستخدم كمظلة ويستظل بها الجماعة من الناس يأكلون منها ويستظلون بقحفها، ومن مظاهر هذه البركة أن يبارك في الضرع كما بارك في الزرع، فتكفي اللقحة من الإبل- أي الناقة التي يكون لها لبن وهي قريبة العهد بالولادة تكفي أي تكلفي الحلبة الواحدة منها الفئام من الناس، وهي الجماعة الكبيرة أكبر من العصابة وأقل من القبيلة، وأما الحلبة الواحدة من البقرة فتكفي القبيلة، وهكذا يبارك الله سبحانه في الزرع والضرع وإذا بارك الله في شيء فبركته لا حدود لها، (يكفى الضرع الواحد).

٢- أما مظاهر الأمن، فمنها:

«لا تشاح ولا تحاسد ولا تباغض». هذا ليس بين البشر فحسب، بل بين الحيوانات ذات السموم من الحيات والعقارب وغيرها تنتزع منها سمومها ويلعب بها الصبيان الصغار في أمن وأمان، حتى الأسود المفترسة يلعب معها الصغار فلا تضرهم، والذئاب تصبح في الغنم كالكلاب التي تحرسها، وتضع الحرب أوزارها بين البشر؛ لأنه لا بغي ولا حسد ولا ظلم، ولا اختلاف في الدين ولا في المذهب، فأهل الأرض كلهم على دين واحد وهو الإسلام، وكلمتهم واحدة لا يعبدون إلا الله وحده لا شريك له وإمامهم واحد وهو عيسى ابن مريم عليه السلام حكمًا عدلاً مقسطًا يطبق فيهم شريعة الإسلام، فلا تنازع بين الناس في عقيدة ولا في دنيا؛ لأن المال

> الأمن والبركة والسلام مصدرهم توحيد الله سبحانه وإقامة شرعه في الأرض.

سيفيض حتى لا يقبله أحد كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة، وكذا في صحيح مسلم: «ولتتركنَّ القلاص فلا يسعى إليها ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد ويدعون إلى المال فلا يقبله أحد».

والقلاص جمع قلوص وهي الناقة من الإبل، وهي من أشرف أنواع الإبل وأنفسها من أموال العرب ومع ذلك لا يسعى لها أحد ولا يهتم أحد بالمال لصفاء النفوس وامتلائها بالإيمان وقناعتها بما في أيديها وقرب الساعة.

٣- ومن مظاهر الأمن والسلام رخص ثمن الخيل.

ففي الحديث الذي رواه أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه: «.. ويكون الثور بكذا وكذا من المال، ويكون الفرس بالدريهمات». قالوا: يا رسول الله، وما يُرخص الفرس؟ قال: «لا تُركب لحرب أبدًا».

فلماذا الحروب وقد دان الناس بدين الله وذهب التباغض والتحاسد والشحناء من النفوس، وزاد المال وفاض وعمّت البركة أرجاء الأرض ونزلت من السماء.

رابعًا: من أهم الدروس المستفادة:

الأمن والبركة والسلام مصدرهم توحيد الله سبحانه وإقامة شرعه في الأرض.

قال ابن القيم رحمه الله: «فإن الشرك أظلم الظلم كما أن أعدل العدل التوحيد، فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك، ولهذا يجمع سبحانه بينهما، أما الأول ففي قوله تعالى: « شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ » (آل عمران: ١٨)، وأما الثاني فكقوله تعالى: « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » (لقمان: ١٣)» (كتاب الفوائد، ص٨٢).

ولهذا سمى رسول الله عيسى عليه السلام ووصفه بقوله: «إمامًا حكمًا عادلاً»، فهو إمام عادل يقود الناس إلى توحيد الله الذي هو أساس العدل، وإذا سار العدل حُفظت الحقوق، ونُصر المظلوم وولت الهموم وأدبرت الغموم، ورحم الله الإمام ابن تيمية حين قال في كتاب الاستقامة: «وَأُمُورُ النَّاسِ تَسْتَقِيمُ فِي الدُّنْيَا مَعَ الْعَدْلِ الَّذِي فِيهِ الِاشْتِرَاكُ فِي أَنْوَاعِ الْإِثْمِ: أَكْثَرُ مِمَّا تَسْتَقِيمُ مَعَ الظُّلْمِ فِي الْحُقُوقِ وَإِنْ لَمْ تَشْتَرِكْ فِي إثْمٍ ؛ وَلِهَذَا قِيلَ: إنَّ اللَّهَ يُقِيمُ الدَّوْلَةَ الْعَادِلَةَ وَإِنْ كَانَتْ كَافِرَةً ؛ وَلَا يُقِيمُ الظَّالِمَةَ وَإِنْ كَانَتْ مُسْلِمَةً. وَيُقَالُ: الدُّنْيَا تَدُومُ مَعَ الْعَدْلِ وَالْكُفْرِ وَلَا تَدُومُ مَعَ الظُّلْمِ وَالْإِسْلَامِ» (مجموع الفتاوى ٢٨/ ١٤٦). والله سبحانه أعلم وأعز وأكرم، وإلى لقاء آخر أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

مع القصة
في كتاب الله

نزول عيسى (عليه السلام) في آخر الزمان (١٤)

موت عيسى (عليه السلام) ودفنه

الحمد لله الباقي بعد فناء خلقه، فهو سبحانه الحي القيوم، والخلق جميعًا يموتون لا فرق في موت الخلق بين ملك مقرَّب أو نبي مرسل، وقد وجَّه الله بهذا لحبيبه ومصطفاه محمد بن عبد الله، فقال سبحانه: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ» (الزمر: ٣٠).

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

أخي الكريم: عشنا في اللقاء السابق مع طيب العيش وسعة الرزق والبركة التي وضعها الله في الأرض وأنزلها من السماء بعد نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، وحكمه الأرض بالعدل، وتوحيد الكلمة والملة، فصار الدين واحدًا، والملة واحدة، والكلمة هي كلمة الإخلاص «لا إله إلا الله»، والدين هو دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والملة هي ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين، وبهذا ساد العدل وانتشر الأمن وحلَّت البركة في الزرع والضرْع، وعاش المسلمون في أمن وأمان، وبركة ورخاء تظلهم شريعة سمحاء ويؤمهم إمام عادل، وقد فصَّلنا القول في ذلك في اللقاء السابق، واليوم بحول الله وطوله وقوته ومدده نناقش عددًا من القضايا نبدؤها بذكر النصوص الواردة:

أولاً: النصوص المتعلقة بموضوع اليوم:

١- أورد الشيخ الألباني رحمه الله في كتاب قصة المسيح الدجال تحت رقم (٤٥): «فيمكث عيسى عليه السلام في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى، فيصلي عليه المسلمون» من حديث أبي هريرة عند الإمام أحمد وابن حبان وغيرهما.

٢- والحديث ذكره الحافظ ابن كثير في النهاية وقال عنه: إسناده جيد: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وإنّي أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، إنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصَّران كأن رأسه يقطر ماءً وإن لم يصبه بلل، فيدق الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويدعو الناس إلى الإسلام، ويهلك الله في زمانه الأمم كلها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، ثم تقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات، فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون». والشاهد هنا على موضوعنا اليوم هي العبارة الأخيرة: «فيمكث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون». وإن كان الحديث قد لخَّص قضايا كثيرة أشرنا إليها في مقالاتنا السابقة بشيء من التفصيل.

ثانيًا: قضية حياة عيسى عليه السلام وموته:

القول الفصل في حياة عيسى عليه السلام وموته هو أنه عليه السلام حيٌّ عند ربه قد رفعه الله إليه كما أخبر في كتابه الكريم، ونجاه من الصلب والقتل، ولن يموت عيسى عليه السلام إلا بعد نزوله من السماء مرة أخرى آخر الزمان كما قدمنا في الأحاديث السابقة، وسيموت عيسى عليه السلام في آخر الزمان بعد أن يبقى في

الأرض أربعين سنة على القول الراجح، وبعد أن ينتشر الإسلام والعدل والأمن والأمان في الأرض، عند ذلك يموت عيسى عليه السلام ويُغسل ويكفن ويُصلي عليه المسلمون.

هذا هو معتقد أهل السنة والجماعة في عيسى عليه السلام من قبل، والآن وحتى آخر الزمان، ولم يخالف في ذلك من المسلمين إلا الفرق الضالة التي لا يأتي منها خير ولا يُعتد بقولها في شيء، وكذلك بعض المسلمين الذين يقدِّمون عقولهم على النصوص الصحيحة المتواترة ولم تستوعب عقولهم طلاقة القدرة الإلهية، وليتهم أعملوا عقولهم في فهم النصّ، وما استغلق عليهم أوكلوه إلى الله وإلى أولي العلم منهم، ونحن نقول لهؤلاء الذين لم يستوعبوا أن عيسى حيٌّ عند الله لم يمت للآن، نقول لهم كما استوعبتم أن الله خلق عيسى من أم بغير أب، كذلك استوعبوا أن عيسى حي عند الله، وأنه سينزل آخر الزمان، ثم يموت بعد أن يستوفي رزقه وأجله الذي كتبه الله له، واعلموا أن الله جعل عيسى وأمه آية للعالمين، فاستوعبوها، كما قال الله تعالى: «وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ» (الأنبياء: ٩١).

وهكذا شاء الله أن يجعل في ميلاد عيسى آية، وفي حياته آية، وفي المعجزات التي أجراها على يديه بإذنه سبحانه آيات، وفي رفعه إليه آية، وفي

> **أضل الشيطان أهل الكتاب ضلالاً بعيداً في أمر عيسى عليه السلام.**

إنزاله مرة أخرى إلى الأرض آية، وفي موته بعد نزوله آية، فهي آيات واضحات تنزل على قدرة الله سبحانه ومشيئته استوعبها من استوعبها، وأضل الشيطان بها أقوامًا آخرين.

أضل الشيطان أهل الكتاب ضلالاً بعيدًا في أمر عيسى عليه السلام؛ أضل اليهود فأنكروا الآيات ونسبوها للسحر، وكفروا بعيسى عليه السلام، واتهموا أمَّه بالزنى- ولا حول ولا قوة إلا بالله- أما النصارى فكانوا على النقيض من ذلك، فقالوا: إنه الله، أو قالوا: ثالث ثلاثة، أو قالوا: هو ابن الله، وقالت طائفة الحق هو عبد الله ورسوله، ولكن هذه الطائفة غُلبت على أمرها وانتهت قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الله بالحق الذي كانوا فيه يمترون.

والخلاصة التي عليها أهل الحق أن عيسى عليه السلام رفعه الله إليه وهو حي عند الله الآن، وحياته حتى اليوم وإلى أن يشاء الله لا تجعله إلهًا ولا ابن الله، بل هو بشر ممن خلق الله وقد استثناه الله من الموت حتى الآن، وإلى أن يشاء لحكمة يعلمها سبحانه، كما استثنى بعض مخلوقاته من الموت لحكمة أرادها ولا يجعلها هذا الاستثناء في مصافّ الآلهة، ومعلوم أن الله لم يكتب الفناء على بعض المخلوقات مثل الجنة والنار والكرسي والقلم واللوح، ولا يقول عاقل: إن هذه الأشياء آلهة.

أما عيسى عليه السلام فسيموت بعد نزوله إلى الأرض واستكمال مهمته فيها بالقضاء على مصادر الشر المتمثلة في الدجال وأتباعه من اليهود، وكسر الصليب وقتل الخنزير، وتخليص الأرض من يأجوج ومأجوج، وبعد أن تكون الملة واحدة والدعوة واحدة، وهي الإسلام، ويعم السلام والرخاء والأمن، ويبقى عيسى في الأرض أربعين سنة ثم يموت بإذن الله.

ثالثًا: الصحيح في مدة بقاء عيسى عليه السلام في الأرض:

جاء في حديث أبي هريرة المذكور معنا أن مدة بقاء عيسى في الأرض أربعون سنة، وجاء في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما الذي أخرجه مسلم وأحمد: «.. يخرج الدجال في أمتي، فيبعث الله عيسى ابن مريم فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنتين عداوة». والحديثان صحيحان، وللنظرة المتعجلة يظهر أن بينهما تعارضًا، والحق أنه لا تعارض بينهما للمتأمل، وخصوصًا أن هناك رواية للحديث عند الإمام أحمد فيها: «ثم يلبث الناس بعده سبع سنين ليس بين

اثنين عداوة».

وقد وجَّه المحققون من أهل العلم عودة الضمير في «بعده» على عيسى عليه السلام، أي بعد موته، وإلى هذا ذهب الإمام البيهقي رحمه الله، ونقله عنه الإمام ابن كثير في النهاية: «يحتمل أن يكون قوله في حديث ابن عمرو: «ثم يلبث الناس سبع سنين» أي: بعد وفاة عيسى عليه السلام، فلا يكون مخالفًا للأول فترجح عندي هذا التأويل؛ لأن الحديث ليس نصًا في الإخبار عن مدة بقاء عيسى، وذاك نص فيها؛ لأن ثم ما يؤيد هذا التأويل، وكذلك قوله: «يلبث الناس بعده»، والضمير لعيسى؛ لأنه أقرب مذكور، ولأنه لم يرد في ذلك سوى الحديث المحتمل، ولا ثاني له، وورد في مكث عيسى أربعين سنة في عدة أحاديث من طرق مختلفة، فهذه الأحاديث المتعددة وغيرها، أولى من ذلك الحديث المحتمل». اهـ.

وهكذا يرى الإمام البيهقي ويوافقه ابن كثير أن حديث عبد الله بن عمرو ليس نصًا في الإخبار عن المدة، وهو يحتمل التأويل، أما حديث أبي هريرة وغيره فهو نص صريح في مدة بقاء عيسى عليه السلام، وحديث عبد الله بن عمرو حديث واحد محتمل، والأحاديث التي تثبت بقاء عيسى أربعين سنة كثيرة ومتعددة، وبذلك ترجح من عدة وجوه أن مدة بقاء عيسى عليه السلام في الأرض بعد نزوله وقبل موته أربعين سنة، والله أعلى وأعلم. (وليس ألف عام كما يظن أصحاب الألفيات).

> **بين يدي الساعة: يبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا.**

رابعًا: مكان دفن عيسى:

أين سيدفن عيسى بعد موته؟ في المدينة أم بالشام؟

هذا موضع خلاف بين أهل العلم، فقد نقل ابن كثير في النهاية عن القرطبي في آخر كتاب التذكرة أن وفاة عيسى ستكون بالمدينة النبوية، فيصلَّى عليه هناك، ويدفن في الحجرة النبوية أيضًا، وقد ذكر ذلك أبو القاسم ابن عساكر، ولم يؤكد ابن كثير هذا أو ينفيه، وقد وردت عدة أحاديث في هذا الباب لكنها ضعيفة، منها ما جاء عند عبد الله بن سلام رضي الله قال: نجد في التوراة أن عيسى ابن مريم عليه السلام يُدفن مع محمد صلى الله عليه وسلم، وقد روى البخاري في التاريخ الكبير عنه: «يدفن عيسى ابن مريم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه فيكون قبره رابعًا».

ولما كانت هذه الأحاديث قد ضعَّفها كثير من أهل العلم، منهم الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ العلامة الألباني، رحمهما الله، وغيرهما من السابقين، فإننا لا نستطيع أن نجزم القول بشأن مكان دفن عيسى عليه السلام بعد موته آخر الزمان أفي المدينة يدفن أم بالشام.

خامسًا: ماذا يحدث بعد موت عيسى عليه السلام:

الذي سيحدث بعد موت عيسى السلام كما ظهر من الأحاديث التي سبق بيانها أن ظاهرة الخير والأمن والأمان التي كانت في حياته ستبقى بعده سبع سنوات؛ «ثم يلبث الناس بعده سبع سنين ليس بين اثنين عداوة» أي: يبقى الناس على حالة الصلاح والخير التي كانوا عليها في حياة عيسى سبع سنين بعد وفاته، ثم تتغير الأحوال ويأتي الفساد شيئًا فشيئًا.

واليك ما ورد في ذلك باختصار: «فبينما هم كذلك؛ إذ بعث الله ريحًا باردة من قبل الشام فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه، ويبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، ولا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا فيتمثل لهم الشيطان فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارة أرزاقهم حسن عيشهم يتهارجون تهارج الحُمر فعليهم تقوم الساعة».

أما عن الساعة وقيامها فهذا حديث له موضع آخر، ولنا مع نبي الله عيسى عليه السلام وقفة أخيرة نتذكر فيها الخطوط العريضة والخلاصة المفيدة، إن شاء الله تعالى.

وقفات مع القصة في كتاب الله

قصة نزول المسيح عليه السلام آخر الزمان

الخطوط العريضة والخلاصة المفيدة

اعداد/ عبدالرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ليكون رحمة للعالمين، وهاديًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، فصلاة ربي وسلامه عليه وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فنحن وإياكم التقينا على صفحات هذه المجلة الغراء قرابة خمسة عشر شهرًا حول قصة نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان، حاولنا من خلالها أن نقدِّم الحقائق الناصعة من الكتاب والسنة وعقيدة الحق في عيسى عليه السلام من لحظة ولادته إلى أن رفعه الله إلى السماء حيًا يُرزق عند ربه، حتى ينزله الله بإذنه إلى الأرض مرة أخرى، حكمًا عدلاً يدعو إلى الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال وأتباعه من اليهود وغيرهم، ويبقى في الأرض أربعين سنة يعم العدل فيها ويسود الأمن والسلام.

ثم يموت عيسى عليه السلام كما يموت البشر لأنه بشر رسول وليس إلهًا ولا ابن الله، ولا ثالث ثلاثة، ويدفن عيسى في الأرض كما يُدفن جميع الأموات؛ لأن الله سبحانه هو الحي القيوم الذي لا يموت والخلق جميعًا يموتون، وبعد موت عيسى عليه السلام يبقى الناس بعده سبع سنين على الحالة الطيبة التي تركهم عليها ثم يحدث الفساد تدريجيًا حتى يعبد الناس الشيطان، وتقوم الساعة على شرار الخلق عندئذ، لكن بعد كم من السنين؟ الله أعلم.

وحاولنا أن نربط بين قصة نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان وما يحدث في الواقع الآن، وقد يقول قائل: وما علاقة نزول عيسى في آخر الزمان وما يحدث الآن؟ أجيبه: وهل يحرك العالم اليوم من شرقه إلى غربه إلا قضية نزول عيسى؟ لأنها قضية مرتبطة بأمن إسرائيل وتمددها وتوسعها، وأن تبقى القدس عاصمة أبدية لها، حيث سينزل فيها المسيح ويحكم العالم ألف سنة- كما اتفق اليهود والنصارى- فعملوا على ما اتفقوا عليه وتركوا ما اختلفوا فيه إلى حينه، فما يحدث في منطقتنا العربية وما يحدث من تقارب بين الرافضة والغرب، وما يحدث في العراق وسوريا واليمن، كل ذلك له صلة واضحة بأمن إسرائيل،

وتوسع إسرائيل وبقائها؛ لأن عقيدة القوم تقوم- بحسب زعمهم- على ثلاثة إشارات إلهية حتى يعود المسيح:

الأولى: قيام دولة إسرائيل من النيل إلى الفرات.

الثانية: إقامة هيكل سليمان والذي يزعمون أنه تحت المسجد الأقصى ويسعى اليهود اليوم لإعادته على أنقاض المسجد الأقصى- لا مكنهم الله من ذلك

.واعلم أخي أن ما ذكرته لك الآن ليس رجمًا بالغيب، ولا توهمًا لنظرية المؤامرة، ولكني قدمت خلال ما سبق الأدلة الدامغة على هذه الحقائق ومن كان له نظر يرى به أو سمع يسمع أو عقل يستوعب يكتشف هذه الحقيقة من خلال ما يقع حوله اليوم ويشاهده بأم عينه ويعقله بعقله، ولكن إذا لم يكن هناك قلب يعقل وبصر يبصر وأذن تسمع فماذا أملك- وللأسف هذا الكثير- ولا حول ولا قوة إلا بالله- ولأهمية هذا الموضوع وخطورته أحاول أن أضع بين يديك الخطوط العريضة والخلاصة المفيدة لما سبق بيانه، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا به، ونبدأ بما يلي:

أولاً: حقيقة المسيح كما بينها القرآن وكما يعتقدها المسلمون:

١ـ المسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله وأمه صديقة، قال الله تعالى: « مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ (المائدة:٧٥)، فالمسيح عليه السلام عبد أنعم الله عليه بالرسالة وأمه صديقة اصطفاها الله وطهّرها واصطفاها على نساء العالمين، ولم يكونا من الملائكة فضلاً أن يكونا آلهة، والدليل أنهما كانا يأكلان الطعام، ويترتب على أكل الطعام الحاجة إليه والحاجة إلى إخراج الفضلات، وتعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وحتى الملائكة لا تأكل ولا تشرب، فكيف برب العالمين؟

٢ـ جعل الله عيسى ابن مريم وأمه آية للعالمين، فجعل سبحانه في ميلاد عيسى آية وفي عنايته سبحانه بأمه آية، وفي حديثه في المهد آية وفي رسالته ودعوته ومعجزاته التي أيده الله بها آية، وفي رفعه إلى السماء آية، وفي نجاته من الصلب والقتل آية، وفي عودته مرة إلى الأرض ومدة بقائه بها ودعوته ثم موته في الأرض والبركات التي تصاحبه وانتصاراته على أعدائه آية.

٣ـ يعتقد المسلمون اعتقاد الحق أن الله رفع عيسى إليه ونجاه من الصلب والقتل وهو حي يرزق الآن عند ربه في السماء لم يمت حتى ينزل مرة أخرى، وهو مع ذلك ليس إلهًا ولا ابن الإله، وليس جالسًا على يمين الرب كما يعتقد ذلك أهل الباطل.

٤ـ كما يعتقد المسلمون أن نزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان لن يكون صاحب رسالة جديدة، بل سيكون حكمًا عدلاً وإمامًا مصلحًا من أئمة المسلمين المصلحين لأن دين الله واحد والأمة واحدة من آدم مرورًا بنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ومحمد صلى الله عليه وسلم والذي ختم الله به النبوة والرسالة وبعثه رحمة للعالمين، وقد بلّغ موسى وعيسى قومهم بذلك وبشروهم بالنبي الخاتم المبعوث آخر الزمان، وهو الذي دعا إبراهيمُ ربه أن يبعثه في الأمة التي هي من ذرية إسماعيل وهي الأمة التي ورثت الكتاب بعد فساد وإفساد بني إسرائيل.

ثانيًا: فساد اليهود وإفسادهم:

١ـ اليهود هم شياطين الإنس في الأرض جعلوا لأنفسهم مهمة واحدة ذكرها ربنا عز وجل في قوله تعالى: « وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا (المائدة:٣٣). فعمل اليهود الأساسي هو السعي بالفساد في الأرض، وأعظم هذا الفساد هو إفساد الدين، وإذا فسد دين البشر كان من السهل قيادهم إلى كل فساد.

٢ـ وقد بدأ اليهود بإفساد التوراة ثم الإنجيل، وحاولوا إفساد دين محمد صلى الله عليه وسلم ألا وهو الإسلام.

٣ـ إن الله سبحانه وتعالى أهلك القرون الأولى لما ظلموا وخرجوا على دين الله وحاربوا رسل الله، ثم أرسل موسى وعيسى بالبينات ثم أرسل محمدًا وختم به النبوات والرسالات، قال الله تعالى: « وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (القصص:٤٣)، والقرون الأولى تشمل قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم، ثم أورث بني إسرائيل الكتاب.

٤ـ وكما بعث الله موسى بعث عيسى وزكريا ويحيى وهارون من قبلهم أرسل إبراهيم وهود وصالحًا ونوحًا ثم محمدًا من بعد الجميع.

٥ـ قال الله تعالى: « ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (الأنعام:١٥٤، ١٥٥)، فكما طلب الله من عباده اتباع موسى كذلك طلب اتباع محمد الذي أنزل عليه الكتاب الذي وصفه بالمبارك وجعل في اتباعه سبيل الرحمة.

٦ـ فماذا فعل اليهود؟ حرّفوا ما جاء به موسى وكفروا بعيسى وحاولوا قتله، واتهموا أمه الصديقة وقتلوا يحيى وزكريا وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وحاولوا قتله مرارًا.

٧- لقد تاجر اليهود بوحي الله واشتروا به ثمنًا قليلاً، فحرفوا دين الله، وحرفوا التوراة والإنجيل، وحاولوا تحريف القرآن، فلم يستطيعوا ولن يستطيعوا ولو اجتمع معهم كل من في الأرض لأن الله سبحانه هو المتكفل بحفظه، وهذا من أعظم الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله وليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه آخر الكتب كما أن محمدًا خاتم الأنبياء.

٨- وكما حرف بولس- شاؤول- اليهودي دين النصارى حاول عبد الله بن سبأ اليهودي أن يحرِّف دين الإسلام، فلم يتمكن إلا أنه استطاع أن يحدث في الإسلام ثلمة وجرحًا عميقًا وشقًا كبيرًا بظهور فرقة الروافض الذين ليس لهم سَعي إلا في هدم الإسلام ونقض عراه وإفساد قواعده، وإن تسموا مسلمين ولكنهم في حقيقة الأمر يريدون إعادة الإمبراطورية الفارسية إلى عهدها الأول على حساب الإسلام والمسلمين من أهل السنة والجماعة.

٩- لقد تلاعب اليهود بدين النصارى تلاعبًا واضحًا وأهم مظهرين لهذا التلاعب هما:

أ- موقف القديس بولس الذي يدعونه بالرسول وهو يهودي اعتنق المسيحية في القرن الأول الميلادي بهدف إفسادها، وقد كان له ما أراد، وكانت أهم تحريفاته:

١ نقل المسيحية من التوحيد إلى الشرك، فجعل المسيح ابن الله.

٢ نقل المسيحية من دين خاص باليهود إلى دين عالمي.

٣ كرَّس عقيدة صلب المسيح تكفيرًا لخطايا البشر.

٤- قال بقيامة عيسى عليه السلام من الأموات وأنه جلس على يمين الرب، (ومما يؤسف له أن هذه المعتقدات صارت هي المسيحية في العالم).

٥- قال: إن جميع أحكام التوراة باتت منسوخة لأنها لعنة، وقال: شريعة موسى كالمؤدب تعدُ الناس لمجيء المسيح كان الناس بحاجة إليها لشعورهم بالخطيئة، أما وقد جاء المسيح فلا حاجة إلى المؤدب ولذلك بطلت الشريعة وزالت.

ب- أما المظهر الثاني فهو في القرن السادس عشر الميلادي على يد مارتن لوثر الألماني مؤسس البروتستانت، وصحيح لم يكن مارتن لوثر يهوديًا لكنه كان مدفوعًا من اليهود بشدة، وإذا كان بولس قد أبطل شريعة التوراة؛ فإن لوثر على العكس أعلى من شأن التوراة، ودعا إلى التمسك بحرفيتها، ويكفي أن أنقل إليك عبارته التالية ولا أزيد عليها: «إن الروح القدس (يقصد الله) شاءت أن تنزل كل أسفار الكتاب المقدس عن طريق اليهود وحدهم، إن اليهود هم أبناء الرب ونحن الضيوف الغرباء، وعلينا نحن النصارى أن نرضى كالكلاب التي تأكل من فتات مائدة أسيادها».

وبهذا الفكر ظهرت الصهيونية النصرانية قبل اليهودية، واستطاع اليهود أن يمتطوا ظهور النصارى في أوربا وخصوصًا إنجلترا ثم أمريكا التي شبهوا الهجرة إليها بخروج بني إسرائيل الأول مع موسى.

وبعدُ: كنت أود أن أنتهي في هذا التلخيص في هذا المقال، لكن سأضطر إلى لقاء آخر، إن شاء الله تعالى، فإلى ذلك، والله الموفق.

تهنئة واجبة

يسر أسرة تحرير مجلة التوحيد، واللجنة العلمية بالمجلة أن تتقدم بخالص التهاني لأحد أبناء الجماعة، وهو الباحث أحمد صلاح رضوان؛ وذلك بمناسبة حصوله على درجة الماجستير بتقدير «امتياز»، قسم العقيدة والفلسفة، كلية الدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية العالمية، وعنوان رسالته: «جماعة أنصار السنة المحمدية بمصر ودورها في محاربة الغلو».

وقد أشرف على الرسالة: الأستاذ الدكتور عبدالله شاكر، الرئيس العام لأنصار السنة، وأستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية العالمية، وناقشه كلٌ من:

- أ. د. بدران محمد شلبي العياري، أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الأزهر.

- أ. د. أحمد منصور سبالك، أستاذ الفقه وأصوله بجامعة الأزهر، ورئيس الجامعة الإسلامية العالمية.

أسباب النصر والنجاة

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله حمدًا طيبًا مباركًا كافيًا، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعدُ:

لعلك تذكر أيها القارئ الكريم أننا وقفنا معًا في اللقاء السابق على بيان مختصر لاعتقاد المسلمين من أهل السنة والجماعة في نزول عيسى عليه السلام، مع بيان الفرقان الذي جاء به القرآن بين الحق والباطل الذي عليه أهل الإسلام الوحيدون أهل التوحيد أهل السنة والباطل عليه أهل الكتاب في اعتقادهم في عيسى عليه السلام، وكيف حرَّف اليهود حقائق الدين وحرَّفوا التوراة وحرفوا الإنجيل وأقاموا اعتقادهم على أباطل وأوهام، ورؤى وأحلام وتأملات شتى ليس لها من الصواب أدنى نصيب.

ولعلك تعجب وتتساءل: كيف حدث هذا التمكين لأهل الباطل بهذه الصورة التي نراها في واقعنا اليوم؟ والإجابة سهلة وبسيطة، فهذا التمكين ليس لأنهم أهل حق، ولكن لأن أهل الحق تقاعسوا عنه، وهذه من سنن التدافع بين الأمم، وقديمًا سلَّط الله عباد الأوثان على اليهود؛ لأنهم أفسدوا في الأرض كما نطالع ذلك واضحًا في كتاب الله في صدر سورة الإسراء أو سورة بني إسرائيل هما اسمان لسُورَةٍ واحدة تحدثت في أول آية منها عن الإسراء، ثم تحدثت في سبع آيات متتاليات عن فساد بني إسرائيل، وقد أوضحت هذه السورة الكريمة في مطلعها الحقائق التالية:

١- أن الله سبحانه منَّ على نبي إسرائيل وأخرجهم من تحت قهر فرعون مصر وأسكنهم الأرض المقدسة التي كتب لهم.

٢- ولكنهم لم يحافظوا على الدين الذي أعطاهم الله في التوراة ولا على الدولة التي مكَّنهم منها؛ لأن الدولة التي تختل أمورها تُحتل أرضها وتفقد حريتها.

إن الفساد والاستعلاء لا يُتصوران في حكم يقوم على الوحي وينتسب إلى السماء، ولذلك فإن عقوبة أهله تكون شديدة، فسلط الله عليهم بختنصر الأشوري الذي أباد دولتهم، وهدم هيكلهم، وحملهم أسرى إلى بابل في أرض العراق. (هذه المرة الأولى).

٣- ثم قامت الدولة الثانية بعد أن أعادهم (قورش) الملك الفارسي إلى بيت المقدس وهيَّأ لهم أسباب إعادة دولتهم وهيكلهم مرة أخرى، لكن اليهود أدمنوا المرض واستمرءوا العلل فعادوا إلى ظلمهم وعدوانهم.

وهذه المرة الثانية بلغ إفسادهم إلى حدٍّ كبير فقتلوا أنبياء الله، قتلوا يحيى بن زكريا، عليهما السلام، وقتلوا كذلك زكريا عليه السلام، وحاولوا قتل عيسى عليه السلام، لكن الله سبحانه ألقى شبه عيسى على شخص آخر فأخذوه وقتلوه ورفع الله عيسى إليه

ونجاه منهم وما زالوا يعتقدون حتى اليوم أنهم قتلوا عيسى ابن مريم رسول الله.

وهذه الإفسادة الثانية المقصودة في قوله تعالى: «لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ» (الإسراء:٤). فلما أفسدوا ذلك الإفساد سلط الله عليهم الرومان في النصف الثاني من القرن الأول للميلاد فلم يتركوا لهم أثرًا ولا عينًا، وأبادوا خضراءهم وهدموا هيكلهم وقتلوا من قتلوا، وشردوا من بقي منهم في شتى بقاع الأرض، وانتهت دولتهم للأبد، وقال الله لهم: «وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا» (الإسراء:٨)، أي: وإن عدتم للإفساد عدنا للانتقام منكم في الدنيا وفي الآخرة المصير المحتوم لأهل الكفر وهو جهنم- نعوذ بالله من ذلك-.

٤- ولما عاد بنو إسرائيل للإفساد في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ونقضوا عهودهم معه وتآمروا عليه وعلى المسلمين ومالئوا المشركين ضد المسلمين وأثاروا الفتن في المدينة وما حولها بل وحاولوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم مرات، لكن الله تعالى عصم نبيه منهم ومن غيرهم، عندئذ سلّط الله عليهم نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وتم استبعادهم عن المدينة إلى خيبر ثم أجلاهم عمر رضي الله عنه في زمن خلافته إلى الشام.

٥- ثم عادوا للإفساد في العصر الحديث فسلط الله عليهم (هتلر)، فوضعهم في براميل الزيت المغلي، وكانوا منبوذين في أوربا كلها.

٦- ثم شاء الله كونًا أن يقلد المسلمون اليهود ويقعوا فيما نهاهم عنه نبيهم ويفسدوا ما وصى الله بأهوائهم، فكانت العقوبة هذه المرة أن يقيم بنو إسرائيل دولتهم على أنقاض دولة المسلمين الذين تخلوا عن القرآن عملاً وتطبيقًا.

٧- ولا عجب في ذلك، فقديمًا سلط الله على بني إسرائيل عُبَّاد الأوثان من الأشوريين والرومان لما تخلوا عن وحي السماء، واليوم يسلط الله عبدة الطاغوت وأحفاد القردة والخنازير على المسلمين لما انحرفوا عن كتاب ربهم، وسنن الله لا تحابي أحدًا، «إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا» (الإسراء:٧)، «مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا» (الإسراء:١٥)، «مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» (الجاثية:١٥).

٨- ولذلك لو تأملت سورة الإسراء تجد أن الله تعالى تحدث في الآية الأولى عن حادثة الإسراء، ثم في سبع آيات متتاليات تحدث عن فساد بني إسرائيل، ثم في الآية التاسعة مباشرة قال الله عز وجل: «إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا» (الإسراء:٩)، ونفهم من ذلك أخي الكريم أن العودة الصادقة إلى كتاب الله هي طريق النصر على الأعداء، وهي طريق العزة والخروج من الذلة والمهانة التي وضع المسلمون أنفسهم فيها بتخليهم عن الاحتكام إلى كتاب الله في كل شئونهم صغيرها وكبيرها، وهذا هو خطاب القرآن للمسلمين واضح وظاهر لمن أراد الحق سبيلاً له.

٩- لقد حدد القرآن بصورة واضحة أسباب النصر وأسباب الرحمة والمغفرة والنجاة من النار، وباختصار أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، وهذا واضح في كتاب الله لا تخطئه عين القارئ ولا قلبه، ونحن نشير إلى أمثلة مختصرة خشية الإطالة، قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ» (محمد:٧)، أي: إن تنصروا دين الله أيها المؤمنون بنصركم الله؛ لأن النصر من عنده سبحانه.

وقال في أسباب التمكين والنصر: «ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ» (الحج:٤١).

وقال في أسباب الأمن: «ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ» (الأنعام:٨٢)، فالذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أي بشرك صغيرًا كان أو كبيرًا، أي أخلصوا إيمانهم لله وخلصوه من شوائب الشرك هؤلاء هم أهل الأمن والأمان والهداية والسلام.

وفي أسباب البركة في الرزق، قال الله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ

السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» (الأعراف:٩٦).

ومن أسباب النجاة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: «وَنُنَجِّي الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ» (فصلت:١٨)، وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ» (فصلت:٣٠).

وبيَّن سبحانه كذلك أسباب السعادة في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (النحل:٩٧)، الحياة الطيبة في الدنيا والجزء الحسن في الآخرة.

وهذا كثير يطول بيانه في كتاب الله سبحانه، ففيه بيان الداء والدواء، قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» (يونس:٥٧)، وقال تعالى: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ» (يونس:١٠٨).

وهنا القرآن أخرج الله به أمة هي خير أمة أُخرجت للناس، وهذه الأمة عاشت على وجه الأرض وليس في كوكب آخر وضربت مثلاً فريدًا للأمم في الحق والعدل والسلام في خير القرون، وقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق النجاة باختصار في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه والذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، وهو حسن صحيح، قال صلى الله عليه وسلم: «وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة». فحين تختلف الأمور وتظهر الفتن فطريق النجاة هو العودة إلى نور الوحي والتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام.

١٠- وقد أوضح النبيُّ صلى الله عليه وسلم حالة الأمة إن هي تخلت عن كتاب ربها وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم، فقال: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ. فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ» (رواه أبو داود ٤٢٩٩ وصححه الألباني)

إن عباد الله الصالحين منهم «مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» (الأحزاب:٢٣)، وهم الذين قال الله فيهم: «رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ» (النور:٣٧)، وهم كذلك الموصفون في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ» (المؤمنون: ٥٧- ٦١)، فهم الموصوفون بهذه الأوصاف والمسارعون في الخيرات ومع ذلك يخشون ألا تقبل منهم فهم أحسنوا العمل وأساءوا الظن بأنفسهم.

هم السابقون الأولون المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه، اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم ووعدهم بالجنة، ووصفهم بقوله تعالى: «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» (التوبة:١١٢).

من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من أنفق ماله كله في سبيل الله مثل أبي بكر رضي الله عنه، ومنهم من أنفق نصف ماله في سبيل الله مثل عمر رضي الله عنه، ومنهم من أنفق بغير حساب مثل عثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو طلحة الأنصاري، رضي الله عنهم، ومنهم الفقراء الذين لم يجدوا ما ينفقون

فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع لأنهم لم يتمكنوا من الغزو في سبيل الله ولم يجد الرسول صلى الله عليه وسلم ما يحملهم عليه فمكثوا بالمدينة وكان لهم أجر المجاهدين بيناتهم الصالحة، والحديث عن الصحابة وتطبيقهم للقرآن يطول، ولذلك نصرهم الله وفتح الله بهم البلاد والعباد ونشروا دين الله شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا في أقل من قرن من الزمان، وعلموا أن هذه مهمتهم يكملونها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يركنوا إلى الدعة والراحة وحب الدنيا وكراهية الموت.

الفرق بيننا اليوم وبين الصحابة:

ذكر الإمام القرطبي في تفسيره في الجزء الأول كما ذكره الإمام الطبري في تفسيره، ذكر أبو عمرو الداني في كتاب «البيان» له، بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأبي أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل فيعلمنا القرآن والعمل جميعًا». وذكر مثل هذا عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «كنا إذا تعلمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها». ونقل كذلك الإمام القرطبي قول ابن مسعود رضي الله عنه: «إنه صُعب علينا حفظ ألفاظ القرآن وسهل علينا العمل به وإن من بعدنا يسهل عليهم حفظ القرآن ويصعب عليهم العمل به».

مهمة القرآن الخالدة:

القرآن الذي ساد به المسلمون الأوائل هو نفسه الذي بين أيدينا اليوم، قد حفظه الله تعالى وتولى حفظه إلى يوم القيامة، وهو قادر جل وعلا على تكرار نصر الأمة وإعزازها إذا وجد من يحيي روح القرآن في الأمة فكرًا وحضارة وطهارة وهي صفات تنقص كثيرًا من مسلمي اليوم!!

فمنهم من يعرف الحق ولكن يقدم عليه مصلحته وهواه، ومنهم من يتمسك بالشعائر الظاهرة لكن يستعبده الشح المطاع والأثرة الجامحة، والله أعلم بالسرائر، ولا يوجد على الأرض دين صحيح يجب اتباعه إلا الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ولا كتاب صحيح النسبة إلى الله إلا القرآن، ومن أهل الكتاب القدامى والجدد من يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، ومنهم من قتل الأنبياء وعذّب المصلحين وطاردهم حيث ظهروا؛ ومن المنتسبين للإسلام وللأسف من فعل ذلك واتبع أهل الكتاب شبرًا بشر وذراعًا بذراع.

ولما كانت حاجة البشرية اليوم- وأقول البشرية وأنا أعني ما أقول- فالبشرية كلها في أمس الحاجة إلى رحمة الإسلام وإلى عدالة الإسلام، وإلى أخلاق الإسلام، وإلى عبادة الإسلام، ومن قبل إلى عقيدة الإسلام السمحة العالم كل العالم في أمس الحاجة اليوم إلى الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقًا ولأنه لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ولا كتاب بعد القرآن فليس هناك من سبيل إلا عودة صادقة إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله لتخليص البشرية من عبادة الهوى وعبادة الشيطان وعبادة الدنيا وإعادتهم من جديد إلى عبادة الله الواحد القهار، وإلى قيم القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم، وقد اختار الله هذه الأمة واصطفاها للقيام بهذه المهمة، وقال سبحانه: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» (آل عمران: ١١٠).

وقال سبحانه: «وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (آل عمران:١٠٤)، وقال سبحانه: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (البقرة:١٤٣)، ولكي يتحقق ذلك واقعًا لا بد من تجديد الإسلام في قلوب المسلمين وعلى جوارحهم وفي حياتهم، «قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» (الأنعام: ١٦٢- ١٦٣).

لا بد من دخول في الإسلام بشموله حتى تنجو من الفرقة والشتات والأنانية وعبادة الدنيا والهوى واتباع الشيطان، قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» (البقرة:٢٠٨)، وأسأله عز وجل أن يرد الأمة إلى دينه ردًا جميلاً.

وصلى اللهم على سيدنا محمد.

وقفات مع القصة في كتاب الله

أسباب النصر من سورة الحشر

الحلقة الثالثة

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي تسبح بحمده السماوات السبع والأرض ومن فيهن، وأشهد ألا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، وبعد:

أيها القارئ الكريم: اخترت حديثي معك اليوم عن أسباب النصر من سورة الحشر، والتي سماها حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما بسورة بني النضير، والسورة من بدايتها إلى نهايتها تتحدث عن غزوة بني النضير وتعقب عليها، ولأن غزوة بني النضير وقعت في الثالث من ربيع الأول من العام الرابع الهجري، ولأننا في شهر ربيع رأيت أن أتحدث معكم عن واحد من أحداث شهر ربيع، وكم في شهر ربيع الأول من أحداث مهمة في تاريخ هذه الأمة! هذا بالإضافة إلى تناول القرآن لأحداث تلك الغزوة في هذه السورة مما يوحي بفوائد جمة تحتاج إليها الأمة في مسيرتها إلى الله تثبيتًا للعقيدة وتصحيحًا للمسيرة لعلنا بذلك نضع لبنة في بناء إصلاح المجتمع متمثلاً قول نبي الله شعيب لقومه: «إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» (هود:٨٨)، وبعون من الله نبدأ وقفتنا هذه والتي ستكون من ثلاثة محاور:

الأول: مصدر النصر وأسبابه.

الثاني: مقارنة بين الماضي والحاضر بين جيل الصحابة الفريد ومن جاء بعدهم.

الثالث: فوائد من أقوال المفسرين.

أولاً: مصدر النصر وأسبابه.

أ- مصدر النصر:

قال الله تعالى: «وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» (آل عمران:١٢٦)، وهذا المعنى لا بد أن يستقر في قلوب المؤمنين يقينًا راسخًا لا يتزعزع وهو الذي تؤكده سورة الحشر تأكيدًا جازمًا إذ بدأت السورة بقوله تعالى: «سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (الحديد:١)، وكما بدأت بالتسبيح اختتمت به لكن بصيغة المضارع «يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ»، فالله العزيز الذي لا غالب له والحكيم فيما يصدر عنه وهو سبحانه المستحق للتسبيح في الماضي والحاضر والمستقبل فهو سبحانه المنزه عن كل نقص الموصوف بكل كمال والمنزه عن الشبيه والمثال في الذات وفي الصفات والأسماء

والأقوال والأفعال.

وهذه المقدمة التي بدأت بها السورة وختمت بها تمهد لما يلي: « هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ » (الحشر:٢).

وهذا بيان شديد الوضوح أن الذي تولى إخراج بني النضير من ديارهم هو الله سبحانه الذي قذف في قلوبهم الرعب وهو السلاح الذي لم يكن يحتسبه اليهود وهو الذي لا تنفع معه الحصون ولا القلاع التي تمتد سواحلها ولا ينفع معه السلاح الذي أعدوه، والرعب جند من جند الله يسلطه على من يشاء والنصر به من خصائص النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم وهو القائل فيما أخرجه البخاري ومسلم من حديث جابر رضي الله عنه: «أُعطيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي؛ نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ».

ب- مجتمع استحق نصر الله:

الله سبحانه وعد المؤمنين بالنصر وأخذ سبحانه على نفسه العهد والميثاق أن ينصر رسله والذين آمنوا معهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، وقد تحقق وعد الله لرسله والذين آمنوا معهم على مر التاريخ وها هو يحقق وعده لخاتم رسله والذين آمنوا معه، بينما شاقّ بنو النضير الله ورسوله فكتب عليهم الجلاء من المدينة إلى خيبر مرحليا ولهم في الآخرة عذاب النار.

وهنا سؤال يطرح نفسه: كيف استحق مجتمع المدينة نصر الله؟ لأنه مجتمع حقق تقوى الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، هذا إجمالاً، والقرآن الكريم يحدثنا عن أخلاق وصفات مكونات هذا المجتمع الثلاثة: «المهاجرين والأنصار والذين جاؤوا من بعدهم».

أما بخصوص المهاجرين الأولين فقد مدحهم الله بقوله سبحانه: «لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ » (الحشر:٨)، لأنهم صدقوا في إيمانهم وفي هجرتهم فلم يخرجوا طلبًا للجاه في الدنيا ولا طمعًا في مغنم، بل لقد تركوا أموالهم وديارهم وهاجروا طلبًا لمرضاة الله ونصرة لدينه ورسوله.

ثم أثنى الله على المكون الثاني من أهل المدينة، فقال سبحانه: « وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ » (الحشر:٩)، فهؤلاء الأنصار الذين هم سكان المدينة الأصليون استقبلوا إخوانهم المهاجرين بكل محبة وسماحة نفس ورحابة صدر وإيثار.

أما المكون الثالث من مكونات المدينة فهم الذين هاجروا إلى المدينة بعد ذلك أو دخلوا في الإسلام حديثًا، قال عنهم الله سبحانه وتعالى: «رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ » (الآيات: ١٠) على الترتيب من سورة الحشر، وهؤلاء الذي أثنى الله عليهم لاعترافهم بفضل السلف والدعاء لهم ومحبتهم والترضي عنهم ودعاء أن لا يجعل في قلوبهم غلاً على أحد منهم، وهذه الصفات تدل على مجتمع قائم على تقوى من الله ورضوان متآخ مترابط كالبنيان يشد بعضه بعضًا في مواجهة عدو الله وعدوهم، ألا يستحق هذا المجتمع نصر الله؟! بلى يستحق، وقد نصره الله سبحانه وتعالى.

ثانيا: مقارنة بين الماضي والحاضر بين جيل الصحابة الفريد ومن جاء بعدهم:

رأينا كيف كانت صفات المهاجرين والأنصار والذين جاؤوا من بعدهم من المؤمنين كلها يمكن تلخيصها في كلمتين آثروا الباقية على الفانية، آثروا الآخرة على الدنيا، وعملوا لذلك بصدق، فنصرهم الله، وقذف الرعب في قلوب أعدائهم.

ولكن المسلمين اليوم آثروا الدنيا على الآخرة، فأصابهم ما صوره الحديث النبوي أبلغ تصوير حين قال صلى الله عليه وسلم وقد أطلعه الله تعالى على نافذة من الغيب لينظر فيها: «يُوشِكُ

أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا قَالَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ قَالَ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ، يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ قَالَ قُلْنَا وَمَا الْوَهْنُ قَالَ حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ». هذه هي حقيقة أوضاع المسلمين اليوم والمخرج منها واضح هو العودة إلى الدين بصدق كما جاء في حديث آخر: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ».

فلو كانت الغاية من زرع وتربية الماشية هي الانغماس في الدنيا والتحايل على الحرام وترك الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، سلط الله علينا الذل الذي لا ينزعه إلا العودة الصادقة إلى الله المتمثلة في اتباع طريق من سلف، وقد أبان صلى الله عليه وسلم الطريق إذا اختلفت الأمور فقال عليه الصلاة والسلام في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه: «.. وإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة». (أخرجه الترمذي وأحمد، وهو حديث صحيح).

فالمسلمون اليوم إذا أرادوا العزة والنصر فالطريق واضحة لكنها تحتاج إلى الصدق والرغبة فيما عند الله.

ثالثًا: فوائد من كلام أهل العلم حول الآيات:

١- وبمناسبة قوله تعالى: «وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ» (الحشر:٩)، نقل ابن جرير الطبري وغيره تفسير ابن مسعود رضي الله عنه للشح بأنه أكل مال الآخرين ظلمًا. ولعله رضي الله عنه استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «واتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم». (رواه مسلم).

وبما رواه أحمد من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه: «وإياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالظلم فظلموا، وأمرهم بالفجور ففجروا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا».

٢- وبمناسبة قوله تعالى: «وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ» (الحشر:١٠) الآية. قال الشيخ السعدي رحمه الله: «هؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للفيء الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام». وقال: «وفي الآية دليل على المشاركة في الإيمان وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله وهم أهل السنة والجماعة الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم».

وقال الإمام القرطبي: «هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة، ونقل عن الإمام مالك وغيره قولهم: «من كان يبغض أحدًا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أو كان في قلبه عليهم غل فليس له حق في فيء المسلمين. ثم قال: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» الآية، يعني ليس منهم.

ونقل القرطبي أيضًا عن الشعبي رحمه الله قوله: «تفاضلت اليهود والنصارى بخصلة؛ سُئلت اليهود عن خير أهل ملتكم قالوا: أصحاب موسى، وسُئلت النصارى من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب عيسى. وسئلت الرافضة من شر أهل ملتكم؟ قال: أصحاب محمد، أمر بالاستغفار لهم فسبوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية، ولا تكتب لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله». اهـ.

وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله في منهاج السنة عن الرافضة: «فهل يوجد أضل من قوم يعادون السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ويوالون الكفار والمنافقين». اهـ.

٣- من المناسب بعد ذكر أمر بني النضير وحال المنافقين وحال أتباع الشيطان أن يأتي الأمر من الرحمن بتقوى الله والاستعداد لليوم الآخر، فقال سبحانه: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ» (الحشر:١٨).

«رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» (الحشر:١٠).

والحمد لله رب العالمين.

القصة في كتاب الله

الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس

الحلقة الرابعة

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، والصلاة والسلام على البشير النذير سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أيها القارئ الكريم: لقد عصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، وعصى إبليس ربه فلعنه الله في الدنيا والآخرة، وأنزله من الملأ الأعلى وطرده من رحمته وجنته، فلماذا؟ وما الفرق بين المعصيتين؟

نحاول اليوم بعون الله الاجابة عن هذا التساؤل من خلال كتاب ربنا تبارك وتعالى، وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم، فهما مصدر الهداية والرشاد، ونتناول الموضوع في النقاط التالية:

أولاً: سبب المعصية ومنشؤها:

أ- عند إبليس:

حدثنا القرآن الكريم عن أصل المعصية ومصدرها عند الشيطان، فقال الله تعالى: « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ » (البقرة:٣٤)، وقال تعالى مخاطبًا إبليس: « قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ » (الأعراف:١٢، ١٣)، وقال تعالى أيضًا مخاطبًا إبليس: « مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ » (الحجر:٣٥)، وقال سبحانه: « مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ » (ص:٧٦).

أخي الكريم: عند تأمل الآيات الكريمة السابقة نلاحظ ما يلي:

١- صدرت المعصية عن أصل وأساس هو الكبر.

٢- أدى به هذا الكبر إلى ردّ أمر الله الصريح برأيه الفاسد القبيح.

٣- احتقر أبانا آدم عليه السلام وحسده.

وهذه سمات التكبر كما حددها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقال فيه: « ... الكبر بطر الحق وغمط الناس ». بطرُ الحق: ردُّه ورفضُه، وغمط الناس أي:

احتقارهم. وهذا الذي قام به إبليس فعلاً، وهذا الذي يقوم به كل مُتكبر لا يؤمن بيوم الحساب من الجن والإنس على حد سواء، فهم جميعًا جند إبليس وعلى دربه ينهجون.

والكبر من أخطر أمراض القلوب التي لا يعلم حقيقتها إلا علام الغيوب، ولقد عدَّ سبحانه الكبر من أهم أسباب الكفر، فقال سبحانه: « سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ » (الأعراف:١٤٦).

ب- سبب المعصية عند آدم، عليه السلام:

أما معصية آدم عليه السلام، فقد أخبرنا الله عز وجل عن سببها وأصلها، فقال سبحانه: « وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا » (طه:١١٥)، انظر كيف قبل الله سبحانه عذر آدم في معصيته لأنه سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو سبحانه كما علم ما انطوت عليه نفس إبليس من كبر وأخبرنا عنه فهو سبحانه علم ما انطوت عليه نفس آدم من تواضع، ولذلك وقع في المعصية من باب النسيان الفطري والضعف البشري، وهذا ما أخبرنا الله به: «فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا » (طه:١١٥) أي: نسي ما عهدنا إليه من عدم الأكل من تلك الشجرة ونسي ما حذرناه من عداوة الشيطان له ولذريته، ثم إن آدم ليس مصرًا على المعصية كما أصر عليها إبليس.

ثانيًا: النتائج:

أ- إذا اختلفت الأسباب لا شك ستختلف النتائج، فلما كان سبب المعصية عند إبليس ومصدرها هو الكبر، فلم يتب ولم يعترف بذنبه، بل برره وكان التبرير أقبح من الذنب، فقال: «أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ» (ص:٧٦)، أهو أعلم أم الله؟ أليس الله بأعلم بما في صدور العالمين: « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ » (الملك:١٤)، الله سبحانه وتعالى يعلم ولا يصدر في أمره ونهيه إلا عن علم وحكمة، ولكن إبليس لا يعلم لأن الكبر أعمى بصيرته عن الحق فظن أن النار خير من الطين، وقد تحدث العلماء عن فضل الطين على النار في أكثر من عشرين وجهًا لخصها الإمام النسفي في تفسيره تلخيصًا بديعًا، فقال: «لقد أخطأ الخبيث، بل الطين أفضل لرزانته ووقاره، ومنه الحلم والحياء، وذلك دعاه إلى التوبة والاستغفار» (أي دعا آدم المخلوق من الطين)، وفي النار الطيش والحدة والترفع (أي النار المخلوق منها إبليس)، وذلك دعاه إلى الاستكبار، والتراب عدة الممالك، والنار عدة المهالك، والنار مظنة الخيانة والإفناء، والتراب مئنة الأمانة والإنماء، والطين يطفي النار ويتلفها، والنار لا تتلفه". اهـ. مختصرًا.

وبغض النظر عن فضل الطين على النار أو النار على الطين، المهم أن الله تعالى أمر إبليس بالسجود فأبى واستكبر، وإنما كان رفضه واستكباره في الحقيقة ليس على آدم، وإنما على أمر الله وما قدّمه من تبرير لا قيمة له؛ لأنه رأيٌ في مواجهة النص الصريح، وهو رأي فاسد، وحتى لو كان صحيحًا فلا يجوز مطلقًا مواجهة النص بالرأي، وهذا منشأ الفساد عند من يعارضون النصوص الشرعية بآرائهم البشرية، وهؤلاء لا شك من تلاميذ إبليس.

والخلاصة: لما كانت معصية إبليس ناشئة عن كبر فلم يعترف ولم يتب إلى الله ولم يستغفر فكانت النتيجة أن غضب الله عليه ولعنه وطرده من رحمته في الدنيا وجعل النار مثواه هو وأتباعه من الجن والإنس، خالدين فيها في الآخرة.

ب- أما آدم عليه السلام فلما كانت معصيته عن طريق الضعف البشري والنسيان الفطري فلما ذكّره الله تذكّر، واعترف بذنبه، وطلب من الله المغفرة والرحمة، قال الله عز وجل عن آدم وحواء وعلى لسانهما بعد أن ذكرهما فتذكرا: «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ » (الأعراف:٢٣)، فكانت النتيجة أن الله التواب الرحيم قبل توبة آدم وغفر له وقد لخص القرآن قصة معصية آدم وتوبته وتوبة الله عليهم في كلمات معدودات في قوله تعالى: «وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » (طه: ١٢١- ١٢٢).

ألا فلتسمع الدنيا بأسرها هذا التقرير البليغ الذي حل مشكلة آدم والبشرية كلها في كلمات، وإلى هؤلاء الذين ضخموا معصية آدم وجعلوها سبب اللعنة على آدم وذريته من بعده، بل على الأرض كلها، وإلى الذين يدّعون أن الله سبحانه تصارعت عنده صفة العدل والرحمة حتى انتهى إلى إرسال نفسه سبحانه أو ابنه البكر ليصلب على خشبة على الأرض ويُدق بالمسامير تطهيرًا للبشرية من ذنب أبيهم آدم، تلك الخطيئة التي لصقت بهم ولاحقتهم- كما يدعون ويقولون- تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا-، وسبحانه المنزه عن كل نقص وكل ضعف، لست أدري من أين جاء لهم هذا القول الفاسد، لا شك أنه من الشيطان ومن أتباعه من شياطين الإنس والجن .

والخلاصة أن الله تعالى غفر لآدم وتاب عليه وهداه، والتوبة تجبُّ ما قبلها وتمحو أثر المعصية وما يترتب عليها، والحمد لله رب العالمين .

ثالثًا: تساؤلات وشبهات والجواب عنها:

هل كان إهباط آدم من الجنة عقوبة له؟

الإجابة: لا؛ لأن الله تعالى غفر لآدم وتاب عليه، فكيف يعاقب بعد ذلك، ولأن العقوبة تقتضي إما إلحاق العذاب أو حرمان العطاء وكلاهما لم يحدث لآدم؛ لأن آدم أساسًا خلقه الله ليكون خليفة في الأرض، أي خلقه الله للأرض ابتداءً كما قال الله تعالى للملائكة: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً» (البقرة:٣٠)، والنزول إلى الأرض ليس عقوبة، ولكنها مشيئة الله وحكمته، ويكون سعادة لمن آمن وعمل صالحًا كما قال الله تعالى: «مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ» (النحل:٩٧)، هذا وعد الله للمؤمنين الصالحين بالحياة الطيبة في الحياة الدنيا، وبالجزاء الأحسن في الآخرة، ومَن أصدق من الله قيلاً؟!

وقد حدد الله سبحانه معيار السعادة والشقاء في الدنيا والآخرة، لآدم وذريته لحظة إهباطه إلى الأرض، فقال سبحانه: «قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ» (طه: ١٢٣- ١٢٦).

فليتأمل الذين يبحثون عن السعادة في الدنيا والآخرة، أين طريقها، إذن فهبوط آدم للأرض هو قدَره الذي خلقه الله له، وطريق السعادة والشقاء قد بينه الله أكمل بيان وهو فيما بعثه الله وأنزله على رسله وأنبيائه على مر التاريخ البشري من لدن آدم حتى ختم بإمامهم وخاتمهم محمد الأمي الذي أخذ الله عهده وميثاقه على جميع الأمم وجميع الرسل باتباعه حين بُعث في آخر الزمان لأنه عندما يبعث فلا مصدر للحق إلا ما جاء به، ولا طريق للسعادة إلا في اتباع ما جاء به- صلوات ربي وسلامه عليه-.

وهنا يبرز سؤال آخر ألا وهو: إذا كان الله سبحانه خلق آدم للأرض؛ فلماذا أدخله الجنة أولاً؟

نقول- وبالله التوفيق-: إن الله سبحانه وتعالى كرَّم آدم حيث خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء، وأسجد له الملائكة، ومن مظاهر هذا التكريم دخوله الجنة قبل إهباطه إلى الأرض، ولعل في ذلك فوائد وأسرار نوضحها فيما يلي:

١- دخول الجنة مظهر من مظاهر تكريم الله لآدم لأنه من كرامة هذا المخلوق عند ربه سبحانه هيأ له ما في الأرض جميعًا قبل أن يخلقه، ثم بعد أن خلقه عرَّفه جميع الموجودات في الأرض وأسماءها بما يتناسب مع وظيفة آدم وذريته في عمارتها وهي دار الابتلاء المؤقتة.

وكان من حكمة الله ورحمته أن يدخل آدم دار الجزاء التي أعدها الله لآدم وللمتقين من ذريته وهي دار الكرامة والخلد، فإذا كان الله تعالى عرَّف آدم على دار الإقامة المؤقت أفلا يعرِّفه دار الكرامة والخلد التي أعدها له وللصالحين من ذريته؟

٢- كذلك عرَّف الله آدم بطريقة عملية الطريق المؤدي إلى الجنة وهو المتمثل في تطبيق منهج الله في الأرض والذي ملخصه في الطاعة وترك المعصية.

٣- كما عرف آدم وذريته خطورة اتباع الشيطان وحذّره وذريته من فتنته.

٤- كذلك عرف آدم وذريته أن داءه يكمن في المعصية ودواؤه في التوبة والاستغفار وأن المتقين من أبناء آدم إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون.

وللحديث بقية إن شاء الله، وبالله تعالى التوفيق.

فتح القسطنطينية

الفتح الأول

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله حمدًا يليق بجلاله وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين والمبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعدُ:

فإن الله سبحانه وتعالى يكشف لرسوله صلى الله عليه وسلم من حُجُب الغيب ليرى بعين البصر والبصيرة ما لا يراه غيره، فيخبر أمته من أعلام نبوته من أنباء الغيب ما يُوحِي الله به إليه عندما تكون الأمة في أشد الحاجة إلى ذلك، ومن هذا الغيب ما أخبر به صلى الله عليه وسلم يوم الخندق في غزوة الأحزاب « إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا » (الأحزاب:١٠، ١١)، وفي تلك الأثناء يُبشر النبيُّ أصحابه بفتح الشام واليمن وفارس، ويُقسم بالله أنه يرى أمامه قصور الشام الحمر وأبواب صنعاء ومدائن كسرى، نعم يراها من مكانه وهو في عمق الخندق يكسر صخرات استعصت على الصحابة؛ ذلك ليزداد الذين آمنوا إيمانًا ويقولوا صدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانًا وتسليمًا، وليقول الذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا.

ومن علوم الغيب التي بشر بها النبيُّ أمته فتح القسطنطينية، وقد أخبر بذلك حين سُئل أي المدينتين يُفتح أولاً قسطنطينية أو رومية، فقال صلى الله عليه وسلم: «مدينة هرقل تفتح أولاً» يعني قسطنطينية. والحديث رواه أحمد والدارمي وابن أبي شيبة، وأورده العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤)، وعلق عليه قائلاً: "وقد تحقق الفتح الأول على يد محمد الفاتح العثماني، كما هو معروف، وذلك بعد أكثر من ثمانمائة سنة من إخبار النبي صلى الله عليه وسلم، وسيتحقق الفتح الثاني بإذن الله تعالى ولا بد ولتعلمن نبأه بعد حين".

ونحن اليوم بعون الله نتحدث عن الفتح الأول الذي تحقق فعلاً في يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى عام سبعة وخمسين وثمانمائة من الهجرة الموافق ١٤٥٣/٤/٢٢م، وذلك الفتح الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: «لتُفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش». (رواه أحمد، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي: رجاله ثقات). ذلك الفتح الذي اشرأبت إليه أعناق بني أمية وسيَّر إليها بنو أمية الجيوش، ومات الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، ودُفن تحت أسوار القسطنطينية، فما استطاع بنو أمية فتحها، وكذلك تأبت على بني العباس، ولعل الله سبحانه ادَّخَر هذا الفتح لبني عثمان، ولهذا القائد الفتى الشاب الذي لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، وهو يقود أكبر دولة في العالم في ذلك الوقت، الدولة العثمانية الإسلامية الكبرى محمد بن مراد العثماني، والذي لُقِّب بعد ذلك بمحمد الفاتح، وكُنِّي بأبي الفتح، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وسنحاول بعون الله أن نعيش في أجواء هذا الفتح في ذكراه بما ييسره الله لنا كما يلي:

أولاً: أهمية القسطنطينية ومكانتها:

هي عاصمة الدولة الرومانية خلال الفترة من ٣٣٥- ٣٩٥ ميلادية، وعاصمة الدولة البيزنطية من ٣٩٥- ١٤٥٣ حين فتحها المسلمون وسماها المسلمون حينها إسلام بول أو الآستانة وصارت عاصمة الدولة العثمانية، وهي الآن المعروفة بإستانبول، وكانت قبل فتحها العاصمة المقدسة

الكبرى لنصارى الشرق، وفيها أكثر تراثهم، وقد حوت كنائسها تماثيل أشهر رهبانهم وبطارقتهم، وموقعها بين آسيا وأوروبا جعلها من أفضل المدن موقعًا، حتى قيل: لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أفضل المدن تكون عاصمة لها، وقد امتنعت عبر العصور ببحارها المحيطة بها من ثلاثة جوانب وخنادقها المنيعة وتحصنت بحصونها العالية وقلاعها المتعددة، وقيل: إنها وحدها تساوي إمبراطورية كاملة وإنها مفتاح العالم.

ثانيًا: الفاتح وإعداده الإعداد المناسب:

تذكر كتب التاريخ والسير أن محمد الفاتح حظي بتربية علمية ودينية وجسدية منذ نعومة أظفاره، فقد اهتم والده السلطان مراد الثاني بتدريبه على الفروسية منذ طفولته، فدربه على ركوب الخيل والرمي والمبارزة، وجعله يتربى على خيرة العلماء في عصره، ومنهم أحمد بن إسماعيل الكوراني، الذي قال عنه السيوطي: «إنه كان عالمًا فقيهًا شهد له علماء عصره بالتفوق والإتقان، بل إنهم كانوا يسمونه أبا حنيفة زمانه، وقد حفظ محمد الفاتح القرآن وهو صغير، ودرس التاريخ الإسلامي وأسهمت تربيته في تنشئته على حب الإسلام والعمل بالقرآن وحب العلم وتقدير العلماء، وقد تأثر الفاتح كذلك بالشيخ آمد شمس الدين سنقر، الذي كان أول من زرع حلم «فتح القسطنطينية» في ذهن الفاتح وقلبه حتى كبر الفتى وهو يصبو إلى تحقيق ذلك الحلم، وما إن تولى محمد الثاني مهام السلطنة خلفًا لوالده مراد الثاني، حتى وضع فتح القسطنطينية نُصب عينيه.

ثالثًا: كيف أصبح الفتح ضرورة:

لما اتسعت رقعة الدولة العثمانية شرقًا وغربًا، كانت القسطنطينية في وسطها تفصل ممالكها الغربية عن ممالكها الشرقية، ولذا حاول خلفاء بني عثمان فتحها أكثر من مرة، وكان ملوكها ورهبانها يكيدون للدولة العثمانية ويدسون الدسائس، ويدبرون المكائد، ويؤوون كل خارج على الدولة العثمانية ويمدونه بالسلاح والمال والرجال، فاجتمعت هذه الأسباب بالإضافة إلى السبب الأساس الذي كان يراود السلطان الشاب دائمًا ويهفو إلى تحقيقه، فلما تولى عرش السلطنة محمد بن مراد بعد وفاة والده جعل رأس اهتمامه فتح تلك المدينة، فأشغل فكره بها وكرس جهده لها سياسيًا وعسكريًا.

رابعًا: الأسباب السياسية والعسكرية التي قام بها الفاتح:

١- بنى قلعة جبارة قبالتها.

٢- صالح الدول المجاورة لها حتى لا تهب بنجدتها.

٣- عقد هُدنة مع كل محاربيه ليتفرغ لها.

٤- بنى المدافع العملاقة لدك حصونها.

٥- استحدث أساطيل برية ليغزوها من البر والبحر.

٦- ثم درس أسوارها من الداخل والخارج وأوضاعها وأوضاع أهلها، هذا بالإضافة إلى الإعداد النفسي والعسكري للجنود والذي سنراه في سير الأحداث.

خامسًا: سير أحداث الفتح:

توالت الأحداث كما يلي:

أ- لما رأى قسطنطين الخطوات الجادة لمحمد الفاتح تجاه فتح المدينة أرسل إلى السلطان يطلب الصلح، فطالبه السلطان بتسليمها بلا قتال، وله ولأهلها الأمن والأمان والعيش فيها أو غيرها بسلام، لكن الملك قسطنطين رفض هذا العرض، فعزم السلطان الفاتح على فتحها، وسار بجيش يقارب مائة وستين ألف مقاتل معهم خيولهم وعتادهم فضربوا الحصار على المدينة، وبداخلها ثمانمائة ألف نفس، منهم أربعون ألف مقاتل قد اصطفوا على أسوارها لحمايتها، واستمر الحصار ثلاثًا وخمسين ليلة، وكانت مدافع المسلمين تدك أسوار القسطنطينية باستمرار، بينما كان النصارى يستميتون في الدفاع عن مدينتهم ويفشلون محاولات المسلمين بكثير من الإصرار، وبرغم ما قام به الملك قسطنطين من قتل مائتين من المسلمين المقيمين بالقسطنطينية وتعليقهم على أعواد المشانق حول أسوار المدينة، إلا أن كل ذلك لم يثن عزيمة المسلمين عما عزموا عليه.

ب- ومع طول الحصار بدأت المؤنة تنفذ من المدينة، وأخذ أهلها الجهد والتعب من هذا الحصار المحكم، وعزم السلطان على الاقتحام العام، لما أحسَّ أن الوقت قد حان، فأرسل إلى قسطنطين يطالبه بالتسليم قبل الهجوم العام وله وللنصارى معه الأمن على أموالهم وأنفسهم وأعراضهم وديارهم، ومن أراد منهم الرحيل منها رحل، ومن أراد البقاء

بقي فيها آمنًا.

ج- موقف الملك قسطنطين:

كان قسطنطين ملكًا شجاعًا متدينًا يعلم ما لهذه المدينة من تاريخ وتقديس عند النصارى، فآثر أن يموت فيها على أن يهرب منها، أو يسلمها للمسلمين، فردَّ على السلطان قائلاً: إنه أقسم أن يدافع عنها إلى آخر نفَس في حياته، فإما أن يحتفظ بعرشها، أو يُدفن تحت أسوارها، فلما بلغ السلطان مقالة قسطنطين ازداد إصرارًا وعزمًا، وقال: «حتمًا عما قريب سيكون لي في القسطنطينية عرش، أو يكون لي فيها قبر».

د- الاستعداد للهجوم العام:

وقبل الهجوم العام بيومين وكان يوم أحد، أمر السلطان جنده بالصيام لله تعالى تطهيرًا للنفوس، وتقوية للعزم والإرادة، وفي مساء ذلك اليوم أمر جنده بإضرام النيران العظيمة؛ ليرهب النصارى، وظل المسلمون طيلة الليل يذكرون الله تعالى ويكبرون بأصوات عالية، وصارت أصواتهم تتصاعد إلى السماء: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وفي يوم الاثنين ترك السلطان جنوده يرتاحون وبدأ يخطط للهجوم، ثم عبأ جنوده في ليلة الثلاثاء وأمر العلماء والمشايخ والخطباء أن يحشدوا الجند للقتال ويذكروهم بفضل الجهاد وفضل الشهادة في سبيل الله، وخطب فيهم السلطان خطبة ذكَّرهم فيها بفضل هذا الفتح على وجه الخصوص، وسيكون من حظ الجند ما أشاد به النبي صلى الله عليه وسلم على أصحاب هذا الفتح وتتحقق فيهم إحدى معجزاته، وسيساهم هذا الفتح في نشر الإسلام بين الناس، وحذرهم من أن يصدر منهم أمرٌ ما يخالف تعاليم الإسلام ويجتنبوا الكنائس والمعابد فلا يمسوها بسوء، وكذلك يتركوا القسس والضعفاء والذين لا يقاتلون، وفي مقابل ذلك دقت أجراس الكنائس واجتمع النصارى وخطب فيهم الملك قسطنطين وذكرهم بأمجادهم وأمجاد آبائهم، وطلب منهم الثبات والدفاع عن مدينتهم التي هي مَلكة المدن، ثم أعلن أنه سيدافع حتى الموت.

هـ- الهجوم العام والفتح العظيم:

وفي الليلة الموعودة ليلة الثلاثاء وقبل منتصف الليل نزل من السماء مطر خفيف، وفي الساعات الأولى من الصباح التقى الجيشان وتصاعدت التكبيرات مدوية مجلجلة من البر والبحر وانطلق المسلمون يتسلقون الأسوار والمدافع تضرب وحمي الوطيس واستمرت المدافع ساعات تدوي وتتحرك السفن في البحر والقتال على أشده في البحر والبر، فما برح قسطنطين حتى رأى أعلام المسلمين ترفرف على قلاع القسطنطينية وأسوارها وجنوده تفر من أمام المسلمين، فأخذ يقاتل ذات اليمين وذات الشمال، حتى خر صريعًا من ضربة من أحد المسلمين المقاتلين، وقُضي الأمر.

وهكذا أتم الله نصره وفتحه على عبدٍ من عباده الصالحين، ودانت له المدينة التي استعصت على غيره، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

سادسًا: ماذا بعد الفتح:

خاف النصارى من سكان المدينة وفزعوا في أول الأمر؛ لأنهم ظنوا أن يفعل بهم المسلمون مثل الذي فعله بهم الصليبيون لما دخلوا القسطنطينية في الحملة الصليبية الرابعة، إذ استباحوا الحرمات وأمعنوا في قتل الناس ونهب الأموال وهتك الأعراض، وقالوا في أنفسهم: هذا ما فعله بنا من هم على ديننا مع اختلاف المذاهب، فكيف بمن يخالفوننا في الدين، يقصدون المسلمين، ولكن حدث خلاف ما توقعه النصارى؛ إذ توجه السلطان الفاتح عند الظهيرة على ظهر جواده يحفُّ به كبار قادته وهنأ جنده بالنصر ونهاهم عن القتل والسلب وأوصاهم بأن يكونوا أهلاً لهذا الشرف والمجد بأخلاقهم الكريمة، فلما توسط المدينة نزل عن جواده واستقبل القبلة، وسجد لله شكرًا وتواضعًا لله على توفيقه، ثم أعلن الأمن والأمان لجميع النصارى وأمرهم بالعودة إلى بيوتهم في أمن وأمان، والعودة إلى أعمالهم دون خوف على أنفسهم أو أعراضهم وأموالهم، فنزل هذا التأمين بردًا وسلامًا عليهم وأمر بمداواة الجرحى من النصارى ودفن الموتى، ودفن قسطنطين في مقبرة الملوك، وقد قال المؤرخون: «إن السلطان الفاتح قد حنَّ على أهل القسطنطينية حنو الوالد المشفق على ولده».

وللحديث بقية، فإلى لقاء بعون الله ومشيئته.

غزوة تبوك

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، وصلى الله وسلم على رسوله النبيِّ الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فلم تكن غزوة تبوك نزهةً بَرِّيةً ولا رحلةَ صيد، لكن كان السفر طويلاً والزاد قليلاً والحر شديدًا، ولم تكن غزوة تبوك لقاءً بين جيش المسلمين وقبيلة من قبائل العرب أو مجموعة قبائل أو أهل الجزيرة العربية كلها، لا، بل كانت صدامًا بين جيش المسلمين وبين أقوى جيش على وجه الأرض في ذلك التوقيت؛ جيش الروم وقد انضمت إليه القبائل المتنصرة الخاضعة لدولة الروم في شمال الجزيرة، كانت صدامًا بين دولة الإسلام الوليدة وبين دولة الروم العتيدة، والتي بسطت سلطانها على العالم وخصوصًا بعد انتصارها على الفرس؛ وهما القوتان اللتان تحكمان العالم في ذلك التاريخ وعندما انتصرت الروم على فارس غلبت بسلطانها على أهل الأرض كلهم ما عدا أرض الحجاز التي أشرق فيها نور الإسلام ونشأت فيها دولة الإسلام بقيادة النبيِّ الأمي محمد عليه الصلاة والسلام.

ونحن اليوم في حديثنا عن تبوك؛ هذه الغزوة الفاصلة في تاريخ الإسلام لن نستطيع أن نستوعب كل تفاصيل هذا الحديث العظيم فحسبنا أن نقف معه وقفات أسأل الله أن يكون فيها عظة لمن يتعظ وتذكرة لمن يتذكر.

الوقفة الأولى: أسماء الغزوة:

١- اشتهرت هذه الغزوة باسم «تبوك»، وهو المكان الذي انتهى إليه الجيش الإسلامي على الحدود الشمالية بين الجزيرة العربية والشام، وهي المدينة المعروفة الآن والتي تقع على الحدود الشمالية للمملكة العربية السعودية مع الأردن.

٢- ولها اسم آخر وهو غزوة العسرة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في سورة التوبة، حيث قال تعالى: «لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ» (التوبة:١١٧)، وقد روى الإمام البخاري بسنده إلى أبي موسى الأشعري، قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة وهي غزوة تبوك. وعنون البخاري لها بقوله: «باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة». (البخاري: ٤٤١٥).

ولقد سميت بهذا الاسم لما كان فيه المسلمون من ضنك وجفاف في المدينة وقلة موارد، ولشدة الحر في ذلك التوقيت وقيظ الصيف، ولطول المسافة؛ فتبوك تبعد عن المدينة بما يزيد عن ألف كيلو متر، بالإضافة إلى ندرة المؤنة وقلة الظهر الذي يركبونه من الخيل والإبل وقلة المال والسلاح.

٣- ولها اسم ثالث ذكره أهل التاريخ والسير وهو «الفاضحة»، وسبب تسميتها بهذا الاسم أنها كشفت عن حقيقة المنافقين وهتكت أستارهم، وأظهرت أحقادهم الدفينة على الإسلام والمسلمين وامتناعهم عن الخروج للقتال وتعاونهم مع أعداء الإسلام ضد المسلمين في الخفاء والإعلان ومحاولتهم قتل النبي صلى الله عليه وسلم، وقد جاءت آيات سورة التوبة صريحة في ذلك، وسنعرض لها قريبًا بإذن الله.

الوقفة الثانية: أسبابها:

هناك أسباب مباشرة وغير مباشرة، والسبب العام أو غير المباشر ذكره الإمام ابن كثير في تفسيره عن قوله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ» (التوبة:١٢٣)، يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: «أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام، ولهذا بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم وفتح الله عليه مكة والمدينة والطائف واليمامة وهجر وخيبر وحضرموت، ودخل الناس من سائر أحياء العرب في دين الله أفواجًا؛ شرع في قتال

أهل الكتاب فتجهز لغزو الروم»، وهذا الذي ذكره ابن كثير هو استجابة طبيعية لطبيعة الجهاد التي قام عليها الإسلام ليكون الدين كله لله.

وبهذا يضع الرسول صلى الله عليه وسلم الأساس لفتوحات المسلمين التي وقعت في عصر الخلفاء بعده لكن الذي استدعى خروج النبي على رأس جيش العسرة في هذا الظرف الحرج مع شدة الحر وقلة المؤونة، وضعف العتاد وقلة الظهر هو سبب مباشر آخر يضاف للسبب الأول ألا وهو تجمع الروم ومن يواليهم من القبائل العربية لخم وجذام وغسان وغيرهم، وتجهز جيش قوامه ستون ألفًا بالسلاح والعتاد، وقد تحركوا فعلاً حتى وصلوا إلى البلقاء على أطراف الأردن فلم يكن من بد أن يخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم ولا ينتظر حتى يأتوا إليه، أراد أن يعاجلهم قبل أن يأتوا إلى المدينة لأنه قال يوم الأحزاب وبعد انتهائها: "اليوم نغزوهم ولا يغزوننا".

ولهذا السبب أمر بالإسراع والخروج إليهم بالرغم من العسرة والشدة التي كان يعاني منها المسلمون في المدينة لأن التأخير لا يجوز في هذه الحالة وعمومًا الأمران متلازمان فالله سبحانه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وأعداء الله ورسله لا يريدون ذلك، واقرأ إن شئت قول الحق تبارك وتعالى: «يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ» (التوبة:٣٢، ٣٣).

والله سبحانه أمر بالجهاد وحث عليه واشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم لتكون كلمة الله هي العليا، لكن المشركين والكافرين من عباد الأصنام ومن أهل الكتاب والمنافقين يريدون حرب الإسلام وأهله والقضاء على الإسلام وأهله، ولكن جهاد الدفع مقدم على جهاد الطلب، وخصوصًا إذا اجتمع الأعداء وأرادوا بالإسلام والمسلمين كيدًا كما حدث هنا في هذه الغزوة.

الوقفة الثالثة: حديث القرآن عن غزوة تبوك (العسرة):

استفاض حديث القرآن عن تبوك بصورة لم تحدث في أي غزوة أخرى فتحدث عنها قبل الخروج لاستنهاض المسلمين، وحثهم على الجهاد بالنفس والمال، وتحدث عنها أثناء الذهاب وأثناء الإياب، وفي أثناء المكوث في تبوك وتحدث حديثًا طويلاً عن المنافقين وعن المتخلفين عن الغزوة منهم وعن المحرضين والمعتذرين بأعذار واهية وكشف خبيئة قلوبهم وفضحهم عيانًا، وحرَّض عليهم، وتحدث عن مسجد الضرار الذي اتخذوه وكرًا للتخطيط ضد الإسلام والتعاون مع إخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ومن المشركين، كما تحدث عن الذين تخلفوا من المسلمين الصادقين بغير عذر، وتحدث عن الذين منعهم العذر من الخروج من الجيش، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع؛ لأنهم لا يملكون الظهر الذي يخرجون عليه، ولم يجد النبي صلى الله عليه وسلم ما يحملهم عليه، فكتب الله لهم الأجر وهم بالمدينة.

إذن فقد وَاكَبَ القرآن الكريم الغزوة في جميع مراحلها وتكاد سورة التوبة كاملة تتحدث عن هذه الغزوة العظيمة الفاصلة.

الوقفة الرابعة: تسارع المؤمنين في الاستجابة:

حذر الله المؤمنين من التقاعس عن الجهاد فقال سبحانه وتعالى: «إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» (التوبة:٣٩)، أي: اعلموا أيها المؤمنون أن الله ناصر دينه بكم أو بغيركم فاحذروا، ثم أمرهم بالخروج للجهاد شبابًا وشيبانًا فقراء وأغنياء بالنفس والمال كل بما يستطيع لأن ذلك هو طريق الخير والرشاد في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه: «ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ» (التوبة:٤١)، فتسارع أهل الصدق والإيمان للإنفاق في سبيل الله، وكان صاحب القدح المعلى في ذلك هو عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، حيث قام بتجهيز ثلاثمائة بعير بكامل عتادها، ووضع ألف دينار نقدًا في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ يقلبها وهو مسرور ويقول: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»، وظل يردد هذه العبارة، كما روى عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه كما عند الترمذي والمسند.

وأما أبو بكر رضي الله عنه فتصدق بكل ماله وكان أربعة آلاف درهم، وعمر رضي الله عنه جاء بنصف ماله، أما عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقد جاء بألفي درهم وهي نصف أمواله لتجهيز جيش العسرة، وكذلك جاء العباس بن عبد المطلب

وطلحة بن عبيد الله ومحمد بن مسلمة وعاصم بن عدي رضي الله عنهم جميعًا، جاءوا بأموالٍ كثيرة.

وجاء أيضاء فقراء الصحابة بما يستطيعون لينالوا شرف المسارعة في الخير، بلغ جيش المسلمين ثلاثين ألفًا، وكان نصيب عثمان تجهيز ثلث الجيش رضي الله عنه.

أما أهل النفاق فقد بخلوا بأموالهم وضنوا بأنفسهم عن الخروج ولم يسلم منهم لا الأغنياء الذين أنفقوا الكثير ولا الفقراء الذين أنفقوا القليل وسلقوهم بألسنة حداد وهم أشحة بالخير، فنزل فيهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة:٧٩)؛ لأن المنافقين قالوا عن بعض الأغنياء الذين أنفقوا الكثير: ما فعلوا ذلك إلا رياء وسمعة، وقالوا عن الفقراء الذين جاؤوا بالقليل: ﴿إن الله غني عن صدقة هذا﴾. فهذا حالهم يبخلون بالقليل والكثير ويطلقون ألسنتهم في أعراض المؤمنين فتوعدهم الله بالعذاب الأليم.

الوقفة الخامسة: مع بعض الدروس المستفادة:

مما لا شك فيه أن الدروس المستفادة من هذه الغزوة العظيمة تحتاج إلى سِفْر كبير لكننا سنذكر هنا ما تيسر، والله المستعان:

١- إن في مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق السخي دليلاً على ما يفعله الإيمان الصادق في النفوس، لذا فخير ما يفعله المصلحون والقادة هو غرس الإيمان الصادق والدين الصحيح في النفوس غرسًا؛ إن راموا نصر الأمة على أعدائها.

٢- لقد كان لهذه الغزوة أثر عظيم لا يقل روعة وجلالاً عن فتح مكة، ولئن كان فتح مكة قد نبه العرب إلى حقيقة كانت غائبة عن عقولهم وهي إدراك الحق الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فقد كانت غزوة تبوك داعية لهم لأن يسرع من بقي إلى الدخول في الإسلام والى التخلص من التبعية للرومان، وفعلاً دخلت القبائل الشمالية في الإسلام إلا القليل الذي قبل الجزية والبقاء على دينه تابعًا لدولة الإسلام.

٣- ولقد كان قرار الروم وهم البادئون بالخروج- وهم في بلادهم- كان قرارهم باللجوء والتحصن في بلادهم حتى لا يدركهم المسلمون دليلاً على قوة المسلمين التي لا يستطيع أحد الوقوف أمامها، فهؤلاء الروم هم الذين هزموا الفرس وأخرجوهم من جنوب الجزيرة فروا وانسحبوا أمام المسلمين علام يدل ذلك.

٤- يدل انسحاب الروم أمام المسلمين على أن المسلمين يملكون قوة لا يملكها غيرهم ألا وهي في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «نصرتُ بالرعب مسيرة شهر». (متفق عليه)، فالرعب الذي نُصر النبي صلى الله عليه وسلم به في معاركه المختلفة سلاحٌ لا يملكه إلا الله سبحانه وتعالى، ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (الأنفال:١٢).

فهذا دليل على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه سيملك ما تحت عرش هرقل وأنه ملك هذه الأمة قد ظهر، ولا بد أن نربط بين تبوك وما بشر به النبي صلى الله عليه وسلم في يوم الخندق من رؤيته لقصور الشام وفارس واليمن، فقد تحقق دخول اليمن في الإسلام وسيتحقق دخول الشام وفارس وما حولهما كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

لقد تحققت آيات عظيمة في هذه الغزوة في الذهاب والإياب، منها:

- بركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الطعام وزيادته.

- ومنها: نجاة النبي صلى الله عليه وسلم حين التف حوله جماعة من المنافقين عند إحدى الثنايا في طريق العودة والذين نزل فيهم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ (التوبة:٧٤)، فهزمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وخذلهم الله فانصرفوا ولم يمس الرسول صلى الله عليه وسلم سوء لأن الله عاصمه من الناس.

- ومن الدروس المستفادة أيضًا أن المرء يثاب بنيته الصالحة إذا عجز عن فعل الخير الذي يريد بسبب خارج عن طاقته، وهم الفقراء الذين كانوا يريدون الخروج فلم يجدوا ما يحملهم الرسول عليه ولم يكن عندهم ما يركبون، وهم الذين عناهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: «لقد خلفتم بالمدينة رجالاً - ما قطعتم واديًا ولا سلكتم طريقًا إلا شركوكم في الأجر». (رواه مسلم).

هذا ما تيسر إيراده خشية الإطالة، أسأل الله أن ينفع به الكاتب والقارئ، ونسأل الله سبحانه أن يصلح أحوالنا وأعمالنا.

وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة

اعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، وتبارك الذي نزل على عبده الفرقان ليكون للعالمين نذيرًا، والصلاة والسلام على من أرسله ربه شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وداعيًا على الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وبعدُ:

فنحن بصدد الحديث عن قوله تعالى: « وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » (الإسراء:٨٢)، من المستحسن أن نسوق الحديث من خلال المحاور الآتية وبالله التوفيق:

المحور الأول: الآية والسورة التي نزلت فيها:

الآية الكريمة التي هي موضوع حديثنا نزلت في سورة الإسراء، والتي تسمى أيضا بسورة بني إسرائيل وسورة «سبحان»، وقال عنها صاحب بصائر التمييز: إنها نزلت بعد سورة القصص، وقيل سورة يونس وعدّها الخمسين في تعداد نزول السور وهي سورة مكية موضعها الأساس كسائر السور المكية.

١- إثبات أن القرآن وحي من الله، وليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم.

٢- إثبات فضل القرآن وفضل الرسول الذي أنزل عليه، وبيان أن القرآن معجز، ولذا تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله وقطع التحدي بأنهم لن يأتوا بمثله أبدًا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا: « قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » (الإسراء:٨٨).

٣- والسورة كذلك ترد على مزاعم المشركين، وتثبت للنبي صلى الله عليه وسلم الفضائل العالية.

٤- تذكر السورة بنعم الله على عباده، وتمهد لمرحلة ما بعد الهجرة النبوية، وتؤسس لمجتمع أهم دعائمه توحيد رب العالمين، وبر الوالدين، والإحسان إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين، وإشاعة العدل ومكارم الأخلاق والنهي عن سفسافها.

وسورة الإسراء تميزت بميزة انفردت بها عن بقية السور الأخرى؛ ذلك أنه تكرر فيها اسم القرآن إحدى عشرة مرة بالاسم الظاهر (القرآن)، هذا عدا الإشارة إليه بالضمير المضمر في كثير من مواضع السورة.

أما علاقته بصدر السورة الكريمة وخصوصًا قول الحق تبارك وتعالى: « إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » (الإسراء:٩)، هذه الآية التاسعة في هذه السورة الكريمة، جاءت قبلها الآية الأولى التي تحدثت عن الإسراء الذي يشير إلى علاقة المسلمين الوثيقة بالمسجد الأقصى المبارك، وأن الله نقل إلى رسوله النبي الأمي ميراث إبراهيم عليه السلام المسجدين الحرام والأقصى والقبلتين ونقل إليه إمامة الأنبياء بصلاتهم خلفه، وهو إمام لهم وهم أنبياء بني إسرائيل في معظمهم في المكان الذي كان موطنًا لهم.

ثم تتحدث الآيات السبع التالية عن فساد بني إسرائيل وإفسادهم في الأرض فيما مضى وما بقي من الأيام في ماضيهم ومستقبلهم، فليس لهم مهمة إلا ذلك، ولذلك لا يصلحون لإمامة البشرية في الدين، فلا بد من أمة اختارها الله على عينه وبعث فيها الرسول الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل وأنزل عليهم هذا الكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم، وهذا الذي دلت عليه الآية التاسعة تمامًا: « إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ » (الإسراء:٩)، إشارة إلى اختيار هذه الأمة الذي هذا كتابها لإمامة البشرية في الدين.

أما ما يتعلق بصدر السورة وعلاقته بتكرار كلمة القرآن في السورة، وأما ما يتعلق بالآية التي هي موضوع حديثنا اليوم فإن كثيرًا من الآيات التي تكرر فيها ذكر القرآن صريحًا تشير إلى إعراض المشركين رغم وضوح الحجة وكمال المحجة،

ونذكر منها على سبيل المثال قول الله تبارك وتعالى: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا» (الإسراء:٤١)، وقوله تعالى: «وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا» (الإسراء:٤٦)، وقوله تعالى: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا» (الإسراء:٤١).

وأمام هذا النفور والإعراض والكفر والعناد تأتي الآية التي معنا تُعلل السبب وتبسط الجواب وتسري عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن المؤمنين وتقول: «وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا» (الإسراء:٨٢)، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات والآن نعود إلى الآية التي هو موضوع حديثنا في المحور الثاني:

المحور الثاني: تفسير مجمل للآية الكريمة:

«وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا» (الإسراء:٨٢)، وننزل الضمير المضمر في (ننزل) إشارة إلى الله سبحانه وتعالى الذي أنزل هذا القرآن وهو كلامه سبحانه نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم النبي الأمي بلسان عربي مبين ليكون من المنذرين، بل أرسله الله للناس كافة بشيرًا ونذيرًا، وجعل الله هذا القرآن كل القرآن؛ لأن (من) هنا لبيان الجنس، وليست للتبعيض.

والمعنى الإجمالي للآية الكريمة هو: «وننزل من آيات القرآن ما يشفي القلوب من أمراضها كالشك والنفاق والجهالة، وما يشفي الأبدان، وما يكون سببًا للفوز برحمة الله بما فيه من الإيمان، ولا يزيد هذا الكفار عند سماعه إلا كفرًا وضلالاً لتكذيبهم به وعدم إيمانهم». (التفسير الميسر).

المحور الثالث: مزيد بيان حول شفاء القرآن:

قال الله عز وجل: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ» (يونس:٥٧).

وقال الله تعالى: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى» (فصلت:٤٤)، وقال الله تعالى: «وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ» (الحاقة:٤٨- ٥١).

ومما لا شك فيه أن القرآن شفاء وهداية للقلوب والعقول من الشك والريبة والجهل بالله واليوم الآخر، وهو تزكية للنفوس وتطهير لها وسمو بالروح ودعوة إلى مكارم الأخلاق وإلى العلم النافع والعمل الصالح وناهيًا عن أضدادها من الكفر والفسوق والعصيان، لكننا يجب ألا ننكر تأثير القرآن على الكيان الإنساني كله على الجلد وعلى القلوب، قال الله تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ» (الزمر:٢٣)، بل للقرآن أثر واضح على الجمادات في الأرض والجبال والأنهار والبحار وغيرها، قال الله تعالى: «لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (الحشر:٢١)، وقال الله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَايْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا» (الرعد:٣١).

بيد أن سرَّ المشكلة يكمن في القلوب المؤمنة أو الكافرة، قال الله تعالى: «أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (الزمر:٢٢).

وقال الله تعالى: «أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا» (الأنعام:١٢٢)، وقال الله تعالى: «فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» (الأنعام:١٢٥).

المحور الرابع: كيف يكون القرآن ربيع قلوبنا؟

قال ابن القيم رحمه الله: «القلب خُلق لمعرفة فاطره سبحانه ومحبته وتوحيده، والسرور بطاعته، والابتهاج بمحبته والرضى عنه، والتوكل عليه والحب فيه والبغض فيه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، ودوام ذكره، وأن يكون الله أحب إليه مما سواه، وأرجى عنده من كل ما سواه، ومن

أعظم أمراض القلب: الشرك والذنوب والغفلة والاستهانة بمحابه، ومراضيه، وترك التفويض إليه وضعف التوكل عليه، وقلة الاعتماد عليه، والركون إلى ما سواه، والسخط بمقدوره، والشك في وعده ووعيده». (اهـ بتصرف من زاد المعاد ج٤).

وعلاج ذلك كله في كتاب الله عز وجل فكيف السبيل إلى ذلك؟

في مسند الإمام أحمد رحمه الله عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أصاب عبدًا همٌّ ولا حزنٌ، فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله حزنه وهمه وأبدله مكانه فرحًا».

فتأمل هذا الحديث الجليل القدر والعظيم النفع تلاحظ ما يلي:

١- إقرار النبي صلى الله عليه وسلم بالعبودية بل وعبودية آبائه وأمهاته جميعًا.

٢- رضاه بقضاء الله وقدره، وإقراره بأن الله يملك ناصيته ونواصي العباد جميعًا، وأن حكمه عدل في جميع خلقه، كما أقر بذلك واعترف نبي الله هود عليه السلام حين قال: «إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ» (هود:٥٦)، أي: مع كون الله سبحانه آخذًا بنواصي خلقه يصرفها كيف يشاء فهو سبحانه على صراط مستقيم لا يتصرف فيهم إلا بالعدل والحكمة.

وقد توسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله بجميع أسمائه ما علمه منها وما لا يعلمها، فأسماء الله لا تحصى، فمنها ما أنزله في كتابه، ومنها ما علمها بعض خلقه، ومنها ما استأثر الله بعلمه، وتأمل أخي -رحمك الله- بعد هذه المقدمة الجليلة والثناء العظيم على الله بما هو أهله؛ ماذا طلب النبي من ربه؟ (وهذا موضع الشاهد معنا) طلب من الله أن يجعل القرآن ربيع قلبه ونور صدره وجلاء حزنه وذهاب همه؛ لأن القرآن هو مصدر الشفاء والهداية والرحمة، وفي قوله صلى الله عليه وسلم: «ربيع قلبي» أي: جنة قلبي وحياتها؛ لأن الربيع هو الماء الذي به حياة النبات سواء جاء من المطر أو من غيره، فطلب أن يكون القرآن حياة قلبه، وهذه حقيقة القرآن كما مر بنا حياة القلب وكذلك هو الروح وهو النور كما قال ربنا عز وجل: «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» (الشورى:٥٢)، وسواء كان معنى الربيع كما ذكرنا الماء والنماء أو بالمعنى الآخر وهو التمكن والتربع فيكون المعنى: اجعل القرآن العظيم قائدي ومرشدي في كل أموري فلا تعارض بين المعنيين بل تكامل.

المحور الخامس: مكانة القرآن الكريم في شفاء القلوب وهدايتها:

نختم هذا المقال بكلام مفيد لابن القيم رحمه الله حول معرفة العبد ربه من خلال القرآن الكريم، وكيف يتجلى الله لعباده بأسمائه وصفاته وهذه أساس معرفة، وقد أطنب ابن القيم في هذا كثيرًا لأهميته ونحن ننقل بعضه من كتاب «الفوائد»، قال رحمه الله بعد كلام طويل: «وأنت إذا تدبرت القرآن وأجرته من التحريف، وأن تقضي عليه بآراء المتكلمين وأفكار المتكلفين، أشهدك مَلَكًا قيومًا فوق سماواته على عرشه بما يليق بجلاله وكماله يدبر أمر عباد، يأمر وينهى، ويرسل الرسل، وينزل الكتب رحمةً للخلق، يرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويرى من فوق سبع سماوات ويسمع، ويعلم السر والعلانية، فعَّال لما يريد موصوف بكل كمال، منزَّه عن كل عيب لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ولا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، وليس لعباده من دونه ولي ولا شفيع». (انتهى بتصرف يسير).

هذا ما تيسر، أسأل الله أن ينفعنا وإياكم به، أما الحديث عن الرحمة فقد يكون له موعد آخر؛ إن مدَّ الله في الأجل ووفَّق للعمل، وإلى لقاء أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

القرآن شفاء ورحمة

الحلقة الثانية

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعدُ،

أخي القارئ الكريم في اللقاء الماضي تحدثنا عن قول الحق تبارك وتعالى: « وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا » (الإسراء:٨٢).

وهناك أوضحنا بما تيسر كيف يكون القرآن شفاءً لصدور المؤمنين بهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وتعريفهم بربهم عز وجل، والطريق الموصلة إليه، وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل، لذلك لا يزداد المعرض عن القرآن إلا بُعدًا وخسارًا.

إن القرآن هدًى وشفاء ورحمة بمعنى عام وبمعنى خاص، وقد ذكر الله ذلك فهو هدى للعالمين بالمعنى العام، وهو إقامة الحجة على الخلق جميعًا، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فعليها، والقرآن موعظة للمتقين، وهدى للمتقين الذين آمنوا به واتبعوه، وكذلك شفاء للعالمين بالمعنى العام وشفاء للمؤمنين فهو نفسه هدى ورحمة وشفاء وموعظة، وهو نجاة من فتنة الشهوات والشبهات، من اهتدى به واتعظ كان بمنزلة من استعمل الدواء الذي به الشفاء، ومن أعرض فقد ترك مصدر شفائه ورحمته وهدايته، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والناس أمام القرآن وآياته صنفان كما أخبر ربنا عز وجل، «فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ » (التوبة: ١٢٤- ١٢٥).

وهؤلاء كمثل الأرض التي يصيبها الغيث النازل من السماء، فالأرض الغليظة العالية التي لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ، فلا هي قابلة للماء ولا للنبات، مع أن الماء في نفسه رحمة وحياة، ولكنه في هذه الأرض لا قبول له ولا انتفاع به، بخلاف ما يحدث مع الأرض الطيبة للذين ينتفعون بالقرآن، والمعرضون فيهم آفات الكبر والإعراض، فلو سمعوا لم ينقادوا ولم يتبعوا الحق ولم يعملوا به، وهؤلاء يكون القرآن إقامة حجة لا هدى توفيق وإرشاد فلم يتصل الشفاء في حقهم بالرحمة، وأما المؤمنون، فاتصل الشفاء والهدى في حقهم

بالرحمة فصار للمؤمنين هدى وشفاء ورحمة. ونحن نتحدث اليوم عن كون القرآن رحمة للمؤمنين نسوق حديثنا بعون الله وتوفيقه في المحاور التالية:

أولاً: التعريف بالرحمة:

المحور الأول: والرحمة صفة من صفات المولى عز وجل، ويكفي أن الله سبحانه افتتح به كتابه فقال سبحانه: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ» (الفاتحة: ٢-٣)، فهو سبحانه الموصوف بالرحمة، وهو الذي يرحم خلقه، فالرحمن وصفه والرحيم فعله، تباركت أسماؤه وأفعاله، فإن رحمته شملت الوجود وعمت الملكوت، فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيء أشرق معه شعاع للرحمة الغامرة، ولذلك تقول الملائكة في دعائها: «رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا» (غافر: ٧).

ويقول ابن القيم رحمه الله: «فوسعت رحمته كل شيء، وبلغت رحمته حيث بلغ علمه». اهـ من كتاب الصلاة وحكم تاركها.

ويقول رحمه الله: «وأنت لو تأملت العالم بعين البصيرة لرأيته ممتلئًا بالرحمة كامتلاء البحر بمائه والجو بهوائه». مختصر الصواعق المرسلة.

ويقول أيضًا في مدارج السالكين: «الرحمة سبب واصل بين الله عز وجل وبين عباده بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها يسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم، فبينهم وبينه سُنة العبودية منهم، ومنه سبحانه سبب وهو الرحمة». اهـ بتصرف يسير.

ويقول أيضًا: «فانظر إلى ما في الوجود من آثار رحمته الخاصة والعامة، فبرحمته أرسل إلينا رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وأنزل علينا كتابه، وعلمنا من الجهالة، وهدانا من الضلالة، وبصرنا من العمى، وأرشدنا من الغي، وبرحمته عرّفنا من أسمائه وصفاته وأفعاله ما عرّفنا به أنه ربنا ومولانا، وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم، وأرشدنا لمصالح ديننا ودنيانا، وبرحمته أطلع الشمس والقمر، وجعل الليل والنهار، وبسط الأرض وجعلها مهادًا وفراشًا وقرارًا وكفاتًا للأحياء والأموات، وبرحمته أنشأ السحاب وأمطر المطر، وأطلع الفواكه والأقوات والمرعى، ومن رحمته سخر لنا الخيل والإبل والأنعام، وذللها منقادة للركوب والحمل والأكل، وبرحمته وضع الرحمة بين عباده ليتراحموا بها، وكذلك بين سائر أنواع الحيوان، فهذا التراحم الذي بينهم بعض آثار الرحمة التي هي صفته ونعمته، واشتق لنفسه منها اسم الرحمن الرحيم، وأوصل إلى خلقه معاني خطابه برحمته، وبصرهم ومكن لهم أسباب مصالحهم برحمته..». اهـ مختصر الصواعق المرسلة.

وقال رحمه الله: «ومن أعطى اسم (الرحمن) حقَّه: عرف أنه متضمن لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظم من تضمنه إنزال الغيث وإنبات الكلأ والحب فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح: أعظم من اقتضاؤه لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح». اهـ من مدارك السالكين.

ولأن الله سبحانه هو الرحمن الرحيم أنزل كتاب رحمة وقال سبحانه: «حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» (فصلت: ١-٣).

وقال تعالى: «ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ» (الرحمن: ١، ٢).

وقال تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ» (النحل: ٨٩).

وقال تعالى: «وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا» (الإسراء: ٨٢).

والآيات في هذا الباب كثيرة، فالله الرحمن الرحيم أنزل كتابه رحمة وبعث رسوله رحمة، وقال سبحانه: «وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ» (الأنبياء: ١٠٧).

فكل نبي أُرسل رحمة لقومه وإنما أرسل الله محمدًا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين عربهم وعجمهم إنسهم وجنهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس إنما أنا رحمة».

أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٤٥).

فالنبي صلى الله عليه وسلم رحمة لكل الناس، فمن قبلها من الناس فهو الفائز، ومن ردَّها فذلك هو الخسران المبين، فإن الله سبحانه أرسل رسوله يمسح آلام البشر بل والجن أيضًا، ويخفف الأحزان ويشفق على العصاة، ويدعو الله لهدايتهم، وينصر الضعيف، ويخضد شوكة القوي، يرده عن غيه أحيانًا، أرسل الله محمدًا صلى الله عليه وسلم وغمر قلبه بالعلم والنور والهداية ما يسع الناس جميعًا وجعله على خلق عظيم ما جعله أكثرهم رحمة وأوسعهم عاطفة وأرحبهم صدرًا، قال الله تعالى: « فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » (آل عمران:١٥٩)، فالله الرحمن الرحيم أنزل كتابه رحمة وأرسل رسوله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين.

المحور الثاني: من معاني الرحمة في القرآن الكريم:

أولاً: ورد لفظ الرحمة في القرآن الكريم في ثمانية وستين ومائتين موضعًا (٢٦٨) وأكثر وروده بصيغة الاسم مثل (الرحمن الرحيم) وورد في أربعة عشر موضعًا بصيغة الفعل، مثل: «قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (الأعراف: ١٤٩).

ثانيًا: وأطلق لفظ (الرحمة) في القرآن وأريد به معاني كثيرة منها:

ما جاء بمعنى صفة المولى عز وجل مثل قوله تعالى: «وربك الغني ذو الرحمة» (الأنفال: ١٣٣)، والرحمة بمعنى الجنة كما في قوله تعالى: «أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ » (البقرة:٢١٨)، والرحمة بمعنى الإسلام والنبوة والرسالة، والقرآن كما جاء في قوله تعالى: «وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ» (هود: ٢٨)، وقوله تعالى: «وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ » (البقرة: ١٠٥)، وقوله تعالى: « قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا » (يونس: ٥٨).

وقد تأتي (الرحمة) ويراد بها المطر كما في قوله تعالى: « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ » (الأعراف: ٥٧)، وفي قوله تعالى في سورة الروم: « فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ » (آية: ٥٠).

والرحمة بمعنى النعمة والرزق في قوله تعالى: «قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ » (الإسراء: ١٠٠)، وقوله تعالى: « مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا » (فاطر: ٢).

وتأتي بمعنى الخير والنصر والعافية كما في قوله تعالى في سورة الأحزاب « قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً » (آية: ١٧)، وتأتي بمعنى (المغفرة والعفو) كما في قوله تعالى: «كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » (الأنعام: ٥٤)، وكذلك قوله تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ » (الزمر: ٥٣)، وقد تأتي بمعنى الوقاية من المعاصي كما في قوله تعالى: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي » (يوسف: ٥٣).

وقد تأتي بمعنى استجابة الدعاء كما في قوله تعالى: «ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا» (مريم: ٢)، وقد أتي بمعنى المودة والتعاطف بين المؤمنين كما جاء في وصف النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في قوله تعالى: «مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ » (الفتح:٢٩)، وبعد هذا البيان لمعاني الرحمة في القرآن، فالمؤمنون به لهم نصيب من رحمة الله بقدر تطبيقهم للقرآن عقيدةً وشريعة وأخلاقًا.

المحور الثالث: منابع الرحمة في القرآن:

أولاً: تفيض أنهار الرحمة في القرآن الكريم من ينابيع الهداية التي يسوقها القرآن إلى المؤمنين به بين آياته البينات، واقرأ معي إن شئت قول الحق تبارك وتعالى: «قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ

وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » (المائدة:١٥، ١٦).

ولذلك قرن الله في كتابه بين الهدى والرحمة فقال سبحانه على لسان الراسخين في العلم أصحاب العقول السليمة الذين آمنوا بالقرآن كله محكمه ومتشابهه وردوا المتشابه إلى المحكم وعملوا به وخافوا الزيغ فلهجوا في الدعاء والتضرع إلى الله: «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ » (آل عمران:٨)، وقال سبحانه على لسان الفتية الذين راموا الحق وفروا بدينهم من فتنة الشبهات والشهوات التي كانت تلاحقهم أينما ذهبوا فقالوا بصدق ويقين: «رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا » (الكهف:١٠).

ونحن إذا تأملنا القرآن وتدبرناه نجد أن الله سبحانه وتعالى يدعو عباده إلى دار رحمته (الجنة)، ويهدي إلى طريقها من آمن بالله واليوم الآخر واقرأ في قوله تعالى: « وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » (يونس:٢٥)، وقال بعدها مباشرة: «لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » (يونس:٢٦)، وإن الله سبحانه برحمته أرسل الرسل وأنزل الكتاب جميع الكتب وأنزله وسماه الفرقان وجعله مهيمنا على ما سبق من كتب الأنبياء السابقين، أنزله الله على جبريل عليه السلام الرسول الملكي ليعلمه الرسول الإنسي النبي الأمي ليكون رحمة وهداية للعالمين، ولتعريفهم بربهم سبحانه بأسمائه وصفاته، وكيفية عبادته لينقلهم برحمته من الجهالة إلى الرشد، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن النار إلى الجنة، فسبحانه أرحم الراحمين الذي وسعت رحمته كل شيء في الدنيا وادخره في الآخرة لعباده الصالحين.

وتأمل قول الحق تبارك وتعالى: «قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ » (الأعراف:١٥٦)، فهذه الآية الكريمة أشارت إلى رحمة الله التي وسعت كل شيء في الدنيا وخصها في الآخرة للذين آمنوا بهذا الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم، وقد نصت الآية التي بعدها على ذلك صراحة فقال تعالى: « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » (الأعراف:١٥٧).

المحور الرابع: موجبات الرحمة:

أشار الله سبحانه في الآيتين السابقتين من سورة الأعراف إلى رحمة الله في الدنيا وإلى رحمته في الآخرة، وإلى موجباتها، وتتلخص أهم موجباته في الإيمان والتقوى وعمل الصالحات واتباع النبي الأمي الذي ختم الله به النبوة، وتمت به الرسالات صدقا وعدلا وبشرت به كل الكتب السابقة، وبخاصة التوراة والإنجيل على لسان موسى وعيسى عليهما السلام، وقد جاء تأكيد هذا المعنى في أكثر من موضع من القرآن الكريم، فقال سبحانه: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ » (النور:٥٤)، وقال تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (النور:٥٦).

ومن موجبات الرحمة كذلك: تحقيق الأخوة الإيمانية، وإصلاح ذات البين في إطار تقوى الله، قال سبحانه: « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (الحجرات:١٠)، وموجبات الرحمة في القرآن لمن تدبر ونكتب ما قدمنا ففيه غنية لمن اهتدى.

اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، اللهم نسألك رحمة من عندك تهدي بها قلوبنا، وتجمع بها أمرنا، وتزكي بها عملنا، وتلهمنا بها رشدنا، وتعصمنا بها من كل سوء.

صلح الحديبية بين الرأي والوحي

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي نصر رسوله بالحجة والبرهان كما نصره بالسيف والسنان، وأشهد ألا إله إلا الله وحده نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه. ثم أما بعد:

فهذا حديث عن الفتح المبين الذي مهَّد بعون الله إلى فتح خيبر، ثم فتح الفتوح فتح مكة، نعم هذا اللقاء نقف فيه وقفة يسيرة مع صلح الحديبية؛ ذلكم الحدث العظيم في تاريخ السيرة النبوية، ونحن مهما تحدثنا حول هذا الموضوع فلن نسبر غوره، ولن نستقصي الحكمة البالغة منه ويكفي أن الله أنزل بشأنه وفي أعقابه (سورة الفتح)، وقال سبحانه في مطلعها: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا» (الفتح:١، ٢)، ثم قال: «وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا» (الفتح:٣)، وفي هذا إشارة إلى فوائد هذا الصلح، وما ترتب عليه في الحال والاستقبال، ثم قال سبحانه في ختام السورة: «لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا» (الفتح:٢٧)، فسماه الله «فتحًا قريبًا».

وذلك تمهيدًا لفتوح أخرى ستأتي بعده؛ لأن الله هو الذي يتولى التمكين لدينه، لذا قال بعدها مباشرة: «هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا» (الفتح:٢٨)، وإذا سألت عن هذا الرسول الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله تأتيك الإجابة واضحة مثل الشمس في رابعة النهار في الآية التي بعدها: «مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ» (الفتح:٢٩)، والتي تبين اسم وأوصاف نبي آخر الزمان الذي لا نبي بعده، وكذلك أوصاف أصحابه الذين اختارهم الله على عينه، وهذه الأوصاف المذكورة في التوراة من قبل كما هي مذكورة في القرآن؛ فاعلموا يا أهل الإسلام.

ثانيا: متى كانت البداية

الآن وبعد هذا التمهيد أو التقدمة نشرع في المقصود بعون الله تبارك وتعالى:

وكانت البداية في العام السادس الهجري وفي المدينة النبوية عندما رأى النبي صلى الله عليه وسلم رؤيا (ورؤيا الأنبياء حق) رأى أنه وأصحابه يطوفون بالبيت الحرام في مكة، ومكة هي مهبط الوحي وقد أخرج المشركون النبيَّ والذين آمنوا معه

منها منذ سنوات، وقد اشتاقت نفوس المهاجرين والأنصار على حد سواء إلى رؤية الكعبة المشرفة والطواف حولها، فهي في قلب كل مسلم وهي قبلة المسلمين جميعًا، وقد آلت قريش على نفسها أن تمنع محمدًا والذين آمنوا معه من دخول مكة والطواف حول بيت الله الحرام.

وعندما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم الرؤيا هيَّج الشوق في نفوس المسلمين جميعًا، وظنوا أنهم سيطوفون بالبيت ذلك العام، وانتظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى شهر ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم التي تعظمها قريش وتتوقف فيها عن القتال، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة من العام السادس الهجري ومعه أربع عشرة مائة (ألف وأربعمائة) من أصحابه الكرام قاصدين العمرة إلى بيت الله الحرام، وهي التي تسمى بعمرة الحديبية.

ثالثًا: حبسها حابس الفيل:

خرج النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه من المدينة وساقوا معهم الهدي وأحرموا من ذي الحليفة، وهو ميقات أهل المدينة، خرجوا يريدون العمرة ولا يريدون قتالاً، فلم يحملوا معهم من السلاح إلا ما يحمله المسافر (سيف في غمده)، وانطلقوا إلى مكة فرحين مهللين ومكبرين وعقيدتهم واضحة جلية أنه بيت الله.

وانطلق الركب المسلم يحدوه الشوق ويدفعه الأمل في تحقيق رؤيا النبي، وأن يطوفوا بالبيت العتيق، ولما علمت قريش بمقدم النبي وصحبه عقدوا مجلسًا استشاريًا وقرروا صد المسلمين عن البيت الحرام وأرسلوا خالد بن الوليد على رأس مائتي فارس يرابط بكراع الغميم في الطريق المؤدي إلى مكة لمنع المسلمين وصدهم عن البيت الحرام.

ولما كان هدف المسلمين هو العمرة وليس الحرب أمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بتجنب الطريق الذي يقف فيه خالد تحاشيًا للصدام، وسار المسلمون حتى إذا كانوا في الثنية التي يهبط منها إلى مكة، بركت راحلة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الناس- أي الصحابة-: (خلأت القصواء) وهو اسم ناقة النبي صلى الله عليه وسلم، وخلأت يعني حرنت أي توقفت عن المشي تمرُّدًا منها من غير علة أو سبب ظاهر.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل». أخرجه البخاري. (وهذا نوع من الوحي أوحى الله به إليها).

رابعًا: سعي النبي صلى الله عليه وسلم إلى السلام وحرصه عليه:

الناقة مأمورة وعندما ترفض دخول مكة فهناك أمر ما أراده الله للمسلمين غير دخول مكة وأداء العمرة هذا العام، وقد ألهم الله نبيه الحكمة وفصل الخطاب، فقال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خُطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها». ثم زجر الناقة فوثبت فعدل بها عن مكة، ونزل بمكان فيه بئر يسمى الحديبية، وهناك عسكر المسلمون في انتظار ما تسفر عنه الأمور، بعون الله ومشيئته.

وهو صلى الله عليه وسلم يعرض عليهم خطة للسلم، ويؤكد لهم أنه وأصحابه ما جاؤوا إلا للعمرة ولا يريدون قتالاً، وقد أخبر كل من جاء من قريش بهذا، بل وأرسل إليهم من يخبرهم بذلك.

خامسًا: بيعة الرضوان:

كان ممن بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قريش للتفاوض معهم عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان اختيار عثمان لمكانته في قريش، وعندما تأخر عثمان وأشيع أنه قُتل عندئذ بايع الصحابة كلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على القتال، وكانوا من خيرة الصحابة، وقد وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده مكان يد عثمان في البيعة، ويكفي أصحاب هذه البيعة أن الله مدحهم وأعلن عن رضاه عنهم، فقال سبحانه: «لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا» (الفتح:١٨)، هذا ثناء الله على أصحاب هذه البيعة، وكفى به ثناء، فيا ليت شعري وأسفي على الذين يتجرؤون على سبّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم أصحاب هذه البيعة!

سادسًا: بدء المفاوضات وكتابة الوثيقة:

خفَّت حدة التوتر بعد عودة عثمان بن عفان من

مكة، واتضح أن خبر قتله كان إشاعة كاذبة، وبعدها أرسلت قريشًا سهيل بن عمرو وهو رجل معروف بالحكمة والعقل ليتفاوض مع النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين، ولما رآه النبي صلى الله عليه وسلم استبشر به خيرًا، وقال للصحابة: «سُهل لكم أمركم»، وفعلاً قد تم الصلح وبنوده كالتالي:

١- أن يرجع الرسول ومن معه من المؤمنين عن مكة هذا العام على أن يأتوا في العام القابل فيدخلوا مكة ويطوفوا بالبيت ويقيموا بمكة ثلاثًا معهم سلاح الراكب- السيوف فقط ولا تتعرض قريش لهم بأي نوع من التعرض.

٢- وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض.

٣- من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه.

٤- من أتى محمدًا من قريش من غير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يُرد عليه.

رابعًا: موقف الصحابة من بنود الصلح:

جاءت البنود السابقة وقد أصاب الصحابة أو كثيرًا منهم ألم شديد بسبب هذه البنود، وخصوصًا البند الذي يؤجل عمرتهم للعام القابل والبند الذي فيه رد من أتى إلى المسلمين من قريش بغير إذن وليه بردّه إلى وليه، وقد توافق حضور أبي جندل بن سهيل بن عمرو مكبلاً في قيود عليه آثار التعذيب هاربًا من قريش معلنًا إسلامه، وانضمامه إلى المسلمين فصفعه أبوه على وجهه ونهَرَه وردَّه إلى قريش، ولم يستطع الرسول إلا أن يوصيه بالصبر تنفيذًا لبنود الوثيقة.

فحز هذا المشهد كثيرًا في نفوس المسلمين، لكن الأكثرية لم تستطع التعبير عن رأيها كما فعل عمر رضي الله عنه فقد جاء إلى النبي وقال: يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: بلى. قال عمر: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار. قال: بلى. قال عمر: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا ابن الخطاب إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري ولن يضيعني» قال عمر: أو ليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى؛ أخبرتك أنا نأتيه العام؟ قال عمر: لا. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: فإنك آتيه ومطوّف به.

ولم يكن هناك أحد من الصحابة يفهم هذا الفهم الذي فهمه أبو بكر رضي الله عنه، وقد أوضحه لعمر، فعمر يرى رأيًا قد يصيب ويخطئ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم يتبع الوحي الذي لا يخطئ، وهذا هو الفرق بين الرأي والوحي لذا أوصى أبو بكر عمر أن يلزم أمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، وقد بيَّن الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لعمر بعد سماع رأيه ولم يصدّه، ولم يحجر على رأيه؛ فقد أوضح له أنه رسول الله، وأن الله معه ناصره ومؤيده وملهمه الصواب.

خامسًا: رأي سديد:

لما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من كتابة وثيقة الصلح بينه وبين قريش أمر الصحابة أن يقوموا ليتحللوا من عمرتهم ويحلقوا رؤوسهم وينحروا الهدي، فما قام أحد، وكأنهم لم يسمعوا، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم على أم سلمة زوجته، غاضبًا حزينًا على أمر المسلمين يخشى عليهم الهلاك إن هم خالفوا أمره، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا رسول الله، أتحب ذلك؟ يعني: أتحب أن يفعلوا ما تأمرهم به؟ أخرج الآن وانحر هديك وادعُ حالقك، فقام النبي صلى الله عليه وسلم ففعل كما أشارت أم سلمة رضي الله عنها، ولم يكلّم أحدًا، فلما رأى الصحابة النبي صلى الله عليه وسلم يفعل قاموا يتنافسون في الفعل اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم، وذبحوا وحلقوا شعورهم ومنهم من قصر شعره.

وهكذا كان للقدوة العملية أثر فعال أبلغ من الأمر النظري، ورحم الله أمنا أم سلمة رضي الله عنها فقد ألهمها الرأي السديد.

وعاد المسلمون إلى المدينة على أن يعودوا إلى مكة في العام القادم إن شاء الله، محلقين رؤوسهم ليطوفوا بالبيت العتيق، كما أشارت سورة الفتح، وبينت أن الله اختار لهم ذلك لحكمة يعلمها سبحانه اتضحت للمسلمين فيما بعد.

والحمد لله رب العالمين.

معالم الهدى في البيت العتيق

إعداد/ عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي جعل بيته الحرام قيامًا للناس، وجعله مثابة للناس وأمنًا، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعدُ:

فإن الله سبحانه وتعالى جعل في الأرض معالم يهتدي بها السالكون إلى طريقه المستقيم، ومن أول هذه المنارات المضيئة ومن أقدمها الكعبة المشرفة في مكة المكرمة، قال الله تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ» (آل عمران:٩٦).

ومفردات هذه الآية الكريمة تحتاج إلى تدبر لتستوعب المقصود منها، فقوله تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ» (آل عمران:٩٦)، ولكي نستوعب معاني هذه المفردات استيعابًا صحيحًا لا بد من ربطها بما سبقها وما لحقها، أي: نربط هذه الآية بما سبقها وما لحقها، بل بكل ما جاءت في القرآن وله بها علاقة، فهذه محاور مهمة بالأولية، والمقصود وكونه وُضع للناس كل الناس وهدى للعالمين كل العالمين، ومعلوم أن لفظ العالمين جمع عالم؛ فالبيت هداية لعالم الإنس والجن والطير، وغير ذلك من العوالم، فهداية البيت تشمل ذلك كله، وهذا حديث طويل لا يستوعبه مقال واحد، ولكننا نوجز القول إيجازًا، ونستخلصه استخلاصًا فيما يلي:

أولاً: علاقة الآية بما قبلها:

١- جاءت الآية السابقة (٩٦) من أول آل عمران بعد مساجلة طويلة أقامها القرآن الكريم بالحجة والبيان لدحض مزاعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وكذلك المشركين، واتخذوا من ذلك مسوغًا لكفرهم وتكذيبهم بالدين الذي اختاره الله للناس كافة وبالكتاب الذي أنزله الله هدى للناس كل الناس، وبالنبيِّ الخاتم الذي أرسله الله رحمة للعالمين وخاتمًا للنبيين.

وقبل ذلك وبعده كفروا بتوحيد الله رب العالمين.

٢- ونحن نذكر فيما يأتي أمثلة من إقامة الحجة عليهم ودحض مزاعم يقرر القرآن حقيقة واضحة جلية تقضي على كل مزاعمهم بوضوح في قوله تعالى: «مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (آل عمران:٦٧).

ثم قرر بعدها مباشرة من هم أولى الناس بإبراهيم عليه السلام، فقال تعالى: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ» (آل عمران:٦٨).

فأولى الناس بإبراهيم عليه السلام بعد الذين اتبعوه في حياته هو هذا النبي الأمي والذين آمنوا به من المسلمين، لأنهم على ملته التي جاء يدعو إليها وهم ورثة البيت الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل.

لذلك جاءت الآيات تترى ترد عليهم بالحجة والبرهان منها على سبيل المثال قوله تعالى: «يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ» (آل عمران: ٧٠- ٧١).

لماذا تكفرون بآيات الله الواضحة على صدق النبي الذي تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل، وتحرِّفون الحق بالباطل وتكتمون الحق الذي لا تستطيعون تحريفه؛ وقد أخذ الله الميثاق على جميع النبيين ومنهم موسى وعيسى أن يؤمنوا بهذا النبي ويأمروا أقوامهم أن يؤمنوا به، وقد فعلوا ذلك، قال الله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ الشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْفَٰسِقُونَ» (آل عمران:٨١، ٨٢)، وهذا النبي هو محمد ودينه الذي ارتضاه الله هو الإسلام، وهذا الذي أكدته الآيات التالية: «قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْءَاخِرَةِ مِنَ الْخَٰسِرِينَ» (آل عمران:٨٤، ٨٥).

٣- والعجيب في الأمر أن اليهود كانوا يؤمنون بمحمد

صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث، وكانوا يستفتحون به على الأوس والخزرج في المدينة يقولون لهم: قرب زمان نبي سيظهر ونتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم؛ فلما جاء الرسول من العرب كفروا به.

قال تعالى: « وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ » (البقرة:٨٩)، وقال عنهم في موضع آخر: « ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » (البقرة:١٤٦).

وقال في آل عمران: « كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » (آل عمران:٨٦).

٤- ثم انتهت هذه المساجلة والحوار الطويل إلى دعوتهم باتباع ملة إبراهيم حنيفًا الذي رفع قواعد هذا البيت، ودعا ربه أن يبعث في هذه الأمة المسلمة رسولاً منهم هو محمد صلى الله عليه وسلم الذي يجبُ على الخلق جميعًا اتباعه، ولذا قال تعالى: « قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ » (آل عمران: ٩٥-٩٧).

ثانيا: حول معنى الآيات السابقة:

هنا يوجُه القرآن الكريم للنبي محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول لليهود والنصارى والمشركين وجميع من يسمع هذا القرآن، قل لهم: صدق الله فيما أخبر عن أنبيائه ورسله وعن إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ومن أراد الهداية فعليه أن يتبع ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين، وقد أخبر سبحانه في موضع آخر وقال: « وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ » (البقرة:١٣٠)، يعني: لا يترك ملة إبراهيم إلا سفيه، وملة إبراهيم هي دين الإسلام الذي جاء محمد صلى الله عليه وسلم والذي بعثه الله في أكناف البيت الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وقالا وهما يرفعان البناء: « رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ » (البقرة:١٢٨)، ثم قالا: « رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ » (البقرة:١٢٩).

إن الله سبحانه وتعالى جعل في الأرض معالم يهتدي بها السالكون إلى طريقه المستقيم، ومن أول هذه المنارات المضيئة ومن أقدمها الكعبة المشرفة في مكة المكرمة.

وقد استجاب الله هذا الدعاء وبعث في الأميين (العرب) رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتابة والحكمة، وقد ختم الله به رسالته وتمت به كلمته صدقًا وعدلاً للخلق أجمعين.

هذا، وقد صرَّح القرآن تصريحًا لا يحتمل الجدال ولا اللبس في قوله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم: « ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ » (النحل:١٢٣)، وفي قوله تعالى: « قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ » (الأنعام:١٦١).

٢- هذا، وقد بعث الله رسوله الخاتم في أكناف البيت الذي بناه إبراهيم والذي قال عنه سبحانه: « إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ » (آل عمران:٩٦)، هو أول بيت وضع في الأرض لعبادة الله من عهد آدم عليه السلام، وقد رجح هذا الرأي جمع من العلماء منهم: عطاء وسعيد بن المسيب وابن الجوزي والشيخ الأمين الشنقيطي، واستدلوا بما جاء في القرآن من إشارات تدل على ذلك؛ منها قوله تعالى: « وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ » (البقرة:١٢٥)، ولا يعهد إليها بتطهير البيت إلا إذا كان موجودًا، ومنها: « وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ » (البقرة:١٢٧)، فالقواعد كانت موجودة فكان البيت موجودًا قبل ذلك وهُدم مع طوفان نوح، ثم أعاد إبراهيم البناء.

ومنها قوله تعالى: « رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى

زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ » (إبراهيم:٣٧)، وقوله تعالى: «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ» (الحج:٢٦)، أي عرفناه وفي كل ذلك إشارة إلى أن وجود البيت سابق لإبراهيم، وإنما كان لإبراهيم تجديد البناء وهناك أولية نسبية بالنسبة للمسجد الحرام والمسجد الأقصى، كما جاء في حديث أبي ذر في الصحيحين، قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام». قال: قلتُ: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قال: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة».

فإبراهيم عليه السلام هو الذي أسّس المسجدين والقبلتين؛ المسجد الحرام في مكة، والمسجد الأقصى في القدس؛ لأن الله تعالى جعله للناس إمامًا، ثم اختار الله للناس البيت الحرام ليكون معلمًا للهداية يبعث خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ولهذا قال سبحانه: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ » (آل عمران:٩٦)، جمع الناس، «لَلَّذِي بِبَكَّةَ » (آل عمران:٩٦) أي: الذي بمكة، وبكة من أسماء مكة، وهو إشارة إلى أن جعل الله مكة تبك (تقطع) أعناق الطغاة الذين أرادوا سوءًا بالبيت في الطواف.

«وُضِعَ لِلنَّاسِ » (آل عمران:٩٦) وُضع للناس ليعبدوا الله فيه، ولذا قال سبحانه: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » (البقرة:١٢٥)، وقد عهد إلى إبراهيم واسماعيل بهما إعداد البيت وتطهيره من رجس الأوثان فقال سبحانه: «وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ » (البقرة:١٢٥)، وقال تعالى: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ » (المائدة:٩٧)، وقال تعالى مخاطبًا إبراهيم عليه السلام: «وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ » (الحج:٢٧)، فالأول لكل الناس والاستجابة لمن هداه الله، كما جاء واضحًا بعد ذلك في قوله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » (آل عمران:٩٧).

هنا بوضوح جعل الله الاستجابة لدعوة إبراهيم والتي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم علامة فارقة بين الكفر والإيمان، فمن جحد هذا الركن من الإسلام فقد كفر بإبراهيم واسماعيل واسحاق، والذي اعترف بدينهم من قبل أبناء يعقوب حين كانوا على الهدى وسألهم أبوهم يعقوب عند موته ما تعبدون من بعدي؟ وقد سجل القرآن الكريم هذه الشهادة فقال الله تعالى: «أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (البقرة:١٣٣)، فالإله الواحد المستحق للعبادة سبحانه هو إله جميع الخلق وإله إبراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومحمد، وهذا هو الإسلام الذي جاء به أنبياء الله وختموا بمحمد صلى الله عليه وسلم.

وجعل الله حج بيته الحرام علامة فارقة بين الهدى والضلال، ولذا قال: «وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» (آل عمران:٩٧)، والسياق هنا لا يزال موجهًا لأهل الكتاب الذين جحدوا ذلك ولكل من جحد، ولذلك قال بعدها مباشرة: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» (آل عمران:٩٨، ٩٩)، فأهل الكتاب لم يكفروا فقط بدين إبراهيم واسماعيل واسحاق ومحمد، بل يعملون جاهدين لصد الناس عن هذا السبيل، ولذلك كان المناسب جدًا أن في الآية التالية مباشرة هذا التحذير للذين آمنوا بالله ورسله، «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ» (آل عمران:١٠٠).

ثم يأتي بعدها تعجب وأوامر من الأهمية بمكان لتوجيه الأمة المسلمة في مسيرتها إلى الله، نذكرها مجملة دون تعليق: «وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (آل عمران: ١٠١- ١٠٣).

وقد يكون لنا معها وقفة إن أذن الله لنا في البقاء ومكننا الله من اللقاء، وإلى ذلك استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه، وإلى لقاء بإذن الله تعالى.

فصول من السيرة

الحلقة الأولى

غزوة خيبر

الحمد لله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، أما بعدُ:

فحديثنا بعون الله في هذا المقال ينتظم أمورًا نوردها فيما يلي:

إعداد: عبد الرزاق السيد عيد

أولًا: مقدمات:

المقدمة الأولى: أمة يبين الله لها أهدافها:

نحن أمام أمة يوجهها الوحي فيبيّن لها أهدافها العليا، فهذه سورة الفتح تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء عودته من صلح الحديبية وهو في الطريق إلى المدينة، لم ينتظر الوحي حتى يعود الرسول صلى الله عليه وسلم ويستقر في المدينة ثم ينزل، لا، بل في طريق عودته ينزل الوحي يبين فضل صلح الحديبية وما سيترتب عليه مستقبلاً يؤكد مكانة هذا الصلح، وكيف سماه الله فتحًا ويبشر بفتوح تأتي من بعده أولها فتح خيبر، قال الله تعالى: «لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا»، (الفتح: ١٨-٢٠).

المقدمة الثانية: «فَعَجَّل لكم هذه»، لماذا عجل الله خيبر؟

الإجابة: عجَّل الله بفتح خيبر لأنها الأفعى التي ينبعث سمها فيما جاورها، فلا بد من سرعة القضاء عليها حتى لا تكون سببًا في إفساد الآخرين، فمن المعلوم أن زعماء خيبر من اليهود وعلى رأسهم سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع، هم من حزّب الأحزاب وأنفقوا الأموال واستخدموا أخس الوسائل ومنها الكذب الصريح وقلب الأمور حتى يصير الباطل حقًا والحق باطلاً في زعمهم، وقد أخبرنا الله في كتابه عن ذلك فقال سبحانه: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ (٤٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا» (النساء: ٤٤، ٤٥).

لم يكتف اليهود بكفرهم وضلالهم بل أرادوا إضلال غيرهم بالكذب

والتزوير، فقالوا لمشركي مكة: أنتم أهدى من النبي محمد وصحبه سبيلاً، لقد دفعهم إلى ذلك حقدهم الدفين وحسدهم للنبي والمسلمين فاستخدموا كل الوسائل الخبيثة للصد عن سبيل الله، واستطاعوا بذلك أن يحشدوا عشرة آلاف مقاتل من قريش وغطفان ومن والاهم من الأعراب لمحاولة اجتثاث أهل المدنية والقضاء على الإسلام والمسلمين في أكبر تحزب عرفه التاريخ ضد المسلمين في عهدهم الأول، لكن الله ردَّهم بغيظهم لم ينالوا خيرًا، وكفى الله المؤمنين القتال، وعندها قال النبي صلى الله عليه وسلم: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا» رواه البخاري. وقد تحقق ذلك لأنه وعد من الله، فهذا وجه من وجوه التعجيل بخيبر للقضاء على مصدر الفتن.

وهناك وجه آخر للتعجيل بخيبر وهو الحصول على المغانم فخيبر منطقة خصبة غنية بالموارد وحصون اليهود مكدسة بالأموال والعتاد والطعام، وأيضًا تقع خيبر في طريق الشام وفي ملتقى طرق كثيرة لتجارة الشام منه وإليه، فتأمينها قوة للدولة الناشئة في المدينة النبوية، وتأمين لحدودها الشمالية، وهزيمة اليهود في خيبر بحصونها المنيعة ورجالها الأشداء درس لغيرهم ممن غرتهم نفوسهم ممن تبقى من اليهود أو غطفان أو غيرهم، لذلك كان الوعد الإلهي بالتعجيل بها، واستجابة النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الأبرار بسرعة الخروج إلى خيبر حيث تحرك الجيش الإسلامي إليها بعد عودته من الحديبية بوقت قصير، فكان ذلك في شهر المحرم من العام السابع للهجرة النبوية، فالتعجيل بخيبر هو الطريق لما بعدها من فتوح.

ثانيا: خطة تحريك الجيش الإسلامي وفتح الحصون:

١- لما أراد الرسول صلى الله عليه وسلم الخروج إلى خيبر أعلن ألا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، وليس في الغنيمة، فلم يخرج معه إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة، وهم الذين مدحهم الله في سورة الفتح في قوله تعالى: «لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا» (الفتح:١٨، ١٩)، فعجل لهم مغانم خيبر تعويضًا لهم عن صبرهم وصدقهم مع الله

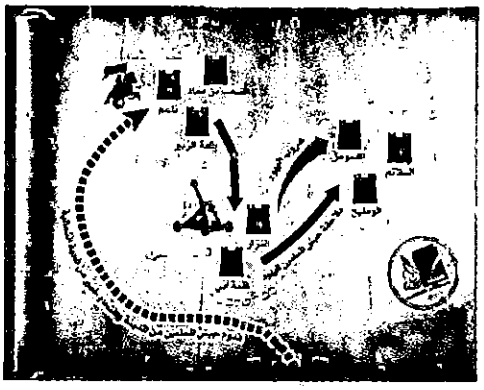

ورسوله.

٢- خرج المسلمون بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد خططوا عزل يهود خيبر ومنعهم من الاستفادة من حلفائهم من غطفان، وكذا منعهم من الهروب إلى الشام.

قال ابن إسحاق في السيرة: بلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من خيبر جمعت له، ثم خرجوا يظاهرون يهود عليه حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسًا؛ فظنوا أن المسلمين دخلوا ديارهم فرجعوا على أعقابهم وأقاموا في أهليهم وأموالهم وخلوا بين المسلمين وخيبر.

٣- الجيش الإسلامي على مشارف خيبر:

عن أنس رضي الله عنه قال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَى خَيْبَرَ لَيْلاً، وَكَانَ إِذَا أَتَى قَوْمًا بِلَيْلٍ لَمْ يُغِرْ بِهِمْ حَتَّى يُصْبِحَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ خَرَجَتْ الْيَهُودُ بِمَسَاحِيهِمْ وَمَكَاتِلِهِمْ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا: مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ (يعني: محمد والجيش) فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ. (متفق عليه).

وهكذا فاجأ الرسول والمسلمون يهود خيبر من حيث لم يحتسبوا فقد كانوا خارجين إلى حقولهم بفؤوسهم ومكاتلهم فهم أهل زراعة، ولم يتوقعوا رؤية جيش المسلمين فهالهم ما رأوا وهذا من أساليب الحرب وخططه المحكمة- بتوفيق من الله سبحانه-.

ولما دنا الرسول صلى الله عليه وسلم من خيبر وصار على مشارفها قال لمن معه: «قفوا» فوقف الجيش فتوجّه النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الدعوات: «اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا بسم الله» صححه الألباني في تحقيقه لفقه السيرة.

٤- حصون خيبر:

تشتهر خيبر بحصونها المنيعة الثمانية، وهي من أشهرها وتوجد في منطقتين يوجد خمسة فيها في منطقة يقال لها (النطاة) و(الشق)، أما الثلاثة التي تقع في النطاه فهم: ١- حصن ناعم ٢- الصعب ٣- حصن قلعة الزبير، وأما الحصنان اللذان يقعان في منطقة (الشق) فهما: ٤- حصن أبي، ٥- حصن النزار.

أما في الشطر الثاني من خيبر وفيه ثلاثة حصون: حصن القموص، ٢- حصن الوطيح، ٣- حصن السلالم وهم في منطقة تسمى «الكتبة».

٥- كيف تم فتح الحصون؟

هرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون وأخذوا في فتح حصونهم واحدًا تلو الآخر، وكان أول ما سقط من حصونهم حصن ناعم وحصن الصعب ثم حصن القموص، ثم توالى سقوط الحصون، وقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة منذ فتح بعض هذه الحصون ومنها حصن ناعم الذي استشهد تحته محمد بن مسلمة الأنصاري، حيث ألقى عليه مرحب رحى من أعلى الحصن، ثم أعطى النبي صلى الله عليه وسلم الراية إلى علي رضي الله عنه، روى الشيخان من حديث سهل بن سعد «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ فَقِيلَ: هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ. قَالَ: فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا، فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ».

وتحقق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم لأنه وحي من الله وفتح الله على يد علي رضي الله عنه، وتم فتح حصن ناعم الذي كان ممتنعًا قبل، وقتل الله قائده (مرحب) بضربة من سيف علي رضي الله عنه، وبمقتل مرحب تأثرت معنويات اليهود وتوالت هزيمة حصونهم حصنًا بعد حصن، وتوجه المسلمون بعد حصن ناعم إلى حصن الصعب بن معاذ، وأبلى حامل الراية الحباب بن المنذر بلاءً حسنًا حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والسلاح، بينما كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعد ذلك إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الهاربون من حصني ناعم والصعب، وبقية ما فتح من حصون اليهود، وحاصر المسلمون حصن قلعة الزبير ومنعوا عنه الماء فاضطر اليهود إلى النزول للقتال فقاتلوا مقاتلة شرسة، لكن المسلمين هزموهم بفضل الله وتوالت انتصارات المسلمين وسقوط حصون اليهود، وبذلك سقطت خيبر بيد المسلمين، وبعدها سارع أهل فدك في شمال خيبر وطلبوا الصلح في مقابل ما يدفعون من أموال.

ثم حاصر المسلمون وادي القرى وهي مجموعة قرى بين خيبر وتيماء فاستسلمت فغنم المسلمون أموالاً كثيرة وتركوا الأرض والنخيل بيد اليهود وعاملهم عليها مثل خيبر، وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر ووادي القرى، وبذلك تساقطت سائر الحصون اليهودية في يد المسلمين، وقد بلغ قتلى اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعين رجلاً، وسبيت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي، فأعتقها النبي صلى الله عليه وسلم وتزوجها وصارت من أمهات المؤمنين، وقد استشهد من المسلمين عشرون رجلاً على قول ابن إسحاق في السيرة، والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، وإلى لقاء بإذن الله ومشيئته.

فصول من السيرة

الحلقة الثانية

محرم
سنة ٧
هجرية

غزوة خيبر

من آيات النبوة في خيبر

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعدُ:

إعداد: عبدالرزاق السيد عيد

فهذه وقفتنا الثانية مع غزوة خيبر التي وعد الله بها رسوله والذين آمنوا معه في قوله تعالى: «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ» (الفتح: ٢٠)، وقد تحقق وعدُ الله للنبي والمؤمنين، وتم فتح خيبر كما بينا في اللقاء السابق بفضل الله ورحمته، واليوم نقف معكم وقفة يسيرة من دلائل صدق النبي صلى الله عليه وسلم وآيات نبوته في هذه الغزوة المباركة.

أولاً: أولى هذه الآيات بركة الطعام وزيادته:

عن سُوَيْد بْن النُّعْمَان أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ عَامَ خَيْبَرَ حَتَّى إِذَا كَانُوا بِالصَّهْبَاء، وَهِيَ أَدْنَى خَيْبَرَ، فَصَلَّى الْعَصْرَ ثُمَّ دَعَا بِالأَزْوَادِ فَلَمْ يُؤْتَ إِلاَّ بِالسَّوِيقِ فَأَمَرَ بِهِ فَثُرِّيَ، فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ وَأَكَلْنَا، ثُمَّ قَامَ إِلَى الْمَغْرِبِ فَمَضْمَضَ وَمَضْمَضْنَا ثُمَّ صَلَّى وَلَمْ يَتَوَضَّأْ». (رواه البخاري: ٢٠٩).

وواضح من هذا الحديث أن الجيش المتكون من ألف وأربعمائة أكل من بقايا الطعام القليل الذي يُسمى بالسويق، وهو عبارة عن طعام مصنوع من القمح أو الشعير على شكل طحين يُحمل مع المسافر وكان قليلاً، فلما نُثر على السفرة وبفضل الله ثم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم زاد هذا الطعام حتى شبع منه جميع الجيش والحمد لله، وليست هذه أول مرّة يزداد فيها الطعام والماء، فتكرر ذلك في غزوة الخندق وتبوك وغيرهما، والحمد لله على نعمه.

ثانيا: بركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في شفاء علل علي رضي الله عنه:

عن سَهْل بْن سَعْد رَضِيَ اللَّه عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللَّه عَلَى يَدَيْه؛ يُحِبُّ اللَّه وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّه

وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا؛ فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، قَالَ: فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ». (البخاري: ٣٩٧٣).

من هذا المشهد العظيم نأخذ بعض الفوائد:

١- منها بركة دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وتفله في عيني علي رضي الله عنه، فبرئت بفضل الله وقام عليٌّ وليس بعينيه رمد ولا وَجَع، والحمد لله على فضله.

٢- ثقة النبي صلى الله عليه وسلم في نصر الله، وأنه سيُفتح على يد عليٍّ رضي الله عنه بعد أن جهد المسلمون أمام حصن ناعم، واستشهد تحته محمد بن مسلمة الأنصاري، وادخر الله هذا الفتح لعلي رضي الله عنه، والرسول عليه الصلاة والسلام يعلم ذلك مما علَّمه الله، ولذا قال لعلي: «انفذ على رسلك». وهذه ورب الكعبة لغة الواثق في نصر الله، ثم أوصى عليا بوصايا تفهم منها الغاية من الجهاد في الإسلام.

٣- الغاية من الجهاد في الإسلام:

ليست الغاية من الجهاد في الإسلام احتلال الأرض وقتل الشعب وكسب المغانم، كلاَّ بل الغاية هي فتح القلوب لعلام الغيوب سبحانه، ودخول الناس في دين الله الذي لا يقبل الله سواه، والذي بعث به رسوله ومصطفاه، فلا نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم، ولا كتاب مُنزل من عند الله بعد القرآن، ولا دين إلا الإسلام، لذلك قال النبي لعليٍّ: «لأن يهدي بك الله رجلاً واحدًا خير لك من حُمر النعم»، يعني دخول فرد واحد في الإسلام

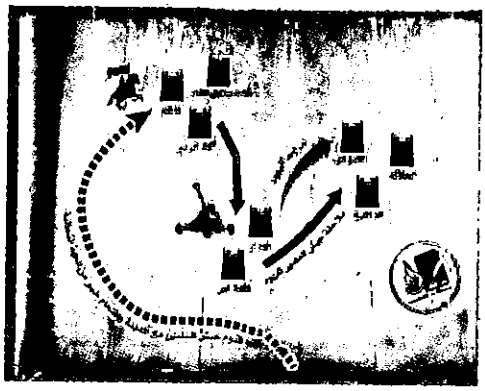

خير من أغلى شيء كان يعتز به العرب من متاع الدنيا.

وقال له كما في رواية صحيح مسلم: «قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاَّ بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ». يعني عصموا منك دماءهم وأموالهم فلا تقاتلهم، واقبل منهم علانيتهم ودَعْ سرائرهم لله سبحانه وتعالى. فهل هناك رحمة أعظم من ذلك؟

٤- أهل السنة والجماعة أهل إنصاف وصدق في نقل الأخبار وفي موقفهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فهذا الخبر مروي عند البخاري ومسلم وكتب أهل السنة التي لا يأخذ منها الروافض إلا إذا كان فيه ما يريدون، وأهل السنة يعرفون لعلي رضي الله عنه فضله فيها وشجاعته وقوته وعلمه ومكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ كما يعرفون لأبي بكر فضله ومكانته، ولعمر ولعثمان، ولجميع الصحابة.

والمشاركون في خيبر كلهم من أصحاب بيعة الرضوان الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، لكن الروافض الشيعة يبالغون في أمر علي رضي الله عنه مبالغة ممقوتة يمقتها أهل البيت جميعًا، وهذه المبالغة على حساب تحقير شأن الصحابة الكرام أمثال أبي بكر وعمر وعثمان في يوم خيبر، ويذكرون روايات لم تصح في خيبر تبالغ في فضل علي رضي الله عنه على حساب هؤلاء الكرام

من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؛ فجاملوه بما زعموه وخسروا أصحاب النبي الكرام من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من أهل بيعة الرضوان؛ لأنهم لم يتحلوا بالإنصاف، ولم يتحروا الصحة في نقل الأخبار ولا الصدق في القول.

أما أهل السنة والجماعة -والحمد لله- فقد تحلوا بالإنصاف والصدق في القول، وتحروا الصحة في نقل الأخبار؛ فكسبوا محبة عليٍّ وأهل البيت ومحبة جميع الصحابة الكرام وعلى رأسهم أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وجميع أهل بيعة الرضوان وجميع الصحب الكرام، والحمد لله رب العالمين.

وفوق هذا كله فاز أهل السنة والجماعة برضوان الله؛ لأن الله يحب الصادقين ويحب المنصفين، ويحب مَن يحب أصحاب رسوله ويترضى عنهم.

ثالثًا: قصة الشاة المسمومة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لَمَّا فُتِحَتْ خَيْبَرُ أُهْدِيَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَاةٌ فِيهَا سَمٌّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اجْمَعُوا لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ الْيَهُودِ»، فَجُمِعُوا لَهُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَبُوكُمْ؟ قَالُوا: أَبُونَا فُلَانٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَذَبْتُمْ بَلْ أَبُوكُمْ فُلَانٌ، فَقَالُوا: صَدَقْتَ وَبَرَرْتَ. فَقَالَ: هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ، وَإِنْ كَذَبْنَاكَ عَرَفْتَ كَذِبَنَا كَمَا عَرَفْتَهُ فِي أَبِينَا. قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟ فَقَالُوا نَكُونُ فِيهَا يَسِيرًا ثُمَّ تَخْلُفُونَنَا فِيهَا. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اخْسَئُوا فِيهَا وَاللَّهِ لَا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالَ: هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سَمًّا؟ فَقَالُوا: نَعَمْ. فَقَالَ: مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟ فَقَالُوا: أَرَدْنَا إِنْ كُنْتَ كَذَّابًا نَسْتَرِيحُ مِنْكَ، وَإِنْ كُنْتَ نَبِيًّا لَمْ يَضُرَّكَ». (رواه البخاري: ٥٤٤١).

وفي رواية ابن إسحاق أن الذي أهدى الشاة زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم، وقد سألت: أيّ عضو من الشاة أحبّ إلى محمد، فقيل: الذراع اليمنى، فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فأما النبي فلاك منها شيئًا فلم يسغها، وأما بشر بن البراء بن معرور فأساغها، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن هذا العظم أخبرني أنه مسموم». ثم دعا بها فاعترفت، وقالت المقولة السابقة لليهود.

قال ابن القيم في زاد المعاد: «وجيء بالمرأة إلى رسول الله، فقالت: أردت قتلك. فقال: ما كان الله ليسلطك عليَّ. قالوا: ألا نقتلها؟ قال: لا، ولم يتعرض لها ولم يعاقبها، واحتجم على الكاهل، وأمر مَن أكل منها فاحتجم، فمات بعضهم، وقد اختلف في قتل المرأة.

والصحيح والله أعلم أن الرسول عفا عنها أولاً ولم ينتقم لنفسه، فلما مات من مات من الصحابة بسبب السم قتلها قصاصًا.

وفي هذه القصة من الدروس والفوائد ما يلي:

١- لقد أطلع الله رسوله على أخبار من الغيب، ومكّنه من تكليم الجماد له؛ حيث كلّمته عظام الشاة، وأخبرته أنها مسمومة.

٢- عناد اليهود وكذبهم رغم علمهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم حق، وأن الله يطلعه على الغيب، فكذبوا عليه في ذكر أبيهم فأخبرهم بالحقيقة، ومع ذلك لم يؤمنوا به، وحاولوا قتله مرارًا، وآخر محاولة هذه التي فعلتها هذه المرأة والقوم وراءها، وإن كانت هي أكثر حنقًا على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين بسبب كثرة من مات، فأرادت الانتقام، وقد صرحت بذلك فيما نقله ابن القيم في زاد المعاد.

٣- ومن الفوائد عفو النبي صلى الله عليه وسلم، فقد عفا عن اليهود رغم اعترافهم بوضع السم في الشاة، أما المرأة فقتلت قصاصًا، والله أعلم.

أسأل الله أن يكتب لنا ولكم منازل الشهداء والأبرار، وإلى لقاء بحول الله وقوته.

محرم
سنة ٧
هجرية

الحلقة الثالثة

غزوة خيبر

زواج النبي صلى الله عليه وسلم من صفية بنت حيي رضي الله عنها

إعداد: عبدالرزاق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعدُ:

فمن الأحداث التي وقعت في أعقاب غزوة خيبر زواج النبي صلى الله عليه وسلم من أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها، وكان هذا الحدث مجالاً خصبًا للحاقدين والحاسدين والمرجفين، وبخاصة أن هناك بعض الروايات في الصحيح ظاهرها التعارض وبعض الروايات الضعيفة، وقد استغل الذين في قلوبهم مرض هذه الأمور، وحاولوا النَّيل من مكانة النبي صلى الله عليه وسلم، وقالوا عليه بغير علم؛ ذلك لأن قلوبهم لم تتذوق حلاوة الإيمان، ولم تتنسم نفوسهم بشاشته فلم يؤمنوا بالله ورسوله حق الإيمان ولم يعظموا الرسول ويوقروه كما أمرهم الله سبحانه في قوله تعالى: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» (الفتح:٨، ٩).

فالخطاب واضح للنبي أن الله أرسل رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، فالخطاب له أولاً، ثم للأمة التي يجب أن تؤمن بالله ورسوله وتعظم الرسول وتنصره، وتسبح ربها بكرة وأصيلاً شكرًا له سبحانه على هذه النعمة العظيمة، فالإيمان بالله والرسول والتعظيم والتوقير والنصر للرسول والتسبيح لله رب العالمين، وسنحاول بعون الله سبحانه في هذه الوقفة بيان الحق من مصادره وردّ شُبهات أهل الباطل، وسنسلك بعون الله المسالك الآتية:

أولاً: حقائق لابد أن تستقر في القلوب والعقول:

الأولى: في قوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً» (الرعد:٣٨)، فالرسول ليس بدعًا منهم والذين ينقمون على النبي الكريم تعدد أزواجه غفلوا عما جاء في كتبهم عن نساء داود وسليمان عليهما السلام، فقالوا عن داود عليه السلام كان له مئة امرأة زوجة غير الجواري، كما ذكروا عن سليمان أنه تزوج سبعمائة زوجة غير عدد الجواري، وبغض النظر عن ذلك فتعدد زوجات الأنبياء وغيرهم كان أمرًا مألوفًا لا غضاضة فيه حتى كان للرجل الواحد في الجاهلية من عشر إلى عشرين زوجة.

الحقيقة الثانية: اختيار الله:

الله سبحانه عالم الغيب والشهادة هو الذي اختار رسله، كما اختار رسوله محمدًا واصطفاه، اختار له أصحابه؛ ألا يختار له زوجاته أمهات المؤمنين؟ وللتعدد في حياة النبي حِكَم بالغة ليس مجال عرضها الآن.

الحقيقة الثالثة: عصمة الله لنبيه:

وهنا أمور:

أولاً: لقد عاش النبي صلى الله عليه وسلم حتى الخامسة والعشرين من عمره شابًا قويًا عزبًا نقيًا طاهرًا عفيفًا، وقد لقبه قومه بالصادق الأمين، بينما كان قومه للرجل الواحد منهم زوجات قد تصل إلى عشرين.

الثاني: تزوج النبي صلى الله عليه وسلم من خديجة رضي الله عنها وهي في سن الأربعين وكان هو ابن الخامسة والعشرين وظل معها زهرة شبابه وشيئًا من كهولته حتى توفاها الله وهو في سن الخمسين من عمره ثم تزوج من السيدة سودة بنت زُمعة، وكان عمرها خمسين سنة.

الثالث: لو كان الأمر أمر شهوة كما يدَّعي الأفاكون فما الذي جعل النبي صلى الله عليه وسلم يقضي معظم شبابه وجُزءًا من كهولته بين سيدتين كبيرتين في السن ولم يعدد معهما، هذا مع العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد آتاه الله قوة ثلاثين أو أربعين رجلاً، لكن الله عصمه من فواحش الجاهلية وآثامها كما عصمه من الناس، قال الله عز وجل: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ» (المائدة:٦٧)، فكما أن الله سبحانه عصم نبيه من القتل حتى جاء أجله المسطور في اللوح المحفوظ كذلك فهذه بعض خصائص نبينا محمد خاصة والأنبياء عمومًا، لكن أكثر الناس لا يعلمون، ونعوذ بالله من الضلال والبهتان.

ثانيًا: قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم من صفية بنت حيي رضي الله عنها:

والآن وبعد عرض الحقائق السابقة التي يجب أن ترسخ في وجدان كل مسلم وأن يعلمها القاصي والداني حتى يقف كل إنسان عند حدوده ولا يتعداها، نبدأ الآن في بيان تفاصيل قصة زواج أم المؤمنين صفية من إمام المرسلين وخاتم النبيين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد، ونستعين بالله في دفع شبهات المبطلين.

١- في صحيح الإمام مسلم من حديث أنس رضي الله عنه والحديث طويل نورد منه الجزء الخاص بموضوعنا، قال أنس: «وَأَصَبْنَاهَا عَنْوَةً وَجُمِعَ السَّبْيُ فَجَاءَهُ دِحْيَةُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْطِنِي جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ، فَقَالَ اذْهَبْ فَخُذْ جَارِيَةً، فَأَخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيٍّ، فَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَعْطَيْتَ دِحْيَةَ صَفِيَّةَ بِنْتَ حُيَيِّ سَيِّدَ قُرَيْظَةَ وَالنَّضِيرِ، مَا تَصْلُحُ إِلاَّ لَكَ. قَالَ: ادْعُوهُ بِهَا قَالَ فَجَاءَ بِهَا فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ خُذْ جَارِيَةً مِنَ السَّبْيِ غَيْرَهَا، قَالَ: وَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَقَالَ لَهُ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ مَا أَصْدَقَهَا؟ قَالَ: نَفْسَهَا؛ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا حَتَّى إِذَا كَانَ بِالطَّرِيقِ جَهَّزَتْهَا لَهُ أُمُّ سُلَيْمٍ فَأَهْدَتْهَا لَهُ مِنَ اللَّيْلِ، فَأَصْبَحَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرُوسًا، فَقَالَ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ شَيْءٌ فَلْيَجِئْ بِهِ، قَالَ: وَبَسَطَ نِطَعًا قَالَ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالأَقِطِ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالتَّمْرِ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِالسَّمْنِ فَحَاسُوا حَيْسًا فَكَانَتْ وَلِيمَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

٢- وفي صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه: قَالَ صَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصُّبْحَ قَرِيبًا مِنْ خَيْبَرَ بِغَلَسٍ، ثُمَّ قَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ، فَخَرَجُوا يَسْعَوْنَ فِي السِّكَكِ فَقَتَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُقَاتِلَةَ وَسَبَى الذُّرِّيَّةَ وَكَانَ فِي السَّبْيِ صَفِيَّةُ فَصَارَتْ إِلَى دِحْيَةَ الْكَلْبِيِّ ثُمَّ صَارَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا".

وقد أورد صاحب الطبقات الكبرى (١٢٣/٨) عن إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: «لما دخلت صفية على النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: لم يزل أبوك من أشد يهود لي عداوة حتى قتله الله». فقالت: يا رسول الله، إن الله يقول في كتابه: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» (الأنعام:١٦٤). فقال لها رسول الله: اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن يعتقك فتلحقي بقومك، فقالت: يا رسول الله، لقد هويت الإسلام وصدقتُ بك قبل أن تدعوني حيث جدت إلى رحلك وما لي في اليهودية أرب وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني بين الكفر والإسلام، فالله ورسوله أحب إلي من العتق وأن أرجع إلى قومي. فأمسكها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه.

وهذه الرواية لها أصل من حديث أنس رضي الله عنه عند الإمام أحمد

وابن حبان والطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

تأمل رحمة النبي صلى الله عليه وسلم كيف ظل يبرر لها كيف قتل الله أباها بسبب شدة عداوته لله ورسوله، ولم يدفعه إلى ذلك إلا رحمته صلى الله عليه وسلم.

ثالثًا: استخلاص النتائج:

يمكن أن نستخلص النتائج التالية بعد عرض الأحاديث السابقة:

١- من رواية أنس في البخاري مع الفتح يعرض لنا الإمام البخاري نتيجة المعركة وهي انتصار جيش المسلمين على اليهود في خيبر وقد تم قتل المقاتلة منهم أي الرجال المقاتلين وكان عددهم ثلاثة وتسعين وبلغ عدد من استشهد من المسلمين عشرين، ثم سبى الذراري أي النساء والأطفال، وهذا النظام كان سائدًا في ذلك الوقت، ومعترفًا به في تلك الحقبة التاريخية بلا غضاضة.

أما لو سألت عن أسباب المعركة؟ فقد أجبنا عن هذا السؤال في عدد شهر المحرم الماضي وهو باختصار استمرار حقد اليهود على الإسلام والمسلمين وعداوتهم الشديدة لله ورسوله.

٢- أما في رواية مسلم فيظهر بوضوح عدم علم النبي صلى الله عليه وسلم بصفية أو غيرها، ولذلك قال لدحية: اذهب وخذ جارية من السبي دون تحفظ، ولم يعلم بصفية إلا من خلال مشورة الصحابي الذي أشار على النبي صلى الله عليه وسلم أن صفية لا تصلح إلا للنبي؛ لأن أباها ملك وزوجها ملك.

٣- استرد النبي صلى الله عليه وسلم صفية من دحية بهذه الجارية التي لا يوجد مثلها في السبي؛ مما يخشى من تغير نفوس بعض الصحابة أو قد تتعالى على دحية بسبب علو مرتبتها.

قال الدكتور أبو شهبة في السيرة: «لم يُرد النبي من زواجه من صفية قضاء شهوة أو إشباعًا لغريزة جنسية كما يزعم الأفاكون، وإنما أراد إعزازها وصيانتها وتكريمها من أن تفترش لرجل لا يعرف شرفها ونسبها في قومها، ولم يكن هناك أليق مما صنعه الرسول صلى الله عليه وسلم معها، كما أن فيه رباط المصاهرة بين النبي صلى الله عليه وسلم واليهود؛ عسى أن يكون هذا ما يخفف من عدائهم للإسلام ويدعوهم للدخول فيه، والحد من مكرهم وسعيهم بالفساد، وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم بذلك مثلاً عظيمًا في التسامح». (السيرة النبوية د. محمد أبو شهبة ج٢).

٤- لم يدخل النبي صلى الله عليه وسلم بها إلا بعد أن طهرت من حيضتها، وهذه عدة السبايا، وليس كما يظن مَن لا يعلم أن عدتها أربعة أشهر وعشرًا.

٥- ولم يجامعها النبي صلى الله عليه وسلم وهي أمة، وكان يمكنه فعله ولن يلومه أحد.

٦- ولم يجامعها إلا بعد أن أعتقها وأسلمت وتزوجها.

٧- ولم يجبرها الرسول صلى الله عليه وسلم على شيء، بل خيَّرها بين الإسلام واليهودية فاختارت الإسلام، بل أسلمت قبل أن يدعوها الرسول صلى الله عليه وسلم.

٨- ولم يعاشرها النبي صلى الله عليه وسلم وهي مبغضة له بسبب قتل زوجها وأبيها وأخيها، فظل يعتذر لها ويقول: «إن أباك.. فعل وفعل». حتى ذهب ما في نفسها، كما جاء في حديث ابن عمر، رضي الله عنه، وحسنه الألباني عند ابن حبان.

٩- ويكفيها شرفًا بعد إسلامها أن صارت زوجًا لخاتم النبيين وإمام المرسلين وصارت أمًا لكل مؤمن، وقد أكرم النبي صلى الله عليه وسلم معاملتها ومواساتها، صح عن أنس عند الترمذي وصححه: أنه بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت يهودي، فبكت صفية، فدخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك؟» فقالت: قالت حفصة: أني بنت يهودي، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك، ثم قال: اتقي الله فيها يا حفصة».

فصفية رضي الله عنها من نسل هارون بن عمران عليه السلام، وعمها موسى بن عمران عليه السلام، وهي زوجة نبي هو أفضل البشر محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المرسلين.

١٠- وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وتأمل كيف يختار الله لنبيه زوجاته أمهات المؤمنين، كما اختار له أصحابه رضي الله عنهم أجمعين، لكن الذين لا يعلمون يفترون على الله الكذب، ويتهمون رسوله صلى الله عليه وسلم بالكذب وهم يعلمون. نسأل الله الثبات على دينه حتى نلقاه، والحمد لله رب العالمين.

أحداث مهمة في تاريخ الأمة

الحلقة الأولى

اجتماع السقيفة وبيعة أبي بكر رضي الله عنه

إعداد: عبدالرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي خلق الموت والحياة ليبتلينا بالشر والخير فتنة وإليه نعود، سبحانه هو الحي الذي لا يموت والخلق جميعًا يموتون، وصلاة وسلامًا على خاتم النبيين وإمام المرسلين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد. أما بعدُ:

فمن الأحداث المهمة في تاريخ الأمة يوم السَّقيفة وما تمخض عنه، ولن أطيل معك أخي القارئ في مقدمات، وسأدخل معك في الموضوع مباشرة من خلال هذه النقاط:

- ما المقصود بالسقيفة؟
- تاريخ يوم السقيفة وأهميته.
- بيعة أبي بكر رضي الله عنه.

أولاً: المقصود بالسقيفة:

مكان مسقوف يتسع لعدد كبير من المجتمعين، وأمامها باحة رحبة واسعة، وتقع هذه السقيفة في الجهة الشمالية الغربية من المسجد النبوي بين مساكن قبيلة بني ساعدة الخزرجية، ولذلك سميت سقيفة بني ساعدة، وقد تغيرت أشكال بنائها بمرور الأيام وتغيرت الأحوال، ولعهد قريب رأينا آثاراً منها قرب المسجد النبوي؛ لكنها الآن قد دخلت في توسعات المسجد النبوي المبارك.

ثانيًا: تاريخ يوم السقيفة وأهميته:

ما يعرف في التاريخ بيوم السقيفة أو اجتماع السقيفة يكتسب أهميته من التوقيت الذي وقع فيه ومن النتائج التي ترتبت عليه، فقد وقع هذا الاجتماع في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول في سنة إحدى عشرة للهجرة، وهو اليوم الذي لحق فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالملأ الأعلى واختار جوار ربه سبحانه وتعالى.

وقد فارق الدنيا وما يملك من حُطامها درهمًا ولا دينارًا إلا بلغته البيضاء وسلاحه وأرضًا جعلها صدقة، وكان هذا اليوم أشد الأيام سوادًا ووحشة ومصابًا على المسلمين، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك شيئًا من حطام الدنيا يملكه لنفسه، لكن ترك لأمته وللدنيا بأسرها ميراثًا عظيمًا من الخير.

نعم ترك لهم ميراث الهدى والرشاد إن تمسكوا به لن يضلوا بعده أبدًا، ترك لهم كتاب الله وسنته صلى الله عليه وسلم.

لقد أحدث موتُ النبي صلى الله عليه وسلم زلزالاً شديدًا في المدينة النبوية وبين الأمة بأسرها، يقول أنس رضي الله عنه: «كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم

المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان الذي مات فيه أظلم منها كل شيء». (رواه الترمذي).

قال ابن رجب رحمه الله في اللطائف: «ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطرب المسلمون، فمنهم من دهش فخولط، ومنهم من أقعد فلم يُطِقْ القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يُطِقْ الكلام، ومنهم من أنكر موت النبي صلى الله عليه وسلم بالكلية مثل عمر».

قال القاضي أبو بكر بن العربي في العواصم: «كان موت النبي صلى الله عليه وسلم قاصمة الظهور ومصيبة العمر، قال أنس رضي الله عنه: ما نفضنا أيدينا من تراب قبر النبي حتى أنكرنا قلوبنا».

وروى الإمام البخاري في صحيحه أن أبا بكر رضي الله عنه كان في بيته بالسنح ولم يكلم أحدًا حتى دخل على عائشة فاتجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مغطى بثوب حبرة (ثوب من القطن أو الكتان كان يصنع في اليمن).

فكشف أبو بكر عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم أكب عليه فقبله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي عليك فقد متها.

وخرج أبو بكر إلى المسجد وعمر يتكلم، فقال: اجلس يا عمر، وهو ماض في كلامه وثورة غضبه (منكرًا موت النبي صلى الله عليه وسلم)، فقام أبو بكر في الناس خطيبًا، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، قال: «أما بعدُ: فمن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، ثم قرأ الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، قال عمر: فوالله ما سمعت أبا بكر تلاها فهويت على الأرض ما تحملني قدماي وعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات. (البخاري: كتاب المغازي).

ورحم الله الإمام ابن العربي حين قال في كتابه «العواصم من القواصم»: «لقد كان موت الرسول صلى الله عليه قاصمة، وكانت العاصمة في ولاية أبي بكر رضي الله عنه حقًا قد أكرم الله الأمة بولاية أبي بكر الذي ظهرت شخصيته كقائد للأمة لا يظهر له مثيل، لقد أشرق اليقين في قلبه وتجلى ذلك في رسوخ الحقائق فيه، حقيقة التوحيد والعبودية والنبوة والموت فأخرج الله الناس به من ظلمات الحيرة والشك والاضطراب إلى نور التوحيد والسكينة والأمن، والحمد لله رب العالمين، يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا».

ثالثًا: اجتماع السقيفة وبيعة الصديق:

١- ذكر خبر البيعة مجملاً:

نقل الإمام السيوطي عن الواقدي من طريق عائشة رضي الله عنها وابن عمر وسعيد بن المسيب وغيرهم (أن أبا بكر بويع يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة. (تاريخ الخلفاء).

٢- تفاصيل البيعة:

أما تفاصيل البيعة وما حدث في اجتماع السقيفة من حوار بين المهاجرين والأنصار وكيف تمت البيعة والاختيار هذا قد جاء مفصلاً في كتب الحديث والأخبار، ننقل ما يفي بالغرض- إن شاء الله- مع توخي الإيجاز والدقة في الاختيار.

روى البخاري ومسلم أن الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم لاختيار سعد بن عبادة زعيم الخزرج خليفة للمسلمين، ولما علم المهاجرون بذلك قال عمر رضي الله عنه لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار، قال: فانطلقنا نؤمهم حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فإذا هم مجتمعون، وإذا بين ظهرانيهم رجل مُزمل، فقلت: من هذا؟ قالوا: سعد بن عُبادة، فقلت: ما له؟ قالوا: يوعك. قال: فلما جلسنا قام خطيبهم وقال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة منكم تريدون أن تختزلونا من أصلنا وتغصبونها من الأمر، فلما سكت أردت أن أتكلم وقد كنت أعددت مقالة أعجبتني، أردت أن أقولها بين يدي

أبي بكر، وقد كنت أداري منه بعض الحدّة وهو وكان أحلم مني وأوقر، فقال أبو بكر: على رسلك! فكرهت أن أغضبه، وكان أعلم مني، والله ما ترك من كلمة أعجبتني في تزويري إلا قال في بداهته مثلها وأفضل منها حتى سكت، فقال: أما بعد، فما ذكرتم فيكم من خير فأنتم أهله، ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين فبايعوا أيهما شئتم، فأخذ بيدي ويد أبي عبيدة بن الجراح وهو جالس بيننا فلم أكره مما قال غيرها، وكان والله أن أقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من إثم أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر، فقال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، وكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى خشيت الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار. اهـ.

وجاء عند أحمد في المسند عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف قال: «لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، فأتاهم عمر فقال: ألستم تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر أبا بكر فأم الناس، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر ؟ فقالوا: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر، رضي الله عنه». صححه العلامة أحمد شاكر رحمه الله.

وأخرج موسى بن عقبة في مغازيه والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: خطب أبو بكر، فقال: والله ما كنت حريصًا على الإمارة يومًا ولا ليلة قط ولا كنت راغبًا فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية ولكني أشفقت من الفتنة وما لي في الإمارة من راحة ولقد قُلدت أمرًا عظيمًا ما لي به طاقة ولا يد إلا بتقوية الله، فقال علي والزبير: ما غضبنا إلا لأنا أخرنا عن المشورة، وإنا نرى أبا بكر أحق الناس بها، إنه لصاحب الغار وإنا لنعرف شرفه وخيره، وقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس وهو حي. قال ابن كثير في البداية والنهاية: إسناده جيد.

من خلال ما ذكرناه من نصوص ذكرت لنا ما حدث يوم السقيفة نلاحظ ما يلي:

١- سمو هذا الرعيل الأول من هذه الأمة وارتفاع مكانتهم ومنزلتهم.

٢- هؤلاء الرجال الكبار لم يكونوا منقادين بالهوى ولا بالعصبية ولا حب الرياسة والزعامة، بل كانوا منقادين للوحي وقد اجتهدوا آراءهم لكن عندما يتجلى لهم الخبر الصادق من الكتاب أو السنة يتبعوه ويتركوا آراءهم جانبًا، وهذا ما حدث من الأنصار ومن زعيمهم سعد بن عبادة رضي الله عنه حين ذكره أبو بكر بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تذكر ولم يجاوزه.

٣- كان هدف الجميع درء الفتنة والحفاظ على وحدة الأمة، وهذا الذي جعلهم يعجلون بالأمر قبل دفن النبي وليس الحرص على الإمارة كما يدعي الأفاكون.

٤- أجمع المهاجرون والأنصار على خلافة أبي بكر ولا يقول غير ذلك إلا مريض القلب سقيم الفكر حاقد وحسود، نعوذ بالله من شرهم.

٥- الاجتماع لم يدم طويلاً ولم تجر فيه مناقشات طويلة بين المهاجرين والأنصار أو تنافس أو صراع على الخلافة لأن النفوس كانت طاهرة.

٦- أين هذا مما يحدث اليوم بين المتصارعين على الحكم من سباب وشتائم ومؤامرات وتشابك بالألسنة والأيدي وإراقة الدماء من أجل الكرسي.

إن البشرية بأسرها اليوم تحتاج أن تتعلم من اجتماع السقيفة سموا القصد وعفة الألسنة والأيدي وطهارة القلوب. ألا يا من تتهمون الإسلام بالتخلف والعنف والرجعية هلموا لتفعلوا الحضارة الحقيقية القائمة على إصلاح الظاهر والباطن والعمل للدنيا والآخرة، اللهم توفنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، وإلى لقاء نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

الحلقة (٢)

البيعة العامة وخطبة الولاية

عبدالرزاق السيد عيد

الحمد لله المبدئ المعيد الفعال لما يريد. والصلاة والسلام على النبي الأمي الذي جاء بالحق السديد، أما بعد:

ففي لقائنا السابق تحدثنا عن اجتماع السقيفة، وكيف تمت البيعة الخاصة من الحاضرين من الأنصار والمهاجرين في السقيفة كأهل الحل والعقد المخوَّلين باختيار الخليفة، ورأينا كيف وافق الأنصار على اختيار أبي بكر ومبايعته بعد أن كانوا قد أرادوا زعيم الخزرج سعد بن عبادة رضي الله عنه للخلافة، وكيف قام زيد بن ثابت رضي الله عنه، فقال: «أتعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من المهاجرين وخليفته من المهاجرين، ونحن كنا أنصار رسول الله فنحن أنصار خليفته كما كنا أنصاره ثم أخذ بيد أبي بكر، فقال: هذا صاحبكم».

وزيد بن ثابت رضي الله عنه من الأنصار، وهذا يدل على أن هؤلاء الرجال الكبار لم يكونوا منقادين بالهوى ولا بالعصبية، ولا حب الرياسة، بل كانوا منقادين بالوحي، وقد اجتهد كل منهم رأيه، لكن الجميع انقادوا للوحي من الكتاب والسنة عندما ذكرهم به أبو بكر رضي الله عنه، فترك الجميع اجتهادهم خلف ظهورهم؛ لأنه لا اجتهاد مع نصٍّ، فكانوا جميعًا وقافين عند حدود الله؛ لأن هدف الجميع كان درء الفتنة وجمع الأمة ونبذ الفُرقة، فلما وجدوا ذلك متحققًا- بإذن الله- في ولاية أبي بكر لم يتردد أحد في مبايعته بما فيهم سعد بن عبادة رضي الله عنه، وهكذا تمت البيعة الخاصة لأبي بكر.

والآن نقف في هذا اللقاء مع ما حدث في اليوم التالي:

حدث في اليوم التالي أمران مهمان: الأول: البيعة العامة، والثاني: خطبة أبي بكر رضي الله عنه، وهذا ما نستعين بالله على مناقشته.

الأمر الأول: البيعة العامة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ونترك الحديث هنا للصحابي الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه حيث يقول: «لما بويع أبو بكر في السقيفة، وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر فقام عمر رضي الله عنه فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله قد جمع أمركم على خيركم؛ صاحب رسول الله وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه فبايع الناس أبا بكر البيعة العامة بعد بيعة السقيفة».

نعم تمت البيعة العامة، وهذا ما كان يحرص عليه عمر رضي الله عنه؛ لأن كثيرًا من المهاجرين لم يكن حاضرًا في السقيفة، وبخاصة علي رضي

الله عنه والزبير بن العوام رضي الله عنه والعباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم،

ويدل لذلك ما أخرجه ابن سعد والحاكم والبيهقي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «وصعد أبو بكر المنبر، فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير فدعا بالزبير فجاء، فقال: قلت: ابن عمة رسول الله وحواريه أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال: لا تثريب فقام فبايعه، ثم نظر في وجوه القوم فلم ير عليًا فدعا به فجاء، فقال: قلت: ابن عم رسول الله وختنه على ابنته أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله، فقام فبايعه». وهكذا تمت البيعة الخاصة والعامة لأبي بكر رضي الله عنه، ولا ينكر ذلك إلا صاحب هوى نعوذ بالله منه.

تنبيه مهم:

قد كثُر اللغط بل والكذب حول بيعة علي رضي الله عنه، بل زعم من زعم من الروافض أن عليًا كان أحق بالخلافة من أبي بكر، وهذا زعم باطل لا أساس له من الصحة تنقضه النصوص الصريحة الصحيحة التي جاءت في هذا الموضوع، وقد قدمنا جزءًا منها، وكذلك تنقضه سيرة عمر رضي الله عنه وصحبته الكريمة لأبي بكر وعمر وعثمان، وكذلك تنقضه أخلاقه وصفاته الكريمة وشجاعته وجرأته في الحق بل تصريحه بذلك رضي الله عنه عندما قدم إلى البصرة في خلافته، وقد سأله ابن الكواء وقيس بن عبادة عن حقيقة أمر الوصية، فقال لهما رضي الله عنه: «لو كان عندي من النبي عهد في ذلك- يعني في الخلافة- ما تركت أخا بني تميم بن مرة وعمر بن الخطاب يقومان على منبره ولقاتلتهما ولو لم أجد إلا بُردي هذا، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتل قتلاً ولم يمت فجأة، بل مكث بيننا أيامًا ولياليَ يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس وهو يرى مكاني، وقد حاولت عائشة رضي الله عنها أن تصرفه عن أبي بكر فغضب، وأصر على قوله: مروا أبا بكر يصل بالناس.

ثم تابع علي رضي الله عنه قوله: فلما قبض الله نبيه ونظرنا في أمورنا فاخترنا لدنيانا من رضيه النبي لديننا، وكانت الصلاة أصل الإسلام وهي أعظم الأمور وقوام الدين فبايعنا أبا بكر وكان لذلك أهلاً، ولم يختلف عليه منا اثنان، ولم نقطع منه البراءة فأديت إلى أبي بكر حقَّه وعرفت له فضله وطاعته وغزوت معه في جنده، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي».

وهذا قول جيد يوافق العقول السليمة والنصوص الصريحة الصحيحة، ويوافق سيرة علي مع أبي بكر وعمر وعثمان وإجماع الصحابة، وقد نقله صاحب تاريخ الإسلام، والأدلة على صدق هذا القول نقلها علماء أجلاء مثل ابن كثير وغيره ولا يتسع المجال هنا لمزيد بسط.

الأمر الثاني: خطبة أبي بكر بعد البيعة:

وبعد أن تمت البيعة العامة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وكان جالسًا على منبر رسول الله تكلم أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، فإني قد وُلِّيت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي منكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله؛ لا يدع قوم الجهاد في سبيل إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمَّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله». (نقله ابن كثير في البداية والنهاية وصحح سنده).

وهذه الخطبة بالمصطلح الحديث في علم السياسة تسمى خطبة العرش التي بيَّن فيها الخليفة أو الملك أو الرئيس برنامج عمله في إدارة شئون الحكم، وهي خطبة ليست بفارسية، ولا رومية، ولا حتى عربية، وإن كانت بلسان عربي (أقصد أنها ليست على النظام الجاهلي الذي كان يحكم قبل الإسلام)، وهي كذلك ليست خطبة شيوعية اشتراكية تتحكم فيها الدولة في حياة الناس وحركاتهم وسكناتهم واقتصادهم وحرياتهم، وهي ليست خطبة رأسمالية يتحكم الأغنياء

فيها في مصير الفقراء، وليست خطبة في دولة ليبرالية تنطلق فيها الحريات بغير قيد ولا شرط، وليست خطبة ميكافيلية الغاية فيها تبرر الوسيلة ويستحل فيها الحكام كل الأساليب الخبيثة للوصول إلى أهدافهم مذمومة كانت أو ممدوحة.

إنما هي خطبة لدولة تستمد من كتاب الله وسنة رسوله ويحكمها حاكم مسلم لا يرى له فضلاً على غيره من الناس وإن كان هو أفضلهم حقًا، دولة يحترم فيها الحاكم حق كل فرد مسلم ويسوسهم بالعدل والإحسان ويُعلي من شأن الصدق والأمانة ويحذر من الكذب والخيانة، يعلي من شأن الجهاد الذي تصان به الحرمات ويتحقق به عزة الدين وعزة المؤمنين، دولة تصان فيها الحقوق والحرمات وتحارب فيها الرذيلة، وتشاع فيها الفضيلة، ويطاع فيها الله ورسوله ويحكمها قانون: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

هذه نظرة مجملة إلى هذه الخطبة العظيمة النادرة، وأرجو أن يتسع المجال الآن للوقوف مع بعض المعاني السامية التي جاءت بهذه الخطبة الفريدة والتي قد جمعت على اختصارها أمهات المسائل في صلاح دنيا الناس ودينهم فهي جديرة بالتأمل فيها:

١- قول أبي بكر رضي الله عنه: «إني وُلّيت عليكم ولست بخيركم»، بلى والله هو خيرهم كافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه من قوم يحسنون العمل ويسيئون الظن بأنفسهم وهم قوم وصفهم الله سبحانه في كتابه بقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ» (المؤمنون: ٥٧- ٦١).

فهذه بلا شك أوصاف الجيل الأول من الصحابة الكرام وفي مقدمتهم أبو بكر رضي الله عنه.

٢- وقوله رضي الله عنه: «إن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني». هذا إقرار بعدم العصمة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقرار بواجب النصح لولاة الأمر (بضوابطه الشرعية)، ولم يقل لهم: «ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد». وهي مقولة فرعون لقومه ومقولة كل حاكم مستبد قبل فرعون وبعده.

٣- وفي قوله رضي الله عنه: «الصدق أمانة والكذب خيانة». إقرار بالمبدأ الذي يحكم العلاقة بين الحاكم والمحكوم وهو الذي يطلقون عليه اليوم مبدأ الشفافية والمصارحة، فإن غياب الصدق والمصارحة بين الحاكم وشعبه خيانة للأمانة منه ومنهم، فإن أساس نجاح العلاقة بين الجميع هي الصدق سواء كان من الحاكم لشعبه أو من الأمة مع الحاكم، أو من أفراد الأمة وبعضهم، فالصدق يهدي إلى البر، وهو جماع الخير والذي بدوره يهدي إلى الجنة.

وفي قوله رضي الله عنه: «الضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح (أي أعيد) الحق له، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه». هذا مبدأ العدالة الاجتماعية الذي هو أساس الملك وأساس الأمن والاستقرار وضياع العدل طريق إلى الهلاك، وهو قدم المشيئة واستمد العون في الله إقامة هذا المبدأ العظيم، ثم أقر بعد ذلك واجب الحاكم في قيادة الأمة للجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله والحفاظ على دين الأمة ومقدساتها وشعائرها ودفع الأعداء المتربصين بالأمة، فذلك سبيل عزتها وكرامتها والحافظ على بيضتها.

٤- ثم أقر مبدأ إشاعة الفضيلة ومحاربة الرذيلة وأوضح أن إشاعة الفاحشة في الأمة سبب كل بلاء.

٥- ثم أقر أهم المبادئ أن طاعته منهم مرهونة بطاعته هو لله ورسوله، فإن عصى الله ورسوله فلا طاعة له عليهم فيما عصى فيه الله ورسوله، فليست هناك طاعة مطلقة إلا لله ورسوله وكل طاعة لمخلوق مشروطة بطاعته لله ورسوله.

إن العالم بأسره بشرقه وغربه شماله وجنوبه في حاجة لتعلم هذه المبادئ التي استخلصها أبو بكر رضي الله عنه من الكتاب والسنة فهي مبادئ إسلامية ربانية تحكم سياسة البشر، فكم يحتاج هذا الدين العظيم إلى رجال صادقين يفهمونه ويعملون به ويدعون البشرية إليه.

والحمد لله رب العالمين.

غزوة مؤتة ٢

دروس وعبر

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون. والصلاة والسلام على النبي الأمي المبعوث رحمة للعالمين. أما بعد:

ففي اللقاء السابق تحدثنا عن غزوة مؤتة- أو معركة مؤتة- عن تاريخها. وأسبابها. وأحداثها من بدايتها حتى نهايتها. واليوم بعون الله نقف مع بعض الدروس المستفادة منها. والتي تحتاج إليها الأمة لتنهض من كبوتها وتقوم من عثرتها.

عبدالرزاق السيد عيد

أقول مستعينًا بالله: نعم، انتصروا ويكفي أن النبي صلى الله عليه وسلم بشَّر بذلك من فوق منبر مسجده قبل عودة الجيش وقال: «.. حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم». (رواه البخاري).

وما حدث في مؤتة هو فتح للمسلمين دون شك؛ لأننا إذا نظرنا إلى أصل المهمة التي كلف النبي صلى الله عليه وسلم بها الجيش فإنها كانت محصورة في تأديب الذين قتلوا رسول النبيّ الذي كان في مهمة سلمية، وهي الدعوة إلى الله وإلى الإسلام بالحسنى، ولم يأمرهم باحتلال أي منطقة من بلاد الشام ولا محاربة أي جيش، لكن هذا الجيش الصغير المكون من ثلاثة آلاف فوجئ بما لم يكن في الحسبان،

فوجد نفسه أمام مائتي ألف مقاتل من الرومان والعرب المتنصرة بكامل عددهم وعدتهم، ومع هذا الفارق الذي يصل إلى سبعين ضعفًا في العدد هذا بخلاف الفارق في العتاد وغيره، وكانت الروم حينذاك تسيطر على العالم تقريبًا ما عدا دولة فارس. ورغم هذا كله فقد قرَّر قادة الجيش الذين عيَّنهم النبي صلى الله عليه وسلم مواجهة الموقف، وقاتلوا بشجاعة وبسالة لا نظير لها؛ حتى استشهد القادة الثلاثة وبعد مقتل عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ثالث القادة؛ حدث اضطراب في جيش المسلمين إلى أن تسلَّم الراية خالد بن الوليد رضي الله عنه، وقام بتنظيم الجيش من جديد، وشنَّ على الرومان هجومًا مضادًا أزال به صفوفهم، وأشاع الرعب في قلوبهم، وأحدث فيهم مقتلة عظيمة، ثم انسحب الجيش سليمًا دونما أي فوضى أو اضطراب، وهذا الذي سماه كثير من المؤرخين فتحًا وهو الذي يوافق ما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه الذي رواه البخاري، وقد انتصر الإمام ابن كثير رحمه الله لهذا الرأي وغيره من المؤرخين، وقد أورد هذا مفصلاً في البداية والنهاية لمن أراد أن يعود إليه.

ثانيًا: أما الدروس المستفادة وهي الغاية من عرضنا والتي نحن في أشد الحاجة إليها، بل والأمة بأسرها من أقصاها إلى أدناها أحوج ما تكون إليها، فنستعين بالله ونورد منها ما يلي:

١- العقيدة القتالية:

يحارب المسلمون بعقيدة قتالية لا يملكها أحد من العالمين، وهذا الذي جعلهم يقفون في مواجهة هذا الجيش الضخم العدد والعدة، ويلقنون الروم وغيرهم درسًا لا ينساه التاريخ أبدًا، وقد لخص عبد الله بن رواحة هذه العقيدة لإخوانه حين جلسوا للمشورة قبل بدء القتال لينظروا أمرهم، فقال: «يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: (الشهادة) وما نقاتل الناس بعدد ولا كثرة. ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنين، إما نصر، وإما شهادة».

هذه العقيدة المتميزة هي التي جعلت المسلمين يواجهون هذا الجيش الضخم لا يهابون الموت؛ لأنهم عند موتهم شهداء سيفوزون بجنة تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن، أو الأخرى نصر من الله وفتح قريب.

٢- منزلة الشهادة:

الشهادة في سبيل الله (وهي أن يُقتل المسلم لتكون كلمة الله هي العليا) منزلة عالية، ويكفي أن الله يصطفيهم بعلمه ولنفسه، قال تعالى: «وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ» (آل عمران: ١٤٠)، وقد جاءت عقيب ما حدث في غزوة أُحد لتبين أحد أهداف القتال في سبيل الله ألا وهو (اتخاذ الشهداء)، فالشهداء يختارهم ويصطفيهم ويُكرم نُزلهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم، لذلك كان المسلمون الصادقون يتسابقون للشهادة ويتنافسون عليها، والأمثلة على ذلك كثيرة.

٣- أهمية الجانب المعنوي في القتال:

ومع أهمية الجانب المادي والذي أمرنا الله بإعداده والاهتمام به حين قال سبحانه: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ» (الأنفال: ٦٠)، فإن الجانب المعنوي وهو العقيدة التي يقاتل عليها الجندي هي الأهم، ولا يستوي أبدًا مَن يقاتل على حق يؤمن به ويعتقده، ومن يقاتل على هدف غير معلوم أو على باطل موهوم.

٤- أخلاق الحرب في الإسلام:

لا ينطلق الجنود في القتال على وجوههم لا يلوون على شيء، فيقتلون الكبار والصغار والنساء والأطفال، ويقطعون السبيل، ويحرقون الأخضر واليابس ويهدمون العمار ويخربون الديار ويعتدون على الحرمات

والأعراض، ولكن هناك ضوابط وأخلاق للجنود بيَّنها لهم النبي صلى الله عليه وسلم، ويتضح هذا في وصيته للجنود في الوصية التالية:

أوصاهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا الذين هناك إلى الإسلام فإن أجابوا فالحمد لله، وإلا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم؛ وقال لهم: «اغزوا بسم الله، في سبيل الله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة، ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلاً في صومعة، ولا تقطعوا نخلاً ولا شجرة ولا تهدموا بناء». (صحيح مسلم).

ألا فلتسمع الدنيا ولتنظر الدنيا ولتتعلم الدنيا من أخلاق معلم البشرية هذه أخلاق المحارب المسلم كما بينها رسول المرحمة ونبي الملحمة:

أ- اغزوا بسم الله، وليس باسم ملك أو باسم قبيلة أو دولة أو طائفة.

ب- وفي سبيل الله، وليس لدنيا يصيبها، أو شهوة يريدها، أو أرض يحتلها، أو مغانم يغنمها من مال أو معادن، وغير ذلك، بل في سبيل الله ونصرة دينه، وحذَّرهم من الغدر حتى لا يأخذوا عدوهم على غرَّة، وإذا عاهدوا عهدًا يوفونه كاملاً غير منقوص.

ج- ولا تغلوا، لا تبالغوا في القتل وتمثلوا بالجثث، ولا تسرفوا.

هـ- ثم فصَّل لهم صور الإسراف في القتل ونهاهم عنها: لا تقتلوا وليدًا ولا امرأة ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلاً في صومعته؛ لأن هؤلاء لا يشاركون في القتال؛ فمن الغلو قتلهم دون مبرر.

و- ونهى الجنود عن التخريب والهدم، فقال: «لا تقطعوا نخلاً ولا شجرة، ولا تهدموا بيتًا»، هذه أخلاق النبي لجنوده حال الحرب ووصيته لهم، فأين هذا مما يقع في حروب اليوم من قتل للنساء والأطفال ومن التدمير والتخريب الذي يحصد البشر والشجر والحجر بل ربما يترك البيئة غير صالحة للحياة لسنوات طويلة.

٥- الأمة العظيمة تحافظ على أبنائها:

فكرامة مواطنيها من كرامة أمتهم وشرف أبنائها من شرف أمتهم، ولذلك جرَّد النبي صلى الله عليه وسلم الجيش لمهمة أساسية هي الثأر لمقتل الحارث بن عمير رضي الله عنه الذي كان متوجهًا بكتاب رسول الله إلى عظيم بصرى يدعوه إلى الإسلام؛ لأن دماء المسلم عند الله أعظم حرمة من الكعبة المشرفة، وليست هذه المرَّة الأولى ولا الأخيرة، فقد سبق أن جرَّد النبيُّ صلى الله عليه وسلم جيشًا لمعاقبة يهود بني قينقاع بسبب إهانتهم لامرأة مسلمة، وليس هذا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فحسب بل استمر في أزمان قوة الإسلام وعزة المسلمين، وليس بخاف عنا كيف جرَّد المعتصم بالله في الدولة العباسية جيشًا لفتح عمورية سنة (٢٢٣) هجرية، فلما بلغ المعتصم بالله: إبراهيم بن هارون الرشيد بصرخة امرأة أهانها رومي ولطمها فصرخت: «وامعتصماه»، فجرَّد جيشًا يتوجه من بغداد إلى بلاد الروم لإنقاذ هذه المرأة وإجلاء الروم عن أطراف الدولة الإسلامية.

فهذه صور من عزة الإسلام وأهله في عصور مختلفة، وكيف كان المسلم عزيزًا أينما كان، رجلاً كان أو امرأة، صغيرًا أو كبيرًا؛ لأن الدولة الإسلامية كانت عزيزة وكلما كانت الدولة عزيزة كان أبناؤها أعزاء أينما كانوا، فأين هذا من واقعنا المؤسف اليوم حيث لا ترى دماءً مسالة إلا دماء المسلمين ولا أرضًا مغتصبة إلا أرض المسلمين، ولا أموالاً وأعراضًا مستباحة إلا أموال المسلمين وأعراضهم.

٦- يقظة الأمة خلف جيشها (الجبهة الداخلية):

من المهم هنا الاعتراف بشجاعة خالد بن الوليد رضي الله عنه ومكانته الحربية وخبرته القتالية، وقد كان معروفًا بها قبل

إسلامه، فاعترف المسلمون بها ولم يبخسوه حقه مع حداثة دخوله في الإسلام، وقد منحه الرسول صلى الله عليه وسلم وسام الشرف من الدرجة الأولى، وسماه بسيف الله المسلول؛ تقديرًا لدوره العظيم في حماية جيش المسلمين من هلاك محقق فقد وفق الله خالدًا بعد أن تسلم قيادة الجيش، فعدَّل خطة الجيش حتى ظن العدو أن جيش المسلمين قد جاءه مددٌ من المدينة أو من مكان آخر، ثم باغت جيش الروم بهجوم مفاجئ أحدث فيهم خسائر فادحة، وقتل المسلمون ضمن ما قتلوا القائد العام لقوات العرب المتنصرة (مالك بن رافلة)، وأخا شرحبيل بن عمرو الذي قتل الصحابي الجليل، وترك المسلمون بقيادة خالد رضي الله عنه الجيش الكبير المكون من مائتي مقاتل في حالة رعب واضطراب لدرجة أنه لم يفكر في ملاحقة المسلمين المنسحبين بشرف وشجاعة.

٧- من المهم هنا الاعتراف بشجاعة خالد بن الوليد رضي الله عنه ومكانته الحربية وخبرته القتالية، وقد كان معروفًا بها قبل إسلامه، فاعترف المسلمون بها ولم يبخسوه حقه مع حداثة دخوله في الإسلام، وقد منحه الرسول صلى الله عليه وسلم وسام الشرف من الدرجة الأولى، وسماه بسيف الله المسلول؛ تقديرًا لدوره العظيم في حماية جيش المسلمين من هلاك محقق فقد وفق الله خالدًا بعد أن تسلم قيادة الجيش، فعدَّل خطة الجيش حتى ظن العدو أن جيش المسلمين قد جاءه مددٌ من المدينة أو من مكان آخر، ثم باغت جيش الروم بهجوم مفاجئ أحدث فيهم خسائر فادحة، وقتل المسلمون ضمن ما قتلوا القائد العام لقوات العرب المتنصرة (مالك بن رافلة)، وأخا شرحبيل بن عمرو الذي قتل الصحابي الجليل، وترك المسلمون بقيادة خالد رضي الله عنه الجيش الكبير المكون من مائتي مقاتل في حالة رعب واضطراب لدرجة أنه لم يفكر في ملاحقة المسلمين المنسحبين بشرف وشجاعة.

٨- عالمية الإسلام:

لما كانت دعوة الإسلام دعوة للناس كافة « هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ » (التوبة:٣٣)، فكان من الضروري إبلاغ الدين إلى أهل الأرض جميعًا لذلك أرسل رسله إلى قيادات العالم شرقًا وغربًا لدعوتهم إلى دين الله بالحسنى ومنهم الحارث بن عمير الذي قتله شرحبيل بن عمرو والذي كان سببًا في غزوة مؤتة.

٩- كانت غزوة مؤتة بداية لنشاط عسكري في هذا الاتجاه، فكان لها ما بعدها، فكانت غزوة تبوك التي انتصر فيها المسلمون بالرعب مسيرة شهر، ثم كانت الغزوة التي عقد فيها النبي اللواء لأسامة بن زيد بن حارثة الذي قتل أبوه زيدٌ في مؤتة شهيدًا في مقدمة الشهداء (القادة الثلاثة)، هذا من ناحية كون مؤتة بداية لفتوح الشام ومصر.

وبسبب الشجاعة التي لم ير الروم مثلها ولا نصارى العرب والبسالة المنقطعة النظير والثبات في المعركة الذي ليس له مثيل؛ علم الروم والعرب أن المسلمين صنف مختلف من البشر يقاتل بعقيدة صحيحة في الله واليوم الآخر، وعلم العرب على وجه الخصوص أن المسلمين على حق وإلههم حق ورسولهم حق وأنهم منصورون بنصر الله لهم فبدأت قبائل العرب تدخل في دين الله أفواجًا.

١٠- إن العقيدة التي قاتل بها المسلمون الأوائل تنبع من كتاب الله وكتاب الله محفوظ بحفظ الله له ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي قيَّض الله لها مَن يحفظها إلى أن يشاء الله، ولم يبق إلا أن يعود المسلمون إلى كتاب الله وسنة رسوله، مقتدين بصحبه الكرم إن راموا عزًا ونصرًا؛ فلا صلاح لآخر هذه الأمة إلا على ما صلح عليه أولها، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والله من وراء القصد.

دخول صلاح الدين إلى القدس بعد أن فتحها الله له

الحمد لله مالك الملك يعطي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وبعدُ:

فمن الأحداث الهامة في تاريخ الأمة فتح بيت المقدس على يد القائد المظفر الناصر صلاح الدين رحمه الله، وقد تسلَّم المدينة ودخلها في يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر الله الحرام رجب سنة ٥٨٣هـ الموافق ٢/١١/١١٨٧م، وهذا الحَدَث العظيم يحتاج منا أن نتحدث عنه من عدَّة محاور تجيب عن أسئلة مهمة: أين كانت القدس حين استردها صلاح الدين؟ وما الجهود المشكورة التي بذلها صلاح الدين حتى فتح الله على يديه القدس؟

عبدالرزاق السيد عيد

وما الفرق بين دخول صلاح الدين إلى القدس ودخول الصليبيين إليها؟ وبصيغة أخرى ماذا فعل صلاح الدين بالقدس وأهلها حين دخلها فاتحا منتصرًا؟ وماذا فعل الصليبيون عندما دخلوها إبَّان حملة الحروب الصليبية في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة واستخلاص الثمرات والفوائد، نستعين بالله ونبدأ معكم في عدة محاور نبدؤها بما يلي:

المحور الأول: لمحة تاريخية عن القدس:

١- نبدأ هذه اللمحة التاريخية منذ بداية الفتح الإسلامي للشام، وتسلم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب لمدينة القدس، والتي كانت ساعتها تحت الاحتلال الروماني، وأثناء فتوحات الشام التي انساحت فيها جيوش المسلمين تفتح مُدنها مدينة بعد أخرى، وكانت الجيوش الإسلامية بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، ثم أرسل إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه مددًا بقيادة أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، وحاصر أبو عبيدة مدينة القدس بعد أن استمات القائد الروماني أرطبون في الدفاع عنها سنة ١٥هـ.

ولما اشتد الحصار على أهل القدس أخذوا يفكرون في الصلح وخصوصًا بعد ما شاهدوه من وفاء المسلمين وعدلهم في المدن التي فتحها المسلمون حولهم، وبدأ بطريرك القدس يفاوض المسلمين راغبًا في الاستسلام مما أغضب أرطبون القائد الروماني، فترك القدس وتوجه إلى مصر، واستمرت المفاوضات بين قيادة المسلمين وبطارقة وقساوسة بيت المقدس حتى وافق أهلها وزعماؤها على التسليم والمصالحة، لكنهم اشترطوا أن الذي يتولى الصلح هو الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بنفسه، وأن يسلموا المدينة له شخصيًا، فكتب أبو عبيدة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما إلى عمر بذلك.

عندما وصل كتاب القائدين إلى عمر رضي الله عنه بالمدينة تشاور مع أصحابه فأشار ابن عباس بعدم خروج عمر، لكن كان رأي علي بن أبي طالب أن يذهب عمر إلى الشام ويستلم المدينة وسيفتح الله عليه،

فوافق عمر رأي عليٍّ وتوجه إلى بيت المقدس واستخلف عليًا رضي الله عنه على المدينة.

سار عمر رضي الله عنه من المدينة إلى بيت المقدس هو وغلامه، على ناقة واحدة يركبها عمر وخادمه يتناوبان عليها؛ يركب أحدهما، ثم ينزل يمشي، ويقود الناقة، ويركب الآخر، وهكذا بطول المسافة من المدينة إلى فلسطين، حتى جاءت نوبة عمر رضي الله عنه عند دخول بيت المقدس وكان ماشيًا يقود الناقة لخادمه حتى جاءت في الطريق مخاضة من ماء وطين فخاضها عمر بقدميه حتى استقر الركب عند الباب فنزل إليه رئيس أساقفة بيت المقدس «صفريانوس» وبيده مفاتيح بيت المقدس، وبعد أن سلم عليه، قال له: مكتوب في كتبنا: أن صفات من يتسلم مفاتيح إيلياء «القدس» ثلاثة: ١- يأتي ماشيًا وخادمه راكب. ٢- يأتي ورجلاه ممرغتان في الوحل. ٣- يأتي وفي ثوبه سبع عشرة رقعة، وقيل: جاء في سفر زكريا من التوراة وإنجيل مَتَّى صفات أخرى منها الملك العادل. والله سبحانه أعلى وأعلم.

ماذا فعل عمر بأهل القدس من النصارى وغيرهم؟

لم يأمر بقتلهم ولا بإجلائهم واستحلال أموالهم وأعراضهم، بل أمَّنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، وكتب لهم وثيقة بذلك تُسمى بـ «العهدة العمرية» لأهل إيلياء، وهي وثيقة مشهورة في كتب التاريخ عند المسلمين والنصارى على حد سواء.

وظلت القدس تتمتع بالمكانة والهيبة والأمن والأمان في ظل دولة الخلفاء الراشدين، ثم في الدولة الأموية وجزء كبير من الدولة العباسية حتى تطرَّق إليها الضعف في آخر حكامها، وبظهور الدولة الفاطمية والتي انتسبت كذبًا وزورًا إلى أهل البيت، وهي في الأساس دولة باطنية شيعية طعنت الخلافة العباسية في ظهرها، وتعاونت مع أعداء الله ضد أوليائه فطمع الصليبيون في العودة إلى الشرق مرة أخرى، والاستيلاء على بيت المقدس.

المحور الثاني: الحروب الصليبية واحتلال القدس من جديد:

١- البابا أوربان الثاني وإشعال نيران الحرب:

استغل البابا أوربان الثاني بعض الأحداث في ذلك الوقت وضعف الدولة العباسية وخيانة الدولة الباطنية العبيدية المسماة بالفاطمية في مصر، واستغل الأزمات والصراعات الواقعة بين الأوروبيين ليدفع بهم إلى الشرق باسم الدين.

وألقى خطبة تحريضية ضد الإسلام والمسلمين، وصفها المؤرخ الشهير (جوستاف لوبون) في كتابه «حضارة العرب» (بأنها نوبة حادة من الجنون)، وقد ألقى البابا هذه الخطبة في المجمع الديني المنعقد في جنوب فرنسا (كليرمونت) عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وهو يجهِّز للحملة الصليبية الأولى على الشرق تحت اسم الصليب، وقد شارك فيها القساوسة جنبًا إلى جنب مع العسكريين، والكل يحمل شعار الصليب.

تحرك الصليبيون من أوروبا بعد هذه الدعوة التي وجهَها البابا (أوربان) والتي طاف بها (بطرس الناسك) أنحاء أوروبا، فسارت جموع الأوروبيين التي وصلت إلى خمسة وعشرين ألفًا في دفعتها الأولى، ورغم أنهم كانوا يسيرون في أراض أوروبية نصرانية كانوا يخربون ما يمرون به من أماكن ويقتلون الناس ويسيئون معاملتهم فقتل منهم الآلاف قبل أن يخرجوا من أوروبا بشهادة المؤرخين الأجانب منهم (وليم الصوري)، فما بالك حين يصلون إلى الشرق؟!

واتجهوا أولاً إلى أنطاكية واستطاعوا أن

يحتلوها بمساعدة الفاطميين، وأعملوا فيها القتل والنهب والسلب، ولم ينجُ من المسلمين فيها إلا قلة قليلة فأدخلوا بذلك الرعب في قلوب العباد، وخربوا البلاد.

ثم قرروا التوجه إلى هدفهم المنشود «بيت المقدس»، وفي الطريق إليها استولوا على العديد من المواقع والبلدان، ومنها معرة النعمان، والتي قتلوا جميع سكانها وكانوا زهاء العشرين ألفًا، قتلوهم في مذبحة همجية تقشعر منها الأبدان، ثم واصلوا مسيرهم ومروا على طرابلس وبيروت وصور وغيرها.

المحور الثالث: ماذا فعل الصليبيون عندما دخلوا القدس؟

وصل الصليبيون إلى القدس التي كانت حينذاك تحت إمرة الفاطميين جاء الصليبيون إلى بيت المقدس وحاصروا المدينة وحاولت الحامية الفاطمية الدفاع لكنها سرعان ما انهزمت، ودخل الصليبيون مدينة القدس وكان يومًا من أشد الأيام سوادًا على المدينة وأهلها..

وقد وصف المؤرخون ما حدث لأهل بيت المقدس، ويا هول ما وصفوا، والكلام هنا ليس لأحد من المؤرخين المسلمين بل هو لمؤرخ نصراني هو وليم الصوري في كتابه تاريخ الحروب الصليبية (١/٤٣٥) واصفًا ما فعل الصليبيون، فقال: «اندفعوا هنا وهناك خلال شوارع المدينة مستلين سيوفهم، وبحماية دروعهم وخوذهم، وقتلوا جميع من صادفوا من الأعداء بصرف النظر عن العمر أو الحالة ودون تمييز، وقد انتشرت المذابح المخيفة في كل مكان وتكدست الرؤوس المقطوعة في كل ناحية بحيث تعذر الانتقال من مكان إلى آخر إلا على جثث المقتولين، وكان القادة قد شقوا في وقت سابق طريقًا لهم بواسطة مسالك متنوعة إلى مركز المدينة تقريبًا وأحدثوا عندما تقدموا قتلاً لا يوصف، وتبع موكبهم حشد من الناس متعطشين لدماء الأعداء»- يقصد دماء المسلمين؛ لأن المؤرخ الذي يحكي من الصليبيين.

ويقول في موضع آخر من نفس الكتاب: «ولقد كانت المجزرة التي ارتكبت في كل مكان من المدينة مخيفة جدًا، وكان سفك الدماء رهيبًا جدًا، لدرجة عانى فيها حتى المنتصرون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز».

هذا ما تحدث به مؤرخ النصارى للحادث، فهل يقارن ما فعلوه، بعدل عمر ورحمته، رضي الله عنه؟ وهل يقارن كذلك بما فعله صلاح الدين، كما سيأتي بيانه، إن شاء الله.

عزاء واجب

بعد صراع طويل مع المرض تُوفي إلى رحمة الله بإذنه تعالى رجلان من كبار الدعاة اللذين بذلا في الدعوة إلى الله تعالى جهودًا مباركة، وهما: الشيخ أشرف وهيب حسن، الداعية وعضو مجلس إدارة فرع بلبيس.

والشيخ شعبان محمد عبد الله بيومي، سكرتير إدارة الدعوة بفرع أنصار السنة ببلبيس، وعضو مجلس الإدارة بفرع ميت حمل.

والله تعالى نسأل أن يتغمدهما بواسع رحمته، وأن يُسكنهما فسيح جناته، وأن يرزقهما الفردوس الأعلى، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

رئيس تحرير مجلة التوحيد

ليلة القدر خير من ألف شهر

عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي قال في كتابه الكريم: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا» **(الفرقان: ١- ٢). وبعدُ:**

فإن الله سبحانه وتعالى اختار الله الأمة واصطفاها، واختار الله النبي واجتباه وأنزل عليه الكتاب هدى ورحمة للعالمين، واختار الشهر الذي بدأ فيه نزول الكتاب واختار الليلة واصطفاها لبدء اتصال الرسول الملائكي بالرسول البشري، وسماها ليلة القدر، وجعلها خير الليالي، وأنزل في شرفها سورة سماها باسمها، وقال سبحانه عنها: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ» **(القدر:٣).**

أولاً: أقوال المفسرين في معاني الآية الكريمة:

١- وقال الإمام القرطبي رحمه الله: «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ» **(القدر:٣)؛ «بين سبحانه فضلها وعظمها، وفضيلة الزمان إنما تكون بكثرة ما يقع فيه من الفضائل، وقال كثير من المفسرين: أي العمل فيها خير من العمل في ألف شهر، والله أعلم. وقيل: عَنَى بألف شهر جميع الدهر لأن العرب تذكر الألف في غاية الأشياء، كما قال الله تعالى:** «يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ» **(البقرة:٩٦) يعني: جميع الدهر». اهـ.**

٢- قال ابن عثيمين رحمه الله في تفسير قوله سبحانه: «وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ» **(القدر:٢)؛ فهذه الصيغة تعني التفخيم والتعظيم، فكان الجواب:** «لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ» **(القدر:٣)، وهذه الجملة كالجواب للاستفهام الذي سبقها:** «وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ» **(القدر:٢)؟ أي خير من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، والمراد بالخيرية هنا ثواب العمل فيها، وما ينزل الله فيها من الخير والبركة على هذه الأمة، ولذلك كان من قامها إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه. اهـ.**

- فهي الليلة المباركة والتي تمتد بركتها، قال الله تعالى: «إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» **(الدخان:٣-٦).**

- وتستمد هذه الليلة بركتها من ابتداء نزول القرآن الكريم فيها واستمراره بعد ذلك على مدى سنوات النبوة، والتي امتدت على مدار ثلاثة وعشرين عامًا في الفترتين المكية والمدنية حتى التحق النبي صلى الله عليه

وسلم بالرفيق الأعلى.

- ولما كان القرآن كتاب هداية ورحمة فإن بركة هذه الليلة ممتدة مادام القرآن يُتلى ويَنتفع ببركته مَن وفقه الله.

- ولذلك جعل الله بركة هذه الليلة تتكرر مع كل رمضان، بل جعل فضل رمضان وشرفه بسبب هذه الليلة، فقال سبحانه: « شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ » (البقرة:١٨٥)، فتكريم رمضان وفرض الصيام فيه بسبب نزول القرآن، والذي بدأ نزوله في هذه الليلة العظيمة المباركة.

- ونزول الروح وهو جبريل عليه السلام يذكر بنزوله في أول مرة على النبي محمد صلى الله عليه وسلم وكيف نزل به من عند الله وبأمره على هذا النبي الذي اصطفاه الله لإخراج الناس بإذن ربهم من الظلمات إلى النور، فالقرآن هو النور المبين والصراط المستقيم الذي نزل به جبريل من رب العالمين على النبي الأمي الكريم، ولم يأت به محمد من عند نفسه.

- وانزال القرآن نعمة عظيمة لا تُدانيها نعمة، قال الله تعالى: « أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » (العنكبوت:٥١).

- ومن بركات هذه الليلة أن جعل الله الأعمال الصالحة تتضاعف في هذه الليلة أضعافًا مضاعفة، فكما كان فضل هذه الليلة فيما سبق أن جعلها الله ظرفًا لنزول القرآن فيها؛ فخيرها ممتد بفضل الله إلى ما شاء الله بمضاعفة الأعمال الصالحة فيها فضلاً من الله ونعمة.

ثانيا: واجب المسلم تجاه هذه الليلة:

لا شك أن أول واجب على المسلم أن يَعرف شرفها ومكانتها الممتدة بسبب نزول القرآن فيها ويذكر فضل الله على هذه الأمة باصطفائها لميراث دينه وكتابه، قال الله تعالى: «وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ » (فاطر: ٣١-٣٢).

ثم يغتنم فضل هذه الليلة، ويتعرض لنفحات الله فيها بالمسارعة في الخيرات وترك المنكرات والإحسان في عبادة الله وفي المعاملة مع عباده والترقي في درجات الإحسان ويتدرج في العلوم والسمو من الظالم لنفسه إلى المقتصد إلى السابق بالخيرات بإذن الله ويغتنم بركة هذه الليلة وخيرها فمن حُرِمَ خيرها فقد حُرِمَ.

وأفضل ما يتمكن به المسلم من الاستفادة من هذه الليلة هو التأسي برسول الله في التعامل مع هذه الليلة، وسنذكر طرفًا من ذلك يكون هاديًا ودليلاً بإذن الله.

ثالثا: هدي النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر:

وينقسم اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بتحري ليلة القدر وإحيائها إلى قسمين:

أ- قسم رغَّب في قيامها وبيَّن فضلها وفضل الدعاء فيها.

ب- وقسم عملي فعله النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه ولأهله.

ومما جاء في الترغيب في إحياء هذه الليلة العظيمة ما يلي:

أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه».

وروى الإمام أحمد والنسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما حضر رمضان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتُغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه

ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حُرم».

وكما حث على القيام فيها، والإخلاص في العبادة حث على الدعاء؛ فهي ليلة يرجى إجابة الدعاء فيها، روى أحمد وابن ماجه والترمذي وغيرهم من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال قولي: "اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني". رواه الترمذي وصححه ورواه غيره.

وكان صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما يدعو بهذا الدعاء ويقول: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي». (رواه أبو داود).

والمقصود إكثار الدعاء والأعمال والأقوال المندوبة في هذه الليلة لرجاء قبولها؛ فيدعو المسلم بما يحفظ من أدعية النبي صلى الله عليه وسلم الجامعة لخيري الدنيا والآخرة، ويحرص المسلم على طهارة قلبه من النفاق، وأعماله من الرياء، ولسانه من الكذب؛ فهذه من أسباب النجاة، ومنها أيضًا بل من أهمها تقوى الله في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والحرص على الحلال في المطعم والمشرب، ويتجنب أسباب الهلاك، ومنها شح مطاع، وهوًى متبع، وإعجاب المرء بنفسه.

أما عن هدي النبي صلى الله عليه وسلم في تحرّي ليلة القدر وإحيائها؛ فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على هذه الليلة؛ حتى اعتكف رمضان كله ليتحراها، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ هنا لمسلم: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْتَكَفَ الْعَشْرَ الأَوَّلَ مِنْ رَمَضَانَ، ثُمَّ اعْتَكَفَ الْعَشْرَ الأَوْسَطَ فِي قُبَّةٍ تُرْكِيَّةٍ عَلَى سُدَّتِهَا حَصِيرٌ، قَالَ: فَأَخَذَ الْحَصِيرَ بِيَدِهِ فَنَحَّاهَا فِي نَاحِيَةِ الْقُبَّةِ، ثُمَّ أَطْلَعَ رَأْسَهُ فَكَلَّمَ النَّاسَ فَدَنَوْا مِنْهُ، فَقَالَ: إِنِّي اعْتَكَفْتُ الْعَشْرَ الأَوَّلَ أَلْتَمِسُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ اعْتَكَفْتُ الْعَشْرَ الأَوْسَطَ، ثُمَّ أُتِيتُ فَقِيلَ لِي: إِنَّهَا فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ؛ فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَعْتَكِفَ فَلْيَعْتَكِفْ، فَاعْتَكَفَ النَّاسُ مَعَهُ. قَالَ: وَإِنِّي أُرِيتُهَا لَيْلَةَ وِتْرٍ وَإِنِّي أَسْجُدُ صَبِيحَتَهَا فِي طِينٍ وَمَاءٍ، فَأَصْبَحَ مِنْ لَيْلَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ، وَقَدْ قَامَ إِلَى الصُّبْحِ فَمَطَرَتِ السَّمَاءُ فَوَكَفَ الْمَسْجِدُ فَأَبْصَرْتُ الطِّينَ وَالْمَاءَ فَخَرَجَ حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ وَجَبِينُهُ وَرَوْثَةُ أَنْفِهِ فِيهِمَا الطِّينُ وَالْمَاءُ، وَإِذَا هِيَ لَيْلَةُ إِحْدَى وَعِشْرِينَ مِنَ الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ.

والأحاديث كثيرة والبحوث طويلة في هذه الليلة، والخلاصة فيما يلي- والله أعلم-:

١- استقر الأمر على أن هذه الليلة في العشر الأواخر، وفي الوتر منها كما في الصحيح.

٢- قال بعض أهل العلم أنها تنتقل في الليالي الوترية في العشر الأواخر، وهذا قول معتبَر قال به جمع من علماء السلف والخلف، وهناك من يرى أنها لا تتنقل، والله أعلم.

٣- رأى بعض أهل العلم أن الحكمة في إخفائها؛ وقد أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم ثم أنسيها، وذكروا الحكمة في ذلك أن يجتهد المسلم في العشر كلها، بل في رمضان كله، وهكذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم، قالت أمنا عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره، وفي العشر الأواخر منه ما لا يجتهد في غيرها». رواه مسلم.

وقالت رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا ليله، وأيقظ أهله، وجدّ وشدّ المئزر. والحديث متفق على صحته.

فمن أراد أن يدرك ليلة القدر وفضلها فليتأس برسول الله صلى الله عليه وسلم، رزقنا الله وإياكم شرف هذه الليلة، آمين، آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دخول صلاح الدين بيت المقدس

بعد أن فتحه الله له

إعداد: عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله والصلاة والسلام علي رسول الله صلي الله عليه وسلم وبعد، فقد تحدثنا عن دخول الصليبيين بيت المقدس ونتناول اليوم دخول صلاح الدين لاستعادة بيت المقدس ويضم حديثنا بعون الله في هذا الموضوع محاور:

المحور الأول: أسباب سقوط بيت المقدس:

لم يكن سقوط بيت المقدس بأيدي الصليبيين بسبب قوتهم بقدر ما كان بسبب ضعف المسلمين وتفككهم وضعف الحكام، وسوء الأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولنترك للمؤرخين وصف هذه الأحوال فيما يلي: قال الدكتور ماجد كيلاني في كتابه: «هكذا ظهر جيل صلاح الدين»: «احتاجت عملية تحرير الأقصى إلى جهود ضخمة، ولم تكن الحاجة إلى كل هذه الجهود المخلصة إلا بسبب تردي أحوال المسلمين قبيل الغزو الصليبي على كل الأصعدة السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية»، ثم أخذ يشرح لنا هذه الأسباب واحدًا بعد الآخر، وقال المؤرخ أبو شامة في كتابه «الروضتين» (ص٧): «كان الناس في هذا الزمان كالجاهلية همةُ أحدهم بطنه وفرجه، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه». اهـ بتصرف يسير.

ويقول الرحالة ابن جبير عن أهل المشرق: «وما سوى ذلك مما بهذه البلاد الشرقية فأهواء وبدع وفِرَق ضالة إلا من عصمه الله عز وجل من أهلها». (رحلة ابن جبير ص٥٥).

المحور الثاني: جهود مباركة سبقت صلاح الدين وهيأت لظهوره:

مما لا شك فيه أن الأمة وهي بهذا التردي لا يمكنها مواجهة أعدائها ولا استخلاص أوطانها من براثن الاحتلال وهي تحتاج لإصلاح أحوالها إلى جهود رجال عبر أجيال، وهذا هو الذي حدث، وقيل إن الحديث عن جهود صلاح الدين لا بد من الإشارة المنصفة إلى جهود من سبقه في هذا المضمار، وإلى المعين الذي أخذ منه صلاح الدين، فما صلاح الدين رحمه الله إلا غرس من غراس من سبقه ومن أبرزهم نور الدين محمود زنكي، وقد كان نعم الخلف لأبيه عماد الدين زنكي، «وقد تربى نور الدين محمود منذ صغره على القرآن الكريم والفروسية، حيث كان والده قد أوكله إلى أحد العلماء ليتولى تربيته، فلما شبَّ كان مرافقًا لأبيه في جهاده، وخبر في هذا المجال، فكان رجلاً صالحًا ومجاهدًا في الوقت نفسه». (الكامل لابن الأثير: ١١/١١٤).

ولما آل الأمر إليه كان كثير الاهتمام بوحدة الأمة الإسلامية؛ فكان كثيرًا ما يتمثل بقوله تعالى: «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ» (الأنفال: ٤٦). (انظر: سير أعلام النبلاء).

وذكر أيضًا الذهبي رحمه الله: «أن نور الدين بذل جهودًا كبيرة في تنقية الصف الإسلامي ووجه أكبر جهده لأهل التشيع والإسماعيليين ومنعهم من سب الصحابة وأبطل كلمة: «حي على خير العمل» من الأذان وما معها من زيادات في الأذان وضيق عليهم فحاولوا التحالف مع الصليبيين ضده كما قام نور الدين بدعم السنة دون التعصب لمذهب فقهي معين». (سير أعلام النبلاء).

«كما سعى رحمه الله لإزالة المظالم فقد بنى دارًا للعدل كان يجلس فيها يومين في الأسبوع للنظر في مظالم الرعية؛ فخشيه الأمراء والقواد وأصبحوا لا يظلمون الناس شيئًا مما زاد في ترابط المجتمع المسلم». (الروضتين في أخبار الدولتين، أبو شامة، وسير أعلام النبلاء للذهبي: ٢٠/٥٣٦).

والحديث عن نور الدين محمود وجهاده يطول لكننا نختصر القول لنصل للمطلوب، يقول الدكتور عبد العزيز العمري في كتابه الفتوح الإسلامية عبر العصور، ط دار إشبليا ١٤١٩هـ: «توفي نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله في شوال سنة ٥٦٩هـ بعد أن روى غرسة الجهاد التي غرسها والده بدماء الشهداء وعرق المجاهدين وجراحهم، وبعد أن غرس نور الدين غرسة جديدة حملت راية الجهاد في مصر صلاح الدين جنديًا جديدًا من جند الجهاد الإسلامي». اهـ.

وهكذا تعاقبت أجيال على الجهاد حتى ظهر جيل صلاح الدين الذي حمل الأمانة بصدق ووفى بالعهد «وكان من أهم الوصايا التي أوصى بها نور الدين قبل وفاته صلاح الدين هي القضاء على الدولة الفاطمية في مصر؛ لأنها حاربت دولة الخلافة، وناصرت أعداء الأمة ونشرت البدعة والضلالة». (من كتاب صلاح الدين رؤية معاصرة).

المحور الثالث: أهم الإصلاحات التي قام بها صلاح الدين

كان صلاح الدين أحد الجنود الأكراد المرافقين لعمه أسد الدين شيركوه في الحملة التي وجهها نور الدين محمود من الشام إلى مصر سنة ٥٥٨هـ، وأبلى بلاءً حسنًا أثناء حصار الفرنج للإسكندرية سنة ٥٦٢هـ. (راجع الكامل لابن الأثير والبداية والنهاية لابن كثير).

وبعد وفاة عمه اختير وزيرًا في الدولة الفاطمية ونجح في تثبيت سلطته بالتدريج وبالتعاون مع بقية قواد نور الدين محمود، ما بسط سلطانه ولم يعد في البلد من يعارضه حتى أصبح الخليفة الفاطمي العاضد بالله لا يجد من يستعين به لو خالف صلاح الدين، وحاول صلاح الدين إعادة دولة الخلافة العباسية السنية والقضاء على الدولة الفاطمية حتى تم له ذلك بوفاة العاضد بالله الفاطمي سنة ٥٦٧هـ، وعمت الفرحة العالم الإسلامي بالقضاء على الدولة الفاطمية تلك الدولة التي تآمرت مع أعداء المسلمين وتعاونت معهم وحاربت الدولة العباسية في بغداد ونور الدين في الشام. (راجع مفرج الكروب لابن واصل).

المحور الرابع: جهود صلاح الدين لاستعادة بيت المقدس

إن الجهود التي بذلها صلاح الدين لاستعادة بيت المقدس كثيرة وأخذت منه سنين طويلة نستطيع تلخيصها فيما يلي:

١- القضاء على الدولة الفاطمية والحركات الباطنية لما لها من أثر سيئ في دين ودنيا الناس ولتعاونها مع أعداء الأمة.

٢- الاهتمام بالعلم وتشجيع العلماء على محاربة الأفكار الضالة وإعادة الأمة إلى وحدتها على الكتاب والسنة. (محمد العبدة من كتاب أيعيد التاريخ نفسه؟).

٣- بناء المساجد والحصون والأسوار والأوقاف ورعاية الأيتام والفقراء وضبط القضاء وإعادة سلطانه. (المصدر السابق).

٤- الاهتمام بتولية القيادات ذات العلم الشرعي الصحيح.

٥- الاهتمام بالجانب الاقتصادي والاجتماعي، فأزال الضرائب عن كاهل الناس والتزم جانب الشرع فيها وازدهرت الحياة، واهتم رجال صلاح الدين وعماله على الأقاليم بإعمار المدن وتركوا حياة الترف وأقاموا المنشآت الهامة والمفيدة وخزانات المياه وإقامة الجسور. (من كتاب هكذا ظهر جيل صلاح الدين، للدكتور ماجد كيلان).

٦- ووجه صلاح الدين عناية خاصة بالصناعات الحربية ودعمها، ومن ذلك إنشاء

ديوان للأسطول البحري ودور لصناعات السفن في القاهرة والإسكندرية، ودمياط. (المصدر السابق).

المحور الخامس: جهاد صلاح الدين في الطريق إلى القدس (معركة حطين):

خاض صلاح الدين معارك كثيرة مع الغزاة على جبهات متعددة في سنوات مديدة، لكن معركة حطين وبعد أن أنعم الله على المسلمين بالنصر الحاسم فيها كانت هي الطريق المباشر لبيت المقدس والبوابة التي دخل منها صلاح الدين والمسلمون مدينة القدس.

قال ابن واصل في مفرج الكروب: «أصبح الطريق ممهدًا أمام صلاح الدين للتوجه إلى بيت المقدس بعد حطين مباشرة؛ حيث كان ملكها ومعظم قواده أسرى لديه كما أن الممالك الأخرى كانت مهمومة بما أصابها من هزيمة في حطين، ولكن صلاح الدين آثر أن يتوجه ليقوم ببعض الخطوات العسكرية في محيط بيت المقدس لتأمين دخول المسلمين إليها».

وكنا نأمل بسط الحديث في تفاصيل المعارك التي خاضها صلاح الدين والمسلمون وما منَّ الله عليهم من نصر، لكن المكان لا يسع والوقت لا يكفي، ويكفي أن ننقل شهادة مؤرخ من الأعداء بنتيجة معركة حطين، قال انتوني يرج في كتابه الحروب الصليبية: «وكانت معركة حطين نكبة لا مثيل لها بالنسبة للمسيحيين في الممالك الصليبية؛ فقد هُزم جيشهم ولم يبق من الرجال المقاتلين سوى المنتشرين في الباحات والمدن والقلاع، وبدأ صلاح الدين يطهر بقاياهم وقد تم أسر العديد من الصليبيين، إلى درجة أنهم أصبحوا فيضًا في أسواق النخاسة في العالم الإسلامي». اهـ بتصرف يسير.

المحور السادس: دخول بيت المقدس:

«وصل المسلمون إلى أسوار القدس الغربية يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ٥٨٣هـ، وكانت المدينة محصنة تحصينًا عاليًا وبها من المقاتلين ما يزيد على ستين ألفًا معظمهم أهل خبرة ومقاتلة». ابن الأثير في الكامل.

وحاصر المسلمون المدينة من كل الجهات وذكر صلاح الدين القوم بما فعلوه بالمسلمين من أكثر من تسعين عامًا حتى ظن القوم أنهم ملاقو المصير ذاته وينسوا من النصر وتيقنوا الموت وهموا بحرق المدينة وقتل من عندهم من أسرى المسلمين وعندها استشار صلاح الدين القواد والعلماء فأشاروا عليه بتأمين خروج المحاصرين مقابل مبلغ من المال يدفعه كل واحد منهم ويُسمح له بالخروج آمنًا، ويُعطي الناس مهلة أربعين يومًا لمن أراد الخروج منهم بهذه الشروط، وتم تسليم المدينة إلى المسلمين في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب ٥٨٣هـ الموافق ١١٨٧/٢/٢٢م، وكان يومًا مشهودًا علا فيه صوت التكبير، والتهليل، والتحميد.

وفي الجمعة التالية أقيمت صلاة الجمعة الأولى في المسجد الأقصى بعد تطهيره، وصعد الخطيب يخطب الجمعة على المنبر الذي كان قد أعده نور الدين محمود لهذه المناسبة التي كان يعمل لها ثم أتمها الله على يد صلاح الدين ومن معه، وبعد هذا الفتح المبين وفى المسلمون للنصارى بعهودهم وأخرجوا من أراد بالشرط المتفق عليه وبقيت كنائسهم على ما هي عليه سوى ما أخذوه من مساجد المسلمين، وقد خرج كثير من كبرائهم بأموالهم ولم يرفعوا عن ضعفائهم وعلى رأس هؤلاء بطريق القدس وجمعٌ كثير من رجال الدين النصارى وقد بذل بعض المسلمين من أموالهم فدية للنصارى الضعفاء الذين لم يتكلفوا من دفع المبلغ المستحق لكي يخرجوا.

وكان صلاح الدين رحمه الله رحيمًا بالضعفاء والأرامل وأعزة القوم الذين أذلهم الله، ويذكر ابن واصل في كتابه وغيره من المؤرخين صورًا لنبل وسمو أخلاق صلاح الدين في تعامله مع أعدائه وهي صور مشرقة. (صورة الإسلام الحق).

ألا فليقرأ المسلمون تاريخهم وليقارنوا بين ما فعله الإسلام حين دخل بيت المقدس أيام عمر رضي الله عنه وأيام صلاح الدين رحمه الله وبين ما فعله النصارى حين دخلوا القدس في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وكذلك ما فعله اليهود في العصر الحديث حين دخلوا فلسطين وما يفعلونه إلى اليوم، وفيما تقدم بيان لأسباب النصر وأسباب الهزيمة على مر التاريخ فليتأمل المتأملون.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غزوة بني قريظة (١)

عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

فهذه وقفتنا الأولى مع غزوة بني قريظة والتي وقعت في شهر ذي القعدة من العام الخامس الهجري، وهي غزوة فاصلة لا شك في ذلك، فقد فصلت في يهود بني قريظة وطهرت الأرض من رجسهم- أقصد أرض المدينة النبوية المباركة، طهرت الأرض من خيانتهم ومؤمراتهم وموالاتهم للمشركين ودعمهم للمنافقين، وبالقضاء على بني قريظة تم القضاء التام على الوجود اليهودي عمومًا حول المدينة النبوية، وصارت المدينة خالصة للمسلمين، وخلت الجبهة الداخلية من عنصر خطير لديه القدرة على المؤامرة والكيد، واضمحل حلم قريش لأنها كانت تعوّل وتؤمل في يهود أن يكون لهم موقف ضد المسلمين، وابتعد خطر اليهود الذي كان يمدُّ المنافقين بأسباب التحريض والقوة. اهـ من كتاب دراسات في عهد النبوة للشجاع ص١٥٣.

ونحن عندما نتحدث عن هذه الغزوة وما لها من أهمية خاصة لا بد لنا أن ندخل إليها من المحاور الآتية:

المحور الأول: اهتمام الوحي بهذه الغزوة وأسبابها:

مما لا شك فيه أن هذه الغزوة الوحيدة التي اهتم وحي السماء بتوقيتها وبيان أسباب حث النبي صلى الله عليه وسلم عليها والمسارعة إليها والمشاركة الفعلية فيها:

أ- ومن مظاهر اهتمام الوحي بهذه الغزوة ما جاء في الصحيحين: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع من الخندق ووضع سلاحه واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه فاخرج إليهم. قال: إلى أين؟ قال: إلى هاهنا، وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ونادى في المسلمين: ألا لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فسار الناس فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم : لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، ولم يرد منا ذلك، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يعنف أحدًا منهم. (أخرجه

البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها، واللفظ له).

ب- ومن مظاهر اهتمام الوحي بهذه الغزوة امتنان القرآن على المسلمين بجعلها مقرونة بغزوة الأحزاب، حيث قال سبحانه: «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا» (الأحزاب:٢٧).

فانظر كيف ذكر القرآن الكريم نعمة الله على المؤمنين في المدينة بنعمة رد الأحزاب يجرون أذيال الخيبة والهزيمة ثم عقب بعدها مباشرة بالحديث عن تمكين الله المسلمين من رقاب بني قريظة وأرضهم وأموالهم كما ذكرت الآيات المباركة، وفي ذلك من الإشارة باتبارط الغزوتين وبيان أن سبب غزوة بني قريظة هو ما وقع منهم من نقض للعهود وموالاة للمشركين ضد المسلمين فكانوا يمثلون الحزب الثالث من الأحزاب المجتمعة حول المدينة أو الجناح الثاني جناح من الخارج يمثل قريش وغطفان وجناح من الداخل يمثله يهود بني قريظة، ولذلك لم تضع الملائكة أسلحتها منذ انتهاء غزوة الخندق، وقد أخبر جبريل عليه السلام النبي بذلك، ومن هنا أدرك النبي صلى الله عليه وسلم أهمية المسارعة بتنفيذ أمر الله في سرعة الخروج ودعا المسلمين إلى ذلك فبادروا.

المحور الثاني: ماذا حدث من يهود بني قريظة يوم الخندق؟

أجمع كُتاب السيرة أن شيطان خيبر وزعيم بني النضير حُيي بن أخطب هو الذي زين للقوم خيانة عهدهم مع رسول الله، ولكي يطمئنهم إلى نجاح خطته سلم نفسه لهم ودخل معهم في حصونهم فكان الجزاء من جنس العمل فقُتل مع من قتل منهم، كما أجمع أصحاب المغازي والسير على أن زعيم يهود بني قريظة (كعب بن أسد) لم يكن راغبًا مطلقًا في نقض العهد مع المسلمين، بل وأغلق بابه دون حُيي بن أخطب عندما علم بحضوره، ولكن الشيطان ما زال به حتى أدخله عليه، فقال حيي بن أخطب لكعب: ويحك يا كعب! جئتك بعز الدهر، وجئتك بقريش حتى أنزلتهم بجمع الأسيال وبغطفان حتى أنزلتهم بجانب أحد، وقد عاهدوني أن لا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدًا ومن معه، فقال له كعب: جئتني والله بذل الدهر وكل ما يُخشى، فإني لم أر في محمد إلا صدقًا ووفاء، جئتني بجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء، (يقصد كعب بقوله هذا أن هذه الجيوش على كثرتها ليست إلا كالسحاب العظيم الذي تصك رعوده الأذان ويخطف برقه الأبصار وليس فيه قطرة ماء، وهذا القول ورب الكعبة يدل على حكمة الرجل... أو على إيمانه بصدق النبي وأن الله ناصره، لكن منعته الزعامة والرياسة عن إعلان إسلامه والدخول الصريح مع المسلمين، والله أعلم.

ثم قال كعب: «ويحك يا حيي فدعني وما أنا عليه فإني أرَ محمداً إلا صدقًا ووفاء». ومع إلحاح حيي بن أخطب وفكره وخبثه دعا كعب بن أسد لاجتماع حضرة زعماء بني قريظة وعرض عليهم ما عرضه عليه شيطان بني النضير، فتكلم زعماؤهم وعقلاؤهم في هذا المجلس وهو منهم عمرو بن سُعدي، فنصح القوم وحذرهم من مغبة نقض العهد وذكرهم بوفاء محمد الدائم وصدقه في معاملته لهم وأنهم ملزمون بالقتال إلى جانبه بحسب العهد الذي بينه وبينهم، فكيف يسوغ لهم أن يشهروا السلاح في وجهه ويعينوا عدوه عليهم؟

وطلب منهم ألا يستجيبوا لكلام حيي بن

أخطب وأن يحملوا السلاح مع المسلمين أو على الأقل يكونوا على الحياد قائلاً: «إن لم تنصروا محمدًا فاتركوه وعدوه». ولكن وساوس وتأثيرات حيي بن أخطب كانت أقوى من كل معارضة- كما قال ابن إسحاق: «ما زال حيي بن أخطب يقتل في الذروة الغارب ويستدرج زعماء بني قريظة حتى أجابوه إلى ما طلب فوافقوا على نقض العهد والغدر بالمسلمين بشريطة أن يبقى حيي معهم ليصيبه ما أصابهم».

وغلب طيش كعب عقله وجمع زعماء بني قريظة ومزقوا الصحيفة التي فيها المعاهدة بينهم وبين المسلمين إلا عمرو بن سعدي فقد أصر على موقفه النبيل من عدم الغدر بمحمد والمسلمين، وكان معه في ذلك ثلاثة هم ثعلبة وعبيد أبناء شعبة وأسد بن عبيد، هؤلاء الثلاثة خرجوا وأعلنوا إسلامهم وعصموا دماءهم وأموالهم أما عمرو بن سعدي فبقي على يهوديته لكن نجاه من القتل صدقه ووفاؤه ولما تتطايرت الأخبار وسمع بها النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن إسحاق: فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم: وقد كان هذا الوفد مكوناً من سعد بن معاذ رضي الله عنه وهو سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج وعبد الله بن رواحة وأسيد بن حضير والجميع من الأنصار، وكانت المفاجأة أن يهود بني قريظة قد أصروا على موقفهم وأساؤوا إلى الرسول وإلى هذا الوفد الكريم وما نقله ابن إسحاق أن بني قريظة بمجرد سماعهم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم والحديث عن العهد قالوا: «من هو رسول الله هذا؟» ثم رجعوا قائلين: «لا عهد بيننا وبين محمد وهو الذي كسر جناحنا وأخرج إخواننا بني النضير، اذهبوا لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد». وبهذا الكبر والغرور والكذب والبهتان استقبل اليهود وفد المسلمين وفيهم زعيم الأوس وسيدهم سعد بن معاذ وكانوا موالين للأوس، ولكن موالاتهم للشيطان وللكافرين غلبت عليهم فصاروا مثلهم وبهذا أعلنوا الحرب على المسلمين صريحة دون مواربة ووضعوا أنفسهم في خندق واحد مع الأحزاب، فكان لا بد من التعجيل بهم بعد رحيل الأحزاب التي جاءت من مكة وغطفان، ولهذا السبب نزل جبريل عليه السلام في كوكبة من الملائكة، بل لم يضعوا سلاحهم منذ كانوا في الخندق مع المسلمين، وحث جبريل النبي صلى الله عليه وسلم كما حث النبي المسلمين فبادروا لتنفيذ الأمر- مع ما كانوا عليه من تعب وشدة بعد الخندق.

المحور الثالث: حصار بني قريظة:

من الواضح أن المعركة لا يدبرها جنود السماوات والأرض، أما جنود السماء فهم الملائكة بقيادة جبريل عليه السلام وأما جنود الأرض فهم المسلمون بقيادة النبي الأمي عليه الصلاة والسلام، والأمر يدار من فوق سبع سماوات بتدبير من رب السماوات والأرض العزيز الحكيم، ولهذا ذكر صاحب موسوعة الغزوات الكبرى (محمد باشميل) عندما ساق حديث جبريل مع النبي صلى الله عليه وسلم الصحيح أن الملائكة لم تضع أسلحتها بعد.

قال باشميل: «وفي بعض الروايات أن النبي طلب التأجيل أيامًا ليأخذ فيها جنده بعض الراحة، فقال بديل: انهض إليهم فوالله لَأَدُقنهم كدق البيض على الصفا ولأدخلن هذا عليهم في حصونهم ثم لأصعصنها، فكانت مهمة الملائكة إذن قذف الرعب بإذن الله وزلزلة أصحاب الحصون المنيعة من بني قريظة، ومهمة جنود المسلمين الحصار الخارجي المباشر والتعامل مع الأعداء فاجتمع على بني قريظة حصاران من الداخل والخارج ولذلك لم يتحملوا الحصار مع أنه لم يكن طويلاً فلم يدم أكثر من خمسة وعشرين يومًا كما ذكر ابن إسحاق وعند ابن سعد دام فقط

خمسة عشر يومًا.

قال صاحب الرحيق المختوم: «ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال: ١- إما أن يسلموا ويدخلوا مع محمد في دينه، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم وقد قال لهم: والله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم. ٢- تقاتلون بالسيوف وجهًا لوجه هو وأصحابه فإما أن ينتصر عليهم أو يموتوا عن آخرهم والثالثة أن يندفعوا إلى المسلمين في يوم سبت ويفكوا الحصار عنوة فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة من هذه الخصال». اهـ.

ولما رفض اليهود ما عرضه عليهم زعيمهم كعب بن أسد غضب وقال لهم: «ما بات أحد منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة حازمًا». وكان بإمكان اليهود أن يتحملوا الحصار لشهور لأنهم محصنون في حصون منيعة وعندهم الطعام والماء الذي يكفيهم لكن الرعب قد أصابهم فلم ينتفعوا بشيء مما يملكون من طعام أو سلاح، وحينئذ بادروا بالنزول على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمر باعتقال الرجال، فوضعت القيود في أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصاري، وجعلت النساء والذراري بمعزل عن الرجال في ناحية أخرى، وقامت الأوس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت (يعني الجلاء) وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فقال: «ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟» قالوا: بلى. قال: فذلك سعد بن معاذ. قالوا: رضينا». (راجع ابن إسحاق، وزاد المعاد، وابن كثير).

فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى سعد، وكان بالمدينة لأنه كان مصاباً بجرح عميق في غزوة الخندق وكان يعالج منه، فجيء به على حمار يركبه من المدينة إلى قريظة التي تبعد حوالي عشرة كيلو مترات عن مسجد النبي بالمدينة، والتف قومه حوله يطلبون منه الإحسان في بني قريظة وهو ساكت لا يرجع إليهم بقول: فلما أكثروا عليه قال: «لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم».

ويواصل صاحب الرحيق المختوم تلخيص القول نقلاً من كتب التاريخ والسير فقال: «ولما انتهى سعد إلى النبي صلى الله عليه وسلم، قال للصحابة: قوموا إلى سيدكم». فلما أنزلوه قال: يا سعد إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك (يقصد اليهود)، قال: وحكمي نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين قالوا: نعم. قال: وعلى من هاهنا وأعرض بوجهه وأشار بيده ناحية رسول الله إجلالاً وتعظيمًا. قال النبي صلى الله عليه وسلم: «نعم وعليَّ». قال: فإني أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات». قال الشيخ الألباني رحمه الله: وأصل القصة عند الإمام البخاري بدون لفظة: «من فوق سبع سماوات». وقال صاحب الرحيق: «وكان حكم سعد في غاية العدل والإنصاف فإن بني قريظة بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع، كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفًا وخمسمائة سيف وألفين من الرماح وثلاثمائة من الدروع وخمسمائة ترس مصل عليهم المسلمون بعد فتح ديارهم». اهـ.

وقبل أن نترك هذا المكان نقارن مقارنة سريعة بين موقف سعد بن معاذ رضي الله عنه وموقف زعيم المنافقين ابن سلول وهي مقارنة بين موقف أهل الإيمان الحق وأهل النفاق من أحكام الله ورسوله ومن موالاة أعداء الله ورسوله، وللوقوف مع الدروس والعبر المستفادة من هذه الغزوة نلتقي بإذن الله وإلى ذلك نسأل الله تعالى لنا ولكم الثبات على دينه حتى نلقاه.

آمين، آمين.

غزوة بني قريظة (٢)

إعداد عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعدُ:

فقد التقينا في اللقاء السابق حول غزوة بني قريظة، وعلمنا كيف كانت هذه الغزوة بتوجيه من رب العالمين نزل به الروح الأمين جبريل يقود كتيبة من الملائكة لإلقاء الرعب في قلوب أعداء الدين وزلزلة الأرض من تحت أقدامهم، وقد حثَّ جبريل النبيَّ محمداً صلى الله عليه وسلم على الخروج والتعجيل بذلك، فالأمر لا يقتضي الانتظار، وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأحكموا الحصار حول قلاع القوم وحصونهم، ولم يكن أمام القوم الذين ألقي الرعب في صدورهم وزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، وأحكم الحصار عليهم من حولهم؛ لم يكن أمامهم إلا الاستسلام لحكم الله ورسوله والذي حكم به سعد بن معاذ رضي الله عنه، بعد أن حكَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، وقد أكد رسول الله صلى الله عليه وسلم حكم سعد، وقال: «لقد حكمت فيهم بحكم الله». كما رواه البخاري، أو قال: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات». كما جاء في روايات أخَر.

هذا ملخص ما ذكرنا في اللقاء السابق، ولأن هذا الحكم والذي نفَّذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم قوبل ببعض الشبهات التي ألقاها المغرضون، فنحن سنحاول اليوم بيان سداد هذا الحكم وصوابه وعدله، ويكفي أنه حكم الله وحكم رسوله، وحكم من رضي اليهود بتحكيمه، وأقروا بقبوله، وكذلك رضي أحلافهم من الأوس، وهذا يكفي أهل الإيمان ولا يعترض عليه إلا من كان في قلبه مرض، وسنحاول بعون الله تفصيل القول في هذا الأمر في المحاور التالية:

١ - لماذا ترك اليهود الشام وجاؤوا إلى المدينة؟

لا شك أن اليهود علموا من التوراة التي كانت بين أيديهم بنبي آخر الزمان وبقرب ظهوره، وعلموا كذلك مكان ظهوره ومكان هجرته، وأنها قرية ذات نخل بين حرتين، وعلموا أوصافه كما أخبر الله تعالى عنهم: «الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (البقرة:١٤٦)، ولذلك لما رأى سلمان الفارسي رضي الله عنه المدينة عرفها من وصف أحبار اليهود له كما عرف النبي صلى الله عليه وسلم حين رآه. والقصة رواها أحمد من حديث ابن عباس، رضي الله عنهما.

ولهذا السبب أيضًا جاء كثير من اليهود، وسكنوا حول المدينة، ومنهم بنو قريظة على وجه التحديد، كما روى أبو نعيم في دلائل النبوة (ص٦٩) عن أبي نملة، قال: «كانت يهود بني قريظة يدرسون ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتبهم ويعلمون الولدان بصفته واسمه ومهجره إلى المدينة، فلما ظهر حسدوا، وبغوا، وأنكروا»؛ لأنهم كانوا يظنون أنه سيكون منهم.

وقال ابن إسحاق في السيرة (ص٨٤) بإسناد جيد: «حدثني عاصم بن عمر بن قتادة قال: حدثني أشياخ قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم منا، كان معنا يهود، وكانوا أهل كتاب، وكنا أصحاب وثن، فكنا إذا بلغهم منا ما يكرهون قالوا: إن

نبيًا مبعوثًا الآن قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم به قتل عاد وإرم، فلما بعث الله رسوله كفروا به، ففينا والله وفيهم نزل قول الله عز وجل: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» (البقرة:٨٩).

والخلاصة أن اليهود الذين جاؤوا وسكنوا المدينة من بني قينقاع وحول المدينة مثل قريظة والنضير إنما جاؤوا لانتظار النبي الخاتم الأمي المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وكانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وكانوا يستنصرون به على الأوس والخزرج بالمدينة، ولكن لما جاء من غيرهم ومن العرب على وجه الخصوص كفروا به بغيًا وحسدًا من عند أنفسهم.

وبينما كان هذا الاحتكاك بين الأوس والخزرج في المدينة وبين اليهود؛ سارع الأوس والخزرج للإيمان بخاتم النبيين، بينما كفر به اليهود.

المحور الثاني: موقف النبيّ صلى الله عليه وسلم من اليهود بعد الهجرة:

لمَّا قَدِمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينة بعد الهجرة أخذ في وضع أسس بناء المجتمع المدني الجديد، وكان أول هذه الأسس بناء المسجد الذي ستنطلق منه كل قواعد إصلاح الفرد والمجتمع، ثم اهتم النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بوضع أسس المؤاخاة والموالاة بين الأوس والخزرج من جانب، وبين المهاجرين والأنصار من جانب آخر.

وكان من مكونات المجتمع المدني اليهود، وهم بنو قينقاع وبنو النضير، وبنو قريظة وغيرهم، وهؤلاء لم تظهر عداوتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وللإسلام، وإن كانوا أبطنوها كما فعل المنافقون فلم يبادرهم النبي صلى الله عليه وسلم العداء، بل احترم وجودهم واعترف بحقهم في المواطنة وعقد بينه وبينهم العهود وأخذ عليهم المواثيق التي تنظّم حقهم في المعايشة مع المسلمين في وطن واحد وحدَّد ما يجب لهم وما يجب عليهم تجاه هذه المعايشة والمواطنة وحق الجوار.

وأهم بنود هذه المعاهدة كما ذكرها ابن هشام وغيره- وأنقل هنا من ابن هشام مع تصرف يسير جدًا-:

«وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم

وإن بينهم النصر للمظلوم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

وإن اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين.

وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو شجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها.

«وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبلهم»

هذه أهم بنود المعاهدة بين المسلمين واليهود التي عقدها النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأوضح فيها مشاركة اليهود في الحقوق والواجبات، ولهم حق المعايشة والأمن ولهم دينهم وهم شركاء في الدفاع عن المدينة ضد أي عدوان خارجي وخصوصًا من قريش ومن حالفها.

فهل قام اليهود بحق هذه المعاهدة وهل صانوها؟

يقول الدكتور أبو شهبة في كتابه «السيرة النبوية» (ج٢ ص٦٠): «وبمقتضى هذه الوثيقة أصبحت المدينة حرمًا آمنًا، وأصبح كلّ من المسلمين واليهود في أمن من جانب الآخر، وأصبح اليهود مُلْزَمين بمعاونة المسلمين إذا ما دهم المدينة عدوٌّ، وبعدم مساعدة المشركين ومناصرتهم ضدهم.

ولقد وفّى النبي والمسلمون بكل الالتزامات التي أوجبتها هذه الوثيقة عليهم، على حين لم يفِ بما فيها اليهود. اهـ.

وأقول: لم يفِ اليهود فحسب، بل نقضوها نقضًا وظاهروا المشركين على المسلمين، وقد

طعن بنو قريظة المسلمين من الخلف في أحرج المواقف وظاهروا الأحزاب الذين حاصروا المدينة وصاروا بذلك محاربين للمسلمين؛ لا معاهدين؛ وتنطبق عليهم أحكام المحاربين.

المحور الثالث: الفرق الجوهري بين بني النضير ومن سبقهم من اليهود:

لقد أجلى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بني قينقاع وبني النضير عن المدينة ولم يحدث معهم ما حدث مع بني قريظة لماذا؟

السبب الجوهري هو أنهم اشتركوا مع غيرهم في المؤامرة على النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين وفي كراهتهم للإسلام وكفرهم بالحق لما جاءهم، وزادوا على ذلك انضمامهم إلى معسكر الأحزاب التي جاءت تستهدف استئصال شأفة الإسلام والمسلمين بالمدينة، وبالتالي من العالم؛ فصاروا بذلك من الذين أعلنوا الحرب على الله ورسوله، ولهذا السبب المباشر نزل فيهم قوله تعالى: «وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا» (الأحزاب: ٢٦-٢٧).

وبنو قريظة يدخلون تحت حكم الله في قوله تعالى: «لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ» (المائدة: ٧٨- ٨١).

واليهود في المدينة ومنهم بنو قريظة وبنو النضير لم يتخذوا الكفار من قريش أولياء فحسب؛ بل قالوا ما هو أخطر من ذلك، قالوا للمشركين من قريش: «هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا» (النساء: ٥١)، وعلى هذا نص قول ربنا تبارك وتعالى حين قال: «أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا» (النساء: ٥١)، فهؤلاء اليهود وهم أهل كتاب لم يكتفوا بما عرفوا أنه الحق بل كذبوا على الله ورسوله بقولهم لمشركي مكة: أنتم أهدى من المسلمين، وهذا غاية الكذب والبهتان وقلب الحقائق، ويهود بنو قريظة بهذه الأفعال الشنيعة يحاربون الله ورسوله وينطبق عليهم حكم المحاربين لله ورسوله في قوله تعالى:

«إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (المائدة: ٣٣). واختيار أحد هذه الأحكام المبينة في الآية الكريمة متروك لولي الأمر بما يناسب الموقف في حينه، ويدخل بنو قريظة تحت حكم الله في قوله تعالى: «إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» (الأنفال: ٥٥- ٥٧).

والرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ» (النجم: ٤)، فحكمه صلى الله عليه وسلم في بني قينقاع وبني النضير من قبل كان أيضًا بتوجيهات من الوحي ومنه قوله تعالى: «وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ» (الحشر: ٣- ٤).

فهذا حكم الله في بني النضير واضح أنه كتب عليهم الجلاء حكمًا محققًا، وعلله بأنهم خانوا الله ورسوله، وما حدث لبني قريظة أيضًا هو حكم الله، له أسبابه وضوابطه وملابساته وهو في ضوء ما ذكرنا من آيات الله عز وجل، وهذا ما فهمه سعد رضي الله عنه، وله حيثياته ومداراته، وهذا ما سنحاول بيانه في لقاء قادم إن شاء الله، مع محاولة دفع شبهات المشككين واستخلاص بعض الفوائد والعبر من هذه الغزوة.

فإلى الملتقى نستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

غزوة بني قريظة (٣)

إعداد عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ولا إله إلا الله ولا نعبد إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون، ونصلي على أشرف خلقه وإمام رسله وخاتم أنبيائه؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعدُ:

أخي القارئ الكريم، وصل بنا الحديث عن غزوة بني قريظة في اللقاء السابق إلى بيان كيف استحق بنو قريظة ما أصابهم وهو بما كسبت أيْديهم، وذكرنا الأدلة على ذلك من خلال كتاب الله سبحانه وتعالى، وهذا الذي انطلق منه الصحابي الجليل سعد بن معاذ رضي الله عنه وفيما ذكرناه كفاية لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

أما من كان في قلبه مرض فهو لا يرعوي وإن جئتهم بكل آية؛ لأن المرض الذي في قلوبهم يحجبهم عن الفهم عن الله، وعن رسوله.

ونحن اليوم نقدم للقراء الكرام مزيدًا من الإيضاح يشمل أسباب الحكم الذي حكم به سعد بن معاذ رضي الله عنه، وبعض الفوائد الإيمانية والدروس المستفادة، وبالله التوفيق.

أولًا: حيثيات حكم سعد:

سعد بن معاذ رضي الله عنه كان سيد الأوس، وكان بنو قريظة حلفاء الأوس، كما كان بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج، وكان الأوس يطمعون في حكم سعد بالتخفيف عن حلفائهم، كما حدث من قبل مع حلفاء الخزرج من بني النضير وبني قينقاع، كما أن اليهود من بني قريظة وقد نزلوا على حكم رسول الله ورضوا به فرحوا عندما أعلن النبي صلى الله عليه وسلم عن تحكيم سعد فيهم طمعًا في تخفيف الحكم عليهم، فماذا حدث؟

١- ثبت في صحيح البخاري: أن اليهود نزلوا على حكم رسول الله دونما قيد أو شرط، فرد الحكم فيهم إلى حليفهم سيد الأوس سعد بن معاذ. (انظر صحيح البخاري ٥/٢٤٤).

والحديث روته أمُ المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وفيه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لسعد: هؤلاء- يعني اليهود- نزلوا على حكمك، ولما نطق بالحكم قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «حكمت فيهم بحكم الله».

٢- لقد كان سعد رضي الله عنه ضمن الوفد الذي ذَهَبَ لتقصِّي الحقائق عندما جاءه الخبر وهو في قلب المعركة، وفي قلب الحصار الذي فرضته الأحزاب على المدينة، فقد جاء هذا الوفد الذي فيه سعد إلى بني قريظة يطلب منهم الوفاء بالعهد والقيام بالتزاماتهم العسكرية للدفاع عن

المدينة بجانب المسلمين، كما تنص على ذلك المعاهدة المعقودة بين المسلمين واليهود، وقد سمع سعد كما سمع الوفد جواب اليهود من بني قريظة، كيف تجرأ هؤلاء القوم على سبِّ الرسول صلى الله عليه وسلم علنًا أمام الحاضرين، فقال لهم سعد رضي الله عنه وهو حليفهم والناصح لهم والمحذِّر: «إنكم علمتم الذي بيننا وبينكم من العهد وأنا أخاف عليكم مثل يوم النضير أو أمر منه، فقابلوا نصحه وتحذيره بفحش القول وسوء الأدب، كما ذكر صاحب البداية والنهاية، فقالوا له: «أكلت أير أبيك». والأَيْر: هو الفَرْج. بهذا الرد الفاحش كان رد بني قريظة، فقال لهم كما ذكر ابن هشام: «وكان حليمًا هادئ الطبع عفيفًا». غير هذا من القول كان أجمل بكم- يا بني قريظة- ثم نالوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: من هو رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد».

فهكذا رأى سعد وسمع جرأة بني قريظة على نقض العهود، وظنوا أن الأمر قد حان لهم قطافه مع الأحزاب المجتمعة حول المدينة.

٣- وعندها تذكر سعد واستقر في خلده مدى خطورة الموقف ومبلغ ما يحمله اليهود في نفوسهم من طغيان وكفر وحقد على الإسلام والمسلمين، ولم يفارق هذا المشهد ذاكرة سعد، وكيف أن الإسلام وكل المنتسبين إليه، والمدينة وما في المدينة من أعراض وحرمات وثمار وحرث ونسل كان قاب قوسين أو أدنى من التخريب والتدمير بسبب عناد هؤلاء اليهود، وأنه لولا رحمة الله بالمسلمين يوم الأحزاب وحدوث المعجزة الخارقة في ذلك لانتهى الكيان الإسلامي إلى الأبد، ولم ينسَ سعد أن هؤلاء اليهود لو تمَّ لهم ما أرادوا وللأحزاب معهم النصر على المسلمين لما توزَّعوا عن فعل كل قبيح ولما أخذهم في كل مسلم إلا ولا ذمة.

وبعد استعراض هذه الحوادث وهذه المواقف فإنَّ حكم سعد على هؤلاء اليهود، إنما جاء بعد دراسة وإلمام كامل بنفسيات هؤلاء اليهود واقتناع بأنهم جرثومة وباء قاتلة لا مفر من إبادتها.

وهذه هي الصورة التي صورها القرآن في نفسيات اليهود في كل زمان ومكان وسعيهم للإفساد في الأرض وإيقاد الحروب في كل الأنحاء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، واقرأ معي قول الحق تبارك وتعالى: «وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۙ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ» (المائدة:٦٤)، فهؤلاء لا يزدادون إلا طغيانًا وكفرًا، فهم في حرب مستمرة ضد الإسلام وأهله إلى يوم القيامة، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه أن القتال بين المسلمين واليهود مستمر حتى قيام الساعة أو قرب قيامها، فقال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود». (رواه مسلم). ومن ظن أن اليهود يريدون سلامًا فهو واهم.

ثانيًا: مقارنة بين رجلين وموقفين:

هذا موقف سعد بن معاذ رضي الله عنه، وهو من هو مكانةً ومنزلةً سيد في قومه، ومع قصر المدة التي عاشها من يوم أن أسلم حتى انتقل إلى جوار ربه واستقبلته ملائكة السماء وفرحت بلقائه، بل وأحب الله سبحانه وتعالى لقاءه، وهذه منقبة لم يؤثر مثلها لأحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

كل هذه المناقب جاءت بها أحاديث صحيحة، وذكرها الإمام أحمد في فضائل الصحابة، وأن سعدًا لرجل المواقف حقًا وبطل المشاهد صدقًا، رجل تغلغل الإيمان في قلبه حتى صار يتنفس إيمانًا ومحبة لله ولرسوله ودين الإسلام، فلا عجب أن يقول قولته المشهورة حين طلب منه الحكم في بني قريظة وكلمه قومه، فقال قولته المشهورة: «لقد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم». (ابن هشام).

وقد حكم فيهم حكمًا وافق حكم الله ولم يحكم بالهوى ولا العاطفة، فهو يدخل تحت قوله تعالى: «فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ» (المائدة:٥٤).

فهو رضي الله عنه مثال للمؤمن الذي يقدم محبة الله ورسوله وموالاة الله ورسوله والمؤمنين على كل ولاء، والبراء من الكفر وأهله، أما أهل النفاق وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول؛ زعيم المنافقين في المدينة، فله موقف آخر وكل المنافقين على شاكلته، كما قال الله تعالى عنهم: «فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ» (المائدة:٥٢).

وعندما حاصر الرسول صلى الله عليه وسلم بني قينقاع تبرأ من حلفهم عبادة بن الصامت رضي الله عنه، فهو على شاكلة سعد بن معاذ رضي الله عنه، أما عبد الله بن أبي فقد تشبث بحلفهم وقال: إني رجل أخشى الدوائر. (من سيرة نور اليقين، لمحمد الخضر حسين).

كما ذكرت سورة الحشر موقف المنافقين من بني النضير وكيف أن هؤلاء المنافقين يوالون أعداء الله ويناصروهم لأنهم إخوانهم في الكفر، واقرأ إن شئت قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» (الحشر:١١)، وما بعدها، فقد نزلت في المنافقين في غزوة بني النضير، فالمنافقون في كل زمان ومكان يوالون أعداء الله على حساب دينهم، وعلى حساب المسلمين؛ لأنهم في الأصل إخوة الكافرين في الكفر وإن أظهروا الإسلام لمصلحة، وهدفهم الدنيا وليس الآخرة، أما أهل الإيمان الصادق فغايتهم الله ورسوله والدار الآخرة.

ثالثًا: ومما يستفاد من غزوة بني قريظة:

١- صدق النبي صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن ربه، وأنه رسول آخر الزمان الذي كان تنتظره اليهود، ولكن منعهم الكِبْر والجحود عن اتباعه وما وقع في غزوة الأحزاب وبني قريظة أكبر دليل على تأييد الله لهذا النبي وللذين آمنوا، ولولا هذا النصر من الله لهلك المسلمون ولصاروا تحت سنابك خيل الأحزاب الذين جاءوا المدينة كالسيل الجارف، ولكن الله امتن على المسلمين بنصر من عنده، وأمرهم أن يذكروا هذه النعمة، ويضعوها نُصب أعينهم في كل وقت وحين، وسجَّلها في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا» (الأحزاب: ٩- ١٠)، لا شك هذا ظن المنافقين، «هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا» (الأحزاب:١١).

تصور أن الموقف بكل دقة وما أصاب المؤمنين بسبب خيانة بني قريظة، وبعد هذا التصور الدقيق للأزمة تأتي بُشْرَيَات النصر المؤزر: «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا» (الأحزاب:٢٥)، وأعقب ذلك مباشرة الحديث عن بني قريظة: «وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا» (الأحزاب: ٢٦- ٢٧).

سبحان الله! هذا حكم الله في بني النضير فيمن ارتكب جريمة الخيانة العظمى ومظاهرة الأعداء ضد أبناء الوطن، وقد أوضحنا هذا مفصلاً فيما سبق، وحكم سعد بحكم الله؛ لأنه صادق مع الله ورسوله لا يبتغي إلا وجه الله والدار الآخرة، أما الذين يريدون الدنيا وزينتها من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، فهؤلاء أعوان الكفار في كل زمان ومكان، وهم سبب البلاء على شعوبهم وخاصة إن كانوا في مواقع القيادة، فهم بلاء على شعوبهم لأن الشعوب هي الضحية، وغالبًا ما تدفع الثمن باهظًا لمغامرات طلاب الزعامة.

٢- وأخيرًا نقول: هذه مواقف من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم كان الوحي فيها قائدًا ودليلاً، الوحي المقروء والوحي الملائكي من جبريل عليه السلام وصحبه من الملائكة الكرام، فاتصال مباشر كان بين السماء والأرض في حياة النبي صلى الله عليه وسلم يؤيد ويقود، وإذا رُفع اتصال السماء بالأرض عن طريق جبريل وصحبه بموت النبي صلى الله عليه وسلم فقد بقي فينا القرآن الكريم وهدي الرسول الكريم محفوظًا بحفظ الله له، فإذا أردنا استنزال مدد السماء الملائكي مرة أخرى فعلينا بما أمر الله به، «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» (آل عمران:١٠٣)، وعلينا الاستجابة لأمره حين أمرنا: «وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ» (الحج:٧٨).

فهما اعتصامان؛ اعتصام بكتاب الله فيه الهداية إلى الطريق المستقيم، واعتصام بالله فيه النصر والتأييد والفلاح، فهما متلازمان لمن أراد خَيْرَيْ الدنيا والآخرة، اللهم اهدنا الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين، آمين، والحمد لله رب العالمين.

حادثا الرجيع وبئر معونة (١)

إعداد: عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعدُ:

ففي العام الرابع الهجري، وفي شهر صفر بالتحديد، وقع حادثان مؤلمان للمسلمين؛ قتل فيهما أكثر من سبعين صحابيًّا من قراء القرآن، ومن أفضل الصحابة، والمحزن في الأمر أنهم قُتلوا غيلة وغَدْرًا ولم يقتلوا في معارك مع المشركين مثل بدر وأُحد مثلاً، وهذا الأسلوب من الغدر والخيانة لم تعرفه أخلاق العرب في الجاهلية قبل الإسلام، مما يدلُّ على حقد دفين في نفوس أعداء الإسلام ورغبة أكيدة في القضاء على الإسلام وأهله.

وفي السطور التالية سنتعرض لهذين الحادثين الجللين بالعرض والتحليل، واستخلاص الدروس والعبر بعون الله؛ لكن قبل البدء سنعرض للظروف والأحوال التي وقع فيها هذان الحادثان والدافع وراءهما، بما يعتبر تمهيدًا أو بيانًا، ثم نتعرض للحادثين، والمستفاد منهما.

أولاً: الظروف المحيطة بالحادثين:

لا يخفى على الدارس لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم أن الذي أصاب المسلمين في أُحد قد جرَّأ أعداءهم من اليهود والمشركين، فظنوا أن الفرصة سانحة أمامهم لينالوا من المسلمين بل فكر بعضهم في اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم، كما حدث من بني النضير، وقد أدى مثل هذا التفكير إلى التحالف بين اليهود والمشركين الذي نتج عنه غزوة الأحزاب فيما بعد، وليس هذا مجال الحديث عن ذلك.

إنما الذي حدث مباشرة قبل حادثي الرجيع وبئر معونة هو محاولة التنمر من الأعراب الذين حاولوا غزو المدينة مباشرة، ومن ذلك:

أ- محاولة بني أسد: في المحرم من السنة الرابعة وفي مطلعه، كان أول مَن فكَّر في التجمع لغزو المدينة هم بنو أسد بن خزيمة؛ فقد سار طلحة وسلمة ابنا خويلد في قومهما ومن أطاعهما يدعوان بني أسد إلى حرب المسلمين بالمدينة، ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بعزم القوم سيَّر لهم سَريَّة مقاتلة من مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار يقودهم أبو سلمة رضي الله عنه، فباغت أبو سلمة بني أسد في ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم على المدينة النبوية، فتفرقوا بعد اجتماع وتشتَّت أمرهم، وأصاب المسلمونَ

منهم غنائم كثيرة من الإبل والغنم فاستاقوها، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين.

ب- وفي اليوم الخامس من شهر المحرم في السنة الرابعة حاول خالد بن سفيان الهذلي أن يحشد الجموع لحرب المسلمين، ويحقق الذي فشل فيه بنو أسد، لكنَّ النبي صلى الله عليه وسلم، والمسلمون كانوا لهم بالمرصاد، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن سفيان من يأتي برأسه؛ أرسل إليه عبد الله بن أنيس الذي قتل خالدًا هذا وأتى برأسه ووضعها أمام النبي صلى الله عليه وسلم، وبمقتل هذا المتكبر خمدت الفتنة. (راجع زاد المعاد، وسيرة ابن هشام).

ولما فشل أعداء الإسلام في مواجهته علانية لجؤوا إلى المكر والخديعة في تلك المرحلة فوقع حادثا الرجيع وبئر معونة في الشهر التالي من نفس العام، والله أعلم.

ثانيًا: حادث بئر الرجيع:

في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة قَدِمَ وفد قبيلتي عُضل وقارة، وذكروا أن فيهم إسلامًا وطلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل معهم مَن يعلمهم الدِّين، ويقرئهم القرآن؛ فبعث ستة من القراء في رواية ابن إسحاق، وأمَّر عليهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وفي رواية الإمام البخاري كانوا عشرة وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر بن الخطاب (وهي الأصح والله أعلم)، فذهبوا معهم فلما كانوا بالرجيع (وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز بين رابغ وجُدة) استصرخوا عليهم حيان من هذيل، يقال لهم: بنو لحيان فتبعوهم وكانوا ما يقرب من مائة رام، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم فأحاطوا بهم، وكان القراء (قد صعدوا إلى مكان مرتفع من الأرض)، فقالوا للصحابة: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً، فأما عاصم فأبى النزول وقاتلهم في أصحابه، فقُتِلَ سبعة من القراء وبقي ثلاثة؛ خُبيب بن عدي وزيد بن الدثنة، ورجل آخر، فأعطوهم العهد مرة أخرى، فنزلوا إليهم، ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتاد قسيِّهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، وأبى أن يصحبهم، فحاولوا معه فأبى فقتلوه وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبًا بنو الحارث، وكان هو الذي قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيرًا حتى أجمعوا قتله، فاستعار موسَى من بنات الحارث ليستحد بها، قالت: «فغفلت عن صبيٍّ لي، فدَرَج إليه حتى أتاه فأجلسه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذاك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك إن شاء الله تعالى. وكانت تقول: ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خُبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يومئذ ثمرة عنب واحدة، وإنه لموثق بالحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله.

فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، قال: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم، فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سنَّ الركعتين قبل القتل، ثم أنشد أبيات من الشعر نختار منها:

ولست أبالي حين أُقتل مسلمًا

على أيِّ شقٍّ كان في الله مضجعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ

يبارك على أوصال شلو ممزع

فلست بمُبْدٍ للعدو تخشُّعًا

ولا جزعًا إني إلى الله مرجعي

وذكر ابن القيم في زاد المعاد أن أبا سفيان قال لخبيب قبل أن يُقتل: أيسرك أن محمدًا عندنا يضرب عنقه، وإنك في أهلك آمن؟ فقال: لا والله، ما يسرني أني في أهلي، وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، ثم قتلوه وصلبوه، ووكلوا به من يحرسه وهو ميت ومصلوب، فجاء عمرو بن أمية الضمري فاحتمله بجذعه ليلاً، فذهب به ودفنه. (راجع زاد المعاد ٣/٣٤٦).

وذكر صاحب السيرة النبوية الصحيحة (١/٣٩٩) أن خبيبًا قبل أن يُقتل دعا على المشركين فقال: «اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تُبق منهم أحدًا».

قال ابن إسحاق: وأما زيد فابتاعه صفوان بن أمية، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه، قال له أبو سفيان: أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمدًا الآن

عندنا مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا.

وقد مرَّ بنا موقف عاصم بن ثابت رضي الله عنه الذي أبى النزول على عهد الكفار وقاتلهم حتى قتلوه، وهنا ننقل رواية ابن هشام عنه بعد مقتله حيث قال: «وكان عاصم بن ثابت يُكنى بأبي سليمان، ثم قاتل القوم حتى قُتل وقتل صاحباه، فلما قُتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد، وكانت قد نذرت- حين قتل عاصم أباها يوم أُحُد- لئن قدرت على عاصم لتشربَنَّ في قحفه الخمر (أي في عظام رأسه)، فلما حاول القوم أخذ رأس عاصم بعد مقتله حالت بينهم الدَبْر وبين رأسه (أي وجدوا مظلة ضخمة من زنابير النحل تظلله)، قالوا دعوه حتى يُمسي فيذهب عنه، فبعث الله الوادي (سيلاً)، فاحتمل عاصمًا فذهب به فلم يتمكنوا منه، وكان عاصم قد دعا ربه ألا يمسّه مشركٌ بعد موته، فاستجاب الله له. (ابن هشام ٣/ ١٥٠).

ثالثًا: مأساة بئر معونة:

وفي الشهر نفسه (صفر) الذي وقعت فيه مأساة الرجيع، وفي العام نفسه وقعت مأساة أخرى أشد إيلامًا من الأولى، وهي التي تُعْرَف بمأساة بئر معونة، والكلام هنا لصاحب كتاب الرحيق المختوم (ص٣٠٦) قال: «وملخصها أن أبا براء عامر بن مالك المدعو ملاعب الأسنة قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إلى الإسلام فلم يُسلم ولم يبعد، فقال: يا رسول الله، لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم، فقال: إني أخاف عليهم أهل نجد، فقال أبو براء: أنا جارٌ لهم، فبعث معهم أربعين رجلاً- في قول ابن إسحاق، وفي الصحيح أنهم كانوا سبعين، والذي في الصحيح هو الصحيح، وأمَّر عليهم المنذر بن عمرو أحد بني ساعدة، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم فساروا حتى نزلوا بئر معونة، وهي أرض بين بني عامر وجسر بني سليم- فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بين ملحان بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عدو الله عامر بن الطفيل فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً فطعن حرام بن ملحان بالحربة من خلفه فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حرام: الله أكبر، فزت ورب الكعبة، ثم استنفر عدو الله من فوره بني عامر إلى قتال الباقين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سليم فأجابته عُصَيَّة ورعل وذكوان فجاؤوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار كان بين القتلى ولم ينتبه القوم له فعاش حتى قُتل يوم الخندق.

قال ابن إسحاق: فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بالحادث حزن حزنًا شديدًا، وقال: «هذا عمل أبي براء، قد كنت بهذا كارهًا متخوفًا». فبلغ ذلك أبا براء، فشق عليهم إخفار بني الطفيل إياه وما أصاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسببه.

عن أنس رضي الله عنه: «قَنَتَ شَهْرًا بَعْدَ الرُّكُوعِ يَدْعُو عَلَى أَحْيَاءٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، قَالَ بَعَثَ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ يَشُكُّ فِيهِ مِنَ الْقُرَّاءِ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَعَرَضَ لَهُمْ هَؤُلَاءِ فَقَتَلُوهُمْ، وَكَانَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهْدٌ، فَمَا رَأَيْتُهُ وَجَدَ عَلَى أَحَدٍ مَا وَجَدَ عَلَيْهِمْ» (البخاري: ٢٩٩٩).

وفي رواية لمسلم: كان صلى الله عليه وسلم يقول: «اللَّهُمَّ الْعَنْ بَنِي لِحْيَانَ وَرِعْلًا وَذَكْوَانَ وَعُصَيَّةَ عَصَوُا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، غِفَارُ غَفَرَ اللَّهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللَّهُ».

وهكذا لجأ النبي صلى الله عليه وسلم إلى ربه يدعوه ويستغيث به على هؤلاء القوم الذين غدروا وفجروا وقتلوا هذا العدد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل من خيرتهم، وقد كان وقع الحادثين في زمن متقارب جدًا في شهر واحد حادث بئر الرجيع وبئر معونة، كان بينهما أيام قليلة، وفي ظروف شديدة؛ كان ابتلاءً شديدًا للمجتمع الإسلامي في المدينة النبوية.

وفي اللقاء القادم نقف بعون الله مع الدروس والعبَر المستفادة، فإلى لقاء أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

حادثا الرجيع وبئر معونة (٢)

إعداد عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله مالك الملك ومدبِّر الأمر، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على البشير النذير سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فإنَّ قَتْلَ أكثر من سبعين رجلا من خيرَة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ومن حُفَّاظ القرآن في وقت قصير، وفي سنة واحدة، لأمْرٌ جَلَل ترك آثاره من الحزن والألم على المسلمين في المدينة النبوية.

ومما زاد الأمر أن هذا الغدر القاتل الذي أدَّى إلى مقتل هؤلاء الصحب الكرام؛ خُلُقٌ لم يتعوَّد عليه العرب ولم يكن من شِيَمهم حتى في الجاهلية، وكان هذا الأمر نازلة شديدة نزلت على المسلمين مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على القوم في صلاته شهرًا كاملًا في الأوقات الخمس، والمسلمون يُؤَمِّنُون خلفه، ويذكر القبائل الغادرَة باسمها ويلعنها لعنًا، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنهما؛ أن النبي قنت شهرًا متتابعًا في الظهر والعصر والمغرب والعشاء وصلاة الصبح، إذا قال: سمع الله لمن حمده في الركعة الأخيرة، يدعو على أحياء من بني سليم، وعلى رعْل وذكوان وعصية، ويؤمِّن خلفه المسلمون. أخرجه أحمد، وأبو داود، وصححه.

ونحن اليوم بعون الله سنحاول الوقوف على ما أمكن بعون الله من أبرز العِبَر والدروس المستفادة، ننقل ما ذكره أهل العلم، ثم نضيف ما فتح الله به علينا من الفوائد والعبر، وبسم الله نبدأ وعليه سبحانه نتوكل:

أولا: فوائد من حادث الرجيع:

١- فوائد ذكرها الإمام ابن حجر في الفتح تعليقًا على حديث أبي هريرة.

وفي الحديث أن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان ولا يُمكن العدوَّ من نفسه ولو قُتِل حتف أنفه، من أن يجري عليه حُكم كافر، هذا إذا أراد الأخذ بالشدَّة- وهو يشير بذلك إلى توقف عاصم بن ثابت رضي الله عنه.

ثم يقول الحافظ: فإن أراد الرخصة فله أن يستأمن، قال: الحسن البصري لا بأس بذلك. وقال: سفيان الثوري: أكره ذلك.

ثم يشير الحافظ إلى موقف خبيب بن عدي، فيقول: فيه الوفاء للمشركين بالعهد والتورُّع عن قتل أولادهم، والصلاة عند القتل، وإنشاد الشعر عند القتل؛ مما يدل على ثباته ورباطة جأشه وعلى يقينه فيما عند الله، وعلى الدعاء على الأعداء.

ومعلوم أن خبيبًا رضي الله عنه قال قبل قتله أبياتًا صارت مضرب الأمثال، فقال:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا
على أي شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزع
فلست بمبدٍ للعدو تخشعًا
ولا جزعًا إني إلى الله مرجعي

كما دعا على الكافرين، فقال: «اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، ولا تبقِ منهم أحدًا».

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: «وفي الحديث إثبات كرامة الأولياء واستجابة الدعاء».

وقال الحافظ رحمه الله: «وفي الحديث: أن الله يبتلي عبده المسلم بما شاء كما سبق في علمه ليثيبه، ولو شاء ربك ما فعلوه».

٢- ويوضح الدكتور البوطي رحمه الله سبب هذا الخلق الكريم الذي تخلق به خبيبٌ فيقول: «فانظر إلى معجزة التربية الإسلامية لخبيب، فخبيبٌ هذا، وأولئك المشركون الحاقدون الذين راحوا يصنعون له الموت ظلمًا وعدوانًا هم عربٌ مثله أنبتتهم أرض واحدة، وأظلتهم سماء واحدة، وطبائع وتقاليد واحدة، لكنَّ خبيبًا اعتنق الإسلام فأخرجه الإسلام إنسانًا آخر، وأولئك عكفوا على ضلالتهم وطبائعهم المتوحشة الغادرة، فما أعظم ما يفعله الإسلام في الطبيعة البشرية من تغيير وتحويل». (انظر فقه السيرة ص٢٠٠).

٣- قال أبو سفيان قبل أن يُسلم: «ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحبِّ أصحاب محمد محمدًا». هذه حقيقة شهد بها أبو سفيان قبل إسلامه؛ لأنه رأى ذلك حقيقة واقعة، فقد وجَّه سؤالًا واحدًا لكلٍ من خبيب وزيد بن الدثنة، قال لكل منهما بعيدًا عن الآخر: «أتحب أن تكون في أهلك آمنًا ومحمد هنا مكانك». فكانت الإجابة واحدة: «والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه تصيبه شوكة في مكانه الذي هو فيه، وإني جالس في أهلي».

ومحبة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم نابعة من إيمانهم بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا ورسولًا، فحبهم لرسول الله من حبهم لله، ووقائع السيرة والتاريخ أكثر من أن تُحصَى في حب الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: دروس من حادث بئر معونة:

وقد سبق ذكر قصة بئر معونة التي غدر فيها القوم بسبعين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ذهبوا إلى أهل نجد ليعلموهم الإسلام ويدعوهم إلى الله، وهذا بناءً على طلب من عامر بن مالك، وقد أبدى النبيُّ صلى الله عليه وسلم تخوُّفه على أصحابه وخشيته عليهم من أهل نجد لكن عامرًا وعد النبيَّ بحمايتهم، لكن عامر بن الطفيل لم يحترم جوار ابن أخيه عامر بن مالك واستصرخ على الصحابة الكرام أحياء من العرب فقتلوهم وغدروا بهم غدرًا شنيعًا.

ومن أهم الدروس المستفادة من حادث بئر معونة ما يلي:

١- صدق الصحابة في طلب الشهادة:

لما ذهب حرام بن ملحان بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل، فلم ينظر عامر في الكتاب وألقاه عن يمينه، وأومأ إلى رجل بقتل حرام من ملحان رضي الله عنه، فطعنه القاتل بحربة في ظهره فلما رأى حرام الدم يخرج من بدنه من أثر الطعنة أخذ بيديه الدم وأخذ يمسح به وجهه، ويقول: «فزت ورب الكعبة». ويكرر هذه العبارة فرحًا باستشهاده في سبيل الله حتى سقط على الأرض شهيدًا، وكان هذا القول والفعل من حرام بن ملحان دليلًا على صدقه في طلب الشهادة جعل قاتله وهو جبار بن سلمى يتعجب كيف فاز؟ وقد قتله وجعل يسأل هذا السؤال: كيف فاز؟ وذهب إلى المدينة يسأل: كيف فاز وقد قتلته؟ قالوا: فاز بالجنة؛ لأنه قُتل شهيدًا وعرف جبار قيمة الشهيد في الإسلام، وعلم أن هناك دارًا أخرى غير الدنيا يعمل لها المسلمون، وأن هذه الدنيا وسيلة للدار الآخرة فأعلن إسلامه، وكانت هذه العبارة التي قالها حرام بن ملحان سبب إسلامه.

٢- عاقبة الطغيان:

لقد غدر عامر بن الطفيل بحرام بن ملحان رسول رسول الله، ولم يحترم حتى أعراف الجاهلية أن الرسل لا تُقتل، وليس هذا فحسب بل قام بتأليب القبائل ضد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم حتى قتلوهم، وقد فعل عامر ذلك لأنه متكبِّر يحب الزعامة والرئاسة، وقد جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد عرض النبي صلى الله عليه وسلم عليه الإسلام، فكان من طغيانه وفجوره أن قال للنبي صلى الله عليه وسلم: إني أعرض عليك ثلاثة أمور حتى أسلم، وهي: أن يكون لك السهل ولي المدر، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بأهل غطفان، وهذه العروض إن دلت على شيء إنما تدل على رغبة هذا المتكبِّر في الملك وتعلقه بالدنيا وعدم فهمه للإسلام، ولما كان هذا حال عامر وقد فعل ما فعل، وقال ما قال، وزعم ما زعم، دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «اللهم اكفني عامرًا واهد بني عامر». (أورده ابن كثير في البداية والنهاية).

فأصيب الطاغية بمرض عضال: (غدة كغدة البعير)، أدى إلى مقتله شر قتله، وتلاشت أحلامه في الملك، وذهب تهديده هباءً، (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة؛ إن أخذه أليم شديد).

ثالثًا: دروس من الحادثين معًا:

١- الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعلم الغيب:

«قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ» (الأعراف:١٨٨).

٢- لا بد للدعوة من تضحيات:

قال الدكتور البوطي رحمه الله: «يدل كلٌ من حادث الرجيع وبئر معونة على اشتراك المسلمين كلهم في مسؤولية الدعوة إلى الإسلام، وتقصير الناس بحقيقته وأحكامه، فليس أمر الدعوة موكلًا إلى الأنبياء وحدهم، وإنك لتشعر مدى أهمية الدعوة وأهمية القيام بها من إرسال الرسول لهؤلاء السبعين ولم يمض وقت طويل على مقتل إخوانهم في حادث الرجيع».

٣- سؤال وجواب:

يطرح الدكتور البوطي في هذا الصدد سؤالًا ثم يجيب عنه، والسؤال هو: فما الحكمة من تمكين يد الغدر من هؤلاء الفتية المؤمنين الصادقين؟

ثم أجاب: الحكمة من ذلك أن تتحقق عبودية المسلم لربه، وليميز الله الصادقين من المنافقين، ويتخذ الشهداء من المؤمنين، وأن يتحقق المعنى الواقعي لتنفيذ المبايعة التي جرت بين الله وعباده المؤمنين، وصرَّح بها القرآن في قوله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ» (التوبة:١١١)، وإنما تطوف مثل هذه الأسئلة في رأس من يرى الدنيا هي الغاية، وتلك آفة ضعف الإيمان أو عدمه في بعض النفوس، أما المؤمنون حقًا فيعرفون غايتهم ويعملون لها كما رأينا في كلام حرام بن ملحان، وفرحه بالشهادة، وغيره كثير». انتهى هذا النقل مختصرًا من فقه السيرة (ص٢٠١).

وقد طرح الدكتور أبو شهبة قريبًا من هذا السؤال، وأجاب:

«١- إن حفظ الجوار كان من خيرة فضائل العرب حتى في الجاهلية، وقد أرسلهم النبي في جوار رجل له مكانته ومنزلته في بني عامر، وهو أبو براء، ولذلك لم يقدر بنو عامر أن يخفروه في جواره فاستصرخ عليهم عامر بن الطفيل قبائل بنو سلم.

٢- إيفاد هاتين السريتين لم يكن إلا حلقة من حلقات الجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى هذا الدين، والسهر على نشره بشتَّى الوسائل، أليس غاية ما يحتمل أن يموتوا شهداء، وهذا ما يرجوه كل مسلم. وصدق الله: «قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ» (التوبة:٥٢)؛ إما النصر والغنيمة، أو الموت والشهادة». اهـ من السيرة النبوية (ص٢٤٢).

٤- لم يكن حُفَّاظ القرآن من الصحابة كما وصفهم المنافقون بأنهم طلاب دنيا يأكلون بالقرآن، بل كانوا يعملون بأيديهم، ويأكلون من عمل أيديهم، فهؤلاء سبعون استشهدوا في حادثتي غدر حيث كانوا في المقدمة، وسبعون غيرهم استشهدوا في حروب الردة في زمان عمر، مما حَدَا بعمر رضي الله عنه أن يكثر من الإلحاح على أبي بكر- الخليفة يومئذ- بجمع القرآن في مصحف واحد ليحفظ كتاب الله في السطور كما حُفظ في الصدور.

إذن كان القُرَّاء من الصحابة هم أهل القرآن حقًا كما جاء في حديث النواس بن سمعان: «يؤتى يوم القيامة بالقرآن وأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا...». الحديث رواه مسلم.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم،

والحمد لله رب العالمين.

سقوط غرناطة

إعداد عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على البشير النذير النبي الأمي محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

إخوتي في الله قراء مجلة التوحيد الكرام، اليوم أقف بكم ومعكم على ربوة عالية نطل منها على قصر الحمراء في غرناطة، والذي هو من بدائع العمران ومن آثار الحضارة الإسلامية في دولة الأندلس، أقصد التي كان اسمها كذلك، قبل أن تصير إسبانيا الحالية.

نقف هناك قرب هذا القصر ويقف معنا محمد ابن الأحمر الصغير آخر ملوك المسلمين في غرناطة وفي الأندلس عمومًا، وبعد أن انتهى هذا الملك الصغير من تسليم قصره وجميع ممتلكاته ومُلكه إلى الملك فرديناند الخامس والملكة إيزابيلا الملكين الكاثوليكيين اللذين كان يحكمان إسبانيا، وبعد أن سلمها الملك أبو عبد الله محمد بن الأحمر وخرج يجر أذيال الهزيمة والذل والصغار، خراج واقفًا على تلك الربوة يبكي كالصغار وهو ينظر إلى قصره وملكه الذي أضاعه في لحظه، ويصف لنا الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه «دولة الإسلام في الأندلس»، فيقول:

«وفي نكسة كبيرة وفي ظل الذل والصغار يخرج أبو عبد الله محمد بن الأحمر الصغير آخر ملوك المسلمين في غرناطة من القصر الملكي، ويسير بعيدًا في اتجاه بلده أندروس حتى وصل إلى ربوة عالية تطل على قصر الحمراء يتطلع منها إليه، وإلى ذلك المسجد الذي ولى ويحزن بأسًى قد تبدى عليه لم يستطع أن يتمالك نفسه، انطلق يبكي حتى بللت دموعه لحيته، حتى قالت له أمه وكان اسمها (عائشة الحرة): «أجل! فلتبك كالنساء مُلكًا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال».

ولقد لخصت لنا، وبسقوط غرناطة غربت شمس الحضارة الإسلامية عن بلاد الأندلس وعن الجنوب الغربي لقارة أوروبا، وكان ذلك في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ الموافق الثالث من يناير سنة ١٤٩٢م، نعم بسقوط غرناطة أفل نجم الحضارة الإسلامية عن الأندلس بعد عطاء دام ثمانية قرون منذ الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة، ثمانية قرون من النور والعلم والأدب والخُلق النابع من عقيدة الإسلام والذي انتفع به العالم بأسره حتى يومنا هذا، ولم تنتفع الأندلس وحدها بل انتفعت أوروبا بكاملها وانتفع العالم بأسره حتى يومنا هذا والى ما شاء الله وحتى نُوفي هذا الموضوع بعض حقه لا بد لنا من إطلالة سريعة على حال أوروبا قبل الفتح الإسلامي للأندلس وحال إسبانيا ثم أثناء الفتح الإسلامي، وسينتظم حديثنا في هذا الموضوع المحاور التالية بعون الله تعالى:

أولًا: نظرة سريعة على حال أوروبا قبل الفتح الإسلامي للأندلس.

ثانيًا: مقارنة بين حال إسبانيا قبل الفتح الإسلامي وبعده.

ثالثًا: عرض موجز للعهود التي مرت بها الأندلس.

رابعًا: سقوط غرناطة وأسبابه.

خامسًا: الدروس المستفادة.

ونبدأ مستعينين بالله العظيم وعليه نتوكل:

أولًا: نظرة سريعة على أحوال أوروبا قبل الفتح الإسلامي للأندلس:

بينما أشرق نور الإسلام في الأندلس؛ كانت أوروبا

تغطُّ في ظلام عميق، وقد أظلها ليلٌ طويل من الجهل والهمجية والفوضى، يشهد بذلك التاريخ والمؤرخون من الأوروبيين أنفسهم ومن ملوكهم، ويشهد بذلك القاصي والداني، وسنشير إلى ذلك بإيجاز:

١- يقول المؤرخ الفرنسي جُوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب»: «إذا رجعنا إلى القرن التاسع، والقرن العاشر من الميلاد، حين كانت الحضارة الإسلامية في إسبانيا ساطعة جدًا، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجًا يسكنها سنيورات متوحشون يفخرون بأنهم لا يقرؤون، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة كانوا من الرهبان المساكين الجاهلين، والذين يقضون أوقاتهم في أديرتهم ليكشفوا كتب الأقدمين النفيسة بخشوع، وذاقت همجية أوروبا البالغة زمنًا طويلاً من غير أن تشعر بها ولم يَبْدُ في أوروبا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر، والثاني عشر من الميلاد، وذلك حين ظهر أناس في أوروبا رأوا أن يدفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم، فولوا وجوههم شطر العرب (المسلمين) في الأندلس الذين كانوا أئمة وحدهم». اهـ.

فها هو المؤرخ الفرنسي الشهير يعترف أن المسلمين في الأندلس كانوا القدوة في الحضارة والعلم، ومن أراد من أوروبا أن يرفع عن نفسه وعن شعبه أكفان الجهل فعليه التوجه إلى منارة العلم في قرطبة، وهذا فعلاً ما فعله ملوك أوروبا وشبابها، وإليك البرهان:

رسالة من ملك إنجلترا وما حولها جورج الثاني إلى خليفة المسلمين بالأندلس هشام الثالث، وهذا نصها:

«من جورج الثاني ملك إنجلترا والسويد والنرويج، إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام، وبعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي في معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في أوروبا التي يسودها الجهل من أربعة أركان، ولقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة دوبانت على رأس بعثة بنات أشراف الإنجليز تتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، ومن اللواتي سيتوافرن على تعليمهن، ولقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص، من خادمكم المطيع جورج ملك إنجلترا».

وكان جواب الخليفة على النحو التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين، وبعدُ: إلى ملك إنجلترا، واسكندنافيا، وأبكوسيا الأجلّ: اطلعت على التماسكم فوافقت على طلبكم بعد استشارة من يعنيهم الأمر من أرباب الشأن، وعليه نُعلمكم أنه سوف يُنفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي، أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد، وفي المقابل أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية وهي من صنع أبنائنا هدية لحضرتكم، وفيها المغزى الكافي للتدليل على التفاتنا ومحبتنا والسلام». (راجع ابن عبد البر في الاستذكار ج١، موسوعة المعارف البريطانية)..

خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأندلس هشام الثالث:

وفي هذين الخطابين المتبادلين بين ملك إنجلترا وما حولها، وبين خليفة المسلمين في الأندلس ما يشير إلى عز ومجد الأندلس وريادة المسلمين آنذاك للعالم، وإنما أردنا أن نسْبُرَ غورها ونقف معها وقفة متأمل، فهذا يحتاج إلى دراسة مستقلة، لكن هذا باختصار ما كان عليه المسلمون زمن العزة، وينقل لنا الدكتور محمد إسماعيل المقدم صورة تؤكد ما سبق من زاوية أخرى، حيث يقول: «كان الشباب الأوروبي من ألمانيا، وبريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وكل هذه البلاد في فترات مجد المسلمين يأتون إلى الأندلس، لينقلوا العلم على أيدي علماء المسلمين، وكانت لغة العلم هي اللغة العربية، فكان لزامًا على كل طالب يريد أن يتلقى العلم الحديث وأحدث ما وصل إليه العلم كان لزامًا عليه أن يتعلم اللغة العربية، فكان الشاب الغربي إذا رجع إلى بلاده يفتخر أمام أقرانه بأنه درس في بلاد المسلمين، ويعتبر هذا من مظاهر المفاخرة العظيمة، فكان يخلط كلامه أحيانًا بألفاظ عربية، ثم يعود يتكلم بلغته القومية». مختصر من كتاب علو الهمة.

ثانيًا: مقارنة بين إسبانيا قبل الفتح وبعده:

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي في كتابه «التاريخ الأندلسي»، ط دار القلم سنة ١٩٧٦م: «كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامي تشكو الاضطراب والفساد الاجتماعي، والتأخر الاقتصادي وعدم الاستقرار نتيجة السياسة ونظام الحكم، ثم يوضح لنا شيئين من هذا الفساد، فيقول: استبد القوط بالحكم قبل الفتح الإسلامي ولسوء سياستهم ساءت حالة إسبانيا، واضطربت حياة سكانها، فالفوضى منتشرة، وكثير من الناس يعيشون في شقاء لسوء الأحوال المعيشية، ولسياسة الاستغلال من جانب الحكام.. فكان الشعب مُسْتَغَلاً لحساب الطبقة الحاكمة والمترفة وأصحاب المصالح، يضاف إلى ذلك الصراع الذي نشأ بين الطبقات والحاكمين، وفيما بين الحاكمين أنفسهم، وكان الشعب الإسباني مقسمًا إلى طبقات، ومع وجود الفوارق الطبقية فلا يحظى بالعيش إلا طبقة معينة حصلت على امتيازات، والأسرة المالكة التي بيدها كل شيء دون سواد الشعب الذي يلاقي الإهمال والظلم وتفرض عليه الضرائب والتكاليف، ولذلك عندما جاء الفتح الإسلامي سارع إليه أهل إسبانيا يعتنقونه عقيدة ويأخذون بشريعته أخلاقا وسلوكا، ودخلوا في الإسلام طواعية دون إكراه امتزجت عناصر الشعب كلها في ظل العقيدة والشريعة متعايشة متعاونة متحابة، فاستمر الإسلام في المناطق التي وصل إليها وحافظ أهل البلاد عليه لما وجدوا فيه من عزة وكرامة وعدل ورحمة، بل وحملوه إلى المناطق الأخرى سلوكًا ودعوة، وفدوه بأموالهم وأنفسهم». اهـ مع تصرف يسير.

ثالثًا: مراحل الحكم التي مرت على الأندلس

بدأت هذه المراحل منذ الفتح في عام ٩٢هـ حتى سقوط غرناطة سنة ٨٩٧هـ الموافق ١٤٩٢م، فهذه ثمانية قرون بسط فيها الإسلام سلطانه على الأندلس، فصارت منارة للحضارة الشاملة في كل مناحي الحياة وقِبْلة يَفِد إليها أبناء أوروبا ينهلون من علم المسلمين في اللغة والآداب والطب والهندسة والصيدلة والعمارة، وفي كل مناحي الحياة.

والحديث عن حضارة الإسلام في الأندلس يحتاج إلى مجال أوفر من هذه الإشارة العابرة.

أما الدولة الإسلامية في الأندلس فمرت بسبع مراحل، أو ست عند بعض المؤرخين؛ جعلوا مرحلة الفتح والولاة مرحلة واحدة، ثم تلت ذلك مرحلة الإمارة التي بدأت بعبد الرحمن الداخل التي اشتهر بصقر قريش، أو ربما كانت هذه المرحلة من أزهى مراحل الحكم في الأندلس، وكانت مرحلة الولاة تابعة للدولة الأموية بالشام، وبسقوط الدولة الأموية، ومع ظهور الدولة العباسية، وفرار عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس جعلها إمارة مستقلة منفصلة عن الشام، ثم المرحلة التي أطلق عليها عهد الخلافة، ثم عهد الطوائف، ثم عهد المرابطين والموحدين، ثم المرحلة الأخيرة مملكة غرناطة التي استمرت حوالي قرنين ونصف قرن من الزمان من (٦٢٠: ٨٩٧هـ- ١٢٢٣: ١٤٩٢م)، وبسقوط غرناطة ذهب سلطان المسلمين عن الأندلس.

وهذا ما سنتحدث عنه بعون الله في لقائنا القادم مع استخلاص الدروس والعبر.

ومن المفيد هنا أن نشير إلى أن عصور الأندلس أو عهودها أو دولها تفاوتت قوة وضعفًا بحسب قربها من دين الله أو بعدها عنه، وقد رأينا كيف كانت في أزهى عصورها تملك القيادة والسيادة والريادة، وكيف كان يخاطب ملوك أوروبا ملك الأندلس وكيف كان شباب أوروبا يتفاخر بعلمه باللغة العربية على أقرانهم؛ لأنها لغة الحضارة والعلم والثقافة في ذلك الزمن الذي خيَّم فيه الجهل والتخلف على أركان أوروبا الأربعة بحسب تعبير الملك جورج.

ولا يفوتنا قبل ختام هذا المقال أن نؤكد على مصدر قوة المسلمين، وكذا مصدر ضعفهم باختصار شديد، قال الله عز وجل: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» (آل عمران:١٠٣)، فأمر الله سبحانه بأهم أسباب القوة ألا وهو الاعتصام بحبل الله، ونهى في مقابل ذلك عن أخطر أسباب الضعف بقوله: «ولا تفرقوا»؛ فالفرقة ضعف وفشل؛ «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ» (الأنفال:٤٦)، والاعتصام بالله هداية ووقاية؛ هداية إلى الصراط المستقيم، ووقاية من القتال والفُرْقة، قال الله تعالى: «وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ» (آل عمران:١٠١).

هدانا الله وإياكم لصراطه المستقيم، ووقانا شر المغضوب عليهم والضالين، وإلى لقاء أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

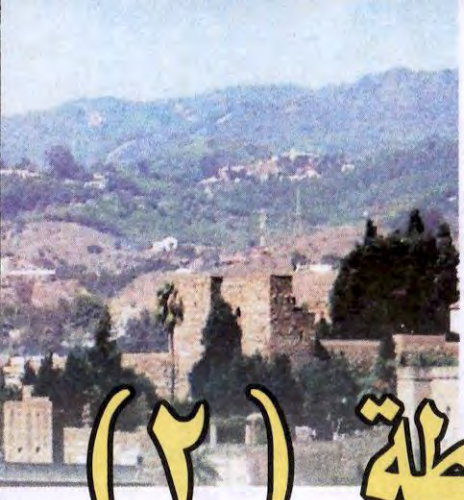

سقوط غرناطة (٢)

إعداد: عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، والذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو سبحانه الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء، والصلاة والسلام على خير بشر أقلَّته الأرض وأظلَّته السماء، وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، أما بعدُ:

فهذا لقاؤنا الثاني عن سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس وبسقوطها (أي: بسقوط غرناطة) انتهت دولة الإسلام في الأندلس، والتي أضاءت أوروبا على مدى ثمانية قرون من الزمان، وترتب على سقوطها آثارٌ وخيمة وقعت على المسلمين في الأندلس وفي غيرها من بلاد المسلمين في شمال إفريقيا، بل وفي العالم بأسره، والموضوع قد يطول ويتشعب بنا، ولذلك سنحاول بعون الله إيجازه في المحاور الآتية:

أولاً: الأسباب التي أدت إلى ظهور غرناطة:

وُلِدَت مملكة غرناطة من رحم المعاناة، والمعاناة التي أقصدها هنا هي التي عبَّر عنها الدكتور عبد الرحمن الحجي بقوله: «قامت مملكة غرناطة بعد أن لاح لمُسْلِمَة الأندلس شبح الفناء، فاعتبروها ملاذًا به يحتمون واليه يلجؤون، وقد هيَّأ الله لهم للنجاة من فناء محقق».(من كتاب التاريخ الأندلسي، بتصرف يسير).

وهذه الظروف والأحوال التي نشأت فيها مملكة غرناطة هي التي جعلتها تستمر على قيد الحياة كمملكة ما يزيد على قرنين ونصف القرن من الزمان؛ مع الصعوبات الجمة التي كانت تحيط بها من الخارج والداخل.

ثانيًا: إطلالة سريعة على الأندلس قبل ظهور مملكة غرناطة:

يُطْلعنا الأستاذ محمود خليل في كتابه «سقوط غرناطة» على أوضاع دولة الموحدين في آخر عمرها، وهي التي كانت تحكم الأندلس قبل السقوط، فيقول: «سقطت دولة الموحدين على يد المرنيين في المغرب الأقصى، وقد نشب صراع على السلطة والمُلك بين أمراء الأندلس، ودخلوا في قتال عنيف لنزع الحصون والقلاع من بعضهم البعض، وكانت مملكة قشتالة النصرانية الإسبانية تتابع ما يدور في أراضي المسلمين بواسطة أجهزة استخباراتها، والتي استطاعت أن تجنِّد رجالاً يعملون لحسابها، فرأت أن الفرصة قد حانت لتوجيه ضربة مميتة للمسلمين في الأندلس، فبدأت هجومها بالفعل، وكان احتلال قرطبة في ٢٣ شوال سنة ٦٣٣هـ/ ٢٩ يوليو ١٢٣٦م.

لقد كان سبب سقوط قرطبة المعاصي والآثام والابتعاد عن منهج الله العظيم، وبالتالي أصابهم الضعف، ودخلوا في الفوضى والنزاع والخلاف، فقادهم ذلك إلى فَقْد الأوطان، ومن ثم ضاعت الحضارة وضاع التراث، وبدأت مدن الإسلام الكبرى تتساقط في يد النصارى، فسقطت بلنسية عام ٦٣٦هـ، ثم شاطبة، ودانية، وفي عام ٦٤٦هـ سقطت إشبيلية، وقد كان سقوط إشبيلية إيذانًا بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية تباعًا، فاستولى النصارى الإسبان على شريس، وشذونة، ودس، وشلوفة، وغليانة، وغيرها، وبهذا بسط القشتاليون

النصارى الإسبان سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية في غرب الأندلس، وانكمشت رقعة الدويلة الإسلامية في الأندلس بسرعة مروعة». اهـ. مختصرًا.

ويلخص لنا صاحب موسوعة المغرب العربي الأسباب الرئيسة لسقوط دولة الموحدين في الأندلس، والتي هي في الحقيقة أسباب سقوط كل دولة قديمًا وحديثًا، فيقول: «والذي يقلب صفحات تاريخ تلك الفترة من الدولة الموحدية، يدرك مدى الخزي والعار الذي لحق بديار المسلمين والاستهانة بكل القيَم والأخلاق من أجل تحقيق مصالح شخصية على حساب العقيدة والشعوب، وهكذا توضع أمور الدولة في يد أشخاص يخونون الله ورسوله وقرآنه ويخونون شعوبهم بعد أن ماتت ضمائرهم، فنجد هنا إدريس المأمون بن المنصور يزحف من الأندلس، ويقرر العبور إلى المغرب، معتمدًا على محالفة بعض العرب ومعاونة قوات مسيحية من جنود قشتالة، يقدر عددها بخمسمائة فارس مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لمملكة قشتالة، وقبوله ببناء كنيسة في مراكش تجاور جامع القرويين، وهكذا دخلت دولة الموحدين في صراع عنيف كلف الموحدين دماءً وأموالاً، وتفككًا داخليًا، وسقطت دولة الموحدين بعد فترة طويلة من الصراع والانحدار والضعف عام ٦٦٨هـ الموافق ١٢٦٩م». اهـ.

ثالثًا: مملكة غرناطة:

في ظل الأوضاع التي سبق بيانها، وسقوط دولة الموحدين وعواصم الأندلس ومدنها مدينة تلو مدينة، وفي غمرة هذه الأحداث التي كان يمكن أن تودي بغرناطة وبكل شبر من أرض الأندلس وُلِدَتْ غرناطة، ويحدثنا الدكتور حجي عن ذلك فيقول: «كانت غرناطة (إغرناطة) في الأصل- قبل الفتح الإسلامي للأندلس- مدينة صغيرة قرب مدينة إلبيرة، وتقع مدينة غرناطة على وادي نهر شنيل أحد فروع الوادي الكبير، ضمن مملكة غرناطة أيام بني الأحمر، الطرف الجنوبي من الجزيرة الأندلسية، هذه المنطقة التي استطاع الاحتفاظ بها نفر من رجال الأندلس بقيادة محمد بن الأحمر مدى قرنين ونصف القرن من الزمان بقية عمر سلطان المسلمين في الأندلس، ولقد عُدَّ من الغرائب استمرار مملكة غرناطة هذه المدة رغم صغرها وقلة عدد سكانها، مُحَافِظَةً على ما بقي من سلطان سياسي للمسلمين ووجود حضاري معطاء». اهـ.

رابعًا: أسباب ثبات غرناطة:

لم يكن من الميسور على مملكة غرناطة البقاء كل هذه المدة قرنين ونصف قرن من الزمان على قيد الحياة، بينما عوامل الفناء والإبادة تحاصرها من كل جانب، حتى لقد كان ذلك مثارًا للدهشة لعديد من الباحثين في التاريخ الحديث، ووجه الغرابة أن دولة بهذا الحجم اليسير من المساحة والأعداد البشرية تواجه القوة العددية والإمكانات الواسعة لدولة إسبانيا النصرانية والمتربصة بمملكة غرناطة تريد أن تنقضَّ عليها في أيِّ لحظة، وتهلك الحرث والنسل، وتبيد خضراءها وتسفك دماء أهلها، وتقضي على البقية الباقية من الإسلام والمسلمين.

ما من شك أن هناك عوامل عدة وراء بقاء مملكة غرناطة ثابتة طيلة هذه المدة أمام عوامل الفناء، ولعل أبرزها ما يلي:

١- عامل العقيدة؛ فالمسلمون في غرناطة رغم ما حلَّ بهم من نكبات لم يفقدوا الإيمان بمصدر قوتهم وينبوع وجودهم ألا وهو الإسلام، فالأمة التي تحيا لا تموت بموت قائد أو ذهاب دولة، وإن كان هذا سببًا خطيرًا وله أهمية، لكن خسارة الأمة في عقيدتها ودينها هو مكمن الخطر الحقيقي والطاقة الكبرى، ذلك ما يسعى إليه خصوم الإسلام، وإليه توجهت سهامهم المسمومة المحمومة في كل زمان ومكان، فكانت نشأة غرناطة على أساس من العقيدة الصحيحة التي تمسَّك بها ولاة الأمر وإن شابها قصور في كثير من الأحيان حتى إذا ضعف الدين ضاعت الدولة.

٢- هناك عامل جغرافي يتمثَّل في عوامل طبيعية محيطة بغرناطة، وبُعدها نوعًا ما -كمكان- من الوقوع في يد العدو الإسباني المتربص، وقرب موقعها من المغرب العربي وعدم وجود خط فاصل يمنعهم من الاستعانة بإخوانهم في الشمال الإفريقي.

٣- كانت غرناطة ملاذًا لجميع المسلمين في الأندلس بعد سقوط دولة الموحدين وسقوط مدن الأندلس مدينة تلو الأخرى، فاجتمع بغرناطة عددٌ هائل من المهارات والكفايات من الرجال والنساء، والذين هم نتاج حضارة الأندلس على مدار العصور وكان منهم علماء في شتى الميادين، ورجال حرب وساسة

وقادة، فكانت غرناطة جامعةً لطاقات أهل الأندلس من كل لون وميدان.

تركزت في هذه البقعة من الأرض ألوان من القدرات ومعادن الهمم التي سمت بأصحابها- بفضل الله- عن الرضوخ لحياة ذليلة على حساب دينها، وعملت من أجل هذه الغاية واستعملت من أجلها كل وسيلة. (راجع: تاريخ الأندلس للدكتور عبد الرحمن الحجي ص٥١٩ وما بعدها).

هذا الذي قدمناه من عوامل الثبات والبقاء مع أهميته لا بد له من وجود قيادة مؤمنة تجمع هذه الطاقات والإمكانات نحو الهدف المنشود، وهذه القيادة تمثلت في مؤسس غرناطة ابن الأحمر- رغم ما شاب سيرته من جنوح عن السبيل أحيانًا، لذا سنعرض فيما يلي لشيء من سيرته، وأهم أعماله بشيء من الاختصار.

خامسًا: ترجمة ابن الأحمر مؤسس غرناطة وشيء من سيرته:

١- هو أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر بن قيس الخزرجي، يرجع نسبه إلى سعد بن عبادة الأنصاري أحد كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان من النقباء شهد العقبة وبدرًا، وُلِدَ محمد بن يوسف في مدينة أرجونة من حصون قرطبة من جهة الشرق سنة ٥٩١هـ الموافق (١١٩٥م) كان جنديًا وافر العزم والجرأة دعا إلى لَمِّ الشمل فاجتمع حوله الكثير، وكانت بيعته لمملكة غرناطة يوم الجمعة ٢٦ رمضان سنة (٦٣٥هـ). وانظر: (غرناطة في ظل بني الأحمر، د. يوسف شكري فرحات ص٣١).

٢- شيء من سيرته:

«كان في أوقات السلم ينصرف إلى شؤون مملكته، فكانت له سلسلة من الأعمال المجيدة: تنظيم الشرطة والقضاء، وتطبيق القوانين العادلة التي وضعها الفقهاء، فشعر الضعيف بالحماية والطمأنينة بعد ما فتح السلطان أبوابه لأصحاب المطالب لتوقي المظالم، فكان قريبًا من شعبه، ويروي المؤرخون أنه كان يتوخى البساطة في المأكل والملبس، فيبدو في مظهره كسائر الناس». اهـ. المصدر السابق.

ويقول فيه لسان الدين بن الخطيب: «كان السلطان ابن الأحمر عظيم التجلد، رافضًا للدعة والراحة، مؤثرًا التقشف، بعيدًا عن التصنع، شديد الحزم قويًا في طلب حقه، مباشرًا للحرب بنفسه يلبس الخشن من الثياب ويؤثر الزهد». اهـ بتصرف يسير.

ونعود إلى الدكتور يوسف شكري فرحات الذي يواصل الحديث عن أخلاق وأعمال ابن الأحمر فيقول: «كانت له أوقات يختلي فيها بنفسه ويتمشى في حديقة القصر بتأمل ويفكر ويقرأ، وكانت تبدو عليه مسحة من الحزن والكآبة، ربما لأنه اضطر أحيانًا إلى محالفة أعداء المسلمين ومعاداة أبناء دينه من العرب والبربر.

من أعمال ابن الأحمر- إلى جانب بناء قصر غرناطة المشهور- أنه أنشأ مأوى للعميان ودارًا للعجزة، وبنى مستشفى كبيرًا ونشر المدارس، وأعد منازل للغرباء دون تميز بين الأديان والقوميات، وكان يتفقد أحوالهم مستترًا بعيدًا عن مظاهرًا الأبهة وعظمة الملك:

وكان يعقد مجلسًا عامًا للناس كل أسبوع، تُرفع إليه التظلمات ويشافهه أصحاب الحاجات وينشده الشعراء، وتدخل إليه الوفود، ويشاور أرباب النصائح في مجلس يحضر به أعيان الحضرة وقضاة الجماعة، كما اهتم بالحياة الاقتصادية فأقام المخازن للحبوب وسائر المواد الغذائية، وكانت توزع بأسعار عادلة». اهـ.

هذه أهم العوامل التي كانت سببًا في بقاء مملكة غرناطة مدة قرنين ونصف من الزمان تصارع أسباب الفناء المحيط بها من الخارج، فلما ضعف الحكام، وابتعدوا بنسب متفاوتة عن شرع الله والتفتوا إلى الصراع على المناصب، وعادى بعضهم بعضًا من أجل الدنيا ووالوا أعداء الله أصابتهم سُنَّة الله في خلقه، فلما تنازعوا واختلفوا ضعفت قوتهم وانكسرت شوكتهم، وسلط الله عليهم أعداءهم، فأخذوا ما في أيديهم وسلبوهم ملكهم، وانتهت دولة الإسلام في الأندلس بسقوط غرناطة، وترتب على ذلك مآس ومخاز، وقعت على المسلمين فيما يعرف في التاريخ بمحاكم التفتيش؛ ذلك السجل الأسود في تاريخ التعصب النصراني المقيت في إسبانيا، ووقعت أمور يندى لها الجبين، وتأسف لها الإنسانية على مر التاريخ، ولم تقع هذه المخازي والمآسي على المسلمين فحسب، بل على اليهود والنصارى الذين يخالفون أهل إسبانيا في المذهب، وقد سطر المؤرخون من النصارى والمسلمين سجلات مليئة بحوادث يشيب لها الولدان يعرفها القاصي والداني، ولا يتسع المجال للحديث عنها في هذه العجالة، والحمد لله على نعمة الإسلام.

سقوط غرناطة (٣)

ماذا بعد السقوط؟

إعداد: عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله مالك الملك؛ يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على البشير النذير محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فنستطيع أن نضع لهذا المقال عنوانًا يدور حوله ألا وهو (ماذا بعد السقوط)؛ أي: ماذا حدث للمسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين هناك.

ويعلم القاصي والداني أنه بسقوط غرناطة انطفأت شمس حضارة المسلمين في الأندلس التي أضاءت العالم بأسْره على مدى قرون، وقد أشرنا إلى ذلك في مقالين سابقين، وفي المقال الثاني ذكرنا أسباب السقوط، وهي أهم الدروس المستفادة؛ لأنها تتكرر في كل زمانٍ ومكان، وهي من سنن الله التي لا تتخلف هبوطًا وصعودًا مع كل أمة، ولذلك سنلخصها الآن قبل الحديث عن(ماذا بعد السقوط).

أولًا: تلخيص لعوامل وأسباب السقوط:

١- الإغراق في التَّرف، والركون إلى الدنيا وشهواتها.

٢- ترك الجهاد في سبيل الله، وهو نتيجة حتمية للإغراق في الترف.

٣- الجرأة على الله ودينه بالإسراف في المعاصي وشيوعها.

٤- الفرقة والتشرذم وموالاة غير المسلمين؛ ومعاداة المسلمين والتباغض بينهم.

٥- توسيد الأمر لغير أهله.

٦- الجهل بالدين.

ونحن نستطيع أن نلخِّص هذه العوامل في عامل واحد ألا وهو (ترك الاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم).

وهنا أذكِّر القارئ الكريم بحديثين من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم:

الأول رواه ابن ماجه وغيره وصححه العلامة الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٠٦) وهو من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال صلى الله عليه وسلم: "يا معشر المهاجرين: خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى

يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذُوا بالسنين وشدة المؤنة وجَورِ السلطان، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعُوا القَطْر من السماء، ولولا البهائم لم يُمطَروا، ولم يَنقضُوا عهد الله وعهد رسوله؛ إلا سلَّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم؛ فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكُم أئمتُهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم".

وقد استدل الإمام ابن القيم بهذا الحديث في الداء والدواء على خطورة المعاصي.

والحديث الثاني: رواه أبو داود عن ابن عمر أيضًا وصححه الألباني برقم (١١) في السلسلة الصحيحة: قال صلى الله عليه وسلم: "إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد سلَّط الله عليكم ذُلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم"؛ فمصدر ذلّ الأمة في الانغماس في الدنيا وترك الجهاد؛ وليس في تربية الماشية والعمل بالزراعة، وإنما المشكلة في ترك الجهاد. والعلاج كما بيَّنه النبي صلى الله عليه وسلم: "حتى ترجعوا إلى دينكم".

ثانيًا: ماذا بعد سقوط غرناطة؟

الآن بعد هذه المقدمة نستطيع أن نرى ماذا حدث للمسلمين في الأندلس بعد سقوط غرناطة بعد أن تنازل الملك محمد الصغير للملكين فرناندو الخامس وإيزابيلا عن مقر الحكم، وعن قصر الحمراء أهم المعالم الإسلامية في غرناطة، مقابل عهود قطعوها على أنفسهم وبمباركة بابا روما (الفاتيكان) قطع الإسبان النصارى على أنفسهم؛ هذه العهود التي ينقلها لنا صاحب كتاب (دولة الإسلام في الأندلس) عن المقري فيقول: "ثم عددوا مطالب وشروطًا أرادوها بمباركة صاحب روما، وكانت الشروط سبعة وستين؛ منها تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وعقارهم ورباعهم؛ ومنها لإقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم، وألا يغصبوا أحدًا وألا يولَّى على المسلمين إلا مسلم أو مَن يتولى من قِبَل سلطانهم أن يطلق سراح جميع أسرى المسلمين، وألا يُؤخذ أحد بذنب أحد، وألا يُكره أحد من المسلمين على ترك دينه...".

إلى آخر الشروط التي تضمن الأمن والأمان للمسلمين وحرية أداء الشعائر وممارستها دون مضايقة من جانب نصارى الإسبان. فهل تحقق شيء من ذلك؟ هذه أبسط حقوق الإنسان.. هل يوفي النصارى بعهودهم التي قطعوها على أنفسهم؟ أم ماذا حدث؟

يجيب عن هذا السؤال صاحب كتاب (قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط) فيقول: "لم يُوَفِّ النَّصارى بعهودهم مع المسلمين، بل تنكَّروا لكل ما قالوه، وبعد تسع سنوات من سقوط غرناطة، وفي سنة (١٥٠١م) أصدر الملكان فرناندو الخامس وإيزابيلا أمرًا كان خلاصته أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة (المسلمين)؛ فإنه يُحظَر وجود المسلمين فيها، فإذا كان فيها بعضُهم فإنه يُحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم؛ خوفًا أن يتأخر تنصيرهم أو بأولئك الذين تنصروا لئلا يفسدوا إيمانهم، ويعاقب المخالفون بالموت أو بمصادرة الأموال".

وقد ترتب على ذلك أمور عظام، كان منها:

١- التنصير والتهجير: من خرج وهاجر من البلاد فقد نجا بنفسه ودينه، ومن بقي فلا يمكن أن يبقى مسلمًا بل لا بد أن يتنصَّر.

ويقول المقري صاحب (نفح الطيب): "وهؤلاء لم يرتض لهم النصارى الإسبان بالنصرانية، فلم يتركوهم دون إهانة، وقد سموهم (بالموريسكيين)؛ احتقارًا لهم، وتصغيرًا من شأنهم فلم يكن الموريسكي نصرانيًّا من الدرجة الأولى؛ لكنه كان تصغيرًا لهذا النصراني الأصيل".

وينقل لنا الدكتور الدجاني عن الدوق لورنتي

مؤرخ ديوان التحقيق الإسباني (محاكم التفتيش) وثيقة من أغرب الوثائق القضائية؛ تضمنت طائفة من القواعد والأصول للتعامل بها مع العرب المتنصرين في تهمة الكفر والمروق (يعتبر الموريسكي أو العربي المتنصِّر قد عاد إلى الإسلام في الحالات الآتية: "إذا امتدح دين محمد أو قال: إن يسوع المسيح ليس إلهًا وليس إلا رسولًا، أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه. ويجب على كل نصراني أصيل أن يبلغ عن ذلك. ويجب عليه أن يبلغ أيضًا عما إذا كان قد رأى أو سمع أن أحدًا من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية؛ ومنها أن يأكل اللحم يوم الجمعة، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثيابًا أنظف من ثيابه العادية، أو أن يستقبل المشرق قائلًا باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أن يأكل لحمًا لم تُذبح (تُزكى) بالطريقة الإسلامية، أو يختن ولده أو يسميهم بأسماء عربية أو يقسم بآيات القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، أو لا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور)، أو يمتنع عن أكل الخنزير وشرب الخمر أو يقوم بالوضوء والصلاة، بأن يوجه وجهه نحو الشرق، ويركع ويسجد ويتلو سور القرآن". اهـ مختصرًا (من كتاب دولة الإسلام في الأندلس).

٢- محاكم التفتيش:

ويحدثنا الأستاذ شوقي أبو خليل في كتاب (مصرع غرناطة) عن لون آخر من العذاب الذي تشيب له الولدان وتقشعر منه الجلود فيقول: " لم يقف الأمر عند حدّ التهجير والتنصير الذي مُورِسَ ضد المسلمين إنما أعقب ذلك أن قام الكردينال الإسباني كمنسي بحرق ثمانين ألف كتاب جُمِعَت من غرناطة وما جاورها في يوم واحد"، ثم يواصل حديثه قائلا: "ثم أنشأ الإسبان بعد ذلك ما عُرِفَ في التاريخ بمحاكم التفتيش؛ وذلك للبحث عن المسلمين الذين ادعوا النصرانية، وأخفوا الإسلام؛ كأن يجدوه يصلي أو وجدوا في بيته مصحفًا أو كان لا يشرب الخمر، أقاموا عليه الحدود المغلظة، فكانوا يلقون بهم في السجون، ويعذبونهم عذابًا لا يخطر على بال بشر، فكانوا يملؤون بطونهم بالماء حتى الاختناق، وكانوا يضعون في أجسادهم أسياخًا محمية، وكانوا يسحقون عظامهم بآلات ضاغطة، وكانوا يمزقون الأرجل، ويفسخون الفك، وكانوا يضعونهم في معلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جسم المعذَّب بل كانوا يقطعون ألسنتهم بآلات خاصة ويقومون بدفنهم أحياء.

ولم يكتف نصارى إسبانيا بمحاكمة الأحياء من المسلمين، بل حاكموا الأموات أيضًا فكانوا ينبشون قبورهم ويستخرجون رفاتهم ويحرقونه، وكانوا يصادرون أموالهم، بل كانت تتعدى العقوبة إلى أبنائهم وأسرهم فيقضى بحرمانهم من تولي الوظائف العامة، وامتهان بعض المهن الخاصة" (انظر: محمد عبدالله عنان - دولة الإسلام في الأندلس ٣٣٨/٧).

ثالثًا: وشهد شاهد من أهلها:

ينقل لنا الأستاذ علي مظهر في كتاب "محاكم التفتيش" شهادة أحد ضباط الحملة الفرنسية، والتي توجهت إلى هناك بأوامر من نابليون بونابرت حيث أصدر مُرسومًا سنة (١٨٠٨م) مع حملته المتوجهة إلى إسبانيا في ذلك التاريخ بإلغاء (دواوين التفتيش - محاكم التفتيش) التي كانت مضرب المثل في القهر والظلم والتعذيب، وهذه شهادة الكولونيل لبموتسكي أحد ضباط الحملة الفرنسية يقول: "وهبطت على درج السلم -تحت الأرض- يتبعني سائر الضباط والجنود شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج فإذا نحن في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهم قاعة المحكمة في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، وربطوا بها سلاسل من أجل تقييد المُحاكَمين بها. وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس المحكمة والقضاة لمحاكمة الأبرياء، ثم توجهنا إلى غرفة التعذيب وتمزيق الأجساد البشرية والتي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض".

ويواصل الكولونيل حديثه فيقول: "رأيت في هذه الغرف ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والتقزز طوال حياتي. رأينا غرفًا صغيرة في حجم الإنسان مصنوعة من الحديد بعضها عمودي، وبعضها أفقي فيبقى سجين الغرف العمودية واقفًا على قدمه حتى يموت، ويبقى سجين الغرف الأفقية ممددًا حتى يموت، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نوافذ صغيرة إلى الفضاء الخارجي.

وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية مازالت في أغلالها.

كان السجناء رجالًا ونساءً تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة إلي السبعين، وقد استطعنا إنقاذ عددًا من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم، وهم في الرمق الأخير من الحياة، كان بعضهم أصابه الجنون من كثرة ما صبُّوا عليهم من العذاب، وكان السجناء جميعًا عرايا، حتى اضطر جنودنا إلى خلع أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء، وأخرجناهم إلى النور تدريجيًّا حتى لا تذهب أبصارهم، وكانوا يبكون فرحًا، وهم يقبلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهدًا تبكي منه الصخور".

ويواصل الكولونيل حديثه فيقول: "ثم انتقلنا إلى غرف أخرى فرأينا فيها ما تقشعر منه الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب؛ منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري كانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيًّا حتى يُهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب كتلة من العظام المسحوقة والدماء الممزوجة باللحم المفروم، وهكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين".

أكتفي بهذا القدر من شهادة هذا الرجل الذي استنكر هو ومن معه هذه الجرائم البشعة التي تستنكرها الفطرة الإنسانية السليمة وتأباها شرائع الحق، وتأمل كيف كان يردد الرجل كلمة الأبرياء؛ فالذين يُمَارَس معهم هذا العذاب البشع لم يرتكبوا جرمًا ضد أحد ولم تكن جريمتهم سوى أنهم قالوا "ربنا الله".

والمؤسف أن هذه الجرائم كانت تتم في أقبية الأديرة والكنائس وتحت الأرض؛ أي: كان يتم تنفيذ هذه المجازر في أماكن المفترض أنها للعبادة، وكان يقوم بها القساوسة والرهبان باسم الدين وباسم يسوع المسيح، والله والمسيح بريئان من هذه الوحشية وهذا التعصب البغيض، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والحمد لله على نعمة الإسلام الذي هو الصراط المستقيم، ونعمة بعثة النبي الأميّ الذي أرسله الله رحمة للعالمين.

والذي ذكرته عن محاكم التفتيش وعن ما حدث للمسلمين قليل جدًّا ومختصر لما ذُكرَ في كتب النصارى قبل المسلمين، فأين هذا من الإنسانية، ومن مراعاة حقوق الإنسان فضلاً عن سماحة الإسلام التي تحتاج إلى مقالات كثيرة لشرح بعض مظاهرها، ويشهد بذلك الأعداء قبل الأصدقاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين،

عزاء واجب

توفي إلى رحمة الله تعالى فضيلة الشيخ محمد عبد المجيد عرفة تعلب، الرئيس السابق لفرع أنصار السنة بكمشيش بمحافظة المنوفية، يوم الجمعة الموافق ١٢ جمادى الأولى ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩/١/١٨م عقب أدائه صلاة العشاء.

نسأل الله له المغفرة والرحمة ولأهله الصبر والسلوان.

دروس من غزوة تبوك

إعداد عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله الذي له مقاليد السماوات والأرض، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على البشير النذير وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فموضوعنا اليوم مستفاد من غزوة تبوك ومن تعقيبات القرآن الكريم على هذه الغزوة، وسورة براءة أو سورة التوبة جل حديثها عن غزوة تبوك؛ فقد نزلت السورة تواكب هذه الغزوة العظيمة عند الإعداد لها وفي أثنائها، وبعد عودة النبي صلى الله عليه وسلم وجيشه المبارك الميمون منها، وهكذا عادة القرآن حين يواكب مسيرة الدعوة موجهًا ومرشدًا ومثبتًا للعزائم ومثنيًا على الجهود الصادقة، ومبينًا الأخطاء التي وقعت وداعيًا إلى تلاشيها في المستقبل وفاضحًا خبايا قلوب المنافقين، وما انطوت عليه من حقد دفين على الإسلام والمسلمين ومحذرًا من مسالكهم الملتوية وموالاتهم لأعداء الإسلام، ونحن قد سبق لنا الحديث عن غزوة تبوك التي وقعت في العام التاسع الهجري وكانت بدايتها في شهر رجب من ذلك العام، وتحدثنا عن أسبابها ونتائجها وبعض الدروس المستفادة منها.

لكن حديثنا اليوم مع التعقيب القرآني الكريم على أحداث هذه الغزوة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (التوبة:١١٩).

وهذا نداء وأمر للأمة الإسلامية بأسرها منذ فجر الدعوة إلى أصحاب النبي وإلى المسلمين في كل زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهذا التوجيه القرآني يشمل أمرين:

١- تقوى الله.

٢- أن يكونوا مع الصادقين.

والصدق لا شك من أهم صفات المتقين، لكن القرآن الكريم أفرده هنا لبيان أهميته ومكانته، ولاحظ قوله تعالى: (كونوا مع الصادقين)، ولم يقل: كونوا صادقين، والمقصود من ذلك أن القرآن أعطانا أمثلة واقعية للصادقين في هذه الغزوة، وطلب منا أن نكون مثلهم، وأن نتأسى بهم؛ فهذه أمثلة عملية وقدوة حسنة علينا أن نتأسى بهم.

والصادقون الذين أشارت إليهم الآية هنا ثلاث فئات:

١- الفئة الأولى:

هم الذين صدقوا في بيع أنفسهم وأموالهم لله كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

ٱلْعَظِيمُ) (التوبة: ١١١).

ومما لا شك فيه دخول الذين شاركوا وسارعوا للمشاركة في غزوة تبوك بأموالهم وأنفسهم أمثال أبي بكر رضي الله عنه الذي شارك بماله ونفسه، وجاء بماله كله ووضعه أمام النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي: (ما تركت لأهلك؟) قال: تركت لهم الله ورسوله.

فقبل منه النبي؛ لأنه يعلم درجة إيمان أبي بكر وصدقه.

وجاء عمر بنصف ماله، والحديث عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق (أي: في غزوة تبوك)، فوافق ذلك مالاً عندي. فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا. قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما أبقيت لأهلك؟) قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده فقال: (يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك؟) قال: أبقيت لهم الله ورسوله، فقلت: والله لا أسبقه إلى شيء أبدًا). (والحديث رواه أبو داود، والترمذي، وحسنه الألباني).

وكذلك جاء عبدالرحمن بن عوف بألفي درهم وهي نصف ماله، وجاء في سنن الترمذي من حديث عبدالرحمن بن سمرة أن عثمان رضي الله عنه جاء بألف دينار من الذهب فنثرها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم. هذا غير ما أعدّه من العتاد والسلاح. وغيرهم كثير تسابقوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله.

وينسحب هذا الوصف على كل من شارك في غزوة تبوك بنفسه وماله، كذلك ينسحب على المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا وينصرون الله ورسوله، وهم الذين ذكرهم الله سبحانه في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (سورة الحشر: ٨).

ويدخل في هذا الوصف من عرّفهم الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ (الحجرات: ١٥).

وهذا حالهم عند النفير للجهاد والمشاركة فيه بالنفس والمال، وفي حال السلم استقاموا على منهج الله كما وصفهم سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ١١٢).

هؤلاء هم الفئة الأولى من الصادقين، وقد أثنى الله سبحانه عليهم بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٠).

وأنت تلاحظ أن هذه الفئة ممتدة من جيل الصحابة رضي الله عنهم إلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

٢-الفئة الثانية: المستحقة لوصف الصدق في تبوك، وهم أولئك الذين نزل فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴾ (التوبة: ٩٢)؛ فهؤلاء الذين لا يجدون ما ينفقون في سبيل الله، ولا يملكون عتادًا ولا وسيلة تنقلهم من المدينة إلى تبوك، وهي مسافة طويلة، ولم يكن عند النبي صلى الله عليه وسلم ما يحملهم عليه من خيل ولا ركاب فتولوا يعصرهم الحزن والألم من حرمانهم من المشاركة في الجهاد؛ فهؤلاء بإخلاصهم وصدق نواياهم شاركوا المسلمين المجاهدين فعلاً وهم الذين أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله فيما رواه البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: "رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: إِنَّ أَقْوَامًا خَلْفَنَا بِالمَدِينَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلاَ وَادِيًا إِلاَّ وَهُمْ مَعَنَا، حَبَسَهُمُ العُذْرُ"

فهؤلاء بإخلاصهم لله ونياتهم الصالحة شاركوا المجاهدين في الأجر؛ بسبب عدم استطاعتهم الذهاب معهم، فهم شاركوا المجاهدين في الأجر كأنهم معهم. وهكذا كل صادق في نيته نوى خيرًا ولم يستطع فعله بسبب خارج عن إرادته.

٣- الفئة الثالثة:

من الصادقين الذين أمرنا الله أن نكون منهم

هؤلاء الثلاثة الذين ذكرهم الله سبحانه في قوله:

(وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ) (التوبة: ١١٨).

وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. وقد تخلفوا عن الغزوة كسلاً دون أن يكون عندهم عذر مقبول، لكنهم لم يفعلوا كما فعل المنافقون حين جاؤوا إلى رسول الله بأعذار كاذبة ويحلفون الأيمان الكاذبة، وينتحلون المعاذير لرسول الله عن سبب تخلفهم، فأعرض عنهم النبي صلى الله عليه وسلم وترك حسابهم على الله، وقد نزل فيهم قوله تعالى: (يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ) (التوبة: ٩٤).

وهكذا فضحت السورة كذب المنافقين، وكشفت ما كمن في صدورهم، ولذلك كان من أسمائها (الفاضحة). أما هؤلاء الثلاثة من المؤمنين فلم يكذبوا الله ورسوله وصدقوا وبينوا؛ لأنهم يعلمون أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهكذا يروي كعب بن مالك فيما اتفق عليه الشيخان يروى قصته في حديث طويل نقتطف منه جزءًا يسيرًا بعد أن نزلت البشرى من الله بالتوبة عليه وعلى صاحبيه بعد خمسين يومًا من الابتلاء، وقد اعتزلهم مجتمع المدينة بأسره بأمر النبي حتى تم التفريق بينهم وبين زوجاتهم. وجاء مالك بعد أن نزلت توبته من الله في الآيات التي سبق ذكرها جاء مالك ليسلم على النبي ويسمع منه مشافهة قال: " فَانْطَلَقْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِد وَحَوْلَهُ الْمُسْلِمُونَ وَهُوَ يَسْتَنِيرُ كَاسْتِنَارَةِ الْقَمَرِ، وَكَانَ إِذَا سُرَّ بِالْأَمْرِ اسْتَنَارَ، فَجِئْتُ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا كَعْبُ بْنَ مَالِك بِخَيْرِ يَوْم أَتَى عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ. فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَمِنْ عِنْدِ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِكَ؟ قَالَ: بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

ثُمَّ تَلَا هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ «لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ «حَتَّى بَلَغَ» إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» قَالَ: وَفِينَا أُنْزِلَتْ أَيْضًا «اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» قَالَ: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا وَأَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي كُلِّهِ صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. فَقُلْتُ فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِيَ الَّذِي بِخَيْبَرَ، قَالَ: فَمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ نِعْمَةً بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ صَدَقْتُهُ أَنَا وَصَاحِبَايَ، وَلَا نَكُونَ كَذَبْنَا فَهَلَكْنَا كَمَا هَلَكُوا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا يَكُونَ اللَّهُ أَبْلَى أَحَدًا فِي الصِّدْقِ مِثْلَ الَّذِي أَبْلَانِي مَا تَعَمَّدْتُ لِكَذِبَةٍ بَعْدُ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ".

وهكذا كل من وقع منه تقصير أو قارف ذنبًا صغيرًا كان أو كبيرًا، ثم صدق مع الله في توبته فهو يدخل تحت مسمى الصادقين؛ لأن الله سبحانه وتعالى وصف المتقين بقوله: (وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ) (آل عمران: ١٣٥- ١٣٦).

وهكذا حال المؤمن في كل حالاته؛ يَصْدُق الله في جهاده، وفي نيته، وفي توبته، في قوله وعمله، وفي كل أحواله؛ متأسيًا بأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، وقد وجَّه الله عباده إلى استشعار حالة الصدق والثبات عليها في كل أوقاتهم، ومعنى هذا ألا يكونوا من المنافقين؛ لأن المنافقين هم أكذب الخلق وهم الذين يعادون الله ورسوله ويعادون المؤمنين ويوالون أعداء الله في كل زمان ومكان فنحن نعوذ بالله من ذلك ونسأله أن نكون ممن قال الله فيهم: (مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا كُلِّ) (الأحزاب: ٢٣).

والحمد لله رب العالمين.

من الأحداث الهامة في حياة الأمة

تحويل القبلة

إعداد: عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيين، مَن بعثه ربُّه شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

أما بعد: فإنَّ حادث تحويل القبلة من بيت المقدس في الشام إلى الكعبة المشرفة في بيت الله الحرام بمكة المكرمة كان من الأحداث الفارقة في حياة هذه الأمة التي اختارها لتكون شاهدة على الأمم، ويكون الرسول شاهدًا على الجميع، وهذا الحادث يدُلُّ على تميُّز هذه الأمة وخصوصيتها وريادتها وقيادتها للأمم.

وسنحاول بعون الله وتوفيقه توثيق هذا الحدث، والحديث عنه كالآتي:

أولاً: توثيق التاريخ الصحيح للحدث من خلال أقوال المؤرخين الثقات الذين اعتمدوا في توثيقهم للروايات الصحيحة على أقوال الصحابة والتابعين والذين استقوها بدورهم من الأحاديث الصحيحة التي رواها الإمامان الجليلان البخاري ومسلم وغيرهما.

ثانيًا: الحديث حول الآيات القرآنية التي واكبت الحدث قبله وأثناءه وبعده، والاستشهاد بأقوال أهل العلم الأثبات.

ثالثًا: نستخلص الدروس والعبر والفوائد النافعة التي ننتفع بها -إن شاء الله- في حاضرنا ومستقبلنا في عقيدتنا وأخلاقنا ومعاملاتنا.

نستعرض الموضوع في النقاط التالية:

١- تاريخ تحويل القبلة:

قال الدكتور أبو شهبة رحمه الله: «وقد كان التحويل من بيت المقدس إلى الكعبة في منتصف شهر رجب على الصحيح، وبه جزم جمهور العلماء». ثم قال رحمه الله: «وذهب البعضُ إلى أن التحويل كان في نصف شعبان وهو قول ضعيف». (السيرة النبوية ج٢، ط دار القلم).

قال ابن كثير رحمه الله : كان تحويل القبلة في سنة اثنتين من الهجرة قبل وقعة بدر، وقال بعضهم: كان ذلك في رجب من سنة اثنتين، وبه قال: قتادة، وزيد بن أسلم، وهو رواية عن محمد بن إسحاق.

وهو ظاهر حديث البخاري الذي رواه البراء بن عازب رضي الله عنه، ويقال: صُرفت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهرًا من مَقْدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وحكى هذا القول ابن جرير عن طريق السدِّي.

ثم نقل ابن كثير قولاً عن محمد بن سعد الواقدي أنها حُوِّلت يوم الثلاثاء النصف من شعبان، ثم عقب بقوله: «وفي هذا التحديد نظر، والله أعلم». اهـ مختصرًا من البداية والنهاية (٣/٢٥١)، طبعة الريان.

قال ابن إسحاق: ولما صُرفت القبلة عن الشام إلى

الكعبة وصُرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهرًا من مَقْدَم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة. اهـ «سيرة ابن هشام» (٢/١٩١)، ط دار الصحابة بطنطا.

٢- بعض الأحاديث الصحيحة التي توثق تحويل القبلة وكيفيته، وشيء من فقه هذه الأحاديث:

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه: أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَوَّلَ مَا قَدِمَ الْمَدِينَةَ نَزَلَ عَلَى أَجْدَادِهِ- أو قال: وَأَخْوَالِهِ- مِنَ الْأَنْصَارِ وَأَنَّهُ صَلَّى قِبَلَ (اتجاه) بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ (يعني المسجد الحرام)، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا صَلَاةَ الْعَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ مَسْجِدٍ وَهُمْ رَاكِعُونَ فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ».(البخاري: ٤١) ومسلم.

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: بَيْنَمَا النَّاسُ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِقُبَاءٍ؛ إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أُنْزِلَ عَلَيْهِ اللَّيْلَةَ (يعني قرآنًا)، وَقَدْ أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ فَاسْتَقْبِلُوهَا، وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ.) البخاري: ٤٠٣، ومسلم: ٥٢٦).

١- قد يتوهم البعض أن بين هذه الأحاديث تناقضًا أو اختلافًا؟!

الجواب: لا، ولكن الأحاديث تتكلم عن حادثتين منفصلتين في الزمان والمكان، فخبر وصل إلى أهل مسجد في صلاة العصر، وأهل مسجد آخر في صلاة الفجر، فالمسجد الذي وصله الخبر في صلاة العصر هو المسجد المسمى بمسجد القبلتين، وهو أقرب نسبيًا إلى المسجد النبوي، والمسجد الذي وصله الخبر في صلاة الفجر هو مسجد قباء، وهو أبعد نسبيًا عن المسجد النبوي، وكان ذلك الوقت يعتبر خارج المدينة النبوية.

٢- ومن فقه الأحاديث التي مرَّت بنا أن فيها حجة لمن اعتمد خبر الواحد، وعمل به في العقائد والأحكام؛ لأن الذي أبلغ خبر تحويل القبلة لأهل القبلتين، ولأهل مسجد قباء هو شخص واحد فاستجاب له الصحابة دون تردد سواء في مسجد القبلتين أو مسجد قباء.

٣- وأيضًا مما يستفاد من الأحاديث ومن الآيات التي نزلت في تحويل القبلة: أن توجُّه النبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس لم يكن باجتهاد من النبي صلى الله عليه وسلم طمعًا منه في إسلام اليهود كلا، بل كان بأمر من الله، والدليل واضح، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقلب وجهه في السماء ويرجو ربه أن يولِّيه تجاه الكعبة، وكذلك كان أصحابه رضي الله عنهم جميعًا.

ثالثًا: حديث القرآن الكريم عن تحويل القبلة:

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تحت عنوان (تحويل القبلة) من قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ (البقرة١٠٦) إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة١٥٠): "وتأمل حكمة الله الباهرة في توجيه القبلة أولاً إلى بيت المقدس حيث كانت قبلة الانبياء قبله صلوات الله عليهم جميعًا، فبعث الله رسوله النبي الأمي بما بعث به الانبياء قبله، وبما يعرفه أهل الكتاب فكان استقبال بيت المسجد مقررًا لنبوته، وأن دعوته هي دعوة الرسل بعينها، وليس بدعًا، ولا مخالفًا لهم، بل مصدقًا لهم مؤمنًا بهم، فلما استقرت أعلام نبوته في القلوب، وقامت شواهد صدقه من جهة، ولم يكن إنكار اليهود لرسالته صلى الله عليه وسلم إلا كبرًا وحسدًا وعنادًا وبغيًا، ولما كانت المصلحة له ولأمته أن يستقبلوا الكعبة البيت الحرام أفضل بقاع الأرض وأحبها إلى الله وأعظم البيوت وأشرفها وأقدمها؛ أمر الله النبي والمؤمنين معه بالتحول إليه، وقد تقدم هذا الأمرَ أمورٌ كالمقدمات إليه؛ لعظم شأنه فذكر الله النسخ أولًا؛ وأنه سبحانه إذا نسخ آية أو حكمًا أتى بخير منه أو مثله، وأنه سبحانه على كل شيء قدير، وأنه له ملك السماوات والأرض" انتهى بتصرف يسير من كتاب بدائع التفسير ج١ ص٣٦٠ ط دار الجوزي.

والذي ذهب إليه ابن القيم رحمه لم يذهب إليه وحده، بل شاركه فيه جمعٌ من أهل التفسير قبله وبعده، وقد روى الحاكم وصححه (٣١١٤) (عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "أول ما نسخ من القرآن فيما ذكر لنا شأن القبلة"، وقال ابن عبد البر في الاستذكار: "وقد أجمع العلماء على أن أول ما نُسِخَ من القرآن شأن القبلة)، وقال القرطبي رحمه الله: (وأجمع العلماء على أن تحويل القبلة أول نَسْخ في الإسلام). الجامع لأحكام القرآن.

هذا وقد علم الله سبحانه ما سيكون في أمر تحويل القبلة من فتنة ومحنة للمسلمين وفتح باب لأعداء الإسلام ليدخلوا منه ويثيروا الهمز واللمز في أوساط المجتمع المسلم، فقال سبحانه: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا)، قال الشيخ السعدي رحمه الله في تفسيره: "قد اشتملت هذه الآية على معجزة وتسلية وتطمين قلوب المؤمنين واعتراض وجوابه"، وهو يقصد رحمه الله بالمعجزة أن الآية أخبرت عن أقوال السفهاء الذين اعترضوا على تحويل القبلة، وقالوا على الله بغير علم قبل أن يقولوه وقبل أن يقع التحويل، وهذا يُفهَم من صيغة الفعل المضارع المسبوقة بالسين الدالة على الاستقبال مع الفعل المضارع الدال أيضًا على الاستقبال، فيكون المقصود علم الله الشامل بما كان وسيكون، وهذه هي المعجزة التي يقصدها الشيخ رحمه الله، وفيها تحصين للمجتمع المسلم ضد الشائعات المتوقعة، وفيها جواب على الشبه المغرضة الضالة المضلة، ومن هنا جاء حديث القرآن قبل تحويل القبلة تمهيدًا لهذا الحدث العظيم بما يناسبه.

وسنحاول فيما يلي تلخيص ما اشتملت عليه الآيات التي نزلت حول هذا الموضوع وأحاطت به من كل جانب إتمامًا للفائدة وتجنبًا للإطالة:

١- ردت الآيات شبهات اليهود حول زعمهم عدم نسخ شريعتهم، وأن هدفهم من ذلك ليس الحق بل هو الكفر والعناد والكذب على الله وعلى الناس.

٢- وأنهم يودون رد المسلمين عن دينهم إن استطاعوا.

٣- والحقيقة التي لا جدال فيها أن الله اختار هذا الرسول النبي الأمي الذي هو مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، واختار أمته وجعلها أمة وسطًا عدولاً يشهدون للأمم، وعلى جميع الأمم من لدن نوح إلى قيام الساعة، وسيشهدون عليكم أيها اليهود أنكم انحرفتم عن ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين، وانحرفتم عن منهج الأنبياء عمومًا، وكفرتم بعيسى الذى جاء مصدقًا لما معكم ومبشرًا بمحمد وبكتابه.

٤- وأهم ما يستفاد من ذلك أن العبرة ليست بالتوجه إلى المشرق أو المغرب، لكن المقصود هو طاعة الله ورسوله، ولذلك قال الله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ) (البقرة: ١٤٣). فالتوجه المقصود إنما هو لأمر الله وطاعة لرسوله صلى الله عليه وسلم، ولذلك صار التوجه للكعبة بعد أن أمر الله به شرطًا من شروط صحة الصلاة.

٥- التوجه الى البيت الحرام هو بأمر الله والتوجه إلى المسجد الأقصى أيضًا بأمر الله والمسجد الحرام.

٦- في أمر الله للنبي صلى الله عليه وسلم التوجه إلى المسجد الأقصى أولاً حكمة أن يجمع الله لنبيه القبلتين والمسجدين، وهما لإبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم وأمته هم ورثة إبراهيم عليه السلام في دينه وفي قبلتيه ومسجديه.

٧- وعلى هذا فليس لليهود حق شرعي، ولا حق تاريخي في بيت المقدس؛ لأنهم تخلوا عن دين إبراهيم، وانحرفوا عن دين جميع الأنبياء.

٨-على الأمة المسلمة اليوم أن تستشعر مسؤوليتها عن المسجد الأقصى الذي هذه مكانتهرزقني الله وإياكم الثبات على دينه حتى نلقاه،

والحمد لله رب العالمين.

الحلقة الأولى

وقفات مع غزوة أحد

إعداد: عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلي الله عليه وسلم.

الحمد لله عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون. والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المرسلين ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فحديثنا اليوم حول غزوة أُحُد وما أدراك ما أحد؟! إنها غزوة اجتمع فيها ما يحبه المؤمنون بجانب ما يكرهون، وبرز فيها النفاق في أحطّ صوره، وتجلت فيها صور الإيمان الصادق حيثُ تتمكن بشاشته من القلوب.

غزوة أحد التي وقعت في العام الثالث الهجري، وفي شهر شوال بالتحديد بعد غزوة بدر بعام واحد، جاء المشركون بخيلهم ورَجْلهم، برجالهم ونسائهم في ثلاثة آلاف مقاتل حتى يثأروا لما أصابهم في بدر.

وخرج المسلمون للدفاع عن دينهم وعن أنفسهم وعن مدينتهم، والتقى الجمعان حول جبل أحد على مشارف المدينة النبوية، وكان حول النبي صلى الله عليه وسلم في أول الأمر ألف جندي من المهاجرين والأنصار، رجع منهم ثلاثمائة من المنافقين مع ابن سلول بعدما وصلوا إلى ميدان المعركة، وكان لهذا أثره السيئ على نفوس البعض قبل بدء المعركة، وبقي سبعمائة مقاتل خاض بهم النبي صلى الله عليه وسلم هذا اللقاء، ودارت المعركة، وحديثنا بعون الله سينتظم في النقاط التالية:

الأولى: نظرة عامة عن حديث القرآن عن أحد:

أطال القرآن الكريم النَّفَس في الحديث عن غزوة أحد، وحين يتحدث القرآن فهو حديث علام الغيوب الذي يكشف بواطن الأمور فضلاً عن ظواهرها، ويكشف مكامن القلوب، وهذا الذي يتميز به القرآن عن غيره من الحديث كما أنه باقٍ إلى قيام الساعة يذكّر المسلمين في كل زمان ومكان أنه ما من خير أو شر يقع في الأرض أو في النفوس إلا في كتاب فلا يقع إلا بعلم الله وبحكمته التي تخفى على كثير من الناس. قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد: ٢٢-٢٣). وعلى ذلك فلله على عباده عبودية في السراء كما له عبودية في الضراء، وأن حكمة الله قضت أن ما يصيب الناس من خير فهو برحمة الله وفضله، وأن ما يصيبهم من شر فهو من أنفسهم وهو بعدل الله؛ فالجزاء من جنس العمل.

الوقفة الثانية: ما أصاب المسلمين في أحد هو بسبب مخالفتهم:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٦٥)، في هذه الآية الكريمة إشارة إلى أن نعمة الله على المؤمنين بنصرهم يوم بدر وقتلهم سبعين من المشركين وأسرهم مثلهم،

ولذلك جمع الله في الحديث القرآني بين غزوتي بدر وأحد ليذكر المؤمنين بنعمة الله عليهم في بدر ثم ذكرهم بما غفلوا عنه أن ما وقع في أحد بسبب معصيتهم لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمقصود هنا مخالفة الرماة لأمر رسول الله حين تركوا مواقعهم قبل أن يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخالفوا أمر قائدهم عبدالله بن جبير الذي ذكرهم بوصية رسول الله لهم بعدم ترك مواقعهم مهما يكن من أمر.

وقد فصلت الآيات هذا الموقف في مكان آخر حيث قال -سبحانه-: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٢)، تتحدث الآية هنا عن انتصار المسلمين في أول المعركة حين استبسلوا في قتال بطولي سجل فيه أبطال الإسلام صورًا رائعة في البطولة والشجاعة وسجل التاريخ روائع بطولات حمزة بن عبدالمطلب ومصعب بن عمير وأبو دجانة وأبو طلحة الأنصاري وسعد بن أبي وقاص ونسيبة بنت كعب المازنية رضي الله عنهم جميعًا وغيرهم كثير، وحقق المسلمون النصر بفضل الله ورحمته.

روى البخاري رقم ٣٠٣٩ في كتاب الجهاد: (أن الرماة لما رأوا الهزيمة التي حلَّت بقريش وأحلافها ورأوا الغنائم في أرض المعركة جذبهم ذلك إلى ترك مواقعهم ظنًا منهم أن المعركة قد انتهت، فقالوا لأميرهم عبدالله بن جبير: الغنيمة الغنيمةَ ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبدالله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله-صلى الله عليه وسلم-؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة).

الوقفة الثالثة: ما ترتب على هذه المخالفة:

هذه المخالفة التي وقعت من عدد يسير من الرماة ماذا ترتب عليها؟

ذكر أحمد في مسنده برقم ٢٦٠٨: (ثم انطلقوا ولم يعبؤوا بقول أميرهم، ووصف ابن عباس-رضي الله عنهما- حالة الرماة في ذلك الموقف فقال: فلما غنم النبي - صلى الله عليه وسلم- وأباحوا عسكر المشركين، أكبَّ الرماة جميعا فدخلوا في المعسكر ينهبون وقد التقت صفوف أصحاب الرسول الله- صلى الله عليه وسلم- فهم كذا (وشبك بين أصابع يديه) والتبسوا، فلما تركَ الرماة تلك الثغرة التي كانوا فيها دخل المشركون من ذلك الموضع على أصحاب النبي فاضطربت صفوفهم فضرب بعضهم بعضًا والتبسوا وقُتل من المسلمين ناس كثير)هـ.

تأمل أخي القارئ كيف أدى ترك الرماة لمواقعهم وتركهم للثغرة التي كانوا عليها فاستطاع العدو أن ينفذ منها ويلتف حول المسلمين من الخلف مما أدى إلى اضطراب صفوف المسلمين، وتمكن المشركون من إعمال القتل في المسلمين بعد أن فقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيط متفرقين بل فقدوا التمييز بينهم وصار بعضهم يقتل بعضًا واختلط الحابل بالنابل، وفقد المسلمون اتصالهم بالنبي - صلى الله عليه وسلم- بل أشيع أنه قد قتل، واشتدت حرارة القتال وصار المشركون يقتلون كل من يلقون من المسلمين، واستطاعوا كذلك الخلوص قريبًا من النبي -صلى الله عليه وسلم- وقذفوه بحجر كسر أنفه الشريف وإحدى أسنانه الأمامية، وشجّ وجهه الكريم، وانفجر الدم منه صلى الله عليه وسلم.

وحمل ابن قمئة على مصعب بن عمير -رضي الله عنه- حيث كان شديد الشَّبَه بالنبي صلى الله عليه وسلم فقتله وقال لقريش: إنه قتل محمدًا، وشاع الأمر فازداد اضطراب المسلمين وتفرُّقهم، ورجع بعضهم إلى المدينة، وانطلقت طائفة منهم فوق الجبل فاختلط على الصحابة الأمر فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة، بينما ثبت آخرون من أمثال أنس بن النضر الذي مر على قوم ممن أذهلتهم الشائعة وألقوا بسلاحهم، فقال لهم: ما يُجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: يا قوم إن كان محمد قد قُتل فإن رب محمد لم يُقتل، فقوموا وموتوا على ما مات عليه محمد-صلى الله عليه وسلم- وقال: (اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء-يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء -من المشركين- ثم لقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أحد، ثم ألقى بنفسه في أتون المعركة وقاتل حتى قتل فوجدوا فيه بضعًا وثمانين ما بين ضربة سيف أو طعنة رمح أو رمية سهم، فلم تعرفه إلا أخته ببنانه). (انظر: غزوة أحد في السيرة النبوية).

فهذا الذي رأيناه وما وصل إليه حال المسلمين في أحد وما أصابهم من هم وغم كان بسبب مخالفتهم وشؤم معصيتهم ومخالفة الرماة لأمر النبي وتقديم آرائهم على توجيهاته وأمره، وغلب حب الدنيا عليهم، فتأمل كيف وصل بهم الحال بعد أن كانت لهم الصولة والجولة على المشركين في أول الأمر، وهذا الذي صرحت به الآية الكريمة (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) يعني النصر على العدو في أول الأمر والسبب (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة).

قال الإمام الطبري في قوله سبحانه (منكم من يريد الدنيا) بعض الغنيمة، وقال ابن مسعود - رضي الله عنه- ما كنت أظن أن أحدًا من أصحاب رسول الله-صلى الله عليه وسلم- يريد الدنيا حتى نزلت فينا يوم أُحُد (مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ).

الوقفة الرابعة: مع قوله تعالى: (ثم صرفكم عنهم):

قال تعالى (ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ). قال القاسمي: (رحمه الله) في تفسيره: أي كفّكم عن المشركين حتى حالت الحال ودالت الدولة. وفيه من اللطف بالمسلمين ما لا يخفى (ليبتليكم) أي: ليجعل ذلك محنة عليكم لتتوبوا إلى الله وترجعوا إليه، وتستغفروه فيما خالفتم فيه أمره ولُمتم للغنيمة، ثم أعلمهم أنه سبحانه وتعالى عفا عنهم تفضلاً عليهم لإيمانهم (وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ) أي: في الأحوال كلها، إما بالنصرة أو بالابتلاء فإن الابتلاء فضل ولطف خفي ليتدربوا بالصبر على الشدائد، والثبات في المواطن وليتمكنوا من اليقين ويجعلوه ملكة لهم، ويتحققوا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)هـ. مختصرًا

الوقفة الخامسة: ثبات النبي صلى الله عليه وسلم:

ومع ما حدث من اضطراب بين صفوف المسلمين وهجوم المشركين المعاكس وكانوا يريدون منه القضاء على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقد ثبت الرسول في مكانه ثبات الصخر والمسلمون حوله، وقد ثبت منهم بالتحديد تسعة من أصحابه، منهم سبعة من الأنصار واستبسلوا في الدفاع عنه-صلى الله عليه وسلم- واستشهدوا واحدًا بعد الآخر، ثم قاتل عنه طلحة بن عبيد الله حتى أثخنته الجراح وأصيب بسهم فشُلّت يمينه كما أورده البخاري في صحيحه (وقاتل سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وكان يناوله النبال ويقول له: ارم سعد فداك أبي وأمي) (صحيح السيرة النبوية).

كما قاتل بين يديه أبو طلحة الأنصاري الذي كان من أشهر الرماة وهو الذي قال عنه النبي: (لصوت أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة) (المسند مع الفتح الرباني: ٢٢/٥٨٩).

وجاء في البداية والنهاية أن نسيبة بنت كعب وقفت تَذُبُّ عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- بالسيف وترمي بالقوس وأصيبت بجراح كبيرة، كما تترس أبو دجانة دون الرسول-صلى الله عليه وسلم- يحميه ببدنه يقع النبل في ظهره حتى كثر النبل وهو واقف لا يتزحزح يحمي رسول الله، والتف حول الرسول-صلى الله عليه وسلم- في هذه اللحظات العصيبة أبو بكر رضي الله عنه وأبو عبيدة بن الجراح، وقام ينزع السهمين من وجه النبي-صلى الله عليه وسلم- بأسنانه، ثم تواردت مجموعة من الأبطال الكرام من الصحابة حتى بلغوا قرابة الثلاثين يَزُودُون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم قتادة وثابت بن الدحداح وسهل بن حنيف وعمر بن الخطاب وعبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام.

واستطاع عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يرد هجومًا مضادًا قام به المشركون بقيادة خالد بن الوليد قبل إسلامه، واستبسل الصحابة الذين كانوا مع عمر في رد الهجوم العنيف، وعاد المسلمون فسيطروا على الموقف من جديد ويئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين، وانسحب النبي بمن معه ومن لحقه من أصحابه إلى أحد شعاب جبل أُحُد، وكان المسلمون في حالة من الألم والحزن والخوف والغم لما أصاب رسول الله وأصابهم حتى أنزل الله عليهم الأمنة نعاسًا فناموا يسيرًا، ثم أفاقوا مطمئنين آمنين، قال تعالى: (ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ) (آل عمران: ١٥٤).

هذا ومازلنا في بداية المعركة والعبرة بالخواتيم، فإلى لقاء قريب إن شاء الله .

الحلقة الثانية

جبل الرماة

وقفات مع غزوة أحد

(حمراء الأسد)

إعداد: عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله مالك الملك يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، والصلاة والسلام على البشير النذير محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وإخوانه من النبيين والمرسلين، وبعد:

في المقال السابق عن غزوة أُحد أطللنا عليها إطلالة عامة بيَّنَّا فيها تاريخ الغزوة، وأسبابها، ثم عشْنا مع بطولات نادرة لأبطال المسلمين في أُحد واستبسالهم في الدفاع عن النبي صلى الله عليه وسلم، ثم رأينا كيف ثبت النبيُّ صلى الله عليه وسلم ومن معه بعد ما أصابهم القرح والذي أشار إليه القرآن في قوله تعالى: «ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ» (آل عمران:١٥٢).

أولاً: وقفتنا مع هذه الآية وقفة مختصرة:

واسمحوا لي الآن أن نعيد النظر مرة أخرى مع هذه الآية المحورية في غزوة أُحد، ولعل من حكم المولى سبحانه وتعالى أن سجل في كتابه أحداث هذه الغزوة في مراحلها المختلفة، ثم تحدث عن الحِكَم العليا في هذه الغزوة والتي تحتاج إليها الأمة المسلمة في صراعها المستمر مع أعدائها حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي بداية حديث اليوم سنقف وقفة فيها مزيد من التأمل في هذه الآية لأهميتها، ثم نواصل الحديث، ونذكر نص الآية أولاً؛ قال تعالى: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» (آل عمران:١٥٢)، وبالنظرة المتأملة في هذه الآية الكريمة نلاحظ أنها بيَّنت مصدر النصر وأسبابه وموانعه، أو قل أسباب الهزيمة وتأخر النصر.

أما مصدر النصر فهو من عند الله، وقد أشارت الآية إلى ذلك بوضوح؛ حيث قال الله: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ» (آل عمران:١٥٢) أي: بالنصر على أعدائكم، والدليل هو ما حدث في أول المعركة «إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ» (آل عمران:١٥٢) أي: تحصدونهم قتلاً كما تحصدون الزرع، وهذا الذي حدث كان (بإذنه)؛ أي: بإذن الله سبحانه مكَّنكم من أكتافهم ورقابهم؛ وذلك لأن النصر لا مصدر له إلا الله، ولذلك قال الله تعالى: «وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» (آل

عمران:١٢٦)، وقال تعالى: «أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ» (الملك:٢٠)، وقال تعالى: «إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ» (آل عمران:١٦٠). فهو سبحانه الذي ينصر من يشاء ويخذل من يشاء، وكما أن للنصر أسبابه فالخذلان أيضًا له أسبابه، وتأمل كيف بَيَّن الله ذلك، قال تعالى: «إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ» (آل عمران:١٥٢)؛ أراكم ما تحبون من النصر في بادئ الأمر وقبل الفشل والنزاع والمعصية وهي مخالفة الرماة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر قائدهم والاختلاف عليه، وكانت النتيجة «صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ» (آل عمران:١٥٢)، فالله سبحانه هو الذي أراكم ما تحبون وهو الذي صرفكم عنهم، وهذا العطاء والمنع خاضع لحكمة العليم الحكيم- سبحانه- والحكمة الواضحة في أسباب المنع والخذلان هي الفشل والتنازع في الأمر والمعصية، وقد أشار القرآن الكريم بوضوح إلى أسباب النصر والخذلان في سورة الأنفال حين قال سبحانه: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» (الأنفال:٤٥- ٤٧)، وهذا مبسوط في كتاب الله في أكثر من موضع.

والخلاصة أن الله سبحانه يمنح نصره لمن يشاء من عباده بأسبابه ويمنعه ممن يشاء أيضًا بأسبابه، ولقد لخص الله سبحانه وتعالى ذلك في آية أخرى بقوله: «أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ» (آل عمران:١٦٥)، لما تساءل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن سبب ما أصابهم في أحُد وقالوا: «أنَّى هذا» كيف هذا؟ بيَّن لهم العلَّة والسبب فقال: «هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ» (آل عمران:١٦٥) أي: بسبب مخالفتكم ومعصيتكم، وأنا أتساءل: إذا كان بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قد خالفوا أمرًا واحدًا له فأصابهم ما أصابهم؟ فكم بالمخالفات التي وقع فيها المسلمون في العصور المتأخرة إلى يومنا هذا؟! وكم من العقوبات يجب أن تقع عليهم؟!

وقد أرجع الله سبب الفشل والتنازع إلى سبب واحد في قوله تعالى: «مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ» (آل عمران:١٥٢)، وإذا كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الأبرار من وقع عليهم هذا الوصف، «وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ» (آل عمران:١٥٢)، فكم من المسلمين اليوم يقع عليهم هذا الوصف مثل بعض الرماة الذين وقع عليهم هذا الوصف؛ لأنهم انشغلوا بجمع الغنائم وتركوا مواقعهم فما حال المسلمين اليوم؟ أصدق ما يوضح حال المسلمين في العصور المتأخرة هو قول النبي صلى الله عليه وسلم عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله «: «يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: ومن قلة يومئذ؟ قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن. قالوا: ما الوهن؟ قال: حبّ الدنيا وكراهية الموت». والحديث أخرجه أبو داود وأحمد وغيرهما، وصححه الإمام الألباني في السلسلة الصحيحة.

فالمسلمون اليوم انغمسوا في الدنيا وأُشربوها في قلوبهم، إلا من رحم الله، وهذا من أهم أسباب ضعفهم وهوانهم.

وأوضاع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لا تخفى على أحد ولا تحتاج مني إلى مزيد بيان، والحل واضح هو العودة إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهدي السلف الصالح الأبرار.

ثانيًا: الأمور بخواتيمها والعبرة بالنهايات:

حقَّق المشركون نصرًا خاطفًا في أُحُد ثم قفلوا عائدين إلى مكة أرسل النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد الغزوة مباشرة لمعرفة اتجاه القوم

ووجهتهم، فقال له اخرج في آثار القوم، وانظر ماذا يصنعون، وماذا يريدون فإن كانوا جنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم، قال علي: فخرجت في أثرهم ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل. هكذا نقل صاحب البداية والنهاية.

وبعد عودة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة باتوا ليلتهم يحرسون مداخل المدينة، وكانوا على خوف من عودة المشركين إلى المدينة مرة أخرى، قال صاحب الرحيق المختوم: "بات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يفكر في الموقف، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا في أنهم لم يستفيدوا شيئًا من النصر والغلبة التي كسبوها في ساحة القتال، وهذا ما حدث حقًا لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة أخذوا يتلاومون، قال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئًا، وقال أبو سفيان: لا محمدًا قتلتم ولا الكواعب أردفتم، شر ما صنعتم، وعندما سمع النبي صلى الله عليه وسلم ما كانت تعزم عليه قريش من العودة إلى المدينة خرج بمن حضره من المسلمين يوم أحُد دون غيرهم إلى حمراء الأسد.

قال ابن إسحاق: «كان أُحُد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد يوم الأحد سادس عشر من شوال: أذَّن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس يطلب العدو، وأن لا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس. وقد استجاب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم للخروج ومنهم الذين أصيبوا بالجروح، وسار النبي صلى الله عليه وسلم وسار المسلمون معه حتى وصلوا حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة، وهناك أقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن إسلامه، فأمره الرسول صلى الله عليه وسلم أن يلحق أبا سفيان ويخذّله عن المسلمين، وكان أبو سفيان لم يعلم بإسلامه، وقبل أن يتحرك أبو سفيان من مكانه بجيشه عازمًا على العودة إلى المدينة لحقه معبد الخزاعي، فقال أبو سفيان: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد اجتمع ومن معه يطلبكم في جَمْع لم أرَ له مثيلاً من قبل يتحرقون عليكم تحريقًا، وقد اجتمع من كان معه ومن تخلف عنه في يومكم وندموا على ما ضيعوا، قال أبو سفيان: ويحك ما تقول؟ قال معبد: والله ما أرى أن ترحل حتى ترى نواصي الخيل- أو- حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة، وحينئذٍ انهارت عزائم الجيش المكي.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه قد عسكر قريبًا من جيش المشركين، وأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يشعلوا نارًا فكانوا يشعلون في وقت واحد خمسمائة نارًا، ومما لا شك فيه أن غزوة حمراء الأسد ليست غزوة مستقلة، وإنما هي جزء من غزوة أُحُد، وتتمة لها وصفحة من صفحاتها.

ومكث المسلمون في حمراء الأسد أيامًا حتى تأكدوا من عودة الجيش المكي أدراجه ثم عادوا إلى المدينة بروح قوية متوثبة غسلت عار ما أصابهم ومسحت مغبة الفشل فدخلوها أعزة رفيعي الجانب، متعالين عما حققه المشركون، وأحبطوا شماتة اليهود والمنافقين، وقد سجل القرآن الكريم هذا الموقف في قوله تعالى: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» (آل عمران:١٧٣-١٧٥)، اللهم اجعلنا منهم،

والى اللقاء إن شاء الله تعالى.

الحلقة الثالثة

جبل الرماة

غزوة أُحُد

(دروس وعبر)

إعداد: عبد الرزاق السيد عيد

الحمد لله وحده؛ صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ورسول الله إلى الخلق أجمعين، وبعدُ:

في اللقاء السابق وقفنا على ختام غزوة أُحُد، وخصوصًا إذا ما اعتبرنا غزوة «حمراء الأسد» متمِّمة لغزوة أُحُد وخاتمة لها، وهذا ما اعتبره كثيرٌ من المؤرخين، وهذا الأمر يبدو طبيعيًا ومنطقيًا، وقد ذكر ابن إسحاق رحمه الله أن غزوة أُحُد قد عاد الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون منها يوم السبت من نصف شوال، وفي يوم الأحد التالي أذَّن مؤذن رسول الله بطلب العدو وألا يخرج معنا إلا مَن حضر بالأمس، فخرجوا كما وصفهم الله سبحانه: «ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» (آل عمران:١٧٢- ١٧٥).

وهذه الآيات تُعتبر ختامًا مناسبًا لغزوة أُحُد؛ فالأعداء عادوا أدراجهم ولم يحققوا شيئًا من أهدافهم التي خرجوا من أجلها أساسًا، نعم استطاعوا إصابة المسلمين بجراح عميقة بسبب إهمال الرماة، لكنهم في طريق عودتهم إلى مكة وعندما راجعوا أنفسهم وهم في الروحاء، وهو مكان على مسافة ما يقرب من سبعين كم من المدينة يُسمى (بئر الروحاء)، وهناك راجعوا أنفسهم وأدركوا أنهم لم يُحققوا ما خرجوا من أجله، وعندما فكروا في العودة إلى المدينة كان الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من الصحابة الكرام لهم بالمرصاد، وتمسك المسلمون بحبل الله واعتمدوا عليه، ولم يستجيبوا لوساوس الشيطان وأوليائه في تخويفهم من المشركين، وأصروا على المضي لملاقاة أعداء الله مع ما أصابهم من قرح.

وبهذا الختام عرَّفهم الله فيه نعمته عليهم ورحمته بهم وعفوه عنهم؛ حيث عادوا إلى ربهم تائبين منيبين؛ فكان الله سبحانه هو حسبهم ونعم الوكيل.

ونحن بعون الله وتوفيقه سنحاول استخلاص بعض الدروس والعبر المهمة من غزوة أُحد وما أكثرها وما أحوجنا إليها!، وهذه الدروس والعبر العظيمة قد تناولها القرآن الكريم في أكثر من خمسين آية متوالية في سورة آل عمران كما تناولها في مواضع أخرى متفرقة، ولذلك سيكون مرجعنا في تناول هذه الفوائد والحكم العالية والحقائق الإيمانية العظيمة هو القرآن الكريم، من السياق الأساس في سورة آل عمران، وقد بدأت السورة الكريمة الحديث المباشر عن غزوة أُحد من قوله تعالى: « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » (آل عمران:١٢١)، وختمت السورة المباركة بالحديث المباشر عن الغزوة عند قوله تعالى: « مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ » (آل عمران:١٧٩)، وفي هذه الآية الختامية تلخيص لحِكَم عظيمة جاءت في ثنايا الحديث على مدار الآيات؛ فلنحاول بفضل الله اكتشاف ما يوفقنا الله إليه:

أولاً: بناء المجتمع على العقيدة الصحيحة والطهارة في مصدر المال وهو عصب الحياة، ثم تربيته على الاستعداد للآخرة وبذل المال في السراء والضراء والإحسان في معاملة الخالق والمخلوقين، وهذا ما تضمنته الآيات من (١٣٠) إلى (١٣٦) من السورة، والتي جاءت بين الآيات التي تتحدث عن غزوة أُحد والتي لا يشك متدبِّر لآيات الله أنها جاءت وسط آيات غزوة أُحد لهدف عظيم وحكمة سامية؛ ألا وهي تربية المجتمع على هذه الأسس الإيمانية والقواعد الأخلاقية النابعة من تقوى الله وطاعة الله ورسوله؛ لأن المجتمع وهو (الجبهة الداخلية) بمصطلح العصر الحديث هو العمق الاستراتيجي للجيش المقاتل؛ فإن كان هذا المجتمع متآلفًا ومتماسكًا كان سندًا للجيش المقاتل على الجبهة، ومن هذا المجتمع المتكافل المتماسك والمستمسك بحبل الله والمعتصم به سبحانه تخرج الفئة المجاهدة والمتصفة بأسباب النصر.

ثانيًا: الأسس الإيمانية للنصر:

بعد الآيات التي وجهت المجتمع المسلم إلى تقوى الله والرغبة فيما عند الله، وترك الربا بجميع أشكاله، والتوبة النصوح من جميع الذنوب صغيرها وكبيرها، وترك الإصرار على المعصية.

ذلك لأن المسلمين ليسوا ملائكة؛ إنهم بشر يصيبون ويخطئون، لكن المتقين إذا مسَّهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون، وقد وصف الله المتقين هنا في هذه الآيات بأنهم قد يقعون في ذنب كبير أو صغير؛ وأنهم إن فعلوا ذلك ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم؛ لأنهم يعلمون أن الله سبحانه هو الذي يغفر الذنب ويقبل التوب، فالفرق بين المتقي وغيره أن المتقي لا يصر على الذنب ويبادر بالتوب، وغير المتقي ليس كذلك بل يصر على ذنبه، وقد يعلنه على الملأ.

ثم عاد السياق القرآني مرة أخرى للحديث عن غزوة أُحد والدروس المستفادة منها، فهذا هدف أساس من أهداف القرآن الكريم حين يوثق أحداث أُحد بهذه الدقة؛ فالأحداث تمر ولا يتعلم منها إلا من

حضرها، لكن حين يوثّقها القرآن ويُعقب عليها ويستخلص منها الدروس والعبر فإن الأمة بأسرها تنتفع بها على مرّ الأجيال؛ ما دام القرآن يُتلى وينتفع به المتقون في كل زمان ومكان، ولذلك قال الله عز وجل: «هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ» (آل عمران:١٣٨).

ثالثًا: مواساة المسلمين بعد أُحُد ووعدهم بالنصر بشرطه:

قال الله تعالى: «وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» (آل عمران:١٣٩)، قال صاحب تفسير الوسيط: « وقوله: «إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» جملة شرطية، وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. أي: إن كنتم مؤمنين حقًا فلا تهنوا ولا تحزنوا بل اعتبروا بمن سبقكم ولا تعودوا لما وقعتم فيه من أخطاء فإن الإيمان يوجب قوة القلب، وصدق العزيمة، والصمود في وجه الأعداء، والإصرار على قتالهم حتى تكون كلمة الله هي العليا». ثم قال: «إن كنتم مؤمنين حقًا فاتركوا الوهن والحزن وجدوا في قتال أعدائكم، فإن سُنة الله في خلقه اقتضت أن تصيبوا من أعدائكم وأن تُصابوا منهم؛ إلا أن العاقبة ستكون لكم». اهـ.

وبعد بيان هذه الحقيقة الإيمانية الثابتة اتجهت الآيات الكريمة إلى الحديث عن بعض السنن الإلهية وكشف اللثام عن الحِكَم العليا الكامنة فيها بوجه عام، وعما وقع في أُحُد على وجه الخصوص.

رابعًا: بعض السنن الإلهية والحكم الكامنة فيها عمومًا وفي أُحُد خصوصًا:

قال الله تعالى: « قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ» (آل عمران:١٣٧). قال الشيخ السعدي: « هذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة "أحد" يعزّي تعالى عباده المؤمنين ويسلّيهم، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة، امتُحنُوا، وابتُلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا في مداولة ومجاولة، حتى جعل الله العاقبة للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين، وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم. «فسيروا في الأرض» بأبدانكم وقلوبكم «فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم». اهـ.

وقد أشارت الآيات الكريمة إلى بعض هذه السنن والحكمة منها كما يلي:

١- سنة التداول، أو: (المداولة):

قال الله تعالى: «إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ» (آل عمران:١٤٠)، وهكذا يبين الله سبحانه وتعالى سُنة التداول بين الناس، فما أصاب المؤمنين في أُحُد من قرح قد أصاب أعداءهم مثله وزيادة في بدر مع الفارق في موقف الفريقين، كما قال الله تعالى: « وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا » (النساء:١٠٤).

فالمسلم يرجو إحدى الحسنين؛ النصر، أو الشهادة، أما غيره فلا يريد إلا الدنيا.

ومن حكَم المداولة أيضًا أنه يظهر بها الفرق بين المؤمن الصادق والمنافق، قال الله تعالى: «وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا » (آل عمران:١٦٦، ١٦٧)، وقد ظهر ذلك في أُحُد بجلاء فانسحب ابن سلول ومن معه من المنافقين وكانوا يمثلون ثلث الجيش، وثبت المؤمنون الصادقون في الدفاع عن رسولهم ودينهم حتى خرجوا في اليوم التالي من

بعد ما أصابهم القرح لملاحقة المشركين وهم في طريقهم إلى مكة، ولو كان النصر دائمًا حليف المؤمنين لما انكشف للعيان حقيقة النفاق كما ظهرت يوم أُحد، كما أنه من سنة التداول وما يصيب المؤمنين من جراح وقتل يكون سببًا في اتخاذ الله شهداء من المؤمنين تكون لهم المكانة العالية عند الله؛ لأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ووعدهم الجنة، كما قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ» (التوبة:١١١).

٢- سنة التدافع وسنة الابتلاء:

ولقد قرنت بينهما؛ لأنهما سُنَّتان قد يكونان مفترقتين في مجال مواجهة الأعداء في موطن القتال، قال الله تعالى: «وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ» (محمد:٤)؛ فالله سبحانه قادر على إهلاك الكافرين والظالمين بغير مواجهة مع المؤمنين؛ لأن الله سبحانه له جنود السماوات والأرض، وقد أهلك قوم نوح بالطوفان، وأهلك فرعون وجنده بالغرق، وخسف بقارون الأرض، وأهلك قوم عاد بريح صرصر عاتية، وأهلك ثمود بالصيحة، وهكذا لو شاء الله أهلك من في الأرض كلهم جميعًا وما ذلك عليه بعزيز، لكن من حكمته أن جعل التدافع في الأرض بين الناس من أسباب إصلاح الأرض، قال الله تعالى: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ» (البقرة:٢٥١)، وقال تعالى: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ» (الحج:٤٠-٤١).

فالقتال في الإسلام ليس من أجل مكسب دنيوي عاجل أو لكسب أرض أو الحصول على غنائم عاجلة أو تحقيق توسع واحتلال أرض أو للحصول على الطاقة، وغير ذلك. بل من أهم أهداف القتال في الإسلام هو حماية الدين وحفظ شعائره، والأماكن التي تقام فيها الشعائر ودفع المفسدين في الأرض الذين يتسلطون على العباد وينتهكون الأعراض، ويغتصبون الأموال ويصدون الناس عن السبيل، ولهذا كتبه الله على المسلمين وبيَّن الحكمة في ذلك، فقال الله تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (البقرة:٢١٦).

النفس البشرية بالفطرة تكره المشقة والتعب والتضحية بالنفس والمال وبخاصة إن لم يكن هناك مغنم قريب يتحقق كالحصول على مال أو سلطان، لكن القتال في سبيل الله ليس له هدف منظور قريب، فقد يضحي الإنسان بنفسه وماله ولا يحصل على مكسب قريب إلا إذا كان صادقا في إيمانه بوعد الله وكانت غايته الجنة، وبهذا وصف الله الصادقين في إيمانهم، فقال سبحانه: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ» (الحجرات:١٥).

وهنا نكتفي بهذا القدر من الفوائد التي يسرها الله تعالى لنا، وما خفي علينا أعظم مما ذكرنا، ويناسب أن نختم بما ختم الله به في قوله تعالى: «مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ» (آل عمران:١٧٩) أي: حققوا الإيمان.

وإلى لقاء مع حدث آخر من الأحداث الهامة في حياة الأمة